هنري ميللر

بليكسوس

ثلاثية "الصلب الوردي"

(٢)



ترجمة
أسامة منزلجي





Author: Henry Miller
Title : Plexus
(The rosy crucifixion2)
Translator:Osama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2002

اسم المؤلف : هنري ميللر
عنوان الكتاب : بليكسوس
ثلاثية الصلب الوردي٢
المترجم : أسامة منزلجي
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٢

دار المدى للثقافة والنشر

سورية – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

هنري ميللر

بليكسوس

ثلاثية " الصَلْب الوردي"

الجزء الثاني

ترجمة
أسامة منزلجي



١

بدتْ، وهي بثوبها الحريري الفارسي الضيِّق، والعمامة المتناسقة معه، فاتنة. كان الربيع قد حلَّ وقد لبست قفّازاً طويلاً وتدلّى بإهمالٍ من جيدها الرخاميّ الممتلئ فرٌ جميل رمادي اللون داكن. وكنا قد انتقينا مرتفعات بروكلن لنفتِّش فيها عن شقة. واضعَين في حسباننا أن نبتعد قدر إمكاننا عن كلّ مَنْ نعرف، خاصة عن كرونسكي وآرثر ريموند. وكان ألريك هو الوحيد الذي نوينا أن نعطيه عنواننا الجديد. لقد كانت بالنسبة إلينا "vita nuova" (حياة جديدة)، متحرِّرة من تدخُّلات العالم الخارجي.

في اليوم الذي انطلقنا للبحث عن عش حبنا الصغير كنا سعيدَين سعادة لا توصف. وفي كل مرة كنا ندخل إلى ردهة أحد المنازل ونضغط على جرس الباب كنت أحيطها بذراعيّ وأقبِّلها مراراً وتكراراً. كان ثوبها مُحكَماً عليها كغمدٍ، ولم تكن قد بدت شهيّة بذاك القدر من قبل. وأحياناً كان الباب بُفتَح علينا قبل أن يُتاحَ لنا أن نتباعد. وفي أحيانٍ أخرى كان يُطلَب منا أن نقدِّم خاتم الزواج أو وثيقة زواج.

قُرابة المساء قابلنا امرأةً جنوبيّة عطوفاً، واسعة الأفق بدا أنها أولعت بنا على الفور. كان المنزل الذي تنوي تأجيره مذهلاً، لكن تكاليفه

كانت تفوق مواردنا. وطبعاً أصرَّت مونا على الحصول عليه؛ فقد كان بالضبط النوع الذي طالما حلُمَتْ بالعيش فيه. ولم يزعجها كون مقدار الإيجار هو ضعف ما كنا ننوي أن ندفعه. وكان عليَّ أن أدع كل شيء لها - سوف "تدبِّر" الأمر. والحقيقة هي أني كنت أرغب في الحصول على المكان بقدر رغبتها، ولكن لم تكن لدي أوهام بشأن "تدبير" مبلغ الإيجار. كنت مقتنعاً بأننا إذا حصلنا عليه فسوف نغرق.

طبعاً المرأة التي كنا نتعامل معها لم تشكُّ في أننا مغامرة خاسرة. كنا نجلس بكل ارتياح في شقتها في الطابق العلوي ونرتشف الشيري. وللتو حضر زوجها. هو أيضاً بدا أنه وجدنا زوجاً متجانساً. كان من ولاية فرجينيا، وجنتلمن بكل معنى الكلمة. وكان لتأثير موقعي في العالم الشيطاني الكوني وَقْع حسنٌ جداً عليهما. وعبَّرا عن ذهولهما الصادق لكون شاب يافع مثلي يشغل منصباً محترماً كهذا. ولا شك في أن مونا قد أكَّدت على ذلك لأنّه يستحق. ولو سمعتها وهي تتكلَّم لحسبت أني أوشك أن أحصل على وظيفة مراقب، وأني خلال بضع سنوات أُخَر سأصبح نائباً للرئيس. وقالت " أليس هذا ما قاله لك السيد تويليغر؟ "، وهي تجبرني على أن أومئ بالإيجاب.

زبدة القول كان علينا أن نضع وديعة، فقط عشرة دولارات، بدت تافهة قليلاً أمام قيمة الإيجار الذي بلغ تسعين دولاراً في الشهر. أما كيف سندبِّر أمر موازنة إيجار الشهر الأول ذاك فلم تكن لدي أدنى فكرة. واعتبرتُ وديعة العشرة دولارات كمبلغٍ ضائع. إنها مجرَّد إيماءة حلاقة ذقن، لا أكثر. وكنت واثقاً من أن مونا سوف تغيِّر رأيها حالما نتخلَّص من قبضتهما المتملِّقة.

لكني كنت على خطأ، كالمعتاد. فقد أصرَّت على الانتقال إليه. وماذا عن الثمانين دولاراً الأخرى؟ سوف نحصل عليها من أحد معجبيها المخلصين، وهو موظف استقبال في فندق بروزتل. وغامرتُ بسؤالها بما أني لم أكن قد سمعت باسمه من قبل، " ومَنْ يكون هذا؟ ". " ألا تذكُر؟ لقد قدَّمتُه إليك قبل أسبوعين فقط - حين قابلتمانا أنت وألريك في الجادة الخامسة. إنه وديع جداً "

يبدو أنهم جميعاً كانوا " وديعين جداً ". فتلك كانت طريقتها في إبلاغي أنهم لن يفكروا أبداً في إحراجها بالاقتراح عليها أن تمضي ليلة معهم. إنهم جميعاً " جنتلمانات "، وهم في العادة حمقى حتى أخمص أقدامهم. وقد بذلتُ جهداً مضنياً وأنا أحاول أن أتذكَّر وجه ذلك الأخرق. وكل ما استطعت أن أتذكره هو أنه كان فتى ويميل إلى الشحوب. باختصار، هو عصيٌّ على الوصف. وكنت أجهل تماماً كيف كانت تنجح في منع أولئك العشاق الفاتنين من التردد عليها، على رغم اتِّقاد بعضهم وعنف اندفاعه. ولا شك في أنها، وكما فعلت معي ذات مرة، جعلتهم يعتقدون أنَّها تقطن مع والديها، وأنَّ أمها ساحرة وأنَّ والدها طريح الفراش، يعاني سكرات الموت من السرطان. ولحسن الحظ أني نادراً ما أوليت كبيرَ اهتمام بأولئك المتودِّدين الفاتنين. (كنت دائماً أقول لنفسي، الأفضل ألاَّ تفرط في التركيز على الموضوع). وكان أهم ما يجب وضعه في الحسبان أنهم - " وديعون تماماً ".

على الإنسان أن يكون لديه ما هو أكثر من مبلغ الإيجار لكي يؤسِّس بيتاً. وقد اكتشفتُ طبعاً أنَّ مونا قد فكَّرتْ في كل شيء. لقد انتزعت مبلغ ثلاثمائة دولار من الأحمق المسكين. وكانت قد طلبت

خمسمائة لكنه احتجّ وقال إن رصيده في البنك أشرفَ على النفاد. وبسبب فرط إسرافه أجبرته على أن يشتري لها ثوباً فلأحياً غريب الشكل وحذاءً غالي الثمن. وهذا سيلقِّنه درساً!

لما كانت مضطرة إلى الذهاب لأداء البروفة بعد ظهر ذلك اليوم قرَّرتُ أن أنتقي الأثاث وأشياء أخرى بنفسي. وبدت لي فكرة أن أدفع ثمن تلك الأغراض تقداً، في حين أنَّ الأساس الذي يقوم عليه بلدنا هو نظام الدفع بالتقسيط، فكرة حمقاء. وعلى الفور خطرت على بالي دولوريس، التي كانت تعمل حينئذ مشترية لصالح أحد المخازن التنويعية في شارع فلتن. وكنت واثقاً من أن دولوريس ستعتني بي.

استغرق معي الأمر أقلّ من نصف ساعة لأنتقي كل ما يلزم لفرش عش حبنا المترف. انتقيت بذوقٍ وتعقُّل، دون أن أنسى أن أضيف طاولة مكتب أنيقة تحتوي على أدراج كثيرة. ولم تقو دولوريس على إخفاء قدرٍ من القلق حول قدرتنا على تسديد الدفعات الشهرية، لكنني تغلَّبتُ على ذلك بطمأنتها بأنَّ عمل مونا يسير على أحسن ما يرام في المسرح. ثم أما أزالُ أنا أعملُ في الماخور الكوني المتعضّي؟

وغمغمَتْ " نعم، ولكن هناك النفقة "

أجبتُها وأنا أبتسم، " أوه ذاك! لن يطول أمر دفعي ذلك المبلغ كثيراً"

" أتعني أنك ستتخلّى عنها ؟ "

اعترفتُ " شيء من هذا القبيل. لا يمكنني أن أظلَّ أحتفظ بحجر الرحى معلّقاً حول عنقي إلى الأبد، أليس كذلك؟ "

رأتْ أنَّ هذا التصرُّف متوقَّعٌ مني، وأنا ابن حرام. وعلى أي حال لقد قالت هذا وكأنها تعتقد أنَّ أولاد الحرام هم قومٌ لذيذون. وعند افتراقنا أضافت قائلة: " أعتقد أني يجب أن أتعلم ألاّ أثق بك "

قلت " تت. تت! إذا لم تدفعي فسيُطالبون باسترجاع الأثاث. فلم القلق؟ "

قالت " إنني لا أفكر في المخزن؛ أنا أفكِّر في نفسي "

" هيا، هيا! لن أخذلك، وأنت تعلمين ذلك "

وطبعاً خذلتُها فعلاً، ولكن دون قصد. وفي ذلك الوقت، على رغم هواجسي الأوّليّة، آمنت بحقّ وبصدق بأنَّ كل شيء سيسير على ما يرام. وحين كنت أغدو ضحية ريبةٍ أو يأسٍ كنت دائماً أعتمدُ على مونا في إعطائي حقنة تحت الجلد. لقد كانت مونا تعيش بكلِّيتها في المستقبل، أما الماضي فهو حلمٌ رائع وكانت تحرِّفه على هواها، والمرء لا يستخلص أية نتائج من الماضي - فتلك طريقة لا يمكن الاعتماد عليها بأي حال لتقدير الأمور. وما دام الماضي يعني الفشل والإحباط فهو غير موجود.

تآلفنا تآلفاً تاماً مع شقّتنا الجديدة المذهلة على الفور. وعلمنا أنَّ المنزل كان يملكه في السابق قاض ثري وقد أعاد بناءه ليوافق هواه، ولابد أنه كان يتمتّع بذوقٍ رفيع، ويحب الترف. كانت الأرضيات من خشب الحفر والتنزيل، وألواح الجدران من خشب الجوز النفيس؛ وثمة مفارش من الحرير الوردي اللون وخزائن للكتب رحبة إلى حد أنه يمكن تحويلها إلى أسرَّة جدارية للنوم. شغلنا القسم الأمامي من الطابق الأول، وكنا نشرف على القطاع الأكثر رزانة وأرستقراطيّة في بروكلن كله. كان جيراننا كلهم لديهم سيارات ليموزين، وسُقاة، وكلاب وقطط غالية الثمن كانت وجبات طعامها تسيل لعابنا. وكان منزلنا هو المنزل الوحيد في العمارة الذي جُزِّئَ إلى شقق.

خلف غرفتنا، ويفصلها عنا بابٌ دوَّار، كانت غرفة واحدة شاسعة أضيف إليها مطبخ صغير وحمَّام. ولسبب ما بقيت دون ساكن. لعلها

كانت شديدة الشبه بالدير. كان جوّها في أغلب أوقات النهار، وبسبب زجاج نوافذها الملوَّن، تغلُبْ عليه الكآبة، أو ربما الأصحّ أن أقول - الخمود. ولكن حين تسطع شمس الأصيل على النوافذ، وهي ترمي بأشكالها النيرانيّة على الأرضية الصقيلة بامتياز، كنت أستمتع بالتمشّي هناك رواحاً ومجيئاً وأنا في مزاجٍ تأمُّلي. وأحياناً كنا نتعرّى ونروح نرقص هناك، مبدين إعجابنا بالأشكال المبهجة التي يشكِّلها الزجاج الملوَّن على جسدينا العاريين. وكنت وأنا في مزاجٍ أكثر إثارة أنتعلُ خفّاً زلاّقاً وأقوم بتقليد نجم الانزلاق على الجليد، أو أسير على يديّ وأنا أغني بصوت عالي النبرة. وأحياناً، بعد أن أجرع بعض كؤوس من الخمر، أحاول أن أكرر الحركات الغريبة لمهرِّجيَ المفضَّلين من مسرح المنوعات الخفيفة.

الأشهر القليلة الأولى، التي كانت حاجاتنا كلها خلالها تشبع بفضل العناية الإلهية، كانت ببساطة رائعة. ولا كلمة أخرى تُقال في وصفها. لم يكن أحد يدخل علينا هكذا دون سابق إنذار. كان يعيش كل منا لأجل الآخر - في عشٍ دافئ، رخيّ. ولم نكن بحاجة إلى أحد، ولا حتى إلى الله العليّ. أو هذا ما اعتقدناه. كانت مكتبة شارع مونتيغيو العامة الرائعة، وهي مكان أشبه بمشرحة لكنها ملآى بالكنوز، قريبة منا. وبينما تكون مونا في المسرح أمضي أنا الوقت في القراءة. كنت أقرأ كل ما يسرُّ خاطري، وبوعي مضاعف. وفي كثير من الأحيان كانت القراءة مستحيلة - فالمكان كان ببساطة فائق الروعة. وأراني أغلق الكتاب مرة أخرى، وأنهض ببطء عن الكرسي، وأروح أتجوَّل بمزاجٍ رائقٍ متأمِّلٍ متنقِّلاً من غرفة إلى أخرى، وأنا ممتلئ برضى تام. لقد كنت بحق

لا أرغب في أي شيء آخر، غير غزارة متواصلة، لا يقطعها شيء، من الحالة نفسها. كان كل ما أملك، وكل ما أستخدم، وكل ما أرتدي، هو منحةٌ من مونا: برنس الحمّام الحريري، الذي يليق أكثر بمعبود نساء أكثر مما يليق بمحسوبك، والخفّ المراكشي الجميل، وحامل سجائر لم أكن أستخدمه قط إلاّ في حضورها. وحين كنت أنفض الرماد في المنفضة كنت أنحني فوقها لأُبدي إعجابي بها. وكانت قد ابتاعت ثلاثاً منها. وكل منها فريدٌ من نوعه، غريب الشكل، وممتاز. كانت رائعة الجمال، ونفيسة أثيرة، حتى كدنا نعبدها.

الحي نفسه كان متميّزاً. كانت أي نزهة قصيرة في أي اتجاه توصلني إلى مناطق غاية في التنوُّع: إلى المنطقة الرائعة تحت التكوين الشبكي لجسر بروكلن؛ إلى مواقع المعدّيات القديمة حيث تجمُّع العرب، والأتراك، والسوريون، واليونانيون وأقوام أخرى من الشرق؛ وإلى أحواض للسفن وأرصفة التحميل والإفراغ حيث ترسو سفن بخارية من كل أنحاء العالم؛ وإلى المركز التجاري بالقرب من بورو هول، وهي منطقة تبدو خلال الليل كمشهدٍ وهميّ خياليّ. وفي قلب مرتفعات كولومبيا هذه تنهض كنائس قديمة ضخمة، ونوادٍ، ومنازل فخمة للأغنياء وكلها تشكِّل جزءاً من لبّ عتيقٍ، صلبٍ تنخره بالتدريج حشودٌ غفيرة مُغيرة من الأجانب، والمنبوذين، والمشرّدين من خارج المنطقة.

حين كنت فتى صغيراً كثيراً ما كنت آتي إلى هنا لأزور عمتي التي كانت تقطن فوق إسطبل ملحق بأحد أقبح المنازل العتيقة، وعلى مبعدة قليلة، في شارع ساكت، كان يقطن ذات يوم صديقي القديم آل برغر، الذي كان والده ربان زورق قطر. وحين قابلت آل برغر للمرة الأولى كنت

في الخامسة عشرة من عمري - كنا على ضفاف نهر نيفرسنك. وهو الذي علّمني كيف أسبح كسمكة، وأغطس في مياه ضحلة، وأصارع على الطريقة الهندية، وأرمي بالقوس والنشاب، وأستخدم يديّ، وأجري دون أن أتعب، وما إلى ذلك. وكان أهل آل من الألمان، والغريب في الأمر أنهم جميعاً كانوا يتمتعون بروح فكاهية، كلهم ما عدا أخيه جيم، وكان رياضياً، وغندوراً، وتافهاً، وأحمق غبياً. غير أنهم، وخلافاً لأسلافهم، كانوا يسكنون منزلاً مهملاً قذراً بصورة مشينة، ويبدو أنَّ كلاً منهم سار في الطريق التي تروق له. وكانت هناك أيضاً أختان، وكل منهما جميلة، وأمُّ تصرفاتها تنمُّ عن فسق لكنها أيضاً جميلة، والأكثر من ذلك، مرحة جداً، متراخية جداً، وكريمة جداً. وقد كانت ذات يوم مغنية أوبرا. أما عن الأب، " الربان "، فنادراً ما كان يُشاهَد. وحين يظهر يكون عادة مخموراً. ولا أذكر مطلقاً أنَّ الأمَ طبخت لنا مرة أي وجبة محترمة. وحين كنا نجوع ترمي لنا ببعض الفكّة وتقول لنا أن نذهب ونتبضّع شيئاً لأنفسنا. وكنا دائماً نشتري المؤونة اللعينة نفسها - سجق فرانكفورت، وسلطة البطاطا، ومخللات، وفطير وكعك محلّي. وكانوا يستخدمون الكاتشب والخردل بوفرة. وكانت القهوة دائماً خفيفة مثل ماء غسل الصحون، والحليبُ بائت، ولا تجد أبداً صحناً، أو كأساً، أو سكيناً أو شوكة نظيفة في المنزل. غير أنها كانت وجبات يسودها المرح وكنا نأكل كالذئاب.

إنَّ حياة الشوارع هي التي أحمل لها أفضل ذكرى وهي التي استمتعت بها أكثر من استمتاعي بأي شيء آخر. وكان أصدقاء آل يبدون وكأنهم ينتمون إلى ضربٍ من الفتيان يختلف عن الذين كنت

أعرفهم. وفي شارع ساكت كان يسود دفء أكثر، حرية أكبر، وحسن ضيافة أعظم. وعلى الرغم من أنهم كانوا في مثل سني تقريباً، فإن أصدقاءه أعطوني انطباعاً بأنهم أرشد، وأكثر استقلالاً. وكنت كلما فارقتهم انتابني دائماً إحساس بأني أضحيت أكثر غنى. وكونهم من المنطقة المواجهة للشاطئ، وأن عائلاتهم عاشت هنا منذ أجيال طويلة، وأنهم مجموعة أكثر تجانساً منا، ربما كانت له علاقة بالمواصفات التي حبَّبتني بهم. وكان بينهم واحد ما أزال أذكره بحيوية، على الرغم من أنه قد توفي منذ زمن بعيد. إنه فرانك شوفيلد. حين تقابلنا كان فرانك فقط في السابعة عشرة، وحجمه بحجم رجل بالغ. وحين أعود بذاكرتي إلى صداقتنا الغريبة لا أرى أنه كان هناك أي شيء مشترك بيننا. وما جذبني إليه كان سلوكه الطبيعي، المستريح، المرح، ومرونته التامة، وقبوله غير المشروط لكل ما يُعرَض عليه، سواء أكان سجقَ فرانكفورت البارد، أم مصافحة حارة، أم سكينَ جيب قديمة، أم وعداً بملاقاته في الأسبوع التالي. وكان قد نما إلى حجمٍ ضخم هائل، وثِقْل وزن مخيف، وأصبح ذا قدرة غريبة الأطوار قليلاً، وغريزية، كافية بجعله اليد اليمنى لصحافيّ بارز جداً يسافر معه في طول البلاد وعرضها ويؤدي له كل أصناف المهام بدون انتظار كلمة شكر. ولعلي لم أره أكثر من ثلاث مرات أو أربع بعد انقضاء أيام شارع ساكت الطيبة. لكنه لم يغب قط عن بالي. وكان يسرّني أن أستحضر صورته. كم كان ودوداً، وطلق المحيا، ويثق ويصدِّق بدون تحفُّظ! وكل ما كان يكتبه هو البطاقات البريدية. وبالكاد كان خطّه الرديء يُقرأ. كان يكتب فقط سطراً واحداً يقول فيه إنه في أحسن حال، وإنَّ العالم عظيم، وكيف حالك أنت بحق الجحيم؟

كلما زارنا ألريك، وكان ذلك يحدث في أيام السبت أو الأحد، كنت أرافقه لنسير طويلاً خلال تلك النواحي القديمة. وكان هو أيضاً يعرفها من أيام الطفولة. وعادة كان يصطحب معه مجموعة أوراقٍ للرسم التخطيطي، ويقول مبرِّراً " لتدوين بعض الملاحظات ". وكنت حينئذ أتعجَّبُ من السهولة التي يستخدم بها قلم الرصاص والفرشاة. ولم يخطر ببالي قط أني أنا بدوري قد أفعل الشيء نفسه ذات يوم. هو كان رساماً وأنا كنت كاتباً - أو على الأقل كنت آمل أن أصبح كذلك في يوم ما. وكان يبدو لي عالمُ الرسم عالماً من السحر الصرف، بعيداً كلَّ البُعد عن متناولي.

على الرغم من أنَّ ألريك لم يصبح مطلقاً، خلال السنوات التالية، رساماً مشهوراً، إلاّ أنه كان على اطلاع مذهل في عالم الفن. ولم يكن أحد يجاريه في التحدُّث عن الرسامين الذين أحبّهم بمثل ذاك الإحساس والفهم. ولا زال في إمكاني حتى يومي هذا أن أسمع تردُّدات عباراته الطويلة، الموفَّقة، حول رجالٍ من أمثال تشيمابو، وأوتشيللو، وبييرو ديلا فرانشيسكا، وبوتيتشيللي، وفرمير وآخرين. وأحياناً كنا نجلس لنتفرَّج على كتاب يحوي نسخاً من اللوحات - تكون دائماً من أعمال عظماء الأساطين، دون شك. وكنا نجلس ونتحدث على مدى ساعات طوال - على الأقل هو كان يُحسِنُ ذلك - حول لوحة واحدة. ولا شك في أنَّ ألريك، لأنه هو نفسه كان غاية في التواضع والوقار، تواضعُ ووقارٌ بالمعنى الحقيقي للكلمتين، استطاع أن يتحدث بفطنةٍ جمَّة وبصيرة نافذة عن " الأساطين ". وهو نفسه كان في الروح من الأساطين. وأشكر الله لأنه لم يفقد مقدرته على التبجيل والهيام. نادرون حقاً هم المتيَّمون بالفطرة.

كان، مثل أورورك، التحرّي، يتّصِفُ بالميل نفسه إلى أن يغدو، في أشد اللحظات غرابة، مستغرقاً وجذلان. وخلال نزهاتنا على طول الواجهات المائية كثيراً ما كان يتوقف ليشير إلى واجهةٍ ما متداعية بشكل واضح أو إلى جدارٍ متهدِّم، ويروح يُطنِبْ في إبراز جماله وهو أمام خلفيّة من ناطحات السحاب قائمة على الشاطئ الآخر أو أمام الهياكل الضخمة للسفن وسواريها الراسية في مهودها. وقد تكون درجة حرارة الجو صفر وثمة عاصفة مثلجة تهبُّ، لكنَّ أليريك لا يبدو مهتماً بذلك. وفي مثل تلك اللحظات كان يُخرِجُ بخجل مظروفاً صغيراً حائل اللون من جيبه، وبعقبِ ما كان ذات يوم قلمَ رصاص، يحاول أن يدوِّن " بضع ملاحظات أخرى ". ويجب أن أذكر أنه لم يسفر عن تدوين الملاحظات ذاك أي نتيجة. على الأقل ليس في تلك الأيام. والأشخاص الذين يقترِّون عليه بعمولات - لرسم موز، وعلب تعبئة البندورة، وظِلاّت المصابيح، الخ - كانوا دائماً في أعقابه.

كان بين فترات " القيام بالأعمال " يُحضِر أصدقاءه، وهم في الغالب من النساء، ليقفن كموديلات له. وكان يعمل بنشاط محموم خلال تلك الفترات، وكأنه يحضِّر لمعرضٍ في مركز المعارض. وكان وهو أمام حامل اللوحة يتّخذ كل إيماءات " الأساطين " وتصرفاتهم المميزة. وكان من المخيف تقريباً حضور نوبة استهلاله في العمل. والغريب أن النتائج تكون دائماً مثبطة للهمة. فيقول " اللعنة على كل شيء؛ إنني لست أكثر من رسامٍ للصور التوضيحية ". أكاد أراه الآن واقفاً فوق إحدى إخفاقاته، يتنهَّد، ويتنفَّس مع صفير، ويدمدم، وينتف شعره. أكاد أراه وهو يتناول ألبوم صور لسيزان، ويفتحه على إحدى لوحاته المفضَّلة،

ومن ثم ينظر معه تكشير اشمئزاز إلى عمله هو. ويقول، مشيراً إلى منطقة معيّنة ناجحة من لوحة سيزان، " انظر إلى هذه، أترى؟ لماذا بحق الجحيم لا أتمكن من الوقوع على شيء كهذا - ولو مرة واحدة؟ ماذا ينقصني، في اعتقادك؟ آه حسنٌ ... ". ومن ثم يزفر بعمق، وأحياناً يئنُّ أنيناً حقيقياً. " هيا نشرب جرعة، ما قولك؟ ولماذا أحاول أن أكون سيزان آخر؟ أنا أعرف ماذا ينقصني يا هنري. إنَّ الأمرَ لا يتعلّق بهذه اللوحة فقط، أو التي قبلها؛ إن الخطأ يكمن في حياتي كلها. إنَّ عملَ الإنسان يعكس كيانه هو، وتفكيره طوال يومه، أليس هذا صحيحاً؟ إني حين أنظر إلى الأمر على ضوء هذا، أراني مجرد قطعة جبن بائتة. إيه، وماذا بعد؟ حسن، إليك الحل! اشرب! ". ويرفع كأسه، مع التواء غريب، ساخر، من فمه الذي كان فصيحاً بشكلٍ مؤلم، مؤلم جداً.

إن كنتُ مولعاً بألريك بسبب محاكاته للأساتذة، فأعتقد أني بحق احترمته لأنه لعب دور " الفاشل ". إنَّ الرجلَ كان يعرف كيف يصنع موسيقى من سَقْطاته وفشله. بل في الحقيقة كان يتمتع من الذكاء والكياسة ما جعله يتصرَّف وكأنَّ الفشل التام هو، إلى جانب النجاح، أفضل شيء في الحياة.

ربما كان على حق. إنَّ ما أنقَذَ ألريك هو افتقاره التام إلى الطموح. فهو لم يَتُق بزخمٍ كافٍ إلى أن يكون معروفاً: أراد أن يغدو رساماً مُجيداً لمجرد متعة التفوُّق. كان يعشق كل طيبات الحياة، ولا شيء غير الطيبات. كان حسِّياً، قلباً وقالباً. وأثناء لعب الشطرنج كان يفضِّل أن يستخدم قطعاً صينية، بغضّ النظر عن سوء لعبه. وكان يستمتع بمجرد التعامل مع القطع العاجيّة. وأذكر الزيارات التي كنا نقوم بها إلى

المتاحف بحثاً عن رُقَعٍ شطرنج عتيقة. فإذا استطاع ألريك أن يلعب على رقعة كانت ذات يوم تزيِّن جدار قلعة قرن أوسطية فإن ذلك سيدفعه إلى السماء السابعة، ولا يهمه بعدها إنْ هو ربح أم خسر. وكان ينتقي كل ما يستخدمه بعناية فائقة - الملابس، الحقائب، والأخفاف، والمصابيح، وكل شيء. وحين يلتقط شيئاً يداعبه. وكل ما يمكن إنقاذه يُرقَّع أو يصلَّح أو يغرَّى معاً من جديد. وكان يتكلم عن متعلقاته كما يتكلم البعض عن قططهم؛ كان يُبدي كامل إعجابه بها، حتى حين يكون وحده معها. وأحياناً أفاجئه وهو يتحدَّث إليها، يخاطبها، وكأنها أصدقاء حميمون. وحين أفكر فيه كم أجده مختلفاً عن كرونسكي. فكرونسكي إنسانٌ مسكين، بائس، وكأنه يعيش مع طُرَف الأجداد المنبوذة. لا شيء كان نفيساً بالنسبة إليه، ولا شيء له مغزى أو أهمية. وكل شيء كان يتفكَّك قطعاً بين يديه، أو يغدو أسمالاً، أو يتمزَّق، أو يتلطَّخ ويتبقَّع. ومع ذلك فهذا الكرونسكي نفسه باشرَ ذات يوم - ولا أدري كيف حدث ذلك - الرسم. وقد بدأ أيضاً بشكل رائع. رائع جداً. ولم أصدِّق عينيَّ. كان يستخدم ألواناً واضحة، برّاقة، وكأنه وصل لتوّه من روسيا. ولم تكن مواضيعه لتفتقر إلى الجرأة والأصالة. وكان يواصل الرسم على مدى ثماني ساعات وعشر دون توقف، ويأكل حتى التخمة قبل ذلك وبعده، ودائماً يغني، ويصفِّر، ويهتزُّ وهو يتنقَّل من قدمٍ إلى أخرى، ودائماً يطري نفسه. ولسوء الحظ أنَّ الأمر آلَ إلى الإخفاق. فقد أُصيبَ بالإرهاق بعد ذلك ببضعة أشهر. وبعد ذلك لم يعد إلى ذكرِ الرسمِ ولا بكلمةٍ واحدة. وبدا أنه قد نسي وكأنه لم يلمس ريشة رسمٍ دهْرَهُ ...

خلال الفترة التي كانت فيها أمورنا تسير على أحسن ما يرام

تعرَّفت على طائر غريب في مكتبة شارع مونتاغيو. وكانوا يعرفونني هناك جيداً لأني كنت أسبِّب لهم كل صنوف الإزعاج بسبب طلبي لكتبٍ ليست في حوزتهم، وأحثُّهم على استعارة الكتب النادرة أو الباهظة الثمن من المكتبات الأخرى، متذمراً من فقر مخزونهم، ومن قصور خدمتهم، وباختصار جعلتُ من نفسي مصدر إزعاجٍ بغيض. ولكي أزيد الطين بلّه كنت دائماً أدفع غرامات ضخمة من أجل كتبٍ فات موعد تسليمها وكتب ضائعة (أكون قد استوليتُ عليها وضمَمْتُها إلى رفوف مكتبتي)، ومقابل صفحاتٍ مفقودة. وبين الحين والآخر كنت أتلقّى تأنيباً علنياً، وكأني ما أزال تلميذ مدرسة، لأني عَلَّمتُ بالحبر الأحمر تحت بعض الفقرات أو بسبب تدوين ملاحظات على الهوامش. ومن ثم ذات يوم، كنت أفتِّش عن أحد الكتب النادرة حول السيرك - يعلم الله لماذا - انخرطتُ في حديثٍ مع رجلٍ يبدو عليه العِلم ثم اتضح أنه أحد أعضاء الهيئة الإدارية. وأثناء مجرى الحديث عَلِمتُ أنه كان قد زار بعضاً من أشهر سيركات أوروبا. وأفلتت من بين شفتيه كلمة Medrano. وكانت عملياً كلمة غريبة تماماً. لكني تذكَّرتها. على أي حال، أعجبت بالرجل أيَّما إعجاب حتى أني دعوته في الحال إلى زيارتنا في الليلة التالية. وحالما خرجت من المكتبة العامة اتّصلتُ بألريك وناشدته كي ينضم إلينا، وسألته " هل سمعت قط بسيرك مدرانو؟ "

باختصار، خصَّصتُ الليلة التالية بأكملها تقريباً لسيرك مدرانو. وحين غادرنا أمين المكتبة كنت في حالةِ ذهول. ورحت أتمتم بصوتٍ عالٍ مراراً وتكراراً، ولم أستطع أن أتمالك نفسي، " هذه هي أوروبا إذن! وهذا الرجل كان هناك ... وشاهدَ كل شيء. يا إلهي! "

أصبح أمين المكتبة يُكثِرُ من التردُّد علينا، وكان دائماً يتأبَّط بعض الكتب النادرة مِنَ التي يعتقد أنه سيروق لي أن أُلقي عليها نظرة. وكان عادة يشتري أيضاً زجاجة من المشروب. وأحياناً كان يشاركنا في لعب الشطرنج، ونادراً ما كان يغادرنا قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً. وكان كلما حضر أجرُّه إلى الحديث عن أوروبا: كان ذلك بمثابة" رسم الدخول له ". والحقيقة هي أني كنت أثمل من الاستماع إلى الموضوع؛ وأصبح في وسعي أن أتحدث عن أوروبا وكأني زرتها بالفعل. (والدي كان مثلي. فعلى الرغم من أنَّ قدمه لم تَخطُ خطوةً واحدةً خارج نيويورك، إلاّ أنّه كان في وسعه أن يتحدث عن لندن، برلين، وهامبورغ، وبريمن، وروما، وكأنَّه أمضى حياته كلها خارج بلده).

ذات ليلة أحضر ألريك خريطته الخاصة لباريس (خريطة المترو) وخررنا جميعاً على أيدينا وركبنا لنقوم بجولات خلال شوارع باريس، فزرنا المكتبات العامة، والمتاحف، والكاتدرائيات، وأكشاك بيع الزهور، والمسالخ، والمقابر، والمواخير، ومحطات القطارات، ومرابع الرقص، les magasins (المحال التجارية) وما إلى ذلك. وفي اليوم التالي كنت مترعاً، مترعاً حتى الزبى بأوروبا، أقصد، إلى حد أني لم أستطع أن أتوجه إلى مقرّ عملي. وكان من عادتي أن آخذ يوم إجازة كلما خطر ببالي. وكنت دائماً أستمتع بالعطل المسروقة أكثر من غيرها. فذلك يعني الاستيقاظ في أي ساعة متأخرة، والتسكُّع في أرجاء المكان بالبيجاما، والاستماع إلى الاسطوانات، والاستغراق في قراءة الكتب، والتمشّي حتى رصيف السفن ومن ثم، بعد تناول وجبة غداء دسمة، الذهاب لحضور عرضٍ نهاريّ مسلٍّ. وكنت أُفضِّل مشاهدةَ عَرْضٍ كوميدي جيد نهاريّ يجعل

الضحك يطقطق في جنبيّ. وأحياناً، بعد قضاء أحد تلك العطل، يصبح من الأصعب كثيراً عليّ أن أعود إلى العمل. في الحقيقة، يصبح مستحيلاً. وتتّصل مونا بالمدير بشكل يناسبني لتبلّغه أن إصابتي بالبرد قد ازدادت سوءاً. وكان دائماً يقول " قولي له أن يلزم السرير بضعة أيام أُخَر. واعتني به جيداً! "

ثم تقول مونا " أعتقد أنهم الآن سيكونون قد اكتشفوا أمرك "

" لقد علموا، يا حبيبتي. غير أني جيد جداً، ولا يستطيعون الاستغناء عني "

" فقط لا تفتح الباب لأي كان. أو قل لهم إني ذهبت إلى عيادة الطبيب "

كان الأمر رائعاً طوال فترة دوامه. كان ببساطة ممتازاً. وفقدت كل الاهتمام بعملي. كل ما كنت أفكر فيه هو أن أباشر الكتابة. وفي المكتب كان أدائي يسوء أكثر فأكثر، ويزداد تراخياً. وكل المتقدمين الذين أزعجتُ نفسي بمقابلتهم كانوا من المشبوهين. وكان مساعدي يقوم بالباقي وكنت أغادر المكتب أكبر عدد ممكن من المرات متعلّلاً بتفتيش المكاتب الفرعية. كنت أقوم بزيارة مكتب أو مكتبين في قلب المدينة - فقط لأوفّر عذر غياب - ومن ثم أتوارى في إحدى دور السينما. وبعد السينما أقوم بزيارةٍ غير متوقعة لمكتبِ فرعٍ آخر، وأقدّم تقريري إلى المركز الرئيسي، ومن ثم إلى المنزل. أحياناً كنت أمضي فترة ما بعد الظهر في صالة عرض لوحات فنية أو في المكتبة العامة في الشارع الثاني والأربعين. وأحياناً أخرى أُعرِّج على ألريك أو أقوم بزيارة إلى صالة رقص. ولا شك في أنَّ الأمور كانت تسير بانحدار مُطّرد.

مونا شجّعت إهمالي. ولم تكن قط قد أحبّت مكوثي في بؤرة مدير المستخدمين تلك. وكانت تقول لي " يجب أن تكتب "، فأجيبها، وأنا مسرور في سريرتي لكني أثيرُ معركةً لأُنقذَ ضميري، " عظيم، عظيم! وكيف سنعيش؟ "

" أترك أمر هذا لي أنا! "

" ولكن لا يمكننا أن نظل هكذا نحتال على الناس ونخدعهم إلى الأبد "

" نحتال؟ إن أي إنسان أقترضُ منه بمقدوره مالياً أن يُقرضَني. إني أقدِّم لهم معروفاً "

لا أوافقها لكني أستسلم. فأولاً وقبل أي شيء، لا حلَّ آخرَ لدي أقدِّمه. ولكي أغيِّر اتجاه النقاش كنت دائماً أقول: " حسن، أنا لم أستقل بعد "

كنا، بين الفينة والأخرى، في إحدى تلك العطل المسروقة، نتوقف في الجادة الثانية في نيويورك. مذهلٌ عددُ الأصدقاء الذين كنت أحتفظ بهم في ذاك الحي. وكلهم من اليهود، طبعاً، ومعظمهم معتوه. لكنهم صحبة مرحة. وبعد أن نتناول لقمة في محل بابا موسكوفيتش نتوجه إلى مقهى رويال. وهنا لابد أن نعثر على أي شخص نبحث عنه.

ذات أمسية بينما كنا نتمشّى على طول الجادة، وكدت أهمُّ بإمعان النظر إلى واجهة إحدى المكتبات وإلقاء نظرة أخرى على دوستويفسكي – كانت صورته الفوتوغرافية معلّقة في المكان نفسه من الواجهة منذ سنين – ومَنْ سيحيّينا غير صديقٍ حميمٍ لآرثر ريموند. إنه ناحوم يود، ولا أقلّ. وناحوم يود كان رجلاً قصيرَ القامة، ناريَّ المزاج يكتبُ بلهجة

اليـيـديش. وجهـه أشـبـه بمطرقـة ثقـيلة. بعـد أن تـراه لا تنسـاه أبداً. وحين يتكلّم يـكون كلامـه دائمـا صـخبـاً وهذيانـاً؛ وكـانت كلمـاته ودون مـبـالغـة يتـعـثّر بعضـهـا ببعض. ولـم يـكن فقط يفـرقـع مثـل ألـعـاب ناريّة وإنما يقطر ويسيل كاللعـاب في الوقت نفسه. لَكْنَتُهُ، الخـاصة بالـ" ليـتفاك "، كانت بغـيضـة. لكن ابتـسـامتـه كـانت ذهبيـة – أشبه بابتـسـامة جاك جـونسن[١]. وكانت تُضفي على وجهه شَبَهاً قريباً من مصباح رأس القرعة.

لم أكـن أراه إلاّ وهو في حـالة انفـعــال هائج. إنـه دائمـاً يكـون قـد اكتـشف لتوّه شيئاً رائعاً، شيئاً مُبهراً، شيئاً لا عـهدَ لأحد بمثله. وأثنا ء إفراغه لحمولته كان دائماً يمطرك بوابل من رذاذه، gratis (مجاناً). لكن الأمر كان يستأهل. وهذا الرذاذ الذي يقذفه من بين أسنانه الأماميـة كان له الأثر المنبّه نفسـه الذي يُحدِثه حَمّام من الإبر. وأحـيـاناً كـان يصـحب حمّام الرذاذ بعض بذور الكَرَويا.

ثم انـتـزعَ الكتــابَ الذي كنتُ أتـأبَّطه، وهتف: " مــاذا تقــرأ؟ آه، هامسن[٢]. جيد! إنه كاتب رائع ". ولم يكن قد قال حتى " كيف حالك؟ " بعد. " يجب أن نجلس في مـكان ما ونتـحدث. إلى أين أنتَ ذاهب؟ هل تناولتَ طعام العشاء؟ أنا جائع "

قلت " بعد إذنك، لكني أريد أن ألقي نظرة إلى دوستويفسكي "

تركـتـه واقـفاً في مكانه يتـحدث بانفعـالٍ مع مونا مـسـتـخدمـاً كلتـا يديه (وقدميه)، وغصتُ أمـام صورة دوستويفسكي، كما كنت قد فعلت قبل ذلك مرات عديدة، لأدقِّق النظر من جديد في أسارير وجهه المألوفة.

---

١ – جاك جونسن (١٨٧٨ – ١٩٤٦) : ملاكم أميركي . بطل العالم في الوزن الثقيل في الأعوام من ١٩٠٨ إلى ١٩١٥ .- المترجم .

٢ – كنوت هامسن (١٨٥٩ – ١٩٥٢) : كاتب نرويجي . حاز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٠.

وتذكرت صديقي لو جاكوبس الذي تعوّد أن يرفع قبعته كلما مرّ من أمام تمثال شيكسبير. أما أنا فقد أديت ما هو أكثر من الانحناء احتراماً أو التحية لدوستويفسكي. كان أقرب شبهاً بالصلاة، صلّيت كي يفكّ لي طلسم الوحي. يا للوجه البسيط، الأليف. مفعم بالطابع السلافي. جدير بموجيك[3]. وجه رجل يمكن أن يمرّ دون أن ينتبه إليه أحد من الحشد. (إن ناحوم يود كان أكثر شبهاً بكاتبٍ من العظيم دوستويفسكي). وقفتُ هناك، كعهدي دائماً، أحاول أن أنفَذَ إلى السرِّ الكامنِ خلف كتلة الأسارير العجينية. وكل ما استطعت أن أستشفه بوضوح كان حُزناً وعناداً. رجلٌ واضحٌ أنه يفضل أن يحيا الحياة بمستواها الوضيع، رجل خرج لتوه من السجن. وتهت في التأمُّل. وأخيراً لم أعد أرى غير الفنان، الفنان المأساوي، الذي لا عهد للدنيا بمثله والذي خَلَقَ جمهرة متنوعة من الشخصيات، قامات لم يكن أحد قد سمع بمثلها ولن يسمع أحد أبداً بمثلها، وكلٌّ منها أشدُّ واقعية، وفعالية، وغموضاً، وإبهاماً من كل القياصرة المجانين ومن كل الباباوات المتوحشين، الأشرار، مجتمعين.

فجأة أحسست بيد ناحوم يود الثقيلة تستقرُّ على كتفي. كانت عيناه ترتعشان، والرضاب يحيط بفمه. والقبعة الدِربي البالية التي كان يعتمرها داخل المنزل وخارجه أُرخيَتْ لتغطي عينيه، وتمنحه مظهراً مضحكاً. ويكاد ينمُّ عن الجنون.

صرخ: "Mysterium! Mysterium! Mysterium!"

نظرتُ إليه بانشداه.

زعقَ " ألم تقرأه؟ ". وبدأ يتجمَّع حولنا ما يشبه الحشد؛ أحدُ

---

٣ – الموجيك: فلاح روسي. – المترجم.

الحشود التي تتشكّل هكذا فجأة حالما يبدأ بائع متجوّل بالمناداة على بضاعته.

سألته برقّة " عمَّ تتحدث؟ "

" عن صاحبك كنوت هامسن. وأعظم كتاب ألّفه يدعى Mysterium، بالألمانيّة "

قالت مونا " يقصد ألغاز "

هتف ناحوم يود " نعم، ألغاز "

قالت مونا " كان يخبرني كل شيء عنه. يبدو رائعاً "

" أهو أشد روعة من " جوّال ينقرُ على أوتارٍ خرساء "؟ "

انفجر ناحوم يود قائلاً: " هذا، هذا لا شيء. عن كتابه " ثمار الأرض " نال جائزة نوبل. أما كتاب "Mysterium" فلا أحد يعلم بوجوده. اسمع، دعني أشرح لك ... ". صَمَتَ، ثم استدار وبصق. " كلا، الأفضل ألاّ أشرح. اذهب إلى صاحبتك مكتبة العلكة كارنيغي العامة واسأل عنه. كيف تقولونها بالإنكليزية؟ Mysteries؟ المعنى واحد تقريباً - لكن Mysterium أفضل. مزيداً من ال Mysteris-cher، nicht؟ (ما رأيك؟). ورسم إحدى ابتساماته العريضة بعُرْض سكة الترولّلي وحافة قبعته مرخيّة فوق عينيه.

فجأة أدرك أنه قد جمع حوله جمهوراً. فصرخ، وهو يرفع كِلتا ذراعيه ليكشَّ الحشد بعيداً، " إلى المنزل! أترونا نبيع أربطة أحذية هنا؟ ماذا بكم؟ أيجب أن أستأجر قاعةً لأتبادل بعض الكلمات الخاصّة مع صديق؟ هذه ليست روسيا. إلى المنزل ... كشّ! "، ومرة أخرى أخذ يلوِّح ذراعيه.

لم يتزحزح أحدٌ من مكانه. وببساطة اكتفوا برسم ابتسامات متسامحة. وكان واضحاً أنهم يعرفونه حق المعرفة، هذا الناحوم يود. ورفع أحدهم صوته بكلام اليديش. ورسم ناحوم يود ما يشيبه ابتسامة رضا حزين وألقى علينا نظرة عجز.

" يطلبون مني أن ألقي عليهم شيئاً بلغة اليديش "

قلت " عظيم، لمَ لا تفعل؟ "

مرة أخرى ابتسم، هذه المرة بارتباك. قال " إنهم مثل الأطفال. انتظر، سوف أحكي لهم حكاية خرافية. أنت تعرف ما هي الحكاية الخرافية، أليس كذلك؟ هذه حكاية خرافية عن حصان أخضر له ثلاثة قوائم. لا يسعني إلاّ أن أقصّها باليديّة ... بعد إذنك "

حالما بدأ يتحدث باليديّة تبدَّلت قسمات وجهه كلها. وتلبَّسَ هيئة جادَّة، حزينة، حتى حسبته سينفجر بالبكاء في أي لحظة. ولكن حين نظرت إلى جمهوره وجدتهم يضحكون ضحكاً خافتاً ويقهقهون. وكلما ازدادت أساريره جدّية وحزناً، ازدادَ مرحُ مستمعيه. وأخيراً أخذوا ينحنون على أنفسهم من فرط الضحك. ولم تندّ عن ناحوك يود أي ابتسامة. وانتهى وهو يحمل سيماءً خالية من أي تعبير وسط نوبات الضحك.

قال، وهو يدير ظهره لجمهوره ويشدّ على ذراع كلٍ منا، " والآن، الآن سوف نذهب إلى مكانٍ ما ونستمع إلى الموسيقى. أعرفُ محلاً صغيراً في شارع هستر، يقع في قبو. يخصُّ بعض الغجر الرومانيين. سوف نشرب بعض النبيذ ونتحدث قليلاً عن Mysterium، موافق؟ هل معكما نقود؟ أنا معي فقط ثلاثة وعشرون سنتاً ". وابتسم مرة أخرى،

وهذه المرة كانت الابتسامة أشبه بفطيرة توت برّي ضخمة. وفي الطريق كان باستمرار ينقر على قبعته محيّياً هذا وذاك. وأحياناً كان يقف وينخرط مع أحد أصدقائه في حديثٍ جادّ لبضع دقائق. ويقول، لدى عودته إلينا ركضاً ومقطوع الأنفاس، " اعذراني، لكني قلت في نفسي لعلي أستطيع أن أقترض منه بعض المال. إنه الناشر السابق لصحيفة بلغة اليديش - لكنه أشدّ إفلاساً مني. أعتقد أن معكما بعض المال، أليس كذلك؟ في المرة التالية أنا الذي سيعالج الأمر "

في المحل الروماني هرعت إلى أحد سُعاتي السابقين ديفيد أولينسكي. وكان يعمل ساعياً ليلياً في مكتب شارع غراند، وتذكرته جيداً لأن أولينسكي هذا كان قد ضُرِبَ حتى كاد يلفظ أنفاسه، وذلك حين سُرِقَ المكتب وأُفرِغَتْ الخزنة من محتوياتها. (والحقيقة هي أني اعتقدت أنه قد مات فعلاً)، وكنت قد عيَّنته في ذلك المكتب بناءً على طلبٍ منه؛ لأنَّ الحيَّ كان حياً للأجانب، ولأنه كان يُتقِنُ ما يقارب الثماني لغات، وظنَّ أولينسكي أنَّ ذلك سيُكسِبه الكثير من الإكراميات. فمَقَتَه الجميع، بما فيهم العاملون معه. وكنت كلما صادفته في طريقي يمضغ أذني بحديثِه عن تل أبيب. كان دائم الكلام عن تل أبيب وبولونيه-سور-مير. (كان يحمل معه حيثما ذهب بطاقات بريدية تحمل صوراً لكل الموانئ التي تقف فيها السفن. لكن أغلبها كان بطاقات لصور لتل أبيب). مهما يكن، قبل وقوع " الحوادث "، أرسلته ذات مرة إلى حي كارناسي، حيث كان هناك " بلاج " . وأنا أستخدم كلمة " بلاج " لأنه كلما كان أولينسكي يتحدث عن بولونية-سور-مير، يذكر " البلاج " اللعين الذي كان يذهب ليسبح فيه.

كان يقول لي إنه، منذ أن ترك الشركة، أصبح بائع بوالص تأمين. وفي الحقيقة، ما أن تبادلنا بضع كلمات حتى بدأ يحاول أن يبيعني بوليصة. وعلى الرغم من كراهيتي للرجل إلاّ أني لم أقم بأي محاولة لمنعه. ورأيت أنه ربما من المفيد له أن يتدرَّب عليَّ. وتركته يثرثر، أمام اشمئزاز ناحوم يود، متظاهراً بأني قد أشتري أيضاً بوالص تأمين ضد الحوادث، وللصحة، وضد الحريق أيضاً. وفي تلك الأثناء طلب أولينسكي لنا مشروباً ومعجّنات. وكانت مونا قد غادرت الطاولة لتنخرط في الحديث مع صاحبة المحل. وأثناء ذلك كله دخل علينا مُحامٍ يُدعى ماني هيرش - صديق آخر لآرثر ريموند. كان مولعاً بالموسيقى، وبشكل خاص بموسيقى سكريابين[٤]. واستغرق من أولينسكي، الذي دُفِعَ رغماً عنه إلى الاشتراك في الحديث، وقتاً طويلاً ليفهم عمَّن كنا نتحدث. وعندما عَلِمَ أنَّه ليس أكثر من مؤلِّف موسيقي أبدى امتعاضاً عميقاً. وتساءل، أَليس من الأفضل أن ننتقل إلى مكانٍ أكثر هدوءاً. وشرحت له أنَّ هذا أمرٌ مستحيل، وأنَّ عليه أن يُسرع بتفسير كل شيء لي ودون إبطاء وقبل مغادرتنا. ولم يكن ماني هيرش قد كفَّ عن الكلام منذ أن جلس. وعلى الفور انطلق أولينسكي في حديثه الروتيني، منتقلاً في كلامه من بوليصة إلى أخرى؛ وكان عليه أن يتكلَّم بصوت عالٍ جداً ليغطي على صوت ماني هيرش. ورحت أنصتُ إلى الاثنين في الوقت نفسه. كان ناحوم يود يحاول أن ينصت وهو يكوِّب أذنه. وأخيراً انفجر في نوبةٍ هستيرية من الضحك. ودون أن يعلّق بكلمة واحدة بدأ يسرد إحدى حكاياته الخرافية - باليبيديّة - وظل أولينسكي يواصل كلامه، وهذه المرة

٤ - ألكسندر نيقولاييفيتش سكريابين (١٨٧٢ - ١٩١٥) : موسيقي روسي . له " قصيدة شيطانية " . - المترجم

بصوتٍ منخفض جداً، بل وبإيقاعٍ أسرع من ذي قبل، لأنّ كل دقيقة لا تُقدَّر بثمن. وحتى حين بدأ المكان كله يضجُّ بالضحك ظل أولينسكي يواظب على بيعي بوليصة تأمين بعد أخرى.

حين أخبرته أخيراً أني سوف أفكّر في الأمر بدا وكأنه قد أُصيبَ بطعنةٍ قاتلة. قال وهو يئنُّ، " لكني شرحتُ لك كل شيء بوضوح، يا سيد ميللر "

قلت كاذباً " لكني اشتريتُ لتوي بوليصتيّ تامين "

فردَّ قائلاً " لا بأس، سوف نحولّهما إلى نقد ونحصل على أفضل منهما "

قابلت حجته بأخرى " هذا ما كنت أفكر فيه "

" ولكن ليس ثمة ما يستوجب التفكير يا سيد ميللر "

قلت " لستُ واثقاً من أني فهمت الأمر برمّته. ربما من الأفضل أن تحضر إلى منزلي غداً مساءً "، وبهذا دوَّنت له عنواناً زائفاً.

" أنت واثق من أنك ستكون موجوداً في المنزل يا سيد ميللر؟ "

" إذا لم أكن هناك سأتَّصل بك هاتفياً "

" ولكن لا هاتف لدي يا سيد ميللر "

" إذن سأُرسل لك برقية "

" ولكن لدي للتو موعدين في مساء الغد "

قلت، دون أن ينتابني أي إزعاج من هذا اللغو كله، " إذن فلتكن الليلة التالية "، ثم أضفتُ بخبث " أو يمكنك أن تأتي لمقابلتي بعد منتصف الليل، إنْ كان هذا يناسبك. إننا دائماً نظل مستيقظين حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً "

قال أولينسكي، وهو يبدو باطِّراد أكثر غمّاً، " أخشى أنَّ هذا وقت متأخر جداً "

قلت، وأنا أتَّخذ هيئة المتأمِّل وأهرش رأسي، " حسن، دعني أرى. ما رأيك في أن نتقابل في هذا المكان بالذات بعد أسبوعٍ من الآن؟ فلنقل الساعة التاسعة والنصف بالضبط "

" ليس هنا، يا سيد ميللر، أرجوك "

" حسن إذن، أينما تشاء. أرسل لي بطاقة بريدية في غضون يوم أو نحوه. أحضِرْ معك كل البوليصات، اتِفقنا؟ "

خلال هذا القيل والقال كان أولينسكي قد نهض عن الطاولة واقفاً وأمسك بيدي مودِّعاً. وحين استدار ليجمع أوراقه اكتشف أن ماني هيرش كان يرسم حيوانات عليها. وكان ناحوم يود يدوِّن قصيدة شعر - باليديّة. واضطرب أيّما اضطراب بسبب هذا التحوُّل غير المتوقع للأحداث حتى أنه بدأ يصرخ فيهم بلغات عدّة دفعة واحدة. وأصبح لونه قرمزياً من شدة الحنق. وفي الحال أمسك قبضاي المحل، الذي كان يونانياً ومصارعاً سابقاً، أولينسكي من مِقْعَدةِ بنطاله ورمى به إلى الخارج كأي متسكِّع. وهزَّت صاحبة المحل قبضتها في وجهه أثناء مروره من الباب بدءاً برأسه. وفي الشارع أغار القبضاي على جيوبه وخلَّصه من بضع أوراق مالية وأعطاها إلى صاحبة المحل التي صرفتها ومن ثم رمت بقطع نقدية متبقّية إلى أولينسكي الذي كان حينئذ مستقراً على يديه وركبتيه، وكأنه يعاني طمثاً مؤلماً.

قالت مونا " هذه معاملة فظيعة وغير إنسانية "

أجبت " هذا صحيح، ولكن يبدو أنه هو الذي جلبها لنفسه "

" ما كان ينبغي أن تستفزّه - هذه قسوة "

" أعترفُ بهذا، لكنه شخص بغيض. كان ذلك سيحدث في كل الأحوال "، وعلى الأثر بدأت أحكي تجربتي مع أولينسكي. شرحت لها كيف سايرتُه بنقله من مكتب إلى آخر. وحيثما ذهب تحدثُ القصة نفسها. إنه دائماً يُهان وتُساءُ معاملته كبنغالي - " دون أي سبب، على حد قوله دائماً. وكان يقول " إنهم لا يحبونني هناك "

وأخيراً قلت له ذات يوم " يبدو أنك غير محبوب في أي مكان. ما الذي يتآكلك بالضبط؟ "، وأذكرُ جيداً النظرةَ التي رماني بها حين صوّبتُ هذا السؤال عليه. وقلت له " هيا، قل لي، لأنها فرصتك الأخيرة"

كم كان ذهولي عظيماً حين وجدته يقول لي: " يا سيد ميللر، إن طموحي هو أكبر بكثير من أن يجعل مني ساعياً جيداً. يجب أن أحصل على موقع يتطلّب مسؤولية أكبر. إني بما أتمتّع من ثقافة أصلح أن أكون مديراً. يمكنني أن أوفِّر المال على الشركة. يمكنني أن أَحُدَّ من الأعمال، وأزيدُ من الفعالية "

قاطعته قائلاً " انتظر لحظة، ألا تعلم أنه ليست لديك أية فرصة مهما ضؤلت لتصبح مديراً لمكتب فرعي؟ أنت مجنون. أنت حتى لا تتقن اللغة الإنكليزية، بغضّ النظر عن اللغات الثماني التي دائماً تتحدَّث عنها. ولا تعرف كيف تُقيم علاقةً جيدة مع جارك. أنت شخص بغيض، ألا تدرك هذا؟ لا تحكِ لي عن خططك الضخمة للمستقبل ... قل لي فقط شيئاً واحداً ... كيف أصبحتَ على ما أنت عليه ... أقصد، شخصاً بغيضاً فظيعاً لعيناً "

رفّت عينا أولينسكي كبومٍ لدى سماعه هذا ... وباشر يقول "اعلم، يا سيد ميللر، أني إنسانٌ طيب، حتى أني أحاول جاهداً أن ... "

هتفتُ " خراء! والآن قل لي بأمانة، لماذا غادرتَ تل أبيب أصلاً؟ "

" لأني أردت أن أحقّق ذاتي، هذه هي الحقيقة "

" ألم تتمكَّن من إنجاز ذلك في تل أبيب - أو في بولونية-سور-مير؟ "

منحني ابتسامة ساخرة، وقبل أن يتمكَّن من التفوُّه بكلمة أردفت قائلاً: " هل كانت علاقتك جيدة مع والديك؟ ألم يكن لديك أصدقاء مقرَّبون هناك؟ انتظر لحظة " - ورفعت يدي لأسكت جوابه - " ألم يقل لك أي إنسان في هذا العالم قط أنه يحبك؟ أجب عن هذا! "

لزم الصمت. ليس بفعل الانسحاق، بل من الحيرة.

تابعت: " أتدري ماذا يجب أن تكون؟ عيناً "

لم يفهم مدلول الكلمة. فشرحت له " اسمع، إنَّ العينَ هو الذي يكسب ماله من التجسُّس على الناس، بالإخبار عنهم - أتفهم؟ "

زعق، وهو ينهض واقفاً محاولاً أن يبدو محترماً، " وأنا يجب أن أكون عيناً؟ "

قلت، دون أن يرفَّ لي جفن، " بالضبط، وإن لم يكن هذا، فجلاَّد. أنت تعرفه - ذاك الذي يشنق الناس "

اعتمر أولينسكي قبعته وخطا بضع خطوات باتجاه الباب. وفجأة استدار على عقبيه، وسار بهدوء عائداً إلى طاولة مكتبي. خلع قبعته وحملها بيديه. قال " عذراً، ولكن هلاّ أتحتَ لي فرصة أخرى - في هارلم؟ "، قالها بنبرة صوت وكأنَّ لا شيء معاكس قد حدث.

أجبت برشاقة " حتماً، طبعاً سأعطيك فرصة أخرى، لكنها الفرصة الأخيرة، تذكَّر هذا. لقد بدأتَ تعجبني، أتعلم هذا؟ "

أربكه هذا الكلام أكثر من أي كلام كنت قد قلته قبلاً. ودهشتُ لأنه لم يسألني لماذا.

قلت، وأنا أميل نحوه وكأني أريد أن أعرض عليه أمراً غاية في السرية. " اسمع يا ديفيد، إني أضعك في أسوأ مكتب لدينا. فإذا تمكَّنتَ من الاستمرار هناك فسوف تتمكن من الاستمرار في أي مكان آخر. وثمة شيء واحد أودُّ أن أحذِّرك منه ... إياك أن تثير أي مشكلة في ذلك المكتب وإلا " - وهنا مرَّرتُ يدي عبر عنقي - " أتفهم؟ ".

سأل، متظاهراً بعدم التأثُّر بملاحظتي الأخيرة، " هل الإكراميات سخيّة هناك، يا سيد ميللر؟ "

" لا أحد يمنح إكرامية في تلك الأنحاء، يا صديقي العزيز. وأيضاً لا تحاول أن تحصل عليها. اشكر ربك في كل ليلة حين تصل إلى بيتك سالماً. لقد فقدنا أثر ثمانية من السُعاة في ذلك المكتب خلال السنوات الثلاث الأخيرة ,تخيَّل الأمر بنفسك "

هنا نهضت واقفاً، وقبضت عليه من ذراعه ورافقته حتى الدرج. وقلت، وأنا أصافحه، " اسمع يا ديفيد، لعلني صديقٌ قديم لك وأنت لا تدري. ربما ستشكرني لأني عيَّنتُك في أسوأ مكتب في نيويورك. لديك الكثير لتتعلَّمه بحيث لا أعرف من أين أبدأ. وقبل كل شيء، حاوِلْ أن تُمسك لسانك. ابتسم بين حين وآخر، حتى وإن كان ذلك مؤلماً. قل كلمة شكراً حتى وأنت لا تحصل على إكرامية. تحدَّث فقط بلغة واحدة وقلِّل من ذلك قدر الإمكان. وانسَ أمر بلوغك منصب مدير. كن ساعياً جيداً. ولا تخبر الناس أنك قادم من تل أبيب لأنهم لن يعرفوا عمّا تتكلم. أنت ولدتَ في حي برونكس، أتفهم؟ إذا كنت لا تستطيع أن تتصرَّف بشكل

لائق، فكُنْ أبله، schlemiel[٥]، أتفهم؟ خذ هذا المبلغ واذهب به إلى السينما. تفرَّج على فيلم مضحك من باب التغيير. ولا ترني وجهك بعد الآن! "

أثناء سيري في تلك الليلة مع ناحوم يود باتجاه محطة القطار النفقي عادت إلى ذهني بوضوح ذكريات استكشافاتي النصف ليلية مع أورورك. كنت دائماً آتي إلى الحي الشرقي حين أروم الإثارة الجامحة. كأني كنت أعود إلى بيتي. كل شيء كان مألوفاً بصورة تفوق كل معرفة. وكأني كنت قد تعرَّفت إلى عالمِ حيّ الأقليات في تجسُّدٍ سابق. وأشدّ ما كان يجذبني هو الزحام الشديد. كل شيء كان يكافح للوصول إلى النور بغزارة متألقة. كل شيء كان مزهراً وبراقاً، تماماً كما في لوحات رامبرانت المضبَّبة. حيث يُدهش المرء على الدوام، وغالباً بأشد الأشياء الصغيرة ألفة. إنه عالم طفولتي حيث اكتَسَبَتْ أكثر الأشياء اليومية العادية سمةً قُدسيّة. إنَّ هؤلاء الأجانب المُحتَقَرين المساكين كانوا يعيشون ماضياً أُخمِدَ فجأة. خبزهم ما زال خبزاً طيباً يؤكل دون زبد أو مربى، ومصابيحهم الزيتية تنشر في غرفهم وَهَجاً قدسياً. والسرير دائماً يبدو رحباً ومغرياً، والأثاث قديم لكنه مريح. ولطالما كان مصدر تعجُّب لي أن أرى مدى نظافة وترتيب داخل تلك الصروح القبيحة التي بدت كأنها تتقوَّض نتفاً. لا شيء يضاهي منزلاً عارياً، نظيفاً، وتخيّم عليه السكينة، ويضرب في جنباته الفقر، في أناقته. لقد شاهدت مئات من تلك البيوت أثناء بحثي عن فتيان مشردين. والعديد من هذه المشاهد المفاجئة التي كنا نصادفها في قلب الليل البهيم كانت أشبه بصفحات

---

٥ – كلمة عامية بلغة اليديش ، وتعني أبله أو مغفّل . – المترجم

مصورة من العهد القديم. ندخل، بحثاً عن فتى جانح أو عن لص حقير، ونغادر مع إحساسٍ بأننا تقاسمنا الخبز مع أبناء النبي إسرائيل[٦]. ولا يكون لدى الآباء، عادةً، أي معرفة بالعالم الذي ولَجَه أولادُهم بانخراطهم في صفوف السُعاة. ولا يكون أي منهم قد وطأ دهره مبنى المكتب. لقد نُقلوا من حيٍ للأقليات إلى آخرَ دون حتى أن يلقوا نظرة سريعة على العالم الكائن بينهما. وتستولي عليّ أحياناً رغبة في أن أصحب أحد أولئك الآباء إلى الطابق الذي يقع فيه سوق البورصة، ليشاهد ابنه وهو يهرع راكضاً جيئة وذهاباً كسيارة الإطفاء وسط جحيم هائج سبَّبه سماسرة البورصة المجانين، في لعبةٍ مثيرةٍ مربحة تسمح أحياناً لصبي صغير أن يجمع مبلغ خمسة وسبعين دولاراً في غضون أسبوع واحد. وبعض هؤلاء" الصِبية " يبقى صبياً على الرغم من بلوغه سن الثلاثين أو الأربعين ومالكاً، بعض منهم، لمجموعة من العقارات، والمزارع، والمجمّعات السكنية ورُزَماً من السندات المذهّبة الأطراف. والكثير منهم كانت لديه حسابات مصرفية يفوق مجموعها العشرة آلاف دولار. ومع ذلك يبقون فتية سُعاة، وقد يبقون فتية سُعاة حتى مماتهم ... يا له من عالم متنافر يغوص فيه مغترب! حتى أنا أعجز عن استيعابه. ألم أضطرُّ أنا (وأنا في الثامنة والعشرين من عمري)، على الرغم مما حظيت به من كل مميزات التربية الأميركية، إلى أن أنخرط في أحطّ الأعمال هذا؟ وألم أعاني الأمرَّين حتى نجحت في كسب مبلغٍ ستة عشر أو سبعة عشر دولاراً في الأسبوع؟ وعاجلاً أم آجلاً سوف أغادر هذا العالم لأشقَّ طريقي ككاتب، وسأصبح وأنا فيه حتى أشد عجزاً من

٦ – أو النبي يعقوب . – المترجم

أشدّ هؤلاء المغتربين اتّضاعاً. وعاجلاً أم آجلاً سوف أجوب الشوارع ليلاً أتسوّل خلسةً، بجوار منزلي نفسه. وعاجلاً أم آجلاً سأقف أمام واجهات المطاعم، أحدِّق بحسدٍ ويأسٍ إلى أطايب الطعام. وعاجلاً أم آجلاً سوف أشكر موزّعي الصحف لتصدُّقهم عليّ بنكلة أو دايم لأحصل على كوب من القهوة وكعكة صغيرة محلاّة.

نعم، قبل أن تقع مثل هذه الاحتمالات بوقتٍ طويل كنت أحسب لها حساباً. وربما كان سبب كَلَفي الشديد بعش الحب الجديد يعود إلى معرفتي أن مقامنا فيه لن يطول. كنت أسمّيه، عش حبنا " الياباني ". لأنه كان عارياً من الأثاث، ونظيفاً، وبسبب وجود الديوان الواطئ الموضوع في منتصف الغرفة بالضبط، والأضواء المضبوطة، ولأنك لا تجد غرضاً واحداً زائداً، والجدران تتوهَّج بنار مخمليّة خاملة، والأرضية تلمع وكأنها تُكشَطُ وتُلَمَّع في صباح كل يوم. وكنا دون وعي منا نفعل كل شيء بطريقة طقسية. لقد كان المكان يجبر المرء على التصرف بهذه الصورة. كان جديراً برجلٍ ثري، واستأجره اثنان من المتعصبين دينياً لا يحتكمان إلاّ على ثروة داخلية. كل كتاب تضمّه الرفوف تمَّ الحصول عليه بشقّ النَفَس، والتُهِمَ باستمتاعٍ شديد، وأغنى حياتنا. حتى نسخة الكتاب المقدس البالية وراءها قصة ...

* * *

ذات يوم، شعرتُ بحاجة إلى نسخة من الكتاب المقدَّس، فأرسلتُ مونا لتبحث عن واحدة. وحذّرتها من أن " تشتري " واحدة. " ادفعي أحدهم إلى أن يهديك نسخته. جرِّبي مع جيش الخلاص أو الجئي إلى أحد أعضاء إرساليات الإنقاذ ". ونفَّذت ما طلبتُ وردَّتها الجهات كلها.

(قلت في نفسي، أمر غريب لعين!). ثم، وكأنما تلبيةً لصلاة، مَنْ سيظهر فجأة دون سابق إنذار غير جورج المجنون! هاهو، ينتظرني، لدى وصولي بعد ظهر أحد أيام السبت إلى المنزل. ومونا تقدِّم له الشاي وكعكة. وحسبت أني أنظر إلى شبح.

طبعاً لم تكن مونا تعرف أنه جورج المجنون، أحد شخصيات أيام الطفولة. لقد شاهدت رجلاً مع عربة لبيع الخضار واقفاً على حاجبتها يبشِّر بكلمة الرب. وكان الأطفال يسخرون منه، ويرمونه بالأشياء، وكان هو يباركهم (وسوطٌ في يده)، قائلاً: " دعوا الأولاد يأتون إليّ ... طوبى للودعاء والمتواضعين ... "

قلت " جورج، ألا تَذْكُرني؟ لقد كنتَ تجلبُ لنا الفحم والحطب. أنا من جادة دريغز - الدائرة الرابعة عشرة "

قال جورج " إني أذكر كل أولاد الرب، حتى الجيل الثالث والرابع. أما أنت، يا بني، فليحل الروح القدس فيك إلى أبد الآبدين "

قبل أن يُتاحَ لي أن أقول كلمة واحدة كان جورج قد بدأ يتكلّم بفخامة جدِّية بالأسلوب القديم. " أنا الشاهد على نفسي، والآب الذي أرسلني شاهدٌ عليّ ... آمين! هاللويا! المجد للرب! "

نهضتُ واقفاً وأحطتُ جورج بذراعيّ. لقد غدا رجلاً عجوزاً، معتوهاً، مسالماً، ومحبوباً، آخر رجل في العالم توقّعت أن أراه جالساً في بيتي. لقد كان بالنسبة إلينا نحن الفتية شخصاً مرعباً، دائماً يفرقع ذاك السوط الطويل في وجوهنا، مهدِّداً بالويل والثبور وعظائم الأمور. وكان يسوط حصانه بغضبٍ عارم حين ينزلق على الرصيف المتجلِّد، رافعاً قبضة يده في وجه السماء مناشداً الله أن يعاقبنا جزاء شرّنا. كم

سبَّبنا له من بؤس في تلك الأيام! وكنا نصرخ " جورج المجنون! جورج المجنون! " حتى تزرَقّ وجوهنا. ثم كنا نرميه بكرات الثلج، كرات مرصوصة متجلِّدة، وكانت أحياناً تصيبه إصابة مباشرة، ونجعله يتراقص من شدة الغضب. وبينما هو يتعقَّب أحدنا كشيطان رجيم كان يعمد آخرُ إلى سرقةِ خضرواته أو فاكهته، أو يُغرِق كيساً من البطاطا في القناة. ولا أحد يعلم كيف آل إلى ذلك الحال، يبدو أنه أخذ يبشِّر بكلمة الرب من عربته منذ أن ولِدَ. كان أشبه بأحد الأنبياء القدامى، وقذراً كبعض الأنبياء التوراتيين العظام.

عشرون سنة كانت قد مضت على مشاهدتي لجورج دنتون آخر مرة. وهاهو من جديد، يحكي لي عن يسوع، نور العالم. قال جورج " ولقد أرسلني، وهو معي! الآب لم يتركني وحدي؛ لأني دائماً أقوم بفعل الأشياء التي تسرَّه ... سوف تعرف الحق، والحق سوف يحرِّرك. آمين، يا أخي! فلتحلّ نعمة الرب فيك وتحميك! "

لم يكن ليفيد في شيء سؤالُ إنسانٍ مثل جورج عما حدث له طوال كل تلك السنين. لعلَّ أيامه مرَّت كالحلم. كان من السهل إدراك أنه لا يفكِّر قط في الغد. كان ما يزال يتجوَّل في أرجاء المدينة بحصانه وعربته، تماماً كما لو أنَّ السيارة لا وجود لها. والسوطُ مستقرٌّ إلى جانبه على الأرض - يشكِّل جزءاً لا يتجزَّأ منه.

فكَّرتُ في أن أقدِّم له سيجارة. وكانت مونا تحمل في يدها زجاجة بورت.

قال جورج، رافعاً يده بحركةِ احتجاج، " مملكةُ الربِّ ليست لحماً وشراباً؛ وإنما هي الاستقامة، والسلام، والفرح في الروح القدس ... لا

خيـرَ في أكل اللحم، أو في شـرب نبيـذ، أو فـي أي شيء يُفـقـِدُ توازنَ أخيك، أو يهينه أو يضعفه "

سكتَ بينما كنا، مونا وأنا، نرشف رشفة من البورت.

تابع جورج خطابه الملتهب وكأنه لم يرني أو يسمعني: " ألا تعلم أنَّ جسدَكَ هو معبدُ الروح القدس الساكن فيك، والذي وهَبَهُ الربُ لكَ، وأنك لست مُلكاً لنفسك؟ لقد اشتُرِيتَ بثمن: فمجِّد الرب الكامن في جسدك، وفي روحك، لأنهما ملك للرب. آمين! آمين! "

بدأت أضحك، ليس بسخرية وإنما ضحكاً ناعماً رخيّاً - ثملاً بما جاء في الأسفار المقدسة. جورج لم يأبه، وواصل بربرته، كما في السابق. ولم يكن قط يخاطبنا بوصفنا أشخاصاً بل كوعاءين يصبُّ فيهما حليب العذراء المقدَّسة المبارك. عيناه لم تكونا تريان أي شيء من الأشياء المادّية المحيطة به. أي غرفة بالنسبة إليه لا تختلف عن أي واحدة أخرى، وهي ليست أفضل من الإسطبل الذي يزرب فيه أحصنته. (لعله كان ينام معها). كلا، إن أمامه مهمة وعليه أن ينجزها وهي تجلب له الفرح والسلوان. من الصباح وحتى منتصف الليل ينهمك في التبشير بكلمة الرب. حتى وهو يبيع منتجه يتابع نشر الإنجيل.

قلت في نفسي، أي حياة جميلة، لا يعيقها عائق. مجنون؟ حتماً هو مجنون، مجنون كبقَّة الفراش. ولكن بالمعنى الحَسَن للكلمة. إن جورج لم يؤذِ أحداً قط بسوطه. كان يحب أن يفرقعه، فقط ليُقنِع الأولاد الأشرار القذرين بأنه ليس بالضبط أبله عجوز لا حولَ له ولا قوة.

قال جورج " قاوموا الشيطان وسوف يهرب منكم. اقتربوا أكثر من الرب، وسوف يقترب منكم. نظِّفوا أيديكم، أيها الخطاة؛ طهِّروا قلوبكم،

أيها المترددون ... اتّضعوا أمام مرأى الرب، وسوف يرفعكم "

قلت، وأنا أكبتُ فورةً من الضحك، " إنك تشيع البهجة في نفسي يا جورج. منذ زمن لم ... "

" الخلاص لربنا الجالس على العرش، وللحَمَل ... لا تؤذوا الأرض، ولا البحر، ولا الأشجار، حتى نختم عبيد ربنا على جباههم "

" حسن! اسمع يا جورج، أتَذْ ... "

" ولن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر، لأن الحَمَلَ الجالس في وسط العرش يرعاهم ويقودهم إلى ينابيع مياه حسّية ويمسح الله كل دمعة من عيونهم "

هنا أخرج جورج منديلاً كبيراً، قذراً، وذا نقط حمراء ومسح به عينيه، ومن ثم تمخَّطَ بعنف وقوة " آمين! الحمد لله الذي يوفِّر القوة ويحفظها! "

نهض واقفاً وذهب إلى موقد النار. وعلى الرفّ كانت مخطوطة غير مكتملة مثقَّلة بتمثالٍ صغير يمثِّل إلهة هندوسية ترقص. وبسرعة استدار جورج نحونا وقال " اختم على ما نطقت به الرعود السبعة، ولا تكتبه ... في أيام صوت الملاك السابع، حين يبدأ بالنطق، لن يعود الله لغزاً، كما بشر خدمه وأنبياءه "

عندئذ خُيِّلَ إليّ أني سمعت أحصنة ثائرة في الخارج، فذهبت إلى النافذة لأرى ما الأمر. وكان جورج قد رفع صوته، حتى بات أشبه بصراخٍ يخرج من حنجرته، " مَنْ الذي لا يسمعك، يا رب، ويمجِّد اسمك؟ لأنك قدّوس"

كانت الأحصنة تهزُّ العربة بعنف، والأولاد الأشرار يزعقون بهجة ويغيرون، كما في الماضي، على الفاكهة والخضار. وأومأت إلى جورج

كي يقترب من النافذة. وكان ما يزال يصرخ ... " المياه التي رأيت حيث الزانية جالسة هي شعوبٌ وجموعٌ وأممٌ وألسنةٌ. وأما العشرة القرون[٧]..."

" الأفضل أن تسرع يا جورج، وإلا فراً منك! "

وبسرعة البرق أخذ جورج يتلمّس سوطه واندفع كالسهم إلى الشارع، وسمعته يصرخ " قفي مكانك يا جيزابل، قفي مكانك! "

عاد سريعاً وقدّم لنا سلّة من التفاح وبعض رؤوس القرنبيط. وقال " اقبلا بركات الرب، فلتحلّ عليكما السكينة! آمين يا أخي! المجد يا أختاه! المجد للرب في الأعالي! "، ثم انطلق يبغي عربته، وضرب حصانيه ضربة سريعة بسوطه الطويل، وراح يلوّح بتبريكاته في كل الاتجاهات.

لم أكتشف إلاّ بعد رحيله ببعض الوقت نسخة الكتاب المقدس المهترئة التي نسيها. كانت مزيّتة، وعليها آثار إبهامه، وقد أغار عليها الذباب، ونُزِعَ الغلافان وفُقِدَتْ منه هنا وهناك بعض الصفحات. لقد كنت قد طلبتُ منه نسخة من الكتاب المقدّس وهاأنا قد تلقّيتها. وبدأت بدوري أقول بطلاقة وخطابيّة " ابحث وسوف تجد. أطلب وسوف تُعطى. اقرع الباب وسوف يُفتَح لك ". إن للكتاب المقدّس أثراً مُسكِراً أقوى من الخمور كلها. وفتحتُ الكتاب، لا على التعيين فإذا بي أقع على إحدى الفقرات المفضّلة لدى:

"... وعلى جبهتها اسمٌ مكتوب. سرٌ. بابل العظيمة أم الزواني ورجاسات الأرض.

المرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع. فتعجّبت لما رأيتها تعجّباً عظيماً.

---

٧ – من العهد الجديد . رؤيا يوحنا اللاهوتي : ١٧/ ١٥ – ١٦ . – المترجم .

ثم قال لي الملاك لماذا تعجَّبت. أنا أقول لك سرُّ المرأة والوحش الحامل لها الذي له سبعة الرؤوس وعشرة القرون.

الوحش الذي رأيت كان وليس الآن؛ وهو عتيد أن يصعد من الهاوية ويمضي إلى الهلاك. وسيتعجَّب الساكنون على الأرض الذين ليست أسماؤهم مكتوبة في سفر الحيوة منذ تأسيس العالم حينما يرون الوحش إنه كان وليس الآن مع أنه كائن "[8]

* * *

إن الاستماع إلى المتعصّبين في الدين دائماً يسبب لي الجوع والعطش - أقصد إلى ما يسمّى بطيبات الحياة. إن روحاً مترعة تثير شهية كل أجزاء الجسد وأعضائه. فحالما غادرنا جورج بدأت أتساءل أين يمكنني في هذا الحي الأرستقراطي اللعين أن أجد محل بقالة يبيع كعكاً ذا طبقة عليا هشَّة أو كعك الهلام (pfann kuchen) أو كعك القرفة الدسِم يذوب في الفم. وبعد أن شربت بضع كؤوس أخرى من البورت بدأتَ أفكر في أطعمة أشد غنى، مثل شريحة لحم منقوعة بالخلّ ومتبَّلة وزلابية البطاطا مع كسر من الخبز المقلي العائم في صلصة لحم كثيفة متبلّة ودسمة؛ فكَّرت في كتفٍ من لحم الخنزير الغض المشوي مع تفاح مقلي إلى جانبه، وفي السكالوب ولحم خنزير مملَّح كمشهّيات، وفي فطائر كريب سوزيت، والبندق وجوز البقان البرازيليان، وفي حلوى شارلوت روس، التي لا تُصنَع إلاّ في لويزيانا. كنت على استعداد في تلك اللحظة أن أستسيغ أي شيء دسم، ريَّان، وفاتح للشهية. كنت متلهفاً إلى التهام أطعمة آثمة. أطعمة آثمة مع خمور مثيرة للشهوة الجنسية. وتتويجاً لها جميعاً مشروب الكومل الممتاز.

---

٨ - رؤيا يوحنا اللاهوتي: ١٧/ ٥ - ٨. - المترجم.

حاولت أن أفكِّر في شخص معيَّن يمكننا أن نتأكَّد من أننا سوف نحصل في منزله على وجبة دسمة. (أغلب أصدقائي كانوا يتناولون الطعام في الخارج). والذين خطروا على بالي كانوا يقطنون في مناطق بعيدة جداً أو لم يكونوا من النوع الذي يمكنك أن تقتحم عليهم منزلهم هكذا دون إذن مسبق. ومونا كانت طبعاً متحمِّسة تماماً لفكرة أن نتناول الطعام في مطعمٍ فاره، أن نأكل حتى نكاد ننفجر، وبعد ذلك أن أجلس وأنتظر ريثما تعثر على مَنْ يدفع ثمن الوجبة. أما أنا فلم أستسغ الفكرة كلها. كانت قد نفَّذتها مراراً. ثم إنه قد حدث لي مرة أو مرتين أني بقيت جالساً هكذا طوال الليل في انتظار مجيء أحدهم مع النقود. لا يا سيدي، إذا أردنا أن نأكل كما ينبغي أريد أن يكون المال حاضراً في جيبي.

سألتها " أولاً كم معك من نقود؟ هل فتشتِ في كل مكان؟ "

بدا أننا لم نتمكن من حشد إلاّ اثنين وسبعين سنتاً. كان أجر يوم واحد يعادل ستة أيام بلا أجر. ولم أكن مستعداً – وكنت شديد الجوع – للبدء بالقيام بجولات على مكاتب التلغراف لمجرد بضعة شيكيلات[٩].

قالت مونا " فلنذهب إلى المخبز الاسكتلندي، فهم يقدمون الطعام هناك. إنه بسيط جداً لكنه مشبِّع. ورخيص "

كان المخبز الاسكتلندي قريباً من قاعة بورو. كان مكاناً مُقبِضاً، ذا طاولات أعلاها من الرخام والنشارة تغطي الأرضية. وكان المالكون مَشْيَخيين صارمين من البلد العتيق. يتحدثون بلهجةٍ ذكَّرتني بشكلٍ مزعج بوالديّ ماكغريغور، وكل مقطع يلفظونه يخشخش مثل قطعة نقد

٩ – الشيكل : العملة الإسرائيلية . – المترجم

صغيرة، ويرنُّ كمقبرة. لأنهم كانوا متمدِّنين وكان منتظراً من الزبائن اللائقين أن يُبدوا امتنانهم للخدمة التي يقدمونها.

حصلنا على تشكيلة من عراقيب الخيل وعصيدة منتفخة وكعكة مسطحة مدهونة بالزبد على الجانب وورقة خس رقيقة غير متبّلة للزينة. لم يكن للأكل أي طعم؛ وكان قد طُبِخَ على يد عانس متجهِّمة الوجه لم تشهد دهرها يوم فرح. وكنت أفضِّل أن أتناول طاساً من حساء الشعير يحتوي على بعض كرات من خبز فطير. أو نقانق فرانكفورت مقليّة وسلطة البطاطا، كالتي تستمتع بها عائلة آل برغر.

كان للوجبة أثر رصين جداً. غير أنها تركتني مع هالة من الثمالة. وبدأتُ بشكلٍ ما أكتسب ذاك الإحساس بصفاء الذهن الفائق، الخفيف الذي تشيعه العظام الفارغة والأوردة الشفافة، عرفت فيه لامبالاةً كانت دائماً غير عادية. وكلما فُتِحَ الباب أغارت أصواتٌ مختلطة مزعجة شنيعة على آذاننا. فقد كانت هناك سكّتا حديد لحافلات الترولّلي أمام الباب، وقبالتنا محل للتصوير ومحل لبيع أجهزة المذياع، وعند زاوية الشارع كان هناك زحام مرور دائم. وحين نهضنا استعداداً للمغادرة كانت الأضواء قد بدأت تُضاء. ووضعت خلالاً في زاوية فمي كنت أمضغه برضى، وكانت قبعتي تميل فوق إحدى أذني، وحالما وطأت أرض الرصيف أدركت أنها كانت أمسية رائقة بشكل رائع، في أحد أيام أواخر الصيف. وأغارت عليّ نتفٌ غريبة من الأفكار. فمثلاً، كنت أعود باستمرار إلى أحد أيام صيف ما قبل خمس عشرة سنة حين استقلتُ، في تلك الزاوية بالذات حيث يختلط الآن الحبل بالنابل في هرجٍ وصخب، استقلت حافلة مع صديقي الحميم ماكغريغور. وكانت حافلة مفتوحة وكنا

متوجهين إلى مرفأ شيبشيد، وأنا أتأبَّط نسخة من رواية " سانين "[١٠]. وكنت قد انتهيت من قراءة الكتاب ونويت أن أعيره لصديقي ماكغريغور. وبينما أنا أتأمَّل في الصدمة الممتعة التي سببها لي هذا الكتاب المنسي سمعت اندفاعاً مفاجئاً لموسيقى مألوفة بشكل غريب صادرة من مكبِّر صوت موجود في محل بيع أجهزة المذياع في الطرف الآخر من الشارع. توقفت في مكاني وكأني مزروعٌ هناك. لقد كان الكانتور سيروتا يرتِّل إحدى تراتيل الكنيس العتيقة. وكنت أعرفها جيداً لأني استمتعت إليها مرات عديدة. وفي وقت ما كنت قد اقتنيت كل اسطوانة له متوفرة. وقد اشتريتها " بسعر مرتفع! "

نظرت إلى مونا لأتبيَّن نوع الأثر الذي خلَّفته الموسيقى عليها. كانت عيناها مخضّلتان بالدمع، ووجهها مشدوداً. فأمسكت بهدوء بيدها. بقينا هكذا بضع دقائق حتى بعد أن سكتت الموسيقى، ولم يحاول أي منا أن ينطق بكلمة.

أخيراً غمغمتُ - " أتعرَّفتِ عليها؟ "

لم تحُر بجواب. كانت شفتاها ترتعشان. وشاهدت دمعة تتدحرج على وجنتها.

" مونا، عزيزتي مونا، لمَ أخفيتِ الأمر عني؟ أنا أعرف كل شيء. كنت أعرف منذ زمن طويل ... أظننتِ أني سأخجل منك؟ "

" لا، لا يا فال. فقط لم أقوَ على إخبارك. لا أدري لماذا "

" ولكن ألم يخطر ببالك، يا عزيزتي مونا، أني أحبك أكثر فقط لأنك يهودية؟ وأنا لا أعرف لماذا أقول هذا، لكنها حقيقية. أنت

---

١٠ - " سانين " : رواية للروسي آرتزيباشيف (١٨٧٨ - ١٩٢٧) . - المترجم .

تذكرينني بنساءٍ عرفتهن وأنا صبي - في العهد القديم. راعوث، نعمي، استير، راحيل، ورفقة ... لطالما تساءلت وأنا صبي لماذا لا تسمًى إحدى من أعرفهن بمثل تلك الأسماء. لقد كانت بالنسبة إليّ أسماءً ذهبية ".

طوّقتُ خصرها بذراعيّ. كانت عندئذ تجهشُ تقريباً بالبكاء، " لنبق قليلاً. ثمة شيء آخر أيضاً أريد أن أقوله. أقصد ما أقوله لك الآن، أريد منك أن تعرفيه. إني أتكلّم من أعماق قلبي. وهذا ليس شيئاً خطر ببالي الآن فقط، فمنذ وقت طويل وأنا أريد أن أفتح هذا الموضوع معك "

" لا تقل شيئاً، يا فال. أرجوك كفى "، ووضعتْ يدها على فمي لتسكتني. سمحت لها أن تستقر هناك بضع هنيهات، ومن ثم سحبتها برفق.

ناشدتها " دعيني أقول. لن أؤذيك. كيف يمكنني أن أؤذيك أو أجرحك الآن؟ "

" لكني أعرف ماذا تنوي أن تقول. وأنا ... أنا لا أستحقه "

" هراء! الآن اسمعيني ... أتذكرين يوم تزوجنا ... في هوبوكن؟ أتذكرين تلك المراسم القذرة؟ أنا لم أنسها قط. اسمعيني، إليك ما كنت أفكّر فيه ... لنفرض أني دخلت في اليهودية - لا تضحكي! أنا جادّ. ما الغريب في الأمر؟ فبدل أن أصبح كاثوليكياً أو مُسلماً سأصبح يهودياً، ولأفضل سبب في العالم "

" وهو؟ "، ونظرت مباشرة في عيني وكأنها لا تعرف أي شيء.

" لأنك يهودية وأنا أحبك - أليس سبباً كافياً؟ إني أعشق كل ما يتعلّق بك ... فلمَ لا أعشق ديانتك، وعرقك، وعاداتك وتقاليدك؟ إنني لست مسيحياً، وأنت تعلمين ذلك. أنا نكرة. إنني لست حتى " غوي"[١١]... اسمعي، لمَ لا نذهب إلى حاخام ونتزوج بأسلوبٍ أورثوذوكسي حقيقي؟ "

---

١١ - غوي : بلغة اليديش ، لقب مَنْ ليس من اليهود . - المترجم .

كانت قد بدأت تضحك وكأن خاصرتيها تكادان تنفجران. وشعرت بشيء من الإهانة، فقلت " أنت تعتقدين أني لا أصلح لهذا، أليس كذلك؟ "

هتفت " كفى! أنت أحمق، مهرج، وأنا أحبك. أنا لا أريدك أن تصبح يهودياً ... على أي حال لن تتمكّن أبداً من أن تصبح يهودياً. أنت شديد ... شديد التطرُّف. ومهما يكن، يا عزيزي فال، أنا أيضاً لا أريد أن أكون يهودية. ولا أريد أن أسمع المزيد عن الموضوع. أرجوك، لا تفتح الموضوع مرة أخرى. أنا لست يهودية؛ لست أي شيء. أنا فقط امرأة - وليذهب الحاخام إلى الجحيم! هيا، هيا بنا إلى المنزل ... "

سرنا إلى المنزل يلفّنا صمتٌ مطبق، ليس صمتاً عدائياً بل صمت كئيب. وبدا الشارع العريض، الأنيق، الذي نقطن فيه متكلّفاً ومحترماً أكثر من أي وقت مضى، شارعاً بورجوازياً قلباً وقالباً ولا يهودياً من النوع الذي لا يسكنه إلاّ البروتستانت. ومداخل البنايات الكبيرة ذات الحجارة البنّية، بعضها بدرابزين ضخم حجري، والبعض الآخر بدرابزين حديدي رقيق، تُضفي على الأبنية لمسة فخيمة، رزينة.

بينما نحن نلج عش حبنا كنت مستغرقاً في تفكيرٍ عميق. راحيل، استير، راعوث، نعمي - تلك الأسماء الإنجيلية العريقة الرائعة لا تني تلحُّ على خاطري. ثمة ذكرى سحيقة في القدم تتململ في أسفل جمجمتي، تحاول أن تُسمِعَ صوتها ... " أينما تذهبين أذهب؛ وحيثما تبيتين أبيتُ؛ شعبك شعبي، وإلهك إلهي ". ضجَّت الكلمات في أذني، لكني لم أتمكّن من تحديد موقعها. إن العهد القديم يتّصف بهذه الرشاقة الخاصة، بسِمة التكرار هذه التي تجذب بقوة الأذُن الأنغلوساكسونية.

فجأة برزت هذه العبارة: " لِمَ وجدتُ الحُسنَ في عينيكِ، حتى سرقتِ المعرفة مني، وأنا الغريب؟ "

عندئذ تصوَّرتني مرة أخرى صبياً صغيراً على كرسي صغير الجانب النافذة في الحي القديم. كنت مريضاً وأتماثل ببطء إلى الشفاء. وكان أحد الأقارب قد أحضر لي كتاباً كبيراً ورقيقاً مزوَّداً بصورٍ مذهلة. كان عنوانه " حكايات من الكتاب المقدَّس ". ويضمُّ قصة كنت أقرأها وأعيد قراءتها - عن دانيال في عرين الأسود.

مرة أخرى أراني، هذه المرة أكبر سناً قليلاً، ولا أزال أرتدي بنطالاً قصيراً، جالساً في صف أمامي في الكنيسة المشيخية حيث تعلَّمتُ أن أكون جندياً. الكاهن رجل عجوز جداً يدعى المحترم الدكتور دوسن. اسكتلندي، لكنه روحُ رقيق القلب، عطوف، محبوب من رعيته. يقرأ مقاطع طويلة من الكتاب المقدس على طائفته قبل أن يبدأ موعظته. وكان يستغرق منه ذلك أيضاً وقتاً طويلاً، فأولاً يتمخَّط بقوة وعنف، ثم يدسُّ المنديل داخل ذيل معطفه الفراك، ويشرب جرعة كبيرة من الماء من إبريق موجود بجانب المِقرأ، ثم يتنحنح ثم يوجِّه نظره نحو السماء، الخ، الخ. وهو لم يعد خطيباً مفوَّهاً. إنه طاعن في السن وكثيراً ما يصبح كلامه مفككاً وغير مترابط. وحين يضيِّع الخط العام يتناول الكتاب المقدس ويعيد قراءة آية أو اثنتين لينعش ذاكرته. إني واعٍ لأخطائه بوضوح شديد؛ فكنت أنتفض على مقعدي وأتململ خلال لحظات نسيانه تلك. وكنت أشجِّعه بصمت بكل ما أوتيت من قوة.

أما الآن، وأنا جالس يلفّني ضوءُ خافتٌ في عش الحب الكامل الأوصاف، أدرك فجأة من أين أَخِذَتْ كل تلك المقاطع التي وردت على

شفتيّ. فأتوجّه إلى خزانة الكتب وأخرج نسخة الكتاب المقدس العتيقة المهترئة التي تركها جورج المجنون عندنا. أقلّب الصفحات بلا تركيز، وأنا أفكّر بحنان في العجوز دوسن، وأفكر في صديقي الصغير جاك لوسن، الذي مات وهو صغير جداً وكانت ميتة شنيعة، وأفكر في الطابق التحت أرضي من الكنيسة المشيخية العتيقة وفي التراب الذي أثرناه ونحن ندرّب الفِرَق والكتائب في كل ليلة، ونحن مرصّعون بشرائط الرُتَب العسكرية وشاراتها، والكتفيات، والسيوف، والطماقات والأعلام، وقرع الطبول يصمُّ آذاننا، ونفخ الأبواق يمزّق طبلات آذاننا. ومع مرور هذه الذكريات جيئة وذهاباً تتردد في أذنيّ آيات الكتاب المقدس الشجيّة التي كان المحترم الدكتور دوسن يلفّها مثل فيلم من ثماني بكرات.

الكتاب مفتوح على الطاولة، إنه، ويا للمصادفة، مفتوح على فصل يدعى راعوث. عنوانه بأحرف كبيرة: **سفر راعوث**. وفوقه، الآية الأخيرة والخامسة والعشرون من " القضاة "، آية عظيمة منبعها يكمن أبعد كثيراً من الطفولة، بعيداً بعيداً في عمق التاريخ حتى أنه ليس في مقدور أي إنسان أن يتذكّر غير عجائبيتها:

" في تلك الأيام لم يكن ملكٌ في إسرائيل. كلُ واحدٍ عَمِلَ ما حَسُنَ في عينيه "

في أية أيام؟ تساءلت. متى كانت تلك الفترة المجيدة ولماذا نسيها البشر؟ في تلك الأيام لم يكن ملكٌ في إسرائيل. هذه ليست مأخوذة من تاريخ اليهود، هذه تقع خارج تاريخ البشر. هكذا بدأ الإنسان، في مقامٍ رفيع، بإجلال، بتشريف، وبحكمة. كل واحد عمل ما حَسُنَ في عينيه. هنا، وبكلمات قليلة، يكمن سر المجتمع الإنساني المحترم والسعيد. في

يوم من ذات الأيام عَرِفَ اليهودُ مثل هذا الوضع من الحياة. في يومٍ من ذات الأيام عرفه الصينيون أيضاً، والمانيون، والهندوس، والبولينزيون، والأفارقة، والإسكيمو.

بدأت أقرأ سفر راعوث، الذي يتحدث عن نعمي والموآبيين، وعند الآية العشرين تكهربت: " فقالت لهم لا تدعوني نعمي بل ادعوني مُرَّة لأن القدير قد أمرَّني جداً ". وفي الآية الحادية والعشرين تتابع: " إني ذهبت ممتلئة وأرجعني الرب فارغة ... "

ناديت على مونا، التي كانت ذات مرة مَرَه، لكني لم أتلقَّ جواباً. بحثت عنها فلم أجدها ... عدتُ إلى الجلوس، والدموع تخضِّل عينيّ، وأنا أتتبَّع بإصبعي عبر الصفحات المهترئة الممزقة. لن يكون هناك جسر، ولا موسيقى كنسيّة عُلويّة ... ولا حتى مقدار قُفَّة من الشعير. لا تدعوني نعمي بل ادعوني مُرَّة! ومَرَه تبرَّأت من قومها، تبرَّأت حتى من الاسم الذي منحوها. كان اسماً مُراً، غير أنها لم تكن تعرف معناه. شعبكِ شعبي، وإلهكِ إلهي. لقد تركتْ حظيرة الجماعة وابتلاها الرب بالأسى.

نهضتُ ورحتُ أتمشّى. كان جو المكان العام يتَّسم بالأناقة، والبساطة والصفاء. كنت منتبهاً بعمقٍ ولكن ليس حزيناً بأي حال. شعرت كأني حيوانٌ رأسيّ الأرجل يسير على رمالِ الزمن. دفعت الباب الدوَّار الذي يفصل شقتنا عن الشقة الخالية الخلفية. أضأتُ شمعداناً موجوداً في الزاوية النائية من الشقة الخالية، فأرسل زجاج النوافذ الملوَّن وَهَجاً خامداً. وتنقَّلتُ وسط الظلال، مُرسِلاً العنان لأفكاري. كان قلبي مرتاحاً، وكنت بين الفينة والأخرى أتساءل بمزاجٍ حالمٍ أين عساها ذهبت.

كنت أعرف أنها سرعان ما ستعود ويرتاح بالي. وتمنَّيت أن تتذكَّر وتدفع معها شيئاً من الطعام. لقد كنت مستعداً أن أتناول مزيداً من الطعام وأرشف قليلاً من النبيذ. وقلت في نفسي، إني في مزاجٍ ممتاز حتى أني يجب أن أجلس وأكتب. لقد كنت يانعاً، ومنفتحاً، وسَلساً، وقابلاً للذوبان. ورأيت كم هو سهلٌ، إذا ما توفَّرت البيئة المناسبة، أَن أنتقل من حياة المستخدَم المستأجَر، الكديش، العبد، إلى حياة الفنان. لذيذٌ أن يكون المرء وحيداً، أن يرتع في بحرِ أفكاره ومشاعره. وغاب عن ذهني تماماً أني يجب أن أكتب عن شيءٍ ما؛ وكل ما فكَّرت فيه هو أني ذات يوم، وأنا في مزاجٍ شبيه بهذا، سأكتب. والمهم في الأمر كان أن أحافظ على هذه الحالة التي أنا فيها على الدوام، أن أشعر كما أفعل الآن، أن أُصدِرَ موسيقى. لقد كان ذاك هو حلمي منذ عهد الطفولة، أن أجلس بهدوء وأصدر موسيقى. وكان قد بدأ يدخل في خَلَدي أنه من أجل إصدار الموسيقى يحتاج المرء أولاً إلى أن يجعل من نفسه آلة موسيقية ممتازة، حسّاسة؛ أن يكفَّ عن العيش وعن التنفُّس؛ أن يُقلِعَ على مزلجة معجَّلة؛ أن يقطع كل صِلة له بالعالم الخارجي؛ أن يُقيمَ حواراً سرِّياً مع الله كشاهدٍ عليه. أه نعم، هذا هو الأمر. هو كذلك حقاً. وفجأة أصبحتُ متيقِّناً بدون أدنى شك مما كنت قد أدركته بهدوء ... "لأنَّ الرب إله غيور ..."

فكَّرتُ، إنَّ الغريبَ في الأمر هو أنَّ أغلبَ مَنْ كنتُ أعرفهم حينئذ اعتبروني كاتباً، على الرغم من أني بالكاد فعلتُ أي شيء لأُثبتَ ذلك عملياً. وكانوا يفترضون هذا ليس فقط بسبب سلوكي، الذي طالما كان غريب الأطوار وهوائياً، وإنما بسبب شغفي باللغة. فمنذ أن تعلَّمت

القـراءةَ والكتـابُ لا يكاد يفـارقني. وأول إنسـان غـامـرتُ بالقـراءة له بصـوتٍ عـالٍ كـان جدّي؛ كنت أجلس على حافـة دكّـة العمـل حيث كـان يجلس ويخـيط المعـاطف. وكـان جدي فـخوراً بي لكنه كـان أيضـاً يشـعر بالرعـب عليّ. وأذكـره وهو يحـذّر والدتي من أنه من الأفـضل أن تُبـعـدَ الكتبَ عن متناولي ... وبعد ذلك ببضع سنوات فقط كنت أقرأ بصـوتٍ عـالٍ لصديقيَّ الصغـيرين، جـوي وتوني، لدى زيارتي لهـمـا في الريف. وأحيـاناً كنت أقـرأ لحفنة من الأولاد المتجمّعين حـولي. كنت أقـرأ وأقـرأ حتى يغالبـهم النوم وهم وقوفٌ، حتى وهم في العراء على رصيف القطار المرتفع. وأغـادر القطار وأنا لا أزال أقـرأ ... أقـرأ الوجـوه، أقـرأ الإيماءات، أقـرأ طُرُقَ المشي، أقـرأ فن العمارة، أقـرأ الشـوارع، الرغبات العـارمـة، الجـرائم. كنت ألاحظ كل شيء، نعـم كل شيء، أحلّله، أقـارنه وأصفـه - لأستخدمـه في المستقبل. وعند دراستي لشيءٍ، لوجهٍ، لواجهة بناءٍ، كنت أدرسـه بالطريقـة التي سـوف يدوَّن بهـا على الورق (لاحـقـاً) ضـمن كتـاب، بما فـيـه الصـفـات، والأحـوال، وأحرف الجر، وأهلّة الجـمل المعتـرضـة ومـا إليـهـا. وقبل حتى أن أبدأ بالتخطيط للكتـاب الأول كـان ذهني يعجُّ بمئات الشـخصيـات الأدبية. لقد كنت كتـاباً متكلّماً، يسـير على قـدمين، خُلاصـة مـوسـوعـيّـة وافـيـة كـانت تنتـفخ باطّراد مـثل ورمٍ خبـيث. وحين كنت ألتقي مـصادفـةً بصديقٍ أو بأحدِ المعـارف، أو حـتى بشـخصٍ غريب، كنت أواصلُ الكتـابةَ أثناء تبادل الحديث معه. ولم يكن يستغرق مني أكثر من بضع ثوانٍ لأدير دفّة الحديث إلى قـناتي الخاصة، لأثبِّتْ ضحـيتي بعينٍ منوِّمـةٍ وأغرِقُهـا. فـإذا كـان الشـخص الذي قـابلتـه امرأة كـانت المهمة أسـهل. فالنسـاء يستجبنَ إلى مثل هذا التأثير بصورة

أفضل بكثير مما يفعل الرجال، كما لاحظت. أما أفضل إنجاز قاطبة فيكون مع شخصٍ أجنبي. لقد كانت لغتي دائماً تُشمِل الشخص الغريب، أولاً لأني أبذل مجهوداً لأكلِّمه بأسلوبٍ واضح وبسيط، وثانياً لأنَّ تسامحه وتعاطفه العظيمين كانا يُخرِجان أفضل ما عندي. ومع الأجنبي كنت أتكلَّم وكأني على معرفةٍ بأساليبِ وتقاليدِ بلده؛ وكنت دائماً أتركه مع انطباعٍ بأني أقدِّر بلده أكثر من تقديري لبلدي، وهي الحقيقة عادة. وكنت دائماً أزرع فيه رغبةً في أن يطّلع بشكل أفضل على اللغة الإنكليزية، ليس لأني أعتبرها أفضل لغة في العالم وإنما لأنه لا أحد ممَّن أعرفهم كان يستخدمها بكل إمكاناتها.

إذا كنتُ أقرأ كتاباً وتصادفَ أني وقعتُ على فِقرةٍ رائعة أُغلقُ الكتاب على الفور وأخرج لأتمشّى. كنت أكره فكرة الانتهاء من قراءة كتابٍ جيد. كنت أزعجه على طول الخط، أؤخِّر المحتوم قدر الإمكان. لكني في الغالب كنت، حين أقع على فقرةٍ عظيمة، أكفّ عن القراءة في الحال، وأنطلق إلى الخارج سواء أكانت تمطر، أو تُنزِلُ بَرَداً، أو ثلجاً أو جليداً، وأستغرقُ في التأمُّل. يمكن للإنسان أن يمتلئ حتى الزبى بروحِ مخلوقٍ آخر حتى ليخشى ودون مبالغة أن ينفجر. إني أدَّعي أنَّ كل إنسانٍ قد مرَّ بهذه التجربة. ودعني أشرح أنَّ هذا " المخلوق الآخر " هو دائماً نوعٌ من الـ alter ego (الأنا الآخر). والمسألة ليست مسألة التعرُّف على روحٍ شقيقة، بل هي مسألة تعرُّف على ذاتك؛ أن تقف فجأة وجهاً لوجه مع ذاتك! يا لها من لحظة! إنك بإغلاقك الكتاب تواصلُ عملية الخلق. وهذا الإجراء، هذا الطقس، إن صحَّ التعبير، دائماً واحد: اتِّصالٌ فوريٌّ يجري على الجبهات كلها. زوالٌ تامٌ للحواجز. وعلى الرغم

من أنك تكون أشدّ عزلة من أي وقت مضى ـ إلاّ أنك مع ذلك تكون أكثر التصاقاً بالعالم من أي وقتٍ آخر. تكون مندمجاً فيه . وفجأة يتكشَّفُ لك أنه حين خلق اللهُ العالمَ لم يتركه ليجلس ويتأمَّل - في مكانٍ ما من الأعراف[١٢]. إن اللهَ خلقَ العالمَ ومن ثم وَلَجَهُ: هذا هو معنى الخليقة.

١٢ – الأعراف : موطن الأرواح التي تُحرَم من دخول الجنة لغير ذنبٍ اقترفته . أو أي مكانٍ منزوٍ بعيد . أو هو رديف غياهب النسيان ، أحياناً .– المترجم .

٣

لم نستمتع إلاّ بقضاء بضعة أشهر من النعيم في عش الحب الياباني. وكنت أقوم مرة في الأسبوع بزيارتي إلى مود والطفلة، وأعطيهما النفقة، ثم أذهب لأتمشّى في الحديقة العامة. كانت مونا قد حصلت على عملها في المسرح وكانت تنفق على أمها وأخويها القويين من مداخيلها. وكنت أتناول الطعام مرة كل عشرة أيام في محل البقالة الفرنسي-الإيطالي، عادة من دون مونا لأنه كان عليها أن تلتحق بالمسرح باكراً. وأحياناً كنت أزور ألريك لألعبَ معه مباراة هادئة بالشطرنج. كانت الجلسة عادة تنتهي بنقاشٍ عن الرسامين وكيف يرسمون. وأحياناً كنت أكتفي بالتمشّي في المساء، غالباً في أحياءٍ خاصةٍ بالأجانب. وكثيراً ما كنت أمكث في المنزل أقرأ أو أدير الحاكي. وكانت مونا تصل عادة إلى البيت قرابة منتصف الليل؛ فنتناول وجبةً خفيفة، ونتجاذب أطراف الحديث بضع ساعات، ومن ثم نلجأ إلى السرير. وأصبح يشقُّ علينا أكثر فأكثر أن ننهض في الصباح. وكان وداع مونا دائماً بمثابة الصراع. وأخيراً حدث أني ابتعدت عن المكتب ثلاثة أيامٍ متواصلة. وكانت تلك فسحةً كافية لتجعل عودتي مستحيلة. ثلاثة أيام مجيدة بلياليها، أفعل فيها بالضبط ما يحلو لي، آكل جيداً، أنام مطوّلاً، أستمتع بكل دقيقة من النهار، أشعر بغنى

داخلي لا حدَّ له، فاقداً كلَّ طموحٍ لأتصارعَ مع العالم، متلهِّفاً لأبدأ حياتي الخاصة، واثقاً من المستقبل، نافضاً يدي من الماضي، فكيف يمكنني أن أعود إلى النير؟ ثم إني شعرت أني أسبب لكلانسي، رئيسي في العمل، جوراً فادحاً. ولو كنت أتَّصفُ بأي قدرٍ من الولاء والاستقامة لأخبرته أني قد مللت. وكنت أعرف أَنه يدافع عني باستمرار، ودائماً يختلق الأعذار لأجلي وينقلها إلى رئيسه هو، المستقيم الورع السيد توليلغر. وبما أن سبيفاك دائماً يتقصّى عني فإنه، عاجلاً أو آجلاً، يحصل على ما يثبت جريمتي. وكان مؤخراً يقضي ردحاً طويلاً من وقته في بروكلن، وداخل حيِّنا نفسه. كلا، لقد انتهى اللعب. حان وقت الاعتراف بكل شيء.

في اليوم الرابع استيقظت باكراً وكأنما استعداداً للتوجّه إلى مركز العمل. وانتظرت إلى أن بتُّ مستعداً للمغادرة قبل أن أفضي بما جال في خاطري لمونا. وابتهجت أيما ابتهاج للفكرة حتى أنها ناشدتني أن أستقيل من فوري وأعود لنتناول طعام الغداء. وارتأيتُ بدوري أنه كلما انتهيت بسرعة كان أفضل. ولا شك في أن سبيفاك سوف يعثر على مدير للمستخدمين في وقت قياسي.

حين وصلت إلى المكتب وجدت أن حشداً غريباً من طالبي العمل في انتظاري. وكان هيمي على مكتبه وأذنه ملتصقة بالهاتف، يقوم بالوصل الهستيري على لوحة المفاتيح كالمعتاد. وكان هناك الكثير من الأماكن الشاغرة الجديدة بحيث أنه حتى لو كان لديه جيش من بيانات الشحن لمعالجة الأمر لظل على رغم ذلك عاجزاً. وعدت إلى طاولة مكتبي وأفرغتها من متعلقاتي الشخصية، وجمعتها في حقيبة صغيرة، وأومأت إلى هيمي أن اقتربْ.

قلت " هيمي، أنا مستقيل. أتركُ لك أمر إعلام كلانسي أو سبيفاك "

نظر هيمي إليّ وكأني استقلتُ من صوابي. وساد صمتُ مرتبك ومن ثم سألني بنبرة صوت طبيعية عما سأفعله بشأن مرتّبي. فقلت " فليحتفظوا به ".

زعق " ماذا؟ ". هذه المرة، كما رأيت، تيقَّنَ بما لا يدعو إلى الشك من أني قد جُننتُ.

" لم يطاوعني قلبي على أن أطلب أجري بما أني مستقيل دون سابق إنذار، ألا تفهم؟ إني آسف لأني سأتركك أنت وسط الورطة، يا هيمي. ولكن أنت أيضاً، كما أعلم، لن تبقى هنا طويلاً "، وتبادلنا بضع كلمات أخرى ثم رحلت. وقفت خارج واجهة العرض الكبيرة بعض الوقت لأراقب طالبيّ التعيين يتصبَّبون عرقاً ويموجون في المكان. لقد انتهى الأمر. كأنَّه عملية جراحية. ولم أصدِّق أني أمضيت ما يقارب الخمس سنوات في خدمة هذه الشركة العديمة الرحمة وعرفتُ كيف يكون شعور الجندي لدى صرفه من الخدمة.

حرًا! حرًا! حرًا!

بدل أن أغوص على الفور داخل القطار النفقي رحت أتمشّى في شارع برودواى، فقط لأختبر كيف يكون الشعور بالاستقلال الذاتي وبالحرية في مثل تلك الساعة من الصباح. مساكين زملائي العاملون، هاهم يَعْدون إلى مراكز أعمالهم، وكلهم يحملُ تلك السِحنة المتجهمة، المستعجلة التي أعرفها حقّ المعرفة. بعضهم كان قد بدأ يسحق الرصيف، وكله أمل حتى في مثل تلك الساعة المبكرة في تلقِّي طلبيّة،

أو في بيع بوليصة تأمين، أو في إعداد إعلانٍ تجاريّ. كم يبدو غبياً، عقيماً، وأحمقَ سباقُ الجرذان ذاك. ولطالما بدا لي مجنوناً، أما عندئذ فتكشَّفَ لي أنه أيضاً شيطانيّ.

ليتني ألتقي مصادفةً سبيفاك! ليته يسألني ماذا أقصد بتسكُّعي هكذا على هواي!

رحتُ أسير على غير هدى لمجرد متعة إثارة تذوُّق طعم حريتي الجديدة، كنت أستمدُّ متعةً منحرفةً من مراقبتي العبيد وهم يُنجِزون جولاتهم المقررة لهم. إنَّ الحياةَ بأكملها منبسطة أمامي، وفي غضون بضعة أشهر سأكمل عامي الثالث والثلاثين - " وأنا سيدٌ مطلق على ذاتي ". وأخذتُ عهداً على نفسي في الحال على ألاّ أعمل أبداً تحت إمرة أيِّ كان. لن أتلقّى أية أوامر بعد الآن. أشغالُ العالمِ مُخصَّصةٌ للآخرين - أما أنا فلن أشارك فيها. أنا موهوب وسوف أصقل موهبتي. سوف أغدو كاتباً أو أموتُ جوعاً.

في طريق عودتي إلى المنزل توقَّفتُ في محلٍ لبيع الأسطوانات الموسيقية واشتريت مجموعة اسطوانات - كانت رباعيّة لبيتهوفن، حسب ما أذكر. وفي حي بروكلن اشتريتُ باقةَ أزهارٍ وحصلتُ بالحيلةَ على زجاجةٍ من الكيانتي من المخزون الخاص لصديقٍ إيطالي. سوف تبدأ الحياة الجديدة بغداءٍ عامر - وبالموسيقى. سوف يتطلَّب الأمر الكثير من العيش الرغيد لمسح كل ذكرى الأيام، والشهور، والسنين التي سفحتها في الطاحونة الكونيّة المتعضّية. إن التخلّي التامّ عن القيام بأي عمل لفترة من الوقت، وقضاء الأيام في التبطُّل لهو أسمى أسلوبٍ في تمضية الوقت قاطبةً!

إنه شهر أيلول الرائع؛ أوراق النبات يتحوّلُ لونها وفي الهواء تشيعُ رائحة الدخان. الجو حار وبارد في وقت واحد. وما زال في الإمكان اللجوء إلى شاطئ البحر للسباحة. ثمة أمورٌ كثيرة أودُّ أن أقوم بها دفعةً واحدةً حتى لأكاد أقفز من جلدي. أولاً سوف أحصل على آلة بيانو وأبدأ في العزف من جديد. بل وقد أبدأ بممارسة الرسم. وبينما تركتُ لخيالي العنان ليحلّق، إذ به فجأة يستقر على صورة حبيبة. الدراجة! كم يكون رائعاً لو أستعيد دراجة السباق خاصتي ثانية! وكنت قبل فقط سنتين قد بعتُها لابن عمي الذي يقطن في الجوار. لعله يبيعها لي من جديد. كانت من طرازٍ خاص وكنت قد التقطتُها من سبّاق دراجات ألماني في نهاية سباقٍ دام ستة أيام. صُنِعَتْ في تشمنيتز، في بوهيميا. أه، ولكن لقد مضى وقت طويل منذ أن قمت بزيارة منطقة كوني آيلند. يا لروعة أيام الخريف! لقد خُلِقَتْ خصيصاً لركوب الدراجة. وصلّيتُ كي لا يكون ابن عمي الأحمق قد بدّلَ السرج؛ لقد كان سرجاً من نوع بروكس ومطواعاً جداً. (وتلك الأشرطة التي تثبّت حول مثبِّت أصابع القدمين، آمل ألاّ يكون قد رماها أيضاً) وحين أسترجعُ إحساسي بقدمي وهي تنزلق داخل مُثَبِّت أصابع القدمين، أختبرُ من جديد ألذّ الأحاسيس قاطبة. وهاأنا أراني الآن ممتطياً الدراجة على طول الدرب المُحصّى تحت قوسٍ من الأشجار التي تمتدُ من حديقة بروسبكت وحتى كوني آيلند، وإيقاعي يتناغم مع إيقاع الآلة، ورأسي خالٍ تماماً، إلاّ من الإحساس بالانطلاق في المدى، سريعاً أو بطيئاً، وفقاً لما يمليه عليّ مقياس الزمن الدقيق الموجود داخلي. المشهد العام المترامي على كلا الجانبين يتساقط مثل أوراق الروزنامة. لا أفكار، ولا حتى أحاسيس. فقط تقدُّم أزليٌ في

المدى، متناغم مع الآلة... نعم، سأعود من جديد إلى قيادة الدراجة - في صباح كل يوم - لمجرَّد أن أنظِّم دفق دمي. مشوار قصير إلى كوني آيلند وعودة، ثم دش وتدليك للجسم، وإفطار لذيذ، ومن ثم إلى العمل. على طاولة الكتابة خاصتي، طبعاً. لا عمل، بل لعب. الحياة بأكملها تمتد أمامي ولا شيء غير الكتابة أفعله. ما أروع ذلك! يبدو لي أنَّ كل ما عليّ أن أفعله هو أن أجلس، وأفتح الصنبور، ويجري الدفق. فإذا كان في مقدوري أن أكتب رسائل من عشرين وثلاثين صفحة بدون توقُّف، فلا شك في أنَّ في استطاعتي أن أؤلِّف كتباً بالسهولة نفسها. إنَّ الناس كلّهم يلاحظون الكاتب فيَّ: كل ما عليَّ أن أفعله كان أن أجعل من ذلك واقعاً.

بينما كنت أصعد منحدراً بسرعة لمحتُ مونا تتجوَّل في رداء الكيمونو. كانت النافذة الكبيرة ذات الإفريز الحجري مشرَّعة واسعاً. وقفزت عبر الدرابزين ودخلت من النافذة.

هتفت، وأنا أقدِّم لها الأزهار، والنبيذ، والموسيقى، " حسنٌ، لقد فعلتها! اليوم نبدأ حياة جديدة. لا أدري كيف سنعيش، لكننا سوف نعيش. هل الآلة الكاتبة على ما يرام؟ هل لديك طعام من أجل الغداء؟ هل أطلب من ألريك أن ينضم إلينا؟ إني أتفجَّر بالانفعال. اليوم في إمكاني أن أخضع لمحاكمة تحت التعذيب وأخرج منها منتشياً. دعيني أجلس وأنظر إليكِ. هيا، تنقَّلي في المكان كما كنت تفعلين قبل دقيقة. أريد أن أختبر شعوري وأنا جالس هنا دون أن أفعل أَي شيء "

صَمَتُّ لأتيحَ لمونا فرصةً لتستجمع أنفاسها. ومن ثم عدت أتدفَّق من جديد.

" لم تكوني واثقة من أني سوف أفعلها، أليس كذلك؟ إنني ما

كنت فعلت لولاكِ. تدرين، إنَّ من السهل على المرء أن يتوجَّه إلى مركز العمل في كل يوم. أما الصعب فأن يبقى حراً. لقد فكَّرتُ في كل شيء تحت الشمس مما أرغب في عمله، الآن بعد أن كسرتُ قيدي وتحرَّرتُ. أريد أن أنجز أعمالاً. يخيَّلُ إليّ أني كنت واقفاً دون حِراكٍ طوال خمس سنين "

بدأت مونا تضحك بهدوءْ، وردَّدت " تنجز أعمالاً؟ ولكنك أشدُّ المخلوقات حيوية. كلا، يا عزيزي فال، إن ما تحتاج إليه هوألاّتفعل أي شيء. لا أريدك حتى أن تفكِّر في الكتابة ... ليس قبل أن تحصل على فترة راحة طويلة. ولا تقلق بشأن تكاليف معيشتنا. دع هذا لي. وإذا كان في مقدوري أن أنفق على عائلتي الكسول فإن في استطاعتي حتماً أن أُنفق عليك وعلى نفسي. على أي حال، دعنا من التفكير في هذه الأمور الآن "

بعد هنيهة أردَفَتْ " هناك برنامج رائع في البالاس. روي بارنز هناك. إنه أحد المفضَّلين لديك، أليس كذلك؟ وهناك ممثل هزليّ كان يعمل في مسرح المنوعات - نسيت اسمه. إنه مجرَّد اقتراح "

جلست هناك مذهولاً، وأنا معتمرٌ قبعتي، وقدماي ممدودتان أمامي. شيء أروع من أن يُصَدَّق. شعرت وكأني الملك سليمان. بل وأفضل من الملك سليمان في الواقع، لأني طرحتُ عني كل المسؤوليات. طبعاً سأذهب إلى المسرح. أي شيء أفضل من حضور حفلة نهارية في نهار يشيع روح التكاسل؟ سوف أتَّصل بألريك في وقتٍ لاحق وأدعوه لتناول العشاء معنا. إنَّ يوماً مشهوداً كهذا يجب أن تشارك به أحداً، ومَنْ أجدرُ بالمشاركة من صديقٍ صدوق؟ (ثم إني كنت أعرف ماذا كان ألريك سيقول: " ألا ترى أنَّ من الأفضل ... ؟ أوه، ماذا أقول بحق

الجحيم؟ أنت أدرى ... "، الخ) كنت مستعداً لسماع أي شيء من ألريك. إن شَكَّه، وحَذَرَه، سيشكِّلان عنصراً منعشاً. كنت شبه متأكِّد من أنه وقبل نهاية الأمسية سيقول - " أعتقد أني أنا أيضاً سأتخلّى عن كل شيء! "، وطبعاً لن يكون جاداً في ذلك، بل عابثاً، لاهياً، فقط ليدلّلني. وكأنه يريد أن يقول أنه ما دام هو، ألريك، أعظم الرجعيين قاطبة، يمكنه أن يضمر هذه الفكرة فلماذا كان من البديهي أنَّ رجلاً مثل صديقه هنري فال ميللر يجب أن يطبِّقها، وأنَّ عدم تطبيقها يعني الانتحار.

" أتعتقدين أن في استطاعتنا أن نتحمَّلَ تكاليف إعادة شراء دراجتي؟ "، قلتُ هذا دون مقدمة.

أجابت، دون لحظة تردُّد، " طبعاً، فال "

" لا أظنك ترين في هذا أمراً مضحكاً؟ إنَّ لدي رغبةً جامحةً في أن أعودَ إلى امتطاءِ الدراجة. كنت قد تخلَّيتُ عنها قُبيل تعرُّفي إليكِ، في الواقع "

قالت إنها أشدُّ الرغبات طبيعيّة قاطبة. غير أنها في الوقت نفسه تُثير ضحكها. ولم تتمالك نفسها من القول " ألا ترى معي أنك ما زلت صبياً صغيراً؟ "

" نعم! ولكن أليس هذا أفضل من أن أكون أحمق؟ "

بعد قليل عدتُ إلى الكلام " أتدرين؟ ثمة أمرٌ آخر فكَّرتُ فيه هذا الصباح ... "

" وما هو؟ "

" بيانو. أودُّ أن أحصل على بيانو وأعود إلى العزف من جديد "

قالت "سيكون ذلك رائعاً، أنا واثقة من أنَّ في استطاعتنا أن نستأجر واحداً رخيصاً - وجيداً، أيضاً. هل تريد أن تتلقّى من جديد دروساً؟"

" لا، لا أريد هذا. أريد أن أتسلّى، لا أكثر "

" لعلَّ في إمكانك أن تعلِّمني أنا العزف "

"دون شك! إذا أردتِ أن تتعلَّمي "

" من المفيد دائماً أن نعرف، خاصة في مجال المسرح "

" لا شيء أيسرُ من هذا. فقط أحضري لي بيانو "

فجأة، حين نهضتُ واقفاً لأتمطّى، انفجرت ضاحكاً، " وما الذي ستنالينه أنتِ من هذه الحياة الجديدة؟ "

قالت مونا " أنتَ تعرف ما أريد "

" كلا، لا أعرف. ماذا؟ "

اقتربت مني وطوَّقتني بذراعيها. " كل ما أريده هو أن أحقِّق لكَ ما تريد أن تكون - كاتباً، كاتباً عظيماً "

" أهذا كل ما تريدينه؟ "

" نعم يا فال، هذا كل شيء، صدّقني "

"وماذا عن المسرح؟ ألا ترغبين في أن تصبحي ممثلة عظيمة ذات يوم؟"

" لا، يا فال، أنا أعرف أني لن أكون كذلك أبداً. فليس لديّ الطموح الكافي. لقد احترفتُ التمثيل المسرحي لأني وجدت أنَّ ذلك يسرُّكَ. وفي الحقيقة لا يهمني ماذا أعمل - ما دام يسعدك "

" لكنك لن تصبحي ممثلة جيدة إذا بقيتِ تفكرين بهذه الطريقة. أقولها بحق، يجب أن تفكِّري في نفسك. يجب أن تفعلي ما ترينه الأفضل لكِ، بغضّ النظر عما أفعله أنا. حسبتُ أنك مولعة بالمسرح"

" أنا مولعةٌ فقط بشيء واحد. أنت "

قلت " الآن أنت تمثّلين "

" ليتني أفعل، لَكان الأمر أسهل "

ربتتْ بلطف على أسفل ذقنها. وتشدَّقتُ قائلاً " حسنٌ، ها قد حصلتِ عليّ كلّي وإلى الأبد. وسوف نرى رأيك بعد شهرٍ واحد من الآن. لعلّك ستسأمين تواجدي حولك قبل ذلك "

قَالت " لن أفعل، لقد صلّيتُ كي يحدث هذا منذ أن قابلتك. إني أغار منك، ألا تدري؟ أريد أن أراقبَ كلّ حركةٍ تندّ عنك ". واقتربتْ حتى التصقت بي، وبينما كانت تتكلم كانت تربت على جبيني برفق. " أحياناً أودّ لو أدخل إلى هنا وأعرف بماذا تفكّر. أحياناً تبدو لي بعيداً نائياً. خاصة حين تكون صامتاً. سوف أغار أيضاً من كتابتك - لأني أعرف أنك حينئذ لن تكون تفكّر فيّ "

قلت وأنا أضحك، " ها أنا في ورطة منذ الآن. اسمعي، ما هذا الذي نفعله؟ ما الفائدة من هذا كله - النهار ينصرم. اليوم بالذات يجب ألاّ نحاول فيه أن نستقرئ المستقبل. اليوم سنحتفل ... أين محل بيع المعلبات اليهودي ذاك الذي كنتِ تحدّثينني عنه؟ أعتقد أني سأذهب وأحضر بعض الخبز الأسمر الجيد، والزيتون، والجبن، والبسطرما، وسمك الحفش، إذا كان لديهم منه - وماذا أيضاً؟ هذا النبيذ الذي اشتريته رائع - إنه يحتاج إلى طعام جيد ليتناسب معه. سأحضر أيضاً بعض المعجّنات - وما رأيك بفطيرة التفاح؟ أه، هل معك نقود - أنا مفلس تماماً. رائع. ورقة بخمسة دولارات؟ ألا تحتكمين على أكثر من هذه؟ غداً سوف نتدبّر أمورنا، ما رأيك؟ أقصد، بخصوص النقود: كيف ومِنْ أين سنحصل عليها "

وَضَعَتْ يدها على فمي " أرجوك يا فال، لا تتحدَّث عنها. ولا حتى من باب المزاح. لست أنتَ الذي يفكِّر في النقود ... مطلقاً، أتفهم؟ "

* * *

هناك كتاب مثير للفضول ألَّفَه فوضوي أميركي، اسمه بنجامين ر. تَكَر، عنوانه" بديلٌ عن كتابٍ ألَّفَه رجلٌ لا يتوفَّر لديه وقت لكتابته ". والعنوان يصفُ وضعي الحديث العهد إلى حد الكمال. وفجأة تحرَّرتْ طاقتي الخلاقة، وفي الحال رحت أتناثرُ في كل الاتجاهات. وبدل أن أؤلِّف كتاباً، كان أول ما جلست لأكتبه قصيدة نثر عن فناءٍ في حي بروكلن. وكنت متيَّماً بفكرة كوني كاتباً إلى درجة عجزت بسببها عن الكتابة. لقد كان مقدار الطاقة الجسدية التي أملكها عجائبياً. وأرهقت نفسي بالاستعداد. كنت عاجزاً عن أن أجلس بهدوء وأبدأ ببساطة بالتدفُّق؛ كنت أرقص من الداخل. أردت أن أصفَ العالمَ الذي عرفته وأن أكون فيه في وقت واحد. ولم يتبدَّ لي قط أني لو أقضي فقط ساعتين أو ثلاثاً من العمل الحثيث في اليوم الواحد يمكنني أن أؤلِّف أضخم كتاب حجماً يمكن تصورّه. كنت أؤمن عندئذ بأنه إذا جلس إنسانٌ ليكتب فعليه أن يظل مغلولاً إلى كرسيه ثماني ساعات أو عشر متواصلة، وأن يظل يكتب ويكتب حتى يسقط من فرط الإعياء. هكذا كنت أتصورَّ الكُتَّاب ينجزون أعمالهم. ليتني فقط كنت أعرف حينئذ البرنامج الذي يصفه سندرار[١٣] في أحد كتبه! ساعتان في اليوم، قبل الفجر، وباقي اليوم يقضيه المرء على هواه. أي ثروة من الكتب أعطاها للعالم سندرار هذا! وكلها en Marge (على الهامش). وقد أثبت ريمي دو غورمون، كما

١٣ – بليز سيندرار : شاعر سوريالي . – المترجم

يبيِّن سندرار، مستعيناً بنهج مماثل - ساعتان أو ثلاث في اليوم ويومياً على امتداد الحياة - أنه من الممكن للإنسان أن يقرأ عملياً كل ذي قيمة مما كُتِبَ.

ولكن ليس لديّ نظام معيَّن، أو قاعدة للعمل، أو هدفُ محدَّد. كنت وبشكلٍ تام تحت رحمة دوافعي الخاصة، ونزواتي، ورغباتي. وكان هَوَسي بعيشِ حياةِ الكاتب من العِظَم بحيث أني أغفلت المخزون الهائل من المواد الذي تراكمَ خلال السنوات المؤدية إلى هذه اللحظة. ووجدتني مُكرهاً على أن أكتب عن اللحظة الحاضرة، عما كان يحدث خارج بابي مباشرة. مادة حية، هذا ما كنت أسعى وراءه. وكنت مُكرهاً على فعلِ ذلك لأنَّ المادة المخزونة، سواء أبوعي مني أم بغير وعي، قد مُضِغَتْ حتى الاهتراء خلال سنوات طويلة من الإحباط والشك واليأس، حين كان كل ما لدي أقوله مدوَّناً داخل رأسي. أضف إلى ذلك أني شعرت وكأني ملاكمٌ أو مصارعٌ يستعدٌّ لأداء المباراة الكبرى. كنت بحاجة إلى التجريب. وتلك المحاولات الأولى التي قمت بها حينئذ، تلك الأخيلة الجامحة والألحان المحلِّقة، تلك القصائد النثرية والهيام على غير هدى من كل صنفٍ ولون، كانت أشبه بعمليةِ دوزنة فخيمة للآلة الموسيقية. كان يرضي غروري (وما كان أفدحه) أن أعرض شموعاً رومانية، ودواليب هواء، وأن أفرقع ألعاباً نارية. والمدفع الكبير القاذف للألعاب النارية كنت أدَّخره لليلة الرابع من حزيران. الوقت الآن صباح، صباح يوم عطلة طويل، خامل، سيدوم إلى الأبد. لقد وقع عليٌّ الاختيار لأحتلَّ مقعداً ممتازاً في الجنة. وكان ذلك حتمياً ومؤكَّداً. لذا كان يمكنني أن آخذ وقتي، أن أبدِّد الساعات الرائعة الممتدة أمامي التي سأكون خلالها ما

أزال أشكّل جزءاً من العالم ومن رتابته الجوفاء. وحين سأرتقي مقعدي السماوي سوف أنضمُّ إلى جوقة الملائكة، الجوقة الملائكية التي لا تكفُّ عن صدح تراتيل الفرح.

إذا كنت قد أمضيت وقتاً طويلاً في قراءة وجه العالم بعينيّ كاتب، فإني الآن أقرأ حتى بحدَّةٍ أشدّ. لا شيء كان أحقرَ من أن يفلت من انتباهي. فإذا خرجت لأتمشّى - وكنت دائماً أنتحلُ الأعذار لأخرج وأتمشّى، " لأكتشف "، كما كنت أقول - فذلك لغرضٍ مُبَيَّتٍ أن أتحوَّل إلى عينٍ هائلةٍ. وحين كنت أشاهد الأشياء اليومية العادية على هدى هذا الضوء الجديد فغالباً ما كنت أُشَلُّ. فحين ينظر المرء بانتباه شديد إلى أي شيء، حتى ولو كان ورقة عشب واحدة، فإنه يغدو عالماً غامضاً، مرعباً، مضخَّماً إلى أبعادٍ مذهلة، قائماً بذاته. عالم يكاد " لا يلاحظه أحد ". والكاتبُ يكمنُ في انتظارِ مثل هذه اللحظات الفريدة. ومن ثم يثبُ على ذرّته الصغيرة التافهة كالوحش المفترس. إنها لحظة من اليقظة التامة، من الاتحاد والاستغراق، ولا يمكن انتزاعها عُنوة. وأحياناً يرتكب المرء خطأً أو إثمَ، فلنقل، محاولةَ تثبيتِ اللحظة، محاولة صبِّها في كلمات. وقد استغرق مني وقتاً طويلاً لأفهم، بعد بذل جُهودٍ مُهلكةٍ لاستجلاب لحظات التحليق والانعتاق هذه، سببَ عجزي التام عن تسجيلها. ولم أحلم أبَداً بأن يكون هذا هدفاً بحدّ ذاته، بأنَّ اختبارَ لحظةٍ من النعيم الصرف، من الوعي النقي، هو الغاية والمنتهى.

كثيرةٌ السرابات التي تعقَّبتُها. ودائماً كان الإخفاقُ من نصيبي. وكلما ازداد اتصالي بالحقيقة صَعُبَ عليَّ أكثر أن أعود إلى عالم الوهم، وهو الاسم الذي يُطلَقُ على الحياة اليومية. وكنت أطالب صاخباً "

أعطوني تجربة! مزيداً من التجربة! ". وفي محاولةٍ مسعورةٍ مني لأصل إلى نوعٍ من النظام، إلى نوعٍ من برنامج عمل تجريبي، كنت أجلس بين حين وآخر بهدوء وأمضي ساعات طوال في إعداد خطةِ عمل. ولم يكن وضع الخطط، بالشكل الذي يرهق فيه المهندسون المعماريون والتقنيون أنفسهم لإنجازه، من مواطن قوتي. ولكن كان في إمكاني دائماً أن أُجسِّدَ أحلامي بأسلوبٍ كونيّ. فإذا كنت لم أتمكن أبداً من صياغة حبكة فقد استطعت أن أوازن وأقلِّب التفكير في تضارب القوِى، والشخصيات، والأوضاع، والأحداث، وأوزِّعها بنوعٍ من النسق السماوي، ودائماً أترك فراغات كثيرة بينها، ودائماً مع يقينٍ من غيابِ وجودِ نهاية، بل فقط عوالم متداخلة في عوالم أخرى ad infinitum (إلى ما لا نهاية)، ومن أنه حيثما توقَّفَ المرء يكون قد خلقَ عالماً مميَّزاً، عالماً متناهياً، متكاملاً، وكاملاً.

كنت كالرياضيّ المدرَّب تدريباً ممتازاً، مرتاحاً وقلقاً في وقتٍ واحد، واثقاً من النتيجة النهائية، ولكني عصبي، ومتململ، وضيق الصدر، ومضطرب. وهكذا، بعد أن أطلقت بضعة صواريخ نارية بدأتُ أفكِّر بلغةِ المدفعيّةِ الخفيفةِ، بدأتُ أرتِّبُ صفوفي، إن صح التعبير. فكَّرت أولاً في أنه لكي يكون لي أي تأثيرٍ يجب أن يُسمع صوتي. يجب أن أعثر على منفذ لعملي - في الصحف، أو المجلات، أو الروزنامات أو ألسنة المؤسسات[١٤]. في مكان ما، بطريقة ما. ما هو مدى عملي، ما مقدار طاقتي على إطلاق النار؟ وعلى الرغم من أني لم أكن من النوع الذي يسبِّب الملل لأصدقائه بقراءاته الخاصة. فبين حين وآخر، وفي لحظاتٍ من

١٤ - ألسنة المؤسسات : نشرات دورية تصدرها المؤسسات التجارية لتوزَّع على مستخدميها وزبائنها . - المترجم

الحماس الجامح، كنت أُتَّهم بارتكابِ مثل هذا النوع من سوء السلوك. وعلى نُدرة مثل تلك الزلاّت، فقد كان لها تأثير مفيد عليّ. ولاحظت أنَّ لا أحد من أصدقائي كان يشمل بفعل جهودي. وأعتقد أن هذا النقد الصامت الذي غالباً ما كان أصدقائي يوجِّهونه إليّ، هو أفضل ودون أدنى شك من القذائف الهجومية، العدائية التي يُطلقها الناقد المأجور. وكون أصدقائي لم يضجّوا بالضحك في اللحظة المناسبة، وكونهم لم يصفِّقوا بقوة لدي انتهائي من قراءاتي، لهو أبلغ تعبير من سيلٍ من الكلمات. وأؤكد لك أني أحياناً كنت أُخفِّف من كبريائي وأنظر إليهم بوصفهم متبلّدي الذهن وشديدي التحفُّظ. ولكن ليس دائماً. كنت بشكل خاص حساساً اتجاه تقييمات أليك. ربما كان حماقة مني أن أولي انتباهاً حاداً لتعليقاته، بما أنَّ ذوقينا (في الأدب) كانا مختلفين كل الاختلاف، إلاّ أنه كان شديد القرب مني، كان الوحيد بين أصدقائي المقتنع اقتناعاً تاماً بمقدرتي. إلاّ أنه أيضاً لم يكن من السهل إرضاؤه، صاحبي أليك هذا. وما كان يستمتع به حقاً هو ألعابي النارية، إذا جاز التعبير، الكلمات الغريبة، وإلماعاتي المذهلة، وتطريزاتي المرهفة، ونواحاتي الجوفاء المطوَّلة. وكثيراً ما شكرني، لدى افتراقنا، على سلسلة الكلمات الجديدة التي أضفتُها إلى مفرداته. وأحياناً كان يمضي أمسية أخرى، أمسية بأكملها، مفتِّشاً عن هذه الكلمات العجيبة في القاموس. وبعضها لم نكن نعثر عليه أبداً - لأني أكون قد اخترعته.

ولكن لنعد إلى الخطة الضخمة ... فبما أني كنت مقتنعاً بأنَّ في مقدوري أن أكتبَ عن أي موضوع تحت الشمس، وبطريقة مثيرة، فقد بدا أنَّ من الطبيعي بشكلٍ مطلق أن أضع لائحةً بالمواضيع التي رأيت أنها

ذات أهمية وأحيلها إلى ناشري المجلات لكي ينتقوا منها ما يروق لهم. وقد استتبع ذلك كتابة أعداد هائلة من الرسائل. رسائل مطوَّلة بلهاء. وكان ذلك يعني أيضاً إعداد إضبارات والانتباه إلى القوانين والأنظمة الحمقاء لمائة هيئة تحرير وهيئة. وكان يتضمَّن مشادات كلامية ونزاعات، ورسائل شفهية عقيمة إلى مكاتب تحرير، وإغاظة، وإثارة السخط، وغضب شديد، ويأس، وسأم. وطوابع بريدية! وبعد أسابيع طويلة من الاضطراب والانفعال الشديد قد تظهر ذات يوم رسالة من ناشر يقول فيها إنه سوف يتنازل ويقرأ مقالتي إذا وإذا وإذا ولكن. ولم أكن أدع هذه الشروط والعراقيل تثبط همتي، بل أعتبرُ تلك الرسالة بمثابة تعهُّد صادق، وتكليف. عظيم! وهكذا أصبحتُ حراً في أن أكتب، لنَقُل، شيئاً عن كوني آيلند في الشتاء. فإذا أعجبهم فسوف يُطبَع، واسمي موقَّع تحته، وأعرضه على أصدقائي، وأحمله معي أينما ذهبت، وأضعه تحت وسادتي أثناء الليل، وأقرأه خِفية، مراراً وتكراراً، لأنك في المرة الأولى التي ترى فيها كلاماً مطبوعاً تفقد صوابك. لقد أثبتَّ أخيراً للعالم أنك كاتب بحق، ويجب أن تبرهن ذلك للعالم، على الأقل مرة واحدة في حياتك، وإلا فقدت عقلك من تصديق هذا الأمر وحدك.

وهكذا أنطلقُ إلى كوني آيلند في يومٍ شتائيّ. وحدي، طبعاً. فلن يكون مناسباً أن تدع صديقاً تافه التفكير يبلبل تأملاتك وملاحظاتك. وأضع في جيبي رزمة جديدة من الأوراق وقلم رصاص مبرياً جيداً.

الطريق إلى كوني آيلند في عزّ الشتاء طويلة، موحشة. لا ترى عليها إلاّ الناقهين والمرضى، أو المعتوهين، يسيرون بخطى ثقيلة. وأشعر كأني أنا أيضاً معتوه قليلاً. مَنْ يريد أن يسمع كلاماً عن كوني آيلند

المترسة من أنحائها كلها؟ لاشك في أني توليت أمر هذا الموضوع في لحظةِ وجد، واعتقدتُ أنه لا شيء أكثر إلهاماً من صورة تجسُّد التوحُّد.

كلمة التوحُّد ليست هي الكلمة المناسبة. فبينما أنا سائر على طول الممشى الخشبي، والرياح المثلجة تصفر من خلال بنطالي، وكل المحال مغلقة، يخطر لي أنه ما كان يمكن لي أبداً أن أنتقي موضوعاً أصعب من هذا للكتابة عنه. إذ لا شيء هناك على الإطلاق لتسجيل ملاحظاته حوله، اللهم إلاّ إذا كان الصمت. إني أراه بشكلٍ أفضل من خلال عينيّ ألريك. يمكن لرسامٍ أن يقضي وقتاً ممتعا هنا، بوجود الصروح الكئيبة، المجنونة، المتهالكة، والركامات والألواح الخشبية المتشابكة، ودولاب فيريس، المتوقف، الفارغ، والسكة الأفعوانية الخرساء، التي تصدأ تحت الشمس الواهية. ومن باب طمأنة نفسي بأني ملتزم بالعمل، دوَّنت بعض الملاحظات عن المظهر المجنون للمرح الصاخب، للفم المتثائب لجورج س. تليو، وما إلى ذلك ... أعتقد أن سجقاً ساخناً وكوباً من القهوة الساخنة المتبخّرة يمكن أن يفيدني. وأجد كشكاً صغيراً للبيع مفتوحاً في شارع جانبي بعيداً عن الممشى الخشبي. وهناك رواق للرمي مفتوحاً على مبعدة عدد من الأبواب. لا يرى أي زبون؛ وصاحب المحل نفسه يرمي على الحمائم الغضارية، على سبيل التدرُّب، دون شك. واقترب بحَّارٌ ثمل يترنَّح في مشيته؛ وعلى مبعدة بضعة أقدام مني ينحني ويتقيَّأ. (لا داعي لتسجيل هذا). أهبط إلى الشاطئ وأراقب النوارس. أنظر إلى النوارس وأفكِّر في روسيا. تشغل مخيلتي صورةٌ لتولستوي جالس على مقعد يرتق حذاءً. ماذا كان اسم مكان إقامته؟ ياسنا بوليانا؟ كلا، بل ياسنايا بوليانا. على أي حال، ما الذي يدعوني بحق الجحيم إلى

التفكير في هذا؟ استيقظ! وأهزُّ نفسي وأندفع أكثر في وجه عاصفة الهواء المثلجة. أخشاب طافية ملقاة في كل مكان. تشكيلات غريبة (هناك الكثير جداً من القصص عن زجاجات ورسائل موضوعة داخلها). أتمنى الآن لو أني فكَّرت في أن أطلب من ماكغريغور أن يأتي معي. إنَّ خطّه المعتوه، الجادّ بشكلٍ زائف يثيرني أحياناً بطريقةٍ مُنحرفة. كم كان سيضحك لو يراني أزرعُ الشاطئ بحثاً عن مادة للكتابة! أكاد أسمعه يشقشق قائلاً " على أي حال أنت تعمل، وهذا شيء لا يُستهان به. ولكن لماذا بحق الجحيم انتقيتُ هذا الموضوع بالذات؟ أنت تعلم علِماً لعيناً جيداً أنَّ لا أحد سيُبدي أي اهتمام به. لعلَّكَ أردتَ فقط أن تخرج إلى العراء. والآن بات لديك ذريعة جيدة، أليس كذلك؟ يا إلهي، يا هنري، أنت لم تتغيَّر قط - مخبول، مخبول، مخبول تماماً "

حين أستقلُّ القطار للعودة إلى المنزل أدرك أني لم أدوِّن إلاّ ثلاثة أسطر من الملاحظات. وليست لدي أدنى فكرة عمَّا سأقوله حين أجلس أمام الآلة الكاتبة. ذهني خالٍ. خلوٌ متجمِّد، أجلس وأحدِّق ماداً بصري إلى خارج النافذة ولا تَغيرُ عليّ حتى أوهى رعشة من فكرة. المشهد العام نفسه هو خلوٌ متجمِّد. العالم برمَّته موصدٌ بالثلج وبالجليد، أخرسٌ، عاجزٌ. لم أشهد دهري مثل ذاك اليوم الكئيب، المغمّ، الرهيب، المجرَّد من الإشراق.في تلك الليلة أويتُ إلى السرير وأنا مطهَّر ومتواضع. وقد ضاعف إحساسي هذا أني قبل أن أستقيل كنت قد تناولت كتاباً لتوماس مان (يتضمَّن قصة تونيو كروغر) وقد غمرتني جودة الرواية المعصومة عن الخطأ. غير أني دُهِشتُ حين استيقظتُ في صباح اليوم

التالي وأنا مملوء حيوية ونشاطاً. وبدل أن أخرجَ في نزهتي الصباحية المعتادة - " لأجعلَ دمي يجري " - جلست إلى الآلة الكاتبة على الفور بعد تناول طعام الإفطار مباشرة. وبحلول الظهر كنت قد أنهيت مقالتي عن كوني آيلند. خرجَتْ مني دون عناء. لماذا ؟ لأني بدل أن أواجه المسألة بعنادٍ لجأتُ إلى النوم - بعد الاستسلام المناسب للأنا، بلا ريب. لقد كان درساً في لا جدوى الكفاح. ابذُلْ قصارى جهدك واترك الباقي للعناية الإلهية! ربما كان انتصاراً حقيراً، غير أنه يسطع بالضياء.

طبعاً المقالة لم تُقبَل أبداً. (لم يكن يُقبَل مني أي شيء) واستمرَّ الانتقال من ناشر إلى آخر. والأمر لم يتعلّق فقط بهذه الجولات. فأسبوعاً بعد أسبوع كنت أكتب المزيد منها، وأحملُهُ مثل الحَمَام الزاجل، وأسبوعاً بعد أسبوع كانت تعود إليّ، ودائماً مع بيانِ الرفضِ المقولَب. ومع ذلك، الهِمَّة لم تُثبَط، كما يقولون، " ودائماً كنت مرحاً ومشرقاً "، والتزمتُ ببرنامجي بصرامة. هاهو، أقصد البرنامج، مدوَّن على صفيحة كبيرة من ورق اللفّ، ومسمَّرٌ عالياً على الجدار. وإلى جانبهِ عُلِّقَت صفيحة أخرى كبيرة من الورق، أُدرِجَت عليها لائحة بالكلمات الغريبة التي كنت أحاول أن أضمَّها إلى مفرداتي. والمشكلة كانت كيف أشدُّ هذه الكلمات إلى نصوصي دون أن أجعلها تبرز مثل أباهِم[١٥] متقرِّحة. وكثيراً ما كنت أجرِّبها قبل ذلك في رسائل أبعثها إلى أصدقائي، في رسائل إلى " كل مَنْ هبَّ ودبّ ". وكانت كتابة الرسائل تعني لي ما تعنيه ملاكمة الخيال[١٦] للملاكم المحترف. ولكن تخيَّلْ ملاكماً يُنفِقُ الكثيرَ جداً من

---

١٥ - أباهِم : جمع إبهام : إصبع اليد الكبير . - المترجم

١٦ - ملاكمة الخيال : ملاكمة خصم وهمي بقصد التدريب . - المترجم

الوقت وهو يلاكمُ خياله بحيث أنَّه حين يشتبك مع شريكه في المباراة لا يتبقَّى لديه أي قوة! لقد كان في استطاعتي أن أقضي ساعتين أو ثلاثاً وأنا أكتب قصة، أو مقالة، وست ساعات أُخَر أو سبع وأنا أشرحها لأصدقائي بالرسائل. وكان الجهد الحقيقي يُبذَل في كتابة الرسالة، وحين أستعيد الأمر الآن أرى أنه ربما كان ذلك أفضل، لأنه حافَظَ على سرعة صوتي وطبيعته. وفي مرحلتي المبكِّرة كنت شديد الخجل من استخدام صوتي الخاص. كنت رجلَ أدبٍ قلباً وقالباً. كنت أستغلُّ كل أداة أكتشفها، وأستخدم كل سجلّ، وأنتحل ألفَ وِقفَةٍ مختلفة، وكنت دائماً أخلط التضلُّع في التقنية مع الإبداع. والتجربة والتقنية كانا هما المهمازان اللذان حثَّاني على المضيّ قُدُماً في طريقي. ولكي أُحرزَ انتصاراً في عالم التجربة كما استنبطتها، كان عليّ أن أحيا على الأقل مائة حياة. ولكي أكتسب التقنية الحقَّ، أو فلأقل الكاملة، كان عليّ أن أعيشَ حتى أبلغَ المائة عام من العمر، ولا يوماً واحداً أقلّ.

بعض أصدقائي الأكثر صدقاً معي، وكانوا أحياناً صريحين حتى الإيجاع، يُذكّرونني بين وقت وآخر بأني حين أتحدَّث معهم أكون دائماً نفسي وبأني من خلال الكتابة لا أكون كذلك. ويقولون " لمَ لا تكتب كما تتحدَّث؟ ". للوهلة الأولى وجدت الفكرة سخيفة. فأولاً أنا لم أعتبر نفسي أبداً مُحَدِّثاً مفوَّهاً، على الرغم من أنهم كانوا يصرُّون على أني كذلك. وثانياً، كانت الكلمة المكتوبة تبدو لي أشدّ بلاغة من الكلمة المنطوقة. فحين تتحدَّث لا تتمالك نفسك من تلميع عبارة، من البحث بدقة عن الكلمة المناسبة، ولا أنت تستطيع أن تعود وتشطب كلمة، أو عبارة، أو فقرة كاملة. كان يهينني أن أسمعهم يقولون لي، أنا الذي كان

يكافح للسيطرة على الكلمة، إني أنجح أكثر حين يخلو كلامي من الفكر. وعلى الرغم من أنَّ الكلمة كانت مؤذية، فإنها قد أثمرت. فبعد قضاء أمسية بهجة مع أصدقائي، بعد أن أكون قد تدفَّقت بالكلام حتى انفجر رأسي، وأثملتهم بخطاباتي، كنت بين حين وآخر أتسلل عائداً إلى المنزل وأروح أراجع بصمت أدائي. لقد انهمرَتْ الكلمات من فمي بنظامٍ مثالي وتركَتْ أثراً بالغاً؛ ولم يكن الأداء يتَّصِفُ فقط بالانسياب، والأسلوب المميَّز، والذروة وحل العقدة، بل بالإيقاع، بجهارة الصوت، ورنينه، والجو المميَّز والسحر. فإذا تلعثمْتُ أو تردَّدتُ كنتُ أتابعُ الكلامَ مع ذلك، وبعدئذ أعود أدراجي مقتفياً آثاري، وأمحو الكلمة الخطأ، وأشطب العبارة الحمقاء، وأضخِّم فخامةَ إيقاعٍ طنَّان من خلال التكرار، والتلميح، والتضمين، وعبر الالتفاف والجمل المعترضة. كان الأمر أشبه بالشعوذة: الكلمات كانت حيوية مثل الكرات، يمكن استردادها، وجعلها تطيع، ويمكن إبدالها بكرات أخرى، ألخ. أو كان كالكتابة على لوحٍ خفيّ. كانت الكلمات تُسمَع بدل أن تُرى. وهي لم تكن تختفي لأنها في الحقيقة لم تكن تظهر. وحين يسمعها السامع يتملَّكه إحساسٌ أكثر حِدَّة بالاستحسان، بل وبالمشاركة، وكأنه يشاهد أداءَ خِفَّة يد. وكانت ذاكرة الأُذُنْ موثوقة مثل ذاكرة العين. وقد لا يتمكَّن المرء من استنطاق خطبة طنَّانة مطوَّلة، حتى بعد انتهائها بثلاث دقائق، ولكنه يستطيع أن يتبيَّن نغمةً زائفة، وتشديد مغلوط.

كثيراً ما تساءلت، بعد القراءة حول أمسياتٍ مع مالارميه، أو مع جويس، أو مع ماكس ياكوب، فأقول مثلاً، كيف يمكن مقارنة جلساتنا هذه. والحقيقة أنَّ لا أحد من رفاق تلك الأيام حَلُمَ أبداً في أن يغدو

شخصيةً بارزةً في عالمِ الفن. كانوا يحبُّون أن يناقشوا في الفن، في أنواعِ الفن كافة، إلاّ أنهم بحدٍّ ذاتهم لم يفكروا أبداً في أن يصبحوا فنانين. أغلبهم كان من المهندسين التقنيين، والمهندسين المعماريين، والأطباء والصيادلة، والمدرِّسين، والمحامين. إلاّ أنهم كانوا يتمتعون بالذكاء وبالحماس، وكلهم كانوا صادقين جداً، ومملوءين بالتوق، حتى أني أحياناً كنت أتساءل إن لم تكن الموسيقى التي نصدرها تنافس موسيقى الحجرة المنبعثة من المنازل المقدسة للأساتذة. وحتماً لم تكن تلك الجلسات تتَّصف بأي قدرٍ من الفخامة أو الوقار. كلٌ كان يتكلَّم كما يشاء، وينتقد بكل حرية، ولا يزعج نفسه أبداً بالتساؤل إن كان ما قاله سيسرُّ " الأستاذ ".

لم يكن بيننا أستاذ: كنا متساوين، وكان في إمكاننا أن نكون متسامين أو حمقى، على هوانا. وما جمع بيننا كان جوع مشترك إلى ما شعَرْنا أننا محرومون منه. ولم نكن نتحرَّق رغبة في إصلاح العالم. كنا نسعى إلى إغناء أنفسنا، لا أكثر. وفي أوروبا تكون لمثل تلك التجمعات غالباً خلفيةٌ سياسيةٌ، أو ثقافية، أو جمالية. ويؤدي أعضاء المجموعة تمارينهم، إن صح التعبير، وذلك لكي ينشروا لاحقاً الخميرة بين الجماهير. أما نحن فلم نفكر أبداً في الجماهير - كنا جزءاً لا يتجزَّأ منها. كنا نتحدث عن الموسيقى، والرسم، والأدب لأنه إنْ كان المرء يتمتَّع بأي قدرٍ من الذكاء ومن الحساسية، فإنه سينتهي تلقائياً إلى عالم الفن. ونحن لم نكن نجتمع لكي نتحدث بشكل خاص عن مثل تلك المواضيع؛ كان الأمر يحدث عفوياً.

كنتُ الوحيد ربما في المجموعة الذي تناولَ الأمور بجديّة، ولهذا كنت أراني أصبح أحياناً ذاك الأحمق المزعج المحبّ للمشاكسة. لقد كنت

في سرِّي أصبو فعلاً إلى إصلاح العالم. في السر كنت فعلاً مُحرِّضاً. وهذا الفرق الصغير بالذات القائم بيني وبين البقية هو الذي كان يُشيعُ الحيوية العارمة في سهراتنا. كان في كل جملة ألفظها دائماً مقدارٌ صغير زائد من الصدق، ذَرَّة زائدة من الحقيقة. لا يشبه لعب الكريكت. كنت أحثُّهم - وبوضوح، كما بدا - على مقابلة إساءتي بالإحسان. لم يكن أحد يوافقني موافقة تامة. ومهما بذلت من مجهود لإيضاح فكرتي، كان دائماً ما أقول يفاجئهم بأنه بعيد الاحتمال. وأحياناً كانوا يعترفون بأنهم فقط يحبون أن يستمعوا إلى حديثي، فأقول " نعم، لكنكم لا تنصتون أبداً "، فيثير هذا ضحكاً مكبوتاً. ويقول أحدهم " تقصد أننا لا نتَّفق دائماً معك " ومزيد من الضحك المكبوت. وأجيب " خراء! لا أتوقَّع منكم أن تتفقوا معي "دائماً" ... أريد منكم أن تفكروا ... أن تفكروا لصالحكم " يا سلام! يا سلام!. وأقول، وأنا أستعدٌّ لإلقاء خطبة تعنيف مطوَّلة أخرى، " اسمعوا، اسمعوا ... ". ويهتف أحدهم " تابع، تابع، أتحفنا! انسف دماغك! ". وهنا أجلس وأنا نكد، وصامت، وقد أُفحمتُ بوضوح. " هيا الآن، لا تأخذ الأمر بهذه الجدّية، هنري. هاك مشروباً منعشاً. هيا، أزحْ الهَمَّ عن صدرك! ". ولما كنتُ أعرفُ ماذا يريدون مني، وأظلُّ آملُ أن أتمكن، بفعلِ جهدٍ خارقٍ ما، من تغيير موقفهم، كنت أستسلم، أذوب، ومن ثم أَطلق عليهم وابلاً مختلفاً من النيران. وكلما ازددتُ يأساً وصِدقاً ازداد استمتاعهم. وحين أُدرِكُ أنَّ اللعبَ قد احتدمَ أنتقلُ بسرعةٍ إلى المحاكاة الساخرة، فأقول أي شيء لعينٍ يخطرُ على بالي، وكلما كان سخيفاً وغريباً كان أفضل وكنت أهينهم بفخامة - ولكن لا أحد منهم يغضب، وكأني أقاتل الأشباح. ملاكمة الشبحِ مرة أخرى ...

(أشكُّ، طبعاً، في أن يكونَ أي شيء من هذا قد دارَ قط في شارع روما أو في شارع رافينيان)

أعود إلى اتِّباع الخطة التي وضعتُها لنفسي وأنشغل أكثر من أشدّ الموظفين الإداريين الكبار انشغالاً في العالم الصناعي. بعض المقالات التي قرَّرتُ كتابتها احتاجت إلى بحثٍ موسَّع، ولم يكن هذا يشكِّل لي أي محنة لأني كنت أحب أن أتردّد إلى المكتبة العامة وأستخرج الكتب التي يصعب العثور عليها. كَمْ من أيامٍ وليالٍ كثيرة رائعة أمضيتها في مكتبة الشارع الثاني والأربعين العامة، جالساً على طاولة هي من الاتساع بحيث كان في إمكاني ليس فقط أن أنام عليها بل وأن أرقص عليها أو أتزحلق عليها أيضاً. (كان هناك بالفعل كاتب، ذات مرة، عملَ على طاولة مشابهة، وكان قد وضعها في وسط غرفة شاسعة جرداء - مكاني المثالي للعمل. كان اسمه أندرييف[١٧]، ولا داعي أن أضيف أنه كان أحد كتَّابي المفضَّلين).

نعم، ممتعٌ أن يعملَ المرءُ وسطَ عددٍ غفيرٍ من الطلاب المجتهدين الآخرين داخل قاعة حجمها بحجم كاتدرائيةٍ، تحت سقفٍ شاهق هو تقليدٌ للسماء ذاتها. ويغادر المرء المكتبة العامة وهو مذهول قليلاً، وغالباً مع شعور عُلوي. وقد كان دائماً يصعقني أن أغوص في الحشد في الجادّة الخامسة والشارع الثاني والأربعين؛ ولم تكن هناك أي صِلة بين ذاك الشارع المزدحم وعالم الكتب المسالم. وكثيراً ما كنت، وأنا في انتظار مجيء الكتب من الأعماق الغامضة للمكتبة العامة، أتمشى على طول الممشى الخارجي ألقي نظرة على عناوين كتب المراجع المذهلة المصفوفة

---

١٧ - ليونيد نيقولايفيتش أندرييف (١٨٧١ - ١٩١٩) : كاتب مسرحي روسي . له مسرحية " ذاك الذي يُصفَع" .

على الجدران. وكان يكفي أن أتتبَّع بإصبعي تلك الكتب حتى تجعل رأسي ينطلق بأقصى سرعة على مدى أيام. وأحياناً كنت أجلس وأتأمَّل، متسائلاً ما هو السؤال الذي يمكنني أن أطرحه على العبقري الذي يُشرِفْ على روح هذه المؤسسة المترامية الأطراف ويعجز عن الإجابة عنه. أعتقد أنه لا يوجد موضوع واحد تحت الشمس لم يُكتَب عنه شيء ويُصنَّف في تلك المحفوظات. وكانت شهيتي النَهِمَة تجرُّني إلى اتجاه، وخوفي من أن أغدو دودة كتب إلى الاتجاه المقابل.

كان من الممتع أيضاً السياحة إلى مدينة لونغ آيلند، تلك البؤرة الأشد كآبة، لأشاهد أولاً كيف تُصنَع العلكة. هنا يكمن عالمٌ من الجنون المحض - يسمَّى عادةً الفعالية. وفي غرفة مملوءة بمسحوق خانق ذي رائحة عفن حلوة مقزِّزة كانت تعمل مئات من الفتيات المغفَّلات كفراشات تحزم ألواحاً من العلكة بورق لفّ؛ أصابعهن الرشيقة تعمل، كما قيل لي، بدقّة ومهارة تبزّان أي آلة اختُرِعَتْ حتى الآن. وولجتُ المعمل، الضخم، مع مُرافقة، وكان كل جناح يتكشَّف أمامي يمثِّل جانباً من قسمٍ آخر للجحيم. ولم أقع على المرحلة المثيرة للاهتمام حقاً من بحثي إلاّ بعد أن طرحتُ تساؤلاً حول مادة " التشيكل "، والتي هي المادة الأساسية في العلكة. و " التشيكلريون "، كما يُسمَّون، الرجال الذين يكدُّون في أعماق مجاهل أدغال يوكاتان، هم الخيرة الرائعة من الرجال. وأمضيت أسابيع طويلة في المكتبة العامة أقرأ عن عاداتهم وتقاليدهم. وقد تنامى كثيراً جداً اهتمامي بهم، حتى أني كدتُ أنسى أمرَ العلكة نفسها. ومن خلال دراسة " التشيكلريين "، طبعاً، انقدْتُ إلى عالم الشعوب المايانية[18]، ومن ثم إلى تلك الكتب المذهلة التي

١٨ – المايانية : نسبة إلى حضارة المايا المندثرة في أميركا الجنوبية . – المترجم

تحكي عن أطلنطس وقارة " مو " الضائعة، والأقنية التي تمتد من أحد أطراف أميركا الجنوبية إلى الطرف الآخر، وإلى المدن التي رُفعَت إلى علوّ ميل حين برزت جبال الآنديز إلى الوجود، وإلى الطُرُق البحرية بين إيستر آيلند والمنحدر الغربي لقارة أميركا الجنوبية، وأوجه التشابه والقرابة بين الحضارة الأمرندية[١٩] وحضارة الشرق الأدنى، وأسرار أبجدية الأزتك، وهلمجرا، إلى أن وقعتُ، بفعل التفافةٍ غريبةٍ، على لوحة لبول غوغان في وسط الأرخبيل البولينيزي وتوجهت إلى المنزل وأنا أترنَّح متأبطاً لوحة " نوا نوا ". والانتقال من حياة ورسائل غوغان، التي كان يجب أن أقرأها في الحال، إلى حياة ورسائل فنسنت فان غوخ كان مجرد خطوة واحدة.

لا شك في أن قراءة كلاسيكيات الأدب أمر مهم؛ ولعل من الأهم أن نقرأ أولاً أدب زماننا الحاضر، وهو ضخم بحد ذاته. لكن ما هو أكثر قيمة من هذا وذاك، بالنسبة لكاتبٍ على الأقل، هو أن يقرأ كل ما يقع تحت يده، وأن يتبع إحساس أنفه، إذا جاز التعبير. ففي المجلدات العتيقة البالية التي تحويها كل مكتبة عامة عظيمة تُدفن مقالات كتبها أفراد مغمورون أو مجهولون حول مواضيع ظاهرياً ليست على أي جانب من الأهمية، وإنما مشبَّعة بالبيانات، والأفكار، والأخيلة، والأمزجة المتقلِّبة، والنزوات، وبالأعاجيب من الوزن الذي لا يشبهه، في تأثيره، إلاّ العقاقير النادرة. والأيام الأكثر إثارة غالباً ما تبدأ بالبحث عن تعريف كلمة جديدة. وكلمةٌ واحدة صغيرة، من النوع الذي يسرُّ القارئ العادي أن يتجاوزه دون أن ينزعج، قد يتَّضح (بالنسبة إلى كاتب) أنها

١٩ – الحضارة الأمرندية : حضارة هنود أميركا . – المترجم

منجم ذهب حقيقي. وفي المعتاد كنت أنتقل من القاموس إلى الموسوعة العلمية، وليس فقط موسوعة واحدة بل عدة موسوعات، ومن الموسوعة إلى أنواع المراجع كافة؛ ومن المراجع إلى الكتيبات، ومن ثم إلى تسعة أيام من الانغماس في الملذات، ملذات البحث والتنقيب، ومزيد من البحث والتنقيب. وبالإضافة إلى الكميات الهائلة من الملاحظات التي دوَّنتها كنت أنسخ صفحات وصفحات من المقتطفات. وأحياناً كنت ببساطة أمزِّق الصفحات التي أحتاجها أمسّ الحاجة. وكنت بين حين وآخر أشنُّ غارات على المتاحف. والموظفون الرسميون الذين تعاملت معهم لم يشكّوا لحظة واحدة في أني منخرط في تأليف كُتُبٍ سوف تكون إسهاماً في الموضوع. وكنت أتكلّم وكأنَّ معرفتي أوسع بكثير مما يهمني أن أكشف عنه. وكنت أشير بشكلٍ عَرَضيّ، وغير مباشر، إلى كتبٍ لم أقرأها أبداً وألّمح إلى مقابلات مع ذوي نفوذ مشهورين لم أقابلهم دهري. ولم يكن هناك ما هو أسهل، وأنا في ذاك المزاج، من أن أخلع على نفسي درجاتٍ مدرسيّةٍ لم أكن حتى قد حلُمْتُ في نيلها. وتكلَّمتُ عن قادةٍ بارزين في مجالات مثل علم الإنسان، وعلم الاجتماع، والفيزياء، وعلم الفلك، وكأني وثيق الصلة بها جميعاً. وحين أجد أني أتورَّط كنت دائماً من الفطنة بحيث أستأذن متظاهراً بالذهاب إلى المرحاض، وهي الكلمة التي أعني بها " المخرج ". وذات مرة، كنت على اهتمام عميق بعلم الأنساب، فرأيت أنها فكرة جيدة أن أقبل عملاً لفترة من الوقت في قسم علم الأنساب من المكتبة العامة. وقد تصادف أن كان ينقصهم رجلٌ في ذلك القسم في اليوم الذي اتصلت متقدماً لملْ الوظيفة. وكانوا في أمسّ الحاجة إلى رجل بحيث أنهم عينوني على

الفور، وكان ذلك أكثر مما توقعته. وطَلَبُ التعيين الذي كنت قد تركته مع مدير المكتبة العامة كان أعجوبة في التزييف وتساءلت بينما كنت أنصت إلى المسكين الذي كان يدرّبني على العمل، كم من الوقت سيستغرق منهم التفاهم معي. وفي تلك الأثناء كان المتقدِّم عليّ يرتقي الدرج معي، يشير إلى هذا الشيء وذاك، يميل فوق زوايا مظلمة يستخرج وثائق، أضابير، وما شابه، ويستدعي مستخدمين آخرين ليقدِّمني إليهم، شارحاً على عجل وبأفضل ما في إمكانه (بينما الرُسُل يدخلون ويخرجون كما في إحدى مسرحيات شيكسبير) أبرز مميزات عملي المتوقَّع أن يكون رتيباً. ولما أدركت خلال فترة وجيزة أني لست مهتماً بأي حال بكل هذا الهراء، وكنت أفكر في مونا التي تنتظرني لأتناول طعام الغداء معها، قاطعته فجأة وهو وسط عَرْضٍ مطوَّل لشيء ما لأسأله أين المرحاض، فنظر إليّ باستغراب، متسائلاً، ولا شك، لماذا لا أتَّصف بالكياسة بحيث أنصت إليه حتى ينتهي قبل أن أهرع إلى المرحاض، ولكني بعونٍ من بعض التكشيرات والإيماءات، عبَّرت بوضوح تام عن شدة انحصاري، وأني قد أعملها هناك على الأرضية أو في سلة المهملات، نجحت في التخلُّص من براثنه، وقبضت على قبعتي ومعطفي اللذين كانا لحسن الحظ ما يزالان مستقرين على أحد الكراسي بالقرب من الباب، وهرعت أطلق ساقيّ للريح خارجاً من المبنى ...

كان شغفي المهيمن هو اكتساب المعرفة، والمهارة، والتمكُّن من التقنية، والتجربة بلا كلل، ولكن كان هناك في خلفية رأسي، ومثل نغمةٍ ثانويةٍ حاضرةٍ دائماً، ذبذبةٌ كانت تعني النظام، والجمال، والتبسيط، والاستمتاع، والاستحسان. ولدى قراءتي لرسائل فان غوخ

تطابقتُ معه في كفاحِه لعيشِ حياةٍ بسيطةٍ، حياةُ الفنُ فيها هو كل شيء. ما أشدّ توهُّج كتابته عن تفانيه للفن في رسائله المرسلة من آرل، وهو مكانٌ قُدِّرَ لي أن أقوم بزيارته لاحقاً وإنْ لم أكن أحلم حتى برؤيته حين كنت أقرأ عنه حينئذ. من أجل إضفاء مسحةٍ أكثر موسيقية على حياة الإنسان - حسب تعبيره. وهو يشير مراراً وتكراراً إلى ما تتّسم به حياة الفنانين اليابانيين من جمالٍ وجلالٍ غاية في البساطة، مشدداً على بساطتهم وثقتهم في أنفسهم، وطبيعتهم. هذه الخاصّية اليابانية هي التي عثرتُ عليها في عش حبنا؛ هذا الجمال العاري، البسيط، هذه الأناقة المجرَّدة، كانا يؤازراني ويريحاني. أجدني منجذباً إلى اليابان أكثر مني إلى الصين. أقرأ عن تجربة ويسلر[20] فأقع صريعَ حب كليشيهاته. وأقرأ مؤلفات لافكادو هيرن[21]، كل شيء كَتَبَه عن اليابان، خاصة ما يقوله عن حكاياتهم الخرافية، الحكايات التي ما زالت حتى يومنا هذا تترك أثراً لديَّ أقوى مما تفعله تلك الخاصة بأي شعبٍ آخر. إن الرسوم اليابانية تزيّن الجدران؛ ويمكن تعليقها أيضاً في الحمَّام. بل إنها حتى موضوعة تحت اللوح الزجاجي على طاولة مكتبي. إني لا أعرف أي شيء بعد عن " زن "، لكني مدلَّهٌ بحب فن قتال جوجيتسو الذي هو الفن الأسمى للدفاع عن النفس. وأُحبُّ الحدائق الصخرية، والجسور والمصابيح، والمعابد، وجمال المناظر الطبيعية. وبعد قراءة كتاب لوتي[22] " مدام أقحوان " بأسابيع عديدة أشعر بحقٍ وكأني كنت أعيش في

٢٠ - جيمس أبوت مكنيل ويسلر (١٨٣٤ - ١٩٠٣) : رسّام وحفّار أميركي المولد ، استقرّ في إنكلترا . - المترجم

٢١ - لافكادو هيرن (١٨٥٠ - ١٩٠٤) : صحافي وباحث أميركي في التراث الياباني خاصة . تزوج من يابانية ، ومات في اليابان . - المترجم .

٢٢ - بيير لوتي (١٨٥٠ ١٩٢٣) : ضابط فرنسي في البحرية ، وكاتب . - المترجم

اليابان. مع لوتي أرتحلُ من اليابان إلى تركيا، ومن ثم إلى القدس. لقد أضحيتُ شديد التشبُّع بصورته عن القدس حتى أني في آخر المطاف أقنعت ناشر صحيفة يهودية بالسماح لي بكتابة شيء عن هيكل سليمان. مزيداً من البحث! وقد نجحت، في مكان ما، بشكل ما، في العثور على نموذج للهيكل، يبيّن تطوّره، والتغيرات التي طرأت عليه - وحتى دماره الأخير. وأذكر أني قرأت هذه المقالة التي كتبتها حول الهيكل على مسامع والدي ذات أمسية؛ أذكر ذهوله من امتلاكي مثل تلك المعرفة العميقة بالموضوع ... لا شك في أني كنت دودةً دؤوباً!

دفعني نَهَمي وفضولي فوراً إلى الأمام وفي كل الاتجاهات. وفي الوقت نفسه كنت مهتماً ومنغمساً في الموسيقى الهندوسية (بعد أن تعرَّفت على مؤلف موسيقي هندوسي قابلته في مطعم هندي)؛ وفي الباليه الروسية، وفي الحركة التعبيرية الألمانية - وفي مؤلفات سكريابين على البيانو، وفي فن المجانين وشكراً لبرينزهورن (Prinzhorn)، وفي الشطرنج الصيني، وفي الملاكمة ومباريات المصارعة، ومباريات الهوكي، وفي فن عمارة العصور الوسطى، وفي الغوامض المحيطة بالعوالم السفلية المصرية والإغريقية، وفي رسوم الكهوف التي ابتدعها الإنسان الكرومانيوني، وفي النقابات المهنية في عصور سابقة، وفي كل ما يتعلّق بروسيا الجديدة، وإلى آخره، من أمر إلى آخر، أنزلق من مستوى إلى آخر بسهولة ويسر وكأني أستخدم مصعداً. ولكن أليس بهذا الأسلوب اكتسَبَ فنانو عصر النهضة المعرفة والمادة الأساسية من أجل إبداعاتهم المذهلة؟ ألم يكونوا ينتشرون دفعة واحدة في كل مسالك الحياة؟ ألم يكونوا نهمين وشرهين؟ ألم يكونوا حِرَفيّين مَهَرَة،

ومتشرّدين، ومجرمين، ومحاربين، مغامرين، وعلماء، ومكتشفين، وشعراء، ورسامين، وموسيقيين، ونحاتين، ومهندسين معماريين، ومتعصّبين ومناصرين متحمسين وكلهم يسيرون على قدم المساواة ؟ وطبعاً كنت قد قرأت تشيلليني[٢٣]، و " سير حياة " فاساري[٢٤]، وتاريخ محاكم التفتيش، وحياة البابوات، وقصة عائلة ميديتشي، ومسرحيات سِفاح القربى الإيطالية، والألمانية والإنكليزية، ومؤلفات جون أدينغتن سيموندز[٢٥]، وياكوب بكهارت، وفونك-برينتانو، وكلهم من عصر النهضة، لكني لم أقرأ أبداً ذاك الكتاب الصغير العجيب لبلزاك، والذي يدعى " عن كاترين دو ميديتشي "، وكان هناك كتاب واحد أنغمسُ في قراءته باستمرار في لحظاتٍ من السكينة والهدوء: إنه كتاب والتر باتر حول عصر النهضة. وقد قرأت معظمه بصوت عالٍ على مسامع ألريك، مبدياً إعجابي من استخدام باتر الحسَّاس للُّغة. أمسيات مجيدة كانت تلك، خاصة حين كنت أنتهي من قراءة فقرة طويلة وأغلق الكتاب وأنصت إلى ألريك وهو يُطنِب في حب الرسامين الذين يعبدهم. كان مجرد رنين أسمائهم يشجيني: تاديو غادا، سينيوريللي، فرا ليبّو ليبّي، بييرو ديلا فرانشيسكا، مانتينيا، أوتشيللو، تشيمابيو، بيرانيزي، فرا أنجيليكو، وأمثالهم. وكانت أسماء البلدان والمدن لا تقلُّ روعة: رافينا، مانتوا، سينا، بيتزا، بولونيا، تيبولو، فيرنيزه، ميلانو، تورينو. وهكذا

---

٢٣ – بنفينوتو تشيلليني (١٥٠٠ – ١٥٧١) : رسام وكاتب . له " سيرة ذاتية " شهيرة جداً . – المترجم

٢٤ – جيورجيو فاساري (١٥١١ – ١٥٧٤) : مهندس ، ورسام ، ومؤرِّخ إيطالي . الكتاب المشار إليه هو " سيَر حياة أبرز المهندسين ، والرسامين ، والنحاتين الإيطاليين" . – المترجم

٢٥ – جون أدينغتن سيموندز (١٨٤٠ – ١٨٩٣) : كاتب إنكليزي ، أشهر كتبه " عصر النهضة في إيطاليا " . وكان معروفاً بدراساته حول الشذوذ الجنسي . – المترجم

في إحدى الأمسيات، ونحن نواصل فترات ابتهاجنا بروائع إيطاليا في مخزن البقالة الفرنسي-الإيطالي، ألريك وأنا، انضمَّ إلينا لاحقاً هيمي وستيف روميرو، وانخرطنا في حالةٍ غامرةٍ من النشوة حتى أنَّ اثنين من الإيطاليين كانا جالسَين في آخر الطاولة كفَّا عن التحدُّث معاً وأخذا ينصتان بفمين مفتوحين إعجاباً بينما كنا ننتقل بسرعة من شخصية إلى أخرى، ومن بلدة إلى أخرى. أما هيمي وروميرو، اللذان ثملا بدورهما باللغة التي كانت غريبة عليهما كما على الإيطاليين، فظلا ملازمين الصمت، وهما يستمتعان بإنهاء شرب ما في كأسيهما، وأخيراً نالنا الإرهاق، وهممنا بدفع الحساب، فإذا بالإيطاليين يبدءان فجأة بالتصفيق. وهتفا " برافو! برافو! جميل جداً! " ، فشعرنا بالارتباك. وتطلَّبَ الوضع جولة أخرى من المشارب. وانضم جو ولويس إلينا، وعَرَضَا علينا أن نشرب ما نشاء. ثم باشرنا الغناء، وبدأ لويس البدين، الذي تأثَّرَ من أعماقه، يبكي من فرط الفرح. وناشدنا أن نمكث فترة أطول، واعداً بأن يعدّ لنا طبَقَ عجَّة جميلاً بالرَم مع بعض الكافيار إلى جانبه. وبينما نحن في قلب هذا كله مَنْ سيدخل علينا غير السينيغالي الخارق، باتلينغ سيكي، الذي كان بدوره زبوناً على المؤسسة التجارية. كان طويل القامة قليلاً ولعوباً بطريقة خطرة. وسلاّنا بأداءِ خِدَع صغيرة بعيدان الكبريت، وأوراق اللعب، والصحاف، وعصا الخيزران، والمناديل. وكان مرحاً وراضياً في الوقت نفسه. كان ثمة ما يزعجه. وقد لجأ أصحاب المحل إلى البراعة الفائقة لمنعه، أثناء عبثه، من تحطيم المكان. وكان عليهم أن يمطروه بالمشارب، ويرتبوا على ظهره، ويلاطفوه بالمديح. وغنّى ورقص، وحده ودون شريك، مُصفِّقاً لنفسه استحساناً، صافعاً فخذيه،

رابتاً على أكتافنا - ربتات عابثة صغيرة نخعت فقراتنا وأصابت رؤوسنا بالدوار. ومن ثم، ودون أي سبب معروف، إذا به فجأة ينطلق خارجاً، ضارباً وموقعاً بضعةَ صناديق من البيرة في غمرة حماسه الصبياني، وبرحيله أَخذ الجميع يتنفسون بمزيد من الارتياح. وجاءت العجِّة والكافيار، وبعضٌ من لحم السمك الأبيض، شربنا بعدَه نبيذاً أبيضَ ذهبياً، وأتبعناه بقهوة مُرَّة ممتازة ومشروبٍ نادرٍ آخر. وكان لويس منتشياً، وظل يردد " استزد! لا شيء يغلى عليك يا سيد هنري ". وقال جو:" متى ستذهب إلى أوروبا يا سيد هنري؟ أرى أنك لن تمكث هنا طويلاً. أه، فيزول[٢٦]! يا إلهي، ذات يوم أنا أيضاً سأعود! "

دَرَجتُ إلى المنزل بسيارة أجرة، وأنا أغنّي كرجلٍ يعاني الخدار. وأنا أضحك مع نفسي، وأحوزق، وأغمغم وأتمتم كمجنون، وأَخطب في العصافير، وقطط الزقاق، وأعمدة الهاتف. وأخيراً شققتُ طريقي صاعداً الدرج، ببطء وتوجُّع، أنزلقُ إلى الخلف درجة أو اثنتين ومن ثم أعود إلى الارتقاء من جديد، مترنحاً من جانب إلى جانب. محنةٌ سيزيفيَّة حقيقية. لم تكن مونا قد عادت إلى المنزل بعد. انطرحتُ على السرير وأنا في كامل ملابسي ورحتُ في نومٍ عميق. وقرابة الفجر شعرتُ بمونا تشدُّني. استيقظت لأجدني وسط بحيرة من القيء. تفوووه! أي نتانة! وتوجَّبَ إعادة ترتيبُ السرير، وكشطُ الأرضية، ونزعُ ملابسي عني. ما أزال سكران، أترنَّحُ وأتمايلُ في المكان. وكنت ما أزال أضحك مع نفسي، ومصاباً بالغثيان ولكني سعيد، وأشعر بالندم لكني مرح. وكان الوقوف تحت الدش عملاً بطولياً يتطلَّبُ مهارةً خارقة جداً. وما أذهلني ذهولاً

٢٦ - فيزول : مدينة صغيرة في وسط إيطاليا . - المترجم

كاملاً كان قبول مونا العطوف. لم تصدر عنها كلمة تذمُّر واحدة. كانت تتنقّل في المكان كملاك مفوَّض. والفكرة اللذيذة الوحيدة التي ظلت تتردد على ذهني، وأنا أستعد من جديد للإيواء إلى السرير، هي أني لم أكن مضطراً إلى التوجه إلى العمل حين سأستيقظ. لا أعذار بعد الآن. لا ندم. لا إحساس بالذنب. كنت حراً طليقاً. في إمكاني أن أنام قدر ما أشاء. سيكون هناك إفطارٌ لذيذ في انتظاري، وإذا كنت ما أزال سكران، في وسعي أن أعود إلى السرير وأبقى نائماً حتى نهاية النهار. وبينما أنا أغمض عينيّ راودتني رؤيا لويس البدين واقفاً عند المدفأة المتلظية بالنار، عيناه مخضلتان بالدموع، وقلبه ينسكب فوق تلك العجّة. كابري... سونيتو، أمالفي، فيزول، بيستوم، تاورمينا ... فونيكولي، فونيكولا ... وغيرلاندايو ... والكامبو سانتو ... أي بلد! أي شعب! أؤكد لك أني سأذهب إلى هناك ذات يوم. ولم لا؟ يعيش البابا!(ولكن لعنني الله إن أنا قبَّلتُ طيزه!)*

أوقات عطلة نهاية الأسبوع كانت تأخذ منحى مختلفاً. الزيارة المعتادة لمود، التمشّي في الحديقة العامة معها ومع الطفلة، وربما دورة بالدوامة، أو إطلاق طائرة ورقية، أو نزهة بالقارب في البحيرة. ولغو، وثرثرة، وتوافه، وتبادل اتهامات. ولاحظت أنَّ عقلها أخذ يزداد خِفّة. والنَفَقَة التي كنا ندبِّرها بشقّ النَفَس كانت تُصرَف على التوافه. حُلي تافهة في كل مكان. ويسيل لعابها لفكرة إرسال الطفلة إلى مدرسة خاصة، لأنَّ المدرسةَ الحكومية لا تُلائم أميرتنا الصغيرة. ودروس لتعلُّم العزف على البيانو، ودروس تعلُّم الرقص، ودروس تعلُّم الرسم. وأسعار

---

* راجع "سكسوس"! - المترجم

الزبد، والديك الرومي، والسردين، والمشمش. توسُّع أوردة ميلاني. ولاحظت أن البغاء قد اختفى. لا كلبَ أليفاً، ولا بسكويت للكلاب، ولا فونوغراف أديسون. والمزيد فالمزيد من الأثاث يُكدَّس، مزيداً من علب الحلوى الفارغة مرمية في أرض الخزانة. ولدى مغادرتها، تحدث عملية شدّ الحبل القديمة نفسها. مشاهد فظيعة. الطفلة تزعق وتتشبث بي، تتوسل إليّ أن أبقى وأنام مع الماما. وفي إحدى المرات، في الحديقة العامة، وكنت جالساً على هضبة صغيرة جميلة مع الطفلة، أراقبها وهي تطلق الطائرة الورقية التي اشتريتها لها، وكانت مود في تلك الأثناء تهيم على وجهها في مكان قريب. وفجأة اقتربت الطفلة مني وأحاطت عنقي بذراعيها وبدأت تغمرني بقبلات رقيقة، وتناديني بابا، بابا حبيبي، وما إلى ذلك. وعلى الرغم من كل محاولاتي أفلت مني نشيج، ثم آخر، ثم آخر ومعه فيض من الدموع يكفي لإغراق حصان. وترنحت وأنا أنهض واقفاً، والطفلة متشبثة بي وكأنَّ روحها معلَّقة بي، ورحت أتلفَّت حولي كالأعمى بحثاً عن مود. وأخذ الناس يحدقون إليّ مرعوبين ويتابعون طريقهم. أسى، أسى، أسى لا يحتمل. والسبب يعود أولاً وقبل كل شيء إلى أنه لم يكن يحيط بي إلاّ الجمال، والنظام، والسكينة. كان هناك أطفال آخرون يلعبون مع آبائهم. كانوا سعداء، ومشرقين ويتفجَّرون فرحاً. نحن فقط كنا تعساء، مُبعَدين، مبعَدين إلى الأبد. وفي كل أسبوع كانت الطفلة تكبر في السن، وتصبح أكثر إدراكاً، وحساسية وتأنيباً، بصمتها. كان من الإجرام العيش هكذا. ولو كان الترتيبُ مختلفاً ربما كنا استمرينا في العيش معاً، كلنا، مونا، ومود، والطفلة، وميلاني، والكلاب، والقطط، والمظلات، وكل شيء.

على الأقل هذا ما كنت أفكر فيه في لحظات اليأس. إنَّ أيَّ وضعٍ كان أفضل من لحظات التئام الشمل المفجعة تلك. لقد كنا جميعاً نتألم، نتأذى، مونا على قدم المساواة مع مود. وكلما زادت صعوبة تدبير أمر النفقة الأسبوعية، زاد إحساسي بالذنب نحو مونا التي كانت تتحمَّل وطأة الوضع الفادحة كلها على كتفيها. أي خير في حياة الكاتب إذا كانت تستلزم مثل تلك التضحيات؟ أي خير في عيش حياة رغيدة مع مونا إذا كان على لحمي ودمي أن يدفعا الثمن؟ أثناء الليل، في اليقظة أو في الحلم، كنت أشعر بذراعيّ الطفلة الصغيرين يطوقان عنقي، يشداني إليها، يشداني كي أعود إلى البيت. كم كنت أبكي أثناء نومي، وأئن وأنشج، وأنا أستعيد مشاهد الألم الممضّ تلك. وكانت مونا تقول " كنتَ تبكي وأنتَ نائم ليلة أمس "، فأقول لها " أحقاً؟ لا أذكر ". وكانت تعلم أني أكذب. كان يؤلمها كثيراً اعتقادها أنَّ وجودها وحده غير كاف لإسعادي. وكثيراً ما كنت أعترض، على الرغم من أنها لا تكون قد فاهت بأي كلمة، فأقول " أنا سعيد فعلاً، ألا ترين؟ أنا لا أطلب النعيم ". فتلزم الصمت. وتسود فترات صمت مربكة. ثم أندفع قائلاً " لا أظنك تعتقدين أني قلق على الطفلة؟ "، فتجيب " أنت لم تذهب إلى هناك منذ عدة أسابيع، أتدري هذا ؟ " وكانت محقّة. فقد كنت قد تعودت على تسويف الزيارات الأسبوعية المنتظمة، وبتُّ أرسل النقود بالبريد أو عن طريق صبي ساعي. " أعتقد أنكَ يجب أن تذهب هذا الأسبوع يا فال. فقبل كل شيء، إنها طفلتك من لحمك ودمك "، وأقول " أعرف، أعرف، نعم، سأذهب "، ثم أهمهمُ مُستنكراً. وأهمهمُ مُستنكراً أيضاً حين أسمعها تقول: " لقد ابتعتُ شيئاً للصغيرة لتأخذه معك هذه

المرة ". لمَ لمْ أشترِ شيئاً بنفسي؟ إني كثيراً ما كنت أتوقف أمام واجهات المحلات، وأنتقي في ذهني كل الأشياء التي أرغب في شرائها، ليس فقط للطفلة، بل لمونا، ولميلاني بل وحتى لمود. لكني كنت أرى أنه ليس من الإنصاف أن أبتاع أشياء لم أكن أكسب ثمنها من عرقي. والنقود التي كانت مونا تكسبها في المسرح لم تكن تكفي حاجاتنا، ليس بالضبط. كانت دائماً الباحثة عن الذهب، أسبوعاً بعد أسبوع. وأحياناً كانت تعود إلى المنزل مع هدايا لي تدير الرأس، بعد أن تكون قد حصلت على مبلغ محترم، في اعتقادي. وأناشدها ألاّ تبتاع لي أي شيء. وأقول " لدي كل شيء ". وكان هذا صحيحاً. (ما عدا الدراجة البيانو. وكنت، بصورة ما، قد نسيت كل شيء عن تينك الشيئين). وكانت الأغراض تتكدس بسرعة فائقة، بحيث أني حتى لو قَبِلتُها فإني أشك في أني كنت سأستخدمها. وكان من المعقول أكثر لو أنها أهدتني آلة هارمونيكا ومزلجتين معجّلتين ...

* * *

أحياناً كانت تَغيرُ عليَّ نوباتٌ غريبة من الحنين إلى الماضي. فأستيقظ من النوم مع مخلّفات حلم وأقرِّر أنه من المُلح تماماً أن أستعيد ذكريات معيَّنة قوية الأثر، مثل ذكرى ذلك الرجل البدين الذي كنت أناديه ب ـ " عم تشارلي "، والذي كان يُجلِسني على حجره ويمتعني برواية قصص عن مآثره خلال الحرب الأسبانية-الأميركية. وكنت أقوم بمشوار طويل، بعربة التروللي ذات السلك المرفوع، إلى مكانٍ صغير يدعى غلينديل، حيث كان جوي وتوني يقطنان ذات يوم. (كان العم تشارلي عمّهما هما، لا عمي أنا). وأجد أن القرية الصغيرة الغافية،

بعد مرور كل تلك السنين، ما تزال بالنسبة إلي تحتفظ بجوّها الغريب الطريف. المنازل التي كان صديقاي الصغيران يعيشان فيها ما تزال قائمة، بالكاد تغيرت، لحسن الحظ. والخان بإسطبلاته، حيث تعوَّدَ الأصدقاء والأقرباء أن يجتمعوا ذات أمسية صيف، كان أيضاً ما يزال موجوداً. ولا أزال أذكر أني كنت أركض من طاولة إلى طاولة وأنا طفل صغير، وأرشف ما يتبقّى من بيرة في الكيزان، أو أجمع البنسات والدايمات من المعربدين المترنّحين سُكراً. وحتى الأغاني الألمانية الجياشة العاطفة التي كانوا يصدحون بها من رئاتٍ من حديد، ما تزال تتردد في أذني: "lauderbach, lauderbach , hab'ich mein Strumpf ver- lor'n" . وأكاد أراهم وقد صَحُوا فجأة، وتلبَّسوا الآن سِمة الجديَّة الصارمة، وتجمَّعوا على شكل مربع فارغ، كآخر بقايا فوج باسل، من الرجال، والنساء، والأطفال، كتفاً إلى كتف، وكلهم أعضاء في Kunst Verein (جمعية فنية) نواة لـ Saengerbund (سلفية عظيمة) ، ينتظرون بكل مَهَابة أن يضرِبَ القائدُ الشوكةَ الرنانةَ، كمحاربين مخلصين يقفون على حدود أرض أجنبية، صدورهم تجيش، وعيونهم براقة لامعة، يرفعون أصواتهم القوية في جوقة عُلوية، يترنمون بأغنيةٍ بالغةِ التأثيرِ تحُركهم من أعماق أرواحهم ... ويتقدمون. والآن إلى الكنيسة الكاثوليكية الصغيرة حيث كان السيد إمهوف، والد توني وجوي (وهو أول فنان أقابله وجهاً لوجه) قد صنع نوافذ الزجاج الملون، واللوحات الجصّية الجدارية والسقفية، والمذبح المحفور. وعلى الرغم من أنَّ ولديه كانا يخافانه منه، وعلى الرغم من كونه صارماً، مستبداً، ومتحفظاً، إلاّ أني كنت أنجذب بقوة إلى ذلك الرجل الكئيب. وعند وقت

النوم كنا نُقاد دائماً إلى غرفة مكتبه في العلِّية لنلقي عليه تحية المساء. وكنا دائماً نجده جالساً على طاولته، يرسم لوحات مائية. وكان مصباح القراءة يلقي ضوءاً خافتاً على الطاولة، تاركاً بقية الغرفة موزَّعة بين الضوء والعتمة. وكان يبدو حينئذ غاية في الجدية والرقة، وذاهلاً، ونائياً. وكنت أتساءل عمَّا يُجبِره على البقاء على مدى ساعات طويلة من الليل ملتصقاً بطاولة عمله. ولكن ما أتذكره أكثر من أي شيء هو أنه كان " مختلفاً ": كان من صِنفٍ آخر ... وأتابع سيري. ها قد وصلت الآن إلى خطوط السكة الحديد، حيث كنا نلعب في الوهد: كان أشبه بأرضٍ مشاع تقع بين طرف القرية والمقابر التي كانت تقع في الجانب الآخر من السكة. وفي مكان ما قريب من تلك النواحي عاشت قريبةٌ -بعيدةٌ لي كنت أناديها تانت غروسي. كانت امرأة ما تزال في طور الشباب وعلى جانب عظيم من الجمال، وذات عينين رماديتين كبيرتين وشعر أسود، وكنت أشعر، حتى وقتئذ، وعلى الرغم من أني كنت مجرَّدَ طفل، أنها شخصية استثنائية. لم يسمعها أي إنسان قط ترفع صوتها غضباً؛ ولم يسمعها أحد قط تتكلم بسوء عن أي إنسان آخر؛ ولم يلجأ إليها إنسان طلباً للعون وردَّته خائباً. وكانت تتمتع بصوت رنَّان، وحين تغني تفعل ذلك بمصاحبة عزف على القيثارة؛ وكانت أحياناً ترتدي ملابس تنكرية، وترقص على وقْع الرِّق، وترفرف بمروحة يابانية طويلة. ثم أصبح زوجها سكيراً؛ وقيل إنه كان يضربها. لكن تانت غروسي لم تزددْ إلاّ عذوبة، ورِقَّةً، وعَطفاً، وسحراً، وكياسة. ومن ثم، وبعد فترة من الوقت أخذت شائعات تروج مفادها أنها أضحت متديِّنة - وكان ذلك دائماً يُقالُ همساً، وكأنما للتلميح إلى أنها إنما قد جُنَّت. ورغبتُ بقوة في أن أراها ثانية. وبحثت وبحثت عن المنزل ولكن بدا

أنَّ لا أحدَ كان على علمٍ بوجودها. وسمعتُ إلماعاً إلى أنها ربما قد أُودعَتْ المصحة العقلية ... أفكار غريبة، ذكريات غريبة، راودتني وأنا أتجول في أنحاء قرية غلينديل الغافية. هذه المعبودة، هذه القديسة تانت غروسي، وحوض اللحم الحسّي الذي كنت أناديه بعم تشارلي - هذان الاثنان أحببتهما. أحدهما لم يكن يتكلّم إلاّ عن تعذيب وقتل الإيغوروت[٢٧]، واقتفاء أثر أغوينالدو[٢٨] في مستنقعات الفيليبين ومعاقلها الجبلية؛ والأخرى كانت بالكاد تتكلم؛ كانت روحاً هائمة، إلهة في صورة دنيوية اختيرت لتمكثَ معنا وتُنيرَ حياتنا بالبهاء القُدسيّ الذي تشعّه.

حين غادر متوجهاً إلى الفيليبين كوكيل عرّيف، كان هذا الفتى تشارلي شخصاً عادي الحجم. وبعدها بثماني سنوات، ولدى عودته كرقيب تموين، كان يزن ما يقارب الأربعمائة باوند كان دائم التعرُّق. وأذكر بحيوية هدية قدَّمها إليّ ذات يوم - ست رصاصات دمدم[٢٩] صنع لها علبة مبطَّنة بالكتان الأزرق. وأكَّد أنه كان قد أخذ هذه من أحد رجال أغوينالدو؛ ولأنهم أُدينوا بتهمة استخدام هذه الطلقات (وكان الألمان قد زوّدوا الفيليبينيين بها) فقد أُعدَموا المتمرِّد ورفعوا رأسه على عامود. ومثل تلك القصص، بالإضافة إلى حكايات تقشعر لها الأبدان عن "المعالجة المائية " التي طبَّقها جنودنا على الفيليبينيين، جعلتني أتعاطف مع أغوينالدو. وكنت أصلي في كل مساء كي لا يقبض الأميركيون عليه. لقد جعل العم تشارلي منه، دون قصدٍ، بطلاً في نظري.

---

٢٧ - الإيغوروت : زنوج أقزام يقطنون الجبال في الفيليبين . - المترجم

٢٨ - إميليو أغوينالدو (١٨٦٩ - ١٩٦٤) : سياسي فيليبيني قاد معركة الاستقلال عن أسبانيا (١٨٩٦ - ١٨٩٨) ، وكافح الاحتلال الأميركي (١٨٩٩ - ١٩٠١) . - المترجم

٢٩ - رصاصة دمدم : رصاصة خاصة بالأسلحة الصغيرة ، وتسبب تمزقاً كبيراً . اتخذت اسمها من مكان صنعها في الهند . - المترجم

عند التفكير في أغوينالدو تذكّرت فجأة يوم العَلَم الذي أُلبِستُ فيه أفضل بزّة لورد فونتليروي[٣٠] لديّ وأُخِذْتُ في الصباح الباكر إلى المنزل الجميل ذي الحجارة البنّية الكائن في جادة بدفورد، حيث كنا سنشاهد من الشُرفة " العَرْض العسكري ". وكانت أول فرقة تمثل أبطالنا قد عادت لتوها من الفيليبين. تيدي روزفلت كان هناك - " في المقدمة " - يقود خيالته المتمرّسين. وكان يُخيِّم على ذلك الحدث إثارة هائلة؛ الناس يبكون ويهللون، والأعلام والرايات في كل مكان، والزهور تنهمر من النوافذ. والناس يتبادلون القبلات ويصيحون هللويا. وقد أمضيت وقتاً رائعاً، لكني كنت مشوَّشاً قليلاً. فلم أفهَمْ سبَبَ كلّ تلك الانفعالات العاطفية المفرطة. وأشدّ ما أثار إعجابي كانت البزات العسكرية - والأحصنة. وفي تلك الأمسية جاء ضابط من سلاح الفرسان وجندي من سلاح المدفعية إلى بيتنا لتناول طعام العشاء. وكانت تلك هي بداية علاقة عاطفية بالنسبة لكلتا عمتيَّ. غير أنها خُنِقَت في المهد، لأنَّ جدي، الذي يكره الجيش، رَفَضَ رفضاً باتاً أن يكونا صِهرَين له. ولا أزال أذكر ازدراءه واحتقاره لكامل الحملة على الفيليبين. لقد كانت بالنسبة إليه مجرد مناوشة. وقال ساخطاً وغاضباً " كان يجب أن تنتهي في غضون ثلاثين يوماً ". ثم أخذ يتحدث عن بسمارك وفون مولتكه، عن معركة واترلو وعن حصار أوسترليتز. وكان قد قَدِمَ إلى أميركا خلال أيام حربنا الأهلية. وكان يؤكد دائماً على أنَّ تلك كانت حرباً. أما جلْدُ همجيين عُزَّل فأمرٌ يسير. ومع ذلك، كان يجب أن يشرب نخب الأميرال

---

٣٠ - لورد فونتليروي : هو بطل رواية " لورد فونتليروي الصغير " للكاتبة فرانسيس اليزا هدجسون (١٨٤٩ - ١٩٢٤) ، وفيها يرث الحفيد الصغير ثروة جده الطائلة ويصبح لورداً صغيراً .

ديوي، بطل معركة خليج مانيلا. وقد قال أحدهم " أنت الآن أميركي "، ولا يزال ردُّ جدي يتردد في أذني " وأنا أميركي صالح، ولكن هذا لا يعني أن أقتل. اطرح عنك البزَّة الرسمية وعُدْ إلى عملك! "

هذا الجد، فالانتاين نيتنغ، كان موضع احترام الجميع وإعجابهم. وكان قد أمضى عشر سنوات من حياته في لندن كخياط درجة أولى، واكتسبَ هناك لكْنَةً إنكليزية جميلة، وكان دائماً يتحدث بحبٍ عن الإنكليز ويقول إنهم قومٌ: متحضرون ". وظل طوال حياته يحتفظ بالعديد من السلوكيات الإنكليزية. وكان صديقُهُ الحميم، الذي كان يقابله في أماسي أيام السبت في حانة تقع في الجادة الثانية، ويديرها عمي بول، رجلاً مهزولاً، متحمساً عنيفاً يدعى السيد كراو، وكان إنكليزياً من برمنغهام. ولا أحد في العائلة كان يحب السيد كراو، ماعدا جدي. والسبب يعود إلى أنَّ السيد كراو كان اشتراكياً. وأيضاً، كان دائماً يلقي خُطَباً زاخرة بالنقد القاسي. وكان جدي، الذي كانت ذاكرته توغل في الماضي حتى أيام ٤٨-، يستسيغ تلك الخطب ويهلّل لها. هو أيضاً كان ضد " الرؤوس الكبيرة ". وطبعاً ضد الجيش. غريب، حين أعود بذاكرتي إلى الوراء، كم كانت كلمة اشتراكية تثير في تلك الأيام خوفاً مروِّعاً. لا أحد من أفراد عائلتنا كان يرغب في أن تكون له أي علاقة بشخصٍ يسمِّي نفسه اشتراكياً؛ كان يُعتَبَر أسوأ من كاثوليكي أو يهودي. لقد كانت أميركا بلداً حراً؛ أرضَ الفُرَص المتاحة، ومن واجب الإنسان فيه أن يصبح ناجحاً وثرياً. ووالدي، الذي كان يكره رئيسه في العمل - ودائماً يسميه " إنكليزي لعين " - سيصبح بدوره قريباً خياطاً معلِّماً. وكان جدي مضطراً إلى قبول نتاج عمل والدي. غير أنه لم يفقد

قط تلك المهابة، تلك الثقة بالنفس والاستقامة التي كانت دائماً تجعله متفوقاً قليلاً على والدي. وقبل مضي وقت طويل أصبح "الخياطون المعلِّمون " كلهم فقراء، بشكل محزن، واضطروا إلى أن يتَّحدوا معاً لتوزيع النفقات، وللمحافظة على استخدامهم الثابت لحفنة صغيرة من العمال. وكانت أجور العمال - من مُفَصِّلين، ومُساعدين، وصانعي معاطف، وصانعي بناطيل - ترتفع باطِّراد، وأصبحت تمثِّل في الأسبوع الواحد مبلغاً يفوق حصَّة المعلِّم. وأخيراً - الفصل الأخير من الدراما - أصبح أولئك العمال الصغار، وكلهم من الأجانب، ومحتَقَرون عادة، ولكن أيضاً محسودين أحياناً، يُقرِضون المعلِّمين المال لكي يحافظوا على سير أعمالهم. ولعل كل ذلك كان نتيجة المبادئ الاشتراكية المؤذية التي كان مُحَرِّضون من أمثال السيد كراو يرعونها. وربما ليس كذلك. وربما كان هناك شيء مدمِّر أصلاً في مبدأ وولنغفورد القائل " اغتنِ بسرعة "، الذي تشرَّبَ به شباب جيلي.

توفي جدي قبل أن تندلع الحرب العالمية الأولى، وخَلَّفَ بعده عقاراً ضخماً، كما فعل بقية المهاجرين في تلك الناحية القديمة، وكلهم قَدِموا إلى أميركا في وقتٍ واحدٍ ومن كل أنحاء أوروبا. وقد أحرزوا نجاحاً أكبر، أكبر بكثير في أرض الأحرار المجيدة هذه مما حققه أبناؤهم وبناتهم. وقد بدؤوا من الصفر، مثل ذاك الفتى اللحام القادم من ألمانيا، سْميٍّ - هنري ميللر " ملك الماشية " - الذي انتهى به الأمر إلى امتلاك مساحة هائلة من ولاية كاليفورنيا. وهذا حق، لعله كانت هناك فرص أكثر في تلك الأيام، ولكن كانت هناك أيضاً حقيقة تقول إنَّ أولئك الرجال قد جُبِلوا من مادة أصلب، وإنهم كانوا أكثر اجتهاداً، ومثابرة،

وسعة حيلة، وانضباطاً. بدؤوا بإحدى التجارات المتواضعة - لحَّام، نجَّار، خيَّاط، حذّاء - والنقود التي وفَّروها كانت من كَسْب عرق جبينهم. ولطالما كانت حياتهم بسيطة، ومرتاحة جداً، على رغم غياب كل وسائل الراحة، وكل الأدوات التي توفِّر الجُهد والتي أضحت الآن لا غنى عنها. وتذكَّرت المرحاض الذي كان موجوداً في منزل جدي. أولاً كان مجرد بناء خارجي قائم في الفناء؛ ولاحقاً بنى مكاناً ضيِّقاً داخل المنزل في الطابق العلوي. ولكن حتى بعد إدخال استخدام الغاز ظل ذلك المرحاض دون إضاءة فيما عدا شمعة صغيرة تطفو فوق زيت حلو. ورفض جدي رفضاً باتاً أن يعتبر إدخال الغاز لإضاءة المرحاض أمراً ذا أهمية. وكان أولاده يحصلون على تغذية جيدة وملابس؛ ويؤخذون أحياناً لحضور العروض المسرحية، وكانوا يصحبونه في المشاوير والنزهات - وما كان أروعها! - وكانوا يغنّون معه حين كان يحضر اجتماعات التئام شمل الـ Saenger bund. كانت حياةً بسيطة، صحيّة، وأبعد ما تكون عن الرتابة. وفي فصل الشتاء، ومع مجيء الثلج والجليد، كان أحياناً يصحبهم لركوب عربة جليد مكشوفة يجرُّها حصان. وهو نفسه كان يذهب أحياناً لممارسة رياضة الانزلاق بمركب الجَمَد. وفي فصل الصيف كانت تقام تلك الرحلات التي لا تنسى، بمركب النزهات، إلى أماكن مثل غلين آيلند، أو نيو روشيل. ولا أرى أنَّ طفلَ هذه الأيام يحصلُ على ما يجاري تلك النزهات. ولا أرى ما يجاري أماكن الاحتفالات السحرية في غلين آيلند. وأقرب شيء إليها هو الجو العام للوحات معيَّنة لرينوار وسورا. هنا مرة أخرى لدينا ذاك الجو العام الذهبي، ذاك المرح والنضج، ذاك الغنى الجسدي، المترف، الذي يميِّز كثيراً الفترة الناعسة، المتثائبة، المتراخية،

الممتدة من نهاية الحرب الفرانكو-بروسية وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. لا شك في أنها كانت فترة ازدهار بورجوازي، أفسدتها لطخة نظامٍ عَفِن، لكن الذين يمثلونه رمزياً، الذين يمجِّدونه بالكلمة وبالخضاب، لم يتلوَّثوا. ولا أتصورَّ مطلقاً جدي ملوَّثاً، ولا رينوار أو سورا. وأعتقد أن جدي، بأسلوبه الخاص في الحياة، كان يشترك مع سورا ورينوار بنواحي تشابه أكثر مما يشترك مع الأسلوب الأميركي الحديث في الحياة، الذي كان حينئذ في طور النشوء. وأعتقد أنَّه كان جديراً بأن يفهم هذين الرجلين وفنهما، لو أتيح له. والداي لم يفهماهما أبداً. ولا الأولاد الذين ترعرعت معهم في الشارع.

واصلتُ تجوالي، تُحرِّكُ مشاعري ذكرياتُ الأيام الخوالي. هكذا حامَ عقلي وأنا أتنقَّل بين المثاوي السالفة. لا عجبَ أنَّ الأيامَ كانت مترعة، وشهية. وانطلقتُ أبغي غليندايل فانتهيت إلى " الحارة القديمة ". ولم أقوَ على مقاومةِ السيرِ بمحاذاةِ منزلِ الأسلافِ القديمِ مرة أخرى. لكني لم أحلم بالمناداة على أقربائي، الذين كانوا ما يزالون يقطنون هناك. وعلى الجانب الآخر من الشارع اتخذتُ موقفاً - ورفعت بصري إلى الطابق الثالث حيث كنا نسكن ذات يوم، وحاولت أن أعيد خلق صورة العالم الذي عرفته وأنا صبي في الخامسة أو السادسة. تلك النافذة الأمامية، حيث كنت أجلس، سوف تذهب معي إلى عالم الغيب، سوف تؤطِّر الذكريات التي سأعيشها من جديد أثناء انتظار ولادتي في جسدٍ جديد. وتذكَّرتُ الرعبَ والهلعَ اللذين انتاباني حين أجبرَتْني أمي للمرة الأولى على غسل النوافذ؛ فجلستُ على حافةِ النافذة، جسدي مدلًّى إلى الخارج، بعلوّ ثلاثة طوابق عن الرصيف - وهو علوّ شاهق بالنسبة إلى

طفل في السابعة أو الثامنة - وركبتاي تتشبثان بالحافة قدر تشبُّثي بالحياة العزيزة. واستقرَّت النافذةُ على ساقيَّ كثقلٍ من الرصاص، خائف من أن أرفع النافذة، خائف من أن يفلت تشبُّثي. وأمي تصرُّ على أنه لا يزال يتوجَّب غسل بعض ذرات ضئيلة من القذارة. (فيما بعد، بعد أم كبرت كثيراً، أصبحت أمي تخبرني كيف أني كنت أحبُّ أن أغسلَ لها النوافذ. أو كيف كنتُ أحبُ أن أعلِّق الظلاّت. وكيف كنت أحب هذا الشيء، وأحب ذاك ... وكلها أكاذيب لعينة!)

وقفتُ هناك مُستغرقاً في تأمُّلٍ عميق، أتساءل إن لم أكن في الواقع مخنثاً في تلك الأيام. لم يكن هناك صبي واحد في الحي يفوقني في حُسن الهندام، ولا في حُسن السلوك، ولا في النشاط والذكاء. وكنت أفوز بكل الجوائز، وأتلقّى كل التهليل. وكانوا واثقين تماماً من أني أعرف كيف أعتني بنفسي، ولم يخطر قط في بال والديَّ أن رفاقي في اللعب كانوا منغمسين للتو في الإثم والرذيلة. حتى أشد الأمهات تدلُّهاً كان في إمكانها أن تستبين في الصغير جوني لَدْلو بوادر مجرم. حتى أشد الآباء تهاوناً كان في إمكانه أن يدرك أن الصغير ألفي بتشا قد أصبح بالفعل عضواً في عصابةٍ وقاطع طريق. وفخر مدرسة يوم الأحد، محسوبك، كان دائماً يختار كرفاقٍ مرحين له أسوأ الأولاد في الحي. ألم تكن أمي العزيزة على علِمٍ بهذا؟ وبالإضافة إلى قدرتي على تلاوة التعاليم الدينية بالمقلوب، وأنا ذلك السعدان الذكي، كنت أتمتع أيضاً، حين أكون مع رفاقي، بلسانٍ قادرٍ على أن يَصُبَّ سيلاً من الفحش، والسباب، والقذف، إلى جانب مقدرته على إسباغ الشرف على المستحق الشنق. وألفُتُ الانتباه إلى أنَّ أكبرَ الأولادِ سناً هو الذي

علّمني. وليس صراحةً وعن قصد. فقد كنا دائماً متواجدين، ننصت إلى جدالاتهم ونزاعاتهم. وحين أفكر في الأمر أرى، أيضاً، أنهم لم يكونوا أكبر كثيراً منا في السن. كانوا في الثانية عشرة، بأقصى تقدير. لكن كلمات مثل شرموطة، وقحبة، ومصاص الأير، وابن العرصة، وخراء، ونيك، وأير، وما إلى ذلك كانت دائماً على ألسنتهم. وحين كنا نحن الأصغر سناً نستخدمُ هذه الكلمات كانوا يضحكون بصخب. وأذكر أني ذات يوم تقدَّمتُ من فتاةٍ في الخامسة عشرة من عمرها أو نحو ذلك، متباهياً ببعض المفردات الجديدة التي كنت قد اكتسبتها، ورحت أصفها بنعوتٍ شنيعة. وعندما أمسكتْ بي تنوي إشباعي ضرباً رحت أسبَّها كشرطيٍّ راكب، ولعلّني أيضاً عضَضْتُ يدها، ورفستُها على ساقها. مهما يكن، أذكر أنها كانت تغلي من الغضب ومن شعورها بالخزي. وقالت " سألقنك درساً، أيها الولد المؤذي "، وبهذا قبضتْ على أذني وجرّتني إلى مركز الشرطة القريب. قادتني على الدرج الكبير، وفتحت الباب، ودفعت بي بقوة إلى مركز الغرفة. ووجدتني، أنا الولد الصغير، أواجه الرقيب الجالس على الطاولة يطلُّ عليَّ من علٍ، لا يُرى منه غير رأسه عبر أعلى الطاولة.

" ما معنى هذا ". أرعبني صوته الصارم، الهادر حتى كاد يفقدني عقلي.

أمرتني الفتاة قائلة " اخبره، اخبره بماذا ناديتني! "

كنت من شدة الفزع بحيث عجزت عن فتح فمي. فقط لهثتُ.

قال الرقيب، وهو يرفع حاجبيه الكثّين الأسودي اللون، ويحملق بي بغضب مهدداً " فهمت. كان يستخدم ألفاظاً نابية، أليس كذلك؟ "

قالت الفتاة " نعم، يا سيدي "

" حسن، سوف نرى ماذا سنفعل "، نهض عن عرشه وهمَّ بالنزول.

بدأت أنشج، ومن ثم أجأر.

قالت الفتاة، وهي تقترب مني وتربت على رأسي بتحبُّب، " إنه فتى طيب حقاً. اسمه هنري ميللر "

قال الرقيب " هنري ميللر؟ ولكني أعرف والده وجَدَّه. لا أظنك تعنين أنَّ " هذا " الغلام الصغير يستخدم ألفاظاً نابية؟ "

بهذا نَزَلَ عن موقعه العالي ومال فوقي، ثم أمسك بيدي. قال "هنري ميللر، إني مندهش منك. لماذا ... "

(كان لذكر اسمي في ذلك المكان العام، وفي مركز للشرطة دون الأماكن كلها، أبلغ الأثر عليَّ ,لقد اعتبرتُ نفسي وبحق مجرماً، وتصوَّرتُ اسمي يُذاع في كل أنحاء الشارع، ويُطبَع كعناوين للصحف بطول خمسة أقدام. وأصابتني الرعشة لدى تفكيري فيما سيقوله والديّ لدى وصولي إلى البيت، لأني خمَّنت أنَّ النبأ سيكون قد سبقني. ولعل الرقيب قد عيَّن لتوه رجلاً لإبلاغ أمي عن الحالة. ولعلها ستضطرُّ إلى دفع كفالة للإفراج عني. زيادة على تلك المخاوف والهواجس كان هناك، أيضاً، إحساسٌ معيَّن بالفخر لسماع اسمي يتردَّدُ صداه في ذلك المركز الخالي للشرطة. لقد صرتُ أحظى الآن بمنزلةٍ خاصة. لم يكن أحد أبداً قد ناداني باسمي الكامل دفعة واحدة. كنت دائماً فقط هنري. أما الآن فقد أصبح هنري ميللر، شخصية متكاملة. والرجل سوف يدوِّن اسمي وعنواني في الدفتر الكبير. سوف يحتفظون لي بسجلّ ... وكبرتُ عشر سنين من العمر في لحظةِ الخوف تلك).

بعد مرور بضع دقائق، وقد أصبحتُ آمناً في شارعي الخاص، وأطلقت الفتاة سراحي بعد أن وعدتُ بألاّ أعود إلى استخدام مثل تلك الكلمات، شعرتُ بشعورٍ بطوليّ؛ أحسستُ بأن كل ذلك كان لعبة، أنَّ لا أحد ينوي أن يحاكمني، أو حتى أن يبلِّغ والديّ ,وخجلت من نفسي لأني زعقت كمخنَّث أمام الرقيب. وكونه اتضح أنه صديق حميم لوالدي وجدِّي كان يعني أنه لن يؤذيني أبداً. وبدل أن أفكر فيه كشخصٍ يسبِّب الخوف، بدأت أنظر إليه بوصفه حاميٌّ ونصيري.وقد أثَّرَ بي تأثيراً هائلاً لأن لعائلتي سمعةً حسنةً في مركز الشرطة، ولعلَّها على علاقة حميمة بهم. وعلى الفور أخذت أنمِّي احتقاراً للسلطات القائمة ...

قبل أن أغادر منازل الأيام الخوالي كان يجب أن أتسلل إلى الصالة ومن ثم أخرج إلى الفناء الخلفي حيث كان البناء الخارجي قائماً ذات يوم. وفي مكانٍ جانبيّ حيث كان معمل التدخين القديم كان هناك شكلٌ - مرسوم على السياج - لامرأة تقود كلباً صغيراً، رُسِمَ باللون الأسود وبالقار. وقد طُمِسَ الآن. هذه القطعة الفنية الفجة كانت تنتابني وأنا طفل. كانت، إن جاز التعبير، بمثابة رسم قبر مصري خاص بي. (والغريب في الأمر أني حين شرعتُ في الرسم فيما بعد، كثيراً ما رسمت أشكالاً كانت تذكّرني بهذه الصور الخام. وقد اقتفت يدي غريزياً أثر الخطوط العامة الصارمة نفسها؛ ويبدو أني، وعلى مدى سنين طويلة، لم أتمكن قط من تنفيذ أي شكل كامل، وإنما دائماً صوراً جانبية بالأسلوب العتيق؛ رؤوساً دائماً تشبه رأس الصقر أو تحمل تعبيرَ الساحرات، والناس يظنون أني أحاول عن عمد أن أبدو مرعباً ولكن هذا غير صحيح، لقد كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها أن أصور الشكل الإنساني.)

لدى وصـولي إلى الشـارع رفـعت عـينيَّ لا إرادياً، وكـأنما لأحـيّي السيدة أوفيليو، التي تعوَّدتْ أن تأوي كل قطط الحي الضالة على سطح شقتـها. وكان هناك أكثر من مائة منها تطعـمها مرتين في اليوم. وكانت تسكن وحدها، ولطالما ألمحتْ أمي إلى أنها لابد مجنونة. إنَّ ذلك النوع من الاهتمام الغارغانتوائي[٣١] المفرط كان يفوق فهم أمي.

مشيتُ بخطى وئيدة باتجاه الحي الجنوبي حيث سأستقلُّ حافلة قلب المدينة أبغي المنزل. كل واجهة مخزن تزخر بالذكريات. وبعد مرور خمس وعشرين سنة، وعلى رغم كل التغيرات، وأعمال التدمير، فإن الأبنية القديمة ما زالت قائمة. وعلى الرغم من شحوبها، وإهمالها، وتهدُّمها، فإنها ظلَّت، وكأسنانٍ قوية عجوز، " تعمل بانتظام ". والضوء الذي كان ذات يوم يُشيعُ فيها الحياة، والإشعاع الذي كانت تطلقة ذات مرة، قد تلاشيا. وفي الصيف خاصة كانت تضوع بالعطر: كانت في الحقيقة تفرز عرقاً كالمخلوقات البشرية. وكان المالكون يفخرون بمحافظتهم على منازلهم مرتَّبة وأنيقة؛ وكان وهج الدهان الحديث، والظلال القائمة التي تلقيها الظلاّت، تعكس أرواحهم المتواضعة. وكانت بيوت الأطباء دائماً أفضل قليلاً من بيوت الآخرين، أكثر ادعاءً بقليل. وفي فصل الصيف كنا نلج غرفة مكتب الطبيب من خلال ستارة خرزية ترن عند الحفّ بها. وكان الطبيب يبدو دائماً خبيراً فنياً، وكنت ترى على الجدران عادة لوحات زيتية داكنة الألوان مؤطّرة بأُطُر ذهبية ثقيلة. وكان موضوع تلك اللوحات غريباً عليّ غرابة تامة. ولم نكن نعلّق مثلها على جدران بيتنا؛

---

٣١ – الغارغانتوائي : نسبة إلى بطل رواية الكاتب الفرنسي فرانسوا رابليه (١٤٨٣ – ١٥٥٣) التي عنوانها " غارغانتوا وبانتاغرول " ، وتتحدث عن عملاق وابنه ، وأعمالهما الغريبة والمضحكة . والتعبير يستخدم للدلالة على كل ما هو ضخم بصورة شاذة ، وغريبة ومضحكة . – المترجم

لوحاتنا كنا نحصل عليها من باعة متجولين في أوقات العطل. كانت صوراً حجرية ملوّنة (chromos) بألوان براقة، تافهة، ننظر إليها في كل يوم وننساها للتو. (كانت أمي كلما اضطرت إلى أن تتبرّع بشيء إلى جار فقير تختار دائماً صورة من الجدار. وتتمتم " شكراً لله لأننا سنتخلّص من هذه ". أحياناً كنت أهرع إليها لأقدّم عطيّة مني، دمية جيدة تماماً، أو زوجاً من الأحذية، أو طبلاً، لأني أنا أيضاً كنت متخماً بالمتلكات. وأسمعها تقول " أوه، كلا، يا هنري، ليس هذه! ". فأصرُّ قائلاً " لكني لم أعد أرغب فيها ". فتجيب " لا تتكلم هكذا، وإلا عاقَبكَ الله ")

أمرُّ بالكنيسة المشيخية القديمة. عند الساعة الثانية كان أفراد مدرسة يوم الأحد يجتمعون. كم كان المكان منعشاً بشكل بهيج في الطابق التحتي حيث كنا نحتشد! وفي الخارج كان الحرُّ يتراقص متصاعداً من الرصيف؛ والذباب الضخم يئزُّ لدى مروره، مندفعاً داخلاً وخارجاً من النوافذ. وحين أفكر فيما كان يعنيه فصل الصيف لي، الصيف الملموس، الأرضي الذي يومض بوهن ويهتز على امتداد الأيام الطويلة، البهيجة، أتذكّر موسيقى ديبوسي. أتساءل، هل كان أسدَ الظهيرة؟ هل يحمل عِرقاً أفريقياً في دمه؟ أم هل كانت تلك الألحان المتلاطمة المرصّعة بأنغامٍ مُعَنْقَدة تعبيراً عن توقٍ إلى شمسٍ لم يعرفها أبداً ؟

إنَّ كل فترة بهيجة عشتها تبدو أنَّ لها علاقةً بالشمس وحين أفكر في السيد روبرتس، مدير مدرسة الأحد، لا تخطر ببالي فقط تلك الكرة الملتهبة في السماء بل والدفء السماوي الذي كان ذاك الإنكليزي

العجوز الغريب الأطوار يشعّه. يا لشاربه الطويل، الغزير، بلون الذرة الصفراء، ووجهه المرح، المتورِّد، وأيَّ صحة وثقة يفشيان! كان دائماً يظهر مرتدياً السترة المذيّلة نفسها مع طماق كاحل رمادي وعقدة عنق عريضة. وكان، مثل الكاهن وشماسيِّ الكنيسة، رجلاً ثرياً. لابد أنهم قد انتقلوا إلى حي أرقى منذ زمن بعيد، بَيْد أنهم كانوا مرتبطين برباط وثيق بالحي القديم، ثم أنهم كانوا يستمتعون بالتفضُّل على الفقراء والمتواضعي الحال. وفي أوقات عيد الميلاد كانوا جوَّادين حقاً بعطاياهم. وكانت أمي تتأثَّر تأثراً بالغاً بهذا السخاء؛ ولعلني لهذا السبب نشأت مشيخياً بدل أن أكون لوثرياً.

في مساء ذلك اليوم، وبينما كنت أستعيد أيام فتوتي مع مونا، خطر ببالي فجأة أنه قد تكون بمثابة لمسة طيبة لو أُرسلُ إلى القس العجوز، الذي كان ما يزال حياً، عَيِّنةً من عملي. ورأيت أنه قد يسعده أن يعلم أن أحد " تلامذته الصغار " قد أضحى الآن كاتباً. والله وحده يعلم ماذا أرسلتُ له لكنَّ الأثرَ الذي خَلَّفه كان أبعد ما يكون عن الأثر المرغوب. وقد استلمت بالبريد العائد منه مباشرة المخطوط مرفقاً برسالة مدبَّجة بلغة إنكليزية مُحكَمَة الصياغة، يعبِّر لي فيها عن حزنه وحيرته لأني أنا، يا مَنْ ترعرعتُ في فَيْءِ الإيمان، قد انحدرت إلى ذلك الدرك من التعبير الفظ، الواقعي، وأنه متألم لذلك. وأذكر أنه أتى في الرسالة على ذكر شيء يتعلَّق ببرميل الزبالة. وهذا كدَّرني. وجلست، دون أن أضيِّع الوقت، لأكتب رسالةً جوابية بأشد العبارات إيذاءً، أبلغُهُ فيها أنه أحمق وخَرِف، وأنَّ هدفي الوحيد في الحياة هو أن أعيش حياةً تنسيني الهراء الغبي الذي حاولَ أن يغرسه فينا. وأضفتُ شيئاً عن ربنا ومخلصنا

عَمِلَ، على الرغم من أنه ملائم، على إزعاجه أكثر فأكثر، وتتويجاً لإهانتي له، نصحته بأن يرحل عن الحي القديم، الذي لم ولن ينتمي إليه أبداً. وأضفتُ قائلاً إني آمل أن أرى نجمة داوود تحلُّ محل الصليب في المرة التالية حين أمرُّ من أمام الصرح القديم المهيب. (تصادفَ أن تحقَّقتْ أمنيتي بعد ذلك بوقت قصير. فقد تحوَّلَ المكان بالفعل إلى كنيسٍ يهودي! والمنزل الذي كان يعيش فيه صاحبنا القس العزيز ذات يوم، استولى عليه حاخامٌ طاعنٌ في السن ذو لحية بيضاء منسدلة)

بعد أن بعثت بالرسالة شعرت طبعاً بالندم. ما أسخف هذا العمل! ما زلت ألعب دور" الصبي الرذيل ". على أي حال، من طبعي أن أبجِّل الماضي ومن ثم أبصق عليه. وأفعلُ الشيءَ نفسَه مع الأصدقاء – ومع المؤلفين. إني أقبل من الماضي وأدلّل فقط ما يمكنني أن أحوِّله إلى غايات خلاّقة ...

* * *

هل سبق أن أتيتُ على ذكر فان غوخ الذي كنتُ أقرأ عندئذ "رسائله" وأعدت قراءتها مؤخراً بعد انقضاء فترة عشرين عاماً؟ إنَّ ما أثارني كان رغبة فنسنت المضطربة في أن يحيا حياة فنان، في ألاّ يكون أي شيء آخر غير فنان، وليكن ما يكون. مع رجالٍ من طرازه يصبح الفنُ ديانة. والمسيح الذي مات منذ زمن بعيد بالنسبة إلى الكنيسة قد وُلِدَ من جديد. إنَّ فنسنت المشبوب العواطف يخلِّص العالم من خلال استخدامه المُعجِز للأصباغ. الحالم المُحتَقَر والمنبوذ يعيد أداء دراما الصَّلْب. إنه ينهض من قبره ليتغلَّب على الكافرين.

فان غوخ يتكلَّم ويكرِّر الكلام عن أنه لا يرغب في أكثر من أن

يحيا حياةً بسيطة. هو مُسرفٌ فقط في استخدام مواده. إنَّ كل شيء يصبٌّ في وعاء فنه. وإنها لتضحية كاملة حتى لتبدو حياة أغلب الرسامين، بالمقارنة، سقيمة وعقيمة. فان غوخ يعلم أنه لن يُعتَرَفْ به قط أثناء حياته؟ يعلم أنه لن يجمع حصاد كدِّه. لكنَّ الفنانين الآتين بعده قد يفعلون - لعلَّ نكرانه لذاته سيسهِّل عليهم أمورهم! تلك هي أعمق رغباته. ويقول بألف طريقة مختلفة: " أنا لا أتوقع أي شيء لنفسي. نحن هالكون. نحن نحيا خارج زماننا "

كم يشقَى ويكافح ليتمكن من جمع خمسين لوحة جيدة لكي يعرضها له أخوه على عالمٍ مُحتَقِر مزدري! وخلال السنوات القليلة الأخيرة من حياته كان مجنوناً تماماً. ولكنه مجنون بالمعنى الأصيل للكلمة! كله كتلة من اللهب والروح، يفيض بالطاقة الخلاقة. إنه الكأس الذي يفيض. وهو وحيد.

أمرٌ صعب إقناعُ النساءِ بالوقوفِ كموديلٍ في آرل. يقول الناس إنَّ لوحاته شنيعة. " إنها فقط ملأى بالدهان ". وأضحك وأبكي وأنا أقرأ هذا الكلام. " ملأى بالدهان! ". كم هذا صحيح بشكل مرعب! كم هو مثير للسخرية أنَّ هذا الشيء الرائع الذي خرج إلى حيز الوجود (إشباع رقعة الكانافا بالألوان، بألوانٍ نقيّة صارخة)، هذا الحلم الذي يراود كل الرسامين العظام (وقد تحقق أخيراً) يُستخدَم ضده! فان غوخ الغني! فان غوخ العليّ القدير! يا لها من نكتة قاسية، كافرة! وكأننا نقول عن رجل دين - لكنه يفيض بالله!

يقول فان غوخ، أريد أن أرسمَ بهذه الطريقة حتى يرى كل مَنْ له عينان بوضوح ما يوجد أمامه. بهذه الطريقة تكلَّمَ يسوع وعاش. لكن

العميان والطرشان موجودون دائماً بيننا. وحدهم يرون، وحدهم يسمعون، وحدهم يعملون، المملؤون بالروح القدسية النفيسة.

نحن نعلم أنَّ فان غوخ ظلَّ ولفترة طويلة يمتنع عن استخدام الألوان وأنه أجبَرَ نفسه على العمل بقلم الرصاص، والفحم، والحبر. نعلم أيضاً أنَّه بدأ بدراسة الشكل الإنساني، وأنه عمل على التعلُّم من الطبيعة الأم. نعم، لقد تدرَّبَ على استشفاف ما يكمن تحت القشرة الخارجية، وانسجم مع الفقراء والمساكين، مع العمال المضطهَدين، ومع المنبوذين. وعَبَدَ الفلاح، وخصَّه بإطرائه دون الإنسان المثقف. ودرس أشكال الأشياء، والإحساس بالأشياء. تآلفَ مع كل ما هو مبتذل وعادي حتى يستطيع لاحقاً، وبعد أن يكتسب المهارة والتقنية الضروريان، من تصويرِ هذا العالمِ العاديّ، المبتذَلْ، اليوميّ، على ضوء واقعٍ قدسيّ. لقد أراد فان غوخ أن يجعلَ هذا العالم المألوف جداً مألوفاً بمعنى جديد - أي، بمعنى سرمدي. أراد أن يبيِّن أنه ليس مسربلاً بالشرّ وبالبشاعة، وأنه ليس خاملاً أبداً أو مملاً، وأنَّ كلَّ ما علينا أن نفعله أن ننظر إليه بعينين عاشقتين حتى نميِّز روعته وعظمته. وبعد أن حقَّقَ هذا، بعد أن وَهَبَنا أرضاً جديدة، اكتشفَ أنه لم يعد قادراً على التعامل مع العالم: لجأ طوعاً إلى المصحة العقلية.

لقد استغرق من رجل الشارع ما يقارب الخمسين سنة ليدرك أنَّ المسيحَ، المتجسِّدَ كرسَّامٍ، كان يعيش مؤخراً بيننا. وفجأة، ونظراً إلى الشعبية الهائلة التي حظي بها كتابٌ رائع، أخذ آلاف وآلاف من الناس يتوافدون على زيارة المتاحف وصالات العرض الفنية؛ إنهم يتجمعون كشلال نياغارا حول التحف الفنية المُسْكِرة لذلك العبقري المحتَقَر

والبائس، فنسنت فان غوخ. ويمكن مشاهدة نسخٍ من أعماله في كل مكان؛ إنها تنبت في أشدّ الأماكن غرابة. وأخيراً يصل فان غوخ. أخيراً يحقق " الفاشل الأكبر " ذاته. يبدو أنه أصبَحَ لإيمانِهِ ما يبرِّره. ولم تذهب تضحيته سُدى. فهو ليس فقط يصل إلى الجماهير العريضة، بل الأهم من ذلك أنه يؤثِّر في الرسامين.

في إحدى رسائله - تعود حتى إلى عام ١٨٨٨! - يقول: " الرسمُ يَعِدُ بأن يغدو أكثر رهافة - أكثر موسيقيَّة وأقلُّ تمثاليّة - enfin" elle promet la couleur " (وأخيراً يَعِدُ باللون). ويضع خطاً تحت كلمة لون. كم كانت بصيرته نبوئية! فما الرسم الحديث إذا لم يكن ترتيلة للَّون؟ إنَّ الاستخدام الحرّ، الجريء، للَّون، وهو يعادلُ في ذلك الإلهامَ، يُحدِثُ تحرُّراً عاجلاً لا مثيل له. وتُمحَقُ قرونٌ من الرسم بين ليلة وضحاها. وتتكشَّف آفاقٌ لا يصدِّقها عقل.

في تلك الرسائل الرائعة التي يسرد فيها فان غوخ اكتشافاته حول نواميس اللون (أغلبها وضعها ديلاكروا)، يركِّز مع بعض الإسهاب على استخدام لونيّ الأسود والأبيض. فيقول، يجب ألاّ نتحاشى استخدام اللون الأسود. وهناك فرقٌ بين لونٍ أسود ولونٍ أسود آخر. ويتساءل، ألَمْ يستخدم رامبرانت وفرانتز هالس اللون الأسود؟ وفيلاسكيز أيضاً؟ وليس فقط لونٌ أسودُ واحدٌ، بل سبعةٌ وعشرون نوعاً مختلفاً من اللون الأسود. كل شيء يعتمد على نوع اللون الأسود، وكيفية استخدامه. والشيء نفسه ينطبق على اللون الأبيض. (سرعان ما أظهر أوتريللو صحة استحسانات فان غوخ. أليست مرحلته البيضاء ما زالت هي الأفضل؟)

إني أتحدَّثُ عن لونيّ الأسود والأبيض لأنه كان من المحتَّم أن يركِّز هذا الثوري في عالم اللون على أوائل الأشياء وأواخرها. وهو بهذا يذكِّرنا بأبناء الله الحقيقيين الذين لا يخشون الشر أو القبح بل يعانقونهما ويدمجونهما في عالمهم الخيِّر والجميل.

حين تقوَّضَ القرن التاسع عشر على ساحة هرمجدون[٣٢] تناثرت الحواجز القديمة أشلاءً. والفنانون الأساطين الذين هيمنوا على ذلك القرن ساهموا في نسف الماضي جنباً إلى جنب مع السياسيين، والعسكريين، وخبراء المال، والصناعيين، والثوريين، والدُعاة الذين مهّدوا الطريق لحدوث الانهيار. لقد بدت حرب عام ١٩١٤ أشبه بنهاية شيء؛ غير أنها كانت فقط ذروة شيء تأخَّرَ موعد استحقاقه طويلاً. والواقع هو أنها فتحت آفاقاً شاسعة جديدة. فقد فتحت من خلال ما أحدثته من تدمير منفذاً لمجالات واسعة جديدة للطاقة. والفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية زاخرة بالنتاج الفني. وخلال تلك الفترة، حين كان العالم يوشك أن يهتز من أساساته مرة ثانية، كنت أنا أتشكَّلُ. وكانت فترةً صعبةً في المقام الأول لأنه كان على المرء أن يعتمد حصراً وتماماً على نفسه، على قُدُراته الفذّة. وقد قدَّمَ المجتمع، الذي تمزَّق بكل مظاهر التمزق، للفنان من الدعم والتشجيع حتى أقل مما كان يقدمه في زمن فان غوخ. لقد كان وجودُ الفنانِ بحدّ ذاته تحدِّياً. ولكن ألم يكن وجود كل إنسان مهدَّداً؟

بعد الخروج من الحرب العالمية الثانية ساد شعورٌ غامضٌ يوحي بأنَّ الأرض نفسها أضحت مهدَّدة بالزوال. ودخلنا عهد قيامةٍ آخر. لقد

---

٣٢ – هرمجدون : في العهد الجديد ، " رؤيا يوحنا اللاهوتي " . هو الموقع من فلسطين الذي تجتمع فيه ملوك الأرض وتدور بينهم معركة نهاية العالم . المقصود هنا الحرب العالمية الأولى – المترجم .

تزلزلت روح الإنسان كما حدث للأرض نفسها في العصور الجيولوجية السحيقة. نحن نرتعش ارتعاش الموت - تصلُّبَ الموت. إننا نأسى لروح العنف السائدة، ولكن لكي نحطِّم أغلال الموت يجب دفعُ روحِ الإنسان إلى الأمام. إننا ننطوي على أشد الإمكانات إذهالاً، ونحن منقوعون ومشرَّبون بقدرات وطاقات لم يكن لأحدٍ حتى الآن عهد بها، ونوشك أن نعيش من جديد كمخلوقات بشرية، بكامل الجلال الذي توحي به كلمة بشري. إنَّ الإنجازَ البطوليَّ لأسلافنا يبدو الآن أشبه بتقديم أضاحي بشرية. ونحن لسنا مضطرين إلى أن نكرِّر تقديم الأضاحي مثلهم. فنصيبنا هو أن نستمتع بالثمار. إنَّ الماضي باتَ خراباً، والمستقبل يتثاءب ويغوينا. خذوا هذا العالم اليومي وعانقوه! هذا ما تحثّنا الروح على فعله. أيُّ عالمٍ أفضل من هذا يمكن أن يوجد نتولى فيه، كلنا ودون استثناء، كامل المسؤولية؟ كفاكم كدّاً للأجيال القادمة! كفّوا عن كلّ كدٍّ وأبدعوا! لأن الإبداع لعبٌ، واللعب قُدسي.

هذه هي الرسالة التي أتلقاها كلما انغمست في قراءة حياة فان غوخ. إن يأسَه النهائي، وانتهاءَه إلى الجنون فالانتحار، يمكن تفسيرها بضيقِ صدرٍ قُدسي. لقد كان يصرخ قائلاً " إن مملكة السماء موجودة هنا، فلِمَ لا تلجوها؟ "

إننا نذرف دموع التماسيح على نهايتِهِ المفجعة، ناسين الروعةَ المتفجِّرة التي سبِقَتْها. فهل نبكي حين تغوص الشمس في المحيط؟ إنَّ كاملَ روعةِ الشمسِ لا تتبدّى لنا إلاّ في الهنيهات القليلة التي تسبقُ وتتبعُ اختفاءَها، وسوف تظهر من جديد عند الفجر، بروعةٍ أخرى، وربما شمساً أخرى. وهي طوال النهار تغذينا وتقوينا، ونحن لا نوليها أي

انتباه. إننا نعرف أنها موجودة، ونتَّكل عليها، لكننا لا نُقدِّم لها شكراً ولا تكريساً، إنَّ النجومَ الساطعةَ العظيمةَ، مثل نيتشه، مثل رامبو، مثل فان غوخ، هي شموس إنسانية تواجه مصيراً مشابهاً لمصيرِ الجُرم السماوي. وفقط حين تبدأ تتهاوى، أو بعد أن تتهاوى وتختفي، نعي أيَّ مجدٍ كان يجلِّلها. وبنَدْبِنا موتهم نتعامى عن وجودِ شموسٍ جديدةٍ أخرى. إننا ننظر إلى الوراء وإلى الأمام لكنَّ تحديقنا لا يتجه أبداً رأساً إلى قلب الواقع. فإذا تعبَّدنا أحياناً المجموعة الشمسية التي تمنحنا الدفء والنور فإننا لا نتفكَّر في الشموس التي كانت تتوهج منذ الأزل. إننا نتقبَّل دون تفكير حقيقةَ أنَّ الفضاءَ كلَّه مرصَّع بالشموس.

لا ريب في أن الكون يسبح في النور. وكل شيء يضجّ بالحياة ومسربل بالنور. والإنسان أيضاً يتلقّى طاقة مشعَّة لا تنضب. والغريب أنَّ عقلَ الإنسانِ وحده غارقٌ في الظُّلمةِ والعَجْز.

يكفي أن يتَّصف الإنسانُ (هنا على الأرض) بقدرٍ زائدٍ قليلٍ من النور، بقدرٍ زائدٍ قليلٍ من الطاقة، حتى يُعْتَبَرَ غير كُفءٍ للحياة الاجتماعية. إنَّ جزاءَ صاحبِ الرؤى هو مأوى المجانين أو الصّلْب. يبدو أن مأوانا الطبيعي هو عالمٌ رماديُّ اللون وحياديّ. وهذا هو حالنا منذ وقت طويل. لكنَّ ذلك العالم، وضعَ الأشياءِ ذاك، يزول. وسواء أشئنا أم أبينا، سواء ألاحظنا أم لم نلاحظ، فنحن نقف على عتبةِ عالمٍ جديد. وسوف نضطر إلى أن نفهمه ونتقبَّله – لأن النجوم الساطعة العظيمة التي طردناها من بيننا قد زلْزَلَتْ رؤانا. وسوف نكون شهوداً على مظاهر التفخيم والتشريف، بالتناوب وفي وقت واحد. سوف نرى بألف عين،

مثل الإلهة إندرا[٣٣] . النجوم تقترب منا، حتى الأشدّ نأياً عنا.

إننا الآن وبالاستعانة بأدواتنا نكتشف عوالمَ لم يكن لدى الإنسانِ القديمِ أوهى فكرةٍ عن وجودها. ونحن قادرون على أن نعيِّن موقعَ مجموعةِ عوالمٍ بعيدةٍ عن مدى إدراكنا الحالي، لأنَّ عقولنا متفتِّحة لتوها للنور المنبثق منها. وفي الوقت نفسه نحن قادرون على أن نتصوَّرَ دمارَنا الخاص الشامل. ولكن هل تجمّدنا على دروبنا ؟ كلا. إن إيماننا أعظم مما نجرؤ على الاعتراف به. نحن نستشعر روعة تلك الحياة الداخلية والتي هي حياة الإنسان وطالما أنكرناها. وعلى الرغم من كل غرورنا وتفاهتنا نتصرَّف وكأننا لا نعرف أي شيء عن إرثنا الحقيقي. ونحتجُّ قائلين إننا مجردُ أناسٍ، مُفرطيّ الإنسانية. ولكن لو أننا حقاً أناسٌ حقيقيون لكنَّا قادرين على فعل أي شيء، جاهزين لكل المقتضيات، ونعرف كل أحوال الوجود. يجب أن نتذكَّر في كل يوم، ونردِّد كما الابتهال، أنه في كياننا يكمن وجودُ كاملٌ متكامل. يجب أن نكفّ عن التعبُّد وعن الإيحاء بالتعبُّد. وفوق هذا كله، يجب أن نكفَّ عن تأجيلِ العملِ على أن نكون ماهيتنا الحقيقية.

قال فان غوخ " أفضِّل أن أرسمَ عيونَ الناسِ على أن أرسمَ كاتدرائيات، لأنَّ في عيون الناس شيئاً لا يوجدُ في الكاتدرائيات، مهما كانت هذه الأخيرة مهيبةً وجليلة ... "

---

٣٣ – إندرا : في الديانة الهندوسية هي إلهة الحرب والعواصف . – المترجم

٣

لم تَدُمْ هذه الفترة الزمنية البهيجة أكثر من بضعة أشهرٍ وجيزة. وقريباً لن يبقى هناك غير المتاعب، لا شيء غير العَوَزْ، لا شيء غير الإحباط. وحتى وصولي إلى باريس لن تُنشَر لي غير ثلاثة نصوص قصيرة - الأول في مجلة مخصصة لتعزيزِ ظروفِ الملونين، والثاني في مجلةٍ يرعاها أحدُ الأصدقاء ولا تصدُر غير نسخة واحدة، والثالث في مجلة أعادَ إحياءَها صديقي العزيز فرانك هاريس.

بعد ذلك كل ما سأرسله إلى الطبع سوف يَحْمِلُ توقيعَ زوجتي. (مع استثناءٍ غريب واحد ووحيد، سآتي على ذكره لاحقاً). لقد تمَّ الاتفاق على عجزي عن إنجاز أي شيء وحدي. كل ما عليّ أن أفعله هو ببساطة أن أكتب ومن ثم أن أدَعَ الباقي لمونا. وكان عملها في المسرح قد قلَّ كثيراً، واستحقَّ دفعُ الإيجار منذ وقت طويل. وأخذتْ زياراتي لمود تغدو أقلّ انتظاماً فأقلّ والنَفَقَةُ لا تُدفَع إلاّ بين حين وآخر، عندما نقعُ على صيدٍ سمين. وسرعان ما أخَذَ دولابُ ملابس مونا يفرَغُ منها، وأنا، كأبله، أقوم بمحاولاتٍ عقيمةٍ لاستجداءِ ثوبٍ أو بذلةٍ من عشيقاتي السابقات. وحين كان الجو يصبح قارسَ البرودةِ كانت ترتدي معطفي.

مونا ترغب في قبولِ عملٍ في ملهى ليلي، لكنني أرفض رفضاً

باتاً. ومع كل بريدٍ يصلنا أصبو إلى تلقّي رسالةِ قبولٍ مصحوبةٍ بشيك. لديَّ حتماً ما بين عشرين وثلاثين مخطوطاً منتشرين هنا وهناك؛ وهي تأتي وتذهب مثل الحَمَام الزاجل المدرَّب. أصبح تدبيرُ النقودِ من أجل شراءِ طوابع البريد مشكلة. كل شيء يتحوَّلُ إلى مشكلة.

بينما نحن وسط هذه الهزيمة الأولى جاءنا فَرَجٌ قصيرُ الأمدِ بوصولِ صديقي العزيز أومارا الذي كان، بعد الاستقالةِ من شركةِ التلغراف الكونية المتعضّية، قد ذهب في رحلةٍ بحريةٍ مع بعضِ الصيادين في البحر الكاريبي. وقد أكسبَتْه المغامرةُ بعضَ المال.

ما كدنا نتعانق حتى أسرع أومارا، بأسلوبه المميَّز، بإفراغِ جيوبهِ، وكوَّمَ النقود على الطاولة. " صندوق التبرعات "، كما كان يسميها. هذه ستُخصَّص لاستخدامنا العام. يبلغ مجموعها بضع مئات من الدولارات، وهي تكفي إما لتسديد ديوننا أو لكي نعيش لمدة شهر أو اثنين.

" أليس لديكما أي شيء يُشرَب هنا؟ ألا يوجد؟ دعني أخرج لأحضِرَ شيئاً "

عاد مع بعض زجاجات وكيس مملوء بالطعام. " أين المطبخ هنا؟ لا أظنني أراه "

" لا مطبخَ هنا؛ ممنوعُ الطبخ "

زعقَ " ماذا؟ ألا مطبخ؟ ماذا تدفعان مقابل هذا المكان؟ "

عندما أخبرناه قال إننا مجنونان، مجنونان تماماً. ولم تستسغ مونا هذا البتّة.

سأل، وهو يهرش رأسه، " كيف تأكلان إذن، بحق الجحيم؟ "

قلت " بصراحة، نحن لا نأكل "

هنا أوشكت الدموعُ أن تطفرَ من عينيّ مونا.

وأردف " لا أحدَ منكما يعمل؟ "

أسرعت مونا بالرد " فال يعمل "

قال أومارا " أعتقد أنك تقصدين بالكتابة "، ملمِّحاً إلى أنَّ ذلك مجرد تسلية.

قالت مونا بحدّة " طبعاً، وماذا تريدُ منه أن يعمل؟ "

" أنا؟ أنا لا أَريد منه أن يعمل أي شيء. كنتُ فقط أتعجَّبُ كيف تعيشان ... يعني، من أين تحصلان على النقود؟ "

صمتَ برهة، ومن ثم قال: " بالمناسبة، ذلك الشاب الذي أدخلني، هل هو صاحب المنزل؟ بدا لي شاباً رائعاً "

قلت " هو كذلك، إنه من ولاية فيرجينيا. لا يضايقنا بخصوص الإيجار. جنتلمن حقيقي، في رأيي "

قال أومارا " يجب أن تُحسِنا معاملته. اسمعا، لماذا لا تعطيانه شيئاً على الحساب؟ "

قالت مونا بسرعة " لا، لا تفعل هذا، أرجوك. إنه لا يمانع في أن ينتظر فترة أطول. ثم، أنا أتوقع أن أحصلَ على مبلغٍ من المال قريباً "

قلت " أحقاً؟ ". وكنت دائماً أرتابُ في تلكَ التصاريحِ المندفعة.

قال أومارا، وهو يصبُّ الشيري، " حسن، دعونا من هذا كله. هيا اجلسا واشربا. لقد ابتعتُ بعضَ لحمِ الخنزير والبيض، وبعض الجبن الطيب. ومن المؤسف أننا مضطرون إلى رميه "

قالت مونا " ماذا تقصد، نرميه؟ إنَّ لدينا مدفأة غاز صغيرة ذات عينين في الحمّام "

" أهناك تطبخان؟ يا مسيح! "

" لا ، نحن فقط نحتفظ به هناك، بعيداً عن الأنظار "

" ولكن ألا يشمّون رائحة الطبخ في الطابق العلوي؟ ". وكان أومارا يعني بـ " هم " صاحب الدار وزوجته.

قلت " طبعاً يشمّان، لكنهما كتومان. إنهما يتظاهران بأنهما لا يشمّان أي شيء "

قال أومارا " أناسٌ رائعون "، وقصد بذلك أنَّ الجنوبيين فقط يُظهِرون مثل هذه اللباقة.

في اللحظة التالية اقترحَ علينا أن نفتِّش عن مكانٍ أرخص، ومزوَّد بوسائل راحة. " هذه النقود سوف تتبخَّر سريعاً وفق طريقتكما في العيش. طبعاً، سوف أبحثُ عن عمل. لكنكما تعرفاني. على أي حال، أريدُ أن أرتاحَ بعضَ الوقت "

ابتسمتُ. قلت " لا تقلق. كل شيء سيكونُ رائعاً. إنَّ مجردَ وجودك سيسهِّل الأمور "

سألت مونا، التي أزعجَتْها هذه الفكرة، " ولكن أين سينام؟ "

" يمكننا أن نشتري سريراً خفيفاً، أليس كذلك؟ "، وأنا أشيرُ إلى إلى النقود الموضوعة على الطاولة.

" ولكن ماذا عن صاحب الدار؟ "

" لن نخبره على الفور. ثم، يشرِّفنا أن يكون لدينا ضيفٌ، أليس كذلك؟ لا حاجة إلى أن يعرف أن تد ينزلُ عندنا "

قال أومارا " يمكنني أيضاً أن أنام على الأرض "

" لا يمكن أن أسمح بذلك! سوف نخرج بعد تناول طعام الغداء

ونبتاع سريراً خفيفاً مستعملاً. سوف نُدخِله خلسةً تحت جنح الظلام، هه "

وجدت أنه قد حان الوقت كي أقول شيئاً لمونا. فهي لم تولع كثيراً بأومارا، وكان ذلك جلياً. لقد كان أميَل إلى الفظاظة والمباشرة.

بادرتُ فقلت " اسمعي يا مونا، سوف تحبين أومارا حين ستعرفينه أكثر. إننا نعرف بعضنا منذ أن كنا أولاداً صغاراً، أليس كذلك يا تد؟ "

قالت مونا " ولكن ليس لديَّ أيَّ شيءٍ ضده؛ أنا لا أريده أن يُملي علينا ما يجب أن نفعله، هذا كل شيء "

قلت " معها حق، يا تد، أنت صريح زيادة عن اللزوم، وتعلمُ ذلك. أمورٌ كثيرة حصلت منذ أن رأيتُك آخر مرة. نحن الآن في عالمٍ مختلف. وقد كان الحال جيداً حتى وقت قريب. وكله بفضل مونا. اسمعا، إذا لم تتحابا أنتما الاثنان سيكون الوضع سيئاً "

قال أومارا " سأرحل حالما أتلقى الإشارة "

قالت مونا " أنا آسفة إذا كنت قد أعطيتك انطباعاً خاطئاً. إذا قال فال إنك صديق فلابد أنك تتصف بشيء ... "

قال أومارا، وقد قاطعها " وما قصة اسم فال هذا؟ "

" أوه، إنها تفضِّل اسم فال على هنري، هذا كل شيء. سوف تتعوَّد عليه سريعاً "

" سأفعل بحق الجحيم. وأنت هنري بالنسبة إليّ "

قهقهت " أرى أننا سنتفاهم تماماً "، ونهضتُ واقفاً لأتفحَّص الطعام، وقلت " أتعتقدين أنَّ في وسعنا أن نحصلَ سريعاً على وجبةِ غداء؟ "

قالت مونا " إن الساعة لم تتعدَّ الحادية عشرة "

" أعلم، لكن الجوع يداهمني. إنَّ وجبةً من لحمِ الخنزير والبيض تبدو شهية. ثم إننا مؤخراً لم نكن نحصل على ما يكفي من الأكل. فلنعوِّض عن الوقت الضائع "

لم يتمكن أومارا من ضبط نفسه، فقال " ما دمتُ موجوداً فسنأكل جيداً. ليتَ فقط لدينا مطبخاً نظامياً! يمكنني أن أُحضِّرَ بعض الأطباق الفخمة "

قلت " مونا تُحسِنِ الطبخ، إننا نتناول وجبات رائعة - حين نجد ما نأكله "

" تقصد أنكما لا تأكلان في كل يوم؟ "

قالت مونا " إنه يغالي. إنه إذا فاتته وجبة يظن أنه سيموت من الجوع "

قلت، وأنا أصبُّ كأساً أخرى من الشيري، " هذا صحيح، أنا أفكر في المستقبل طوال الوقت. حَدْسي يُنبئني بأنَّ أمامَنا عملاً شاقاً طويلاً "

سأل أومارا " ألم تَبِعْ بعدُ أيَّ شيء؟ "

هززت رأسي نفياً.

قال " هذا وضعٌ صعب. اسمع، (وخطرت له فكرة) سوف أُلقي نظرةً على إنتاجك لاحقاً. قد أستطيع أن أوزِّعه لك - إنْ كان جيداً "

انفجر أومارا يضحك " أوه، أعرف أنه عبقري. لعل هذا هو موطن الخطأ. كما تعلمين لا يمكنك أن تُفهِمِيهُم هذا هكذا مباشرة. يجب أن تخفِّفي الأمر. أنا أعرف هنري "

كان أومارا، مع كل نكتة يُطلِقها يتورَّط أكثر فأكثر. وتكوَّنَ لدي إحساس مسبق بأنَّ الأمورَ لن تسير سيراً حسناً على الإطلاق. وعلى أي

حـال، فطالما هناك نقـود كنا سنستـمـتـع بفـتـرة راحـة. وبعـد ذلك لعلّه سيحصل على عملٍ ويُعيلَ نفسه.

منذ أن عـرفتُ أومـارا وهو يلفّق تلك القـصـص ويعـود مع بعض الدراهم التي كان دائماً يتقاسمها معي. ولم يحدث قط أن عادَ ووجدني في حالةِ يُسر. وصداقتنا كانت قد بدأتْ ونحن في سنِ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة . وقد تقابلنا للمرة الأولى في الظلام في محطةٍ للقطار في نيو جيرزي. وكنا، بيل وودرف وأنا، نقضي عطلتنا على شواطئ بحيرة جميلة. وكـان ألك ووكـر، رئيـسـهم، الذي جاء ليـزورنا، يـصحب مـعـه أومارا بمثابة مفاجأة. وكانت المسافة بين المحطة والمنزل الريفي حيث كنا ننزل طويلة. (كنا نستـقلُّ عربة يجرُّها الخيل) وقرابة منتصف الليل عدنا إلى المنزل الريفي. ولم يكن لدى أي منا رغبة فورية بالإيواء إلى السرير. ورغب أومارا بمشاهدة البحيرة التي طالما تحدثنا عنها. فاستقلنا قارب تجذيف وانطلقنا باتجاه قلب البحيرة، التي كان عرضها نحو ثلاثة أميال. كانت حالكة السواد. وبنزوةٍ مُفاجِئَة خلع أومارا ملابسه، وقال إنه يريد أن يسبح. وخلال لحظة كان قد غطس. وبدا أنَّ وقتاً طويلاً جداً قد انقضى قبل أن يظهر ثانية على السطح؛ ولم نره، بل كنا فقط نسمع صوته. كان يلهث وينفث كحيوان الفظ. وسألناه " ماذا حدث؟ ". فقال " لقد علِقتُ بين الديس[٣٤]، وانقلبَ على ظهره وعامَ بعضَ الوقتِ ليستعيدَ أنفاسه. ثم بدأ يسبح، بضربات قوية، حيوية. وهرعنا في إثره، ونحن ننادي عليه بين حين وآخر، نناشده أن يعود إلى القارب قبل أن ينالَ منه البردُ والإرهاق.

---

٣٤ – الديس : نبات مائي .

هكذا تقابلنا. لقد ترك ما فَعَلَه انطباعاً عميقاً لدي. وفازَتْ رجولته وشجاعته بإعجابي. وخلال الأسبوع الذي أمضيناه في المنزل الريفي معاً تعرَّفَ أحدنا على الآخر بشكل كامل. وبدأ وودرف منذ ذلك الحين يبدو لي مخنثاً أكثر من أي وقت مضى. فهو لم يكن فقط مملوءاً بالخوف المفاجئ وبالريبة وإنما كان أيضاً مرتزقاً. ومن ناحية أخرى كان أومارا دائماً يُعطي بتهورٌ. كان مغامراً بالفطرة. ففي سن العاشرة فرَّ من مصحة للأيتام. وفي مكان ما في الجنوب، وبينما كان يعمل في مدينةِ ملاهٍ متنقِّلة، قابل أليك ووكر مصادفةً وعلى الفور تولّه هذا الأخير به وأحضره إلى الشمال ليعمل معه. وفيما بعد انضمَّ وودرف بدوره إلى العمل في المكتب. وسرعان ما بتنا نرى أليك ووكر كثيراً، فقد أصبح عرّابَ نادينا، بل في الحقيقة قديسنا الحارس. لكنني أستبقُ الأمورَ ... إنَّ ما أريد قولَهُ هو أنه كان من غير الممكن بالنسبة إليّ أن أمنعَ أي شيء عن أومارا. لقد كان يهبُ كل شيء وكان يتوقع أن يُوهَبَ كلَّ شيء. كان يعتقد أنَّ هذا الأسلوب الطبيعي، العفوي هو الأسلوب الذي يجب أن يتبعه وهو بين أصدقائه. أما الأخلاق، فلم يكن يتَّصف بأي حسٍّ أخلاقي من أي نوع. فإذا كان يتحرَّق اشتياقاً لمضاجعة امرأة فلن يتوانى عن سؤالكَ عما إذا كان في إمكانه أن يضاجع زوجتك - أي، ريثما يعثر على " قطعة مثيرة ". وإذا كان يفتقر إلى النقود ليعينَكَ في شدَّتك فإنه سوف يسرق لأجلك، أو قد يعمد إلى تزوير شيك. إنه لا ينطوي على أي قدر من التردد أو وخز الضمير. وكان يحب أن يأكل جيداً وينام مطولاً، وهو يكره العمل ولكنه حين يتولى أمراً ما فإنه ينهمك فيه بكل كيانه. وكان دائماً يريد أن يجمع النقود بسرعة. وكان

شعاره " اجمع الغنيمة وارحل ". وكان مولعاً بكل أنواع الرياضة ويعشق صيد الطرائد وصيد السمك. وحين يتعلَّق الأمر بلعب الورق فهو سمكة قرش: يلعبُ لعباً حقيراً، ومن المستحيل تماماً مجاراته في اللعب. وكان عذره في ذلك أنَّه لا يلعب أبداً للتسلية. إنه يلعب ليفوز، ليصيبَ في مقتل. ولم يكن أيضاً ليتعالى على الغش، إذا شعرَ أنَّ في إمكانه أن ينجو بفعلته. وقد كوَّنَ حول نفسه سُمعةً رومانطيقية بوصفهِ مُقامراً حاذقاً.

أما أفضل شيء فهو حديثه. معي، على الأقل. معظم أصدقائي كانوا يجدونه مملاً. أما أنا فكان في وسعي أن أنصت إلى أومارا حتى دون أن تنتابني أي رغبة في فتح بوزي. وكل ما كنت أفعله هو أن أُمطِره بالأسئلة. وأعتقد أنَّ السببَ في أني كنت أجدُ حديثَهُ مُثيراً هو أنَّه كان يتناول عوالمَ لَمْ ألجْها دهري. فقد كان قد زار أماكن كثيرة على الكرة الأرضية، وعاش عدداً من السنين في الشرق، خاصة في الصين، واليابان والفيليبين. وكنت أحبُّ الصورةَ التي كان يرسمها للنساء الشرقيات. وكان دائماً يتكلم عنهنَّ برقّة ووقار. وأحبَبْتُ أيضاً الطريقةَ التي كان يتحدثُ بها عن السمك، السمك الكبير، ووحوشِ الأعماق. أو عن الأفاعي، التي كان يعاملها كما الحيوانات الأليفة. والأشجار والزهور أيضاً تبرز بقوة في أحاديثه: كنت أرى أنَّه يعرفُ أنواعها كافة، كان في وسعه أن يركِّز على دقائقها بإسهابٍ مفرط. ثم إنه كان جندياً، حتى قبل أن تندلع الحرب. رقيب أول، ولا أقلّ. وكان في إمكانه أن يتحدث عن مميزات الرقيب الأول بطريقة تجعل المستمع يعتقد أنَّ هذا الطاغية الصغير أكثر أهمية بمراحل من قائد أو لواء. وكان دائماً

يتحدث عن الضباط باحتقارٍ وسخرية، أو بكراهيةٍ مريرة. وذات مرة قال " لقد حاولوا أن يرفّعوني لكنني رفضت رفضاً باتاً. لقد كنت وأنا برتبة رقيب أول مَلِكاً، وكنت أعرف ذلك. إنَّ أيَّ سافلٍ يمكن أن يصبح ملازماً أول. لكي تكون رقيباً أول عليك أن تكون " جيداً بكل معنى الكلمة "

أثناء تحدُّثه كان يقوم بحركات كثيرة. ولم يكن متعجلاً للانتهاء. ليس أومارا. وحالته وهو يتحدث أثناء صحوه هي نفسها أثناء سكره. وطبعاً كان يجدني مستمعاً رائعاً. مستمعاً مثالياً. وكل ما كان على أي شخص أن يفعله في تلك الأيام هو فقط أن يأتي على ذِكر الصين، أو جاوا، أو بورنيو وأكون أنا كُلِّي آذاناً صاغية. أُذكُر أمامه أي شيء أجنبي وناء وأصبحُ أنا الضحيةَ الصاغرة.

المدهش في رجل كأومارا أنه أيضاً قارئ نهم. وكان أول ما يفعله على الإطلاق، لدى زيارته لي، أن يقومَ بعملية مسحٍ للكتبِ الموجودة. يستعرضها واحداً واحداً، يتذوقها ببطء وتلذُّذ. وكانت الكتب أيضاً تدخُلُ في أحاديثنا. وكنت بشكل ما أفضِّل انطباعات أومارا حول كتابٍ ما على انطباعات أصدقائي الآخرين الأكثر اطِّلاعاً وانتقاداً. وكان أومارا، مثلي، يفيض بالاستحسان وبالحماس. لم يكن لديه أيُّ حسٍ نقدي. فإذا حاز كتابٌ على اهتمامه فهو كتابٌ جيد، أو كتابٌ رائع. وكنا نعيش بحيوية في الكتب التي نلتهمها معاً كما نعيش رحلاتنا الخيالية في فيافي الصين، والهند، وأفريقيا. وكان هذا الطربُ غالباً ما يبدأ على مائدة العشاء. وأثناء شرب القهوة كان أومارا يتذكر فجأة حادثةً ما من ماضيه الغني بالألوان. وكنا نحثّه على المتابعة، وفي الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً نكون ما نزال جالسين حيث نحن على

المائدة. وبحلول ذلك الوقت نصبح جاهزين لتناول إفطارٍ خفيف - لكي ننتعش. ومن ثم نقوم بنزهة قصيرة سيراً على الأقدام لنستقبل بعض الهواء المنعش إلى رئاتنا، كما كان يقول دائماً. وطبعاً يكون اليوم التالي دائماً رائعاً. لا أحد منا يفكر في التزحزح من السرير قبل حلول الظهيرة. وكان تناول طعام وجبتيّ الإفطار والغدار المدمجتين عملية تؤدَّى بتروٍّ. لا أحد منا يتسابق لمغادرة السرير قبل غيره. وبما أنَّ النهارَ رائع مُسبقاً فنبدأ على الفور بالتفكير في المسرح أو في السينما.

طوال ما كانت النقود متوفرة كان الوضعُ رائعاً ...

أعتقد أنَّ طريقةَ تفكيرِ أومارا العمليّ هي التي أوحَتْ لي ذات يوم بفكرةِ طبعِ قصائدي النثرية الصغيرة وبيعها بنفسي. وبعد أن اطلعَ أومارا على " شغلي " وافقني على أني لن أعثر أبداً على ناشر يقبلها. وكنت أعرف أنه محقّ. وبدأت أقلّبُ التفكير. لقد كان لدي أكوام من الأصدقاء والمعارف، وكانوا جميعاً تواقين إلى مساعدتي، حسب قولهم. فلمَ لا أبيع إنتاجي مباشرة لهم، كبداية؟ وعَرَضتُ الفكرةَ على أومارا، فرأى أنها ممتازة. أبيع أنا عن طريق البريد ويعمل هو سيراً على القدمين، منتقلاً من مكتبٍ إلى آخر. ثم إنَّ لديه الكثير من الأصدقاء. وهكذا، عثرنا على صاحبِ مطبعة صغيرٍ أعطانا تثميناً معقولاً جداً؛ وكان لديه كميةٌ كبيرة من الورق القوي الملوَّن ليستخدمه لهذا الغرض. وكان عليَّ أن أرسلَ قصيدةً كل أسبوع، وفي كل مرة نطبع خمسمائة نسخة. كنا نسمِّيها " نقوشٌ تظليلية "، بسبب تأثير ويسلر[٣٥] . والتوقيع: هنري. ف ميللر.

---

٣٥ - سبق شرحه .

إنَّ أشدّ ما يذهل، حين أتذكَّر الآن ما وقع، هو أنَّ أول قصيدة نثرية كتبتها لذلك المشروع أوحاها إليّ مصرفُ باوري للتوفير. والهندسة المعمارية لبنائهم الجديد، وليس الذهَبُ المخزَّنُ في أقبيتهم، هي التي ألهَبَت حماستي. سمّيتها " عنقاء الباوري ". ولم يظهر أصدقائي الكثير من الحماس لكنهم دفعوا. فقبل كل شيء لم أكن أتقاضى عن تلك القصائد الحماسية الجياشة أكثر من ثمن وجبة. ولو كنا بعنا النسخ الخمسمائة لخرجنا بمبلغٍ صغيرٍ معقول.

من بين الأشياء الأخرى التي جربناها أن نحصل على اشتراكات سنوية، بقيمةٍ مخفّضة. ولو حصلنا على حفنةٍ من الاشتراكات في الأسبوع الواحد لحُلَّت مشكلتنا. ولكن حتى أفضل أصدقائي كانوا يشكُّون في أني سأتمكّن من الاستمرار لمدة عام؛ كانوا يعرفونني جيداً. ففي غضون شهر أو شهرين سوف أبدأ مشروعاً آخر. وأفضل ما توصّلتُ إليه معهم هو إقناعهم بالاشتراك لمدة شهر - كان مجرَّد مبلغٍ تافه. واستشاط غضب أومارا من أصدقائي، وقال إنَّ في إمكانه أن يتفاهم مع أشخاصٍ غُرباءَ تماماً بصورةٍ أفضل. وجالَ في أرجاء المدينة كلها - بروكلن، مانهاتن، برونكس، جزيرة ستاتن - وحيثما تولَّدَ لديهِ إحساسٌ داخلي بأنه موضع ترحيب. وكان يحاول أن ينتفخ بالاشتراكات.

بعد أن خرجت بقصيدة أو اثنتين من " نقوش تظليلية " تقدَّمت مونا بخطة أخرى. سوف توقِّعها باسمها ومن ثم تبيعُها متجوِّلة من مكان إلى مكان في " الفيليج "* . وكانت تقصد بهذا المرابع الليلية، حيث الناسُ شبهُ المخمورين لا ينزَعون كثيراً إلى الانتقاد، كما اعتقدَتْ. ثم سيكون من الصعب صدُّ امرأةٍ جميلة. ولم يُعجَبْ أومارا بخِطَّتها -

* "الفيليج" أو القرية هي منطقة غرينتش التي تعج بالمرابع الليلية والملاهي والمراقص والمواخير . - المترجم

وجدَ أنها ليست عملية - لكنَّ مونا أصرَّت على أنه لا ضير في المحاولة. وأعددنا تشكيلة من الطبعات القديمة، وكلها بألوان متنوعة؛ وتوجَّبَ طمسُ اسمي وطبعُ اسمها تحته. وما كان أحد ليلاحظ الفرق.

خلال الأسبوع الأول قامت بعملٍ رائع. كانت تُباع مثل الكعك الساخن. وكان البعضُ يشتري السلسلة كلها، وآخرون يدفعون ثلاثة أضعاف وخمسة أضعاف السعر مقابل قصيدة واحدة. وبدا أنَّ فكرتها قد حقَّقَت نجاحاً باهراً. وكنا بين حين وآخر نتلقّى طلبات بالبريد. وأحياناً كان أومارا يجلب اشتراكاً، لمدة ستة أشهر أو عام. وخطرت لي أفكارُ كثيرة لتصريف الطبعات التالية. ليذهب الناشرون إلى الجحيم - كان في استطاعتنا أن نحسن التصرُّف وحدنا.

بينما كانت مونا تقوم بجولاتها في " الفيليج " ليلاً، كنا، أومارا وأنا، ننطلق بحثاً عن المواد. وما كنا شرعنا في إنجاز مهمتنا بطاقة أكثر حيوية لو أننا استعنّا بمؤسسة كبيرة للنشر. وذهبنا إلى كل مكان، وتفحّصنا كل شيء. وكنتَ ترانا في ليلة جالسين في مقصورةِ الصحافةِ نشاهد سباق الأيام الستة للدراجات، وفي الليلة التالية نتخذ لنا مقعدين بجوار حلبة المصارعة الحرة نشاهد مباراة فيها. وفي بعض الليالي كنا ننطلق سيراً على الأقدام، لكي نكتشف الحي الصيني بشكل أوسع، أو حي الباوري، أو قد نذهب إلى هوبوكن أو إلى بلدةٍ تخلّى الله عنها في نيو جرزي، " فقط على سبيل التغيير ... ". وبعد ظهيرة أحد الأيام، وبينما أومارا يحلُّ محلي في حي برونكس، مررت على ند واستدرجته لمرافقتي إلى مسرح المنوعات الخفيفة في شارع هيوستن، لكي أكتب عنه. أردتُ من ند أن يكون الرسام. وطبعاً اخترعنا حكاية

عن المجلة التي طلبت المقالة. إن ليو لن تعد تعمل هناك لسوء الحظ، ولكن ثمة شقراءَ صغيرةً، شهيَّة حلّت محلها، وكانت كتلةً تغلي وتفور بالجنس من رأسها إلى قدميها. وبعد حديثٍ قصير معها في الأروقة أقنعناها بأن تتناول مشروباً معنا بعد العرض. وكانت إحدى أولئك العاهرات الحمقاوات عديمات الحسّ اللواتي ترعرعن في أماكن مثل نيوارك أوساندسكي. لها ضحكة كضحكة الضبعة. وكانت قد وعدتني بتقديمي إلى ممثل هزلي، هو صديقها، لكنه لم يظهر أبداً. وهرعت بضع فتيات من الجوقة داخلات ومنتشرات، وقد بَدَين، أولئك البائسات، أشد قبحاً وهن يرتدين ملابسهن. وانخرطتُ في حديثٍ مع إحداهن على البار. اكتشفتُ أنها تدرسُ لتغدو عازفةَ كمان، دون كل الأعمال. كانت أليفة كالإثم، ولا تتحلّى بأي قدرٍ مهما كان من الإثارة الجنسية، بيد أنها كانت ذكيةً وعطوفاً. وذهبَ ند للتأثير على الشقراء، آملاً دون أمل في أن يقنعها بالذهاب معه إلى المحترف من أجل مضاجعة سريعة ...

كانت كتابة " نقش تظليلي " في بعد ظهيرة مثل تلك أشبه بحلّ أحجية الصور المقطوعة. وكان يستغرق مني اختصار قصيدة نثر واحدة إلى الطول المطلوب أياماً. كان أقصى ما يمكن نشره مائتين وخمسين كلمة. وكنت أكتب ألفين وثلاثة آلاف، ومن ثم أتناول الفأس ...

طبعاً لم تكن مونا تعود إلى المنزل أبداً حتى قرابة الساعة الثانية صباحاً. ورأيتُ أنَّ ذلك مُرهِقٌ لها. ولا أقصد بقولي طول الساعات، بل جوّ النوادي الليلية. ولا شك في أنَّها أحياناً كانت تُصادفُ شخصاً مثيراً للاهتمام، مثل ألن كروmويل، على سبيل المثال، الذي ادّعى أنه صاحب مصرف من واشنطن.د.سي. ورجل من هذا الوزن يدعوها دائماً إلى

الجلوس والتحدُّث إليه. وبرأي مونا فإنَّ هذا الكرومويل شخصٌ مثقف. وكان قد بدأ معها بشراءِ كلّ ما كان بحوزتها. ودفع لها مبلغ خمسة وسبعين أو ثمانين دولاراً ثمنَ كومةٍ من قصائد" نقش تظليلي "، ولدى مغادرته نسي أن يأخذها معه، عن عمد، دون شك. يا له من جنتلمن! كان يأتي إلى نيويورك في مهمة عمل كل عشرة أيام أو نحوها. وكان دائماً يتواجد في " النسر الذهبي " أو في " عش القرقف". وعلى الرغم من أنه كان يفرط في الشرب إلاّ أنه ظلَّ دائماً " الجنتلمن المثالي ". ولم يكن يغادرها قط دون أن يترك لها في راحة يدها ورقة نقدية بقيمة خمسين دولاراً. " فقط لتبقى بصحبته ". إنَّ هناك الكثير من المتوحِّدين من أمثال ألن كرومويل يحومون في المكان، كما أكَّدَتْ مونا. وكل أولئك المتوحدين هم، زيادة على ذلك، من الأثرياء. وسرعان ما بدأتُ أسمعُ أخبارَ الآخرين، مثل مَلِك الأخشاب ذاك الذي كان يحجزُ جناحاً كاملاً على مدارِ العام في فندق والدورف؛ ومثل مورو، بروفيسور السوربون، الذي كان يصحبها إلى أشد الأماكن غرابة كلما تقابلا مصادفة؛ ومثل نيوبرغر، صاحب آبار البترول في تكساس، الذي ليست لديه أدنى فكرة عن قيمة المال بحيث أنه كان دائماً ينقد سائق التاكسي خمسة دولارات إكرامية، سواء أكانت المسافة قصيرة أم طويلة. ثم كان هناك صانع الجعة المتقاعد من ميلووكي، المولع بالموسيقى. كان دائماً يبلِّغ مونا مسبقاً عن موعد وصوله لكي تصحبه إلى الحفل الموسيقي الذي جاء من ميلووكي خصيصاً ليحضره. والتَقْدمات الصغيرة التي كانت مونا تنتزعها من تلك النماذج كانت تمثِّل أكثر بكثير من أي مبلغٍ كنا نأمل في كسبهِ بشكلٍ قانوني حتى أننا، أومارا وأنا، كففنا كلياً

عن التفكير في الاشتراكات. والقصائد التي كانت تتبقّى في آخر الأسبوع كنا نهبُها دون مقابل لأناسٍ نظن أنهم يودُّون أن يقرؤوها. وأحياناً كنا نرسلها إلى ناشري صحف ومجلات، أو إلى أعضاء مجلس الشيوخ في واشنطن. وأحياناً كنا نرسلها إلى رؤساء هيئات صناعية كبرى - لمجرد التسلية، لمجرد أن نرى ماذا سيحصل. وأحياناً، وهذه مسلِّية أكثر، كنا نغوص في دليل الهاتف وننتقي أسماءً لا على التعيين. وذات مرة أبرقنا محتويات إحدى القصائد إلى مدير مصح عقلي في لونغ آيلند. ووقّعنا باسمٍ ملفَّق، طبعاً. اسم مجنون، مثل أليوسيوس بنتيكوست أونيغا. لمجرَّد أن نخرجه عن طوره (!)

مثل هذه الفكرة الأخيرة كانت تأتينا بعد أمسية نمضيها مع أوزيكي الذي كان قد أضحى حينئذ زائراً مواظباً. كان مهندساً معمارياً يقطن في حي مجاور؛ وكنا قد قابلناه ذات أمسية في أحد البارات حين كان يهمّ بالإغلاق. في البداية كان كلامه عاقلاً تماماً - اللغو المعتاد عن الحياة في أحد مكاتب الهندسة الكبرى. وهو مولع بالموسيقى، وقد ابتاعَ لنفسهِ بيانو آلي ومن ثم، بعد أن يسكر بهدوء وحده دون شريك يبدأ بتشغيلَ أسطواناته - إلى أن يضربَ الجيرانُ بقوةٍ على الباب.

لا شيء غير عادي في هذا السلوك. وكنا نقوم بزيارته بين حين وآخر ونساعده في سماع أسطواناته اللعينة. وكان لديه دائماً في المنزل مخزون جيد من المشروبات. غير أننا صرنا نلاحظ، شيئاً فشيئاً، نبرة غريبة تشوب حديثه. والسبب حقده على رئيسه. أو بالأحرى، شكوكه التي تحوم حول رئيسه.

في أول الأمر تطلَّبَ الأمر قليلاً من التملُّق لاستدراجه إلى البوح.

وقد كان يستحي أن يكشف عن كامل هواجسه. ولكن حين لاحظ أننا نبتلع كل ملاحظاته دون أن نغمغم دهشةً أو استنكاراً ـ انطلق يتكلّم بسرعة مدهشة.

كان واضحاً أن الرئيس يرغب في التخلُّص منه. ولكن بما أنّ ليس لديه أي شيء ضد أوزيكي، كان محتاراً كيف يفعل ذلك. وانطلق أومارا يقول " إذن لهذا كان يضع البق في طاولة مكتبك في كل ليلة؟"، وهو يغمزني خلسة.

" أنا لا أقول أنه هو الذي فعلها. كل ما أعرفه هو أني أجدها هناك في كل صباح ". وهنا بدأ صديقنا يهرش نفسه.

قلت " طبعاً ليس من الضروري أن يفعل ذلك بنفسه، لعلّه دفع إلى الحاجب ليفعلها نيابة عنه "

" أنا لا أتحدث عمَّن فعلها. أنا لا ألقي أي اتهامات، ليس علانية على أي حال. كل ما أعرفه هو أنها خدعة قذرة. ولو كان رجلاً لسلّمني أوراق الاستغناء عني وتخلّص مني "

قال أومارا بخبث " لم لا نقلب الطاولة عليه؟ "

" ماذا تقصد؟ "

" وَلَوْ، كما أقول لك... ضع القمل في طاولة مكتبه هو. كما ترى!"

قال أوزيكي المسكين " لدي ما يكفي من المتاعب "

" لكنك ستخسر عملك في كل الأحوال "

" لا تكن واثقاً كثيراً من هذا. إنَّ لدي محامياً جيداً وقد وعدني أن يدافع عني "

سألته ببراءة تامة " أواثق أنت من أنك لا تتخيل كل هذا؟ "

" أتخيَّله؟ اسمع، أترى الكؤوس الزجاجية هذه الموجودة تحت كرسيك؟ لقد أطلقها وجعلها تنتشر هنا الآن "

نظرتُ عَرَضاً حولي، فوجدت أنه حتى سيقان آلة البيانو كانت واقفة داخل كؤوس زجاجية مملوءة بالكيروسين.

قال أومارا " يا إلهي، لقد بدأتُ بدَوري أهرش. سوف تفقد عقلك إذا لم تستَقِلْ من هذا العمل حالاً "

قال أوزيكي بهدوء وبنبرة صوت جوفاء، " حسن، حسن، إذن سأجن. لكني لن أشفي غليله بتسليمه كتاب استقالتي. مستحيل "

قلت " يا رجل إنَّ كلامَكَ هذا يدلُّ على أنَّكَ قد جُننتَ فعلاً "

قال أوزيكي " هذا صحيح. ومَنْ لا يُجَن؟ أتستطيع أن تبقى مستيقظاً طوال الليل وأنت تهرش نفسك ومن ثم تتصرَّف بشكل طبيعي في اليوم التالي؟ "

لم أجد جواباً أدلي به. وفي الطريق إلى المنزل رحنا، أومارا وأنا، نستعرض الطُرُق والأساليب المتاحة لمساعدة هذا المسكين. قال أومارا "هيا نتحدث مع فَتَاتِه، لعلَّها طريقة تفيد ". واتفقنا على أن ندفع أوزيكي إلى تعريفنا بصديقته. ومن ثم ندعوها على العشاء ذات أمسية.

قلت في نفسي " لعلها مجنونة هي أيضاً "

بعد ذلك بوقت قصير تصادف أن تعرَّفنا إلى صديقيّ أوزيكي الحميمين، أندروز وأوشونيسي، وهما مهندسان بدورهما. كان أندروز كندياً قصيرَ القامة، مزهواً بنفسه، وحَسَنَ الهندام، وعلى قدرٍ عالٍ من الذكاء، وصديقاً وفياً، كما اكتشفنا سريعاً. كان يعرف أوزيكي منذ

عـهد الفتوة. أما أوشونيسي فكان نَمَطاً مختلفاً تماماً، ضخماً، مفتولَ العضل، ومملوءاً صحة وحيوية، ومتهوراً، وخالي البال، ومتكلاً على الحظ. ودائماً في حالة سعي وراء تمضية وقت ممتع؛ ودائماً مستعد للدخول في جولة من شرب الخمر. ولديه عقل أيضاً، لكنه يقمعه. يُحبّ أن يتكلّم عن الطعام، والنساء، والجياد، والجسور المعلّقة. ومرأى الثلاثة وهم جالسون على البار كان فرجة - أشبه بمشهدٍ من رواية لدو موريه أو ألكسندر دوما. صُحبة لا تفترق. دائماً يعتني أحدهم بشؤون الآخرين، والسبب في أننا لم نكن قد قابلناهما قبل ذلك يعود إلى أنَّ أندروز وأوشونيسي كانا في رحلة عمل.

اتضح أنهما سَعِدا جداً حين عَلِما أنَّ أوزيكي عَقَدَ صداقةً معنا. لقد كانا قلقين عليه لكنهما كانا عاجزين عن إصدار أي قرار بشأن الوضع. قالا إنَّ الريِّس شاب طيب. ولم يفهما ماذا ألمَّ بصديقهما حتى تغيَّرَ إلى ذاك الحدّ - إلاّ إذا كان السبب صديقته.

سألناهما " وما شأنها هي؟ "

كان أندروز، الذي يتولى الكلامِ، يكره أن يتحدث كثيراً عنها. قال " لم أعرفها إلاّ لفترة وجيزة. ثمة شيء مريب حولها، هذا كل ما أستطيع أن أقوله عنها. إنها تشيع بي القشعريرة ". وبعد ذلك سكت. واكتفى أوشونيسي بالضحك من كل قلبه على القصة كلها. قال سوف يخرج من هذه المحنة. كل ما في الأمر أنه يُكثِر من الشرب. فبعد أن تتراءى لك أفاعي وحيّات كوبرا ترتقي سريرك فإن الحكّ يُعتَبَر لا شيء. لكني سأعترف بأني أفضِّل أن أصحب معي حيّة كوبرا إلى السرير على أن أصحب فتاته تلك! ثمة شيء غير إنساني فيها. أعتقد أنها

سقوبة[٣٦]، إذا فهمت ما أعني ". وهنا أطلقَ قهقهة من أعماق قلبه. "وبصريح العبارة - إنها مصاصة دماء. أفهمت؟ "

* * *

كانت رائعة طالما أنها دائمة. وأقصد بقولي المشاوير، والأحاديث والكتب التي قرأناها، والطعام الذي أكلناه، والنزهات والاكتشافات، والشخصيات التي صادفناها، والخطط التي وضعناها. كل شيء كان يمور حيويةً، أو يهدر مثل آلة تدور بشكلٍ سلس. وفي الليالي التي لم يكن يزورنا خلالها أحد، الليالي التي يكون فيها الجو في الخارج سيئاً أو نكون مفلسين قليلاً، ننخرط، أومارا وأنا، في إحدى تلك الأحاديث التي تدوم الليل بطوله. أحياناً كان الأمر يبدأ بكتاب كنا قد قرأناه مثل " القرمزي الملكي " أو " الزوج الأبدي ". أو تلك القصة الرائعة حول حمامة زاجلة - " نِك المرح ".

قرابة منتصف الليل كان أومارا دائماً يصبح متوتر الأعصاب ومتململاً. إنه قلق على مونا، ماذا تفعل، أين هي، وهل تستطيع الاعتناء بنفسها.

فأقول " لا تقلق، إنها تعرف كيف تعتني بنفسها. إنها تتزوّد بقدرٍ وافٍ من التجارب "

ويقول " أعرف، ولكن يا إلهي ... "

" اسمع يا تد، لو أبدأ بالقلق حول مثل هذه الأشياء فسأفقد عقلي"

" لا ريب في أنك تثق فيها كثيراً "

" ولمَ لا يفعل؟ "

---

٣٦ - السقوبة : شيطانة ، يقال إنها تضاجع الرجال أثناء نومهم . ويُطلق على المرأة المهووسة جنسياً . - المترجم

ويهمهم أومارا ويغمغم " يعني، كل ما في وسعي أن أقوله هو، لو أنها كانت زوجتي ... "

" لن تكون لك زوجة أبداً. فما نفع الكلام بحق الجحيم؟ سوف تعود إلى المنزل بعد الواحدة بعشر دقائق بالضبط، انتظر وسترى. هيا، دعك من الأمر "

أحياناً لا أتمالك نفسي من الابتسام، حتى أنك لتظن، يا إلهي، أنها زوجته هو وليست زوجتي، من شدة اهتمامه بالأمر. وكان أصدقائي دائماً يتصرفون معي على هذا الشكل. كانوا هم دائماً الذين يقلقون.

الطريقة الوحيدة التي كان من الممكن اتباعها لإبعاده عن الأمر هي في دفعه إلى الاستغراق في ذكرياته. لقد كان أومارا أعظم مستغرقٍ في الذكريات قاطبة. وكان ينهمك فيها مثل انهماك بقرة في تأمُّلها. كل ما كان يقع في الماضي كان عَلَفاً له.

الشخص الذي كان يحب أن يتكلم عنه كان ألك ووكر، الذي تعرَّفَ إليه خلال احتفال مقام في حديقة ساحة ماديسون، وأسند إليه عمل في مكتبه. وقد ظل ألك ووكر لغزاً مبهماً بالنسبة إلى أومارا. كان يتكلم عنه بحبٍ، وإعجاب، وامتنان، ولكن كان في تركيبة ألك ووكر شيء يحيّره. وذات ليلة حاولت أن أصلَ إلى كنه الأمر معه. ظاهرياً، ما كان يزعج أومارا أكثر من أي شيء هو أنّ ألك ووكر لم يَبدُ أنَّ له ميلاً إلى النساء. وكم كان رجلاً وسيماً! كان في وسعه أن يحصل على أي امرأة يقع بصره عليها.

" لقد قلتَ أنك لا تعتقد أنه شاذ جنسياً. فإذا لم يكن شاذاً جنسياً إذن فهو متبتِّل، هذا كل ما في الأمر .,إن ما أراه هو أنه قديس لم يلبِّ نداءه الباطني "

لم يقتنع أومارا تماماً بهذا التفسير المكرور.

أردفت " الأمر الوحيد الذي يزعجني هو الطريقة التي يسمح بها لوودرَفْ أن يتلاعب به. إذا أردت رأيي، ثمة ما يريب في الوضع "

أسرع أومارا بالقول " أوه، لا شيء يستأهل. إنَّ ألك رخو. ويمكن لأي إنسان أن يتلاعب به. إن بين جنبيه قلباً كبيراً "

قلت، وقد صمَّمت على أن أنتهي من الموضوع إلى الأبد، " اسمع، قُل لي الحقيقة كاملة ... هل حاول أبداً أن يغويك؟ "

أطلق أومارا قهقهة عالية " يغويني؟ أنت لا تعرف ألك أبداً وإلاَّ لَمَا طرحْتَ مُطلقاً سؤالاً كهذا. إذ حتى لو كان ألك شاذاً، لما فعل أبداً شيئاً كهذا، ألا تفهم هذا؟ "

" لا، لا أفهمه. إلاَّ إذا كنتَ تعني أنه مُفرط التهذيب - أهذا ما تعنيه؟ "

قال أومارا بعنف " لا، لا، ليس هكذا. أنا أقصد أنه لو أنَّ ألك كان يموت جوعاً لما طَلَبَ كسرة خبز "

قلت " إذن فهي الكبرياء "

" ولا حتى كبرياء. إنها عقدة الشهيد. إنه يستمتع بالمعاناة "

" مِنْ حُسْن حظِّه أنَّه ليس فقيراً "

قال أومارا " لن يكون فقيراً أبداً؛ سوف يَسْرِق أولاً "

" يا لها من حكاية. ما الذي أوحى إليك بهذه الفكرة؟ "

تردَّدَ أومارا قليلاً، ثم قال دون تفكير، " سأقول لك شيئاً، ولكن إيَّاك أن تبوحَ به لأي إنسان. لقد حدث مرةً أن سرَقَ ألك ووكر مبلغاً كبيراً من المال من أخيه؛ وأخوه هذا، الذي هو ابن حرام حقيقي، كان

ينوي أن يُودِعه السجن. لكن الأخت ما اسمها سدَّدَت المبلغ. أما من أين حصلت هي على المبلغ فهذا ما لا أعلمه. كان مبلغاً ضخماً "

لم أُضِف أي كلمة على هذا؛ أفحمني.

تابع أومـارا قـائلاً " وأنت طبـعـاً تعـرف مَنْ الذي أوقـعـه فـي تلك الورطة، ألا تعرف؟ "

وجَّهتُ إليه نظرة خالية من المعنى.

" إنه ذاك الجرذ الصغير، وودرَف "

" غير معقول! "

" أَلَمْ أكن دائماً أقول لك إنَّ وودرف رجل سيئ؟ "

" نعم، لكني لا أفـهم. أتقصـد أن تقول لي إنَّ ألك ووكر قـد بدَّدَ كل ذاك المال على صديقنا الحقير بيل وودرف؟ "

" هذا بالضبط ما أقـصده. اسمع، أتذكر تلك العاهرة الوضيعة التي كان وودرف مدلَّهاً بحبها؟ لقد تزوجها فيما بعد، ألم يفعل؟ "

" تقصد إيدا فرلين؟ "

" هي بعينها، إيدا. يا إلهي، لم يكن على لسانه إلاّ إيدا هذا وإيدا ذاك طوال الوقت. أذكر ذلك لأننا كنا نعمل معاً في تلك الفترة. وأظنك نسيت تلك الرحلة التي قام بها ألك وودرف إلى أوروبا؟ "

" أتعني أنَّ ألِك كان يغار من الفتاة؟ "

" يا إلهي لا! كيف يمكن لألك أن يغار من عاهرة حقيرة مثل تلك؟ لقد كان يحاول أن يُنقِذْ وودرف منها، هذا كل ما في الأمر. لقد رأى أنها عاهرة سافلة وحاول أن يُنهي تلك العلاقة. وودرف، ابن الحرام ذاك،

لم يكن يرضيه شيء - ولا داعي لأحكي لك حقيقته! - وجعل ألك يركض في كل أرجاء أوروبا، فقط لكي يحمي له قلبه الصغير القذر من التحطُّم "

قلت " تابع، الحكاية تزداد تشويقاً "

" خلاصة القول أنه حين وصلا إلى مونت كارلو بدأ وودرف يقامر - بمال ألك، طبعاً. ولم يفه ألك بكلمة واحدة. واستمرٌ الأمر هكذا لأسابيع طويلة، وكان وودرف يخسر على طول الخط. وكلّفتْ تلك الفترة القصيرة ألك ثروة. وفرغ جيبه. غير أن وودرف لم يكن مستعداً للعودة إلى الوطن. أراد أن يشاهد قصرَ ملكة رومانيا الشتوي؛ وأراد أن يزور الأهرامات، وأراد أن يمارس التزلُّج على الجليد في شاموني. وأؤكد لك يا هنري، أني عندما أتحدث عن ذاك الرجل يغلي دمي. أنت تظن أن النساء باحثات عن الذهب. اسمع، إنَّ ذاك الرجل المدعو وودرف أسوأ من أي عاهرة قابلتُها في حياتي. إنه ينتزع القروش من بؤبؤي عيني رجل ميت "

علّقتُ قائلاً " على الرغم من هذا كله عاد إلى حبيبته إيدا - هذا هو أفضل جزء من القصة "

" نعم، وقد ناكَتْه قياماً وقعوداً، كما سمعت "

ضحكت. وفجأة كففت عن الضحك. فقد مرَّ ببالي خاطر.

" أتدري ماذا خطر ببالي للتو، تد؟ أعتقد أن وودرف كان شاذاً جنسياً "

" أنت تعتقد ذلك! أنا أعرف أنه كذلك. وفي إمكاني أن أغفر له هذا، لكني لا أغفر له خسّته، ولا بخله "

تمتمت " اللعنة، إنَّ ذلك يفسِّرُ سبب اضطراب علاقته بإيدا. يا سلام، يا سلام! وأنا الذي عرفته طوال تلك السنين كلها دون أن أشكَّ في الأمر ... وأنت، أما زلت لا تعتقد أن ألك شاذٌ جنسياً؟ "

قال أومارا " أنا أعرف أنه ليس كذلك؛ إنه مهووس بالنساء، إنه يرتجف حين يقتربن منه "

" شيء محيِّر "

" لقد قلت لك من قبل إنه متنسِّك. كان في وقتٍ مضى قد درسَ ليكون راهباً، ومن ثم وقع في غرام فتاةٍ هَجَرَتْه. ولم يُشفَ من المحنة... وسوف أحكي لك شيئاً آخر عنه لم تتوقَّعه قط. خذ عندك! لا أظنك رأيته مرة غاضباً؟ لم يخطر ببالك أنَّ في استطاعته أن يغضب، هه؟ فهو فائق الرقة، والدماثة، واللطف، والمراعاة. إنَّ ذلك الرجل مصنوعٌ من الفولاذ. دائماً متوثِّب، دائماً على أهبة القتال. لقد رأيته يطهِّر باراً بأكمله ذات ليلة، وحده وبدون مساعدة. كان رائعاً. وطبعاً كان علينا أن ننجو بحياتنا، ولكن حين أصبحنا على مسافةٍ آمنة هدأ وتمالك نفسه. وطلب مني أن أنظِّفَ ملابسه بالفرشاة بينما هو يعقد ربطة عنقه. ولم يكن عليه خدش واحد. وذهبنا إلى أحد الفنادق وهناك مشَّطَ شعره وغَسَلَ يديه، ومن ثم اقترح أن نأكل لقمة - في مطعم رايزنفيبر، أعتقد. وبدا، كعهده دائماً، نظيفاً تماماً، وكان يتحدث بصوتٍ هادئ، ثابت، وكأننا خرجنا للتو من دارٍ للمسرح. ولم يكن يتظاهر قط: كان بالفعل هادئاً، بالفعل هادئ السريرة.

" وأذكر أيضاً الوجبة - كانت وجبة عامرة من النوع الذي يعرف ألك كيف يطلبها. ويُخَيَّلُ إليّ أننا أمضينا ساعات طوالاً ونحن نتناول

تلك الوجبة. وكان ألك ميالاً إلى التحدث. وأخذ يحاول إفهامي إلى أي حد كانت شخصية القديس فرانسيس تشبه المسيح. وألْمَحَ إلى أنّه طمَحَ ذات يوم إلى أن يصبح هو نفسه ما يشبه القديس فرانسيس. وكما تَعْلَم طالما كنت أسخر من ألك لكونه شديد التقوى. كنت أناديه بالكاثوليكي القذر - أقصد، في وجهه. ومع ذلك، فعلى الرغم من كلّ ما قلتُه فإنه لم يغضب قط. كان يرميني بتلك الابتسامة الكئيبة، المتفهِّمة - وأنت تدرك ما أعني - ويزداد إحساسي بالخجل من نفسي "

قاطعته " إني لم أتوصل قط إلى فهم كنه تلك الابتسامة؛ كانت دائماً تسبب لي الاضطراب. لم أعرف قط إن كان مترفعاً أم يمثِّل دورَ البريء "

قال أومارا " هذا صحيح! كان بصورة ما يعرف أنه متفوِّق - ليس فقط بالنسبة إلينا نحن الساخرين، بل بالنسبة إلى معظم الناس. وبكلمة أخرى كان يشعر أنَّه أقلّ مرتبة من أي شخص آخر. كان اتّضاعُهُ مشوباً بالتكبُّر. أم هل أقول الأناقة؟ أنت تذكر كيف كان يرتدي ملابسه. وأيضاً كيف كان يتكلَّم - بتلك النبرة الأيرلندية الناعمة، بتلك اللغة الإنكليزية التي لا تشوبها شائبة ... ذلك الفتى، لا يُستَهَان به! لكنه حين يغرق في الصمت، يصبح غريباً. وإذا كان هناك ما يزعجني فهي مَقدرته على أن يلزَمَ الصمت كسمكة صَدَفية. لقد كان يبثُّ فيَّ الرعبَ. ولو كنتَ تلاحظ فقد كان دائماً يلزمُ الصمتَ حين يكونُ الآخرون على استعداد للانفجار. كان يصمت في اللحظة الحرجة ويتركك معلَّقاً في الهواء كانت تلك طريقته في جعلك تنفجر، أتدرك ما أعني؟ حينئذ اكتشفتُ الناسكَ فيه "

قلت، مقاطعاً، " اسمع تد، لا أزال لا أفهم ما الذي دفعه إلى التعلُّق بشخصٍ مثل وودرف "

ردَّ أومارا قائلاً " تفسيرُ ذلك سهلَ؛ لقد أراد أن يخلِّص الساذج المسكين. كان يسرهُّ أن يتعامل مع أير صغير تافه مثل وودرف. كان ذاك اختباراً لقدراته. ولا تظن أنه لم يكن يعرف وودرف. كان يعرف كل شيء. وأكثر ما أعجبه في وودرف، ويا للغرابة، كان مسحة المرتزق. لقد كان أشبه بشهيد، ظل ينفق ماله وينفق، حتى خلا وفاضه منه. ولم يعرف وودرف قط أنَّ ألك كان يسرق لصالحه. ولم يكن ذاك الجرذ الحقير ليصدِّق ذلك لو أنكَ أخبرته "

" هل أخبرتُكَ أني التقيت بوودرف مصادفةً مؤخراً؟ نعم، كان يسير في برودواى "

" وماذا يفعل الآن؟ "

" لم أسأله "

قال أومارا " لعله قوَّاد "

" لكني أعرف ماذا حلَّ بإيدا. إنها ممثلة الآن. رأيت لوائح الإعلانات واسمها مُلصَقٌ في كل مكان عليها. يجب أن نذهب ونتفرَّج عليها في وقتٍ ما، ما رأيك؟ "

قال أومارا " لن أذهب، أريد أولاً أن أراها في جهنم ... اسمع، اللعنة عليها وعلى وودرف أيضاً! لا أدري ما الذي جعلني أتحدث عن هذين الخرائين. قل لي، ألم تر أورورك قط مؤخراً؟ "

" أورورك؟ لا، لم أره. غريبُ أن تفكر فيه. لا، في الحقيقة إني حتى لم أفكر فيه منذ أن تركتُ الوظيفة ... "

" يجب أن تخجل من نفسك يا هنري. إن أورورك أمير. ولا أفهم كيف أمكنك أن تنسى رجلاً مثله. وَلَوْ خراء، لقد كان بمثابة الأب لك - ولي أيضاً. ولا شك في أني أرغب في أن أعرف ماذا حلَّ به "

" في إمكاننا أن نزوره في إحدى الليالي، ليس هذا صعباً "

قال أومارا " لا شيء أفضل عندي. إن مما يمنحني شعوراً منعشاً أن أكون في حضرته من جديد "

قلت " أنت شخص غريب. تكاد تعبد بعض الأشخاص. وكأنك تبحث عن والدك طوال الوقت "

" هذا بالضبط ما أفعله - لقد أصَبْتَ عَيْنَ الصواب. ابن الحرام ذاك الذي يدعو نفسه والدي، أنت تعرف رأيي فيه! أتدري ما الذي يخشاه ذلك العِلّة؟ يخشى أن أغتصب أختي ذات يوم. يقول إننا متقاربان كثيراً. ابن الحرام ذاك هو الذي أرسلني إلى ملجأ الأيتام. إنه شخص آخر، بمناسبة الحديث عن الأيور التافهين من أمثال وودرف، في استطاعتي أن أقضم خصيتيه باستمتاع، لولا أني أُقسِمُ أنَّ ليس لديه أي خصية! يحاول أن يخدع الناس بأنه روسي بينما هو مجرد كايك[٣٧] من غاليسيا[٣٨]. ولا شك في أنه لو كان لي أب مثل أورورك لأصبحت الآن شخصية مرموقة. أما الآن، فلا أدري ما نفعي. إني فقط أنجرف. أحارب الكنيسة طوال الوقت ... بالمناسبة، كدت بالفعل أتحرَّش بأختي، بحق. العجوز هو الذي أدخلَ الفكرةَ إلى رأسي. وما هَمّ، كان ذلك طبيعياً؛ فلم أكن قد رأيتها منذ اثنتي عشرة سنة. ولم تعد أختاً، كانت

---

٣٧ - كايك : كلمة ساخرة تشير إلى الشخص اليهودي . - المترجم

٣٨ - غاليسيا : منطقة في أوروبا تقع حالياً بين جنوب شرق بولندا وجنوب غرب روسيا .- المترجم .

مجرد سيدة جميلة، ولذيذة وتشعر بوحشة شديدة. ولا أدري ما الذي منعني عن ذلك. يجب أو أزورها في وقت ما. سمعت أنها تزوجت منذ وقت قريب. ربما لن يكون الأمر سيئاً جداً الآن - أقصد أن أجربها ... يا إلهي، لو يسمعني ألك أتكلم هكذا لأُصيبَ بالذعر "

واصلنا الحديث على هذا المنوال، منتقلين من ذكرى إلى أخرى، إلى أن دَخَلَتْ علينا مونا، كما كنتُ قد توقّعتُ، في الساعة الواحدة وعشر دقائق بالضبط. كانت تحمل على إحدى ذراعيها طيِّبات الأكل وزجاجة خمر بندكتية في الأخرى. مرة أخرى أغدَقَ عليها أحد أصحاب الأرواح الرحيمة بأفضاله. وهذه المرة كان خبازاً متقاعداً من ويهوكن، من دون كل الأماكن. ورجلاً مثقفاً أيضاً. وبصورة ما كان كل معجبيها يتصفون بمسحةٍ من ثقافة، سواء أكانوا تجّارَ أخشاب، أم ملاكمين سابقين، أم دباغين أم خبازين متقاعدين من ويهوكن.

فور دخول مونا تبدَّدَ حديثنا. وكان أومارا يكشِّر في وجهها بطريقة معينة حين تبدأ بسرد حكاياتها، وكانت تثور غضباً. وفي البداية كان يقاطعها باستمرار. وكان في وسعه أن يطرح أشد الأسئلة الصريحة إهانة. " تقصدين أنه لم يحاول حتى أن يضمك بين ذراعيه؟ ". أشياء كهذه، وهي محرَّمة تحريماً باتاً مع مونا. لكنه كان حينئذ قد تعلَّمَ أن يمسك لسانه وينصت. أحياناً فقط كان يخرج بملاحظة خبيثة، بتلميح ماكر، لا تنتبه إليه مونا مطلقاً، وأحياناً تكون مبالغاتها من السخف بحيث أننا نحن الاثنان ننفجر في نوبة من الضحك ونعجز عن ضبطه. والغريب أن مونا كانت تضحك أيضاً حتى يكاد رأسها ينفجر. والأغرب في ضحكها كان طريقتها في معاودة حديثها من حيث تركته، وكأنَّ لا شيء غير عادي قد حدث.

أحياناً كانت تطلب مني أن أؤيد إحدى أقاويلها الغريبة، فأفعل مدَّعياً منتهى الرصانة، أمام ذهول أومارا. بل إني أزيّن قولها ببعض الحقائق الوهمية من اختلاقي. فتومئ برأسها موافقة عليها بكل جدية، وكأن ما أرويه هو الحق المنزَّل من عند الله، وكأننا كنا قد تحدثنا في الأمر مرارا وتكراراً - أو كأننا تدرَّبنا على أدائه معاً.

كانت تتصرَّف بألفةٍ تامة في جو الادِّعاء ذاك. ولم تكن فقط تصدِّق أقاصيصها، بل تتصرف وكأنَّ روايتها لها دليل على صدقها. في حين أن الجميع، طبعاً، كانوا يفترضون أن العكس تماماً هو الصحيح. والجميع، بدون استثناء. مما كان يجعلها أكثر إحساساً بالأمان وهي تخوض في عاداتها. وكان واضحاً أن منطقها ليس منطقاً إقليدسياً.

على ذكر الضحك. كان هناك نوع واحدٌ أَحَدْ من الضحك تستغرق فيه - الضحك الهستيري. وكانت في حقيقتها خلواً من أي حسّ فكاهي. والذين كانوا يثيرون فيها حسها الفكه كانوا عادة هم الأناس الخالين من الحس الفكاهي. مع ناحوم يود، الذي كان فكهاً حقاً، كانت تبتسم ابتسامة ودية، متسامحة، رقيقة، من النوع الذي يمنحه المرء لطفلٍ شكس. كان ابتسامها، في حقيقة الأمر، مختلفاً تماماً عن ضحكها. ابتسامها كان أصيلاً ودافئاً، ينبجس من جهازها العصبي المتعاطف. أما ضحكها، من ناحية أخرى، فكان نشازاً، أجشاً، مزعجاً. وتأثيره مؤذ. ولم أسمعها قط تضحك إلاّ بعد وقت طويل من تعرُّفي إليها. ولم يكن هناك كبير فرق بين ضحكها وبكائها. فقد تعلّمت في دار المسرح أن تضحك ضحكاً مصطنعاً. ويا له من شيء يرعب السمع! كان يشيع القشعريرة في عمودي الفقري.

قال أومارا، مع ضحكة مكبوتة، " أتعلمان بماذا تذكراني أنتما الاثنان أحياناً؟ تذكراني بشريكين في مؤامرة. وكل ما ينقصكما هو لعبة القنابل القديمة "

أجبت " ومع ذلك فالمكان هنا جميل وأليف "

قال أومارا، وقد تلبَّسَ وجهه سيماء جادة تماماً، " اسمعا، إذا استطعنا أن نتحمَّل الوضع مدة سنة أو اثنتين فسأقول إنَّ الأمرَ يستحق العناء. إننا نعيش الآن في بحبوحة، ولا ندري! إنني لم استرخِ هكذا منذ سنين عديدة. والغريب في الأمر أني أشعر وكأني أختبئ، وكأني ارتكبت جريمة لا أذكر ما هي. ولن أدهش أبداً إذا ما وجدت رجال الشرطة يدقّون بابي ذات يوم "

هنا اندفعنا جميعاً في ضحكٍ هادر. الشرطة! شيء مضحك بصورة تعجز عن وصفه الكلمات.

قال أومارا، بادئاً سرد إحدى قصصه التي لا تنتهي، " كنت ذات مرة أسكن مع أحد الشبان، وكان مخبولاً تماماً. ولم أعرف هذا إلاّ حين زاره شخصٌ من المصح. وأُقسمُ بالله أنه كان يبدو طبيعياً أكثر من أي إنسان قابلته في حياتي، وكان حديثه طبيعياً، وتصرُّفه طبيعياً. في الحقيقة، كانت تلك هي مشكلته - أنه يبدو طبيعياً بشكل لعين جداً. وفي تلك الأيام كنت مُعدَماً، ومن شدّة إثباط الهمة بحيث قعدت عن البحث عن عمل. وكان هو يعمل سائقاً - على خط جادة رايد. وكان في فترات التبديل يعود إلى الغرفة ليرتاح. وكان دائماً يحضر معه كيساً مملوءاً بالكعك المحلّى. وحالما يخلع ملابسه يعدُّ قهوة. ولم يكن يتكلم كثيراً. في الغالب كان يجلس بالقرب من النافذة ويقلّم أظافره. وأحياناً

يأخذ دشاً ويدلِّك جسمه. فإذا كان مزاجه رائقاً يقترح لعبَ دورٍ بورقِ الشدّة. وكنا دائماً نلعبُ مقابل رهان وكان دائماً يدعني أربح، على رغم إنه كان يعلم أني أغشّه. ولم أطرح عليه قط أي سؤال حول ماضيه ولم يتبرَّع هو من ناحيته بأي شيء في هذا المجال. كان كل يوم هو يوم جديد. فإذا كانت الدنيا برد يتحدث عن الطقس، وعن مدى برودته؛ وإذا كان دافئاً يتحدث عن مدى الدفء. ولم يتذمَّر قط حول أي شيء، ولا حتى حين انخفض أجره. وهذا بالذات كان جديراً بأن يثير ريبتي، لكنه لم يفعل. لقد كان من فرط اللطف والمراعاة، ومن التواضع والرقة، بحيث أن أسوأ ما استطعت أن أنعته به كان بأنه خمول. ولكن لم يكن في إمكاني أن أتذمَّر كثيراً بهذا الخصوص، وأنا أرى مبلغ رعايته لي. ولم يوحِ إليّ ولا حتى مرة واحدة بأن عليّ أن أنهض وأنشط. وكل ما كان يريد أن يعرفه هو إنْ كنتُ مرتاحاً أم لا. كنت أدركُ أنه يحتاج إليّ، أنه لم يكن ليقوى على العيش وحده - غير أنَّ ذلك أيضاً لم يُثِرْ ريبتي، إذ كثير من الناس يكرهون أن يعيشوا وحدهم. مهما يكن، لا أدري ما الذي يدفعني إلى أن أحكي لكما عن هذا كله، مهما يكن، وكما كنت أقول قبل قليل، ذات يوم سمعنا قرعاً على الباب وإذا بنا أمام شخصٍ قادمٍ من المصح. ويجب أن أعترف أنه هو أيضاً لم يكن سيئاً. ودخل بهدوء تام، ثم جلس، وأخذ يتحدث مع صديقي. وبتلك الطريقة الهادئة، الرخية، كان يقول " هل أنت مستعد لأن تعود معي؟ "، ويردُّ عليه إيكنز، وهذا هو اسمه، " طبعاً، بدون شك "، بتلك الطريقة الهادئة، الرخيّة نفسها. وبعد مرور بضع دقائق استأذن إيكنز بالذهاب إلى الحمّام ليحزم أغراضه. ولم يُبدِ الضابطُ، أو كائناً مَنْ كان، أي قلق حول ترك

الشـاب يغيب عـن ناظريه. وأخذ يتحدث معي. (وكانت تلك أول مرة يخاطبني فيها) واستغرق مني الأمر بضع دقائق لأدركَ أنه كان يعاملني بدوري على أني مجنون. وقد بدأتُ أنتبهُ إلى ذلك حين أخذ يطرح عليَّ شتى أنواع الأسئلة الغريبة، المقلقة - " هل يعجبك المكان؟ هل يطعمك جيداً؟ أمتأكدٌ أنتَ من أنّكَ مرتاح؟ "، وما إلى ذلك. وكنت غافلاً تماماً عما يجري حتى أني رحت أؤدي الدور وكأنه كُتِبَ خصيصاً لأجلي. وغال إيكنز في الحمّام مدة خمس عشرة دقيقة كاملة . وبدأتُ أتململْ من القلق، وأتساءل كيف سأثبت أني صحيح العقل فيما لو قرَّر الضابطُ أن يأخذني أيضاً معه. وفجأة فُتِحَ باب الحمام بهدوء. رفعتُ ناظري وإذا بي أرى إيكنز واقفاً وهو عار تماماً، وقد حَلَقَ كل شعره وحقيبة النضح* تتدلّى من رقبته. كان يرسم على وجهه تكشيراً لم أكن قد شاهدته من قبل. وفي الحال انتابتني رعشةُ البرودة.

ويقول، بصوتٍ ناعم كالزبد " حاضر، سيدي "

قال الضابط " هيا يا إيكنز، أنت تعلم أنَّ في إمكانك أن ترتدي شيئاً أفضل من هذا "

ويقوا إيكنز برقة " لكني لا أرتدي أي شيء "

قال الضابط " هذا ما أعنيه. والآن عُدْ وارتدِ ملابسك. هكذا يتصرَّف المؤدبون "

لم يتزحزح إيكنز، لم يحرِّك ساكناً.

ويسأل " أي بذلة تريد مني أن ألبس؟ "

قال الضابط بحدَّة " التي كنت ترتديها "

* حقيبة النضح : هي أداة لغسل الأعضاء التناسلية .

يقول إيكنز " لكنها ممزقة تماماً "، ويسير متوجهاً إلى داخل الحمّام. وبسرعة يعود ليقف عند الباب، وهو يحمل البذلة بيده. كانت مُزَقاً.

قال الضابط، محاولاً أن يخفي انزعاجه، " لا بأس، سوف يعيرك صديقك بذلة، أنا واثق "

يلتفت إليّ، فأشرح له أن البذلة الوحيدة التي أملكها هي التي أرتديها.

فيشقشق قائلاً " إنها مناسبة تماماً "

أزعق " ماذا ؟ وأنا ماذا سألبس؟ "

يقول " ورقة تين، وانتبه لئلا تنكمش! "

في تلك اللحظة نسمع صوت ربتٍ على زجاج النافذة.

يهتف أومارا " أراهن على أنها الشرطة! "

أتوجّه إلى النافذة وأرفع الظِلّة. إنه أوزيكي، يرسم ابتسامته المرتبكة، ويومئ بإصبعه.

قلت، وأنا أتوجه نحو الباب " إنه أوزيكي: لعله سكران "

أسأله وأنا أصافحه " أين أصحابك؟ "

قال " لقد هجروني. ربما بسبب كثرة القمل ... هل يُسبِّبُ دخولي أي إحراج؟ "، ويتردّد عند الباب، غير واثق مما إذا كان حضوره مرغوباً.

هتف أومارا " ادخل! "

" هل أقاطعكم أو ما شابه؟ "، ونظر إلى مونا، وهو لا يعرف مَنْ تكون.

" هذه زوجتي، مونا. مونا، هذا صديق جديد لنا، أوزيكي. لقد حصلت معه مشكلة صغيرة مؤخراً. لا أظنك تمانعين إذا مكث معنا بضع دقائق، أليس كذلك؟ "

أسرعت مونا بصبّ كأس من الخمر البندكتي وقدّمت له قطعة من الكعكة.

سأل، وهو يشم عبق الخمر، " ما هذا؟ كيف حصلتم عليه؟ "، وراح ينقل ناظريه بيننا وكأننا نخفي عنه سراً غامضاً.

سألته " كيف تشعر؟ "

أجاب " أنا الآن أشعر شعوراً رائعاً! ربما أكون منتشياً قليلاً. ألا تشم؟"، ونفخ أنفاسه في وجوهنا، وقد أضحت ابتسامته أكثر اتساعاً هذه المرة، مثل زهرة وردية في عز تفتُّحها.

سأل أومارا بنبرة عَرَضيّة، " كيف حال القمل معك؟ "

عندئذ بدأت مونا تضحك ضحكاً مكبوتاً، ثم انفجرَ ضحكها على آخره.

هممتُ بشرح الأمر " هذه هي مشكلته ... "

قال أوزيكي " يمكنك أن تحكي الحكاية كلها، لم يعد الأمر سراً. سوف نحلُّ المشكلة قريباً "، ثم نهضَ واقفاً وقال " اعذروني، لكني لا أشرب هذا النوع؛ إنه يحتوي الكثير من التربنتينة. هل لديكم قهوة؟ "

قالت مونا " طبعاً، هل ترغب بشطيرة أيضاً؟ "

" لا، فقط بعض القهوة المُرَّة ... "، وأطرق رأسه وقد احمرَّ خجلاً، " لقد تشاجرت لتوي مع رفاقي. أعتقد أنهم أخذوا يسأمونني، وأنا لا ألومهم على ذلك. لقد نالهم الكثير مني خلال الأشهر القليلة الماضية. وفي الواقع، أحياناً أعتقد أني بحق أحمق قليلاً ". وصمت ليرى تأثير كلامه علينا.

قلت " لا بأس، كلنا حمقي قليلاً. وأومارا هنا كان يحكي لنا لتوه

حكاية عن مجنون كان يعيش معه. فيمكنك أن تكون معتوهاً قدر ما تشاء، طالما أنك لن تبدأ بتحطيم الأثاث "

قال أوزيكي " أنت نفسك كنت ستفقد صوابك لو أنَّ لديكَ مثل تلك المخلوقات التي تمتص دمك طوال الليل - وطوال النهار أيضاً "، ورفع كُمّي بنطاله ليرينا الآثار التي تركتها. وكانت ساقاه كتلة من التخرشات والدم المتخثّر. وأسفت لأجله شديد الأسف، وأسفت لأني كنت قد سخرت منه.

غادرت بطرح اقتراح " ماذا لو انتقلتَ إلى شقةٍ أخرى ... "

قال، وهو ينظر باكتئاب إلى الأرض " لا فائدة، ستظلّ تلاحقني حتى أستقيل - أو أقبض عليها متلبّسة "

قال أومارا " حسبت أنك تنوي أن تحضر فتاتك لتناول طعام العشاء ذات أمسية؟ "

قال أوزيكي " طبعاً أنوي. لكنها الآن مشغولة "

سأله أومارا " مشغولة بماذا؟ "

" لا أدري. لقد تعلمتُ ألاّ أطرح أسئلة لا لزوم لها "، ورسمَ أمامنا ابتسامة أخرى، وهذه المرة اهتزت أسنانه قليلاً. ولاحظت أنَّ فمَه مملوء بمقومات الأسنان.

وأردفَ " لقد أتيتُ لأني رأيتُ الأضواءَ مُنارة. أكره أن أذهب إلى البيت في الواقع. (والابتسام يعني المزيد من القمل) أتمنى ألاّ يضيركم أن أمكث بضع دقائق؟ إني أحب هذا المكان - إنه بهيج "

قال أومارا " لابد أن يكون كذلك، فنحن نعيش على المخمل "

قال أوزيكي بنبرة رتيبة " ليتني أستطيع أن أقول مثلك. إنَّ رسم

المخططات طوال النهار والعزف على البيانولا ليلاً ليس عملاً ممتعاً "

قال أومارا " ولكن لديك فتاة، وهذا يجب أن يمنحك بعض المتعة، وضحك.

ضاقت عينا أوزيكي الشبيهتين بعينيّ ابن مقرض أكثر حتى أصبحتا بحجم رأس الدبوس. ورما أومارا بنظرة حادة، كادت تكون عدائية، وسأله " لا أظنك تحاول أن تنتزع مني الكلام؟ "

ابتسم أومارا بودّ وهزَّ رأسه إيجاباً، وهمَّ بفتح فمه حين عاود أوزيكي الكلام.

باشر قائلاً " إنها بليّة أخرى "

قالت مونا " أرجوك، لا تلزم نفسك بإخبارنا بكل شيء. أعتقد أننا جميعاً تمادينا في طرح الأسئلة "

" أوه، لا بأس، لا مانع لدي في أن تقسوا في استجوابي. أنا فقط تعجَّبت كيف علمَ بأمر فتاتي "

قال أومارا " أنا لا أعرف أي شيء. أنا فقط قلت ملاحظة بسيطة. انسها! "

قال أوزيكي " لا أريد أن أنساها. ومن الأفضل أن أطرحها من صدري ". وسكت وقد أطرق رأسه، بدون أن ينسى مع ذلك أن يمضغ شطيرته. وبعد مرور بضع لحظات رفع بصره، وهو يبتسم مثل ملاك، وأنهى أكل شطيرته، ثم نهضَ واقفاً وتناول قبعته ومعطفه. قال " سوف أخبركم في وقتٍ آخر؛ لقد تأخَّر الوقت "

عند الباب، وبينما نحن نتبادل المصافحة، عاد يبتسم من جديد وقال " بالمناسبة، كلما مررتم بضائقة فقط أعلموني - في استطاعتي

دائماً أن أقرضكم مبلغاً صغيراً يعينكم على تجاوز الأزمة "

قال أومارا، الذي لم يكن يعرف طريقة أخرى للتعبير عن تقديره عن تلك اللفتة الرقيقة غير المتوقعة " سوف أوصلك إلى المنزل، إذا شئت"

" شكراً، لكني أفضِّل الآن أن أنفرد بنفسي. فمن يدري ... ". وبهذا انطلق أوزيكي بخطى مهرولة.

قلت، حالما أغلق الباب خلف أوزيكي " ماذا عن ذاك الفتى إيكنز الذي كنت تحكي لنا عنه؟ "

قال أومارا، وهو يرسم أمامنا إحدى ابتسامات أوزيكي، " سوف أحكيها لكم في وقت آخر "

قالت مونا، وهي تسير متوجهة إلى الحمّام، " إنها لا تحتوي على كلمة حقيقية واحدة "

قال أومارا " معك حق، لقد اختلقتُها "

قلت " هيا، يمكنك أن تحكي لي أنا "

قال " حسن، ما دمت تريد الحقيقة، فهي لك. أولاً، لم يكن هناك شخص اسمه إيكنز - لقد كان أخي. كان مختبئاً بعض الوقت. أتذكَّرُ أني حكيت لك ذات مرة كيف هربنا معاً من ملجأ للأيتام؟ حسن، لقد مرَّت عشر سنوات - وربما أكثر - منذ أن تقابلنا آخر مرة. كان هو قد ذهب إلى تكساس وأصبح راعي بقر. إن كان هناك من إنسان طيب فهو. ثم حدث أن تشاجر مع أحدهم - لابد أنه كان سكران - وقتلَ الرجلَ "

رشف رشفة من الخمر البنديكتي، ومن ثم تابع " إنَّ كل ما حكيته

لك كان صحيحاً، فيما عدا أنه طبعاً لم يكن مخبولاً. والرجل الذي جاء طلباً له كان حارساً جوالاً. لقد بثَّ فيَّ الذعر حتى الموت، أؤكد لك. مهما يكن، خلعتُ ملابسي، كما أمرني، وسلّمتُ الثياب لأخي. كان أطول قامة مني وأضخم جثة بكل المقاييس، وكنت أعرف أنه لن يتمكن من ارتدائها. لكني أعطيتها له وعاد أدراجه إلى الحمّام ليرتدي الملابس. وتمنيت لو أنه يتحلّى بما يكفي من الحس ويهرب من خلال النافذة. ولم أفهم لِمَ يمنحه الحارس الجوال كل ذاك الوقت، ومن ثم تصورّت أنه من تكساس فإنَّ له أسلوبه الخاص في التصرُّف. مهما يكن، فجأة خطرت لي فكرة لامعة أنْ أندفعَ خارجاً إلى الشارع وأنا عار وأزعق " جريمة قتل! جريمة قتل! " بأعلى ما تقوى عليه رئتاي. ووصلت حتى الدرج وهناك تعثَّرتُ بالبساط وانطرح الشاب الضخم فوقي مباشرة، وأطبق إحدى يديه على فمي وجرَّني عائداً إلى الغرفة. وقال " تريد أن تتحاذق، يا سيد؟ " وهو يصفعني برفق على فكي. " والآن إذا كان أخوك ذاك قد فرَّ من النافذة فلن يبتعد كثيراً. إن رجالي ينتظرونه خارج المنزل مباشرة "

في تلك اللحظة دخل أخي الغرفة هادئاً كعهده دائماً. بدا بتلك البذلة كأحد مخلوقات السيرك العجيبة - كان شعره كله محلوقاً.

قال " لا فائدة يا تد، لقد أوقعوا بي "

صحت " ومن أين سأحصل على ملابس؟ "

قال " سوف أعيدُ إليكَ البذلة بالبريد حال وصولنا إلى تكساس "، ثم أدخلَ يده في جيبه وأخرجَ بعض أوراق النقد المجعّدة، وقال " ربما تساعدك هذه لبعض الوقت. لقد أسعدني أن أراك ثانية. اعتنِ بنفسك". وبهذا غادر "

" وماذا حدث بعد ذلك؟ "

" حكموا عليه بالسجن مدى الحياة "

" لا! "

" نعم! ويمكنك أن تضع اللوم على زوج أمنا ابن الحرام ذاك. فلو لم يرسلنا إلى ملجأ الأيتام لما حدث كل هذا "

" يا الله، يا رجل لا يمكنك أن تضع اللوم كله على ملجأ الأيتام "

" بل أستطيع! إنَّ كلَّ أمرٍ سيئ وقع لي بدأ منذ دخولي ملجأ الأيتام "

" ولكن ما نالك هناك لم يكن سيئاً جداً، اللعنة! والله أنا لا أفهم لمَ تتذمَّر طوال الوقت. خراء، إن كثيراً من الناس يصيبهم أسوأ من هذا ويخرجون من أزمتهم وهم على أحسن ما يرام. كفَّ عن وضع اللوم على زوج أمك من أجل كل بلاياك وفشلك. ماذا ستفعل بعد أن يفطس؟ "

" سأظل مع ذلك أضع اللوم عليه وأسبُّه. سوف أنكِّد عليه حياته حتى وهو في القبر "

" ولكن اسمع يا رجل، ماذا عن أمك؟ لا تنس أنها بدورها لها يد في الأمر. لا يبدو أنك حانقٌ عليها "

قال أومارا بمرارة " إنها شبه معتوهة، ولا يسعني إلاّ أن أرثي لحالها. ربما كانت تنفّذ الأوامر. لا، إني لا أكرهها. لقد كانت، بطريقة ما، ساذجة وطيبة القلب "

قال، وقد بدَّلَ جبهته فجأة " اسمع يا هنري، أنت لا يمكنك أبداً أن تفهم الوضع. لقد ولدتَ وملعقةٌ من الفضَّة في فمك، وكانت أحوالك رخيَّة طوال حياتك. وكنت أيضاً محظوظاً. وأنت موهوب. أما أنا

فنكرة. أنا ناشز. إني حاقد على العالم ... لعلي كنت أصبحتُ كاتباً بدوري، لو أتيحت لي الفرصة. ولكن واقع الحال هو أني أجهل حتى أن أتهجًى "

" لكنك بدون شك تعرف كيف تصورٍ "

قال " لا، لا تحاول أن تجمّلني. إن الخطأ يسربلني. ومهما فعلت ينتهي بي الأمر إلى إيذاء الناس. أنت الوحيد ممن أعرفهم الذي عاملته بكياسة، أتعلم هذا ؟ "

قلت " دعك من هذا، إنك تزداد عاطفية. اشرب كأساً أخرى! "

قال " أنا ذاهب لأنام، وسأحلم بالأمر "

" تحلم به؟ "

" طبعاً، ألم تفعل ذلك قط - أن تحلم بمشكلتك؟ أغمض عينيك ورتِّب الحلّ الذي تريد. وحين تستغرق في النوم تحلم به بشكل صحيح. وبحلول الصباح يكون الطَعمُ السيئ في فمك قد زال ... لقد فعلتُ ذلك آلاف المرات. تعلمتُ هذا في ملجأ الأيتام "

" يا لملجأ الأيتام! ألن تنساه أبداً يا رجل؟ لقد انتهيتَ منه. انقضى... حدث منذ قرون عديدة. ألا تستطيع أن تُخرِجهُ من رأسك؟ "

" تقصد أن تقولَ إنه لا يكفُّ عن الحدوث "

مرًت بضع دقائق لم يتكلم خلالها أي منا. وراح أومارا يخلع ملابسه بهدوء ومن ثم اندسَّ في فراشه. وأطفأت الأنوار وأشعلتُ الشمعة. وبينما أنا واقف هناك عند الطاولة، أفكر في كل ما دار بيننا، سمعته يقول بصوت خافت " اسمع ... "

قلت " ماذا ؟ "، وحسبتُ للوهلة الأولى أنه يوشك أن يجهشَ بالبكاء.

" أنت لا تفهم نصف الأمر يا هنري. إنَّ أسوأ جزءٍ كان انتظارُ أمي كي تأتي وتراني. وتمرُّ الأسابيع، ثم الشهور، ثم السنون. ولا أثرَ لها. كانت تصلني مرة كل فترة طويلة رسالةٌ أو طَرْدٌ صغير. ووعودٌ لا تنتهي. كانت تعِدُ بأن تأتي في عيد الميلاد أو عيد الشكر، أو في عطلةٍ ما قادمة. لكنها لم تأتِ أبداً. وتذكَّرْ أنهم حين أرسلانا إلى هناك لم أكن قد تجاوزت الثالثة من عمري. كنت بحاجة إلى الحنان. ولم تكن الراهبات سيئات. بل إنَّ بعضهُنَّ، في الواقع، كان يستحق العبادة. لكن تقبيلهن لم يكن يشبه تقبيل الأم. وكنت أعصر ذهني جاهداً كي أخرج بوسيلة للهروب. وكل ما خرجتُ به كان أن أهرع إلى بيتنا وأطوِّق عنق أمي بذراعيّ. لقد كان معدنها طيباً، لعلمك، لكنها ضعيفة. ضعيفة بالمعنى الأيرلندي للكلمة، مثلي. سهلة القياد. لا شيء يزعجها. لكنني أحببتُها. وازدادَ حبي لها مع مرور الوقت. وحين أتيحَتْ لي فرصة للهروب قفزتُ عليها مثل مهرٍ جامح. وكانت غريزتي تدفعني نحو البيت، لكنني بعد ذلك فكَّرت - قلت ربما يعيدونني إلى الملجأ! وهكذا اكتفيت بالترحال - إلى أنْ وصلتُ إلى ولاية فرجينيا وقابلتُ الدكتور ماكيني ... أنت تعرفه، عالِمْ الطيور "

قلت " اسمع يا تد، الأفضل أن تخلدَ إلى النوم وتحلم بالأمر حتى تتخلَّص منه. ويؤسفني أني بدوتُ لكَ معدومَ الحساسية. أعتقد أني كنت سأشعر مثلك لو كنت في مكانك. خراء، غداً يومٌ آخر. فكِّر فيما يواجه أوزيكي! "

" هذا بالضبط ما كنت أفعله. هو أيضاً ابن حرام وحيد. ويريد أن يقرضنا نقوداً! يا إلهي، لابد أنه في وضعٍ سيئ "

في تلك الليلة لجـأتُ إلى النوم وأنا مـصـمم على أن أطيحُ بفكرة ملجأ الأيتـام اللعين من رأس أومـارا. إلاّ أني كنت طوال الليـل أتخيّلني ممتطيـاً متن دراجـة التشـمنتـيز العـتيـقة كـالمجنون، أو وأنا أعـزف على البيـانو. وأحيـاناً كنت أتـرجّل وأعزف لحناً وأنا في عَـرْض الطريق - في الأحلام ليس من الصـعب أن تعـزف على البيـانو وأنت تمتطي دراجـة - فقط في حياة اليـقظة تقابلُكَ صعوبةُ تنفيـذِ مثلِ هذه الأمـور. وفي مكان يُدعَى استراحةُ بدفورد، غيَّرتُ مكانه بشكلٍ مـلائم في الحلم، مررتُ بألذّ اللحظات. هذه البـقعـة، التي تقع في منتـصف الطريق إلى كوني آيلند على دربِ مسارِ الدراجات الشهير الذي كان يبدأ في أحد أطراف حديقة بروسبكت، كـان يتـوقف عندها كل سائقي الدراجات ليـأخذوا قسطاً من الراحـة إمـا فـي طريق توجـههـم إلى الجزيـرة أو عـودتهـم منهـا. هنا، تحت تعريشـات وشـعـريات، ومـيـاه نافـورة تتـراقص فـي مـركز الخلوص[٣٩]، كنا نسـتـرخي، ويتـفـحَّص كـل منا دراجـة الآخر، ويتـحسَّس بعضنـا عـضـلات بعض، ونتبادل التدليك، وتُسنَد الدراجات إلى الأشجار وإلى الأسيجة. كـان كـل شيء يبدو على أحسن مـا يرام، كل شيء يلمع، وكل شيء في أفـضل حال. وكان براون الشـعبي، هكذا كنا ندعـوه، وهو الحَكَمْ الكبيـر. كـان أكبـرنا سناً بمقدار ضـعف عـمر أغلبنا - ولكن كـان في مـقدوره أن يجـاري أفـضلنا. وكـان دائمـاً يرتدي كنزةً صـوفيـةً غليـظةً سـوداءَ اللونِ ويعـتـمرُ قلنسوةً طويلةً سوداءَ مُحكَمَة على الرأس؛ وكـان وجـهه نحـيلاً، حادَّ التقـاطيـع، ومـسفـوعـاً جداً إلى حد السـواد. وكنـت دائمـاً أقـول عنه "فـارس الليل ". كـان ميـكانيـكياً فـي مهنتـه، ومـولعـاً بسبـاق الدراجـات.

٣٩ - الخلوص : فسحة فارغة من الأرض بين شيئين .- المترجم .

كان رجلاً بسيطاً، قليلَ الكلام، لكنَّ الجميعَ كان يحبه. وهو الذي أغراني لأنضمّ إلى الميليشيا لكي أتمكن من التسابق على أرض مصنع الأسلحة الممهّدة. وفي أيام السبت والأحد أكون واثقاً من أني سأقابل الشعبي في مكانٍ ما على طولِ دربِ الدراجات. كان، إن صح التعبير، عرّابي في مجال السباق.

أعتقدُ أنَّ الوجهَ اللذيذَ لهذه الاجتماعات كَمُنَ في أننا جميعاً كنا مشتركين في شَغَفٍ واحد. ولا أذكر أننا تناقشنا قط في أي أمر آخر غير قيادة الدراجات. كان في إمكاننا أن نأكل، ونشرب وننام ونحن نمتطي الدراجة. وفي مناسباتٍ عدة، في ساعاتٍ غير متوقعة من النهار أو الليل، كنت أقابلُ سائقَ دراجةٍ وحيدٍ يكون، مثلي، قد استَرَقَ ساعةً أو اثنتين ليطير على طول ذلك الدرب المحصّى السلس. وكنا بين حين وآخر نمرُّ برجلٍ يمتطي صهوة جواد. (كان هناك دربٌ آخر لراكبي الخيول يجري موازياً مسار الدراجات) هذه الظواهر التي تنتمي إلى عالمٍ آخر كانت بعيدة تماماً عنا، مثل الحمقى الذين يركبون السيارات. أما سائقو الدراجات فكانوا ببساطة non compos mentis (مختلّين عقلياً).

كما قلت، كنت أعيش كل هذا من جديد من خلال الحلم، وحتى تلك اللحظات اللذيذة عند نهاية الركوب حين أعمل، كراكبِ دراجةٍ مُتَمرِّس، على قلبِ الدراجةِ رأساً على عقب لأنظّفها وأزيّتها. وكان يجب أن يُنَظَّف كلُّ شعاعٍ على حِدة وحتى اللمعان؛ وأن تُشَحَّم السلسلةُ وأن تُملأ أكواب الزيت، وإذا كانت الدواليب منحرفة فيجب أن تصحَّح. وبهذه الطريقة تصبح دائماً في حالة تسمح بركوبها دون سابق إنذار. وهذا التنظيف والتلميع كان يحدث في الفناء، أمام الواجهة الأمامية.

وكان عليَّ أن أمدُّ أوراق صحف على الأرض استرضاءً لأمي التي كانت تعترض على إحداث بقعِ الشحم على البلاط الحجري.

في الحلم أقود الدراجة بسلاسة ويسر إلى جانب براون الشعبي. وكان من عادتنا أن نسير بسرعة بطيئة لمسافة ميل أو اثنين لكي نتسامر وأيضاً لكي نقوم بالتحمية استعداداً للاندفاع الأعظمي اللاحق. ويُحدِّثني الشعبي عن العمل الذي سيدبره لي، كميكانيكي. ويعدني بأن يعلِّمني كل ما أحتاج إلى معرفته. ويسليني هذا الكلام لأنَّ الأداةَ الوحيدةَ التي أعرفُ كيف أستخدمُها هي مفتاحُ ربطِ الدراجة. ويقول الشعبي إنه كان يراقبني مؤخراً وأنه قد توصَّلَ إلى نتيجة مفادها أني شاب ذكي. وهو قلق لأنه يبدو أني دائماً عاطل عن العمل. وأحاول أن أخبره أني سعيدٌ لأني عاطلٌ عن العمل لأني عندئذ أستطيع أن أمتطي متن الدراجة أكثر، لكنه يزيح هذه النقطة جانباً لأنه لا علاقة لها بالموضوع. ويُصَمِّم على أن يجعلَ مني ميكانيكياً من الطراز الأول. ويؤكد لي أنَّ هذا أفضل من مهنة صانع الغلايات. ثم يحذِّرني قائلاً " عليك أن تستعد من أجل السباق السريع الذي سيُقام في الشهر القادم. اشرب كثيراً من الماء، قدر ما تستطيع ". واعلم أن قلبه أصبح يسبِّب له متاعب مؤخراً، وأن الطبيب يرى أن عليه أن يتخلّى عن ركوب الدراجة لبعض الوقت. ويقول الشعبي " أفضِّل الموت على أن أفعل ذلك ". وننتقل من مسألة إلى أخرى، وإلى قضايا صغيرة أليفة، مناسبة لإجراء حديثٍ بين راكبي دراجات. وتهبُّ ريحُ مزعجة وتبدأ أوراق الشجر بالتساقط؛ أوراقٌ بنّية اللون، ذهبية، حمراء، وجافة مثل الصوفان، تُحدِث صوتَ تكسُّر مُهَدْهِدْ حين نجري عليها بخفّة. ونكون قد بدأنا نحمي، ونستعد للانطلاق بشكل ممتع.

فجأة يندفع الشعبي متقدِّماً في أعقاب دراجة أخرى مسرعة. ثم يدير رأسه ويصرخ: " إنه جو فولغر! ". فأندفع كخفَّاش خارج من الجحيم. جو فولغر! وَلَوْ، إنه أحد المشتركين القدامى في سباق الستة أيام. وأتساءل ما هي السرعة التي سيجعلنا نلجأ إليها. وسرعان ما أدهش إذ أرى الشعبي يندفع كالسهم، يجرّني وراءه، وجو فولغر قد أصبح ورائي " أنا ". ويخفق قلبي بعنف. هاهنا ثلاثةٌ من سائقي الدراجات الأشاوس: هنري فال ميللر، وبراون الشعبي. وجو فولغر. وأتساءل، أين إدي روت، وفرانك كريمر؟ أين أوسكار إيغ، ذلك البطل السويسري المقدام؟ ويغوصُ رأسي بين كتفيَّ مثل كرة؛ وتفقدُ ساقاي الإحساس، وأصبح كلِّي خفقان ووجيب. كل شيء متناسق، ويتحرك بسلاسة، بتناغم، مثل ساعة معقَّدة.

فجأة نصل إلى شاطئ المحيط. متعادلون. ونلهث كالكلاب، لكننا أيضاً نضرون مثل أزهار الربيع. ثلاثة من فرسان المضمار المحنَّكين. ثم ترجَّلتُ وقدَّمني الشعبي إلى جو فولغر العظيم. ويقول جو فولغر، وهو يقيّمني من رأسي إلى قدميَّ " شابٌ رائع. هل هو يتدرَّب للاشتراك في الحدث الأكبر؟ ". وفجأة يأخذ يتحسَّس فخذيَّ وربلتيَّ ساقيَّ، ويقبض على ساعديّ، ويشدُّ على عضلات مؤخر الفخذ. " سوف يحقق نتيجة عالية - صنفٌ جيد ". وأبتهج أيَّما ابتهاجٍ حتى أني أحمرُّ خجلاً وكأني تلميذ مدرسة. وكل ما أحتاجه الآن هو أن أقابلَ فرانك كريمر ذات صباح؛ وسوف أقدِّم له مفاجأة حياته.

نتمشّى قليلاً بخطى متمهِّلة، ونحن ندفع بالدراجات معنا بيدٍ واحدة. كم تكون الدراجة ثابتة حين تقودها يدٌ ماهرة! ونجلس لنشرب

بيرة. وفجأة أراني أعزف على البيانو، فقط لإدخالِ السرورِ إلى قلبِ جو فولغر. وأكتشفُ أنه إنسان عاطفي؛ وأحكُّ رأسي وأفكِّر ماذا يوافق هواه. وبينما أنا أداعبُ أصابعَ البيانو العاجيّة انتقلنا، كما لا يحدث إلاّ في الأحلام إلى أرضِ التدريبِ في مكانٍ ما في نيو جرزي. هنا يستقر أصحابُ السيرك لقضاء فصلِ الشتاء. وعلى الفور، رأيت جو فولغر يقوم بحركات لولبية، مُقدِّماً عَرْضاً مُرعباً، خاصة حين ينتصب عند المنحدر الكبير. وكان المهرجون يتجولون في المكان بألبستهم الغريبة الكاملة، بعضهم يعزف على الهارمونيكا، والبعض الآخر يقفز على الحبل أو يتدرَّب على السقوط.

سرعان ما تجمَّع حشدٌ حولنا، وفكّكوا دراجاتنا قطعاً وقاموا بالخدع، على طريقة جو جاكسن. وكل ذلك بالحركات الإيمائية، بالمناسبة. وكدت أبكي لأني لن أتمكن أبداً من إعادة تجميع دراجتي ثانية. لقد تجزّأت إلى قطع كثيرة جداً. ويقول لي جو فولغر العظيم: لا عليك يا بني، سوف أعطيك دراجتي. وسوف تفوز بسباقات كثيرة بها! "

لا أذكر كيف حدث ودخل هيمي على الخط، لكنه فجأة أصبح هناك ويبدو عليه اكتئاب جمّ. وأعلمني أنَّ ثمةَ إضراباً يجري، وأنَّ عليَّ أن أعود إلى المكتب بالسرعة القصوى. سوف يحشدون كل سيارات الأجرة في مدينة نيويورك لتسليم البرقيات والبرقيات الكبليّة إلى أصحابها. وأعتذرُ من براون الشعبي ومن جو فولغر لتركهما بهذا الشكل الفظ. أغوصُ في سيارةٍ كانت في انتظاري. وأثناء اختراق نفق هولند يغلبني النعاس وأجدني مرة أخرى على درب الدراجات. هيمي إلى جانبي يقود دراجة منمنمة، يبدو أشبه بالرجل السمين المرسوم على إطارات ميشلان.

ولا يكاد يقدر على دفعها، فهو شديد الالتواء لا شيء أسهل عليّ من أن أرفعه من مؤخر العنق، مع الدراجة وكل شيء، وأحمله معي. والآن هو يدير الدواسات في الهواء. ويبدو سعيداً ككلب. يريد أن يأكل شطيرة هامبرغر ويشرب مخفوق الحليب المملّت. وعلى الفور يلبّى طلبه. فبينما نحن نواصل القيادة على الطريق العريضة، أختطف شطيرة هامبرغر مع مخفوق الحليب، وأنقُفُ نحو الرجل قطعةَ نقْدٍ بيدي الأخرى. وعلى أرض سباق الخيل نمتطي مباشرة الـ shoot-the-shoots [٤٠] بسهولة التحليق في الفضاء. ويبدو على هيمي الآن شيء من الحيرة، ولكن ليس الخوف. فقط الحيرة.

ذكَّرته " لا تنسى أن ترسل بعض بيانات الشحنات إلى مكتب AX في الصباح "

ويناشدني " انتبه يا سيد.م كدتَ تغوصُ في المحيط في تلك المرة "

والآن، يا إلهي، بمَنْ سنلتقي مُصادفةً، سكرانَ مثل البابا، غير صديقي القديم ستيسيو. لقد تسرَّحَ لتوه من الجيش، وساقاه ما زالتا مقوستين من تدريبات سلاح الفرسان.

ويسأل بفظاظة " مَنْ هذا القزم الذي معك؟ "

إن من طَبْع ستيسيو أن يبدأ حديثه بكلمات نارية، وكان يجب دائماً أن تهدأ غلواؤه قبل أن تتمكن من التحدُّث إليه.

يقول " أنا مسافر هذه الليلة إلى تشاتانوغا؛ يجب أن أعود إلى الثكنات "، وبهذا يلوِّح لنا بيده مودِّعاً.

---

٤٠ – توجد عادة في السيرك أو في المسابح العامة : منزلق مائي ينزلق عليه الناس على متن مقعد أو قارب صغير لينزلوا بحركة دورانية منزلقة نحو بركة من الماء . – المترجم

ويسأل هيمي ببراءة " أهو صديق لك يا سيد.م؟ "

أجيب " هو؟ إنه مجرد بولوني مجنون "

" أنا لا أحب البولونيين يا سيد. م إني أخافهم "

" ماذا تعني؟ إننا في الولايات المتحدة الأميركية، تذكّر هذا! "

يقول هيمي " لا فرق. البولوني هو البولوني في أي مكان. لا يمكن الوثوق منهم ". وكانت أسنانه في الواقع قد بدأت تصطك.

يضيف بنبرة تفطر القلوب " يجب أن أعود إلى المنزل الآن. سوف تتساءل زوجتي أين أكون. هل لديك وقت؟ "

" حسن، فلنسلك نفق المشاة إذن. سنصل هكذا بشكلٍ أسرع "

يقول هيمي، وهو يرسم لي ابتسامة متكلّفة، " ليس بالنسبة إليك يا سيد. م "

" هو كما تقول يا بني. أنا بطل، فعلاً. راقبني وأنا أنطلق ... ". وبهذا انطلقَ إلى الأمام كقذيفةٍ صاروخيّة، تاركاً هيمي واقفاً في مكانه وذراعاه مرفوعتان وهو يصرخ بي أن ارجع.

الشيء التالي الذي أعرفه أني كنت أوجِّه مسار سيارات الأجرة، قافلة كاملة منها، وأنا قاعد على السرج. أرتدي كنزة بخطوط غليظة، وأحمل بيدي مكبِّر صوت وأوجِّه مسار حركة المرور. وبدا أن المدينة بأكملها تفسح لنا الطريق، مهما كانت الوجهة التي أشير إليها. وكأني أمتطي متن البخار. ومن فوق قمة مبنى شركة الهاتف الأميركية يرسل رئيس الجمهورية ونائب الرئيس الرسائل؛ وتطفو جداول من أشرطة البطاقات في الهواء. وكأنَّ لينغبرغ[41] عائدٌ إلى أرضِ الوطن. السهولة

---

٤١ – لعل المقصود هنا هو الطيار تشارلز أوغستوس ليندبرغ (١٩٠٢ – ١٩٧٤) الذي قطع المحيط الأطلسي بدون توقف طيراناً في عام ١٩٢٧ . – المترجم

التي أدور بها حول السيارات، وأنطلقُ داخلاً وخارجاً ومحافظتي دائماً على تقدُّمي عليها بمقدار قفزة، مردُّه إلى كوني أُمتطي دراجةَ جو فولغر القديمة. إن ذلك الرجل يعرف دون شك كيف يعامل الدراجة. إنه التدريب! أي تدريب أفضل من هذا ؟ فرانك كريمر نفسه لا يستطيع أن يقوم بما هو أفضل.

إنَّ أفضلَ جزءٍ من الحُلم كان العودة إلى استراحة بدفورد. هناك كانوا مجتمعين ثانية، الفتيان كلهم بتجهيزاتهم المتنوعة، والدراجات مقلوبة رأساً على عقب وهي تلمع، والأسرجة على أحسن ما يرام، وكل الأنوف مرفوعة إلى أعلى، وكأنّها تشم النسيم. شيء ممتع أن أعود إليهم ثانية، أن أتحسَّس عضلاتهم، وأتفحَّص معداتهم. أوراق الشجر أضحت أكثر سماكة، والهواء أصبح الآن أكثر برودة. والشعبي يجمع شملهم، ويعدهم باستعداد أفضل هذه المرة ...

حين أعود إلى البيت في تلك الليلة - وهي دائماً الليلة نفسها مهما مضى من وقت - تكون أمي في انتظاري. قالت " لقد كنتَ اليوم ولداً طيباً، وسوف أسمح لك أن تأخذ دراجتك معك إلى السرير "

أهتف، وأنا لا أكاد أصدِّق ما سمعت، " أحقاً؟ "

قالت أمي " نعم، يا هنري، لقد كان جو فولغر هنا قبل بضع دقائق، وقد اخبرني أنك ستكون بطل العالم التالي "

" أقال هذا يا ماما ؟ لا، لستِ جادَّة؟ "

" نعم يا هنري، وكل كلمة قلتها. لقد قال إني يجب أولاً أن أسمِّنك قليلاً. تحتاج إلى وزن زائدة "

قلت " إني أسعد إنسان حي يا ماما. أريد أن أقبِّلك قبلة كبيرة"

قالت " لا تكن سخيفاً، أنت تعلم أني لا أحب هذا "

" لا يهمني يا ماما، سوف أقبِّلك مع ذلك "، وأعانقها وأشدُّ حتى أكاد أشقّها إلى نصفين.

" أأنت واثقة مما قلتِ يا ماما - بشأن اصطحاب الدراجة معي إلى السرير؟ "

" نعم، هنري. ولكن إياك أن تتركَ أيَّ شحمٍ على الملاءات! "

صرخت، وأنا أكاد أخرج عن طوري من فرط الفرح، " لا تقلقي يا ماما. سوف أمدُّ بعض أوراق الصحف القديمة تحتها. ما رأيك بهذا؟ "

استيقظتُ ورحتُ أتحسَّس مكان الدراجة، فصرخت مونا " ماذا تفعل؟ إنك تتشبث بي منذ نصف ساعة "

" كنت أبحث عن دراجتي "

" دراجتك؟ أي دراجة؟ لا شك في أنك تحلم "

ابتسمت " كنت أحلم فعلاً، وهو حلم لذيذ أيضاً ,وكله يدور حول دراجتي "

بدأت تضحك ضحكاً نصف مكبوت.

" أعرف، يبدو هذا سخيفاً، لكنه كان حلماً رائعاً. لقد قضيت وقتاً رائعاً "

صرختُ " هيه تد، أنت هنا؟ "

لا جواب. صرختُ من جديد.

غمغمت " لابد أنه قد غادر. ما الساعة الآن؟ "

إنها منتصف الظهيرة.

" أردت أن أقول له شيئاً. خسارة أنه غادر باكراً "، واستلقيتُ على

ظهري ورحت أحدِّق عالياً إلى السقف. كانت خُصَلٌ من الحلم تطفو في ذهني. وشعرتُ بشعورٍ ملائكي مريح. وبقدرٍ من الجوع.

غمغمت، ولا أزال مغموراً بالحلم، " أتدرين، أعتقد أني يجب أن أزور قريبي ذاك. لعلّه يعيرني الدراجة لفترة من الوقت. ما رأيك؟ "

" أعتقد أنك أبله قليلاً "

" ربما، لكني واثق من أني أحب أن أقوم من جديد بجولة عليها. لقد كانت تخصُّ متسابقاً في سباق الستة أيام؛ وقد باعها لي ونحن في المضمار، أتذكرين؟ "

" أخبرتني بهذا مرات عدة "

" ما بك، ألم أُثِرْ اهتمامك؟ أعتقد أنك لم تمتطي متن دراجة في حياتك، أليس كذلك؟ "

" لا، لكني امتطيت صهوة جواد "

" هذا لاشيء. إلاّ إذا كنتِ فارسةً متمرِّسة. حسن، خراء، أعتقد أنَّ من الحماقة أن أفكِّرَ في تلك الدراجة. لقد انصرمَتْ تلك الأيام وانقضت"

فجأة استقمْتُ جالساً ورحتُ أحدِّق إليها. " ما بك هذا الصباح؟ ماذا حلَّ بك؟ "

ابتسمت لي ابتسامة شاحبة وقالت " لا شيء يا فال، لا شيء "

ألححتُ " بل هناك شيء. لستَ على سجيتك "

قفزت خارجة من السرير. قال " ارتدِ ملابسك وإلا حلَّ الظلام سريعاً. سأحضِّر وجبة إفطار "

" عظيم. أنستطيع أن نتناول لحم خنزير وبيض؟ "

" أي شيء ترغبه. فقط أسرع! "

لم أرَ موجباً للإسراع، لكني نفَّذت ما طلبَتْ. كنتُ أشعرُ شعوراً رائعاً - وكنت جائعاً كذئب. وبين حين وآخر كنت أتساءل ما الذي يُقلقها. لعلَّ دورتها الشهرية قد حان موعدها.

من المؤسف أنَّ أومارا كان قد انصرفَ باكراً جداً. كان هناك شيء أردت أن أخبره به، شيء خَطَرَ على بالي وأنا أخرج من حالة الحلم. سوف يبقى، بدون شك.

أزحتُ الستائر وتركتُ أشعةَ الشمسِ تتدفقُ إلى الداخل. كان المكانُ أكثرَ جمالاً من أي وقتٍ مضى في ذاك الصباح، هكذا بدا لي. وعبْرَ الشارع كانت هناك سيارة ليموزين متوقفة عند حافة الطريق في انتظار أن تَقِلّ سيدةً راقيةً لتقومَ بجولةِ تبضُّعها. وكان هناك كالمعتاد كلبا صيد كبيران جالسين في المقعد الخلفي، بهدوء ووقار. وكان بائع الزهور يسلِّمها لتوه باقة كبيرة. أي حياة! أنا أفضِّل حياتي، مع ذلك. لو أستطيع فقط أن أستعيد الدراجة لكان كلُّ شيءٍ في القمة. لقد بقي الحلم بشكل ما عالقاً في الذاكرة. البطل! يا لها من فكرة طريفة!

ما كدنا ننتهي من تناول طعام الإفطار حتى أعلنَتْ مونا أنَّ عليها أن تقضي مشواراً خلال فترة بعد الظهر، وأنها ستعود، كما أكَّدت لي، مع حلولِ موعد وجبةِ العشاء.

قلتَ " لا بَأس بهذا، خُذي وقتك. لا حيلة لي، لكن لدي إحساسٌ رائعٌ يعصى على الكلام. لا يهم ماذا يحدث اليوم، سأظل أحتفظُ بشعوري الرائع "

ناشدتني قائلة " كفى! "

" آسف يا فتاتي، ولكن أنت بدورك ستشعرين بتحسُّن حالما تخرجين من باب الدار. وَلَوْ، الجو أشبه بالربيع "

خلال بضع دقائق كانت قد خرجت. وشعرت بفيضٍ من الطاقة حتى أني لم أستطع أن أقرر ماذا أفعل. وأخيراً قرَّرتُ ألاَّ أفعلَ أيَّ شيءٍ - أن أكتفي بالقفز إلى نفقِ المشاة لأخرج منه إلى ساحة تايمس. سوف أتمشى وليحدث ما يحدث.

وصلت خطأً إلى غراند سنترال، وأثناء مسيري على طول جادة ماديسون تملَّكتني فكرة أن أزورَ صديقي ند. لم أكن قد رأيتُهُ منذ زمنٍ بعيد. (كان قد عاد إلى العمل في مجال الدعاية والترويج) سوف أدخل عليه وأقول مرحباً، ومن ثم أنصرف في الحال.

انفجر هاتفاً " هنري! وكأنَّ الله ذاته أرسلك. إني في ورطة كبيرة! هناك حملةٌ كبيرةٌ تجري والكلُّ في البيت مَرْضَى. وهذا الشيء اللعين (ولوَّحَ بنسخة من شيءٍ ما) يجب إنهاؤه هذه الليلة. إنها مسألةُ حياةٍ أو موت. لا تضحك! أنا جاد. انتظر، دعني أشرح ... "

أجلسُ وأنصتُ. والمختصَر المفيد هو أنه كان يحاول أن يكتبَ مقطوعةً عن المجلة الجديدة التي سيطلقونها إلى السوق. وليست لديه إلاّ فكرة غامضة عهما سيكتب، ولا أكثر.

يتوسَّل إليّ " أنت تستطيع أن تقوم بالمهمة، أنا واثق. اكتب أي شيء، طالما أنَّ له معنى. أنا في ورطة، أؤكد لك. إنَّ العجوزَ ماكفارلند - أنت تعرف مَنْ أقصد، أليس كذلك؟ - هو خلف هذا العمل. إنه يتمشى جيئة وذهاباً في الداخل، ويهِّددُ بأنه سيطردنا من العمل إذا لم يتم الموضوع سريعاً "

لم يكن أمامي إلاّ أن أوافق. وأخذتُ منه المعلومات القليلة التي بحوزته، ثم جلستُ أمامَ الآلةِ الكاتبة. وسرعان ما انهمكت بعملٍ كادّ.

ولابد أني كنت أنهيت كتابة ثلاث صفحات أو أربع عندما دخل على رؤوس أصابع قدميه ليرى كيف يسير العمل: وأخذ يقرأ ما كتبت عبر كتفي. وسرعان ما راح يصفِّق بيديه ويهتف برافو! برافو!

سألته، بعد أن رفعتُ بصري إليه ولويتُ عنقي باتجاهه، " أهو جيد إلى هذا الحد؟ "

"أتسأل إن كان جيداً؟ إنه ممتاز! اسمع، إنك أفضل من الرجل الذي أنشأ هذا الشيء. سوف يطيش صوابه حين سيرى هذا ... ". ثم سكت فجأة، وأخذ يدلِّك يديه وينخر نخرات صغيرة. " أتدري؟ لدي فكرة. سوف أقدمك إلى ماكفارلند بوصفكَ الموظف الجديد الذي عيَّنته. سأقول له أني أقنعتُك بقبول الوظيفة ... "

" لكني لا أريد وظيفة! "

" لستَ مضطراً إلى قبولها. طبعاً لستَ مضطراً. أنا أريدُ أن أُهدِّئ من غليانه، هذا كل ما في الأمر. ثم إنَّ الهدفَ الرئيسيَّ هو أن تتحدث معه. أنت تعرف مَنْ يكون وكل ما فعله. ألا تستطيع أن تمنحه ما يهدِّئه؟ امدحه حتى الزبى! ثم انخرطْ معه في حديثٍ قصير - أنت تفهم ما أعني. أعطِه مؤشراتٍ حول كيفية إصدار مجلة، وكيف يلقى قبولاً عند القارئ، وكَل ذاك الخراء. وأكثر منه! إن مزاجَهُ يسمحُ له بابتلاع أي شيء "

قلت محتجّاً " لكني لا أكاد أعرف أي شيء عن الموضوع اللعين. اسمع، الأفضل أن تقوم بالأمر بنفسك. وسوف أساندك، إذا شئت "

قال ند " لا لن تفعل، سوف تجري الحديث. فقط انطلق بالكلام ... قُل أي شيء يخطر على بالك. وأؤكد لك يا هنري أنه عندما سيرى ما

كتبتَ فسوف يُنصتُ إلى أي شيء تقوله. إني أمارس هذا العمل بلا أي طائل، وأعرفُ الجيدَ حين أراه "

لم يبق أمامي إلاّ أمر واحد أفعله. وافقت. وهمست له ونحن نسير على أطراف أصابع أقدامنا باتجاه الـ sanctum sanctorum (قُدُس الأقداس).

قال ند بأفضل أسلوب لديه " سيد ماكفارلند، هذا صديقٌ قديمٌ لي أرسلتُ له برقيةً قبل أيام. كان في كارولاينا الشمالية يؤلِّفُ كتاباً، وقد ناشدته كي يأتي إلينا ويقدِّم لنا يد المساعدة. السيد ميللر. السيد ماكفارلند "

بينما نحن نتصافح انحنيتُ بلا وعي مني انحناءةَ احترامٍ للشخصيةِ العظيمةِ التي تمثِّلُ عالمَ المجلات. مرَّت برهة أو اثنتان دون أن ينطق أحدنا بكلمة. كان ماكفارلند يقيِّمني. ويجب أن أعترف أني أُعجبْتُ به على الفور. رجلٌ عملي، وقد كان ماكفارلند يتَّصف بمسحةٍ شاعريةٍ تأملية صَبَغَتْ كل إيماءاته. وقلت في نفسي " إنه لا يفتقر إلى الكفاءة، هذا مؤكَّد "، وأنا أتساءل في الوقت نفسه كيف حدث وسمحَ لنفسِهِ أن يُحاطَ بالخُرق والبلهاء.

شرَحَ ند بسرعة قائلاً إني وصلت قُبيلَ بضع دقائق وإني خلال تلك الفترة الوجيزة، ودون أن تكونَ لديَّ أيّ فكرة تُذكَرْ عن المشروع، كتبتُ الصفحات التي كان عندئذ يقدِّمها إليه.

سأل ماكفارلند، وقد رفع إليّ بصره وحاول في الوقت نفسه أن يقرأ، " أنت كاتب، أليس كذلك؟ "

أجبتُ مستخدماً الأسلوب الدبلوماسي، " أنت أفضل مَنْ يدرك هذا"

سادَ الصمتُ بضعَ دقائق كان خلالها ماكفارلند يتابع قراءة المنسوخ بعناية. وكنت أنا على أحرّ من الجمر. إذ لم يكن من البساطة بمكان خداعُ عصفورٍ مثل ماكفارلند. وقد نسيتُ، عَرَضاً، ما كنتُ قد كتبتُهُ؛ لم أعد أذكر سطراً واحداً.

فجأة رفع ماكفارلند بصره، وابتسم بودّ، وعلّقَ قائلاً إنَّ ما كتبتَهُ يبدو واعداً. وشعرتُ أن الفحوى الضمني يفوق كثيراً ما قاله. عندئذ أثار داخلي ما يقتربُ من الحب. وكادَ آخرُ ما يمكنُ أن يخطُرَ ببالي أن أخدعه. لقد كان رجلاً جديراً بأن أستمتع بالعمل معه - لو أني أنوي أن أعمل مع أي إنسان. ومن طرفِ عيني رحتُ أراقبُ ند وهو يعطيني إشارةَ البدء.

خلال برهةٍ عابرة، وبينما كنت ألملمُ نفسي استعداداً للانطلاق، تساءلت ماذا يمكن لمونا أن تقول لو أنها تشهد العرض. (" ولا تنسَ أن تخبرَ أومارا عن الآباء! " هكذا همستُ لنفسي)

كان ماكفارلند يتكلم. كان قد باشر بهدوءٍ جمٍّ وبسلاسةٍ حتى أني بالكاد انتبهت إليه. ومنذ البدء تملّكني من جديد إيمانٌ راسخٌ بأنه ليس نسخة مكررة من أحد. لقد قال عنه الناس أنه قد انتهى، وأنَّ أفكارَه قد استُهلكت. وكان يبلغُ الخامسةَ والسبعين من العمر، ولا يزال يستمر قوياً. إن رجلاً له مثل بصمته لا يمكن أن يُهزَم. وأصغيتُ إليه بانتباه، وأنا أهزُّ رأسي بين الفينة والأخرى، وكُلِّي إعجاب به. لقد كان من النوع الذي يجدُ هوى في قلبي. كان مقامراً ومتهوراً ... وتساءلتُ إن لمْ يكن من الجدير بي أن أفكِّر جدياً في العمل معه.

ألقى العجوز خطاباً طويلاً جداً، وعلى الرغم من كل الإشارات التي

كـان ند يرسلهـا لم أتمكن من التـقـرير مـتـى أنطلق. وكـان واضـحـاً أنَّ ماكفارلند رحَّبَ بتدخُّلنا؛ وكان يتمشّى جيئة وذهاباً، وهو يمور بالأفكار، ويعضّ على نواجذه. وقد أتاح له دخولنا عليه أن يتدفق وكنت متحمساً تماماً لتركه يسترسل. ورحتُ بين حينٍ وآخرَ أومئ برأسي بمزيدٍ من الحيوية أو أُطلق ما ينمُّ عن الدهشة أو الاستحسان. ثم إنه كلما أكثرَ من الكلام أصبحَ استعدادي أفضل حين يبدأ دوري.

ثم نهض واقفاً على قدميه، وأخذ يتنقَّل في المكان بقلق، مشيراً إلى اللوائح، والخرائط، وإلى كل ما هو معلَّق على الجدران. لقد كان رجلاً متآلفاً مع العالم، جابَ أرجاءَ الكرةِ الأرضيةِ مراتٍ عدة وفي استطاعتهِ أن يتحدَّثَ من مُنطلقِ معرفةٍ من الطراز الأول بها. لقد كان يحاول، كما فهمت، أن يثُيرَ إعجابي برغبتهِ في أن يتَّصل بكل شعوبِ العالم، الفقراء منهم والأغنياء، الجهّال والمثقفين. وكان من المقرر أن تصدُرَ المجلةُ الدورية بلغاتٍ متعددة، وبأشكالٍ متعددة. كان المقرر أن تُحدِثَ ثورةً في عالمِ المجلات.

فجأة توقف، بداعي التعب. وجلسَ على كرسيّ كبيرٍ وصبَّ لنفسه كأساً من الماء من إبريقٍ فضي جميل.

بدل أن أحاول أن أبيِّن له مبلغ ذكائي، انتهزت الفرصة بعد فترة صمت مهيب كي أخبره كيف أني طالما أُعجبتُ به وبالأفكار التي يدافع عنها. قلت هذا بصدق، وأنا متأكد من أنَّ كلامي كان أفضل ما يمكن الإدلاء به في تلك اللحظة. وشعرتُ بتململِ ند المتزايد. كان كل ما يشغل باله الكلامُ المنمَّقُ الذي عليَّ أن أنطق به. وأخيراً لم يعد يطيق صبراً.

" إن السيد ميللر يودُّ أن يقول بعض الأمور التي يرى أنَّ لها صلةً بـ... "

قلت، وأنا أقفز واقفاً على قدميّ، " لا أبداً ". وبدا الارتباك على ند. " أقصد يا سيد ماكفارلند أنَّ مِن السُخفِ أن أُدلي بأفكاري الفجّة. يبدو لي أنك قد غطّيتَ الموضوع من كل جوانبه "

كان ماكفارلند قد سُرَّ بشكلٍ واضح. ولما تذكَّرَ فجأة سببَ وجودي تناولَ المنسوخَ المُلقى أمامه وتظاهرَ بدراستهِ مرة أخرى.

سألني، وهو يوجِّه إليَّ نظرة مدققة طَوَيلة، " منذ متى وأنتَ تكتب؟ هل قمت بمثل هذا العمل من قبل؟ "

اعترفتُ بأني لم أفعل.

قال " هذا ما ظننته، وربما لذلك أعجبني هذا. إنَّ لديكَ وجهةَ نظرٍ جديدةٍ إلى الأشياء، وتمكُّن ممتاز من نواصي اللغة. ما العمل الذي بين يديك الآن، إن كان يحقُّ لي أن أسأل؟ "

أوقعني في الحَرَج. وربما أنه كان صريحاً ومباشراً لم يبق أمامي إلاّ أن أردّ على النار عن كثب.

تلعثمت قائلاً " الحقيقة هي أني قد بدأت لتوي بممارسة الكتابة وأجرِّب يدي تقريباً في كل مجال، ولكن لم يتبلور أي شيء حتى الآن. لقد ألّفت كتاباً قبل بضع سنين، ولكن أعتقد أنه كان كتاباً بائساً "

قال ماكفارلند " هكذا افضل، لا يهمني الكُتّاب الشبان اللامعون. إن المرء ليحتاج إلى مخزونٍ قبل أن يعبِّر عن نفسه. أقصد، قبل أن يكون لديه أي شيء حقيقي يقوله ". وراح يدقّ على أعلى الطاولة، وهو يتفكَّر. ثم أردف "أودّ في وقتٍ ما أن أرى إحدى قصصك. هل أسلوبك واقعي، أمْ تخيُّلي؟"

قلت وأنا مخلوع الفؤاد، " آمل أن يكونَ تخيّلياً "

قال " عظيم! هذا أفضل. قد نتمكن قريباً من أن نستعين ببعض قصصك "

لم أدرِ بالضبط بماذا أجيب عن هذا. ولحسن الحظ خفَّ ند إلى نجدتي.

" إن السيد ميللر متواضع يا سيد ماكفارلند. لقد قرأتُ تقريباً كل ما كتبه. إن موهبته مؤكَّدة. والحقيقة هي أنه يمكنني أن أقولَ إني أعتقدُ أنه عبقري "

قال ماكفارلند " عبقري، همم! إن هذا حتى أشدّ إثارة الاهتمام "

سألت " ألا تعتقد أنَّ من الأفضل أن أنهي كتابة النسخة؟ "، مخاطباً الرجل العجوز.

قال " لا تستعجل، لدينا الكثير من الوقت ... قل لي، ماذا كنت تعمل قبل أن تباشر الكتابة؟ "

أعطيته مُلخّصاً عن مغامرات عهد الصبا. وعندما بدأتُ بسردِ تجاربي في العالم الكوني المتعضّي انتصبَ في جِلستِه. وبدءاً من تلك اللحظة فصاعداً أخذ يقاطعني مراراً وتكراراً. ظل يحثّني على إيراد المزيد فالمزيد من التفاصيل. وسرعان ما نهض واقفاً على قدميه ثانية، وأخذ يتنقّل في المكان بخطوات واسعة متوحشة، وراح يستحثني " تابع، تابع! أنا منصت ". وكان يبتلع كل كلمة ألفظها بنهم. وطلب أكثر فأكثر، وظل يهتف " ممتاز! ممتاز! "

فجأة توقف أمامي جامداً " ألم تكتب عن هذا بعد؟ "

هزرتُ رأسي نفياً.

" عظيم! والآن، ماذا لو أنك تكتب لي حلقات مسلسلة ... أتعتقد أنَّ في مقدوركَ أن تكتبها بالطريقة التي حكيتَها لي قبل قليل؟ "

" لا أدري، يا سيدي. في وسعي أن أحاول "

" تحاول؟ هراء! نفِّذ يا رجل! نفِّذ دون تردُّد ... خذ! "، وسلَّمَ ند الصفحات التي كتبتها. " لا تدع هذا الرجل يضيِّع وقته على هذا الهراء. جِدْ شخصاً آخر يقوم به "

قال ند، وقد تملَّكَتْهُ البهجة وخيبة الأمل في وقتٍ واحد، " ولكن لا يوجد مَنْ يقوم به "

جأر ماكفارلند " إذن أخرج واعثر على شخصٍ ما؛ ليس من الصعب العثور على طابعين على الآلة الكاتبة "

قال ند " حاضر يا سيدي "

مرة أخرى اقترب ماكفارلند مني، وهذه المرة وهو يوجِّه إصبعه إلى وجهي مباشرة. قال، ويكاد يشخر الآن، " أما أنت، أيها الشاب، فأريدك أن تذهب إلى بيتك وتباشر كتابة تلك الحلقات المسلسلة هذه الليلة. وسنُطلقُكَ في العدد الأول. ولكن لا تريني براعتك الأدبية، أتفهم؟ أريدك أن تحكي حكايتك بالضبط كما رويتها لي قبل لحظات. هل تستطيع أن تمليها على كاتب اختزال؟ لا أعتقد. مؤسف جداً. كانت تلك أفضل طريقة لإخراج ما لديك. والآن اسمعني ... أنا لم أعد دجاجة نطَّاطة. لدي الكثير من التجارب وقابلتُ العديد من الرجال الذين يظنون أنفسهم عباقرة. لا تقلق بشأن ما إذا كنتَ عبقرياً أم لا. بل لا تفكِّر في كونك كاتباً. فقط تدفَّق - بيسرٍ وبشكل طبيعي - وكأنك تحكيه لصديق. سوف تحكيه لي أنا، أترى؟ أنا صديقك. أنا لا أعرف إن كنتَ

كاتباً عظيماً أم لا. وأنت لديكَ قصةُ جديرةٌ بالسردِ، وهذا ما يثير اهتمامي ... فإذا قمتَ بهذا العمل المنتظم بشكل مُرضٍ، فسوف أسند إليكَ عملاً أكثرَ إثارةً لتعالجه. يمكنني أن أرسلك إلى الصين، أو الهند، أو أفريقيا، أو أميركا الجنوبية - إلى حيث تشاء. إنَّ العالمَ فسيحٌ وثمة مكانٌ لأمثالك. إني مع بلوغي الحادية والعشرين كنت قد درتُ العالمَ ثلاثَ مرات. وبحلولِ عامي الخامس والعشرين كنت قد أتقنتُ ثماني لغات. ومع بلوغي عامي الثلاثين كنت أمتلك سلسلةً من المحالّ التجارية. وأصبحتُ مليونيراً مرتين. إنّ هذا لا أهمية له. لا تدع المال يشغل تفكيرك! وقد أفلستُ أيضاً - خمس مرات. أنا مفلس الآن "، وربَتَ على رأسه، " إذا كنتَ تتحلّى بالشجاعةِ والمخيّلةِ الخصبةِ فستجد دائماً أُناساً يقرضونَكَ المال ... "

ألقى نظرة حادة على ند، وقال " أنا جائع. هلا أرسلتَ مَنْ يُحضِر لنا بعض الشطائر؟ لقد نسيتُ أمرَ الغداء "

قال ند وهو يتوجه نحو الباب " سأُحضِرها بنفسي "

صرخَ ماكفارلند " أحضر ما يكفينا نحن الثلاثة، أنت تعرف ما أحب. واحضر أيضاً بعض القهوة - قهوة مُرَّة "

حين عاد ند وَجَدَنا نتابع حديثنا كصديقين قديمين، فغمرَتْ البهجةُ أساريرَهُ.

قلت " كنت أُخبر السيد ماكفارلند لتوي أني لم أَزُرْ قط كارولاينا الجنوبية "، فاكفهرَّ وجه ند. " ثم إنه يعرف المنزل الذي أقطن فيه بالذات. والقاضي الذي كان يمتلك الشقة - لقد اتضح أنهما صديقان حميمان "

قال ماكفارلند " أعتقدُ أني سأبعثُ بهذا الشاب إلى أفريقيا، بعد أن يكتبَ لنا تلك المسلسلة. إلى تومبكتو! يقول إنه طالما تاقَ إلى الذهاب إلى هناك "

قال ند، وهو يمدُّ الطعامَ على طاولةٍ كبيرةٍ ويصبُّ القهوة، " يبدو هذا رائعاً "

أردف ماكفارلند " أفضلُ وقتٍ للسفرِ هو حين تكونَ فتى، على ألاّ يكونَ معك إلاّ القليل من النقود. أذكرُ أني حينَ ذهبتُ إلى الصين ..."، وهنا بدأ يقضم إحدى الشطائر، " حين تنسى أن تأكل تعرف أنَّكَ على قيدِ الحياة "

كنت قد تأخرتُ ساعةً أو نحوها حين غادرتُ المكتب. كان رأسي يدور. وقد دفعني ند إلى أن أُقسمَ بأني سوف أُنهي نسخةَ المجلةِ في المنزل، سراً. وقال إنَّ العجوزَ قد أُولع بي دون شك. وفي الردهة، بينما كنتُ أنتظرُ المصعدَ، لحِقَ بي وقال " لن تخذلني، أليس كذلك؟ أرسلها إليّ هذه الليلة بالبريد الخاص. اسهَرْ عليها الليلَ كلَّه إذا اقتضى الأمر. شكراً لك! "، وشدَّ على يدي.

حين وصلتُ إلى المنزل كان الظلام يلفُّ المكان. وكنت من فرطِ الثمالةِ بالإثارةِ بحيث اضطررتُ إلى ابتلاعِ عدة أقداحٍ من الشيري لأخفِّف من إثارتي. وتساءلتُ ماذا ستقولُ مونا حين تسمع عن تفاخري. ونسيتُ تماماً أمرَ نسخةِ المجلةِ الموجودةِ في جيبِ معطفي - وكان كلُّ ما يشكِّل تفكيري هو تومبكتو، والصين، والهند، وبلاد فارس، وسيام، وبورنيو، وبورما، والدولاب العظيم، ودروب القوافل المغبرَّة، وعبق روائح الشرق الأقصى ومشاهده المميَّزة: القوارب، والقطارات، والسفن،

والجِمال، ومياه نهر النيل الخضراء اللون، ومسجد عمر، وأسواق الطرابيش، واللغات الغريبة، والأدغال، والمرج المشجَّر، و " تحلُّب " الأشجار، والشحَّاذون، والرهبان، والمشعوذون، وباعة الأدوية الزائفة، والمعابد، وهياكل الباغودا، والأهرامات. كان عقلي يدوِّم بحيث أنه إذا لم يظهر أحد قريباً فسوف أُجَنُّ.

جلستُ هناك، على الكرسي الكبير عند النافذة الأمامية، وضوءُ شمعةٍ يخفُقُ بنورٍ غيرِ ثابت. وفجأة أخذ الباب ينفتح ببطْ. كانت مونا. تقدَّمت مني، وأحاطتني بذراعيها وقبَّلتني بحنان. شعرتُ بدمعةٍ تجري على وجنتها.

" أما زلتِ حزينة؟ ما الأمر بحق الله؟ "

جواباً على هذا ارتمت على حجري. وفي الحال طوَّقتني بذراعيها. كانت تجهش بالبكاء. تركتها تبكي بعض الوقت، ورحتُ أواسيها بصمتي.

بعد قليل سألتها " هل الأمر بهذا السوء؟ ألا تبوحين حتى لي؟ "

" لا، يا فال، لا أستطيع. إنه فظيعٌ جداً "

شيئاً فشيئاً نجحتُ في استخلاصه منها؛ إنها عائلتها مرة أخرى. كان يجب أن تزور أمها. إنَّ الأمورَ تنتقلُ من سيئ إلى أسوأ. إنه شيء يتعلَّق برهنٍ ما - يجب تسديده في الحال وإلا فقدوا منزلهم.

قالت، ولا تزال تشهق، " لكنَّ المشكلةَ ليستْ هنا، وإنما في الطريقة التي تعامِلني بها. وكأني قذارة. إنها لا تصدِّق أني متزوجة. وتدعوني بالعاهرة "

قلت بغضب " إذن بحق المسيح فلنكفَّ عن القلق بشأنها. إنَّ أماً

تتكلم بهذه الطريقة لا يُتَوقَّع منها أي خير. على أي حال إنه أمرٌ غير معقول. من أين سنحصل على ثلاثة آلاف دولار على وجهِ السُرعة؟ لا شك في أنها مجنونة "

" أرجوك لا تتكلَّم بهذه الطريقة يا فال. إنك فقط تزيد الأمرَ سوءاً"

قلت " إني أمقتُها، ولا يهمني إنْ كانت أمك. بالنسبة إليّ هي مجرد عَلَقَة. فلتذهبْ وتُغرِق نفسها، تلك العاهرة العجوز الحمقاء! "

" فال! فال! أرجوك ... "، وعادت تبكي من جديد، بأعنف من ذي قبل.

" حسن، لن أتفوهَّ بكلمة واحدة أخرى. آسف لأني أطلقت العنان للساني "

في تلك اللحظة رنَّ جرس الباب، وتبعَتْهُ بضعُ دقاتٍ على زجاجِ النافذة. قفزتُ وهرعتُ لأفتحَ الباب. وكانت مونا ما تزال تبكي.

هتفتُ حين رأيت مَنْ كان يمثل أمامي " اللعنة عليَّ! "

" يجب أن تلعنَ نفسك، وأنت مختبئ عن صديقٍ حميم لك طوال ذلك الوقت. هاأنا أقطن في الجوار، ولا حسّ ولا خبر منك. أظنك ما زلت ابن الحرام القديم، أليس كذلك؟ ومع ذلك، كيف حالك؟ ألن أدخل؟"

كان آخر شخص أردت أن أراه في تلك اللحظة - ماكغريغور.

هتف " ما الأمر ... أمات أحدٌ؟ "، وقد رأى الشمعة ومونا رابضة في الكرسي الكبير، والدموع تسيل على وجهها. " أكنتما تتشاجران؟"، وذهب إلى مونا ومدَّ لها يده، لكنه غيَّر رأيه، وراح يداعبَ رأسَها. وغمغم، محاولاً أن يُظهِر شيئاً من التعاطف، " لا تدعيه يسبِّب لك

الحزن. يا له من شيء جميل تفعلانه في مثل هذا الوقت من النهار. هل تناولتما طعام العشاء؟ فكرتُ في أن أعرِّجَ عليكما وأدعوكما لتناول الطعام في الخارج. لم يخطر ببالي قط أني سألج منزل حِداد "

ناشدته " بحق الله، كفى! لمَّ لا تنتظر حتى أشرحَ لك "

قالت مونا " أرجوك يا فال، لا تقل أي شيء. سأكون على ما يرام حالاً "

قال ماكغريغور، وهو يجلس إلى جوارها ويتلبَّس هيئة المحترم، " هذه هي الطريقة المُثلى للكلام. لا شيء يكون سيئاً كما نتخيَّله "

" إكراماً للمسيح، هل نحن مضطرون إلى أن ننصت إلى هذا الخراء؟ ألا ترى أنها مضطربة؟ "

في الحال تبدَّلَ سلوكه. وقال برصانة بعد أن نهض واقفاً على قدميه، " ما الأمر يا هن، أهو خطير؟ آسف إن كنتُ أتدخَّلُ "

" لا عليك، فقط إلزم الصمت لبعض الوقت. أنا سعيد لمجيئك. لعلَّ فكرةَ الخروجِ لتناولِ الطعامِ تكون صائبة "

ناشدتنا مونا " اذهبا أنتما، أنا أفضِّل أن أبقى هنا "

باشر ماكغريغور بالقول " هل أستطيعُ أن أقدِّم أي مساعدة ... "

انفجرت بالضحك، وقلت " طبعاً تستطيع أن تقدِّم؛ اجمع لنا ثلاثة آلاف قبل حلول صباح الغد "

" يا إلهي يا رجل، أهذا ما يقلقكما؟ "، وسحبَ سيجاراً ضخماً من جيب صدرته وقضم طَرَفه. " حسبتُ أنَّ الأمرَ مأساوي "

قلت " كنت أمزح معك. لا، الأمر لا علاقة له بالمال "

قال ماكغريغور بمرح " في إمكاني دائماً أن أقرضك عشرة

دولارات. أما حين يتعلق الأمر بثلاثة آلاف دولار فأنت تتكلّم معي بلغةٍ أجنبية. لا أحد يمتلك ثلاثة آلاف دولار ويقرضها هكذا ببساطة، ألم تعرف هذا بعد؟ "

قلت " لكننا لا نريد ثلاثة آلاف دولار "

" إذن لمَ يبكي - القمر؟ "

قالت مونا " أرجوكما اذهبا واتركاني وحدي. هلاّ فعلتما؟ "

قال ماكغريغور " لن نفعل، إنَّ هذا لا يدلُّ على روحٍ رياضية. اسمعي يا فتاتي، مهما كان الأمر أُقسم أنه ليس بالسوء الذي تظنين. وتذكّري أنَّ هناك دائماً مخرجاً. هيا، اغسلي وجهك وارتدي ملابسك، هه؟ سوف أصحبكما إلى مطعمٍ جيد هذه المرة "

فجأة فُتِحَ الباب، وإذا بأومارا يظهر، ويبدو متورِّداً قليلاً، وكأنه كان ينقل المنَّ من السماء.

قال ماكغريغور محيّياً " كيف دخلت؟ آخر مرة وقع بصري عليك كانت أثناء مباراة في البوكر. وسلبتَ مني تسعة دولارات. كيف حالك؟"، ومدَّ له مخلبه.

عجّلتُ بالشرح " إن أومارا يسكنُ معنا "

قال ماكغريغور " الآن اتضح الأمر. إنَّ لديكما بحق سبباً للقلق. ما كنت لأثقَ بهذا الرجل حتى وهو برداء المجانين "

قال أومارا، وقد انتبه فجأة إلى وجود مونا مكوّمة في الكرسي الكبير، ووجهها مخطط بآثار الدموع، " ما الأمر؟ ما الخطب؟ "

قلت " لا شيء خطير، سأخبرك فيما بعد. هل تناولت طعام العشاء؟ "

قبل أن يتمكَّن من القول نعم أو لا صاح ماكغريغور: " أنا لم أدْعُهُ هو. يمكنه أن يأتي معنا طبعاً إذا دفع ما يتوجب عليه. لكنه ليس ضيفي "

اكتفى أومارا بالابتسام ببساطة على هذا الكلام. لقد كان مزاجه رائقاً جداً ولا يمكن تعكيره بقليلٍ من الكلام الساذج.

قال، وهو يتجه مباشرة إلى موضع الشيري، " اسمع يا هنري، لدي كلامٌ كثيرٌ أُفضي به إليك. عن أمورٍ رائعة. لقد أمضيتُ اليومَ نهاراً عظيماً "

قلت " وأنا أيضاً "

قال ماكغريغور " هل تمانع في أن أشرب بدوري كأساً؟ بما أن يومكما يا شباب كان رائعاً فقد يفيدني أن أشرب كأساً "

سأل أومارا " أأنتم خارجون لتناول طعام العشاء؟ لا أريد أن أفوه بكلمة إلى أن نستقر في مكانٍ ما. لدي الكثير لأفضي به، ولا أريد أن أفسده بطريقة مرتجلة "

تقدَّمت من مونا وقلت " أأنت واثقة من أنك لا ترغبين في المجيء معنا؟ "

قالت بوهن " نعم يا فال، أنا واثقة "

قال أومارا " أوه هيا، لدي أخبارٌ عظيمة لكم "

قال ماكغريغور " طبعاً، تمالكي نفسك. أنا لا أدعو الناس إلى تناول الطعام معي في كل يوم - خاصة في مطعمٍ جيد "

كانت النتيجة أن مونا وافقت أخيراً على أن ترافقنا. وجلسنا ننتظرها ريثما تُعِدُّ نفسها. وشربنا المزيد من الشيري.

قال ماكغريغور " أتدري يا هن، أعتقد أنَّ في وسعي أن أخدمك. ماذا تفعل في هذه الأيام؟ تكتب، فيما أعتقد. ومفلس، هه؟ اسمع، نحن بحاجة إلى طابعٍ على الآلة الكاتبة في مكتبنا. الراتب ليس مجزياً، لكنه قد يساعدك على التغلُّب على مصاعبك. أقصد، ريثما يبرز اسمك "، وأنهى كلامه هذا بنظرةٍ شذراء وضحكة خافتة.

ضحك أومارا في وجهه. " طابع على الآلة الكاتبة! هاو هاو! "

قلت " هذه لفتة طيبة جداً منك يا ماك، لكني في الوقت الحاضر لست بحاجة إلى وظيفة، لقد عُرِضَتْ عليّ واحدة كبيرة اليوم "

زعق أومارا " ماذا؟ يا إلهي، لا تقُل هذا! لقد دبَّرتُ لك لتوي واحدة - وهي جميلة أيضاً. هذا ما أردتُ أن أبلغك به "

قلت شارحاً " إنها ليست بالضبط وظيفة؛ هو تكليف. طُلبَ مني أن أكتبَ حلقات مسلسلة لمجلة جديدة. وبعد ذلك قد أذهب إلى أفريقيا، والصين، والهند ... "

لم يقوَ ماكغريغور على تمالك نفيه، فانفجر قائلاً " دعكَ منها يا هنري، ثمة مَنْ يحاول أن يستغلك. الوظيفة التي أتحدث عنها تجلبُ لكَ مبلغ عشرين دولاراً في الأسبوع. إنه مبلغ محترم. اكتب مسلسلتك على الهامش. فإذا نجحَتْ، لن تخسرَ شيئاً. صح؟ ولكن بحق يا هنري، ألست راشداً بما يكفي لتعرف أنه لا يمكنك أن تتَّكل على مثل تلك الأشياء؟ متى ستكبر؟ "

الآن أدلَتْ مونا بدلوها: " ما هذا الذي أسمعه عن وظيفة؟ إنَّ فال لا يريد وظيفة. وكلامكم هراء، كلكم "

ألحَّ ماكغريغور قائلاً " هيا بنا، لنذهب. المكان الذي سآخذكم إليه يقع في فلاتبوش. معي سيارة في الخارج "

تكوَّمنا داخلها وانطلقنا إلى المطعم. واتضح أنَّ صاحبَ المحلِ يعرفُ ماكغريغور حقَّ المعرفة. لعلَّه كان زبوناً لديه.

ذُهلتُ لدى سماعي ماكغريغور يقول: " اطلبوا كل ما تشتهون. وما رأيكم في أن نبدأ بشرب كوكتيل؟ "

سألته " هل لديهم نبيذ جيد؟ "

قال ماكغريغور " مَنْ الذي أتى على ذكر النبيذ؟ أنا أسألكم إن كنتم ترغبون في البدء بالكوكتيل "

" طبعاً أرغب. وأريد أيضاً أن أرى نوعَ النبيذ "

" هكذا أنت دائماً. دائماً تقفُ عائقاً في وجهي. حسن، هيا، أطلب نبيذاً إذا شئت. أنا لا أَقْرَبُهُ أبداً. إنه يفسد معدتي "

قَدَّموا لنا أولاً حساءً طيباً ومن ثم جاء لحم البط الغض المشوي برائحته الذكية. ونعق ماكغريغور قائلاً " ألم أقل لكم إنه مكان جيد؟ متى خذلتُكَ، قُل لي، يا ابن الحرام ... إذن فوظيفة طابع على الآلة الكاتبة لا تليق بك؟ "

قالت مونا بحدَّة " فال كاتب، وليس طابعاً على الآلة الكاتبة "

قال ماكغريغور " أعرف أنه كاتب، ولكن على الكاتب أن يأكلَ مرةً كلَّ حين، أليس كذلك؟ "

ردَّت قائلة " هل يبدو عليه أنه يموت جوعاً؟ ما الذي تحاول أن تفعله، أترشونا بوجبتك اللذيذة؟ "

قال ماكغريغور، وقد ثار غضبه " لو كنتُ مكانك لما خاطبتُ صديقاً وفياً بهذا الأسلوب. إنَّ كل ما أردتُهُ هو أن أضمنَ تحسُّن حاله. لقد عرفتُ هنري حين لم يكن يجلسُ مسترخياً هكذا "

قـالت مونا " تلك الأيام مَضَتْ وانقضت. وما دمتُ معه فلن يجوعَ أبداً "

أجاب ماكغريغور بحدَّة " عظيم! لا أرغب في سماع ما هو أفضل من ذلك. ولكن هل أنت واثقةٌ من أنك ستتمكَّنين دائماً من إعالته؟ ماذا لو أن شيئاً قد وقع لك؟ مـاذا لـو مرضتِ؟ "

" كلامك هراء. لا يمكن أن أمرض "

" كثير من الناس فكَّروا مثلك، ومع ذلك وقع المحظور "

ناشدته قائلاً " كفـاك نعيبـاً. اسمع، قل لنا الحقيـقة. لمَ أنت شـديد التوق إلى إسناد هذه الوظيفة إليّ؟ "

رسم ابتسامـة عريضة، وهتف " أيها النادل! مزيداً من النبيذ! "، ثم أطلـق ضـحكة خـافـتـة، " إني عـاجـز عـن أن أقـدِّم لك أي شيء، أليس كذلك يا هنري؟ تقـول إنك تريـد الحـقيـقة. والحـقيـقـة هي أني أردتُكَ أن تقـبلَ الوظيـفـةَ لأحتـفظَ بكَ قـريبـاً مني. إنـي أشتـاق إلـيك. والواقع، إنَّ الوظيفةَ لا تقدِّمُ لك إلاّ خمسـة عشر دولاراً في الأسبوع؛ وكنت أنوي أنن أُضـيفَ إليـها خمسةً أخرى من جيبي الخاص. فـقط لمتعـةِ الاحتـفـاظ بكَ قـريباً منـِي. فقط لأُنصِتَ إلى هذيانك الحمـاسي. لا يمكنكَ أن تتصـوَّرَ كم أنَّ أولئك العـاملين في مـضـمـارِ القـانون أناسٌ مملُّون. إنـي في أغلبِ الأحيان لا أفهمُ عمَّا يتحدثون. أما عن العمل، فليس هنـاك منه الكثير. كان في إمكانك أن تكتبَ كلَّ القصص التي تريد - أو مـهما كان العمل اللعين الذي تقوم به. أنا جادّ. في الحقـيـقة لقد مرَّ أكثرُ من عـامٍ منذ أن رأيتُكَ آخرَ مـرة. في أول الأمـر تألمتُ كـثـيـراً. ثم قلتُ في نـفـسي، إلى الجـحيم، لقد تـزوج وانتهى. أنـا أعـرف مـعنى هذا ... إذن فـأنت جادٌ في

شأن الكتابة، هه؟ حسن، عقلُكَ في رأسِكَ تعرفُ خلاصَكَ. إنها لعبة قاسية، ومن يدري فقد تغلبهم. أنا نفسي أقَلّبُ هذه الفكرة أحياناً. طبعاً أنا لم أعتبر نفسي قط عبقرياً. وحين أرى الخراء الذي يُنثَر في كل مكان أتصوَّر أنَّ لا أحدَ يفتش عن عبقري، وصدِّق أو لا تصدِّق، إنه مثل لعبة القانون. لا تظن أنَّ الأمرَ كان سهلاً! إنَّ العجوزَ كان أعقلَ من أيٍّ منا. لقد أصبحَ صابّاً للحديد، وعاشَ أكثرَ منا جميعاً، ذاكَ الأبله العجوز "

تدخَّلَ أومارا قائلاً " عفواً يا شباب، هل لي أن أقول كلمة على الهامش؟ هنري، إني أحاول أن أقولَ لكَ شيئاً منذ ساعة أو أكثر. لقد قابلتُ اليومَ شاباً مولعاً بعملك، وسدَّدَ رسم الاشتراك في " النقوش التظليلية " لمدة عام ... "

هتف ماكغريغور " نقوشٌ تظليلية؟ عمَّ يتحدث؟ "

" سنحكي فيما بعد ... تابع، تدا "

كانت قصة طويلة، كالمعتاد. وكان واضحاً أن أومارا لم يتمكن من النوم بعد حديثنا عن مصحِّ الأيتام. وانغمس في التفكير في الماضي، ومن ثم في كل شيء تحت الشمس. وعلى الرغم من أنه لم يَنَمْ إلاّ أنه نهضَ مبكراً، تملؤه الرغبة القيام بعملٍ ما. فحزم مخطوطاتي - المجموعة كلها - في حقيبته الصغيرة، وانطلقَ وفي نيَّته أن يُمسِكَ بأولِ رجلٍ يصادِفُهُ في طريقه. ولكي يغيِّرَ مسارَ خطِّه قرر أن يتوجَّه إلى مدينة نيو جرزي. وأول مكان تعثَّرَ فيه كان فناءً لتخزين الأخشاب. وكان الريِّس قد وصل لتوه وهو في مزاجٍ طيب. قال أومارا " وانقضضتُ عليه مثل طنٍ من حجارة القرميد، ورفعته عالياً. وأقول لك الحق، لا أدري ماذا

كنتا أقول له. كل ما أعرفه هو أنه كان يجب أن أبيعه ". واتضح أنَّ تاجرَ الأخشاب كان من المعدن الطيب. وهو لم يفهم أي شيء مما يحدث، لكنه وَعَدَ بالمساعدة. وقد نجحَ أومارا بطريقةٍ ما في نقلِ الموضوعِ كلّه إلى مستوى شخصي جداً. لقد كان يبيع للرجل صديقه الوفي هنري ميللر، الذي يؤمن به. والرجل لم يكن يأبه مطلقاً بالكتب وما شابه غير أن إمكانية مساعدة عبقري ناشئ، ويا للغرابة، وجدَتْ هوى لديه. قال أومارا " وهمَّ بتحريرِ شيكٍ للاشتراك، عندما خطر لي أنْ أدفعَهُ إلى فعلِ ما هو أكثرَ من ذلك. فأودعْتُ الشيك جيبي أولاً، طبعاً، ومن ثم أخرجتُ مخطوطاتك. وَضَعْتُ الكميَّةَ كلها على طاولة مكتبه، أمامه مباشرة. وعلى الفور أراد أن يعرفَ كم استغرقَ منكَ كتابةَ هذا الكم الهائل كله من الكلام. فقلت له ستة أشهر. فكاد يقع عن كرسيه. وطبعاً أخذتُ أُسرِعُ في الكلام لكي لا يباشر في قراءة تلك الأشياء اللعينة. وبعد قليل استندَ إلى ظهر كرسيه الدوار وضغط على زر. فظهر سكرتيره، وأمره قائلاً " أخرِجْ ملفّات الحملة الدعائية التي قمنا بها في العام الفائت كلها "

لم أتمالك نفسي من القول " أنا أعرف ما الذي سيلي "

" انتظر قليلاً يا هنري، دعني أكمل. الآن يأتي الخبرُ الطيب "

تركته يتابع على غير هدى. وكما توقعت، كانت وظيفة. كل ما في الأمر أني لم أكن مضطراً إلى أن أذهب إلى المكتب في كل يوم؛ كان في إمكاني أن أقوم بالعمل وأنا في المنزل.

قال أومارا " طبعاً سيتوجَّب عليك أن تقضي بعض الوقت معه بين حينٍ وآخر؛ إنه يتحرَّق للُقياك. وزيادة على ذلك، سوف يدفعُ لكَ مبلغاً محترماً. ويمكنك أن تحصلَ على خمسةٍ وسبعين دولاراً في الأسبوع على

الحساب، كبداية. فما رأيك؟ أنت مرشَّح لأن تحصِّل على ما بين خمسةَ إلى عشرة آلاف دولار قبل أن تملَّ من الوظيفة. النتيجة مضمونة. كنتُ سأقبلُها لو أني أُحسِنُ الكتابة. وقد أحضرتُ بعضَ الخراء الذي يريد منك أن تراجعه. في استطاعتك أن تكتب ذلك الشيء بيدك اليسرى "

قلت " يبدو رائعاً. لكنَّ عرضاً آخر قُدِّمَ إليّ اليوم. أفضَلَ منه "

انزعجَ أومارا لسماع هذا.

قال ماكغريغور " يبدو لي يا شباب أنكم مستغنون عن خدماتي "

أعلنت مونا " كل هذا حماقة "

قال أومارا " اسمعي، لمَ لا تدعيه يكسب بعض المال بشرف؟ الأمر لن يستغرق أكثر من بضعة أشهر. وبعد ذلك في إمكانك أن تفعلي ما تشائين "

رنَّت كلمة بشرف في أذن ماكغريغور. فسأل " وماذا يفعل الآن؟ "، ثم التفت نحوي. " حسبتك تمارس الكتابة. ما الأمر يا هنري، ماذا تنوي أن تفعل الآن؟ "

أعطيته ملخّصاً موجزاً للوضع، وجعلته يبدو دقيقاً قدر الإمكان إكراماً لمونا.

قال " للمرة الأولى أرى أن أومارا على حق؛ لن تتوصَّل إلى أي شيء بهذه الطريقة "

قالت مونا بدون تفكير " أتمنى منكم يا شباب أن تهتموا بشؤونكم الخاصة "

قال ماكغريغور " هيا، هيا، كفاكِ تعالياً علينا. نحن أصدقاء قُدامى لهنري، ولن نمنحه نصيحة غير نصوح، أليس كذلك؟ "

أجابت " إنه ليس بحاجة إلى نصيحة؟ هو يعرف ما يفعل "

" حسن يا أختي، تصرَّفي إذن على طريقتك! ". وبهذا عاد يلتفت إليّ على عجل، " ماذا كان ذاك العرض الآخر الذي بدأتَ بذِكْرِهِ؟ ذاك الخاص - بالصين، والهند، وأفريقيا ... "

قلت " أوه، ذاك "، وابتسمت.

" ما الداعي إلى إبداء خجلك؟ اسمع، قد تحتاج إليّ كسكرتير. سوف أتخلى عن القانون في الحال إذا وجدت أيَّ شيءٍ يمكنني أن أتشبَّث به. أنا جادّ يا هنري "

استأذنَتْ مونا لتُجري اتصالاً هاتفياً. وكان هذا يعني أنَّ سماعها لأي كلمة أخرى حول موضوع " العرض " سوف يُثيرُ أقصى درجات تقزّزها.

قال أومارا " ماذا ألمَّ بها؟ لماذا كانتْ تبكي عندما وصلتْ إلى المنزل؟ "

قلت " لا شيء يستحق الذكر. مشاكل عائلية. أعتقد أنَّ لها صلة بالنقود "

قال ماكغريغور " إنها فتاة غريبة الأطوار. لا أظنُّكَ تمانعُ في أن أقول هذا، أليس كذلك؟ أعلمُ أنها تُكرِّس نفسها لأجلك وكل ذلك، لكن أفكارها كلها عفنة. سوف تُعيقُ تقدُّمك إذا لم تنتبه "

كانت عينا أومارا تلمعان. غرَّدَ قائلاً " أنت لا تعرف نصف ما يجري، ولهذا كنتُ متحمساً هذا الصباح لأفعل شيئاً "

" اسمعوا يا شباب، كفّوا عن القلق عليّ. أنا أعرف ماذا أفعل "

قال ماكغريغور " اللعنة على ما تفعل! أنت تقول هذا منذ أن

عرفتك - فإلى أين وصلت؟ إننا كلما تقابلنا نجدك غارقاً في ورطة جديدة. وذات يوم سوف تطلب مني أن أدفع لك كفالة لأخرجك من السجن "

" حسن، حسن، ولكن دعنا نرجئ الحديث عن الأمر إلى وقت لاحق. هاهي قادمة - فلنغيِّر الموضوع. لا أريد أن أكدِّرها أكثر من اللازم - لقد كان يومها صعباً بسبب ذلك "

تابعت كلامي دون توقف، وأنا أنظر إلى أومارا مباشرة " وهكذا فقد حصلتَ في الحقيقة على العديد من الآباء ". وكانت مونا تغوص في مقعدها. " وكما كنت أقول قبل لحظة ... "

قال ماكغريغور " ما هذا - أكلامٌ مراوغ؟ "

قلت، دون أن أحرك ساكناً، " ليس بالنسبة إليه. كان ينبغي أن أشرحَ الحديثَ الذي تبادلناه في ليلة البارحة، لكنّه طويلٌ جداً. على أية حال، وكما كنتُ أقول، حين خرجتُ من الحلم عرفتُ تماماً ماذا عليّ أن أقول لك " (وكنت أنظر بثبات إلى أومارا طوال الوقت) " إنه لم يكن له أي علاقة بالحلم "

قال ماكغريغور، وقد تولاه الغضب الآن، " أي حلم؟ "

قلت " الحلم الذي فسَّرته لك لتوي. اسمع، دعني أكمل حديثي معه، أتسمح؟ "

نادى ماكغريغور " أيها النادل! اسأل هؤلاء السادة ماذا يرغبون في أن يشربوا، ممكن؟ ". وقال لنا - " أنا ذاهب لأتبوَّل "

قلت مخاطباً أومارا " الأمر كما يلي، إنك محظوظ لأنك فقدت والدك وأنت طفل. والآن في استطاعتك أن تبحث عن والدك الحقيقي -

ووالدتك الحقيقية. إنَّ من الأهم أن تعثرَ على والدكَ الحقيقي على أن تعثر على والدتك الحقيقية. لقد عثرت حتى الآن على عِدَّة آباء، دون أن تدري ذلك. أنت إنسان ثري، يا رجل. فلمَ تبعثُ الموتى من قبورهم؟ أنظر إلى الأحياء! خراء، هناك آباء في كل مكان، حولك وحواليك، آباء أفضلُ بكثيرٍ من ذاك الذي منحَكَ اسمَهُ أو ذاك الذي أرسلَكَ إلى الملجأ. ولكي تعثر على والدك الحقيقي عليك أولاً أن تكون ابناً باراً "

كانت عينا أومارا تتلألآن. وأخذ يحثّني: " تابع، كلامك مريح وإن كنت لا أفهم معناه "

قلت " لكنه بسيط. والآن انظر - خذني أنا، مثلاً. ألم تفكّر قط كم أنت محظوظ إذ قابلتني؟ أنا لست والدك، لكني أخٌ جيد جداً لك. هل أطرحُ عليكَ أية أسئلةً مُحرجةً حين تقدِّم لي نقوداً؟ هل ألحُّ عليك للبحث عن عمل؟ هل أقول أي شيء إذا قضيتَ نهارَكَ مستلقياً على السرير؟ "

سألت مونا، وقد سُرَّت رغماً عنها، " ما معنى هذا كله؟ "

أجبتها " أنت تعرفين تماماً عمَّا أتكلم. إنه بحاجة إلى الحب "

قالت مونا " كلنا نحتاج إليه "

قلت " إننا لا نحتاج إلى أي شيء، ليس بشكل مُلِحّ. نحن محظوظون، نحن الثلاثة. إننا نأكل كل يوم، وننام جيداً، ونقرأ كل الكتب التي ترغب في قراءتها، ونرتاد عرضاً مسلياً بين حينٍ وآخر ... ونحن نعيش معاً. والد؟ ما حاجتنا إلى والد؟ اسمع، إنَّ ذاكَ الحلم الذي رأيته حلَّ كل شيء - بالنسبة إليّ، أنا لم أعد بحاجة حتى إلى دراجة. يكفيني أن أحلمَ بين حينٍ وآخر بأني أمتطي واحدة! إنَّ ذلكَ أفضلَ من

الواقع. في الأحلام لا يُثقَب الإطار أبداً؛ فإذا حَدَثَ وثُقِبَ فليس لذلك أية أهميـة. ويمكنك أن تركب الدراجة طوال النهار وطوال الليل دون أن ينالك الإرهاق. لقـد كـان تد مُـحِـقّـاً؛ على المرء أن يتـعلّم أن يحلمَ بمشاكله... فلو لم أرَ ذلك الحلم لما قابلت ذلك الرجل ماكفارلند اليوم. أوه، أَنَا لم أخبرك عن هذا، أليس كذلك؟ حسن، لا بأس، سأحكيه لك في وقت لاحق؟ المهم في الأمر أنه أُتيحَتْ لي فرصةٌ لأكتب – لصالح مجلة جديدة. وأيضاً فرصةٌ لأسافر ... "

قالت مونا، وقد أضحت عندئذ كلها آذاناً صاغية، " أنت لم تخبرني أي شيء عن هذا. أريد أن أسمع ... "

قلت " أوه، يبدو جيداً ظاهرياً، ولكن شاءت الظروف أن يتّضح أنه إخفاقٌ آخر "

ألحَّت " لا أفهم، ماذا كان من المفترض أن تكتب له؟ "

" قصة حياتي، ولا أقلّ "

" ثم ...؟ "

" أعتقد أني لا أستطيع أن أفعل، ليس كما يريده مني، على أي حال "

قال أومارا " أنت مجنون "

قالت مونا، وقد حيّرها الأمر تماماً، " تعني أنك سترفض؟ "

" سأقلّب التفكير فيه أولاً "

قال أومارا " أنا لا أفهمك على الإطلاق؛ هاهي فرصة عمرك تتاح لك وأنت ... ولَوْ، إن رجلاً مثل ماكفارلند يمكنه أن يجعلك مشهوراً بين ليلة وضحاها "

قلت " أعرف، ولكن هذا بالذات ما أخشاه. أنا لست مستعداً

للنجاح بعد. أو بالأحرى لا أريد ذلك النوع من النجاح. وبيني وبينكم - سوف أكون صريحاً معكم إلى أقصى حد - أنا لا أعرف كيف أكتب. ليس بعد! لقد أدركتُ ذلكَ حالما قدَّم لي عَرْضَهُ بكتابة الحلقات المسلسلة. سيمرُّ وقت طويل قبل أن أعرفَ أن أقولَ ما أريدُ قولَه. ربما لن أتعلم أبداً. ودعوني أخبركم أمراً آخر ما دمت فيه ... لا أريد أي وظيفة بين حين وآخر ... لا وظائفَ خاصةً بالدعاية ولا وظائفَ صِحَافيّةٍ ولا أي نوعٍ من الوظائف. إنَّ كلَّ ما أطلبه هو أن أَظلَّ أبدِّد وقتي على طريقتي الخاصة. إني دائماً أخبركم يا ناس أني أعرف ماذا أفعل. أنا جادّ. قد لا يبدو هذا مفهوماً، لكنه أسلوبي أنا. ولا أستطيع أن أتبع أي أسلوب آخر، أتفهمون؟ "

لم يقل أومارا شيئاً، لكني شعرتُ بتعاطفه. ومونا، طبعاً، كانت تفيضُ بالفرح. كانت ترى أني أبخسُ نفسي حَقَّها غير أنها كانت مسرورة أيما سرور لأني لن أقبل الانخراط في الوظيفة. ومرة أخرى كرّرت ما كانت دائماً تقوله لي: " أريدك أن تفعل ما يحلو لك يا فال. لا أريدك أن تفكر في أي شيء آخر غير عملك. لا يهمني إن استغرق ذلك منك عشر سنوات أو عشرين سنة. لا يهمني إذا لم ينجح أبداً. فقط أكتب! "

سأل ماكغريغور، بعد أن عاد ليلحقَ بطرفِ نهايةِ الحديث، " ما هو ذاك الذي يستغرق عشر سنين؟ "

قلت، وأنا أبتسم له ابتسامة ودوداً، " أن أصبح كاتباً "

" أما زلت تتحدث عن هذا ؟ كفاك! أنت كاتب الآن يا هنري، كل ما في الأمر أنَّ لا أحدَ غيرك يعرفُ ذلك. هل انتهيتم من تناول الطعام؟

يجب أن أذهب إلى مكان ما. هيا بنا من هنا. سأوصلكم إلى المنزل "

خرجنا على عجل. كان دائماً في عجلةٍ من أمره، ماكغريغور هذا، حتى وهو ذاهب للاشتراك في لعبةِ بوكر، كما اتضح. قال، وكأنَّه يُخاطِبُ نفسه " إنها عادة سيئة، وأنا لا أربح أبداً أيضاً. ولو كان لدي عمل حقيقي أقوم به لربما تمكنت من التغلب على هذا الهراء. إنه فقط أسلوب في قتل الوقت "

سألته " لم أنت مضطرٌ إلى قتلِ الوقت؟ ألا تستطيع أن تمكث معنا؟ في إمكانك أيضاً أن تقتل الوقت بالثرثرة. أقصد، إذا كان لابد لك من أن تقتل الوقت "

أجاب برصانة " معك حق، لم أفكر في هذا قط. لا أدري، يجب أن أظلَّ أتحرَّك طوال الوقت. إنها نقطة ضعفي "

" أما زلت تمارس أي قدر من القراءة؟ "

ضحك. قال " أبداً، يا هنري. إني أنتظرك حتى تكتب لنا شيئاً. قد أعود عندئذ إلى مواصلة القراءة "، وأشعل سيجارة. ثم اعترف بشيء من الارتباك " أوه، إنني بين حين وآخر ألتقط كتاباً، لكنه لا يكون قط كتاباً جيداً. لقد فقدت كل حس بالتذوُّق. إني أقرأ بضعة أسطر لأستجلب النوم إلى عينيّ، هذه هي الحقيقة يا هنري، لم يعد في مقدوري الآن أن أقرأ دوستويفسكي، أو توماس مان، أو هاردي ، إلاّ بقدر ما أستطيع طبخ وجبة. ليس لدي الجَلَدْ ... ولا الاهتمام. إن المرءَ ليغدو موهناً بعد طول الطحن في المكتب. أتذكر، يا هن، كيف كنتُ أدرسُ ونحن أولاد صغار؟ يا مسيح، كم كنت طموحاً عندئذ. كنت مُهَيَّئاً لإحراق العالم. ألَمْ أكن؟ أما ألان ... أه، حسن ... لم يعد هناك

أي شيء يهم. في مجال عملنا لا أحد يهتم فيما إذا كنت قرأت دوستويفسكي أم لا. أما المهم فهو - هل تستطيع أن تربح القضية؟ وهنا دعني أقول لك إنَّ ربحَ قضيةٍ لا يتطلَّبُ منك الكثير من الذكاء. وإذا كنتَ حاذقاً كفاية، فإنكَ تنجحُ في تجنُّبِ دخولِ قاعةِ المحكمة، وتدع شخصاً آخر يقوم بالعمل القذر نيابة عنك. نعم، إنها القصة القديمة نفسها يا هنري. لقد سئمتُ الضربَ على هذا الوتر. إن مَنْ يرغبُ في إبقاء يديه نظيفتين لا ينخرط أبداً في مجال القانون. فإذا فعلَ فسوف يموت جوعاً ... كما ترى، إنني دائماً أزعجك بالقول إني ابن حرام كسول. أعتقد أني أحسدك. أنت دائماً تبدو أنك تقضي وقتاً ممتعاً. إنك تقضي وقتاً ممتعاً حتى وأنت تكادُ تموتُ جوعاً. إنني لا أقضي أي وقت ممتع. لم أعد أفعل ذلك. لا أدري لماذا أقدمتُ على الزواج. ربما لأسبِّب التعاسة لشخصٍ آخر. مذهلٌ كيف أتذمَّر. إنها مهما فعلتْ لأجلي أجده خطأً. وكل ما أفعله هو أن أنهالَ عليها بتوبيخي القاسي "

قلت، لأحثّه، " أوه كفاك. أنت لستَ بهذا السوء "

" ألست كذلك؟ يجب أن تعيش معي بضعة أيام. اسمع - أنا خسيس لعين لا أستطيع أن أعيش حتى مع نفسي - فما رأيك بهذا؟ "

قلت، وأنا أبتسم له ابتسامة عريضة، " لماذا لا تنحر نفسك؟ إنَّ الأمورَ حين تسوءُ إلى هذه الدرجة لا يكون هناك بديل "

صرخ " أنت تقول لي؟ إني أَفكر في هذا كل يوم. نعم يا سيدي "، وضربَ بقوةٍ على المِقْوَدْ مشدِّداً - " في كل يوم من أيام حياتي أتساءل إن كان يجبُ أن أواصل الحياة "

قلت " المشكلة هي أنك لست جاداً. إنَّ كلَّ ما عليك أن تفعله هو أن تطرحَ على نفسك هذا السؤال مرة واحدة وسوف تعرف "

قال محتجاً " أنت مخطئ يا هنري! الأمر ليس بهذه السهولة، ليته كان كذلك. ليت كان في استطاعتي أن أنقُرَ قطعةَ نقدٍ في الهواء وانتهى من الأمر "

قلت " ليس هكذا يُبَتُّ الأمر "

" أعرفُ يا هنري أعرف. لكنكَ تعرفني! أتذكَّرُ الأيام الخوالي؟ يا مسيح، لم أكن قادراً على اتخاذ قرار "، وضحك رغماً عنه. " هل لاحظتَ أنك كلما تقدَّمتَ في السن ترى الأمورَ تُحلُّ من تلقاء ذاتها؛ لا تعود تفكر فيما عليك أن تفعله مع كل خطوة تخطوها؛ تكفّ عن الشكوى "

كنا نقتربُ من بابِ المنزل. وتلكّأ وهو يودِّعنا. قال، وهو يعبثُ بدواسةِ الوقود، " تذكَّر يا هنري، إذا مررت بضائقةٍ فثمة دائماً عملٌ في انتظارك في راندال، شركة راندال وراندال. عشرون دولاراً منتظماً في الأسبوع ... لمَ لا تزورني مرة كل حين؟ لا تدعني أركض وراءك دائما!"

٤

يقول لوي لامبير " أشعرُ أنَّ بي طاقة رافعة مبهرة في نورها تمكِّنني من أن أنير بواسطتها عالماً بأكمله، ومع ذلك فأنا محبوس داخل ما يشبه المادة الجامدة ". هذا الإقرار، الذي يصدر عن بلزاك من خلال بديله، يعبِّر تعبيراً تاماً عن الألم السرِّي الذي كنت حينئذ ضحية له. وفي الوقت نفسه كنتُ أعيش حياتين متباعدتين، يمكن وصف إحداهما بـ " الدوامة المرحة "، والأخرى بالحياة التأملية. وحين أقومُ بدورِ الكيان النشط يتقبَّلني الجميع على علاّتي، أو على ما أبدو عليه؛ وحين أقوم بالدور الآخر لا يتعرَّف أحدٌ عليَّ، وأقلّهم تعرُّفاً عليّ هو أنا. ومهما بلغتْ درجة صفاء وفوضى تعاقب الأحداث، ثمة دائماً فترات فاصلة، توجد من تلقاء ذاتها، أفقدُ خلالها ذاتي بالتأمُّل. ويبدو أنه يكفيني بضع هنيهات من الابتعاد عن العالم حتى أستعيد ذاتي. ولكن يتطلَّبُ الأمر فترات أطول بكثير - من الانفراد بنفسي - لكي أكتب. وكما سبق وأشرتُ مراراً، إنَّ عملَ الكتابة لا ينتهي أبداً. ولكن الانتقال من سير العملية الداخلية إلى عملية الترجمة هو دائماً، وقد كان كذلك حينئذ دون أدنى شك، خطوةٌ عملاقة. واليوم غالباً ما يَصْعُبُ عليّ أن أتذكَّر زمان ومكان هذا التصريح أو ذاك، أن أتذكَّر إنْ كنتُ حقاً قد قلته

في مكانٍ ما أو إن كنت أنوي أن أصرِّح به في وقتٍ من الأوقات. وهناك نوعٌ عادي من النسيان ونوع آخر خاص؛ ومردٌّ هذا الأخير، في الغالب، إلى رذيلةِ عيشِ حياتين في وقتٍ واحد. وإحدى عواقب هذا الميل أنك تعيش كلَّ شيء مرات لا حصر لها. والأنكى من ذلك أنك مهما نجحتَ في النقل إلى الورق يبدو مجرد مُزقةً متناهية الصِغَر مما كتبته لتوِّك في رأسك. تلك التجربة اللذيذة المألوفة لدى الجميع، والتي تتراءى في الأحلام بقوة مُتلبِّسةٍ - وأقصد بذلك السقوطَ في وضعٍ مألوفٍ؛ كمقابلةِ الشخصِ نفسه مراراً عديدة، وطَرْقُ الشارع نفسه، ومواجهة الموقف المطابق نفسه - أقول إنَّ هذه التجربة غالباً ما تحدث لي في لحظات اليقظة. كم مِنْ مرةٍ أجهدتُ ذهني لأتذكَّر أين سبَقَ واستفدتُ من فكرةٍ معينةٍ، وضعٍ معيَّن، شخصيةٍ معينة! وأتساءل بهياج إن كان "ذلك" قد ظهر في مخطوطٍ ما أُتلفَ بعملٍ طائش. ومن ثم، بعد أن أكون قد نسيته تماماً، أعودُ فجأةَ فأتذكَّر أنه أحدُ الأفكارِ الدائمة التي أحملُها معي، وأخطُّها على الهواء، التي كتبتُها مئات المرات لتوي، لكني لم أودِعْهَا الورق. وأضعُ ملاحظةً لكي أدوِّنها في أولِ فرصةٍ مُتاحة، وأنفضُ يدي منها، أدفنها مرة وإلى الأبد. أضع الملاحظة - ومن ثم أنساها برشاقة ... وكأنَّ هناك نَغَمَين يسريان في وقتٍ واحد: واحدٌ للاستهلاك الخاص والآخر للأُذُن العامة. والصراع برمَّته يتركَّز في أنْ نَحشُرَ في تلك الأسطوانة العامة قَدْراً ضئيلاً جداً من مُستَخْلَص النغم الداخلي الدائم.

هذا الخصم الداخلي هو الذي اكتَشَفَهُ أصدقائي في سلوكي. وغيابُهُ، في كتاباتي، هو الذي أثار استنكارهم. وكنت أكادُ أرثي لهم.

ولكن كان بي مسحةً منحرفةً، منَعْتني من أن أهِبَ ذاتي الأصيلة. هذا "الانحراف " كان دائماً لسان حاله كما يلي: " اكشِفْ عن ذاتك الحقيقية وسوف يُمثِّلون بك ". و " هم " لا يُقصَد بهم أصدقائي وحدهم بل العالم.

وذات مرة بعد ردحٍ طويل من الزمن قابلتُ مخلوقاً شعرت أنَّ في وسعي أن أهِبَ له نفسي كاملة. من المؤسف أنَّ مثل تلك المخلوقات لم تكن توجد إلاّ في بطون الكتب. كانت بالنسبة إليّ أسوأ من الموتى - فهي لا توجد أبداً إلاّ في الخيال. أه، كم من حواراتٍ أقمتُها مع أرواحٍ شقيقة، طيفية! أحاديث تبحث في الروح، لم أسجِّل منها سطراً واحداً. والحق، أنَّ تلكَ " الإدانات المسبقة "، كما اخترت أن أصيغها، كانت تتحدى التسجيل وتُصاغ بلغةٍ لا وجود لها، لغة شديدة البساطة، والمباشرة، والشفافية، بحيث كان من العُقم استخدام الكلمات. وهي أيضاً لم تكن لغة صامتة، كالتي تُستخدم غالباً للتواصل مع "الكائنات الأرقى ". بل كانت لغةَ ضجيجٍ وصخبٍ - صخب القلب، ضجيج القلب. لكنها دون صوت. فإذا استحضرت دوستويفسكي، فإنه يكون "دوستويفسكي بأكمله "، إن صح التعبير، الرجل الذي كتب الروايات، والمذكرات، والرسائل التي نعرفها، بالإضافة إلى الرجل الذي أيضاً نعرفه من خلال ما لم يقله، ولم يكتبه. كان النموذج والنموذج الأصلي يتكلمان، إن صح التعبير. وكانت دائماً لغة قديمة، رنّانة، صادقة؛ ودائماً تتَّسِمُ بما يشبه الموسيقى التي لا يرقى إليها الشك، سواء أكانت مسموعة أم غير مسموعة، سواء أكانت مسجَّلة أم غير مسجّلة. لغة لا يمكن أن تصدر إلاّ عن دوستويفسكي.

غالباً كنت بعد مثل تلاطم الأفكار هذا العنيف بصورة تعصى على

الوصف أجلس أمام الآلة الكاتبة معتقداً أنَّ اللحظة المناسبة قد حانت أخيراً. وأقول لنفسي " الآن في وسعي أن أنطق! ". وأجلس هناك، أخرس، لا آتي بأي حركة، أنجرف مع الدفق العلوي. وقد أبقى جالساً هكذا على مدى ساعات طوال، مستغرقاً تماماً في عالم آخر، غائباً تماماً عن كل ما يحيط بي. ومن ثم، أجفل مستيقظاً من حالة الانتشاء بفعل صوتٍ أو عنصرٍ دخيلٍ غير متوقع، وأنظر إلى الورقة الفارغة، وأطبع ببطء ومعاناة جملة، أو ربما عبارة، وعلى الأثر أجلس وأحدِّق إلى تلك الكلمات وكأنها كُتِبَت بيدِ شخصٍ آخر. وعادةً يصلُ شخصٌ ليفُكّ السحر عني. فإذا كانت مونا فإنها طبعاً تدخل فجأة بحماسٍ (وتراني جالساً أمام الآلة الكاتبة) وتناشدني كي أدعها تُلقي نظرة على ما كتبتُ. أحياناً أبقى جالساً، ولا أزال شبه مُخدَّر، مثل إنسانٍ آلي بينما تحدِّق هي إلى الجملة، أو العبارة الصغيرة. وأجيب على تساؤلاتها المنذهلة بصوتٍ فارغ، خاو، وكأني بعيدٌ ناءٍ، أتكلم من خلال مكبِّر صوت. وفي أوقات أخرى أقفز مثل عفريت العلبة لأخرج من الموقف وألقي عليها كذبة هائلة (حول أني أخفيت " الصفحات الأخرى "، على سبيل المثال)، وأبدأ أهذي كمجنون. وحينئذ يكون في استطاعتي أن أخرج بسيلٍ عارمٍ من الكلام! وكأني أقرأ في كتاب. وكل ذلك لأقنعها - بل ولأقنع نفسي! - بأني مستغرقٌ في العملِ ومُستغرقٌ في التفكير، مستغرقٌ في الخلق. وتُغدِقُ عليّ، وهي مذعورة، بالاعتذار لأنها قاطعتني في اللحظة غير المناسبة. فأقبل اعتذارها بخفّة، وبمرح، وكأني أقولُ - " وما هَمْ؟ إنَّ المَعينَ لا ينضَبُ ... كان في إمكاني أن أوجِّه الوضع كيفما شئت ... أنا حاوي، بحق ". ومن الكذبة أصنع حقيقة.

كنتُ ألفّها (عملي الموسيقي غير المكتمل) كمهووس - أفكارٌ رئيسية، أفكارٌ ثانوية، تنويعات، التفافات، فواصل - وكأنَّ الشيءَ الوحيد الذي كنت أفكر فيه طوال يومي الطويل هو الخلق. وطبعاً كان يرافق ذلك قدرٌ كبيرٌ من التهريج. ولم أكن أكتفي باختراع الشخصيات والأحداث، بل وأمثِّلُها. وتهتف مونا المسكينة: " أحقاً تضمِّن هذا كله القصة؟ أو الكتاب؟" (لم يكن أي منا، في مثل تلك اللحظات، يُحدِّد قط نوع الكتاب) فحين كانت تبرز كلمة كتاب كان يفترض دائماً أنه الكتاب المقصود ، إن صح التعبير، الكتاب الذي سأباشر بتأليفه قريباً - أو هو الكتاب الذي أؤلفه سراً، والذي لن أعرضَهُ عليها إلاّ بعد أن ينتهي. (كانت دائماً تتصرَّف وكأنها متيقِّنة من أنَّ هذا الكدح السرّي يجري. بل إنها كانت تتظاهر بأنها بَحَثَتْ في كل مكان عن المخطوط خلال فترات غيابي). لذا، لم يكن غريباً تماماً، في مثل ذاك الجو، أن تتمّ الإشارة بين حين وآخر إلى فصولٍ معيّنة، أو فقراتٍ معيّنة، فصولٍ وفقراتٍ لم يكن لها أي وجود، حتماً، ولكن تم " التسليم بوجودها "، وكانت تتّصف، دون شك، (بالنسبة إلينا)، بواقعيةٍ أكبر مما لو كانت مُدوّنة فعلاً. وكانت مونا أحياناً تُطلق العنان لنفسها في مثل هذا النوع من الأحاديث في حضورِ شخصٍ ثالث، مما كان يؤدي، طبعاً، إلى مواقف غريبة ومن أشدّها إحراجاً غالباً. فإذا تصادَفَ أن كان ألريك هو المستمع، لا يكونُ ثمة ما يسبب القلق. فقد كانت له طريقة خاصة في الاشتراك في اللعبة، ليست فقط تتسم بالشهامة، بل ومحفّزة. كان يعرف كيف يصحِّح زلة سيئة بطريقة فكهة مشجّعة. فمثلاً، قد ينسى وهلة أننا كنا نستخدم صيغة الحاضر وقد بدأنا باستخدام صيغة المستقبل. ("أعرف أنك "

سوف " تؤلف كتاباً مثل هذا ذات يوم! ") وبعدها بقليل، بعد أن يدرك خطأه، يضيف: " لم أقصد أن أقول " الذي ستكتبه" - أنا قصدت الكتاب الذي تكتبه " بالفعل " - ومن الواضح تماماً، أيضاً، أنك تكتبه، لأنَّه لا يمكن لأيٍ من مخلوقات الله على الأرض أن يجاريك في التحدث عن شيء لم يكن منهمكاً فيه بعمق. لعلي " أغالي " في التوضيح - ستسامحني، أليس كذلك؟ ". وكنا جميعاً، في مثل تلك الأوقات نستمتع في الاسترسال المريح. وكنا بحق نضحك ضحكاً صاخباً. وكان ضحك ألريك دائماً هو الأقوى - والأكثر قذارة، بعد إذنك. ويبدو من خلال ضحكه كأنه يقول " هو! هو! ألسنا حفنة رائعة من الكذابين! حتى أنا لا بأس بي في هذا المجال، وحق الله. وإذا مكثتُ معكما أنتما الاثنين أكثر من ذلك فسرعان ما سأنسى تماماً أني أكذب. هو هو هو! هاو هاو! ها! ها ها! هي هي! "، ويصفع فخذيه ويدير عينيه في محجريهما مثل زنجي، وينتهي بتلمُّظ شفتيه وبِطَلَبٍ أخرس لنُتفةٍ من الشنابس ... أما مع الأصدقاء الآخرين فلم يكن الأمر يسير سيراً حسناً. فقد كانوا يميلون بشدة إلى أن يطرحوا أسئلة " لا صلة لها بالموضوع "، على مونا. أو أنَّ تململهم وانزعاجهم يتزايدان، ويبذلون جهوداً مسعورة ليعودوا إلى الأرض الصلبة. وكان كرونسكي، مثل ألريك، يعرفُ كيف يمارس اللعبة. وكان يتبع في ذلك أسلوباً مختلفاً عن أسلوب ألريك، غير أنه كان يُرضي مونا. " كان في وسعها أن تثق به ". كنت أشعر أنَّ هذا ما تقنع به نفسها. ومشكلة كرونسكي هي أنه كان يُفرط في إجادة ممارسة اللعبة. لم يكن يرضى فقط بدور الشريك في الجريمة، كان يريدُ أيضاً أن يرتجل. وحماسه هذا، الذي لم يكن بالضبط

شيطانياً، أدى إلى إثارة نقاشات غريبة - نقاشات حول تقدُّم إنجاز الكتاب الأسطوري، طبعاً. وكانت اللحظة الحرجة دائماً تُعلِنُ عن نفسها بعاصفةٍ من الضحك الهستيري - صادرةٍ عن مونا. وكان هذا يعني أنها لم تعد تدري أين هي. أما أنا، فلم أكن أبذل أي مجهود لمجاراة الآخرين، لم أكن مهتماً بما يجري في عالم الادِّعاء ذاك. وكل ما كان يُطلَب مني أن أفعله هو أن أُحجِمَ عن الابتسام وأن أتظاهر بأنَّ كل شيء صحيح. وكنت أضحك حين أشعرُ برغبةٍ في ذلك، أو أدلي بنقدٍ أو بتصحيح، غير أني لم أكن بأي حال من الأحوال أفشي، لا بالكلام، ولا بالإشارة أو بالتلميح، أنها مجرد لعبة ...

* * *

كانت تبرزُ على الدوام حوادثُ صغيرةٌ غريبةٌ تمنع حياتنا من أن تغدو رخيّة بشكل رتيب. وأحياناً كانت تقع تباعاً، واحدة، اثنتان، ثلاثاً، مثل تطاير الألعاب النارية.

أولاً، حدث ذلك الاختفاء الغامض المفاجئ لرسائلنا الغرامية، التي كانت مخبَّأة في حقيبة تبضُّع ورقيّة كبيرة في أسفل دولاب الملابس. وقد استغرقَ منا أسبوعاً أو أكثر كي نكتشف أنَّ المرأةَ التي قامت بتنظيف منزلنا قد رَمَتْ بالحقيبة عَرَضاً في النفاية. وكادت مونا تنهار لدى سماعها النبأ. وأصرَّت قائلة " لابد من أن نعثر عليها! ". ولكن كيف؟ لقد كان جامع النفايات قد قام بجولاته. وحتى لو افترضنا جدلاً أننا عثرنا على المكان الذي رماها فيه، فسوف تكون عندئذ قد طُمِرَتْ تحت جبلٍ من الزبالة. ومع ذلك، وإرضاءً لها، استعلَمْتُ عن موقعِ تجميعِ النفايات. وتبرَّعَ أومارا بمصاحبتي إلى المكان. وكان جحيماً نائياً، أعتقد

أنه كان موقعاً في الفلاتلاندرز، أو ربما بالقرب من كارارسي - بقعة مهجورة تخيِّم فوقها سحابة كثيفة من الدخان. وحاولنا أن نحدِّد بدقّة المكان الذي كوَّم فيه الرجل نفاية ذلك اليوم. ولا شك في أنها كانت مهمّة مجنونة. لكنني كنت قد شرحت الوضع برمّته للسائق ونجحت بمحض قوة الإرادة في أن أقدحَ في وعيه البهيمي شرارةَ اهتمام. وبذل أقصى جهده ليتذكَّر، ولكن عبثاً. وانهمكنا، أومارا وأنا، وأخذنا، بمعيّة عصي تبدو أنيقة المنظر، بنبش الأشياء. واكتشفنا كل شيء تحت الشمس ماعدا الرسائل الغرامية الضائعة. وبذل أومارا أقصى ما في وسعه ليثنيني عن أن أصطحب معي إلى المنزل ملْ كيس من النثريات. أما هو فقد عثر على علبة غليون أنيقة، وإن كنتُ لم أدرِ ماذا كان ينوي أن يفعل بها، بما أنه لم يكن يدخِّن الغليون أبداً. وكان عليّ أن أرضى بمطواة ذات مقبض عاجي كانت شفرتها صدئة إلى حد أنها استعصت على الفتح. وأيضاً وضعت في جيبي مذكّرة لصنع شاهد قبر، من مدراء مقبرة وودلون.

استقبلَتْ مونا خبرَ فقدان الرسائل بشكل مأساوي. واعتبرَتْ الحادثة نذير شؤم. (بعد ذلك بسنين، حين قرأتُ ما حدثَ لبلزاك فيما يتعلّق برسائل محبوبته مدام هانسكا، عادت إليّ ذكرى هذه الحادثة بحيوية)

في اليوم اللاحق لزيارتنا لمقلب النفاية تلقيتُ زيارة غير متوقعة من ملازم أول في الشرطة في المنطقة المتاخمة لنا. وكان قد جاء يبحث عن مونا لكنها لحسن الحظ لم تكن موجودة في المنزل. وبعد تبادل بعض العبارات المهذّبة سألته عن المشكلة، فأكّد لي أنها ليست مشكلة. هو فقط أراد أن يطرح بعض الأسئلة. وبما أني زوجها، سألته بصوت عالٍ إن

كان في إمكاني أن أُجيبَ نيابة عنها. فبدا كارهاً للاستجابة لهذا الاقتراح المهذّب. وسأل" متى يُتَوقَّع منها أن تعود ؟ "، فقلت له إني لا أدري. وغامر فسأل إنْ كانت في موقع عملها، فقلت " تقصد أن تسأل إنْ كان لها عمل؟ "، فتجاهلَ تساؤلي هذا. وقال " يعني أنك لا تعرف إلى أين ذهبت؟ ". كان واضحاً أنه يصرُّ على الإزعاج. فأجبته بأنه ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك. وكان كلما ألحَّ في طرح الأسئلة ازددتُ أنا تكتُّماً. وبقيتُ جاهلاً لِماَ يدورُ في خلده.

إلاّ أني في آخر المَطاف كوَّنتُ فكرة. وحدث ذلك عندما سأل إن كانت ربما فنانة وبدأتُ أفهم. قلت، في انتظارِ السؤال التالي " بمعنى ما". قال، وهو يخرج نسخة من " نقوش تظليلية " من جيبه ويضعها أمامي، " حسن، ربما تستطيع أن تقول لي شيئاً عن هذا "

قلت، وقد ارتحت أيّما ارتياح - " حتماً! ماذا تريد أن تعرف؟ "

باشر بالقول، وهو يستند إلى ظهر مقعده ليستمتع بسماع حديثٍ مطوَّل، " حسن، فقط قل لي ما هذا ؟ أقصد، ما معنى هذا الابتزاز ؟ "

ابتسمت. " ليس في الأمر ابتزاز. إننا نبيعها "

" لمن؟ "

" لأي إنسان. أي إنسان. أثمة خطأ في هذا ؟ "

صَمَتَ ليحكَّ رأسه.

سألَ، وكأنه يُسدِّد طلقةً مباشرة، " أقرأت أنت نفسك هذا ؟ "

" طبعاً قرأته، أنا كتبته "

" ماذا قلت؟ أنت كتبته؟ حسبتُ أنها هي الكاتبة؟ "

" نحن الاثنان من الكتّاب "

" لكن اسمها هو الموقّع عليه "

" صحيح. لدينا سببُنا الخاص لفعل ذلك "

" إذن هذا هو الأمر؟ "، وأخذ يعبث بإبهاميه، في محاولةٍ للتفكير العميق.

انتظرته كي يطلق مفاجأته الكبرى.

" وأنت تكسب عيشك من بيع هذه ... إه، هذه الأوراق؟ "

" نحن نحاول أن ... "

عند هذه النقطة مَنْ الذي سيدخل علينا فجأة غير مونا. قدَّمتُها إلى الملازم الأول الذي، بالمناسبة، لم يكن يرتدي زيّه الرسمي.

ذُهِلتُ حين هتفت " وكيف لي أن أعرف أنَّه الملازم أول مورغن؟ "، ولم تكن طريقة لبقة كثيراً للبدء.

غير أن الملازم أول لم ينزعج على الإطلاق؛ بل لقد تصرَّفَ، في الحقيقة، وكأنه يعتقد أنها لفتةٌ ذكيةٌ منها أن تشرحَ طبيعةَ زيارته. وفعل ذلك بلباقة وكياسة.

قال، متجاهلاً ما كنت قد تطوَّعتُ بالإدلاء به، " والآن، أيتها الشابة، هلاّ أخبرتني لماذا كتبتِ هذه المقالة الصغيرة؟ "

هنا هببنا نحن الاثنان للكلام في وقت واحد. هتفت " قلت لك أني أنا الذي كتبته! "، ثم قالت مونا دون أن أتولّى انتباهاً لما قلته: " لا أرى موجباً لأشرح هذا الأمر للشرطة "

" هل أنتِ مَنْ كتبَ هذا، يا آنسة ... أم هل أقول السيدة ميللر؟ "

" نعم "

قلت " كلا، لم تفعل "

قال الملازم أول بلهجة أبويّة " والآن من منكما ؟ أم أنكما كتبتماه معاً؟ "

قالت مونا " لا علاقة له هو به "

احتجّيتُ قائلاً " إنها تحاول أن تحميني. لا تصدِّق أي كلمة تقولها"

قال الملازم أول " لعلَّكَ أنتَ الذي يحاولُ أن يحميها هي! "

لم تتمكن مونا من كبح جماح نفسها، فصرخت " يحميني؟ إلامَ ترمي؟ ما الخطأ في هذا الـ ... هذا الـ ...؟ "، والتَبَسَ عليها فلم تعد تدري ماذا تسمِّي القطعة دليل التجريم.

" أنا لم أقل أنكِ ارتكبتِ جُرماً. أنا فقط أحاول أن أعرف ما الذي دفعكِ إلى تأليفه "

نظرتُ إلى مونا ومن ثم إلى الملازم أول مورغن " هل لكَ أن تدعني أشرح لك؟ أنا الذي كتبته. لقد كتبته لأني كنت غاضباً، لأني أكره أن أرى الظُّلم يسود. أريدَ للناسِ أن يطَّلعوا عليه. هل هذا يجيب عن سؤالك؟ "

قال الملازم أول مورغن، مخاطباً مونا، " إذن فلستِ أنتِ مَنْ ألَّفَ هذا؟ يسرني أن أسمع هذا. لم أكن أتصور أنَّ شابةً فائقةَ الجمال مثلك تقول مثل هذه الأشياء "

مرة أخرى التبَسَ الكلام على مونا؛ فقد كانت تتوقع رداً مختلفاً تماماً.

أردَفَ، مع تبدُّل طفيف في نبرة الصوت، " يا سيد ميللر، لقد تلقينا شكاوى حول خطبتك اللاذعة هذه، إذا حقَّ لي أن أسمِّيها كذلك. إن الناسَ يستهجنون نبرتها. إنها مُلهبة للشغب. تبدو فيها راديكالياً.

طبعاً أنا أعرف أنك لستَ كذلك، وإلا لما كنتَ تقطنُ في مكانٍ كهذا. أنا أعرف هذه الشقة حق المعرفة. كنت متعوِّداً على أن ألعب فيها الورق مع القاضي وأصدقائه "

بدأت أعصابي تسترخي. وبتُّ أعرف الآن أنَّ الأمرَ سينتهي بنصيحةٍ صغيرةٍ ممتعةٍ حول تجنُّب أن أغدو مهيِّجاً.

قلتُ لمونا " لِمَ لَمْ تُقَدِّمي مشروباً للملازم أول؟ لا أظنكَ تُمانُع في شرب كأس معنا أيها الملازم أول؟ أظن أنك خارج الخدمة؟ "

ردَّ قائلاً " لا مانع عندي على الإطلاق بعد أن عرفتُ أيّ نوعٍ من الناس أنتما. كما تعلمان، يجب أن نُدقِّق في مثل هذه الأشياء. إنه الروتين. وهذا حيٌّ عريق ومحترم "

ابتسمتُ وكأني أقول إني أفهم تماماً. ثم خطر ببالي، كلمحِ البرق، ضابطِ الأمن ذاك الذي جُررتُ لأمثُل أمامه وأنا ما أزال مجرد حَدَثْ. وقد أمدَّتني ذكرى تلك الحادثة بالإلهام. وبعد أن جرعت كأساً من الشيري، وألقيت نظرةً على الملازم أول مورغن ومن ثم انطلقتُ أتكلم مثل صبي الشوارع.

بدأت أتكلم، وأنا أشرق في وجهه بطريقة طليّة، " أنا من الدائرة الرابعة عشرة. لعلك تعرف القائد شورت والملازم أول أوكلي؟ أو جيمي دَنْ؟ أنت حتماً تَذْكُر بات مكارن؟ "

رميات موفَّقة! قال، وهو يمدّ لي يده، " وأنا من غرينبوينت "

" يا سلام، يا سلام، يا لها من مفاجأة! "

قلت " بالمناسبة، هل كنتَ تفضِّل أن تتناول ويسكي؟ لم يخطر في بالي أن أسألك " (لم يكن لدينا ويسكي لكنني كنت أعرف أنه سيرفض)

" مـونا، أيـن زجـاجـة الويسكـي الاسكتـلندي الـتي كـانت في مـكان مـا هنا؟"

قال محتجّاً " لا، لا! لن أشرب أي شيء آخر. هذا يكفي تماماً. إذن فـأنت من الدائرة الرابعـة عشـرة العزيزة ... وأنت كاتب؟ قل لي، ماذا تكتب إلى جانب هذه الـ ... إه ... هذه الـ ...؟ ألك كتب؟ "

قلت " حفنة منها. سأرسل إليك آخرها حالما تخرج من المطبعة "

" سـيكون ذلك لطفـاً منك. وسـترسل لي شـيئـاً من إنتـاج زوجـتك أيضاً، ممكن؟ لقد انتقيتَ سيدة ظريفة ذكية، يجب أن أعتـرفَ بأنها دون شك تُحسِن الدفاع عنك "

تسـامرنـا مطولاً عن الأيام الخـوالي ومن ثم قـرَّر الملازم أول مـورغن أنه يجب أن يرحل.

" سـوف نصنِّف هذه تحت حـرف الـ ... مـاذا قلت أنك سـمَّـيتَ هذه الأشياء؟ "

قالت مونا " نقوش تظليلية "

" جـيـد. إذن تحت حـرف ن. وداعـاً، وأتمنى لك التـوفـيق في مـجـال الكتابة! إذا حدث ووقعت في مشكلة فأنت تعرف أين تجدني "

تصافحنا على الأثر وأغلقتُ الباب خلفه برفق.

قلت، وأنا أرتمي على الكرسي، " أخيراً خلصنا! "

قـالت مـونا " في المرة التـاليـة حين يسـأل عني أي شـخص تذكَّر أني أنا مَنْ يكتـب " نقـوشٌ تظليليـة ". ومن حُسن الحظ أنـي جئت في الوقت المناسب. إنك لا تعرف كيف تتعامل مع مثل هؤلاء الناس "

قلت " حسبت أني أبدَعْتُ "

قالت " يجب ألاّ تكون صادقاً أبداً مع رجال الشرطة "

قلت " إنَّ كل شيء نسبيّ؛ على الإنسان أن يستخدم حصافته "

ردَّت " لا يمكن الوثوق بهم. أنت لا تستطيع إلاّ أن تكون مهذباً معهم ... وأنا سعيدة لأن أومارا لم يكن موجوداً. إنه أشدّ حمقاً منك في مثل هذه المسائل "

" لعنني الله إن كنتُ أعرفُ ما الذي لا يعجبك "

" لقد أضاعَ وقتنا. وما كان ينبغي أن تعزمه على مشروب "

" اسمعي، إنك تنحرفين عن الموضوع. إن رجال الشرطة بشرٌ أيضاً، أليس كذلك؟ ليسوا كلهم وحوشاً "

" لو كانوا يتحلُّون بأي قدرٍ من الذكاء لما انخرطوا في سلك الشرطة. لا خيرَ في أي منهم "

" حسنٌ، فلنُنه الموضوع "

" تظن أنَّ الموضوعَ قد انتهى - لأنه كان لطيفاً معك. إنه أسلوبهم في الخداع. لقد أصبح لنا الآن سجل. الخطوة التالية هي أنهم سيطلبون منا أن ننتقل إلى مكانٍ آخر "

" أوه، كفى، كفى! "

" لا بأس، سوف ترى ... الخنزير، كاد يأتي على ما في الزجاجة كله! "

الحادثة المزعجة التالية وَقَعَتْ بعدها ببضعة أيام. فقد كنتُ أتردَّدُ على طبيب الأسنان خلال الأسابيع القليلة الأخيرة، وهو صديق اسمه دوك زابريسكي كنت قد تعرَّفت إليه عبر آرثر ريموند. وكان يمكن للزائر أن يجلس في غرفة انتظاره سنين عديدة. وكان زابريسكي يؤمن بالقيام

بعـمل ٍقليل فـي وقت مـعـيَّن. والحـقـيـقـة هي أنه كـان يحب المسـامـرة. فـتجلس وفـمك مـفـتـوح وفـكَّاك يؤلمـانك ويأخـذ هو يمضغ أذنيـك بحديثـه. فـأخـوه بوريس يشـغل مـحراباً مـجاوراً حيث يصـنع جسـورَ تقـويم وأطقم أسنان صناعـيـة. وكـانا لاعـبَيّ شطرنج بارعين، كـلاهمـا، وغـالبـاً مـا كـنت أضطر إلى أن أجلس وألعب قليـلاً من الشـطرنج قـبل أن أتمكن من إجراء أي معالجة لأسناني.

كـان دوك زابريسكي، بـالإضـافـة إلى صِـفـاته الأخـرى، مـهـووسـاً بـالملاكـمـة والمصـارعـة الحرة. وكـان يَحْضَر مـبارِيات الملاكـمـة كلهـا مـهـمـا كـانت أهمـيـتـهـا. وكـالعديد من اليهـود المنخرطين في المجـال المهني، كـان أيضـاً مـولعـاً بـالموسـيـقى وبـالأدب. ولكنَّ أفـضل صِـفـاته هي أنـه لا يلحُّ عليك أبداً لتسدِّد ما عليك. لقد كان متساهلاً بشكلٍ خاص مع الفنانين، الذين كان ضعيفاً أمامهم.

ذات يوم أحـضرتُ له مـخطوطاً كنت قـد انتـهـيتُ لتوي مـن كـتـابـتـه. وكان عبـارة عن تمجيدٍ، مكتوبٍ بنثرٍ شديد الإحكام والإتقان، لذاك الهرقل الصغير، جيم لوندوس[٤٢]. قـرأه زابريسكي كله وأنـا جالـس على الكرسي، وفمي مفتوح وفكّاي يؤلماني ألماً جنونياً. وغـاب في نشوةِ قراءة النص وأراد أن يعرضه على الفور على أخيه بوريس، ثم اتصل هاتفيـاً بآرثر ليتحدث معـه عنه. قـال " لم أكن أدري أنك كـاتب جيـد هكذا "، ثم أعلن أنَّ علينا أن نوطِّد معرفتنا ببعض أكثر. وتساءل إنْ لم يكن في الإمكان أن نتقابل في مكانٍ ما ذات مساء ونُسهِبَ في الخوض في المسائل.

حدَّدنا مـوعداً واتفقنا على أن نـتقابل في مقهى رويال بعد العشاء.

---

٤٢ – جيم لوندوس : مصارع يوناني . – المؤلف .

وحضَرَ كلٌ من آرثر ريموند، وكرونسكي وأومارا. وسرعان ما انضمَّ إلينا أصدقاء زابريسكي. وأوشكنا أن نفضَّ اجتماعنا ونتوجه إلى المطعم الروماني، القريب، وإذا برجلٍ عجوزٍ ملتحٍ، يبيع علب كبريت وأربطة أحذية، يقترب من طاولتنا. ولا أدري ماذا ألمَّ بي، ولكن قبل أن أتمكن من كبح نفسي رأيتني أهزأ بالمسكين، وأضايقه بالأسئلة التي يعجز عن الإجابة عنها، وأتفحَّص أربطة الأحذية بدقَّة، وأحشر سيجاراً في فمه، وبشكلٍ عام تصرَّفتُ بنذالة وحماقة. رمقني الجميع بذهول، وأخيراً باستهجانٍ صارم. وأخذ العجوز يبكي. فحاولت أن أضحك على هذا، قائلاً إنه ربما يُخفي ثروةً في حقيبة قديمة. تبع ذلك صمتٌ تامٌ متحجِّر. وفجأة قبض أومارا على ذراعي، وغمغم " هيا بنا نخرج من هنا، إنك تجعل من نفسك أضحوكة ". ثم التفت إلى الآخرين وبرَّرَ بالقول إني لابد سكران، وقال إنه سيتمشَّى معي قليلاً. وأثناء خروجنا أقحمَ بعضَ المال في يد الرجل العجوز. فرفع هذا الأخير قبضة يده وصبَّ لعناته عليَّ.

لم نكد نصل إلى ناصية الشارع حتى اصطدمنا بسرعة بشلدون. شلدون المجنون.

صَرخَ " مستر ميللر! "، وهو يمدُّ كلتا يديه ويبتسم كاشفاً عن مجموعة كاملة من الأسنان الذهبية. و " مستر أومارا! " حتى لكنتَ تحسبُ أننا أخواه المفقودان منذ زمن بعيد.

اتخذنا موقعينا على جانبيه وتشابكنا بذراعيه وانطلقنا نسير متجهين صوب النهر. وكان شلدون يبقبق من الفرح. وأسرَّ إليَّ بأنه كان يفتِّشُ عني في أنحاء البلدة كلها. أحواله تحسَّنت الآن. أصبح لديه مكتب ليس بعيداً عن بيته.

" وماذا تفعل أنت يا سيد ميللر؟ "

قلتُ له إني أؤلف كتاباً.

عندئذ انفكَّ عني واتّخذَ وِقفةً أمامنا، ثم عقد ذراعيه على صدره، واتخذت سِحنته سِمةً جادَّة مثيرة للضحك. وكانت عيناه مغمضتين تقريباً، وفَمه مزموماً. وتوقّعت عندئذ في أي لحظة أن ينبثق من بين شفتيه المشدودتين صفيره الأبله ذاك كانبثاق البخار.

بدأ كلامه بـ " مستر ميللر " ببطء وبنبرة واعظة، وكأنه كان ينادي على العالم كله ليصغي إليه " لطالما أردتُكَ أن تؤلّف كتاباً. إن شلدون يفهم. يفهم حقاً ". قال هذا بصوتٍ خشن، وقد برزت شفته السفلى، وكان رأسه يهتز إلى الوراء وإلى الأمام بشكلٍ ينمُّ عن استحسان عنيف.

قال أومارا، وكان دائماً مستعداً لأن يُلهِبَ مشاعر شلدون حتى الهياج، " إنه يكتب عن منطقة الكلوندايك "

قال شلدون، وهو يسلّط علينا ابتسامةً جذابة، ويلوِّح في الوقت نفسه بسبابته خلفاً وأماماً تحت أنفينا، " كلا، كلا! إن مستر ميللر يؤلّفُ كتاباً عظيماً. شلدون يعرف هذا ". وفجأة قبض علينا من ساعدينا، ثم أرخى قبضته ووضع سبَّابته على شفتيه " هس-س-س-! "، وأخذ يتلفَّت فيما حوله كأنما ليتأكد من أننا بعيدين عن الأسماع. ثم أخذ يسير إلى الخلف، وإصبعه ما يزال مرفوعاً، وهو يحرِّكه خلفاً وأماماً، مثل بندول الإيقاع. وهمس " انتظرا، أعرف مكاناً ... هس-س-س! "

قال أومارا بفظاظة " نحن نريد أن نمشي "، وهو ينحّيه جانباً بقوة، ويجرّني لنحثَّ الخطى " ألا ترى أنه سكران؟ "

بدا الرعب الشديد على شلدون، فصرخ " أوه كلا! كلا، ليس السيد ميللر! "، ومال عليّ ليتفرَّسَ في وجهي. وكرر القول " كلا، إن السيد ميللر لا يمكن أن يسكر ". هنا اضطرَّ إلى أن يهرول، وساقاه مقوستان معاقتان، وسبابته ما تزال تهتز. أخذ أومارا يحثُّ خطاه أسرع فأسرع. وأخيراً توقف شلدون تماماً، سامحاً لنا أن نتقدَّمه بمسافة كبيرة. وظل واقفاً في مكانه وذراعاه معقودان على صدره، لا يأتي بأية حركة. وفجأة، إذا به ينطلق راكضاً.

حين لحق بنا همس " احترسا، إن البولوك[٤٣] منتشرون في هذه الأنحاء. هسسسس! "

ضحك أومارا في وجهه.

ناشده شلدون " لا تضحك! "

قال أومارا ساخراً " أنت مجنون! "

سار شلدون بمحاذاتنا، برشاقة وحذر شديد، وكأنه يسير حافي القدمين فوق زجاج مكسور. ولزم الصمت بعض الوقت. وفجأة توقف، فتح معطفه والسترة الكيسية، وبسرعة، وبحركة استراقٍ زرَّرَ جيوبه الداخلية، ومن ثم زرَّرَ سترته الكيسية، ومعطفه، ومدَّ شفته السفلى إلى الأمام، وضيَّقَ عينيه الشبيهتين بثقبين حتى أضحتا كشقّين، وشدَّ قبعته بإحكام إلى أسفل حتى ظلّلت عينيه، ومن ثم سار قدماً. وقد تمَّ هذا الإجراء المعقَّد كله على لحن الصمت المطبق. ثم مدَّ يده، ولا يزال صامتاً، وأدار بحركةٍ ذات مغزى خواتيمه البراقة نصف دورة. وبعد ذلك أقحم كلتا يديه عميقاً في جيبيّ معطفه، وهمس، وقد أصبح الآن يسير بخطى أكثر حذراً " صمتاً! "

---

٤٣ – البولوك : البولوني ، أو البولندي . – المترجم

قال أومارا " إنه خرِف "

" هس–س–س! "

ضحكت بهدوء.

الآن بدأ يتكلّم بنبرة مكتومة، وبالكاد كانت مسموعة، وكانت شفتاه تتحركان سراً. ولم أتمكن إلاّ من التقاط مقاطع من حديثه.

قال أومارا " افتح فمك! "

" هس–س–س! "

ثم المزيد من الهراء المكتوم، الذي يقطعه كووووو أو إي ي ي بين حين وآخر، وكل ذلك تتخلّله بانتظام زعقات مخنوقة وذلك الصفير الأبله الجهنّمي. وكان الأمر يزداد غرابة مخيفة. وكنا عندئذ نقترب من صهاريج الوقود وأفنية الأخشاب المُقبِضَة للصدر. كانت الشوارع الخاوية تُشيعُ السوداوية والكآبة في النفس. وفجأة شعرتُ بأصابع شلدون تنغرز في ذراعي. وأفلَتَ من شفتيه الرقيقتين المشققتين صوتاً أشبه بأغههههههه. لقد كان يجسّني بشدة ويهزّ رأسه حصان يهزُّ عرفه.

رحتُ أرمي فيما حولي نظرات حادّة، فرأيت في الطرف الآخر للشارع رجلاً سكران يسير بخطٍ متعرِّج عائداً إلى بيته. وكان رجلاً ضخم الجثة، سترته مفتوحة واسعاً، ولا يضع ربطة عنق، ولا يعتمر قبعة. وكان بين حين وآخر يتوقف ليُطلقَ سباباً قذراً.

تمتم شلدون، وهو يشدُّ أكثر عليّ، " أَسرع، أسرع! "

غمغمت " هسسس! لا داعي للعجلة "

همس: " إنه بولوك! ". وكنت أشعر بالرعشة تهزّه.

قلت لأومارا " لنعد إلى الجادة. إنه يتعذّب "

همس شلدون " نعم، نعم، هذا الطريق أأمن "، وهو يُبرِز إحدى يديه إلى الأمام بحذر ويرتعش، وأصبح أشبه بالسماور، بينما التصق مرفقه بجسمه. وحالما انعطفنا عند الزاوية إذا بخطوته تنشط. وتقدَّمَ، بخطى تتراوح بين الركض والمشي، وهو يتمايل برأسه من جانب إلى جانب، يملؤه الخوف من أن يَقبِضَ علينا أحدهم في غفلة منا. وحين وصلنا إلى محطة القطار النفقي استأذنّا منه، ولكن ليس قبل أن أعطيه عنواني. وكان عليَّ أن أدونّه له على الوجه الداخلي لعلبة كبريت. وكانت يداه ما تزالان ترتجفان، وأسنانه تصطك.

قال، وهو يلوِّح لنا مودِّعاً، " شلدون سيراكما قريباً ". وعند أسفل الدَرَج توقّفَ، واستدارَ نحونا، ووضع أصابعه على شفتيه.

أطلق أومارا بأعلى ما أمكنه من صوت " هسسسسسسس! "

كشَّرَ شلدون برصانة، ومن ثم، ودون أن ينطق بكلمة، حرَّكَ شفتيه بحركة تدلُّ على هياج شديد. وبدا لي أنه كان يحاول أنْ يقول " بولوك". لعله ظن أنه يزعق.

قال أومارا " ما كان ينبغي أبداً أن تعطيه عنواننا. ذلك الرجل سوف يلتصق بنا. إنه وباء؛ إنه يثير بي القشعريرة ". وهزَّ نفسه ككلب.

قلت " لا خطرَ منه. أنا سأعالجه إذا ما حدث وجاء. ثم إني أحب شلدون "

قال أومارا " هذا جدير بك! "

" هل لاحظت الأحجار الكريمة في أصابعه؟ "

" لعلها من حجارة الراين "

" تقصد أنها من الماس! لا أحد يعرف شيئاً عن شلدون. اسمع، إننا

إذا احتجنا إلى أي مساعدة فإنَّ ذلك الرجل مستعدٌ لأن يرهِنَ قميصَه من أجلنا "

" أفضِّل أن أموت جوعاً على أن أُنصِتَ إلى كلامه "

" حسن، كما تشاء. يحدِّثني قلبي بأننا قد نحتاج إلى المستر شلدون ذات يوم. يا يسوع، كيف أخذ يرتجف حين رأى ذاك البولوك السكران! "

رانَ الصمتُ على أومارا.

قلت هازئاً " لا أظنك مهتماً بأمره؟ أنت لا تعرف ماذا يعني مذبحة منظَّمة ... "

قال أومارا بلهجة لاذعة " ولا أنت تعرف "

" حين أنظر إلى شلدون أعرف. نعم يا سيدي، إن ابن الحرام ذاك ليس بالنسبة إليّ غير تجسيد للمذبحة المنظّمة. ولو أنَّ ذلك البولوك اتجه صوبنا لخرِيَ في سرواله ".

* * *

بعد ذلك ببضع ليال ظهرَ أوزيكي مع فتاته. اسمها لويلا. وقد جعلتها أُلفتُها الصِرف تبدو جميلة في عينيّ. كانت ترتدي ثوباً أخضر نيلياً وتنتعلُ خفّاً مقصَّباً بلون الأصفر الموزي والبرتقالي. كانت هادئة، ومتحفِّظة، وتخلو تماماً من الروح الفكهة. وكان سلوكها خليقاً بممرضة أكثر منه بخطيبة.

كان أوزيكي يرسم تكشيرَ رأس الموت الجامد. وكان موقفه مفاده – " لقد وعدتُ بأن أُحضِرها، وهاهي ذي ". وكان التلميح يعني أن نحصل منها على قدرِ ما نستطيع بدون مساعدته. وقد جاء لكي "يُعدَّ "

ويشرب ما هو متوفِّر. أما فيما يخصّ الحديث فقد أَنْصَتَ إلى كلّ ما قيلَ وكأننا كنا نذير له الأسطوانات.

كان حديثاً غريباً لأنَّ كل ما استطعنا أن نستخلصه من لويلا هو إما نعم أو لا أو أعتقد ذلك أو ربما. واتَّسعت ابتسامة أوزيكي أكثر فأكثر، وكأنه يقول: " ألم أقُل لكم؟ ". وكان كلما أكثرَ من الشرب تذبذبت أسنانه أكثر.؟ وبدأ فمه يشبه كتلة غريبة من الأسلاك والشكَّالات المتشابكة. وكان كل ما يمضغه يمضغه ببطء وبمعاناة. وفي الحقيقة لقد بدا أنه يعجن أكثر منه يمضغ. وخلال فترة غيابه منذ زيارته الأخيرة تفجَّرَ كاملُ وجههِ بطفْحٍ جلديّ لم يكد يضيف شيئاً إلى مظهره البائس.

سألَ إن كانت الأمور تتحسَّن، ثم التفتَ إلى لويلا، وغمغم، " هي ستخبرك "

قالت لويلا " لا "

" أما زالت المشكلة هي نفسها ؟ "

مرة أخرى أخذ يراقب لويلا.

هذه المرة قالت " نعم "

ثم فاجأنا بقوله " اسألها عن شعورها ". وبهذا أطرقَ رأسه؛ وسَقَطَتْ بضعُ نقاطٍ من اللعاب في كأسه، فأخرجَ منديلاً ومسح فمه بجهد واضح.

تركَّزت عيناه على لويلا. لا ردّة فعلٍ غير نظرتها المباشرة إلينا، واحداً بعد آخر. وأصبحت عيناها، ذواتا اللون الأخضر الباهت، متحجِّرتين وثابتتيّ النظرة. وكان انزعاجنا قد أخذ يتعاظم، دون أن

يعرف أي منا كيف يكسر السحر. وفجأة، ومن تلقاء ذاتها، بدأت تتكلّم. استخدمَتْ نبرةَ صوتٍ رتيبةٍ منخفضة، وكأنها منوَّمة مغناطيسياً. وكان تحديقها، الذي لم يتبدَّل تماماً قط، قد ثَبَتَ على حافة رف المدفأة الذي كان فوق رؤوسنا مباشرة. وكانت، وهي بذاك الثوب المسرحي ذي اللون الأخضر النيلي. وبتسينك العينين الخضراوين الزجاجيتين، تعطي انطباعاً مُربِكاً بأنها تقوم بدورِ وسيطٍ روحاني. وكان شعرها، وبشكلٍ متنافر مذهل، رائعاً: شعراً أصحرَ شهوانياً، مترفاً، ينهمرُ كشلاّلٍ على كتفيها العاريين. وخلال برهة كاملة، وأنا مفتونٌ تماماً، انتابني إحساسٌ غريب بأني أحدِّقُ إلى جثة، جثة تُدَفَّأ كهربائياً.

لم أدرك بالضبط للوهلة الأولى عمّا كانت تتحدَّث بذاك الصوت الرتيب، الأجوف، الخامل. لقد كان الأمر أشبه بالإنصات إلى هديرِ أمواجٍ ناءٍ تتكسَّر على صخورِ جرف. وهي لم تذكر أي أسماء، أو أماكن، أو أوقات. وبالتدريج حَدَستُ أنَّ الشخصَ الذي كانت تتكلّم عنه هو خطيبها أوزيكي. وكنت بين حينٍ وآخر استرقَ النظر إليه لأراقب ردود فعله، ولكن لم ألاحظ شيئاً. كان ما يزال يكشِّر مثل مِصبَّعة من الاسبستوس. ولم يكن ليخامر المرء شعور بأنها كانت تتحدَّث عنه هو.

كان لبّ مناجاتها الذاتية يفيد بأنها تعرفه منذ أكثر من عام، وقد اقتنعَتْ، على الرغم من كل ما يمكن أن يقوله أصدقاؤه، بأنّه بحق لم يختلف عما كان عليه. وألمحت بشكلٍ قاطع إلى أنه كان مجنوناً. ثم أضافت، بدون أقلّ تغيير في طبقة صوتها، إنها متيقِّنة من أنها بدورها تصبح مجنونة. ولا ذِكرَ لأي تلميح إلى أنها غلطته. لا، وكأنها فقط مصادفةٌ مؤسفةٌ، ولعلَّها سعيدة. وحظّه العاثر هو الذي جذبها إليه. وقد

افترضْتُ أنه أحبّها، لكنها لم تعلم ذلك علم اليقين، بما أن ردود أفعالهما معاً كانت غير عادية. وقد اعتبرها أصدقاؤه، الذين لا اعتراضَ لهم عليهم، ذا تأثيرٍ سيئ. لعلّ هذا صحيح. ولم يكن لديها حافز خفيَ للارتباط به. لقد كانت تكسب لقمة عيشها بعرَقها، وكان في إمكانها، لو لزم الأمر، أن تجمع بين الأمرين. وهي لم تكن سعيدة ولا تعيسة. والأيام كانت تمرُّ كما في حلم، وكانت الليالي امتداداً لحلمٍ آخر. وأحياناً كانت تعتقد أنه من الأفضل لو أنهما يغادران المدينة، وفي أحيانٍ أخرى رأت أنه لا فرقَ إن فعلوا هذا الشيء أو ذاك. وأصبحت مقدرتها على اتخاذ القرارات تتضاءل أكثر فأكثر. وخيَّمَ ما يشبه حالةٌ من التدهور عليهما لم تكن، إذا صدقناها، غير مُحتَمَلة. وكانا ينويان الزواج في وقتٍ قريب، وأملتْ ألاّ يعارض أصدقاؤه كثيراً هذا الإجراء. أما فيما يتعلّق بالقمل، فقد شعرت هي نفسها به؛ وطبعاً يمكن أن يكون الأمرُ وهمياً، لكنها لا ترى كبير فرقٍ بين القَرص الوهمي وذاك الحقيقي، خاصة إذا لم يكن يترك آثاراً على الجلد. والأكزيما التي يشعر بها، والتي ربما لاحظناها، لم تكن إلا شيئاً عابراً - لقد كان يُكثر من الشرب، لكنها كانت تفضِّل أن تراه سكران على أن تراه قلقاً حتى الموت. إن له حسناته كما أن له سيئاته، كأي إنسانٍ آخر. وهي آسفة لأنها لم تكن تأبه كثيراً للموسيقى لكنها بذلت أقصى جهدها لتستمع إليها. فلم يكن لديها مرةً أي ميل إلى الفن، أو إلى الموسيقى، أو الرسم، أو الأدب. وهي بحقّ لم تكن تهتم بأي شيء، حتى وهي طفلة. وحياتها كانت دائماً سهلة ورخيّة، بالإضافة إلى كونها راكدة ورتيبة. وهي تعتقد أن رتابة حياتها لم تؤثّر عليها كما يحدث مع الآخرين. وإحساسها لا يتغيَّر سواء أكانت وحيدة أم مع أناسٍ آخرين ...

هكذا راحت تتتابع دون توقُّف، ولم يكن لدى أي منا الإرادة أو الحصافة ليُقاطعها، وكأنها رمتنا بسحرها. ولو كان في إمكان جثة أن تتكلّم لكانت هي جثةً متكلِّمة مثاليّة. وفيما عدا شفتيها اللتين تتحركان وتخرجان أصواتاً، كانت خالية من أي أثر للحياة.

أومارا هو الذي كسرَ السحر. فقد قال إنه يعتقد أنَّ أحداً يقرع الباب، وقفز واقفاً على قدميه وفتح الباب بحركةٍ سريعةٍ. لكن لا أحدَ، لا شيء غير الظلام الدامس. ولاحظتُ أنَّ رأسَ لويلا قد انتفضَ حين فتح الباب بسرعة. وسرعان ما تراخت قسمات وجهها، ولانت نظرة عينيها.

سألتها مونا " ألا ترغبين في كأسٍ أخرى؟ "

قالت " نعم، أرغب "

ما كاد أومارا يجلس، وهمَّ بصبِّ كأسٍ أخرى لنفسه، حتى سمعنا قرعاً حقيقياً مخيفاً على الباب. انتفضَ. وحطَّتْ مونا الكأسَ الذي كانت تقدِّمه للويلا. وحده أوزيكي حافظَ على هدوئه.

ذهبتُ إلى الباب وفتحته بهدوءٍ، فإذا بشلدون ماثلُ أمامي وقبعته في يده.

سألتُه " أكنتَ هنا قبل دقيقة؟ "

قال " كلا، أتيت لتوّي "

سأله أومارا " أأنتَ متأكِّد؟ "

تجاهل شلدون هذا السؤال وتقدَّمَ إلى الداخل. قال " داعيكم شلدون! "، وهو ينقِّل ناظريه من واحد إلى آخر، وينحني لكلٍ بدوره. وكانت المراسم تتألَّف من إغماض العينين وفتحهما مع ارتعاشٍ كلما عاد إلى وضع الانتصاب.

هيَّأنا له مكاناً مريحاً قدر استطاعتنا وقدَّمنا له مشروباً.

قال بكل رصانة، وعيناه تلمعان، " شلدون لا يرفض أبداً "، وشمخ برأسه، ثم عبَّ كل ما في الكأس من شيري دفعة واحدة، وأخذ يتلمَّظ بشفتيه بفرقعة عالية، ورفرف رموش عينيه قليلاً، وسأل إن كنا جميعاً بأحسن صحة. وجواباً على هذا رحنا جميعاً نضحك، ماعدا لويلا، التي ابتسمت بوقار. وحاول شلدون بدوره أن يضحك، ولكن أقصى ما استطاع أن يفعله هو أن يرسم تكشيراً غريب الأطوار، أصبح أشبه بذئبٍ يهمُّ بلعقِ فمه.

ابتسم أوزيكي بصراحة، في وجه شلدون مباشرة، وكأنه يستشعر وجود روح شقيقة.

سأل، وهو ينظر إلى مونا، " ماذا قال إن اسمه؟ "

كرَّرَ شلدون اسمه بكل رزانة، وهو يخفض بصره أثناء ذلك.

سأله، هذه المرة مباشرة: " أليس لك اسم أول؟ "

قال شلدون " فقط شلدون "

قال أوزيكي، منتعشاً أكثر فأكثر، " لكنك بولندي، أليس كذلك؟"

قال شلدون " أنا فقط ولدتُ في بولندا ". وهنا أطالَ نطق كلماته بحيث يلغي أي إمكانية لسوء الفهم. " لكني فخور إذ أقول إني لست بولونياً "

قال أوزيكي بودٍ " أما أنا فنصفُ بولوني، ولكن لعنني الله إن كنت فخوراً بهذا أم لا "

على الفور أشاحَ شلدون ببصره عنه، وهو يغلق فمه بشدّة وكأنه يخشى أن ينطق بقذفٍ ليس في وقته. ولما التقت نظراتنا مَنَّ عليَّ

بابتسامة مؤلمة. مفادها – " إني أبذل أقصى جهدي كي أكون مهذباً وأنا بصحبة أصدقائك، حتى وإن كنتُ أشمُّ رائحة دماءٍ بولونية "

قلت مُطَمئناً " لن يؤذيك "

صرخَ أوزيكي " ما الأمر ...؟ ماذا فعلتُ؟ "

نهضَ شلدون واقفاً على قدميه على عَجَل، ونفخَ صدره، وعبسَ، ثم اتخذ هيئةً من أشدِّها تكلُّفاً.

قال، وهو يمتصُّ الهواء مع كل كلمةٍ يهسُّها، " شلدون ليس خائفاً. شلدون لا يرغب في التحدُّث إلى بولوك ". وهنا سكَتَ. ودون أن يحرِّك باقي جسمه، أدار رأسه فيما حوله بقدرِ استطاعته، وأعاده إلى مكانه ثانية، تماماً كأنه دمية آليّة. وبعد أن فعل ذلك أغمضَ عينيه نصف إغماضٍ، ومدَّ شفته السفلى إلى الأمام، ثم إذا به يرفع يده ببطء، وقد مدَّ سبابته إلى مستوى العينين! – وكأنَّ الدكتور مَنْيون Munyon يوشك أن يثرثر حول حبوب دواء الكبد.

ثم صدرَ عن أومارا " هسسسسسس! "

وأخفضَ شلدون يده ليضع سبابته فوق شفتيه. " هسسسسسس! "

صرخَ أوزيكي، مبتهجاً لمشاهدة هذا العرض، " ما معنى هذا؟ "

" شلدون سيتكلَّم. وبعد ذلك يمكن للبولوك أن يتكلَّموا. لا مكان هنا للسفاحين. ألستُ محقّاً يا سيد ميللر؟ صمتاً، من فضلكم! ". ومرة أخرى أدارَ رأسه في كل اتجاه، مثل دمية آليّة. " لقد حدث ذات مرة شيء رهيب. اعذروني لأني مضطر إلى أن آتي على ذِكر مثل هذه الأمور في حضور سيدات وسادة محترمين. لكن هذا الرجل " – وألقى نظرةً ملتهبةً ضاريةً إلى أوزيكي – " سألني إن كنت بولونياً. تفوه!

(وبصق على الأرض). إن كنتُ أنا بولونياً - تفوه! (وبصق مرة ثانية). اعذريني، مدام مسز ميللر - وقام بانحناء صغير ساخر - ولكن حين أسمع كلمة بولوني يجب أن أبصق. تفوه! (وبصق مرة ثالثة).

صَمَتَ، وأخذَ نَفَساً عميقاً لكي ينفخ صدره إلى الدرجة المناسبة. وأيضاً ليستجمع الغلَّ الذي تكُنُّه غددُه. ارتعشَ فكُّه السفلي، وأطلقت عيناه أشعةً سوداء من الحقد، وبدأ جسمه يتوتَّر، وكأنه يتألَّف من حلقات الضغط: كان يكفيه أن يُفْلِتَ الحلقات حتى يقفز إلى الجانب الآخر من الشارع.

قال أوزيكي بنبرة فزعٍ حقيقي " سوف تأتيه النوبة "

قفزَ أومارا واقفاً على قدميه ليقدِّم لشلدون كأساً من الشيري. فأطاحَ به شلدون من يده، وكأنه يُبعِد ذبابة. وسَفَحَ الشيري على ثوب لويلا الجميل ذي اللون الأخضر النيلي، فلم تنتبه على الإطلاق لما حدث. وكان أوزيكي يزداد توتُّراً باطراد. فالتفتَ إليَّ متضايقاً ومناشداً.

قال متوسلاً " قُل له إنني لم أقصد أي شيء مما قلت "

قال شلدون، وهو ينظر أمامه مباشرة، " إن البولوني لا يعتذر أبداً؛ إنه يقتل، يعذِّب، يحرق النساء والأطفال - لكنه أبداً لا يقول " أنا آسف ". إنه يشرب الدم، دماً بشرياً - لكنه يصلِّي وهو راكع على ركبتيه، كالحيوان. كل كلمة يتلفَّظُ بها هي إما كذبة ـو لعنة. يأكل ككلب، ويعمل أعيَّه في سرواله، ويغتسل بخُرَقٍ قذرة، ويتقيّأ في وجهك مباشرة. وشلدون يدعو الله في كل ليلة كي يعاقبهم. ومادام هناك بولوني واحد حيّ ستظل هناك دموع وبؤس. إن شلدون لا يكنُّ لهم أي رحمة. يجب أن يموتوا جميعاً، كالخنازير ... رجالاً، ونساءً وأطفالاً. إن شلدون يقول هذا ... لأنه يعرفهم حقّ المعرفة "

عـيناه، اللتـان كـانتـا نصف مـغـمـضـتين حين بدأ، أصبـحـتـا عندئذ مـغـمـضـتين تماماً. وكـانت الكلمـات تنبـعث من بين شـفـتيـه، وكل واحدة تُضغَط إلى الخارج وكـأنما بمنفاخ. وقـد تشكَّلَ الرضـاب عند زاويتيَ فمـه، وأظهرته بمظهر المصروع.

ناشدني أوزيكي: أسكته، هنري، أرجوك "

صرخت مونا " نعم، فال، أرجوك افعل شيئاً. لقد زادَ الأمرُ عن حدِّه"

زَعَقتُ، بغية إجفاله " شلدون! "

ظلَّ جامداً، وعيناه مصوَّبتان إلى الأمام! وكأنه لم يسمع أي شيء. فنهـضتُ واقـفـاً، وأمسـكتُ به من ذراعـيـه، وهززتُهُ برفقٍ، وقلتُ بهـدوء "هيا، اخرج من هذه الحالة! "، وهززته مرة أخرى، بعُنفٍ أكبر.

فَتَحَ شلدون عينيـه ببطء، وهو يرفـرفـهمـا، وأخذ يتلفَّت فيـما حـوله وكأنه خرج لتوه من حالة إغماء.

هنا، انتـشـرت ابـتـسـامـة كـسلى على كـامل وجـهـه، وكـأنه نجحَ في إقحامِ إصبعه في حنجرته وتقيّأ جرعةً سامَّةً.

سألتـه، وأنا أكيل له صفعـة قوية على ظهـره، " أنت أفضل الآن، هه؟ "

قـال، وهو يـطرف بعـينيـه ويسعل، " اعـذرني، البـولوك هم الـسبب. إنهم دائماً يثيرون اشمئزازي "

" لا يوجـد هنا أي بولوك، يا شلدون. وهذا الرجل " – وأشـرت إلى أوزيكي – " هو من الكانوك Kanuck، ويريد أن يصافحك "

مـدَّ شلدون يده وكـأنه لم يكـن قـد شـاهد أوزيكي مـرة فـي حـيـاته، وقال، وهو يؤدي انحناءً صغيراً، " شلـدون! "

قال أوزيكي، وهو يقوم بدوره بانحناءٍ صغير، " تشرَّفنا. هاك، ألا تشرب؟ "، ومدَّ يده بكأس.

وضعَ شلدون الكأس على شفتيه وأخذ يرشف ببطء، وبحذر، وكأنه غير مقتنع تماماً بأنه ليس مؤذياً.

أشرقَ وجه أوزيكي وقال " طيِّب؟ "

تلمَّظَ شلدون بشفتيه وقال " !Ausgezeichnet (ممتاز!) ". وقد تلمَّظَ ليس من باب التلذُّذ الحقيقي بل ليبيِّن حُسنَ سلوكه.

سأله أوزيكي، محاولاً دون كبير نجاح أن يشقَّ طريقه إلى حلو شمائل شلدون، " هل أنت صديق قديم لهنري؟ "

كان جوابه " السيد ميللر صديقٌ للجميع "

شرحتُ قائلاً " كان يعمل معي "

قال أوزيكي " أوه، هكذا إذن! الآن فهمت "، وبدا عليه ارتياحٌ غير عادي.

أضفتُ " الآن لديه عمله الخاص "

أشرَقَ وجه شلدون وبدأ يعبث بالخواتيم ذات الأحجار الكريمة التي في أصابعه.

قال شلدون، وهو يدلِّك يديه معاً مثل مُسترهن، " عملٌ حقيقي ". وعلى الأثَر سحبَ أحد خواتيمه وقرَّبه تحت أنف أوزيكي. كان يحمل ياقوتة كبيرة. تفحَّصها أوزيكي مُستحسناً وأعطاها للويلا. وفي تلك الأثناء كان شلدون قد سحبَ خاتماً آخر وأعطاه لمونا لتتفحَّصه. وهذه المرة كان يحمل زمرّدة ضخمة. وانتظر شلدون بضع دقائق ليراقب ردود فعل هذا الإجراء. ثم سحبَ بحركةٍ طقسيّةٍ خاتمين من يده، وكلاهما من الماس.

وهذان الاثنان وضعهما في يدي. ومن ثم وضَعَ أصابعه على شفتيه وأصدرَ هسسسس!

بينما كنا نبدي دهشتنا لمدى روعة الأحجار الكريمة مدَّ شلدون يده إلى جيب صدرته وأخرجَ منها علبة صغيرة ملفوفة بمنديل ورقيّ. فكَّ أربطةَ هذه فوق الطاولة، وفتحها بشكلٍ كاملٍ في راحة يده فتلألأت خمسةُ أو ستةُ أحجارٍ كريمة مصقولة، وكلها من الحجم الصغير لكن تلألؤها خارق. وضعها بعناية على الطاولة ثم مدَّ يده إلى جيب الصدرية الآخر. هذه المرة أخرجَ خيطاً من اللآلئ الصغيرة، لآلئ رائعة لم أكن قد رأيت مثيلاً لها في حياتي.

بعد أن متّعنا أبصارنا بمنظر تلك الكنوز كلها، عاد من جديد ليتّخذ إحدى وقفاته المحيِّرة، وظلَّ هكذا مدةً موتِّرةً من الوقت، ثم غاصَ في جيبِ معطفه الداخلي واستخرجَ محفظةً طويلةً من صنعٍ مراكشي. وفتحَ هذه في قلب الفضاء، مثل الحاوي، ومن ثم، راح يُخرِجُ أوراقاً نقدية، واحدة بعد أخرى، من جميع الفئات ولعملاتٍ كثيرةٍ مختلفة. فإذا كانت نقوداً حقيقية، وكان لديَّ من الأسباب ما يجعلني أصدِّق ذلك، فلابد أنها كانت تَعُدُّ عدة آلاف من الدولارات.

سألَ أحدهم " ألا تخاف أن تتنقَّل وفي جيوبك كل هذا القدر؟ "

رفرف أصابعه في الهواء، وكأنه يلمس أجراساً صغيرةً، ثم أجابَ إجابةً جامعةً مانعة" شلدون يعرف كيف يتصرَّف "

قوَّقَ أومارا " قلتُ لك إنه مجنون "

تابعَ شلدون كلامه، متجاهلاً الملاحظة، " في هذا البلد لا أحد قادرٌ على إزعاج شلدون. هذا بلد متحضِّر. وشلدون دائماً يلتزم بشأنه

الخاص... أليس كذلك، يا سيد ميللر؟ "، ثم صَمَتَ لينفخَ صدره. وبعد ذلك أضاف " شلدون دائماً مؤدَّب، حتى مع الزنوج "

" لكن يا شلدون ... "

صرخَ " انتظر! صمتاً، من فضلك! "، ومن ثم فَكَّ أزرار قميصه، وقد برقَتْ عيناه الضيّقتان بوميضٍ غامضٍ، وتراجَعَ بسرعةٍ عدةَ خطوات حتى لامسَ ظهره النافذة، ودلّى قطعةً من شريطٍ أسود كان معلّقاً من عنقه، وقبل أن نتمكَّن من قول بوو! إذا به ينفخ بقوةٍ صاعقةٍ في صفّارة خاصةٍ برجالِ الشرطة مربوطةٍ بالشريط. وخرَقَ الضجيج طبلات آذاننا. كان شيئاً يصيب بالهلوسة.

صرختُ، حين رفعها شلدون إلى شفتيه من جديد، " كفى! "

قبضَ أومارا بقوة على الصافرة، وزعقَ " أسرع! خبِّئ كل شيء! إذا جاء رجال الشرطة سوف نقضي وقتاً لا نهاية له ونحن نعمل على تفسير وجود هذه الغنيمة "

على الفور جمعَ أوزيكي الخواتيم، والأوراق المالية، والمحفظة والأحجار الكريمة كلها معاً، وأنزلها بهدوء في جيب معطفه وجلسَ معقود الذراعين، في انتظار وصول رجال الشرطة.

أخذ شلدون يُلقي علينا نظرة تأنيب واشمئزاز، ثم قال، وأنفه مرفوعٌ إلى أعلى، ومنخراه يرتعشان، " فليأتوا، إن شلدون لا يخشى رجال الشرطة"

انشغلَ أومارا في حشرِ الصفّارة في مكانها في صدر شلدون، ثم زرَّرَ له قميصه، فبذلته فمعطفه. وسمحَ له شلدون أن يفعل كل ذلك تماماً كما لو أنه عارضة أزياء يتمُّ إلباسُها لتقف في واجهة العرض. إلا أنه لم يُزِح عينيه لحظةً واحدةً عن أوزيكي.

وفعلاً، بعد مرور وقت قصير رنَّ الجرسُ، وهرعَتْ مونا إلى الباب. وكان الطارق رجال الشرطة كما توقّعنا.

تمتمَ أومارا " تكلّموا! "، ورفعَ صوته وكأنه يواصل نِقاشاً حامي الوطيس. رددت عليه بنبرة الصوت نفسها، دون أن أولي انتباهاً إلى ما قال. وفي الوقت نفسه أشرتُ إلى أوزيكي كي ينضمّ إلينا. وكل ما استطعتُ أن أحصلَ عليه منه هو تكشير. وبقي معقود الذراعين، هادئ الأعصاب، يراقب وينتظر. وكان في الإمكان سماع مونا، بين نُتَفٍ من النقاش الزائف، تحتجُّ لأننا لا نعرف أي شيء عن صفّارة رجال الشرطة. ولو لم أسمع شيئاً لكنتُ سمعتُها تقول ذلك. وكان أومارا يثرثر ويبربر مثل عقعق، وقد أخذَ الآن يتّخذ أصواتاً أخرى، وتنغيماتٍ أخرى. وكان يحثّني بإشاراتٍ خرساء مسعورة كي أحذو حذوه، ولو كان رجال الشرطة قد دخلوا علينا في تلك اللحظة لشهدوا مقطوعة تمثيلية مضحكة. ووسطَ هذا كله طَفَقَتُ أضحك، مضطراً أومارا إلى أن يضاعفَ جهوده. وطبعاً كانت لويلا تجلس جامدة كحجر. وكان أوزيكي يتفرَّج إلى العرض وكأنما من مقعدٍ في سيرك. لقد كان في حالةِ ارتياحٍ كامل؛ بل إنه في الحقيقة كان مشرقاً. أما شلدون فلم يتزحزح من مكانه قيد أنملة. وكان ظهره ما يزال مستنداً إلى النافذة. وظلّ واقفاً هناك مزرَّراً كله، وكأنه ينتظر المُلبِّس قبل الوقوف في الواجهة كي يُهندم له ذراعيه وساقيه. ولوّحت له مراراً وتكراراً كي يتكلّم، لكنه ظلّ كتيماً، ومتحفِّظاً، وازدرائياً تماماً.

أخيراً سمعنا الباب يُغلَق ومونا وهي تعود عدواً.

قالت " الحمقى البلهاء! "

قال شلدون بنبرةِ صوتٍ تنمُّ عن أمرٍ اعتيادي، " إنهم دائماً يأتون حين أنفخ في الصفَّارة "

علَّقتُ قائلاً " آمل فقط ألاّ ينزل إلينا صاحب الدار "

قالت مونا " لقد ذهبوا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع "

قال أومارا " هل أنتِ واثقة من أن رجال الشرطة أولئك لا يقفون في الخارج؟ "

قالت مونا " لقد رحلوا، أنا واثقة. يا إلهي، ليس هناك ما هو أسوأ من غليظٍ إلاّ غليظين. حسبتُ أني لن أقنعهما أبداً "

سألَ أوزيكي " لمَ لمْ تدعيهما إلى الدخول؟ دائماً يتَّضح أن هذه هي أفضل طريقة "

قالت لويلا " نعم، نحن دائماً نفعل ذلك "

كشَّرَ أوزيكي مبتسماً وقال " لقد كان عملاً بارعاً. هل تمارسون دائماً ألعاباً كهذه؟ هذا الشلدون مسلٍّ "، ونهضَ واقفاً على مهل وأفرغَ الغنيمةَ على الطاولة. ثم تقدَّمَ من شلدون وقال: " أتسمح أن ألقي نظرةً على تلك الصفّارة؟ "

على الفور نهَضَ أومارا إلى قدميه، وكان مستعداً أن يطوِّق شلدون بكلتا ذراعيه، وتوسَّلَ " قف! إياك أن تفعل هذا ثانية! "

مدَّ شلدون يديه الاثنتين، وراحتاهما متّجهتان إلى الأمام، وكأنما ليصدَّنا عنه، وهمسَ" صمتاً! "، وهو يُدخِل يده اليمنى إلى جيب بنطاله الخلفي، وقال بهدوء وتجهُّم، وما تزال إحدى يديه ممدودةً والأخرى على وركه، لكنَّ المعطفَ يخفيها: " إذا أضعتُ الصفّارة يبقى معي دائماً هذا"، وأخرجَ مسدساً وصوَّبه نحونا. سدَّده إلى كل منا بدوره، دون أن

يجرؤ أحد على الإتيان بحركة أو إصدار صوت خشية أن تضغط يده آلياً على الزناد. ولما اقتنعَ بأنه قد تركَ الأثرَ المناسبَ علينا أعادَ المسدسَ ببطء إلى جيبه الخلفي.

اتّجهتْ مونا مباشرةً إلى الحمّام، وللتو نادت عليّ كي ألحق بها. فاستأذنتُ لأرى ماذا تريد. فجرّتني إلى الداخل جراً تقريباً، ومن ثم أقفلتُ الباب بالمفتاح، وهمستُ " أرجوك، أخرجهم من هنا، كلهم؛ أخاف أن يقع حادث "

قلت، ولكن دون حماس " أهذا ما تريدينه حقاً؟ لا بأس "

توسّلتْ إليّ " لا، أرجوك، افعل هذا على الفور. إنهم جماعة مجانين "

تركتها وقد أوصدَتْ باب الحمّام على نفسها وعدتُ إلى المجموعة. كان شلدون عندئذ يعرضُ على أوزيكي مطواةً شكلها إجراميّ كان أيضاً يحملها معه. وكان أوزيكي يختبر الشَفرة بإبهامه.

برَّرتُ غياب مونا بأنها متوعكة، ووجدتُ أنَّ تلك أفضل طريقة لفضّ التجمُّع.

هرَعَ شلدون خارجاً لكي يتّصلَ بالطبيب هاتفياً. وأخيراً نجحنا في التخلُّص منهم، ووعد أوزيكي أن يعتني بشلدون، واحتجَّ شلدون بالقول إن في استطاعته أن يعتني بنفسه. وتوقّعتُ أن أسمع نفخ الصفّارة بعد بضع دقائق. وتساءلت عمّا يمكن لرجال الشرطة أن يقولوه لو أنهم أفرغوا محتويات جيوب شلدون. ولكن لم يَخرِق أي صوتٍ الصمتَ.

* * *

بينما كنت أنزع ملابسي استعداداً للإيواء إلى السرير وقعتْ عيني

على منفضة سجائر نحاسيّة صغيرة، أعتقد أنها من الهند، وكنت أكنُّ لها إعجاباً خاصاً. كانت أحد الأشياء الصغيرة التي انتقيتها يومَ جلبتُ أثاثَ البيت؛ شيئاً رغبت في أن أحتفظ به إلى الأبد. وعندما حملتها بيدي لأعيدَ تفحُّصها، أدركت فجأة أنه لا غَرَضَ في المنزل ينتمي إلى الماضي، إلى ماضي حياتي، كل شيء كان جديداً. وعندئذ بالذات فكَّرتُ في ثمرة البندق الصينية الصغيرة التي كنت أحتفظُ بها منذ أيام الطفولة داخل صندوق حديدي صغير أضعه على رف المدفأة في بيت أهلي. ولم أعد أذكر كيف حصلتُ على تلك البُندقة؛ لعل أحد الأقرباء العائد من البحار الجنوبية قد أعطاها إليّ. وكنت أحياناً أفتحُ الصندوق الصغير، الذي لم يحتو قط على أكثر من بضعة بنسات، أُخرِجُ البُندقة وأعبثُ بها. كانت ناعمة الملمس كقماشٍ مُزأبر، ولونها بني، ولها نطاقٌ أسود يمتدُّ على طولها وحتى المركز. ولم أر بُندقة مثيلة لها قط. وكنت أحياناً أُخرجُها وأحملها معي في تنقّلاتي لأيامٍ أو لأسابيع، ليس استجلاباً للحظ الحَسَن، وإنما لأني أحبُّ ملمسها. كنت أعتبرها شيئاً يلفُّه غموض تام؛ راضياً بإبقائها لغزاً. كنت واثقاً من أنَّ لها تاريخاً عريقاً، وأنَّ أيادٍ كثيرة قد تناقلتها، وأنها طافت في طول الدنيا وعرضها. وهذا ما حبّبها إليّ. وذات يوم، بعد زواجي من مود ببعض الوقت، تملّكني اشتياقٌ شديد لهذه الفتشة الصغيرة حتى أني قمت بزيارةٍ خاصة لمنزل والديَّ لأستعيدها. وكان ذهولي وخيبة أملي عظيمين حين علمتُ أن أمي قد أعطتها لصبيّ صغير من الجيران عبَّرَ عن إعجابه بها. أي صبي؟ أردتُ أن أعرف. لكنها لم تعد تذكر. ورأت أنَّ سخفاً مني أن أُبدي كل ذلك القدْر من الاهتمام بشيء تافه. وتحدَّثنا في أمورٍ شتى، في انتظار وصول والدي وتناول طعام العشاء معاً.

فجأة سألتها " ومسرحي، هل تخلَّصتِ منه هو الآخر؟ "

قالت أمي " من زمان. أتذكر الصغير آرثر الذي يسكن في الشقق المقابلة لنا؟ كان مجنوناً به "

" إذن فقد أعطيتِه له؟ "، ولم أكن آبه أبداً بالصغير آرثر. فقد كان مخنثاً بالفطرة. لكنَّ أُمي كانت ترى أنه ولدٌ عظيم، وأنَّ سلوكه محبَّب، وما إلى ذلك.

سألتها " أتظنين أنه ما زال يحتفظ به؟ "

" أوه، كلا، طبعاً لا يحتفظ به! لقد أصبح كبيراً الآن، ولم يعد يلعب بذاك الشيء "

قلت " مَنْ يدري، قد أذهب إليه وأرى "

" لقد انتقلوا "

" وأعتقد أنك لا تعرفين إلى أين؟ "

طبعاً لا تعرف، أو كانت في الغالب تعرف لكنها ترفض أن تخبرني. وكرَّرت القول إن حماقةً بالغة مني أن أرغبُ في استرجاع تلك الأغراض القديمة.

قلت " هذا ما خمَّنتُهُ، لكني مستعدُ أن أهِبَ أي شيء مقابل أن أراها ثانية "

" انتظر حتى يصبح لديك أطفال، ومن ثم اشترِ لهم غيرها جديدة وأفضل منها "

قلتُ محتجّاً بقوة " لا يمكن أن يكون هناك مسرحُ أفضل من ذاك"، وألقيتُ على مسمعها كلاماً مطوَّلاً عن عمي إذ مارتيني الذي أمضى شهوراً وشهوراً وهو يصنعه لأجلي. وأثناء حديثي رأيتني من جديد واقفاً

تحت شجرة عيد الميلاد. وتراءى لي أصدقائي الصغار الذين كانوا كثيراً ما يزورونني خلال فترات العُطَل، فيجلسون في دائرة على الأرض، ويراقبونني وأنا أعالج الأدوات المرافقة للمسرح.

لقد فكَّرَ عمي في كل شيء، ليس فقط في تبدُّلات المشهد وتشكيلة الشخصيات بل وفي أضواء مقدَّم خشبة المسرح، والبكرات، والأجنحة، والستائر الخلفية، وكل ما يمكن تصوُّره. وبقيت على عادة إخراج المسرح كلما حلَّ عيد الميلاد، وإلى أن بلغت السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمري. وفي إمكاني اليوم أن ألعب به حتى بحماسٍ يفوق حماسي وأنا طفل، فقد كان شيئاً فائق الجمال، بالغ الكمال، شديد التعقيد. لكنه ضاع ولن أراه أبداً. وحتماً لن أعثر مطلقاً على مثيلٍ له، لأن هذا قد صُنِعَ بالحب وبالصبر وهما شيئان لا يبدو أنَّ أحداً يملكهما. وأفكِّر الآن أنَّ هذا أيضاً أمرٌ غريبٌ، لأن إد مارتيني طالما اعتُبِرَ إنساناً فاشلاً لا نفع يُرجى منه، إنساناً يبدِّد وقته، يسرق في شرب الخمر ويُكثِر من الثرثرة، بيدَ أنه كان يعرف ما الذي يُسعِد طفلاً!

لم يبق أي شيء من عهد طفولتي. صندوق العدَّة وُهِبَ لجمعية النوايا الحسنة، وقصصي وُهِبَتْ إلى ولدٍ صغيرٍ آخر كنت أمقته. وأستطيع أن أتخيَّل بوضوح تام ماذا فعلَ بكُتُبي الجميلة. وأما الجزء المثير للسخط من الأمر كله كان أنَّ أمي رفضت أن تبذل حتى أقلّ جهد لمساعدتي في استرجاع تلك الممتلكات. فبالنسبة إلى الكتب، مثلاً، لقد جَزَمَتْ أني كنت قد أعدت قراءتها مرات عديدة جداً حتى أنه لابد أني بتُّ أحفظ محتوياتها عن ظهر قلب. وهي لم تستطع، أو لم ترغب، أن تفهم أني أردتُ أن أمتلكها مادياً. ولعلها كانت في لا وعيها تعاقبني بسبب طريقتي الجذلة في تقبُّل العطايا.

(كانت رغبتي في توثيق الروابط التي تصلني بالماضي، بفترة طفولتي الرائعة، تزداد قوةً باطِّراد. وكلما ازدادَ عالمُ الحياة اليومية تفاهةً وإثارةً للاشمئزاز، ازددتُ تمجيداً لأيام الطفولة الذهبية. ومع مرورِ الزمن بتُّ أرى بوضوح متزايد أنَّ فترةَ طفولتي كانت عطلةً طويلةً متواصلة - مهرجان من الشباب. وهذا لا يعني أني شعرتُ أني أتقدَّم في السن، بل يعني ببساطة أني أدركتُ أني فقدتُ شيئاً نفيساً)

هذه الفكرة المحوريّة كانت تغدو أكثر صواباً حين كان والدي يحكي لي، بقصدِ إحياءِ ذكرياتٍ ممتعة، عن أفعالِ رفيقي في ملاعب الطفولة الحميم، توني ماريلا. فيبدأ قائلاً " لقد قرأت لتوّي شيئاً عنه في عدد الأسبوع الفائت من صحيفة " التشات ". في أول الأمر كان الكلام يدور حول مآثر توني ماريلا الرياضية، عن كيف، مثلاً، فاز في سباق الماراثون وكاد يسقط ميتاً. ومن ثم ينتقل إلى الحديث عن النادي الذي نظّمه توني ماريلا، وكيف كان يعمل على تحسين أحوال الأولاد الفقراء في الأحياء المجاورة، وأنك دائماً ترى صورته الفوتوغرافية مصاحبة للمقالة. وبفضل " التشات "، الصحيفة الأسبوعية المحلية، سرعان ما أصبح حديث الصحف اليومية في بروكلن، وكان شخصية بارزة يُشار إليها بالبنان، وكان مقدَّراً له أن تُطبِّق شهرته الآفاق، ذات يوم. نعم، ولا غرابة إذا ما هَزَمَ ألدرمن قريباً. وما إلى ذلك ... مما لا شك فيه أن توني ماريلا كان النجم اللامع الجديد في سماء دائرة بوشويك. لقد بدأ من الصفر، وتغلَّبَ على العقبات كلها، واختبر نفسه في دراسة القانون؛ وكان مثالاً ساطعاً لما يمكن لإبن مهاجر فقير أن يجعل من نفسه في أرض الفرص المتاحة المجيدة هذه.

على الرغم من شدّة إعجابي بتوني ماريلا، إلا أنه كان دائماً يُسئِمُني أن أسمع كيف كان أهلي يهذون في إطرائه. وقد تعرّفتُ على توني من المدرسة المتوسطة؛ وكنا دائماً في الصف نفسه وتخرّجنا معاً على رأس الصف. وقد كان على توني أن يكافح للحصول على كل شيء، في حين أن الوضع بالنسبة إليّ كان عكس ذلك. لقد كان ولداً صلباً متمرِّداً وكانت طباعه الحيوانية تثير جنون أساتذته. ومع الأولاد كان قائداً بالفطرة. ثم أضعتُ أَثَرَه تماماً على مدى سنواتٍ طويلة. ولم أَعُدْ حتى أُفكِّر فيه. وذات أمسية شتائية، وبينما كنت أخوضُ في الثلوج، إذا بي أقابله مصادفة. كان في طريقه لحضور اجتماعٍ سياسي، أما أنا فكنت متوجهاً لمقابلة شقراء تدير الرؤوس. حاول توني أن يقنعني بمرافقته إلى الاجتماع، وقال إن ذلك سينفعني. ضحكتُ في وجهه، فانزعجَ قليلاً، وأخذ يحدِّثني في السياسة، قال إنه بسبيل إصلاح الحزب الديموقراطي لمنطقتنا، المنطقة التي فيها بيتنا القديم. ومرة أخرى ضحكت، وهذه المرة كدتُ أكون مُهِيناً. ورداً على ذلك صاح توني: " سوف تصوِّت لصالحي في غضون سنتين، انتظر وسترى. إنهم بحاجة إلى أمثالي في الحزب ". فقلت له " توني، إني لم أصوِّت مرة في حياتي، ولا أظنني سأفعل أبداً. ولكن إذا كنتَ تصبو إلى احتلال منصبٍ فقد أقوم بتصرُّف استثنائي. لا شيء أحبُّ إلى نفسي من أن أراك وقد أصبحت رئيساً للولايات المتحدة. سوف تكونُ مفخَرَةَ البيت الأبيض ". وظَنَّ أني أسخر منه، لكني كنتُ جاداً تماماً.

في غمرة هذا الحديث أتى على ذِكر اسم منافسه المُحتَمَل مارتن مالون. هتفت " مارتن مالون! أتقصد صاحبنا مارتن مالون؟ "، فأكَّدَ لي

" هو بعينه ". وقد أصبح الآن الشخصية التي تبرز في الحزب الجمهوري وذُهلتُ أيّما ذهول حتى كدتُ أنطرح أرضاً. ذلك الأبله! كيف توصَّلَ إلى إحراز تلك الشُهرة؟ وشرحَ لي توني قائلاً إنَّ الفضلَ يعود إلى نفوذِ والده. فتذكَّرتُ العجوز مالون جيداً؛ لقد كان رجلاً طيباً وسياسياً نزيهاً، وهو أمر نادرٌ. أما ابنه! وَلَوْ، إنَّ مارتن، الذي يكبرنا بأربع سنوات، كان دائماً الأخير في الصف. وكان يفأفئ أيضاً فأفأة فظيعة، أو هكذا كان وهو صغير. وهذا الغبي أصبح الآن شخصية بارزة في السياسة المحلّية. قلت " هاأنت ترى لِمَ لستُ مهتماً بالسياسة. فقال توني بحماس " في هذه الناحية أنت مخطئ يا هنري. هل تريد أن ترى مارتن مالون وقد أصبح عضواً في الكونغرس؟ ". قلت " بصراحة، لا يهمني على الإطلاق مَنْ يصبح عضواً في الكونغرس نائباً عن هذه الدائرة، أو أي دائرة. هذا أمر لا ينطوي على أي قدرٍ من الأهمية. بل لا يهمّ حتى مَنْ يصبح رئيساً للدولة. لا شيء يهمّ. إنَّ البلدَ لا يُدارُ على أيدي هؤلاء الخَروات ". هزَّ توني رأسه معبِّراً عن استنكاره التام. قال " أنت ضائع يا هنري، أنت فوضوي قلباً وقالباً ". وعلى هذا افترقنا، ومرَّت بعدها سنوات طويلة لم نتقابل قط.

كفَّ العجوز عن الضرب على وتر فضائل توني. وكنت أعلم، طبعاً، أنَّ والدي كان فقط يحاول أن يبثَّ فيَّ بعض الحياة. كنت أعلم أنه بعد أن ينتهي من التحدُّث عن توني ماريلا سوف يسألني عن سير أحوال الكتابة عندي، وألمْ أبع شيئاً بعد، وما إلى ذلك. وإذا قلت أنه لم يحدث بعد أي شيء ذي بال، فسوف ترميني أمي عندئذ بإحدى تلك النظرات الجانبية الحزينة، وكأنها تُشفِقُ عليَّ بسبب جهل أساليبي، وربما

أضافت بصوت عالٍ أني طالما كنتُ ولداً لامعاً في المدرسة، وأنه قد أُتيحَتْ لي فُرَصٌ شتى، ومع ذلك فهنا أنا أجعل من نفسي شيئاً أحمقَ ككاتب. وسوف تقول " ليتَ في استطاعتك فقط أن تكتبَ شيئاً لصحيفة " ساترداي إيفننغ بوست! ". أو تقول، لتجعل وضعي أشدّ إثارة للسخرية: " ربما تقبل " التشات " أن تنشر إحدى قصصك! " (وبالمناسبة، هي تسمّي كل شيء أكتبه قصصاً، على الرغم من أني شرحتُ لها مراتٍ عدة أني لا أكتب " قصصاً "، فتكون كلمتها الأخيرة دائماً هي " حسنٌ، كائناً ما تكون ")

عند الفراق كنتُ دائماً أقول لها " هل أنت واثقة من أنه لم يتبقَّ أيٌ من أغراضي القديمة؟ "، ويكون الجواب دائماً - " لا تحلم بذلك! ". وفي الشارع، بينما هي واقفة عند السياج تلوِّح بيدها مودِّعةً، تُطلق عليَّ هذا السهم العدائيّ: " ألا تعتقد أن من الأجدى لك أن تكفّ عن ممارسة الكتابة وأن تجد لك وظيفة؟ يجب أن تدرك أنك لم تعد صغيراً على الإطلاق. ستصبح رجلاً عجوزاً قبل أن تبلغ الشهرة "

أغادرُ تملؤني الندامة لأني لم أجعل أمسيتهم أكثر إمتاعاً. وفي طريقي إلى المحطة المرفوعة كان لابد أن أمرَّ من أمامِ منزل توني ماريلا القديم. كان والده ما يزال يدير محلَّ اسكفة في الشارع المقابل. وقد نشأ توني وترعرع في تلك الزريبة. والصَرحُ نفسُهُ لم يطرأ عليه أي تغيير خلال الجيل الذي مضى. وحده توني تغيَّر، وتطوَّر، أثناء مجاراته لتقلُّبات الزمن. وشعرتُ أني واثقٌ من أنه كان ما يزال يتحدَّث بالإيطالية مع والديه، ما يزال يقبِّل والده بشوقٍ مشبوب لدى لقائه، وما يزال يعيل عائلته من راتبه الضئيل. ما أشدّ اختلاف الجو العام السائد

بين أهل ذاك المنزل! ما أشدّ بهجة والديه إذ يرونه وهو يشقُّ طريقه بنجاح في الدنيا! وحين كان يُلقي خُطَبَه الفخيمة كانا يعجزان عن فهم أي كلمة يقولها. لكنهما كانا يعرفان أنه يقول الحق. لقد كان كل ما يفعله في عيونهم صواباً. إنه بحقّ ابنٌ بارّ. فإذا ما حدث وبلغَ المنزِلَةَ الرفيعة، فسوف يكون رئيساً عظيماً للولايات.

بينما كنتُ أستعيد هذا كله تذكَّرتُ كيف كانت أمي تتحدَّث عن أبي، عن المفخرة والفرح اللذين كان يجلبهما لوالديه. وكنت أنا الشوكة المغروزة في جنبهما. كنت جالب المصائب. ومع ذلك، مَنْ يدري؟ قد يتغيَّر الحال رأساً على عقب ذات يوم. قد أُبدِّل ذات يوم، وبضربةِ حظٍ، الوضعَ كله. ربما ما زال في إمكاني أن أُثبتْ أني ليس ميؤوساً مني بشكل كامل. ولكن متى؟ وكيف؟

٥

ذات صباحٍ مشمسٍ من أول تباشير الربيع وجدنا نفسينا في الجادة الثانية. كان عملنا في" النقوش التظليلية " يلفظ أنفاسه ولا جديد في الأفق. وكنا قد انتقلنا إلى الإيست سايد لنجسَّ النبض ولكن بلا نتيجة. نال منا التعب والعطش من طول التجوُّل سيراً على الأقدام تحت أشعة الشمس الحارقة، فأخذنا نتساءل كيف نحصل على مشروبٍ بارد مجاناً. وأثناء مرورنا بمحل لبيع الحلوى يحتوي على نافورة صودا مغرية قررنا، بحافزٍ مشتركٍ، أن ندخلَ، وأن نتناول مشروباً، ومن ثم أن ندَّعي أننا أضعنا نقودنا.

خَدَمَنا صاحب المحل، الودود، الأليف، اليهودي الهيئة، بنفسه. دلَّ سلوكه بوضوحٍ إلى أنه قادم من عالمٍ آخر. توانينا في رشف المشروب، ونحن نجرُّه إلى الانخراط في الحديث معنا لنُعدّه لتلقِّي الخبر السيئ. وأشبعنا غروره بإيلائه اهتمامنا. وعندما حان الوقت رحتُ أفتِّشُ في جيوبي عن فكّة، ولمّا لمْ أجد شيئاً منها طلبتُ من مونا بصوتٍ عالٍ أن تبحث في حقيبة يدها، قائلاً إني لابد قد نسيتُ نقودي في المنزل. وطبعاً هي لم تعثر ولا حتى على بنس أحمر. فاقترحتُ على الرجل، الذي وقفَ بهدوء يراقب هذا الأداء، إنْ لم يكن لديه مانع، أن نسدِّد له في المرة

التالية التي نمرّ فيها من هذه المنطقة. فقال بكل دماثة أنَّ في إمكاننا إذا شئنا أن ننسى أمر الدفع. ومن ثم سَألَنا بكل أدب عن المنطقة التي أتينا منها. فاكتشفنا ونحن مندهشان أنه يعرف معرفةً حميمة الشارعَ نفسَه الذي نسكن فيه. وعندئذ دعانا إلى مشروبٍ آخر وقدَّمَ لنا مع المشروب كعكاً لذيذاً. وكان جلياً أنه تواّقٌ إلى معرفةِ المزيدِ عنا. ولمّا لم يكن لدينا ما نخسَره قرَّرتُ أن أعترفَ له بكل شيء.

إذن فنحن مفلسان؟ لقد انتابه الشكُّ في هذا، غير أنّه مع ذلك صُعِقَ لأنّ اثنين على قدرٍ عالٍ من الذكاء، ويتكلمان لغة إنكليزية غاية في الجمال، وأميركيَّين حتى أخمصيهما، يعجزان عن أن يجدا وسيلةً لكسبِ العيشِ في مدينةٍ مثل نيويورك. وطبعاً تظاهرتُ بأني أُرحِّب بالعمل إذا عثرتُ عليه. وألمحتُ إلى أنه ليس من السهل عليَّ أن أعثرَ على عملٍ لأني في الحقيقة عاجزٌ عن القيام بأي عمل خلاف الكتابة، مُضيفاً أني قد لا أكون أيضاً حاذقاً جداً حتى في هذا. أما هو فتفكيره مختلف. وأنبأنا بأنه لو كان يُتقِنُ القراءة والكتابة باللغة الإنكليزية لكان الآن يسكن في بارك آفنيو. وتتلخَّص قصة حياته، وهي من النوع الشائع على نطلق واسع، في أنه كان قد قَدِمَ إلى أميركا قبل ثماني سنوات وجيبه لا يحتوي إلا على حفنة من الدولارات. وقَبِلَ في الحال عملاً في مقلع رخام، في فرمونت. عملاً قاسياً. إلا أنه أتاحَ له أن يوفِّر بضع مئات من الدولارات. وبذلك المبلغ اشترى بعض النثريات، ووضعها في كيس، وانطلق يعمل كبائع جوّال. وخلال فترة قصيرة من الزمن(كما لو أنه في إحدى قصص هوراشيو آلغر[٤٤]) ابتاع عربة جرّ، ومن ثم عربةً

---

٤٤ - هوراشيو ألغر (١٨٣٤ - ١٨٩٩) : كاتب قصص مغامرات للفتيان . أميركي . - المترجم .

يجـرُّها حـصـان. وكـان تـفكيـره ينصَبُّ طوال الوقت على المجيء إلى نيـويورك حيث كـان يصبـو إلى فـتح مـحلٍ من نوعٍ مـا. وقـد اكـتـشفَ مصادفةً أنه يمكن للإنسـان أن يكسَبَ قوته من بيعِ حلوياتٍ مستوردة. حين وصل إلى هذه النقطة من الحديث مدَّ يده إلى مكانٍ مرتفع خلفه وأنزلَ تشكيلةً من الحلويات المُسكَّرَة الأجنبية، وكلها موضوعٌ داخل علبٍ جميلة. وطَفَقَ يشرحُ بدقّةٍ كيف راح يبيع هذه السكريات متنقّلاً من باب إلى باب، بدءاً بمرتفعات كولومبيا حيث يقطن الآن. وقد أدّى عمله بنجاحٍ، مستخدماً فقط لغةً إنكليزيةً مُكسَّرة. وفي غضون أقل من عام كان قد وفَّرَ مبلغاً كافياً لافتتاحِ محل. وقال، إن الأميركيين " يعشقون " الحلويات المستوردة. ولم يكونوا يعترضون على السعر. وهنا أخذ يسردُ أسعـارَ مـختَلَفِ الأنواع. ومن ثم أخبرنا عن مقدار ربح كل صندوق. وأخيراً قال: " إذاً كنتُ أنا قد استطعتُ أن أفعل ذلك، فلمَ لا تستطيعان أنتما ؟ ". وبعد ذلك مباشرة عَرَضَ أن يزوِّدنا بملء حقيبة كبيرة من الحلويات المستوردة بالدَين، إذا رغبنا في القيام بالمحاولة.

لقد كان الرجل طيباً جداً. وكان واضحاً تماماً أنه يحاول أن يُنهِضَنا لنقف من جديد على أقدامنا، بحيث أن قلبينا لم يطاوعانا على الرفض. وسمحنا له أن يملأ حقيبة كبيرة، وقبلنا النقود التي عَرَضَها علينا لنستقلَّ سيارة أجرة توصِلَنا إلى البيت، ومن ثم ودَّعَنا. وفي طريق العودة إلى المنزل تنامت حماستي للمشروع. ليس علينا إلا أن نبدأ من جديد، في صباح اليوم التالي، بدءاً بالحي الذي نقطنه. ولاحظتُ أن مونا لم تكن مبتهجة مثلي، غير أنها كانت مصمِّمة على القيام بالمحاولة. وأعترفُ بأنّه خلال الليل برَدَت حماستي قليلاً.

(لحسن الحظ كان أومارا غائباً لبضعة أيام، في زيارة لصديقٍ قديم. فقد كان جديراً به أن يسخر من الفكرة دون رحمة)

في اليوم التالي، وعند الظهيرة، تقابلنا لنتبادل وجهات النظر. وكانت مونا لدى وصولي قد عادت إلى المنزل لتوّها. ولم يبدُ عليها الكثير من الحماسة بخصوص ما حصلَ في فترة الصباح. كانت قد باعت بضعة صناديق، نعم، لكن العمل كان شاقاً. لقد وجدَتْ أن جيراننا ليسوا مضيافين كثيراً. (أما أنا فلم أكن، طبعاً، قد بعتُ صندوقاً واحداً. وكنت، في نفسي، قد تخلَّيتُ لتوّي عن الطواف من بابٍ إلى باب. وفي الحقيقة، كنت مستعداً لتقبُّل أي عمل)

رأت مونا أنه توجد طريقةٌ أفضل لإدارة العمل. ففي الغد سوف تباشر في أبنية المكاتب، حيث تتعامل مع الرجال، بدل ربّات البيوت والخَدَم. فإذا فشلَتْ في ذلك فسوف تجرِّب حظَّها في الملاهي الليلية في "الفيليج "، وربما في المقاهي على طول الجادّة الثانية. (أعجبتني فكرة المقاهي؛ فارتأيتُ أن أعالجها بنفسي، ووحدي)

اتَّضَحَ أن الوضعَ كان أفضل نوعاً ما في أبنية المكاتب منه في الأبنية السكنية، ولكن ليس أفضل كثيراً. فقد كان من الصعب الوصول إلى الشخص الجالس وراء طاولة مكتب، خاصة حين يكون ما تَعْرِضُهُ عليه هو حلوى مُسكَّرة. ثم إنه كان يجب تحمُّل كافة العروض القذرة. وقد ابتاع شخصٌ أو اثنان، من أفضلهم، نصف دزينة صناديق دفعة واحدة. بدافع الشفقة، دون ريب. أحد هؤلاء كان بحقّ إنساناً رائعاً جداً. وقرَّرتْ أن تقابله مرة ثانية قريباً. كان واضحاً أنه قد بذلَ أقصى جهده لإقناعها بترك هذا العمل. قالت " سوف أخبرك عنه لاحقاً "

لن أنسى ما حييتُ ليلتي الأولى كبائع جوّال. وكنت قد اخترتُ نقطةَ انطلاقي من " كافيه رويال " لأنه مثوى مألوف. (كنت آمل أن أقابل مصادفةً شخصاً أعرفه كي يُعِينَني على اتخاذ الخطوة الأولى المناسبة) وكان الناس ما يزالون يتوانون في تناول وجبة العشاء حين ولجتُ المكان حاملاً حقيبتي الصغيرة الملآى بصناديق الحلوى. ألقيتُ نظرةً سريعةً فيما حولي لكنني لم أعثر على أي شخصٍ أعرفه. وللتو لمحتُ مجموعةً من القاصفين جالسين على طاولة طويلة، فقررتُ أن يكونوا أول مَنْ أتعامل معهم.

لسوء الحظ كانوا متمادين قليلاً في مرحهم. قال أحدهم ساخراً "حلوى مستوردة، ولا أقلّ! ". وأراد الرجل الجالس إلى جواره أن يتفحَّص الحلوى، قال " لمَ لا تبيع حرائر مستوردة "، أراد أن يستوثق من أنها مستوردة وليست صناعة محلية. فتناول عدداً من الصناديق ووزَّعها على الموجودين. ولما رأيتُ أن النسوة انهمكن في تذوُّقها افترضتُ أنَّ كلَّ شيءٍ يسيرُ سيراً حسناً. ورحتُ أدورُ حول الطاولة، حتى جئتُ أخيراً إلى الرجل الذي بدا أنه رئيس المراسم. كان يفيضُ بالحديث، ويُدلي بأجوبةٍ بارعة. " حلوى، همم! نوع جديد من الأعمال. حسنُ الملبَس ويتكلَّم لغة إنكليزية سليمة. ولعله يشقُّ طريقه في الجامعة ... " Et patati et patata وقَضَمَ في بعضٍ منها، ومن ثم من الصندوق إلى الجهة المقابلة، وهو لا يزال يكرُّ تعليقاته، في مناجاة ذاتيّة جعلت الآخرين في حالةِ ضحكٍ لا سبيل إلى مقاومته. وتركوني واقفاً هكذا مثل عصا. ولم يكن أي منهم بعد قد سألني عن سعر الصندوق. ولا قال أي منهم إنه يريد أن يشتري صندوقاً. لقد كان الأمر أشبه بلعبة

برجيس. ومن ثم، بعد أن تناولَ الجميع عيّناتٍ من الحلوى حتى امتلأت بطونهم، وبعد أن تذوقوا وتمازحوا على حسابي، انصرفوا إلى الحديث حول أمورٍ أخرى، عن كل شيء ماعدا النطق بكلمة واحدة عن الحلوى، لم يذكروا ولا حتى بكلمة واحدة الشاب، محسوبكم المخلص لكم، الواقف هناك في انتظار أن يقول أحدهم شيئاً.

بقيتُ واقفاً فترة طويلة، متسائلاً إلى أي حدٍّ ينوي هؤلاء المخمورين في التمادي في مزحتهم الصغيرة. ولن أقُم بأي محاولة لجمع الصناديق الموزَّعة بينهم. ولا أنا فتحتُ فمي لأقول كلمة واحدة. اكتفيتُ بالوقوف حيث كنتُ أنقِّلُ نظراتٍ متسائلة من واحد إلى آخر، وأخذ تحديقي يتحوَّلَ تدريجياً إلى نظرةٍ غاضبةٍ. وشعرتُ بموجةٍ من الارتباك تنتقل بينهم. وأخيراً شعرَ الرجلُ الذي كان المضيف المرح، وكنت أقفُ عند مرفقه لا أنطقُ بكلمة، أنّ ثمة شيئاً غير مؤاتٍ يحدثُ. فالتفَتَ نصفَ التفاتٍ، ورفع بصره نحوي لأولِ مرةٍ، ومن ثم علّقَ قائلاً، وكأنما ليُبعدني: " ماذا، أما زلت واقفاً هنا؟ نحن لا نريد أي حلوى. اغرب عنا! ". ومع ذلك بقيتُ ملتزماً الصمتَ، مكتفياً بالعبوس. وكانت أصابعي تنتفض بحركةٍ عصبيّةٍ، وأنا متحرِّقٌ لأُطبِقَ على حنجرته؛ ولا أزال لا أصدِّق أنه كان ينوي أن يمارس تلك الخدعة معي - ليس أنا مَنْ يقبل، أنا الأميركي الأبيض بالفطرة. الفنان حتى أخمص قدميّ، وكل الأشياء العظيمة الأخرى التي عزوتها إلى نفسي في لحظةِ كبرياءٍ جريحةٍ. وفجأة تذكَّرتُ المشهد الذي كنت قد مثّلته لأسلِّي أصدقائي في تلك المقهى بالذات، حين هزأتُ بصورة شنيعة من اليهودي العجوز المسكين. أدركت فجأة مفارقة موقفي. لقد جاء دوري أنا الآن كي أكون المسكين العاجز.

أضحوكة الأمسية. لقد كان لهواً عظيماً؛ عظيماً بحقّ، هذا إذا كنتَ جالساً على الطاولة وليس واقفاً على قائمتيك الخلفيتين مثل كلبٍ يستجدي بضع كسرات. ورحت أغلي وأفور. كنت من شدّة إحساسي بالعار، والرثاء لحالي في وقتٍ واحد، إلى درجةِ الاستعداد لقتل الرجل الذي كان يعذبني. من الأفضل ألفَ مرة أن أستقرّ في السجن على أن أتحمَّل المزيد من المهانة. من الأفضل أن أُشعِلَ شجاراً وأُنهي الورطة.

لحسن الحظ أنَّ الرجلَ بدا وكأنه شعرَ بما كان يعتلج في خَلَدي. بيد أنه لم يكن يعرف تماماً كيف يُنهي مزحته الصغيرة. ثم سمعتُه يقول، بصوتٍ نبرته استرضائيّة تقريباً - " ما الأمر؟ ". وبعد ذلك لم أسمع أي شيء لبضع دقائق، لا شيء غير هدير صوتي أنا. ولا أدري ماذا كنت أزعق. كل ما أعرفه أني كنت أصخبُ كمجنون. وكان من الممكن أن أتابع هكذا إلى ما لا نهاية لو لم يعْمَدْ النُدُل إلى الإسراع بإخراجي. وكادوا أن يرموا بي إلى الخارج، وأذرعهم تحيطُ بي، وإذا بالرجل الذي كان يعذِّبني يناشدهم أن يطلقوا سراحي. وقفز واقفاً على قدميه، ووضع يده على كتفي. قال " أنا آسف. لم أكن أعلم أني أسبِّبُ لك كل هذا القدْر من العذاب. اجلس لحظة، هلاّ فعلت؟ "، وتناولَ زجاجةً وصبَّ لي ملء كأسٍ من النبيذ. كنت في سورة من الحمّى وأنا ما أزال أحدِّق بانشداه. وكانت يداي ترتعشان بعنفٍ. وفي تلك الأثناء كان أفراد المجموعة كلها يحدِّقون إليّ؛ وكأنهم يشكِّلون حيواناً ضخماً واحداً له العديد من العيون. وكان الجالسون على الطاولات الأخرى أيضاً يحدِّقون إليّ. شعرتُ بيدِ الرجلِ الدافئة ترتاح على يدي؛ وأخذ يلحُّ بصوتٍ مُهدِّئ كي أشرب. فرفعت الكأسَ وابتلعتُ محتواه دفعةً واحدة. فأعاد ملأه

ورفع كأسه إلى شفتيه. قال " في صحتك! "، واقتدى أفراد المجموعة الآخرين به. ومن ثم قال " اسمي شبيلبيرغ. ما اسمكَ، إذا لم يكن لديك مانع؟ ". أعطيته اسمي الصحيح، فبدا رنينه غريباً على أذني بشكلٍ هائل، وتقارعنا بالكؤوس، وسرعان ما اندفعوا يتكلّمون دفعةً واحدةً، وكلٌ يحاولُ أن يُثبِتَ لي بجهد يائس كم هو آسف لسلوكه الفظّ. فتوسَّلتْ إليّ امرأةٌ شابة جميلة تجلس قبالتي، قائلة " هلاّ تناولتَ بعض الدجاج؟ "، ورفعتْ الطبقَ وقدَّمته إليّ. وما كان في مقدوري أن أرفضَ. واستُدعيَ النادل. ألا أرغب في أي شيء آخر؟ قهوة، طبعاً، وربما قليلاً من الشنابس؟ وافقتُ. ولم أكن قد نطقتُ بعد بكلمةٍ واحدة، فيما عدا إعطائي اسمي. (ورحتُ أردِّد لنفسي " ما الذي يفعله هنري ميللر هنا؟ هنري ميللر ... هنري ميللر ")

من بين خليطٍ مشوَّشٍ من الكلمات أغرَ على أذني ميَّزتُ أخيراً ما يلي - " ما الذي تفعله هنا بحق الله؟ أهي تجربةٌ تقومُ بها؟ ". عند هذا الحدّ بات في استطاعتي أن أرسمَ ابتسامةً. قلت بصوتٍ واهنٍ " نعم، بصورةٍ ما ".

الآن أخذ المحبّ لتعذيبي يحاول أن يحدِّثني برصانة. قال " مَنْ أنت حقاً؟ أقصد، ماذا تعمل في المعتاد؟ "

أخبرته باختصار.

يا سلام، يا سلام! الآن بدأنا نتفاهم. لقد خمَّنَ شيئاً من هذا القبيل طوال الوقت. هل في إمكانه أن يقدِّم لي، ربما، مساعدة؟ وأسرَّ إليَّ أنه يعرفُ عدداً من الناشرين معرفةً حميمة. وهو نفسه كان يأمل في أن يغدو كاتباً، وما إلى ذلك ...

لازمْتُهُم مدة ساعة أو ساعتين، آكلُ وأشربُ، وأشعرُ بألفةٍ كاملةٍ معهم. واشترى كلُ من الحاضرين صندوقاً من الحلوى. وانتقلَ واحدٌ منهم أو اثنان إلى الطاولات الأخرى وأغريا أصدقاءهما أيضاً بالشراء، وشعرتُ بقدرٍ من الارتباك. وبدا من طريقة تصرُّفهم هذا أنَّ ذلك كان أقلّ ما في إمكانهم أن يقدموه إلى رجلٍ من الواضح أنه مقدَّرٌ له أن يصبح أحد أعظم الكتَّاب الأميركيين. وقد أدهشني مقدار الصدق والتعاطف الحقيقي اللذين أبدوهما. وقبل وقت قصير فقط كنت هدفاً لنكاتهم الفظّة. وقد اتّضحَ أنهم جميعاً من اليهود. يهودٌ من الطبقة الوسطى لديهم اهتمامٌ قويّ بالفنون. وخمَّنتُ أنهم بدورهم اعتبروني يهودياً. لا يهمّ. كانت تلك أول مرة أقابلُ فيها أي جماعة من الأميركيين توحي لهم كلمة فنان بالسحر. وقد أثار كوني فناناً وأيضاً بائعاً جوّالاً اهتمامهم المضاعَف بي. لقد كان أسلافهم جميعاً من الباعة الجوّالين وأيضاً، وإذا لم يكونوا فنانين، علماء. وكنتُ أنتمي إلى التراث.

كنتُ أنتمي إلى التراث بدون شك. أنتقلُ من مربَعٍ إلى مربع وأنا أتساءلُ ماذا يمكن لألريك أن يقوله إذا ما قابلني مصادفة. أو ند، الذي كان ما يزال يعمل كالعبد المُسْتَرِقّ للعجوز الجليل ماكفارلند. وبينما أنا أتفكَّرُ هكذا، إذا بي ألمحُ صديقاً لي يهودياً، طبيباً في أمراض الأُذُن، يقتربُ مني. (كنت أدينُ له بمبلغٍ كبير). وقبل أن يلمحني هرعتُ إلى الشارع وقفزتُ إلى إحدى الحافلات المتوجهة إلى قلب المدينة. ولوَّحتُ له بيدي من مكاني على منبسط الدرج. وبعد أن قطعتُ عدةَ أبنيةٍ ترجَّلتُ، ورحتُ أسير ضجراً عائداً إلى الأضواء البراقة، وبدأت من جديد، أبيع صندوقاً بين حين وآخر، ودائماً، كما بدا، إلى يهودي من الطبقة

الوسطى، يهودي يشعرُ بالرثاء، أو ربما بشيءٍ من الخجل، لأجلي. وكان من الغريب أن أتلقّى المواساة من أُناسٍ مضطَهَدين. كان تبادلُ الأدوار يمنحُ ارتياحاً غامضاً. وسَرَت بي الرعشةُ لدى تفكيري فيما يمكن أن يحدث إذا ما شاء سوء الحظ أن ألتقي بعصابةٍ من الأيرلنديين المشاكسين.

قرابة منتصف الليل أويتُ إلى المنزل. كانت مونا قد عادت قبلي وهي في مزاجٍ رائق. كانت قد باعت ملء حقيبة كبيرة من الحلوى. وكلها في بقعة واحدة. وأيضاً دُعيَت إلى تناولِ الشراب والطعام. أين؟ في محل بابا موسكوفيتز. (كنت قد ألغيتُ محل موسكوفيتز من برنامجي لأني كنت قد شاهدت سيارة الطبيب متوجِّه إليه)

" حسبتُ أنكِ ستبدئين بـ " الفيليج " هذه الليلة؟ "

هتفتْ " هذا ما فعلته "، وعجّلت فشرحتْ لي كيف التقتْ مصادفة بذاك المصرفي، ألان كروميل، الذي كان يفتش عن مكان هادئ يصلح للحديث. وجرَّته إلى محلّ موسكوفيتز حيث استمعا إلى عزفٍ على آلة التشيمبالون، الخ الخ. على أي حال، واشترى موسكوفينز صندوق حلوى منها، ومن ثم قدَّمها إلى أصدقائه، وأصرَّ كلٌ منهم على شراء حلوى. وبعد ذلك مَنْ الذي سيظهر فجأة غير ذاك الرجل الذي كانت قد قابلته في أحد أبنية المكاتب في صباحِ اليوم الأول وكان اسمه ماتياس. وكان وموسكوفينز صديقين منذ أيام البلد القديم. وهذا الماتياس طبعاً اشترى بدوره نصف دزينة صناديق.

هنا انتقلت إلى الحديث عن مجال العقارات. ويبدو أن ماتياس كان تواقاً إلى إطْلاعِها على سرّ المهنة. وكان واثقاً من قدرتها على بيع

المنازل بسهولة بيعها للحلوى المستوردة نفسها. عليها أولاً، طبعاً، أن تتعلّم قيادة السيارة. وهو سوف يعلّمها ذلك بنفسه، كما قالت. ورأت أنَّ فكرةَ التعلُّم جيدة، وإنْ كان لم يحدث قط أن باعت عقاراً. ويمكننا أن نستخدم السيارة بين حين وآخر للقيام بجولة. ألن يكون ذلك رائعاً؟ وإلى آخره ...

أخيراً نجحت في أن أقول " وكيف كان لقاؤه بكرومويل؟ "

" رائع "

" لا، أحقاً؟ "

" ولمَ لا؟ كلاهما ذكي وحسَّاس. وكونُ كرومويل سكيراً يجب ألاّ يجعلك تعتقد أنه أحمق "

" حسن، ما الأمر الهامّ جداً الذي أراد كرومويل أن يخبرك به؟ "

" أوه ذاك! لم نصل قط إلى تلك النقطة. لقد كان على الطاولة عدد كبيرُ من الناس ... "

" حسن. ومع ذلك، يجب أن أقول إنك دون شك قمتَ بعملٍ جيد". صمت. " أنا أيضاً بعتُ بعضاً منها "

باشرتْ بالقول، وكأنها لم تسمع ما قلتُ، " كنت أفكِّر يا فال "

عرفتُ ما الذي سيلي، ورسمتُ ابتسامةً ساخرة.

" أنا جادّة يا فال، يجب ألاّ تبيع حلوى. دع هذا العمل لي! هاأنت ترى كم الأمرُ سهلٌ معي. ابقَ أنت في البيت واكتب "

" ولكن لا يمكنني أن أكتب ليلاً ونهاراً "

" إذن فاقرأ، أو اذهب إلى المسرح، أو زُر أصدقاءك. أنت لم تعد تزور أصدقاءك أبداً "

قلت إني سأفكِّر في الأمر. وفي تلك الأثناء أفرغَتْ محتوى كيس نقودها على الطاولة. كان غنيمةً حقيقية.

قلت " سوف يُدهشُ رئيسُنا "

" أوه، ألم أقل لك؟ لقد قابلته هذا المساء. فقد اضطررتُ إلى أن أعود للتزوُّد بمزيدٍ من الحلوى. قال إذا استمرَّ الوضعُ على هذا المنوال فسوف نتمكَّن قريباً من افتتاح محلٍ خاصٍ بنا.

" ألن يكون ذلك رائعاً! "

* * *

استمرَّت الأمور في سيرها الحَسَنْ مدة أسبوعين. وكنت قد توصّلتُ إلى حلٍ وسط مع مونا: أنا أحمل الحقيبتين الكبيرتين وأنتظرُ في الخارج بينما هي تجمع الغلّة. وكنت دائماً أصطحبُ معي كتاباً وأقرأ. وكان شلدون يرافقنا أحياناً. ولم يكن فقط يصرُّ على حمل الحقائب بل كان يصرُّ أيضاً على دفع ثمن وجبة منتصف الليل التي كنا دائماً نتناولها في محلٍ يهودي لبيعِ الأطعمةِ المعلَّبة من الكريما المخمَّرة، والفجل، والبصل، وفطائر السترول، والبسطرما، والسمك المدخّن، وكافة أنواع الخبز الأسود والزبد الحلو الدسِم، والشاي الروسي، والكافيار، وشعيرية البيض - ومياه سلتزر الفوارة. ومن ثم نعود إلى المنزل بسيارة أجرة، ودائماً عبر جسر بروكلن. ونترجَّل أمام منزلنا الفخم ذي الحجارة البنّية اللون، وكنت غالباً ما أتساءل ماذا يمكن أن يظنه صاحب الملك إذا رآنا عائدَين إلى المنزل في مثل تلك الساعة من الصباح مع حقيبتنا.

كان دائماً يظهر فجأة معجبون جدُد. وكانت مونا تمرُّ بوقت عصيب وهي تعمل على التخلُّص منهم. وآخرهم كان فناناً يهودياً - مانيويل

سيغفريد. ولم يكن يملك الكثير من النقود ولكن لديه مجموعة رائعة من الكتب عن الفن .,وكنا نستعيرها دون تحفُّظ، خاصة الجنسية منها. وكنا نفضِّل الفنانين اليابانيين. وكان ألريك كثيراً ما يأتي مع عدسة مكبِّرة، لكي لا تفوته أدقّ ضربة ريشة.

كان أومارا يميل إلى بيعها بعد أن تدَّعي مونا أنها قد سُرِقَتْ. كان يرى أننا مُغالين في الوساوس.

ذات ليلة، حين جاء شلدون ليصحبنا، فتحت أحد أشدّ الألبومات حسيّة وطلبت منه أن يتفرَّج عليه. فألقى نظرة واحدة ثم أدار لي ظهره. ووضعَ كلتا يديه على عينيه وظلَّ كذلك إلى أن أغلقت الكتاب.

سألته " ما الأمر؟ "

وَضَعَ إصبعه على شفتيه وأشاحَ بوجهه.

قلتُ " إنها لا تعضُّ "

لم يُدلِ شلدون بجواب، وأخذَ يسير ببطء باتجاه الباب. وفجأة وضع كلتا يديه على فمه واتجه مباشرة إلى المرحاض. وسمعته وهو يتقيّأ. وحين عاد تقدَّمَ مني، وبعد أن وَضَعَ يديه في يديَّ. نظرَ في عيني نظرة توسُّل، وناشدني قائلاً بصوتٍ هامس " إياك أن تدع السيدة ميللر تراها!". فوضعتُ إصبعين على فمي وقلت: " حسن يا شلدون، أُعطيكَ كلمة شرف! "

حينئذٍ كنا نجده كل ليلة تقريباً. وعندما لا يكون لديّ رغبة في التحدُّث كنت أجعله يقف إلى جانبي، مثل عامود الكهرباء، وأباشر أنا القراءة. وبعد قليل يخطر لي أنَّ من الحماقة أن نقوم بجولاتنا بصحبة أبله يطرف بعينيه. وحين علمتْ مونا أني قررتُ أن أمكثَ في البيت

ابتهجت. وقالت إنَّ ذلك سيُتيحُ لها أن تعملَ بحرّية أكبر. وأنَّ ذلك أفضل لنا جميعاً.

وهكذا، ذات ليلة بينما كنتُ أتسامرُ مع أومارا، الذي فرحَ بدوره لأني سأمكثُ في المنزل، خطرتْ لي فكرة أن أبدأ عمل تلبية طلبات إرسال الحلوى بالبريد. ومباشرة قفز أومارا، المستعد دائماً كتلقّي أي عرض جديد، لالتقاط الطُعم. وكانت فكرته تقول " فلننجزه على مستوى واسع ". وشَرَعْنا على الفور في وضعِ الخطط: النوع المناسب من الورق الذي طُبِعَ عليه اسم المؤسسة، رسائل سيّارة، ورسائل مُتْبَعَة[٤٥]، ولوائح بالأسماء، الخ. ولدى تفكيري في الأسماء أخذتُ أُعِدُ كل الموظفين، وعمال التلغراف، والمدراء الذين عرفتهم في شركة التلغراف، ما كان يمكن أن يرفضوا شراء صندوق من الحلوى مرة في الأسبوع. وكان ذلك كل ما نوينا أن نطلبه من زبائننا المحتَمَلين - أن يشتروا صندوقاً في كل أسبوع. ولم يتبيَّن لنا أبداً أنه يمكن للإنسان أن يملَّ من أكل صندوق من الحلوى، حتى وإن كان من النوع المستورد، مرة في كل أسبوع وعلى امتداد اثنين وخمسين أسبوعاً في العام.

قرَّرنا أنه من الأفضل ألاّ نُطلِع مونا على مشروعنا لبعض الوقت. وقال أومارا " أنت تعرف كيف تتصرَّف "

طبعاً لم ينتج عن ذلك ما يستحق الذكر. لقد كانت القرطاسية جميلة، والرسائل ممتازة، لكن المبيعات كانت حرفياً صِفراً. وفي غمرة حملتنا اكتشفتْ مونا ما نعتزم عمله. واعترضَتْ عليه بصورةٍ قاطعة. فماتياس، زميلها في مجال العقارات، كان مستعداً لإطلاقها في المهنة

---

٤٥ - الرسائل المتبعة : هي الرسائل التي تحمل تفصيلات جديدة عن حَدَثٍ سبَقَ نشره .- المترجم .

في أي يوم. وقالت إنَّه بات في وسعها أن تقود سيارة (لم يصدِّق أيٌ منا هذا) وبعد بضع عمليات بَيْع جيدة سيكون في وسعنا أن نمتلك قريباً منزلنا الخاص، وما إلى ذلك ... ثم إنَّ هناك ألان كروموبل. إنها لم تخبرني عن عَرْضِه. لقد كانت تنتظر اللحظة الملائمة.

سألتها " حسنٌ، ما هو؟ "

" يريد مني أن أكتب عموداً صحفياً - لصالح صحف هرست. عموداً في كل يوم حتماً "

قفزتُ. " ماذا! عموداً في اليوم؟ مَنْ سمعَ قط بأنَّ صُحُفَ هرست تقدِّم عموداً لكاتبٍ مجهول؟ "

" هذا شأنه هو يا فال؛ هو يدري ما يفعل "

بدأ الشك يساورني. " هل سينشرون المادة؟ "

أجابت " لا، ليس فوراً. سوف نقوم بالعمل بضعة أشهر، فإذا أعجبهم ... مهما يكن، ليس هذا بالأمر الهام! المهم هو أن كروموبل سيدفع لنا مائة دولار في الأسبوع من جيبه الخاص. وهو واثق تماماً من أنَّ في إمكانه أن يبيع للرجل الذي يدير المؤسسة. إنهما صديقان حميمان.

" وعمَّ في إمكاني أنا - أو أنتِ، ولا مؤاخذة! - أن أكتب كل يوم؟ "

" عن أي شيء تحت الشمس "

" لا أظنّك جادّة! "

" بل جادَّة دون شك. وإلاّ لما فكَّرتُ في الأمر لحظة واحدة "

كان ينبغي أن أعترف بأنَّ العرضَ بدا جيداً. إذن ... هي ستبيع

عقارات وأنا سأكتب عاموداً يومياً. لا بأس بذلك. " مائة في الأسبوع، تقولين؟ إنها لفتةٌ كيِّسةٌ جداً منه ... أقصد، من كرومويل. لابد أنه يفكِّر فيكِ كثيراً " (قلتُ هذا بسيماء جادَّة)

" إنَّ هذا بالنسبة إليه مجرد شيء تافه يا فال؛ إنه ببساطة يحاول أن يمدَّ يد العون "

" هل يعرف وضعي؟ أقصد، أليست لديه شكوك؟ "

" طبعاً لا. أجُننتَ؟ "

" حسنُ، أنا فقط أتساءل. أحياناً يكون شاب كهذا ... يعني ... أحياناً، في إمكانك أن تصارحيهم بأي شيء. أودُّ أن أقابله في وقتٍ ما. لقد أثرتِ فضولي "

قالت مونا، وهي تبتسم " أمرُ هذا سهل "

" ماذا تعنين؟ "

" وَلَوْ، فقط قابلني في محل موسكوفيتز ذات أمسية، وسوف أقدمك بوصفك صديقاً "

" فكرةٌ لا بأسَ بها. سوف أنفِّذها ذات أمسية. سيكون شيئاً ممتعاً. يمكنك أن تقدميني كطبيب يهودي. ما رأيك؟ "

أردفتُ " ولكن قبل أن نتخلَّى عن عمل الحلوى أودُّ أن أقوم بتجربة؛ لدي حدسٌ بأننا إذا بعثنا بسُعاةٍ إلى مختلف مكاتب التلغراف فسوف نتخلَّص من كل ما عندنا. قد نبيع مائتي صندوق بضربة واحدة "

قالت مونا " أوه، بالمناسبة، إنَّ صاحب مخزن الحلوى دعانا لتناول العشاء معه في يوم السبت القادم. يريد أن يستضيفنا تعبيراً عن استحسانه. وأعتقد أنه سيَعرِضُ تثبيتنا في العمل. ولو أني في مكانك لما خذلتُه - إنَّ ذلك قد يؤذي مشاعره "

" طبعاً. إنه أمير. لقد فعل لأجلنا أكثر مما فعله أيٌّ من أصدقائنا في أي وقت "

خلال الأيام التي تلتْ انهمكتُ في كتابةِ رسائل شخصية موجزة موجَّهة إلى كل أصدقائي القُدامى في شركة التلغراف. بل إني ضمَّنتُها رسائلَ إلى بعض أعضاء مكتب نائب الرئيس. وأدركتُ من خلال تحديد المسار أني بحاجة إلى نصف دزينة سُعاة وليس إلى اثنين - إذا أردتُ للانقلاب أن يحدث بضربة واحدة "

جمعتُ مُجمَل المبيعات المحتملة - فوصلتُ إلى ما يفوقُ مبلغ خمسمائة دولار. قلت في نفسي، وسيلةٌ لا بأس بها للتقاعد من تجارة الحلوى، ودلَّكتُ يديَّ معاً ترقُّباً.

حلَّ اليوم المحدَّد. انتقيت ستة فتية أذكياء، ووزَّعتُ عليهم إرشاداتي الواضحة، وبعثتُ بهم ليؤدُّوا مَهامَّهم.

مع اقتراب المساء عادوا واحداً إثر آخر، ومع كلٍ منهم حقيبة مملوءة. لم يبيعوا صندوقاً واحداً. ولا واحد. ولم أصدِّق عينيَّ. دفعتُ للفتية أجورهم - مبلغاً لا يُستهان به! - وجلستُ على الأرض والحقائب الكبيرة موزَّعة حولي.

الرسائل التي كنتُ قد ألصقتها بصناديق الحلوى بأشرطةٍ مطاطيّةٍ كانت سليمة لم تُمسّ. نزعتُها وأنا أهزُّ رأسي مع كل واحدة منها. وظللتُ أردِّد " أمرٌ لا يُصدَّق، لا يُصدَّق! "

وأخيراً وصلتُ إلى الرسالتين المُعَنونتَين إلى هيمي لوبشر وستيف روميرو. أمسكتُ بالمظروفَين بيديَّ الاثنتين بعض الوقت، عاجزاً عن فهم الموقف. فإذا لم يكن في مقدوري أن أعتمد على صديقين قديمين مثل هيمي وستيف، فعلى مَنْ سأعتمد إذن؟

دون أن أدري وجدتني أفتح المظروف الموجَّه إلى ستيف روميرو. وكانت هناك بعض الكلمات مكتوبة في أعلى الرسالة. وقبل أن أقرأ كلمة واحدة شعرت بارتياح. لقد أعطى تفسيراً على الأقلّ.

[استوقفَ سبيفاك فتاكَ في مكتب نائب الرئيس، وأنذرَ الجميعَ بوجوبِ رفضِ شراء الحلوى. آسف. ستيف]

فتحتُ مظروفَ هيمي. الرسالة نفسها. فتحتُ مظروف كوستيغان. شَرْحُه. عندئذ بدأتُ أفورُ من الغضب. " ابن الحرام ذاك سبيفاك! إذن فهذا هو أسلوبه في ردّ الصاعَ صاعَين! "، وأقسمتُ على أن أخنقه حين أقابله في المرة القادمة، في منتصف الشارع.

بقيتُ جالساً هناك ومذكّرة كوستيغان في يدي. كوستيغان "البرجمية "[٤٦]. ومنذ زمن بعيد لم أره. كم سيمْتِعه أن يُلقِّن سبيفاك درساً صغيراً! كل ما يحتاجه هو أن يستدرج هذا الأخير إلى المدينة ذات مساء، وينصِب له شَركاً في شارع مظلم مجاور للنهر ويعمل معه اللازم. يا للورطة التي أوقَعَ ذاك النتن فيها نفسه! إذن فقد اتّصلَ بكل مكتب من المكاتب في بروكلن، ومنهاتن وبرونكس! ودُهِشتُ لأن هيمي لم يبعث بساعٍ ليزوِّدني بالمعلومات؛ لكان وفَّرَ عليَّ الكثير من المال. ولكن لعلّه كان ينقصه العمال، كالمعتاد.

أخذتُ أفكِّر في كل البلهاء الذين عرفتهم وكانوا دائماً مستعدِّين أن يقدِّموا لي خدمة. فكان هناك الموظف الليلي في مكتب الشارع الرابع عشر الذي لم يكن يكفُّ عن المقامرة؛ وكان رئيسه في العمل خصيّاً ظل يحاول على مدى سنين عديدة أن يقنع رئيس المؤسسة باستخدام الحَمَام

---

٤٦ – البرجميّة : قطعة معدنية تُكسى بها البراجم في الملاكمة . – المترجم .

الزاجل لتسليم البرقيات. ولم يكن هناك مَنْ يفوق ذلك الرجل القادم من غرينبوينت في قساوة القلب، وانعدام الحيوية؛ وكان مستعداً لفعل أي شيء من أجل حفنةٍ أخرى من الدولارات ليقامر بها في سباق الخيل. وكان هناك الأحدب في سوق السمك. وهو عفريت بكل معنى الكلمة، أشبه بجاك الخنَّاق بلباس مدني، وذاك الساعي الليلي آرثر ولمنغتن. وكان ذات يوم قِسَّاً إنجيلياً، وأصبح بعدئذ حطاماً قذراً يتغوَّط في سرواله. وكان هناك الصغير جيمي فالزون الماكر ذو الوجه الملائكي وغرائز سفَّاح. وكان هناك الولد ذو الوجه الجُرذيّ من هارلم الذي يبيع المخدرات ويزيِّف الشيكات؛ والعملاق السكِّير الكوبي، لوبيز، الذي كان في استطاعته أن يحطِّم أضلاع رجلٍ بعناقٍ واحد رقيق. وهناك كوفالسكي، البولندي المجنون، الذي لديه ثلاث زوجات وأربعة عشر طفلاً: كان مستعداً لفعل أي شيء ما خلا القتل - من أجل دولار.

فيما يتعلَّق بهذا لم أكن مضطراً حتى للتفكير في مثل أولئك الرعاع. كان هناك غَصّ، رجل الشرطة، الذي كان يرافق مونا من مكان إلى مكان في منطقة " الفيليج " كلما رغبتُ في ذلك. وكان " غَصّ " أحد أولئك الكلاب المخلصين المستعدّ أن يضرب رجلاً حتى الموت لمجرَّد أن تلمِّح امرأة إلى أنها تعرَّضَت إلى الإهانة من رجلٍ غريب. وماذا عن صديقنا الكاثوليكي الصالح " بكْلي "، التحرِّي، الذي حين يسكر يُخرِج صليبه الأسود ويطلبُ منا أن نقبِّله؟ ألم نقدِّم إليه خدمة ذات ليلة بإخفاء مسدسه عندما تورَّطَ في أحد أعمال الشغب؟

حين وصلتْ مونا كنتُ ما أزال جالساً على الأرض، ما أزال مستغرقاً في التفكير الحالم. الخبر لم يزعجها كثيراً. لقد كانت تتوقّع

حدوث شيء من هذا القبيل. بل إنها في الواقع فرحتْ لأنَّ الأمر وصلَ إلى ما وصل إليه؛ لعلَّ ذلك ينفض عني كل مشاريعي اللاعملية. كانت الوحيدة التي تعرف كيف تجمع نقوداً وتفعل ذلك دون إثارة أي ضجيج. متى سأبدأ بوضع ثقتي الكاملة فيها ؟

قلت " فلننفضْ أيدينا من هذا كله. إذا دفع لنا كروميل تلك الدولارات المائة في الأسبوع فسوف نتمكن من تدبير أمرنا بها. ما رأيك؟ "

لم تكن متأكدة. إنَّ مبلغَ مائة دولار في الأسبوع سوف يكفينا نحن، ولكن ماذا عن النَفَقَة، ماذا عن أمها وأخوتها، وماذا عن هذا الأمر وذاك؟

سألتُها " هل سبق لكِ قط أن جمعتِ مبلغ الرهن الذي تطلبه أمك؟"

نعم، فَعَلَتُ - قبل أَسابيع مضتْ. إنها لا تريد أن تخوض في ذلك الآن، فهو يسبِّب ألماً مبرِّحاً. واكتفت بالتنويه إلى أنه مهما جمعت من نقود فإنها سرعان ما تطير. ولا يوجد إلا حلٌ واحدٌ، وهو أن نجمع مبلغاً ضخماً. وكانت لعبة العقارات تجد هوىً في نفسها أكثر فأكثر.

ألححتُ عليها " فلنوقف تجارة الحلوى في كل الأحوال. سوف نذهب لتناول طعام العشاء مع رئيسنا ومن ثم نلقي إليه بالخبر برفقٍ. لقد سئمتُ بيع الأشياء ... ولا أريدك أنتِ أيضاً أن تقومي بالبيع؛ إنه شيء يثير التقزُّز في النفس "

بدا أنها توافقني الرأي. وفجأة، وبينما كانت تضع الكريم على وجهها، قالت: " لمَ لا تدع ألريك لنخرج معاً لتناول طعام العشاء؟ أنت لم تره منذ زمن بعيد "

رأيتُ أنها فكرةٌ صائبة. كان الوقت متأخراً لكني قرَّرت أن أتّصل به هاتفياً وأرى. فارتديت ملابسي وانطلقت خارجاً.

بعد ساعة من الزمن أو نحوها كنا نحن الثلاثة جالسين في أحد المطاعم القريبة من سيتي هول. مطعم إيطالي. وكان ألريك مبتهجاً لرؤيتنا من جديد. وتساءل عمّا كنا نفعله طوال ذلك الوقت. وأثناء انتظارنا للحساء تناولنا كأسين من المشروب. كان ألريك يعمل كالكلب في حملةٍ للترويج لأحد أنواع الصابون وقد أسعدَه أن يجد فرصةً للاسترخاء. كان مزاجه رائقاً.

كانت مونا تمدُّه بتفاصيلَ كاملة عن تجارة الحلوى - فقط عن النقاط الهامة. وألريك دائماً ينصت إلى حكاياتها بنوعٍ من التعجُّب المشدوه. وانتظَرَ أن يسمع روايتي الخاصة قبل أن يُدلي بأي تعليق. فإذا كنت في مزاجٍ مؤيِّد فإنه ينصت إليّ بكلتا أذنيه، تماماً كما لو أنه يسمعها للمرة الأولى.

قهقه وقال " يا لها من حياة! ليت لديَّ من الشجاعة ما يجعلني أغامر أكثر قليلاً. إلا أنَّ هذه الأمور لا تحصل أبداً معي. إذن فقد رحتما تتجولان وتبيعان الحلوى في الكافيه رويال. عليّ اللعنة "، وأخذ يهزُّ رأسه ويضحك قليلاً ضحكاً خافتاً.

سأل " أما زال أومارا يلازمكما ؟ "

" نعم، لكن رحيله بات وشيكاً. يريد أن يتوجَّه جنوباً. يعتقد أن في إمكانه أن يحقِّق نجاحاً هناك "

" أعتقد أنكما لن تشتاقا إليه كثيراً، صح؟ "

قلت " ولكن أنا سأشتاق. أنا أحب أومارا، على الرغم من أخطائه"

على هذا يُجيب ألريك بهزٍّ رأسه، وكأنه يقول إني مفرط في إعجابي لكنها ميزة جيدة.

" وذاك الرفيق أوزيكي ... ماذا حصلَ له؟ "

" هو في كندا الآن. وصديقاه _أنت تعرفهما - يعتنيان بفتاته "

قال ألريك، وهو يمرِّر لسانه جيئة وذهاباً على شفتيه الحمراوين المكتنزتين، " فهمت، شَهْمان، أليس كذلك؟ "، ثم مزيد من الضحك الخافت.

قال، ملتفتاً إلى مونا، " بالمناسبة، ألا تلاحظين أن " الفيليج " أصبحت منطقة قذرة هذه الأيام؟ لقد ارتكبتُ خطأً واصطحبت عدداً من أصدقائي من فرجينيا إلى هناك ذات ليلة. لكننا سرعان ما غادرنا على عجل. إنَّ كلَّ ما رأيتُهُ حانات ومرابع من أسفل مستوى. لعله لم تكن لدينا الخبرة الكافية ... كان هناك مكان واحد، مطعم، كما أعتقد، في ساحة شيريدان. لا مانع عندي أن أقول إنه مكان استثنائي "

ضحكت مونا. قالت " تقصد مربع ميني دوشباغ؟ "

" ميني دوشباغ؟ "

" نعم، الشاذّ المجنون الذي يغنِّي ويعزف على البيانو ... ويرتدي ملابس النساء. ألم يكن هناك؟ "

قال ألريك " طبعاً! لم أكن أعرف أن ذاك هو اسمه. يجب أن أعترف بأنَّ ذلك يلائمه. وحقُّ الله إنه مهرِّج حقيقي. حسبتُ في وقتٍ من الأوقات أنه سيرتقي الثريا. وأيضاً، يا للسانه القذر، النتن! "، ثم التفَتَ إليّ " هنري، لقد تغيَّرت الأوضاع كثيراً منذ أيام عزّنا. حاول أن تتخيّلني وأنا جالس هناك مع اثنين رزينين، محافظَين، من فرجينيا. أقول لك الحق، لم يفهما كلمة واحدة مما قال "

الحانات والمرابع السافلة، كما سمّاها ألريك، هي طبعاً الأماكن التي كنا نُكثِر من التردُّد عليها. وعلى الرغم من أني تظاهرت بأني أسخر من فرطِ احتشام ألريك، إلا أني كنت أشاركه رأيه في تلك الأماكن. لا شك في أن منطقة " الفيليج " كانت قد انحطّت. فلم تكن تضمُّ إلاّ الحانات والمرابع السافلة، لاشيء غير اللوطيين، والسحاقيات، والقوّادين، والعاهرات، ودجالين ومحتالين من كلٍّ صنفٍ ولون. ولم أرَ ضرورة لإخبار ألريك بذلك كله، ولكن في آخر مرة زرنا فيها مربع " بول وجو "، كان المكان مملوءاً بأكمله باللوطيين وبزّات البحارة. وقد حاولت عاهرة حقيرة سافلة في وقتٍ ما أن تعضّ قطعةً من ثدي مونا حتى كادت تنتزعها - هناك في قلب غرفة الطعام. ولدى خروجنا من المكان تعثَّرنا باثنين من " البحّارة " يتلوّيان على أرض الشرفة، وقد أنزلا سرواليهما الداخليين وهما ينخران ويطلقان صرخاتٍ حادَّة طويلة مثل خنزيرين منحورَين. وبدا لي أنه حتى بالنسبة إلى مكانٍ مثل غرينيتش فيليج يُعتَبَرُ ذلك تمادياً يفوق الحدّ. وكما كنت أقول، لم أرَ ضرورة في سرد هذه الحوادث على مسمعٍ من ألريك - لقد كانت لا تصدَّق إلى درجةٍ فائقةٍ يَصْعُبُ عليه ابتلاعها. وما كان يجب أن يسمعه هو حكايات مونا عن الزبائن الذين تبتزّهم، أولئك العصافير الغريبة الأطوار، كما سمّاهم، القادمين من ويهوكن، وميلووكي، وواشنطن، وبويرتوريكو، والسوربون، وما شابه. كان يرى أنَّ من المقبول وإنْ كان مُبْهَماً أن يتّضح أن رجالاً ذوي مراكز رفيعة هم سريعو العطب إلى ذلك الحد. إنه يفهم أن يتعرَّضوا للابتزاز مرة، ولكن ليس مراراً وتكراراً.

قال دون تفكير " كيف تنجح في صدِّهم؟ "، ثم تظاهر بأنه يعضُّ لسانه.

فجأة غيَّرَ الموضوع " أتدري يا هنري أنَّ ذلك الرجل ماكفارلند كان يسأل عنك باستمرار. وطبعاً إن ندّ لا يفهم كيف ترفُض عَرْضَاً جيداً كذاك. وهو لا ينفكُّ يقول لماكفارلند أنك ستعود يوماً ما. لابد أنك قد تركْتَ أثراً هائلاً على العجوز. أعتقد أنّ لديك مشاريعَ أخرى، ولكن - إذا ما حدثَ وغيَّرتَ رأيك أعتقد أنَّ في وسعك أن تحصل على كل ما تريد تقريباً من ماكفارلند. لقد أخبر ندّ سراً أنه مستعدٌّ أن يصرفَ مِن خدمته موظفي المكتب برمَّتهم من أجل أن يحتفظ برجلٍ مثلك. وقد رأيتُ أن أخبرك بهذا. فمن يدري ... "

أسرعتْ مونا بتغيير دفّة الحديث إلى منحى آخر. وسرعان ما وجدتُنا نخوضُ في موضوعٍ مسرح المنوعات الخفيفة. وقد كان ألريك يتمتَّع بذاكرةٍ شيطانية لحفظِ الأسماء. فهو لم يتمكّن فقط في تذكُّر أسماء الممثلين الهزليين، وممثلات أدوار الفتيات المستهترات، وراقصي الهوتشي كوتشي الذين عُرِفوا خلال العشرين سنة الأخيرة، وكان في إمكانه أيضاً أن يُعطي أسماءَ دور المسرح التي شاهدهم فيها، وعناوين الأغاني التي غنوها، وإن كان ذلك قد حدثَ في الشتاء أو في الربيع ومَنْ الذي كان بصحبتِهِ في كل مناسبة. ومن الحديث عن مسرح المنوعات الخفيفة ينتقلُ بسرعةٍ إلى المسرحيات الفكاهية الغنائية ومن ثم إلى حفلات فنون الـ " كواتز " .Quat'z

كانت تلك الاجتماعات، التي كانت تضمّنا نحن الثلاثة، تتّصف دائماً بالتشتُّت والحمّى، والإسهاب. وكان لمونا، التي لا طاقة لها أبداً على التركيز على أي شيء فترةً طويلة، طريقتها الخاصة في الإنصات جديرة بدفع أي إنسانٍ إلى حافّة الجنون. فهي دائماً، وفي اللحظة التي

تصل أنت فيها إلى الجزء الأكثر إثارة من قصّتك، تتذكَّر فجأة شيئاً، ويجب أن تعبِّر عنه على الفور. ولا فرقَ سواء أكنا نتحدَّث عن تشيمابيو[٤٧]، أم سيغموند فرويد، أم عن الأخوة فراتيلليني: فإن ما تفكِّر فيه هي وترى أنه أشدُّ أهمية من أن تخبرنا به يكون بعيداً بعيداً بُعد الكويكبات السيّارة. امرأةٌ فقط قادرة على إقامة مثل تلك الاتصالات النائية. ثم إنها لم تكن من النوع الذي يقول رأيه ويترك لك رأيك. وكانت العودة إلى النقطة الأساسية أشبه بمحاولة بلوغ الشاطئ المقابل مباشرة بالخوضِ في تيارٍ سريع. كان على المرء دائماً أن يُفسِحِ المجالَ لحدوثِ انسياقٍ.

كان ألريك قد وطَّنَ نفسه على هذا الشكل من تجاذب أطراف الحديث، وهو شيء ضد ميله الطبيعي. وقد كان من المؤسف إخضاعه لهذا المنحى، لأنه حين كان يُفسِحِ المجال له للعزف الحرّ يُقَارِعُ القيثارة الأيرلندية. كانت عينه الفوتوغرافية تلك، وذينك الملمسين الناعمين اللذين يتحسَّس بهما الأشياء، خاصة الأشياء التي يحب، وذاكرته التواقة إلى الماضي التي لا تنضب، وهوسه بالتفاصيل، واليقين، والدقّة (الزمان، والمكان، والإيقاع، والجو العم، والضخامة، ودرجة الحرارة) أقول كان هذا كلّه يضفي على حديثه خاصّية معيّنة لا يبلغها إلا أساطين الرسم القدامى باستخدام الخضاب. والحق أنه غالباً وأنا أصغي إليه يترك لديّ انطباعاً بأني في الواقع بصحبةِ أحد الأساطين القدامى. والعديد من أصدقائي يشيرون إليه بوصفه جذاباً بسِمَةٍ قديمة - " فاتنٌ وجذّاب ذو سِمة قديمة ". وهذا يعني أنه " دقَّة قديمة ". إلاّ أنه لم يكن

---

٤٧ - جيوفاني تشيمابيو (١٢٤٠ ؟ - ١٣٠٢ ؟) : رسام إيطالي . رائد في المذهب الواقعي . - المترجم

عـالماً، ولا ناسكاً، ولا نزوياً. لقـد كـان ببـسـاطة ينتـمـي إلى زمنٍ آخـر. وحين يتـحـدَّث عن الرجـال الذين يحب - الرسـامين - فـإنه يكون واحـداً منهم. وهو لم يكن فقط يتمتَّع بموهبة الاستسلام، وإنما كـان أيضاً يتحلّى بفن التطابق مع أولئك الذين يجلُّهم.

كـان يقـول إنَّ حديثي جـدير بإعـادته إلى البيت وهو ثمِل؛ ويـتظاهر بأنه بحـضـوري يعـجـز تمامـاً عن التـعـبـير عن الأشـيـاء كـمـا يريد، كـمـا يعنيهـا. كان يعتـقد أنَّ من الطبيـعي أن أكون راوية للقـصص أفضل منه، لأني كـاتب. والحـقـيـقة هي أنَّ العكسَ هو الصـحـيح. وفـيمـا عدا لحظاتٍ نـادرة حين اضطرمَ، حين يطيش صوابي، حين يتـفـجَّر دمـاغي، كنتُ أُخْرَقَ مفأفئاً بالمقارنة.

إنَّ ما كـان يُثيرُ بحقٍّ إعجـاب ألريك وتفـانيه هو مـادة حيـاتـي الخامّ، عمـاءها الضمني. وقد رفضَ رفضـاً باتـاً حقيقةَ أنه على الرغم من خروجنا من البيئة الاجتماعية نفسها، وترعرعنا في الجو العم الألماني- الأميركي الأحمق نفسه، إلا أننا تطوَّرنا لنغدو كَيَانين مـختلفين تمامـاً، واتجهنا في اتجـاهَين مـضــادين بشكلٍ كـامل. وطبـعـاً كـان يغـالي في إبراز هذا الانحـراف. ولم أبذل أنا أي مـجـهـود لتـصـحـيـح ذلك، لمعـرفـتي مـقـدار الاسـتـمـتـاع الذي يسـتـمـدَّه من تضخـيـمه لأطواري الغـريبة. فـعلى المرء أحياناً أن يكونَ كريماً، حتى وإنْ كان ذلك يُصَعِّد التورُّد إلى الوجنتين.

قـال ألريك " أحيـانـاً، وأنا أتحدَّث مع أصدقائي عنـك يبدو حديثي، حتى في نظري، رائعاً. لقد تبيَّنَ لي، خلال فـترة تـعارفنا القـصيرة، أنك قد عـشـتَ حتى الآن عـدداً كـبـيراً من الحـيـوات. وأنـا لا أكاد أعرف أي شيء عن تـلك الفـتـرة الفـاصلة - حين كنتَ تعـيـشُ مع الأرملة وابنهـا،

مثلاً. وحين كنت تعقد تلك الجلسات الغنيّة مع لو جاكوبس - ألم يكن هذا هو اسمه؟ لابد أن تلك كانت فترة مُجزية، وحتى ولَوْ من باب المحاولة. لا عجَبَ أنَّ ذلك الرجل ماكفارلند قد أحسَّ بشيء مختلف فيك. أعرف أني أطأ أرضاً خطرة بفتحي من جديد لذاك الموضوع " - وألقى نظرة سريعة، مناشدة على مونا - " ولكن أقول لك الحق يا هنري، إنَّ حياةَ المغامرةِ والتنقُّل هذه التي تتوق إليها ... اعذرني، لا أقصد أن أكونَ فظاً ... أنا أعرف أنك أيضاً متأمِّل ... ". هنا بدا وكأنه قد استسلم، وضحك ضحكاً خافتاً، ونخَرَ، ومرَّرَ لسانه على شفتيه، وازدرَدَ بضع رشفات من الكونياك، وصفَعَ فخذيه، ونقَّلَ بصره بيننا، ثم أطلَقَ ضحكةً طليقةً، طويلةً، من الأعماق. واندفعَ يقول " اللعنة، أنت تعرف ما أعني! إنني أفأفئ وكأني تلميذ مدرسة. أعتقد أنَّ ما أنوي أن أقوله هو فقط ما يلي - أنت بحاجة إلى أن تُوجِدَ مجالاً أرحب لحياتك. تحتاج إلى أن تقابل أناساً قريبين كثيراً من قامتك. يجب أن تسافر، وأن يكون معك نقود، وأن تقوم باستكشاف وبأبحاث. باختصار - إلى مغامرات أكبر، إلى مآثر أضخم "

أومأت برأسي موافقاً وأنا أبتسم، وأحثّه على الاستمرار.

" أنا أدركُ أيضاً طبعاً أنَّ هذه الحياة التي تعيشها الآن غنية من نواحٍ عصيَّة على فهمي ... أقصد، غنيّة بالنسبة إليك ككاتب. أنا أعرف أن الإنسان لا يختارُ مادةَ حياتهِ التي منها يصنع منه؛ إنَّ الشكل العام لمزاجه هو الذي يمنحها، أو يقدِّرها. وتلك الشخصيات الشاذة التي يبدو أنها تنجذب إليك كأنما بمغناطيس، لا شك في أنها تجدُ لديك عوالمَ رحبةً تنتظر مَنْ يسبر غورها. ولكن ما أبهظ الثمن! إن تمضية أمسية مع

معظمهم ترهقني. إنني أستمتع بالإنصات إليك وأنت تحكي عنهم، أما أنا فلا أعتقد أنَّ في استطاعتي أن أتحمَّل هذا كله. وما أقصده يا هنري هو أنَّه يبدو أنَّهم لا يعطون أي شيء مقابل الانتباه الذي توليه لهم. ولكن هاأنا أفعلها من جديد. أنا، طبعاً، مخطئ. أنت حتماً تعرف غريزياً ما يصلحُ وما لا يصلحُ لك "

هنا أضطرُّ إلى مقاطعته: " في هذه النقطة أنتَ فعلاً مُخطئ، في اعتقادي. أنا لا أفكِّر مطلقاً في مثل هذا الأمر - أي فيما يصلح وما لا يصلح لي. إني أتناولُ ما أصادفه في طريقي وأصنعُ منه أفضلَ ما في إمكاني. أنا لا أثقِّفُ أولئك الأشخاص عن عمد. أنت على حق، إنهم ينجذبون إليّ - ولكن أنا أيضاً أنجذبُ إليهم. أحياناً يخيَّلُ إليّ أنَّ هناك قواسمَ مشتركةً بيني وبينهم أكثر مما يوجد بيني وبينك أو بين أومارا أو بين أيٍ من أصدقائي الحقيقيين. وبالمناسبة، أتعتقد أنَّ لديَّ أصدقاءً صدوقين؟ هناك أمرٌ واحدٌ أنا متأكِّد منه، وهو أنه لا يمكنني بأي حال أنْ أعتمدَ عليك، ولا على أي منكم "

قال، وقد تراخى فكُّه السفلي إلى زاوية غريبة، " معك كلّ الحق يا هنري، أعتقد أنَّ أياً منا غير قادر على أن يكون الصديقَ الخليقَ بأن تتّخذه. أنت تستحقُّ ما هو أفضل "

قلت " خراء، لم أكن أعني أن أعزف على هذا الوتر. سامحني، لقد كانت تلك مجرد فكرة جزافية "

" ما هي أخبار صديقك الطبيب ذاك ... كرونسكي؟ لم أعد أسمعك تتحدَّث عنه مؤخراً "

قلت " ليست لدي أدنى فكرة. لعله يُسبِت. سوف يظهر من جديد، فلا تقلق "

قالت مونا " إنَّ فال يُعامله معاملة فظيعة، لا أفهمها. إذا أردتَ رأيي، أقول إنه صديقٌ حقيقي. ويبدو أنَّ فال لا يُقَدِّر أصدقاءه الصدوقين حقَّ قدرهم. فيما عداك أنت يا ألريك. ولكن أحياناً أضطرُّ إلى أن أُذكِّرَه بأن يتَّصل بك. إنه ينسى بسهولة "

قال ألريك " أما أنت فلا أعتقد أنه سينساك أبداً ". وبهذا سدَّدَ إلى فخذيه لطمةً عنيفةً ورسمَ تكشيراً مرتبكاً. " لم تكن ملاحظةً لبِقةً كثيراً، أليس كذلك؟ لكني واثق من أنكِ تعرفين ما أعني "، ووضعَ يده على يد مونا وشدَّ عليها برفقٍ.

قالت مونا بخفّة " سأعمل على ألاّ ينساك. أعتقد أنه لم يخطر في بالك قط أن علاقتنا ستدوم طويلاً هكذا، أليس كذلك؟ "

قال ألريك " أقول لك الحق، لم يخطر. أما الآن وقد عرفتُكُما، عرفتُ كم يُقَدِّر كل منكما الآخر، أصبحتُ أفهم "

قلت " لِمَ لا نخرج من هنا؟ لِمَ لا تأتي إلى بيتنا؟ في وسعنا أن نأويك هذه الليلة، إذا شئت. أومارا لن يكون في المنزل هذا المساء "

قال ألريك " حسن، سأقبل عرضَك. ويمكنني أن أتحمَّل عاقبة أخذ إجازة يوم أو يومين. سوف أسألُ صاحب الملك أن يُعطينا زجاجة أو اثنتين ... ماذا تحب أن تشرب؟ "

حين أضأنا الأنوار في الشقّة وقفَ ألريك برهةً على العتبة يتشرَّبُ ما يرى مستحسناً. قال، بشيء من الكآبة، " إنها حقاً جميلة. آمل أن تتمكّنا من الاحتفاظ بها فترة طويلة "، ودخل مقترباً من طاولة مكتبي وأخذ يتفحَّص الفوضى. ثم قال متأملاً " من المثير دائماً أن نرى كيف يرتِّب الكاتب أغراضه. يكاد المرء يرى الأفكار تبقبق من الأوراق. إن

الإجهادَ يلفُّ كل شيء. أتدري " - وأحاط كتفي بذراعه - " كثيراً ما أفكِّرُ فيك وأنا أعمل. أكاد أراكَ منكبّاً على العمل فوق آلتك الكاتبة، وأصابعك تتسابق كالمجانين. وهناك دائماً نظرة التركيز الرائعة على وجهك. وكنتَ تحملها حتى وأنت فتى - لا أحسبكَ تتذكَّر ذلك. نعم، نعم! يا إلهي، غريبٌ كيف تؤول الأمور. أحياناً أبذل جهداً هائلاً لأقنع نفسي بأن هذا الكاتب الذي أعرفه هو أيضاً صديقي وصديق حميم جداً. ثمة شيء يكتنفني يا هنري - وهذا ما كنتُ أحاولُ أن أتوصَّلُ إليه ونحن في المطعم - يمكنني القول إنه شيء خرافي، إذا لم تكن الكلمة مضخَّمة أكثر مما ينبغي. أنت تفهمني، ألا تفهمني؟ ". كان صوته عندئذ قد انخفضت نبرته، وأصبح فائق الرقّة والإيناع، بل ومُحَلًّى، في الواقع. لكنه صادق، صادق صدقاً مُدَمِّراً. وتخضَّلَتْ عيناه حباً! وكان فمه يريِّل. وكان يجب أن أَسُدَّ مجرى التيار وإلاَّ لَكُنَّا جميعاً انخرطنا في البكاء.

لدى عودتي من الحمّام كان يدور بينه وبين مونا حديثٌ رصين. كان ما يزال يعتمرُ قبعته ويرتدي معطفه وكان يحملُ في يده صفيحة طويلة من الورق تحتوي كلمات غريبة كنت أُبقيها في متناولي تحسُّباً لاحتياجي إليها. وكان واضحاً أنه ينهالُ عليها بالأسئلة حول عاداتي أثناء العمل. كانت الكتابةُ فنّاً يحيِّرَه أيّما حيرة. ويبدو أنه كان مذهولاً لرؤيته الكمِّ الهائل الذي كتبتُهُ منذ لقائنا الأخير. وكان يتحسَّسُ بأصابعه بحبٍ الكتبَ المكدَّسةَ على طاولة الكتابة. قال " أتسمح؟ "، وهو يلقي نظرةً على بعض الملاحظات المُلقاة إلى جانب الكتب. وطبعاً لم يكن لدي أي مانع. كنت مستعداً لأن أفتحَ له جلدي وأدعَه يُلقي نظرةً إلى داخله، لو كان في مقدوري. لقد كان يبهجني أن أرى كيف يجعلُ

من الحبَّة قُبَّة، وفي الوقت نفسه لم أكن أتمالك نفسي من الاعتقاد بأنه الوحيد بين أصدقائي الذي أبدى اهتماماً حقيقياً بعملي. وما أبداه بوضوحٍ هو توقير للكتابة بحدّ ذاتها - وللرجل، كائناً مَنْ كان، الذي يتّصف بالشجاعة للصراع في هذا المجال. وكان من الممكن أن نظلَّ واقفين هكذا طوال الليل نتحدَّث عن تلك الكلمات الغريبة التي أدرجتُها في لوائح، أو عن تلك الملاحظة الصغيرة حول " مذكرات رجل مستقبلي" التي كنت عندئذ أكدحُ لإنجازها.

إذن فهذا هو الرجل الذي ينتمي إلى عصرٍ آخر ووصَفَه أصدقائي بـ " دقَّة قديمة! ". نعم، لقد أصبحَ بحقّ من قبيل الدقَّة القديمة إبداءُ حيرةٍ ساذجةٍ أمامَ مجرَّد كلمات. لقد كان رجال العصور الوسطى سلالة مختلفة كل الاختلاف. كانوا يمُضون ساعات، وأياماً، وأسابيعَ وشهوراً في نقاشِ تفاصيل لا تمتُّ إلى واقعنا بصلَة. كانوا قادرين على الامتصاص، والتركيز، والهضم إلى درجة تبدو لنا استثنائيّة إذا لم نقُل مُرضية. لقد كانوا فنّانين قلباً وقالباً. وكانت حياتهم مُشربَّة بالفن، كما بالدم. كانت حياةً منسجمةً بكل معنى الكلمة. هذا النوع من الحياة هو الذي كان ألريك يتوقُ إليه، على الرغم من يأسه التام من إدراكه. وكان يأمل في سرِّه أن أتمكَّن أنا من أن أستردَّ للآخرين هذه الحياة الموحِّدة التي نُسِجَ فيها كل شيء في كلٍ رائعٍ وأسلِّمها إلى الجيل الطالع.

هنا أخذ يتمشّى في المكان والكأس في يده، يقوم بإيماءات، ويُصدِرُ أصواتاً حَلْقيَّة، ويتلمَّظُ بشفتيه، وكأنه ألفى نفسه فجأة في الفردوس. ما أحمقه إذ تكلَّمَ بتلك الطريقة وهو في المطعم! الآن باتَ يرى الجانب الآخر من شخصيتي والذي لم يتوصَّل من قبل إلاّ إلى ملامسته ملامسةً

خفيفة. أيُ ثراءٍ ينضحُ من المكان! إن الحواشي ذاتها التي تملأ هوامش كتبي تُفصحَ بطلاقةٍ عن حيويةٍ كانت غريبةً عليه. هاهنا عقلٌ يهيِّجُ الأفكارَ. هاهنا رجلٌ يعرفُ كيف يعمل. وهو الذي كان يتَّهمني بأني أضيِّعُ وقتي!

قال، سامحاً لنفسه أن يسكتَ برهة، " هذا الكونياك لا بأس به، أليس كذلك؟ أقلُّ قليلاً من الكونياك وأكثرُ قليلاً من التأمُّل - سيكون هذا هو درب الحكمة، بالنسبة إليّ "، ورسمَ إحدى تلك التكشيرات النموذجية التي لا يَعرفُ غيرُهُ كيف يجمعُ فيها مُركَّباً من الدناءة، والتزلُّف، والتملُّق، والذم والانتصار.

وأنَّ قائلاً، وهو يغوصُ في كرسيٍّ مريح دون أن يسفح قطرةً واحدةً من المشروب النفيس، " يا رجل، كيف تجد وقتاً للقيام بكل هذا، هلاّ أخبرتني؟ "، ثم أردف بسرعة " ثمة أمرٌ واحدٌ واضحٌ، وهو ما يلي: أنت تحبُ ما تقوم به. أما أنا فلا! كان ينبغي أن أفهم هذا وأغيِّر أساليبي... أعتقد أنَّ كلامي يبدو سخيفاً، أليس كذلك؟ هيا، اضحك؛ أنا أعرف كم أبدو سخيفاً أحياناً ... "

وضَّحتُ له أني لم أكن أضحك منه بل تعاطفاً معه.

قال " لا فرق، لا يهمّني إن ضحِكْتَ مني. أنت الوحيد الذي في إمكاني أن أعتمد عليه لتسجيل ردودِ فعلٍ حقيقية. أنت لست قاسياً، أنت صادق. وأنا لا أعثر إلا على أقلّ القليل من تلك البضاعة بين رفاقي في المهنة. ولكن لن أُضجِرَكَ بهذه النغمة القديمة ". وهنا مال إلى الأمام لينزُّ ابتسامةً دافئةً، لطيفةً، " لعلَّ هذا غير مناسب، ولكن لا مانع لديّ أن أخبركَ يا هنري أنَّ الوقتَ الوحيدَ الذي أعملُ فيه بهمَّةٍ ونشاطٍ،

بأي شيء يقترب من الحب، هو حين تقف لوسي الزنجيّة أمامي لأرسمها. وأسوأ ما في الأمر أنها لا تسمح لي مطلقاً أن ألجها. أنت تعرف لوسي - وكيف تدعني أعالجها وما إلى ذلك. إنها الآن تقف أمامي عارية تماماً، في الواقع. نعم! طيزٌ رائعة "، وعاد يضحك، كأنه يصهلُ. " يا إلهي، يا للوقفات التي تتّخذها تلك المخلوقة أحياناً! كنت أتمنى لو كنتَ موجوداً هناكَ لترى. كنت ستموتُ من فرط الضحك. لكنها في النهاية تتركني معلّقاً. وأضطرُّ إلى أن أغمِسَ صاحبنا في الماء البارد. وذلك يحبطُني. أه حسن ... "، ورفع بصره إلى مونا، الواقفة خلفه، ليرى ردّةَ فعلها.

كم كان ذهوله عظيماً حين قالت: " لمَ لا تدعني أقف أمامك لترسمني أحياناً؟ "

بدأت عيناه تدوران بحركة عنيفة. وأخذ يُنقِّلُ بصَرَهُ بيني وبينها بالتناوب.

قال " يا إلهي! كيف لم أفكِّر في ذلك من قبل؟ أعتقد أنَّ هذا العصفور لا يمانع؟ "

تقدَّمَ الليل مع الذكريات، والتحدُّث عن المستقبل، ووضعِ الخطط للقيام برحلات استكشافية داخل حياة الليل، وانتهى كعهده دائماً وأسماء الرسامين العظام ترنُّ في آذاننا. وكانت آخر ملاحظة صَدَرَتْ عن ألريك قبل أن ينطرح وينام هي: " يجب أن أقرأ مقالة فرويد عن دافنشي قريباً ... أم هل تعتقد أنها ليست هامة بما يكفي، أساساً؟ "

أجبته " إن أهم شيء الآن هو أن تنام قرير العين ومن ثم تستيقظ وأنت منتعش "

عبَّرَ عن موافقته بإطلاقِ ضرطةٍ عالية - دون أي قصد، طبعاً.

* * *

بعد مرورِ بضعِ ليالٍ ذهبنا لنتناول طعام العشاء مع الرجل صاحب مخزن الحلوى. وجلسنا في قبو كائن في شارع ألن، أشد الشوارع كآبة قاطبة، حيث يُسمَعُ هديرُ القطارات المرفوعة من فوق رؤوسنا. كان يدير المطعم صديقٌ له عربي. كان الطعام ممتازاً وكان مضيفنا مثال الكرم الجمّ. وكان الحديث مع الرجل متعة حقيقية، فقد كان في منتهى الصدق، والاستقامة، والصراحة. وتحدَّثَ مطوّلاً عن فترة شبابهِ التي كانت بمثابة كابوس طويل الأمد ومتواصل ولم يخفِّف عنه إلا أحلام متقطِّعة حول تمكُّنه ذات يوم من التوجُّه إلى أميركا. ووصَفَ بلغةٍ بسيطةٍ، مؤثّرةٍ الصورة التي رسمها لأميركا، والتي تكوَّنت لديه في حي الأقليات في كراكاو. كانت صورة للنعيم نفسه التي يرسمها ملايين البشر في ظُلمة يأسهم. وطبعاً لم يكن الحي الشرقي بالضبط كما كان قد تخيّله، غير أن الحياة كانت طيّبة مع ذلك. ويأمل الآن في أن ينتقل إلى الريف ذات يوم، ربما إلى جبال كاتسكل، حيث يتمنّى أن يفتتح منتجعاً. وذكّرَ اسم بلدةٍ كنتُ أقضي فيها فترات عطلتي وأنا صبي: وهي تجمُّعٌ صغير احتلّته منذ زمن بعيد " القبيلة المختارة "، ولم تعُد تشبه في شيء القرية الصغيرة الفاتنة التي عرفتُها ذات يوم. ولكن كان في وسعي أن أتخيَّل بسهولةٍ أنها يمكن أن تكون بالنسبة إليه ملاذاً رائعاً.

كنا قد أمضينا وقتاً لا بأس به ونحن نتحدَّث هكذا حين خَطَرَ في باله فجأة شيء. فنهضَ واقفاً وراح يفتِّش جيوب معطفه. وأشرق وجهه مثل تلميذ مدرسة، وناولَ كُلاً من مونا وأنا حزمتين صغيرتين ملفوفتين

بمناديل ورقيّة. وبرَّرَ تقديمهما لنا بأنهما تعبير عن تقديره الأسلوب الذي اتّبعناه لإنجاحِ تجارةِ الحلوى، وأسرعنا بفتحهما. كان نصيب مونا ساعة يدٍ جميلة، ونصيبي قلمُ حبر من أجود الأصناف. ورأى أنهما قد تكونان مفيدتين لنا.

ثم تابع فأخبرنا عن خططه للمستقبل، وتَقْضي بأن نواصلَ العملَ كما كنا فترة من الوقت، فإذا ما ترسَّخت ثقتنا فيه نتركُ معه كل أسبوع جزءاً من أرباحنا، ليدَّخِرَه لنا. وكان يعلم أنه عاجزٌ عن ادِّخار بنسٍ واحد. كانت لديه رغبة قوية في أن يثبِّتنا في العمل، وأن يستأجر مكتباً صغيراً في مكانٍ ما ويوظِّف أناساً يعملون لصالحه. كان واثقاً من أنه سيحقِّق نجاحاً. وحسب ظنّه فإنَّ على المرءِ دائماً أن يبدأ من القاع، وأن يستخدمَ المالَ السائلَ بدلَ اللجوء إلى الاقتراض، كما يفعل الأميركيون. وأخرجَ دفترَ حسابه المصرفي وأرانا رصيده المتراكم. كان يحتوي على أكثر من اثني عشر ألف دولار في حسابه. وبعد أن يبيع المخزن سوف يُضافُ إليه ما بين خمسة إلى عشرة آلاف دولار أخرى. وإذا نجحنا في عملنا فقد يبيعنا مخزنه.

مرة أخرى احترنا كيف نوقظه من أوهامه. فألمحتُ برفقٍ، بمنتهى الرفق، إلى أنه قد تكون لنا خططٌ أخرى لمستقبلنا، ولكن حين رأيتُ النظرة التي ارتسمتْ على وجهه أسرعتُ بإغلاق الموضوع. نعم، سوف نستمر. سوف نصبح ملوكَ الحلوى في الجادَّة الثانية. وقد ننتقل أيضاً إلى الريف، ونساعده في إدارة المنتجع في إقليم ليفنغستن. نعم، وقد ننجب أطفالاً أيضاً قريباً. فقد حان الوقت لنكون جدِّين. أما عن الكتابة، فبعد أن أسّسنا سُمعةً تجاريّةً جيدةً سيتوفَّرُ لدينا الوقت الكافي

لنفكّر في ذلك. ألم يتقاعد تولستوي في وقتٍ متأخّرٍ من حياته ليمارس الكتابة؟ أومأتُ موافقاً لئلاً أحبِطَه. ثم سألني، بجدّية صارمة، ألا أعتقد أن كتابتي لقصة حياته هي فكرة جيدة؟ - كيف ارتقَى من عاملٍ في مقلعِ الرخامِ إلى أن أصبحَ صاحبَ منتجعٍ كبير. فقلت إني أعتقد أنه موضوع ممتاز للكتابة عنه، وأنتنا سنتحدث في الأمر عندما يحين الوقت المناسب.

باختصار، عَلِقْنا. وما كنتُ لأخذلَ الرجل ولو قطعوا رأسي. لقد كان كيِّساً معنا بشكلٍ لعين. ثم إنَّ كروموِيل لم يكن قد أعطى كلمته الأخيرة حول ذلك العمود الصحفي. (كان مرةً أخرى غائباً عن البلدة بضعة أسابيع) فلمَ لا أواصلُ التعثُّر في طريقِ تجارةِ الحلوى حتى ذلك الحين؟ أما مونا فرأتْ أنَّه لا يضيرها أن تجرِّب الانخراط في مجال العقارات أثناء النهار. وكان ماتياس شديد التوق إلى نَفْحِها نقوداً على الحساب ريثما تقوم بأول عملية بيع.

على الرغم من كل نوايانا الطيبة أخفقَتْ تجارة الحلوى. فبالكاد كانت مونا تنجح في بيعِ صندوق أو صندوقين في ليلة واحدة. ومن جديد أخذتُ أرافقها، وأنتظرُ خارجَ المرابع مع الحقيبتين الكبيرتين. وأقرأ أثناء ذلك إيلي فور (في ذلك الوقت كان دمي قد تشبَّعَ بكتابهِ" تاريخ الفن" حتى بات في إمكاني أن أغمض عينيَّ ساعة أشاء وأتلو مقاطعَ طويلةً منه، وأزخرفها بتنميقاتٍ رائعةٍ من عندياتي) وكان شلدون قد اختفى بشكلٍ غامض، وغادر أومارا إلى الجنوب، وكان أوزيكي ما يزال في كندا. انتشارٌ كئيب. ولما مللنا " الفيليج " ومنطقة الحي الشرقي، رحنا نجرِّب حظنا في الضاحية. لن تعد منطقة برودواى القديمة كما كانت حين

غنَّى عنها جورج. م كوهان. لقد كان يلفُّها جوٌ ضاجٌّ، تسوده المشاجرات، وعدائي، يولِّد مصادمات قذرة، وتهديدات، وإهانات، واحتقار، وامتعاض وإذلال. وكنت طوال تلك الفترة أعاني من حالةٍ رهيبةٍ من البواسير. وأكاد أراني الآن من جديد وأنا مدلًّى من ذراعيّ من درابزين عالٍ موتَّدٍ مقابل " الليدو "، معتقداً أني أخفِّف الألم عن طريق رفع الثقل عن قدميّ. وقد انتهت آخر زيارة لي لـ " ليدو " بمحاولةٍ من مدير المحلّ، وكان ملاكماً سابقاً، لحبس مونا في غرفةِ مكتبِهِ واغتصابها. ما أروعكَ يا برودواي!

وحان وقت التخلِّي عن العمل. وبدل أن نجمع مبلغاً صغيراً أصبحنا الآن ندينُ ببعض المال لريِّسنا. بالإضافة إلى أني كنتُ أُدينُ بمبلغٍ كبير لمود ثمن حلوى منزلية أغريتها لتصنعها لنا. لقد قبِلَت المسكينة مود الأمر عن طيبِ خاطر، معتقدةً أنَّ ذلك سوفَ يُساعدنا على توفير قيمة النَفَقَة.

الحقيقة هي أنَّ كلَّ شيء كان يسير سيراً جنونياً. فبدل أن نستيقظ من النوم عند الظهيرة أصبحنا نلزم السرير حتى الساعة الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر. ولم يفهم ماتياس ما ألمَّ بمونا. لقد أُعِدَّ لها كل شيء لكي تحقق ربحاً كبيراً، لكنها كانت تدع كل ذلك يتسرَّب من بين يديها.

أحياناً كانت تحدثُ أمورٌ مسلِّية، كما حدث مرةً أن أُصِبنا فجأةً بفواقٍ استمرَّ ثلاثة أيامٍ إلى أن أُرغمنا أخيراً على أن نستدعي طبيباً. وحالما رفعتُ قميصي واستشعرتُ إصبعَ الرجلِ الباردةِ على بطني توقَّفتُ عن الفواق. وشعرتُ بشيءٍ من الخجل من نفسي لأني دفعته إلى قطع

كل المسافة من البرونكس إلى بيتنا. وتظاهر بأنه ابتهجَ، ربما لأنه اكتشفَ أننا نُحسنُ لعبَ الشطرنج. ولم يجد حَرَجاً في أن يقول إنه حين لا يكون مشغولاً في إجراء عمليات إجهاض يلعب الشطرنج . إنسانٌ غريبٌ، على قدْرٍ عالٍ من الحساسية. ورَفَضَ رفضاً قاطعاً أن يأخذ منا أي نقود. وبدل ذلك أقرضنا مبلغاً. وطلبَ منا أن نعرِّج عليه كلما وقعنا في ورطة، سواء أمِنْ أجل الحصول على بعض المال أم لإجراء عملية إجهاض. ووعد أنه حين يعرِّج علينا في مرةٍ قادمة سوف يحضر لي أحد كُتُب " السلام عليكم "[٤٨] " .Shalem Aleichem" (وفي تلك الفترة لم أكن بعد قد سمعتُ بـ Moishe Nadir، وإلاّ لطلبتُ منه أن يعيرني " حياتي صدى ")

بعد أن رحلَ لم أتمالك نفسي من أن أُنوِّه إلى أنَّ تصرُّفه ذاك كان تصرُّفاً نموذجياً يصدر عن أحد الأطباء اليهود. فلم أكن قد عرفتُ أي طبيبٍ يهودي ألحَّ عليَّ في تسديد فاتورتي. لم أكن قد قابلتُ منهم مَنْ ليس مهتمَّاً بالفنون وبالعلوم. كلهم تقريباً كانوا في أحد جوانبهم موسيقيين، أو رسامين أو كُتَّاباً. وزيادة على ذلك كانوا جميعاً يمدُّون يد الصداقة. كم يختلفون عن صنف الأطباء غير اليهود من معارفي لديه أدنى اهتمامٍ بالفن، لا أعرفُ أحداً منهم لديه أي اهتمام بغير الطب.

سألت " كيف تفسِّرين ذلك؟ "

قالت مونا " إنَّ اليهودَ دائماً يتّصفون بالإنسانية "

" صدقتِ. إنهم يجعلونك تشعرين أنك في أحسن حال حتى وأنتِ تحتضرين "

---

٤٨ - " السلام عليكم " : هو لقب الكاتب شالوم رابينوفيتش (١٨٥٩ - ١٩١٦) ، الذي يكتب بلغة اليديش أو باليدية . - المترجم .

بعد أسبوعٍ أو نحوه، وكنت في أمسِّ الحاجة إلى خمسين دولاراً تذكَّرتُ فجأة طبيبَ أسناني، وكان أيضاً عضواً في " القبيلة المختارة ". وقررت، بأسلوبي المداور المعتاد، أن أتوجَّه إلى المكتب الكائن في الشارع الثالث والعشرين، حيث يعمل العجوز كرايتون كساعٍ ليليّ، وأرسلته إلى صديقي مع رسالة. وشرحت لمونا ونحن في طريقنا إلى مكتب التلغراف، الرباط المميَّز الذي يجمع بيني وبين ذلك الساعي الليلي. وذكَّرتُها كيف هبَّ إلى نجدتها ذات أمسية ونحن في منزل جيمي كيلي.

في المكتب كان علينا أن ننتظرَ بعضَ الوقتِ - كان كرايتون على الطريق. وتبادلت بعض الهذر مع الساعي الليلي، وكان أحد المنحرفين الذين اهتدوا ويعملون مع أورورك. وأخيراً ظهرَ كرايتون. دُهِشَ لرؤيتي مع زوجتي. وتصرَّفَ بطريقته اللبقة وكأنه لم يقابلها من قبل.

أخبرتُ الموظَّف الليلي أني أريدُ أن أحتجزَ كرايتون مدة ساعة أو ساعتين. وفي الخارج استدعيتُ سيارة أجرة، وفي نيَّتي أن أتوجَّه معه إلى بروكلن وأنتظر عند ناصية الشارع حتى يُنجِزَ الاتصال نيابةً عني. وانطلقنا. وشرحتُ له برويّة طبيعة مهمّتنا.

هتفَ " ولكن لا ضرورة للقيام بذلك! أنا أدَّخر مبلغاً صغيراً من المال. ويسعدني، يا سيد ميللر، أن أقرضكَ مائة دولار، أو حتى مائتين، وإن كان هذا يكفيك "

في أول الأمر أبديتُ اعتراضاً ومن ثم أذعنت.

قال كرايتون " سوف أُحضِرُهُ إليك في الصباح الباكر ". وظلَّ راكباً معنا حتى وصلنا إلى المنزل، وتحادثنا قليلاً ونحنُ واقفون عند عتبة

الباب، ومن ثم تابعَ هو باتجاه النفق. وكنا قد توصّلنا إلى مقدارٍ متوسط هو مائة وخمسون دولاراً.

في صباح اليوم التالي ظهر كرايتون، مشرقاً ومبكّراً، وقال " لستَ مضطراً للاستعجال في تسديده ". شكرته بحرارة وألححتُ عليه كي يأتي في ليلة عطلته القادمة.

في اليوم الذي تلى كان هناك عنوان رئيسي في الصحيفة يفيدُ بأن صديقنا كرايتون قد أضرَمَ النار في المنزل الذي يقطنُ فيه وأنه قد احترقَ حتى الموت. ولم يقدِّم أي تفسير لتصرّفه الرهيب.

حسنٌ، هاك مبلغاً صغيراً من المال لن اضطرّ أبداً إلى تسديده. وكان من عادتي أن أحتفظ بمفكّرةٍ صغيرةٍ أسجِّلُ فيها المبالغ المالية التي اقترضناها. أي تلك التي أعرف بأمرها. وكان من المستحيل عمليّاً أن أتأكّد مما تدينُ به مونا لـ " فرسانها ". إلاّ أنه كان في نيّتي أن أسدِّد كل ديوني أنا. وديوني أنا بالمقارنة مع ديونها لم تكن تستحق الذكر. لكنها مع ذلك كانت تشكِّل لائحةً تدوِّخ. وكان العديد من بنودها يقدَّر بخمسة دولارات وأقلّ. إلا أن تلك المبالغ الصغيرة كانت هي الهامة في نظري. فقد منحني إياها أناسٌ لا يكاد في مقدورهم أن يتخلّوا عن دايمٍ واحد. فمثلاً، مبلغ ثلاثة دولارات ونصف هذا التي اقترضتها من سفاردكار، أحد سُعاتي الليليين السابقين، المخلوق الهشّ، الرقيق، كان يعيشُ على مقدار حفنة من الأرز في كل يوم. لا شك في أنه قد عاد إلى الهند الآن، ويستعد لينخرط في سلك الرهبنة. وهو في الغالب لم يعد يحتاج إلى تلك الدولارات الثلاثة والنصف. ومع ذلك كان سيسعدني، سعادة غامرة، لو كان في إمكاني أن أعيدها إليه. فحتى قديسٌ يحتاج إلى المال بين حينٍ وآخر.

بينما كنت جالساً أجترُّ أفكاري، تبدي لي أنه في أوقات متفرِّقة كان كل هندوسي أتعرَّفُ عليه يقرضني نقوداً. وكانت دائماً مبالغَ صغيرةً مؤثِّرةً مُستقطَعَة من أكياس نقودٍ مهترئة. ولاحظت أن هناك بنداً واحداً مقداره أربعة دولارات وخمسة وسبعون سنتاً، مستحقّة الدفع لعلي خان، البارسي[٤٩]، الذي كان يكتب لي رسائلَ خارقة، مبدياً ملاحظاته حول الظروف السائدة في مجال عمل التلغراف وأيضاً انطباعاته حول المجلس البلدي بشكلٍ عام. وكان خطُّهُ جميلاً ويستخدمُ لغةً طنَّانةً. فإذا لم يلجأ إلى تعاليم المسيح، أو أقوال بوذا، التي كان يقتطفها (لينورِّني)، فمن الطبيعي أن يقترح عليَّ أن أكتب إلى العمدة وآمره بأن يضع أرقامَ الشوارع على المنازل كلها وأن تُضاء أثناءَ الليل. فإنَّ ذلكَ سيسهِّل على السُعاة الليليين أن يعثروا على عناوين الشوارع، في ظنِّه.

لحسابِ مَنْ كنا نُطلِقُ عليه اسم " آل جولسن "[٥٠] كان ما مجموعه ستة عشر دولاراً. وكانت قد تملَّكتني عادةٌ سيئةٌ وهي أن أقنعه بإقراضي دولاراً في كل مرة أصادفه في الشارع. وكنت أفعلُ ذلك، في المقام الأول، لأنه كان يُسعدُهُ أيّما سعادة أن يقرضني هذا المبلغ الضئيل كلما تقابلنا. وكان قَصَاصي على ذلك أن أتوقَّفَ وأنصتَ إليه وهو يدندنُ بلحنٍ جديدٍ يكون قد ألَّفَه. كان هناك أكثر من مائة من تلك الألحان الصغيرة تطوفُ بين الناشرين في حي تن بال آلي[٥١]. وكان بين حينٍ وآخر، وفي أمسيات الخاصة بالهواة، يظهرُ على خشبات بعض المسارح المجاورة. وكانت أغنيته المفضّلة هي " أفالون "، التي كان يغنيها بأداءٍ

---

٤٩ – البارسيّ : الشخص الزرادشتي المتحدِّر من أصلاب الفارسيين المقيمين في بومباي أو في أنحاءٍ أخرى . – المترجم

٥٠ – آل جولسن : مغني وممثل أميركي ، وهو الذي مثَّلَ أولَ فيلمٍ ناطقٍ عام ١٩٢٧ ، " مغني الجاز " . – المترجم

٥١ – تن بال آلي : هو الحي الذي يتجمَّعُ فيه مؤلِّفو الأغاني الشعبية . – المترجم

عادي أو بأداء متكلّف، كما ترغب. وذات مرة، بينما كنت أسلّي أحد أصدقائي - في " هنغاريا الصغيرة " - اضطررت إلى استدعاء ساعٍ ليُحضِر لي بعض الفكّة. وكان " آل جولسن " هو الذي أحضرها. ودعوته، دون تفكير، إلى الجلوس وشرب كأسٍ معي. وبعد أن تبادلنا بِضع كلمات طلبت منه أن يغنّي إحدى أغانيه. وحسبتُ أنه سوف يدندنها لنا، ولكن لا، وقبل أن أتمكّن من إسكاته كان قد نهضَ واقفاً على قدميه في منتصف المكان، وهو يحمل قلنسوته بإحدى يديه وكأساً بالأخرى، وأخذ يصدح بأعلى ما تقدر عليه رئتاه. وطبعاً تسلّى الرؤساء إلى أقصى حد. وبعد انتهاء الأغنية أخذ يتنقّل من طاولة إلى طاولة وقلنسوته يحملها بيده ليستجدي القِطَع النقدية. وبعد ذلك جلس وتبرَّعَ بدفعِ ثمن مشروباتنا. ولما وجدَ أن هذا مستحيل سرَّبَ إليَّ خِلسةً ورقتين نقديتين من تحت الطاولة، وهمس " ادفع أنت حصَّتَكَ ".

الرجل الذي كنتُ أدينُ له بمبلغ ضخم هو قريبي ديف، ومقداره بضع مئات من الدولارات، وكان يتزايد باطّراد مع مرورِ الوقت. وديف ليونارد هذا كان زوج عمتي. وكان يعمل جزاراً لعدّة سنوات ومن ثم، بعد أن فقدَ إصبعَين، قرر أن يجرِّب نفسه في عمل آخر. وعلى الرغم من كونه أميركيَّ المولد، ويانكي حتى أخمص قدميه، إلاّ أنه لم يحصِّل أي قدر من التعليم . لم يكن يُحسِن حتى كتابة اسمه. ولكن أي رجل! أي قلب! كنت أجلس وأنتظر ديف خارج أبواب دار مسرح زيغفيلد فوليز[٥٢]؛ فقد كان قد أصبح مضارب بطاقات دخول، وهو عمل كان يدرُّ عليه مبلغ

٥٢ - زيغفيلد فوليز : هو اللقب الذي أُطلِقَ على المنتج المسرحي فلورنتز زيغفيلد (١٨٦٩ - ١٩٣٢) ، وكان معروفاً بعروضه الاستعراضية والغنائية المبهرة . - المترجم .

عدة مئات من الدولارات في كل أسبوع - ودون الكثير من الضجة أو الإزعاج. فإذا لم تجده في الفوليز ففي الهيبودروم أو في الـ" مت ". وكما كنت أقول تعوّدتُ أن أتسكّعَ خارجَ تلك المرابع، في انتظار أن أفاجئه أثناء فترة استراحة. وكان يكفي أن يراني ديف قادماً إليه يمدُّ يده إلى جيبه، مستعداً لإخراج حزمة النقود بحركةٍ سريعةٍ، وكانت حزمةً ضخمةً؛ ثم يسحبُ منها قطعةً بخمسين بالسهولة نفسها التي يسحبُ منها قطعةً بعشرة. ولم يكن يرفُّ له جفنٌ قط، ولم يسألني دهره ما حاجتي إلى النقود. ويكتفي بالقول " تعال إليّ في أي وقت تشاء. أنت تعرف أين تجدني ". أو يقول " امكث قليلاً وسوف نتناول لقمةً معاً " أو - " ألا تريد أن تشاهد العرض هذا المساء؟ سأتدبر لك بطاقةً لمقعدٍ أمامي، إنها ليلة عطلة "

شابٌ فخمٌ، هذا الديف. كنتُ أباركُ روحَه كلما غادرته ... وحين أخبرته ذات يوم أني أمارس الكتابة فَرِحَ فرحاً عارماً. وكان ذلك بالنسبة إلى ديف كقول - " سوف أصبح ساحراً! ". لقد كان احترامه للّغة احتراماً نموذجياً يصدرُ عن رجلٍ أميّ. ولكن خلفَ حماسته كان يكمنُ شيءٌ آخر. لقد فهمني ديف، فَهِمَ أني مختلفٌ عن باقي أفراد العائلة، واستحسنَ ذلك. كان يُذكّرني بشكلٍ مؤثّر كيف كنتُ أعزفُ على البيانو، وأيّ فنانٍ متميّزٍ كنتُ. وابنته التي كنت أعطيها دروساً في العزف أضحت الآن عازفةً راسخة القَدَم. وقد ذُهِلَ حين عَلِمَ أني تخلّيتُ عن العزف. إذا أردتُ آلة بيانو سوف يُحضِرَ لي واحدة - إنه يعرف كيف يحصل على واحدة رخيصة. " فقط أأمرني يا هنري! ". ومن ثم يروح يستجويني حول فن الكتابة. هل يجب على المرء أن يفكّرَ في الأمر

مسبقاً أم أنه يفعلُ ذلك أثناء رحلةِ إنجازه للعمل؟ طبعاً يجب إجادة التهجئة، في اعتقاده. ويجب متابعة ما يجري على صفحات الجرائد، هه؟ كان يعتقد أنَّ على الكاتب أن يُحيطَ علماً بكل ما يحدث - بكل ما يجري تحت الشمس. أما الفكرة التي كان يجب أن يتوقف عندها مطوَّلاً هي أنه ذات يوم سوف يشاهد اسمي مطبوعاً ومُتَدَاولاً، إما في صحيفة، أو مجلة، أو على غلاف كتاب. ويقول متأمِّلاً " أعتقد أن تأليفَ كتابٍ عملُ صعب. لابد أنَّ من الصعوبة بمكان أن تتذكَّر ما كنتَ قد كتبته قبل أسبوع، صح؟ ثم هناك كل تلك الشخصيات! فماذا تفعل، هل تحتفظ أمامك بقائمة بأسمائها؟ ومن ثم يَطْلُبُ رأيي في كتّابٍ معيَّنين كان قد سَمِعَ عنهم. أو عن كتّاب صحفيين مشهورين يتقلَّبون في أحضان الثراء. " هذا هو الإنجاز يا هنري ... لو أنك تغدو كاتباً صحفياً، أو مراسلاً ". مهما يكن، كان يتمنّى لي أفضل الأمنيات. كان دائماً واثقاً من أني سوف أحقِّقُ نجاحاً باهراً، وأني أنطوي على الكثير، وما إلى ذلك. " أمتأكِّدُ أنت من أن هذا يكفي؟ " (مشيراً بذلك إلى الورقة النقدية التي أعطانيها) " إذا احتجتَ إلى نقود عُدْ غداً. واعلَمْ أنَّ هذا لا يزعجني ". ثم يقول بعد قليل " اسمع، هل لي بدقيقة من وقتك؟ أريد أن أجمعك بأحد أصدقائي المقرَّبين. إنه يكاد يموتُ اشتياقاً لمصافحتك. وكان في أحد الأيام يعمل لصالح إحدى الصحف "

* * *

لدى تفكيري في ديف وفي طيبته الفائقة خطرَ لي أني لم أرَ ابن عمتي جين منذ زمن بعيد. وكل ما أعرفه عنه أنه قد انتقلَ إلى يوركفيل

قبل منذ بعض السنين وهو الآن يعيشُ في لونغ آيلند مع ولديه اللذين كانا يكبران.

كتبتُ له رسالة على بطاقة بريدية أقول فيها إني أودُّ أن أراه ثانية، وسألته أين يمكن أن نتقابل. وأرسل إليّ رداً فورياً، يقترح فيه محطة مرفوعة كائنة بالقرب من نهاية الخط.

كانت لدي نيّةٌ كاملةٌ في أن أصطحبَ معي كميةً كبيرةً من البقالة وبعض النبيذ، ولكن كل ما استطعتُ أن أفعله لدى انطلاقي لأقابله هو أن أُجري تعديلاً صغيراً، فقط بما يكفي للذهاب والإياب. وقلت في نفسي، حاولتُ أن أقترض دولاراً من بائع صحف ضرير في بورو هول، ولكن عبثاً.

كان ما اختبرتُهُ بمثابة صدمةٍ عندما رأيتُ جين واقفاً على الرصيف يحملُ بيده صندوقَهُ الصغير الذي يحتوي على غدائه. كان شعره قد وَخَطَه الشيب، وكان يرتدي بنطالاً مرقّعاً، وكنزة سميكة، وقلنسوة ناتئة. غير أن ابتسامته كانت مشرقةً، ومصافحته دافئةً. ولدى تحيّته لي كان صوته يرتعشُ. كان ما يزال ذاك الصوت العميق، الدافئ الذي كان يملكه حتى وهو فتى صغير.

وقفنا هناك يحدِّقُ كلٌ منا إلى عينيّ الآخر مدةَ دقيقة أو دقيقتين. ثم قال، بلكنة يوركفيل القديمة: " تبدو بأحسن حال، هنري "

قلتُ " أنتَ أيضاً تبدو بأحسن حال، ولكنك نحلتَ قليلاً "

قال جين " إني أتقدَّمُ في السن "، وخلعَ قلنسوته ليريني إلى أي مدى أصبحَ أصلعاً.

قلت " هراء، أنت ما تزال في ثلاثينات عمرك. ولَوْ، أنت ما تزال غضاً "

أجاب " كلا، لقد فقدتُ حيويتي. لقد مررتُ بوقتٍ عصيبٍ يا هنري"

هكذا بدأ الأمر. وأدركتُ في الحال أنه يقول الحق. فلطالما كان نزيهاً، وصريحاً، وصادقاً.

رحنا نهبط الدَرَج المرفوع إلى مكانٍ قفرٍ، معزولٍ؛ وأنبأني حدسي بأنه سيغدو أكثر قفراً وعزلةً كلما تقدَّمنا أكثر.

أخذتُ أتلقّى القصة ببطء، وشيئاً فشيئاً، وهي تقطِّعُ نياط قلبي أكثر فأكثر مع تقدُّمها. فأولاً، لم يكن يعمل إلا يومين أو ثلاثة في الأسبوع. فلم يعد أحد يرغب في حيازة صناديق غلايين جميلة. ووالده هو الذي أوجدَ له عملاً في المصنع (قبل زمن طويل، كما بدا)، ولم يكن هذا الوالد يؤمن بتضييع الوقت في تحصيل العِلْم. ولم أكن في حاجة إلى مَنْ يذكِّرني كم كان والده فظاً وجلفاً: كان دائماً يجلس مرتدياً ملابس داخلية حمراء اللون، شتاءً وصيفاً، وأمامه صندوقٌ من البيرة. كان أحد أولئك الألمان الغلاظ الذين لا يتغيَّرون أبداً.

كان جين قد تزوَّجَ، وأنجبَ طفلين، ومن ثم، وكان الطفلان ما يزالان صغيرين، توفيت زوجته متأثِّرةً بمرض السرطان، وكانت ميتةً مؤلمةً، بطيئةً. واستنفذ مدّخراته كلها وغاصَ في الدَين. وعندما توفيت زوجته لم يكونوا قد أمضوا في البلد، كما كان يسمّيه، أكثر من بضعة أشهر. وفي ذلك الوقت بالضبط سرَّحوه من العمل في المصنع. وكان قد حاولَ أن يربِّي سَمَكاً استوائياً لكنه فشل. وكانت المشكلة تكمنُ في أنْ يجدَ عملاً يمكنه أن يقوم به داخل المنزل لأنه ليس لديه مَنْ يعتني بشؤون الأطفال. فكان يطبخ، ويغسل الملابس، ويرفوها، ويكويها، ويقوم

بالأعمال كلها. لقد كان وحيداً، وحيداً وِحْدةً رهيبةً. ولم يتغلّب قط على محنة فقدانه زوجته التي كان يحبُّها حباً جماً.

حكى هذا كله ونحنُ نشقُّ طريقنا متّجهين إلى منزله. ولم يكن قد سألني بعد أي سؤال عن أحوالي؛ كان منغمساً تماماً في سرد مآسيه. وحين ترجَّلنا أخيراً من الحافلة كان علينا أن نقطع مسافة طويلةً خلال شوارع في ضاحية حقيرة لنصل إلى ما يشبه الأرض الخلاء، وعند نهايتها القصوى كان يقوم كوخه الصغير، الزريّ، الكئيب، الذي يشبه تماماً مساكن البيض الفقراء في عمق الجنوب. وكان هناك بعض الزهور تكافحُ جاهدةً لتحافظ على حياتها خارج الباب الأمامي. وكانت تثير الشفقة. دخلنا فحيّانا ولداه، وكانا ولدين جميلين بدت عليهما قلّة التغذية؛ هادئين، وجدّيين، ورزينين ومتحفِّظَين بصورة غريبة. ولم أكن قد رأيتهما قبل ذلك. وشعرتُ كما لم أشعرُ قط بالخجل من نفسي لأني لم أُحضِرِ معي أي شيء.

شعرتُ أنَّ عليَّ أن أقولَ شيئاً لأبرِّئ نفسي.

قال جين " لا داعي لأن تقول لي أي شيء، أنا أعرفُ الظروف "

قلتُ " لكننا لسنا دائماً مفلسين. اسمع، سوف أعود إلى زيارتك في وقتٍ قريب، قريب جداً. أعِدُكَ. وسوف أُحضر معي زوجتي في المرة التالية"

قال جين " لا داعي للحديث عن هذا، أنا سعيد بقدومك. هناك بعض حساء العدس على المدفأة، ولدينا بعض الخبز. ولن نجوع "

عاد من جديد يحكي لي - عن الأيام التي لم يجدوا خلالها كسرة خبز يأكلونها، وكيف وصلَ إلى حافة اليأس التامّ حتى أنه لجأ إلى جيرانه وأخذ يستجدي شيئاً من الطعام - فقط من أجل الطفلين.

قلتُ " ولكن أنا متأكِّد من أنَّ ديف كان سيمدُّ لك يد العون، فلمَ لمْ تطلب منه بعض النقود ؟ "

بدا عليه التألُّمُ. " أنت تعرف كيف هو الأمر. الإنسان لا يرغب في أن يقترض من أقربائه "

" إن ديف ليس مجردَ قريب لك "

" أعرف يا هنري، ولكن لا أريد أن أطلب معونة. إني أفضِّل أن أعاني الجوع. ولولا الطفلين أعتقد أني كنت سأموت جوعاً "

بينما كنا نتحدَّث تسلَّلَ الطفلان إلى الخارج، ليعودا بعد بضع دقائق مع بعض أوراق الملفوف، والكرفس، والفجل.

قال جين، مؤنباً، " ما كان ينبغي أن تفعلا هذا "

سألته " يفعلان ماذا ؟ "

" أوه، سرقا هذه الأشياء من أحد جيراننا الغائبين "

قلت " أَحْسَنَا فعلاً! اللعنة يا جين، لقد فكَّرا بشكل صحيح. اسمع يا هذا، إنك إما شديدُ التواضع، أو شديدُ الكبرياء، لا أدري أيُّهما "، ثم اعتذرتُ من فوري. كيف أمكنني أن أقسو في تعنيفه بسبب فضائله البسيطة؟ لقد كان يمثِّل جوهر العطف، والرقة، والتواضع الحقيقي. كانت كل كلمة ينطقها تُجلِّلها هالةٌ من نور. لم يكن يضع اللوم أبداً على أي إنسان، ولا على الحياة. كان يتكلَّم وكأنَّ كل شيء حادثٌ عارِض؛ جزءُ من قَدَرِه الخاص، ولا يحتملُ أي جَدَل.

قلت، ما بين الهزل والجد، " ربما كان في وسعهما أن يَخرُجا أيضاً بقليلٍ من النبيذ "

قال جين وقد احمرَّ خجلاً " لقد نسيت هذا تماماً . إن لدينا بغض

النبيذ في القبو. إنه نبيذ بيتي ... من ثمر الحَمَان ... أتَقْبَل أن تشربه؟ كنت أدّخره لمثل هذه المناسبة "

كان الولدان قد تسلّلا لتوّهما هابطَين الدَرَج. كانا مع كلٍّ نشاطٍ مفاجئ يغدوان أكثر انبساطاً. قلت " إنهما ولدان رائعان يا جين. ماذا سيفعلان عندما سيكبران؟ "

" الأمرُ الوحيدُ الذي أعرفه هو أنهما لن يلتحقا بالعمل في المصنع. سوف أحاولُ أن أرسلهما إلى الجامعة. أعتقد أنَّ من المهم أن يحصلا على تثقيفٍ جيد. آرثر الصغير، الأصغر، يريد أن يصبح طبيباً. الكبير بينهما جامح، يريد أن يذهب إلى الغرب ويصبح كاوبوي. ولكنه سيتغلّب على هذه الرغبة سريعاً. فكما تعلم، إنهما يقرآن قصص الغرب الأميركي السخيفة تلك "

فجأة خطر له أن يسألني إن كان لدي طفل.

قلت " لدي طفل من الزوجة الأولى، أنثى "

ذُهِلَ لدى معرفته أني تزوجت من جديد. يبدو أن الطلاق مسألةٌ لا تخطر أبداً على باله.

سأل " زوجتك أيضاً تعمل؟ "

قلت " بشكلٍ أو بآخر ". لم أدرِ بالضبط كيف أشرحُ له تعقيدات حياتنا بكلماتٍ قليلة.

بعد ذلك قال " أعتقدُ أنكَ ما زلتَ تعمل في شركة الأسمنت "

شركة الأسمنت! كدتُ أقع عن كرسيٍّ.

قلت " كلا يا جين، أنا الآن كاتب. ألم تكنُ تعلم هذا؟ "

حان وقته ليُدهَش. " كاتب؟ ". وأضاءَ السرورُ وجهَه. قال " إن هذا

لا يُدهشني حقاً مع ذلك. إني أذكرُ كيف كنتَ تقرأ لنا نحن الأطفال أيام زمان. كنا دائماً ننام ونحنُ ننصتُ إليكَ، أتذكُر؟ ". ثم صمَتَ ليتذكَّر، مُطرِقَ الرأس، ومن ثم رفع بصره وألمحَ " طبعاً كنتَ أيضاً قد حصَّلتَ ثقافةً جيدة، أليس كذلك؟ ". قال ذلك وكأنه فتى مهاجر أُنكِرَت عليه المزايا المعتادة التي يحصل عليها الأميركي.

حاولتُ أن أشرح له أني لم أُحصِّل الكثير في المدرسة، وأننا عملياً في مركبٍ واحد. وبينما نحن كذلك سألته فجأة إن كان ما زال يقرأ.

أجاب وهو مبتهج " أوه، نعم. أقرأ قليلاً جداً. كما تعلم، لا شيءَ آخرَ عندي أفعله "، وأشار إلى الرف القائم خلفي والذي رُصَّتْ عليه كتبه. والتفتُّ لأُلقي نظرةً سريعة على العناوين. ديكنز، سكوت، ثاكراي، الأخوات برونتي، جورج إليوت، بلزاك، زولا ...

قال، مجيباً عن السؤال الذي لم أطرحه، " إني لا أقرأ أياً من الحثالة الحديثة "

جلسنا لنتناولَ الطعام. كان الولدان جائعين بضراوة. ومرة أخرى شعرتُ بوخز الندم؛ أدركتُ أنه لو لَمْ أكن موجوداً هناك لأكلا ضعف الكمية التي تناولاها. وبعد أن أتينا على الحساء أخذنا نعالجُ الخضروات. ولم يكن لديهم زيت، ولا أي نوع من المَرَق المتبِّل، ولا حتى خردل. والخبز نفد أيضاً. ورحتُ أفتِّشُ في جيبي حتى عثرتُ على دايم، كان كل ما أملك، إلى جانب رسم المواصلات إلى المنزل. قلت " دعهما يذهبان ليحضرا رغيفَ خبز "

قال جين " لا داعي لذلك، يمكنهما أن يستغنيا عنه. لقد تعوَّدا على ذلك "

" ماذا تقول! أنا نفسي يمكنني أن آكل أكثر قليلاً، ألستَ مستعداً أنت؟ "

" ولكن ليس لدينا زبد أو مربى "

" وما هَمْ؟ نأكله حاف. لقد فعلتُ هذا من قبل "

وغاصَ الولدان ليحصلا على الخبز.

قلت " يا يسوع، أنت حقاً خالي الوفاض، أليس كذلك؟ "

قال " ليس هذا بالأمر السيئ يا هنري. لقد مرَّتْ علينا أوقاتٌ كنا نأكل خلالها الأعشاب البرية "

" لا، لا تقُلْ هذا! مُحال ". كدتُ أثور غضباً منه. ثم قلتُ " ألا تعرف أنك لستَ مضطراً إلى أن تجوع؟ إنَّ هذا البلد يتعفَّنُ من كثرة الطعام. لو كنتُ في مكانك يا جين لخرجتُ واستجديتُ قبل أن أُضطرَّ إلى أن آكل الأعشاب البرية. إللعنة، إني لم أسمع بمثل هذا أبداً "

قال جين " الأمرُ يختلفُ معك؛ أنت طفتَ في الدنيا، خرجتَ إلى العالم. أنا لم أفعل. لقد عشتُ حياةَ سنجابٍ داخل قفص ... فيما عدا تلك الفترة عملتُ على متنِ صندل النفايات "

" ماذا؟ صندل النفايات؟ ماذا تقصد بهذا؟ "

قال جين بهدوء " أقصد ما قلتُ؛ أنقلُ النفايات إلى " الجزيرة القاحلة ". حدث ذلك حين كان الولدان يعيشان عند أهل زوجتي بعض الوقت. أُتيحَتْ لي الفرصة لأقوم بعملٍ مختلفٍ على سبيل التغيير... ألا تذكُر السيد كيزلنغ، عضو مجلس المدينة؟ هو الذي أمَّنَ لي العمل. وقد استمتعتُ أيضاً بأدائه - طوال ما كان متوفراً. طبعاً كانت الرائحة شنيعة، لكنك تستطيع أن تتعوَّد على كل شيء بعد مرور فترةٍ من

الوقت. كنت أتقاضى عنه ثمانين دولاراً في الشهر، وهو يعادلُ نحو ضعف ما كنتُ أكسب في مصنع الغلايين. وكان أيضاً عملاً مسلّياً، ذاك الإبحارُ في عُمق الخليج، وحولَ الميناء، وصعوداً وهبوطاً في الأنهار. وكانت تلك الفرصة الأولى والوحيدة التي أُتيحت لي للاندماج في العالم. ومرة واحدة ضعنا في البحر، أثناء عاصفة. ورحنا ننجرفُ دون وجهة على مدى أيامٍ طويلة. وأسوأ ما في تلك التجربة أن الطعامَ نفَدَ منا. نعم، واضطررنا إلى أن نأكل الزبالة. كانت تجربةً رائعةً بكل معنى الكلمة. وأعترفُ بأني استمتعتُ بها. كانت أفضل بكثير من وجودي في مصنع الغلايين. على الرغم من رائحة النتانة الفظيعة ... "

صَمَتَ برهةً ليتلذّذ بها من جديد. كانت أفضل أيامه! ثم سألني فجأة إن كنتُ قد قرأتُ مرةً كونراد، جوزيف كونراد، الذي كتبَ عن البحر.

أومأتُ برأسي إيجاباً.

" هاكَ كاتباً أكنُّ له الإعجاب يا هنري. لو تستطيع أن تكتب قصة مثله، حينئذٍ ... ". لم يعرف ماذا يضيفُ على هذه الجملة. " إن روايتي المفضّلة هي "زنجي على السفينة نرسيس". لقد قرأتُها على الأقل عشر مرات. وفي كل مرة تبدو لي أفضل من ذي قبل "

" نعم، أعرف. لقد قرأتُ تقريباً كل أعمال كونراد. أوافقك على أنه كاتب رائع ... وماذا عن دوستويفسكي، ألم تقرأه قط؟ "

كلا، لم يقرأه. لم يسمع باسمه من قبل. ماذا يعمل، أهو روائي؟ يبدو له الاسمُ بولونياً.

قلت " سأرسلُ إليك أحد كتبه، عنوانه " بيت الموتى ". ثم أضفت

"بالمناسبة، لديَّ عددٌ هائلٌ من الكتب. في إمكاني أن أرسل إليك أي شيء تريده، وقدر ما تشاء. فقط قُل لي ما الذي يمتعُكَ "

قال لا داعي لإزعاج نفسي، إنه يحب أن يعيد قراءة الكتب نفسها مراراً وتكراراً.

" ولكن ألا يهمُّكَ أن تعرف شيئاً أيضاً عن كتَّاب آخرين؟ ". إنه لا يعتقد أنَّ لديه الطاقة الكافية للاهتمام بكتَّاب جدد. لكن ابنه، الكبير بينهما، يحب القراءة. ربما في إمكاني أن أُرسِلَ له شيئاً "

" وما نوع الكتب التي يحب أن يقرأها؟ "

" يحب المؤلّفين المُحدَثين "

" مثل مَنْ؟ "

" أوه، هول كين، رايدر هاغارد، هنتي[٥٣] ... "

قلت " فهمت. يمكنني دون شك أن أرسلَ إليه شيئاً مثيراً للاهتمام"

قال جين " أما الصغير فلا يكاد يقرأ أي شيء. لكنه مولع بالعلوم. كلُّ ما يتفرَّج عليه هو ما تحويه المجلات العلمية. وأعتقد أنه مؤهَّل ليغدو طبيباً. يجب أن تشاهد المختبر الذي أعدَّه لنفسه. وقد زوَّده بكل ما يلزمه، وكل شيء مُجَزَّأ وموضوع في زجاجات. والرائحة مقزِّزة للنفس هناك. ولكن إذا كان هذا يسعده ... "

" بالضبط يا جين. إذا كان هذا يسعده "

مكثتُ حتى موعد آخر حافلة. وعندما أخذنا نطرق أرض الشارع المظلم، الحقير، لم نتبادل أي كلمة. وحين صافحتُهُم جميعاً كرَّرتُ القولَ إني سأعود قريباً. " في المرة التالية سوف نمدُّ وليمةً، اتفقنا يا أولاد؟

---

٥٣ - أسماء كتَّاب يكتبون قصص مغامرات للفتيان . - المترجم

قال جين " لا عليك من هذا يا هنري. فقط تعال ... واحظر معك أيضاً زوجتك "

بدت رحلة العودة إلى المنزل لا متناهية. فلم أكن أشعر فقط بأني حزين، بل شعرتُ أني نكد المزاج، وقانط، ومهزوم. ولم أكد أصبر على الوصول إلى المنزل لكي أدير مفاتيح الأضواء. وحالما ولجتُ عشَّ الحب عدتُ من جديد أشعر بالأمان. لم تكن مرة شقّتنا الصغيرة الرائعة أقرب شبهاً برحمٍ أليفٍ مثلما كانت عندئذ. إننا بحقّ لم نكن نفتقد أي شيء. وإذا كنا نجوع بين حين وآخر فإننا كنا نعرف أنَّ ذلك لن يدوم إلى الأبد. لقد كان لدينا أصدقاء - وكنا نتمتَّعُ بموهبةِ حُسنِ المخاطبة. كنا نعرف كيف نتدبَّر أمر مؤونتنا. أما فيما يخص العالم، فقد كان العالمُ الحقيقيُّ يَكمنُ كله داخلَ جدراننا الأربعة. لقد نجحنا في أن نجرَّ كل ما أردناه من العالم إلى عريننا. صحيحٌ أني كنتُ بين حين وآخر أُضحي حسّاساً، أو خجولاً، حين يتعلّقُ الأمر بإقامة اتّصال بشخصٍ ما، لكن تلك اللحظات كانت نادرة. وكان في إمكاني على الفور أن أستجمع الشجاعة لأتحدَّث بصراحة مع إنسانٍ غريب تماماً. ولا شك في أنه كان من الضروري أن أبتلع كبريائي. لكني كنت أفضِّل أن أبتلع كبريائي على أن أبتلع لعابي.

لم تكن البورو هول قد بدت لي قط أجمل مما بدت لدى خروجي من القطار النفقي. كدتُ أصلُ إلى المنزل. المارة يبدون مألوفين. إنهم ليسوا ضائعين. كان بين العالم الذي غادرته لتوي وهذا العالم بونٌ شاسع. مع أنَّ الموقعَ الذي كان جين يقطنُ فيه يقع فقط في ضاحية المدينة - غير أنه بالنسبة إليّ بدا كأنه يقع في البرية. وَسَرَتْ في أوصالي الرعشةُ لدى تفكيري في أنه يمكن أن يقدَّرَ لي أن أحيا تلك الحياة.

قادتني رغبةٌ مُلحَّةٌ في طواف الشوارع لبعض الوقت غريزياً إلى شارع ساكيت. وسِرتُ متجاوزاً منزل صديقي القديم، آل برغر، وقد ملأتني ذكرياتي عنه. بدا متهدِّماً مثيراً للحزن. والشارع برمَّته، بمنازله وكل شيء، بدا أنه قد تقلَّصَ منذ زيارتي الأخيرة له. كان كل شيء قد انكمشَ وذوى. وعلى الرغم من كل شيء، ظلَّ بالنسبة إليّ شارعاً رائعاً. الـ via nostalgia (دربُ الحنين).

أما الضواحي، فمشؤومة ومهجورة - وكل الذين عرفتهم وذهبوا ليقطنوا في الضواحي انتقلوا إلى رحمة الله. إنَّ تيار الحياة لم يغسِل أبداً تلك الأنحاء. ولا يوجد إلا هدفٌ واحد يجعل المرء ينسحب إلى سراديب الموتى - الأحياء تلك: أن يتناسل ومن ثم أن يذوي ويموت. ولو أنَّ ذلكَ كان بدافعِ الزُهد في الحياة لكان مفهوماً، لكنه لم يكن كذلك قط. كان دائماً اعترافاً بالهزيمة. لقد أضحت الحياة روتيناً، أشدّ أنواع الروتين إشاعة للملل. عملٌ رتيب، وعائلةٌ ذات صدر كبير يتسلَّل المرء إليه، وحيوانات منزلية مع أمراضها، ومجلات مبتذلة، ومجلات هزلية، وتقويم المُزارع. ووقتٌ طويل يقف المرء أثناءه ليتفحَّصُ نفسه في المرآة. ويخرج الأطفال، واحداً إثر آخر، بانتظامِ شمسِ منتصفِ الظهيرةِ، من الرحم. والإيجار أيضاً يأتي بانتظامٍ في موعده، أو الفائدة على الرهن. وما أمتع مشاهدة أنابيب الصرف الجديدة وهي تُمدّ! وكم هو مثير رؤية الشوارع الجديدة وهي تُشَق وتُغَطَّى أخيراً بالإسفلت! كلُ شيء كان جديداً. جديدٌ ورديء الصنع. جديد ومُقفِر. جديد ولا معنى له. ومع الجديد تأتي وسائل راحة إضافية. كان كل شيء مُخطَّط له من أجل الأجيال القادمة. ويُرتَهَن الإنسان من أجل المستقبل المُشرق. وتكفي رحلةٌ

واحدةٌ إلى المدينة حتى يتوقُ الإنسانُ إلى العودةِ إلى كوخ البنغالو الصغير المرتَّب مع جزّازة العشب والغسَّالة الكهربائية. إنَّ المدينةَ تسبِّب القلق، والاضطراب، وضيق الصدر. ومن العيش في الضواحي يكتسب المرء إيقاعاً مختلفاً. وما هَمْ إن لم يكن au courant (حَسَنَ الاطِّلاع)؟ وثمة تعويضات - مثل خفّ المنزل الدافئ، والمذياع، وخشبة الكيّ التي تقفز خارجةً من الجدار. حتى التمديدات الصحّية لذيذة.

طبعاً المسكين جين لم يكن يحظى بمثل تلك التعويضات. إنَّ لديه هواءً منعشاً، وهذا كل شيء. صحيح، أنه لم يكن يقطنُ منطقةَ الضواحي؛ كان مُلقى في المنطقة المتوسطة، في تلك البقعة المُشاع حيث بالكاد يحافظُ الإنسانُ على حياته بتلك الطريقة البائسة التي تتحدّى كل منطق. وكان الامتداد المستمرّ للمدينة يُهَدِّدُ دائماً بابتلاعه، مع الأرض وكل شيء. أو قد يتراجعُ المدُّ لسببٍ ما دونكيخوتي ويتركهم في حالةٍ مُزرية. وأحياناً تبدأ المدينة بالتحرُّك نحو الخارج في اتجاهٍ معيَّن، وفجأةً تُغيِّرُ رأيها. والتحسينات التي تكون قد بدأتْ تُتْرَكُ دون إنجاز. ويبدأ المجتمعُ الصغيرُ يموتُ ببطءْ، بسببِ الافتقارِ إلى الأوكسجين ويفسد كل شيء ويتهدَّم. وفي ظل هذا الجو يمكن للمرءِ أيضاً أن يُعيدَ قراءة الكتب نفسها - أو الكتاب الواحد نفسه - مراراً وتكراراً؛ أو أن يستمع إلى الأسطوانة نفسها. ففي الفراغ لا حاجة للإنسان إلى الأشياء الجديدة، ولا إلى الإثارة، ولا إلى المنبِّهات الأجنبية. ما على الإنسان إلا أن يحافظ على بقائه الصِرف، أن يحيا حياةً بليدةً، خاملةً، كحياةِ جنينٍ داخل مرطبان.

لم أتمكَّن من النوم في تلك الليلة بسبب تفكيري في جين؛ كانت

بلواه مصدر قلقٍ متواصلٍ لي لأني طالما اعتبرتُهُ كأخٍ لي شقيق. كنت دائماً أرى فيه ذاتي. كنا متشابهَين في الشكل وفي الحديث. وقد وُلِدنا تقريباً في المنزل نفسه. وكان يمكن لأمه أن تكون أمي أنا: ولا شك في أني كنتُ أُفضِّلُها على أمي. وحين كان يجفل من الألم كنت أجفل بدوري. وحين كان يعبِّر عن توقٍ إلى فعلِ أمرٍ ما، كنت أشاركه توقه. كنا أشبه بزوجٍ من الحيوانات مشدودَين إلى نير. ولا أذكر أني تجادلتُ معه مرةً، أو أثرتُ غضبه، أو أصررتُ على فعلِ أمرٍ لا يرغبُ هو في فعله. وما كان يخصّه كان يخصّني، والعكس بالعكس. ولم يظهر بيننا قط أي قدْرٍ من الغيرة أو التنافس. كنا متّحدين، في الجسد وفي الروح... أما الآن فلا أرى فيه صورتي المشوَّهة وإنما أرى بالأحرى حسّاً مسبقاً بما سيأتي. فإذا كان القَدَرُ قد عامَلَهُ بذاكَ الشكلِ الجائرِ - أَخي الشقيق الذي لم يسبِّب مرةً أي أذى لأي إنسان - فماذا يمكن ألاّ يضمُرُهُ لي أنا؟ إنَّ ما كان عندي من طِيبةٍ إنما كان ما فاضَ من بئرِ طيبتِهِ هو الذي لا ينضب؛ وما كان بي من شرٍّ كان يخصّني أنا وحدي. لقد تراكم الشرُّ عندي نتيجة انفصالنا. فعندما افترقتْ طريقانا فقدتُ ذاك الصدى الذي كنتُ أعتمدُ عليه لتوجيهي الذاتي. لقد فقدتُ مِحَكّي.

هذا كله هبطَ عليَّ وأنا مستلقٍ يقظاً على سريري. ولم أكن قد ضمرتُ من قبل مثل تلك الأفكار عن صداقتنا. ولكن كم تبدو لي شفّافة الآن! لقد فقدتُ أخي الحقيقي؛ ضَلَلتُ طريقي؛ أردتُ أن أكونَ مغايراً له. لماذا؟ لأني أبيتُ أن أسقطَ منهزماً أمام العالم. كنت ذا كبرياء. وببساطةٍ رفضتُ الاعترافَ بالهزيمة. ولكن ماذا أردتُ أن أعطي؟ أشكُّ في أني قد فكَّرتُ في ذلك؛ في وجودِ ما يمكنني أن أعطيه

للعالم وأيضاً أن آخذه منه. ورحت أتفاخرُ بأني قد أضحيتُ الآن كاتباً، وكأنَّ ذلك كان يمثِّلُ نهاية كل شيء، ومُنتهى الوجود. يا لها من مهزلة! وندمتُ لأني لم أكذب على جين. كان يجب أن أقول له إني موظف في مكتب، أو أمين صندوق في مصرف، أي شيء غير أني كاتب. وكأني سدَّدتُ صفعةً إلى وجهه.

غريبٌ كيف حدثَ بعد ذلك بعدَّة سنين أن جاءني ابنه - " الجامح "، كما وصفه - حاملاً مخطوطاته وطلبَ نصيحتي. فهل أطلقتُ يا تُرى في تلك الليلة شرارةً ألهبتْ الابن؟ وكما توقَّعَ الأبُ، توجَّه الابنُ غرباً، وعاشَ حياةَ مغامرٍ، أصبح، في الواقع، أفّاقاً. ومن ثم، بوصفه طفلاً معجزة، عاد، واحترفَ مهنةَ الكتابةِ الغريبةِ العجيبةِ ليكسبَ منها لُقمةَ عيشه. وأمدَدْتُهُ بكلِّ ما أمكنني من عون، وحثثته على أن يكفَّ عن الكتابةِ للمجلات وأن يُنجِزَ شيئاً جاداً. وبعد ذلك لم أسمع عنه أي شيء. وصرتُ بين حينٍ وآخر أنتقي مجلّة وأبحثُ فيها عن اسمه. لمَ لا أكتبُ له رسالة؟ على الأقل لكي أسألَ إنْ كان والده ما يزال على قيد الحياة. لعلي لا أرغبُ في أن أعرف ما آلَ إليه ابن عمي. لعلَّ معرفة الحقيقة كانت ستظلُّ ترعبني حتى هذا اليوم.

٦

قـرَّرتُ أن أباشـر كـتـابة العـمـود الصـحـفي اليـومي دون أن أنـتظر مـوافقـةَ ألان كرومـويل. كـانت كتـابة شيء جديد ومثـير للاهتمـام في كل يوم، والالتزام بالحدود المسموح بها، تتطلَّبُ قدراً من الممارسة. ورأيتُ أنَّ الأفـضلَ أن أكـونَ مـتـقـدِّماً ببـضـعـة أعـمدة؛ فـإذا أوفى كـرومـويل بوعـده فسـأكون حينئذ قد انتـظمتُ لتوي في العـمل. ولكي أقرِّرَ ما أرغـبه أكثر من غـيـره، رحتُ أُجرِّب أسـاليـبَ مـتنوِّعـة. وكنت أعـرفُ أنه سيـأتي يومٌ أعـجزُ فيه عـن كتابةِ كلمةٍ واحدةٍ. وصمَّمتُ على ألاّ أؤخذ على حين غرَّة.

في تلك الأثناء قـبِلَتْ مـونا عـملاً مؤقّتـاً كمضـيفة في أحد النوادي الليـلـيـة فـي منطقـة " الفـيـليـج " - يدعـى " ريمو ". فـلَمْ يكن مـاتيـاس، المُضـارب في مـجـال العـقـارات، مـسـتـعـداً تماماً لإطلاقـهـا في هذا المجـال. ولم أدرك السبب. طبعاً لأنه كان عليها أولاً أن تبرِّدهُ قليلاً. فأحياناً كان المعـجبون بهـا أولئك يتـمادون في اندفـاعـهم، فـيُبـدون رغبـتـهم في الزواج منها على وجه السرعة. هذا ما أكّدته وأثبتته.

على أي حـال، كـان العـمل يتـمـاشى مع مزاجـهـا وتجربتـهـا السـابقـة. وكـانـت تقلِّلُ من الرقـص قـدر اسـتطاعـتـهـا. المهمّ في الأمر هو أن تجـعـل

ضحاياها يشربون أكبرَ قدرٍ ممكن. وكانت المضيفات يحصلنَ دائماً على نسبةٍ مئوية من ثمن المشروبات، على الأقلّ.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى وقع كورسي، صاحب المؤسسة المشهور في منطقة " الفيليج " - ومن أبرزها - في غرامها. فكان يأتي قرابة موعد الإقفال ليصحبها إلى بيته. وهناك لم يكونا يشربان إلا الشمبانيا. ومع اقتراب حلول الفجر يُرسِلُ سائقه الخاص ليوصلها إلى منزلها بسيارته الليموزين الجميلة.

كان كورسي أحد المندفعين المتقدِّمين للزواج منها. وكان يحلمُ بأن يخطفها إلى كابري أو سورينتو، حيث سيعيشان نمطاً جديداً من الحياة. وكان جلياً أنه يبذلُ أقصى ما في وسعه لإقناع مونا بتركِ العمل في محلّ " ريمو ". وهذا ما كنتُ أفعله بدوري، في الحقيقة. وأَحياناً كنت أقتلُ ساعةً من الوقتِ وأنا أتساءلُ كيف سيبدو الأمرُ إذا وضعنا استنتاجاتي واستنتاجاته جنباً إلى جنب. بالإضافة إلى إجاباتها.

اقتربَ موعدُ عودة كرومويل إلى المدينة. ومع وصوله قد تتّخذ هي موقفاً مختلفاً من الأمور. وعلى أي حال، كانت قد ألمحتْ في لحظةِ استرخاءٍ إلى أنها قد تفعل.

غير أنَّ ما كان يسبِّبُ لي قلقاً أكبر من محاولات الشاب كورسي العنيفة للتودُّد إليها فالتحرُّشات التي كانت تتعرَّضُ لها على أيدي عددٍ من السحاقيات الشائنات في " الفيليج ". وكان واضحاً أنهنَّ قد جئن إلى نادي " ريمو " خصيصاً للتأثير عليها، وكنَّ يشترين المشروبات دون حساب مثل الرجال تماماً. وقد علمتُ أن كورسي أيضاً ثارت ثائرته، وعمد، بدافعٍ من يأسِهِ، إلى التوسُّل إليها - إذا كان لابد من أن تعمل

- أن تعمل لصالحه. ولما فشِلَ في ذلك، لجأ إلى وسيلةٍ أخرى. فحاولَ أن يدفَعْها إلى أن تثمل في كل ليلة، مدَّعياً أن ذلك سيجعلها تسأم عملها أكثر فأكثر. غير أن تلك الطريقة فشلت بدورها.

أخيراً علمتُ أنَّ السبَبَ في ثباتها على موقفها يعود إلى أنها كانت مولعة بإحدى الراقصات، وهي فتاةٌ هندية من الشيروكي كانت في ضائقةٍ مستحكمة - وحبلى حتى أخمص قدميها. وبما أنَّ الفتاةَ كانت مفرطة الكياسة، وفائقة الصراحة والجراءة، فقد كان يمكن أن تُطرَد منذ وقتٍ طويل لولا أنها كانت تَخْلُبُ الألباب. ويبدو أنَّ الناسَ كانوا يتوافدون كل ليلة فقط ليشاهدوا عَرْضَها. وكان العرضُ دائماً ينتهي بحركة انفساخ. حتى أنَّ سؤالاً جاداً كان يدور يقول إلى متى ستظلُّ تقوم بتلك الحركة دون أن تتعرَّض لإسقاط حملها.

بعد أن أسرَّتْ مونا بفحوى الوضع لي ببضع ليالٍ أُصيبتْ الفتاةُ بالإغماء وسقطت على الأرض. فحملوها من حلبة الرقص إلى المستشفى، حيث وضعت طفلها قبل الأوان، ميتاً. وكانت حالتها حرجةً جداً إلى درجةِ أنها اضطرَّت إلى أن تلزم المستشفى أسابيع عِدَّة. ثم وقع حدثٌ مفاجئ. ففي اليوم المقرَّر لخروجها انتابتها نوبة كآبة عنيفة حتى أنها قفزت من النافذة وانتحرت.

بعد هذهِ الحادثة المأساوية لم يعد في وسع مونا أن تلقي نظرة على نادي " ريمو ". وظلت فترةً من الوقت لا تقوم بأي محاولةٍ لعملِ أي شيء. ولكي أخفِّفُ عنها، وأيضاً لأثبتَ لها أنَّ في إمكاني أنا أيضاً أن أقومَ ببعض التنقيب عن الذهب حين أقرِّرُ ذلك، رحتُ أنطلقُ في كل يومٍ لأُجري بعض الاتصالات هنا وهناك. وهذا لا يعني أننا كنا يائسَين؛ بل

قمتُ بذلك ليكونَ لي دورٌ، وأيضاً - لأُقنعَها بأنه إذا كان علينا حقاً أن نعيشَ حياتنا كأسماك القرش فإني مؤهَّلٌ لذلك مثلها تماماً. وطبعاً، قمتُ أولاً بالاتصال بالأشخاص الموثوقين. وكان ابن عمي، الذي يمتلك دراجة السباق الجميلة خاصتي، هو الرقم واحد على قائمتي. ومنه حصلتُ على عشرة دولارات. وقد ناولني إياها متذمراً، ليس لأنه كان شحيحاً بل لأنه كان يستهجنُ الاستقراض والإقراض. وحين استعلمتُ منه عن الدراجة أبلغني أنه لم يمتطِتْها أبداً، وأنه باعها إلى صديقٍ له حميم، سوري. وتوجَّهتُ من فوري إلى منزل السوري - ولم يكن يبعدُ كثيراً - وقد تركتُ لديه انطباعاً هائلاً، بحديثي عن سباقات الدراجات، والملاكمة المحترفة، وكرة القدم وما إلى ذلك، بحيث أننا حين افترقنا دسَّ في يدي ورقةً نقديةً من فئة العشرة دولارات. بل إنه ألحَّ عليَّ كي أصحب زوجتي معي ذات ليلة وأشاركه وجبة عشاءٍ مع العائلة.

من زابريسكي، صديقي القديم العامل على التلغراف الكاتب في مكتب التلغراف الكائن بالقرب من ساحة تايمز، حصلتُ على عشرة دولارات أخرى وعلى قبعة جديدة. وعلى وجبة غداء رائعة. ودار بيننا الحديث المعتاد، طبعاً. كله حول الجياد، والعمل الكادّ، وحول الاستعداد لليوم العصيب. وكان متلهّفاً لكي أَعدهُ بأنْ أصحبه ذات ليلة حين ينشب قتال محتدم. وحين صَرَّحتُ أخيراً أنِي أتوقَّع أن أكتُبَ عموداً صحفياً لصالح صحف هيرست نظرَ إليّ جاحظ العينين. وكما قلت، كان قد نَفَحَني لتوِّه الدولارات العشرة. والآن أخذ يتكلَّم برصانة، وطلب مني أن أتذكَّر أني إذا ما احتجتُ إلى المزيد من الآن وحتى ذلك الحين - وكان يعني بـ " ذلك الحين " عندما أُصبِحُ عموداً صحفياً تطبِّق شهرته الآفاق -

أن أُعرِّج عليه. قال " ربما من الأفضل أن تأخذ عشرين بدل عشرة ". فأعدتُ له الورقة النقدية وتلقّيتُ بدلاً عنها أخرى بقيمة عشرين دولاراً. وعند ناصية الشارع توقفنا عند محل لبيع السيجار وهناك ملأ جيبي الصدري بالسيجار الثخين. وعندئذ فقط لاحظَ أنَّ آخر قبعةٍ كان قد اشتراها لي تبدو رثّة. ثم توقفنا عند محل خردجي، في طريق عودتنا إلى مكتب التلغراف. وهناك ابتاع لي قبعة أخرى، من نوع بورسالينو ولا أقلّ. وقال ناصحاً " وعلى المرء أن يبدو على ما يرام، إياك أن تدعهم يعرفون أنك فقير ". وبدا عليه منتهى السعادة لدى افتراقنا ولو رأيتنا لحسبتَ أني أنا صاحب الأفضال عليه، وكانت آخر عبارة أطلقها "لا تنسَ! "، وخشخش بالمفاتيح في جيب بنطاله.

كنتُ في أحسن حالٍ وفي جيبي أربعون دولاراً. وكان يوم سبت ورأيت أني ربما أواصلُ عملي. وقد أقابل مصادفةً صديقاً قديماً وأبتزُّ منه حفنةً أخرى من الدولارات - بسهولة. وجَسَسْتُ بيدي جيوبي فأدركتُ أني لا أملك أي فكّة. ولم تكن لديَّ رغبة في كسر ورقة نقدية - فإما أربعون دولاراً كاملاً أو لا شيء.

قلت أنه لم يكن لديّ أي فكّة؛ لكني كنت مخطئاً، فقد عثرتُ في جيب سترتي على بنسين عتيقيّ الشكل، بنسين أبيضين. لعلي احتفظتُ بهما استجلاباً للحظ الحسن.

في الجادَّة الخامسة التقيتُ مصادفةً بصالات عرض شركة سيارات مينرفا. جميلةٌ سيارةُ مينرفا. تكاد تعادل الرولزرويس. وتساءلتُ إن كان صديقي القديم أوتو كونست، الذي كان ذات يوم محاسباً يعمل لصالحهم، ما يزال موجوداً هناك مصادفةً. ولم أكن قد رأيتُ أوتو منذ سنين عديدة - تقريباً منذ حلّ نادينا القديم.

ولَجتُ صالة العرض الأنيقة فإذا بي أمام أوتو، كئيباً ورزيناً مثل حانوتي. وهو الآن يشغلُ منصبَ مدير مبيعات. يدخِّن سجائر Murads، كما في الأيام الخوالي. ويضع في أصابعه أيضاً خاتمين بفصَّين جميلين.

كان سعيداً لرؤيتي من جديد، ولكن بتلك الطريقة المكبوتة التي تثير حفيظتي.

قلت " أراك تشغل مركزاً مرموقاً "

" وماذا تفعل أنت؟ ". رماني بهذا السؤال وكأنَّه يقول - " في أي ورطةٍ وقعْتَ هذه المرة؟ "

قلت له أني سأتولّى قريباً تحرير عمودٍ صحفيّ في إحدى الصحف.

قوَّسَ حاجبيه وقال " حسنٌ! ". هم م م م!

فكَّرتُ في أني ربما أتمكَّنُ من ابتزاز عشرة دولارات منه - لأجعلها خمسين دولاراً كاملة. فقبل أي شيء، يا مدير المبيعات، يا صديقي القديم ... لمَ لا؟

حصلتُ على رفضٍ مقتضبٍ فظٍّ. حتى أنه لم يزعج نفسه بتوضيح سبب رفضه. هو أمرٌ غير وارد، وفقط. مستحيل. وأدركتُ أن من العبث أن ألحّ عليه لكنني فعلت، فقط لأزعجه. اللعنة، حتى وإن لم أكن في حاجة إليها، لا يحقُّ له أن يرفض. كان يجب أن يلبّي طلبي إكراماً للأيام الخوالي. ودلّى أوتو سلسلة ساعته وهو يُنصِتُ إليّ. كان هادئاً كخيارة، أؤكِّد لك. لم يبدِ أدنى ارتباك. ولا حتى تعاطف.

ختمتُ كلامي قائلاً " يا إلهي، كم أنت شحيح! "

ابتسمَ دون أي حرج، وأجاب برقّة " إني لا أطلبُ أي معروف من أحد ولا أعمل معروفاً لأحد ". لقد كان معتداً بنفسه مثل بقَّة في

بساط. وكأنَّه كان طوال حياته مدير مبيعات - أو حتى شيئاً أكثر أهمية. ولم يخطر في باله قط أنه بعد ذلك ببضع سنين فقط سوف يحاولُ أن يبيع تفاحاً في الجادّة الخامسة. (حتى أصحاب الملايين لم يكن في مقدورهم أن يتحمّلوا تكاليف سيارات مينرفا خلال فترة الكساد)

قلتُ " حسن، انسَ الأمر. الحقيقة هي أني أحملُ مبلغاً كبيراً. وكنت فقط أختبركَ ". وسحبتُ الأوراق النقدية ومرّرتها بسرعة أمام عينيه ... بدت عليه الحيرة، ومن ثم عَبَسَ. وقبل أن يتمكّن من نُطقِ كلمةٍ واحدةٍ أضفتُ، بعد أن أخرجت البنسين الأبيضين: " إن سبب دخولي عليك هو لكي أطلب منك خدمة. هل يمكنك أن تقرضني ثلاثة سنتات لأكملَ بها النكلة أجرة القطار النفقي؟ وسوف أعيدها إليك لدى مروري من هذا الطريق في المرة التالية "

أشرقَ وجهه على الفور، حتى كدتُ أشعرُ بتنهُّد الارتياح الذي زَفَرَه.

قال " يمكنني أن أفعل هذا حتماً "، وأخرجَ ثلاثة بنسات بحركةٍ وقور.

قلت، وأنا أصافحه بحماسة زائدة، وكأني ممتنٌ فعلاً، " هذا كرمٌ غامرٌ منك "

قال، بجدِّية تامة، " لا شيء يستحقُّ الذِكر، ولستَ مضطراً إلى إعادتها "

قلت " أأنتَ واثق؟ ". وأخيراً بدأ يدرك أني أزعجه بشأنها.

قال بتجهُّم " يمكنني دائماً أن أقرضك بضعة بنسات، ولكن ليس عشرة دولارات. إن النقود لا تنمو على الأشجار، كما تعلم. إنني أبذلُ

مجهوداً كبيراً قبل أن أبيع سيارة لزبون. ثم إني لم أبِعْ سيارةً واحدةً منذ أكثر من شهرين "

" أمرٌ جلل، أليس كذلك؟ أتدري، إنك تكاد تجعلني أرثي لحالك. حسنٌ انقلْ تحياتي إلى الزوجة والأولاد "

صحبني حتى الباب كما يفعل مع أي زبون، وقال وهو يودِّعني "أعدْ الزيارة في وقتٍ لاحق "

" في المرة التالية سأشتري منك سيارة - الهيكل الخارجي فقط "

رسم ابتسامةً واسعة خالية من أي مرح. وفي طريق توجُّهي إلى القطار النفقي كنت أسبُّه قياماً وقعوداً بأنه ابن حرام خسيس، وشحيح، ومتحجِّر القلب. وكم كرهتُ التفكير في أننا كنا صديقين حميمين ونحن ولدان! ولم أستطع تجاوز ما حدث. والغريب في الأمر أنه لم يسعني إلا أن أفكِّر في كيف أنه أصبحَ يشبه تماماً والده الذي طالما مَقَتَه. وكان يقول عنه " إنه ألماني عجوز أحمق عنيد، متحجِّر القلب، شحيح، خسيس! "

حسنٌ، ذاك صديقٌ استطعتُ أن أشطبه من لائحتي. فعلتُ ذلك في التو واللحظة، وبرغبةٍ عارمةٍ حتى أني بعد ذلك بسنين عديدة، وحين تقابلنا في الجادة الخامسة، لم أستطع أن أتذكَّره. حسبتُهُ شرطياً سرِّياً، ولا أقلّ! وأكادُ أسمعه حتى الآن وهو ينهقُ على مسمعي كحمار: "ماذا، ألا تذكرني أنا؟ "، فقلتُ " لا، لا أذكرك. حقاً لا أذكرك. من أنت؟ " ، ويضطرُّ اللوطي المسكين إلى أن يصرِّح باسمه قبل أن أتمكَّن من تمييزه.

كان أوتو كونست أعزّ صديق لي في شارع الأحزان المبكِّرة ذاك.

وبعد أن غادرت أميركا كان الأولاد الوحيدون الذين فكَّرتُ فيهم هم الذين كانت لي بهم أوهى صِلة. خذ عندك مثلاً – المجموعة التي كانت تقطن في المنزل الريفي القديم في آخر الشارع. وكان ذلك المنزل هو الوحيد في المنطقة كلها الذي شَهِدَ أياماً مختلفة، أيامَ كان شارعُنا زقاقاً ريفياً يسمَّى باسم مستوطنٍ ألماني، فان فوريز. على أي حال، في ذلك المسكن الآيل إلى السقوط، المتداعي قطنتْ ثلاث عائلات. عائلة فوسلر، المؤلَّفة حصراً من خُرْقٍ وبخلاءٍ، يتاجرون في الفحم، والخشب، والثلج، والروث؛ وعائلة لاسكي المؤلفة من والد صيدلي، وأخَّين من الملاكمين، وابنةٍ بالغةٍ كانت أشبه بشريحة من لحم البقر؛ وعائلة نيوتن المؤلَّفة من أمٍ، وابنٍ نادراً ما تحدَّثتُ معه وإن كنتُ أكنُّ له احتراماً استثنائياً؛ وإد فوسلر، الذي كان في مثل سني تقريباً، وقوياً مثل ثور ومخبولاً قليلاً، كانت له شِفة أرنب وكان يفأفئ بشكلٍ رهيب. ولم تدُر بيننا أي أحاديث طويلة لكننا كنا صديقين، وليس حميمين. وكان إد يعمل من الصباح وحتى الليل؛ وكان عمله شاقّاً أيضاً، ولهذا كان يبدو عليه أنه أكبر سناً منا جميعاً الذين كلّ ما كنا نفعله أن نلعب ونذهب إلى المدرسة. وحين كنت طفلاً لم أكن أفكر فيه إلا بوصفه منفعةً تسير على قدمين؛ وكان يكفينا أن ندفع له بضعة سنتات حتى يؤدي لنا الأعمال التي نمقتها. وكنا نضايقه كثيراً، كما يفعل الأولاد عادة. ولم أجدني أفكِّر في هذا الأخرق الغريب الأطوار إد فوسلر إلا بعد أن ذهبتُ إلى أوروبا، ويا للغرابة. وأعترفُ بأني طالما فكَّرتُ فيه بحبٍ. وكنت حينئذٍ قد عَلِمتُ مدى ضآلة عالم البشر ذاك الذي يمكن أن نقول عن واحدٍ فيه " إنه رجلٌ يمكن الاعتماد عليه ". وكنت بين حينٍ وآخر أُرسلُ له

بطاقة بريدية مصورَّة ولكني طبعاً لم أسمع أي شيء عن أخباره. وحسب ما أعلم فإنه قد مات.

كان إد فوسلر يحظى بحماية خاصة من أولاد عمه من الدرجة الثانية، آل لاسكي. خاصة من إدي لاسكي، الذي كان أصغرَ سناً بقليل منا وأيضاً شخصاً بغيضاً جداً. وكان أخوه توم، الذي كان إدي يقلّده في كل شيء، إنساناً لطيفاً وبسبيل أن يغدو شخصية مرموقة في عالم في عالم الملاكمة. وهذا التوم كان في نحو الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره، هادئاً، حَسَن السلوك، أنيقَ المظهر، ويميل إلى الوسامة. وكانت لديه عقصة مُلصَقَة، طويلة، على طريقة تيري ماكغفرن. وما كان أحد ليشكّ في أنه ذاك الملاكم المشهور لولا أن أخاه، إدي، كان يغالي في التفاخر به. وكنا بين حين وآخر نستمتع بمراقبة الاثنين يتناوشان في الفناء الخلفي حيث يكوِّم الروث.

أما إدي لاسكي - فكان من الصعب الخروج من نطاقه. فحالما يراك قادماً يسدُّ عليك الطريق، ويمطُّ فمه واسعاً على شكل ابتسامة بشعة تُعَرِّي أسنانه الكبيرة الصفراء، وأثناء تظاهُرِه بأنه يصافحُكَ يقوم ببعض الإيماءات الجنسية - بسرعة البرق! - ثم يسَدِّدُ لطمة قوية إلى أضلاعك أو يقوم بما يسمِّيه " لكزة مازحة في الفك ". لقد كان الأحمق الملعون دائماً يمارس لكمة واحد-اثنان المعروفة.وكانت عملية التخلُّص من بين مخالبه عذاباً حقيقياً. وكنا جميعاً متَّفقين على أنه لن يترك أي بصمة على حلبة الملاكمة. " ذات يوم سوف يقابل الشخص غير المناسب! ". هكذا كان حُكمنا الإجماعي.

جيمي نيوتن، الذي كان يمتُّ بِصِلَةٍ غامضةٍ بآل فوسلر ولاسكي، كان

كياناً شاذاً تماماً وَسَطَهُم. ولا أحد كان يبزّه في صمته، ولا في حُسن سلوكه، ولا في إخلاصه وبُعدهِ عن الرياء والتكلُّف. ولا أحد كان يعرف ماذا يضمر. فنادراً ما كنا نراه، وكنا نتحدث إليه أقلّ من ذلك. إلاَّ أنه كان من النوع الذي لا يقول إلا " صباح الخير! " فترتاح لذلك. كانت تحيّته الصباحية كالتبريك. أما ما كان يحيِّرنا بشأنه فمسحةُ الحزن المبهمة المتأصّلة التي تتلبَّسه. كانت تناسب شخصاً خَبِرَ مأساة عميقة، عصيَّة على البوح. وتوهَّمنا أنَّ لحُزنه صِلة بأمه التي لم نشاهدها أبداً. فهل كانت مريضة يا تُرى؟ أم مجنونة؟ أم مُعاقَة بشكل شنيع؟ أمَّا والده، فلم نعلم أبداً إن كان ميتاً أم أنه هجرهم.

كان آل لاسكي هؤلاء، بالنسبة إلينا نحن الصغار الأصحَّاء الخالين من الهمّ، يلفُّهم الغموض. وكان السيد لاسكي العجوز الأعمى، يغادر المنزل مع كلبه بانتظام، في الساعة السابعة والنصف من صباح كل يوم، ويضربُ على الطريق بعصا خيزران ضخمة. وهذا بحدّ ذاته كان له تأثيرٌ غريبٌ علينا. لكنَّ المنزلَ وحدَه كان يبدو جنونياً. فمثلاً، بعض النوافذ لا تفتح أبداً، وترى الظّلات دائماً مُسدلة. وعلى إحدى النوافذ الأخرى كانت تجلسُ مولي، ابنة لاسكي، وصندوق من البيرة إلى جانبها؛ تجلس هناك، كما لو أنها ضمن عرض مسرحي، منذ لحظة رفع الستارة. وبما أنه ليس لديها أي عمل تقوم به، وأيضاً لا رغبةَ لديها في أن تقوم بأي عمل، كانت تكتفي بالجلوس هناك طوال النهار تجمع مواداً للثرثرة. بما أنه كانت تتوفَّر لها مجريات كل الأمور في المنطقة. وكان شكلها بين حين وآخر ينضج، وكأنها توشكُ أن تضع طفلاً، ولكن لم تكن تحدث هناك مواليد ولا ميتات. كانت ببساطة تتغيَّر مع تغيُّر الفصول. كانت

عاهرةً كسولاً، وأحببناها. كانت أشد كسلاً من أن تسير على قدميها حتى محل البقالة؛ وكانت ترمي إلينا ربعَ دولار أو نصفه من النافذة، التي تقع على سويّةٍ واحدةٍ مع الشارع، وتطلب منا أن نحتفظ بالفكّة. وأحياناً كانت تنسى ماذا طَلَبَتْ منا أن نُحضِر لها وتقول لنا أن نحتفظ بالغرض اللعين.

العجوز فوسلر، الذي كان بدوره يعمل في مجال النقل، كان حيواناً ضخماً وكل ما يفعله أن يُطلِق السباب والتجديف كلما التقيتُ به. كان في مقدوره أن يرفع أوزاناً هائلة بسهولة، سواء أكان مخموراً أم صاحياً. وطبعاً كنا نخشاه. ولكن كان دمنا ينكمشُ كلما رأينا كيف يطارد ابنه ويرفسه - فقد كان في وسعهِ أن يرفعه بسهولة عن الأرض بإصبعِ قدمه الكبير. ويا للطريقة التي كان يسوطه بها بسوط الخيل! وعلى الرغم من أننا لم نكن نجرؤ على أن نقوم بأي خدعة مع العجوز فكثيراً ما كنا نعقد اجتماعات مطوَّلة في الفسحة المكشوفة الكائنة عند الناصية نبحث خلالها في سُبُلِ الانتقام. لقد كان من الشائن أن نرى كيف يضعُ إد يده فوق رأسه ويربض كلما شاهد العجوز قادماً عليه. وذات مرة عمدنا في إجراء يائسٍ إلى دعوة إد إلى التباحث معنا، لكنه حالما بدأ يفهم مغزى حديثنا إذا به يضع ذيله بين ساقيه وينطلق هارباً.

غريبٌ كيف ترتدُّ غالباً هذه الشخصيات التي تنتمي إلى عهد الطفولة إلى الذاكرة. والتي أتحدَّثُ عنها تنتمي أكثر إلى ذلك الحي القديم، في الدائرة الرابعة عشرة، الذي كنتُ شديدَ التعلُّق به. وفي شارع الأحزان المبكِّرة كانوا كيانات شاذة. وحين كنتُ صغيراً - في الحي القديم - تعوَّدتُ على الانخراط في أوساط البلهاء، وقطَّاع الطرق المبتدئين،

والمحتالين الوضعاء، والملاكمين المحترفين الصاعدين، والمصروعين، والسكارى، والعاهرات. كان كل إنسان في ذلك العالم العتيق العزيز، يمثِّل " شخصية متميِّزة ". أما في الحي الجديد الذي انتقلت إليه فكل شخص كان عادياً، سوياً، وخالياً من أي تميُّز. ولم يكن هناك إلاّ استثناء واحد، خلاف أعضاء القبيلة الغريبة الأطوار التي تقطن المنزل الريفي. ولم أعد أذكر اسم ذلك الشخص، إلاّ أن سِمات شخصية محفورة في ذاكرتي. كان وافداً جديداً إلى الحي، وكان بقدرٍ ما أكبر سناً من بقيتنا، و " مختلفاً " بشكلٍ جليّ. وذات يوم، بينما كنا نلعب الكُّلة تلفَّظت بعبارةٍ جعلتُهُ يرميني بنظرة ملؤها الدهشة. وسألني " من أين أنت؟ "، فقلت " من جادَّة دريغز أصلاً ". وعلى الفور نهضَ عن ركبتيه واقفاً على قدميه وعانقني بكل معنى الكلمة، وهتف " لمَّ لمْ تَقُل هذا من قبل؟ أنا من جادَّة ويث، عند ناصية شمالي الجادة السابعة"

كنا مثل اثنين من الأخوة الماسونيين يتبادلان كلمات سرّية. وتأصَّلَ بيننا على الفور رباطٌ وثيق. وأصبح يقفُ في صفِّي في أي لعبةٍ نشاركُ فيها. وإذا ما هدَّدَ أحد الصِبية الأكبر سناً بضربي كان يتدخَّل بيننا بنفسه. وإذا كان لديه سرٌ هام يريد أن يُفضي به إليّ يستخدم معي رطانةَ منطقة الدائرة الرابعة عشرة.

ذات يوم قدَّمني إلى أخته التي كانت أصغر قليلاً في السن مني. وكان تقريباً حباً من النظرة الأولى. ولم تكن جميلة، حتى في عينيَّ المترعتين بالشباب، ولكن كان يحوطها شيء ربطْتُهُ بسلوك الفتيات اللواتي أعجبت بهنَّ في الحي القديم.

ذات ليلة أعدَّت لأجلي حفلةً مفاجئة. وكان كل فتيةِ الحي موجودين

فيها – ماعدا صديقي الوافد حديثاً هذا وأخته الصغيرة. وشعرت بالأسى. وحين سألتُ لماذا لم يُدعيا قيل لي إنهما ليسا منا. فعقدتُ عزمي وتسللتُ خارجاً من المنزل ورحتُ أبحثُ عنهما. وشرحتُ لوالدتهما بسرعة أن ثمة خطأ قد ارتُكِبَ، وأنه غير مقصود البتّة، وأنَّ الجميعَ في انتظارِ حضورِ ابنها وابنتها. فربتَتْ على رأسي وهي ترسمُ ابتسامةً متفهِّمة وقالت لي كم إني فتى طيب. وشكرتني شكراً إضافياً حتى أنَّ وجهي احمرَّ من فرط الخجل.

رافقتُ صديقيَّ إلى الحفلة منتصراً، لكني أدركتُ أني قد ارتكبتُ خطأً فاضحاً. وإذا بالجميع يُعْرِضُونَ عنها. وفعلتُ كل ما في وسعي لكي أبدِّد الجو العدائي ولكن عبثاً. وأخيراً فاضَ كيلي فأعلنتُها صريحةً: " إمَّا أن تُصادِقوا صديقيَّ "، وأمسكت بهذين الأخيرين من ذراعيهما، " أو ارحلوا جميعاً إلى بيوتكم. هذه حفلتي أنا وأريد حضور أصدقائي إليها "

تلقَّيتُ على هذا التبجُّح الجريء صفعةً قوية على وجهي من أمي. أجفلتُ منها وجمدتُ في مكاني.

عويتُ، والدموع تكاد تطفرُ من عينيّ، " هذا ليس عدلاً! "

فجأة وافقوا على مطلبي، وفي ما يشبه المعجزة انكسَرَ الجليد، وسرعان ما انخرطَ الجميع في الضحك، والصراخ، والغناء. ولم أفهم لمَ حدثَ الأمرُ بتلك الفُجاءة.

خلال سياق الأمسية تنحَّت بي الفتاة، وكان اسمها سادي، في إحدى الزوايا لتعبِّرَ لي عن شُكرها لما فَعَلْتُهُ، وقالت " كان ذلك رائعاً منك يا هنري ". فغمغمتُ، وقد احمرَّ وجهي أيَّما احمرار، " لم يكن شيئاً

يستحق الذكر "، وقد شعرتُ أني أحمق وبطل في وقتٍ واحد. وتلفَّتت سادي فيما حولها لترى إن كان هناك مَنْ يراقبنا، ثم قبَّلتني بجرأة على شفتيّ. هذه المرة كان احمرارُ وجهي أشدَّ بكثير.

همست " أمي تودُّ أن تأتي لتشاركنا طعامَ العشاء ذات أمسية. فهل ستأتي؟ "

شدَدْتُ على يدها الصغيرة وقلت " طبعاً "

كانت سادي وأخوها يقطنان في المجمَّع السكني الكائن في الطرف المقابل من الشارع، ولم أكن قد دخلتُ مرةً إلى أيٍ من تلك المنازل، وتساءلتُ عن شكل بيتهم من الداخل. وكنت أثناء تلبيتي لدعوتهم من شدَّة الارتباك حتى أني لم ألاحظ أي شيء. وكل ما أتذكَّره أنه كان يتَّسِمُ بمسحةٍ كاثوليكية جليَّة. وتصادفَ أنْ كان كلُّ القاطنين تقريباً في تلك الشُقق - وكانت عبارة عن صفٍّ طويلٍ من الحُجُرات الضيِّقة - ينتمون إلى الكنيسة الرومانية. وكان هذا بحدِّ ذاته كافياً لينأى بهم عن بقية سكان الشارع.

أول اكتشافٍ خرجتُ به لدى زيارتي لصديقي هو أنهم في حالةِ فقرٍ مُدقعٍ. والوالد، الذي كان يعمل سائقَ قاطرة، قد توفي؛ والأم، التي تعاني من مرضٍ خطيرٍ كانت عاجزة عن مغادرة المنزل. وكانوا من الكاثوليك كما توقَّعتُ؛ وورعين. وقد تبدَّى ذلك على الفور؛ ففي كل غرفةٍ، كما بدا لي، عُلِّقَتْ مسابحُ وصلبان، ووضِعَتْ شموعُ نذريّة، وصورُ حجرية ملوَّنة للسيدة العذراء والطفل أو يسوع معلَّقٌ على الصليب. وعلى الرغم من أني كنتُ قد رأيتُ هذه الشواهد على الإيمان في منازل أخرى، إلا أنه كان يحدُثُ في كل مرة أن ينتابني شعورُ بغيض. وكان

كرهي لتلك الآثار المقدسة - إن صحَّت تسميتُها هكذا - يعودُ حصراً وببساطةٍ إلى ما تُثيره من كآبةٍ مَرَضيّة. صحيحٌ أني لم أكن قد عرفت عبارة " كآبةٌ مَرَضيّة " حينئذٍ، لكن ذلك كان إحساسي بدون ريب. وحين وقعَ نظري للمرة الأولى على تلك " الآثار المقدسة " في منازل أصدقائي الصغار الآخرين أذكرُ أني سخرتُ منها وهزأتُ بها. والغريب في الأمر أن أمي، التي طالما مَقَتَتْ الكاثوليكيين بقدر ما تمقت تقريباً السكارى والمجرمين، هي التي خلَّصتني من موقفي ذاك. ولكي تجعلني أكثر "تسامحاً " كانت تجُبرني على أن أحضَرَ القداس بين حينٍ وآخر مع أصدقائي الكاثوليكيين.

غير أني حين وصفتُ لها بالتفصيل أحوالَ منزلِ صديقيٍّ لم تُبدِ أي تعاطف. وراحت تكرِّرُ أنها لا تعتقد أنه من المستحسن أن أُكثِر من التردُّد عليهم. لماذا؟ أردتُ أن أعرف. ورفضَتْ أن تعطيني جواباً شافياً. وحين اقترحتُ عليها أن تسمح لي أن أحملَ إليهم بعض الفاكهة والحلوى من خوانتنا، الذي كان دائماً عامراً بما لذَّ وطاب، عبست. ولما شعرتُ أنه لا سببَ وجيهاً يكمن وراء رفضها المتكرِّر، قررتُ أن أسرقَ شيئاً مما يؤكل وأهرِّبه إلى صديقيٍّ. وكنت بين حين وآخر أسرقُ بضعة بنسات من محفظتها وأعطيها لسادي أو لأخيها. ودائماً كنتُ أفعلُ ذلك وكأنه تلبيةٌ لطلبٍ من أمي.

ذات يوم قالت لي والدة سادي " لابد أن أمك إنسانةٌ طيبةٌ جداً " ابتسمتُ، ابتسامةً سقيمة.

" أأنت واثق يا هنري من أن أمك هي التي ترسلُ لنا هذه الهِبات؟" قلت " حتماً "، وأنا أرسمُ الآن ابتسامةً أكثر إشراقاً بكثير، " إن

لدينا أكثر بكثير مما نحتاج. وفي استطاعتي أن أحضرُ لكم أيضاً أشياءَ أخرى، إذا شئتُ.

قالت والدة سادي " تعالَ إلى هنا يا هنري ". كانت جالسة على كرسي هزّاز عتيق الطراز، فربَتَتْ على رأسي بتحبُّبٍ وقرّبتني منها. قالت " والآن اسمعني جيداً يا هنري؛ أنت فتى طيب جداً جداً ونحن نحبك. ولكن يجدر بك ألاّ تسرق لتجلبَ السعادةَ إلى الآخرين. هذا إثم. أنا أعرفُ أن نيّتك حسنة، لكن ... "

قلتُ محتجّاً " هذه ليست سرقة، إنَّ مصيرَها سيكون التَلَفَ دون شك "

قالت " إنكَ تملكُ قلباً كبيراً، قلباً كبيراً على صبيّ صغير جداً. انتظر قليلاً. انتظر ريثما تكبر وتكسب لقمة عيشك. وحينئذٍ في إمكانك أن تهِبَ قدر ما تشاء "

في اليوم التالي تنحّى أخو سادي بي جانباً وناشدني ألاّ أغضب من أمه لأنها رفضت هِباتي. وقال " إنها تحبك كثيراً، يا هنري "

قلت " ولكن ليس لديكم ما يكفي من الطعام "

قال " بل لدينا دون شك "

" بل ليس لديكم! أنا أعلمُ هذا لأني أعرفُ كم نأكل نحن "

قال " قريباً سأحصلُ على عملٍ، وعندئذ سيكون عندنا الكثير "، ثم أضاف " في الحقيقة، قد أحصلُ على العمل في الأسبوع القادم "

" ما نوع هذا العمل؟ "

" سوف أعملُ دواماً جزئياً كمساعدٍ لحانوتي "

قلت " هذا فظيع "

أجاب " ليس بالضبط، لن أضطرُّ إلى التعامل مع الجثث "

" أمتأكدٌ أنت؟ "

" حتماً. إنَّ لديه أناساً متخصّصين في هذا. وسوف أنقلُ أنا رسائل شفهية، هذا كل شيء "

" وكم ستحصل مقابل ذلك؟ "

" سأحصلُ على ثلاثة دولارات أسبوعياً "

غادرْتُهُ وأنا أتساءلُ لمَ لا أجدُ أنا أيضاً عملاً لنفسي خِلسةً. وطبعاً كنتُ أفكِّر في أنْ أحوِّلَ مكاسبي إليهم. إنَّ مبلغ ثلاثة دولارات في الأسبوع لم يكن يستحق الذكر، حتى في تلك الأيام. وبقيتُ طوال الليل يقظاً أفكِّرُ في الأمر. وكنتُ متأكداً مقدَّماً من أني لن أحظى مطلقاً بموافقة أمي على تولّي عملٍ ما. وكان لابد من أن أقومَ بما أريد القيام به سراً وبمكرٍ وبنفاذ بصيرة.

ثم حدَثَ أنه كانت تقطنُ في مكانٍ قريبٍ من بيتنا عائلةٌ الابنُ الأكبرُ فيها يعملُ في تجارة البُن كعملٍ إضافي. بمعنى أنه كان قد استطاع أن يجمع زبانةً صغيرةً حول مزيجٍ أعدَّه بنفسه؛ وقد اعتادَ في أيام السبت أن يسلِّمَ اللفائف بنفسه. وكان يقومُ بجولةٍ طويلةٍ ولم أكن واثقاً من نجاحي في إنجازها وحدي لكنني قررتُ أن أطلبَ منه أن يتيح لي فرصة. وقد دُهشتُ إذ اكتشفتُ مبلغ سعادته لأني سأخفف العبء عن كاهله؛ فقد كان يوشك أن يتخلّى عن مشروعه الصغير.

في يوم السبت الذي تلى انطلقتُ مع حقيبتين مملوءتين بلفائف صغيرة من البُن. وقد اتفقنا على أن أحصلَ على خمسين سنتاً كراتبٍ وعمولة صغيرة عن عملٍ جديد. وإذا استطعتُ أن أجبي أياً من الديون

الميتة أحصلُ على مبلغٍ إضافي. وحملتُ حقيبةً من الكتّان مزوّدة بتكّةٍ لكي أضع فيها النقود التي سأجمعها.

بعد أن درّبني على كيفية التعامل مع الدائنين حذّرني بوجهٍ خاص من وجود كلابٍ في مناطق معينة. فعلّمتُ تلك النقاط بتحديدِ موقعها بالقلم الأحمر على خط الرحلة الذي تمّت الإشارةُ فيه بوضوح إلى كلٍّ شيء - الغدران وقنوات المجاري، والجسور، والخزانات، وخطوط الأسيجة، وممتلكات الدولة، وما إلى ذلك.

أحرزتُ في يوم السبت الأول ذاك نجاحاً باهراً. وأدار معلّمي دون مبالغة عينيه في محجريهما حين أفرغتُ النقودَ على الطاولة. وتبرّعَ على الفور برفع مرتّبي إلى خمسة وسبعين سنتاً. وكنتُ قد حصلتُ له على خمسةِ زبائن جُدّد وجمعتُ ثُلثَ الديون الميتة. وعانقني وكأنه عثرَ على دُرّةٍ نفيسةٍ.

ناشدته قائلاً " أتعدني بألاّ تخبر أهلي بأني أعمل لأجلك؟ "

قال " طبعاً لن أخبرهم "

" كلا، عِدني! عِدني بكلمةِ شرف! "

ألقى عليَّ نظرةً غريبةً، ومن ثم كرّر على مسمعي ببطء - " أعدك بشرفي "

في صباح اليوم التالي، يوم الأحد، انتظرتُ خارج باب منزل صديقيَّ لألحقَ بهما وهما في طريقهما إلى الكنيسة. ولم ألاقِ كبيرَ مشقّةٍ في إقناعهما بالسماح لي بمرافقتهما لحضور القداس. بل إنهما في الحقيقة ابتهجا.

لدى مغادرتنا كنيسة القديس فرنسيس الساليزي - وهو مكانٌ

شنيع للعبادة - شرحتُ لهما ما أنجزته. ثم أخرجتُ النقود - كان مجموعها ما يقاربُ الثلاثة دولارات - ومددتُ يدي بها إلى أخي سادي. وكم ذُهلتُ حين رفضَ أن يقبَلْها.

عنَّفتُهُ قائلاً " لكني لم أقبَل العمل إلا من أجلكم "

" أعلمُ يا هنري، لكن أمي سترفضُ هذا رفضاً باتاً "

" ولكن لا حاجةَ إلى أن تخبرها أنك أخذتها مني. قُل لها إنك حصلتَ على علاوة "

قال " لن تصدِّقني "

" إذن قُل لها إنك عثرتَ عليها في الطريق. اسمع، سأبحثُ عن كيس نقود عتيق. ضعها في الكيس وقُل إنك عثرتَ عليه في المجرور خارج الكنيسة مباشرة. لابد أن تصدِّق هذا "

إلا أنه ظلَّ كارهاً أن يقبل النقود.

شدهتُ. لأنه إنْ لم يقبل النقود فإن كل جهودي قد ذهبت هباءً. فتركته بعد أن وعدني بأن يفكِّر في الأمر.

سادي هي التي هرعت إلى نجدتي. كانت أشدّ قرباً من أمها وكانت تفهم الموقف بطريقة عمليةٍ أكثر. وعلى أي حال رأت أنَّ على أمها أن تعرف مرماي مما فعلتُهُ لأجلهم - إذا أردتُ أن أحظى باستحسانها.

قبل انقضاء الأسبوع أجرينا حديثاً بيننا، سادي وأنا. كانت تنتظرني خارج بوابة المدرسة بعد ظهر أحد الأيام.

قالت، وهي مقطوعة الأنفاس " تمَّ الأمر يا هنري؛ لقد وافقتْ أمي على أخذ النقود، ولكن فقط لفترة من الوقت - إلى أن يحصل أخي على عملِ دوامٍ كامل. وعندئذ سنسدِّد لك المبلغ "

اعـتـرضتُ ورفـضتُ أن يسدِّدوا المبلغ، ولكن إذا أصـرَّتْ أمهـا على ذلك الترتيب فلابد مما ليس منه بدٌّ. وسلَّمتـها النقود التي كانت ملفوفةً بقطعةٍ من ورق لفّ اللحم.

قالت سادي " تقول أمي إنَّ مريم العـذراء سوف تحميك وتباركك لطيبتك "

لم أدرِ ماذا أقول رداً على ذلك. لم يكن أي إنسان قد استخدمَ قط مثل تلك اللغة معي. ثم إنَّ مريم العذراء لم تكن تعني لي أي شيء. لم أكن أؤمن بذلك الهراء.

سـألـتـهـا " أحـقـاً تؤمنين بكل ذلك ... بذاك الشيء حـول مـريم العذراء؟ "

بدتْ سادي مصعوقة - أو ربما محزونة. وأومأت برأسها بوقار إيجاباً.

سألتها " ما هي مريم العذراء بالضبط؟ "

أجابت " أنت تعرف كما أعرف "

" كلا لا أعرف. لماذا يسمونها بالعذراء؟ "

تفكَّرتْ سادي برهة، ثم أجابت بمنتهى البراءة:

" لأنها أمُّ الرب "

" إذن، ما معنى عذراء بعد ذلك؟ "

أجابت سادي " هناك فقط عذراء واحدة وهي العذراء المباركة مريم"

قارعتُها قائلاً " هذا ليس جواباً. أنا سألتُكِ - ما معنى عذراء؟ "

قالت سادي، غير واثقة تماماً من نفسها " أعني الأم التي هي مقدسة "

هنا خطرَتْ على بالي فكرةٌ لامعة. فسألتها " ألم يخلُق الربُ العالمَ؟"

" طبعاً "

" إذن ليست هناك أم. الرب ليس في حاجةٍ إلى أم "

قالت بما يشبه الزعيق " هذا كفرٌ. يجب أن تتحدثَ إلى كاهن "

" أنا لا أؤمن بالكهنة "

" هنري، لا تتكلَّم هكذا! سوف يعاقبك الرب "

" لماذا؟ "

" هكذا "

قلت " حسن، أنتِ اسألي الكاهن! أنتِ كاثوليكية. أما أنا فلا "

قالت سادي، وقد تأذّت بعمق " يجدر بك ألاّ تقول أشياء كهذه. أنت لست راشداً بما يكفي لتطرح مثل هذه الأسئلة. نحن لا نطرح مثل هذه الأسئلة. نحن مؤمنون. وإذا لم يكن في مقدورك أن تؤمن فلا يمكن أن تكون كاثوليكياً صالحا "

أجبتُ " أنا أرغبُ في الإيمان، إذا أجابَ الربُ عن أسئلتي "

قالت سادي " ليس هكذا يكون الأمر. عليك أن تؤمن أولاً. ومن ثم يجب أن تصلّي. أطلب من ربك أن يغفر لك ذنوبك ... "

" ذنوب؟ أنا لم أرتكب ذنوباً لأعترفَ بها "

" هنري، هنري، لا تتكلم هكذا، هذا شر. إنَّ الجميع يذنبون. ولهذا وُجِدَ الكاهن. ولهذا نحن نصلي لمريم المباركة "

قلت بتحدٍ، وقد مللتُ قليلاً حديثها الحالم، " أنا لا أصلّي لأحد "

" هذا لأنك بروتستانتي "

" أنا لست بروتستانتياً. أنا لا شيء. أنا لا أؤمن بأي شيء ... انتهينا! "

قالت، وقد انتابها رعبٌ شامل، " يجب أن تسحب كلامك؛ يمكنُ للربِ أن يَصْرَعَكَ لتفوُّهكَ بهذا الكلام "

كان فزعها جلياً جداً بسبب ما قلته حتى أنَّ خوفَها انتقلَ إليّ.

قلتُ، محاولاً أن أتراجع، " أقصد أننا لا نصلي مثلكم. نحن لا نصلي إلا في الكنيسة - أثناء صلاة الكاهن "

" ألا تتلو صلاةً قبل أن تأوي إلى النوم؟ "

أجبتُ " كلا، لا أصلي. أعتقد أني لا أعرف الكثير عن الصلاة "

قالت سادي " إذن سنعلِّمكَ. يجب أن تُصلِّي في كل يوم، ثلاث مرات على الأقل. وإلا فسوف تُحرَق بنار جهنم "

افترقنا على هذه الكلمات. وقطعتُ لها عهداً بأن أبذلَ جهدي لأصلّي، على الأقل قبل أن آوي إلى النوم. لكننا أثناء سيرنا معاً تساءلتُ فجأة لمن يُفترَضُ بي أن أصلي. وكدتُ أهرع إلى طرح السؤال عليها. كانت كلمة " ذنوب " تلتصقُ بحنجرتي. أية ذنوب؟ هكذا ظللتُ أتساءل. ما الذي فعلته ويُعتبَر على جانبٍ كبير من الإثم؟ إنني بالكاد أكذب، إلا على أمي. ولم أسرق أبداً، إلا من أمي. بماذا أعترف؟ لمْ يبدُ لي أني ارتكبتُ إثماً بكذبي على أمي أو بسرقتي منها. وكان يجب أن أتصرَّف هكذا لأنها خرقاء. فما أن ترى الأمورَ من وجهة نظري حتى تفهمَ سلوكي.

هكذا كنت أنظر إلى ذلك الوضع.

بعد تقليب التفكير العميق في حديثي مع سادي، والتأمُّل في الكآبة القاتمة التي كانت تسود بيتهم، بدأت أعتقد أنه ربما كانت أمي على حق في ارتيابها في الكاثوليكيين. ولم نكن في بيتنا نؤدي أي

صلاة ومع ذلك فكل شيء كان يسير على أحسن ما يرام. لا أحد من أفراد عائلتنا كان يأتي على ذكر الله، ومع ذلك فلم يعمد الله إلى إنزال العقاب بأي منا. وخَلصْتُ إلى نتيجة أنّ الكاثوليكيين متطيّرون بالفطرة، كالهمجيين. عَبَدَة أصنام جَهَلَة. قومٌ رعاديد، حذرون، لا يتحلّون بما يكفي من الشجاعة لتكون لهم أفكارهم الخاصة. واتّخذتُ قراراً لا رجعةَ عنه في ألاّ أحضرَ قداساً بعد الآن. ما أشبه كنيستهم بالزنزانة! وفجأة - وَمَضَ بريقٌ مفاجئ - خطر لي أنه ربما ما كانوا أصبحوا فقراء معدمين، أقصد عائلة سادي، لو أنهم لم يُغالوا في التفكير في الله. إنَّ كلَّ شيءٍ يتوجَّه إلى الكنيسة، إلى الكهنة، أقصد، أولئك الذين دائماً يستجدون النقود. إني طالما كرهتُ مرأى الكاهن؛ يبدو لي شديد التملُّق وتكلُّف الابتسام. كلا، فليذهبوا إلى الجحيم! إلى الجحيم بشموعهم، ومسابحهم، وصلبانهم - ومريماتهم العذراوات!

* * *

هاأنا أخيراً أقفُ وجهاً لوجه مع ذلك الرجل الغامض، ألان كروميل، أقدِّمُ له مشروباً آخر، أصفعه بتحبُّب على ظهره، وباختصار، أقضي معه وقتاً فخماً، وذلك في قلب عشّ حبنا الصغير!

كانت مونا هي التي أعدَّت لهذا اللقاء - وبتستُّرٍ من الدكتور كرونسكي. وكرونسكي أيضاً يشرب، ويصرخ ويومئ أثناء الكلام، وكذا كانت تفعل زوجته الضئيلة كفأرة والتي تقوم في هذه المناسبة مقام زوجتي. وأنا لم أعد هنري ميللر؛ لقد أُعطيتُ لقباً آخر في هذه الأمسية: الدكتور هاري ماركس.

وحدها مونا غائبة. ومن " المفترض " أن تصلَ لاحقاً.

سارت الأمور سيراً ممتازاً منذ تلك اللحظة في وقتٍ مبكّر من الأمسية عندما تصافحت مع كرومويل. ولابد لي أن أعترف لنفسي، أذكر الشيطان، بأنه بحقّ رجلٌ وسيم. وهو ليس فقط وسيماً (على الطريقة الجنوبية) وإنما لطيف وسهل الانخداع كطفل. وأنا لا أقصد أن أقول إنه أحمق، كلا؛ هو بالأحرى يثق في الآخرين؛ وليس حتى مثقفاً، وإنما هو ذكي؛ وليس داهيــــة وإنما كفء. هو رجلٌ ذو قلب طيب، ومنبسط، ويفيض بالنية الحسنة.

بدا من المؤسف أن أخدعه، أن أهزأ به. وفهمت أنَّ الفكرةَ كانت فكرة كرونسكي، وليس مونا. فلما أحسَّتْ مونا أننا أهملنا كرونسكي طويلاً، لعلها أذعنت دون تفكير. هكذا بدا لي الأمر.

مهما يكن، لقد كنا جميعاً في أحسن حال. وكانت الفوضى عارمة. ولحسن الحظ كان كرومويل قد وصل وهو مُضاء مثل منطاد زبلن. وكان بفطرته حسن النيّة، وكانت معاقرة الخمر تبرز فيه هذه الخلّة. وبدا أنه لا يدرك أن كرونسكي يهودي، على الرغم من أنَّ ذلك كان جلياً حتى لطفل. وحَسِبَهُ كرومويل روسياً. أما أنا، وأنا أحمل اسم ماركس، فلم يعرف ماذا يعتبرني. (كان كرونسكي يضمر فكرة لامعة مفادها أنْ يخدعه ويقدِّمني على أني يهودي) ولم يترك كَشْف هذه الحقيقة المذهلة - أي كوني يهودياً - أي انطباع مهما كان على كرومويل. وكان يمكن أن تقول له إني من هنود السيوز أو من الإسكيمو. غير أنه كان تواقاً إلى معرفة ما أعمل لأكسب لقمة عيشي. وطِبقاً لخطّتنا المعدَّة مسبقاً أبلغت كرومويل أني طبيب جرّاح وأن الدكتور كرونسكي وأنا نشترك في المهام، فنظر إلى يديَّ وهزَّ رأسه بوقار.

الأمر الصعب بالنسبة إليّ كان أن أتذكَّره، على امتداد السهرة الطويلة جداً، أن زوجة كرونسكي تقوم بدور زوجتي. وطبعاً كانت تلك إحدى ابتكارات عقل كرونسكي الخصب - فقد رأى أنَّ هذه طريقةٌ تُبعِدُ الريبة. وكلما نظرتُ إلى فأرته تلك انتابتني رغبةٌ في تسديد ضربة قوية إليها. وقد بذلنا قصارى جهدنا لجعلها تشرب أكبر كمية ممكنة؛ إلاَّ أنَّ كل ما كانت تفعله هو أن ترشف رشفة صغيرة ومن ثم تُبعِد الكأس عنها. ولكن مع انصرام الأمسية وازدياد مزاحنا السمج وقاحة على وقاحة، كانت تنتعش. وهذا أسلوب آخر لقولِ أنها بالكاد حرَّكتْ عظْمةً أو اثنتين، ولا أكثر. وحين انفجرت في لحظةٍ ما في نوبة ضحك هستيرية حسبتُ أنها سوف تُصاب بمرضٍ عضال. كانت تؤدي أداءً أفضل وهي تبكي.

أما كرومويل، من ناحية أخرى، فكان يضحك من قلبه. وأحياناً لم يكن يعرف علامَ يضحك، لكنَّ ضحكنا يكون مُعدياً جداً بحيث أنه لم يكن يأبه علامَ يضحك. وكان بين حين وآخر يسأل سؤالاً أو اثنين عن مونا، التي كان من الواضح أنه يعتبرها إنسانة غريبة جداً، لكنها لذيذة جداً. وطبعاً، تظاهرنا بأننا نعرفها منذ الطفولة. وأغدقنا كتابتها بمديحٍ مفرطٍ فظيع، واخترعنا وجودَ كميةٍ هائلة من القصائد، والمقالات والقصص التي عبَّرنا عن ثقتنا في أنها من شِدة التواضع بحيث ترفض أن تصرِّح بوجودها. وقد تمادى كرونسكي فعبَّرَ عن رأيه في أنها ستكون قريباً كاتبة أميركا الرائدة. وادَّعيتُ أني لستُ على ثقة تامة في هذا لكني وافقت على أنها تمتلك موهبةً خارقة، وتنطوي على إمكانات خارقة.

حين سُئلنا إن كنا قد رأينا أياً من الأعمدة الصحفية التي تنتجها،

اعترفنا بأننا على جهلٍ تام بها، بل إننا في الواقع ذُهلنا لسماعنا أنها تقوم بمثل هذا العمل.

قال كرونسكي " يجب أن نضع حداً لهذا العمل؛ إنها أفضل بكثير من أن تضيِّع وقتها فيه "

وافقتُهُ. وبدَتْ الحيرةُ على كرومويل، فهو لا يفهم ما الخطأ الفادح في كتابة عمودٍ صحفي يوميّ. ثم إنها بحاجةٍ إلى نقود.

صرخَ كرونسكي " نقود؟ نقود؟ ولَو، أين ذهبنا نحن؟ أنا واثق من أن في إمكاننا، الدكتور ماركس وأنا، أن نلبّي احتياجاتها". وبدا عليه الذهول لسماعهِ أنَّ مونا تفتقرُ إلى النقود. بل إنه في الحقيقة قد تأذّى.

مسكينٌ كرومويل، لقد شعرَ أنه قد ارتكبَ زلّةً. وأكّدَ لنا أنه مجرَّد انطباعٍ كونّه. ولكن، وبعودةٍ إلى الموضوع، يريد منا أن نلقي نظرةً على تلك الأعمدة الصحفية ونعطيه رأينا الصادق بها. وقال إنه لا يعتبر نفسه جديراً بالحكم عليها. فإذا كانت حقاً جيدة فإنه واثقٌ من أن في إمكانه أن يُسنِدَ إليها المهمة. وطبعاً لم يذكر أي شيء عن دفع مائة دولار في الأسبوع.

شربنا نخباً آخرَ في صحة هذا ومن ثم أدرناه إلى مواضيع أخرى. لقد كان من السهولة بمكان تحويل خطّه. ولم يكن في رأسه إلا فكرة واحدة - " متى ستصل؟ ". وكان يناشدنا بين حين وآخر كي ندعه ينطلق إلى الخارجِ ويُجري اتصالاً هاتفياً بواشنطن. وقد نجحنا بطريقةٍ ما في إحباط تلك المحاولات. كنا نعلم أن مونا لن تصل، على الأقل ليس قبل أن نُزيحُهُ من الطريق. وكانت قد أعطتنا مهلةً حتى الساعة الواحدة

صباحاً لكي نتخلّص منه. لذلك فإن أملنا الوحيد كان في أن ندفعه إلى الإفراط في السُكر حتى نستطيع أن نودِعه سيارةَ أجرة ونصرفه.

كنت قد قمتُ بمحاولاتٍ عِدَّة لأعرفَ أين يقطن لكني لم أتوصَّل إلى أي نتيجة. وقد رأى كرونسكي أنَّ ذلك لا يهمّ على الإطلاق - يمكننا أن نُودِعُهُ أي فندق. وتساءلتُ ونحنُ في قلبِ الأحداث لِمَ أُعِدَّ هذا العمل الأحمق، إنه لا ينطوي على أدنى معنى. وقد قيل لي فيما بعد أن مونا قد رأت أنَّ من المهم أن نَدَعَ كروموِيل يفهم أنها حقاً تقطن وحدها. طبعاً ثمة جانبٌ آخر لهذه النقطة، وهو أن نستكشف إنْ كان كروموِيل حقاً يأملُ في أن يكونَ أكثرَ صراحةً معنا مما هو معها. لكننا كنا قد تخلَّينا عن الموضوع في وقتٍ مبكِّر من المساء، والفضل في ذلك يعود إلى كرونسكي. ولسببٍ ما غريب كان كرونسكي ممسوساً بفكرةِ ملء كروموِيل بقصصٍ تُوقِفُ شعرَ الرأس حول جناحِ إجراء العمليات. وطبعاً كان ينبغي أن أشترك معه. وكان من المستحيل على إنسانٍ مالكٍ لحواسّه العاقلة أن يُكنَّ أدنى تصديق لتلك الحكايات التي كان لا يني يخترعها. كانت مثيرة أيَّما إثارة، ولا تصدَّق على الإطلاق، وفوق ذلك تجمِّد الدم في العروق وشنيعة، حتى أني تعجَّبتُ لأن كروموِيل، على الرغم من أنه كان ثملاً حتى فقدان الوعي، لم يفهم مرماها الخفي. وطبعاً كلما كانت الحكاية مخيفة ولا تصدَّق، ازداد ضحكنا، كرونسكي وأنا. وقد حيَّرَ قصفُنا كروموِيل قليلاً، غير أنه في آخر المطاف تقبَّله بوصفه "قسوة قلب محترفة ".

إذا صدَّقنا كرونسكي، فإن تسعةً من أصل عشر عمليات جراحية كانت محضَ تجارب إجرامية. وفيما عدا حفنة نادرة فإنَّ كل الأطباء

الجرّاحين كانوا ساديين بالفطرة. وحين لا تعجبه الحكايات الخيالية الشيطانية التي تدور حول سوء معاملة الكائنات البشرية، يخوض في خطبة مطوّلة حول موضوع قسوتنا على الحيوانات. وإحداها، وكانت حكاية معذِّبة، قصَّتها علينا وسط نوبات من الضحك، كانت تدور حول أرنبٍ مسكين ذُبِحَ بوحشية، بعد أن أعطيَ حقن لا حصرَ لها، وعُرِّضَ لصدمات كهربائية، ولكلّ أشكال الإنعاش المعجزة. وفوق ذلك كله، أخذ يفصِّل قائلاً كيف أنه، هو كرونسكي، جَمَعَ رُفات المخلوق الصغير المسكين وصنَعَ منها يخني، ولم يتذكَّر، إلا بعد أن ابتلع عدة لُقَم، أنه كان قد حَقن الأرنب المسكين بالزرنيخ. وعلى هذا ضحك ضحكاً خرافياً. وعلّقَ كرومويل، وقد أعادته الحكاية الدموية إلى وعيه قليلاً، قائلاً إنه من المؤسف أن كرونسكي لم يمت. ومن ثم ضحك من أعماق قلبه على هذه الفكرة حتى أنه ابتلع في لحظة شرود ملء كأس من الكونياك الصرف. وعلى الأثر انتابته نوبةٌ من السعال حتى أننا اضطررنا إلى أن نمدّده على الأرض وأن نعالجه معالجةَ الغريق.

عند هذه النقطة اكتشفنا أنَّ معالجة كرومويل ليس بالأمر السهل. ولكي نعيد المعالجة جرَّدناه من معطفه، وبزّته، وقميصه، وقميصه التحتي. ولا شك في أن كرونسكي كان يقوم بمعظم العمل؛ واكتفيتُ أنا بلطم كرومويل بين وقت وآخر، أو بصفع صدره. ولما تمدَّدَ بارتياح لم يعد كرومويل يرغب في أن يرتدي ملابسه. وقال إنه يشعر بتحسُّن بالغ ولا يريد أن يتزحزح من مكانه. أراد أن يأخذ غفوة، ولو لبضع دقائق. ومدَّ يده نحو الأريكة بحركةٍ غامضة، وأعتَقِدُ أنه كان يتساءل إن كان في وسعه أن ينتقل إلى وضعٍ مريحٍ أكثر بدون أن يحرِّك ساكناً.

كانت فكرةُ أنَّه يمكن أن ينامَ بين ظهرانينا تُرعبنا. فأخذنا نهرِّج له مثل سعادين حقيقية، ونوقف كروموبل المسكين على رأسه، ونتراقصُ حوله (وهو في حالةِ ذهولٍ تام، طبعاً)، ونرسم ابتسامات ونهرشُ أنفسنا كالقردة ... فعلنا كل ما من شأنه أن يثير ضحكه، كل ما يمنع جفنيه المتثاقلين من الإغماض. وكلما اجتهدنا في عملنا - وعندئذ كنا قد أصبحنا ودون مبالغة مسعورين - ازداد إصراراً على أن ينال غفوته القصيرة. وكان حينئذ قد وصل إلى مرحلةِ الزحف على أطرافه الأربعة باتجاه الأريكة المشتهاة. ولو أنه وصلَ إليها لعجزَ الله ذاته عن إيقاظه.

قلت، مشيراً باستخدام الإيماءات والتكشيرات إلى أن في إمكاننا عندئذ أن نلمَّه ونرميه إلى الخارج، " فلنمدِّده "

استغرق منا إلباسه ملابسه ما يقارب النصف ساعة. وعلى الرغم من كون كروموبل ثملاً ونعسان إلا أنه رفضَ بكل قواه أن يسمحَ لنا أن نحُلَّ له أزرار بنطاله، حيث كان يجب أن ندسَّ قميصه داخله. وقد اضطررنا إلى أن نترك فتحة بنطاله مفتوحة وقميصه بارزاً إلى الخارج، بحيث يمكن أن نغطي القميص بالمعطف، عندما يحين الوقت.

أغمي على كروموبل على الفور. كانت غشيةٌ ثقيلةٌ، تقطعها فواصلُ من الشخير الفظيع. وكان كرونسكي متوهجاً. لم يكن قد أمضى مثل ذاك الوقت الممتع منذ زمن بعيد، كما أكَّدَ لي. ومن ثم، ودون أن يُخفض من نبرة صوته، اقترحَ برقّةٍ أن نفتِّش جيوب كروموبل. وقال مصراً " على الأقل يجب أن نستعيد ما أنفقناه عليه ليأكل ويشرب". ولا أدري لماذا انتابني فجأة الشكُّ المفرطُ غير أن الفكرةَ لم تعجبني. وقال كرونسكي، " لن يفتقد النقود أبداً. ماذا يعني خمسين أو

مائة دولار بالنسبة إلى واحدٍ مثله؟ ". ولكي يؤكِّد كلامه استلَّ محفظة نقود كرومويل. وكم كان ذهوله عظيماً حين لم يعثر على ورقة نقدية واحدة فيها.

غمغم " لعنني الله! هؤلاء هم الأثرياء ؛ لا يحملون معهم نقوداً سائلة أبداً، يا لطيف! "

قلت مُلحّاً " يستحسن أن نعجِّل بإخراجه من هنا "

قال كرونسكي، مكشِّراً مثل تيس، " إياك أن تفعل! ولمَ لا ندعه يمكث هنا ؟ "

صرختُ " أجننت؟ "

ضحكَ. ثم أخذ يتابع بهدوء ويقصّ علينا كيفَ أنه رأى أن من الرائع لو أننا واصلنا تمثيل المهزلة حتى النهاية، أي، أن نوقظه، نحن الخمسة (في صباح اليوم التالي) ونستمرُّ في أداء أدوارنا الخاصّة. فقد رأى أن ذلك سوف يتيح فرصةً لمونا كي تقوم بأداءٍ تمثيلي حقيقي. ولم تكن زوجة كرونسكي متحمِّسة على الإطلاق لذاك الاقتراح - فهو أشدُّ تعقيداً من أن يناسبها.

بعد كثيرٍ من اللغو قررنا أن ننهض كروميل على قدميه، ونجرّه إلى الخارج مخفوراً، إذا لزم الأمر، ونرسله إلى أحد الفنادق. وكان علينا أن نتصارع معه على مدى ربع ساعة قبل أن ننجح في إيصاله إلى وضع نصف وقوف. لقد كانت ركبتاه ترفضان ببساطة أن تستقيمان؛ وكانت قبعته تنسدل على عينيه وأطراف قميصه تبرز نحو الخارج من تحت المعطف الذي عجزنا عن تثبيت أزراره. وقد بدا أقرب شبهاً بـ " سنْفي سائق التاكسي " . Snuffy The Cabman نضحكُ بهستريا مفرطة

حتى أنَّ ذلك كان كل ما استطعنا أن نفعله لنهبط درج السلَّم دون أن نتدحرج فوق بعضنا. وظلَّ كروميل المسكين يحتجُّ قائلاً أنه لا يريد أن يغادر بعد، وأنه يريد أن ينتظر مونا.

قال كرونسكي بخبث " لقد غادرتْ إلى واشنطن لتقابلك هناك. استلمنا برقيةً منها أثناء نومك "

كان انشداه كروميل من القوة بحيث عجزَ عن استيعاب كامل ما قلناه. وكان بين حين وآخر يرتخي ويهدد بأن ينهار في وسط الشارع. وفكَّرنا في أن ندعه يستنشق بعض الهواء، وندعمه بعض الوقت، ومن ثم نكوِّمه داخل سيارة أجرة. ولكي نعثر على سيارة أجرة كان علينا أن نسير على أقدامنا مسافة عدة أبنية. وقادتنا الطريق إلى النهر، طريق ملتوية، ورأينا أن السير على الأقدام سوف يفيده. وعندما اقتربنا من الرصيف جلسنا جميعاً على خط السكة الحديد لنستعيد أنفاسنا. وتمدَّدَ كروميل ببساطة على طوله بين القضبان، وهو يضحك ويفوِّق ن تماماً كما لو أنه طفل وليد في المهد. وكان يناشدنا على فترات أن نحضرَ له شيئاً من الطعام ليأكل. وأبدى رغبةً في تناول لحم الخنزير وبيض. وكان أقرب مطعم إلينا يبعد ما يقاربُ الميل من مكان وقوفنا، فاقترحتُ أن أُسرِع بالعودة إلى المنزل لأحضِرَ بعض الشطائر. فقال كروميل أنه لا يستطيع أن يصبر حتى ذلك الحين، وأنه يريد لحم الخنزير والبيض على الفور. ومن جديد رفعناه ليقف على قدميه، وهو عملٌ تطلَّبَ منا قِوانا المشتركة. وبدأنا ندفعه ونجرّه باتجاه الأضواء البراقة للبورو هول. اقترب منا حارسٌ ليليٌّ وطلبَ أن يعرف ماذا نفعل هناك في مثل تلك الساعة من الليل. وانهارَ كروميل عند أقدامنا. وسأل الحارسُ الليلي، وهو

ينخسُ كروموبل بقدمه وكأنه جثة هامدة، " ماذا لديكم هناك؟ ". فقلت " لا شيء، إنه فقط ثمل ". مال الحارسُ الليلي فوقه لكي يشمَّ أنفاسه. قال " أبعدوه من هنا وإلا ضربتكم جميعاً ". قلنا له، ونحن نجرّ كروموبل من تحت إبطيه، وقدماه تكشطان الأرض، " حاضر سيدي، حاضر سيدي ". بعد ذلك بلحظات جاء الحارس الليلي راكضاً وهو يحملُ قبعة كروموبل بيده. فوضعناها على رأسه لكنها عادت فوقعت. قلت، وأنا أفتح فمي، " هنا، ضعها بين أسناني ". وبتنا الآن نلهثُ ونتصبَّب عرقاً من جهد جرِّه. وراح الحارس الليلي يراقبنا بعض الوقت مُبدياً اشمئزازه، ثم قال " اتركاه! هنا، ارميا به على ظهري ... أنتما أخرقان". وبهذه الطريقة وصلنا إلى آخر الشارع حيث كان خط الحافلات المرفوع فوقنا. قال الحارس الليلي " والآن فليحضر أحدكما سيارة أجرة. لا تجرّاه على الأرض مرة أخرى، وإلا خلعتما ذراعيه ". ركض كرونسكي منطلقاً على طول الشارع بحثاً عن سيارة أجرة. وجلسنا نحن على حافة الطريق ننتظر.

وصلت سيارة الأجرة في غضون بضع دقائق وكوّمناه داخلها. كانت أذيال قميصه ما تزال تتدلّى.

سأل السائق " إلى أين؟ "

قلت " إلى فندق أستور! "

صرخَ كرونسكي " إلى فندق والدورف-أستوريا! "

قال السائق " يلاّ، قرروا! "

صرخَ كروموبل " إلى فندق الكومودور! "

قال السائق " أواثقٌ أنت؟ أرى أنكم مشروعُ عقيم "

قلت، وأنا أُقحمُ رأسي إلى داخل السيارة، " أتريد الكومودور حقاً؟ "

قال كرومويل بلسانٍ ثقيل " حتماً، أي مكان يناسبني "

سأل السائق " أمعه نقود ؟ "

قال كرونسكي " معه أموال طائلة؛ إنه صاحب بنك "

قال السائق " أعتقد أن على أحدكم يا شباب أن يرافقه "

قال كرونسكي " حسنٌ "، وقفز بسرعة إلى الداخل مع زوجته.

صرخ كرومويل " هيه! وماذا عن الدكتور ماركس؟ "

قال كرونسكي " سوف يتبعنا في سيارة أخرى؛ يجب أن يُجري اتصالاً هاتفياً "

هتف لي " هيه! وماذا عن زوجتك؟ "

قلت " لا بأس عليها "، ولوَّحتُ له بيدي مودِّعاً.

لدى عودتي إلى المنزل اكتشفتُ وجودَ حقيبة كرومويل الشخصية وبعض النقود الفكَّة كانت قد سقطت من جيوبه. فتحتُ الحقيبةَ فعثرتُ على كمية من الأوراق وبعض البرقيات. وأقرب البرقيات عهداً كانت موجَّهة من الإدارة الماليّة، تلحُّ فيها على كروميل كي يتّصل هاتفياً بشخصٍ ما عند منتصف الليل حتماً، لأمرٍ عاجلٍ جداً. أكلتُ شطيرةً بينما كنت ألقي نظرة على الوثائق القانونية، ثم شربتُ كأساً من النبيذ، ومن ثم قررتُ أن أتصل بواشنطن نيابةً عنه. وأمضيتُ وقتاً شاقاً وأنا أحاولُ الاتصال بالشخص الموجود في الطرف الآخر؛ وحين نجحتُ أجاب بصوتٍ ناعسٍ، وبفظاظة وتوتُّر. شرحتُ له أن كروموِيل قد وقعت له حادثة صغيرة وأنه سوف يتّصل بع هاتفياً في الصباح الباكر. وظلَّ يكرر

على مسمعي" ولكن مَنْ أنت ... مَنْ المتكلِّم "، وأنا أكرر، متجاهلاً أسئلته المسعورة، " سوف يتصل بك هاتفياً في الصباح "، وعلّقتُ السمّاعة. هرعت إلى الخارج بأقصى ما أمكنني من سرعة. كنت أعرف أنه سيردُّ على اتصالي بآخر. وخشيتُ أن يلجأ إلى الشرطة ليلاحقوني. وقطعتُ مسافةً كبيرةً حتى وصلتُ إلى مكتب البرق؛ وهناك بعثتُ برسالةٍ إلى كرومويل، إلى فندق الكومودور. وتمنيتُ من المسيح أن يكون كرونسكي قد أوصله إلى هناك. ولدى مغادرتي مكتب البرق أدركتُ أنه قد لا يستلم كرومويل البرقية حتى بعد ظهر اليوم التالي، وقد يستبقيها الموظف عنده حتى يستيقظ كرومويل من نومه، فتوجَّهتُ إلى كافيتريا أخرى واتصلتُ بفندق الكومودور، وألححتُ على الموظف الليلي كي يوقظ كرومويل حتماً عندما تصله البرقية. وقلت " صُبَّ إبريقاً من الماء البارد عليه إذا لزم الأمر، ولكن لابد أن يقرأ برقيتي... إنها مسألة حياة أو موت "

حين عدتُ إلى المنزل كانت مونا هناك تقوم بإزالة الفوضى التي حصلت.

قالت " يبدو أنكَ أقمتَ حفلةً رائعة "

قلت " هذا ما فعلناه "

رأيتُ الحقيبة موجودة في مكانها. سوف يحتاجُ إليها حين يتصل هاتفياً بواشنطن. قلت " اسمعي، الأفضل أن نستدعي سيارة أجرة ونوصل هذه إليه على وجه السرعة. لقد كنت أمرُّ على تلك الأوراق، إنها خطيرة. الأفضل ألاّ نُضبَط وهي بحوزتنا "

قالت مونا " اذهب أنت؛ أنا مرهقة "

وهكذا، عدتُ إلى الشارع، وكما توقَّعَ كرونسكي. ولحقتُ بهم بسيارة أجرة. وعندما وصلتُ إلى الفندق اكتشفتُ أن كروموبل كان قد لجأ إلى غرفته. وألححتُ على الموظف كي يوصلني إلى غرفته. كان كروموبل مستلقياً بكامل ملابسه على مفرش السرير، مسطّحاً على ظهره، وقبعته إلى جانبه. وضعتُ الحقيبةَ الشخصية على خزانته ومن ثم خرجتُ على أطراف أصابع قدميّ. ثم جعلتُ الموظف يصحبني إلى مكتب المدير. وشرحتُ له الوضع، وجعلتُ الموظف شاهداً على أنه رآني أضع الحقيبة الشخصية على خزانة كروموبل.

سألَ المدير، وقد تشوَّشَ ذهنه جراء تلك الترتيبات الغريبة، " وهل لي أن أعرف اسم الكريم! "

قلت " طبعاً، أنا الدكتور ماركس من مؤسسة البوليتكنيك. في إمكانك أن تتصل بي في الصباح إذا ما حصلَ أي طارئ. إن السيد كروموبل صديقٌ لي، عميلٌ لد أف. بي. آي. لقد أفرطَ في الشرب. آمل أن تعتني به "

قال المدير الليلي، وقد بدا عليه الرعب، " سأفعل حتماً. أيمكننا أن نتَّصل بمكتبك في أي وقت، دكتور ماركس؟ "

قلت " سأكون هناك طوال النهار، دون شك. وإذا خرجت، اسأل عن سكرتيرتي - الآنسة رابينوفيتش - وهي ستعرف كيف تتّصل بي. والآن يجب أن أنال قسطاً من النوم ... يجب أن أكون في غرفة العمليات في الساعة التاسعة. شكراً جزيلاً. أسعدت مساءً! "

رافقني خادم الفندق حتى الباب الدوار. وكان واضحاً أنه قد تأثَّر بذلك الهراء المعقَّد. قال " سيارة، سيدي؟ "، قلت " نعم "، ونفحته

الفراطة التي كنت قد لملمتها عن الأرض. قال " أنا شاكر لك جداً جداً يا دكتور "، وهو ينحني لي ويُرجِع قدمه إلى الخلف ويمسح بها الأرض، ويرافقني حتى سيارة الأجرة.

أمرتُ سائق السيارة أن يقلّني إلى ساحة تايمز. وهناك ترجّلتُ واتجهتُ إلى القطار النفقي. وبينما كنت أقتربُ من حجيرة الفراطة أدركتُ أنه لم يتبقَّ معي سنتُ واحد. فقد كان سائق السيارة قد استولى على آخر ربع كان معي. فارتقيتُ الدرج ووقفتُ على حافة الطريق، متسائلاً من أين وكيف أحصلُ على النكلة اللازمة. وبينما أنا واقفٌ هكذا اقتربَ مني ساعٍ ليلي. أمعنتُ النظر فيه لأرى إن كنتُ أعرفه. ثم تذكّرتُ مكتب البرق الكائن في الغراند سنترال. كنت متأكداً من أني أعرف أحدهم هناك، فسرتُ عائداً إلى غراند سنترال، ثم هبطتُ السلّم، وإذا بي أجده هناك، ساطعاً كالشمس، جالساً على مقعده، ضخماً بحجم الحياة، صديقي الحميم دريغز. قلت " دريغز، هلاّ أقرضتني نكلةً؟ ". قال دريغز " نكلة؟ هاك، خذ دولاراً! "، وتحادثنا بعض الوقت ومن ثم انطلقتُ عائداً إلى القطار النفقي.

كان كروميل قد أطلقَ عبارةً عدداً من المرات خلال الفترة المبكّرة من الأمسية ظلّت تتردّد على ذهني: " صديقي وليم راندولف هيرست ". ولم أكن أشك بأي حال في أنهما صديقان حميمان، على الرغم من أن كروميل كان ما يزال شاباً بكل معنى الكلمة ليكون صديقاً مقرّباً من قيصر الصحافة. وكنت كلما أطلتُ التفكير في كروميل أحببته أكثر. وقد صمّمتُ على أن أعاود زيارته في وقتٍ قريب، على أن أكون وحدي حينئذ. وصلّيتُ كي لا ينسى أن يُجري تلك المكالمة الهاتفية. وتساءلت ماذا سيقول عني حين يعرف أني عبثتُ بمحتويات حقيبته الشخصية.

لم تمضِ بضعُ ليالٍ أُخَرْ حتى تقابلنا من جديد. وهذه المرة في منزل بابا موسكوفيتش. فقط كروموِيل، ومونا وأنا. وكان كروموِيل هو الذي اقترحَ اللقاء، بمناسبة رحيله إلى واشنطن في اليوم التالي.

سرعان ما تلاشى كل إحساسٍ بالانزعاج لدى لقائنا الثاني بفعل ابتسامته الدافئة ومصافحته النابعة من القلب. وللتو أخبرني كم هو ممتنّ لما كنتُ قد فعلتُه، دون أن يعيِّن بالتحديد ما كنت قد فعلته، وإنما اكتفى بأن رمقني بنظرة وضَّحت أنه يعرف كل شيء. وقال، وقد توردَّ وجهه قليلاً، " إنني دائماً أجعلُ من نفسي حماراً عندما أشرب ". وعندئذ بدا أشدُّ شبهاً بصبيٍّ صغير مما كان عليه ليلة قابلته للمرة الأولى، وبدا لي أنه ينبغي ألاّ يكون عمره أكثرَ من ثلاثين سنة. والآن وبعد أن عرفتُ طبيعة عمله الحقيقي ذُهِلتُ أكثر من أي وقت سابق من سلوكه الرخيّ، الخالي من الهم. لقد كان يتصرَّف كإنسانٍ لا يتنكَّبُ أي نوع من المسؤوليات. إنه مجرد مصرفيّ شاب لامع ينحدر من عائلة كريمة - هذا كان الانطباع الذي ولَّده عندي.

يبدو أنه كان ومونا يتحدثان في الأدب. كان يتظاهر، كعهده دائماً، بأنه لا اطّلاع لديه على الأحداث الأدبية، وأنه مجرَّد رجل أعمال بسيط مزوَّد بمعلومات ضئيلة عن عالم المال. والسياسة؟ يجهلها جهلاً تاماً. كلا، إن الأعمال المصرفية تستحوذ على وقته كله. وفيما عدا بعض الوقت المرح الذي يقضيه بين حينٍ وآخر، فإنه إنسانٌ محبٌّ لملازمة البيت. ولم يزُر من الأماكن غير واشنطن ونيويورك. وأوروبا؟ نعم، إنه شديد التوق لمشاهدة أوروبا. لكن هذا الأمر يجب أن ينتظر ريثما يتمكّن من أخذ إجازة حقيقية.

تظاهرَ بأنه خَجِل لأن اللغة الوحيدة التي يتقنها هي الإنكليزية. لكنه أبدى اعتقاده بأنه يمكن للمرء أن يتفادى هذا النقص إذا عقَدَ الصلات الصحيحة.

استمتعت بالإنصات إليه وهو يمدنا بهذا الخط. ولم أستشفّ ثقته بنفسه قط من كلمة أو إيماءة. ولم أجرؤ على أن أكشفَ حتى لمونا ما كنت أعرفه عن كرومويل. ويبدو أنه كان يدرك أنه يمكن أن يثق بي.

هكذا رحنا نتحدث ونتحدث، وننصت إلى موسكوفيتش بين حين وآخر، ونشرب باعتدال. وفهمتُ أنه قد أوضحَ لتوه لمونا أنَّ العمود الصحفي لا جدوى منه. ومدحَ الجميع عملها، لكن الرئيس الكبير، كائناً مَنْ كان، قرَّرَ أنه لا يصلح لصحف هيرست.

غامرتُ بسؤاله " وماذا عن هيرست نفسه؟ هل رفضه؟ "

وضَّحَ لنا كرومويل قائلاً إن هيرست في المعتاد يلتزم بقرارات مرؤوسيه. وأكَّدَ لي أنَّ الأمرَ غايةً في التعقيد. إلا أنه كان يعتقد أنه قد يطرأ طارئ، شيءٌ واعدٌ أكثر. وسوف يعرفه حالما يعود من واشنطن.

طبعا كنت قادراً على قراءة هذا الكلام على أنه من باب التهذيب، بعد أن صرت أعرف جيداً أن كرومويل لن يذهب إلى واشنطن قبل على الأقل شهرين، وأنه خلال سبعة أيام أو ثمانية سوف يصل، في الحقيقة، إلى بودابست، ليتباحث بلغة ذاك البلد مع شخصية نافذة مرموقة.

قال " دون أن يرفَّ له جفن، " قد أقابل هيرست عندما سأتوجَّه إلى كاليفورنيا في الشهر القادم. يجب أن أذهب إلى هناك في جولةِ عمل "

ثم أردفَ، وكأنها فكرة وليدة اللحظة، " أوه، بالمناسبة، أليس

صديقك الدكتور كرونسكي شخصية غريبة الأطوار ... أقصد بوصفه جراحاً؟ "

قلت " ماذا تعني؟ "

" أوه، لا أدري ... كنت سأظنّه مسترهناً، أو ما شابه. لعله كان يتظاهر ليسلّيني "

" تقصد بحديثه؟ هو دائماً هكذا عندما يشرب. كلا، إنه بحقّ إنسانٌ مميَّز - وجرّاح ممتاز "

قال كروميل " يجب أن أقوم بزيارته حين أعود إلى هنا ثانية. إن ابني الصغير لديه تشوُّه في القَدَمْ، ربما يعرف الدكتور كرونسكي ماذا أفعل لأجله؟ "

قلت، ناسياً أن من المفروض أن أكون بدوري طبيباً جراحاً.

أضاف كروميل، كأنه تكهَّنَ بخطأي غير المقصود، ومن قبيل العبث الخفيف: " لعل في استطاعتك أنت أن تخبرني شيئاً عن هذه المسألة، دكتور ماركس. أم أن هذا ليس من اختصاصك؟ "

قلت " لا، في الحقيقة ليس اختصاصي، وإن كان في استطاعتي أن أتكلَّم حول هذه النقطة بالذات. فقد سبق أن عالجنا بعض الحالات. المسألة نسبيّة. أما شرح السبب فمسألة شديدة التعقيد ... "

هنا ابتسم ابتسامةً عريضة. قال " فهمت. ولكن يسعدني أن أعرف أنك ترى أنَّ ثمة أملاً "

قلت بحميمية " لا شك في وجوده. إن في بودابست في الوقت الحاضر طبيب جرّاح شهير معروف عنه أنه قد شفى تسعين في المائة من حالاته. فلديه علاج خاص به غير معروف لدينا هنا. وأعتقد أنه علاج بالكهرباء "

" أتقول في بودابست؟ إنه مكانٌ بعيد "

وافقته " نعم، هو كذلك "

اقترح كرومويل " ما رأيك في أن نحضر زجاجة نبيذ راين أخرى؟ "

أجبتُ " إن كنتَ تصرُّ. سوف أتناول فقط جرعةً صغيرةً، وبعد ذلك يجب أن أذهب "

ناشدني قائلاً " ابقَ، إني بحقّ أستمتع بالتحدُّث إليك. أتدري، إنك أحياناً تذهلني بكونك أديباً أكثر منك طبيباً جرّاحاً "

قلت " كنت أمارس الكتابة، ولكن ذلك كان منذ سنين مضت. ففي مهنتنا لا يُتاح للمرء الكثير من الوقت ليكرِّسه للأدب "

قال كرومويل " إنه أشبه بالعمل المصرفي، أليس كذلك؟ "

" تماماً ". وتبادلنا الابتسام الودِّي.

قال كرومويل " ولكن كان هناك أطباءُ ألّفوا كتباً، أليس كذلك؟ أقصد روايات، ومسرحيات، وما شابه "

قلت " لا شك في ذلك. وعددهم وفير. شنيتزلر[٥٤]، مان، وسمرست موم ... "

قال كروميل " ولا تنسَ إيلي فور. إن صاحبتنا مونا كانت تحكي لي الكثير عنه. لقد كتب تاريخاً للفن، أو ما شابه هذا ... أليس هذا صحيحاً؟ "، ونظر إلى مونا طلباً للتوكيد. " أنا لم أرَ عمله قط، طبعاً. ولا أميِّزُ لوحة الرسم الجيدة من الرديئة "

قلت " لست واثقاً تماماً من هذا؛ أعتقد أنك قادر على تمييز اللوحة الزائفة إذا رأيتها "

---

٥٤ – آرثر شنتيتزلر (١٨٦٢ – ١٩٣١) : كاتب نمساوي . – المترجم

" لماذا تقول هذا ؟ "

" أوه، مجرد حسّ باطني. أعتقد أنك سريعٌ في اكتشاف ما هو زائف "

" لعلّك تنسب إليّ أكثر مما ينبغي من الفطنة، يا دكتور ماركس. إن المرء، في مهنتنا، يتعوّد طبعاً على أن يبقى على حَذَر من النقود الزائفة. ولكن هذا لا يحدث حقاً في قسمي. إن لدينا اختصاصيين في مثل تلك الأشياء "

قلت " هذا طبيعي. ولكن لنكن جادّين، إنَّ مونا على حق فعلاً ... عليكِ أن تقرأ إيلي فور ذات يوم. تصوَّر رجلاً يؤلّفُ كتاب " تاريخ الفن" الضخم في وقت فراغه! كان يدوِّن ملاحظات على طرف كُمّ قميصه أثناء عيادته لمرضاه. وكان بين حينٍ وآخر يطيرُ إلى أحد الأماكن البعيدة النائية، مثل يوكاتان أو سيام أو جزيرة إيستر. وأشكُّ في أنه كان أي من جيرانه على علمٍ برحلات الطيران تلك. عاش حياةً رتيبةً، متنقِّلاً. وكان طبيباً ممتازاً. لكن وَلَعَه كان بالفن. إنني عاجز عن التعبير عن مدى إعجابي بالرجل "

قال كروموِيل " إنك تتكلّم عنه تماماً كما تفعل مونا. وتقول إنه لا وقتَ لديك لاهتمامات أخرى! "

هنا أدلت مونا بدلوها. فبالنسبة إليها أنا رجلٌ متعدد الوجوه، رجلٌ يبدو أنه يتوفَّرُ له وقتٌ للقيام بأي عمل.

هل اشتبهَ، مثلاً، في أن يكون الدكتور ماركس موسيقياً بارعاً، وخبيراً في لعبة الشطرنج، وهاوياً لجمع الطوابع ...؟ "

هنا جَزَمَ كروموِيل بأنه اشتبه في أني قادر على القيام بأمورٍ كثيرةٍ

وأني من فرطِ التواضع بحيث لا أكشف عنها. وكان مقتنعاً، قبل كل شيء، بأني رجلٌ يمتلك خيالاً واسعاً. وقد ذكَّرنا عَرَضَاً بأنه قد لاحظَ يديّ في تلك الأمسية. وفي رأيه المتواضع فإنهما تكشفان عن أكثر من مجرد المقدرة على استخدام المبضع.

بعد أن فسَّرَتْ مونا هذه الملاحظة بطريقتها الخاصة، سألت على الفور إن كان يستطيع أن يقرأ الكفّ.

قال كرومويل، وقد بدا وكأنه ارتبكَ، " ليس كثيراً، ربما بما يكفي لأميِّز المجرم من الجزّار، وعازف الكمان من الصيدلي. وأي إنسان تقريباً يستطيع أن يفعل ذلك، حتى دون معرفة بقراءة الكف.

عند هذه النقطة ألحَّت عليَّ رغبةٌ في الرحيل.

ناشدني كرومويل " ابقَ أرجوك! "

قلت، وأنا أشدُّ على يده، " لا، حقاً، يجب أن أذهب "

قال كرومويل " آمل في أن نتقابل ثانية قريباً. أرجو أن تُحضِرَ زوجتك معك في المرة القادمة. إنها مخلوقة صغيرة فاتنة. لقد ولَعَتُ بها "

قلت، وقد انتشر احمرارُ وجهي حتى أذنيّ، " هكذا هي. حسن، وداعاً! ورحلة موفّقة! "

رَفَعَ كرومويل كأسه رداً على هذا فلمحتُ على حافّته انعكاسَ نظرةٍ ساخرة قليلاً في العينين. وعند الباب قابلتُ بابا موسكوفيتش.

سأل بصوت منخفض " مَنْ ذاك الرجل الجالس على مائدتك؟ "

أجبتُ " بصراحة، لا أعرف. الأفضل أن تسأل مونا "

" إذن فهو ليس صديقاً لك؟ "

أجبت " الإجابة عن هذا السؤال أيضاً صعبة. حسنٌ، الوداع! "، وأفلتُّ بجلدي.

* * *

في تلك الليلة حلمتُ حلماً مزعجاً جداً. بدأ، كما تبدأ الأحلام كلها عادة، بمطاردة. كنت أطاردُ رجلاً ضئيلاً ونحيلاً في شارعٍ مظلم، باتجاه النهر. وكان خلفي رجلٌ يطاردني. وكان من المهم بالنسبة إليّ أن أدرك الرجلَ الذي أطارده قبل أن يدركني الرجل الآخر. والرجل الضئيل النحيل لم يكن إلا سبيفاك. وظللتُ في إثره طوال الليل ألاحقه من مكانٍ إلى مكان، وأخيراً أفْلَتَ مني. ولم أعرف مَنْ الذي كان يلاحقني. وكائناً مَنْ كان فإن تنفُّسَه جيدٌ وقدميه سريعتان، وبثَّ فيَّ إحساساً مُقلقاً بأنَّ في إمكانه أن يُدرِكَني متى شاء. أما سبيفاك، فعلى الرغم من أنَّ أفضل ما كنتُ أرغبُ في رؤيته أن أره وهو يُغرِقُ نفسه، لكن الأمر الأكثر إلحاحاً كان أن أُمسِكَ بخنّاقه أولاً؛ فقد كانت بحوزته أوراقٌ على جانب حيوي من الأهمية بالنسبة إليّ.

حالما اقتربنا من الفرضَة الناتئة داخل النهر أدركْتُهُ، وأمسكتُ بخُنّاقه بقوة، ورحت أطوِّحه. وكم ذُهلتُ حين عرفت أنه ليس سبيفاك أصلاً - إنه شلدون المجنون. ولم يبدُ أنه تعرَّفَ عليّ، ربما بسبب الظلام. وخرَّ على ركبتيه وتوسَّلَ إليّ ألاّ أقطع رقبته. فقلت " أنا لست من البولاك! ". ونترتُهُ ليقف على قدميه. وفي تلك اللحظة أدركني مُطاردي. إنه ألان كروميل. وضع مسدساً في يدي وأمرني أن أطلق النار على شلدون. قال " خذ، سأُريكَ كيف تفعل "، ثم لوى ذراع شلدون بطريقة قاسية وأنزله على ركبتيه. ووضع بوز المسدس على قفا رأس

شلدون. هنا أخذ شلدون ينشج ويئنُّ مثل كلب. وتناولتُ المسدسَ الذي ألصَقَهُ على جمجمة شلدون. أمرني كروميل " أطلق! ". ضغطتُ على الزناد آلياً فانتفض شلدون انتفاضةً صغيرة، مثل عفريت العلبة، ثم انطرحَ على وجهه. قال كروميل " أحسنت صنعاً! والآن، علينا أن نُسرِع. يجب أن نكون في واشنطن في صباح يوم غد باكراً "

في القطار تغيَّرت شخصية كروميل تغيُّراً كاملاً. إنه الآن يشبه إلى حد الكمال صديقي الحميم وصنوي، جورج مارشال. بل إنه كان يتكلَّم مثله تماماً، على الرغم من أنَّ كلامَه في تلك اللحظة كان غير مترابط. كان يذكِّرني بالأيام الخوالي حين كان يهرِّجُ أمام باقي أعضاء جمعية زيركس الشهيرة. ثم غمزني، وعَرَضَ متباهياً الزرَّ الموجودَ على الطيّة الداخلية لصدر السترة، وهو نفسه الذي كنا نضعه لأسبابٍ دينية، وكان محفورٌ عليه بأحرفٍ ذهبية عبارة - " أُخوة إلى الأبد ". ثم صافحني، ودغدغ راحة كفّي، كما تعوَّدنا أن نفعل، بسبابته. قال، وهو يرميني بغمزة زلاّقة أخرى، " أيكفيك هذا ؟ ". وكانت عيناه قد اتسعتا، عَرَضاً، حتى أبعادٍ هائلةٍ: كانتا عينين متضخِّمتين هائلتين تعومان في وجهه المستدير مثل محارتين منتفختين. ولكن حدث هذا فقط حين غمز. وعندما استعاد هويته الأخرى، بوصفه الياس كروميل، كانت عيناه طبيعيتين تماماً.

ناشدته قائلاً " مَنْ أنت؟ أأنت كروميل أم مارشال؟ "

وضع إصبَعَهُ على شفتيه، على طريقة شلدون، وأطْلَقَ هسسسسسسسسسس!

ثم، وبصوتِ المتكلِّم من بطنه، الذي يُصدِر كلامه من جانب فمه،

أنبأني بسرعة، وبشكلٍ غير مسموع، أخذ يتَّضح شيئاً فشيئاً - وقد أصابني بالدوار وأنا أحاول متابعته! - أنه تلقّى إلماعاً في آخر لحظةٍ مفاده أنهم فخورون بي في الإدارة، وأنهم سيسندون إليّ مهمّة خاصة جداً، نعم، وسأذهب لذلك إلى طوكيو. وسيُطلَب مني أن أمثِّل أحد رجال الميكادو وذراعَه الأيمن -للعمل على تقصّي المطبوعات المسروقة. قال " كما تعلم "، وأخفضَ نبرة صوته أكثر من ذي قبل، وهو يسدِّد إليّ من جديد تينك المحارتين العائمتين المرعبتين، ويقْلُب إلى الخلف طيّة صدر معطفه، ويقيض على يدي، ويدغدغ راحة كفّي، " كما تعلم، تلك التي نستخدمها لطبع ورقة الألف دولار النقدية ". وهنا أخذ يتكلّم باليابانية التي اكتشفتُ، ويا لذهولي، أنَّ في إمكاني أن أفهمها بالسهولة نفسها التي أفهم بها الإنكليزية. وشرحَ بلغةِ عُودَيّ الأكل أن المندوب الفني هو الذي كان يروِّج العمل. فقد كان خبيراً، ذلك الرجل، في المطبوعات الإباحية. وأنا سأقابله في يوكوهاما، متخفياً كطبيب. وسوف يكون مرتدياً زي أميرال رسمي ويعتمر إحدى تلك القبعات ذات الثلاث زوايا المضحكة. وهنا وكَزَني وكزةً غير عادية بمرفقِهِ وضحكَ ضَحكةً مكبوتة - تماماً مثل ياباني. وتابع قائلاً، مرتداً إلى لهجة بروكلن، " يؤسفني أن أقول، يا هن، إنهم قد عثروا على البضاعة مع زوجتك. نعم، إنها متورطة. قبضوا عليها متلبِّسةً مع حزمةٍ كبيرةٍ من الكوكايين ". ووكزني مرة أخرى، وهذه المرة بشكلٍ شرير أكثر. " أتذكر آخر لقاءٍ لنا - في محل غريمي؟ ألا تذكر، عندما نام الناس أثناء عَرْضِنا؟ وقد قمْتُ أنا بخدعةِ الحبلِ والسُلَّم مرات عدة منذ ذلك الحين ". هنا قبض على يدي وأعطاني الإشارة مرة أخرى. " والآن اسمع يا هن، افهم ما سأقول . . .

حين سنترجَّل من القطار سِرّ بتمهُّل في جادّة بنسلفانيا، وكأنك تتمشّى. سوف نقابل ثلاثة كلاب. الاثنان الأولان سيكونان كلبين زائفين. والثالث سيهرع إليك لتربُتَ عليه وتُلاطفه. هذا هو مفتاح اللغز. لاطفه على رأسه بإحدى يديك وازلق أصابع اليد الأخرى تحت لسانه، وسوف تعثر على كُريّة بحجم حبّة الشوفان. أمسكْ الكلبَ من طوقِهِ ودَعْهُ يقودك. فإذا ما استوقَفَكَ أحدهم، قُل فقطَ " أوهايو! " وأنت تعلم ما تعنيه الكلمة. إن لديهم جواسيس مدسوسين في كل مكان، حتى في البيت الأبيض ... والآن إليك ما يلي يا هن " - وبدأ يتكلّم مثل آلة خياطة، أسرع، فأسرع، فأسرع - " حين تقابل رئيس الجمهورية صافحه مصافحةً حميمة. ثمة مفاجأة في انتظارك، ولكن لن أتكلّم عنها. فقط تذكّر يا هن أنه رئيس الجمهورية. إياك أن تنسى هذا! وسوف يقولُ لكَ أشياء مختلفة ... إنه لا يعرف ثقبه من ثقبٍ محفورٍ في الأرض ... ولكن لا عليك، فقط أنصتْ. إياك أن تدعه يستشفّ أنك تعرف أي شيء. وسوف يظهرُ أوبسيبريسيكفيتزي في اللحظة الحاسمة. وأنت تعرفه ... كان معنا على مدى سنين طويلة ... ". وأردتُ أن أطلبَ منه أن يكرّرَ الاسمَ على مسمعي ولكن كان من المستحيل إسكاته ،، ولو للحظة. وغمغم " وسوف نصل في غضون ثلاث دقائق. وأنا الآن لم أنقلُ إليك إلا نصف التعليمات. الآن إليك الجزء الأهم يا هن، خذ عندك "، ووكزني وكزةً أخرى مؤلمة في أضلعي. ولكن عندئذ انخفضَ صوته إلى حدٍ كبيرٍ حتى أني بالكاد التقطتُ نُتفاً من حديثه. وكنت أذوي من شدة المعاناة. كيف يمكنني أن أستمرَّ بأي حال إذا أضعتُ التفاصيل الأهمّ؟ كان في إمكاني طبعاً أن أتذكّر الكلاب الثلاثة. لقد كانت الرسالة مُرمَّزَةً، لكني

سأتمكّن من فكّ طلاسمها وأنا على متن السفينة. وكان عليَّ أيضاً أن أتدرَّب على لغتي اليابانية خلال رحلتي في السفينة، فقد كانت لهجتي رديئة قليلاً، خاصةً لممارستها في بلاطٍ ملكيّ. كان يقول لي، وهو يلوِّح بطيّة سترته مرة أخرى ويقبض على يدي، " أَفَهِمْتَ الآن؟". ناشدته قائلاً " انتظر، انتظر دقيقة. ذاك الجزء الأخير ... "، لكنه كان قد بدأ لتوه يهبط الدَرَج وسرعان ما غاب داخل الحشد.

بينما كنتُ أسيرُ على طولِ جادةِ بنسلفانيا، أحاولُ أن أظهرَ بمظهرِ المتمشّي، أدركتُ وقلبي يغوصُ بين أضلعي أني في الواقع في حالةِ ارتباكٍ شامل. وتساءلتُ برهةً إن كنتُ أحلمُ. ولكن كلا، إنها دون شك جادّة بنسلفانيا، ولا مجال للخطأ. ومن ثم إذا بي فجأة أجدني أمام كلبٍ كبيرٍ واقفٍ على حافة الطريق. وعرفتُ أنه تقليدٌ لكلبٍ لأنه كان مثبّتاً إلى خشبةٍ للشدّ. وهذا زاد من اطمئناني على امتلاكي لعقلٍ يقظٍ. ورحتُ أُمعِنَ النظر لكي أعثر على الكلبي الثاني. حتى إني لم ألتفت فيما حولي، على الرغم من ثقتي في أنَّ ثمة مَنْ يسير في أعقابي، وكنتُ شديد الحرص على ألاّ أضيِّع الكلبَ الثاني. إن كرومويل، أم هل كان جورج مارشال - لقد اختلط عليَّ! الاثنان بشكلٍ ميؤوسٍ منه - لم يَذْكُر لي أي شيء عن أمر ملاحقتي. ومع ذلك، لعله ذكرَ شيئاً بهذا الخصوص فعلاً - عندما كان يتحدث بصوتٍ منخفض جداً. وأخذ خوفي يتفاقم باطراد. وحاولتُ أن أعود بتفكيري، أن أتذكَّر كيف تورَّطت في هذه العملية القذرة، لكن ذهني كان غاية في الإجهاد.

فجأةً كدت أقفز من جلدي. لقد رأيتُ مونا واقفةً عند ناصية الشارع، تحت أحد الأنوار القوسيّة. وكانت تحمل مجموعةً من نسخ

"نقوش تظليلية " بيدها، توزّعها على المارّة. وحين اقتربتُ كثيراً منها ناولتني نسخةً، ورمتني بنظرةٍ تقول - " خذ حذرك! " - ورحتُ أتمشّى الهوينى عبر الشارع. وظللت أحمل نسخة " نقوش تظليلية " بعض الوقت دون أن أُلقي عليه نظرة، وأنا أرفرفها على ساقي وكأنها صحيفة. ثم نقلتُها إلى اليد الأخرى، متظاهراً باضطراري إلى التمخُّط، وبينما أنا أمسح أنفي قرأتُ على الحافةِ المائلةِ هذه الكلمات: النهاية مستديرة مثل البداية. " أخوة إلى الأبد ". واحترتُ أيّما حيرة. لعلها تفصيل صغير آخر فاتني عندما كان يتكلّم بصوتٍ منخفض. مهما يكن، كان لدي من حضور البديهة ما جعلني أمزِّق الرسالة إلى قِطَعٍ صغيرة جداً. ورحتُ أُسقِطُ القطع الصغيرة واحدة بعد أخرى وعلى فترات مسافة الواحدة مائة ياردة أو نحوها، منصتاً بتركيزٍ في كل مرة لأتأكّد من أن ملاحقي لن يتوقف ليلتقطها.

وصلتُ إلى الكلب الثاني، وكان كلبَ دمية صغير الحجم قائم على دواليب، يشبه لعبة تخلّى عنها طفل. ولكي أتأكد من أنها ليست كلب حقيقي سدّدت إليها رفسة صغيرة بطرف إصبع قدمي الكبير. فانهار وتفتّتَ على الفور. وطبعاً تظاهرت بأنَّ ذلك أمر طبيعي إلى أقصى حد، وتابعتُ سيري المتمهِّل.

لم أرَ الكلب الثالث والحقيقي إلا على بُعدِ بضع ياردات من مدخل البيت الأبيض. وكان الرجل الذي يلاحقني كظلّي قد كفَّ عن مطاردتي، إلا إذا كان قد بدّلَ حذاءه الخفيف في غفلةٍ مني. على أي حال، كنت قد وصلت إلى الكلب الأخير. وكان كلبَ نيوفوندلند ضخماً، لعوباً كجرو. جاءني راكضاً بقفزاتٍ واسعةٍ وكاد يطرحني أرضاً وهو يحاولُ أن يلعق وجهي.

وتريّثتُ برهةً أو اثنتين وأنا أربته وألاطف رأسه الدافئ؛ ومن ثم انحنيتُ بحَذَرٍ وأقحمتُ يدي تحت لسانه. فإذا بي حقاً أعثر على الكريّة، مغلّفةٍ بورقة فضيّة. وكما قال مارشال أو كروموبل، كانت بحجم حبّة شوفان.

أمسكتُ الكلبَ من طوقه وهبطتُ معه الدَرَجَ إلى البيت الأبيض. وكان رجالُ الحرسِ كلهم يقومون بالإشارة نفسها - غمزةٌ كبيرةٌ ورفرفة صغيرة لطيّة صدر السترة. وبينما كنت أمسح قدميَّ على الممسحة في الخارج لاحظتُ وجودَ عبارة " أخوة إلى الأبد " مكتوبة بأحرفٍ حمراء. وكان رئيس الجمهورية عندئذ يقتربُ مني، يرتدي سترةً مزيَّلةً وبنطالاً مخططاً؛ ويضعُ زهرة قرنفل في عُروة السترة. وكان يمدُّ لي كلتا يديه ليرحِّبَ بي. هتفت " يا لله، تشارلي! كيف وصلتَ إلى هنا بحق الله؟ كنت أظن أني سأقابل ... ". وفجأة تذكرتُ كلمات جورج مارشال، فقلت " سيدي الرئيس "، وانحنيتُ انحناءةً كبيرةً، " إنه امتيازٌ بحق ... "، فقال تشارلي، وهو يشدُّ على يدي ويدغدغ راحة كفّي بسبّابته " تفضَّل، تفضَّل، إننا ننتظرك "

إذا كان هو حقاً ورئيس الجمهورية فإنه لم يتغيَّر ولا بمقدار ذرَّة منذ الأيام الماضية.

كان تشارلي معروفاً بوصفه العضو الصامت في نادينا. ولأن صمتَه كان يكتنفه جوٌّ من الحكمة فقد انتخبناه على سبيل السخرية ليكون رئيس النادي. وكان تشارلي أحد الصبية القاطنين في المجمَّع السكني الكائن عبر الشارع. وكنا مولعين بتشارلي لكننا لم نتمكن أبداً من الاقتراب كثيراً منه - بسبب صمتِه المُبهم. وذات يوم اختفى. ومرَّت شهورٌ طويلةٌ دون أن نسمع عنه كلمةَ واحدة. وتوالت الشهور لتغدو

سنين. ولم يحصل أي منا على أي معلومات عنه؛ وكأنَّه زال عن وجه الأرض.

هاهو الآن يقودني إلى حَرَمه. حَرَمْ رئيس هذه الولايات المتحدة!

قال تشارلي " اجلس، خذ راحتك "، وقدَّمَ إليّ صندوق السيجار.

لم أتمالك نفسي من التحديق المتواصل إليه. كان يبدو بالضبط كما عهدته دائماً، فيما عدا، حتماً، السترة المزيّلة والبنطال المُخطط. وكان شعره الكثيف الأصحر مفروقاً في المنتصف، كعهده دائماً؛ ومشذَب أصابع اليدين بطريقة جميلة، كعهده دائماً. إنه تشارلي القديم نفسه. وكعهده دائماً، كان يضع في أسفل صدرته الدبوس القديم الخاص بجمعية زيركس وعليه " أخوة إلى الأبد "

بدأ حديثه فقال، بصوته ذاك الناعم، المدوزن، " هاأنت تدرك يا هن، لماذا اضطُررتُ إلى أن أُبقي هويتي طيّ الكتمان ". ثم مال إلى الأمام وأخفضَ صوته " إنها، كما تعلم، ما زالت تسعى في إثري ". (كنتُ أعلمُ أنه يُشيرُ بذلك إلى زوجته التي لم يتمكن من تطليقها لأنه ينتسب إلى المذهب الكاثوليكي) " إنها هي وراء هذا كله. كما تعلم..."، ورماني بإحدى تلك الغمزات الكبيرة الزلاّقة كالتي لجأ إليها جورج مارشال.

هنا بدأ يعبث بأصابعه، وكأنَّه يكوِّر كرة صغيرة. في أول الأمر لم ألاحظها، ولكن بعد أن أخذ يكرِّر الحركة عدداً من المرات أدركتُ إلام كان يُلمِّح.

" أوه، الحب ... "

هنا رفع إصبعاً، ووضعه على شفتيه، وأطلق، بصوتٍ لم يكد يسمع، هسسسسسسس.

أخرجت الحُبيبة من جيب صدرتي وفتحتها. وظل تشارلي يهزُّ رأسه بوقار، ولكن دون أن يندّ عنه صوت. وسلّمته الرسالة ليقرأها، فأعادها إليّ وقرأتُها بإمعانٍ. ثم أعدتُها إليه فعمد ببطء إلى إحراقها. كانت الرسالة مكتوبة باليابانية. وترجمتها تعني: " نحن الآن متّحدون في أخوّة لا تنفصم. النهاية هي نفسها البداية. حافظ على آداب السلوك الصارمة "

جاءت لتشارلي مكالمة هاتفية أجاب عليها بصوت منخفض، وقور. وأخيراً قال: " أدْخِلهُ بعد بضع دقائق "

" أوبسيبريسيكفتيزي سيدخل بعد قليل. سوف يصحبك حتى يوكوهاما "

كدتُ أهمُّ بسؤاله إن كان يمكن أن يتلطّف ويوضّح لي أكثر قليلاً، وإذا به يستديرُ فجأةً حولَ نفسِهِ وهو على كرسيه الدوّار ثم يُقحِمُ صورةً فوتوغرافية تحت أنفي.

" أنت تعرفها، طبعاً؟ ". ومرة أخرى وضع إصبعه على شفتيه.

" عندما ستراها في المرة التالية ستكون في طوكيو، ربما في البلاط الداخلي ". هنا مدَّ يده إلى داخل الدَرَج السفلي لطاولة مكتبه وأخرجَ صندوقَ حلوى مكتوبٌ عليه "هوبْجِس"، وهو الصنف الذي كنا أنا ومونا نعمل على بيعه. ففتحه بحذرٍ شديد وعَرَض عليّ محتوياته: بطاقة تهنئة بمناسبة عيد الحب، وجديلة كما بدا أنه من شعر مونا، ونموذج مصغَّر لخنجر ذي مقبض من العاج وخاتم زواج. تفحّصتها بإمعانٍ، دون أن ألمسها. وأغلق تشارلي الصندوق وأعاده إلى الدُرج. ثم غمزني غمزة، ورفْرَفَ طيّة صدرة سترته وقال " أوهايو! "، فكرَّرت من بعده: " أوهايو! "

فجأة استدار حول نفسه من جديد وأقحم الصورةَ الفوتوغرافيةَ تحت أنفي. هذه المرة كان وجهاً مختلفاً. ليس وجه مونا، بل وجه شخص يشبهها، غير واضح الجنس، ذو شعر طويل ينهمر على الكتفين، كشعر هندي. وجهٌ مذهلٌ وغامضٌ، يذكّر بذاك الملاك الرجيم، رامبو. وانتابني شعور قلق. وبينما أنا أحدِّق، قَلَبَها تشارلي؛ فإذا على الجانب الآخر صورة فوتوغرافية لمونا ترتدي زي امرأةٍ يابانيةٍ، وقد صُفِّفَ شعرها على الطريقة اليابانية، وعيناها تنظران إلى أعلى، والجفنان مُثقلان، يضفيان على العينين مظهر شقِّين مظلمَين. وراح يقلِّب الصور جيئة وذهاباً عدة مرات. وسطَ صمتٍ رهيب. وعجزْتُ عن فهم مغزى هذا العرض.

هنا دخلَ الخادمُ ليُعلن وصول أوبسيبريكسفيزي. وقد لفظَ الاسم وكأنه أوبسيكي. فدخلَ رجلٌ نحيل، طويل القامة، بخطى سريعة، واتّجه مباشرة إلى تشارلي، الذي خاطبه بـ " السيد الرئيس " وباشرَ خطاباً دوّاراً لفّافاً بالبولونيّة. ولم يكن قد لاحظَ وجودي البتّة. ومن حُسن حظه أنه لم يفعل وإلا لكنتُ ارتكبتُ هفوة خطيرة وناديته باسمه الحقيقي. وكنت قد بدأت لتوي أفكّر كيف أن الأمور كانت تسير سيراً رخياً عندما كفَّ صديقي القديم ستيسو، ولا أحد غيره، عن الكلام بالسرعة نفسها التي بدأ بها.

سأل بطريقته الجافة المقتضبة، المتغطرسة، وهو يشير إليّ " مَنْ هذا ؟"

قال تشارلي " أمعنْ النظر "، وغمز بعينه، أولاً باتجاهي، ثم لستيسو.

قال ستيسو، وهو يمدّ يده بحقد، " أوه، هذا أنت "، ثم قال، مخاطباً الرئيس " أين مكان هذا في الصورة؟ "

قال تشارلي بلطفٍ " عليك أنت أن تحدِّد ذلك "

غمغم ستيسو " همم، لم يكن دهره يُحسِن عمل أي شيء. إنه فاشل قلباً وقالباً "

قال تشارلي، بهدوء تام، " نحن نعرف هذا كلّه، ولكن لا بأس "، وضغطَ على زر فظهرَ خادمٌ آخر، " أوصِل هذين السيدين إلى المطار بسلام، غريسوولد. استخدم سيارتي ". ثم نهضَ وصافحنا. وقد كان سلوكه يتطابق تماماً مع شخصٍ يشغَلُ منصباً رفيعاً جداً. وشعرتُ أنه بحقّ رئيس جمهوريتنا العظمى، بل ورئيس داهية كبير، وذو مقدرة وحتى أخمصيه. وحالما وصلنا إلى العتبة هتف: " أخوة إلى الأبد! "، فاستدرنا، وحيّيناه بالطريقة العسكرية، وكررنا:

" أخوة إلى الأبد! "

لم يكن هناك أضواء على الطائرة، ولا حتى في داخلها. ولزم كلانا الصمت بعض الوقت. وأخيراً تدفَّقَ ستيسو في سيلٍ من الكلام البولوني. وقد بدا لي مألوفاً بشكلٍ غريب ومع ذلك كنت عاجزاً عن فهم أية كلمة ماعدا كلمة pan و pani.

ناشدته قائلاً " تحدّثَ بالإنكليزية، أنت تعرف أني لا أتكلَّم البولونية"

قال " ابذِلْ جهداً وسوف تتذكَّر. لقد كنتَ تتكلَّمها ذات يوم، لا تتظاهر بالغباء. إن البولونية هي أسهل اللغات قاطبةً. هيا، افعل ما يلي ... "، وبدأ يُصدِر أصواتاً هاسَّة، صافرة، وكأنه أفعى في دورتها النزويّة. " والآن اعطسْ! جيد. والآن تغرغر؟ جيد. والآن لُفّ لسانك إلى الخلف مثل سجادة وابتلع! جيد. أترى ... سهلُ جداً. المبادئ هي ستة

أحرف صوتيّة، واثنا عشر حرفاً ساكناً وخمسة أحرف علّة. فإذا التَبَسَتْ ابصقْ أو أطلق صفيراً. إياك أن تغالي في فتح فمك. امتصّ الهواء وادفع بلسانك إلى شفتيك المُطبَقَتين. هكذا. وأسرع في الكلام. وكلما أسرعتَ كان أفضل. ارفع صوتك قليلاً ن وكأنك تنوي أن تغنِّي. مظبوط. والآن أُطْبِقْ حنكك وتَغْرغَرْ. عظيم! إنك تتقدَّم. والآن كرِّر بعدي، ولا تتلعثم: Ochizkishyi seiecsuhy plaifuejticko eicj-cyciu! ممتاز! أتعرفُ ماذا تعني - تعني " طعامُ الإفطار جاهز! "

كنتُ أطفرُ فرحاً لطلاقتي. وتدرَّبنا على عددٍ من العبارات المبتذلة، مثل " طعام العشاء جاهز "، " الماء حارّ "، " ثمة رياحٌ قوية تهبُّ "، " حافظ على النار مشتعلة " وما إلى ذلك. وكنتُ أتذكَّرها على الفور. كان ستيسو على حق. فكل ما كان عليَّ أن أفعله أن أبذلَ بعضَ الجهدِ وإذا بالكلمات تقفز إلى طرف لساني.

سألته بالبولونية، فقط من باب تغيير نوعية الهراء، " إلى أين نحن ذاهبون الآن؟ "

أجاب " Izn Yotzxkiueoeumasysi "

حتى هذه الكلمة الطويلة تذكَّرتها. غريبةٌ هذه اللغة الولونية. إنها معقولة، حتى ولو اضطررتَ إلى أن تقوم بحركاتٍ بهلوانيّة بلسانك. كان تمريناً مفيداً، يجعل اللسان لَدناً، وبعد ممارسةِ اللغةِ البولونية ساعةً أو ساعتين سأكونُ أكثر من مؤهَّل لمواصلة دراستي اللغةَ اليابانية.

قلتُ " ماذا ستفعل حين نصل؟ "، بالبولونية طبعاً.

قال " Drnzybyisi uttituhy kidjeueycmayi "، وتعني، بلغتنا العاميّة " لا تستعجل ".

ثم أضاف، مع بعض التجديف، الذي نسيتُهُ، " ابقِ فمك مغلقاً وعينيك مفتوحتين. انتظر الأوامر "

طوال ذلك الوقت كله لم يَفِه بكلمة واحدة عن الماضي، عن أيام فتوتنا في جادّة دريغز، عن عمَّته العجوز الطيبة التي كانت تطعمنا من الثلاجة. وكانت مخلوقةً محبوبة جداً، عمَّته تلك. كانت دائماً تتكلّم - أي بالبولونية - وكأنها تغنّي. إن ستيسو لم يتغيَّر أبداً. ظلَّ كعهده دائماً، حروناً، متحدّياً، كئيباً، مزدرياً. وتذكَّرتُ الخوفَ والرعب اللذان كان يبثّهما فيَّ وأنا صبي - حين يفقد أعصابه. حينئذ كان شيطاناً حقيقياً. كان يقبض على سكين أو بلطة ويهجم عليَّ بسرعة البرق. والوقتُ الوحيدُ الذي كان فيه لطيفاً وكريماً هو حين كانت عمته تُرسلُهُ ليشتري السوركروت. وكنا نسرقِ منه قليلاً ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل. وكان لذيذاً، ذلك السوركروت النيئ. وكان البولونيون مولعين بأكله وَلَعَاً خرافياً. به وبالموز المقلي. الموز الرخو والزائد الحلاوة.

بدأت الطائرةُ تحطُّ. لابد أنها يوكوهاما. ولم أتمكَّن من رؤية أي شيء؛ كان المطار بأكمله مغموراً بالظلام.

فجأة أدركتُ أني وحيد في الطائرة. أخذت أتحسَّسُ فيما حولي في الظلام ولكن لا أثرَ لستيسو. وناديته بصوتٍ هادئ، ولكن لا جواب. وتملّكني رعبٌ معتدل. وبدأتُ أتعرَّقُ بغزارة.

حين غادرتُ الطائرة هرعَ يابانيان إلى استقبالي، وهما يهتفان "أوهايو! أوهايو! ". وكرَّرتُ بدوري " أوهايو! ". انطرحنا في عربتيّ جرّ للركّاب، وانطلقنا قاصدَين المدينة الحقيقية. كان واضحاً أنه لا وجود التيار الكهربائي - لا شيء غير المصابيح، وكأننا في مهرجان. المنازل

كلها مصنوعة من البامبو، وهي أنيقة ومرتّبة؛ والأرضيّة مُعَبَّدة والمباني خشبيّة. وكنا بين حينٍ وآخر نعبُرُ جسراً خشبياً صغيراً، كالتي نراها في الرسوم العتيقة.

حين بدأنا نلج فناء قصر الميكادو كان الفجرُ قد بدأ يبزغ.

كان من المفترض عندئذ أن تكون رجفةُ الرهبةِ قد بدأت تتملّكني، ولكن بدل ذلك كنتُ هادئاً، ومتمالكاً لنفسي تماماً، ومستعداً لأي احتمال. قلت في نفسي، وأنا مسرور بحصافتي، " سوف يتّضح أن الميكادو هو صديقٌ قديم آخر لي "

ترجَّلنا أمام مدخل هائل الحجم مدهونٍ بألوان صارخةٍ، وبدّلنا ملابسنا وانتعلنا القباقيب الخشبية وزيّ الكيمونو، وسَجَدْنا مراتٍ عِدَّة، ومن ثم رحنا ننتظر فتحَ البوابة.

أخيراً فُتِحَتْ البوابة الضخمة دون أي صوت، وتقريباً بشكلٍ طيفيّ، وإذا بنا وسط فناءٍ صغيرٍ مستديرٍ، بلاطُهُ مُرصَّعٌ بعِرق اللؤلؤ وبأحجارٍ كريمةٍ. وفي منتصف الفناء قام تمثالٌ هائلُ الحجمِ لبوذا. وكان تعبير وجه بوذا في وقتٍ واحدٍ وقوراً وملائكياً. وانبثقَ منه شعورٌ بالسكينة لم أعرفُ له مثيلاً. شعرتُ أني قد انجرفتُ إلى دائرةِ النعيم. وبدا لي كأنَّ الكونَ كله قد خيَّمَ عليه سكونُ وجدٍ صوفيّ.

تقدَّمتْ امرأةٌ منا قادمةً من أحد المداخل المقنطرة الخفيّة. وكانت ترتدي زيّ التشريفات وتحملُ بيدها إناءً مقدَّساً. ولدى اقترابها من تمثال بوذا تغيَّرَ كلُّ شيء. أصبحت الآن تتقدَّم بخطى راقصة على إيقاعِ موسيقى غريبة متنافرة الأنغام، هي أصواتُ حادةٌ متقطِّعةٌ يُصدِرها خشبٌ، وحجارةٌ، وحديدٌ. عندئذٍ أخذ راقصون يتوافدون من كل المداخل

حاملين رايات مرعبة، ووجوههم مستترة خلف أقنعة بشعة. وبينما هم يشكّلون دائرةً حول تمثال بوذا كانوا ينفخون في محارةٍ أذنيّة ضخمة تُصدرُ أصواتاً غريبة. وفجأة انسحبوا وتركوني وحدي في الفناء، أواجه حيواناً ضخماً يشبه الثور. وكان الحيوان جاثماً على مذبح حديدي بدا أقرب شبهاً بمقلاة. ثم أدركتُ أنه ليس ثوراً وإنما مينوطور. كانت إحدى عينيه مغمضةً في استكانةٍ، والأخرى تحدِّقُ إليّ، ولكن بودٍّ. وفجأة بدأتْ هذه العينُ الهائلةُ الحجم تغمز لي، بحياءٍ، وبغنجٍ، مثل امرأةٍ تقف تحت أحد أعمدة النور في شارعٍ من حيٍ وضيعٍ من المدينة. وكان أثناء غمزه يلتفُّ أكثر حول نفسه، وكأنَّه يستعدُّ ليُقلى. ثم أغمضَ العينَ الهائلةَ الحجم وتظاهرَ بأنه يغفو. وكان بين حين وآخر يرفُّ جفن تلك العين الضخمة التي كانت تغمز بحركات غاية في الهزل.

اقتربتُ من الوحش المخيف خِلسةً، على أطراف أصابع قدميّ، وببطءٍ مؤلم. وحين أصبحتُ على مسافةٍ بضعة أقدام من المذبح، الذي كان يتّخذ بوضوحٍ شكلَ قدْرٍ ضحلٍ كما اتّضحَ لي عندئذ، أدركتُ مع رعبٍ أنَّ ألسنةَ لهبٍ صغيرةٍ تلعقه من أسفل. وبدا المينوطور يتحرَّكُ ببطء في عُصَارته، مستمتعاً. ومن جديد راح يفتحُ عينه. وكان تعبيرُ وجهه هزلياً صرفاً.

اقتربت أكثر فشعرتُ بالحرارة تنبعثُ من ألسنةِ اللهبِ الصغيرةِ تلك، واستطعتُ أيضاً أن أشمَّ نتانة جلد الحيوان المحروق. وتخدَّرتُ من فرط الرعب. بقيتُ واقفاً هناك، مثبَّتاً، والعرق يسيلُ على وجهي جداول.

فجأة قفز الوحشُ مرة واحدة معتدلاً، وأخذ يتوازنُ على قائمتيه

الخلفيتين وأدركتُ برعبٍ يُثيرُ التقيّؤ أنَّ له ثلاثةَ رؤوسٍ. وكانت العيون الستة كلها مفتوحةً واسعاً وتنظرُ إليّ شذراً. حدّقتُ بكآبةٍ وأنا متحجّرٌ إلى الجلد المسفوع ينشقُّ، كاشفاً عن طبقة تحتيّة من الجلد بيضاء ناصعة وملساء كالعاج. ثم بدأتْ الرؤوسُ بدورِها تستحيلُ بيضاءَ، فيما عدا الأنوف الثلاثة والخطوم التي كانت بلونٍ قرمزي براّق. وكانت تحيطُ بالعيون دوائرُ زرقاء، زُرقةَ الكوبالت. وعلى كل جبهة كانت نجمةٌ سوداء، تتلألأ كنجومٍ حقيقية.

الآن بدأ الوحشُ، ولا يزالُ يتوازنُ على قائمتيه الخلفيتين، يغنّي وهو يرفعُ رأسه باطرادٍ إلى أعلى، ويرمي عالياً عرفه، ويدير عيونه الستة المخيفة الشذراء النظرة في محاجرها.

غمغمت بالبولونية، وأنا أوشك أن أغيبَ من فوري في نوبةِ إغماء، " يا أم الرب! "

الأغنية التي بدت للوهلة الأولى أشبه بأغنيةٍ استوائية، أخذت تتّضح أكثر فأكثر. وأخذَ الوحشُ، بمهارةٍ خارقةٍ، ينتقلُ برهافةٍ وسرعة، من مقدرة صوتية إلى أخرى، ومن مقامٍ موسيقي إلى آخر، وإلى أن أخذ أخيراً يترنَّمُ، بصوتٍ صافٍ وجليّ، نشيد " راية النجوم والأشرطة ". وأثناء مواصلة النشيد الوطني، كان جلد المينوطور الأبيض الجميل يتحوَّلُ من لون الأبيض إلى الأحمر ومن ثم إلى الأزرق. والنجوم السوداء على الجبهات صارت ذهبية اللون، تلمعُ مثل إشارةِ تنظيم مرور القاطرات.

لمّا عجزَ عقلي عن متابعة هذه التبدُّلات المحيِّرة، أصبحَ فارغاً. أو ربما حصلَ له تعتيمٌ حقيقي. مهما يكن، الشيء التالي الذي أذكره هو أن المينوطور اختفى، ومعه المذبح. وعلى بلاط الأرضيّة الجميل ذي لون

الخبَّازي، في الحقيقة هو لون خبازيّ ووردي باهت، تلألأت عليه الأحجارُ الكريمةُ المرصّعةُ مثل نجومٍ نارية، وأخذت امرأةٌ عاريةٌ ذات تناسبٍ جَسَديٍّ شهوانيّ وفمٍ أشبه بجُرحٍ حيّ ترقصُ رقصةَ هزِّ البطن. كانت سُرَّة بطنها، التي كبرتْ حتى أضحَتْ بحجمِ دولارٍ فضي، قد دُهِنَتْ بلونٍ قرمزي صارخٍ؛ وكانت تضعُ عُصابةً على رأسها وكان رسغاها وكاحلاها مرصّعةً بالأساور. وكان يمكن أن أتعرَّفَ عليها لو رأيتها في أي مكان، سواء أكانت عاريةً أم ملتفّةً ببطانة قطنيّة. وقد أنبأني شعرها الذهبي الطويل، وعيناها الشبقتان النهمتان. وفمها الفائق الحسّيّة، بأنها، دون أدنى شك، ليست إلا هيلين رايلي. ولو لمْ تكن مُحِبَّةً للتملُّك بضراوة، لما كانت الآن جالسةً في البيت الأبيض مع تشارلي الذي كان قد هجرها. لكانت السيدة الأولى على البلاد.

لم يتوفَّر لي الوقتُ الكافي للتفكير. لقد أُرسِلَتْ معي على متن الطائرة، وهي عارية تماماً وتنضحُ بالعَرَق وبالعطر. وحلّقنا مرة أخرى - عائدَين إلى واشنطن، بلا ريب. فقدَّمتُ لها الكيمونو خاصتي لكنها نحَّتْه جانباً بيدها. إنها مرتاحةٌ وهي كما هي، شكراً لك. كانت جالسةً قبالتي، وركبتاها مرفوعتين حتى ذقنها تقريباً، وساقاها منفرجتين بوقاحة، وتنفخُ دخان سيجارة. تساءلتُ عمّا سيقوله رئيس الجمهورية - أي تشارلي - حين سيقع نظره عليها. لطالما أشارَ إليها على أنها عاهرة فاسدة، فاسقة. على أي حال، لقد أحسنتُ عملاً. إنني أُعيدُها، وهذا هو المهمّ. ولا شك في أن تشارلي قد نوى أن يحصل على أحد أحكام الطلاق التي لا يمكن إلا للبابا أن يمنحها.

طوال فترة الرحلة بالطائرة كانت لا تني تدخِّن سيجارة بعد أخرى،

وهي محافِظَةٌ على جلستها الصفيقة، وترميني بنظرتها الشذراء، وترنو إليّ بهيامٍ، وتجيشُ نهديها الكبيرين، بل وتداعبُ نفسها بين حينٍ وآخر. وكان ذلك يفوقُ طاقتي على التحمُّل: أغمضتُ عينيَّ.

حين فتحتهما كنا نرتقي درَجَ البيت الأبيض، يحاصرنا طوقٌ من الحرّاس ليستروا الجسد العاري لزوجة رئيس الجمهورية. وتبعتُها وأنا أراقبُ بافتتان صرفٍ طريقتها في هزّ ردفيها المنخفضين برفق. ولو لم أكن أعرف مَنْ تكون لحسبتُها إحدى راقصات هزّ البطن من مينسكي... بل لحسبتها كليو ذاتها.

حين فُتِحَ باب البيت الأبيض تلقّيتُ مفاجأة حياتي؛ لم تعد تلك الغرفة التي استقبلني فيها رئيس جمهوريتنا العظمى؛ كانت داخل منزل جورج مارشال. وكانت هناك مائدةٌ ذات أبعادٍ هائلة تحتلُّ كامل طول الغرفة تقريباً. وقد انتصبَ عند كلٍ من أطرافها شمعدانٌ ضخم. وكان أحد عشر رجلاً يجلسون حولها، وكل واحد منهم يحمل بيده كأساً؛ ذكّروني بتماثيل الشمع في متحف مدام توسّو. ولا حاجة بي إلى القول إنهم كانوا الأعضاء الأحد عشر لنادي " المفكِّرين العميقين " الأصلية، كما كنا نسمِّي أنفسنا. والكرسي الخالي كان كما هو واضح مخصّصاً لي.

عند أحد طرفيّ المائدة جلسَ رئيسنا الحقيقي، جورج مارشال. ولدى صدور إشارة معيّنة نهضَ الجميع واقفين بكل رصانة، ورفعوا كؤوسهم، وصاحوا صيحةَ ترحيبٍ تصمُّ الآذان " برافو، هن! برافو! ". ومن ثم انقضّوا جميعاً جالسين معنا، ثم أمسكوا بهيلين من ذراعيها وساقيها، ورموا بها إلى مائدة اللقاء الحميم. أمسك تشارلي يدي بقوة وراح يكرِّر بودّ "

أحسنتَ صُنعاً، يا هن! أحسنتَ صُنعاً! "، وأخذت أصافحُ كلاً بدوره، وكنتُ أتبادلُ الإشارة القديمة مع كلٍ منهم - أي أن أدغدغَ باطن كفّه بسبابتي. وكانوا جميعاً يبدون باطّراد محافظين على أحسن حالاتهم - أقول " محافظين " لأنه، على الرغم من دفْء ومودَّة تحيّتهم كان هناك تصنُّع ما، شيء أشبه بالشمع يحيط بهم. ومع ذلك، فقد سَرَّني أن أراهم جميعاً. قلتُ في نفسي، كما في الأيام الماضية. بيكر، مع صندوق آلة الكمان المهترئ؛ وجورج غريفورد، الذاوي والمنكمش كما كان دائماً، ويتكلّم من أنفه؛ وستيف هيل، ضخم وصخّابٌ متبجِّح، يحاول أن يبدو حتى أكثرَ أهمية من أي وقت آخر؛ ووودرَف، وغريغوري، وآل برغر، وغريمي، وأوتو كونست، فرانك كارول. وقد سعدتُ كثيراً لرؤيتي فرانك كارول. كانت له عينان بلون الخزامى برموشٍ كبيرة، كرموش فتاة. وكان يتكلّم بنعومة وبرقّة، وبعينيه أكثر منه بفمه. كان وسطاً ما بين كاهن وجيغولو.

جورج مارشال هو الذي أعادنا إلى أرض الواقع. كان يدقُّ على الطاولة بمطرقة. " يُطلَب من المجتمعين التزام الهدوء ". وعاد يدقُّ بقوة فعدنا جميعاً كلٌ إلى مكانه المخصص على الطاولة. واكتملتْ الدائرة، أصبحتْ نهايتها كبدايتها. متَّحدون في الأخوَّة، لا ننفصم. كَمْ كان كلّ شيء واضحاً! كان كل واحد يضع دبوسه المخطوط عليه أحرف مذهّبة لعبارة " أخوة إلى الأبد ". عاد كل شيء كسابق عهده دائماً حتى بالنسبة إلى أم جورج مارشال التي كانت تخبُّ رائحة غادية من المطبخ، وذراعاها محمّلتان بأطايب الطعام. ورحتُ دون وعي مني أُمعِنُ النظرَ في جانبها الخلفي العريض. ألم يقُل جورج مارشال ذات مرة إنَّ الشمس تشرق وتغرب في طيزها؟

كـانت هناك نقطة مـزعـجة واحـدة ووحيـدة حـول هذا الـتجـمُّع، وهو حضـور زوجة تشـارلـز رايلي (عـارية تماماً). وهاهي ذي تقف في وسط المائدة الطويلة، صفيقة ووقحة كعادتها دائماً، وسيجارة بين شفتيها، تنتظر أن يحينَ دورُها. ولكن، وهذا حتى أشد غرابة، وأكثر إزعاجاً لي، لم يبدُ أنَّ أحداً أولاها أي انتباه. ونظرتُ في اتجاه تشارلي لأرى كيف يتقبَّلُ الأمرَ، فبدا غير قلق، وهادئ، ويتصرَّف بالطريقة نفسها التي تصرَّفَ بها حين كان يتلبَّس شخصية رئيس تلك الولايات المتحدة.

الآن بات صوت جورج مارشال مسموعاً. قال " قبل أن نتابع قراءة محضر الجلسة، أريد أن أقدِّم لكم يا شباب عضواً جديداً في النادي. إنها العضو المؤنث الأول والوحيد بيننا. وهي سيدة بكل معنى الكلمة، هذا إذا أردت أن أكذب ككلب. لعلَّ بعضكم قد تعرَّفَ عليها. على أي حال أنا متأكد من أن تشارلي عرفها ". ورسمَ أمامنا تكشيراً زلاّقاً، يقصد منه الابتسام، ثم أسرعَ يتابع " أريد منكم يا شباب أن تفهموا أنَّ هذا الاجتماع هام. وصاحبنا " هن " هنا قام لتوِّه بزيارة لطوكيو وعاد منها - ولن أذكر الآن داعي تلك الزيارة. وأريد منكم يا شباب، في نهاية هذه الجلسة، وهي سرِّية، بالمناسبة، أن تقدِّموا إلى هم شهادةَ تقديرٍ صغيرةٍ أعددناها له. لقد كانت مهمته مهمةً خطرة وقد نفَّذها حرفياً ... والآن، قبلَ أن نباشر العمل المطروح بين أيدينا، وهو بشأن حفلة البيرة التي ستُقام في منزل غريفورد في ليلة يوم السبت القادم، سوف أطلب من السيدة الصغيرة (هنا ألقى نظرة شذراء ورسم ابتسامةً متكلِّفةً) أن تقوم بإحدى اختصاصاتها. ولا أعتقد أني مضطر إلى أن أقول لكم أن هذه النمرة هي نمرة الهوتشي كوتشي المشهورة. لقد أدَّتها أمام الميكادو

- ولا أرى مبرراً يمنعها من أن تؤديها أمامنا. على أي حال، سوف تلاحظون أنها لا تضعُ على جسدها أي شيء، ولا حتى ورقة تين ". ولما بدا أن صَخَبَاً يهدِّدُ بالاندلاع، دقَّ بصرامة بمطرقته. " قبل أن تؤدي نمرتها دعوني أقول لكم ما يلي يا شباب - إنني أتوقّع منكم أن تتابعوا العرض بلياقة تامة. لقد أعددنا هذا العمل المثير والبارع، هم وأنا، لكي نثير مزيداً من الاهتمام بنشاطات النادي. لقد كانت اللقاءات القليلة الأخيرة مخيّبة تماماً للآمال. ويبدو أنَّ روحَ النادي الحقيقية قد اضمحلَّت. وهذا اجتماعٌ خاصٌ القصدُ منه نشر روح الصحبة القديمة ... "

هنا دق ثلاث دقّات سريعة بالمطرقة، وعلى الأثر بدأ مكبِّر صوت موجود في المطبخ يبثُّ لحن سينت لويز بلوز. وقال بود وحب " هل الجميع سعداء؟ حسن، هيلين، قومي بعرضك! وتذكَّري! انفضي ذاك الغبار! "

أُزيحتْ الشمعدانات إلى خوانٍ مُسند إلى الجدار؛ ولم تنطفئ إلا شمعتان. وبدأت هيلين تلفُّ وتتلوى بأسلوبِ الأقدمين الفخيم. وكان ظلّها يُكرِّرُ حركاتَها على الجدار الآخر بأسلوبٍ مبالغ. كانت تؤدي نسخةً يابانيّة من رقصة هزّ البطن. حتى كان يمكن القول إنها كانت تتدرَّب على أدائها منذ طفولتها. وكانت تتحكَّم في كل عضلة من جسمها. حتى عضلات وجهها كانت تستخدمها استخداماً خارقاً. خاصة حين تحاكي الحركات التشنجيّة لهزّة الجماع . ولم يتزحزح أي منا نحن الاثنا عشر عضواً عن جلسته القائمة الصارمة. جلسنا هكذا كحيوانات فقمة مدرَّبة، أيدينا لا تأتي بحركة، وعيوننا تتابع أقلّ حركة، والتي، كما علمنا، كان لكلٍ منها معناه الخاص، ومع تلاشي آخر نغمةٍ سقط جورج غريفورد عن كرسيه مغشياً عليه. قفزتْ هيلين عن الطاولة وهرعت إلى

المطبخ. ودقّ جورج مارشال بهمجية بمطرقته. وأمر قائلاً " جرّوه إلى الشرفة، واغمسوا رأسه في الدلو! أسرعوا! يجب أن نتابع سرد وقائع الجلسة ". وقد أثار هذا بعض الدمدمة والهمهمة. فصرخ جورج مارشال "عودوا إلى أماكنكم! إن هذا مجرد إجراء تمهيدي. لا تخلعوا قمصانكم وسوف تحصلون على متعة حقيقية. وبالمناسبة، كل مَنْ يشعر برغبة في الاستمناء فلينصرف وليذهب إلى المرحاض "

نهض الجميع، ماعدا جورج مارشال وأنا، دفعةً واحدةً وخرجوا.

قال جورج مارشال بنبرة يأس كامل، " هاأنت ترى ما أنت مُقدِمُ عليه. لا فائدة من أي شيء نعدّه لهم. سوف أقوم بخطوة لحلّ النادي وأريد أن أعلن هذا أثناء قراءة محضر الجلسة بشكلٍ نظاميّ "

ناشدته " يا إلهي، لا تفعل! إنهم قبل كل شيء مجرد بشر "

قال جورج مارشال " هنا أنت مخطئ. إنهم جميعاً من النخبة، وعليهم أن يكونوا أعقل. وفي آخر مرة لم نحصل حتى على النِصَاب "

" ماذا تقصد بقولك عليهم أن يكونوا أعقل "

" إن الآداب الاجتماعية تتطلّب منك ألاّ تُظهِر أي مشاعر. إن تسعة منهم يستمنون هناك. والعاشر أغمي عليه. إلام نحن منتهون؟ "

" ألستَ قاسياً عليهم قليلاً؟ "

" يجب أن أكون كذلك يا هن. لا يمكن أن نظلّ نُدللهم إلى الأبد؟ "

" ومع ذلك، أعتقد ... "

" اسمع، هن "، ثم بدأ يتكلّم بسرعة أكبر، ويخفض نبرة صوته أكثر فأكثر، " لا أحد غير تشارلي وأنا نعرف سبب توجُّهك إلى طوكيو. لقد قمتَ بعملٍ جيد. إنهم يعرفون كل شيء عن الأمر في السلطات

العليا. إنها مجرد خدعة صغيرة نفّذتُها لأرمي الغبار في عيونهم. وبعد انتهاء الاجتماع سوف نصحب، أنت وتشارلي وأنا، هيلين ونذهب لنمرح قليلاً. لم أكن أرغب في أن يفقدوا زمامهم وإلا كانوا مزّقوها إرباً. إنها تُصلِحُ من شأنها فوق ... "، وغمز غمزةً غامضة ... " تأخذ دشاً ... مع قليلٍ من الشب، وبعض الذباب الهندي. في الواقع ... إن أمي تدلّكها الآن. انظر! "، وانحنى ليتناول شيئاً مخبّأً تحت الطاولة. " أترى هذا؟ ". كان قضيباً ذكرياً مطاطياً ضخماً مملوءاً بالماء. ضغط قليلاً فانبجس. " أفهمت الفكرة؟ هذا من أجل تشارلي. لا تفُه بأي كلمة عنه. ستكون مفاجأة. ليس من المسلّي أن تكون رئيساً. إنه لم يمارس الجنس منذ أكثر من عام. هناك ما يكفي من الماء في هذا " - وهزّ القضيب الذكري المطاطي ببذاءة - " بما يكفي لجعلها تتبوّل من أذنيها، وعينيها وأنفها "

" سيكون هذا مسلّياً يا هن. وطبعاً كل شيء سيتمُّ بهدوء. وأمي مشتركة فيه، لكنها لن تحرّك ساكناً. وكما قلت لك ذات مرة، كما تذكر، إنَّ الشمسَ تشرقُ وتغربُ في طيزها "

ثم أضاف شيئاً صعقني تماماً، شيئاً غير متوقَّع أبداً من جورج مارشال. لقد قال " إليك ما يلي يا هم، وهو يناسب ذوقك بالضبط: إن الرجل الهندي يحب أن يرى انحناءة الخصر تحت ثقل الثديين والعجزين، ويحبُّ الأشكال الطويلة والمستدقّة والتموُّج الفريد للعضلات حين تمور الحركة في أنحاء الجسد كله. ولا يعود للبطولة والبذاءة من الأهمية في حياة الكون أكثر مما لعراك أو تزاوج زوجٍ من الحشرات في الغابة. يصبح كل شيء سواء "

مرة أخرى غمزني تلك الغمزة الهائلة الغامضة التي أرعبتني أيّما رعب. " أفهمت ما أعني، هن؟ وكما كنت أقول قبل قليل، لقد نَضَبَ الحافزُ القديمُ؛ وعلينا أن نفتِّش عن دمٍ جديد. أنت وأنا نتقدَّم في السن، ولم يعد في وسعنا أن نقوم بخدعنا القديمة تلك بالنشاط والحيوية نفسيهما. وعندما ستنشب الحرب سوف أنضمُّ إلى سلاح المدفعية "

" أي حرب، يا جورج؟ "

أجاب: " كفاني من ذاك العمل البهلواني "

كان بقية الأعضاء قد بدأوا يعودون تِباعاً من المرحاض. ولم أكن قد رأيت دهري لوطيين مُنهَكين، مُستهلَكين، متهدِّمين مثلهم. قلت في نفسي " معه حق، يجب أن نفتّش عن دمٍ جديد "

بهدوء عاد كلٌّ منهم إلى مكانه المخصص على الطاولة، وكانت رؤوسهم تذوي مثل أزهار ميتة. وقد بدا بعضهم وكأنه غائب في نشوة عميقة. وكان جورج غريفورد يمضغ عوداً من الكرفس - يشبه إلى حدٍ كبير، فيما عدا اللحية، تيساً أبله عجوزاً. كانت المجموعة برمَّتها تبدو مُخزية حتى لعينين متقرِّحتين.

سمعتُ بضع دقّات من المطرقة ودُعيَ أعضاء اللقاء إلى التزام النظام.

باشرَ جورج مارشال بالقول، بصوتٍ صارمٍ، قاطع " فلينتبه اليقظى منكم! لقد أطلقتم على أنفسكم ذات يوم اسم المفكرين العميقين، وتعاضدتم معاً لتشكّلوا مقاطعة قائمة بذاتها، هي جمعية زيركس الشهيرة. إنكم لم تعودوا جديرين بالعضوية في هذه الجمعية السرّية. لقد انحططتم. وبعضكم أصيب بالضمور، وبعد قليل سوف أدعو إلى

التصويت لحلّ المنظمة. ولكن أولاً لديّ ما أقول لرئيسنا القديم، تشارلي رايلي ". وهنا دقّ عدة دقّات عنيفة على الطاولة بالمطرقة. " هل أنت يقظ، أيها التافه البائس؟ كلامي موجَّه إليك. اعتدل في جلستك! زرِّر فتحة بنطالك! والآن اسمع ... بالنظر إلى الخدمات المُنجَزَة، سوف أعيدك إلى البيت الأبيض لتخدم أربعة أعوام أخرى، هذا إذا ما أُعيدَ انتخابك. وحالما ينتهي الاجتماع أريدك أن ترتدي مذيلتك[٥٥] وبنطالك المخطط وترحل. إنك تتحلّى بما يكفي من الفطنة ما يجعلك تلبّي متطلبات مكتب الحرب. وإذا أمسكتَ لسانَكَ لن يُجاريكَ أحدٌ في الحكمَة. إنك مخزٍ، مُهان، مُذَلّ ". هنا التفتَ واستقطبَ انتباهي. " ما رأيك بهذا، يا هن؟ ماذا، أليس كل شيء مطبَّق وفق هويل[٥٦]؟ "، وأخفضَ صوته ثم همسَ، وقد أخذ يتكلَّم مرة أخرى بسرعة مرعبة، من زاوية فمه: " هذا من أجلك، خصيصاً ... إن الإنسان لن ينجح في تغيير أي شيء من مصيره النهائي، الذي سيعود عاجلاً أو آجلاً إلى حالة اللاوعي واللاشكل "

قال هذا ثم نهضَ واقفاً، ثم شدّني لأرافقه وانطلقنا إلى المطبخ، فاستقبلنا حجاب كثيف من الدخان: " كما كنت أقول يا هن، لقد أعددنا مفاجأة صغيرة لك "، وأخذ يبدِّد الدخان بالتفخ عليه. وعلى جانبي مائدة المطبخ وجدنا كلاً من مونا وتلك المخلوقة الغامضة ذات الشعر الأسود الطويل التي كنت قد رأيتُ صورة فوتوغرافية لها جالستين.

هتفت " ما هذا؟ "

---

٥٥ – المذيلة: سترة طويلة لها انفراج من الأمام والخلف ينتهي بطرفٍ مستدق، يرتديها الرجال في المناسبات الرسمية. – المترجم

٥٦ – ادموند هويل (١٦٧٢ – ١٧٦٩): واضع كتاب موثوق حول أصول لعب الورق. – المترجم

" إنها زوجتك وصديقتها. سحاقيتان ضخمتان "

" وأين هيلين؟ "

" عادت إلى طوكيو. وسوف نستخدم هاتين كبديل "، ووكزني وكزةً قويةً وغمزني غمزة غامضة.

قال " سيحضر كرومويل حالاً، وعليك أن تشكره هو على هذا "

كانت مونا وعشيقتها منهمكتين أيّما انهماك في لعب البوكر حتى أنهما لم توليانا نظرةً عجلى واحدة. وبدتا غاية في المرح والصَخَب. وكانت المخلوقة الغريبة ذات الشعر الطويل تتحرَّك وكأنها مزدوجة المفاصل؛ وكان لها شارب رقيق، وثدياها صلبان، وترتدي بنطالاً من المخمل مع شريطين ذهبيين مزركشين على طول الجانبين. كانت غريبة الأطوار حتى أطراف أصابعها. وكانتا بين حين وآخر تتبادلان الوخز بالإبرة.

قلت معلّقاً " زوجٌ رائعٌ. إن مكانهما المناسب هو الهيماركت "

قال جورج مارشال " دع الأمر لكرومويل، لقد أعدَّ كل شيء "

ما كاد يلفظ السم حتى سمعنا قرعاً على الباب.

قال جورج مارشال " هذا هو، دائماً يأتي في وقته "

فُتِحَ الباب بهدوء، وكأنه يستجيب لنابضٍ خفيّ. دخلَ رجلٌ يلفُّ جمجمته بعُصَابة ضخمة ملطّخة بالدم. ولم يكن كرومويل بأي حال؛ كان شلدون المجنون. فأطلقت زعقة ثم أغمي عليّ.

حين استعدتُ وعيي كان شلدون جالساً عند الطاولة يوزِّع أوراق اللعب، وقد أزالَ الضماد، وكان الدمُ يسيلُ باستمرار من ثقبٍ أسود صغير من خلفيّة جمجمته، ويجري على ياقته البيضاء ومنها على ظهره.

مرة أخرى شعرتُ أني سأُصَاب بالإغماء. ولما أحسَّ جورج بانزعاجي أسرعَ بإخراج سدّادة زجاجة من جيب سترته، وأقحَمَهَا في جرحِ الرصاصة، فكفَّ الدمُ عن النزف. وعندئذ بدأ شلدون يصفِّر بمرح تهويدة بولونية. وكان بين حين وآخر يقطع اللحن ليبصق على الأرض، وبعد ذلك يهمهم ببضع نغمات، بنعومة بالغة، برقّة متناهية، وكأنّه أمٌ تضمُّ وليداً إلى صدرها. وبعد أن هَمْهَمَ وصفّر، وبعد أن وزَّع بصاقه في كل اتجاه، تحوَّلَ إلى الترنُّم بالعبرية، وهو يحرِّك رأسه إلى الخلف وإلى الأمام، ويندب مُصدِراً اهتزازاً بطبقة صوت عالٍ، سينشج، ويئن، ويصلي. وكان يرتِّل بصوتِ قرار قوي ذي جهَارَةٍ مذهل. واستمرَّ على هذا فترةً طويلة. كان أشبه برجلٍ ممسوس. وفجأة انتقل إلى مقدرةٍ صوتيّةٍ أخرى، أضْفَتْ على صوته رنيناً خاصاً، وكأنَّ رئتيه مصنوعتان من صفيحة معدنية. الآن بات يرتِّلُ بلغةِ اليديش، لحناً ثملاً مملوءاً بالتجديف المتطرِّف واللعنات القذرة. "Die Hutzulies, fabrent soln sei wern ... Die Merder, geharget soln sei wern ... Die Gozlonem, unzinden soln sei sich... " هنا، وبينما هو يصرخ، أخذ الزَبَدُ يريِّل من فمه، ونهضَ واقفاً على قدميه وراح يدور حول نفسه كالدراويش، وهو يردِّد مراراً وتكراراً " Cossaken! Cossaken! " ويضربُ قدمه بقوة على الأرض والدم ينبجسُ غزيراً من شفتيه. المزمومتين. ثم أبطأ حركاته قليلاً، ومدَّ يده إلى جيب بنطاله الخلفي وأخرج سكيناً صغيراً ذا مقبضٍ لؤلؤي. وهنا أخذ يسوء أكثر فأكثر، وبينما هو يزعق " Cossaken! Hutzulies! Gozlonem! Merder! Fonie-Ganef! " كان يطعن نفسه بضرباتٍ متلاحقة، في ذراعيه، وفي ساقيه، وفي بطنه، وعينيه، وأنفه، وأذنيه، وفمه، حتى

أصبح كتلةً من الجراح. وفجأة توقّفَ. أطبقَ على كلتيّ المرأتين من عنقيهما وأخذ يضرب رأسيهما معاً - مرة بعد مرة، وكأنهما جوزتا هند. ثم حلَّ أزرار قميصه، ورفع صفّارة الشرطة إلى شفتيه، وأطلق صفيراً عنيفاً جعل الجدران تهتزُّ. وعندئذ اندفعَ أعضاء جمعية زيركس العشرة باتجاه الباب؛ وبينما كانوا يعبرون العتبة أخذ شلدون، الذي شَهَرَ مسدسه الآلي، يُرديهم قَتْلى واحداً بعد آخر، ويصرخ: "Amiese mshine of sei ... Hutzulies, Gozlonem, Merder, Cossaken!"

جورج مارشال وحده وأنا بقينا على قيد الحياة. وكنا كالمشلولين من فرط الخوف. وقفنا وظهرانا إلى الجدار، ننتظر أن يأتي دورنا وأخذ شلدون يقترب منا، وهو يطأ جثثَ القتلى وكأنهم أقرب إلى جذوع أشجار ملقاة، ويسدِّدُ مسدسه نحونا، ويحلّ أزرار فتحة بنطاله باليد اليسرى. قال بالبولونية " يا كلاب يا خروات! هذه آخر فرصة لكما لتصليا. صليا بينما أنا أتبوَّلُ عليكما، وليلسع بولي اللعين قلبيكما العفنَين! ناديا على باباكما الآن وعلى مريمكما العذراء! ناديا على ذاك الدجّال، يسوع المسيح! والقتلة سوف . gschissen أيها الـ Goyim النتنين الخروات! اضرطا ضرطتكما الأخيرة! "، وراح يصبُّ علينا بوله الأحمر المتبخِّر الذي كان ينخرُ جلودنا مثل الأسيد. وما أن انتهى حتى أطلق رصاصةً مباشرة إلى جورج مارشال؛ وانهارت الجثةُ على الأرض مثل كيسٍ من السماد.

رفعتُ يديَّ عالياً وزعقتُ قف! لكن شلدون كان قد أطلق النار لتوّه. وبينما كنت أنهارُ على الأرض رحتُ أصهلُ كحصان. ورأيته يرفعُ قدمه ومن ثم يسددها إلى وجهي. تدحرجتُ على جنبي. وعرفتُ أنها النهاية.

٧

استغرقَ مني التخلُّص من آثار الحلم أياماً طويلة. وقد تركَ، بطريقة غامضة، تأثيره أيضاً على مونا، على الرغم من أني لم أخبرها أي شيء عنه. أصبحنا فاتريّ الهمّة ومكتئبَين بشكل لا مبرِّرَ له. وبما أني كنت قد رأيتُ في شلدون حلماً عنيفاً رحت أصبو إلى ظهوره المفاجئ، لكننا لم نعثر على أي أثرٍ له. وبدل ذلك تلقَّينا بطاقة بريدية من أومارا يُبلغُنا فيها أنه موجود في منطقةٍ مجاورة لآشفيل مزدهرة، وقال إنه سوف يُرسل لنا كي ننضمَّ إليه حالما تنطلق الأمور بوتيرة مناسبة.

تولَّت مونا، من باب الضجر المحض، عملاً آخرَ في منطقة "الفيليج"، وهذه المرّة في مربع مشبوه يُدعى " الببغاء الأزرق ". وعلمتُ من مُعجَب جديد، اسمه توني مورر، أن مليونيرَ ميلووكي سيصلُ إلى البلدة في أي وقت.

سألتها " ومن يكون توني مورر؟ "

أجابت " رسامٌ للرسوم المتحركة. وكان في وقتٍ ما ضابطاً في سلاح الفرسان الألماني. إنه موهوب حقيقي "

قلت " لا عليك من الباقي ". كنت ما أزال في حالةِ فتور، ولا طاقة لي على استجماع حتى قبسٍ من اهتمامٍ بأحد معجبيها الجُدُد؛

كنتُ منحطَّ الهمَّة، حتى كان يمكن أن أظلَّ هكذا إلى أن أصل إلى أسفل دركٍ. حتى إيلي فور لم أعد أحتمله. لم أستطع أن أدفع نفسي إلى التركيز على ما هو أكثر أهمية من عملية التغوُّط.

أما مسألة البحث عن أصدقائي فكانت أمراً مستحيلاً. فحين أكون منقبض النفس نادراً ما أقوم بزيارةِ أحد ٍ، حتى أقرب الأصدقاء.

وقد ساهمت محاولات التنقيب الصغيرة من جانبي في الحطِّ من معنوياتي. فلوثر غورينغ، وهو آخر من أصادفه - أبغي استدانة خمسة دولارات فقط منه - سبقني إلى ذلك. ولم يكن في نيتي أن أضرب حصاري حوله، بما أنه كان يعتبر أحد أفراد العائلة، ولكن لما قابلته مصادفةً في القطار النفقي فكَّرتُ في أن أنتهز الفرصة. والخطأ الذي ارتكبته كان أني قاطعته وسط إحدى خُطَبه الطنّانة المطوَّلة. وكان يحكي لي عن النجاح الساحق الذي يحققه (كبائعٍ جوال لسندات التأمين) من خلال تطبيق تعاليم المسيح. ولما كان دائماً يرتابُ في كوني ملحداً فقد ابتهجَ الآن لتمكُّنه من إغراقي ببراهين على الناحية العملية للأخلاق المسيحية. وأنصتُّ، وقد تولاّني الضجر القاتل، بعض الوقت في صمتٍ تامٍّ، وكانت تنتابني أحياناً رغبةٌ عنيفةٌ في الضحك في وجهه. ولما اقتربتْ محطَّةُ نزولنا قاطعتُ مناجاته الذاتيّة لأسأله إن كان يُقرضني خمسة دولارات. ولابدَّ أن طلبي قد بدا له شيئاً غير ذي علاقة بالموضوع بشكلٍ مشين لأنه انطلقَ في فورةِ غضبٍ عارمة. وفي تلك المرة لم أتمكَّن من ضبط نفسي - فضحكت في وجهه. وحسبتُ للوهلة الأولى أنه سيصفعني على وجهي؛ لقد كان مزرقّاً من شدَّة الحنق، وشفتاه ترتعشان، وأصابعه تنتفض بحركةٍ لا إراديّة. وأراد أن يعرف ماذا ألمَّ بي. هل

افترضتُ أنه لأنه نجحَ أخيراً في أن يؤمِّن لنفسه عيشاً كريماً أسمحُ لنفسي أن أعتبره مؤسسة خيرية؟ صحيح أنَّ الكتابَ المقدس قال: "اطلبوا يُعطى لكم، اقرعوا الباب يُفتَحُ لكم "، ولكن لا يحقّ لأي كان أن يستنتج من تلك الكلمات أن يقعد عن العمل ويصبح مستجدياً. وقال " إن الله يرعاني لأني أرعى نفسي. إني أعمل خمس عشرة وست عشرة ساعة في اليوم. أنا لا أصلّي لله كي يضع مالاً في جيبي. إني أناشده أن يبارك عملي! ". وعند هذه النقطة هدأ قليلاً. قال " يبدو أنك لا تفهمني. دعني أشرح الأمر لك. إنه بسيط جداً ... "

قلت له إنني لا آبه البتة لشروحه، وإن كل ما يهمّني معرفته هو - هل سيقرضني الدولارات الخمس أم لا؟

" طبعاً لن أقرضك يا هنري، ما دمت تفضِّل هذا الأسلوب. عليك أولاً أن تتعلّم أن تكسب رِضا الله "

قلت " أيري في هذا! "

" هنري، لقد انحدرتَ إلى دركِ الإثم والجهالة! ". وفي محاولة لتهدئتي أمسك بذراعي، فأبعدتها. وتابعنا سيرنا ونحن صامتان. وبعد بعض الوقت قال، بصوتٍ جَعَلَه رقيقاً قَدْرَ استطاعته: " أعلم أنه من الصعب إعلان التوبة. لقد كنتُ أنا نفسي خاطئاً. لكني صارَعْتُ بكل ما أوتيتُ من قوة. وأخيراً يا هنري دلّني الله على الصراط المستقيم. وعلّمني الله كيف أصلّي. ورحت أصلّي، يا هنري، واصلاً الليلَ بالنهار. صرتُ أصلّي حتى وأنا أتكلّم مع الزبون. وقد استجاب الله لصلواتي. نعم، لقد غفر لي من فَيض طيبة قلبه، وأعادني إلى كَنَفِه. اسمع يا هنري ... في العام الفائت كسبت مبلغاً ضئيلاً مقداره ١٥٠٠ دولار.

وهذا العام - وهو لم ينته بعد - كسبتُ أكثر من عشرة آلاف دولار. هذا هو البرهان يا هنري. حتى ملحدٌ لا يمكنه أن يفنِّد هذا المنطق! "

ضحكتُ رغماً عني. وقلتُ في نفسي، سوف أنصتُ إليه. سوف أدعه يعمل على هدايتي. فقد أتمكَّنُ عندئذ من طلب عشرة دولارات بدل خمسة.

فجأة سألني " هل أنت جائع، يا هنري؟ إذا كنت كذلك فسوف نتوقّفُ في مكانٍ ما ونتناول لقمة. لعل هذا هو أسلوبُ اللهِ في جَمْع شملنا "

قلت له إني لست جائعاً إلى حد أن أقَعَ في الشارع. لكنَّ أسلوبي في تصريحي بهذا كان يلمِّحُ إلى إمكانية حدوث ذلك "

قال لوثر بأسلوبه المعتاد المفتقر إلى الحساسية، " عظيم. إنَّ ما تحتاج إليه أكثر من القوت الأرضي هو القوت الروحي. فإذا حصل الإنسانُ على هذا الأخير، استطاعَ أن يستغني عن القوت العادي. وتذكَّر - إنَّ اللهَ دائماً يُرسلُ ما يكفي قوت اليوم، حتى للخطاة. إنه يسهر على راحة عصافير الدوري ... لا أظنك نسيت التعاليم المقدسة، هل نسيتها؟ - أنا أعرف أن والديك أرسلاك إلى مدرسةٍ حكوميّة ... وأنهما أيضاً زوّداك بثقافة صالحة. إنَّ اللّه كان يرعاك طوال الوقت يا هنري ... "

تساءلتُ " يا إلهي، إلى متى سيستمرُ هذا؟ "

تابع " لعلَّكَ ما زلتَ تتذكَّر رسائل القديس بولص الإنجيلية؟ ". ولما رميته بنظرة جوفاء غاص بيده في جيب صدره واستخرجَ منه نسخةً نخِرةً من العهد الجديد. ثم جمد في مكانه وبدأ يقلِّبُ الصفحات بإبهامه.

قلتُ " لا تزعج نفسك، اتلُها عليَّ من الذاكرة. يجب أن أسرع في الوصول إلى المنزل "

قال " لا بأس، نحن في ساعةِ الربِ الآن. ولا يمكن لأي شيء أن يكون أكثر أهمية من كلماتِ الكتابِ المقدسِ النفيسة. تذكَّر يا هنري أن الرب هو مُعزِّينا "

قلتُ، لأثنيه عن البحث عن رسائل القديس بولص الإنجيلية أكثر من أن أعرف الجواب " ولكن ماذا لو أنَّ اللهَ لم يستجِبْ إلى الصلوات؟"

قال لوثر " إنَّ اللهَ دائماً يستجيبُ لمن يبحث عنه. ربما ليس من المرة الأولى أو المرة الثانية، ولكن في نهاية المطاف. إنَّ اللهَ أحياناً يرى أنَّ من الأنسب أن يجرِّبنا أولاً. هو يريد أن يتأكَّد من حبّنا، وولائنا، وإيماننا. وسيكون الأمرُ مفرطَ السهولةِ لو أننا طلبنا شيئاً وإذا به يسقُطُ في حِجْرِنا، أليس كذلك؟ "

قلت " لا أدري، لمَ لا؟ الله قادرٌ على كل شيء، أليس كذلك؟ "

" دائماً ضمن حدود العقل يا هنري. دائماً وفقاً لميزاتنا. ليس الله هو الذي يعاقبنا، بل نحن نعاقب أنفسنا. إنَّ قلبَ اللهِ دائماً مفتوحٌ لمن يبحث عنه. لكن يجب أن تكون حاجته إليه حقيقية. وعلى الإنسان أن يستولي عليه اليأس قبل أن يمنحه الله رحمته "

قلت " إنني في الواقع يائسٌ تماماً الآن. صِدقاً يا لوثر، إني في أمسّ الحاجة إلى ذلك المبلغ. وسوف نُطْرَدْ من منزلنا في غضون يوم أو يومين إذا لم يحدث ما يحولُ دونَ ذلك "

لم يتأثَّر لوثر بشكلٍ غريب بهذه المقولة الأخيرة. وبدا أنه متناغمٌ تماماً مع أسلوب الله بحيث أنَّ قضيةً صغيرةً مثل الطَرْد من المنزل لم

تعني له أي شيء. لعلَّ هذا ما أرادَه الله. لعلَّه إعدادٌ لوضعٍ أفضل. وقال بحماسة متّقدة " وما هَمْ، يا هنري، ما هَمْ أين تسكن إذا استطعت أن تجد الله؟ يمكنك أن تعثر عليه في الشارع بالسهولة نفسها التي تعثر عليه في المنزل. سوف يحميك الله بجناحيه المباركَين. إنه يسهَرُ على المشرَّدين تماماً كما يسهر على الآخرين. إنَّ عينه ترقبنا دائماً. كلا، يا هنري، لو كنتُ في مكانك، لذهبتُ إلى المنزل وصلَّيتُ، صلِّ كي يرشدك إلى الطريق القويم، أحياناً يفيدنا التغيير حقاً. أحياناً تغالي في الركون إلى الراحة وننسى من أين تنبع بركاتنا كلها. صلِّ له هذه الليلة، وأنت راكع، بقلبٍ مترعٍ بالخشوع. اطلُب منه أن يمنحك عملاً تشغل به يديك. وتذكَّر، اطلب طاعته. يقول الكتاب، أطِعِ الربَّ والتزم بوصاياه العشر. إنَّ هذا ما أواظبُ أنا على فعله - الآن بعد أن أبصرتُ نوره، والله يكافئني بسخاء، كما شرحتُ لك من قبل ... "

" اسمع، لوثر، إذا كان الله حقاً يرعاك بهذا القدر الوافر، كما تقول، ألا تستطيع أن تشاركني ولو بقليلٍ من مكافأتك المباركة؟ وعلى أي حال، إن مبلغَ خمسةِ دولارات ليس ثروة "

" حتماً أستطيع أن أفعل ذلك يا هنري - هذا إذا رأيتُ أنه التصرُّف الأنسب، لكنك الآن في رعاية الله: هو الذي سيتولى أمرك "

أصررتُ قائلاً " كيف يتعارضُ مع مخططات الله أن تُقرِضَني خمسة دولارات؟ ". كنت أزدادُ ضجراً منه.

قال لوثر بوقار " إنَّ أساليب الرب تتجاوز معرفتنا. لعلَّه يُخبِّئ لك عملاً ستستلمه في الصباح الباكر "

" ولكني لا أريد عملاً، اللعنة! إنَّ لديَّ عملاً أقوم به. وما أحتاجه هو خمسة دولارات، لا أكثر ولا أقلّ "

قال لوثر " هذه أيضاً ربما يمكن الحصول عليها ، فقط إذا كنتَ مؤمناً. وبدون إيمان، حتى القليل الذي لديك سوف يُؤخذُ منك "

قلت محتجّاً " ولكن ليس لديّ أي شيء، ولا أي شيء لعين، ألا تفهم؟ ولا يمكن للرب أن يأخذَ أيَّ شيءٍ مني لأنَّه لا شيء لدي. افهم هذا! "

" يمكنه أن يسلبك صحتك، يمكنه أن يأخذ زوجتك منك، ويمكنه أن يحرمك القدرة على تحريك أعضائك، ألا تدرك هذا؟ "

" سيكون قذراً كبيراً إن فَعَلَ ذلك! "

" لقد ابتلى الله أيوبَ بلاءً موجعاً، ولا أظنك نسيت هذا؟ وهو الذي بَعَثَ أيضاً أليعازر من بين الموتى. إن الله يعطي ويحرم "

" يبدو لي هذا تصرُّفاً مُخادعاً "

قال لوثر " هذا لأنكَ ما زلتَ مَعْمِيّاً بغمامةِ الجهالةِ والحُمق. إنَّ لدى الله درساً خاصاً يلقِّنه لكلٍّ منا. وعليك أن تتعلمَ الاتّضاعَ "

قلت " لو تتوفّر لي فرصةً للتنفُّس ربما سأكون مستعداً لتعلُّم درسي. إذ كيف يمكن لإنسانٍ أن يتعلَّم الاتضاع إذا كان ظهره مكسوراً أصلاً؟ "

تجاهلَ لوثر السؤال الأخير تجاهلاً تاماً. وأثناء إعادته نسخة العهد الجديد إلى جيبه عثرَ على بعض الاستمارات من شركة الضمان فأخرجها ولوَّحَ بها في وجهي.

صرختُ بقوة " ماذا؟ لا أظنُّكَ تقصد أن تقول إنك تريد أن تبيعني سند ضمان؟ "

قال لوثر، وهو يقبض من جديد على ذراعي ليُخفِّفَ من غلوائي،

"ليس الآن، حتماً، ليس الآن يا هنري، ولكن ربما في خلال شهرٍ أو نحوه. إنَّ اللهَ يصنعُ معجزاتِه بأساليبَ غامضة. مَنْ يدري، لعلك بعد شهرٍ من الآن قد تتبوأً قمة العالم؟ إذا امتلكتَ واحداً من هذه فسيكون في إمكانك أن تقترِضَ من شركةِ الضمان. وسوف توفِّر على نفسك الكثيرَ من الحرج "

هنا عجَّلتُ بمغادرته. وحين وصلتُ إلى الطرف الآخر من الشارع كان هو ما يزال واقفاً في مكانه ممدودَ اليد، وكأنه قد تجمَّدَ. فألقيتُ عليه نظرةَ وداعٍ واحدةٍ وقذفتُ بصقةً مشحونةً بالاشمئزاز. وقلت في نفسي "يا أير! أيري فيك وفي المعزِّي! إني لم أقابل دهري خراءَين عديمي الرحمة مثلكما. أتقول أصلِّي؟ أعِدُك بأن أفعل. سوف أدعو عليك كي تزحف على يديك وركبتيك وتنبش الأرض بأظافرك بحثاً عن بنسٍ. سوف أصلِّي كي ينهار رسغاك وركبتاك من فرط التعب، بحيث تضطرُّ إلى الزحف على بطنك، وكي تعشى عينَاك، وتملأهما الطَفَاوة.

حين وصلتُ إلى المنزل كان المكان يعمُّه الظلام. لا وجود لمونا. فغصتُ في كرسيّ كبير واستسلمتُ لتأملاتٍ كئيبةٍ. ووسط نور مصباح طاولة الكتابة الرقيق بدت الغرفة أكثر إشاعة للارتياح من أي وقت. حتى الطاولة، التي كانت في حالةِ فوضى عارمة، تركتْ أثراً ممتعاً عليّ. كان واضحاً أنه كانت هناك فترة انقطاع طويلة. كانت المخطوطات منتشرة في كل مكان، والكُتُب متروكة وهي مفتوحة على صفحاتٍ توقّفتُ عن القراءة عندها. والقاموس أيضاً كان مفتوحاً وهو موضوعٌ في أعلى خزانة الكتب.

أدركتُ وأنا جالسٌ هناك أن الغرفةَ مشربَّةٌ بروحي. إني أنتمي إلى

هنا، وليس إلى أي مكانٍ آخر. وكان من قبيل الحماقة مني أن أتصرَّفَ فيه كمدبِّرة منزل. إذ أنَّ عملي في المنزل هو أن أكتُبَ. ولا يجدر بي أن أقوم بأي عملٍ آخر غير الكتابة. لقد تولَّت العناية الإلهية الاهتمام بي حتى الآن، فلِمَ لا تفعل إلى الأبد؟ إنني كلما أهملت المسائل العملية سارت الأمور بسلاسة أكبر. إن تلك الغزوات التي شننتُها على العالم لم تعمل إلا على تغريبي عن الجنس البشري.

لم أكن قد كتبتُ كلمة واحدةً منذ تلك الليلة الرائعة التي أمضيتها مع كرومويل. فانتقلتُ إلى طاولة الكتابة وأخذت أعبث بالأوراق. كان آخر عمود صحفي كتبته - في اليوم نفسه الذي زارني كرومويل - موجوداً أمامي. فأعدتُ قراءته بسرعة.

بدا لي جيداً، جيداً جودةً خارقة. والحق أقول، كان أجود بكثير من أن يُنشَر في صحيفة. فنحَّيته جانباً وبدأت ببطءٍ أقرأ رواية قصيرة غير مكتملة، عنوانها " مذكرات شخص مستقبليّ "، وكنت قد قرأت فيها مرة مقاطعَ على مسمعٍ من أليك. وأنا لم أتأثَّر فقط بشكلٍ محبَّب بكلماتي، بل إنَّ تأثُّري كان عميقاً. لابدَّ أني كنتُ في مزاجٍ حسن بحيث أحسنْتُ كتابةَ هذا.

رحتُ ألقي نظرةً على مخطوط بعد آخر، مُكتفياً بقراءةِ بضعةِ أسطرٍ في كل مرة ..وأخيراً، وصلتُ إلى ملاحظاتي. وقد بدتْ حديثةَ العهد ومُلهمة كما كانت عندما دوَّنتها. وكان بعضها، الذي استفدتُ منه لتوي، مُحرِّضاً إلى درجة أني رغبتُ في أن أُعيدَ كتابةِ القصص منذ البداية، أن أكتُبَها من زاويةٍ جديدة، نضرة. وكنت كلما قمتُ باكتشافٍ أضحيتُ أكثر اتّقاداً وحماساً. وكأنَّ دولاباً ضخماً داخلي قد بدأ يدور حول محوره.

نحَّيتُ كل شيء جانباً وأشعلتُ سيجارة، واستسلمتُ لتأمُّلٍ حالمٍ لذيذ. وإذا بكل ما أردت أن أكتبه طوال أشهر الخريف الماضي يكتبُ نفسه الآن. كان ينزُّ مثلما ينزُّ الحليبُ من جوزة الهند. لم تكن لي أي سيطرة عليه. ثمة شخصٌ آخر كان يتولّى الأمر. وكنت أنا بمثابةِ فقط محطَّةَ استقبالٍ تُعيدُ بثَّه إلى الفضاء.

قبل بضعة أيام، بعد وقوعِ هذه الحادثة بنحو عشرين عاماً، وقعْتُ على كلماتٍ للمدعو جان بول ريشتر، تصفُ بدقَّةٍ ما شعرتُ به في تلك اللحظة. يؤسفني أني لم أكن على عِلمٍ بها آنئذٍ! وهاك ما كتب يقول:

" لم أكن قط أشدُّ إثارةٍ دهري من السيد جان بول. لقد جلسَ على طاولته وأخذ، بمعيَّة كتبه، يعبثُ بي ويعيدُ تشكيلي. والآن أصبحتُ أتأرجحُ من تلقاء ذاتي "[٥٧]

قطَعَ تأمُّلي الحالم قرعٌ خفيفٌ على الباب. فقلت " ادخل "، دون أن أنتقل من مكاني. ودُهشتُ إذ رأيتُ السيد تاليا فيرو، صاحب البيت، يدخل.

قال، بأسلوبه الجنوبيِّ، الرخيِّ، الهادئ، " صباح الخير، يا سيد ميللر. آمل أني لا أزعجك؟ "

أجبتُ " لا، أبداً، كنت فقط أحلم "، وأشرت إليه كي يجلس. وبعد فترة صمتٍ مناسبة سألته عمّا يسعني أن أفعل لأجله.

ابتسمَ بكرمٍ لكلامي، وجرَّ كرسيه مقترباً قليلاً. ثم قال، بعطفٍ صادقٍ، " تبدو وكأنك كنتَ مستغرقاً في العمل، ومن المؤسف أن أكون قد أزعجتك في مثل هذا الوقت "

---

٥٧ – الأصل بالفرنسية . – المترجم

" أؤكد لك أني لم أكن أعملُ يا سيد تاليا فيرو. وأنا سعيدٌ حقاً برؤيتك. ومنذ بعض الوقت وأنا أنوي أن أعـــرِّجَ عليك. لابد أنك تساءلتَ... "

قاطعني " لقد رأيتُ يا سيد ميللر أنه قد حان الوقت لكي نتحدث قليلاً. أنا أعلمُ أنَّ لديكَ الكثيرَ من المشاغل، إلى جانب عملك. بل لعلك حتى لا تعي أنك لم تدفع لي الإيجار منذ بضعة أشهر. أنا أعرف كيف هي أحوال الكتاب ... "

كان الرجل من فرط الرقّة ومقدِّراً لوضعي بحيث أني ببساطة لم أتمكّن من الإصرار على الادِّعاء معه. ولم تكن لدي أدنى فكرة منذ متى ونحن متأخران عن الدفع الإيجار. وما كان يعجبني في السيد تاليا فيرو هو أنه لم يجعلنا قط وبأي طريقة نشعر بالانزعاج حول الأمر. مرة واحدة من قبل كان قد غامرَ بالقَرْع على بابنا وذلك لكي يسأل إن كنا بحاجةٍ إلى أي شيء. لذا، كان من دواعي سروري أن أستسلم له.

لا أدري كيف وقع الأمرُ، ولكن في غضون بضع دقائق وجدتُني جالساً إلى جانبه على السرير النقّال الذي كنا قد أحضرناه من أجل أومارا. وأحاطَ كتفيَّ بذراعه وأخذ يشرحُ لي، تماماً كما لو كنت أخاً أصغرَ له، وبصوتٍ فائق الرقّة والنعومة، أنه يعرفُ أني إنسانٌ طيّب، ويعرفُ أني لم أنوِ قط أن أُرجئ الدفع فترة طويلة (اكتشفتُ أنها كانت خمسة أشهر) وأني عاجلاً أو آجلاً سوف أتصالح مع العالم.

" ولكن يا سيد تاليا فيرو، أعتقدُ أنك إذا أمهلتنا فترة قصيرة..."

قال، وهو يضغط على كتفي ودائماً برقّةٍ متناهية، " يا بني، إن ما أنت بحاجة إليه ليس الوقت، وإنما اليقظة. ولو كنتُ في مكانك،

لتحدَّثتُ مع السيدة ميللر هذا المساء لتريا إن كان في إمكانكما أن تنتقلا إلى مكانٍ أكثر ملائمةً مع دخلكما. وأنا لن أستعجلكما بإلحاح. ابحثا ... خذا وقتكما ... جِدا المكان الذي يعجبكُما، ومن ثم انتقلا إليه. ما رأيك؟ "

كادَتْ الدموعُ تطفرُ من عينيّ. قلت " إنكَ فائقُ اللُّطف. معك حق طبعاً. حتماً سوف نجد مكاناً آخر، وبسرعة أيضاً. لا أدري كيف أشكُرُكَ على كياستك ومراعاتك لنا. أعتقدُ أني بالفعل حالم. إني لم أدرك قط أنه قد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن دفعنا لك آخر مرة "

قال السيد تاليا فيرو " طبعاً لم تدرك. أنت إنسانٌ شريف، أعلم هذا. ولكن لا تقلق حول ... "

قلت " ولكني قلقٌ فعلاً. وعلى الرغم من أننا قد ننتقل دون أن نسدِّد لك ما يترتَّب علينا من إيجار متأخر، فأنا أريدك أن تعرف أني سأسدِّده لاحقاً وبلا لأدنى شك، ربما بمبالغ ضئيلة "

" لو أنَّ وضعَكَ كان مختلفاً، يا سيد ميللر، لأسعدني أن أقبلَ وعدَكَ لي، ولكن كثيرٌ عليَّ أن أطلبَ منكَ هذا الآن. فإذا تمكَّنتُ من العثور على مكانٍ آخر قبل حلولِ أول الشهر القادم فسأكون راضياً تماماً. فلننسَ أمر تسديد الإيجارُ المتأخر. ما رأيك؟ "

ماذا كان في وسعي أن أقول؟ واكتفيتُ بالنظرِ إليه بعينين دامعتين، وصافحته بحرارة وأعطيته كلمة شرف بأننا سننتقل في الوقت المحدد.

حين نهضَ واقفاً استعداداً للمغادرة قال: " لا تدَعْ هذا الأمر يُحبِطك. أنا أعرف كم تحب هذا المكان. وآمل أن تكون قد أنجزتَ عملاً

جيداً هنا. إني أتطلّع إلى أن أقرأ كتبك ذات يوم ". صمتَ. " آمل أن تفكِّر فينا بوصفنا أصدقاءً "

تصافحنا مرة أخرى، ثم أغلقت الباب وراءه برفقٍ بعد مغادرته. وبقيتُ واقفاً بضع دقائق وظهري مستندٌ إلى الباب، وأنا أمسح الغرفةَ ببصري. كنت مرتاحاً. وكأني خضعتُ لتوي لعملية جراحية ناجحة، وانتابني قليلٌ من الدوار من تأثير المخدِّر. لم أكن أدري كيف ستتقبَّل مونا الأمر. كنت قد بدأت اتنفَّس بارتياحٍ مُسبقاً، وتراءت لي مسبقاً رؤى الحياة بين أناسٍ فقراء، من فصيلتي. ها قد عدتُ إلى الأرض من جديد. ممتاز. ورحتُ أمشي جيئة وذهاباً، ثم فتحتُ الأبوابَ المنزلقة وأخذتُ أتجولُ في أرجاء الشقَّة الخلفيَّة الخالية. كنت أتذوَّق الرهافة لآخر مرة. ألقيتُ نظرةً متمعِّنة إلى زجاج النافذة الملوَّن، وحَكَكْتُ يدي على قماش التنجيد الحريري الوردي اللون، وانزلقت بضعةُ أقدامٍ على الأرضية الملمَّعة بامتياز، ونظرتُ إلى صورتي المنعكسة في المرآة الضخمة. كشَّرت لنفسي ورحت أكرر " عظيم! عظيم! "

خلال بضع دقائق أعددتُ لنفسي إبريقاً من الشاي وشطيرة دسمة، ريّانة. ثم جلستُ على طاولة كتابتي، ومددتُ ساقي على المسند. تناولتُ مجلّداً لإيلي فور، وفتحته لا على التعيين ... " حين لا يقوم هذا الشعب بقطع الرقاب وإحراق الأبنية، حين لا يهلكُ بأعدادٍ كبيرةٍ بفعلِ المجاعةِ والقتلِ الجماعيّ، فليس لديه إلا عملٌ واحدٌ يقومُ به - أن يبنيَ القصورَ ويزخرفها، قصورٌ أسوارها عمودية شاهقة وسميكة بحيث تحمي " السار " وزوجاته، وحرّاسه، وعبيده - ويعدّون عشرين ألفاً أو ثلاثين - ضد الشمس، والغزو، أو ربما ضد الثورة. وتحيط بالقاعات المركزية

العظيمة شُقَقُ مُغطّاةٌ بمساطِبَ أو بقِبَاب، بصورِ قُبّة السماء اللا متناهيةِ الممتدة فوقَ الصحارى، التي ستعيد الروحُ الشرقيةُ اكتشافَهَا عندما سيوقظها الإسلام من جديد. وأعلى من هذا كله، هناك مراصدُ هي في الوقت نفسه معابد،" زيكورات[٥٨] "، وأبراج هَرَميّة مدهونة طبقاتها بألوان الأحمر، والأبيض، والأزرق، والبني، والأسود، والفضي والذهبي، تسطع عن بُعدٍ مخترقةً حُجُبَ الغبار التي تثيرها دوّاماتُ الريحِ اللولبيّة. ومع اقترابِ المساءِ خاصةً، لابد أن تنكصَ القبائلُ المحاربةُ والنهّابُ البدو، لدى مشاهدةِ تخومِ الصحراءِ المُعتمَةِ وقد شقّها هذا البرقُ الساكنُ، رعباً. إنه مَقَامُ الرب، وهو يشبه تدرُّجات النجد الإيراني تلك المؤدية إلى سُقُف العالم، والمخططة بألوانٍ صارخة تشعّها نارٌ تحت أرضيّة ولظى الشمس. وتقوم على حراسة البوابات وحوشٌ، وثيرانٌ، وأسودٌ رهيبةٌ ذوات رؤوس إنسانيّة، تزحف ... "

* * *

على مبعدةِ بضعةِ أبنيةٍ، وفي شارعٍ هادئٍ يحتلّه بشكلٍ رئيسيّ سوريّون، عثرنا على غرفةٍ متواضعةٍ مفروشةٍ تقع في خلفيّة المنزل في الطابق الأرضي. والمرأة التي تؤجِّر المكان كانت متزمّتة من نوفا سكوتيا[٥٩]، شَكِسةً، وكنتُ كلما نظرتُ إليها اقشعرَّ بدني. وكان يحتشدُ في مسكننا كل ما يمكنُ تخيُّلُه من أغراضٍ: أحواض للغسيل، وموقد للطبخ، وسخّان، وخوان ضخم، وخزانة للملابس قديمة الطراز، وأريكةٌ إضافيّة، وكرسيّ هزّاز معطوبٌ، وأريكة هزّازة أسوأ حالاً، وآلة خياطة،

---

٥٨ – زيكورة : معبد آشوري أو بابلي مؤلَّف من طبقات هَرَميّة الشكل . – المترجم

٥٩ – نوفا سكوتيا : شبه جزيرة في كندا . – المترجم

وأريكة من قماش السبيب، ورفوف مملوءة بحُلي تافهة ابتيعَتْ من مخزنِ السِلعِ الرخيصةِ، وقفصٌ للعصافير فارغ. وخمّنت أنَّ تلك هي الغرفة التي كانت العجوز الشمطاء نفسها تشغلها قبل وصولنا.

بتعبيرٍ أخفُّ وطأة أقولُ كانت الحديقة الكائنة خارج بابنا الخلفي. كانت حديقة طويلة مستطيلة الشكل تحاصرها جدرانٌ آجرية عالية، تذكّرني لسببٍ مجهولٍ بحديقةٍ في منطقة " بيتر إيبتس ". على أي حال، كانَتْ مكاناً يصلُحُ للحُلُم فيه. وكان الصيف قد بدأ لتوّه، وكنت في أوقات بعد الظهر أجرُّ أريكةً كبيرةً إلى الخارج وأجلسُ لأقرأ. وكنت قد اكتشفتُ لتوّي مؤلفات آرثر ويغنال وأخذتُ ألتهمها واحداً بعد آخر. وكنت كلما قرأتُ بضع صفحات أغيبُ في تأملٍ حالم. هنا في الحديقة كان كل شيء يؤدي إلى الحلم والتأمّل الحالم - الهواء الرقيق، العبق بالشذا، وأزيز الحشرات، والطيران المتكاسل للطيور، وحفيف الأوراق الخضراء، وغمغمة الأصوات الأجنبية في الحدائق المجاورة.

كانت فترةً من السكينة والعزلة.

خلال تلك الفترة قابلتُ ذات يوم وبفعل مصادفة محض صديقي القديم ستانلي. وعلى الأثر أخذ ستانلي يتردّد علينا في فتراتٍ منتظمةٍ، يصحب معه عادة ولديه الاثنين، أحدهما في الخامسة، والآخر في السابعة. وكان شديد الكَلَف بولديه ويُبدي فخراً عظيماً بمظهرهما، وسلوكهما، وحديثهما. وقد علمتُ من ستانلي أن ابنتي لم تكن منتسبة إلى مدرسة خاصة. وقد أبلغني ابنه الأكبر، واسمه أيضاً ستانلي، متيَّمٌ بها. وقد نقل لي هذا النبأ بتلذُّذ، مضيفاً أنَّ مود كانت تراقبُ الوضع برعب. أما عن تطوّر العلاقة " بينهما "، فكان عليّ أن أتعب قبل أن

أستخلص ذلك منه. وأكَّدَ لي أنه لا شيء هناك يستدعي القلق، لكن نبرة صوته وهو يتكلّم نمّت عن أنَّ ظروفهما ليست على أحسن ما يرام. فقد كانت ميلاني العزيزة المسكينة ما تزال تكدح في المستشفى، وأصبحتْ تسير وهي تعرج معتمدةً على عصا خيزران؛ وتمضي لياليها وهي تزعج أوردتها المتوسعة. وكانت مع مود في حالة نزاعٍ متواصل. وطبعاً كانت مود ما تزال تعطي دروس البيانو.

لخَّصَ ستانلي الأمرَ قائلاً إني مُحِقٌّ في أن أنقطع عن زيارتهما. لقد نفضتا أيديهما مني بوصفي ميؤوساً منه وغير مسؤول. ويبدو أنَّ ميلاني وحدها كانت تَذْكُرني بكلمةٍ طيّبة، لكنَّ ميلاني هي مجرد حمقاء خرفة. (لطالما كان ستانلي مُرهَفاً ولبقاً)

ناشدته قائلاً "ألا تستطيع أن تُتيحَ لي أن أتسلَّلَ إلى هناك حين يكونُ المنزلُ خالياً؟ أريدُ أن أُلقي نظرةً على المكان. أريدُ أن أشاهدَ دُمى الطفلة، على الأقلّ"

لم يفهم ستانلي الحِكمَةَ من ذلك إلا أنه وَعَدَ بأنْ يفكِّرَ في الأمر. ثم أسرَعَ فأضاف ": " الأفضل أن تنسى أمرهما. لقد أنشأتَ لنفسكَ حياةً جديدةً، فالتزم بها! "

لابد أنه قد شَعَرَ بأنَّه لا يتوفّر ما يكفي من الطعام، فقد كان في كل مرة يقوم بزيارتنا يُحضِر معه طعاماً، ويكون عادةً بقايا تركيبةٍ ما بولونية أعدَّتها زوجته - حِساءً، أو يخني، أو بودنغاً، ومربى، عصيدة جيدة، من النوع الذي نحتاجه. بل إننا في الواقع بدأنا نتطلَّع إلى تلك الزيارات.

لاحظتُ أنَّ ستانلي لم يتغيَّر كثيراً، فيما عدا أن أنفه الآن أصبح

أقرب شبهاً بحَجَرِ الشَحذ. كان يعمل ليلاً في مؤسسة كبيرة للطباعة في جنوبي نيويورك، كما أخبرني. وكان بين حين وآخر يحاولُ أن يصمُدَ في وجهِ مغاسلِ المطبخِ ويكتب. كان يكادُ يستحيلُ عليه أن يركّز - كانت الهمومُ المنزليةُ تفوقُ طاقتَهُ على تحمُّلها. وفي المعتاد كانوا يفلسون قبل انتهاء الأسبوع. على أي حال، أصبح الآن أكثر اهتماماً بولدَيْه منه بالكتابة. أرادَ أن يوفِّر لهما حياةً طيِّبة. وعندما سيكبران سوف يرسلهُما إلى الجامعة. وما شابه من مشاريع ...

على الرغم من أنَّه كان يستحيلُ عليه أن يكتب، إلا أنَّه كان يقرأ. وكان بين حين وآخر يُحضرُ معه أحد الكتب التي تسلُبُ لبَّه. ويكون دائماً أحد أعمال كاتبٍ رومانسي، عادة من القرن التاسع عشر. وبشكلٍ ما، ومهما كان الكتاب الذي نناقشه، مهما كان الوضع العالمي، حتى وإنْ كان ثمة ثورةٌ توشك أن تقوم، فإنَّ أحاديثَنا كانت دائماً تنتهي بالكلام عن جوزيف كونراد. فإذا لم يكن كونراد، فأناطول فرانس. وكنت قد كففتُ منذ زمنٍ بعيد عن الاهتمام بأي من هذين الكاتبين. كان كونراد يُثيرُ ضَجَري. ولكن حين يبدأ ستانلي يرنِّمُ ترتيلته يأسرني رغماً عني. وهو حتماً لم يكن ناقداً، ولكن كانت لستانلي، كما في الأيام الماضية حين كنا نجلس بالقرب من المدفأة المتلظية بالنار في المطبخ وتمرُّ علينا ساعات طوال، كذلك الآن، طريقةٌ في التحدُّث عن الرجالِ الذين يعبُدُهُم أُصبْتُ بعدواها. كان مُترَعاً بالحكايات، وهي عادةً عبارة عن أحداثٍ تافهة. وتلك الحكايات كانت دائماً فكهة ومتبِّلة بالخبث وبالسخرية. إلا أن مراميها المستترة كانت مشحونة بالرقّة، رُقّة هائلة، نابضة، تكادُ تكتمُ الأنفاس. رقّته تلك، التي كان دائماً يخمدها، كانت

تحُرِّرهُ من ضغينَتِه، وقسوَتِه. ونزعَتِه إلى الانتقام. لكنها كانت تمثِّل وجهاً من أوجه طبيعته الذي نادراً ما يكشفه للآخرين. كان بوجه عام فظاً وقاسياً. كان في وسعه بعونٍ من بضعِ كلماتٍ وإيماءاتٍ أن يُدمِّرَ أيَّ طموح. وحتى وهو صامتٌ ينبعثُ منه دفقٌ مزعجٌ.

غير أنَّه حين كان يتحدَّث إليّ كان دائماً يذوب. ولسببٍ ما غريبٍ كان يرى فيَّ ذاتَه الثانية. ولم يكن هناك ما هو أكثر إبهاجاً، وفتنة، وإثارةً للجزع له من أن أشعر بالإحباط وبالهزيمة. حينئذٍ نصبحُ أخوين. حينئذ يستطيعُ أن يسترخي، أن يتمدَّد، أن يتشمَّس. كان يحبُ أن يعتقدَ أننا ملعونَان. ألم يتنبَّأ مرات عِدَّة بأن جهودي كلها ستذهب سُدى؟ ألم يتكهَّن بأني لن أكون زوجاً صالحاً، ولا أباً ولن أغدو دهري كاتباً؟ فلماذا أثابر؟ لم لا أستقرُّ، كما فعل هو، وأقبلُ عملاً رتيباً وأرضى بنصيبي؟ كان جلياً أنه مما يُثلِجُ صدرَهُ أن يسترسِلَ في هذا التفكير. وكان دائماً يقاطع نفسه ليذكّرني بأني " مجرد فتى من بروكلن"، صبيٌّ من الحي الرابع عشر - مثله، مثل لويس بيرسا، مثل هاري مارتن، مثل إدي غوللر، مثل ألفي بيتشا. (فاشلون كلنا). كلا، لا أحد منا سيُحقِّق أي شيء. إننا مُدانون مسبقاً. ورأى أنَّ عليَّ أن أكون ممتنّاً لأني لم أودَع الإصلاحيّة أو لأني لم أصبح مدمن مخدرات. إني محظوظ لأني انحدرتُ من عائلةٍ محترمةٍ، متماسكة.

على الرغم من هذا كله، أنا هالك.

بيد أنه واصَلَ تبجُّحه، وقد أضحى صوتُهُ مهدهداً أكثر فأكثر. أصبح الآن يتَّصِفُ بسِمةٍ حزينةٍ، بمسحةِ حنين. وكان واضحاً كل الوضوح أنه، وعلى الرغم من كل ما قال، لم يرَ إرثاً أفضل من نمط الحياة التي

عشناها ذات يوم، الرفاق الذين اتخذناهم يوماً ما، في الحي الرابع عشر العزيز القديم. وتحدَّث عن أصدقائنا المشتركين أيام زمان وكأنه قام بدراسةِ حياةِ كلٍّ منهم على حِدة. كانوا على قدرٍ كبيرٍ من التباين في الشخصية والمزاج، ومع ذلك كان كلٌ منهم مقيَّداً بحدوده، مُحاصَراً بخطيئةٍ من صُنع يده. وبالنسبة إلى ستانلي لا أملَ في وجود مخرَج، ولا كان هناك قط من قبل، لأي منهم. ولا لنا، حتماً. قد يتوفَّر منفذٌ للآخرين، ولكن ليس لقاطني الحي الرابع عشر. نحن في حالةِ خطرٍ دائم مُحدِق. وهذه الحقيقة بالذات، هذه الحقيقة الحتميّة بشكلٍ لذيذ، هي التي جعلت ذكرى أصدقائنا القدامى محبَّبة. وأعترفُ بأنه من المؤكَّد أنهم كانوا يمتلكون موهبةً عظيمةً كغيرهم من الرجال في أي مكان في العالم. وكانوا بلا جِدال يمتلكون كل المقومات التي تجعل الآخرين شعراء، وملوكاً، ودبلوماسيين، ومثقّفين كبار. وقد أثبتوا مقدرتهم على إبراز تلك المقومات، كلٌ وِفقَ مستواه، وكلٌ على طريقتهِ الفريدة. ألَمْ يكُنْ جوني بول في جوهره مَلِكاً؟ ألم يكن ينطوي على شارلمان؟ ألم تكن فروسيّته، وشهامته، وإيمانه، وتسامحه هي نفسها مزايا صلاح الدين؟ لقد كان في وسع ستانلي دائماً أن يغدو غايةً في السلاسة حين يتعلّق الأمر بجوني بول الذي لم يره أيٌ منا منذ أن كنا في التاسعة أو العاشرة. وكنا نتساءل فيما بيننا، تُرى ماذا حلَّ به. ماذا؟ لا أحدَ يعلم. لقد ظلَّ مجهولاً باختياره أو بفعل القَدَر. كان موجوداً، في مكانٍ ما، وسط حشد الإنسانيّة الهائل، يُخَمِّره باتِّقادِ روحهِ الفخمِ بحقّ. كان هذا كافياً بالنسبة إلى ستانلي. وبالنسبة إليّ أيضاً، والحق يقال. والغريب أنَّ مجردَ ذِكر اسم جوني بول كان يكفي لتخضيل عيوننا

بالدموع. فهل كان حقاً قريباً وعزيزاً على قلوبنا - أم أننا كنا نبالغ في تضخيم أهميته مع مرور السنين؟ في كل الأحوال، كان ماثلاً هناك - في قاعة ذاكرتنا - يمثِّلُ تجسيداً لكل ما هو طيِّب، وواعد. كان أحد البعيدين عن المتناول العِظام. ومهما كان ما يملكه، مهما كان ما يتزوَّدُ به، فهو خالد. لقد كنا ندرك هذا ونحن فِتيةً، وها نحنُ مقتنعون به الآن ونحن رجال ...

أخذت مونا، وكانت في أول الأمر لا تثقُ في ستانلي، وتشعر بالانزعاج في حضوره، تطمئنُّ إليه باطِّراد مع كل زيارة. لقد كشفَ لها حديثنا عن حيِّنا القديم، عن رفاقِ الملاعبِ الرائعين، وألعابنا الغريبة الجامحة، وانطباعاتنا الشخصية الخياليّة (ونحن أطفال) عن العالم الذي كنا نسكنه، عن جانب من حياةٍ لم تعرفها قط. وكانت أحياناً تُذكِّر ستانلي بأصلها البولوني، أو بأصلها الروماني، أو بأصلها الفيينّي، أو تضغط على هذا كله في " قلب الجبال الكارباتيّة ". وكان ستانلي دائماً لا يُولي هذه المقدمات أي انتباه، أو كما يقول اليونانيون - "كوتسافتيس ". كان يكفي اعتقاده أنها لا تُحسِن قول كلمة بولونيّة واحدة لكي يضعها في الفئة نفسها التي ينتمي إليها كل " أجانب " العالم الآخرين. ثم إنها كانت بالنسبة إلى ذوق ستانلي طَلِقَةَ اللِّسان أكثر مما ينبغي. ولم يكن يناقضها قط مراعاةً لي، لكنَّ التعابيرَ المدمِّرة التي كانت ترتعشُ على قسمات وجهه كانت تملأ مجلدات. والشك والازدراء كانا التعبيران الأكثر سهولة على ستانلي أن يستحضرهما. وكان ستانلي مملوءاً بالازدراء أكثر من أي شيء آخر. وهذا الازدراء الذي لا يكاد يفَارِقُ قسماتِ وجهه، وكان في أحسن الأحوال يكتبه أو

يكظمه، كان يتركَّز في أنفه. وكان له أنفٌ طويل، جميل، بفتحتين حانقتين وهي سمةٌ غالباً ما تلاحظ بين البولونيين. وكل ما يثير الريبة، كل ما هو كريه أو مُنفر، كان يتبدَّى على الفور من خلال هذا العضو. وكان الفَمُ يعبِّر عن مرارةٍ، والعينان تعبِّران عن قسوة راسخة. وكانتا عينين صغيرتين بلون العقيق؛ وكانتا متباعدتين كثيراً وتنفذ نظرتهما عميقاً في وجه الناظر إليهما. وحين يكون فقط ساخراً تتلألآن، مثل نجمتين باردتين، ناتئتين؛ وحين يغضب تتلظيان كسهمين مغموسين في السُّم.

أمَّا ما كان يربكه تماماً ويزعجه في حضور مونا فهو طلاقة لسانها، وذكاؤها وسرعة بديهتها. ولم تكن تلك الصفات تعجبه في الجنس الآخر. ولم يكن من قبيل المصادفة أنه اختار زوجةً له امرأةً حمقاءَ بلهاءَ كانت لكي تُخفي جهلها أو ارتباكها تكشِّر ببلاهة أو تضحك ضحكاً نصف مكبوت بأيّما اضطراب. وقد أبقى عليها كما هي، وعاملها كما لو أنها شيء. كانت تابعة له. لعله كان قد أحبَّها مرة، فإذا كان هذا صحيحاً فلابد أنه قد حدث في تجسُّد آخر. ولكنه مع ذلك كان متآلفاً معها. كان يعرف كيف يُحسِن التعامل مع أخطائها وآثامها.

غريبُ الأطوار، ستانلي هذا، غريب. يمثِّلُ مزيجاً من متناقضات مثيرة للأعصاب. ولكن كان هناك شيء واحد لم يكن يفعله إلا نادراً، بما أنه غريب الأطوار - وهو أنه نادراً ما كان يطرح أسئلة. وحينَ يفعلُ تكون أسئلةً مباشرة ويجبُ إعطاءُ أجوبةٍ مباشرة عنها. وطبعاً لم يكن يتصرَّف بهذه الطريقة المتحفّظة من بابِ اللباقةِ وإنما بدافعٍ من الكبرياء. كان يسلِّم بأني سأبلِّغه بأي أمرٍ هام يطرأ. وكان يفضِّلُ أن أقدِّم المعلومة

طوعاً على أن ينتزعها مني. وبما أني كنتُ أعرفه، اعتبرت أنَّ من العَبَثْ أن أشرحَ له أسلوبنا في الحياة. ولو أني كنت قد أخبرته ببساطة أني تعوَّدتُ على السرقة لتقبَلَ هذا دون أي مناقشة. ولو أني أخبرته أني أصبحت مزيِّف نقود لقوَّسَ حاجبيه في استحسانٍ فضوليّ. أما أن أخبره عن الطبيعة المنحرفة لعملياتنا فإنَّ ذلك كان سيحيِّره ويثير نفوره.

إنَّ هذا البولونيُّ عصفورٌ غريب. والقَدْرُ الضئيلُ من الدماثةِ الذي كان يُبديه كان عندما يحكي إحدى حكاياته الغريبة. وعلى مائدة الطعام، إذا طَلَبَ قطعةً من الخُبزِ كان ذلك أشبه بتلقِّي صفعةً على الوجه. لقد كان فظاً ومُهيناً عن عمد. كان يسعده أن يرى الآخرين يتلوّون ارتباكاً وانزعاجاً.

في الوقت نفسه كان حيّياً وهو أمرٌ غريب. فإذا جلسَتْ مونا قِبالَتُهُ ووضعت ساقاً فوق ساق يحوِّل بصره. وإذا كانت متبرِّجة في حضورِهِ تظاهَرَ بأنه لا يلاحظ ذلك. إنَّ جمالها بحدّ ذاته كان يجعله خجولاً، وكان أيضاً يجعلُهُ مُرتاباً. ففي رأيه أنَّ امرأةً بجمالٍ وذكاء مونا وتتزوَّج من رجلٍ مثلي لأمرٍ louche (يثير الريبة). وكان يعرفُ طبعاً أين قابلتها وكيف. وكان أحياناً يشير إلى ذلك عَرَضاً، ولكن دائماً بأسلوب معبِّر. وحين كانت تتحدَّث عن طفولتها وهي في بولونيا أو فيينا كان يرنو إليَّ بانتباه، أملاً، حسب ما أعتقد، في أن أُسهِمَ في زخرفة القصة. في إعطاءِ التفاصيلِ الضائعةِ منذ زمن طويل. إن ثمة ثغرةً في موقعٍ ما وهذا يزعجه. وفي إحدى المرات تمادى إلى حدٍّ أنه أبدى شكَّه في أن تكون قد ولدت في بولونيا أصلاً. لكنه لم يرتَبْ قط في أنها يهودية. وكان اعتقاده الشخصي هو أنها أميركية قلباً وقالباً. لكنها لأميركية

غيـر عـادية، بوصـفهـا أنثى. ولم يتـمكن من تجاوز بيـانها ، الخـالي من أوهى أثرٍ لنبرةٍ خاصة أو لمكانٍ معيَّن. ويسأل، كيف تمكّنت من تحصيل مثل تلك اللغة الإنكليزية الصافية؟ وكيف أستطيعُ أن أتأكَّدَ من أي أمرٍ يخصّها ؟ ويقول: " أنا أعرفك، أنت رومـانسي ... أنت تفضِّل أن تُبقيها لغـزاً ". وهذا صحيـح تماماً. وقـال " أما أنا فـأريد أن أعـرف كل شيء. أريد الأمورَ على المكشوف. لا تـناسبني ألعابُ التعمية ". ومع ذلك كان هو نفسه، ستـانلي، مدلَّهاً بشخصيـة هر ناغل بطل رواية " ألغاز ". كم دارت بيننا نقـاشات ونحن جالسـان بالقـرب من مـوقـد المطبخ حـول هذه الشخصيـة الغـامضة لرواية هامسن! كـان ستـانلي هذا مستـعداً أن يهِبَ ذراعه اليمنى مقابل أن يُبدِعَ مثل تلك الشخصية. لم يُعجِب ستانلي في الهـر ناغل فقط غلالةَ الغموضِ التي تلفّه، ولكن أيضـاً حسّه الفكِه، ونكاته، والتبدّلات المفاجئةِ على شخصيته. أما ما عَشقَه فوق كل شيء آخر فطبيـعة الرجل المتناقضة. وعجِزَ الهر ناغل في حضورِ المرأةِ التي يُحبُّها ، ومـاسوشيتـه، وشيطانيتـه، وعـاطفيتـه، وهشـاشته المفرطة - هذه الصفات جَعَلَتْهُ في نظرهِ أثيـراً بشكلٍ خارق. ويقـول ستـانلي " أؤكِّد لك يا هنري أن هامسـن مـعلِّم ". وكـان قـد قـال الكلام نفسـه عن كـونراد ، وبلزاك، وأناطول فرانس، ومـوباسان، ولوتي. وكان قد قال الشيء نفسه عن ريمون بعد أن قـرأ " الفلاحون " (لأسبابٍ متفاوتة، حـتمـاً). وكنت متأكِّداً من شيءٍ واحدٍ، وهو أنَّه لن يقول هذا عني، حتى ولو أجمَعَ العالمُ كلّه عليه. وعلى المعلِّم في مـجـال الأدب، من وجـهـة نظر سـتـانلي، أن يكونَ نموذجاً يُحتـذى كـالمذكورين آنفـاً. فـعليـه أولاً وقـبل أي شيء أن يكونَ من العـالمِ القديم؛ عليـه أن يكونَ دمِثـاً، عليـه أن يتـحلّى بالدهاء،

وحدةَ الذهن، والإرادة. عليه أن يمتلك أسلوباً متكاملاً؛ وعليه أن يكونَ خبيراً في رسمِ الحبكةِ، والشخصيةِ الروائيةِ، والمواقف؛ وعليه أن يحصِّل معرفةً واسعةً بالعالمِ وبالشؤونِ الإنسانية. وفي رأيه فإنني لن أتمكَّن بأي حالٍ من الأحوال من أن أغزل حكايةً جيدة. حتى عند شروود أندرسن، الذي كان يعترفُ على مضض بين وقت وآخر بأنه قاصّ ممتاز، كان يجد أخطاءً خطيرة. فأسلوبه مفرط النضارة، شديد الفجاجة، جديد أكثر من اللازم بالنسبة إلى ذوق ستانلي. ومع ذلك فقد ضحك حتى ذرفَ الدمع عندما قرأ " انتصار بيضة ". وقد اعترفَ بذلك بامتعاض. ضحك رغماً عنه، إن صح التعبير. ثم باشر الكلام عن جيروم. ك جيروم[٦٠] الذي من الغريب أن يأتي ذكرُ شخص غريب مثله على لسان بولوني. وفي رأي ستانلي لا شيء يفوق في فكاهته " ثلاثة رجال في قارب ". حتى بين الكتَّاب البولونيين لا يوجد مَنْ يجاريه. ولكن البولونيين في الأصل نادراً ما يكونون مضحكين. قال ستانلي: إذا قال بولوني عن شيء إنه مضحك ن فذلك يعني أنه يجده غريب الأطوار. إنه أشدّ كآبة، ومأساوية، من أن يستمتع بمزاجٍ خشن ". وحين يتكلَّم بهذه الطريقة، لابد أن تعبُرَ شفتيه كلمةُ مضحك. إنَّ كلمةَ مضحك هي كلمته المفضّلة، وهي تعبِّر عن أشياء متنافرة لا حصرَ لها. فالشيء المضحك ينطوي على مسحةٍ معيَّنة من الامتياز، من الفرادة، وهي شيء يقدِّره ستانلي كل التقدير. وإذا قال عن مؤلِّف - " إنه إنسان مضحك " - فهو يقصد بذلك أن ينفحه بمديحٍ قوي. فغوغول، مثلاً، كان أحد أولئك المضحكين. ومن ناحية أخرى ففي وسعه أن يشير إلى برنارد شو على أنه أيضاً مضحك. أو ستريندبرغ. أو حتى ميترلنك.

---

٦٠ - جيروم . ك جيروم (١٨٥٩ - ١٩٢٧) : كاتب روائي ومسرحي . معروف بقصصه المسلية والفكاهية . - المترجم

مخلوقٌ غريب، ستانلي هذا. مضحك، ماذا!

كما كنت أقول، كانت تلك الجلسات غالباً ما تُعقَد في الحديقة. فإذا كان معنا نقود أُحضرُ له بضع زجاجات من البيرة، فلم يكن يحب إلا البيرة والفودكا. وكنا أَحياناً نجري نقاشاً مع جارٍ لنا سوريّ يميلُ من نافذة أحد الطوابق الثانية. وكانوا أناساً ودودين، ونساؤهم ذوات جمال أخّاذ. وقد اعتبروا مونا بخصلات شعرها الفاحم السواد للوهلة الأولى كواحدة منهم. وسرعان ما علمنا أنَّ صاحبةَ منزلنا تكنُّ حقداً عنيفاً ضد السوريين. فهم بالنسبة إليها يمثّلون حُثالة الأرض - أولاً، لأن بشرتهم داكنة، وثانياً، لأنهم يتكلمون لغة لا يفهمها أحدٌ غيرهم. وقد أعلَنَتْ لنا بصريحِ العبارةِ أنها مرعوبةٌ من العناية التي نُوليها لهم. وتأمّل في أن نتّصف بما يكفي من الحسّ السليم ولا ندعوهم إلى منزلنا. فهي قبل كل شيء، كما عبَّرَتْ بإيجازٍ جامع، تؤجِّر منزلاً " محترماً ".

ابتلعتُ ملاحظاتها قدر ما استطعتُ، واضعاً في حسباني طوال الوقت أننا قد نحتاج ذات يوم إلى أن نسكن بالمِنَّة. ونبذْتُها بوصفِها حيزبوناً غريبةَ الأطوارِ كلما قلَّ الحديثُ عنها كان أفضل. وأخذتُ جانبَ الحيطةِ وحذَّرتُ مونا من تركِ بابنا دون وصدٍ في غيابنا. إذ كان يكفي أن تلقي نظرةً واحدة على مخطوطاتي حتى نضيع.

بعد مرور بضعة أسابيع على وجودنا هنا أنبأتني مونا ذات يوم بأنها قد قابلت توني مورر مصادفةً مرة أخرى. كان هو ومليونيرَ ميلووكي يتسكّعان معاً. وكان واضحاً أن توني مورر يرغب بصدق في مساعدة مونا. وأسرَّ لها أنه يعمل على إقناع صديقه بتحرير شيكٍ بمبلغٍ محترم - ربما بمبلغِ ألف دولار.

كانت تلك هي فترة الراحة التي صَلّينا للحصولِ عليها. ومع مبلغٍ كهذا كان سيسعنا أن ننطلقَ ونشاهدَ العالم. أو قد ننضم إلى أومارا. وكان هذا الأخير يُرسلُ إلينا بطاقاتٍ بريدية من الجنوب المُشمس يخبرنا فيها عن سير الأمور الرخيّ والسهل هناك. وعلى أي حال، كنا قد سَئِمنا نيويورك العتيقة الحقيرة.

ظلّت مونا تلحُّ عليَّ كي نغيِّر المشهد العام. كانت منزعجة إلى حدٍ بعيد لأني لم أعُدْ أبذل جهداً للكتابة. وكدتُ أقنعها بأنَّ الخطأ كله يقعُ على كاهلها، وبأنه ما دامت تعيشُ حياةً مزدوجة لن أنجح في عمل أي شيء. (أكدتُ لها أنَّ هذا لا يعني أني لا أثق فيها، بل يعني أنها تسبِّب لي الكثير من القلق). وكما قلت، فإنها لم تقتنع بهذا إلا جزئياً. كانت تدركُ أنَّ الأمورَ تتفاقمُ. وقد استنتجتْ بسليقتها البسيطة الساذجة أنَّ الطريقةَ الوحيدةَ لتغييرِ الوضعِ تكمُنُ في تغييرِ المشهدِ العام.

ذات يوم تلقَّت مكالمةً هاتفيّة من توني مورر، يُقيِّم لها الأمورَ بالقولِ إنَّ كل شيء قد أصبح على ما يرام، وأنَّ عليها أن تقابلهما هما الاثنان في ساحة تايمس حيث ستكون سيارة ليموزين في انتظارهم لتُقِلَّهم إلى هدسن. ثم يتناولون وجبة دسمة في نُزُلٍ ومن ثم يصبح الشيك في المتناول. (سيكون بقيمة سبعمائة وخمسين، بدل ألف)

بعد أن ذهبت انتقيتُ كتاباً. كان " الحكمةُ والقَدَرْ ". ولم أكن قد قرأت سطراً واحداً لمترلينك منذ سنين عديدة: كان الأمرُ أقربَ شبهاً بالعودةِ إلى اتِّباعِ حِمية قاسية. وقُرابة منتصف الليل، وقد أخذت أشعر بشيء من القلق والاضطراب، خرجت أتمشّى. ولدى مروري من أمام

مخزن أحد البنايات لاحظتُ وجودَ واجهةٍ مزدحمةٍ بمعدات مخيّماتٍ ومعدّاتٍ رياضيّة. فخطرت لي فكرة " التسكُّع " في أرجاء الجَنوب. كان في إمكاننا أن نتنكّب حقيبتيّ ظهر ونتطفّل على سيارات الغير حتى نصل إلى حدود ولاية فيرجينيا ومن ثم نقطع بقية الطريق سيراً على الأقدام. ورأيتُ المعدّات الملائمة التي نويتُ أن أتّخذها، متضمِّنة زوجاً من حذاء " البروغ " الخفيف الرائع. وافتتنتُ بالفكرة أيّما افتتان حتى أني شعرتُ فجأة بالجوع، جوع جدير بدبّ. وتوجّهتُ رأساً إلى مطعم "جو" الكائن في بورو هول حيث تناولتُ شريحةً من لحمِ البقرِ الزاخرةِ بالبصل. وكنت أحلمُ وأنا أتناول الطعام. في غضونِ يومٍ أو يومين سوف نكونُ خارجَ هذه المدينة القذرة، ننام ملتحفين بالنجوم، ونخوضُ الغدران، ونرتقي الجبال، نتصبَّبُ عرقاً، نلهثُ، ونغني بأقوى ما في طاقة رئتينا. وتماديتُ في حلم يقظتي بينما كنتُ ألتهمُ قطعةً كبيرةً من فطيرة تفاحٍ بيتيّة الصُنع (موضوعة في طبقٍ عميقِ الطراز) مع شُربِ فنجانٍ من القهوةِ الكثيفة. ومن ثم بتُّ على استعداد لأخلِّل أسناني وأيِّم وجهي شطرَ البيتِ بسيرٍ متَّئد. وعند طاولة المحاسبة لاحظتُ وجودَ صفٍّ من السيجار. انتقيتُ واحداً من ماركة " روميو وجولييت "، وبشعورٍ بالسكينة وبالرضا عن العالم أجمع، قضمتُ طرفَ السيجار ثم بصقته.

لابد أن الساعةَ كانت قد بلغَتْ الثانية حين وصلت إلى المنزل. خلعتُ ملابسي وأويتُ إلى السرير؛ استلقيتُ هناك وعيناي مفتوحتان واسعاً، متوقِّعاً أن أسمعَ في كلِ لحظةٍ وقْعَ خطاها. وقرابة الفجر غفوتُ.

جاءت في الثامنة والنصف ودخلت بخطوتها الرشيقة. لم يبدُ عليها أي أثر لإرهاق. ولم تفكّر في الإيواء إلى السرير. بدل ذلك، أخذت تعدُّ

وجبةَ إفطار – لحم خنزير مقدداً وبيضاً، وقهوةً، وخبزاً ساخناً كانت قد اشترته في طريقها. وأصررتُ على ملازمةِ سريري حتى آخر دقيقة.

بذلتُ أقصى ما في وسعي كي أدمدم متذمِّراً " ولكن أين كنتِ طوال ذاك الوقت بحقّ الجحيم؟ ". وكنت أعرف أنَّ كلَّ شيءٍ سوف يسيرُ على أحسن ما يرام – لقد كانت أشدّ إشراقاً من أن تكون خِلاف ذلك.

ناشدتني قائلة " لنأكل أولاً؛ إنها حكاية طويلة "

" هل حصلتِ على الشيك – هذا كل ما أريد أن أعرفه "

لوَّحتْ به أمامَ عينيّ.

بعد ظهر ذلك اليوم طلبنا أشياء كثيرة من مخزن العمارة، وكانت ستسلِّم لنا في اليوم التالي، وفي أثناء ذلك كنا نأمل في صَرْفِ قيمةِ الشيك. وجاء الغدُ ولم نكن قد صَرَفنا الشيك. وطبعاً عادت الملابس إلى مخزن العمارة. وفي غَمْرةِ يأسنا أوصلنا الشيك إلى أحد المصارف، مما كان يعني تأخيراً لعدّة أيام على الأقل.

في تلك الأثناء نشبتْ مشاجرةٌ خطيرةٌ بين مونا وصاحبة المُلك الحيزبون المشاكسة. إذ يبدو أنها بينما كانت منهمكةً في حديثٍ مع الجارة السورية الجميلة إذا بصاحبة المُلك تقتحم الحديقة وتبدأ بصبٍّ كل أنواع الشتائم على المرأة السورية. وفي نوبةٍ من الغضب، وجَّهت مونا إهانةً إلى العاهرة العجوز، وعلى الأثر راحت هذه الأخيرة تشتمها بأقذع العبارات، قائلةً إنها هي أيضاً سوريّة، وعاهرة، وكذا وكيت. وكادت المشاجرة تنتهي بمباراة في شدّ الشعر.

كانت حصيلة ذلك كله أننا تلقّينا إشعاراً بتركِ المكانِ في غضونِ أسبوع. ولما كنا ننوي أصلاً أن نرحل في كل الأحوال فلم نبتئس لما

حدث. ولكن كانت هناك فكرةٌ واحدةٌ تعتملُ في صدري: كيف أعاملُ بنت الحرام العجوز تلك بالمثل؟

وكان ستانلي هو الذي أنارَ لي السبيلَ إلى ذلك. فما دمنا راحلين إلى الأبد فلِمَ لا تردُّ لها الدَين بأسلوبٍ فخم؟ قلت " عظيم، ولكن كيف؟". كانَ الأمرُ سهلاً في نظره. سوف يُحضرُ الولدين معه، كالمعتاد، في اليوم الأخير؛ وسوف يضعُ بين أيديهما زجاجة صلصة البندورة، والخردل، وورق الذباب، والحبر، والطحين، وكل ما من شأنه أن يؤدِّي إلى أعمال شيطانيّة. قال " دعهما يفعلان كل ما يخطر ببالهما "، ثم أضاف" ما رأيك بهذا؟ إن الولدين يعشقان كل الأعمال المدمِّرة "

من ناحيتي وجدتُ الفكرةَ رائعةً. قلت " سوف أقدِّم لهما يد العون ما دام الأمر يتعلق بعمل مُفسد، إنني أنا بدوري مخرِّب "

في اليوم التالي لوضعِنا خطة التخريب تلك تلقَّينا من المصرف خبراً مفاده أن شيكنا بلا رصيد. وأجرينا اتصالات هاتفية بتوني مورر – وبرجل ميلووكي. فإذا بمليونيرنا قد اختفى – وكأنَّ الأرضَ انشقَّت وابتلعته. لقد كنا نحن، هذه المرة، ضحيَّتيّ عملية خداع. وضحكت كثيراً من نفسي، على رغم حزني.

ولكن ما العمل الآن؟

زففنا النبأ إلى ستانلي، فتلقَّاه بشكلٍ فلسفي. لمَ لا ننتقل إلى شقته؟ سوف ينزع الحشيّة عن سريره ويمدّها على الأرض في الردهة – لأجلنا. إنهم لا يستخدمون الردهة أبداً. أما عن الطعام، فإنه يضمن أننا لن نموت جوعاً.

سألته " ولكن أين ستنام أنت؟ أو كيف، بالأحرى؟ "

قال " على الرفّاص "

" ولكن ماذا عن زوجتك؟ "

" لن تمانع. لطالما نمنا على أرضٍ عارية "

ثم أضاف: " وفي كل الأحوال، إنه مجردُ وضعٍ مؤقّت. يمكنكَ أن تفتِّش عن عمل، وعندما تحصل عليه في وسعكَ أن تبحثَ عن مكانٍ خاص بكما "

قلت " حسن "، وشدَدْتُ على يده.

قال ستانلي " احزم أغراضَكَ. ماذا لديكما لتأخذاه معكما؟ "

" حقيبتان وآلة كاتبة، هذا كل شيء "

" إلى العمل إذن. وسوف أدفعُ الأولادَ إلى العمل ". وعلى الأثر دفع بالأريكةِ الكبيرةِ المغطّاة بشعرِ الخيلِ وأسندها إلى الباب، وذلك لمنعِ أيٍّ كان من الدخول.

بينما كانت مونا تحزم الحقيبتين رحتُ أنهبُ الخزانة. كان الولدان يتطلّعان إلى مثل ذلك الحدث. وقد أقبلا عليه بروحٍ انتقاميّة. وفي غضونِ عشرِ دقائق كان المكانُ قد أضحى حُطاماً. كان كل ما هو قابل للتلطيخ قد لُطِّخ بصلصة البندورة، والخل، والخردل والطحين، والبيض المكسور. وعلى الكراسي ألصَقَا ورقَ الذباب، ونثرا القمامة على الأرض، ثم سحقاها بكعاب أحذيتهما. أما أفضل شيء فكان ما فعلاه بالحبر. فقد سفحاه على الجدران، والسجاد والمرايا. ومن ورق المراحيض صَنَعَا أكاليلَ زيّنا بها الأثاث الملوَّث.

أنا وستانلي، من ناحيتنا، وقفنا على الطاولة وزخرفنا السقْفَ بصلصةِ البندورةِ وبالخردلِ، بالطحينِ وبطعامِ الحبوبِ الذي كنا قد جعلنا منه عجينةً غليظةَ القِوام. ومزَّقنا الملاءات والأغطية بالسكاكين

والمقصّات. وبسكين تقطيع الخبز الكبيرة اقتلعنا قطعاً ضخمة من الأريكة ذات الشَعر. وسكبنا حول مقعد المرحاض بعض المربى والعسل العفن. وكل ما كان قابلاً للقلب رأساً على عقب، للتفكيك، لتقطيع أوصاله، أو للتمزيق إرباً قَلَبْناه رأساً على عَقِبْ، وفككناه، وقطّعنا أوصاله ومزّقناه إرباً. وقد أُنجِزَ كل شيء بهياجٍ هادئ. وأوكَلْتُ أمرَ تنفيذِ الجزءِ الأخيرِ من التدميرِ إلى الطفلين، وهو التمثيلُ بالكِتَابِ المقدَّس. فأولاً غطَّساه في مغطس الحمَّام، ثم لطَّخاه بمراهمَ قذرةٍ، ثم مزَّقا منه حفنةً في الأوراقِ ونثراها في أرجاءِ الغُرفة. وما تبقَّى من الكتاب المقدَّس الذي بدا مثيراً للشفقة وضعناه بعدئذٍ في قفصِ العصافير الذي كنا ندلِّيه من الثريا. والثريات نفسها كانت مائلة وملويَّة ولم يعد لها شكل معروف. ولم يتوفَّر لدينا وقتٌ لغسلِ الولدين، فمسحناهما قدر استطاعتنا بالملاءات الممزَّقة. وكانا متورِّدَين من شِدَّة الفرح. يا له من عمل! لن يُتاح لهما أبداً أن يَقوما بمثلِه ... وبعد انتهاءِ هذه العمليةِ الأخيرةِ، جلسنا لنتداول. فأجلسَ ستانلي الولدين على ركبتيه وراحَ يُملي عليهما بكل جدّية ما يتوجَّب فعله. عليهما أولاً أن يغادرا، من باب الخروج الخلفي. ومن ثم أن يُسرِعا خطاهما مع ولوجهما عُمقَ الشارع، وبعد ذلك أن يركضا بأسرع ما في استطاعتهما وينتظرانا عند ناصية الطريق. أما نحن، فإذا قابلنا العاهرة الشمطاء المشاكسة، سلَّمناها المفاتيح وودَّعناها بكل رقّة. وسوف تَبذُل جُهداً مُضنياً قبل أن تتمكَّن من دفع الباب وفتحه، على فَرَضِ أنها ارتابَتْ في وجودِ أي فوضى. وسنكون في ذلك الوقت قد انضممنا إلى الولدين واستقلنا سيارة أجرة.

سار كل شيء وِفْقَ الخُطَة، ولم يظهر أي أثرٍ للعجوز. حملتُ أنا

إحدى الحقيبتين، وحملَ ستانلي الأخرى، وحملتْ مونا الآلة الكاتبة. وكان الولدان في انتظارنا عند الناصية، وهما في أقصى حالات المرح. استوقفنا سيارة أُجرة وانطلقنا بها إلى منزل ستانلي.

حسبتُ أنَّ زوجتَهُ سوف تتضايقُ حين تعرفُ بما فعلَهُ الولدان، ولكن لا، لقد رأت أنها مزحة رائعة. وأسعَدَها أنهما فازا بإجازةٍ ممتعة. شكواها الوحيدة كانت حول تلويثهما ملابسهما. وكان طعام الغداء في انتظارنا - لحوم باردة، وسجق، وجبن، وبيرة وبسكويت جاف. وضحكنا ملء قلوبنا لدى استعادة سرد ما جرى في الصباح.

قال ستنانلي " هاأنت ترى ما في مقدرة البولونيين أن يفعلوه. فحين يتعلّقُ الأمرُ بالتدمير لا تقف في وجوهنا حدود. إن البولونيين وحوشٌ في أعماقهم؛ بل إنهم أسوأ من الروس. عندما يَقتُلُون يضحكون، وعندما يُعَذِّبون تنتابهم هستريا من المرح. هاأنا أبيِّنُ لك طبيعةَ الحسّ الفكاهي البولوني.

وأضفتُ من عندي " وعندما يكونون عاطفيين يهبونك آخر قميص لديهم - أو الحشيّة التي ينامون عليها ".

لحسنِ الحظ كان الوقتُ صيفاً، لأنَّ الغطاءَ الوحيدَ الذي كان متوفِّراً لنا كان ملاءة ومعطف ستانلي الشتائي. ولحسن الحظ أنَّ المكانَ كان نظيفاً، على رغم الفَقْرِ المُدقعْ الذي اتَّسمَ به. لم يكن هناك صحنان متشابهان؛ والسكاكين، والشوك والملاعق، وكلها قِطَعُ مفردة، جُمِعَتْ من أكوام سقط المتاع. وكانت هناك ثلاث غرف، متجاورة، وكلها مظلمة - كانت شقَّةً قِطاريّة[٦١] نموذجية. لا يوجد فيها ماء حار، ولا حوض

٦١ - الشقة القطارية : شقةٌ ذات صف طويل من الحجرات الضيقة . - المترجم

للاستحمام، ولا حتى دش. وكنا نستحم بالدور عند مغسلة المطبخ. وأرادت مونا أن تمدَّ يدَ العونِ في الطبخ لكن صوفي، زوجته، رفضت ذلك بكل إصرار. وكان كل ما علينا أن نفعله هو أن نلفَّ حشيّتنا كل يوم وأن نكنُسَ الأرض. وكنا بين حين وآخر نغسل الأطباق.

لم يكن ذلك وضعاً سيئاً، بالنسبة إلى مقامٍ مؤقَّت. وكان الحي يبعَثُ انقباضَ النفس، بحقّ - كنا نعيشُ في مقلبٍ للنفايات، في مكانٍ لا يبعد إلا مسافةً قصيرةً عن خط سكة الحديد. وأسوأ ما في الوضع أن ستانلي كان ينام أثناء النهار. غير أنه لم يكن ينام إلا خمس ساعات. وقد لاحظتُ أنه لا يأكل إلا قليلاً. أما ما لم يكن يستطيع الاستغناء عنه فالتدخين. وكان بالمناسبة يلفُّ سجائره بنفسه؛ وهي عادةٌ اكتسبها من الأيام السابقة في فورت أوغليثورب.

الشيء الوحيد الذي لم يكن في الإمكان أن نطلبه من ستانلي فهو المصروف. وكانت زوجته تتصدَّقُ عليه بعشرة سنتات كل يوم أجرة المواصلات. وحين يغادرُ إلى مقرّ عمله كان يأخذ معه شطيرتين ملفوفتين في صحيفة. وبدءاً من يوم الثلاثاء كان كل شيء يُشترى على الحساب. كان روتيناً يُشيعُ الانقباض، لكن ستانلي كان يتّبعه منذ سنين طويلة ولا أعتقد أنه توقَّعَ أبداً أن تتغيَّر الأوضاع. ما داموا لا يأكلون في كل يوم، وما دام الولدين يتغذيان ويُكسيان.

في كل يوم وقرابة الظهيرة كنت أنا ومونا نختفي، ونذهب لنمارس أساليبنا المحترمة، ثم نعود في الموعد المحدَّد لتناول طعام العشاء. كنا نُعطي إيحاءً بأننا مُنهمكان في البحث عن عمل. وقد ركّزتْ مونا جَهْدَها على جمعِ مبالغَ صغيرة لندبِّر بها أمورنا؛ وكنت أنا أتجوَّل بلا

هدى، أزور المكتبة، والمتاحف الفنية، أو أشاهد فيلماً سينمائياً إذا سمحَتْ مواردي ولم تكن لدى أي منا أقلّ نيّة في البحث عن عمل. ولم يذكُر أيٌّ منا الموضوع أبداً أمام الآخر.

في أول الأمر سُرّوا لرؤية مونا تعود في كل يوم وقد جلبت شيئاً للأطفال. وكانت مونا تصرُّ على أن تعود وهي محمَّلة. وإلى جانب الطعام الذي كنا في أمسّ الحاجة إليه كانت كثيراً ما تجلب أطعمةً مُتْرَفَة نادرة لم يسبق لستانلي وزوجته أن تذوّقاها. وكان الطفلان يحصلان دائماً على حلوى أو معجّنات. وكانا يظلّان مستيقظَين في كل مساء في انتظارها عند الباب الأمامي ,وبقي الأمر ممتعاً لبعض الوقت. فثمة الكثير من السجائر، وأنواعٌ رائعةٌ من الكعك والفطائر، وجميع الأصناف اليهودية والروسية من الخبز، والمخللات، والسردين، وسمك التونة، والزيتون، والمايونيز، والأصداف المدخّنة، وسمك السلمون المدخَّن، والكافيار، وأسماك الرنكة، والأناناس، والفريز، ولحم السرطان، وحلوى الشرلوت روس، ولا أدري ماذا أيضاً. وكانت مونا تدَّعي أنها عطايا من أصدقاء. ولم تجرؤ على الاعتراف بأنها إنما تُبدِّد مالها على تلك المواد المترفة. وطبعاً ذُهلت صوفي. فلم تكن قد شاهدت قط مثل ذاك الكمّ الهائل من الأطعمة الذي تزخر به خزانة الطعام. وقد كان جلياً أنه في استطاعتها أن تداوم على مثل ذلك النظام الغذائي إلى ما لا نهاية. وكذا الطفلان.

ستانلي وحده لم يكن يستطيع ذلك. فهو لم يكن يستطيع أن يفكِّر إلا في حالة فاقتهم. ماذا سيفعلون بعد أن نغادرهم؟ لقد فَسَدَ الولدان. وسوف تتوقَّع زوجته حدوث معجزات لن يكون في مقدوره أن يحقّقها.

وبدأ يُبدي امتعاضه من سلوكنا المُترَفْ. وذات يوم فَتَحَ خزانةَ الطعام، وأخرجَ منها بعضاً من العُلَبْ والبرطمانات التي تحتوي على ألذّ الأطعمة المرفّهة، قال إنه سيبدِّلها بنقود، فثمة فاتورةُ غاز قد استحقّ دفعها منذ وقتٍ طويل ويجب تسديدها. وفي اليومِ التالي تنحّى بي جانباً وأبلغني بفظاظة أنَّ على زوجتي تلك أن تكفَّ عن إحضارِ الحلوى والكعك للولدين. وأخذ يبدو عليه الغمّ باطّراد. لعلَّ الأيامَ القلقَة التي كان يقضيها في النوم على الرفّاص العاري كانت تُرهقه. لعلَّه حَدَسَ أننا لا نبذل أي مجهود للحصول على عمل.

كان الوضعُ يتَّسم دون شك بطابع " هامسني[٦٢] "، لكن ستانلي لم يكن في حالةٍ مزاجيّة تسمح باستظراف هذه الخاصيّة. وعلى مائدة الطعام كنا نادراً ما نتبادل أي كلام. وكان الطفلان يتصرَّفان وكأنهما مروَّعان. ولم تكن صوفي تتكلَّم إلا إذا سَمَحَ لها بذلك سيدها وتاج رأسها. وكانت حتى أجرة المواصلات أحياناً لا تتوفَّر. وكانت مونا دائماً هي التي تمدُّ بالنقود. وتوقّعت أن أسأل بصريح العبارة كيف يُصادف دائماً أن يتوفَّر المال بين يديها. وطبعاً صوفي لم تكن قط تطرح أسئلة؛ فقد سَحَرَتْها مونا. وكانت صوفي تُلاحِقُها على الدوام بعينيها، تراقبُ كلَّ حركةٍ تندُّ عنها، وكل إيماءة. وكان واضحاً أنَّ مونا بالنسبة إليها أشبه بالإلهة.

كنتُ أتساءلُ، وأنا مستلقٍ يقِظاً في الليل، عن رَدَّة فعلِ صوفي إذا ما أُتيحَ لها أن تُتابِعَ مونا في مسلكِها الغريب الأطوار ليومٍ واحد فقط. لنفرض أنه اليوم الذي ستقابل فيه ذاك المحنَّك الأعرج من ويهوكن.

٦٢ – هامسنيّ : نسبةً إلى الكاتب النرويجي كنوت هامسن (١٨٥٩ – ١٩٥٢) . – المترجم

وطبعاً سيكون روثرمل، وهذا هو اسمه، ثملاً كالمعتاد. وسيكون منتظراً في خلفيّةِ حانةٍ لشربِ البيرة في أحد شوارع ويهوكن الجانبية الكئيبة. وسيكونُ قد أخذَ لتوِّه يُريِّلُ في كأسِ البيرة. وحالما تدخلُ عليه مونا يحاول أن ينهضَ عن مقعده وينحني لها انحناءة احتفائية، لكن ساقه الاصطناعية تُعيقُ حَركَتَه. فيأخذُ يرفرفُ بشكلٍ ينمُّ عن عجز، مثل طائرٍ كبيرٍ عَلِقَتْ ساقُهُ في فخ. فيدمدم ويسبُّ، وهو يمسح اللعاب عن بزّته بفوطة قذرة.

يغمغم " هذه المرة لم تتأخّري غير ساعتين. كم تريدين؟ "، ويمدُّ يده إلى جيب صدره الداخلي ليُخرِجَ محفظَته السمينة.

مونا طبعاً - وهذا مشهدٌ يؤديانه باستمرار - تدَّعي أنها قد أُهينت. وتقول " أبعِدْ هذا الشيء! أتظن أنَّ ذلك هو كل ما جئتُ من أجله؟ "

هو: " لعنني الله إنْ كنتُ أعرفُ سبباً آخرَ. طبعاً إنه ليس على حسابي أنا "

هكذا يبدأ الأمر. إنه حوارٌ ثُنائي تدربًا على أدائهِ مئات المرات.

هو: " حسنٌ، ما القصَةُ هذه المرة؟ حتى ولو كنتُ مغفَّلاً يجب أن أقولَ إني معجَبٌ بتلفيقك "

هي: " أيجبُ أن أقدِّمَ لكَ دائماً تبريراً؟ متى ستتعلَّم أن تضَعَ ثِقَتَكَ في كائناتٍ بشرية أخرى؟ "

هو: " هذا سؤال جميل. ولو أنك تمكثين أحياناً مدةَ نصفِ ساعةٍ لأجبتُك. متى سيتوجَّبُ عليك أن تغادري؟ "، وينظر في ساعة يده. "إنها فقط الثالثة إلا ربع "

هي: " أنتَ تعلمُ أني يجبُ أن أعودَ بحلولِ الساعةِ السادسة "

هو: " إذن فأمكِ ما زالت مريضة؟ "

هي: " ماذا ترى - أتظن أن معجزةً قد حدثت؟ "

هو: " حسبتُ أنه دورُ والدكِ هذه المرة "

هي: " أوه، كفى! أنت سكران من جديد "

هو: " هذا لصالحكِ. وإلاّ فقد أنسى أن أُحضِرَ محفظتي معي. كم تريدين؟ فلننتهِ من هذا الأمر، فقد نتمكّن بعدها من التسامُر قليلاً. إنَّ التحدُّث معكِ هو بمثابة تثقُّف "

هي: " الأفضلُ أن تجعلها خمسينَ هذا اليوم ... "

هو: " خمسون؟ اسمعي، يا أختي، أنا أعرفُ أني أحمق، لكني لستُ مَنْجَمَ ذهب "

هي: " أيجبُ أن نُكَرِّر هذا المشهد من جديد؟ "

يُخرِجُ روثرمل محفظته وهو مكتئب، ويضعها على الطاولة. " ماذا تريدين؟ "

هي: " لقد أخبرتُك "

هو: " أقصد ماذا تريدين أن تشربي؟ لا أظنكِ ستسرعين في المغادرة هكذا دون أن تشربي شيئاً؟ "

هي: " أه حسن ... فليكن كوكتيلَ شمبانيا "

هو: " أراكِ لا تشربين البيرة أبداً؟ "، ويعبثُ بمحفظته.

هي: " لمَ تعبث بذاك الشيء؟ أتحاول أن تذلّني؟ "

هو: " يبدو لي هذا أمراً صعباً ". فترة صمت. " كنتُ أفكِّر، وأنا جالس هنا في انتظارك، كيف أُقدِّم لك شيئاً مثيراً حقاً. إنكِ لا

تستحقينه، ولكن تباً! لو كانَ لديَّ أدنى قَدْرٍ من الحسّ لما جلستُ هاهنا أتحدَّثُ معك ". صمت. " أتريدين أن تعرفي بماذا أفكّر؟ أفكّر في وسيلةٍ لإسعادك. أتدرين، بوصفكِ فتاةً جميلةً تكادين تكونين أتعسَ مخلوقٍ قابلتُهُ في حياتي. أنا نفسي لستُ كتلةً من التفاؤل، ولستُ مُتعَةً للناظرين، وكل يوم أزدادُ عجزاً، ولكن لا أستطيع أن أقولَ إني بائسٌ كليّاً. لاتزالُ لديّ ساقٌ واحدة. يمكنني أن أتنقّل قفزاً. وأنا أضحكُ بين حينٍ وآخر، حتى ولو كان على حسابي. ولكن، أتدرين - أنا لم أسمعكِ قط تضحكين. هذا فظيع. في الحقيقة هو مؤلم. لقد منحتُك كلَّ ما طلبتِهِ لكنكِ لم تتغيَّري. أنتِ دائماً تقاومين التأثُّر. هذا خطأ. أقصد، إنك تؤذين نفسك ... "

هي (تقاطعه): " وسيختلفُ كل شيء إذا تزوجتُكَ، أليس هذا ما تودُّ قوله؟ "

هو: " ليس بالضبط، يعلمُ اللهُ أنَّ الأمرَ لن يكون نعيماً. ولكنْ على الأقل في إمكاني أن أعيلك. في وسعي أن أضعَ حداً لهذا الاستجداء والاقتراض "

هي: " لو أردتَ حقاً أن تحرِّرني لما وضعتَ سعراً لذلك "

هو: " إن هذا الأسلوب يناسبك. أنتِ لم يَخطرُ في بالكِ قط أن..."

هي: " تقصد أنَّ في إمكاننا أن نعيش منفصلَين؟ "

يصلُ النادلُ حاملاً كوكتيل الشمبانيا.

هو " الأفضل أن تُعِدَّ طلباً آخر - إن السيدة عطشى "

هي: " أمنَ الضروري أن نُكرِّر هذهِ المهزلةَ كلما تقابلنا؟ ألا تعتقد أنها باتت مُضجرةً قليلاً؟ "

هو: " ليست كذلك بالنسبة إليّ. لم تبق لدي أي أوهام. اللهمَّ إلا في حديثي معك. إني أفضِّلُ هذا الحديثَ على الكلامِ عن المستشفيات والمرضَى "

هي: " أراكَ لا تصدِّقْ حكاياتي؟ "

هو: " أنا أُصَدِّقُ كلَّ كلمةٍ تتفوّهين بها - لأني أريدُ أنْ أُصدِّقها. لابد لي من أنْ أؤمن بشيءٍ ما، حتى وإن كان فقط أنتِ "

هي: " فقط أنا؟ "

هو: " كفاك، أنتِ تعرفين ما أعني "

هي: " أنت تعني أني أعاملك كمغفَّل "

هو: " ما كنتُ أنا نفسي لأقْدِرَ على التعبير عن هذا بدقَّةٍ أشدّ. فشكراً لك "

هي: " كم أصبحتْ الساعةُ الآن من فضلك؟ "

ينظرُ روثرمل في ساعته. يقول كاذباً " إنها بالضبط الثالثة والثلث". ثم أردفَ، بسيماء المذعور: " يجب أن تتناولي كأساً أخرى، لقد طلبتُ منه أن يُحضِر لك طلباً آخر "

هي: " اشربه أنت، ليس لدي وقت "

هو (مسعوراً): " هيه، أيها النادل، أين ذاك الكوكتيل الذي طلبته قبل ساعة؟"، وينسى نفسه ويحاولُ أن ينهضُ عن كرسيه فيتعثَّر ويغوص ثانية، وكأنه مُرهَق. " اللعنة على تلك الساق! إني أفضَلُ حالاً بجدعةٍ خشبيّةٍ. اللعنةُ على الحربِ اللعينةِ المنيوكة! عذراً، لقد نسيتُ نفسي... "

لكي تسعده ترشفُ مونا رشَفةً من الكوكتيل، وتسرع في النهوض، وتقول " يجب أن أنطلق "، وتشرع بالسير نحو الباب.

يهتفُ روثرمل " انتظري دقيقة، انتظري دقيقة! سأطلبُ لكِ سيارةَ أُجرة "، ويُخرِجُ مِحفَظَتِه من جيبه ويَعْرُج في إثرها.

في سيارة الأجرة يضعُ المحفظةَ في يدها، ويقول " خذي ما تشائين. أنت تعلمين أني كنتُ فقط أمزحُ قبل ذلك "

أخذتْ مونا بهدوء بضع أوراق مالية ثم حشرتْ المحفظة في جيبه الجانبي.

" متى سأراكِ ثانية؟ "

" عندما سأحتاج إلى مزيدٍ من المال، بلا ريب "

" ألا تحتاجين أبداً إلى أي شيء آخر غير النقود ؟ "

صمت. شقَّت السيارة التي يستقلانها شوارع ويهوكن المجنونة الكائنة في " العالم الجديد "، وفقاً لما يُبيّنه الأطلسُ، ولكن التي يمكن أيضاً أن تكوِّن نتوءاً صغيراً على سطح كوكب أورانوس. وثمة مدنٌ لا يزورها المرءُ أبداً إلا خلال لحظاتِ اليأس - أو عند انقلاب القمر عندما يتشوَّش كاملُ النظامِ الهرموني. وثمة مدنٌ خطّطها قبل دهورٍ نائيةٍ رجالُ عالمٍ سحيقٍ في القِدَم كان عزاؤهم أنهم عَلِموا أنهم لن يسكنوها أبداً. وفي مُخَطَّط الأشياء هذا المنطوي على مفارقةٍ تاريخيّة لا شيءَ ناقصاً ماعدا حيوانات ونباتات حقبة جيولوجية مفقودة. وترى كل شيء مألوفاً وأيضاً غريباً. وعند كل زاوية يتبلبلُ المرء. وأسماءُ الشوارعِ مُربكة.

روثرمل غائصٌ في أريكته، يحلمُ بحياةِ الخنادقِ المنوَّعة. إنه يظل محتفظاً على مهنتِه كمحامٍ حتى وإن لم يكن لديه إلا ساق واحدة. وهو لا يكره فقط " البوخ[٦٣] " الذين نسفوا ساقه، بل ويكره أبناءَ بَلَدِه بالقدر

٦٣ - البوخ : وصفٌ ساخر للألمان . بدأ خلال الحرب العالمية الأولى . - المترجم

نفســه لأنـه يُدمن على السُكْر. ويكره كلَّ الجنس البـشـري، والطيـورَ، والحيـوانات، والأشـجارَ وأشعـةَ الشـمس. وكل مـا تبـقّى له من الماضي الأجوف هو المال. وهو يكره هذا أيضاً. إنه في كل يوم يستيقظ من نومٍ مخمورٍ لينتقل إلى عـالمٍ زئبقيّ؛ ويتعـاملُ مع الجـريمةِ وكأنَّهـا سلعـةٌ، كالشعيرِ، والقمحِ، والشوفانِ. وحيث كـان ذات يوم يثبُ، ويغرِّد كقُبَّرة، أصبحَ الآن يَعْرُجُ بحركاتٍ مُسترقـة، ويسعلُ، ويتـأوَّه، ويصفِّر. وفي صبيحةِ المعركةِ المُهلكة كان شاباً، ممتلئاً بالرجولة وبالحيوية. وكـان قد أبادَ مجموعة من " البوخ " بمدفعه الرشاش، وصرَعَ اثنين برتبة ملازم أول من فـرقـتـه الخـاصـة، وكـادَ يطلقُ النارَ على المطعمِ المتنقِّل. وفي تلك الأمسية نفسها ارتمى غارقاً في دمه هو ويجهشُ بالبكاء كطفل - لقد تجاوزه عـالمُ الرجال ذوي السـاقين؛ ولن يتمكَّن أبداً من الانضمام إليهم. وراحَ يعوي كحيوانٍ دون جدوى. ودون جدوى صَلَّى. وبدون جدوى نادى على أمّه. كانت الحرب بالنسبة إليه قد انتهت - وكان هو أحد رُفاتها.

حين وقعَ بَصَرَه من جديدٍ على ويهوكن ودَّ لو يزحفُ حتى يصلَ إلى سريرِ أُمِّه ويموت. وطلبَ أن يرى الغرفةَ التي تعوَّدَ أن يلعبَ فيها وهو طفل. وأطلَّ من نافذةِ الطابقِ العلوي على الحديقة وبَصَقَ عليها بفورةٍ من يأسٍ تام. وأوصد بابه دون أصدقائه القدامى وأدمنَ على الخمر. ومرَّ زمنٌ طويل كان خلاله يتحرَّكُ ذهاباً وإياباً كالمكُّوك على مغزل الذاكرة. ولم يكن يتمتَّع إلا بضمانٍ واحد - الصحة. كان الأمرُ أشبهُ بقولكَ لرجلٍ أعمى إنَّ في إمكانه أن يقتني عصا بيضاء اللون.

وذات أمسية، وبينما كان جالساً على طاولةٍ في حانةٍ رخيصةٍ في منطقةِ " الفيليج " إذا بامرأةٍ تقتربُ منه وتمدُّ له يدها بنسخةٍ من " نقش

تظليلي " ليقرأها. فيدعوها إلى الجلوس، ويأمرُ لها وجبةَ طعام. وينصتُ إلى حكاياتها، وينسى أن له عضواً اصطناعياً، ينسى أنه كانت هناك ذات يوم حربٌ طاحنة. ويدركُ فجأة أنه يعشقُ تلك المرأة. وهي ليست بحاجة إلى أن تحبّه؛ كل ما هو مطلوبٌ منها أن تكون موجودة. ولو توافقُ على أن تقابله أحياناً، فقط بضع دقائق، لأصبحَ للحياةِ معنى من جديد.

هكذا يحلم روثرمل. إنه ينسى كل المشاهد الممزِّقة للقلب التي لطَّخت هذه اللوحة الجميلة؛ ومستعدٌ لعملِ أي شيء من أجلها، حتى الآن.

والآن فلنترك روثرمل بعض الوقت. لندعَهُ يحلمُ وهو في سيارةِ الأُجرةِ المحمولةِ على متن المعدِّية التي تتهادى برفقٍ بين أحضان نهر هدسن. وسوف نقابله مرة أخرى، على شواطئ جزيرة مانهاتن.

في الشارع الثاني والأربعين تغوصُ مونا داخلَ النفقِ لتعودَ فتظهرَ بعد بضع دقائق في ساحةِ شيريدان. هنا يصبحُ مسارُها شارداً بحق. فإذا كانت صوفي ما تزال تتعقَّبُ خطاها فسوفَ تجد صعوبةً حقيقية في تتبُّعها. إنَّ منطقةَ " الفيليج " هي شبكةٌ من المتاهات خُطِّطَت وفقاً للتأمّلات الحالمة المتماوجة مع نفسه عند نهاية شارع ملتوٍ. فهناك ممرات ضيّقة، وأزقّة، وأقبية وعلّيات، وساحات مربّعة، ومثلّثة، وأفنية، وكل ما هو شاذ، ومتنافر ومُربك: كل ما ينقصُ هو جسور ميلووكي. وثمة منازلُ كبيوت الدُمى، محشورة بين مجمَّعات سكنيّة كئيبة ومصانع رهيبة، تغفو في فراغٍ لا زمنيّ لا يوصفُ إلا بالديكانات . decans الماضي الحالم، النعسان، ينضحُ من واجهات الأبنية، ومن الأسماءِ

العجيبة للشوارع، ومن النموذج المصغّر لميزانِ جَلَبَةُ الألمان. ويُعلنُ الحاضرُ عن نفسِه من خلالِ الصراخِ الصارّ لأولادِ الشوارع، والهديرِ المكتومِ لحركةِ المرورِ الذي لا يكتفي بهزّ الشريات وإنما أُسُسَ سكة الحديد نفسها. وتطغى على كل شيء فوضى السباقات، واللغاتُ، والعاداتُ. والأميركيون الذين شقّوا طريقهم بصعوبة أناسٌ غريبو الأطوار. سواءٌ أكانوا أصحابَ مصارف، أم سياسيين، أم حكّاماً، أم بوهيميين، أم فنانين حقيقيين. كلُ شيءٍ رخيصٌ، ومبهرجٌ، وسوقيّ، وزائف، وحقيبةُ النَضْحِ المُصَغَّرة تقف على قدمِ المساواةِ مع آمرِ السجنِ الكائنِ عند الزاوية. والتآخي، كما هو حاصل، يحدثُ في قاع البلد البوتقة[٦٤]. الجميع يحاولون أن يتظاهروا بأنّه أشدُ مواقعِ المدينةِ إثارةً للاهتمام. إنه الحيُّ المملوءُ بالشخصيات المميَّزة؛ وهي تتصادمُ كالبروتونات والإلكترونات، ودائماً في عالمٍ خُماسيّ الأبعاد أساسُهُ العَمَاء.

في مثلِ هذا العالمِ تشعرُ مونا بالألفةٍ وبكيانها المتكامل. وكلما سارت بضع خطوات صادفتْ شخصاً تعرفه. وهذه المقابلات تشبه إلى حدٍ مدهشٍ تصادُماتِ النملِ وهو في ذروةِ عَمَلِه الشاقّ. والحديثُ الذي يتمُّ تبادله بواسطة هوائيات يجري ببراعةٍ مسعورة. هل حصل ثوَرانٌ ما مدمِّر يُقلقُ بصورة حيوية كامل تلّ النمل؟ إن الركضَ صعوداً وهبوطاً على دَرَجِ السلَّم، والتحيات المتبادلة، والمصافحات، وحكٌّ الأنوف، والإيماءات المبهمة، والأحاديث التمهيديةَ، والغرغرات والغرغرات المقابلة، وإرسال الهوائيات، وارتداءَ الملابس وخلعَهَا، والهمسَ، والتحذيرات، والتهديدات، والتضرّعات، وعمليات التنكُّر - كل هذا يجري على

٦٤ - بلد البوتقة : البلد الذي ينصهر فيه المهاجرون على اختلاف أعراقهم في مواطنيّة واحدة . - المترجم

طريقة الحشرات وبسرعة لا تقْدرُ على حشدها إلا الحشرات. وحتى حين تحجُزُ الثلوجُ الناسَ في بيوتهم تعجُّ منطقةُ " الفيليج " بالحركة المستمرَّةِ وبالهياج. ومع ذلك فلم يكن يتلو أبداً أي شيء على أدنى قدرٍ من الأهميّة. وفي الصباح لا يكون هناك إلا إصابات بالصداع.

إلا أنه أحياناً، توجدُ هناك، في أحد تلك المنازل التي لا يراها الإنسان إلا في الأحلام، مخلوقةٌ شاحبةٌ، خائفةٌ، وعادةً ذاتُ جنسٍ مريب، من النوع الذي ينتمي إلى عالم دو مورييه، أو تشيخوف، أو ألان فورنييه. قد يكون اسمها ألما، أو فريدريكا أو أورسولا، أو مالفينا، اسماً متناغماً مع الضفائر والصحراء، والقوام الرافائيللي[٦٥]، والعينين الغيليتيين[٦٦]. مخلوقةٌ نادراً ما تغادرُ المنزلَ، وإذا فعلَتْ ففي الساعات المبكِّرة جداً فقط من الصباح.

نحو مثل هذه الأنماط تنجذبُ مونا بشكلٍ يائس. ويُغلِّفُ كلَّ ممارساتها الجنسية في الخَفاء صداقةٌ سرِّيةٌ. تلك المهام التي تدفعها إلى مَخْرِ عَبَابِ الشوارعِ الضيِّقَةِ قد لا يتعدَّى الهدف منها شراء دزينةٍ من لبيض الإوز الأبيض. ولا ينفع أي بيض آخر. En passant (بالمصادفة) قد يخطر لها أن تُفاجئ صديقتها الملائكية بأن تبتاع لها حَجَراً كريماً منقوشاً عَتيقَ الطراز مُحاطاً حتى الاختناق بأزهار البنفسج، أو كرسياً هزّازاً من تلال داكوتا، أو علبةَ سعوطٍ تفوحُ برائحة خشبِ الصندل. وتصلُ الهدايا أولاً ومن ثم بضع أوراق نقدية خارجة للتو من دار ضرب العملة. وتصلُ وهي على آخر نَفَس وتغادرُ وهي على آخر نَفَس، وكأنما بين قَصْفِ الرعود. حتى روثرمل ما كان أبداً ليرتاب في

٦٥ – الرافائيللي : نسبة إلى الفنان الإيطالي رافائيل (١٤٨٣ – ١٥٢٠) . – المترجم

٦٦ – الغيليتي : نسبة إلى سكان اسكتلندا وأيرلندا . بلاد الغيل . – المترجم

السرعة الفائقة والأغراض التي تُنفَقُ فيها نقوده. وكل ما نعرفه، نحن الذين نحيِّيها في نهاية يومٍ محموم، أنها قد نجحتْ في شراءِ كميةٍ من البقالة وأنَّ في وِسْعِها أن توزِّع بعض الفكّة. وفي حي بروكلن نتحدثُ بلغةِ قِطَع النقدِ النحاس، والتي في الصين تسمى " كاش ". وتلعبُ كالأطفال بالنكلات، والدايمات، والبنسات. أما الدولار فمفهومٌ مجرَّدٌ يُستَخدَمُ فقط في التمويل الضخم ...

مرةً واحدةً خلال فترة مكوثنا مع البولونيين غامرنا، ستانلي وأنا، بالسفر معاً إلى الخارج. وذلك لنشاهد فيلم ويسترن يضمُّ عدداً من الجياد البرية الرائعة. وتذكَّرَ ستانلي أيام كان منخرطاً في سلاح الفرسان، ففرِحَ أيَّما فرح حتى أنه قرَّرَ ألا يلتحق بالعمل في ذاك المساء. وكان طوال فترة تناول الطعام يحكي لي حكايات. وكان مع كل حكاية يصبحُ أكثرَ رِقّة، وتعاطفاً، ورومانسية. وفجأة تذكَّرَ المراسلات الضخمة التي تبادلناها في سنيّ مراهقتنا.

بدأ كل شيء في اليوم الذي تلا رؤيتي له قادماً على طول " شارع الأحزان المبكِّرة "، جالساً في أعلى عربة الموتى إلى جوار السائق. (بعد وفاة عمّه كانت عمّة ستانلي قد تزوَّجت من حانوتي، وأيضاً بولوني. وكان على ستانلي دائماً أن يرافقه في حملات الدفن)

كنتُ في وسط الشارع، أتصيَّدُ، عندما اقتربَ موكبُ الجنازة. كنتُ متأكداً من أن ستانلي هو الذي لوَّحَ لي بيده، ومع ذلك لم أصدِّق عينيَ. ولو لم يكن موكباً جنائزياً لسرتُ بمحاذاة العربة وتبادلت معه التحيات. وقفتُ، والحال كذلك، ثابتاً في مكاني، أراقبُ الموكبَ وهو يحتفي ببطء عند المنعطف.

كانت تلك المرة الأولى التي أشاهدُ فيها ستانلي منذ ست سنوات. وقد تَركَتْ في نفسي انطباعاً قوياً. وفي اليوم التالي جلستُ وكتبتُ له رسالةً - وجَّهتها إلى عنوانه القديم.

عندئذ أظهرَ ستانلي أولَ رسالةٍ تسلَّمها مني - وكل الرسائل الأخرى التي تلتها. وخجلتُ وأنا أُخبره بأني قد أضعتُ رسائله منذ وقتٍ بعيد. لكني ما أزالُ أذكرُ نكهتها، وكانت كلها مكتوبة على صفحات طويلة صفراء، بالقلم الرصاص، وبخط يدٍ غاية في الأناقة. خطُّ يدِ شخصٍ مستبدّ. وتذكَّرتُ صيغة التحيّة الخالدة التي كان يستخدمها: "يا صاحبي الرائع! "، موجَّهة إلى صبي ببنطالٍ قصيرٍ. كانت رسائلَ، إذا تحدّثنا عن الأسلوب، جديرةً بأن يكون تيوفيل غوتييه[٦٧] قد وجَّهها إلى متملِّقٍ ذليلٍ مجهول. مُخدَّرَة بالاقتباسات الأدبية. لكنها كانت دائماً تبثُّ فيَّ الحمَّى.

لم أفكِّر أبداً فيما كانت تحتويه تلك الرسائل. كانت تنتمي إلى ماضٍ ناءٍ، ماضٍ منسيّ. وهاأنا أحملها بيدي، وترتعش يدي وأنا أقرأها. إذن هكذا كنتُ في عهد مراهقتي؟ خسارة أنَّ أحداً لم يفكِّر في تحويلنا إلى فيلم سينمائي! لقد كنا شخصين مضحكَين. كنا قردين، ديكَين مُشاكسَين، متغطرسَين صغيرين. نناقشُ أموراً مملَّة خرقاءَ كالموت والأبدية، والتناسخ، والتقمُّص، والفجور، والانتحار. نتظاهرُ بأنَّ الكتبَ التي قرأناها لا تُقارَنُ بتلك التي سنؤلِّفها نحن ذات يوم. ونتحدث عن الحياةِ وكأننا خَبِرناها حتى النُخاع.

ولكن حتى في تمارين الشباب المدَّعية هذه اكتشفتُ مذهولاً بذورَ

---

٦٧ - تيوفيل غوتييه (١٨١١ - ١٨٧٢) : شاعر وروائي فرنسي . - المترجم

مَلَكَةٍ تخيُّليّة مع مرورِ الزمن. حتى في تلك الرسائل الملوَّثة كانت هناك تلك الفترات من الخمول والاندفاع التي تدلُّ على وجودِ براكين مستترة وصراعات كامنة. وتأثّرتُ إذ لاحظتُ أني حتى في تلك الفترة كان يمكن أن أفقدَ ذاتي، أنا الذي لا أكادُ أعي أنَّ لي ذاتاً. وتذكّرتُ أنَّ ستانلي لم يفقدَ ذاتَه قط. كان له أسلوبٌ خاصٌ وكان مُثبَّتاً فيه، وكأنه مُقيَّدٌ بمُخَصِّر. وأذكرُ أني في تلك الفترة كنت أعتَبِرُهُ أكثر نضجاً مني بكثير، وأكثر غِنى وتعقيداً بكثير. كان بمثابة الكاتب اللامع؛ وكنتُ بمثابة الكاتب المبتدئ. وبوصفِهِ بولونياً كان يحملُ إرثاً لامعاً؛ وكنت مجرَّدَ أميركيّ، غامضِ السَلَفِ ومشكوكٍ فيه. كان ستانلي يكتبُ وكأنَّه قد نزلَ من السفينة فقط قبل بضعة أيام. وكنتُ أكتبُ وكأني لم أتعلَّم اللغةَ إلا لتوّي، بما أنَّ لُغتي الحقيقية كانت لغةَ الشوارع، وهي ليست بأي حال لغة. وكنتُ دائماً أتخيَّلُ خلفَ ستانلي صَفَّاً طويلاً من المحاربين، والدبلوماسيين، والشعراء، والموسيقيين. أما أنا، فلم يكن لي أي أسلاف، وكان عليّ أن أختلقهم.

الغريب في الأمر أنَّ أيَّة مشاعر تتعلَّقُ بالصِلات النَسَبيّة أو العابرة بالماضي يمكن أن تنشأ داخلي كانت تُثيرها عادةً إحدى الظواهر الثلاث المتفاوتة بشكلٍ غريب: أولاً، الشوارع القديمة الضيقة، المحفوفة بالمنازل الصغيرة المنمنمة؛ ثانياً، نماذجُ معيَّنة وهميةٌ من الكائناتِ البشرية، هم في العموم حالمون أو متعصِّبون؛ ثالثاً، صورٌ فوتوغرافية للتبت، وخاصّة المشهد الطبيعي لمنطقة التبت. وكان يمكن أن أُصابَ فوراً بالارتباك، وحينئذٍ كنتُ متوائماً بشكلٍ رائعٍ مع العالمِ ومع نفسي. فقط في مثلِ تلك اللحظات النادرة عرفتُ نفسي أو ادَّعيتُ فهمها. بمعنى، أن صِلاتي

كانت مع الإنسان وليس مع البشر. فقط حين تحوّلتُ عائداً إلى الخط الأساسي الكبير صرِتُ أعي إيقاعي الحقيقي، وجودي الحقيقي. كانت الفردية بالنسبة إليَّ هي حياةٌ ذات جذور؛ والإزهارُ يعني الثقافة – أي باختصار، عالمُ التطوُّر الدَوْري. في نظري كانت الشخصيات العظيمة دائماً متطابقةً مع جذعِ الشجرة. وليس مع الأغصان والأوراق. وكانت الشخصيات العظيمة قابلة لأن تفقدَ هويتَها بسهولة: جميعها تنويعات لإنسانٍ واحدٍ، هو آدم قدموس، أو كائناً ما كان اسمه. ونَسَبي كان يبدأ منه، وليس من أسلافي. وحين صرتُ أعي أني فائقُ الوعي؛ باتَ في إمكاني أن أقفزَ إلى الخلفِ بقفزة واحدة.

وستانلي، مثل كل الشوفينيين، تقصّى نَسَبَه المتسلسل فقط حتى بدايات الأمة البولونية، أو بمعنى آخر، حتى مستنقعات " بريبت ". وهناك يربُضُ عاجزاً عن التقدُّم، مثل ابن عرس. إن هوائيه لا يمتدُّ لأبعد من الحدود القريبة من بولونيا. وهو لم يصبح قط أميركياً، ليس بالمعنى الحقيقي للكلمة. فقد كانت أميركا بالنسبة إليه مجرَّد وضع معيَّن أو حالة من النشوة تسمح له بنقل جيناته البولونية إلى ورثته. بمعنى، إنَّ وجودَ أي اختلافات عن المعيار الأساسي، عن النموذج البولوني، كان يجب عزوها إلى دقائق الضبط والتطابق. وأيُ صفة أميركية فيه لم تكن أكثر من خليطٍ سوف يتبدَّد في الجيل الذي سينشأ من صلبه.

إن ستانلي لم يُفشِ قط هذه الهواجس صراحةً، غير أنها كانت موجودة وتتبدّى على شكل تلميحات. والتشديد الذي يضعه على كلمةٍ ما أو عبارةٍ كان دائماً يُعطي المفتاحَ لمشاعرِهِ الحقيقية. كان متنافراً تماماً مع العالم الجديد الذي وجد نفسه فيه. كان يبذل فقط ما يكفي من الجهد

ليَبْقى على قيد الحياة. كان يُسايرُ حركةَ المرورِ، كما نقول، ولا أكثر. وعلى الرغم من أن تجربته في الحياة كانت سلبيةً صِرفاً إلا أنها مع ذلك كانت فعَّالة. وكانت أشبه بشحنِ البطارية: إنَّ أولاده سوف يقيمون الصِلات الضرورية بالحياة. ومن خلالها يحيون طاقة البولونيين العرقية، وأحلامهم، وتطلعاتهم، وطموحاتهم. وكان ستانلي سعيداً بسكناه في عالمٍ وَسَطي.

رغم تسليمي بكل هذا، إلا أنه كان من قبيل التَرَف بالنسبة إليّ أن أسبح في عبقِ الروح البولونية السامّ. كنتُ أسمِّيها بولونيزيا. أي بحر داخل اليابسة، مثل بحر قزوين، تحيطُ به السهوب. وفوق المياه المضطربة، الآسنة، فوق مخاطر محجوبة خادعة ومنابع خفيّة، تحلِّق طيورٌ ضخمة مهاجرة، نُذُر الماضي والمستقبل - ماض ومستقبل بولونيان. وكل ما يحيط بهذا البحر كان ضاراً وسامّاً. ومن اللغة وحدها كان يُستَمَدُّ الكثيرُ من الرزق اللازم.

كنتُ دائماً أقول لنفسي، ما هي مواطن غِنى اللغة الإنكليزية إذا ما قُورنت بالنُضرة الشجيّة لهذه " البابل "؟ فعندما يستخدم بولونيّ لغته الأم فإنه لا يتحدَّث فقط إلى صديقه وإنما إلى مواطنيه في كل مكان من العالم. أما إلى أُذُن شخصٍ أجنبي مثلي، حَظِيَ بامتيازِ تقديمِ يدِ العونِ في مثل هذه الإنجازات المقدَّسة، فقد بدت خطابات أصدقائي البولونيين أشبه بمناجاة فرديّة لا نهاية لها تُلقى على مسامع حشدٍ لا يُحصى من أطيافِ يهودِ الشتات في الداخل والخارج. إنَّ كلَّ بولوني يعتبر نفيه القيِّم السرّي على المخزون الخرافي للسلالة وبموته يموت جزءٌ سرّيٌ من الدقائق المتراكمة، التي لا يَسبِرُ غورَها الغرباءُ. ولكن لا شيءَ يضيعُ في

اللغة: فطالما بقي بولونيّ واحد يُتقِنُ لفظها، فسوف تبقى بولونيا حية.

حين كان ستانلي يتكلّم البولونية يصبحُ رجلاً آخرَ. حتى حين يتحدث مع إنسانٍ بتفاهة زوجته صوفي. وقد يدور حديثه حول الحليب والبسكويت الهش، لكنه يبدو لأذني وكأننا عُدنا إلى عصرِ الفروسية. لا كلمةَ أفضلَ في وصفِ تغيُّرات طَبَقَة الصوت، وتنافرات وتقطيرات هذه اللغة من كلمة الخيمياء. واللغة البولونية، كمُذيِّب قوي، تُحوِّل الصورة، المفهوم، الرمز أو المجاز إلى سائلٍ شفّاف غامض له عَبَقٌ كافوريّ توحي، برنينها المعسول، بتعاقُبٍ وتبادلٍ دائمَين بين الفكرة والحافز. والموسيقى البولونية - إذ أنها بالكاد تكون لغة - بانبثاقها مثل نبعٍ حارّ من فوهة الفم الإنساني، إنما تستهلك كل ما تلمسه، وتُسكِر العقلَ بالأبخرةِ الحريفة، اللاذعةِ، لنبعها المعدني. إن رجلاً يستخدمُ هذه الوسيلة لا يكون مجرَّد رجلٍ - إنه ينتحلُ قُدُرات ساحر، ولا يمكن لكتابِ دراسةِ الشياطين والعفاريت إلا أن يكون قد كُتِبَ بهذه اللغة. ولا يفيدنا في شيء أن نقول إنَّ هذه سِمَةُ الشعوبِ السلافية. فكونُ المرء سلافياً لا يعني أنه بولوني. البولوني فريدٌ من نوعه وفوقَ النقد؛ إنه المُحرِّك الأول، الدافع الأصلي مُجَسَّداً، وعالمه هو عالمُ الموتِ الرهيب. الشمسُ بالنسبة إليه انطفأتْ منذ زمنٍ بعيد. وبالنسبة إليه كل الآفاق محدودة ومُحدَّدة. إنه يائسُ السُلالة كلها، اللاعن لنفسه والمُبرِّئ لها. أتراه يُجَدِّدُ العالم؟ بل إنه يُفضِّل أن يَجُرَّه إلى أسفل السافلين.

دائماً كانت تطفو على السطح ذكرياتٌ من هذا النوع لدى مغادرتي المنزل لأُريِّض ساقيَّ. وعلى مسافةٍ قصيرةٍ من منزل ستانلي يقعُ عالمٌ مماثلٌ من أوجهٍ متعدِّدة لذاك الذي عرفته وأنا طفل. يخترقه قنال أسْوَدْ

بلون الحبر، مياهه الآسنة تفوح بنتانةِ عشرةِ آلافِ حصانٍ ميِّت. ولكن تكتنفُ القنال من كلّ جانب أزقَّةٌ ملتويةٌ، وشوارع دوَّامة، ما زالت مرصوفةً بالحصى الكبيرة، والأرصفة باليةٌ تحفُّها من الجانبين أكواخٌ صغيرةٌ منمنمةٌ يصدرُ عنها ضجيجُ مصاريع نوافذ محلولة عن مفاصلها، تعطي إيحاءً، عن بُعد، بأنها حُروفٌ عبريّة ضخمة. وكانت تُغطّي أرضَ الشوارع قِطَعٌ من الأثاث، والطُرَف، والأواني المنزلية، والأدوات ومواد من كلّ صنفٍ ولون. إنها حافّة العالم الاجتماعي.

كنتُ كلما اقتربتُ من تُخومِ هذا العالم الليليبوتي[٦٨] أتحوَّل إلى صبيّ في العاشرة من عمره. وتصبحُ حواسي أشدَ رهافةً، وذاكرتي أكثرَ حيويّة، وجوعي أكثرَ حِدَّة. كان في إمكاني أن أُقيمَ حواراً مع الذات التي كُنتُها ذات يوم ومع الذات التي أصبحتُ عليها. لم أكن أعرفُ مَنْ هو " أنا " الذي يسير ويتنشّقَ ويكتشفُ. إنه " أنا " حِواريّ، دون أدنى شك؛ " أنا " تُغريه محكمة عدلٍ عُليا بالشهادة الزور ... في ساحة صراعٍ فوق الوعي هذه كان ستانلي دائماً يبرُزُ برقَّة. كان الرفيق الخفيّ الذي نقلتُ إليه تلك الأفكار اليرقيّة التي تروغُ من الكلام. مهاجرٌ، يتيمٌ، منبوذٌ - من هذه المقوّمات الثلاثة كان يتألّف. وكان كل منا يفهمُ الآخر لأننا كنا على طرفيّ نقيض. كنت أعطيه بكل فخامة ما يثيرُ حَسَدَه؛ وكان يُلقِّمني بمنقاره القذر ما أتوق إلى أكله. كنا نحتشد كالسمك السياميّ على السطح الذي ينمو عليه الزَغَبُ الشمعيّ لبحيرةِ طفولتنا. لم نكن نعرف مَنْ هو حامينا. وكنا مبتهجين في حرّيتنا المُتخَيَّلة.

---

٦٨ - الليليبوتي : نسبة إلى أرض ليليبوت ، أو أرض الأقزام ، في رواية " رحلات غاليفر " لجوناثان سويفت . - المترجم

إنَّ ما أَسَرَني وأنا طفل، وما يأسُرُني حتى يومي هذا، هو عَظَمَة خروجِ اليرقةِ من البيضةِ وروعتِه. وهناك في عهدِ الطفولة أيامٌ منعشةٌ يخرجُ خلالها المرءُ، ربما بسببِ بُطءِ تقدُّم الزمنِ الهائل، إلى العالم الغافي. وهو ليس عالمُ البشر، ولا عالم الطبيعة النعسانة - إنه العالمُ اللاحيّ للحجارة، والمواد، والأشياء. العالم اللاحيّ متبرْعِم ... وبعينيّ الطفولة البطيئتيّ الحركة يراقبُ المرءُ لاهثاً مملكةَ الحياة الكامنة هذه بينما يتبدَّى وجيبُها ببطء، ويعي وجودَ تلك الأشعة الخفيَّة التي تنبثقُ على الدوام من أنأى أركانِ الكونِ وتشعُّ من أصغرِ كونٍ ومن أعظمه. " كما في الأعالي، كذلك في الأسفل ". وينفصلُ المرءُ في غمْضَةِ عينٍ عن عالمِ الواقعِ الماديّ المُضَلِّل؛ ومع كل خطوةٍ يضعُ نفسه على مفترق طُرُق هذه الإشعاعاتِ المتراكزةِ التي هي الجوهر الحقيقي لواقعيّةٍ كاملةِ الشموليّة والانتشار. حيث لا معنى للموت؛ ولا شيءَ غيرَ التغيُّر، والتذبذب، والخلق، وإعادة الخلق. وتَصْدَحُ أغنيةُ العالم، المُسجّلة في كل ذرَّة من ذلك الجوهرِ الشاسعِ المسمَّى المادة، بتناغمٍ يفوقُ الوصفَ ترشحُ من خلال الكيان الملائكي الرابض في سُباتٍ داخلِ صَدَفة الكائن الجسديّ المسمَّى الإنسان. وحالما يهيمنُ الملاكُ، يزدهرُ الكائنُ الجسديّ. وفي كل أرجاء العوالم المختلفة يحدثُ إزهارٌ هادئٌ، متواصل.

لماذا تحب الملائكة، التي نُقرِنُها بحماقةٍ بالفراغاتِ الشاسعةِ التي تفصلُ بين النجوم، كل ما هو mignion (لذيذ)؟

حالما أصلُ إلى ضفَّتيّ القنال، حيث يقع عالمي المنمنم منتظراً، يهيمنُ الملاكُ. لا أعود أدقِّقُ النظرَ في العالم - فالعالم هو في داخلي، أراه بوضوحٍ بعينين مغمضتين كما لو أنهما مفتوحتان واسعاً. هو

افتتانٌ، وليس سحراً. استسلمْ. يستسلمُ النعيمُ المُرافق. وما كان خراباً، اهتراءً، دناءةً، يتحوَّلُ. عينُ الملاك المجهريّة ترى الأجزاء اللامتناهية التي تؤلِّفُ الكلَّ القـدسيّ؛ عين الملاك المُقَـرِّبة لا ترى إلاّ المجـمـوع الكُلّي، الكامل. وفي أعقاب الملاك لا ترى إلا أكواناً - ولا أهميّةَ للحجم.

حين ينظرُ الإنسانُ، بحسِّه المثير للشفقة بالنسبيّة، من خلال العدسةِ المُقَرِّبة ويتعجَّبُ من ضخامةِ الخليقة، فإنه يكادُ يعترفُ بأنه قد نجحَ في اختزالِ اللامحدود وجَعْلِه محدوداً. إنه يكتسبُ، إذا جاز التعبير، عقاراً بصرياً في العَظَمةَ اللامتناهية لخليقةٍ يعجزُ عن الإحاطة بها. فما أهمية أن ينجحَ في وضعِ ألفٍ من الأكوانِ داخل محرقِ عدستِه المقرِّبة المجهريّة؟ وعمليّـة التكبيـر لا تعملُ إلا على تعزيزِ حسّ النموذجِ المصغَّر. لكنَّ الإنسانَ يشعرُ بألفةٍ أكبرَ في كونه الصغير، أو هكذا يتظاهرُ، بعد أن يكشفَ عمّا يكمنُ بعده. وفكرةُ أنَّ حجمَهُ قد لا يتعدّى حجمَ كُريَّة دمٍ متناهيةٍ في الصغَر تسلبُ لبّه، وتخفِّفُ من ألمه المبرِّح. لكنَّ استخدامَهُ للعينِ الاصطناعيّة، مهما عَظُمَت، لا توفِّرُ السعادةَ له. فكلما ازدادَتْ قدرتُهُ على الرؤيةِ الماديّة، ازدادَ رُعبُه. إنه يفهمُ، مع رفضه أن يؤمن، أنه بهذه العين لن يتمكَّنَ أبداً من أن يسيرَ، ناهيكَ عن أن يشارك، لغز الخليقة. وبولوجِه من جديدٍ العالَمَ المُلغَّز الذي انبثقَ منه يدرك، بإبهامٍ، وغموضٍ، أنه يحتاجُ إلى عيونٍ أخرى.

إنَّ الإنسانَ يرى عالمَ جوهرِه الحقّ بالعين الملائكيّة.

هذه العوالمُ المنمنمةُ، حيث كلُ شيءٍ غارقٌ، أخرسٌ، ومتحوِّل، تظهر غالباً كما لا تظهر في الكتب. وصفحة من كتاب لهامسن كثيراً ما تمنحُ من أنغامِ السِحْرِ المُلغَّز قَدْرَ ما يمنحه التمشّي بمحاذاة القنال.

ويختبرُ المرءُ خلالَ برهةٍ وجيزةٍ من الزمنِ نوعاً من الدوار شبيهاً بذاك الذي يُصيبُ سائقَ العربةِ يغادرُ موقعَه بينما الحافلةُ تنطلقُ بأقصى سُرعتِها وبعد ذلك تكون بهجةً حسّيّة صِرفاً. استسلام من جديد. استسلامٌ للسحر الذي صَيَّرَ المؤلِّف شيئاً زائداً. وعلى الفور يتخلَّفُ إيقاعُ المرء؛ يتلكَّأ أمام البُنى اللفظية التي ترتجف كمنازل حيّة. إنَّ الإنسانَ ليعرفُ أنَّ شخصاً لم يقابله قط، ولن يقابله أبداً، سوف يظهرُ ويتملَّكه. قد يكون مسألةَ بيضِ إوزّ كبيرٍ تحتلُّ الفِقْرة بأكملها. لا شيء يتحكَّم في الدفقِ الكونيّ الذي تسبحُ فيه الآن الأحداثُ والأوضاع. وقد يُصبح الحوارُ مَحْضَ هراء، ووهميّاً في تضميناته. وقد أوضحَ المؤلِّفُ أنه غائب. والقارئ يقفُ وجهاً إلى وجهٍ مع لهوٍ ملائكي. سوف يُعايش هذا المشهد، هذه اللحظة المتطاولة، مرات كثيرة، مع حسٍّ حادّ بالواقع يصلُ إلى شفير الهذيان. فقط شارعٌ صغيرٌ - ربما ليس أطولَ من طولِ مجمَّعٍ سَكَني. حدائقُ مصغَّرة تتولى العناية بها مخلوقاتٌ أسطورية. أشعةُ شمسٍ دائمة. ويتذكَّر الموسيقى، التي لُطِّفَت حتى تمتزجَ مع طنينِ الحشرات وخشخشةِ أوراقِ النبات. فرحٌ، فرحٌ، فرح. الحضورُ الأليفُ للأزهارِ، والعصافيرِ، والحجارةِ التي تحفظُ سجلّ أيامٍ سحريّةٍ مشابهة.

إنني أفكِّرُ في هامسن لأني كثيراً ما شاركتُ ستانلي في هذه التجاربِ الخارقة. وقد أعدَّتنا حياتُنا الغريبةُ التي عشناها في الشارع ونحن صِبية، لهذه اللقاءات الغامضة. خضعنا بطريقةٍ مجهولةٍ لشعائر انتساب. وكنا، دون علمنا، أعضاءً في جماعةٍ سرّيةٍ تقليديةٍ تتقيَّأ على فترات مناسبة أولئك الكتّاب الذين سيُسَمُّون لاحقاً رومانسيون، أو صوفيون، أو رؤيويّون أو شيطانيون. ولأناسٍ مثلنا - وكنا حينئذٍ مجرَّد

كيانات جنينيّة - كتبت فقرات " أجنبية " معيَّنة. إننا نحن الذين نُبقي هذه الكتب حيّةً وهي تهدِّد على الدوام بأن تغيبَ في عالمِ النسيان. إننا ننتظرُ، كوحوشٍ كاسرةٍ، حلولَ لحظاتٍ واقعيّة ليس فقط تباري الآثار الأدبية الاستثنائية بل وتعززها وتؤيّدها. إننا ننمو كالصراصير، نصبحُ غير متوازنين، ننظرُ شذراً، ونفأفئ في محاولةٍ عقيمةٍ لنُطابق عالمنا مع العالم الموجود. في داخلنا ينامُ الملاكُ نوماً هانئاً، مستعداً لدى أوهى ارتعاشٍ كي يتولّى القيادة. فقط الصلوات المتوحِّدة تحيّينا. فقط حين ننفصل بقسوةٍ نتواصلُ بحقّ فيما بيننا.

غالباً ما نتواصل في الحُلُم ... فأراني في شارعٍ مألوفٍ أبحثُ عن منزلٍ معيَّن. وحالما أطأ هذا الشارع يبدأ قلبي يخفق بعنف. ومع إني لم أرَ الشارع دهري إلا أنه أكثر أُلفة بالنسبة إليّ، وحميميّة، وأهميّة، من أي شارعٍ عرفتُهُ في حياتي كلها. إنه الشارعُ الذي عدتُ خلاله إلى الماضي. وكل منزل، كل رواق، كل بوّابةٍ، كل مرجٍ، كل حجرٍ، وعصا، وغُصَين أو ورقةٍ خضراء تتكلّم بفصاحةٍ بليغة. وحسُّ التعرُّف، المؤلَّف من طبقاتٍ لا تُحصى من الذاكرة، هو من القوةِ حتى لأكادُ أذوب.

ليس للشارعِ بدايةٌ ولا نهاية: إنه جزءٌ منفصلٌ يسبحُ في هالةٍ من الغموض وكاملٌ بحدّ ذاته. هو قسمٌ يضجُّ بالحياة من كلٍ لا متناهٍ. وعلى الرغم من خلوّ هذا الشارع من أي نشاطٍ فهو ليس خالياً أو مهجوراً. إنه، والحقُّ يُقال، أشدُّ الشوارع التي أعرفها حيويّة. إنه يضجُّ بالذكريات مثل أيكةٍ سرّيّةٍ تعجُّ بحشودها من الجموع الخفيّة. لا أستطيعُ أن أقولَ إني أمشي في هذا الشارع، ولا حتى أن أقولَ إني أنزلقُ خلاله. إن الشارع يغلّفني. يلتهمني. ربما لا توجد أحاسيس تباري هذا الشكل

المعذِّب من النعيم إلا في عالمِ الحشرات. أن تأكلَ أمرٌ رائعٌ، ولكن أن تؤكَل لهي متعةٌ تفوقُ كل وصفٍ. لعله نوع آخر، متطرِّف من الاتحاد في العالم الخارجي؛ صنفٌ معكوس من الصلِة الحميمة.

إنَّ نهايةَ هذا الطقس هي نفسُها دائماً. فقد أدركتُ فجأة أن ستانلي ينتظرني. إنه يقفُ ليس عند نهايةِ الشارع، إذ لا نهاية له ... بل يقف عند الحافّةِ غير الواضحةِ حيث يندمجُ الضوءُ مع المادة. ودعوته دائماً مقتَضَبَة وفظَّة: " هيا، لنذهب! " وعلى الفور أُطابِقُ خطوتي مع خطوته. إلى الأمام سرِّ! الشارعُ الحبيب ينعطفُ برفقٍ بحركةٍ دائريّة، وكأنه مائدة دوَّارة يشغلها محوِّل غير مرئي، وحين وصلنا إلى المنعطف اتّصَلَ بسلاسةٍ وصلابةٍ مع الشوارعِ المتقاطعة التي تشكِّلُ مخطَّط تخوم طفولتنا. ومن هذه النقطة يبدأ اكتشافُ الماضي، لكنه ماضٍ مختلفٍ منبعُهُ شارعُ الذكريات. وهذا الماضي هو ماضٍ حيويّ، مفعمٌ بالتذكارات، لكنها مجرَّد تذكارات سطحية. والماضي الآخر، الشديد العمق، الغزير التدفَّق، الشديد التلألؤ لا يضعُ فاصلاً بين نفسه، والحاضرِ، والمستقبل. لقد كان لا زمنياً، فإذا ما تكلَّمتُ عنه بوصفه ماضياً فذلك فقط لكي أوحي إلى عودةٍ ليست في الحقيقة عودةٌ وإنما استعادةٌ. إن السمك يسبحُ عائداً إلى منبع وجوده.

حين تصدحُ الموسيقى المُتعذّر سماعُها، يعلم المرءُ عندئذ علم اليقين أنه حيّ.

إنَّ دورَ ستانلي في الجزءِ الثاني من الحُلُم هو أن يُعيدَ بثّ الحماسة. وسوف أغادره بعد أن يكون قد هزَّ كلَّ أوتارِ الذاكرة. وهذا العمل الذي يؤديه ببراعة فطرية، قد يشبه النوسان المهتزّ لإبرة البوصلة. إنه يُبقيني

على الدرب، دربٍ متعرِّجٍ، وملتوٍ، لكنه مشبَّع بالذكريات. ونئزُّ متنقِّلين من زهرةٍ إلى زهرة، كالنحل. وبعد أن نستخلصَ كفايتنا من الرحيقِ نعود إلى قرصِ العسل. وعند المدخلِ أغادره، وأغوصُ في مركزِ محورِ التحوُّل. ويهدرُ في أذني كنينٌ محيطيّ. وتخمدُ الذكرياتُ كلها. وأجدني في عمقِ صَدَفةٍ مَتاهيَّة، آمنٍ وحيٍّ كذرَّةٍ من الطاقة تنجرفُ على غير هُدى في بحرٍ نجميّ من الضوء. هذا هو النوم العميق الذي يُحيي الروحَ. وعندما أستيقظُ أجدني كالمولود من جديد. النهارُ يمتدُّ أمامي كمرجٍ من المخمل. لا أتذكَّرُ أي شيء. إنني قطعةُ نقدٍ مضروبة حديثاً ومستعدَّة للسقوط في راحةِ يدِ أول قادم.

في مثل هذا اليوم جديرٌ بي أن تصادفني إحدى تلك المقابلات التي ستغيِّر مجرى حياتي. فيتقدَّم الغريبُ مني ويحيِّيني تحيةَ صديقٍ حميم. ويكفينا أن نتبادلَ بضعَ كلماتٍ حتى تحلّ اللغة الوديِّة المقتضبة لأخوّين جليلين محلَّ الرطانة السائدة. ويكونُ التواصلُ ملغّزاً وملائكياً، ومنفَّذاً بالسهولةِ والسرعةِ اللتين يتَّصفُ بهما الصُم-البُكم. وبالنسبة إليّ ليس لهذا إلا معنى واحد - إحداثُ إعادةِ تكييف. وكما قلت من قبل، إنَّ تغييرَ مجرى حياتي يعني ببساطة - تصحيحُ وضعي النجمي. ويمدُّني الغريبُ القادمُ مباشرةً من العالم الآخر بالمعلومات. وأقومُ أنا، بعد أن أتّخذُ موقعي الصحيح، يشقُّ شُقَّةً جديدةً في عوالم القَدَر القانونية. وكما تهاوى شارعُ الأحلام برفقٍ ليستقرَّ في موقعه، هكذا أنا الآن أندفعُ في اتجاهٍ مستقيمٍ حيويّ. والمشهد الشامل الذي أتحرَّكُ بمحاذاته مهيبٌ ويثيرُ الرعبَ في النفس. إنه مشهدُ تيبتي حقّ يومئ لي كي أتقدَّم. ولا أدري إن كانَ من ابتكارِ العينِ الداخليةِ أو هو اضطرابٌ مفاجئٌ وعنيفٌ للواقعِ

الخارجي متناغماً مع إعادةِ التكيُّف العميقِ الذي كنتُ قد حقَّقته لتوي. كل ما أعرفه هو أني أشدَّ عزلةٍ من أي وقتٍ مضى. إنَّ كلَّ ما يتبدَّى الآن ستكونُ له صِفةُ الصعقةِ والاكتشاف. إنني لستُ وحدي. " أنا موجود وسط متوحّدين آخرين ". وكلُ واحدٍ منا يتكلَّم بلغته الخاصةِ الفريدة! إن الأمرَ أشبهُ باجتماعِ آلهة من أقاصٍ نائيةٍ، تحيطُ بكلٍ منهم هالةٌ من عالمهِ الخاص المبهم. إنه اليوم الأول من الأسبوع في الدورةِ الجديدةِ للوعي. ويجب أن أقولَ إنها دورةٌ قد تدومُ أسبوعاً من الزمن أم العمر بطوله. En avant, je me dis. Allons-y! Nous sommes la. (قلتُ لنفسي، إلى الأمام. هيا بنا! كدنا نصل).

٨

قبل بضع سنوات كان ماكسي شناديغ قد عرَّفني إلى كارين لندغرين. ولا أستطيع أن أتصوَّر ما الذي جمع بين هذين الاثنين؛ إذ لا يوجدُ بينهما في المُطلَق أي قاسمٍ مشترك.

كان كارين لندغرين سويديّاً تلقَّى تعليمه في أوكسفورد، وهناك أثارَ حوله شيئاً من الضجة بسبب تفوّقه في الرياضة وثقافته النادرة. كان عملاقاً ذا شعرٍ مجعَّد أشقر، معسول اللسان وجمّ الأدب؛ يمتلك تركيبةً من غرائز النملة، والنحلة والقندس؛ مجتهداً، نظامياً، وعنيداً ككلبٍ ضخم، ويتابعُ أي عمل يؤدّيه حتى آخر مداه. كان يجتهد في اللعب بقدر ما يجتهد في العمل، بيد أنه كان يعشقُ العمل. كان في استطاعته أن يعمل وهو واقفُ، أو جالسٌ أو مستلقٍ على السرير. وككل العاملين المجتهدين كان في أعماقه كسولاً حتى الإثم. وكلما انطلقَ يباشرُ عملاً ما كان عليه أولاً أن يبتكر السُبُل والوسائل لأدائه بأقلّ جهدٍ ومن نافلِ القول إنَّ أساليبَهُ المختصرة هذه كانت تستلزم الكثير من الوقت والجهد. ولكن كان يُسعِدُهُ أن يُرهِقُ نفسَهُ في ابتكارِ أساليب مختصَرة. وزيادَةً على ذلك كانت الفعاليّة هي صِفتُهُ الثانية. فلم يكن غيرَ آلةٍ تسيرُ، وتتكلَّمُ، وتوفِّرُ الجهد.

مهما كان المشروعُ بسيطاً كان في إمكان كارين أن يجعَلُهُ معقَّداً. وقد نالني قدْرٌ كثيرٌ من غرابةِ أطوارِهِ أثناء خدمتي كمتمرِّن في مكتبٍ للبحث الأنثروبولوجي قبل ذلك ببضع سنين. فقد أدخلني إلى غمارِ التعقيداتِ العبثيّة لنظامٍ عشري للتصنيف جديرٍ بأن يجعلَ من نظامِ ديوي مجرَّد لعب أطفال. ووفقاً لنظام كارين كان في استطاعتنا أن نبوِّبَ أيَّ شيءٍ تحتَ الشمس، ابتداءً بزوجٍ من الجوارب الصوفيّة لبيضاء وانتهاءً بداء البواسير.

كما قلتُ سابقاً، لم أكن قد قابلتُ كارين منذ بضع سنين، ولطالما اعتبرتُهُ فلتةً، ولم أُكِنّ أي احترامٍ لذكائه المتبجِّح ولا لبراعتِهِ الرياضيّة. كانت ميّزتاه الرئيستان هما أنه بليدٌ ومُجِدّ. لكنه كان في الحَقيقة، وبين حين وآخر، يستغرقُ في ضحكٍ من القلب. بل يمكن القول إنه كان يغالي في الضحك من قلبِهِ، ودائماً في الوقت غير المناسب وللسبب غير المناسب. وقد نمَّى هذه المقدرة على الضحك، تماماً كما كان قد نمّى من قبل عضلاته. كان لديه هوسٌ بأنْ يكونَ كلُّ الأشياءِ بالنسبةِ إلى كل الرجال. لقد كان لديه الهوس، ولكن ليس الميل.

إنني أُعطي هذه الصورة الوصفيّة الموجزة لأنه تَصادَفَ أني عدتُ أعملُ معه من جديد، بل أعملُ لصالحِهِ. ومونا أيضاً. إننا جميعاً نقيمُ معاً على الشاطئ في فار روكاواي، في كوخٍ بناه بنفسه. وتوخّياً للدقَّة أقولُ إنَّ المنزلَ ليس مكتملَ البناءِ تماماً. وعليه فإنَّ إقامتنا فيه مؤقَّتة. إننا نعمل دون تلقِّي أي تعويض، راضين بالحصول على المأوى والأكل مع كارين وزوجته. ولا زال هناك الكثير من العمل يتطلَّب الإنجاز. الكثير جداً. ويبدأ العملُ حالما أفتحُ عينيّ وإلى أن أسقطَ من فرطِ التعب.

ولأعُدْ قليلاً في الزمن ... لقد كان لقاؤنا المفاجئ بكارين في الشارع هِبَةً من الله. فلم نكن نحتكم على سنتٍ واحد عندما صادفناه. وكان ستانلي قد أعلنَ لنا ذات مساء، حالما باشرَ العمل، أنه لم يعد يطيقُ وجودنا، وأن علينا أن نشدَّ رحالنا ونغادر على الفور. وعَرَضَ مساعدته لنا في حَزْم متاعنا ومرافقتنا حتى القطار النفقي. وبدون إضافة أي كلمة. وقد كنتُ بلا أدنى شك أتوقَّعُ أن يحدثَ مثلَ هذا الأمر في أي يوم. ولم أغضبْ منه قط. بل على العكس، لقد تسلَّيتُ.

عند مدخل القطار النفقي ناولنا الحقائب، وأقحَمَ في يدي أجرةَ الانتقال، ثم استدارَ، ودون أن يصافحنا، وأسرع مبتعداً. لم يقُل حتى وداعاً. وطبعاً استقلنا القطار، لأننا لم نكن نعرف شيئاً آخر نقوم به، وركبنا. بقينا راكبين جيئةً وذهاباً مرتين أو ثلاثة ونحن نحاول أن نقرر ماهي الخطوة التالية التي ينبغي أن نتّخذها. وأخيراً ترجَّلنا في ساحة شيريدان. وما كدنا نخطو بضع خطوات حتى رأيتُ، وأنا مذهول، كارين لندغرين يقتربُ. بدا عليه السرور الغامر لأنه قابلني من جديد. ماذا أفعل؟ هل تناولنا طعام العشاء أم لا؟ وما إلى ذلك.

رافقناه إلى شقته وبلده، كما سمَّاها، وبينما كانت زوجته تُعِدُّ الطعام تخفَّفنا من أمتعتنا. بل لقد فرحَ أكثر عندما سمع عن ظروفنا. قال بمرحهِ المفتقر إلى الحساسية " لديّ يا هنري ما يلزمك بالضبط ". وبدأ من فَورِهِ يشرحُ طبيعةَ عمله، الذي بدا لي أشبه بالرياضيات العالية، وأخذَ يُمطرُنا بكؤوسِ الكوكتيلِ وشطائرِ الكافيار. وكان، لدى مباشرة حديثه، قد سلَّم بأني سأوافق على مشروعه. ولكي أجعل الأمور مسلِّية اكثر تظاهرتُ بأني أريد أن أُفكِّر في الأمر، وبأنَّ لدي أموراً أخرى تشغلني. وطبعاً زاد هذا من فرحه.

قـال مـتـوسـلاً " ابقَ مـعنا هذه الليلة، ودعني أعـرف رأيك في الصباح"

شـرحَ لي الأمـر طبعـاً قـائلاً إني بالإضـافـة إلى عـملي كـسكرتيـرٍ وناسخ، قد أضطرُ إلى مساعدته في بناء المنزل. وحذّرته بكل صراحة من أني لستُ بارعـاً جـداً في استـخدام يديّ، لكنه استـخفّ بهـذا الكلام واعتبره غير هام. فبعدَ استخدامِ العقل، من الممتع أن يكرّس المرءُ بضع ساعات أخرى لمهامٍ أكثر وضاعة. وسمّى ذلك، استجماماً. ثم كان هناك الشاطئ؛ فقد كان في وسعنا أن نسبح، وأن نلعب بالكُرة، وربما حتى أن نمارسَ رياضـةَ تجـذيفِ القـوارب. وأتى بشكلٍ عـابرٍ على ذكرِ مكتـبتـه، ومجموعته من الأسطوانات، ورُقعة الشطرنج، وكأنه أرادَ أن يقولَ إنَّ لديه كل ما يتّصفُ به نادٍ من الدرجة الأولى من وسائل الرفاهية.

في الصباح أعلنتُ موافقتي، طبعاً. وأبدتْ مونا حماستها. فهي لم تكن فـقط راغبـةً، بل وتوّاقة إلى تقديمِ يدِ العـونِ إلى زوجةِ كـارين في أداءِ العملِ القذر. وقلت " أوكيه، لا بأس في المحاولة "

توجّهنا بالقطار إلى فـار روكاواى. وكـان كـارين طوال فتـرةِ الرحلة يتـحدّثُ دون توقّف عن عـمله. واستنتجتُ أنه منخرطٌ في تأليفِ كتابٍ في الإحصاء. وكان هو يعتبره إسهاماً فريداً من نوعه في هذا الموضوع. وكانت البيانات التي جمعها من الضخامة، بل من فرطِ الضخامةِ بحيث تملّكني الرعبُ حتى قبلَ أن أحرّكَ إصبعاً. لقد تزوّدَ بطريقته المعتادة بكل أنواع الأدوات، والآلات التـي أكّـدَ لي أني سـأتوصّل إلى إتقـانِ استخدامها على الفور. وكان أحدها دكتافون، وقال يبرّر حصوله عليها إنه وجدَ أنَّ مِنَ المناسبِ أكثـرَ أن يُملي كلامَهُ على آلة، التي هي مجرّدة،

على أن يُمليه على سكرتير. وطبعاً كان أحياناً يضطرُّ إلى أن يُملي مباشرةً، وبعدئذٍ أقوم بالتدوين على الآلة الكاتبة. وأضاف " وأنت لستَ بحاجةٍ إلى أن تُعنى بالتهجئة ". ويجب أن أعترف بأن همَّتي قد همدت حين علمتُ بأمر الدكتافون. إلا أني لم أقُل شيئاً، واكتفيتُ بالابتسام وتركتُهُ ينتقلُ من أمرٍ إلى آخر.

أما الشيءُ الذي لم يأتِ على ذكرِه فهو البعوض.

كانت هناك غرفةُ مخزن صغيرة، تكفي لاستيعاب سريرٍ مُزعزع. وكان قد أشارَ إليها بوصفها مكانُ مبيتنا. وحالما رأيتُ الشبكة التي تخيِّم على السرير عرفتُ أننا قد تورَّطنا. وبدأ الأمر على الفور من الليلة الأولى. ولم يغمض لأيٍ منا جفن. وحاول كارين أن يتجنَّب الإحراج بأن ألحّ علينا بالمكوثِ عنده يوماً أو يومين آخرين ريثما نرتِّب أمورنا. وقلتُ في نفسي، رائع. إنها لكياسةٌ عُظمى منه. طبعاً، فهو جنتلمن من أوكسفورد! غير أنَّ النومَ لم يراودنا أيضاً في الليلة الثانية، على الرغم من حمايةِ الشَبَكة، وعلى الرغم من دَهْنِ جسمينا بالزيت، وأصبحنا مثل سبَّاحَين يقطعان القناة. وفي الليلة الثالثةَ أَحْرَقْنا الصوفان الصيني والبخور. وقُرابة الفجر، وبعد أن استُنفذنا تماماً، وأُرهقَتْ أعصابنا، استغرقنا في النوم. وحالما بزغتْ الشمسُ ذهبنا لنغوصَ في مياه الشاطئ.

بعد أن فرغنا من تناولِ طعامِ الإفطارِ في صباح ذلك اليوم صرَّحَ كارين بأنَّ علينا أن نبدأ عملنا بشكلٍ جدِّي. وتنحَّتْ زوجته بمونا جانباً لتشرحَ لها واجباتها. واستغرقَ من كارين فترةَ بعدِ الظُهرِ بأكملها ليشرحَ لي آليّة عملِ مختلفِ الآلات التي رأى أنها لا تُقَدَّر بثمنٍ

بالنسبة إلى عمله. كان هناك جبلٌ حقيقي من التسجيلات مكوَّمةً فوق بعضها كان عليَّ أن أنسخَهَا على الآلة الكاتبة. أما الجداول والرسوم البيانيّة، والمساطر، والفرجارات، والمثلثات، والمساطر المنزلقة، ونظام الإضبار، وألف تفصيل وتفصيل التي كان عليّ أن أتآلف معها، فيمكنها أن تنتظر بضعة أيام. وكان عليّ أن أُقلّل من حَجْمِ ركامِ التسجيلات ومن ثم، إذا بقي ما يكفي من الضوء، أن أساعِدَه في بناء السقف.

وإن نسيتُ لن أنسى اليوم الأول الذي تعاملتُ فيه مع الدكتافون اللعين. كدت أُجَنُّ. كان الأمر أشبه بتشغيل آلة خياطة، ولوحة مفاتيح وفيكترولا victrolla دفعةً واحدة. كان عليَّ أن أستخدمَ في وقتٍ واحد يديَّ، وقدميَّ، وأُذنيَّ، وعينيَّ. ولو أني كنتُ طليقَ الحركةِ أكثرَ قليلاً لاستطعتُ أن أكنسَ الغرفةَ في الوقتِ نفسه. وطبعاً كانت نتيجةُ الصفحاتِ العشرِ الأولى هراءٌ محضٌ، فأنا لم أكتفِ بأن أنسخَ بشكلٍ خاطئ، بل كانت تفوتني جملٌ بأكملها وأبدأ أخرى من منتصفها أو من قرابة نهايتها. وكنتُ أتمنّى لو أني احتفظتُ بنسخةٍ من عملِ ذلك اليوم الأول - إذن لكان من الممكن وضْعُهُ جنباً إلى جنب مع هراءِ الكاتبة غرترود شتاين ذي الدم البارد. وحتى عندما كنت أنسخ بشكلٍ صحيح فإن الكلمات لم يكن لها أي معنى بالنسبة إليّ. كانت المصطلحات الفنيّة بأكملها، ناهيك عن أسلوبه الثقيل الوطأة والجاف، غريبة عليّ. وكان يمكن أيضاً أن أدوِّن أرقامَ الهواتف.

بوصفهِ رجلاً متعوِّداً على تدريبِ الحيوانات، رجلاً يتَّصف بصبرٍ ودأبٍ لا متناهيين، تظاهرَ كارين بأني إنما أبليتُ بلاءً حسناً. بل إنه

حاولَ أن يمزحَ قليلاً، فقرأ مراراً بعضاً من الجُمَل المعتوهة. قال " سوف يستغرقُ الأمرُ بعضَ الوقت، لكنك ستنجح ". ومن ثم أضاف بعض التوابل: " إنني بحقّ خَجِلٌ من نفسي لأني طلبتُ منك أن تقوم بهذا النوع من الأعمال يا هنري. أنت لا تعلم كم أُقدِّرُ مساعدتك لي. لا أدري ماذا كنتُ سأفعلُ لو لَمْ تظهر ". كان يمكن أن يتكلّم بالطريقة نفسها لو أنه كان يعطيني دروساً في المصارعة اليابانية، التي لعله كان ضليعاً بها. وكان في إمكاني أن أتخيَّله يرفعني عالياً، بعد أن يدوِّمني مسافة عشرين قدماً في الهواء، وهو يقول قلقاً " اعذروني يا صديقي العزيز، ولكن سوف تفهم مغزى ما أفعل بعد بضعة أيام. في الواقع، لم يكن في وسعي إلا أن أفعل ذلك. هل أوذيتَ كثيراً؟ "

أشدُّ ما كنتُ أتوقُ إليه كان مشروباً جيّداً. لكنَّ كارين نادراً ما يشرب. وعندما يطلبُ الاسترخاء يستخدمُ طاقاته في عملٍ من نوعٍ آخر. كان العملُ هو هواه. كان يعمل وهو نائم. وأنا جادٌّ فيما أقول. وحالما يستلقي على السرير يعدُّ لنفسه مسألة يعملُ لا وعيه على حلّها أثناء الليل.

أفضلُ ما استطعتُ أن أحصلُ عليه منه بالتملُّق كان زجاجةَ كوكا كولا. وحتى هذه لم يُتَح لي أن أستمتع بشربها بسلامٍ، فبينما أنا أرشُفُها باسترخاء ينهمكُ هو في شرح مسائل اليوم التالي لي. وأشدّ ما أزعجني منه أسلوبه في شرح الأمور. فقد كان أحد أولئك الحمقى الذين يؤمنون بأنَّ الرسومَ البيانية تُسهِّل فهم الأشياء. أما أنا فأرى أن كل ما له صلة بجدول أو برسم بياني ما هو إلا فوضى ميؤوس منها. لقد كان عليَّ أن أقفَ على رأسي لكي أقرأ أبسطَ التصاميم. وحاولتُ أن أُخبره

بهذا لكنه أصرَّ على أنَّ ثقافتي مغلوطة، وأنه لو أني فقط أتجمَّلُ بالصبرِ فسرعانَ ما سأتعلَّم قراءةَ الجداولِ والرسومِ البيانية بسهولةٍ - واستمتاع. وقال لي " إنها مثل الرياضيات "

قلت مُحتجّاً " لكنني أمقتُ الرياضيات "

" لا يجوزُ أن تقولَ هذا يا هنري. كيف يمكن لأحدٍ أن يمقُتَ شيئاً مفيداً؟ إنَّ الرياضيات ما هي إلا أداةٌ أخرى مُسخَّرة لخدمتنا ". وهنا أخذ يُسهب ويُطنِب ad nauseam (إلى حد إثارة التقزُّز) حول عجائب وفوائد علمٍ لا يثير لديّ أي اهتمام. لكني لطالما كنتُ مستمعاً جيداً. وكنت قد اكتشفت لتوي، في غضون بضعة أيام، أن أحدَ أساليب اختصارِ فترةِ العملِ هو توريطُهُ في مثلِ تلك النقاشاتِ المطوَّلة. وكوني أُنصِتُ بإقبالٍ جعله يشعر بأنه في الواقع يغويني. وكنت بين حين وآخر ألقي عليه سؤالاً لكي أُرجئ العودة إلى حَجَر الرحى بضع دقائق أخرى. وطبعاً، لم يترك أي شيء مما قاله لي عن الرياضيات أقلَّ أثرٍ عليّ. كان كلامه يدخل من أحد أذنيّ ويخرج من الأخرى.

كان يقول، بكل الجدّية التي يتّصف بها الملُّون، " في الحقيقة إنها أبعد ما يكون عن التعقيد الذي تظن. سوف أجعل منك عالِماً رياضياً في أقصرِ مُدَّة "

في تلك الأثناء كانت مونا تحصِّل ثقافتها في المطبخ. فكنت طوالَ النهارِ أسمعُ قرقعةَ الأطباق، وأتساءلُ ماذا تفعلان بحق الجحيم هناك. وكأنهما كانتا تقومان بالتنظيف الشامل. وعندما أوينا إلى السرير علمتُ أن لوتا، زوجة كارين، كانت قد كدَّسَتْ حصيلةَ أسبوعٍ من الأطباقِ القذرة. وكان واضحاً أنها لا تحُبُّ العملَ المنزلي. إنها فنانة. ولم

يعترِضْ كارين قط على ذلك. لقد أرادها أن تكونَ فنانةً - أي بعد أن تؤدي الأعمال المعتادة وتساعده بكل الطُرُق الممكنة. ومن ناحيته هو لا يطأ المطبخ أبداً. ولا يلاحظ أبداً حالةَ الأطباق أو السكاكين، إلا بقدر ما يلاحظ نوعَ الطعام الذي يُقَدَّم له. إنه يأكلُ بلا تلذُّذ. يأكلُ ليزكّي نارَ الفرن، وبعد أن ينتهي يُنَحِّي الأطباقَ جانباً ويبدأ بتدوين الحسابات على مفرشِ المائدة، وإذا لم يكن هناك مفرشٌ للمائدة، فعلى ألواحِ الخشبِ العارية. كان يفعل كل شيء بتمهُّل، وبتروٍّ مؤلمٍ، وهذا بحدّ ذاته كان كافياً لجرفي إلى حافّة الهياج المسعور.

حيثما كان يعمل كنتَ تجدُ القذارة، والفوضى، وركاماً من الأشياء غير الضرورية. بحيث إذا مدَّ يده ليتناول شيئاً كان عليه أولاً أن يزيل عدداً كبيراً العوائق. فإذا كان السكينُ الذي وقَعَ في قبضته القذرة فإنه ينظّفه ببطء وبتأنٍ بمفرشِ المائدة، أو بمنديله. ودائماً بلا جَلَبَة أو حركة. ودائماً تجده يندفعُ إلى الأمام، يضغط باطِّرادٍ، مثل جلمودٍ يتقدَّم بلا هوادة. وأحياناً كنتُ أجدُ ثلاثَ سجائرَ مشتعلة دفعةً واحدةً عند مرفقه. وكان لا يكفُّ أبداً عن التدخين، حتى وهو في السرير. وتتكوَّم الأعقاب فوق بعضها كروث الغنم. وزوجته بدورها كانت مدخِّنة مُدمنة، مدْخَنَة لا تكفّ عن التدخين.

السجائر كان لدينا منها الكثير. أما الطعام، فأمرٌ آخر. كانا يتصدَّقان علينا بالطعام بشكلٍ شحيح وبأشدّ الطُرَق إثارة للتقزُّز. وطبعاً كانت مونا قد تبرَّعت بأن تخفِّف عن لوتا عبء القيام بالطبخ، لكن لوتا رفضت رفضاً باتاً. وسرعان ما اكتشفنا السبب. لقد كانت بخيلة. كانت تخشى أن تُعِدَّ مونا وجبات سخيّة، ريّانة. وكانت مُحِقَّة كل الحق في

ذلك! لقد كانت الفكرة الوحيدة التي تتبوأ أفكارنا هي أن نتولّى أمر الطبخ ونخرج بوليمة. ورحنا نصلّي كي يرحلا إلى البلدة بضعة أيام ويدعانا نتولّى أمر المكان. وعندئذ سوف نستمتع بتناول وجبة عامرة.

كانت مونا تقول " أشتهي تناول قطعة لحم خنزير مشويّة لذيذة "

" دَعي الدجاج لي - أو بطة مشوية فاخرة "

" أشتهي أن آكل بطاطا حلوة على سبيل التغيير "

" عِزّ الطلب، يا حبيبتي، فقط ضَعي صلصةَ مَرَقِ لحمٍ دَسِمَة لتتماشى معها "

كان الأمر أشبه بلعبة تنسِ الريشة. كنا نتبادل قَذْفَ الطعامِ الوهمي جيئة وذهاباً مثل طاووسين جائعين. ليتهما يسرعان في الرحيل! يا إلهي، كم سئمنا النظر إلى معلّبات السردين وشرائح الأناناس، وأكياس رقائق البطاطا المقليّة. كان الاثنان يُمضيان النهارَ اللعينَ بطولِه وهما يقضمانها برفقٍ كالفئران. لا تسمع مُطلقاً أي تلميحٍ إلى نبيذٍ، ولا إلى نقطةِ ويسكي. لا شيء غير المشروبات الغازية.

لا أستطيع أن أقولَ إنَّ كارين كان شحيحاً. كلا، بل كان متبلّد الشعور، لا مبالياً. وعندما أبلغْتُهُ ذات يوم أننا لا نحصل على ما يكفينا من الطعام أبدى رُعبَهُ وسألني " بماذا ترغب؟ ". وفي الحال تخلّى عن عمله، واقترَضَ سيارة من أحد الجيران، وانطلقَ بنا إلى البلدةِ وهناك رحنا نتنقّل من مخزن إلى آخر ونزوَّد بالمؤن. كانت رَدَّة فعلِه تلك نموذجيّة. كان دائماً يذهبُ إلى آخر مدى. وأعتقد أنه بذهابه هكذا إلى آخر مدى كان يقصد، ودون أي وعي منه، أن يجعلَ المرءَ يشعرُ بشيءٍ من الاشمئزازِ من نفسه. وكأنه يريد أن يقول " طعام؟ أهذا كل ما

تريدان؟ أمرٌ سهل، سوف نشتري منه الكثير، وما يكفي لاختناق حصان". وكان هناك معنى آخر متضمَّن في رغبته في المبالغة في الإرضاء. " طعام؟ إنه أمرٌ تافه. طبعاً نستطيع أن نُحضر لكما طعاماً. حسبتُ أنَّ لديكما مشاكلَ أعمق "

طبعاً أصابَ الرعبُ زوجتَهُ حين رأتْ كميةَ المؤنِ الهائلةِ التي عدنا بها. وكنتُ قد طلبتُ من كارين ألا يُخبر زوجته بأيّ شيءٍ حولَ جوعنا. لذا تظاهرَ بأنه كان يَدَّخر مؤونة استعداداً لأيام الضيق. وقال مبرِّراً " إنَّ مخزونَ الطعام يقلُّ ". ولكن حين أضافَ أنَّ مونا تريد أن تُحضِّر لنا وجبة على العشاء تجهَّمَ وجْهُها، وعَبَرَتْ قَسَماتِه برهةً نظرةُ رعبٍ لإنسانٍ شحيحٍ تتعرَّضُ مؤونته للتهديد. ومرةً أخرى يهرعُ كارين لإنقاذها. " لقد رأيتُ يا عزيزتي أن ترتاحي ويتولّى شخصٌ آخرُ أمرَ الطبخِ عنك من بابِ التغيير. إنَّ مونا طباخةٌ ماهرةٌ، على ما يبدو. سوف نتناولُ شريحة من لحم البقر هذا المساء - فما رأيك؟ " طبعاً كان على لوتا أن تتظاهرَ بالابتهاج. جعلنا من وجبة العشاء حَدَثاً. فبالإضافة إلى البصل المقلي والبطاطا المهروسة أعدَدْنا سكوتاش[٦٩]، والشوندر والكرنب المسوَّق[٧٠]، مع الكرفس، والزيتون المحشو وإلى جانبه فجل. وأتبعنا هذا كله بشُرب نبيذٍ أحمر وأبيض، وأفضل ما يمكن الحصول عليه. وكانت هناك ثلاثة أنواع من الجبن، ثم فريز وكريما كثيفة. وتناولنا على سبيل التغيير قهوة ممتازة، أعدّدتُها بنفسي. قهوة كثيفة، لذيذة، تحتوي على قليل من الهندباء البرية. لم يكن ينقصُ ذلك كله إلا مشروبٌ طيبٌ وسيجارٌ هافانا.

---

٦٩ - سكوتاش : طعام قِوامه الذُرة الخضراء واللوبياء . - المترجم

٧٠ - الكرنب المسوَّق : يتميَّز بالرؤوس الصغيرة النامية على ساقه . - المترجم

استمتعَ كارين بالوجبة أيَّما استمتاع. وتصرَّفَ كما لو أنه رجلٌ آخر. أخذ يمزح، ويحكي حكايات، ويضحكُ حتى تألَّمَ جنباه، ولم يأتِ حتى مرة واحدة على ذِكر العمل. بل لقد حاولَ مع اقتراب نهاية الوجبة أن يغنِّي.

قلت " لا بأس، هه؟ "

أجابَ قائلاً " يجب أن نكرِّر هذا كثيراً يا هنري ". والتفتَ إلى لوتا ليحصلَ على موافقتها. فرسمَتْ ابتسامةً كئيبةً، هزيلةً، كسَرَتْ جمودَ قسمات وجهها. كان جليّاً أنها كانت تقوم بمحاولةٍ يائسةٍ لتقديرِ تكاليفِ الوليمة.

فجأة دفعَ كارين بكرسيه إلى الخلف ونهضَ واقفاً عن المائدة وحسبتُ أنه سيُحضِر جداوله ورسومه البيانيّة إلى الطاولة. وبدل ذلك ذهبَ إلى الغرفة المجاورة وعادَ على الفور مع كتاب. ولوَّحَ به أمام عينيَّ.

طلبَ قائلاً " هل قرأتَ هذا، هنري؟ "

ألقيتُ نظرةً إلى العنوان. قلت " لا، لم أسمع به "

مرَّرَ كارين الكتابَ إلى زوجته وطلبَ منها أن تقرأ لنا منه جزءاً صغيراً. وتوقَّعتُ أن أسمعَ شيئاً مُقَبِضاً للصدر، فصببتُ عفوياً كأساً أخرى من النبيذ.

قَلَبَتْ لوتا الصفحات برصانةٍ، بحثاً عن إحدى الفِقْرات المفضَّلة لديها.

قال كارين " اقرأي من أي مكان، كله جيداً "

كفَّت لوتا عن العبثِ بالصفحاتِ ورفعَتْ بَصَرَها. وفجأة تبدَّلَ تعبير

وجهها، ورأيتُ للمرةِ الأولى قَسَمَاتها تُضيء. حتى صوتها تغيَّر. لقد أصبحت diseuse (عرّافة).

باشَرَتْ تقول " إنه الفصل الثالث، من كتاب " جرَّة الذهب " تأليف جيمس ستيفنس[٧١] "

قاطعها كارين بمرح " ويا له من كتابٍ لذيذ! ". ثم دفع بكرسيه قليلاً إلى الخلف ووضعَ قدمَهُ الكبيرةَ على ذراعِ كرسيٍّ مريحٍ موجودٍ بالقرب منه. " والآن، أنتما الاثنان، سوف تسمعان شيئاً عظيماً "

باشرت لوتا: " إنه حوارٌ بين الفيلسوف ومزارع يُدعى ميهول ماكموراتشو. وقد تبادلا التحيّة لتوّهما ". وأخذت تقرأ:

[" قال (المزارع): " أين الآخر؟ "

قال الفيلسوف: " أه! "

" أيكونُ في الخارج، ربما؟ "

قال الفيلسوف بوقار " قد يكون فعلاً "

قال الزائر: " حسنٌ، لا يهمُّ، لأنَّ لديك من المعرفةِ الذاتيّةِ ما يكفي لملء مخزن. لقد جئتُ إلى هنا لأطلبَ نصيحتك الجليلة حولَ لوح غسيل زوجتي. لقد ابتاعته منذ سنتين فقط، واستخدمتْه آخر مرة حين غسلتْ قميصي ليوم الأحد وقميصها الأسود المزيَّن بأشياء حمراء اللون – أتعرفه؟"

قال الفيلسوف " كلا لا أعرفه "

" على أي حال، لقد اختفى لوح الغسيل، وتقول زوجتي إنه إما أَخَذَتْه الجنيات أو أخذته بيسي هانيغان – ألا تعرف بيسي هانيغان؟ إنَّ لها سالفين مثل معزاة وساقها تعرج! "

---

٧١ – جيمي ستيفنس (١٨٨٢ – ١٩٥٠) : شاعر وقاصّ أيرلندي ، وكتاب " الجرَّة الذهبية " هو أشهر كتبه . – المترجم

قال الفيلسوف " كلا لا أعرفها "

قال ميهول ماكموراتشو " لا يهمّ، لم تكن هي التي أَخَذَتْهُ، لأنَّ زوجتي استدرجَتْها إلى الخارج واستنطقَتْها مدة ساعتين بينما كنتُ أنا أفتِّشُ كل شيء في بيتنها - ولم أعثُرْ على لوحِ الغسيل "

قال الفيلسوف " ما كان ليوجد هناك "

" أيمكن لسعادتك أن تخبرني بمكانه؟ "

قال الفيلسوف " ربما أستطيع، هل أنت مُنصِت؟ "

قال ميهول ماكموراتشو " نعم "

وقرَّبَ الفيلسوفُ كرسيه من الزائر إلى أن اشتبكَتْ رُكَبُهما معاً. ثم وضعَ كلتا يديه على ركبتيّ ميهول ماكموراتشو ...

قال " إنَّ الغسيلَ عادةٌ غير عادية. إننا نُغسَل حين نأتي إلى العالم وحين نخرج منه، ونحن لا نستمتع من الغَسْل الأول ولا نستفيد من الأخير "

قال ميهول ماكموراتشو " نَطَقْتَ حقاً، يا سيدي "

" إن الكثيرينَ يعتبرون أنَّ حُثالة المجتمع المُكمِّلة لهؤلاء ما هي إلا نِتاج العادة. والعادةُ فِعلٌ متواصلٌ، وهي شيءٌ بغيضٌ جداً. ومن الصعوبةِ بمكان التخلُّص منها. والمثلُ السائرُ سيبقى والمكتوب لن يبقى، وحماقات أجدادنا أعظمُ أهميةٍ بالنسبة إلينا من خير جيلنا المُقبل "]

هنا قاطعَ كارين زوجتَهُ لكي يسألنا إنْ كانَ المقطعُ قد أعجبنا.

قلتُ " أعجبني بحق. دعها تُكمِل! "

قال كارين، غائصاً أكثر في كرسيه، " أكملي! "

تابعتْ لوتا القراءة. وكان لها صوت ممتاز يستطيع أن يتلبَّسَ النبرة

الخبيرة. وأخذَ الحوارُ يغدو مسلّياً أكثر فأكثر. وبدأ كارين يضحك ضحكاً شبه مكبوت ثم أخذ يضحك كالضبع. وكانت الدموع تسيل على وجهه.

ناشدته زوجته، وهي تحطُّ الكتابَ برهةً، " خُذ حذرك يا كارين وإلا أُصِبتَ بالحازوقة "

قال كارين " لا يهمّني، يستحق الأمر أن أحوزق "

" ولكن تذكَّـرْ لأننا في آخـر مـرة حـدث لك هذا اضطررنا إلى استدعاء طبيب "

قال كارين " لا فرق، أحبُّ أن أسمع نهايته ". ومن جديد انفجرَ في نوبات من الضحك. وكان ضحكه مخيفاً. ولم يكن لديه أي قدرة على التحكُّم. وتساءلتُ إن كان يتَّصفُ بالشجاعةِ نفسها على البكاء. كان شيئاً جديراً بأن يفقد المرء أعصابه.

انتظَرَتْه لوتا حتى هدأ ثم عاودت القراءة:

["هل سمعتَ، يا سيدي، عن السمكة التي اصطادها بودين ماكلوغلن بقبعة رجل البوليس؟ "

قال الفيلسوف : " لم أسمع. إنَّ أول إنسان اغتسَلَ كان ربما إنساناً يسعى إلى الشهرة الرخيصة. إنَّ أيَّ أحمق يمكنه أن يغتسل، ولكن كل إنسان حكيم يعرف أنه جهدٌ لا لزوم له، لأن الطبيعةَ سرعان ما ستحطّه ثانية إلى قذارةٍ طبيعيّة وصحّية. كذا علينا ألاّ نسعى إلى أن ننظّف أنفسنا، بل أن نبلغ قذارةً أكثر فرادةً وروعةً، وربما طبقاتٍ متراكمة من مادة قد تصبح، بفعلِ قوةٍ جيولوجيّة قسريّة عاديّة، مندمجة بالبشرة الإنسانيّة وبهذا تجعل ارتداء الملابس غير ضروري ... "

قال ميهول " بالنسبة إلى لوح الغسل ذاك، كنتُ أوشكُ أن أقول..."

قال الفيلسوف " لا يهمّ، في مكانه المناسب أنا ... "]

هنا كان لابد للوتا أن تُغلق الكتاب. كان كارين يضحك، إن صحَّ أن نَصفُه هكذا، بعنفٍ عارمٍ حتى أنَّ عينيه كانتا تجحظان من رأسه. وحسبتُ أنه سيُصاب بنوبة.

جاء صوتُ لوتا القلِقْ يقول، مُسجِّلاً قلقاً لم أكن أعتقد أنها قادرة على إظهاره، " عزيزي، عزيزي! أرجوك يا عزيزي، إهدأ! "

ظلَّ كارين يهتزّ بفعل نوباتٍ كانت عندئذ قد أضحَتْ أقرب إلى النشيج. فنهضتُ واقفاً وخبطتُهُ بقوة على ظهره. وفي الحال خمدّ هياجه. ورفع بصره إليَّ بامتنان، ثم سَعَلَ وأزَّ وتمخَّطَ بعنف، وهو يمسحُ دموعه بكُمٍّ معطفه.

بقبقَ قائلاً " في المرة التالية يا هنري، استخدم خشبة أو مرزبَّة "

قلتُ " سأفعل "

ومن جديد عاد إلى ضحكه المكبوت.

توسَّلتْ إليه لوتا " كفى أرجوك! لقد نال ما يكفيه في ليلة واحدة "

قالت مونا " كانت حقاً أمسية رائعة. لقد بدأتُ أحبُّ الحياة هنا ".

ثم قالت تخاطبُ لوتا " وقراءتك رائعة "

قالت لوتا بتواضع " كنتُ أعملُ في المسرح سابقاً "

قالت مونا " هذا ما حسبتُهُ، وكذا كنتُ أنا ذات يوم "

رَفَعَتْ لوتا حاجبيها. " أحقاً؟ ". كان في نبرةِ صوتِها لمسةٌ من سخرية.

قالت مونا بهدوء " نعم، مثَّلتُ مع نقابة المسرح "

قال كارين، مستعيداً أسلوبه الجامعي " مرحى، مرحى! "

استفسرتُ قائلاً " وما الغرابة في هذا؟ ألا تعتقدْ أنها تتحلَّى بالموهبة؟ "

قال كارين، وهو يقبضُ على ذراعي " ما هذا، أرى أنك بحقّ وحشٌ حسَّاسٌ. لقد كنتُ أهنِّئ نفسي على حظِّنا الحَسَن. سوف نقرأ بالتناوب ذات ليلة. أنا نفسي كنتُ أعملُ في المسرح "

قلتُ في المقابل " وأنا كنت ذات يوم بارعاً في أرجوحة البهلوان "

" أحقاً! ". هذا ما هتفتْ به لوتا وكارين في وقتٍ واحد.

" ألم أخبركما بهذا قط؟ ظننتُ أنكما تعرفان "

لسببٍ ما غريبٍ أثَّرَت بهما هذه الكذبة البريئة. ولو أني قلت إني كنت عضواً في مجلس الوزراء ذات مرة لما ولَّدتْ لديهما مثل ذاك الأثر. كم كان مُذهلاً ضِعْفُ حسّهما الفكاهي. وطبعاً أسهبتُ في استعراض براعتي. وكانت مونا تتدخَّل بين حينٍ وآخر لتُخرجني من مأزق. كانا يُنصتان كالمفتونَين.

حين انتهيتُ علَّقَ كارين برصانة: " أنت، يا هنري، بالإضافة إلى كل مزاياك، قاصٌّ جيّد. يجب أن تُسمِعنا مزيداً من الحكايات حين نكون في مزاجٍ حسن "

* * *

في اليوم التالي صمَّمَ كارين، وكأنما من بابِ التعويض عن التفاخُر السافر، على أن يعالج السطح. كان يجب أن يُكسى بألواحِ الخشب ومن ثم يُغطَّى بالقار. وكان عليَّ أنا الذي لا أُحسِنُ ضربَ مسمارٍ واحد

بشكلٍ مستقيمٍ أن أقومَ بالعملِ - على ضوءِ تعليماته. ولحسن الحظ استغرقَ العثورُ على السُّلَّم المناسب، والمسامير المناسبة، والمطرقة، والمنشار وأدواتٍ أخرى كثيرة رأى أنها ستلزمنا، بعض الوقت، وما تلا كان مأخوذاً مباشرةً من أفلام لوريل وهاردي. فقبل كل شيء أصررتُ على إيجادِ قفَّازٍ قديم لكي لا تدخل أي شظايا في يديَّ. وبيَّنتُ بوضوحٍ كوضوح النظرية الإقليدسيّة أنه إذا ما دخلتْ شظايا في أصابعي فسأصبحُ عاجزاً عن الضربِ على الآلةِ الكاتبة وعجزي عن الضربِ على الآلة الكاتبة سيعني لا تسجيل. بعد ذلك أَصررتُ على إيجادِ حذاءٍ مطاطي لكي لا أنزلق وتنكسر رقبتي. ووافق كارين بجديّة تامة. فقد كان من النوع الذي لكي يحصل منك على أعلى قدرٍ من العمل مستعد لأنْ يحملك حَمْلاً إلى المرحاض ويمسح لك طيزك. وكان حينئذٍ قد بات واضحاً أني سأحتاجُ إلى مساعدة كبيرةٍ لإصلاح السطح. وكان على مونا أن تقفَ على أهبةِ الاستعدادِ تحسُّباً لسقوطِ أي شيء على الأرض؛ وكان عليها أيضاً أن تُحضِر لنا ليمونادة مثلَّجة خلال فترات الاستراحة. وكان كارين، طبعاً، قد رَسَمَ لتوّه عدّة رسومٍ بيانيّة تشرحُ كيفيّة ترتيب الألواح الخشبية جنباً إلى جنب. وطبعاً لم أستفدْ بأي قدرٍ من تلك الشروح. ولم أكن أفكّر إلا في أمرٍ واحد - أن أبدأَ بالخبط كالمجنون وأدَعَ رقائقَ الخشبِ تقعُ حيثما تشاء.

من بابِ ممارسةِ تمارينِ الإحماء اقترحتُ أن أسيرَ على طولِ الرافدة. وأرادَ كارين، وهو ما يزالُ يوافقُ، على أن يُعيرني مظلّة لكنَّ مونا ضحكَتْ من هذهِ الفكرة من أعماقها حتى أنه تخلّى عنها. وأخذتُ أعدو مرتقياً السلّم برشاقةِ قِط، وارتقيتُ إلى الرافدةِ وباشرتُ تمارينَ الحبلِ

المشدود. راحت لوتا تتابعني بخوفٍ مكبوت، ولا شك في أنها كانت منهمكةً في حسابِ تكاليفِ المستشفى في حالِ انزلقتُ وانكسرت ساقي. وكان الجوّ في ذلك اليوم حاراً جداً، والذبابُ حشوداً يقرصُ بضراوة. كنت أعتمرُ قبعةً مكسيكيةً ضخمةً أكبر من مقاسي بكثير ظلّت تسقطُ فوقَ عينيّ. وحين هبطتُ خطر لي أن أرتدي سروال السباحة. ورأى كارين أن يفعل مثلي. وقد استهلك ذلك مزيداً من الوقت.

أخيراً لم يبقَ أمامي إلا أن أباشرَ العملَ. فارتقيتُ السلّمَ وأنا أتأبّطُ مطرقةً وأقبضُ على برميلٍ صغيرٍ مملوءٍ بالمسامير. كان الوقتُ يقتربُ من منتصف الظهيرة. وكان كارين قد أنشأ منصّةً قائمةً على دواليب نقَلَ بواسطتها ألواحَ الخشب وأصدَرَ من فوقها تعليماته. وكان أشبه بقرطاجيّ يُقيمُ دفاعات المدينة. وظلّت المرأتان في الأسفل، تقوقّان كدجاجتين، وهما في حالة استنفارٍ للامساك بي إذا ما وقعتُ.

وضعتُ لوحَ الخشبِ الأول والتقطتُ المطرقةَ لأطرقَ المسمارَ الأولَ في موقعه. أخطأته بمقدار إنش أو اثنين وطارَ لوح الخشب ميمّماً وجهه شطر المنزل كطائرة ورقيّة. وقد تولاّني فرطُ الدهشة، والذهول، حتى أن المطرقةَ سقطَتْ من يدي وارتطمَ برميلُ المساميرِ بالأرض. فأعطى كارين أوامره، بكل هدوء، كي أبقى حيثُ كنتُ، وتتولّى المرأتان جَمْعَ المطرقةَ والمسامير. فهرعَتْ لوتا إلى المطبخ لتُحضرَ المطرقة. ولدى عودتها علِمَتُ أني قد كسرتُ إبريقَ الشاي وبضعَ صِحَاف. وكانت مونا تخربش بحثاً عن المسامير، وتلتقطها بسرعةٍ كبيرةٍ حتى أنها كانت تقع من يدها قبل أن تنجح في وضعها في البرميل.

صرخَ كارين " بهدوء، بهدوء! هل كل شيء على ما يرام عندك فوق يا هنري؟ اثبتْ الآن! "

هنا أخذتُ أقهقه. وذكّرني الموقف بحيوية شديدةٍ بتلكَ المناسبات الفظيعة في الماضي حين كانت أمي وأختي تساعداني في تركيب الظّلة – على واجهة الردهة. ولا أحدَ غير صانع الظّلة كان يعرف كم هي معقّدة. فالأمرُ ليس فقط قضبانٌ وقطعٌ من القماش، ومساميرُ ملولبةٌ وبراغي، وبكرات وحِبال، وإنما هناك مائة صعوبة مُربكة تنشأ بعد أن ترتقي السُلّم وتستقر بنشاطٍ على حافة النافذة المزدوجة. ولا أدري كيف يكون هناك دائماً تيارُ هواء قويّ يهبُّ حين تقرر أمي أن تركّب الظّلة. فأمسكُ بقماش الظّلة السائب بيد والمطرقة بالأخرى، ومن ثم تحاولُ أمي أن تناولني الأشياء المختلفة اللازمة والتي تكون أختي قد ناولتها لها. ولكي أظلّ مثبّتاً ساقي بإحكامٍ ولا أسمحُ للظّلة أن تحملني عالياً كان بحدّ ذاته عملاً بطولياً. كانت ذراعاي ينالهما التعبُ حتى قبل أنْ أشدَّ البرغي الأول. ويكون عليَّ أن أنفكّ عن البِدْعَة اللعينةِ ثم أقفزُ هابطاً لأستردَّ بعضاً من أنفاسي. وطوال الوقت تغمغم أمي وتَئنُّ مستنكرةً – "إنه أمرٌ بسيط، كان في وسعي أن أركّبها في غضون بضع دقائق لولا أني أعاني الروماتيزم ". وأبدأ من جديد، وتضطرُّ إلى أن تبيِّنَ لي مرة أخرى أي جزء ينتأ إلى الخارج وأيُّها يتراجعُ إلى الداخل. كان الأمرُ بالنسبة إليّ كأني أؤدّي عملاً بحركةٍ عكسيّة. وبعد أن أتّخذُ موقعي من جديد، تقعُ المطرقةُ من يدي، وأجلسُ هناك أصارعُ انتفاخَ الظّلة بينما تهرع أختي لإحضارها. ويستغرقُ مني إقامة الظّلة لا أقلَّ من ساعة. وهنا أظلُّ أردِّدُ " لمَ لا نُرجئُ تركيبَ الأخرى إلى الغد؟ "، وعلى الأثر تستشيطُ أمي غضباً، وقد مسَّها الرعب مما قد يظنُّه الجيران حين يرون فقط ظّلةً واحدةً في مكانها. عندئذٍ، كنتُ أقترحُ أحياناً أن نستدعي أحد

الجيران لإنهاء العمل، عارضاً أن أدفعَ له أجراً سخيّاً من جيبي الخاص. لكن هذا يزيدُ من لظى غضبها. ففي رأيها من الإثم أن ندفعَ نقوداً مقابلَ عملٍ في مقدورنا أن نقوم به بأنفسنا. ومع انتهاء العمل أكون قد نلتُ بضعَ رضوضٍ. فتقولُ أمي " تستأهل، يجب أن تخجلَ من نفسِك. إنك عاجز كأبيك "

أجلسُ متباعدَ الساقين على الرافدة، وأنا أضحكُ بهدوءٍ مع نفسي، وأهنِّئ نفسي لأننا نقومُ بعملٍ آخرَ غيرَ التسجيل. وأعرفُ أنه بحلول المساء سيكون ظهري قد احترقَ من أشعةِ الشمسِ بحيث أُصبحُ غير قادر على القيامِ بالعملِ في الغد. رائع. وسيتيحُ ذلك لي فرصةَ أن أقرأ شيئاً مثيراً للاهتمام. كنت قد ازددتُ غباءً لأني لم أكن أنصت إلا إلى الرطانة الإحصائيّة. وأدركتُ أنَّ كارين سيحاولُ أن يجدَ لي عملاً "خفيفاً" أقومُ به بينما أنا مستلقٍ على بطني، لكني كنتُ أعرفُ كيف أُحبِطُ مثل تلك المحاولات.

حسنٌ، وبدأنا من جديد، ببطءٍ وتأنٍ هذه المرة. وكانت الطريقة التي أتعاملُ بها مع أي مسمارٍ كفيلةٍ بدفعِ أي إنسانٍ عاقل إلى حافةِ الجنون. لكن كارين كان أي شيء غير إنسانٍ عاقل. واستمرَّ من برجه القرطاجي يمطرني بتوجيهاته وبعبارات التشجيع. ولم أفهم لمَ لمْ يُثبِّت ألواح الخشب بنفسه ويتركني أمرِّرُها إليه. ولكن لم يكن يُسْعِده غيرَ توزيعِ التوجيهات. حتى أبسط عملٍ يقوم به كان في إمكانه أَن يقسِّمه إلى عددٍ هائلٍ من الأجزاء الصغيرة مما يستدعي بالضرورة تعاونُ عددٍ من الأفراد. ولم يهمّه قط كم من الوقت سيستغرق إكمالُ العمل؛ المهم أن يتمَّ على طريقته هو، أي الطريقة الأطول والأشدُّ تعقيداً. وهذا ما كان

يسمّيه " الفعالية ". لقد تعلّمَ ذلك في ألمانيا أثناء دراسته كيفيّة صناعة آلات الأرغن (ولمَ آلات الأرغن؟ لكي يتذوّقَ الموسيقى بشكل أفضل).

لم أكن قد ثبّتُّ أكثر من بضعة ألواح حين جاءت الإشارة بأن طعامَ الغداء بات جاهزاً. كان غداءً بارداً يتألّفَ من بقايا وليمةِ الأمس. سمّتّه لوتا " سَلَطَة ". لحسن الحظ كان هناك بضع قنانٍ من البيرة ليجعله سائغاً. بل كان لدينا بضع حبات من العنب. رحت آكلها ببطء، واحدةً إثر أخرى، وأطيلُ أمد الاستمتاع بها. وكان جلد ظهري قد بدأ ينسلخ. وطلبتْ مونا مني أن أرتدي قميصاً. فأكّدتُ لهم أن جلدي يُسفَع بسرعة. ولا يمكن أن أرتدي قميصاً. فاقترحَ كارين، الذي لم يكن أحمقَ تماماً، أن نتركَ العملَ في السطحِ جانباً خلال فترة بعد الظهر وأن نقوم بعملٍ "خفيف ". وأخذ يشرحُ قائلاً إنه أعدَّ جداول معقّدة يجب تصحيحها وإعادة كتابتها.

ألححتُ قائلاً " كلا، دعنا نواصلُ العملَ في السطح؛ لقد بدأت للتو أنسجمُ معه "

وجدَ كارين هذا الاقتراح مقبولاً ومنطقياً فصوّتَ لصالحِ العملِ من جديد على السطح. وارتقينا من جديد السلّم. وقمنا بقليلٍ من حركات التنقُّل الأوّليّة على الأقدام على الرافدة الأفقيّة من السقف، ثم استقرّينا لنطرقَ المسامير. وسرعان ما أخذ العَرَقُ يتصبَّبُ مني كهطل المطر. وكلما تعرَّقتُ ازدادَ طنينُ الذبابِ وقرصِه. وشعرتُ كأنَّ ظهري قطعةَ لحمٍ نيئ يُشوى. وسارعتُ إيقاعَ عملي بشكلٍ واضح.

زعقَ كارين " أحسنتَ عملاً، هانك! بهذه الوتيرة سوف ننتهي في غضون يومٍ أو يومين "

ما أن خرجتْ هذه الكلمات من فمه حتى طارَ أحد الألواح الخشبيّة وضربه على عينه، فسبّبَ له جرحاً بليغاً في عينه أخذَ يدمي.

صرخت لوتا " أوه، عزيزي، أجُرِحتَ؟ "

قال " إنه لا شيء. تابع يا هنري "

زعَقَتْ لوتا، وهي تركض نحو المنزل " سأحضرُ بعض اليود "

سَقَطتْ المطرقةُ سهواً من يدي، ونَفَذَتْ من خلال فتحةٍ في السطح إلى جمجمة لوتا، فأطلقتْ صرخةً جادّة وكأنَّ سمكةَ قرشٍ عضّتها، وهنا هبطَ على عَجَلٍ من مجثمه.

استلزمَ الأمرُ إيقافَ العمل. وحُمِلَتْ لوتا إلى السرير ووضِعَتْ كمّادات باردة على رأسها. وألصقَ كارين قطعةً كبيرةً من لُصُوق الجرح على عينه اليسرى. ولم يفه بكلمة شكوى واحدة.

قال لمونا " أعتقد أنك ستضطرّين إلى أن تُعدِّي طعام العشاء في هذا المساء أيضاً ". وتبيَّنتُ في صوته نبرة سرور سرِّي. وبالكاد تمكّنا أنا ومونا من كبت ابتهاجنا. وانتظرنا قليلاً قبل أن نفتح موضوع قائمة الطعام.

قال كارين " حضِّري أي شيء تشائين "

اقترحتُ قائلاً " ما رأيك بشرحات الحَمَل؟ بعض شرحات لحم الحَمَل مع البازلاء الفرنسية، والمعكرونة الرفيعة، وربما أيضاً أرضي شوكي - ما رأيك؟ "

رأى كارين أنه رائع. سألَ مونا " لا أظنّكِ تمانعين. أم ماذا؟ "

قالت " لا أبداً. إنه لذيذ "

ثم أردفتْ، وكأنما خطرَ ببالها فجأة، " ألم نُحضِّر بالأمس بعضاً من نبيذ ريزلنغ؟ أعتقد أن زجاجة ريزلنغ تتماشى مع لحم الشرحات "

قال كارين " مناسب تماماً "

أخذتُ دشّاً وارتديتُ منامتي. وأنعشني التفكير في الاستمتاع بوجبة طيّبة أخرى. كنتُ مستعداً للجلوس والقيام ببعض العمل على الدكتافون لأُظهِرَ امتناني.

قال كارين " أعتقد أنَّ أفضَلَ لك أن ترتاح. غداً سوف تمارسُ بعض الجهد العضلي "

قلت " وماذا عن تلك الجداول. أحبُّ حقاً أن أقومَ ببعضِ العمل، في الحقيقة. أنا آسف لأني كنتُ أخرقَ جداً "

قال كارين " تت، تت، لقد قمتَ بعملٍ جيد اليوم. هوِّن عليك حتى موعد العشاء "

" حسن، ما دمتَ مُصِراً، أوكيه "

فتحت زجاجة من البيرة وغصتُ في مقعدٍ مريح.

هكذا سار الأمر au bord de la mer (على شاطئ البحر). هبّاتُ عاتية من رذاذ الرمل، وتكسُّر أمواج متلاحق يضجُّ في الآذان ليلاً مثل طرْقْ مقطوعة توكاتا مذهلة. وبين تارة وأخرى تهبُّ عواصفُ رملية. كانت الرمال تتسرَّب إلى كل مكان، وكأنما حتى من خلال زجاج النوافذ.

كنا جميعاً سبَّاحين مَهَرة؛ نتمايل ونغوصُ ونظهرُ في أمواج الشاطئ الضخمة كالقضاعات[٧٢]. ولما كان كارين دائماً يسعى إلى تحسين الأشياء، فإنه استفاد من وجود فِراش مطاطيّ منفوخ. كان يغيبُ في أعماق البحر حتى لنحسبه غفا، ومن ثم يظهر ويسبحُ قليلاً بعد أن يصيبنا رعبٌ عظيم.

---

٧٢ – القضاعة : أو ثعلب الماء : حيوان مائي : – المترجم

في الأمسيات كان يستمتع بممارسة الألعاب. وكان دائماً يلعب بجدّية صارمة، سواء أكانت اللعبة هي بينوكل، أو كريبج، أو الداما، أو الكاسينو، أو الويست، أو الفان-تان، أو الدومينو، أو اليوكر[٧٣] أو لعبة النرد. وأعتقد أنه ليس هناك لعبة لم يكن مُلِّماً بها. إنه جزءٌ من ثقافته العامة، كما ترى. إنه الفرد المكتمل. كان في استطاعته أن يلعب الحجلة أو لعبة الأقراص والكأس[٧٤] بقدرٍ متساوٍ من الحماسة الملتهبة والبراعة. وذات مرة، حين رافقته إلى البلدة، اقترحتُ أن نعرِّجَ على قاعةٍ للعب البولة[٧٥] ونلعب هناك دوراً. فسألني إن كنتُ أودُّ أن ألعبَ أولاً. ودون تفكير قلت " لا، العب أنت ". ولعبَ. وأفرغَ الطاولة أربع مرات قبل أن يُتاحَ لي أن أستخدم العصا. وحين جاء دوري اقترحتُ أن نعود إلى المنزل. فقال " في المرة القادمة أنت تلعب أولاً "، ملمِّحاً بذلك إلى أنه سيكون حظاً سعيداً لي. ولم يخطر في باله قط أنه لمجرَّد كونه عالي التفوُّق فإنه كان من قبيل الروح الرياضية أن يُخطئ في إحدى الضربات أحياناً. وكان لعبُ البينغ بونغ معه عملية خاسرة؛ وحده بيل تيلدند كان يستطيع أن يردّ على إرسالاته. اللعبة الوحيدة التي كان يمكن أن أفوز فيها بفرصة التعادل معه كانت لعبة الكرابس[٧٧]، لكني لم أكن أحبُّ رمي النرد؛ كانت تضجرني.

وذات مساء، وإبَّان مناقشة بعض الكتب حول الإيمان بالقوى الخفيّة، ذكَّرتُهُ حين قمنا برحلةٍ إلى أعالي نهر هدسن في قاربٍ للنزهات.

---

٧٣ – هذه الألعاب كلها – ماعدا الداما والدومينو – من ألعاب الورق أو الشدّة .. – المترجم

٧٤ – قذفُ أقراصٍ صغيرةٍ بحيثُ تستقرُّ في الكأس . – المترجم .

٧٥ – البولة : من ألعاب البليارد . – المترجم

٧٦ – بيل تيلدن (١٨٩٣ – ١٩٥٣) : بطل أميركي في لعبة التنس . فاز بمباريات كثيرة إفرادية وزوجيّة ، في أميركا وفي ويمبلدون . – المترجم

٧٧ – الكرابس : لعبة قمار تُلعَبُ بنردَين . – المترجم

" أتذكُر كيف كنا نشغِّلُ لوح أويجا*؟ "، فأضاء وجهه. طبعاً يذكُر. ويودُّ أن يجرِّبَ ذلك مرة أخرى إن كنتُ أرغبُ. وسوف يرتجل لوحاً.

سهرنا في تلك الليلة حتى الساعة الثانية صباحاً ونحنُ نتعارك مع ذاك الشيء المبهم. لابد أننا أقمنا العديد من الاتصالات مع نجوم الفضاء، إذا أخذنا الوقت المنصرم بعين الاعتبار. وكالمعتاد كنتُ أنا مَنْ يستدعي الشخصيات الغريبة الأطوار - ياكوب بوهمه[٧٨]، ستريندبرغ، باراسيلسوس[٧٩]، نوستراداموس، كلود سان مارتان، إغناطيوس ليولا[٨٠]، المركيز دو ساد وأمثالهم. ووضع كارين ملاحظات حول الرسائل التي تلقَّيناها. وقال إنه سيُمليها على الدكتافون في اليوم التالي، ومن ثم تُضبَّر تحت الرقم (١٨) ٢٤٠ CZ - 1,352، وهو الفهرس المطابق لمادةٍ استُمِدَّت من الأرواح الراحلة بواسطة لوح أويجا في الليلة كذا وكذا في منطقة روكاويز. وبعد ذلك بأسابيع استخلصت هذا السجلّ بالذات. وكنت قد نسيت أمر الحادثة تماماً. وفجأة، بدأت أتلقَّى بصوت كارين الجادّ هذه الرسائل التي كانت تَرِدُ لا أدري من أين ... " آكلُ جيداً. الوقت يجثمُ ثقيلاً. غداً تسالي قلبيّة. باراسيلسوس ". وبدأت أهتزُّ من فرط الضحك. إذن فالأبله حقاً يضبِّر هذا الشيء! كنت تواقاً إلى معرفة ماذا يدسُّ تحت هذا التصنيف. فتوجَّهتُ أولاً إلى ملفَّات البطاقات. كان هناك ما لا يقلّ عن خمسين إسناداً ترافقيّاً[٨١]. وكل واحد أشدُّ جنوناً من

---

* - لوح أويجا : أداة تتألف من لوح صغير يستند إلى قوائم، مكتوب عليه كلمات وأحرف من الأبجدية . يستخدمها الروحانيون والوسطاء للإجابة عن الأسئلة . وإرسال رسائل . - المترجم

٧٨ - ياكوب بوهمه (١٥٧٥ - ١٦٢٤) : متصوِّف ألماني . كان صانع أحذية قروي . - المترجم

٧٩ - باراسيلسوس (١٤٩٣ - ١٥٤١) : فيزياني سويسري . كان يطوف بلدان أوروبا ، يمارس السحر ، والخيمياء ، والتنجيم . عاد إلى ألمانيا وحقق إنجازات طبية مذهلة . عُيِّنَ في جامعة بازل . لكنه سرعان ما أُعلِنَ مشعوذاً ، وعاد إلى التجوال من جديد . - المترجم

٨٠ - القديس إغناطيوس ليولا (١٤٩١ - ١٥٥٦) : قديس أسباني . مؤسس جمعية يسوع (اليسوعيون) . المترجم

٨١ - الإسناد الترافقي : إحالةُ جزءٍ من كتاب أو فهرس إلى آخر . - المترجم

سابقه. أخرجتُ حافظات الأوراق وصناديق الملفّات التي خُزِّنَتْ فيها الأوراق. كانت ملاحظاته ومذكّراته الموجزة مخربشة بخطٍ دقيق على نثريات أوراق، غالباً ما تكون فوَطاً ورقيّةً، وورقاً نشّافاً، وقوائم طعام، وبطاقات إجراء الحسابات. أحياناً لا تكون أكثر من عبارة ألقاها صديقٌ على مسمعه أثناء حديثٍ معه في القطار النَفَقي؛ وأحياناً تكون فكرةً لم تكتمل بعد وَمَضَتْ في ذهنه أثناء تبرُّزه. أحياناً تكون صفحةً مَزَّقها من كتاب - كان دائماً يدوِّن عنوانه، واسم المؤلِّف، والناشر ومكان إصداره بعناية بالإضافة إلى التاريخ حين يصادفه. وكانت هناك بيانات بالمراجع بعددٍ كبيرٍ من اللغات، من بينها الصينية والفارسية.

وقد أثارت إحدى اللوائح الغريبة اهتمامي بشكلٍ هائل؛ ونويتُ أن أنتزع منه كل المعلومات بشأنها ذات يوم لكنني لم أفعل أبداً. وكل ما استطعتُ أن أفهم منها أنها تمثِّلُ خريطةً لمنطقةٍ فريدة نائيةٍ حُدِّدَت تُخومها أثناء جلسة تحضير أرواح وبوجود وسيط. بدتْ أشبه بمسحٍ جيودوسي[٨٢] لكابوس. وكانت أسماء الأماكن مدوَّنة بلغةٍ لا يمكن لأي إنسان أن يفهمها. ولكن كارين كان قد قام بترجمتها على صفائح منفصلة من الورقة ترجمة تقريبيّة. وتقول " الملاحظات ": " إن الترجمات التالية لأسماء الأماكن بالتقطيع الرباعي للـ Devachan تبرَّعَ بالقيام بها دو كوينسي[٨٣] من خلال مدام x. وقد قيلَ أن كولريدج كان قد أكَّدَ صحَّتها قبل وفاته لكنَّ الوثائقَ التي تضمّ هذه الشهادة قد فُقدَتْ مؤقَّتاً". والناحية الفريدة في هذا القطاع الغامض النائي تكمُنُ في أنه:

٨٢ - جيودوسي : من علم الجيودوسيا الذي يُعنى بدراسة شكل الأرض وقياس سطحها . - المترجم

٨٣ - توماس دو كوينسي (١٧٨٥ - ١٨٥٩) : ناقد وكاتب مقالات إنكليزي . - المترجم

كانت تتجمَّعُ ضمن حدودها، الوهمية ربما، أشباحُ شخصياتٍ متعدِّدةِ الجوانب ومثيرة للاهتمام أمثال فيثاغورس[٨٤]، وهيراقليطس[٨٥] ولونجاينس[٨٦]، وفرجيل[٨٧]، وهرمز تريسميجيتوس[٨٨]، وأبولونيوس تايانا، ومونتيزوم[٨٩]، وزينوفون[٩٠]، ويان فان رايسبروك [٩١]، ونيقولاوس كوزا، ومايستر إيكارت[٩٢]، والقديس برنارد من كليرفو[٩٣]، وأسوكا[٩٤]، والقديس فرانسوا دو سال[٩٥]، وفينيلون[٩٦]، وتشوانغ تزو[٩٧]، ونوستراداموس، وصلاح الدين، والبابا يوحنا، والقديس فنسنت البولسي[٩٨]، وباراسيلسوس، ومالاتستا[٩٩]، وأوريغن[١٠٠]، بالإضافة إلى

---

٨٤ – فيثاغورس (٥٨٢ – ٥٠٠ ق .م) : فيلسوف ورياضي يوناني . – المترجم

٨٥ – هيراقليطس (٥٤٠ – ٤٧٥ ق .م) : فيلسوف يوناني . – المترجم

٨٦ – لونجاينس (٢١٣ – ٢٧٣) : فيلسوف يوناني . قُطِعَ رأسه . – المترجم

٨٧ – فرجيل (٧٠ – ١٩ ق .م) : شاعر روماني . له " الإينياده " – المترجم

٨٨ – هرمز تريسميجيتوس : هو الاسم اليوناني للإله المصري توت ، ويعني : هرمز الثلاثي العظمة . ولُقِّب به عددٌ من المؤلفين . – المترجم

٨٩ – مونتيزوم ، أو منتيزوما : اسم لاثنين من أباطرة شعب الأزتك في المكسيك في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . – المترجم

٩٠ – زينوفون (٤٣١ ؟ – ٣٥٥ ق .م) : مؤرِّخ وقائد عسكري يوناني . – المترجم

٩١ – رايسبروك (١٦٩٣ – ١٧٧٠) : مثَّال فلمنكي . – المترجم

٩٢ – مايستر إيكارت (١٢٦٠ – ١٣٢٧) : لاهوتي ومتصوِّف ألماني . – المترجم

٩٣ – برنارد من كليرفو (١٠٩٠ ؟ – ١١٥٣) : قديس فرنسي . كبير رهبان ولاهوتي . أسس الفرع الأشدَّ صرامة من الرهبنة البندكتيّة عام ١١١٥ . – المترجم

٩٤ – أسوكا (٢٧٣ – ٢٣٢ ق .م) : إمبراطور هندي .

٩٥ – القديس فرامسوا دو سال (١٥٦٧ –١٦٢٢) : كاهن ولاهوتي فرنسي . عادى الكالفينيّة . صاحب كتاب " مقدمة إلى الحياة الورعة " . – المترجم

٩٦ – فرامسوا فينيلون (١٦٥١ – ١٧١٥) : لاهوتي فرنسي وكاتب . له " أمثال القديسين " ويدافع فيه عن التصوُّف . وأيضاً " مغامرات تيليماك " الذي اعتُبِرَ انتقاداً لحكم الملك لويس الرابع عشر . – المترجم

٩٧ – تشوانغ تزو (٣٦٩ ؟ – ٢٨٦ ؟ ق .م) : فيلسوف صيني في فلسفة الطاو . – المترجم

٩٨ – القديس فنسنت البولسيّ (١٥٨١ ؟ – ١٦٦٠) : كاهن فرنسي في الكنيسة الكاثوليكية ، أسَّسَ أخويَّتين للإحسان : الأليعازريون (عام ١٦٢٥) ، وأخوات الإحسان (عام ١٦٣٤) . – المترجم

٩٩ – انريكو مالاتستا (١٨٥٣ – ١٩٣٢) : فوضوي إيطالي . – المترجم

١٠٠ – أوريغن (١٨٥ ؟ – ٢٥٤ ؟) : لاهوتي مسيحي . ولد في الإسكندرية . – المترجم

شلّةٍ من القديسات. ويرغبُ المرءُ في أن يعرفَ ما الذي جمَعَ هذه الطائفة من الأرواح معاً؛ وماذا كانوا يناقشون بلغة البائدين الغامضة؛ وإن كان ما جمع شملهم هو التناغم القدسي. محاربون، قديسون، متصوفون، حكماء، سَحَرَة، شهداء، ملوك، وصانعو معجزات ... أي تجمُّعٍ رائع! ماذا يمكن للإنسان ألاّ يهبه مقابل أن ينضمَّ إليهم ليومٍ واحد فقط!

كما كنت أقول، لم أنجح، لسببٍ غامض ما، في لفت انتباه كارين إلى هذا الموضوع. والحق أني قلّما تطرَّقتُ، خارج نطاق العمل، إلى مناقشة أي موضوع معه، أولاً بسبب تحفُّظه، وثانياً لأنه من أجل إدخال أقلّ تفصيل كان يعني الاستماع إلى خطبة رنَّانة لا نهاية لها، وثالثاً لأنني أُصِبت بالرعب مما بدا أنه مجال معرفته الشاسع الواسع. وقنعتُ بتصفُّح كتبه، التي كانت تحيط بسلسلةٍ هائلةٍ من المواضيع. فقد كان يقرأ اليونانية، واللاتينية، والعبرية والسنسكريتيّة بسهولة جليّة، ويتقن عدداً آخر من اللغات الحيّة، من بينها الروسية والتركية والعربية. وكانت عناوين كتبه وحدها كافية لتصيبني بالدوار. إلا أن ما أذهلني هو أنه نادراً ما كان يتسرَّب شيء من هذا المخزون الضخم من العلم إلى أحاديثنا اليومية. أحياناً كان يخامرني شعور بأنه يعتبرني جاهلاً جهلاً مطبقاً. وفي أحيانٍ أخرى كان يحرجني بطرحِ أسئلةٍ لا يمكن لغير توماس الأكويني أن يجيبَ عنها. وكان يخيَّلُ إليّ أحياناً أنه مجرد طفلٍ ذي عقلٍ فائق التطوُّر. ولم يكن يتمتَّع بأي حسٍّ فكاهي أو بمخيّلة مبدعة. ظاهرياً كان يبدو زوجاً مثالياً، مستعداً دائماً لتلبية نزوات زوجته، ودائماً متأهباً لخدمتها، ودائماً موسوساً ويقدِّم حمايته، وأحياناً يكون شهماً حقيقياً. أحياناً لا يسعني إلا أن أتساءل كيف يمكن أن تكون

الحياة مع هذه الآلة الحاسبة الإنسانية. مع كارين كان كل شيء يسير وفقاً لجدولٍ معيَّن. والجِمَاع أيضاً، دون شك. لعله يحتفظ بملفٍ سرِّي يذكِّره بموعد قيامه بالجِمَاع، بالإضافة إلى ملاحظات حول النتائج - الروحية، والأخلاقية والجسديّة.

ذات يوم فاجأني وأنا أقرأ كتاباً لإيلي فور عثرتُ عليه. وكنتُ قد انتهيت لتوي من قراءة الفقرة الافتتاحية للفصل الذي يدور حول " منابع الفن الإغريقي " ... " إذا احترمنا الأطلال، وامتنعنا عن إعادة بنائها، وتركناها، بعد مُسائلة أسرارها، ليغطّيها رماد القرون، وعظام الموتى، وأكوام البقايا التي كانت نباتات وسلالات بشرية، وغطاء أبدي من أوراق النبات - فقد يثيرُ مصيرها مشاعرنا. إننا من خلالها نلمسُ أعماق تاريخنا، كما قد نلمسُ جذور الحياة عبر الآلام والمعاناة التي ساهمتُ في تشكيلنا. إن مشاهدة الأطلال لا تؤلم غير الإنسان العاجز عن المشاركة بنشاطه في غزو الحاضر ... "

جاءني حالما كنتُ قد أنهيتُ قراءة الفقرة. فهتف " ماذا! أتقرأ إيلي فور؟ "

" ولِمَ لا؟ ". لم أفهم ذهوله.

تردَّدَ برهةً، وحكَّ رأسه، ثم أجاب وهو يتلعثم " لا أدري يا هنري... لم يخطر في بالي قط ... لعنني الله! أحقاً تجده ممتعاً؟ "

كرَّرت " ممتعاً؟ إنني مجنون بإيلي فور ". سألني، وهو يمدُّ يده لتناول الكتاب، " إلى أين وصلتَ؟ "، وأخذ يقرأ الفقرة بصوتٍ عالٍ. "أه، فهمت. ليتَ الوقتَ يتوفَّرُ لي لأقرأَ هذا النوعَ من الكتب - إنه بالنسبة إليّ رفاهية مترفة "

" لا أفهمكَ "

قال كارين " على المرء أن يستوعب مثل هذه الكتب في مرحلة مبكّرة من الحياة. إنها، كما تعلم، شعْرٌ صرف. وتتطلّب قراءتها الكثير من الجهد. أنت محظوظ لأنَّ الوقتَ مُتاحٌ لَك. أنت لاتزال محباً للجمال في الفن "

" وأنت؟ "

" أعتقد أني مجرد حصان كادح. لقد رميت أحلامي وراء ظهري "

" وتلك الكتب التي هناك كلها ... "، وأومأت ناحية رفوف المكتبة " أقرأتها؟ "

أجاب " أغلبها. بعضها أحتفظُ به لأوقات الفراغ "

" لاحظتُ أنَّ لديكَ كتباً عديدةً حول باراسيلسوس. لم ألقِ إلا نظرة عجلى عليها - لكنها أسرتني "

كنت آمل في أن يختطف الطُعْم، ولكن لا، لقد طرح الموضوع بقوله، كأنما لنفسه، إنَّ في وسع المرءِ أن يقضي حياته وهو يكافحُ للإحاطة بفحوى نظريات باراسيلسوس.

سألته " وما رأيك في نوستراداموس؟ ". وكان قصدي أن أحصل على قبسٍ ما منه.

كم كان مبلغَ دهشتي حين أضاءَ وجهه فجأة، وأجاب " أه، هذه قصة أخرى. لماذا تسأل - أكنت تقرأه؟ "

" إنَّ المرءَ لا يقرأ نوستراداموس. كنتُ أقرأ " عنه ". وأشدُّ ما يثيرني المقدَّمة التي يخاطبُ فيها ابنه الطفل، سيزار. إنها وثيقة مذهلة من نواحٍ عدة. هل لي بدقيقة من وقتك؟ "

أومأ موافقاً. نهضتُ واقفاً، وأحضرتُ الكتاب مرة أخرى، وفتَّشتُ حتى عثرتُ على الصفحة التي ألهبت مشاعري قبل ذلك ببضعة أيام.

قلت " أنْصِتْ إلى هذا ". وقرأتُ على مسامعه بضعة مقاطع بارزة، ثم فجأة توقفت. " في هذا الكتاب فقرتان ... تحيّراني. لعلَّ في استطاعتَكَ أن تشرحهما لي. الأولى هذه: " يرى مسيو لو بيليتييه (يقول المؤلف) أنَّ Commun Advenement (مجيء الرعاع)، أو l'avenement au regne des gens du commun (سيطرة الرعاع على مقاليد الحكم)، الممتد منذ موت لويس السادس وحتى عهد المسيح الدجَّال، هو الموضوع الأعظم لنوستراداموس ". وسوف أعود إلى هذا حالاً. وهاك الثانية: " بوصفه رؤيوياً معتَرَفاً به لعله (أي نوسترادموس) أقلّ إنسان من النوع الشقيق تأثُّراً بالمخيلة يمكن ذكره ". ثم سكتُّ. " ماذا تفهم منهما، إنْ كان لهما أي معنى؟ "

تمهَّلَ كارين كثيراً قبل أن يجيبَ. حتى ظننتُ أنه يديرُ نقاشاً داخلياً، أولاً، حول ما إذا كان يستطيع أن يوفِّر الوقت اللازم لإعطاء جوابٍ شافٍ عن السؤال، وثانياً، حول ما إذا كان الأمرُ يستحقُّ أن يبدِّد ذخيرته على مثلي.

باشرَ بالقول " أنت تدرك يا هنري أنَّكَ تطلبُ مني أن أشرحَ شيئاً على قدرٍ عالٍ من التعقيد. دعني أولاً أسألك، هل سبق لك أن قرأتَ أي شيء من تأليف إيفلين أندرهيل، أو أ.أ ويت؟ ". فهززتُ رأسي نفياً، فاستأنف قائلاً " هذا ما حسبته، وطبعاً ما كنتَ لتطلبَ رأيي لو لمْ تشعر بطبيعةِ هذه التصاريح المحيِّرة. وأودُّ أن أطرح عليك سؤالاً آخر، إذا لم يكن لديكَ مانع. هل تدرك الفرق بين النبي، والمتصوِّف، وصاحب الرؤى، والعرّاف؟ "

ترددَّتُ برهة ن ثم قلتُ: " ليس بوضوح تام، لكني أُدرِكُ ما ترمي إليه. ولكن أعتقد أنه إذا ما توفَّرَ لديَّ الوقتُ اللازمُ للتفكير يمكنني أن أجيب عن سؤالك "

قال كارين " حسنُ، دعنا من هذا الآن؛ أردتُ فقط أن أختبِرَ خلفيتك الثقافية "

قلتُ، وقد أزعجتني هذه الامتحانات التمهيدية، " خذ في اعتبارك أنها صفر "

قال كارين " اعذرني لأني بدأتُ معك بهذه الطريقة. ليست لطيفة جداً، أليس كذلك؟ إنها من مخلَّفات أيام المدرسة حسب ما أعتقد. اسمع يا هنري ... إنَّ الذكاءَ شيء - أقصد الذكاء الفطري، والمعرفة شيء آخر. بل يجب أن أقول، المعرفة والممارسة، لأنهما متلازمان. فما تعرفه حصلتَ عليه عن طريق المصادفة. وأنا تحمَّلتُ نظاماً صارماً. أقول هذا لكي تفهم لماذا أتلعثم بَدَلَ أن أُعطي جواباً مباشراً. إننا، أنت وأنا، في مثل هذه المسائل نتكلَّم لغتين متباينتين. إنك بصورةٍ ما - وسامحني على تصوُّري هذا! - أشبه بهمجي متفوِّق. وحاصلُ ذكائك ربما لا يقلُّ ارتفاعاً عن حاصل ذكائي، ولعله أعلى منه. لكن مدخلينا إلى عالم المعرفة يقعان على طَرَفَيّ نقيض. ونظراً لخبرتي وتاريخي حريٌّ بي تماماً أن أستخفَّ بمقدرتك على فهم ما أنقله إليك من معرفة. وأنت، من ناحيتك، حريٌّ بك أن تعتقد أني أبدِّدُ الكلام، والجهد، وأتباهى بمعرفتي الواسعة "

قاطعته، وقلتُ " إن هذا كله وليدُ خيالك أنت؛ إنني لا أحملُ أي أفكار مسبقة. ولا يهمّني السبيل الذي تسلكه، ما دُمتَ ستعطيني جواباً محدَّداً "

" هذا بالضبط ما توقّعتُ أن أسمعَهُ منك، أيها العجوز. إنَّ كلَ شيء بالنسبة إليك شديد البساطة والوضوح. لكنه ليس كذلك بالنسبة إليّ! لقد تعلّمتُ أن أُرجئَ مثل هذه الاستفسارات إلى أن أقتنع بأني لن أعثر على الجواب في أي مكان ... ولكن هذا كله لا يشكّل جواباً، أليس كذلك؟ والآن دعنا نرى ... ماذا كنتَ تريدُ أن تعرف؟ من المهم توضيحُ هذا، وإلا انتهى بنا الأمر في مستنقعات بونتاين[١٠١] "

أعدتُ قراءة العبارة الثانية مرة أخرى، مُشدِّداً على الكلمات " أقلُّ تأثُّراً بالمخيِّلة ".

كم كانت دهشتي حين وجدتُني أقول لنفسي " لا عليك، إنني أفهمها الآن فهماً تاماً "

هتفَ كارين " أحقاً؟ هَهْ! هلاّ شرحتها لي، إذن؟ "

قلتُ " سأحاولُ، ولكن يجب أن تعرف أنَّ فهمَ شيء ما بنفسك أمرٌ وشرحُهُ لشخصٍ آخر أمرٌ آخر " (قلت في نفسي هذه واحدة مقابل واحدة). ثم باشرتُ القول، بصدقٍ وجدّية: " لو كنتَ نبيّاً بدل أن تكون إحصائياً أو رياضياً، لقلتُ إنه يوجد وجهُ شبهٍ بينك وبين نوسترادراموس. أقصد، من حيث أسلوب تناولك للأمور. إنَّ فن التنبُّؤ موهبة. وكذا الحاسّة الرياضيّة المميّزة، إذا صحّ تعبيري. ويبدو أن نوسترادراموس رفضَ أن يستغلَّ موهبته الفطرية بالطريقة الاعتيادية. وكما تعلم، لقد نَظَمَ شِعراً ليس فقط في مجال علم التنجيم ولكن أيضاً في فنون السحر. كان على معرفةٍ بأمورٍ خفيّةٍ - أو مُحرَّمَة - عليَّ كمثقف. ولم يكن فقط عالماً في الفيزياء وإنما أيضاً عالماً نفسياً. كان أشياء كثيرة، كثيرة،

---

١٠١ - مستنقعات بونتاين : تقع في إيطاليا ، بالقرب من مدينة روما . جُفِّفَت . - المترجم

مُـركَّـزة في شـخصٍ واحـد. باخـتـصــار، كـان يتـحكَّم في العـديد من الإحداثيات التي تُعيق جناحيه عن الطيران. وقد حصَرَ لنفسه - أقول هذا بتروٍّ - ضمنَ ما هو مُتاحٌ، على طريقة العالِمْ. وفي تحليقاته الفرديّة كـان ينتـقل من مـسـتوى إلى آخـر بدقـةٍ باردة، ودائمـاً مُـجهَّـز بمعـدَّات، وجداولٍ، ولوائح مفاتيح خاصّة. ومهما تبدو تنبُّؤاته خيالية، أشكُّ في أن منشأها كان الحلم أو التأمُّل العميق، بل كان موحَى بها، دون أدنى شك. ولكن لا يسعُ المرءُ إلا أن يُصدِّق أنَّ نوستراداموس قد رفضَ عن عمدٍ أن يرخي العِنان لمخيّلته. كان يقوم بعمله بموضوعيّة، إن صحَّ التعبير، حتى وهو (وإن بدا هذا القول متناقضاً) تحت تأثير النشوة. إنَّ الجانب الذاتي الصِرْف لهذا العمل ... إنني أتردَّدُ في تسميته بالخلق... يتمركز حول الإلقـاء المبطَّن للأجوبة الموحَى بهـا، وقـد شـرحَ سبب ذلك في المقـدمـة الموجَّهة إلى سيزار، ابنه. وثمة نبرةٌ هادئة تتَّسِمُ بها طبيعة هذه التجلّيات التي يشعرُ بها المرء لا يمكن عَزْوها بالكامل إلى تواضع نوستراداموس. إنه يُشدِّد على أنَّ الفضلَ في ذلك للّه وحده، وليس له. والرائي الحقيقي للرؤى يتحمَّسُ بقوةٍ للتجليات التي تتكشَّفُ له؛ فيسرعُ، إما إلى إعادة خلق العالم، وِفقاً للحكمة العُلويّة التي تذوَّقها، أو إلى الاتحاد بخالقه. والنبي، وهو أَشدّ تبجُّحاً، يستغلُّ إشراقه للانتقام من أقرانه الرجال ... إنني أجازفُ بقول هذا كله عشوائياً كما تعلم ". رميته بنظرة حادّة خاطفة لأتأكّد من أني شددتُ اهتمامه، ومن ثم استأنفتُ حديثي. " والآن، فجأة، أظنني بدأتُ أدركُ المعنى الحقيقي للاستشهاد الأول. أقصد الجزء الذي يدور حول الهدف الأكبر لنوستراداموس، الذي، كما تذكُر، أرادَ منا المعلّق الفرنسي أن نعتقد أنَّه ليس أقلّ من الرغبة في

إضفاء أهميّة شاملة على الثورة الفرنسية. من ناحيتي، أعتقد أنه إذا كان نوستراداموس ينطوي على أي دافع خفيّ ليركِّز بشدّة على هذا الحدث، فذلك لكي يكشف لنا الأسلوب الذي سيُميِّع به التاريخ. وماذا تعني عبارة " la fin de temps "؟ أحقاً هناك نهاية للزمن؟ وإذا كان الأمرُ كذلك، فهل هذا يعني أن نهاية الزمن تمثِّل حقاً بدايتنا " نحن "؟ إن نوستراداموس يتنبأ حتى ما بعد ألف عام - في زمنٍ ليس بعيداً كثيراً عنا. إنني الآن لم أعد متيقِّناً إن كان ذلك يتبعُ يوم القيامة أم يسبقه. ولستُ متأكداً مما إذا كانت رؤياه تشملُ العالمَ كُلَّه أم لا. (إنه يتكلَّم عن عام ٣٧٩٧، إن كانت ذاكرتي تسعفني، وكأنه آخر ما استطاعَ أن يتخيَّله) ولا أظن أنَّ الاثنين - يوم القيامة ونهاية العالم - مقدَّر لهما أن يكونا متزامنين. الإنسان لا ينتهي، هذا هو اقتناعي. أما العالم فقد ينتهي، ولكن إن صح ذلك، فسوف يكون العالمُ الذي تصوَّره العلماء، وليس العالم الذي خلقه الله. وعندما تحلُّ النهاية فسوف نأخذُ العالمَ معنا. لا تطلب مني أن أشرحَ لك هذا - إنني فقط أعرفه كحقيقةٍ واقعةٍ ... ولكن دعنا ننظر إلى مسألة النهاية هذه من زاوية أخرى. إنَّ كل ما يمكن أن تعنيه، كما أراها الآن - وهو كافٍ تماماً، أؤكِّدُ لك! هو ظهورُ عماءٍ جديدٍ وخصب. ولو كنا نعيش في عصرٍ يسوده الإبهام لقُلنا إنه مجيء نسقٍ جديدٍ من الآلهة، أو أنه يعني، إذا شئت، نشوءَ وعيٍ جديد وأعظم، يفوقُ حتى الوعي الكوني. إنني أنظرُ إلى أجوبة نوستراداموس الموحَى إليه بها على أنها إنجازُ روحٍ أرستقراطيّةٍ، لا يعرف معناها الحقيقي إلا الأخيَار ... فلنعد إلى مجيء الرعاع، واعذر لي إسهابي! إنَّ العبارة الواسعة الانتشار في هذه الأيام - رجلُ الشارع

- تذهلني بأنها خالية من أي معنى. إذ لا وجودَ لمثلِ هذا الحيوان. وإذا كان للعبارة أي معنى، وأعتقد أنَّ نوسترادامُوس قد ألمحَ إلى ذلك عندما تكلَّمَ عن مجيء الرعاع، فإنها تعني أنَّ كلَّ ما هو مجرَّد وسلبي، أو متردٍّ، قد ساد الآن واستشرى. وكائناً ما كان رجل الشارع أو لم يكن، فثمة أمرٌ واحدٌ مؤكَّدٌ - إنَّه النقيضُ المباشرُ للمسيح أو للشيطان. ويبدو أنَّ العبارةَ بحدّ ذاتها تدلُّ ضمناً إلى غياب الولاء، والإيمان، والقدوة الحسنة - أو حتى الغريزة. والديموقراطية، كلمةٌ فارغة، مبهمةٌ، ترمز ببساطة إلى الفوضى التي أدخلها رجل الشارع وترعرعَ فيها كترعرع الأعشاب الضارة. ويمكن أيضاً أن نذكُر - السراب، والوهم، والخداع. هل خطرَ في بالك مرة أنه ربما على أساسِ هذه السِمَة - على أساسِ نشوءِ وسيطرةِ جسدٍ رأسيّ - سينتهي التاريخ؟ ربما سيكون علينا أن نبدأ من جديد من حيثُ انتهى الإنسان الكرومانيوني. وثمة شيء واحدٌ يبدو لي شديد الجلاء، وهو أنَّ سِمة الموت والدمار، التي تبرز بقوة في النبوءات كلها، تقفز من المعرفة المؤكَّدة بأنَّ العنصر العالمي أو التاريخي في حياة الإنسان شيء عابر. إن العرَّاف يعرفُ كيف، ولماذا، وأينَ نحيدُ عن الطريق. ويعرفُ أيضاً أنَّه لا حيلةَ لأحدٍ في ذلك، طالما أنَّ للأمرِ علاقةً بالإنسانية جمعاء. ونقول إنَّ على التاريخ أن يتَّخذ مجراه. هذا صحيح، ولكن في أي حالة؟ لأنَّ التاريخَ هو الأسطورة، الأسطورة الحقيقية، لسقوطِ الإنسانِ مُتمثِّلاً في الزمن. إنَّ هبوطَ الإنسان إلى عالم المادة الوهمي يجب أن يستمر حتى لا يبقى أمامه إلا أن يسبحَ عائماً إلى سطحِ الواقع - وأن يعيشَ في نورِ الحقيقةِ السرمدية. إنَّ الروحانيين من البشر دائماً يَحُضّوننا على التعجيل بالنهاية والبدء من جديد. وربما

لهذا يُطلَقُ عليهم البارقليطيون، أو المناصرون المقدَّسون. أو المُعزُّون، إذا شئت. إنهم أبداً لا يتهلّلون لحلول الكارثة، كما يفعل أحياناً الأنبياء العاديون. إنهم يدلّوننا، وعادة يمثِّلون بحياتهم، إلى السبيل إلى تحويل ما يبدو أنه كارثةٌ إلى غاياتٍ قدسيّة. بمعنى، يبيّنون لنا، للمستعدين منا والواعين، كيف نتكيّف ونتواءم مع واقعٍ دائمٍ وعصيّ على الدمار. إنهم يناشدون ... "

هنا أشارَ إليّ كارين كي أتوقّفَ. وهتفَ " يا إلهي، يا رجل، خسارةً أنك لم تعش في القرون الوسطى! كنتَ أصبحتَ أحد أعظم المدرسيِّين. إنك لميتافيزيقيّ، وحقُّ الله. إنك تطرحُ السؤال وتجيب عنه كأي أستاذ في المنطق الجدليّ ". سكت برهة، وأخذ نَفَساً عميقاً، ثم قال، وهو يحطُّ يده على كتفي، " قُلْ لي، كيف أُلمتَ بهذا كله؟ هيا، لا تتظاهرُ بالتواضع معي. أنت تعرفُ ما أرمي إليه "

تنتحنحتُ وراوغتُ.

قال " هيا! هيا! "

كانت جدِّيته صبيانيّة بشكل يثير الشفقة. وكان جوابي الوحيد إليه هو تضرُّجي بحُمرة خجلٍ قانية.

" هل يفهمُكَ أصدقاؤكَ حين تتحدَّثُ إليهم هكذا؟ أم أنك تتكلّم هكذا فقط مع نفسك؟ "

ضحكتُ. كيف يمكن الردُّ على مثل تلك الأسئلة بجدِّية؟ وناشدته أن يغيِّر الموضوع.

وافقَ بإيماءة صامتة. ثم قال " ولكن ألا تفكِّر أبداً في الاستفادة من مواهبك؟ فحسب ما أرى إنَّ كل ما تفعله هو أن تبدِّد وقتك. إنك تبدِّده على حمقى من أمثال ماكغريغور وماكسي شناديغ "

قلت وقد غضبت قليلاً " لعلَّ هذا ما تراه أنت، أما أنا فأرى شيئاً آخر. اعلمْ أنه لا نيَّةَ لدي في أن أغدو مفكِّراً. أنا أريد أن أصبحَ كاتباً. أريدُ أن أكتبَ عن الحياة، كما هي. إنَّ الكائنات البشريّة، أي نوعٍ منها، هي طعامي وشرابي. لا شك في أني أستمتعُ في الكلام عن أمورٍ أخرى. والحديثُ الذي تبادلناه للتو، هو مَنٌّ وسلوى. أنا لا أقولُ إنه لا يفيد أحداً بشيء، لا، أبداً. ولكن - أفضِّلُ أن أحتفظ بهذا المنّ لمتعتي الخاصة. في الواقع، إنني في أعماقي مجرَّدُ أحد أناس الشارع الذين كنا نتحدَّثُ عنهم. لكني أحياناً أفوزُ بومضات وضَّاءة. أحياناً أعتقدُ أني فنان. بل إني في حالات نادرة أعتقدُ أني قد أكونُ صاحب رؤى، لكني لستُ أبداً نبيّاً، أو عرّافاً. وعلى إسهامي أن يتمَّ مداورةً. إنني حين أقرأ لنوسترادادموس أو باراسيلسوس، مثلاً، أشعر بألفةٍ. لكني خُلقتُ في منحى آخر. وسوف أكون سعيداً إذا ما تعلمتُ كيف أحكي حكاية جيدة. إنني أحبُّ فكرة عدم الوصول إلى هدف محدَّد. أحبُّ فكرة اللعب للذَّة اللعب ذاتها. وفوق ذلك كله، أنا أحبّ عالم البشر هذا، على الرغم من أنه يبدو يائساً، أخرقَ، ورهيباً. لا أريدُ أن أنعزلَ وأهيمَ على غير هُدى. إن ما يفتّنني ربما في مهنة الكتابة أنها تُحتِّمُ الصلِةَ الحميمة مع الناس كافة. على أي حال، إنَّ هذا كلَّه مجردُ حدسٍ بالنسبة إليّ "

قال كارين " هنري، إنني بالكاد بدأتُ أعرفك. لقد كنتُ أفهمُكَ فهماً خطأً. يجب أن نستزيدَ من الحديث - في وقتٍ لاحقٍ "

بهذا استأذنَ ولجأ إلى غرفة مكتبه. وبقيتُ أنا جالساً فترةً أخرى، وأنا في شبه نشوة، أتأمَّلُ عميقاً في شراذم حديثنا. وبعد بعض الوقت مددتُ يدي بشرودٍ نحو الكتاب الذي كان قد حطَّه. وبشرودٍ التقطتُهُ

وقرأتُ: " فيما يخص الكُتُب المقدسة، والتي هي عالميّة بالمعنى المُطلَق، إن اللّهَ سوف يُكْمِلُها؛ وتلك العارِضَة، أو العاديّة، يتولّى أمرها الملائكة الطيّبون؛ والنوع الثالث يقعُ تحت سيطرة الملائكة الأشرار ". (منْ مقدِّمةٍ من أجل سيزار نوستراداموس، ابنه) هذه الأسطُر القليلة ظلَّ صداها يتردَّدُ في رأسي أياماً عديدة. وتمنَّيتُ بشكلٍ واهٍ أن يعودَ لنعقدَ جلسةً أخرى، يمكنُ أن نناقشَ فيها المهمَّة المُحتَمَلةَ للملائكة الطيبين. ولكن بعد ذلك وفي اليوم الثالث وَصَلَتْ أمَّه مع أحد أصدقائها القدامى. واتّخذتْ أحاديثُنا منحى مختلفاً بشكلٍ كامل.

والدة كارين! مخلوقة مهيبة تمتزج في شخصيتها الخصائص المتباينة للأم الرئيسة، والمحظيّة والإلاهة. كانت تجمع كل ما لا يتَّصف به كارين. وكانت مهما فعلت تشعُّ بالدفء؛ وضحكتها المدوّية كانت تُذيبُ المشاكل كلها، وتؤكِّد على ثقتها في نفسها، وثقة الآخرين فيها , ونزوعها إلى الخبر. كانت إيجابيّة قلباً وقالباً، وتخلو تماماً من أية عِدائيّة أو عدوانيّة. وتحزر على الفور ماذا تحاول أن تقول، وتعطي موافقتها قبل أن تخرج الكلمات من فمك. كانت روحاً نقيّة، مُشعَّة بأشدّ الأشكال الجسديّة فتنةً.

الرجل الذي جَلَبَتْه معها كان من النوع الرقيق الحاشية، وذا مزاجٍ مثالي، ويخوضُ معركةَ انتخابِ الحاكم بين حين وآخر وكانت الهزيمة دائماً من نصيبه. يتحدَّث في الشؤون الدوليّة بمعرفةٍ ونفاذِ بصيرة، ودائماً بحصافةٍ وفكاهة خبيثة. كان أحد أفراد حاشية ويلسن في فرساي. وكان يعرف سمتس[١٠٢] رجل جنوب أفريقيا، وصديقاً حميماً

١٠٢ – يان كريستيان سمتس (١٨٧٠ – ١٩٥٠) : أحد رؤساء وزراء جنوب أفريقيا . – المترجم

ليوجين. ف دَبْس[١٠٣]، وترجمَ أعمالاً مغمورةً لمؤلِّفين يونانيين قبل عصر سقراط، وكان خبيراً في لعبة الشطرنج، وألَّفَ كتاباً حول أصول منشأ اللعبة وتطوُّرها. وكلما تكلَّم ازددتُ دهشةً لتعدُّد جوانب شخصيته. ويا للأماكن التي زارها! - التبت، الجزيرة العربية، جزيرة إيستر، تييرا ديل فيوغو، بحيرة تيتيكاكا، غرينلند، مونغوليا. ويا للأصدقاء الذين كوَّنهم - مجموعة شديدة التنوُّع - خلال أسفاره! أذكرُ منهم هؤلاء: كيبلنغ، مارسيل بروست، ميترلنغ، راباندرانات طاغور، ألكسندر بركمَن، وأسقف كانتربري، وكونت كيزلنغ، وهنري روسّو، وماكس ياكوب، وأريستيد برياند، وتوماس أديسون، وأيزادورا دنكن، وتشارلي تشابلن، والينورا ديوز ...

كان الجلوس معه على طاولة المائدة أشبه بالاشتراك في مأدبةٍ أقامها سقراط. وكان من بين ما يتميَّز به خبرتُهُ في أصناف النبيذ. كان يحرص على أن نأكلَ ونشربَ كفايتنا، وهو يزخرفُ حديثَ المائدةِ بمشهياتٍ لذيذةٍ مثل الأوبئة الكبرى، والمعاني الخفيَّة لأبجدية الأزتك، والاستراتيجية العسكرية لأتيلا، وعجائب أبولونيوس تايانا، وسيرة حياة ساداكيتشي هارتمن، والمعرفة السحرية لكهنة الدرويد[١٠٤]، والأعمال الباطنية لزمرة أصحاب الأموال التي تحكم العالم، ورؤى وليم بليك، وما إلى ذلك. وكان يتحدَّث عن الموتى بالرقة الحميمة نفسها التي يتحدث بها عن الأحياء. كان يشعر بألفةٍ في كل الأجواء، وفي جميع الحُقب التي مرَّت على البشرية. كان يعرف عادات الطيور والأفاعي،

---

١٠٣ - يوجين فيكتور دَبْس (١٨٥٥ - ١٩٢٥) : زعيم عمالي أميركي . - المترجم

١٠٤ - كهنة الدرويد : فئة من الكهان ظهرت قبل المسيح في إنكلترا وأيرلندا وبلاد الغال . - المترجم

وكان خبيراً في القانون الدستوري، وابتكرَ مسائل في الشطرنج، وكتب أبحاثاً عن انحراف القارات، والقانون الدولي، وعِلمْ المقذافيّة[١٠٥]، وفن الشفاء.

كانت والدة كارين تزوِّدنا بالبهارات، بضحكتها الرنَّانة المُعدية. ومهما كان موضوع النقاش، كانت تجعله لذيذاً بتعليقاتها. وكانت ثقافتها لا تقلُّ إعجازاً عن ثقافة رفيقها، لكنها كانت تتعاملُ معها بخفّةٍ. وفجأة بدا كارين مثل مراهقٍ لم يباشر بعد عيشَ حياته الخاصة. كانت أمه تعامله كطفلٍ مفرط النمو. وكانت بين حين وآخر تقول له ببساطة إنه أحمق. تقول " أنت بحاجة إلى إجازة. كان يجب أن تكون قد أنجبت خمسة أطفال وأنت في هذه السن ". أو تقول - " لمَ لا تذهب إلى المكسيك وتمضي فيها بضعة أشهر، لقد أصبحْتَ موهَناً "

أما هي فكانت مستعدةً للقيام برحلةٍ إلى الهند. وكانت في العام الذي انصرمَ قد ذهبت إلى أفريقيا، ولم تسافر من أجل الاستمتاع بالصيد، وإنما بوصفها عالمة أنثولوجيا. وقد اخترقت مناطق لم تكن أي امرأة بيضاء قد وطأت أرضها مطلقاً. كانت مقدامةً ولكن بلا تهوُّر، ومؤهَّلة للتكيُّف مع أي نوعٍ من الظروف، ولتَحمُّلْ الصعوبات التي تجعل حتى الجنس الأقوى يجفل. كانت تنطوي على إيمانٍ وثقةٍ لا يُقهران؛ ولا يمكن لأيٍ كان أن يحضر مجلسها دون أن يخرجَ منه وهو أكثر غنى. أحياناً كانت تذكِّرني بتلك النسوة البولينيزيات ذوات الأصل الملكي اللواتي يحافظن، في منطقة الباسيفيك النائية، على آخر آثار الجنة الأرضية. هاهنا كانت الأم التي ودَدتُ لو أني أختارُها قبل أن ألجَ

١٠٥ - علم المقذافيّة : عِلمٌ يدرسُ قوانين حركة القذائف . - المترجم

الرحم. هاهنا كانت الأمُ التي جَسَّدت العناصر الأولى لوجودنا، تتناغم فيها الأرض، والبحر، والسماء. لقد كانت سليلة طبيعيّة للعرّافات السيبيليات[١٠٦] العظيمات، تجسِّدُ نسيجاً من الأسطورة، والخرافة، والمعجزة؛ أرضيّة حتى اللب، إلا أنها تعيشُ في عالمٍ خارقِ الأبعاد. كان وعيها يبدو وكأنه يتمدَّدُ ويتقلَّصُ على هواه. والجهدُ الذي تبذُلُه في المهامّ العظيمة لم يكن يقلُّ غالباً عن ذاكَ الذي تبذله في أشدّها تواضعاً. وكانت مُجهَّزةً بجناحين، وزعانف، وذيل، وقدمين، ومخالب، وخياشيم. كانت طيرانيَّة وبرمائيّة. تفهم اللغات كلها غير أنها كانت تتكلَّم كطفلة. لا شيء كان قادراً على أن يُوهِنَ حماسها الملتهب أو أن يُفسِدَ عليها استمتاعها المنطلق. كان مجرد النظر إليها يمدُّ بالشجاعة. وتتلاشى المشاكل كلها. كانت راسخةً في الواقع، غير أنه واقعٌ عُلويّ.

لأول مرة في حياتي أُتيحَ لي شَرَفُ التحديقِ إلى أمٍ عظيمة. إن صِوَراً لمادونا لم تَعْنِ لي مرةً أي شيء: كانت مفرطة الإشراق، والشفافية، والنأي، والأثيرية. وكنت قد رَسَمْتُ صورةً خاصةً بي لها - بقسمات أشدّ اكفهراراً، وإيحاءً بالقوة، وغموضاً، وإفحاماً. ولم أتوقَّع أن أراها بشحمها ولحمها. كنت أتخيَّلُ أنَّ لمثلِ تلك النماذج وجوداً. ولكن فقط في الأماكن النائية من هذا العالم. كنت أشعرُ بوجودها في أزمانٍ سابقة؛ في إترووريا[١٠٧]، في بلاد فارس القديمة، في عصورِ الصين الذهبية، في أرخبيل مالايو، في أيرلندا الأسطورية، في شبه الجزيرة الأوبيرية، في أقاصي بولينيزيا. أما مقابلة أحدها بلحمها، على أرض

١٠٦ - السيبيليات: في اليونان وروما القديمة، هنَّ مجموعةٌ من العرَّافات أو الكاهنات المُبجَّلات. - المترجم

١٠٧ - إترووريا: بلد قديم كان يقع في وسط إيطاليا بين نهريّ آرنو والتيبر. - المترجم

الواقع، تأكل، وتتكلَّم وتضحك معها - كلا، هذا ما لم أؤمن قط بتحقُّقه. كنت في كل يوم أتفحَّصها من جديد. كل يوم كنت أتوقَّعُ أن يسقطَ الحجابُ. ولكن لا، لقد كانت في كل يوم تتعَمْلَقُ في قامتها، وتزداد روعتُها، وتترسَّخ واقعيتها، كما يحدث في الأحلام عندما نغوصُ أعمق فأعمق في شبكةٍ من الخيوط. وما كنتُ أعتقدُ حتى ذلك الحين أنه إنساني، مفرط الإنسانية، أضحى متعملقاً إلى درجة هائلة. ولم يعد من الضروري أن أنتظر مجيء الإنسان المتفوِّق، أو السوبرمان. أصبحتْ تخومُ العالم الإنساني فجأة لا يَحُدُّها حدٌّ، بعد أن قيل لنا مراراً وتكراراً أنه لم يكن في الإمكان اكتشافُ المزيد. وأصبحَ جليّاً لي أنَّ كل ما هو مطلوبٌ منا هو أن ندرِكَ كامل طبيعتنا. إننا نتحدَّثُ عن طبيعةِ الإنسانِ الكامنةِ وكأنَّها تناقِضُ تلك التي يُظهرها. وفي والدة كارين رأيتُ طبيعتها الكامنة تزدهرُ، شاهدتُها تطرحُ عنها صَدَفَتَها الخارجية، الخشنة، التي تتغلَّف بها. فهمتُ أنَّ عملية الانسلاخ حاضرة وواقعة، وهي الدلالة الحقيقية على الحيوية. رأيتُ العنصُرَ الإنساني يغتصبُ العنصر الأنثوي. فهمتُ أنَّ منحةً عظيمةً من العنصر الإنساني أيقظت إحساساً أعظم بالواقع. فهمتُ أنه، مع ازديادِ طاقةِ الحياة، يقتربُ الكيانُ الذي يتجسَّدها أكثر منا، ويغدو أرقّ، ولا غِنى عنه أكثر فأكثر. إنَّ ذا الكيانِ المتفوِّق ليس كما كنتُ أعتقد ذات يوم أنأى، وأكثر انفصالاً، وتجرُّداً. بل على العكس تماماً. غير أنَّ ذا الكيان المتفوِّق يستطيعُ أن يوقظَ فينا الجوعَ المبرَّر، الجوعَ إلى التفوُّقِ على أنفسنا بأنْ نكون كما نحن حقاً. وفي حضور ذي الكيان المتفوِّق نتعرَّفُ إلى طاقتنا المهيبة؛ لا نتوقُ إلى أن نكون ذلك الشخص، بل فقط نشعر برغبة قوية

في أن نُظهِر لأنفسنا أننا فعلاً نتمتّع بالنسيج والجوهر نَفْسَيْهما. ونندفع مرحِّبين بأخوتنا وأخواتنا، مدركين دون أدنى قدرٍ من الشك أننا جميعاً من طبيعة واحدة ...

لم تستمرّ زيارة هذه الأم ورفيقها إلا أياماً قلائل، ويا للأسف. وما أنْ رَحَلا حتى قرَّر كارين أنَّ علينا جميعاً أن نعود إلى البلدة، حيث كان سيقضي بعض المسائل. ورأى أنه سيفيدنا أن نرتادَ المسرحَ، وأن نستمعَ إلى حفلٍ موسيقي أو اثنين، ومن ثم نعودُ إلى الشاطئ لنعمل بجدّية. وأدركتُ أنَّ زيارةَ أمه قد أبعَدَتْهُ كثيراً عن خطه.

كانت شقة البلدة، كما كان يسميها، في حالة فوضى عارمة. ويعلم الله متى لمست مكنسةٌ أرضها. كانت أرض المطبخ مغطاة بالقمامة التي مضى عليها هناك أسابيع طويلة؛ والفئران، والنمل، والصراصير، والبق، وكافة أنواع الهوام قد غزت المكان. وكانت الطاولات، والأسرَّة، والكراسي، والدواوين، والخزانات تغطيها الأوراق، وصناديق الملفَّات المفتوحة، والبطاقات، والرسوم البيانية، وجداول إحصائية، وأدواتٌ من كل صنفٍ ولون. وكان هناك ما لا يقلّ عن خمس زجاجات حبر غير مغلقة، وشطائرُ مأكولٌ أجزاءٌ منها مرميّة بين أكوام الرسائل، ومئات أعقاب السجائر.

كان المكانُ بحقّ شديدَ القذارة، حتى أنَّ كارين وزوجته قررا أن يتوجَّها إلى فندقٍ لقضاءِ ليلتهما، بحيث يعودان في مساء اليوم التالي بعد أن نُرتِّب المكان قَدْرَ إمكاننا. وترك لي أن أفعل بملفاته ما أشاء.

سَعِدْنا كثيراً ببقائنا وحدنا من باب التغيير حتى أننا لم نمانع بحمل العبء الثقيل. وكنت قد اقترضت عشرة دولارات من كارين لكي

نشتري بها بعض الطعام. حالما تَركانا وحدنا خرجنا لنأكل، وأكلنا حتى شبعنا. كانت وجبةَ عشاءٍ إيطالية مع نبيذٍ أحمر.

لدى عودتنا إلى الشقة شممنا الرائحة ونحن نرتقي الدَرَج. قلت لمونا " لن نلمس أي شيء. هيا نأوي إلى النوم ولنرحل في الصباح. لقد مَلَلْت"

" ألا تظن أنَّ علينا أن نراهما ونُخبرهما بأننا سنترك العمل؟ "

قلت " سأتركُ لهما رسالة. إنني شديد الامتعاض ولا أرغب في إطالة أمَدِ مكوثي. لا أرى أننا ندين لهما بأي شيء "

استغرقَ منا تنظيفُ غرفة النوم بشكل كافٍ ساعةً من الزمن لتكونَ مريحةً وصالحةً لقضاءِ ليلةٍ فيها. واضطُررنا إلى أن ننام متدثِّرين بأغطية وسخة. وكان كل ما نلمسه يقعُ في غيرِ مكانه. وكان إسدال ظلَّة النافذة أشبه بعملية حل مسألةٍ رياضيّة. وخَلصْتُ إلى أننا نحن الاثنان نعاني من حالةٍ معتدلةٍ من الخَبَل. وحين هَمَمْتُ باللجوءِ إلى السرير لاحظتُ على الرف الذي يعلو السرير وجود صفٍّ من صناديق القبعات وصناديق الأحذية. وقد كُتِبَ على كلّ واحدٍ رقمَ فهرس، يشيرُ إلى مقاس القبعة أو الحذاء، ولونه وحالته. ففتحتها لأرى إن كانت فعلاً تحتوي قبعات وأحذية. وقد كانت كذلك. ولم يكن أيٌ منها يصلحُ أن يرتديه غير شحّاذ. وكانت تلك بالنسبة إليّ هي القشَّة التي قصَمَتْ ظهر البعير.

تأوَّهتُ وأنا أقول " أنا متأكِّد من أنَّ الرجلَ معتوه. إنَّه مجنون ووغد "

استيقظنا مبكّرين، لأننا عَجِزْنا عن النوم بسبب بقّ الفراش. أخذنا

دشّاً سريعاً، وتفحّصنا ملابسنا بدقّةٍ لنتأكّد من أنها خالية من الهوام، واستعدّينا للرحيل. كنتُ في مزاجٍ يسمحُ لي أن أتركَ ملاحظةً مكتوبة. وحَرِصْتُ على أن تكونَ جيدةَ التأليفِ، لأني كنتُ أنوي ألاّ أعودَ إلى رؤيتها أبداً. فبحثتُ في المكان عن قطعةٍ مناسبةٍ من الورق. فوقع نظري على خريطةٍ معلّقةٍ على الجدار، فانتزعتُها واستعنتُ بيد مكنسة غمستها في قدرٍ من الدهان، وخربشتُ عبارةً وداعية بلغةٍ هيروغليفية بأحرفٍ كبيرةٍ بحيثُ يمكن قراءتها عن بُعدِ ثلاثين ياردة. وبظاهرِ يدي كنستُ الأغراض التي كانت موجودة على طاولة العمل الكبيرة إلى الأرض. ووضعتُ الخريطة على الطاولة ثم أفرغتُ في مركزها كومةً من أعتق، وأشدّ كمية من القمامة بشاعةً في رائحتها. كنتُ متأكداً من أنه لا يمكن إلاّ أن يراها. وألقيتُ نظرةً أخيرة على المكان، وذلك لكي أحتفظ بانطباعٍ ثابت عن المشهد. سِرْتُ متّجهاً نحو الباب، ثم فجأة استدرتُ. كان ما يزال هناك أمرٌ أخير أقوم به - حاشية للرسالة. فانتقيتُ قلمَ رصاص حادّ الرأس كتبتُ بخطٍّ دقيق جداً: " المطلوب تضبيرها تحت حرف[١٠٨] (C) على غرار نزلة القناة التنفُّسيّة، نظافة، الذُّراح الأخيضر، أجراس الأبقار، كلب الشيهواهوا، الدجاج الصيني، الإمساك، التزيين الملتفّ crinology، القهقهة بصوتٍ عالٍ، ذو الحدود المشتركة، جنون البقر، الدليل السياحي، صراصير، بقّة ليكتولاريوس، مقابر، كعكة كريب سوزيت، خنازير تُطعَمُ ذرة، سترات المغنيزيوم، أصداف تُتَداول كعملات نقدية، قرن الوفرة، إخصاء، كلاّبات صغيرة،

---

١٠٨ - المفترض أن كل الكلمات والعبارات التي ستلي تبدأ بالحرف نفسه ، وهذا ما لا يمكن تحقيقه باللغة العربية طبعاً .- المترجم .

كـتـابة مـسـمـاريّة، صـهـريج، كنيـة الاسم الرومـانـي، أرض النعـيم، كونسـيرتينا، الفلقات، crapulated، جيب التـمـام، creasote، كَفَل الفرس، تَسَافُد، كليتمنسترا، تشو لغوز - صلصة البندورة ذات العلامة الزرقاء ".

أسفي الوحيد الذي شعرتُ به ونحن نهبط الدرج هو أنني لم أستطع أن أترك أيضاً على الطاولة بطاقة زيارتي.

تناولنا إفطاراً صغيراً لذيذاً في عربةِ طعامٍ تقعُ قِبَالةَ القبور ناقشنا خلاله مستقبلنا، الذي كان مجهولاً تماماً.

قـالت مـونا " لمَ لا تذهب بعـد ظهـر هذا اليـوم لتـشـاهد فـيلمـاً سـينمـائيـاً؟ وأنـا سأهرع إلى هوبوكن أو إلى أي مكـان آخر لأرى مـاذا أستطيع أن أنتزع. ولنجتمع في منزلِ ألريك على مـائدة العشـاء - ما رأيك؟ "

قلت " جيد، ولكن مـاذا سأفعل خلال هذا الصبـاح؟ ألا تلاحظين أن الساعة لم تتجاوز الثامنة؟ "

" لِمَ لا تذهب إلى حديقة الحيوان؟ استقل حافلة. الركوبُ سيفيدك "

كـان اقتـراحـهـا هو أفضـل ما يمكن الخروج به. وكنتُ في مـزاجٍ رائقٍ يسمحُ لي أن أتفرَّج على عالمِ المخلوقات. وكوني غير مقيَّدٍ وحراً في مثل تلك السـاعة الفظيـعة من فـترة الصـباح مـنحني إحسـاساً بالتـفوُّق. فـجلستُ على السطح العُلوي للعـربة ورحتُ أراقبُ الكـادحين الكـادِّين ينطلقـون مسرعين ليؤدوا مهامّهم المحدَّدة. وتساءلتُ برهةً مـاذا ستكونُ مـهمـتي في الحياة. وكنتُ قد نسيتُ تماماً أني نويتُ أن أصبحَ كاتباً. ولم أكن أعرف إلا شيئاً واحداً - أني لم أُخلَق كي أكونَ كنَّاساً. ولا كادحاً. ولا ناسخاً.

عند ناصية الشارع افترقتُ عن مونا. وفي الجادّة الخامسة قفزتُ إلى متن حافلة متوجِّهة شمالاً ثم ارتقيتُ إلى الطابق العُلوي منها. هاأنا حرٌ من جديد! استنشقتُ بضع نشقات من غاز الأوزون. ولدى اقترابنا من الحديقة المركزية أخذتُ أدقِّقُ النظر في القصور المبتذلة التي تكتنفُ جانبَ الجادَّة الخامسة. وكنتُ أعرفُ العديد منها من خلال ولوجي إليها من باب الخَدم أو البائعين الجوّالين. نعم، كان بينها منزلُ آل روزفلت حيث كنتُ أسلِّمُ الرجلَ العجوزَ البذلات، وملابس السهرة، وسترات الألباكا. وكنت أتساءلُ إن كان العجوز مستر روزفلت، أقصد صاحب المصرف، وأبناءه الأربعة العمالقة ما زالوا هم الخمسة يتوجَّهون معاً إلى مقرّ مكتبهم في شارع وول في صباح كل يوم - بعد أن يكونوا قد هرولوا في أرجاء الحديقة العامة، bien entendu (طبعاً). وبعد أن سرْتُ مسافةً قصيرةً رأيتُ قصرَ العجوز بنديكس. كان الأخ، المولع بأزرار البذلات الرائعة، قد توفّي منذ أمدٍ بعيد. لكن هـ. و ربما كان ما يزال حياً يُرزق ولعلَّه ما يزال يتذمَّر من أن خيَّاطه قد نسي أنه يرتدي ما يناسبه. كم كنتُ أمقتُ ذلك الرجل! وابتسمتُ حين تذكَّرتُ جام غضبي الذي صببتُهُ عليه في أيامٍ سابقة. لعلَّه الآن أضحى عجوزاً واهناً، يعاني وحدةً قُصوى يسهرُ على راحته خادمٌ مخلصٌ، وطبَّاخٌ، وساقٍ، وسائق سيارة وما إلى ذلك. كم كان دائماً يُبقي نفسه مشغولاً! الحق يُقال، إنَّ الأثرياء جديرون بالشفقة عليهم.

واستمرَّ الأمرُ هكذا ... ذكرى وراءها ذكرى. وفجأةً فكَّرتُ في روثرمل. كل ما استطعتُ أن أتذكَّره عنه هو خروجه من السرير وهو ما يزال يعاني آثار السُّكّر، يتعثَّرُ بوعاء التبوُّل، يهتاجُ، يثيرُ الجَلَبَةَ، يتقافزُ

في المكان مثل غرابٍ على ساقٍ واحدة. سوف يكون يوماً مشهوداً بالنسبة إليه يوم يرى مونا. (كنتُ متأكِّداً من أنها كانت متوجِّهة إليه).

حين تذكَّرتُ حالة روثرمل في الصباح الباكر أخذتُ أتفكَّرُ في الطريقة التي كان يستقبلُ بها أناسٌ مختلفون أعرفهم النهارَ الجديد. كان الأمرُ لهواً بهيجاً. ومن ذكرى الأصدقاء والمعارف انتقلتُ إلى عالم المشاهير - إلى الفنانين، والممثلين والممثلات، والشخصيات السياسية، والمجرمين، والقادة الدينيين، من كل الطبقات والمستويات. وأخذ الأمرُ يغدو فاتناً باطِّراد حين بدأتُ أغوصُ في عادات الشخصيات التاريخية العظيمة. تُرى كيف كان كاليغولا يستقبلُ نهاره؟ فجأة احتلَّ عقلي حشدٌ من الشخصيات البائدة: سير فرانسس بيكون، محمد العظيم، شارلمان، يوليوس قيصر، هانيبعل، كونفوشيوس، تيمورلنك، نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلينا، هربرت سبنسر، موجسكا[١٠٩]، سير والتر سكوت، غوستاف أدولفوس، فريدريك بارباروسا، ب. ت بارنم...

مع وصولي إلى حديقة برونكس كنت قد نسيتُ ما دفعني إلى المجيء إلى تلك البقعة. كنتُ أستعيد انطباعاتي الأولى عن السيرك ذي الحلقات الثلاث، تلك اللحظة المرعبة في حياة صبي حين يشاهد معبوده بشحمه ولحمه. وبالنسبة إليّ كان معبودي هو بافالو بيل[١١٠]. لقد عشقته. كانت مشاهدته وهو يتقافزُ في وسط الحلقة المنثورة بالنشارة ويرفعُ قبعته السومبريرو الضخمة للنظارة المهللين له مشهداً لا يُنسى.

---

١٠٩ - هيلينا موجسكا (١٨٤٤ - ١٩٠٩): ممثلة بولونية. - المترجم

١١٠ - بافالو بيل (١٨٤٦ - ١٩١٧): اسمه الحقيقي وليم فريدريك كودي. كان من أبطال الحدود الأميركيين، ثم تحوَّلَ إلى صاحب عروض استعراضية. - المترجم

كان يتميَّزُ بخصلات شعره الطويلة، ولحيته الصغيرة المشذّبة، والشارب المجعَّد الكبير. وكان رداؤه المثير الذي يلبسه يتَّسمُ بالأناقة. كان يمسكُ بإحدى يديه العِنان بخفّة، وبالأحرى يقبضُ على البندقية الوفيّة. وفي الحال يأخذ باستعراض مهارته في الرماية السديدة. أولاً يدورُ حول الحَلَقَة دورةً كاملةً، وجواده الفخم ينفثُ لهباً. يا له من شخصية رائعة! وأصدقاؤه هم الزعماء الهنود الأشاوس - السيو، والكومانش، والكراو، والبلاك فيت.

إنَّ ما يثيرُ إعجابَ صبيّ صغير هو القوة غير المتفاخرة - المهارة، الاتّزان، المرونة. وقد كان بوفالو بيل صورة مصغَّرة تختصر هذه الصفات جميعاً. ولم نشاهده إلا وهو في زيّه الكامل، لكننا لم نكن نراه إلا مرة واحدة في السنة - إذا حالفنا الحظ. وفي مثل تلك اللحظات القليلة المخصصة لنا لم يكن يُخطئ مرةً في إصابة الهدف، ولا قام بأي حركة خرقاء، ولا خرج أبداً بمقدار ذرة عن الصورة المثالية التي حملناها له في قلوبنا. لم يخدعنا أبداً، ولم يخذلنا أبداً. كان دائماً مثالياً.

كان بافالو بيل بالنسبة إلينا ما يمثِّله صلاح الدين لأتباعه - ولأعدائه. إن الفتى لا ينسى معبوديه. حسنٌ، أيري في هذا كله - ها نحنُ قد وصلنا إلى حديقة الحيوان وأوَّل ما أرى الزرافة. ثم نمر البنغال، ثم وحيد القرن، ثم حيوان التابير[111]. أه، هاهي القرود! عدنا إلى الوطن الأصلي. لا شيء ينظِّف الجهاز النفسي مثل تأمُّل الحيوانات الضارية ويصبح العقل tabula rasa (لوحاً أملسَ). وأسماء أوطانها ذاتها موحية. وينجرفُ المرءُ عائداً إلى عمق عالم آدم حين كانت الأفعى هي

---

١١١ - حيوان التابير : حيوان أميركي استواني ، يشبه الخنزير .

الحاكِمَةُ المُطلقة. إنَّ الارتقاء لا يفسِّر أي شيء. لقد كنا جميعاً معاً، منذ الأزل، وسوف نبقى معاً إلى الأبد. إنَّ النجومَ والمجرَّات تنجرفُ، والقارّات تنجرف، والإنسانُ ينجرفُ مع رفاقهِ من أيام ما قبل الطوفان - الحيوان المدرَّع، وطائر الدودو، والديناصور، والنمر ذو الأسنان الحادّة، والحصان الصغير الحجم من أعالي منغوليا. كل شيء في الكون ينجرف نحو نقطةٍ ما في الفضاء. ولعلَّ رب العالمين أيضاً ينجرف أُسوةً بمخلوقاته.

بينما كنتُ أنجرفُ، مع حديقة الحيوان بكل شاغليها، تراءت لي فجأة بوضوح رينيه تييتجن. رينيه كانت أخت ريتشي تييتجن الذي كنت ألعبُ معه، وأنا صبي في العاشرة. كان هذا الريتشي أشبه بزوافٍ[112] سفّاح. إذا أثرتَ غضبه يعضّك حتى ينتزع قطعةً من لحمك. وكان من المهم، عند اختيار الجانب الذي تقف في صفّه في لعبة قاعدة السجين[113]، أن يكون ريتشي في صفّك. وكانت رينيه، أخته، تقف، بين حين وآخر، عند البوابة وتتفرَّج علينا. كانت تكبرني بنحو ست سنوات، وقد أضحت امرأةً لتوها، وكانت في نظرنا نحن الصغار فاتنة وتسلب اللب. حين تقتربُ منها تستنشق العطر الذي تستعمله - أم هل كان ببساطة عبير لحمها اللذيذ؟ وبِدْءاً بالوقت الذي توقّفتُ فيه عن اللعب في الشارع لم أعد أُولي أي قدرٍ من الانتباه لرينيه تييتجن. والآن فجأة، ودون أي سبب واضح لدي، بدأت صورتها تتراقص أمامي. كانت تتكئ

---

١١٢ - الزواف : كلمة فرنسية من أصلٍ جزائري ، وهي وصفٌ لجندي في سلاح المشاة ، يتميَّز بزيّه المتنوع الألوان . المترجم

١١٣ - قاعدة السجين : لعبة للأطفال ، وفيها ينقسم الأطفال إلى فريقين يلاحق أحدهما الآخر ويحاول كل فريق أن يأسر أكبر عدد ممكن من الفريق الآخر . - المترجم

على السياج الحديدي بجوار البوابة والريح تشدُّ ثوبها الحريري الرقيق حول ساقيها وساعديها. وأدركتُ عندئذ ما الذي كان يجعلها تبدو لعيوننا شديدة الفتنة وبعيدةَ المنال: كانت نسخة طبق الأصل عن إحدى لوحات المادونا التي رُسِمَتْ في فرنسا العصور الوسطى. تفيضُ بالنور وبالحُسن؛ طاهرة، مغرية، بضفائر ذهبية وعينين خضراوين بلون البحر. دائماً صامتة، ودائماً ملائكيّة. تهبُّ عليها الريح فتتمايلُ إلى الأمام وإلى الخلف، مثل صفصافةٍ غضَّة. ثدياها، اللذان كانا نصفيّ كرتين صالحتين للزواج، وكتلة الشعر التي كانت تكسو تجويف حوضها، بدت حيَّةً وحسَّاسة بدرجةٍ خارقةٍ. وكانت معاً تواجه الريح كما يواجهها النتوء البارز لمقدَّم السفينة. وعلى مبعدةِ مسافةٍ قريبةٍ منها كنا نتراقصُ في المكان مثل ثيرانٍ مجنونة، نمزِّقُ، نَسوطُ، نعضُّ، نزعقُ، كالممسوسين. وكانت رينيه دائماً تقف في مكانها هادئة، شفتاها متباعدتين قليلاً تفترَّان عن ابتسامةٍ مبهمة. قال البعض إنَّ لها عشيقاً هجرها. والبعضُ قال إنها كانت عرجاء. ولم يكن أي منا يتحلَّى بما يكفي من الشجاعة لمخاطبتها. كانت تتخذ لها موقفاً عن الدرابزين وتظلُّ هناك مثل تمثال. وتهبُّ الريحُ بين الآونة والأخرى وترفعُ طرفَ ثوبها فنشهقُ عندما نلمحُ اللحم الحليبي فوق ركبتيها. وقرابة المساء يعود الأب تييتجن مجهداً إلى المنزل، وسوطٌ طويلٌ في يده. وعندما يرى ريتشي بملابسه الممزقة، ووجهه مرشَّش بالطين والدم، ينهالُ عليه ضرباً بالسوط. ولم يكن يندُّ عن ريتشي أي صوت. ويُحيِّي الأب ابنته بفظاظة ومن ثم يختفي داخل الباب الأمامي. كان مشهداً غريباً لم نعرف تكملته أبداً.

هذا كله استعدتُ ذكراه بوضوحٍ تامّ مما دفعني إلى تدوين بضع

ملاحظات على الفور. انطلقتُ خارجاً بسرعة هائلة من الحديقة العامة بحثاً عن ورقةٍ وقلم رصاص. وكنتُ أحياناً أتوقّف لأتبوّل. وأخيراً عثرتُ على دكانٍ صغيرٍ لبيع القرطاسيّة تديره امرأةٌ يهوديّة. كانت تضع على رأسها شعراً مستعاراً شنيعاً بلون أجنحة صرصار. ولسبب ما وَجَدَتْ صعوبةً في فهمي. أخذت أؤدِّي إشارات في الهواء، فظنَّتْ أني أصمّ، وراحت تصرخُ في وجهي، وأصرخُ بدوري في وجهها، وأكيلُ لها الشتائم. فمسَّها الرعبُ وهرعتْ إلى خلفيّة الدكان لتطلب النجدة. ارتبكتُ، ووقفتُ في مكاني برهة، ثم انطلقت كالسهم إلى الشارع. كانت هناك حافلة متوقفة عن الناصية، فصعدتُ إلى متنها وجلست. وجدتُ إلى جانبي صحيفة فالتقطتها وبدأتُ أدوِّن الملاحظات عليها، أولاً على الهوامش، ثم فوق الأحرف المطبوعة السوداء. وحين وصلنا إلى حديقة مورننغسايد رميتُ الورقةَ خِلسةً من النافذة. وشعرتُ بالارتياح، وكأني قمتُ لتوي بمضاجعةٍ جيدة. كانت صورة رينيه قد تلاشتْ من خيالي، وكذا الزرافات، والجِمال، ونمور البنغال، وقشور الفول السوداني وزئير الأسود الكئيب. سوف أحكي لألريك هذا كله، وسوف يستمتع بسماعه. إلا إذا كان منهمكاً في حملةٍ لجمع الموز.

٩

هانحنُ مرة أخرى نقطنُ في حي رصين، لا يبعد كثيراً عن حديقة فورت غرين. الشارعُ عريضٌ كالجادّة، والمنازلُ بعيدةٌ عن الرصيف، مُعظمها مبنيٌ بالحجارة البُنّية ومزيَّن بشرفات صغيرة عالية عند مدخله من الحجارة ذاتها. وبعض المنازل قصور حقيقية تكتنفها مروجٌ شاسعة مرصَّعة بالشجيرات والتماثيل. وثمة ممرات فسيحة تؤدّي إلى الإسطبلات ومساكن الخدم في الأجزاء الخلفية. والجو العام لهذا الحي العريق يعبق بسنوات ثمانينات وتسعينات القرن الماضي. وأروع ما تتَّسم به هو المحافظة على عراقتها. حتى قوائم ربط الأحصنة لا زالت سليمة وتلمع، وكأنها قد فُرِكَتْ لتوّها بخِرقة مُشمَّعة. تبدو لنا، بفخامتها، وأناقتها، وخَدَرَها، كملاذٍ رائع.

طبعاً مونا هي التي عثرتْ على الغرفتين. ومرة أخرى كانت طبيعة صاحبة المُلك تتَّفقُ مع طبيعتنا، كانت إحدى أولائي الأرامل الأميركيات الشابات المخبولات اللواتي لا يعرفن ماذا يفعلن مع أزواجهن. وكنا قد أخرجنا أثاثنا من المخزن ورتَّبنا أمرَ الغرفتين. وابتهجَتْ صاحبةُ المنزل لأنها حظيت بنا كنزيلين. وكانت دائماً تتناول الطعام معنا. كانت مخلوقة مرحة، وتتمتَّع بصوتٍ موسيقي وبتكاسلِ روحٍ ضائعة. هنا لاح

أنَّ الأمورَ سوف تسيرُ سيراً حسناً. كان الإيجار رخيصاً، والإمداد بالغاز، والمياه والتيار الكهربائي يسير على أحسن ما يرام، وكان يتوفَّر فيضٌ من الطعام الطيِّب، وكنا نستطيع، لو شئنا، أن نتردَّد على دار السينما صباحاً ومساءً وأن نلعبَ الورقَ أحياناً، إكراماً لصاحبة المنزل، وتجنّبنا كل الزائرين. لا أحد على الإطلاق كان يعرف عنواننا. ولم أكن أدري من أين كان يأتينا المال. فماتياس كان ما يزال على اتّصال بنا، وروثرمل، الحيّ أكثر من أي وقت مضى، كان يساهم في تلك المبالغ الكبيرة. ولكن لابد أنَّه كان هناك أيضاً آخرون، لأننا كنا نعيش حياةً مرفَّهةً جداً. صاحبة الدار كانت، طبعاً، سخيَّة في إمدادنا بالطعام والشراب، وكثيراً ما كانت تدعونا إلى حضور عرضٍ مسرحي أو تصحبنا إلى الملهى. وأكثر ما كان يفتنها فينا أنَّه كان جليّاً لها أننا من الفنانين - " البوهيميين "، كما قالت. وكان زوجها وكيلاً لشركة تأمين ومخلوقاً بليداً جداً، حسب تعبيرها، وقد قرَّرتْ الآن بعد رحيله أن تأخذ قسطها من المرح.

استأجرتُ آلةً كاتبةً وشرَعتُ من جديد أكتب. كان كل شيء بلا استثناء ممتازاً. مبذلُ الاستحمام الحريري الجميل، والمنامات، والأخفاف المغربية التي كنتُ أنتعلها، كلها كانت عطايا من صاحبة المنزل؛ من رائحة المرحوم. وكانت فترات الصباح غنيّة مترفة. كنا نستيقظ من النوم في نحو الساعة العاشرة، فنستحمُّ بلا استعجال بينما الفونوغراف يعزف لنا، ومن ثم نجلس لتناول وجبة إفطار لذيذة، تعدُّها صاحبة المنزل عادة. فترى هناك دائماً فاكهة طازجة وتوت برِّي مُغطَّس بالكريما، وفطائر المَفن الخارجة تواً من الفرن، وشرائح سميكة من لحم الخنزير

المملَّح، والمربى، والقهوة الساخنة مع كريما مخفوقة. كنت أشعر كأني باشا. وعلى الرغم من عدم حاجتي إليهما كنت مزوَّداً بصندوقَين جميلَين من السجائر مع حامل طويل للسيجارة، الذي لم أكن أستخدمه إلا في فترة تناول الطعام، لأُدخِلَ السرور إلى قلب صاحبة المنزل الطيِّبة التي أهدتنيها.

يجب أن أكفَّ عن نعتها بـ " صاحبة المنزل ". كان اسمها مارجوري وكان يناسبها إلى حدّ الكمال. كان يحيط بها جوٌّ من الفسق، وكأنها دائماً في حالة تَقَصٍّي. كان قوامها جميلاً وتستعرضه بلا تحفُّظ، خاصة في الصباح حين لا ترتدي أكثر من رداءٍ رقيقٍ شفَّاف. ولم يمرّ وقتٌ طويل حتى بدأنا نتبادل المداعبات الرقيقة على الأرداف. كانت من النوع الذي يمكنه أن يقبض على قضيبك ويجعلك تضحك في وقتٍ واحد. ولم يكن في الإمكان إلا أن تعجبني، حتى وإن كانت مُصابةً ببثور الجُدَري، كما كانت فعلاً. كل ما تقومُ به كان مكشوفاً وعلى عينك يا تاجر. يكفي أن تُعلن عن رغبةٍ لديك، فتعمل على الفور على تلبيتها. وكان كل ما تملكه تحت أمرك ورهنُ إشارتك.

ما أشدّ اختلاف هذا عمَّا وجدناه في مؤسسة كارين! الوجبات وحدها كانت كافية لتضع المرء في حالةٍ من الرضى العُلويّ. كان جناحها مجاوراً لجناحنا لكن الباب الذي يفصل بينهما لم يكن يوصد أبداً. كنا ننتقلُ بينهما بيسرٍ، وكأننا نتقاسمُ منزلاً واحداً.

بعد تناول وجبة الإفطار كنتُ عادةً أخرجُ لأتمشَّى، لأربِّي شهيَّةً لتناول طعام الغداء. كان الوقت أواخر فصل الخريف والطقسُ رائعاً. وكثيراً ما كنتُ أتمشَّى حتى الحديقة العامة وأرتمي على مقعدٍ لأغفو تحت

أشعة الشمس الوضّاءة. ويتملّكني إحساسٌ بديعٌ بالسعادة. لا ينتابني أي نوع من القلق، أو تزعجني أي مسؤوليّة، أو أي شخصٍ دخيلٍ. إنني سيِّدُ نفسي تماماً، تسهرُ على راحتي الكاملة امرأتان جميلتان، تواّقتان لتعاملاني وكأني طاووس. وفي كل يوم كنت أكتب بإخلاصٍ مدة ساعة من الزمن أو ساعتين؛ أما بقية اليوم فكان - نكاحاً، وإيلاماً[١١٤]، ومرحاً. ولابد أن ما كتبته كان على قدرٍ من الأهمية - لعله أحلامٌ وأوهامٌ. كانت حياةً مفرطة الرغادة لا تصلح للإلهام بالكتابة الجادّة. كنتُ أكتب لأحافظَ على حيويّة يدي، لا أكثر. وكنت بين حين وآخر اكتب شيئاً كيفما اتّفق إكراماً لمارجوري، شيئاً مزاجياً وفكاهياً أقرأه بصوتٍ عالٍ ونحن ملتفُّون حول طاولةٍ بين رشفات الكونياك أو أي مشروبٍ أثيرٍ من مخزونها الذي لا ينضب. ولم يكن صعباً إرضاءُ أيٍّ منهما. فكل ما كانتا تطلبانه مني هو أن أتكلّف.

أحياناً كانت مارجوري (التي كانت تعتبر فنّ الكتابة سحراً صِرفاً) تقول " ليتني أعرف كيف أكتب ". وكانت تتساءل، مثلاً، من أين أحصل على أفكاري فأقولُ " أفقسها، كالبيض ". وتأخذ تخرِّف حولها قائلة " وتلك الكلمات الكبيرة، يا هنري؟ "، وهي تلفظها بتأنٍ، وتتلمَّظ بها بلسانها بفسقٍ، وتقول " لا شك في أنك تتلاعب بها ". وأحياناً كانت تؤلِّف لحناً وتلفظ به الكلمات كاسرات الفكّ. وما أمتع سماعها وهي تدندن باللحن - أو تصفِّر بنعومة! كانت غريزتها الجنسية تبدو وكأنها ترتفعُ حتى تبلغ حنجرتها. وكثيراً ما كانت تنفجر بالضحك وسط اللحن. ويا له من ضحك! وكأنها تسوقُ رفاتها.

---

١١٤ - إيلاماً : من وليمة . - المترجم

أحياناً كنتُ أخرجُ في المساء لأتنزّه وحدي. وكنت أعرفُ الحي عن قرب، بما أني كنتُ أقطنُ ذات يوم في مكانٍ يقعُ قِبالة الحديقة العامة. وبعد سير مسافة قصيرة - كانت جادةٌ مرتل تشكّلُ الخط الفاصل - تبدأ منطقة أحياء الفقراء. وبعد التمشّي في الأحياء الهادئة كان من المثير أن أقطع الخط الفاصل، وأختلطُ بالإيطاليين، والفليبينيين، والصينيين وبقية " غير المرغوب فيهم ". كانت الأحياءُ الفقيرةُ تعبقُ بالروائح اللاذعة؛ المؤلّفة من روائح الجبن، وسجق السلامي، والنبيذ، وخشب الصوفان، والبخور، والفلّين، وجلد السمك المُجفّف، والبهارات والقهوة، وبول الجياد البائت، العرَق، والتمديدات الصحيّة الرديئة. كانت المَحالّ التجارية ملآى بالسلع التي تثيرُ الحنينَ إلى الماضي والمألوفة من فترة الطفولة. كنتُ أحبُّ ردهات إقامة الجنائز (خاصة الإيطاليّة منها)، والدكاكين المتديّنة، ودكاكين بيع الخردة، ومخازن بيع الأطعمة المعلّبة، ومحال بيع القرطاسيّة. كان الأمر أشبه بالانتقال من بناءٍ ضخمٍ فخمٍ، مثاليّ في نظافته، ومنعش، إلى معمعان الحياة. اللغات المتداولة كانت ذات طبيعة موسيقية، حتى حين تكون لا أكثر من تبادل للشتائم. كان الناسُ متباينين في أزيائهم، كلٌ في زيِّه المجنون الخاصّ. وكانوا ما يزالون يستخدمون الحصان والعربة. والأولاد ينتشرون في كل مكان، يتسلّون بذلك الفيض الغامر من الحماسة والمرح الذي لا يُظهِرَه إلا أطفال الفقراء. لا تعودُ ترى تلك الوجوه الخشبيّة المقولبة للأميركيين الأصليين، وإنما نماذج عرقيّة عبقة بشخصيتها المميّزة.

لو أني بقيتُ أسيرُ في اتجاهٍ معيَّن لوصلتُ أخيراً إلى شارع الولايات المتحدة. وفي ناحيةٍ ما من ذلك المكان كان صديقي ألريك قد

وُلِد. وهناك من السهل على المرء أن يتجوَّل بلا هدى؛ ففي كل اتجاهٍ ثمة انعطافٌ ساحرٌ تُفتَحُ أمامك. وفي الليل تسيرُ بقدميّ الحُلُم. حيثُ يبدو كل شيء قد انتهى، مُخِضَ، وقُذِفَ به. أحياناً كنت أجدني وقد انتهى بي المسير إلى بورو هول، وأحياناً أخرى إلى ويليامسبرغ. وكنت دائماً أرى على مسافةٍ أخّاذةٍ الترسانةَ البحريّةَ، وسوقَ والابوت الرائع، ومعاملَ تكرير السُكَّر، والجسور الضخمة، والمطاحن الدوَّارة، ورافعات القمح، وسابكي المعادن، ومصانع الدهان، والمقابر، وإسطبلات العربات، ومصانع الزجاج، والسرَّاجين، والحواجز الحديدية، ومصانع المعلَّبات، وأسواق بيع السمك، والمسالخ، ومصانع القصدير - خليطاً هائلاً من رعب العمل اليومي يخيِّم فوقه حجابٌ قاتمٌ كثيفٌ من الدخان المشبَّع بنتانة المواد الكيميائية المحترقة، واللحم المتعفِّن والمعادن المسفوعة.

إن كنتُ أفكر أثناء مثل تلك النزهات في ألريك فقط كنتُ أيضاً أفكِّرُ في العصور الوسطى، وفي بروغل الأكبر، في هيرونيموس بوش، وفي بترونيوس آربيتر، ولورينزو الرائع، وفي فراو ليبّو ليبِّي[115] ... وهذا بغضّ النظر عن الأقزام السبعة، وعائلة روبنسون السويسرية والسندباد البحَّار. فقط في بؤرةٍ نبَذَها الله مثل بروكلن يمكنُ للمرءِ أن يجمعُ معاً وحوشَ هذا العالم وفلتاته ومخلوقاته الشاذّة. وفي مسرح "النجم "، والذي حُوِّلَ إلى مربّعٍ لتقديم المنوعات، يمكن أن يحتكَّ مرفقيك بمتجنِّسين كثيفي الشعور من هذه المنطقة العجيبة. كان الأداءُ دائماً على مستوى مخيِّلة الجمهور اللاغية. فلا شيء مُغلق على الفهم، ولا إيماءات

---

١١٥ - هذه كلها أسماء لرسامين كبار ، ماعدا اسم بترونيوس (المتوفى عام ٦٦ م) فهو كاتب روماني ساخر . له "ساتايركون " . - المترجم

تُعتَبَرُ مفرطة البذاءة، ولا قذارة زائدة بحيث لا يردِّدها لسان الممثل الهزلي. كان العرضُ دائماً وليمةً سمعيّةً وبصريّةً جديرةً بإرضاء شهوات كل مدمنٍ على اختلاس النظر. وكنت وسط هذا المَرَق أشعرُ بأُلفَةٍ تامّة: كان اسمي قبل الزواج " بذيء ".

لدى عودتي إلى المنزل بعد إحدى تلك النزهات كنتُ عادةً أجد مارجوري ومونا في انتظاري، والمائدة ممدودة لتناول وجبة خفيفة. وما كانت مارجوري تسمّيه " إفطاراً خفيفاً " كان يتكوَّنُ من شرائح اللحم البارد والجبن، وسجقّ السلامي، ولحم رأس الخنزير، وزيتون ومخللات، وسردين، وفجل، وسلطة البطاطا، وكافيار، وجبن سويسري، وقهوة، وكعكة الجبن الألماني أو فطيرة التفّاح، مع شراب الكومل، أو البورت، أو المالاغو كتتويجٍ لهذا كله. وأثناء شرب القهوة أو المشروب كنا أحياناً ننصتُ إلى أغاني جون جيكوب نايلز. وكانت أغنيتنا المفضَّلة هي "أتساءلُ وأنا أتجوَّلُ"، يؤديها صوتُ عالي النبرة، صافٍ، يتَّسم برعشةٍ وشكلٍ خاصّين به. ولم يكن الرنين العالي لآلة القانون يفشل في إشاعة النشوة. كان صوته يثير ذكريات عن آرثر، ومرلن، وغوينيفر[١١٦]. كان يشتركُ في ناحيةٍ ما مع رهبان الدرويد[١١٧]. كان، مثل مُرتِّل المزامير، يرنِّمُ أشعاره بإنشادٍ سماويّ تحمله الملائكةُ وترتفعُ لتضعه على عرش المجد. وحين كان يصدحُ عن يسوع، ومريم، ويوسف، يتجسَّدون بحضورهم الحيّ. وبانسيابٍ من اليدّ تُصدِرُ آلة القانون أصواتاً سحرية تجعلُ النجومَ تتلألأ بمزيدٍ من البريق، وتزرع التلال والمروجَ بأشكالٍ فضّيّة

---

١١٦ – ثلاث شخصيات من أسطورة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة . – المترجم

١١٧ – سبق شرحها .

وتجعلُ الجداولَ تغرغر كغرغرة الأطفال. كنا نبقى جالسين حتى بعد أن يتلاشى صوته بفترةٍ طويلةٍ، نتحدَّثُ عن كنتكي مسقط رأسه، نتحدَّثُ عن سلسلة جبال بلو ريدج وعن أهالي آركنساس. وفجأة تبدأ مارجوري، التي دائماً تترنَّمُ بلحنٍ وتصفِّرُ، بالغناء، لحناً شعبياً بسيطاً يعرفه المرء منذ المهد.

كان ذلك في شهر أيلول الرائع، الوارد وصفه في " تقويم المزارع العجوز " بأنه الفترة التي " تُشْبِعُ خلالها الشياهم[١١٨] نهمها من التفاح الناضج وتقضم الغزلان البقول اليانعة النضرة التي سهر المرء على إنمائها بكل عناية ". كنا نُمضي وقتاً رخيّاً لا نحملُ خلاله همّاً. من النافذة كنا نطلُّ على صفٍ يحظى بالعناية الفائقة من الحدائق المرصَّعة بأشجار فخيمة. كل شيء كان في أحسن حال، كل شيء رائق. كانت أوراقُ الأشجار تتحوَّلُ إلى اللون الذهبي والأحمر، تبقِّعُ المروجَ والأرصفةَ برشاشٍ بلون النار. وكثيراً ما كنتُ أجلسُ على مائدة وجبة الإفطار التي تشرفُ على مشهد الأفنية الخلفية، وأغوصُ في تأمُّلٍ عميق. وكانت تمرُّ أيامٌ لا يتحرَّكُ فيها غصن؛ لا يكون هناك غير بهاء أشعة الشمس والأزيز المتواصل للحشرات. وأحياناً أكادُ لا أصدِّقُ أني قبلَ وقتٍ قريبٍ كنتُ أقطنُ في هذا الحي مع زوجةٍ أخرى، وأني كنتُ أدفعُ بعربةٍ فيها طفلةٌ في الشوارع جيئةً وذهاباً، أو أحملُ الطفلةَ إلى الحديقة العامة وأراقبها وهي تمرحُ على العشب. كنتُ أجلسُ هكذا عند النافذة، وماضي حياتي يزدادُ عتمةً وتلاشياً؛ كان ذلك أقربَ شبهاً بالتجسُّد الآخر. كان يغمرني إحساسٌ لذيذٌ بالانفصال فأسبحُ عائداً، بتمهُّل، ومرحٍ، كدلفين، إلى مياهٍ

١١٨ – شياهم ، مفردها شيهم : ذكرُ القنفذ . – المترجم

غامضةٍ لمناطق وهميّة من الماضي. كنت وأنا في مثل تلك الأمزجة، ألمحُ مونا ترفرف متنقِّلةً في قميصها التحتاني الصيني، فأرنو إليها كما لو أنها غريبة عني تماماً. بل إني أحياناً كنتُ أنسى اسمها. وفجأة أشعرُ وسط شرودي بيدٍ تحطُّ على كتفي، وأسمعها تقول " بمَ تفكِّر؟ " (لا أزالُ أذكُرُ حتى الآن وبوضوحٍ تام كيف كان صوتها يأتيني من مكانٍ بعيد، بعيد). " أفكِّرُ ... أُفكِّرُ؟ لم أكن أفكر في أي شيء ". فتعلِّقُ قائلةً إنه كانت تتبدَّى في عينيَّ نظرةُ تركيزٍ شديد. فأقول " إنها لا شيء. كنت أحلم ". ثم يرنُّ صوتُ مارجوري " أعتقدُ أنه يفكِّر فيما ينوي أن يكتب "، فأقول " بالضبط، يا مارجوري ". وعلى الأثر تتسللان مبتعدتين وتدعاني وشأني. وأعود من فوري إلى حالة حلم اليقظة.

أتوهَّمُ أني أطفو في الفضاء، بعلوّ ثلاثة طوابق فوق الأرض. وتتلاشى المروجُ والشجيرات التي أركِّزُ عليها نظري. لا أرى غير ما أحلمُ به؛ مشهداً واسعاً متبدِّلاً باستمرار ومؤقَّتاً كالضباب. وأحياناً كانت تطفو أمام عينيَّ أشكالٌ عجيبةٌ، ترتدي أزياء الفترة التي تنتمي إليها - لشخصياتٍ لا تُصدَّق مثل صموئيل جونسون، والعميد سويفت، وتوماس كارلايل، واسحق والتن. وأحياناً كان يتراءى لي كأنَّ دخانَ معركةٍ يتصاعدُ فجأة ورجالاً مسلَّحين، وجياداً مزخرفةً بترفٍ ومُعدَّةً للقتال، يقفون ضائعين حيارى وسط المذبحة التي تجري في ساحة الحرب. والطيور والحيوانات أيضاً كان لها دورٌ في تلك الرؤى الساكنة، خاصةً الوحوش الأسطورية التي بدا أني على صِلةٍ أليفةٍ بها. لم يكن هناك ما هو شديد الغرابة، أو الفُجاءة، في تلك الرؤى بحيث تنتزعني من خوائي.

كنت أتجوَّلُ بقدمين لا تتحرَّكان بين ردهات الذاكرة الفسيحة، فيما يشبه عالماً من السينما الحيّة. وكنتُ أحياناً أعيشُ من جديد تجربةً كنتُ قد مررتُ بها وأنا طفل: كأنْ أرى، مثلاً، أو أسمعُ، في لحظةٍ ما، شيئاً ما للمرة الأولى. في مثل تلك اللحظات أكونُ معاً الطفلَ الذي يعيشُ هذه المعجزة والشخصَ المجهولَ الذي يراقب الطفلَ. وأحياناً كنتُ أستمتعُ بتلك التجربة الفريدة المُتمثِّلة في مُزامنة فكري وكياني مع قطعة رقيقةٍ من حُلمٍ كان قد نُسيَ واندثرَ، وبدل أنْ ألاحقه، بدل أن أعمل إيجابياً على تثبيته على شكل صورة أو إحساسٍ، كنتُ ألهو بأهدابه، أستحمُّ في هالته، إذا صحَّ التعبير، ممتنٌ لمجرد أني أدركته، وشممتُ حضوره الخالد.

إلى تلك الفترة ينتمي حلمٌ ليليٌّ دوَّنتُه بدقَّةٍ موسوسةٍ. وأرى أنه يستحقُّ أن أنقله ...

" يبدأ الحلم بدوارٍ كابوسيّ قذفَ بي من قمة جُرفٍ شاهقٍ إلى لُجَّة مياهٍ دافئةٍ كاريبيَّةٍ[119]. دوَّمتُ وأنا أغوصُ، وأَغوصُ بانعطافٍ رأسيٍّ واسعٍ لا بدايةَ له ويَعِدُ بأن ينتهي في الأبديّة. وأثناء هذا الهبوط المتواصل امتدَّ أمام عينيَّ مشهدٌ شاسعُ فاتنٌ ومحيِّر للحياة البحرية. وتلوَّتْ تنانينُ بحرية هائلة الحجم ومضَتْ وسط مسحوقِ أشعة الشمس وهي ترشحُ من خلال المياه الخضراء اللون؛ ومرَّت نباتات صبَّار ضخمة بجذورٍ شنيعةِ المنظر طافية من أمامي، تتبعها تشكيلاتٌ مرجانيّةٌ تُشبه الإسفنج ذات تدرُّجاتِ ألوانٍ غريبةٍ، بعضها كالحٌ كدمِ الثور، وبعضها بلونٍ قرمزيّ برّاق أو أرجواني باهت. ومن هذه الحياة المائيّة المزدحمة تدفَّقت أعدادٌ هائلةٌ من الحيوانات المجهرية، تُشبه الأقزامَ الخرافيّة

١١٩ – كاريبيَّة : نسبة إلى منطقة الكاريبي الحارة . – المترجم

والجنيّات؛ كانت تبقبقُ صاعدةً كدفقٍ رائعٍ من غبار النجوم يجرُّه مُذنَّبٌ خلفَه.

" حلّتْ محلَّ الهدير المتلاطم في أذنيّ أنغامٌ نباتيّةٌ مدوِّيةٌ؛ ثم أصبحتُ أعي اهتزاز الأرض، وأشجارَ حورٍ وبتولا مغلّفةٍ بأبخرةٍ حتى أضحت أشبه بالأشباح، تميلُ برشاقةٍ استجابةً لمداعبةِ نسائم عَطِرة. وتنزاحُ الأبخرةُ متسلّلة. وأسيرُ أنا بخطى مُجهَدة مخترقاً غابةً غامضةً تضجُّ فيها الحياة بزعيقِ القرود والطيور ذات الريش الاستوائي. وهناك جعبةٌ ملآى بالسهام في حزامي وأتنكّبُ قوساً ذهبياً على كتفي.

" كلّما أوغلتُ أبعد فأبعد داخل الغابة تغدو الموسيقى أكثر سمواً، والضوء ذهبياً أكثر؛ والأرضُ مغطّاةً بأوراقِ أشجارٍ رقيقةٍ، حمراء بلون الدم. والجمال غامرٌ حتى أني أُصابُ بالإغماء. وحين أعودُ إلى رشدي تكون الغابةُ قد اختفتْ. وبدا لحواسّي المبلَبلة أني أقفُ أمام لوحةٍ فنّيةٍ عملاقةٍ باهتةٍ تمثّلُ منظراً ريفياً ذا سموّ عظيم: إنها تُشبه إحدى اللوحات الجدارية التي نفّذها بوفيس دو شافان[١٢٠] ويتجسّدُ فيها فراغُ الحلم - الوقورُ، الملائكي. وتتنقّلُ أطيافٌ كئيبةٌ، رصينةٌ، جيئة وذهاباً، بأناقةٍ آسرةٍ، موزونةٍ، مما جعلَ حركاتنا الأرضية تبدو غريبة. ثم أخطو إلى داخل اللوحة متّخذاً درباً يلفُّه السكونُ يقود إلى خط الأفق المتراجع. وامرأةٌ ممتلئة الوركين برداء يوناني تحملُ جرّةً، وتيمّمُ وجهها شطر بُريج قلعةٍ لا تكاد تُرى فوق قمة هضبة رقيقةِ الاستدارة. فأتابعُ الوركين المتموّجَين حتى يغيبان في منحدرٍ خلف قمة الهضبة المستديرة.

القَوام الذي يحملُ الجرَّة اختفى. لكن عينيّ تكافأن الآن بمنظرٍ أشدُّ

١٢٠ - سان بيير بوفيس دو شافان (١٨٢٤ - ١٨٩٨) : رسام فرنسي ، يرسم الجداريات . - المترجم

إبهاماً. فقد تراءى لي كأني وصلتُ إلى آخر هذه الأرض المعمورة، عند الحافّة السحرية للعالم العتيق حيث تُخفى أسرار الكون وكآبته ورعبه كلها. إنني مُحَاصَر بسياجٍ مترامٍ لا تكادُ أطرافه تُرى. وأمامي تلوح في البُعد أسوار قلعةٍ مهيبةٍ مُدجَّجةٍ بالرماح. ورايات البطولة المزركشة بشعارات رائعةٍ ترفرفُ مُنذرةً بالسوء من فوق التحصينات ذات شرفات إطلاق السهام. وتنمو فطورٌ باهتة اللون تخنقُ الإمدادات العريضة التي تؤدي إلى خارج البوابات المُرعبة؛ والنوافذ البابيّة الكئيبة ملوّثة بفضلات الطيور الجيفيّة الضخمة رائحتها النتنة لا تُحتَمَل.

" لكنَّ أشدَّ ما يبثُّ الرعب فيَّ ويفتنني هو لون القلعة. لونٌ أحمر لم ترَ عيناي له مثيلاً قط. ولون الأسوار مُستَمَدٌّ من تدرُّجٍ خفيفٍ دافئٍ للون الدم، من أثر حشدٍ من الجُسيمات مكشوفٍ بجانب السكّين. وبعد الأسوار الأمامية يلوحُ مزيدٌ من المتريس والتحصينات، والبُريجات المستدِقَّة المثيرة، وكان كل صفٍ متراجعٍ ينغمسُ في احمرارٍ أشدّ بثاً للرعب. ويتَّخذُ المشهدُ برُمَّته أمام عينيّ الفزعتَين أبعادَ طقوسٍ معربِدَةٍ لسفَّاحين مُرعبين ينزُّون دماً متخثِّراً وبرازاً.

" أُحوِّلُ بصري برهةً وقد تملَّكني الخوف والرعب. وخلال تلك اللحظة الخاطفة يتبدَّلُ المشهدُ. فتمتدُّ أمامي بدلَ الفطر السامّ وجثث الصقور النتنة فسيفساء غنيّة من الأبنوس والقرفة، تخيِّمُ عليها أغطيةٌ ذات لون قرمزي قانٍ تنهمرُ منها شلالات من زهور الكرز أكواماً أكواماً على أرضِ فناءٍ ذات تربيعات. وفي المتناول تقريباً تقوم أريكةٌ رائعةٌ مُزَيَّنةٌ بأجواخٍ فخمةٍ مجعَّدةٍ ومدجَّجةٍ بوسائد يُضفي عليها القماشُ الرقيق جمالاً خاصاً. على هذا الديوان المُترَف تضطجع زوجتي مود، وكأنها

تتوقَّعُ بفتورٍ وصولي. إنها ليست بالضبط مود التي أعرفها، مع أني أتعرَّفُ من فوري على فمها المنمنم، كمنقار العصفور. وأنتظرُ بترقُّبٍ تفاهاتها المعتادة. ولكن يتدفَّقُ بدلاً عنها من حنجرتها فيضٌ من الموسيقى المُغمَّةِ تجعلُ الدمَ يدمدمُ في صدغيّ. وفي هذه اللحظة فقط أعي أنها عارية تماماً، وأشعرُ بالألم الرائع، الغامض، الذي ينتابُ عضوها التناسلي. أميلُ عليها لأرفعها بين ذراعيَّ لكني أنكصُ للتو وقد ملأني الرعب وذلك حين أميِّزُ عنكبوتاً يزحفُ ببطءٍ فوق ثديها الناصع البياض. وأفرُّ هارباً مفزوعاً، وكأنما مسَّني مسٌّ، متجهاً نحو أسوار القلعة.

" والآن يحدثُ أمرٌ غريب. إذ تُفتَحُ البوابات الشاهقة ببطء، مُصدِرةً أنيناً وصريراً من مفصلاتها الصدئة. وبسرعةٍ أهرعُ راكضاً على الدرب الضيِّق المؤدي إلى عتبة الدَرَج اللولبي. وأبدأ بارتقاء الدَرَج الحديدي بخُطى مسعورة - وأعلو وأعلو، ولا أبدو أني سأصلُ إلى القمة. وأخيراً، حين أشعرُ كأن قلبي سوف ينفجر من فرط الإعياء، أجدني في الذروة. المتاريس، والتحصينات، والنوافذ البابيّة والبُريجات في القلعة الغامضة، لم يعد لها وجود من تحتي. وتتكشَّفُ أمام ناظري نفاية بركانية سوداء اللون، مُثَلَّمة بشقوقٍ لا حصرَ لها أعماقها سحيقة. وهي قفرٌ من أي أثرٍ لحياةٍ نباتيّة. وتمتد فوق الفجوة أطرافٌ متحجِّرةٌ بأبعادٍ عملاقةٍ، وتقشُّراتٍ معدنيّة براّقة ذات دُمَل. أتفرَّسُ أكثر مدقِّقاً فأُدركُ يملؤني الرعبُ أن ثمة بالفعل حياةً في الأسفل هناك - حياةً تزحفُ، لزجة تتبدَّى على صورة لفَّاتٍ ضخمةٍ تلتفُّ وتنفلتُ حول الأطراف الميتة التي تبعثُ على الجنون.

" فجأةً ينتابني شعورٌ مُسبَق بأن البرجَ الشاهقَ الذي كنتُ قد ارتقيته وأنا مذعور ينهارُ ليتساوى مع الأرض، وأنَّ البرجَ المُستدقّ الضخم يتأرجَحُ عند حافة هاوية تثير اشمئزاز النفس، يُهدِّدُ بأن يقذف بي في أي لحظةٍ إلى العدم المهشِّم. وهيمنَ لجزءٍ من الثانية سكونٌ غريبٌ، ومن ثم تناهى صوتٌ ضعيفٌ، ضعيف جداً حتى لا يكاد يُسمَع - صوتٌ إنسانيٌّ. ثم أخذ يدوّي بقوة، بنبرةٍ آنّةٍ، عجيبة، ثم تلاشى للتو. وكأنه اختنقَ في أعماقٍ كبريتيّةٍ في الأسفل. وعلى الفور ترنَّحَ البرجُ بعنفٍ؛ وبينما هو يتقوَّضُ فوق الفراغ، كسفينةٍ سَكرى، انبجسَ هذيانٌ من الأصوات. أصواتٌ إنسانيّةٌ يمتزجُ فيها ضحكُ الضباع، بزعيق المجانين الحادّ، بتجديف الملعونين، وبقوقأة الممسوسين الثاقبة والمشحونة بالرعب.

" بينما الحاجزُ ينهار أُقذَفُ أنا إلى الفضاء بسرعةٍ نيزكيّة، وأهبط، وأهبط، وأهبط، وجسدي الهشّ يتجرَّد من لحمه الرقيق، وتُمَزِّقُ أحشائي براثنُ مجذومةٌ، وتنهشه مناقيرُ يعلوها الزنجار. أهبط، وأهبط، وأهبط، وأنا أجرَّدُ وأُبتَرُ بالناب والمخلب.

" ثم توقف هذا التقاذف في أرجاء الفجوة؛ وحلَّ محلَّه إحساسٌ بالانزلاق. إنني أندفعُ بقوةٍ أسفل منحدرٍ شديد الانحدار تدعمني أعمدةٌ ضخمةٌ من اللحم الإنساني الذي ينزف دماً من كل سُمٍ فيه. ويكون في انتظاري الجوف الواسع، الكهفيّ لغولٍ يمضغُ بعنفٍ بأسنانه ترقُّباً. وسوف أُبتَلَعُ حياً في لمح البصر، سوف أهلك وتُطحَنُ عظامي بشكل شنيع، عظامي العزيزة، وتتكسَّرُ شذرات ... ولكن حين أوشكتُ أن أنزلقَ إلى داخل الجوف الأحمر الفاغر عطسَ الوحشُ. وكان الانفجارُ من الاتساعِ بحيثُ أنَّ الكونَ برُمَّته انطفأ وتلاشى. هنا استيقظتُ وأنا أسعلُ كمنفاخٍ يدخِّنُ "

أكان من قبيل المصادفة أن أقابلَ في اليوم التالي مباشرة صديقي ألريك، وأن يبلّغني وهو يفأفئ أنَّ مود كانت قد قابلته في اليوم السابق وتوسَّلتْ إليه كي يكلِّمني، ويلحُّ عليَّ كي أعود إليها؟ وقال لي بنبرةِ رثاء إنها في حالٍ ميؤوسٍ منها. وأنها ظلت تبكي منذ أن دخلتْ محتَرَفه وإلى أن غادرته. بل إنها ركَعَتْ على ركبتيها وتوسَّلت إليه كي يعدها بأن يبحث تحت كل حجر حتى يتم تنفيذ مهمَّته.

قال ألريك " لقد أخبرتها صادقاً أني لا أعرفُ مكانك، فقالت إنه لابد من وجود وسيلة لتقصِّي أثرك. إنها تناشدك أن تسامحَهَا كما سامَحَتْك هي. وقالت إنَّ الطفلةَ تسألُ عنك باستمرار. وقالت أنه لا يهمُّها أن تفعل ما تريد شريطةَ أن تعود ... وأؤكِّد لك يا هنري، كان الموقف محنة. لقد وعدتُها بأن أبذلَ كل ما في وسعي، مع علمي أن ذلك عبث. أنا أعرفُ أن استماعك لهذا كله يؤلمك ". وتردَّدَ برهة، ثم أضاف: " ثمة سؤال أودُّ أن أطرحه عليك، إذا لم يكن في ذلك تجاوزٌ للحدود - هل تمانع في أن تتصِّل بها شخصياً؟ لا أظن أنَّ في إمكاني أن أواجه جلسةً أخرى كتلك. إنها تثير أعصابي "

أكَّدتُ له أني سأعالجُ الوضعَ بنفسي، وطلبتُ منه ألاّ يقلق بشأن أيٍ منا. " اسمع، ألريك، لننسَ هذا الموضوع قليلاً. تعال معي وتناول طعامَ الغداء معنا. سوف تسعد مونا كثيراً لرؤيتك ثانية. وأعتقدُ أنك ستُعجب بمارجوري ". وعلى الفور أضاءتْ عيناه، ولعقَ شفتيه الرطبتين بطرف لسانه.

قال، وهو يصفعُ فخذه، " حسن، سأقبلُ عرضَكَ. وحقُّ الله لقد حان الوقت لنحظى ببعض الصخب. أتدري، لقد بدأتُ أتساءلُ إن كنتُ سأراك ثانية. لابد أنَّ عندك الكثير لتُفضي به إليَّ "

كما حسبتُ، انسجمتْ مارجوري مع ألريك انسجاماً تاماً. وتناولنا غداءً مذهلاً، وشربنا معه زجاجتين من نبيذ الراين. وبعد الغداء تمدَّدَ ألريك على الديوان وأخذَ غفوة. وقد بررَّ ذلك بأنه كان يقوم بعملٍ مُرهِقٍ في حملة الأناناس. وأنه بعد أن ينال قسطاً من الراحة قد يحاولُ أن ينفِّذَ رسماً تخطيطياً أو اثنين. وقد ترضى مارجوري بأن تقفَ أمامي لأرسمها، ألا تعتقد؟ وكانت إحدى عينيه مغمضةً للتو. أما الأخرى، التي كانت ما تزال يقظةً بدافع الخوف، فكانت تدور وتتحرَّك تحت حاجبه الناتئ. قال، وهو يصالبُ يديه فوق كرشه، " إن المرءَ يأملُ جيداً هنا ". ثم رفعَ نفسه معتمداً على أحد مرفقيه وظلَّلَ عينيه بيده. " هل لك أن تخفض تلك الظُّلَة قليلاً؟ نعم، هكذا، هكذا جيد ". ثم أطلقَ تنهُّداً رقيقاً وغاص بسلام في النوم.

قلتُ لمارجوري " بعد إذنكِ، نحن أيضاً سنأخذُ غفوة. نادنا من فضلك عندما يستيقظ "

عندما اقتربَ المساء وجدنا ألريك جالساً على الديوان يرشفُ شراباً لذيذاً. كان في كامل انتعاشه وفي مزاجٍ رائق.

قال، وهو يلوي شفتيه ويحرِّكُ أحد حاجبيه الشيطانيين إلى أعلى ثم إلى أسفل، " يا الله، ما أطيب أن أعود لأعيشَ بينكم يا جماعة. كنتُ أُمطِرُ مارجوري بسيلٍ من الأخبار عن حياتنا أيتم زمان ". ونفحنا بابتسامةِ حبٍ مشرقة، وحطَّ كأسَ مشروبهِ بعناية على المنضدة المنخفضة إلى جواره وأخذ نفساً عميقاً. " أتعلم، حين يمرُّ وقتٌ طويل لا أراك خلاله تتكدَّسُ لدي أشياءُ كثيرةٌ أرغبُ في أن أسألك عنها. إنني أدوِّنُ مئات من الملاحظات - عن أغرب الأشياء - ومن ثم عندما أراك أنسى كل

شيء ... بالمناسبة، ألم تكن تسكن في مكانٍ قريب من هنا في شقةٍ ذات يوم مع أومارا ومع - ماذا كان اسمه، ذاك الهندوسي المجنون ... ذاك الذي كان له شعرٌ طويل وضحكةٌ هستيرية؟ "

قلت " تقصد غوفيندار "

" هو بعينه. لا شك في أنه كان غريب الأطوار. وأذكرُ أنك كنتَ تقدِّره كثيراً. ألم يكن يؤلِّف كتاباً حينئذ؟ "

قلت " بل عدَّة كتب. أحدها كان أُطروحةً ميتافيزيقية طويلة، وكانت خارقةً بالفعل. أذكرُ فقط كم كان ممتعاً بعد ذلك بسنين لاحقة، حين قمتُ بمقارتنة عمله بالمجلدات التي تبعثُ على النعاس التي ألَّفها كُتَّابنا الحمقى المشهورين. ويمكنني أن أقول أن غوفيندار كان دادائياً ميتافيزيقياً. ولكن في تلك الأيام لم يكن أكثر من هُزأة بالنسبة إلينا. هاأنت تعرفُ أني كنتُ بحق متوحشاً ومعدومَ الإحساس. عندئذ لم تكن الفلسفة الهندوسية تعني لي أي شيء؛ وكان في إمكانه أيضاً أن يؤلِّفَ كتبُهُ باللغة السنسكريتية. لقد عاد إلى الهند الآن - وهو أحد أتباع غاندي الكبار، كما قيل لي. لعلَّه أغرب هندوسي تعرَّفتُ إليه قاطبة "

قال ألريك " لا شك في أنك كنت تعرف عدداً هائلاً منهم. ثم كان هناك أولئك المصريين - خاصة ذاك الجاحظ العينين ... "

" تقصد، شُكر الله! "

" يا لذاكرتك! نعم، الآن تذكَّرتُ الاسم. والآخر، الذي كتبَ تلك الرسائل المُنمَّقة التي لا تنتهي؟ "

" محمد على ثروت "

" يا إلهي! يا لها من أسماء! لقد كان بديعاً، يا هنري. كنت أتمنَّى لو أنك احتفظتَ بتلك الرسائل "

" سأخبرك يا ألريك من هو الشخص الذي لا يمكن أن أنساه. إنه الفتى الصغير اليهودي، سدْ هاريس. أتذكُر - " ميلاد مجيد، أيها الرئيس كارمايكل، لا تنسَ أن تطلب من سانتا كلوز أن يمنح كل الفتية السُعاة علاوة! ". ما أروعه من فتى! أكادُ أراه أمامي بوضوحٍ جالساً إلى جانبي يملأ طلب التعيين. الاسم سِدْ هاريس، مولود في رحم أمه، العنوان الحي الشرقي، الديانة مجهولة، العمل السابق - ساعي، ماسح أحذية، وكيل شركة تأمين ضد الحريق، مفتاح هيكلي[١٢١]، رجُّ مياه الصودا، مُنقذُ غَرقى، بائعُ أقراص معالجة السعال، وتحية " ميلاد مجيد"، من العَلَم الأميركي يرفرف عالياً من فوق تمثال الحرية "

" أعتقد أنك لم تقبل طَلَبه؟ "

" لا، لكنه كان يعرِّجُ بانتظام في كل أسبوع ويملأ طلب عمل. وكان دائما يبتسم، ويصفِّر، ويهتفُ للجميع ميلاد مجيد. وكنتُ أرمي له ربع دولار لكي يذهب ويتفرَّج على السينما. وفي اليوم التالي أتلقَّى رسالةً منه يحكي لي فيها ما شاهده، وفيما إذا كان قد جلسَ في الصف الثالث أو الرابع، وعن مقدار ما أكلَ من الفول السوداني، وما هو العرض القادم، وعمَّا إذا كان في الدار مطافئ للحريق أم لا. وأخيراً يُوقِّع باسمه الكامل: سيدني روزفلت هاريس، أو سيدني ر. هاريس، أو س. روزفلت هاريس، أو س. ر هاريس، أو يكتب فقط هاريس حاف - واحداً بعد آخر، أو واحداً تحت آخر، متبوعاً طبعاً بتحيّةِ الميلاد الخالدة. وأحياناً كان يضيفُ حاشيةً يقول فيها أنه يفضِّل أن يكون ساعياً ليلياً، أو عامل تلغراف، أو مجرد مدير. طبعاً كان مزعجاً، لكني كنتُ أستمتعُ

١٢١ - المفتاح الهيكلي : الذي يفتح أقفالاً مختلفة . - المترجم

بزيارته - كانت تزودني بدفعةِ نشاطٍ لمواجهةِ عملِ النهار. وذات مرة أعطيته آلة ترومبت عتيقة عثرتُ عليها في كيس نفايات. كانت تبدو شيئاً في حالةٍ مزرية وكانت أدوات تعديل النغمات متآكلة. فلمَّعها وربطها حول كتفه بقطعة خيط، ومشى ذات صباح إلى مكتبي يبدو كالملاك جبريل. ولم يلاحظه أحد وهو يرتقي الدَرَجَ وكان هناك ما يقاربُ الخمسين فتى ينتظرون أن يعيِّنوا في العمل، وكانت أجهزة الهاتف ترنُّ كالمجنونة - كان أحد تلك الأيام التي أشعر خلالها كأنَّ أحد شرايين دمي سينفجر. وفجأة هدرَ صوتُ مدوٍ ومريع. كدتُ أقع عن كرسييّ. فإذا به واقف هناك، الصغير سدني، ويحاولُ أن ينفخ بضع نغمات صغيرة. وفي الحال سادَ هرجُ هائل. وقبل أن نتمكَّن من الإمساك بخنَّاقه، بدأ سدني ينشد " راية النجم المتلألئ "؛ وطبعاً اشتركَ بقية الصبيةُ في السخرية، والضحك، وكَيْلِ اللعنات وقَلْبِ المحابر، ورَمْي أقلام الحبر في كل اتجاه وكأنها سهام، وهم يخربشون بالطباشير على الجدران، وبشكلٍ عام يثيرون هياجاً. واضطررنا إلى إخلاء غرفة المكتب ووصدِ الباب الخارجي في الطابق السفلي. وفي الخارج كان الترومبيت اللعين ما يزال يواصل الزعيق ... كان سدني مجنوناً بكل معنى الكلمة، ولكن بطريقةٍ بهيجة. لم أكن أغضب منه أبداً. وقد حاولتُ أن أعثر على مكانِ سكناه، لكنَّ الأمرَ كان مستحيلاً. لعلّ لا منزلَ له، لعلّه كان ينام في الشوارع. وفي فصل الشتاء كان يرتدي معطفَ رجلٍ بالغ يصلُ حتى الأرض - وقفازاً صوفياً، وحقُّ الله! لم يكن يعتمرُ أبداً قبعة أو قلنسوة، إلا من باب المزاح. وفي إحدى المرات، في عزّ الشتاء، ظهر بمعطفه العجيب وقفّازه - وكان يضع على رأسه قبعة من القش ضخمة، أشبه بالسومبريرو

الأسبانية ذات قمة مخروطية عملاقة. وتقدَّمَ من طاولة مكتبي، وانحنى انحناءة منخفضة، ثم رفع قبعته القشِّية الضخمة، فإذا بها مملوءة بالثلج. فنثرُ الثلج على طاولة مكتبي ثم هرعَ خارجاً بسرعة كجرذ. وعند الباب توقَّفَ برهة وهتفَ " ميلاد مجيد ولا تنسَ أن تبارك الرئيس كارمايكل!"

قال أليك، وهو يزدرد بقايا مشروبه، " إنني حتماً أتذكَّرُ تلك الأيام. ولم أفهم قط كيف كنت تستطيع أن تحتفظ بعملك. أنا متأكِّد من أنه لم يكن يوجد في نيويورك كلها مدير استخدام آخر "

قالت مونا " تقصد، في أميركا كلها "

أخذَ أليك يتلفَّتُ حوله ويُبدي استحسانه. "هذه حياة مختلفة تماماً. إنني أحسدك بلا تحفُّظ ... الشيء الوحيد الذي سأظل أذكرُ به هذا الرجل " - وأخذَ يُنقِّلُ بصره من شخصٍ إلى آخر باتِّقاد يتبدَّد باطِّراد - " هو مرحه الذي لا ينضب. أعتقد أني لم أره مكتئباً أكثر من مرة أو مرتين طوال فترة معرفتي به. ما دام يتوفَّر له طعام ومكان للنوم ... أليس صحيحاً؟ "، ووجَّه نحوي نظرةَ حبٍ صافٍ. " إن بعض أصدقائي - أنت تعرف مَنْ أقصد - يسألونني أحياناً إن لم يكن بي مسٌّ من جنون. فأقول دائماً " لا شك في ذلك ... ومن المؤسف جداً أننا لسنا جميعاً كذلك ". ومن ثم يسألونني كيف تعيل نفسك - وعائلتك. هنا أُعلنُ استسلامي ... "

بدأنا جميعاً نضحك بهستريا. بل إنَّ أليك ضحكَ باستمتاعٍ أكثر منا كلنا. وضحك من نفسه - لأنه أثارَ مثل تلك المواضيع السخيفة. أما مونا فكان لديها، طبعاً، أسبابٌ أخرى للضحك.

طفَقتْ تقول بلا تفكير، والدموع تملأ عينيها، " أحياناً أظن أني أعيشُ مع مجنون "

قال ألريك، وهو يتشدَّق بالكلمة " ثم؟ "

" أحياناً تراه يستيقظ في منتصف الليل ويبدأ بالضحك. يضحك على أمر وقع قبل ثماني سنوات. ويكون عادة أمراً مأساوياً "

قال ألريك " لعنني الله "

" وأحياناً يضحك هكذا لأنَّ الأحوالَ من السوءِ بحيث لا يدري ماذا يفعل. وحين أراه يضحك هكذا يتولاني القلق "

قلت " هراء، إنه فقط طريقة أخرى للبكاء "

قال ألريك " أتسمعون هذا! يا إلهي، ليتَ في استطاعتي أن أنظرَ إلى الأمورِ بهذه الطريقة "، ثم رفع كأسَهُ الفارغ لمارجوري لكي تملأه له من جديد.

وتابع كلامه، وهو يجرعه دفعة واحدة، " ربما من السخف أن أسألك، ولكن حين تجد نفسك في وضعٍ كذاك ألا تمرُّ بعده بنوبةٍ مؤلمةٍ من الكآبة؟ "

هززتُ رأسي نفياً، وأجبتُ " المهمّ في الأمر أن أتناول أولاً وجبة لذيذة. هذا عادة يشدُّ من عزمي، يمنحني التوازن "

" أتعني أنك لا تشرب أبداً لتزيح عنك غماً؟ لا عليك! لا تزعج نفسك بالإجابة ... أنا أعلم أنك لا تفعل. إنه أمرٌ آخر أحسدك عليه... تقول " مجرد وجبة لذيذة. ما أبسط هذا! "

قلت " أتظن؟ ليته كذلك ... حسن، دعنا من هذا! الآن بعد أن حظينا بمارجوري، لم يعد الطعامُ يُشكِّلُ مشكلة. لم آكل مرةً في حياتي كما أفعل اليوم "

قال ألريك، وهو يتلمَّظ بشفتيه، " أنا أصدِّق تماماً ما تقول. غريب – إنني غالباً ما أجدُ مشقَّةً في إثارة شهيتي. أعتقد أني من النوع القلِق. ربما هو إحساسٌ بالذنب. لقد ورثت عن أبي صفاته السيئة كلها. بما فيها هذه " – وربَتَ على الكأس الذي كان يحمله.

قلت " كلام فارغ، إنك فقط إنسانٌ لا يَقْبَلُ إلا الكمال "

قالت مونا، وهي تعلمُ أنَّ كلامَها سوف يُثيرُ ردَّة فعل، " يجب أن تتزوج "

قال ألريك، وهو يرسم تكشيراً ساخراً، " هذه مسألةٌ أخرى. إنَّ أسلوبي في معاملة فتاتي تلك يُعتَبَرُ جريمة. إننا معاً منذ خمس سنوات – ولكن إذا جرؤت على ذِكرِ كلمةِ زواجٍ أُصَابُ بنوبة غضب. إنَّ مجرَّدَ التفكيرِ فيه يُخيفني حتى الموت. إنني أناني إلى درجة أني أريدها كلها لي ومع ذلك تراني أدمِّر فُرَصَها في الحياة. أحياناً أحثُّها على أن تتركني وتجدَ لها رجلاً آخر. وطبعاً زاد هذا الطين بلّه. ثم قطعتُ لها عهداً فاتراً على نفسي أن أتزوجها، نسيته في اليوم التالي مباشرة. إن الفتاة المسكينة لا تعرفُ لها براً ترسو عليه ". وأخذ يوزِّع علينا نظرةً تتراوح ما بين الخجل والخبث. " أعتقد أني سأبقى عازباً طوال البقية الباقية من حياتي. إنني أنانيٌّ حتى النخاع ... "

على هذا ضحكنا جميعاً ضحكاً صاخباً.

قالت مارجوري " أظن أنه سيكون علينا قريباً أن نفكِّر فيما سنأكله على العشاء. لمَ لا تذهبان أيها الرجلان لتتمشّيا. عودا بعد ساعة من الزمن وسيكون طعام العشاء جاهزاً "

رأى ألريك أنها فكرة سديدة.

قالت مارجوري ونحن خارجان بخطى متمهِّلة، " حاولا أن تجلبا معكما قطعةً كبيرةً من جبن الروكفور، ورغيفاً من خبز الجاودار الحامض، إن استطعتما "

مشينا بلا هدى على طول أحد الشوارع الفسيحة، الهادئة التي يتميَّز بها ذاك الحي. وكنا نتمشّى كثيراً معاً في تلك المساحات الشاسعة الفارغة. وأخذ ألريك يتذكر أياماً من الماضي البعيد حين كنا نتنزَّه على طول جادة بو شويك بعد ظهر أيام الآحاد، آملين في أن نُقابلَ الفتيات الخجلات اللواتي كانت تربطنا بهنَّ علاقات حب. وكان يوم الأحد يشبه يوم استعراض الفصح – من الكنيسة الصغيرة البيضاء إلى الصهريج الموجود بالقرب من مقبرة سايبريس هيل. وفي منتصف الطريق كنا نمرُّ بكنيسة سان فرانسوا دو سال الكاثوليكية الكئيبة، القائمة على مبعدة بناية أو اثنتين من حديقة ترومرز للبيرة. إنني أتحدَّثُ عن حقبةٍ سابقة للحرب العالمية الأولى، حقبةٍ كان في فرنسا خلالها رجالٌ أمثال بيكاسو، ودورين[١٢٢]، وماتيس، وفلامنيك[١٢٣] وآخرون كانوا يقفون على أولى دَرَجَات النجاح. كان جَوُّ " نهاية القرن السابق " ما يزال سائداً. كانت الحياة رخيَّةً، وإن لم نكن نعي ذلك. كل ما كنا نفكِّر فيه هو الفتيات. وإذا نجحنا في أن نتوقف معهن لنتسامر بضع دقائق نشعر كأننا نحلِّقُ في السماء السابعة. وفي أيام عطلة نهاية الأسبوع كنا أحياناً نكرِّرُ التنزُّه في أوقات المساء. ثم كبرنا. وصرنا إذا ما واتانا الحظ الحَسَن وقابلنا بضع فتيات – بالقرب من صهريج في ممرات الحديقة

---

١٢٢ – أندريه دورين (١٨٨٠ – ١٩٥٤) : رسام فرنسي . كان يتبع المذهب الفوفي في الرسم (المتحرِّر من قيود التقاليد) . – المترجم

١٢٣ – فلامنيك (١٨٧٦ – ١٩٥٨) : رسام فرنسي . فلافي . – المترجم

العامة المظلمة، أو حتى عند تخوم المقبرة - نقوم بمحاولات حقيقية جريئة للتقرُّب منهنّ. كان في استطاعة ألريك أن يتذكَّر أسماءهن جميعاً، خاصة اثنتين منهنّ على وجه التحديد - تينا وهنرييتا. وعند التخرُّج كانتا معنا في الصف نفسه، ولكن بما أنهما كانتا متأخرتين، فقد كانتا أكبر سناً من بقيتنا بسنتين أو ثلاث. مما يعني أنهما كانتا ناضجتين تماماً، وليس فقط ناضجتين وإنما تتفجّران بالشهوة الجنسية. وكان الجميع يعرفون أنهما لم تكونا أكثر من عاهرتين. وكانت تينا، الوقحة بكل معنى الكلمة، تُشبه إحدى نساء ديغا[١٢٤]؛ هنرييتا كانت أضخم جثة، وأكثر شهوانية، وقد أضحت مومساً لتوها. كانتا دائماً تتهامسان بالقصص البذيئة وتسلّيان طلاب الصف بها. وكانتا أحياناً ترفعان أطراف ثوبيهما إلى ما فوق ركبهما - لكي نلقي عليهما نظرة. أو كانت تينا أحياناً تقبض على حلمة ثدي هنرييتا وتعصرها عابثةً - هذا كلّه كان يحدث في غرفة الصف، من خلف ظهر الأستاذ، طبعاً. لذا، أي شيء كان أكثر طبيعيّة من أن نبحثَ عنهما حين نخرج للتمشّي في الأمسيات؟ وبين حين وآخر كنا نفعل فيهما. دون أن نتبادل أي كلمة. ندفعهما حتى تستندان إلى درابزين حديدي، أو قبر، ونغرقهما بالكلام الصبياني المعسول، ونُجري عليهما أصابعنا ونهرسهما - نفعل كل شيء ماعدا الأمر الحقيقي. وكان الإفلاتُ من مثل تلك الأفعال يتطلّبُ فتيةً أكبر سناً وأكثر تجربة. وكنا في أحسن الأحوال ننجحُ في القيام بنكاحٍ جاف. ثم نتوجّه إلى منازلنا ونحن نترنّح، وخصانا تؤلمنا مثل ألم ستّين سناً.

قال ألريك " هل سبق أن حكيتُ لك كيف حاولت أن أفعل في المس

١٢٤ - إدغار ديغا (١٨٣٤ - ١٩١٧) : رسام فرنسي . من أقطاب المدرسة الانطباعية . - المترجم

بيرنفيذر، معلّمة صف التخرُّج؟ أقصد طبعاً أنَّ هذا حدثَ بعد أن تخرَّجنا بسنوات عديدة. كَمْ كنتُ أخرق! حسن، أنت تعرف كم كانت شهوانية... لم أكن أستطيع أن أبعدها عن تفكيري. وذات يوم كتبتُ لها رسالة - كنت قد استأجرتُ لتوِّي مُحْتَرَفاً صغيراً وبدأتُ أعتبرُ نفسي فناناً كبيراً، أؤكِّد لك - وكم كانت دهشتي حين رَدَّت عليها، وألحَّت عليَّ كي أقوم بزيارتها في أي وقت. وكنت من فرطِ الإثارةِ حتى كدتُ أتبوَّل في سروالي. فاتَّصلتُ بها هاتفياً ودعوتها إلى المحترف. وطبعاً كنت مستعداً لمجيئها - بكافة أصناف المشروب، والكعك الصغير اللذيذ، ولوحاتي الموزَّعة بشكلٍ اعتباطي، ووضع بضع لوحات لعاريات في أماكن بارزة، وما إلى ذلك ... أنت تفهم ما أعني. أما ما نسيته فكان الفرق في السن بيننا. كانت طبعاً ما تزال شهيّة، لكنها أضحَتْ امرأةً ناضجةً حتى أنَّ الخوفَ مسَّني. واستغرقَ مني ترسيخ تحرُكاتي بعض المناورة. وأدركتُ أنها كانت تحاولُ أن تساعدني، لكني كنت شديد الحياء، والخرق، حتى كدتُ أُصاب بانهيارٍ عصبي. فقبل كل شيء، لا يمكن للمرء أن يمزِّقَ هكذا ببساطة سروال معلِّمته المفضلة "

وقاطَعَ نفسه لكي يقهقه ويهزَّ أذنيه.

سألته، لأساعده للخروج مما هو فيه، " وهل نجحتَ في مسعاك أخيراً؟ "

قال أليك " نجحتُ بلا شك، ولكن بعد أن أسرفتُ في الشرب. وفي ذلك الوقت كانت هي قد أصبحت شبقة للمضاجعة، حتى أنها أخرجت أيري وجرَّتني حتى أعتليها. وحصل لدي أحد تلك الانتصابات الأبدية التي تنالها أحياناً جراء شرب الخمر. وأؤكِّد لك أننا فعلنا كل

شيء، ومع ذلك رفضَ أن يلج. كانت مستلقية على الديوان ولا تغطِّيها إلا بلوزة، وهي تلهثُ كعاهرة. وكنتُ قد اغتسلتُ لتوي بالماء البارد، أملاً في أن تنطلي الخدعة. فقالت " تعال إلى هنا. أريد أن أُملي نظري من آلتك تلك. ألريك، لماذا لم أعرف عن هذا عندما كنتَ في غرفة صفي؟ ". فنظرتُ إليها مذهولاً، وقلت " تقصدين أنك كنتِ ستدعينني...؟ ". قالت " تقول أدعُكَ؟ - أنا كنتُ التَهَمْتُكَ حياً. ألم يخبركَ بقية الفتية قط عني؟ ". ولم أكن أصدِّق ما أسمع. كنت طوال الوقت يا هنري واقفاً فوقها، وأيري متَّجهٌ نحو السماء. وفجأةً اعتدَلَتْ في جلستها وقبضتْ عليه، حتى حسبتُ أنها ستكسره إلى نصفين. وسرعان ما وجدتُها راكعةً على ركبتيها، منهمكةً في مصٍّ. وحتى عندئذٍ لم أكن قد قذفتُ، وأؤكِّد لك أني كنت قد أصبحت مسعوراً. وأخيراً قلبتها، وأقحمته فيها من الخلف - إلى أن أخذت تئنُّ. ثم أخرجتُهُ لأريحه، ثم جررتُها خارج الديوان، وبعد أن رفعتها من منتصفها، جعلتها تمشي في أرجاء المُحتَرَف على يديها. كان الأمرُ أشبه بدفع عربة يد بالمقلوب ... وحتى هذا الإجراء لم يعطِ أثره. ولما يئستُ، جلستُ على كرسي الأريكة المريح وجعلتها تمتطيني وهي مفرشخة، وقلت " فلنجلس وننكح. أو لا تنكحي - فقط دعيه هناك حتى يذوب ". وشربنا كأساً آخر، ونحن جالسان هكذا، ومن ثم آخر، وآخر. وحين انفككنا كان ما يزال طائراً متوحشاً. لكنه مترهِّل ... والآن إليكَ هذا يا هنري. ماذا تعتقد أنها قالت لي في تلك اللحظة؟ "

نظرتُ إليه بانشداه. ثم قلت " لا تقُل لي! حباً بالمسيح، دعنا نعود. يجب أن أكتب قليلاً قبل أن نجلس إلى مائدة الطعام "

طَرَفَ بعينيه كبوم. وكان قد أوشك أن يتكلّم من جديد حين قلتُ " بالمناسبة، ألم تباشر مارجوري بعد؟ إنها تكادُ تموتُ شوقاً إلى ذلك "

قال ألريك " لا بأس بها من فكرة. أتعتقد أنَّ في استطاعتنا أن نقومَ بذلك ... يعني ... باحتراس؟ "

" دع الأمرَ لي! "

حثثنا خطانا. ومع وصولنا إلى باب الدار كان إيقاع سيرنا قد تضاعفَ.

أخذتُ مونا جانباً وفاتحتُها بالموضوع.

قالت مُقترحةً " لمَ لا تنتظر حتى ما بعد العشاء؟ أقصد فيما يخصُّ مارجوري وألريك ". ثم أغلقنا الباب خلفنا وقمنا بمضاجعة سريعة بينما كان ألريك ومارجوري يتناقشان حول الموضوع. وحين انضممنا إليهما كانت مارجوري جالسةً في حجر ألريك، وأطراف ثوبها مرفوعة إلى ما فوق ركبتيها.

قالت مونا " لمَ لا ترتديان شيئاً مريحاً؟ شيئاً كهذا "، وعلى الأثر فتحت ثوبها الكيمونو وكشفت عن لحمها العاري.

لم تضيِّع مارجوري الوقت في الاقتداءِ بها. وكان علينا ألريك وأنا أن نرتدي المنامة. وبهذا الشكل جلسنا لنتناول طعام العشاء.

إن الوجبة التي تتوَّجُ بقصفٍ جنسي لها طريقتها في التوجُّه إلى الأجزاء التي تحتاجُ إلى تغذية، وكأنما بتوجيهٍ من عاملٍ مُحولٍّ يعملُ على تنظيمِ حركةِ السيرِ في كل أرجاء الجهاز التلقائي. فبدأتُ بالمحارِ الموضوعِ على نصفِ أصدافٍ وبالكافيار، وتبع ذلك حساءُ ذيلِ الثور اللذيذ، فشريحة من لحم البقر، والبطاطا المسحوقة، والبازلاء الفرنسية،

والجبن، وشرائح الخوخ والكريما، وكل هذا على لحن البومارد الأصلي الذي أخرجته مارجوري من مخبئه. ومع القهوة والمشروبات تناولنا جولة ثانية من حلوى بعد الطعام - عبارة عن مثلجات فرنسية تعوم في المشروب البندكتي والويسكي. وبين تقديم ألوان الطعام كانت مارجوري تعبث بقضيب ألريك ثم أصبح ثوب الكيمونو مفتوحاً حتى آخره، والثديان مكشوفين، وأزرار منطقة البطن ترتفع وتنخفض برفق. وبلا قصد انغمست إحدى حلمتيّ مارجوري في الكريما المخفوقة، وسنحت لي الفرصة لمصّ ثديها قليلاً. وحاولَ ألريك أن يوازِنَ صحناً على قضيبه لكنه لم يوفَّق. وكان كل شيء يسير بمرح.

وواصلنا قَضْمَ الترتة، والكريما المخفوقة، وحلوى نابوليون وما شابه مما تعدُّه النسوة، ونحن منغمسون في حديثٍ رَخيّ عن أيام زمان الطيّبة. وكانت المرأتان قد بَدَّلتا مكانيهما واستكانتا في حجرينا. واستغرق منهما قدراً من التمعُّج والاهتزاز قبل أن تركبا كما ينبغي. وكان كلُ منا يحصل بين حينٍ وآخر على رعشةٍ جنسية، ويلفُّه الصمت بعض الوقت، ومن ثم ينتعش من جديد بعونٍ من المثلجات، والمشروب البندكتي والويسكي.

بعد فترةٍ من الوقت انتقلنا من المائدة إلى الديوانين، وكنا نواصلُ مجرى الحديث، بين إغفاءات قصيرة، حول مواضيع شتى. كان حديثاً رخيّاً، طبيعياً، ولم يكن أحدُ يشعرُ بالحَرَج إذا ما أخذته سنةٌ من النوم وسط جملة ما. وكانت الأضواء قد أُخفِتت، وأخذ يهبُّ نسيمُ عَطِرٌ يتسللُ من النوافذ المشرَّعة، وكنا جميعاً جالسين باسترخاء تام حتى لم يكن يهمُّ قط ماذا يُقالُ وأي جواب يُعطى.

كان ألريك قد استغرقَ في النوم أثناء حديثٍ كان يتبادله مع مارجوري. ولم يكن قد نام أكثر من خمس دقائق حين استيقظَ منتفضاً، هاتفاً لنفسه: " يا إلهي، هذا ما حسبته! ". ثم، لما أدركَ أنه ليس وحده، غمغم بشيء غير مسموع ونهض معتمداً على مرفقه.

سأل " هل أطلتُ النوم؟ "

قالت مارجوري " نحو خمس دقائق "

" غريب. خُيِّلَ إليّ كأنها ساعات طوال. لقد رأيتُ مرة أخرى أحد تلك الأحلام "، ثم التفتَ نحوي " أنت تعرفها يا هنري، تلك الأحلام التي تحاول فيها أن تُثبِتَ لنفسكَ أنك إنما تحلم لا أكثر "

كان لابد لي من أن أعترف بأني لم أر حلماً مثلها.

كان في وسع ألريك دائماً أن يصفَ أحلامه بتفاصيلها الدقيقة. كانت تخيفه نوعاً ما لأنها، في اعتقاده، تشير إلى أنه لم يقع مرة في حالة لا وعيٍ كاملة. وفي الحلم يصبحُ عقله حتى أشدّ حيوية منه وهو في حالة اليقظة. إنَّ عقْلَه المنطقي يصبحُ في المقدِّمة أثناء النوم. وهذا ما كان يُقْلقه. وتابع كلامه وأخذ يصفُ الآلام المبرِّحة التي عاناها، أثناء الحلم، ليُثبِتَ لنفسه أنه ليس يقظاً وإنما يحلم. فكان، مثلاً، يحملُ كرسي أريكة ويرفعه عالياً في الهواء بإصبعَين من أصابعه، وأحياناً يحمله مع أخيه الجالس عليه. وفي الحلم يقول لنفسه: " هاك، لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك في يقظته - مستحيل! ". ومن ثم يقوم بإنجازات مستحيلة أخرى، وبعضها خارقٌ بكل معنى الكلمة. كأن يطير خارجاً من النافذة المفتوحة جزئياً ويعود بالطريقة نفسها. دون أن يشوِّش ملابسه أو يشعِّث شعره. وكان كل ما يفعله يؤدي إلى شيءٍ ما مطلوب إثباته،

وهذا لا يُثبت أي شيء، كما أثبتَ، وذلك لأنَّ - " دعني أشرح لك الأمر كما يلي، يا هنري: لكي تثبت لنفسك أنك تحلم يجب أن تكون يقظاً، وإذا كنت يقظاً لا تستطيع أن تحلم، أليس كذلك؟ "

فجأة تذكَّرَ أنَّ ما دفعه إلى الحُلُم كان مرأى نسخةٍ من كتاب "التحوُّل " كانت على طاولة الزينة. فتذكَّرتُ أني كنت قد أعرتُهُ ذات يوم نسخةً تحتوي على فقرةٍ رائعة عن تفسير الأحلام. قال، وهو يفرقع بإصبعيه، " أتعرف مَنْ أعني؟ "

" غوتفريد بن[١٢٥] ؟ "

" نعم، هو بعينه. غريب، هذا الطائر. ليتني أقرأ المزيد له ... بالمناسبة، هل لديك نسخة من هذا ؟ "

" نعم، لدي، يا ألريك يا صاحبي. أتريد أن تراها ؟ "

قال " أتدري ما أريد، أتمنى أن تقرأ لنا تلك الفقرة - أقصد، إذا لم يكن لدى الآخرين مانع "

عثرتُ على نسخة من " التحوُّل " وفتحت على الصفحة المعنيّة.

" دعونا الآن ننتقل إلى الحقائق النفسية. يقول زرا دشت " في الليل، تتكلَّم النوافير المتقافزة كلها بنبرة صوت أعلى؛ وروحي، أيضاً، نافورة متقافزة " ... " يبدو أنَّ ما كان ذات يوم يسود " - وهذه الكلمات الشهيرة مأخوذة من كناب فرويد " تفسير الأحلام " - " ما كان يسود خلال النهار قد نُفيَ إلى عمق حياة الليل ". إن هذه الجملة تختصر كامل علم النفس الحديث. فكرتها العظيمة هي رصف طبقات النفس، وهو المبدأ الجيولوجي. إن للروح منشأها وهي مبنيّة على شكل

---

١٢٥ - غوتفريد بن (١٨٨٦ - ١٩٥٦) : شاعر وناقد ألماني . - المترجم

طبقات. وما تعلّمناه من قبل في المجال العضوي فيما يتعلّق ببُنيَة العقل الكبير من وجهة النظر التشريحية-النشوئيّة من الأيونات المتلاشية يكشف عنه حلمٌ، أو طفلٌ، أو الذهّان[١٢٦] بوصفه واقعاً ما يزال حاضراً. إننا نحمل ... "

هتفَ ألريك " اسمعوا، وعوا! "

" " إننا نحملُ الشعوب القديمة في أرواحنا وعندما يتراخى آخر عقل مُكْتَسَب، كما يحدث في الحلم أو في حالة السُكر، تعود إلى الظهور مع طقوسها، وعقليتها الما قبل-منطقيّة، وتمنحنا ساعة من المشاركة الصوفيّة. عندما ... " "

قال ألريك، مقاطعاً من جديد، " بعد إذنك، ولكن هل يمكننا أن نسمع تلك الفقرة مرة أخرى؟ "

" بلا شك، ولمَ لا ؟ ". ثم أعدتُ قراءتها ببطء، تاركاً المجال لكلّ مقطع كي يترسَّخ.

قال ألريك " الجملة الثانية أيضاً حلوة عسل؛ أكاد أحفظها عن ظهر قلب "

تابعتُ: " " وحين تتراخى البنية الفوقيّة المنطقية، حين تفتح فروة الرأس، المُتعبة من انقضاض الحالات ما قبل القمرية ... " "

" الله! أي لغة! سامحني يا هنري، لم أقصد أن أقاطعك مرة أخرى"

" " حين تفتَحُ فروةُ الرأس، المُتعبة من انقضاض الحالات ما قبل القمريّة، تخومَ اللاوعي التي يدور حولها دائماً صراع، عندئذ يظهر القديم، الوعي، صورة التحوُّل، والتطابق، السحريين للـ " أنا "، على صورة التجربة المبكرة لكل مكان وللأبديّ. والإرث الموروث ... " "

---

١٢٦ – الذهّان : اضطراب عقلي . – المترجم

هتف ألريك " للعقل الأوسط! يا إلهي، يا هنري، يا له من سطر، هذا السطر! أتمنى أن تشرحه لي شرحاً وافياً أكثر. لا، ليس الآن ... فيما بعد، ربما. لا تؤاخذني "

وأتابع: " " الإرث الموروث للعقل الأوسط يكمنُ في الأعْمَقْ وهو توّاق للتعبير عن نفسه: إذا ما تمزَّقَ سطح الخارجي للذهَّان تظهر، تدفعها إلى السطح الغرائز البدائية، من الأساس البدائي - الفصامي، الـ " أنا " الغريزية المُمات العملاقة، كاشفةً عن نفسها بلا حدود من خلال الموضوع النفسي المهترئ " "

هتف ألريك " الموضوع النفسي المهترئ! واو! شكراً لك يا هنري، إنَّ هذا لمتعة خالصة "، ثم التفتَ إلى الآخرين " ألا تتساءلون أحياناً لمَ أنا شديد الولع بهذا الرجل؟ (وأشرق وجهه في وجهي). إنَّ لا أحد ممَّن زاروا محترفي قادرٌ على منحي مثل هذا الغذاء العقلي. لا أدري من أين يأتي بهذه الأشياء - من ناحيتي أنا حتماً لا أتعثَّر بمثلها. وهذا بلا أدنى شك يبيِّن مدى اختلاف أحدنا عن الآخر "

سكتَ برهةً ليملأ خلالها كأسه. " أتدري يا هنري، وأرجو ألاّ تمانع في قولي هذا، إن فِقْرَةً كهذه كان يمكن أن تكونَ أنت كاتبُها، ألا تظن ذلك؟ وربما لهذا تراني مولعاً بمؤلفات غوتفريد بن. وهوغو بول[١٢٧] كاتبٌ آخر مفضَّل - هو أيضاً لديه شيء جيد في خصيتيه، ما رأيك؟ ومع ذلك فالغريب في الأمر هو ما يلي - إني ما كنت لأتعرَّف إلى مؤلفاته، والتي أُقدِّرها كثيراً - لولاكَ أنت. كم أتمنّى أن تكونَ معي أحياناً حين أكونُ مع جماعتنا في فيرجينيا! إنهم في الحقيقة لا يخلون من ذكاء.

١٢٧ - هوغو بول (١٨٨٥ - ١٩٤٨): شاعر دادائي. لا عُنفي. - المترجم

ولكن بشكلٍ ما مثل هذه المواضيع يثيرُ نفورهم. يعتبرونه غير صحّي ".
ورسمَ ابتسامةً ساخرةً على وجهه. ثم نظرَ إلى مارجوري ومونا. "سامحاني لأني أركِّز على هذه الأمور، أرجوكما. أنا أعرف أنه ليس الوقت المناسب للانغماس في نقاشاتٍ عاصفة. وكنت أوشك أن أسألَ هنري عن شيءٍ بخصوص الإرث الموروث للعقل الأوسط، ولكن أعتقد أنه في إمكاننا أن ندع الأمرَ إلى مناسبةٍ ملائمةٍ أكثر. ما رأيكم بكأس وداع؟ - وبعدها أرحلُ "

ملأ كؤوسنا، ثم مشى حتى رف المدفأة واتَّكأ عليه.

قال ببطء، وهو يداعبُ كلماته، " أعتقدُ أنَّ الطريقةَ التي تقابلنا بها في ذلك اليوم في الجادَّة السادسة بعد مرور سنين عديدة، ستظلُّ دائماً بالنسبة إليَّ مُحاطةً بالروعةِ والغموض. كم كان يوماً مفعماً بالحظ الحَسَن بالنسبة إليّ! قد لا تصدِّقني إذا قلت إنه كثيراً ما يحدثُ حين أكونُ في مكانٍ غريب - مثل قلب الصحراء -أن أقولَ لنفسي: " تُرى ماذا كان يمكن لهنري أن يقول لو أنه هنا معي ". نعم، كنتُ دائماً أفكِّر فيك، على الرغم من أنَّ الاتصالَ بيننا كان قد انقطع. لم أكن أعرف أنك أصبحت كاتباً. لا، لكني كنتُ أعرف دائماً أنك ستغدو ذا شأنٍ أو شخصيةٍ بارزة. حتى وأنتَ صغير كنتَ تشعُّ بشيءٍ مختلف، شيء فريد. كنتَ دائماً تجعلُ الجوَّ أشدَّ كثافة، وتلألؤاً. كنت تشكِّل تحدِّياً لنا جميعاً. لعلك لم تعِ ذلك قط. حتى في الوقت الحاضر، الذين يقابلونك فقط مرة واحدة لا ينفكُّون يسألونك - "كيف حال ذلك الهنري ميللر؟ " ذلك الهنري ميللر! أترى ما أعني؟ إنهم لا يقولون هذا عن أي شخصٍ آخر أعرفه. أه حسن ... أعرف أنك سمعت هذا الكلام مرات عديدة "

قالت مونا " لمَ لا تأخذ قسطاً وافياً من الراحة وتقضي الليل معنا ؟"

" لا شيء أحبُّ إلى نفسي من هذا، ولكن ... "، وأبرزَ حاجب عينه الأيسر ولوى شفتيه. " ولكن فروة الرأس، المُتْعَبَة من انقضاض الحالات الماقبل قمريّة ... ذات يوم سوف نضطرّ إلى أن نمرّ بهذا بشموليّة أوسع. أما الآن فإنَّ الأنا الغريزية العتيقة العملاقة تصارع لتصعد إلى أعلى من خلال الأساس الفصامي ". واستعدَّ للانطلاق وبدأ يصافحنا، وتابع كلامه " أتدري، أنا واثق من أني سأرى حلماً رائعاً هذه الليلة. ليس حُلماً واحداً وإنما جمهرةً منها! سأنزلقُ في نزٍّ بدائيّ - محاولاً أن أُثبِت لنفسي أني أعيشُ في العصر البيوليسي[١٢٨]، ولعلّي سأقابل تنانين وديناصورات - إلا إذا كان الغطاء السطحي ممزقاً تماماً بذُهَّان سابق "، وتلمَّظَ بشفتيه. وكأنه ازدرد لتوّه عدداً كبيراً من الأصداف الريّانة. عندئذ كان قد وصلَ إلى عتبة الباب. " بالمناسبة، لا أدري إن كنتَ ستعتبرني مُغالياً في التطفُّل عليك إذا اقترضتُ منكَ مرة أخرى كتابَ فوريل Forel؟ إن هناك فقرةً حول الاستبداد في العشق أحبُّ أن أعيد قراءتها "

أثناء توجُّهي إلى السرير فتحتُ كتاب " التحويل " لا على التعيين، فسقطتْ عيني على الجملة التالية: " إن حضورنا الإنساني الحيّ يحملُ في طيَّاته مائتين من البقايا: من غير المعروف كم تحمل الروحُ منها "

كم تحمِلُ الروحُ منها! بهذا المقطع الذي كان يتردد على لساني

---

١٢٨ - العصر البيوليسي : أحد العصور الجيولوجية . - المترجم

استغرقتُ في نشوةٍ عميقة. وفي نومي أعدتُ استحضار مشهدٍ من الحياة ... ووجدتُني من جديد مع ستانلي. هانحن نسيرُ بخطى سريعةٍ في الظلام قاصدّين المنزل حيث تعيش مود مع الطفلة. ستانلي يقول إنَّ ذهابنا أمرٌ سخيفٌ، وعقيمٌ، ولكن ما دامت هذه رغبتي فسوف يجاريني. إن بحوزته مفتاحَ البابِ الأمامي؛ وهو لا يني يؤكِّد لي أنه لا أحد سيكون في المنزل. إن ما أريده هو أن أرى غرفة الطفلة. إنني لم أرَ الطفلة منذ زمن طويل وأخشى أني حين سأراها مرة أخرى - تُرى متى؟ - لن تتعرَّفَ عليّ أبداً. وأنا لا أنفكُّ أسألُ ستانلي عن طولها، وملابسها، وحديثها، وما إلى ذلك. ويجيب ستانلي بفظاظة وجفاف، كالمعتاد. وهو لا يرى أي أهميّة لهذه الحملة.

ندخل المنزل وأفتّشُ الغرفة بدقّة. دُماها تأسرني - إنها موزَّعة في كل مكان. وأشرعُ في البكاء بصمت وأنا أتفحَّص دُماها. وفجأة أتبيَّن دُميةً محشوَّةً قديمةً ومضروبةً، مُلقاةً على رفٍ في إحدى الزوايا. أُقحمُها تحت ذراعي وأومئ إلى ستانلي كي يخرج. إنني عاجز عن النطق بأي كلمة، وأنا أرتعشُ وألفظُ كلاماً مختلطاً.

حين استيقظُ في اليوم التالي يظلُّ الحلمُ حياً في ذاكرتي وبحكم العادة أرتدي ملابسي القديمة، وهي بنطال قطني باهت اللون، وقميص قُطني بالٍ ومُهترئ، وحذاء ممزَّق. لم أكن قد حلقتُ ذقني منذ يومين، وأشعرُ برأسي ثقيلاً، وبالقلق. تبدَّلتْ حالةُ الطقسِ بين ليلة وضحاها؛ رياحُ خريفيّة، باردة، تهبُّ وتهدِّدُ بهطل المطر. أقتلُ فترةَ الصباحِ بالتكاسُل. وبعد الغداء أرتدي سترةً صوفيّةً مهترئة ومثقوبة عند المرفقَين، وأصفعُ قبَّعتي المترهِّلة فوق أذني، وأنطلقُ تتملَّكني فكرةُ أنني يجب أن أرى الطفلة من جديد، بأي ثمن.

أخــرجُ من القطار النفــقي في مكانٍ قــريبٍ من المنزل وبعــينين مُتَمَعِّنتين أخترقُ منطقة الخطر. أقتربُ ببطءٍ أكثر فأكثر من المنزل، حتى أصل إلى الناصــيــة، القـريبــة جداً. أقف هناك فـتـرة طويلة، وعـيناي مُثبَّتتـان على البوابة، يحدوني أمل في أن أرى الصغيرة لدى ظهورها في أي لحظة. الجو يزداد برودة، فأرفعُ ياقتي وأخفضُ قبعتي فوق أذني. وأبدأ بالتمشّي جيئة وذهاباً، قبالة الكنيسة الكاثوليكية الكئيبة المبنيّة من حجارةٍ ذات لون أخضر طُحلبي.

لم يظهر لهـا أي أثر بعـد. أظلُّ واقـفـاً على الرصيف المقـابل من الشـارع، وأسيرُ بسرعةٍ ماراً بالمنزل. متـمنّيـاً أن أتبيَّن أي دلالة على وجود حيـاة في الداخل. لكن السـتـائر مُسدَلة. وعند الناصيـة توقّفت ورحتُ من جديد أخطو جيئة وذهاباً. استـمرَّ ذلك مدة خمس عشرة أو عشرين دقيقة، وربما أكثر. وأشعرُ أني قذر، وأرغبُ بحكّ جلدي، وأني زريّ كجاسوس، وأني مُذنب، غارق في ذنبي.

أوشكُ أن أُقرِّر العودة إلى البيت وإذا بجماعةٍ من الصغار تظهرُ فجاةً من ناصية في الجهة المقابلة البعيدة قبالة الكنيسة. ويركضون بجموحٍ قاطعين الشارع وهم يصيحون ويغنُّون. فيصعد قلبي إلى حلقي. ينتابني إحساسُ بأنها معهم، ولكن من المستحيل من موقع وقوفي أن أتبيَّنها. هنا أُهرعُ متوجِّهاً إلى الناصية الأخرى. وحين أصلُ إلى هناك لا أرى أثراً لهم. إنني محتار. وأظل واقفاً في مكاني بعض الوقت كروحٍ تائهةٍ، ثم أُقـرِّرُ أن أنتظر. وبعد قليلٍ أُلاحظُ وجودَ محلٍ للبقالة بعد الكنيسة بمسافةٍ قصيرة. من المعقولِ جداً أن يكونوا قد دخلوا المحل. وباحتراس هذه المرة أمشي بهدوء على جانب الطريق. وبعد المحل بقليل،

على الجانب المقابل من الشارع، طبعاً، أندفعُ بسرعةٍ إلى شُرفةٍ صغيرةٍ عند مدخل أحد الأبنية وأقفُ في أعلى الدرج، وقلبي يدقُّ كالمجنون.

أنا الآنَ متأكِّدٌ من أنهم جميعاً موجودون في محلِ البقالة. ولم تشرُد عينيّ لحظة واحدة عن النظر إلى الباب. وفجأة أُدركُ أني، بوقوفي هكذا في أعلى الدرج، ظاهرٌ للعيان، فأرتدُّ حتى ألتصقُ بالباب وأحاولُ أن أكونَ مستتراً. إنني أرتعشُ، ليس من البردِ بقدرِ ما هو من الخوف. ماذا سأفعلُ إذا لمحَتْني؟ ماذا سأقولُ؟ بل ماذا في وسعي أن أقول أو أفعل؟ إنني من فرط الذعر بحيث أني أكادُ أسرعُ بهبوط الدرج وأطلق ساقيَّ للريح.

ولكن، في تلك اللحظة بالذات يُفتَحُ الباب مع صوتٍ قويّ ويندفعُ ثلاثةٌ من الأولاد خارجين منه. ينطلقون مباشرة إلى منتصف الشارع. وحين يراني أحدهم واقفاً في الشرفة أمام الباب يَستوقفُ فجأة الآخرين من أذرعهم ويندفعُ عائداً معهم إلى المخزن. ويخامرني شعورٌ بأنَّ ابنتي الصغيرة هي التي فعلت ذلك. أحرُفُ تحديقي بعض الوقت، محاولاً بذلك أن أبدو لا مبالياً وغير مهتمٍ بسلوكهم، وكأني كنتُ أنتظرُ شخصاً سيخرجُ من المنزل في الأعلى وينضمّ إليَّ. وعندما عدتُ فنظرتُ رأيتُ وجهاً صغيراً ينضغطُ على زجاج نافذة الباب وينظرُ عبر الشارع. إنها تنظرُ إليّ. أبادلها نظرتها بأخرى طويلة ومُتمعِّنة دون أن أتأكَّد إن كانت هي أم لا.

تتراجعُ وتظهر فتاة أخرى تضغط أنفها على لوحِ الزجاج. ثم أخرى فأخرى. ومن ثم يتراجعون جميعاً إلى عمق المخزن.

هنا يستولي عليّ شعورٌ بالرعب، إنها هي. أنا متأكِّد الآن. ولكن لِمَ هم خجلون هكذا؟ أم أنهم خائفون مني؟

بلا أدنى شك إنَّ الخوفَ هو ما ينتابهم، فحين نظرتْ إليّ لم تبتسم. نظرتْ بإمعان لتتأكَّد من أني أنا، والدها. وليس شخصاً آخر.

فجأة أدركتُ كم يبدو مظهري مُخزياً. إنني أشعرُ بلحيتي التي تبدو أنها نمتْ بمقدار إنش. وأنظرُ إلى حذائي وإلى كُمَّي سترتي. اللعنة، يمكن الاعتقاد أيضاً أني خاطف.

خاطف! لعلَّ أمها أدخَلَتْ في خَلَدِها أنه إذا ما حدثَ وصادفتني في الشارع فعليها ألاّ تُنصتَ إلى ما أقولَ لها. " أسرعي بالعودة فوراً إلى البيت واخبري الماما! "

صُعِقتُ. أخذتُ أهبطُ الدرج، ببطء، متألِّماً، كمصابٍ بكسورٍ ورضوض. وحين وصلتُ إلى أسفل الشرفة فُتِحَ فجأة باب مخزن البقالة واسعاً وخرجتْ منه المجموعة كلها، الستة أو السبعة، وأخذوا يركضون وكأنَّ الشيطانَ نفسَهُ يطاردهم. وعند الناصية، وعلى الرغم من مرور السيارات السريع، انعطفوا بانحرافٍ وهرعوا قاصدين المنزل - "منزلنا". وخُيِّلَ إليّ أن طفلتي الصغيرة توقَّفت في منتصف الشارع - فقط برهةً من الزمن - وتلفَّتَتْ حولها. يمكن طبعاً أنها كانت إحدى الأخريات. وكل ما استطعتُ أن أتيقَّنُ منه أنها كانت ترتدي زي خادمة صغيرة مزيَّن بالفرو.

مشيتُ بخطى بطيئة حتى الناصية، توقَّفتُ هناك مدة دقيقة كاملة وأنا أحدِّقُ في اتجاههم، ثم سرتُ باتجاه محطة قطار النفق.

يا لها من مغامرةٍ قاسية! وكنتُ طوال الطريق حتى محطة النفق أُعنِّفُ نفسي على حماقتي. ما أفظع التفكير في أنَّ ابنتي أنا تخاف مني، وتفرُّ هاربةً من وجهي، مرعوبةً! يا لها من محاولةٍ مُخفِقةٍ!

في النفق أقف أمام الآلة الشقيّة. أبدو أشبه بمتسكّع، بمنبوذ. ما أفظع التفكير في أني قد لا أراها أبداً بعد الآن، وأنَّ ذلك قد يكون آخرَ انطباعٍ تحتفظ به عني! صورةَ والدها رابضاً عند ممرّ باب، يتجسَّسُ عليها كخاطف. إنه أشبه بمشهدٍ من فيلم رخيصٍ رديء الإخراج.

فجأةً تذكَّرتُ الوعد الذي قطعتُهُ لألريك - أن أُقابلَ مود لنحلَّ الأمور العالقة بيننا. الآن باتَ الأمرُ مستحيلاً، بل من رابع المستحيلات. لماذا؟ لا أدري. كل ما أعرفه هو أنه كذلك. ولن أرى مود بعد الآن، إذا كان الأمر بيدي. أما الصغيرة - فسوفَ أصلّي، نعم، أصلِّي لله، كي يمنحني فرصةً أخرى. يجب أن أراها وأتحدَّث إليها. ولكن متى؟ حسن، ذات يوم، ذات يوم حين ستغدو قادرةً على رؤية الأمور بوضوحٍ أشدّ. توسَّلتُ إلى الله كي لا يدعها تكرهني ... وفوق ذلك كله، ألاّ يدعها تخافني. ورحتُ أغمغمُ لنفسي " شيء فظيع، شيء فظيع. إنني أحبك حبا جماً، يا صغيرتي. أحبُّكِ حباً يفوق الوصف ... "

وصلَ القطارُ، وحين بدأت الأبواب تنفتح منزلقةً، أخذتُ أجهشُ بالبكاء. أخرجتُ منديلاً من جيبي وأقحمته فوق فمي. اندفعتُ راكضاً تقريباً إلى مدخل المحطة حيث اختبأتُ في إحدى الزوايا، متمنّياً أن يُغرِقَ ضجيجُ الدواليبِ الهادرِ نشيجي المتشنِّج.

لابد أني وقفتُ هناك بضع دقائق، لا أعي غير بؤسي الموجع، وإذا بي أشعرُ بيدٍ تضغطُ برفقٍ على كتفي. التفتُّ، وما أزالُ أضعُ المنديلَ على فمي، لأواجه امرأةً عجوزاً متَّشحةً بالسواد تنظرُ إليّ وترسمُ ابتسامةً مُشفقة.

بادرتْ بالقول، بصوتٍ ناعم، مُطَمْئِنْ، " عزيزي، عزيزي، ماذا ألمَّ بك؟ "

هنا، ودون مبالغة، أخذتُ أعوي. كانت الدموع تعميني، وكل ما استطعتُ أن أراه أمامي هو ضبابةٌ مُشفقة.

توسَّلتْ إليَّ " أرجوك، أرجوك، حاول أن تتحكَّم في نفسك! "

واصلت البكاء والنشيج. ثم توقَّفَ القطار، دخل بعضُ المسافرين وأحاطَ بنا الحشدُ حتى التصقنا بالباب.

سألتني " هل فقدتَ عزيزاً عليك؟ ". كان صوتها شديد الرقَّة، ومريحاً جداً.

أجبتها بهزّ رأسي نفياً.

مرةً أخرى شعرتُ بضغطِ يدها " أيها المسكين، العزيز، أنا أعرفُ ما الأمر "

أوشَكَتْ الأبوابُ أن تُغلَقُ، وفجأة رَمَيتُ المنديلَ، ورحتُ أشقُّ طريقي بين صفوف الحشد، وخرجتُ. ارتقيتُ الدرجَ بأقصى سرعة وأخذت أسير كمجنون. كانت قد بدأت تُمطِر. سرتُ تحت المطر مطأطأ الرأس، وأنا أضحك وأبكي. كنت أرتطمُ بالناس والناس يرتطمون بي. وسدَّدَ لي أحدهم ضربة قوية فأطاحَ بي وأنا أدورُ حول نفسي إلى بالوعة الشارع. ولم أزعج نفسي حتى بالالتفات، وواصلتُ طريقي منخفض الرأس، والمطر ينهمرُ غزيراً على ظهري. أردتُ أن أُنقَعُ حتى العظام. أردتُ أن أغسل عني كلَّ أثرٍ للإثم. نعم، هكذا عبَّرتُ عن شعوري لنفسي - أن أغسلَ عني كل أثرٍ للإثم. أردتُ أن أُنقَع حتى العظام، ثم أن أتلقَّى طعنة، ثم أن يُقذَفَ بي إلى البالوعة، ثم أن تسحقني شاحنةٌ ثقيلة، ثم أن أُطحَن حتى أطمَس، وأزول في العدم وإلى الأبد.

١٠

مع حدوثِ الانقلاب في حالةِ الجو بدأتْ مرحلةٌ جديدةٌ من وجودنا - ليس في الجنوب المشمس وإنما في قرية غرينتش. إنها مرحلةٌ جديدةٌ من الحياة التحت-أرضيّة.

إن إدارةَ حانةٍ غير مُرَّخَّص له، وهو ما نفعله الآن، والعيشَ فيها في الوقت نفسه، هي فكرةٌ من تلك الأفكار الغريبة التي لا يمكن أن تنشأ إلا في عقول أفرادٍ غير عمليين على الإطلاق.

إن وجهي يحمرُّ حياءً حين أفكّرُ في القصة التي لفَّقتُها لأتملّق المالَ الذي كان يلزمنا لافتتاح المحل من أمي.

ظاهرياً، أنا مدير هذا المربَعْ. وأنا أيضاً أعمل على خِدمة الموائد، وتلبية الطلبات الفوريّة، وأفرغُ القمامة، وأنقلُ رسائلَ شفهيّة، وأرتِّب الأسرَّة، وأنظِّف المنزل وبشكلٍ عام أجعلُ من نفسي ذا فائدة قَدْرَ الإمكان. (الشيء الوحيد الذي لم أتمكّن أبداً من فعله هو تخليص الغرف من الدخان. وكان لابد من إبقاء النوافذ مغلقة أثناء القيام بالعملٰيات لأسبابٍ ستُعرف قريباً) المكان - وهو شقة تحتانيّة نموذجيّة تقع في القطاع الفقير من منطقة" الفيليج " - يتألف من ثلاث غرف صغيرة، المطبخ هو إحداها. النوافذ مغطاة بستائر سميكة، بحيث أنَّ

النورَ حتى في وَضَح النهار كان نادراً ما يتسرَّب إليها. ومما لا شك فيه أنه إذا ما نجحَ المشروع فسوفَ نصاب بداء السلّ. إن هدفنا هو أن نفتحَ المحلَّ في المساء ونُقفلَ بعد مغادرةِ آخر زبون، أي ربما مع انبلاج الفجر.

إنني أدرك أني لن أتمكَّن من إنجاز أي قدرٍ من الكتابة هنا. سأكون محظوظاً إذا استطعتُ أن أجد وقتاً لأمدِّد ساقيَّ مرة واحدة في اليوم.

نحن لا نريد إلا لأصدقائنا المقرَّبين أن يعرفوا أننا نعيشُ هنا - وأننا متزوجان. يجب أن يبقى كل شيء طيِّ الكتمان. وهذا يعني أنه إذا ما رنَّ جرس الباب وتصادفَ أن كانت مونا خارج البيت، فعليَّ ألاّ أفتح، بل أن أجلس بهدوء في العتمة إلى أن يرحلَ ذلك الشخص. وإذا أمكنني أنظرُ خلسة إلى الخارج لأرى مَنْ الطارق - تحسُّباً. تحسُّباً لماذا؟ تحسُّباً إن كان مُخبراً أو جابي فواتير. أو أحد آخر العشاق، وأشدّهم جهلاً وجسارة ...

هذا، باختصار، هو الوضع. وأقصى ما سينالنا منه. وهذا ما أعرفه مسبقاً، الغيظ والقلق. وطبعاً مونا مفعمةٌ بأحلامٍ حول التقاعد خلال بضعة أشهر وشراء منزل في الريف. آمالُ كاذبةٌ. إلا أني شديد التشرُّب بها بحيث أصبحَتْ لديّ مناعةٌ ضدها. والطريقة الوحيدة لتفجير الفقاعة هي تحقيق المثل الأعلى. وأنا لدي سرب آخر من الأحلام، ولكن لدي من حسّ التقدير ما يجعلني أحتفظ بها تحت قبّعتي.

مذهلُ عددُ أصدقائنا، وكلهم وعدَ بأن يحضَرَ ليلة الافتتاح. وبعضهم ممَّن كنتُ بالكاد سمعتُ بأسمائهم - وكلهم من بطانة مونا - كانوا يساعدوننا في وضعِ الأمور في نصابها. وأكتشفُ أنَّ سدريك روس غندورُ يضع نظارة أُحاديّة العين ويتظاهر بأنه أخصائي في

الأمراض الحيوية؛ وأنَّ روبرتو دو ساندرا، وهو أحد " العشَّاق المتيَّمين "، طالبٌ تشيلي معروف بثرائه الفاحش؛ وجورج إنِّس، الفنان الذي ينخرط أحياناً في جلسات تعاطي الأفيون، هو مبارز ممتاز بالسيف؛ وجيم ديسكول، الذي شاهدته في الحَلَبَة، هو مصارعٌ ذو طموحات عقليّة؛ وتريفيليان، كاتبٌ إنكليزي ذو ماضٍ، يعيشُ خارج البلاد على أموال مُحَوَّلةٍ إليه من الوطن، وكاتشيكاتشي، الذي من المفترض أنَّ أبويه يملكان مقلعَ رخامٍ في إيطاليا، هو مهرِّج يميل إلى رواية حكايات لا تصدَّق.

ثم هناك باروني، أشدّ الجميع مُداهنةً، الذي ببساطة لا يستطيع أن يبذل ما يكفي من الجهد ليجعل المغامرة تنجح. وهو يُسمِّي نفسه مُعلناً دعائياً.

كم كانت دهشتي عظيمةً، عشيّة يوم الافتتاح، حين ظهرَ عاشقان عجوزان في وقتٍ واحد، وأي منهما لا يعرف الآخر، طبعاً. أقصد بقولي كاروثرز وذاك الرجل المدعو هاريس الذي كان قد دفع مبلغاً ضخماً من المال لكي يحظى بشرف خرقْ غشاء بكارة زوجتي. والآخر وصلَ في سيارة رولز رويس وهو يتأبَّط في كل ذراع فتاةَ كورس. وكان كاروثرز بدوره بصحبة فتاتين، وكلتاهما صديقة سابقة لمونا.

وطبعاً كان أصدقائي المقربون كلهم قد أقسموا على أن يأتوا في ليلة الافتتاح، بمَنْ فيهم أومارا الذي كان قد عاد لتوِّه من الجنوب. وتوقَّعتُ أيضاً قدوم كرومويل، الذي ربما ما كان ليمكث أكثر من بضع دقائق. أما روثرمل، فتحاولُ مونا أن تُقنعه بعدمِ الحضور - لأنه لا يكفُّ عن الثرثرة. وأتساءلُ إن كان شلدون سيظهر - بمحض المصادفة. ولا شك

في أن مليونيراً أو اثنين سيحضران - ربما صانع الأحذية، أو مَلِك الأخشاب.

هل سيتوفَّرُ لدينا ما يكفي من المشروبات؟ - هذا هو همُّنا الأول. لقد وَعَدَتْ مارجوري أن تَدَعَنا ننتقي ما نريد من مخزونها الخاص - كلما احتجنا.

التفاهم بيننا، أنا ومونا، هو على ما يلي - إذا ما تَصَادَفَ وثملَ أحدنا فعلى الآخر أن يبقى صاحياً. وطبعاً ليس أي منا فناناً سكيراً، ولكن سيّان ... المشكلة الكبرى ستكون - كيف نتخلّص من السكارى. سوف يُطبِّق رجال الشرطة على أعناقنا، فلا داعي لأن نخدع أنفسنا بهذا الشأن. التصرُّف الطبيعي، في مثل تلك الظروف، سيكون أن نضع مبلغاً من المال جانباً لشراء سكوتهم. لكن مونا واثقة من أنَّ في إمكاننا أن نحصل على حمايةٍ أفضل، وأقوى، هي فتحُ أحاديث حول أصدقاء روثرمل في منطقة المستنقعات - قضاة، سياسيون، أصحاب بنوك، أصحاب مصانع الذخيرة الحربيّة.

يا لذاك الروثرمل! إنني أتحرَّقُ شوقاً لأُلقي نظرةً عليه ...

ثمة تفصيل واحد صغير في المؤسسة الجديدة يعجبني بلا حدود ألا وهو صندوق الثلج. إنه مملوء بالأطايب، ويجب أن يبقى مملوءاً مهما حدث. إنني لا أكفُّ عن فتح البدعة اللعينة وأغلقها لمجرد أن أُملي بصري مما يحتويه من أطايب الطعام الرائعة المتنوعة. والخبز أيضاً ممتاز - خبز يهودي من الإيست سايد. وعندما يُصيبني الضجر أجلسُ وحدي وأستمتعُ بتناول وجبة سريعة خفيفة. وأي شيء أفضل من شطيرة كافيار بالخبز الأسمر المكسو بالزبد الحلو المذاق - في الساعة الثانية صباحاً؟

مع كأسٍ من التشابليس أو الرايسلنغ أختم بها، بلا أدنى شك. وقد أتوِّجُ هذا كله ربما بطبقٍ من الفريز العائم بالكريما الحامضة، أو إذا لم يكن فريزاً فعلّيقاً أو عنبيّة بأنواعها المختلفة. وأرى حلاوةً وبقلاوةً أيضاً. طيبة طيّبة! وعلى الرفّ هناك براندي الكرز، وقناني الستريغا، والبنديكتين، والشارتروز فرت. أما الويسكي - الذي عندنا منه أنواعُ متنوعة - فلا يثير شهيتي. والبيرة كذلك. البيرة والويسكي - أتركهما للكلاب c'est-a-dire-les clients (أي - للزبائن العابرين).

ألاحظُ أيضاً أنَّ عندنا مخزوناً ممتازاً من السيجار، وكله من النوع المُنتقَى بعناية. مُخصَّص للزبائن الأصفياء - أقصد، الهافانا الأصلي. لكني أيضاً أستطيع أن أستغني عنه. ولكي يستمتعَ المرءُ بتدخين سيجار يجب أن يكون في حالةِ سلامٍ مع العالم، هذا هو انتقادي. على أي حال، أنا واثق من أن الزبائن المختارين سوف يحشون جيوبي بها.

كلا، لن ينقصنا الطعام والشراب، هذا أمرٌ مؤكَّد. ولكن ماذا عن التريُّض، واستنشاق الهواء المنعش ...؟ إنني منذ الآن أشعرُ بالوَهَن والسقم.

بصراحة، إنَّ كل ما ينقصنا هو مسجَّلة النقد. وتخيَّلتُني أهرعُ في كل يوم إلى المصرف حاملاً حقيبة كبيرة ملآى بالأوراق المالية والقطع النقدية ...

نجحتُ ليلةَ الافتتاح نجاحاً ساحقاً. وجمعنا ما يقارب الخمسمائة دولار. وللمرة الأولى في حياتي كنتُ حقاً قذراً بما معي من مال: كل جيب، بما فيها جيوب صدرتي، كان محشواً بالأوراق الماليّة. وكاروثرز، الذي وصلَ مع فتاتين جديدتين هذه المرة، تبوَّلَ ما مقداره مائة دولار وهو

يدفع تكاليف ما أكل أصدقاؤه كلهم وشربوا. وحضر أيضاً اثنان من أصحاب الملايين، لكنهم نأيا بنفسيهما عن الآخرين وغادرا باكراً. وستيف روميرو، الذي لم أكن قد قابلته منذ زمن بعيد، ظهر مع زوجته، وبدا صحيحاً كعهده دائماً، ثوراً أسبانياً قلباً وقالباً. ومن ستيف حصلتُ على فيضٍ من الحكايات عن أصدقاء الشركة العالمية الشيطانية. واضحُ أنَّ معظمهم ما زال يعمل فيها، وكلهم، علاوةً على ذلك، يتظاهرون بالاتِّضاع ليتدبَّروا أمورهم. وأسعدني أن أسمع أن سبيفاك سقط عنه امتيازه، ونُقِلَ إلى مكانٍ تافه في جنوب داكوتا. وعلمتُ أن هيمي قد أصبح وكيل شركة تأمين؛ وسوف يأتيني قريباً ذات ليلة، ذات ليلة هادئة لنتمكَّن من تبادل حديثٍ شجيٍّ، نحن الثلاثة. أما كوستيغان، ذو البرجميّة، اللوطي المسكين فقد أُودِعَ مصحاً للأمراض المزمنة - بعد أن أُصيبَ فجأة بحالة سلّ تستفحل باطِّراد.

قرابة منتصف الليل وصلَ ماكغريغور، وشرِبَ ملءَ بضعِ كؤوسٍ على حسابِ المحلّ، وغادر في الحال. لم يُثِر اهتمامه قط. قال إنه لا يفهم كيف يمكن لرجلٍ بذكائه أن يُعجَب بمعتوهٍ مثلي. " إنه أكسل من أن ينخرط في عملٍ ثابتٍ لكنه لا يمانع في أن يقدِّم المشروبات طوال الليل... ها ها! ها ها! ". وعند مغادرته أقحمَ في يدي بطاقته. " إذا وقعتَ في ورطةٍ، تذكَّر، أنا محامٍ. إياك أن تلجأ إلى أحد أولئك المحامين المشبوهين الذين ينهالون عليك بالوعود! "

أبلغَنا كلٌّ واحدٍ من الموجودين لدى مغادرته أنه إذا ما أرسلَ أياً من أصدقائه إلينا فعليه أن يعطي كلمة السرّ: Fratres Semper (أخوة إلى الأبد). (وطبعاً لم يتذكَّر أحدُ العبارة). وحذَّرنا أيضاً كل واحد

على حِدَة مرة أخرى من أن يَركُنَ سيارَتَه على مسافةٍ تبعدُ عن المحل بمقدار بناية أو اثنتين.

أول ما اكتشفتُهُ في العمل الجديد هو أنه شاقّ على الأقدام - وعلى العيون. فالدخان كان لا يُحتَمَل؛ وبحلول منتصف الليل تصبح عيناي أشبه بجمرتين مشتعلتين. وعندما كنا أخيراً نأوى إلى السرير ونتدثر بالملاءات تبقى رائحة البيرة والنبيذ والتبغ هي الغالبة. وبالإضافة إلى الدخان والخمر أعتقد أني كنتُ أتبيَّن عبقَ رائحةِ أقدامٍ قوي. غير أننا كنا نغيب في الحال في نومٍ عميق. وأثناء النوم أظلُّ أقدِّم المشروبات والشطائر، وأظلُّ أعطي بقية القطع النقدية للزبائن.

كنتُ أنوي أن أستيقظ من النوم عند ظهيرة اليوم التالي، لكني حين خرجتُ أترنَّحُ من السرير كانت الساعة قد قاربت الرابعة، وأنا ميّت أكثر مني حيّ. وبدا المرْبعُ أشبه بحُطام كوكب الزهرة.

قلت أستحثُها " يُستحسَن أن تخرجي وتتمشّي بعد أن تُنهي تناول إفطارك، وسوفَ أُحضِّرُ لنفسي شيئاً أتناوله حالما أُرتِّبُ المكان قليلاً ".

استغرقَ مني خَلقُ مجرَّد ما يشبه النظام نحو ساعةٍ ونصف ولكني بعد ذلك كنتُ من فرط الإرهاق بحيثُ طرحتُ عني فكرةَ تحضيرِ وجبةَ إفطارٍ لنفسي. صَبَبْتُ لنفسي كأساً من عصير البرتقال، وأشعلتُ سيجارة، وانتظرتُ عودة مونا. سوف يتوافدُ الزبائنُ بين دقيقةٍ وأخرى. خُيِّلَ إليّ أنَّ آخرهم لم يمضِ على مغادرته أكثر من بضع دقائق. وكان الظلام قد أخذ يسود تواً في الخارج.

الغُرَفُ كانت ما تزال تفوحُ بعبق الدخان البائت والمشروبات البائتة. أخذتُ أفتح النوافذ وأغلقها بحركةٍ متواترة لأخلقَ تياراً جارياً. فلم

ينلني غير نوبة سعالٍ تمزِّقُ الصدر. ولم يبق أمامي إلا المرحاض ألجأ إليه. فأخذتُ عصير البرتقال معي، وجلستُ على كرسي المرحاض، ثم أشعلتُ سيجارة أخرى. كنتُ مُستنزفاً.

في الحال سمعتُ طرقاً على باب المرحاض. إنها مونا، طبعاً.

صرختْ " ماذا ألمَّ بكَ؟ ". بقيتُ جالساً، والكأسُ في إحدى يديّ، والسيجارة في الأخرى.

قلت " إنني أرتاحُ. ثم إن تيار الهواء قوي في الخارج "

" ارتدِ ملابسَك واخرج وتمشَّ طويلاً. جاء دوري الآن. تركتُ لك بعض الفطائر والحلوى. وحين تعود سأعدُّ لك إفطاراً "

زعقتُ " إفطار؟ أتدرين كم الساعة الآن؟ الآن موعد وجبة العشاء، وليس الإفطار؟ يا إلهي، إن حالي مضطرب تماماً "

" سوفَ تتعوَّد. الجو جميل في الخارج ... أسرع! إنه رخيّ ومنعش. كأنه ربيعٌ ثان "

تهيَّأتُ للخروج. بدا لي أنَّ من الجنون أن أخرجَ في نزهةٍ صباحيّة في وقتٍ بدأ فيه القمرُ يسطعُ.

فجأة خطرَ لي خاطر. " أتدرين؟ لقد فات أوان التوجُّه إلى المصرف"

" المصرف؟ ". وراحت تحدِّقُ إليَّ بنظرةٍ جوفاء.

" المصرف، نعم! حيثُ يجب إيداع النقود التي حصدناها "

" أوه، تقصد تلك! لقد نسيتُ النقود تماماً "

" كنتُ أعلمُ أنك نسيتِ أمرها. إنها عادتك "

" هيا، وابدأ نزهتك. في وسعكَ أن تودِعَ المال غداً – أو بعد غد. لن يذوب "

أخذتُ أتمشّى وأنا أتلمّسُ النقود. إنها تستفزّني. وأخيراً، وكلصٍّ محترف رحتُ أبحثُ عن ركنٍ هادئ أُفرِغُ فيه حملي. هل قلتُ إنَّ المبلغَ يُقاربُ الخمسمائة دولار؟ لقد كان في حوزتي أكثر من خمسمائة! وكنتُ من فرط التيه بحيثُ كدتُ أهرع عائداً لأريه لمونا.

لكني بدلَ أن أركض تابعتُ سيري المُتّئد الهادئ. ومرَّتْ عليّ برهةٌ قصيرة نسيتُ خلالها أني كنتُ أبحثُ عن طعام للفطور. وبعد قليل قرَّرتُ أني في حالةِ انتباهٍ حادّة، ووقفتُ في ظلّ منزلٍ مهجور وأخرجتُ النقودَ من جديد من جيبي. هذه المرة عدّدْتُها بعناية فائقة جداً، كما يقال. فبلغَ عددها بالضبط خمسمائة وثلاثة وأربعين دولاراً وتسعة وستين سنتاً. صُعِقتُ. وانتابني الخوف أيضاً، وأنا أتمشّى هكذا في الظلام وفي عهدتي مبلغ بهذا المقدار. قلتُ في نفسي، الأفضل أن تنتقل إلى الأضواء الساطعة. مُدَّ خُطاكَ، يا رجل، وإلا وثبَ عليكَ أحدهم بغتةً من الخلف!

المال! ويتحدَّثونَ عن البنزدرين[١٢٩] ... بدل أن تعطيني حقنة في ذراعي هاتني نقوداً في أي وقت!

حافظتُ على خُطاي الحثيثة. لم تكن قدماي تلمسان الأرض: كنت أنسابُ وكأنما أجري على مزلجة، وكانت عيناي منتبهتين بشدَّة، وأذناي مائلتين بزاوية حادَّة إلى الخلف حتى التصقنا بحافّتيّ رأسي. كنتُ من شدَّة الشعور بالدوار، وفي حالةٍ من النشاط الكامل، بحيث كان في إمكاني أن أعُدَّ حتى المليون وبالعكس دون أن أُخطئ في عدد واحد.

أخذَ إحساسي بالجوع يتفاقم باطّراد؛ كان جوعاً قاهراً. انطلقتُ أقفزُ

---

١٢٩ – البنزدرين : عقار منبّه ومُنشّط . – المترجم

ككلبٍ متَّجهاً رأساً إلى المربَعْ، وإحدى يديّ مضغوطة على جيب صدري حيثُ أخفيتُ محفظة النقود. لائحة طعامي كانت معروفة مسبقاً وتتألّف من: عجّة خفيفة مع سمك السلمون المُدخَّن، وقدرٍ من الجبن القشدي والمربى، وبعض الأرغفة اليهودية الملفوفة مع حبوب الطيور والمدهونة بالزبد الحلو المذاق، والقهوة والكريما الطازجة المُكثَّفة، وطبقٍ من ثمار الفريز مع الكريما الحامضة أو بدونها ...

على الباب الأمامي عثرتُ على المفتاح الذي كنتُ قد نسيته فيه. ضغطتُ على زر الجرس، وكان لعابي يسيلُ من تفكيري في الفطور المُرتقب. واستغرقَ من مونا عدة دقائق لتجيب على رنين الجرس. جاءت إلى الباب، وهي تضعُ إصبعها على شفتيها. " ششششش! روثرمل في الداخل. يريد أن يتحدَّث معي على انفراد. عُد بعد نحو ساعة "، فرجعتُ على عقبيّ.

كانت ساعة وجبة العشاء - بالنسبة إلى الأناس العاديين - قد فاتت وانقضَتْ بينما أنا أصبو إلى وجبة إفطارٍ. وبدافعٍ من يأسٍ ذهبت إلى إحدى عربات تقديم الطعام وطلبتُ بيضاً مع لحم خنزير. وبعد أن تناولته رحتُ أتمشّى حتى ساحة واشنطن، ثم جلستُ على أحد المقاعد وأخذتُ أُراقبُ حالماً الحمائمَ وهي تلتهمُ فُتات الخبز. واقتربَ شحاذٌ مني ودون تفكيرٍ أعطيتُهُ دولاراً كاملاً. وكان من فَرطِ الذهولِ بحيث أنه ظلّ واقفاً في مكانه، أمامي مباشرةً، وهو يتفحَّصُ ورقة الدولار وكأنها ورقة نقدية مُزيّفة. وحين اقتنعَ أخيراً بأنها أصليّة شكَرَني بحرارة ومن ثم - وكعصفور دوري - قفزَ مبتعداً.

قتلتُ ساعةً بأكملها وزدْتُها قبل أن أعود - وذلك لكي أتيقَّن من

أنَّ الساحةَ قد خَلَتْ. والكلماتُ الأولى التي حيَّتني بها كانت: " اذهب واحضر بعض الثلج ". فعدتُ أدراجي أبحثُ عن ثلج.

أخذتُ أتساءلُ " متى سيبدأ نهاري؟ "

قمتُ بجولةٍ استطلاعيّة بحثاً عن بائعِ الثلج. كان يقطن في قبو بالقرب من ساحة آبنغتن. كان وحشاً بولونياً ضخم الجثّة. قال إنه حاولَ مرتين أن يسلِّمنا الثلج ولكن لم يردّ أحد على رنين جرس الباب. ثم أخذ يُقلِّبُ نظره فيَّ، وكأنه يقول - " كيف سيحمله إلى المنزل؟ ". وكان لسان حاله واضحاً - بل واضحاً وضوح الكريستال - ومفاده أن لا نيَّة لديه في مساعدتي على توصيله للمرة الثالثة.

مع وجود ميزة الخمسمائة دولار في جيبي لم أرَ مانعاً من طلب سيارة أجرة لتقلّني أنا والثلج ...

خلال رحلة العودة القصيرة إلى المنزل استرجعتُ بعضاً من الذكريات الغريبة، ولا علاقةَ لها مطلقاً بما أنا فيه. على أي حال لقد مَثُلَ في مخيّلتي، بأشدّ وضوحٍ وحيويّة، السيد ماير، وهو صديقٌ قديم لوالديّ. كان جالساً على أعلى الدرج ينتظر أن يرحِّب بنا. بدا تماماً كما كنت قد عرفته وأنا صبي في الثامنة أو التاسعة من عمري. الآن فقط أدركتُ ما لم أكُن قط أتوقَّعه حينئذ - أنه كان يمثِّل نسخة عن " غَصّ الكئيب " في المسلسل الهزلي.

تصافحنا، تبادلنا التحيات، ودخلنا. الآن تظهر زوجة السيد ماير في الصورة. إنها خارجة من المطبخ إلينا، وتمسح يديها بمئزرها الناصع البياض. امرأة ضئيلة الجسم، هشّة البنية، مرتّبَة، هادئة ومنظَّمة. تتحدَّث مع والديّ بالألمانيّة، بلغةٍ ألمانيّة أشدّ صقلاً، وإمتاعاً للسماع،

من التي تعوَّدت أن أسمعها في المنزل. وما أراني غير قادر على تحمُّله هو أنها كبيرة جداً في السن بحيث تصلُح أن تكون أُمَّ السيد ماير. إنهما يقفان هناك متشابكي الذراعين، تماماً كأمٍّ وابنها. وفي حقيقة الأمر أنها كانت حماة السيد ماير قبل أن تتزوَّج منه. نعم، إن تلك الحقيقة انطبعتْ عميقاً في نفسي، حتى وأنا ولدٌ صغير. وكانت ابنتها، كيتي، صبيّةٌ جميلةٌ. وكان السيد ماير قد وقعَ صريع حبّ الابنة وتزوَّجها. وبعد ذلك بسنة توفِّيَت كيتي، بهدوءٍ وبسرعةٍ. وكانت صدمة السيد ماير فادحة، ولم يتغلَّب عليها. ولكن بعد مرور سنة أخرى تزوَّج من أم زوجته. وعلى الرغم من كل شيء سارت حياتهما على أحسن ما يرام. هذا، باختصار، كان الوضع. ولكن كان هناك شيء آخر مُتَّصِل بهذه الذكرى ترَكَ لديّ أثراً أعمق. إذ لا أدري لماذا كلما كنا نزور آل ماير ينتابني اعتقادٌ راسخٌ بأني سبَقَ أن جَلَسْتُ في غرفةِ جلوسِهِمْ على كرسيٍ عالٍ وألقيتُ أبياتاً شِعريّة بالألمانيّة، بينما كان هناك فوقي، في قفصٍ قريبٍ من النافذة، عندليبٌ يغرِّد. وكانت أمي دائماً تُصِرُّ على أنَّ هذا أمرٌ مستحيل. " لابد أنَّ هذا وقَعَ في مكانٍ آخر، يا هنري! ". ومع ذلك في كل مرة كنا نزور آل ماير كنتُ أتوجَّه غريزياً إلى بقعة معيَّنة في غرفة الجلوس، حيث كان قفص الطائر مُعلَّقاً ذات مرة. وأحاولُ أن أعيد تركيب المشهد الأصلي. وحتى يومنا هذا، يكفيني أن أغمض عينيّ وأُركِّز، حتى أتمكَّن من بعث الحياة في تلك اللحظة الراسخة في ذاكرتي.

على أي حال، وكما يقول ستريندبرغ في كتابه inferno (الجحيم) - " لا شيء أبغض على نفسي من رأس عجل مطبوخ بالزبد الأسمر "، وكانت السيدة ماير دائماً تقدِّم مع تلك الوجبات الجزَرَ الأبيض. وقد

كَرِهْتُ الجَزَرَ الأبيَضَ منذ البداية، خاصّةً ذلك المطبوخ بالزبد. وكلما تذوّقت واحدة منها الآن أتخيَّلُ السيد ماير جالساً قبالتي على رأس المائدة، وقسمات وجهه ملتوية في تعبيرٍ عن الإذعان الكئيب. وكانت أمي دائماً تقولُ إنه رجلٌ مثال للطيبة، والهدوء، والاهتمام بالآخرين ومراعاة شعورهم. أما بالنسبة إليّ فكان دائماً يفوحُ برائحة القبور. لم أره مرةً في حياتي يبتسم. وكانت عيناه البنّيّتان دائماً تسبحان في دهنٍ كئيب. كان يُبدِّدُ وقته في الجلوس لا يأتي بأي حركة ووجهه خالٍ من أي تعبير ويداه متشابكتين في حجره. وعندما يتكلّم كان صوته يبدو وكأنه آتٍ من أبعد نقطةٍ وأعمق أعماق الأرض. لابد أنه كان هكذا حتى وهو في حالةِ حبٍ مع كيتي، ابنة زوجته.

آه، ولكنه كان حقاً رجلاً غريب الأطوار! مسالماً وهادئاً كما بدتْ حياتهما العائليّة. وذات يوم اختفى صاحب هذه الروح الكئيبة. لم يترك كلمة واحدة وراءه، ولا أي أثر. وطبعاً، ظنَّ الجميعُ أنه انتحرَ. إلا أنا. فقد رأيتُ عندئذ، وما أزالُ، أنه ببساطةٍ أراد أن ينفرد بحزنه. والشيء الوحيد الذي أخذه معه كان صورةً فوتوغرافيّة لحبيبته كيتي كانت موضوعة على طاولة الزينة. لم يأخذ معه أي قطعة ملابس ... ولا حتى منديل.

ذكرى غريبة. تبِعَتْها على الفور أخرى، ولا تقُلّ عنها غرابة. هذه المرة الذِكْرى تتعلّقُ بعمّتي، تلك التي تزوجت عمّي ديف. عمتي ميللي مضطجعة على أريكةٍ في وسط الغرفة، أي صالونهم، وأنا جالس على مقعد أمام آلة بيانو، على بُعد قَدَمٍ أو قدمين منها، وفي حجري لُفافةٌ ضخمةٌ من نوتات الموسيقى. (كانت والدتي قد أرسلتني إلى نيويورك

لكي أعزف لعمتي ميللي التي تحتضر متأثِّرةً بمرض السرطان) ولعمَّتي ميللي، مثل أخوات أبي كلّهُنَّ، طبيعة عذبة، جميلة. أسألها ماذا تريد مني أن أعزف لها. فتقول - " أي شيء ". ألتقطُ حزمةً من النوتات - "فالس زهر البرتقال " -وأعزفه لها. وحين أستدير أراها تحدِّق إليّ مع ابتسامةٍ تُجَمِّلُ وجهها. وتقول " جميلٌ، يا هنري. هلاّ عزفتَ لي مقطوعة أخرى؟ " فأختارُ مقطوعةَ " إنذار حريق منتصف الليل "، وأعزفها. ومرة أخرى تنفحني بنظرة الاستحسان الدافئة نفسها، ومناشدة المتابعة نفسها. وأُراجعُ مخزوني الموسيقي بأكمله -" سباق العربات "، " الشاعر والفلاح "، " حريق روما "، الخ. أي عبثٍ في أن أواصلَ العزف لشخصٍ يحتضر متأثِّراً بمرض السرطان! لكن عمتي ميللي منتشية. إنها تعتقد أني عبقري. وتهمسُ لي حين أهمُّ بالمغادرة " سوف تغدو ذات يوم موسيقياً عظيماً "

عند هذه النقطة تتوقَّفُ السيارة وتُفرِغُ الثلج. العبقري! (" il est l'afiection et l'avenir "). إنها الساعة الثامنة مساءً والعبقري بالكاد بدأ عملَ يومه - يقدِّم المشروبات والشطائر. إلا أني في مزاجٍ طيِّب. وهذه الحوادث الغريبة الشكل من الماضي الدافئ تعملُ، بصورة ما، على إيقاظ تفكيري في أني ما أزالُ كاتباً. ربما لا يتوفَّرُ لي الوقت اللازم الآن لتدوينها على الورق، لكني سأفعلُ ذات يوم.

(الآن مرَّت عشرون سنة على ذلك. والـ " عبقري " لا ينسى أبداً. ("il est l'amour et l'eternite")

إنني مُلزَمٌ بالمرور خلال الغُرَف مرَّتين حاملاً قالباً من الثلج على كتفي. ويبدو هذا للزبائن - وعليّ أن أنقل ثمانية قوالب أو عشراً -

أمراً مسلّياً. ويتبرَّع أحدُهُم بمساعدتي. إنه باروني، رجل الدعاية. يقول إنه يجب أن يُجري معي قريباً حديثاً طويلاً. يشتري لي مشروباً كي يُعزِّز الاتفاق. ونقفُ هناك في المطبخ نتسامرُ بالحديث، وعيناي مُثبَّتتان على بقعةٍ تقعُ مباشرةً فوق رأسه حيث ألصقتُ صورةً لابنتي، يبدو فيها رأسها مُزَيَّناً بقلنسوة صغيرة مُزَخرفة بالفرو. ويواصلُ باروني حديثه الرتيب. وأومئ برأسي وأنفحه بين حينٍ وآخر ابتسامةً. تُرى ماذا تفعل في هذه اللحظة؟ هل تكون قد أوت إلى فراشها الآن؟ ومود، أعتقد أنها ما زالت تتمرَّن كالمجنونة على العزف. ليست[130]، دائماً ليست، لتحافظ على مرونة أصابعها ... أحدهم يطلب شطيرة بسطرما على خبز الجودار. وعلى الفور يغوصُ باروني في صندوق الثلج ويُخرِجِ البسطرما. ثم يُقَطِّعُ الخبزَ شرائح. وما أزال أركِّز على البقعة عينها.

يتناهى إلى سَمْعي عن بُعد صوتُهُ يخبرني أنه يجب أن يلعبَ معي الشطرنج ذات أمسية. فأومأتُ بشرودٍ وأعددتُ لنفسي شطيرة أخذتُ أقضمُ منها بين رشفاتٍ من الدوبونيه.

هنا أبرزتْ مونا رأسها. تريد أن تُخبرني أنَّ جورج إنّس يودُّ أن يتبادلَ معي بضع كلمات - حين يتوفَّرُ لدي الوقت لذلك. إنه يجلسُ في غرفة النوم مع صديقه روبرتو، الشيلي.

أسألُها " ماذا يريد؟ لماذا يريد الجميع أن يتكلَّمَ معي أنا؟ "

" أعتقد لأنك كاتب " (يا له من جواب!)

في أحد الأركان، بالقرب من النافذة الأمامية، وقفَ كلٌ من تريفيليان وكاتشيكاتشي يتداولان. يدور بينهما نقاش عاصف.

---

١٣٠ - فرانتز ليست (١٨١١ - ١٨٨٦) : موسيقي هنغاري المولد ، وعازف بيانو شهير . - المترجم

لتريفيليان قسمات صقر. والثاني أشبه ببهلوان في إحدى الأوبرات الإيطالية. غريبٌ أن يتخادَنَ هذا الزوج.

في ركنٍ آخرَ جلسَ مانويل سيغفريد وسيدريك روس، العاشقان المنبوذان. كلٌ منهما يرنو إلى الآخر بحزن. والآن تدخل مارجوري قفزاً، وذراعها مُثقَلة باللفائف. وعلى الفور يشعُّ جوٌ من البهجة. وفي غضونِ بضع دقائق، كقطارٍ يدخلُ تباعاً، يصلُ نِد، ثم أومارا، ثم ألريك نفسه. إنها روح النادي القديم، ماذا! .Frates Semper!

يتعرَّفُ كلُ إلى جاره. ويتحدثُ الجميع دفعةً واحدة. ويشربون! هذا هو عملي، أن أسهرَ على ألاّ يظلُّ أحد دونَ كأس ممتلئ. وبين حين وآخر أجلسُ وأتبادلُ حديثاً قصيراً مع أحدهم. ولكن أشد ما يمتعني هو خدمة الزبائن، والركضُ جيئة وذهاباً، أن أُشعِلَ لهم سيجارهم، وأُحضِرَ الوجبات السريعة، وأفتح القناني، وأُفرغ المرامد، وأُمضي سحابةَ النهار معهم وما إلى ذلك. إنَّ النشاط المتواصل يُتيحُ لي أن أستمتع بأفكاري الخاصة. يبدو أني مُقدِمٌ على تأليف كتابٍ ضخمٍ آخر في رأسي. إنني أدرسُ الحواجب، وانحناءة الشَفَة، والقَسَمات، ورنين الصوت. وكأني أتدرَّبُ على أداءِ مسرحية والزبائن يرتجلون. وفي طريقي إلى المطبخ ألتقطُ مقطعاً صغيراً، فأُحوِّله إلى جملةٍ، وفقرةٍ، وصفحة. وإذا طرحَ أحدهم سؤالاً على جاره أقومُ أنا بالإجابة نيابة عنه - في رأسي. والنتائج مضحكة، مثيرةٌ حقاً. وبين الفينة والأخرى أتناولُ شيئاً من المشروب أو شطيرة أخرى خلسة.

المطبخ هو عالمي. هناك أسترسلُ في الحلم بكامل ممرات المصير والمصادفة.

يقولُ ألريك، مبدياً اهتمامه بي عند المغسلة، " حسنٌ، هنري، كيف الحال؟ هذا نخبُ نجاحك! "، ويرفعُ كأسه ويجرعه دفعةً واحدة. " نوعية جيدة! يجب أن تعطيني لاحقاً عنوان مموِّلك السرِّي ". ونشرب معاً كأساً صغيراً بينما أُحَضِّرُ طَلَبَين. ويقول " يا إلهي، إن مظهركَ وأنتَ تُمسكُ سكينَ القَطْع هذه بيدك يبدو مضحكاً جداً "

أُعَلِّقُ قائلاً " لا بأسَ بها من طريقةٍ لتزجيةِ الوقت. إنها تمنحني فرصةً للتفكير فيما سأكتبه ذات يوم "

" لا أظنُّكَ جاداً! "

" طبعاً أنا جادٌ. إنَّ مَنْ يُعِدُّ هذه الشطائر ليس أنا - بل شخصٌ آخر. إنه كالمشي أثناء النوم ... ما رأيك بقطعةٍ كبيرةٍ من سُجُق السالامي؟ والزيتون اليوناني، ما رأيك! لو كنتُ مجرَّد ساقٍ في حانةٍ لكان حالي بائساً "

يقول " هنري، أنت لا يمكن أن تكون بائساً مهما فعلتَ. سوف تجد دائماً الحياة مثيرةٌ للاهتمام، حتى وأنت في أسوأ حال. أنت في الحقيقة أشبه بمتسلِّقي الجبال الذين، حين يسقطون في صدعٍ صخريٍّ عميقٍ، يرون النجومَ تتلألأ فوق رؤوسهم. وفي وَضَح النهار. إنك ترى النجومَ حيث لا يرى الآخرون غير ثآليل ورؤوس سوداء "

رسمَ لي ابتسامةً من تلك الابتسامات الرقيقة، العارفة، ثم فجأةً اتَّخذَ سحنةً جدِّيةً، وباشرَ قائلاً " لقد رأيتُ أنَّ عليَّ أن أخبركَ شيئاً عن ند. لا أَدري إن كان قد أخبرك، لكنه مؤخَّراً فَقَدَ عمله. بسبب الخمر. إنه لا يحتملُ الوضع. أُخبركَ بهذا لكي تنتبه إليه. إنه، كما تعلم، يفضِّلُكَ على العالم كله، ولعلَّه سيتردَّد عليك هنا كثيراً. حاوِلْ ألاَّ يغيبَ عن نظرك، ممكن؟ إنَّ الكحولَ بمثابة السُّم له ... "

ثم أردفَ " بالمناسبة، ما رأيك في أن أُحْضِرَ مجموعةَ الشطرنج معي ذات أمسية؟ أقصد، بعد أن تهدأ الأمورُ قليلاً. سوف تأتي ليالٍ لن يظهرَ فيها أحد. اتَّصل بي هاتفياً. وبالمناسبة كنتُ أقرأ ذلك الكتاب الذي أعرتنيه - الذي يدور حول تاريخ اللعبة. كتابٌ مذهل. يجب أن نذهب معاً ذات يوم إلى المتحف ونحصل على كتابٍ يدور حول رُقَع الشطرنج في العصور الوسيطة، هه؟ "

قلتُ " حتماً، إذا ما نجحنا ذات مرةً في الاستيقاظ عند الظهيرة! "

أخذَ أصدقائي يتسرَّبون، واحداً بعد آخر، إلى المطبخ لكي يتسامرون معي. وكثيراً ما كانوا يخدمون الزبائن نيابة عني. وأحياناً كان الزبائن يأتون إلى المطبخ بأنفسهم ليطلبوا مشروباً، أو فقط ليروا ما الذي يجري.

طبعاً، استقرَّ أومارا في المطبخ، وأخذ يتحدَّثُ بلا توقُّف عن مغامراته في الجنوب المُشمس. ورأى أنه ربما من الأفضل لنا، نحن الثلاثة، أن نعود إلى هناك ونبدأ حياتنا من جديد. وقال " من المؤسف أنه لا يوجد لديك هنا سريرٌ إضافي ". ثم هرشَ رأسه مفكراً. " ما رأيك في أن نضمَّ طاولتين معاً ونمدَّ عليهما فرشة؟ "

" لاحقاً، ربما "

قال أومارا " حتماً، حتماً، في أي وقت. إنها مجرَّد فكرة. على أي حال، يُسعدني أن أراك من جديد. سوف يعجبك الجنوب، حيث الهواء الرخيّ، النظيف، قبل أي شيء ... أما هنا فمحضُ حُثالة! يا خسارة ذاك المكان الآخر! بالمناسبة، هل ما زلت ترى ذاك المجنون - ذكِّرني باسمه؟ "

" تقصد شلدون؟ "

" نعم، شلدون، هو بعينه. سوف يظهرُ من جديد، فقط انتظر! أتعلم ماذا يفعلون بمخبولٍ كهذا هناك في الجنوب؟ يقبضون عليه من مِقْعَدَةِ سرواله ويرمونه - أو يعدمونه بلا محاكمة "

ثم يتابعُ، وهو يقبضُ عليَّ من كُمِّ ذراعي، " بالمناسبة، مَنْ تلك السيدة الجالسة في الركن هناك؟ ألا طلبتَ منها أن تنضم إلينا؟ لم أحظَ بمضاجعة جيدة منذ أسبوعين وحتى الآن. أهي يهودية؟ هذا لا يعني أن الأمر يهمّني ... إلا أنَّهنَّ يتشبَّثن بك كثيراً، أنت تفهم ما أقصد "، وضحك ضحكةً قصيرة قذرة وشرب جرعة من البراندي.

" هنري، يجب أن أخبرك ذات يوم عن الفتيات اللواتي غرَّرتُ بهنَّ هناك. كان الأمرُ أشبه بالخروج من " تاريخ الأخلاقيات الأوروبيّة ". إحداهن، كانت تمتلكُ منزلاً كبيراً على الطراز الكولونيالي وحاشيةً من الخدم، كادت تُعلِّقني مدى الحياة، وأوشكْتُ أيضاً أن أقعَ في حبِّها - إلى هذا الحد كانت جميلة - حدثَ ذلك في بيتسبرغ. في تشاتانوغا التقيتُ مصادفةً بعاهرةٍ مهووسة. أخذت تمتصّني حتى كادت تهلكني. وأؤكِّد لك أنهن جميعاً غريبات الأطوار. وقد أمدَّنا فوكنر[١٣١] بكل المعلومات الهامة عنهنَّ، وهي صحيحة. إنهنَّ مملوءات بالموت - أو ما شابه. وأسوأ ما في الأمر أنهنَّ يدلِّلنكَ. لقد دلَّلنني حتى كدتُ أموت. لهذا عدتُ. يجب أن أقوم بعملٍ ما. يا إلهي، لكنَّ نيويورك تبدو أشبه بمعرض الجثث! لابد أنَّ الناسَ مجانين حتى يقبلوا أن يمكثوا هناك طوال حياتهم ... "

١٣١ - وليم فوكنر (١٨٩٧ - ١٩٦٢) ؛ روائي أميركي . له " أبشالوم ، يا أبشالوم! " . - المترجم

أرسلتْ الفتاة الجالسة في الرُكن، والتي لم يُزِح عينيه عنها، إشارةً. فقال " عن إذنك يا هنري. لقد تمَّ الأمر "، وانطلقَ مسرعاً.

بدأتْ الأمور تأخذ منحى مثيراً حين بدأ آرثر ريموند يتردَّد علينا بانتظام. عادةً يكون بصُحبةِ صديقِهِ الحميم، سْبَدْ جيسون، وألاميدا، "عشيقة " هذا الأخير. ولم يكن شيء أعزّ على نفس آرثر ريموند أكثر من النقاش والجدال، وأيضاً، إذا أمكن، أن يُكمِل هذه الجلسات على رقعة الأرض، فيتزاحمون ويتشابكون بالأذرع. فلا شيء كان يُمتِعُهُ أكثرَ من أن يلويَ ذراعَ أحدهم أو أن يَخْلَعْها من تجويفها. وكان معبوده هو جيم دريسكول، الذي كان مؤخَّراً قد أصبحَ مُحترفاً. ربما سببُ ولهِهُ به يعود إلى أنَّ جيم دريسكول كان ذات يومٍ قد درَسَ ليغدو عازفَ أرغن.

كما كنتُ أقول، كان آرثر ريموند دائماً متلهِّفاً لإثارةِ المتاعب. فإذا فشلَ في إغراءِ الآخرين في الدخولِ معه في نقاشٍ وجدالٍ عاد إلى رفيقه سْبَدْ جيسون. وهذا الأخير كان بوهيمياً قلباً وقالباً، ورساماً ذا موهبة فائقة، وقد بدأ يُصيبُهُ الوهن. كان دائماً مستعداً للتخلِّي عن عمله لأقلّ عذر. وكان مكانُ سُكناه، الذي يتمرَّغ فيه مع نافثةِ اللهبِ الصغيرة، ألاميدا، في الملذات، زريبة خنازير، حيث يمكن للمرءِ أن يَدُقّ على بابه في أي ساعة من النهار أو الليل. وكان طباخاً ممتازاً، ودائماً طَلقْ المُحيا، وسهل الانقياد لأي اقتراحٍ أو عرضٍ، مهما كان غريباً. وكان دائماً يحمل بعض النقود ويُقرضها بسخاء.

لم تكن مونا ترى في سْبَدْ أي شيء يثيرُ الاهتمام. وكانت تمتعض من " العاهرة الأسبانية الحقيرة "، كما وصفت ألاميدا. إلا أنهما كانا يجلبان معهما ثلاثة زبائن آخرين أو أربعة. وكان زبائن معيَّنون يغادرون

حالما تصل هذه العُصبة - توني مورر، مثلاً، ومانويل سيغفريد وسدريك روس. ومن ناحية أخرى، كان كاتشيكاتشي وتريفيليان، دائماً يرحّبان بهما ترحيباً حاراً. فبالنسبة إليهما كان ذلك يعني مشروبات مجانية وشيئاً من الطعام. ثم أنهما كانا يستمتعان بالنقاش والجدال. وكانوا يجدون في ذلك متعةً بالغة.

كان في استطاعة كاتشيكاتشي، وهو يتّخذ وِقفة فلورانسي، مع أنه لم يزُر إيطاليا منذ أن كان في عمر سنتين، أن يروي حكايات رائعة عن الفلورانسيين العظام - وكلها مَحْضُ تلفيق، بلا أدنى شك. وبعض هذه الحكايات كان يكررها، مع إجراءِ بعض التعديلات والتوسُّعات، يتوقّف مداها على استغراق المستمعين إليه.

كانت إحدى تلك " التلفيقات " تتناولُ قصة إنسان آليّ من القرن الثاني عشر، اخترعه عالمٌ من القرون الوسطى لم يتذكّر اسمه قط. وكان كاتشيكاتشي، في الأصل، يحب أن يصف هذا المسخ الميكانيكي (الذي كان يصرُّ على أنه خُنثى) بأنه أشبه بكادحٍ لا يكلُّ، قادر على أداء كافة أنواع المهام الوضيعة، بل إنَّ بعضها مضحك. ولكن أثناء مواصلته زخرفة القصة، يأخذ الإنسانُ الآليّ - الذي كان دائماً يشير إليه باسم بيكوديريبيبي - يتلبَّسُ تدريجياً قِوى ونزعات، أقلّ ما يُقالُ فيها أنها مذهلةٌ. فمثلاً، بعد أن تعلَّمَ بيكوديريبيبي تقليد الصوت الإنساني، علّمه سيّده بعض الفنون والعلوم التي يمكن للسيد أن يفيد منها- وعلّمه حِفْظ الأوزان والمقاييس، والنظريات واللوغاريتمات، وحسابات فَلَكيّة معيَّنة، وأسماء ومواقع الأبراج في أي فصل على مدى السبعمائة سنة السابقة. وعلّمه أيضاً كيفيّة استخدام المنشار، والمطرقة والإزميل،

والبوصلة، والسيف والرمح، بالإضافة إلى آلات موسيقية بدائية معيَّنة، وعليه فإنَّ بيكوديريبيبي لم يكن فقط نوعاً من femme de menage (مدبِّرة منزل)، وضابط نظام وخُلاصة وافية للمعلومات المفيدة، وإنما روحُ مُطَمْئنة يمكنه أن يهدهد سيده بألحانٍ غريبةٍ بالنمط الدوري[١٣٢] Doric حتى يستغرق في النوم. إلا أنَّ هذا البيكوديريبيبي، وكببغاء موضوع في قفص، تربى لديه ولعٌ بالكلام فاقَ الحدود جميعاً. وأحياناً كان يَصْعُبُ على سيدهِ أن يبزّ هذه النزعة البغيضة. وكان هذا الإنسان الآلي، الذي تعلَّمَ إلقاءَ قصائد مطوَّلة باللاتينيّة، واليونانيّة، والعبريّة وبلغاتٍ أخرى، يدخل في خَلَده أحياناً أن يُلقي كلَّ مخزونهِ دون توقُّف لالتقاط أنفاسه، وطبعاً دون أن يأخُذَ في اعتبارهِ راحةَ بال سيده. وبما أن التعبَ بالنسبة إليه لم يكن له أي معنى، كان أحياناً يظلُّ يكرُّ بهذا الشكل العقيم، المعصوم عن الخطأ، والأوزان والمقاييس ولوائح اللوغاريتمات، والتواريخ والأرقام الفَلَكيّة، الخ، حتى يصلَ الأمرُ بسيّده إلى أن يستشيطَ فيه الغضبُ والتوتُّر، ويفرّ هارباً من المنزل. ومع مرور الوقت أخذت تظهر جوانب شاذَة غريبة. فبوصفه خبيراً في فن الدفاع عن النفس، كان بيكوديريبيبي يستدرجُ ضيوفَ السيدِ إلى الشجارِ لأوهى استفزاز، فيكيلُ لهم الضرب والرفسَ كما في لعبة القناني الخشبيّة، ويُسبِّبُ لهم الرضوض والكدمات بلا رحمة. ولا تَقِلُّ عن ذلك إحراجاً عادتُه التي اكتسبها من الانضمام إلى النقاش، إذ فجأة يأخذ بإرباك الطلاب المتفوقين الذين جاءوا ليجلسوا تحت قدمي السيد وذلك بطرح أسئلة معقَّدة، على شكل أحاجي لا حلَّ لها حتماً.

---

١٣٢ – الدوري: إشارة إلى لهجة يونانية قديمة. – المترجم

وشيئاً فشيئاً، أخذَتْ الغيرةُ تأكلُ قلبَ سيِّد بيكوديريبيبي من مخلوقه. وما أثارَ غيظَهُ قبل أي شيء، ويا للغرابة، كونَ الإنسانِ الآليِّ لا يناله التعب. فقدرة هذا الأخير على العمل على مدار الأربع والعشرين ساعة، وموهبتُهُ في الكمال، وإنْ كان عقيماً، والسهولة والسرعة اللتان كان ينتقل بهما من مهارةٍ فذَّةٍ إلى أخرى - هذه المزايا والكفاءات كلها سرعان ما حَوَّلتْ " الأبله "، كما كان قد بدأ يُسمِّي اختراعَه، إلى مصدرِ تهديدٍ ومُثارِ تهكُّم. ولم يعُد هناك أيُّ عملٍ يعجَزُ " الأبلهُ " عن القيامِ به بشكلٍ أفضل من السيد نفسه. ولم يبقَ إلا عددٍ ضئيلٍ من القُدُرات لا يملكها المسخ، لكن السيِّد نفسَهُ لم يكن فخوراً كثيراً بتلك الوظائف الحيوانيّة. وكان جليّاً أنه إذا أرادَ حقاً أن يستعيدَ هدوءَ باله، فليس أمامه إلا عملٌ واحد يقومُ به - أن يدمِّرَ المخلوقَ النفيسَ! غيرَ أنه كان يمقت أن يفعل ذلك. لقد استغرقَ منه تركيبُ المسخِ وتشغيلُهُ عشرين عاماً. ولم يكن هناك في أي مكان آخر من العالم كله ما يعادل ذلك الأبله اللعين. وفوق ذلك، لم يعد يذكر العمليات الغامضة، والمعقَّدة، والصعبة، التي أدَّتْ إلى إثمار جهوده. وقد كان بيكوديريبيبي ينافسُ من النواحي كافة الكائن الذي هو صورة زائفة عنه. صحيح أنه لم يكن قادراً على أن ينسلَ مخلوقاً من نوعه، لكنه، وكأمثاله من المسوخِ والمخلوقات الشاذة عن البذرة الإنسانيّة، كان دون أدنى شك يتركُ في ذاكرة الإنسان صورة مزعجة ولا تنسى.

وصلَ وضعُ العالِمْ الكبير إلى هذا المأزق العويص حتى كاَد يفقُدُ صوابَه. ولما عجِزَ عن تدميرِ اختراعه، أخذ يعصرُ ذهنه لكي يخرج بقرارٍ حول كيف يصادره وأين يضعه. وفكَّرَ في أول الأمر في أن يدفنه في

الحديقة، وهو داخل تابوت من جديد. بل لقد فكَّرَ في عَزْلِه في دير. لكنَّ الخوفَ، الخوفَ من الخسارة، والخوفَ من أن يتكسَّر أو يتلف، شلَّه. وأخذ يتبدَّى له بجلاءٍ مطَّرِدٍ أنه ما دام قد أخرج بيكوديريبيبي إلى الوجود، فعليه أن يتعايشُ معه إلى الأبد. وألفى نفسه يتدبَّر في وسيلةٍ ليُدفَنا معاً، سراً، عندما تحين ساعتهما. فكرة غريبة! إنَّ فكرةَ أن يأخذَ معه إلى القبر مخلوقاً ليس حياً، ومع ذلك أكثر حياة منه هو، أرعبته. كان مقتنعاً بأن هذا المخلوق المعجزة، الذي جَلَبَه إلى الوجود، سوف يشكِّلُ، حتى في العالم الآخر، مصدرَ بلاءٍ له، وربما يستولي على امتيازاته السماوية. وبدأ يدركُ أنَّه بانتحالهِ قُدُرات الخالق إنما حرَمَ نفسه من النعمة التي يمنحها الموت حتى لأشدِّ المؤمنين تواضعاً. شعَرَ أنه أشبه بظلٍ ينتقلُ بسرعةٍ وإلى الأبد بين عالمين - وأن مخلوقَهُ يلاحقه. ولما كان دائماً رجلاً تقيّاً، فإنه أخذ يُصلِّي مطوِّلاً وبحماسةٍ علَّه يتوصَّل إلى قرار سديد. ركعَ عللا ركبتيه وتوسَّلَ إلى الله كي يتشفَّعَ له، كي يرفع عن كاهله عبء المسؤولية المرْبع الذي تنكَّبه بتهوُّر. لكنَّ العليَّ القدير تجاهلَ توسلاته.

أخيراً اضطرَّ وهو ذليلٌ، وفي حالة من اليأس التام، إلى أن يستغيث بالبابا. فقام برحلةٍ مع رفيقِهِ الغريبِ الأطوارِ سيراً على الأقدام - من فلورنسا إلى أفينيون. ومع وصوله إلى هناك كان قد تجمَّعَ في إثره حشدٌ غفيرٍ من الناس. وبالكاد نجا من الرجم بالحجارة حتى الموت، وذلك لأنَّ أوروبا برمَّتها كانت عندئذ مُدركةً أنَّ الشيطانَ بعينِهِ كان يسعى لمزاحمةِ قداسة البابا في شعبيته. غير أنَّ البابا نفسَهُ كان إنساناً مثقفاً وضليعاً في أعمال السحر والتنجيم، وبذلَ جهوداً مُضنية كي

يحمي هذا الحاجَّ الغريب الأطوار وخليقَتَه. وقد أُشيعَ أن قداسَتَهُ كان ينوي أن يتبنَّى بنفسه المسخ، حتى وإن كانَ السببُ الوحيدُ لذلك هو أن يجعلَ منه مسيحياً صالحاً. واستقبل البابا، مصحوباً فقط بكاردينالِه المفضَّل، العالِمَ التائبَ، والقاصر الغامض، في غرفته الخاصة. ولا أحد يعرفُ ماذا حدثَ خلال فترة خلوتهم التي امتدَّت أربع ساعات ونصف. وكانت نتيجتها، إذا صحَّت تسميتها كذلك، أنه تقرَّرَ أنه بعد يوم من موت العالِمْ ميتةً عنيفةً ستُحرَق جثته علناً ثم يُنثَر رماده sous le Pont d'Avignon (تحت جسر أفينيون).

عند هذه النقطة من الحكاية سكتَ كاتشيكاتشي عن الكلام المباح، في انتظارِ طرحِ السؤال الذي لا مفرٌّ منه - " وماذا حدثَ لبيكوديريبيبي؟ ". رسمَ كاتشيكاتشي على وجهه ابتسامةً مُغرية غامضة، ورفعَ كأسه الفارغة بشكلٍ جذابٍ، وسعلَ، وتنحنحَ، وقبل أن يتابع روايته، سأل إنْ كان يمكنُهُ أن يحصل على شطيرةٍ أخرى.

" بيكوديريبيبي! آه، هاأنتم تسألونني سؤالاً هاماً! هل قرأ أحدكم مؤلفات أوكَّام[١٣٣] - أو " الأوراق الخاصة " لألبرتوس ماغنوس[١٣٤]؟ "

غنيٌّ عن القول أنَّ لا أحدَ منا قرأهما.

لَمّا كان السؤالُ بلاغياً مَحْضاً، تابع قائلاً " إننا نسمع بين حينٍ وآخر عن وحشٍ بحري يظهرُ قبَالة شواطئ لابرادور أو في مكانٍ ناءٍ آخر. فماذا تقولون إذا ما أُعلِنَ أن مسْخَاً إنسانياً عجيباً قد شوهد يحوم في أرجاء غابة شروود؟ في الواقع، إن بيكوديريبيبي لم يكن الأوَّلَ من

١٣٣ - وليم أوكّام (توفي نحو عام ١٣٤٩) : فيلسوف إنكليزي إسماني ؛ والإسمانيّة مذهبٌ فلسفيٌ يقول بأن المفاهيم المجرَّدة لا وجود لها ، وأنها مجرد أسماء . - المترجم

١٣٤ - ألبرتوس ماغنوس (١١٩٣ - ١٢٨٠) : راهب دومينيكاني ، وفيلسوف مدرسي . ألماني . - المترجم

نوعِه. حتى في العهود المصريّة القديمة كانت تدور أساطير تشهدُ على وجود مخلوقات شبه بشرية أو أناس آليين، كما نسمِّيهم اليوم، صَنَعَها سَحَرَةُ الأزمان الغابرة. إلا أنَّه لا وجودَ لأي سجلاّت تبيِّن دمارَ هذه المُسوخ صنيعة الإنسان. في الحقيقة، إنَّ المصدرَ الوحيدَ الذي بين أيدينا حولَ الموضوع يُفضي إلى النتيجة المُذهلَة القائلَة إنَّ تلك المسوخ كانَتْ دائماً تنجحُ في الهروبِ من بين أيدي سادتها ... "

هنا، مرة أخرى، سكتَ كاتشيكاتشي عن الكلام وأخذَ يتلفَّتُ حوله مُستَفْسِراً.

ثم تابعَ " إنني لا أدَّعي أنَّ هذا صحيح، ولكنْ ثمة دليلاً جديراً بالاحترام يدعمُ وِجْهَةَ النظرِ القائلة إنَّ هذه المخلوقات الشيطانية ما زالت تواصلُ وجودها الشاذّ في بقعةٍ نائيةٍ لا يمكن بلوغها من العالم. وفي الواقع، من المحتمل كثيراً أنها الآن قد أسَّست مستعمرة حقيقية. ولمَ لا؟ وهي لا تعترف بالزمن، ومنيعةٌ ضدَّ الأمراض - ولا تعرفُ ما هو الموت. وهي، على غِرار ذلك الحكيم الذي تحدَّى الاسكندر الأكبر، يمكنها بحقّ أن تتباهى بأنها خالدة. وبعضُ العلماء يؤكِّدون أنَّ تلك الرُفات الضائعة والخالدة لعلها أوجَدَتْ لنفسها الآن أسلوبها الفريد في التواصل - وأنها، أيضاً، تعلَّمَتْ حتى كيف تتناسلُ، آليّاً، طبعاً. ويعتقدون أنه إذا كان المخلوق الإنساني قد نشأ من الحيوان الأخرس فلمَ لا يكونُ الأمرُ نفسُهُ قد حصلَ للمخلوقات المصنوعة سابقاً - وفي وقتٍ أقلّ؟ إن الإنسانَ في سلوكِه هذا لا يقلُّ إبهاماً عن الله. وكذا حال عالمِ الأحياء. وكذا أيضاً حالُ العالم اللا حيّ، إذا ما فكَّرنا فيه مليّاً. وإذا كانت تلك المخلوقات الآليّة تتمتَّعُ بالحكمةِ والبراعة بحيث تهربُ من

سادتها اليقظين، من حالة عبوديَّتها الرهيبة، فلمَ لا تتمتَّعُ بالقدرة على أن تحمي نفسها دائماً، وأَن تختلطُ مع أشباهها، وتتزايدُ وتتكاثرُ؟ مَنْ يستطيعُ أن يؤكِّد أنه لا توجد في مكانٍ ما على هذا الكوكب قرية لا تُصدَّق - وربما مدينة رائعة! - لا تسكنها إلا هذه العيّنات العديمة الروح والحسّ، والتي كثير منها مُعمِّر أكثر من أضخم أشجار السَكْويّة[١٣٥]؟

" لكني لا أنفكُّ أنسى أمر بيكوديريبيبي ... وفي اليوم الذي انتهى فيه سيده نهايةً مُفجعةً اختفى هو. وجرى البحثُ عنه في طول البلاد وعرضها، ولكن عبثاً. لم يعثروا له على أثر. وكانت تَرِدُ بين حين وآخر تقاريرُ عن ميتاتٍ غامضةٍ، عن حوادث وكوارث لا تفسيرَ لها. نُسِبَتْ كلها إلى واقعةِ اختفاءِ بيكوديريبيبي. واضطُهِدَ العديدُ من العلماء، ووُضِعَ بعضهم على الخازوق، ظنّاً بأنهم قد أخفوا المسخ. بل لقد أُشيعَ أن البابا قد أمرَ بصُنعِ" نسخةٍ مطابقةٍ " لبيكوديريبيبي، وأنه قام بالاستعانة بتلك النسخة المزوَّرة منه للقيام بأعمالٍ خفيّة وغامضة. وكلها إشاعات وتخمينات، أؤكدُ لكم. ولكن الحقيقة هي أنَّ هناك أوصافاً لأناسٍ آليين آخرين متعاصرين بشكلٍ أو بآخر مُودَعَةً تضاعيف محفوظات الفاتيكان؛ إلا أنَّ أياً منها لم يكن يمتلك شيئاً من مدى عمل بيكوديريبيبي. ونحن اليوم لدينا، طبعاً، كافة أصناف الأناس الآليين، وأحدهم، كما تعلمون، يستنشق أولى نفحات الحياة، إذا صحَّ التعبير، من إشعاعِ نجمٍ ناء. ولو أنَّ ذلك كان ممكنَ الحدوثِ في أوائل العصور الوسطى، فتصوَّروا، حاولوا أن تتصوَّروا، حجمَ الفوضى التي كانت ستنجم. لكان المخترعُ اتُّهِمَ باستخدام السحر الأسود. ولكان أُحرِقَ على

١٣٥ - شجرة السَكْويّة : فصيلة صنوبرية من الأشجار التي يصلُ علوها إلى ثلاثمائة قدم ، وتنبت في كاليفورنيا . - المترجم

الخازوق، أليس كذلك؟ ولكن ربما كانَ قد أسفرَ عن نتيجة أخرى، حصيلةٌ أخرى، مذهلة وشريرة في آن. وربما ما كنا نستخدمُ اليوم الخَدَمَ الذين يستعينون بالنجوم، عِوَضاً عن الآلات. وربما كان عملُ العالم كله أُنجِزَ برُمَّته بواسطة هؤلاء العبيد الخبيرين، التوّاقين إلى العمل ... "

هنا سكتَ كاتشيكاتشي فجأةً، وابتسمَ كأنما أصابه ذهولٌ، ثم انطلقَ فجأةً قائلاً: " ومَنْ ذا الذي سينهضُ ليَعْتِقَهُم؟ إنكم تضحكون. ولكن ألسنا نعتبر الآلات عبيداً لنا؟ ألسنا نعاني من هذه العلاقة الزائفة بقدر ما عانى سَحَرَةُ الزمنِ الغابرِ من أُناسِهِمْ الآليين؟ إن خلفَ رغبتنا المُتجذِّرة عميقاً في التهرُّب من أداء العمل الشاقّ يكمنُ توقٌ إلى الجنة. إن الجنَّة بالنسبة إلى إنسان هذه الأيام تعني ليس فقط انعتاقاً من الإثم وإنما انعتاقاً من العمل، لأنَّ العملَ أضحى شيئاً بغيضاً ومُهيناً. فحينَ أكلَ الإنسانُ من شجرةِ المعرفةِ اختار أن يعثرَ على طريقٍ مختصرةٍ إلى الألوهيَّة. حاولَ أن يسلبَ الخالقَ سرَّه المقدس، الذي رأى فيه قوةً طاغيةً. فماذا كانت النتيجة؟ الإثم، والمرض، والموت. حروبٌ متواصلةٌ، واضطرابٌ لا ينتهي. إنَّ حصيلتنا القليلة من المعرفة نستخدمها لتدمير أنفسنا. ونحنُ لا نعرفُ كيفَ نتجنَّبُ طغيان المسوخ المُريحة التي أوجدناها. إننا نُضلِّل أنفسنا حين نعتقد أننا سنستمتع ذات يوم، بواسطتها، بالراحة والسعادة، في حين أنَّ كل ما ننجزه، في الحقيقة، هو أن نخلق لأنفسنا مزيداً من العمل، والأسى، والعداوة، والمرض، والموت. إننا باختراعاتنا واكتشافاتنا البارعة إنما نعملُ شيئاً فشيئاً على تغيير وجه الأرض – إلى أن تتشوَّه تماماً من شدة قُبحها، وإلى أن تغدو الحياة ذاتها لا تُحتَمَل ... وذلك الشعاع الخالد من النور استطاعَ أن يؤثِّر على

مخلوقٍ غير إنساني، فلِمَ لا يفعلْ الشيء نفسه معنا؟ ما بالنا، مع كل ما في السماوات من نجوم تغدق طاقاتها المُشعَّة علينا، وبكل ما تمدَّنا به الشمس والقمر والكواكب كافّة من عون، ما زلنا غارقين في الظلام والإحباط؟ لماذا نَبْلَى بسرعةٍ كبيرة، مع أنَّ العناصرَ التي تكوِّنُنا غير قابلة للفناء؟ ما الذي يُسبِّبُ اضمحلالنا؟ إنَّ السببَ لا يكمُنُ في المادة التي تُكونُنا، هذا مؤكَّد. إننا نذوي ونتلاشى، نفنى، لأنَّ رغبتنا في الحياة تنطفئ. ولماذا تخبو هذه الشُعلة الشديدة الفعاليّة؟ بسبب قلَّة الإيمان. فحالما نولدُ يخبروننا أننا فانون. وما أن نبدأ بفهم معنى الكلمات حتى يُعلِّموننا أنَّ علينا أن نقتل لكي نعيش. ويذكِّروننا بمناسبةٍ ودون مناسبة بأننا كيفما عشنا، بذكاءٍ، بعقلانيّة، أم بحكمةٍ، فسوف نمرض ثم نموت. إننا نتشرَّبُ فكرة الموت منذ مولدنا تقريباً. فهل موتنا هو عجيبةُ العجائب؟ "

أخذ كاتشيكاتشي نَفَساً عميقاً. كان يكافحُ ليُعبِّرَ عن أمرٍ ما، أمرٍ يمكن القولُ إنه يفوقُ أي كلام. كان جلياً أنَّ الحماسةَ قد جَرَفَتْهُ أثناء روايته حكايته. حتى أنَّ المرءَ كان يشعرُ أنه يحاولُ أن يُقنِعَ نفسَهُ بأمرٍ ما. وقد ترك لديَّ انطباعاً بأنه كان قد حكى الحكاية مراراً - وذلك لكي يتوصَّل إلى نتيجةٍ تتجاوزُ حدود فهمه. لعلَّه كان يعرفُ، في قرارته، أنَّ للحكاية مغزى يراوغه لمجرَّد أنه يفتقر إلى الشجاعة لمتابعتها حتى النهاية. قد يكون الإنسان راوي قصص، أو مُخرِّفاً[١٣٦]، أو كذَّاباً على طول الخط، ولكن في كل خيال وزيف يكمن جوهرٌ من الحقيقة. وبهذا المعنى كان مخترع بيكوديريبيبي، أيضاً، راوي قصص. لقد اخترعَ خرافةً

١٣٦ - المُخَرِّف: هو الذي يحكي الخرافات على ألسنة الحيوانات. ويُطلَقُ أيضاً على الكذَّاب. - المترجم

أو أسطورةً آلياً بدلَ أن يفعل شفهياً. واحتالَ على أحاسيسنا مثلما يفعلُ أي راوي قصص. ومع ذلك ...

قال كاتشيكاتشي، هذه المرة بجديّةٍ وبكل ما استطاعَ حشده من صدقٍ، " أحياناً أقتنعُ بأنّه لا أملَ للبشريةِ في الخلاص إلا إذا قطعنا صِلَتنا تماماً بالماضي. أقصد، إلا إذا بدأنا نفكّر ونعيشُ بأسلوبٍ مختلف. أعرفُ أنَّ هذا الكلام يبدو مبتذلاً ... لقد قيل آلاف المرّات من قبل ودون نتيجة. إنني في الواقع لا أكفُّ عن التفكير في الشموس الضخمة التي تحيطُ بنا، وتلك المجموعات الشمسية الهائلة المنتشرة في السماوات ولا أحدَ يعرفُ عنها شيئاً، فيما عدا أنها موجودة. ومن المُعتَرَف به أننا نستمدُّ من أحدها قُوتَنَا. والبعضُ يعتبرُ أن القمرَ يشكّلُ عاملاً حيوياً في وجودنا الأرضي. ويتحدَّثُ آخرون عن التأثيرِ المفيدِ أو المؤذي للكواكب. ولكن، إذا كففتُم عن التفكير، فإن كل شيء - وعندما أقول كل شيء فأنا أعني ما أقولُ حرفيّاً! - أمَرئياً كان أم خفيّاً، معروفاً أم مجهولاً، حيويُ لوجودنا. إننا نعيشُ وسطَ شبكةٍ من القِوى المغناطيسية النشطة دائماً، وبطُرُقٍ متنوعةٍ لا تُحصى وعصيَّة على الوصف. ولم نبتكر أياً منها بأنفسنا. وقليلٌ منها فقط تَعَلَّمنا كيف نُسَخِّرَه، كيف نستغلّه. ونحن منفوخون من فرط الشعور بالفخر بإنجازاتنا الحقيرة. ولكن حتى أشجع سَحَرَتنا الأقدمين، وأشدّهم فخراً، خليقٌ بأن يسلّم بأنَّ ما نعرفه لا يُذكَر إذا ما قورن بما لا نعرفه. أتوسَّلُ إليكم، توقفوا برهة وفكروا! هل بينكم هنا مَنْ يؤمن بصدقٍ بأننا سوف نتوصَّلُ ذات يوم إلى معرفةِ كل شيء؟ بل أكثر من ذلك ... أسألكم بكل إخلاص - أتعتقدون أنَّ خلاصَنا يعتمدُ على المعرفة؟ لنفرض للحظة

فقط أنَّ العقلَ الإنسانيَّ قادر على أن يُتخِمْ أنسجته الغامضة بالكمّ الإجمالي للعمليات السرّية التي تحكم الكون، فماذا عندئذ؟ نعم، ماذا عندئذ؟ ماذا سنفعل، نحن البشر، بهذه المعرفة المذهلة؟ ماذا سنستطيعُ أن نفعل؟ هل سألتم أنفسكم هذا السؤال؟ يبدو أنَّ الجميعَ يُسلِّمون بأن تراكُمَ المعرفةِ أمرٌ جيد. ولا أحد يقول - " وماذا سأفعلُ بها بعدما أحصِّلُها؟ ". لم يعد أحد يجرؤ على الإيمان بأنَّ من الممكن، خلال ردحٍ قصيرٍ من الزمن، أن يكتسبَ حتى نتفة صغيرة من الكمّ الهائل من المعرفة الإنسانية الموجودة حالياً ..."

نوبة تنفُّسٍ أخرى. كنا على أتمّ الاستعداد مُسلَّحين بقنينةٍ هذه المرة. وكان كاتشيكاتشي يكدحُ. كان يخرجُ عن خط روايته. إذ لم تكن المعرفةُ، أو الافتقار إليها، هي التي تُثيرُ قلقه العارم. كنتُ على وعيٍ بالجهد الصامت الذي كان يبذله لكي يقتفي خُطاه الأولى؛ كنتُ أشعرُ به يتلمَّسُ حوله في كفاحه للعودة إلى الخط الرئيسي.

" الإيمان! كنت أتحدث عن الإيمان قبل قليل، لقد فقدناه. فقدناه كلَّه. أقصد، الإيمان بأي شيء. ومع ذلك فالإيمان هو الشيء الوحيد الذي يعيشُ الإنسانُ به. لا المعرفة، التي من المُعتَرَف به أنها نبعٌ لا ينضب وتغدو في نهاية المطاف عقيمةً ومُدمِّرةً. أما الإيمان. الإيمان أيضاً لا ينضب مَعينُه. هكذا كان الحالُ دائماً، وهكذا سيظلُّ أبداً. إنَّ الإيمان هو الذي يُلهِمُ بالإنجازات العظيمة، الإيمان يتغلَّبُ على العقبات - ودون مبالغة يعملُ على تحريك الجبال، كما يقولُ الكتابُ المقدس. ولكن الإيمان بماذا؟ فقط الإيمان. الإيمان هو كل شيء، إن شئتُم. ولعلَّ الكلمةَ الأفضل منها هي القبول المُطلق. لكن القبول بكل شيء أصعبُ على الفهم حتى

من الإيمان. فـأنتَ حـالما تلفظُ الكلمـةَ تجدُ مَنْ يسـألك: " وقـبـول الشـر أيضـاً؟ " فـإذا قلتَ نعم، فـإنكَ بهـذا تُغلِق الطريق. ويضـحكون عليـك بارتباك، وتُنبّذ كمجذوم. إن الخيرَ، كما تعرفون، مسألةٌ فيهـا نظر، أما الشـرّ - وهذه مـفـارقـةٌ - الشـرُّ، على الرغم من أننا لا ننفكُّ نكافحُ للقضاء عليه، مُسلَّمٌ به. لا أحد يشكُّ في وجودِ الشرّ، مع أنه ليس أكثر من كلمةٍ مجرَّدة تعبِّر عن ذاك الذي على الدوام يُبدِّل صفته والذي، عند تحليله عن قُرب، غـالباً ما يـتَّضح أنه خير. لا أحد مستعد لقبول الشر بمعناه الظاهري. فـهو كذلك، وليس كذلك. إن العـقلَ يرفضُ أن يقْبَلَه بلا تحفُّظ. فـهو بحقٍ يبدو كمـا هو موجـود ثم إذا به يتـحـوَّل إلى نقيـضـه. وأبسط طريقة لتحقيقِ هذا وأقربها هي، طبعاً، قبوله. ولكن هل هناك مَنْ يتَّصف بما يكفي من الحكمة ليتبنَّى مثل هذا المسار؟

" إنني مرة أخرى أفكِّر في بيكوديريبيبي. فهل كـان في مظهره أو وجوده أي شيء" شرير "؟ ومع ذلك كـان العالمُ الذي وُجِدَ فيه ينظُر إليـه برعبٍ، واعـتبـره بمثابة انتـهـاكٍ للطبيعـة. ولكن ألا يُعـتَبَـر الإنسـان ذاته انتـهاكـاً للطبيعة؟ لو كـان في استطاعـتنا أن نشكِّل بيكوديريبيبي آخر، أو حتى واحداً أكثر إعـجازاً في أدائـه، أما كنا ابتـهجنا؟ ولكن مـاذا لو أننا بدلَ أن نخرجَ بإنسـانٍ آليّ أكثر إعـجازاً، وجدنا أنفسنا فـجأة أمام مخلوقٍ آدميّ حقـيـقي يتـفـوَّقُ تفـوُّقـاً بمـيّزاته على مميزاتنا نحن، حـتى ليكادُ يـكون إلهـاً؟ أؤكِّـد لكم أنَّ هذا سؤالٌ افـتـراضيٌّ، ومع ذلك يـوجدُ، ولطالما وُجِدَ، أفـرادٌ يؤكِّـدون، ويلحُّون في التـأكـيـد، رغـمـاً عن العـقـل والسـخـرية، على أنهم شاهدوا مـثل تلك المخلوقـات العُلويّة. وفي وسعنا جمـيـعـاً أن نسـتـدعـي أسمـاءً. من ناحيـتـي، أفـضِّلُ أن أُفكِّر في مـخلوقٍ

أسطوري، بشخصٍ لم يسمع أحدٌ به أو يراه، أو سيعرفه في هذه الحياة. باختصار، شخص يمكن أن يوجَدَ ويحقِّقَ الإنجازات التي أتحدَّثُ عنها..."

هنا كان كاتشيكاتشي قد استطردَ. واضطرَّ للاعتراف بأنه لا يدري ما الذي حثَّه على أنْ يقولَ مثل هذا الكلام، ولا إلامَ كان يهدفُ. وظلَّ يحكُّ رأسه ويغمغم مرة بعد أخرى:" غريبٌ، غريب، لكني أحسب أن لديَّ شيئاً هنا "

فجأةً شعَّ وجهه بالفرح. " أه نعم، الآن عرفتُ. فهمتُ. اسمعوا ... لنفرض أنَّ هذا المخلوق، المُعتَرَف عالمياً بأنه متفوِّق علينا من النواحي كافّة، خاطبَ العالمَ قائلاً ما يلي:" توقَّفوا حيث أنتم، أيها الرجال والنساء، وانتبهوا إليّ. إنكم تسيرون على الطريق الخطأ؛ تتوجَّهون نحو دماركم ". ولنفرض أن البلايين المنتشرين في الكرة الأرضيّة كلها والذين يشكِّلون الإنسانية قد تركوا أعمالهم وأنصتوا. حتى وإن لم يقُلْ هذا المخلوق شبه الإله أكثر مما أنطَقْتُهُ لتوي، فما هو في اعتقادكم الأثر الذي سيخلِّفه؟ هل توقَّفَ العالم برُمَّته ولو مرة واحدة ليُنصِت في انسجامٍ إلى كلمات حكيمة؟ تصوَّروا، إن استطعتم، صمتاً عميقاً، تاماً، والآذان كلها منتبهة لتتلقَّى الكلمات المشؤومة! فهل سيكونُ من الضروري أن ينطِقَ الكلمات؟ ألا تتصوَّرون أنَّ كلَّ إنسانٍ، في قرارة قلبه، سيُدلي بالجواب بنفسه؟ ليس هناك إلا جواب واحد تتوقُ الإنسانيّة إلى الإدلاء به - ويمكن نطقه بمقطعٍ لفظيٍّ صغير واحد: الحب. إن تلك الكلمة الصغيرة، تلك الفكرة الجبارة، ذاك الفعل المستمرّ، الإيجابي، الواضح، الفعَّال دائماً وأبداً - إذا ما فُهِمَتْ فهماً عميقاً، إذا ما استحوذَتْ على الجنس البشري، ألا تُحوِّلُ فوراً مسارَ العالمِ كلّه؟ مَنْ يستطيعُ أن يقاوم

الحبَ إذا ما أصبحَ هو النظامُ السائدُ؟ مَنْ سيرغبُ في السلطةِ أو المعرفةِ - إذا ما كان مغموراً في مجدِ الحبِ السرمدي؟

" كما تعلمون، يُقالُ إنه تعيشُ في أقاصي التيبت النائية فرقةٌ صغيرةٌ من الرجال تتفوَّقُ علينا تفوُّقاً هائلاً جداً حتى أنهم يُسمُّون " السادة ". يعيشون في منفى اختياري بمنأى عن باقي العالم. وهم أيضاً، مثل أشباه البشر الذين تحدَّثت عنهم أعلاه، لا يعرفون الشيخوخة، ومنيعون ضد الأمراض، و خالدون . فلمَ لا يختلطون معنا، لماذا لا ينيروننا ويشرِّفوننا بحضورهم؟ هل اختاروا العزلة أم نحن الذين عملنا على عزلتهم؟ قبل أن تحاولوا أن تجيبوا، اطرحوا على أنفسكم سؤالاً آخرَ - ماذا لدينا نقدِّمه إليهم مما لمْ يعرفوه، أو يملكوه أو يستمتعوا به تواً؟ إن كان لمثل تلك المخلوقات وجود، ولديّ كل الأسباب لأؤمن بهذا، فإنَّ العائقَ الوحيدَ الممكن هو الوعي. أو درجات الوعي، بعبارة أدق. فحين نصلُ إلى مستوياتٍ أعمق من التفكير والوجود، فسوفَ نلاقيهم هناك، إن صح التعبير. إننا ما زلنا غير مستعدِّين، وغير راغبين، لمخالطة الآلهة. ورجال العصور الأقدم عرفوا الآلهة: رأوهم وجهاً لوجه. ولم يُنحَّى الإنسانُ، في مجال الوعي، عن مراتب الخلق الأعلى أو الأدنى. أما اليوم فقد اقتُطِعَ الإنسان. اليوم الإنسان يعيشُ عيشةَ العبيد. والأسوأ من ذلك أننا نُعاملُ بعضَنَا البعض كعبيد. لقد أوجدنا حالةً ما زالت مجهولة، حالةً فريدةً جداً: أصبحنا عبيداً لعبيد. وتأكَّدوا من أننا حالما نبدأ نرغبُ بصدقٍ في الحرية سوف نتحرَّر. وليس قبل ذلك بلحظة واحدة! الآن نحن نفكِّرُ مثل الآلات، لأننا أصبحنا آلات. أصبحنا من شدة فرط توقنا إلى القوة ضحايا عاجزين لها ... ويوم نتعلَّم كيف

نعبِّر عن الحب سوف نعرفُ الحبَ ونحصل على الحب - وكل ماعدا ذلك سيزول. إن الشرّ هو مَنْ خَلَقَ العقل البشري. ويصبح أعزلَ حين نقبله كما هو. لأنَّ لا قيمةَ له بحدّ ذاته. فالشرّ يوجد فقط كتهديدٍ لمملكةِ الحب تلك التي لا نعيها إلا بصورةٍ مُبهمة. نعم، لقد سبقَ للبشرِ أن حلموا بإنسانيّةٍ مُعتقَة. حلموا بأنهم يسيرون في الأرض كالآلهة التي كانوها ذات يوم. وأولئك الذين نسمّيهم" السادة " عثروا حتماً على طريق العودة. لعلَّ أشباه البشر سَلَكوا درباً أخرى. وصدِّقوا أو لا تصدِّقوا، إنَّ الدروبَ كلها تؤدِّي في النهاية إلى نبعِ الحياة ذاك الذي هو مركز الخلق ومعناه. كما قال لورانس وهو يلفظ أنفاسه - " بالنسبة إلى الإنسان، الأعجوبة العظمى هي أن يكون حياً. وهذه وجهة نظر الإنسان، والزهرة، والحيوان، والطير، والانتصار الأكبر هو في أن يكونوا أحياءً بأشدّ ما يمكن من حيويةٍ، وكمال ... ". بهذا المعنى، لا أحدَ منّا حيٌّ. فلنكن أحياء بصورةٍ كاملة، هذا ما كنتُ أحاولُ أن أقوله "

استأذنَ كاتشيكاتشي بالرحيل على عَجَل، وقد استُنزِفَ بهذا التحليق غير المقصود يُسربله الارتباك والتشوُّش. أما نحن الذين أنصتنا إليه بصمتٍ بقينا مُلازمين مقاعدنا في الركن عند النافذة. ومرَّت بضع دقائق بدا كأننا غير قادرين على أخذ أنفاسنا. وأخذ آرثر ريموند، المُحصَّن عادة ضد مثل هذه الخُطَبْ، يُنقِّلُ نظره بتحدٍّ بيننا، متوثِّب للانقضاض لدى أقلّ استفزاز. كان سْبَدْ جيسون و " خليلته " قد غرقا في الثمالة. إنَّ هذا الرباعي لا يستفزّه أي نقاش! وأخيراً علّقَ باروني، الذي كسَرَ قالب الثلج، بصوت رقيق، مرتبك قائلاً إنه لم يتصوَّر قط أن يكون كاتشيكاتشي بهذه الجديّة الصارمة. أنَّ تريفيليان، ولسانُ حالهِ

يقول - " إنكم لا تفهمون نصف ما يُقَال! ". ثم، وأمام ذهولنا، ودون أي مقدمات، انطلقَ في مناجاةٍ فرديَّةٍ طويلةٍ حكى فيها عن مشاكله الخاصّة. فبدأ بإخبارنا كيف أن زوجتَهُ، التي ليست فقط حُبْلَى وإنما أيضاً مجنونة، مجنونة غريبة الأطوار، حاولتْ أن تخنقه في السرير وهو نائم في ليلة الأمس القريب. واعترفَ، بأسلوبه الرقيق، المكظوم، المنخفض الصوت - فقد كان بريطانياً حتى أعماقه - أنه كان حتماً قد عاملها بطريقةٍ بغيضة. وقد وضَّحَ حتى الإيلام أنه مَقَتَها منذ البداية. فقد تزوجها بدافعِ الشفقةِ، لأنَّ الرجلَ الذي تسبَّبَ في حَمْلِها قد فرَّ وتركها. كانت شاعرةً وكان شديد الإعجاب بعملها. أما ما لم يتمكَّن من تحمُّله فتقلُّبات مزاجها. كانت تجلسُ ساعاتٍ طوال، تنسج جوارب صوفيّة لا يرتديها أبداً، ولا تنبسُ بأي كلمة. أو، تجلسُ على كرسيّ هزّاز، ولا تفعل أي شيء، وبينما هي تهتزُّ إلى الأمام وإلى الخلف تهمهمُ، تهمهمُ على امتداد ساعات. أو، فجأة تنتابها نشوةُ التحدُّث، فتحاصره في المطبخ أو في غرفة النوم، وتملأه بكلامٍ حالمٍ تسمِّيه إلهاماً.

سأله أومارا، وهو يكشِّرُ بخبثٍ، " ماذا تقصد - بكلامٍ حالم؟ "

قال تريفيليان " أوه، إنه قد يدورُ حول الضباب، الضباب والمطر، وكيف تبدو الأشجار والأدغال بعدما يتراجعُ عنها فجأة الضباب. أو ربما عن لونِ الضباب، وكلّ ظلال اللون الرمادي التي تستطيع أن تميِّزها بعينيها كعينيّ قطة. لقد كانت تعيشُ على ساحل كورنوال خلال فترة طفولتها - والناس هناك كلهم مجانين - وكانت تستعيدُ ذكرى نزهاتها وسط الضباب، وتجاربها مع الماعز والقطط، أو مع أبله القرية. وأثناء تلك اللحظات المزاجيّة كانت تتكلَّم بلغةٍ أخرى - ولا أعني بذلك لهجة

محليّة، وإنما لغةٌ خاصّة بها لا يفهمها أحد. كانت تثيرُ القشعريرة في جسمي. كانت أشبه بلغة القطط، وهذا أفضل تشبيهٍ لها. كانت بين حين وآخر تعوي، عواءً حقيقياً يجمِّدُ الدم في العروق، وأحياناً كانت تقلِّدُ صوت الريح، بأنواعه كافة، من النسيم العليل إلى العاصفة العاتية. ومن ثم تبدأ تتنشَّقُ وتبكي، محاولة أن تقنعني بأنها تأسى لحال الزهور التي قُطِعَتْ - خاصّةً بنفسج الثالوث والليلك، العاجزة، ولا حولَ لها ولا قوة. وفجأةً إذا بها تتنقَّلُ في أماكنَ غريبة، تَصِفها بحميميّة، وكأنها عاشت فيها طوال حياتها. أماكن مثل ترينيداد، كوراكاو، موزامبيق، غواديلوب، مادراس، كونبور وما شابهها. ترونها غريبة؟ لقد حَسِبَ للوهلة الأولى أنها تتمتَّعُ بقوة استبصارٍ ... بالمناسبة، هل نستطيع أن نشرب كأساً أخرى؟ كما تعلمون، إني لا أحتكمُ على نكلةٍ واحدةٍ ...

" إنها غريبة الأطوار، ولا ريبَ في ذلك. وحيوان لعين، وعنيدة أيضاً. أُدخلْ في نقاشٍ معها وسيُقضَى عليك. إنها تعرفُ كيف تُغلق في وجهك كل المخارج. وحالما تبدأ معها، تقع في الفخ. لم أكن أدركُ قط أنَّ النساءَ يمكن أن يكُنَّ منطقيات حتى التطرُّف، بغضّ النظر عن طبيعة موضوعِ النقاش - الروائح، الحياة النباتية، الأمراض أو حتى بقع الشمس. ودائماً تكون الكلمة الأخيرة لها، مهما كان الموضوع. أضِفْ إلى ذلك كله هوسَها بالتفاصيل، بل بأدقّ التفاصيل. فتراها، مثلاً، تجلسُ على مائدة الإفطار وفي يدها بتلةٌ مكسورةٌ تظلُّ تتفحَّصها مدةَ ساعةٍ كاملة. وتطلبُ منك أن تركِّز على قطعة صغيرة جداً من هذه البتلة التي لا يزيدُ حجمها عن طرَف شظيّة صغير. وتدَّعي أنها تستطيعُ أن تشاهدَ في هذه النتفةِ التافهةِ كلَّ عجيبٍ وغريبٍ من الأشياء. وهذا كله

بالعين المجرَّدة، انتبهوا. فعينيها ليستا عينين بشريَّتين وحقٌّ الله. وطبعاً في إمكانها أن ترى في الظلام وتبزٌّ في ذلك حتى القطط. وتستطيع أن ترى بعينيها وهما مغمضتان، صدِّقوا أو لا تصدِّقوا. وقد أَثْبَتَتْ ذلك ذات ليلةٍ لإرضائي. أما ما لا تستطيع أن تراه فهو الشخص الواقف أمامها! إنها تنظرُ إليكَ وهي تتحدَّثُ إليكَ وكأنَّكَ غير موجود. إنها لا ترى إلا ما تتحدَّثُ عنه، سواء أكانَ ضباباً، أم قططاً، أم بُلَهاء، أم مدناً نائيةً، أم جُزُراً طافية أم كُلى عائمة. وفي البدء كنتُ أُمسكُ بها من ذراعها وأهزُّها - ظنّاً مني أنها في حالة غَشيَّة. ولكن لا! بل في كامل يقظتها مثلك ومثلي. وربما حتى أشدّ يقظة منا. ولا شيء يفوتها. أحياناً تقطعُ سياقَ كلامها لتسألني " أسمعتَ هذا ؟ " فأقول " سمعتُ ماذا ؟ ". وقد يكون مكعباً صغيراً من الثلج تحرَّكَ بمقدار جزءٍ صغير من الإنش داخل صندوق الثلج. ولعلَّها نقطةُ ماءٍ قَطَرَتْ من حنفيَّة المطبخ. وأجفلُ حين تسألني " أسمعتَ هذا ؟ ". وبعد فترة من الوقت بدأتُ أقتنعُ بأني أصبحُ أصمّاً - فقد كانت تُولي اهتمامها للتوافه التي لا يُسمع لها صوت. وتقول " لا شيء بك. إن أعصابك فقط مُتعبة ". وهي مع كل هذه الرهافة لم تكن تُطيقُ سماع الموسيقى. وكل ما تسمعه هو خدشُ الإبرة: لا تستمتع إلا بتقصِّي إن كانت الأسطوانة قديمة أم جديدة، ومدى جِدَّتها أو قِدَمها. لم تكن تعرف الفرق بين موتسارت، وبوتشيني[137] وساتي[138]. وهي تحبُّ التراتيل. التراتيل الكئيبة، المغمَّة. كانت تهمهم بها دائماً وهي ترسم ابتسامةً ملائكيّة، وكأنها قد انضَّمَت لتوّها إلى

---

١٣٧ - جياكومو بوتشيني (١٨٥٨ - ١٩٢٤) ؛ موسيقي إيطالي . له أوبرات . منها " توسكا " . - المترجم

١٣٨ -إريك ساتي (١٨٦٦ - ١٩٢٥) ؛ موسيقي فرنسي . عُرِفَ بمقطوعاته القصيرة على البيانو . - المترجم

صفوف الملائكة. كلا، في الحقيقة إنها أبغضُ عاهرةٍ يمكنُ تصورُّها. إن شخصيتَهَا لا تنطوي حتى على قبسٍ من الفرح أو البهجة. فإذا حكيتَ لها حكاية مضحكة أصابها الملل. وإذا ضحكتَ ثارَ غضبُها. وإذا عَطَسْتَ سَمِعْتَ منها ما لا يرضيك. وإذا ما دلَّلتَ نفسَكَ بمشروبٍ كنتَ في نظرها سكِّيراً ... لقد تضاجعنا - إذا صحَّتْ هذه التسمية - ثلاث مرات، تقريباً. كانت خلالها تُغمِض عينيها، وتتمدَّد بجمود كعمود، وتتوسَّل إليَّ أن أنهي الأمرَ بأسرع ما يمكن. كان ذلك أسوأ من اغتصاب شهيدة. وبعد الانتهاء تقوم لتحضر مجموعة من الأوراق، ثم تتحصَّن في السرير وتباشر بكتابة قصيدة. لتتطهَّر، ربما. أحياناً أكادُ أقتلها ... "

شَرِعَ أومارا يقول " وماذا عن الأطفال؟ ألا ترغب بطفل؟ "

قال تريفيليان " وما أدراني! إنها لا تأتي أبداً على ذِكر الموضوع. كأنه ورمٌ خبيثٌ، ولا يبدو أنَّ الأمرَ يهمُّها البتَّة. إنها تقول بين حين وآخر أنها تزداد ضخامة ... ولا تقول" بدانة "، لأنها كلمةٌ شديدةُ الفظاظة. بل ضخمة. وكأنَّ من الغريبِ أن تنتفخَ كالبالون بعد سبعة أشهر من الحمل! "

يسأل سْبَدْ بنبرةٍ ناعسة " كيف تعرفُ أنها حامل فعلاً؟ أحياناً يكون مجرَّد وهم "

" وهْمْ. هاه! كنتُ أتمنى لو أنه كذلك؛ إنها حِبْلَى فعلاً ... لقد شعرتُ به يتحرَّك داخلها "

قال أحدهم " قد يكون ريحاً "

قال تريفيليان، وقد ثار " ليس للريحِ ذراعان وساقان. والريح لا تتقلَّب ولا تنتابها نوبات هستيريا "

قال سْبَدْ جيسون " دعونا نخرج من هذا المكان. سوف توحون لهذه بأفكارٍ معيَّنة "، قال هذا ولَكَزَ صديقته الحميمة في أضلعها حتى كادت تقع عن الكرسي.

أخذا يكرِّران هذه الحركة مرة بعد أخرى كأنها لعبة، فتنهضُ ألاميدا بهدوء، وتدور حوله، ثم تُسدِّد إليه ضربةً عنيفة إلى وجهه بكفِّ يدها.

صرخَ سْبَدْ جيسون " إذن هذا هدفكِ؟ "، وقفز عن كرسيه ولوى لها ذراعها. وباليد الأخرى أمسكَ بشعرها الطويل وشدَّه بقوة. " تأدَّبي، وإلاّ سوَّدتُ عينيك! "

قالت ألاميدا، وهي تلوِّح بزجاجة فارغة، " أحقاً ستفعل، أحقاً؟ "

صرختْ مونا " اخرجا من هنا، أنتما الاثنان! وإياكما أن تعودا ثانية، أرجوكما! "

قال سْبَدْ بارتباك " بكمْ أُدينُ لك؟ "

قالت مونا " أنت لا تدين لي بأي شيء. فقط اخرجا وابقيا في الخارج! "

11

دُهِشتُ حين زارنا ماكغريغور فجأةً ذات أمسية، وطلبَ مشروباً، ودفع ثمنه دون أن يُصدِر أي صوت. بدا مرِحاً على غير عادته. سألَ بقلقٍ عن سيرِ عملنا، واحتمالات نجاحنا في المستقبل، وإن كُنا نحتاجُ إلى أي مساعدة - يقصِدْ مساعدة قانونية - وإلى ما هنالك. ولم أفهَمْ ماذا ألمَّ به.

فجأة، وبعد أن أدارَتْ مونا ظهرَها وخرجَتْ، قال " ألا تستطيع أن تخرج بضع ساعات ذات ليلة؟ "

دون أن ينتظر جوابي بالإيجاب أو النفي، تابعَ فأخبرني أنه يعيشُ قصَّةَ حبٍ جديدة، في الواقع إنه غارقٌ في الحب. " أعتقد أنه يمكنك أنت أَن تسردها ". ويشرحُ قائلاً، إنها مرحةٌ، بصورة ما. مُطلَّقَة، وتعيل طفلين. " ما رأيك في هذا؟ ". ثم قال إنه يريد أن يُفشي أمراً غاية في السرِّية. كان يعلمُ أنَّه من الصَعْب عليَّ أن أُبقي بوزي مُغلقاً، ولكن لا يهمّ ... ". في الواقع، إن تسّ لا ترتاب في أي شيء. ولا يمكن أن أُسبِّبَ لها الألم بأي حال. اللعنة! لا تضحك! أقول هذا فقط لكي تلفظ الجوهرة ذات ليلة في واحدة من نوبات مزاجِك الشَهْم "

ابتسمتُ.

إذن هذه هو الوضع. تريكس، الجديدة، تعيشُ في برونكس. وكما قال " فلتذهب إلى الجحيم ". كان يخرج في كل ليلة ولا يعود قبل الساعة الثالثة، أو الرابعة أو الخامسة صباحاً. " تسّ تظن أني أُقامر. فالطريقة التي كنت أنفق بها النقود في كل ليلة يمكن أن تعني أيضاً أني كنت أقامر بلعب النرد. ولكن لا علينا من هذا الكلام. ما أطلبه منك هو ما يلي: هل تستطيع أن تسترق بعض الوقت ذات يوم، فقط بضع ساعات؟ ". لم أقل شيئاً، وابتسمتُ من جديد. " أريد منك أن تتفحَّصَها ... قُل لي إن كنتُ مجنوناً أم لا ". سكتَ برهةً، وكأنما ارتباكاً. " ولكي أوضِّح لك أكثر، يا هن، دعني أحكي لك ما يلي: في كل ليلة بعد العشاء تُحضِر الطفلَين ليجلسا في حجري، واحدٌ على كلٍّ رُكبة. وماذا تتخيَّل أني أفعل؟ إنني أحكي لهما حكايةَ قبل النوم! أتتصوَّر هذا ؟ ". وانفجَرَ في نوبةٍ من الضحك العالي. " أتعلم يا هن، أكادُ لا أصدِّقُ نفسي. لكنه حقيقي. ما كنتُ راعيتُهما أكثر أو كانا من صُلبي. يا إلهي، لقد ابتعتُ لهما لتوِّي مجموعةً كاملةً من الدُمى. أتدري، لو لم تقُم بعمليّة الاستئصال تلك لأنجبنا ثلاثة أطفال أو أربعة. ربما لهذا السبب تباعدنا. أنت تعرفُ تسّ، يا هنري - إنَّ لها قلباً من ذهب. لكنها ليست متحدِّثة جيدة. اهتمامها الوحيد هو اختصاصها في مجال القانون. إذا مكثتُ في المنزل ليلة واحدة يغلبني النوم. أو أسكر. وحقُّ الجحيم لا أدري لمَ تزوجتُها. أنت، أنت يا ابن الحرام، لا تتفوهْ بكلمة واحدة: إنك تدعني أسترسلُ. ترى أنَّ ذلك سيفيدني، أليس كذلك؟ حسنٌ، إنني أنجرفُ ... أتدري، أحياناً، وأنا أستمعُ إلى نفسي، أسمعُ أبي يتكلَّمُ من خلالي. إنه لا يستطيعُ أن يركِّز على نقطةٍ معيَّنةٍ

أكثر من دقيقتين. وكذلك أمي ... ما رأيكَ بكأسٍ أخرى؟ لا تقلق، أنا الذي سيدفع "

سادَ الصمتُ بضع هنيهات، ثم سألتُهُ بلا مقدِّمات لماذا هو شديد اللهفة لجمعي مع فتاتهِ الجديدة، ثم أردفتُ " أنا أعلمُ علم اليقين أنك لا تحتاج إلى موافقتي "

" كلا، يا هن ". ثم أطرقَ بصره إلى سطح الطاولة، " ولأكُنْ جدِّياً معك، أريد منك أن تأتي لتشاركنا طعام العشاء ذات ليلة أثناء وجود الطفلين معنا على المائدة ... "

" ثم ماذا؟ "

" وتعطيني بعض رؤوس الأقلام عن تلك الحكايات الخرافيّة اللعينة. كما تعلم، الأطفال يأخذون مثل هذه الأشياء مأخذ الجَدّ. أشعرُ أنَّ ما يحدث معي هو العكس. لعلي أحكي لهم عن أشياء لا يجدُرُ بهم أن يسمعوا عنها إلا بعد مرور خمس سنوات ... "

انفجرتُ قائلاً " إذن هذا هو الأمر؟ حسنٌ، لعنني الله! وما الذي يدفعُكَ إلى الاعتقاد بأني أعرفُ أي شيء عن هذا الأمر؟ "

" لأني أعرفُ أنَّ لديكَ طفلةً. ثم إنك كاتب. وأنتَ ضليع في مثل هذا الشيء، وأنا لستُ كذلك. إنني أبدأ قصةً ولا أعرفُ كيف أُنهيها. يصيبني التشوُّش "

" أليست لديك مَلَكَة التخيُّل؟ "

" أتمزح؟ اسمعْ، أنت تعرفني. كل ما أعرفه هو القانون، وربما ليس كثيراً. إن عقلي أُحاديّ المسار. على أي حال، ليس فقط من أجل هذا أريدك أن تأتي ... أريدك أن تقابل تريكس. أعتقد أنها ستعجبك. يا

إلهي، إنها طبّاخة ممتازة! بالمناسبة، إن تسّ - في الواقع لستُ مضطراً إلى إخبارك هذا - لكن تسّ لا تستطيعُ حتى أن تقلي بيضة. هذه ستجعلكَ تعتقد أنك تتناولُ طعامك في الريتز. إنها تُعِدُّ الطعامَ بأسلوبٍ راقٍ. ولديها أيضاً قبو عامر - ربما هذا سيسلب لُبَّكَ. ولكن ما الذي يجعلك تتنحنح وتراوغ في الكلام؟ إن كلَّ ما أريده منك هو أن تقضي وقتاً طيّباً. مِنْ حقّك أن تحظى بفرصةٍ مرة كل حين. يمكن لأومارا أن يحلَّ محلَّك لبضع ساعات، ألا يستطيع؟ أقصد، إذا كنتَ تثقُ فيه! من ناحيتي، لا أثقُ فيه حالما يغيبُ عن ناظري ... "

هنا دخلَ فجأةً توني ماورر، متأبطاً كتاباً ضخماً. وكالمعتاد، كان ودوداً إلى أقصى حدّ. اتَّخذَ له مجلساً عند الطاولة المجاورة لطاولتنا وسألَ إن كنا نودُّ أن نشاركه شرب كأسٍ. ورفَعَ الكتابَ لأجلي لكي أقرأ العنوان: " انحدار الغرب "[١٣٩].

قلتُ " لم أسمع به "

أجاب " قريباً ستسمع. عملٌ عظيم، تنبُّؤيّ ... "

تدخَّلَ ماكغريغور هامساً " دعك منه! على أي حال ليس لديكَ وقتٌ للقراءة ".

سألته " هل لي أن أستعيره بعد أن تنتهي من قراءته؟ "

قال توني ماورر " دون شك، سوف أهديك إياه "

سألَ ماكغريغور، على سبيل الاعتذار، إنْ كانَ الكتابُ صوفيّاً. وطبعاً لم يكن مهتماً بالأمر البتَّة، لكنه وَجَدَ أن توني ماورر لم يكن أبله.

---

١٣٩ - " انحدار الغرب " : كتاب ضخم في فلسفة التاريخ للفيلسوف الألماني أوزفولد شبنغلر . سيردُ ذكره مطوّلاً مع مقاطع كثيرة في آخر هذا الكتاب . - المترجم

حين قيلَ له أنه في فلسفة التاريخ، غمغمَ: " إنه لك! "

شربنا بعض الكؤوس مع توني ماورر، وبدأنا نشعر بالانتعاش. وفكَّرتُ أنه يمكننا أن نقضي أمسيةً ممتعةً، أو نتناولُ طعامَ العشاء، عند تريكس. اسمها الكامل تريكس ميراندا. وأعجبني رنينه.

سألتُ " أي قصة قبل النوم تفضِّل؟ "

" القصة التي تدور حول الدببة الثلاثة "

" تقصد، ذات الشعر الذهبي والدببة الثلاثة؟ يا إلهي، إنني أحفظُ هذه الحكاية بالمقلوب. في الواقع، كنت أفكِّرُ ... ما رأيكَ بليلة بعد غد؟ "

" أخيراً نطَقْتَ يا هنري. كنت أعرفُ أنك لن تخذلني. وبالمناسبة، طبعاً أنت لستَ مضطراً، ولكن إذا جلبتَ معك زجاجة من النبيذ، ستكون تريكس ممتنَّة. وليكن نبيذاً فرنسياً إذا أمكن "

" ليسَ هناك ما هو أسهل من هذا! سوف أجلبُ اثنتين منه أو ثلاثاً"

نهضَ واقفاً يبغي الرحيل، وبينما هو يصافحني قال: " سأطلبُ منك معروفاً: لا تسكَر قبل أن يأوي الطفلان إلى السرير "

" اتفقنا. والآن جاء دوري لأطلبَ منك معروفاً. دعني أنا أحكي لهما قصة الدببة الثلاثة، هه؟ "

" أوكيه، هنري - ولكن بلا كلام قذر! "

بعد ذلك بليلتين تناولتُ طعامَ العشاء مع ماكغريغور وتريكس - في ناحيةٍ نائيةٍ من حي برونكس. كان الطفلان في أحسن حال. الولد في الخامسة والفتاة في نحو الثالثة ونصف من العمر. صغيران فاتنان لكنهما ناضجان قبل الأوان. وأحاولُ جاهداً ألاّ أثمل قبل لجوء الطفلين

إلى النوم. لكننا كنا قد شربنا ثلاثة كؤوس من المارتيني أثناء انتظار تحضير طعام العشاء ومن ثم تذوّقنا التشامبرتن الذي أحضرته معي.

كانت تريكس امرأةً طيّبة، على حد قول ماكغريغور. ليست جميلة، لكنها مريحة للنظر. ومزاجها مرح. العيبُ الوحيد الذي اكتشفته فيها هو عصبيّتها.

سار كل شيء على أحسن ما يرام. وشعرتُ بألفةٍ مع الطفلين. وأخذا يلحّان في تذكيري بأني وعدتهما بأن أحكي لهما حكاية عن الدببة الثلاثة.

قال ماكغريغور " لقد تورّطتَ يا هنري "

أقول الحق، كنت قد فقدتُ كلَّ رغبةٍ في سردِ حكايةِ قبل النوم تلك. وأخذتُ أُماطلُ أطول مدة ممكنة. وسكرتُ قليلاً. ولم أعُد أتذكَّرُ كيف تبدأ الحكاية اللعينة.

فجأةً إذا بتريكس تقول: " يجب أن تحكيها الآن يا هنري، لقد تأخّرا كثيراً على موعد نومهما "

تذمّرتُ " حسنٌ! أعدِّي لي مقداراً آخرَ من القهوة السادة وسأبدأ "

ويقول الصبي " سأبدأها نيابة عنك "

تقول تريكس " إياكَ أن تفعل! بل هنري هو الذي سيتولّى الحكاية - من البداية وحتى النهاية. وأريدك أن تصغي بانتباه. والآن اخرس! "

ازدردتُ مقداراً من القهوة السادة، واختنقتُ بها، وبقبقتُ وتلعثمتُ.

" كان هناك دبٌ أسود ضخم ... "

غرَّدتْ الفتاة قائلة " ليس هكذا تبدأ الحكاية "

" إذن، كيف تبدأ؟ "

" كان يا ما كان ... "

" صحيح، صحيح ... كيفَ نسيتُ ذلك؟ حسنُ، هل الكُلُّ منصتٌ؟ هاأنا أبدأ ... كان يا ما كان في قديم الزمان ثلاثةٌ من الدببة - دبٌ قطبيّ، ودبُ رماديّ، ودبُ دُمية ... "

(ضحكُ وسُخريةٌ من الطفلَين)

" وكان للدب القطبيّ فروٌ أبيض طويل - لتدفئته، طبعاً. وكان الدبُّ الرمادي ... "

زعَقَتْ الفتاة الصغيرة " ليس هكذا تسير الحكاية، ماما! "

قال الصبي " إنه يخترعها "

صرخَتْ تريكس " اهدأا، أنتما الاثنان! "

قال ماكغريغور " اسمع، هنري، لا تدعهما يزعجانك. خُذ وقتك. وتذكَّرْ، اروِها على مهل. خُذ، اشرب جرعة من الكونياك، وسوف تُطرِّي حنكك "

أشعلتُ سيجاراً ثخيناً، ورشفتُ رشفةً أخرى من الكونياك، وحاولتُ أن أستعيد مزاجي الرائق. وفجأة خطرَ لي أنه لا توجدُ إلا طريقةٌ واحدة لسرد الحكاية وهي بسرعةٍ كسرعة البرق. وإذا توقَّفتُ فسوف أغرق.

قلت " اسمعوا يا جماعة، سوف أبدأ من جديد. لا أريد مقاطعةً أخرى، هه؟ "، وغمزتُ للفتاة الصغيرة ورميتُ عظمةً للصبي لا يزالُ بعض اللحم عالقاً بها.

قال ماكغريغور " لا ريب في أن رجلاً ذا مُخيّلة خلاّقة كمُخيلتك

يجد صعوبةً. فهذه حكاية بمائة دولار، بكل التمهيدات التي تُلحِقُها بها. هل أنت متأكد من أنك لا تريد قرص أسبرين؟ "

أجبتُ، وهذه المرَّة وأنا بكامل سيطرتي على قدراتي، " هذه قصةٌ لا تُقَدَّرُ بثمن، فلا تقاطعوني! "

عوى ماكغريغور " هيا، هيا، كفاكَ تلكُّؤاً! كان يا ما كان - هكذا تبدأ "

" أوكيه ... كان يا ما كان ... نعم، هكذا. كان يا ما كان في قديم الزمان ثلاثة من الدببة: دبٌّ قطبي، ودبٌّ رمادي، ودبٌّ دمية ..."

قال الصبي " لقد قلتَ لنا هذا من قبل "

صرخَتْ تريكس " اخرس، ولاه! "

" كان الدبُّ القطبي عارياً تماماً، ذا فروٍ أبيض طويل يصل حتى الأرض. والدبُّ الرمادي كان متيناً مثل شريحة من لحم الخاصرة، ولديه الكثير من الشحم بين أصابع قدميه. والدب الدمية كان تمام التمام، لا هو بدين جداً ولا نحيل جداً، لا متين ولا رقيق، لا حارّ ولا بارد ... "

ضحكُ مكبوتُ من الطفلين.

" الدبُّ القطبي لا يأكلُ إلا الثلج، ثلجٌ بارد مثلَ الثلج، وطازجٌ من ثلج المنزل. والدب الرمادي يتغذّى على الأرضي شوكي، لأن الأرضي شوكي مملوء بالقشور الشائكة والقرّاص ... "

غرَّدتْ الفتاة الصغيرة " ما هي القشور الشائكة، ماما؟ "

قالت تريكس " هُسسس! "

" أما الدب الدمية فكان لا يشرب إلا الحليب المقشود. فقد كان في الواقع ضخماً ولا يحتاج إلى فيتامينات. وذات يوم كان الدبّ الرمادي

قد خَرَجَ ليجمَعَ أخشاباً لإشعال النار. ولم يكن يرتدي إلا جلد الدب الذي عليه وكان الذباب يثير جنونه، فأخذَ يركض ويركض ويركض. وسرعان ما دخلَ عميقاً في الغابة. وبعد قليل جلسَ على ضفة غدير واستغرقَ في النوم ... "

قال الصبي " لا أحبُّ طريقته في حكاية القصة؛ إنه مُشوَّش تماماً "

" إذا لم تسكتْ، سأضعك في السرير! "

" وفجأة دخلتْ الغابة ذات الشعر الذهبي. كانت تحملُ سلّة الغداء وكانت مملوءة بكل ما هو طيِّب ولذيذ، بما فيه زجاجة من صلصة البندورة ذات العلامة الزرقاء. كانت تبحث عن المنزل الصغير ذي مصراعَيّ النافذة الأخضرَين. وفجأة سمعت أحدهم يغطُّ في النوم، وبين نوبات الغطيط كانت تسمع صوتاً هادراً خشناً يهتفُ " أريد فطيرة خبز الذرة! أريدُ فطيرة خبز الذرة! " فنظرتْ أولاً جهة اليمين ثم جهة اليسار، فلم ترَ أحداً. فأخرجتْ بوصْلَتَها، ووقفت مواجهةً جِهَة الغرب، ثم أخذتْ تتبع أنفها. وبعد نحو ساعة، أو ربما لعلها كانت ساعة وربع، وصلتْ إلى فسحةٍ مكشوفةٍ في الغابة. وإذا بها أمام المنزل الصغير ذي المصراعين بلونهما الأخضر الزيتوني "

صرخَ الصبي " مصراعان أخضران! "

" مصراعان أخضران، نعم! ومن ثم ماذا تظنان أنه حدث؟ اندفعَ من قلب الغابة مُنطلقاً أسدُ ضخمُ مخيفُ، يتبعه رجلُ صغير يحملُ قوساً وسهماً. وكان الأسدُ شديد الحياء ولعوباً. وماذا فعل غير أنه قفزَ إلى السطح والتفَّ بالمدخنة. أما الرجل الصغير ذو قلنسوة البُلَهاء[١٤٠]

١٤٠ – قلنسوة البلهاء : هي القلنسوة التي يُجبِرُ الأستاذ التلميذَ الكسولَ أو المشاغب على اعتمارها والوقوف في الزاوية . – المترجم

المخروطية فبدأ يزحفُ على أربع – وظلَّ كذلك حتى وصلَ إلى الباب. ثم نهضَ واقفاً، وأخذَ يرقصُ رقصةً مرحةً، وهرعَ إلى الداخل ... "

قالت الفتاة الصغيرة " أنا لا أصدِّقُ. هذا غير صحيح "

قلتُ " بل صحيح، وإذا لم تحترسي فسوفَ ألكمكِ على أذنيكِ ". هنا أخذتُ نَفَساً عميقاً، متسائلاً ماذا سأقولُ بعد ذلك. كان السيجار قد انتهى، والكأس قد فرغ. وقرَّرتُ أن أُسرِعِ.

قلت، متابعاً السرَ، " ومنذ هذه النقطة أصبحتْ الأمورُ تجري بوتيرةٍ أسرع "

قال الصبي " لا تُسرِعِ كثيراً، لا أريد أن يفوتني أي شيء "

" أوكيه ... إذن، حالما أصبحتْ ذات الشعر الذهبي في الداخل وجدتْ كل شيء في أحسن ترتيب: فالأطباق مغسولة كلها وموضوعة في مكانها، والملابس مُرتَقَة، والصور مؤطَّرة بأناقة. وعلى الطاولة كان هناك أطلس وقاموس غير مختصَر، من مجلَّدَين. لقد حرَّكَ أحدهم حجارة الشطرنج أثناء غياب الدب الدمية. خسارة، لأنه سيُنهي الدور لصالحه في ثماني نقلات أخرى. إلا أنَّ ذات الشعر الذهبي كانت شديدة الافتتان بكل الدُمى والأدوات، خاصّةً فتّاحة العُلَب الجديدة، حتى أنها لم تهتمّ بمسائل الشطرنج. كانت مشغولة طوال فترة الصباح في حلّ مسائل المثلثات وكان عقلها الصغير أشدُّ إجهاداً من أن يهتمَّ بحلّ مناورات الشطرنج وما شابه. كانت تواّقةً جداً إلى قرع ناقوس البقرة المُعلَّق فوق مغسلة المطبخ. ولكي تصلَ إليه كان عليها أن تستخدم المقعد الصغير. كان المقعد الأول واطئاً جداً؛ والثاني عالياً جداً؛ لكن المقعد الثالث كان مناسباً تماماً. قرعَتْ الناقوسَ حتى أصدَرَ رنيناً مُدوِّياً

أسقطَ الصحونَ عن منصبها. فزعَتْ ذات الشعر الذهبي في أول الأمر. لكنها وجدتْ بعد ذلك أنه مسلٍّ، فقرعت الناقوس من جديد. هذه المرة انفكَّ الأسدُ وانزلقَ عن السطح، وتلوَّى ذيله مُشكِّلاً أربعين عقدة. ورأت ذات الشعر الذهبي أن هذا مُسلِّياً أكثر، فقرَعَتْ الناقوسَ مرة ثالثة، فخرج الرجل الصغير ذو قلنسوة البُلَهاء مُسرعاً من غرفة النوم، وجسمه كله يرتعش، وبدأ، دون أن ينطقَ كلمةً واحدةً، يقومُ بشقلبات بهلوانيّة. يرتفعُ وينخفضُ، تماماً كعربة نقلٍ عتيقة ومن ثم اختفى داخل الغابة ..."

قال ماكغريغور " ألا ترى أنك تُضيِّع مسارَكَ؟ "

صرخَتْ تريكس " لا تقاطعه! "

قالت الفتاة الصغيرة " ماما، أريد أن أذهب إلى السرير "

قال الصبي " سكوت! أصبحت الحكاية شيّقة "

تابعتُ، بعد أن التقطتُ أنفاسي " والآن، فجأةً بدأت ترعدُ وتلمع. وهطلَ المطرُ غزيراً. وانتابَ ذات الشعر الذهبي الصغير، ولَوَت كاحلها ورسغها. وأرادت أن تختبئ في مكانٍ ما حتى انتهاء العاصفة. " لا شيءَ أسهلُ من ذلك "، جاءها صوتٌ رفيعٌ جداً من الزاوية البعيدة للغرفة حيث يقومُ تمثالُ النصر المُجَنَّح. ومعه فُتِحَ باب الخزانة التي تحتوي زجاجات ومرطبانات، وأكواماً وأكواماً من الزجاجات، وأكواماً وأكواماً من المرطبانات. فتحَت ذات الشعر الذهبي زجاجةً صغيرةً جداً وبلَّلَت كاحلها بسائلٍ خاصٍ بالرضوض. ثم مدَّت يدها لتتناول زجاجةً أخرى، فماذا تعتقدان كان فيها؟ مرهم سلون! فقالت " يا إلهي الرحيم " وأتبعَتْ القولَ بالفعل ودهَنَتْ رسغها بالمرهم. ثم عثرَتْ على قليلٍ من اليود، فشربته على الفور، وبدأت تغنّي. كان لحناً قصيراً مرحاً -

يحكي عن فرير جاك. غنَّته بالفرنسية لأن أمها كانت قد علَّمتها ألاّ تغنّي بغير هذه اللغة. وبعد البيت السابع والعشرين منها ملَّتْ وقرَّرت أن تستكشف ما بداخل الخزانة. والغريب في أمر تلك الخزانة أنها كانت أكبر حجماً من المنزل نفسه. وكان هناك سبع غرفٍ في الطابق الأرضي، وخمس في العلوي، ومُلحقٌ بكل غرفةٍ مرحاض وحمَّام، ناهيك عن مدفأة على الحطب ومرآة جدارية زُيِّنَتْ بأناقةٍ بقماشٍ قطنيّ مطبوع. ونسيتْ ذات الشعر الذهبي تماماً أمر الرعد والبرق، والمطر، والبَرَدْ، والحلازن والضفادع؛ نسيتْ تماماً أمرَ الأسد والرجل الصغير ذا القوس والسهم، والذي اسمه، بالمناسبة، بينوكيو. وكل ما كانت تفكِّر فيه هو ما أروع أن يعيشَ المرءُ في خزانةٍ كهذه ... "

قالت الفتاة الصغيرة " إنها تشبه حكاية سندريلا "

قال الصبي بحِدَّة " كلا، ليست كذلك! بل هي حكاية الأقزام السبعة "

" سكوت، أنتما الاثنان! "

قال ماكغريغور " تابع، هنري. إنني توّاق لأعرفَ كيف ستخرج من هذه الورطة "

" وهكذا أخذتْ ذات الشعر الذهبي تتجوَّلُ بين الغرف، دون أن تدري أنَّ الدببة الثلاثة قد عادوا إلى المنزل وجلسوا ليتناولوا طعامَ العشاء. وفي فجوةٍ في جدار الصالون عثرَت على مكتبةٍ ملآى بالكتب الغريبة. وكانت كلها تدورُ حول الجنس وبعث الموتى ... "

سألَ الصبي " ما هو الجنس؟ "

قالت الفتاة الصغيرة " هذا ليس من شأنك أنت "

" جلسَتْ ذات الشعر الذهبي وشرعتْ تقرأ بصوتٍ عالٍ من كتابٍ كبير ضخم. كان كتاباً لفيلهلم رايش[١٤١]، مؤلِّف كتاب " الزهرة الذهبية" أو " لغز الهرمونات ". والكتاب ثقيل جداً حتى أنَّ ذات الشعر الذهبي لم تتمكَّن من حمْلهِ على حجرها. فوضَعته على الأرض وركعت إلى جانبه. كانت كل صفحة فيه مُزيَّنة برسومٍ زاهيةِ الألوان. وعلى الرغم من أن الطبعات النادرة والمحدودة من الكتب كانت مألوفة لذات الشعر الذهبي، كان لابد لها أن تعترفُ لنفسها أنها لم تكن قد رأتْ دهرها مثل تلك الرسوم الجميلة. بعضها كان لرجلٍ اسمه بيكاسو، وأخرى لماتيس، وبعضها لغيرلاندايو[١٤٢]، ولكن كلها ودون أي استثناء كانت جميلة ومُبهرةً للناظرَين ... "

هتَفَ الصبي الصغير " كلمةٌ غريبة هذه الـ الناظرَين! "

" هي كما تقول! والآن استندا بظهريكما على المقعد، لأن القصة بدأت تصبح مثيرةً حقاً ... كما كنت أقول، كانت ذات الشعر الذهبي تقرأ بصوتٍ عالٍ لنفسها. كانت تقرأ عن المُخلِّص وكيف مات على الصليب - لخلاصنا - ليمحو آثامنا. لقد كانت ذات الشعر الذهبي فتاة صغيرة، لذا لم تكن تعرف ما هو الإثم. فقالت لنفسها " سوف أهرع إلى الطابق السفلي لأرى معنى الكلمة في القاموس. إنه قاموس موسَّع ولابد أنه يحتوي على معنى الإثم ". في ذلك الوقت كان كاحلها قد برأ تماماً، ورسغها أيضاً، وكأنها معجزة. وأخذت تَثِبُ برشاقةٍ هابطةً الدرج كمعزاة بعمر سبعة أيام. وحين وصلت إلى باب الخزانة، الذي كان ما يزال

---

١٤١ - فيلهلم رايش (١٨٩٧ - ١٩٥٧) : عالم نفساني نمساوي ، عاش في الولايات المتحدة . أثار جدلاً كثيراً في دعوته إلى الحرية الجنسية ، وخاصة في كتابه " وظيفة الرعشة الجنسية " . - المترجم

١٤٢ - دومينيكو غيرلاندايو (١٤٤٩ - ١٤٩٤) : رسام إيطالي . اتَّسَمَ رسمه بالواقعيّة . - المترجم

مواربـاً، قامت بشقلبةٍ مضاعَفة، كالتي أدأها الرجل الصغير ذو قلنسوة البُلَهاء ... "

هتفَ الصبي " بينوكيو! "

" ومن ثم مـاذا تظنّان أنه حدث؟ لقد اسـتقـرَّتْ في حضـن الدب الرمادي مباشرة! "

صرخَ الصغيران من فرط الاستمتاع.

" دمـدمَ الدب الرمـادي الكبيـر " هذا أفـضل كي ألتـهـمَكِ "، وهو يتلمَّظ بشفتيه المطاطيَّتَين. وقال الدب القطبي، الذي سربله البياض من المطر والبَرَدْ، " إن حجمـهـا مناسب "، وقـذفَ بهـا عـاليـاً حتى السـقف. وهتفَ الدب الدميـة وهو يضمُّ ذات الشعـر الذهبي الصـغيـرة إليـه بقـوة جعلتْ أضلاعـهـا تطقطقُ " إنهـا لي! ". وفي الحال انهمكَ الدببةُ الثلاثة في العمل، فجرَّدوا ذات الشعر الذهبي الصغيرة من ملابسها ووضعوها على طبقٍ كبير، استعداداً لالتهامها. وبينما ذات الشعر الذهبي ترتجف وتحتجُّ، أخذ الدب الرمادي الكبيـر يشحذُ فأسَه على حجر الشحـذ؛ واستلَّ الدب القطبي سكِّين صيده، التي كان يضعـهـا في قـراب جلدي مشدود إلى حزامه. أما الدب الدُمية فاكتفى بالتصفيق بيديه والرقص مرحاً. وأخذ يهتف " إنها مناسبة جداً! مناسبة جداً! ". وراحوا يُقلِّبونها مرة بعد أخرى، ليروا أين يقع الجزء الغض منها. وبدأت ذات الشعـر الذهبي تصرخ من الرعب. فنهرها الدب القطبي " اخرسي، وإلاّ حرمتُكِ من الطعام ". فتوسَّلتْ إليه ذات الشعر الذهبي قائلة " أرجوك يا سيد الدب القطبي، لا تأكلني! ". فـزعقَ الدب الرمـادي " سِدِّي بوزك! نحن سنأكل أولاً، ومن ثم تأكلين أنتِ ". صـرخت ذات الشـعـر الذهبي،

والدموع تنهمر مدراراً على وجهها، " ولكن لا أريد أن آكل ". صرخَ الدب الدمية " لن تأكلي "، وبهذا قبضَ على ساقها وحشرها في فمه. زعقَتْ ذات الشعر الذهبي " أوه، أوه! لا تأكلني الآن، أتوسَّلُ إليك. إنني نيئة "

كانت الهستريا قد استولت على الطفلين.

" قال الدب الرمادي " الآن أصبحَ كلامُكِ معقولاً ". وفي الحال، تملَّكَتْ الدب الرمادي عقدةُ أبويّة قوية. فهو لا يحبُّ لحم الفتيات الصغيرات إلا إذا كان مطبوخاً جيداً. والحق، لقد كان من حُسن حظ ذات الشعر الذهبي الصغيرة أنْ كان رأيُ الدبِ الرمادي في الفتيات الصغيرات على هذا الشكل، ذلك لأن الُدبَّين الآخرَين كانا جائعَين بضراوة، ثم إنه لم يكن لديهما أي عقدة نقص من أي نوع. على أي حال، بينما كان الدب الرمادي يُشعِل النار ويغذِّيها بمزيدٍ من أزناد الخشب، ركعتْ ذات الشعر الذهبي داخل الصحن وراحت تتلو صلواتها. عندئذ بدت أكثر جمالاً من أي وقت مضى، ولو كان الدببة من البشر لما أكلوها حيّة، بل لكرّسوها لخدمة مريم العذراء. لكن الدب هو دائماً دب، وهؤلاء لم يكونوا استثناءً للقاعدة. فحالما أخذ اللهبُ يبعث الحرارة اللازمة، أمسكَ الدببة الثلاثة بذات الشعر الذهبي الصغيرة ورموا بها إلى الخشب المشتعل. وفي غضون خمس دقائق شُويَتْ وتحمَّصَتْ، بشعرها وكل شيء. ثم أعادوها إلى الصحن الكبير وبدءوا يقطعونها شرائح كبيرة. أخذ الدب الرمادي شريحةً ضخمة؛ وأخذ الدب القطبي شريحةً متوسطة الحجم، وأخذ الدب الدُمية، ذاك الصغير الجميل، شريحةً طريّة صغيرة وجميلة. يا الله، كم كان طعمها لذيذاً. وأكلوها كلها –

الأسنان، والشعر، وأظافر قدميها، والعظام والكليتين. وأصبح الصحنُ الكبير نظيفاً حتى كان في استطاعتك أن ترى وجهك فيها. لم يبق منها حتى نقطة واحدة من المرق. قال الدب الرمادي " والآن، لنر ماذا جَلَبَتْ في سلّة الغداء هذه. أحبُّ أن أتناولُ قطعةً من فطيرة الذرة ". فتحوا السلّة فوجدوا طبعاً ثلاث قطع من فطيرة الذرة. الكبيرة منها كانت كبيرة جداً، والمتوسطة كانت متوسطة تقريباً، والصغيرة كانت مجردً وجبة صغيرة منمنمة. تلهَّفَ دبُ الدمية متلمِّظاً بشفتيه " يا سلام، يا سلام! فطيرة الذرة! ". ودمدمَ الدبُ الرمادي " ماذا قلتُ لكما ؟ "، وحشا الدبُ القطبي فمه حتى الامتلاء ولم يستطع منع نفسه من النخر. بعد أن ابتلعوا آخر لقمة تلفَّتَ الدبُ القطبي حوله، وهو مسرور أيَّما سرور، وقال" والآن ألن يكون رائعاً لو أن هناك زجاجةً من الشنابس في تلك السلّة! ". وفي الحال بدأ الثلاثة يفتِّشون السلّة بمخالبهم، بحثاً عن زجاجة من الشنابس اللذيذ ... "

هتفتْ الفتاة الصغيرة " ماما، هل لدينا نحن شنابس؟ "

زعَقَ الصبي " إنه فطيرة الزنجبيل، يا غبيّة! "

" وفي قعر السلة عثروا أخيراً على زجاجة الشنابس ملفوفة بفوطةٍ مبلّلةٍ. صناعة أوتريش، هولندا، عام ١٩٢٦ . إلا أنها بالنسبة إلى الدببة الثلاثة كانت مجردَ زجاجة من الشنابس. والدببة، كما تعلمان، لا يستخدمون أبداً فتّاحات زجاجات، لذا كان نزعُ الفلينة عملاً صعباً عليهم ... "

قال ماكغريغور " إنك تائه "

قلتُ " هذا ما تظنّه أنت. فقط انتظر "

أجاب " حاول أن تنهيها قبل منتصف الليل "

" بل قبل ذلك، لا تقلق. ولكن إذا قاطعتني مرة أخرى فسوف أضيِّع السياق "

تابعتُ " والآن هذه الزجاجة كانت زجاجةَ شنابس عجيبة غريبة. كانت تتَّصفُ بمزايا سحرية. فعندما أخذ كلّ دب يشرب منها جرعةً كبيرةً، بدأَتْ رؤوسهم تفقدُ توازنها. ومع ذلك، كانوا كلما شربوا، ازدادت الكميّة المتبقية في الزجاجة. وكانوا يدوخون ويدوخون، ويترنَّحون ويترنَّحون، ويزدادون عطشاً. وأخيراً قال الدب القطبي "سأظلُّ أشربُ حتى أُنهي آخر قطرة "، ثم حملَ الزجاجة بين مخلبيه، وصبَّها في جوفه. وشربَ وشربَ، وأخيراً أتى على آخر قطرة منها. وانطرحَ على الأرض ثملاً، كالبابا، والزجاجة مقلوبة رأساً على عقب، وعنقها مغروز حتى منتصفه داخل حنجرته. وكما كنتُ أقول، كان قد ازدردَ لتوِّه آخر قطرة. ولو أنه أنزل الزجاجة لامتلأت من تلقاء ذاتها. لكنه لم يفعل. ظلَّ ممسكاً بالزجاجة وهي مقلوبة، ويشرب آخر قطرة بعد آخر قطرة. ومن ثم حدثتْ معجزة. إذ فجأة، عادت ذات الشعر الذهبي الصغيرة إلى الحياة، بملابسها وكل شيء، تماماً كما كانت دائماً. كانت ترقص فوق بطن الدب القطبي. وعندما بدأت تغنّي، استولى الفزعُ على الدببة الثلاثة حتى أغمي عليهم، أولاً الدب الرمادي، ثم الدب القطبي، ثم الدب الدُمية ... "

صفَّقَت الفتاة الصغيرة بيديها ابتهاجاً.

" والآن أتينا إلى نهاية الحكاية. كان المطرُ قد توقَّفَ عن الهطل، وعادت السماء صافية برَّاقة، والعصافير تغرِّد، تماماً كما في السابق.

وتذكَّرت ذات الشعر الذهبي الصغيرة فجأة أنها كانت قد وعدَتْ أن تعود إلى المنزل لتناول طعام العشاء. فحملَتْ سلَّتها، وتلفَّتت حولها لتتيقَّن من أنها لم تنسَ أي شيء، واتَّجهتْ صوب الباب. وفجأة تذكَّرتْ ناقوس البقرة، فقالت لنفسها " سيكون ممتعاً أن أقرعه مرة أخرى "، وبهذا اعتلتْ المقعد الصغير، ذاك الذي كان مناسباً، وقرعته بكلّ ما أوتيَتْ من عزم. قرعته مرةً، ومرتين، وثلاثاً - ثم فرَّتْ هاربةً بأسرع ما استطاعت قدماها الصغيرتان أن تحملاها. وفي الخارج كان الرجل الصغير ذو قلنسوة البُلَهاء في انتظارها. أَمَرَها قائلاً " أسرعي، اركبي على ظهري! هكذا سنضاعفُ السرعة ". قفزتْ ذات الشعر الذهبي على ظهره وانطلقا يسابقان الريح، يطويان الوِهاد، والمروج الذهبية، مروراً بالغدران الفضيّة. وبعد أن أمضيا في سباقهما هذا ثلاث ساعات، قال الرجل الصغير: " لقد نال التعبُ مني، سوف أُنزلك على الأرض "، وحطَّها حيثُ توقَّفا، عند حافة الغابة. قال " اتَّجهي يساراً ولن تضلِّي ". وانطلقَ من جديد، بشكلٍ غامضٍ كما كان قد ظهر ... "

غرَّدَ الصبي، وكأنما خاب أمله " أهذه هي النهاية؟ "

قلت " لا، ليس تماماً. والآن اسمع ... فَعَلَتْ ذات الشعر الذهبي كما أُمِرَتْ، وظلَّتْ سائرةً في جهة اليسار. وبعد مُضيّ دقائق قليلة جداً إذا بها واقفة أمام باب بيتها "

" قالت لها أمها " يا الله يا ذات الشعر الذهبي كم عيناكِ واسعتان! "

" فقالت ذات الشعر الذهبي " هكذا أفضل لكي ألتهمُكِ! "

" صرخَ والدها " وأينَ وضعتِ زجاجتي من الشنابس؟ "

" فقالت ذات الشعر الذهبي طائعةً " أعطيتها للدببة الثلاثة "

" قال الوالدُ مُهدِّداً " أنتِ تكذبين يا ذات الشعر الذهبي "

" أجابت ذات الشعر الذهبي " لستُ كاذبةً. إنها حقيقةُ الله ".
وفجأةً تذكَّرتْ ما كانت قد قرأته في الكتاب الكبير عن الإثم وكيف أن يسوع قد جاء لكي يمحو الإثمَ كلَّه. قالت، وهي تركعُ أمامه احتراماً " أبي، لقد ارتكبتُ إثماً "

" قال والدها، وهو يمدُّ يده ليتناول السوط، " بل ارتكبتِ ما هو أسوأ. لقد سرقتِ ". ودون أن يزيدَ كلمة أخرى أخذَ يجلدها بعنفٍ، وقال وهو يسوطها " لا يهمُّني إذا كذبت كذبةً صغيرة أحياناً. أما ما يهمُّني فألاّ توفِّري حتى قطرةً واحدةً صغيرةً من الشناتبس بينما حلقي ملتهبٌ وجافٌ ". وظلَّ يجلد ذات الشعر الذهبي ويسوطها إلى أن أصبحت كتلةً من الكدمات والرضوض. ومن ثم قال، على سبيل الختام " والآن، سوف أقدِّمُ لك شيئاً ممتعاً. سوفَ أحكي لك حكاية الدببة الثلاثة – وما حدث لزجاجتي من الشنابس ".

" وهذه، يا ولديَّ العزيزين، هي النهاية "

انتهت الحكاية ودُفِعَ الطفلان دفعاً إلى السرير. وباتَ في إمكاننا نحن أن نستقرَّ بارتياحٍ لكي نشرب ونتسامر. ولا شيء كان أحبُّ إلى نفس ماكغريغور من التسامُر عن الأيام الخوالي. كنا فقط في ثلاثينات عمرنا ولكن كان بيننا عشرون عاماً من الصداقة المتينة. ثم إن المرءَ في مثل تلك السن يشعرُ بأنه يتجاوزُ الخمسين أو الستين. وفي الحقيقة، كنتُ أنا وماكغريغور ما نزال نعيشُ فترة مراهقةٍ مُطوَّلَة.

كان ماكغريغور كلما عشقَ فتاةً جديدة بدا أن من الُملحّ بالنسبة إليه

أن يقومَ بزيارتي، ويحصل على موافقتي، ومن ثم يجلس ليتبادلَ معي وليمةً من الحديث الرومانسي المطوَّل. وكنا قد فعلنا ذلك مرات عدَّة حتى كاد الأمرُ يشبهُ العزفَ الثنائي. وكان من المفترض على الفتاة أن تكون جالسةً بيننا مبهورةً - تُقاطِعنا بين حين وآخر بطرحِ سؤالٍ وثيقِ الصلة بالموضوع، والعزف الثنائي يبدأ دائماً بأن يسألَ أحدنا إن كان الآخرُ قد قابلَ أو سَمِعَ مؤخراً أي خبر عن جورج مارشال. ولا أدري لماذا نختار غريزياً هذه الافتتاحيّة. لقد كنا أشبه بلاعبي شطرنج دائما يبدءان، بغضّ النظر عمَّن يكونُ الخصم، بالافتتاحية الاسكتلندية.

فأقولُ، بدون أي مناسبة، " هل رأيتَ جورج مؤخراً؟ "

" جورج مارشال؟ "

" نعم، وكأني لم أره منذ سنين "

" لا ، هن، في الحقيقة أني لم أره. أعتقد أنه ما زالَ يتردَّدُ على "الفيليج " في أمسيات أيام السبت "

" لكي يرقص؟ "

ابتسمَ ماكغريغور. " إذا شئت أن تسمِّيه هكذا ، يا هنري. أنت تعرفُ جورج! ". وسكتَ، ثم أضافَ " جورج رجلٌ غريبُ الأطوار. أعتقدُ أن معرفتي به الآن هي أقلّ من أي وقتٍ مضى "

" ماذا ؟ "

" كما أقول لك، يا هنري. ذاك الرجل يعيشُ حياةً مزدوجةً. يجب أن تراه في بيته، مع الزوجة والأولاد. لن تتعرَّفَ عليه "

اعترفتُ بأني لم أرَ جورج منذ أن تزوَّجَ. " لم أحبّ زوجته تلك قط "

" يجب أن تتحدَّث مع جورج عنها في وقتٍ من الأوقات. إن

نجاحهما في العيش معاً هو من قبيل المعجزة. إنه يمنحها كل ما تريد وفي المقابل يفعل هو ما يريد. يا إلهي، إن زيارتهما تشبه التزلّج على الديناميت. أنت تعرفُ الكلامَ الفارغ الذي ينغمسُ فيه جورج ... "

قاطعته " اسمع، أتذكُر تلك الليلة في غرينبوينت حين كنا جالسين في مؤخّرة معملٍ للجن وبدأ جورج حديثاً عن أمه، وكيف أشرقت الشمسُ وغربَت في طيزها ؟ "

" يا إلهي، يا هن، إنك تفكِّرُ في أشياء غريبة فعلاً. طبعاً أتذكُر. وأعتقد أني أذكُرُ كل حديثٍ دارَ بيننا، وزمن حدوثه ومكانه، وما إذا كنا سكارى أو واعين ". ثم التفتَ إلى تريكس. " هل نُسبِّبُ لكِ الملل؟ أنت تعلمين أننا نحن الثلاثة كنا ذات يوم أصدقاءَ حميمين. لقد أمضينا معاً أوقاتاً طيّبة، ألم تفعل يا هن؟ أتذكُر " ماسبث "- تلك المسابقات الرياضيّة؟ عندئذ لم يكن لدينا الكثير لنقلقَ بشأنه. دعني أتذكَّر، ألم تكن متورطاً مع أرملة، أم أن هذا حدثَ لاحقاً. اسمعي ما يلي، تريكس ... أمامك هذا الرجل الذي حالما تركَ المدرسةَ ارتبطَ بعلاقة حبٍ مع امرأةٍ عجوز تصلح أن تكون أمه. وأراد أن يتزوَّجها أيضاً، أليس كذلك يا هن؟"

ابتسمتُ وأومأتُ إيماءةً غامضة.

" إن هنري دائماً حازم. إنه من النوع الجادّ، وإن كان لا يبدو عليه... أما جورج. كما كنت أقول قبلاً، يا هن، إن جورج رجلٌ مختلف. إنه لا يعرف ماذا يريد. يكره عمله، يمقتُ زوجته، وأولاده يُضجرونه حتى الموت. لا يفكِّرُ إلا في النساء. يا إلهي، كم يحب ملاحقتهن! ولا ينتقي إلا الصغيرات في السن دائماً. في آخر لقاء لي معه كان وسط فوضى عارمة مع فتاة في الخامسة عشرة من العمر -

تلميذة في مدرسته. (لا زلتُ لا أستطيعُ أن أتصوَّر جورج مدير مدرسة، أتستطيع أنت؟) ويبدو أن العلاقة بدأت في عقر غرفة مكتبه. ثم تكرَّرتْ لقاءاتهما في صالة الرقص. وأخيراً تجرَّأ فصحبها إلى فندق - نزلا بوصفهما زوجاً وزوجة ... آخر ما سمعته عنهما أنهما كانا يعيشان في أرضٍ خلاء بالقرب من ملعب للكرة. ذات يوم، يا هن، سوف تتصدَّرُ أخبارُ هذا الرجل أنباء الصحف، ولن يكون ما يُكتَبَ عنه ساراً! "

هنا وَمَضَتْ في ذهني ذكرى، شديدة الحيوية والكمال. حتى أني عجزتُ عن تمالك نفسي. كان الأمر أشبه بفتح مروحةٍ يابانيّة. كانت الصورة مأخوذة من وقتٍ كنتُ فيه مع جورج ما زلنا توأماً، إن صح التعبير. حينئذ كنت أعملُ مع والدي، أي أني كنتُ في نحو الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من عمري. وكان جورج مارشال مُصاباً بحالةٍ حادَّةٍ من ذات الرئة فرضَتْ عليه ملازمة السرير شهوراً عِدَّة. وحين تحسَّنت صحته، دفعه والداه إلى السفر إلى بلد آخر - إلى مكانٍ ما في نيو جيرزي. وقد بدأ الأمر برمته حين استلمتُ رسالةً منه ذات يوم يقول لي فيها أنه يستعيد عافيته بسرعةٍ ويدعوني إلى زيارته. وكنتُ أكثر من سعيد بالفرصة التي أتيحت لي لأسترقَ فترةَ إجازةٍ من بضعةِ أيامٍ، فبعثت إليه بتلغرافٍ أقول فيه إني سأوافيه في اليوم التالي.

كان الوقتُ أواخرَ الخريف، والريف كئيباً. قابلني جورج في المحطة يصحبه ابن خالته الصغير، " هربي ". (كانت المزرعة تديرها خالته وزوجها). الكلمات الأولى التي خرجت من فمه - وكما توقَّعت - مفادها أن أمه هي التي أنقذت حياته. وعبَّرَ عن فرحٍ غامرةٍ لمشاهدتي وبدا في حالةٍ صحّيةٍ جيدة. كان أسمر اللون مسفوعاً بأشعَّة الشمس.

قال " الطعامُ هنا رائعٌ يا هنري؛ إنها مزرعةٌ حقيقية "

أما لعينيّ فبدت أشبه بأي مزرعة أخرى - بالية، قذرة، ومتهدِّمة. كانت خالته مخلوقةً بدينةً، رقيقة القلب ورؤوماً وبدا أن جورج يعبدها، كما لو كانت أمه. وكان " هربي "، الابن، أحمقَ - وثرثاراً أيضاً. أمَّا ما لفتَ انتباهي على الفور فنظرة الانشداه في عينيه. كان واضحاً أنه يؤلّه جورج. ثم إنَّ الطريقةَ التي كنا نتحدثُ بها كانت جديدة عليه. وكان من الصعب التخلُّص من سَيْرِه في إثرنا.

كان أول ما فعلناه - وأَذكره جيداً - أننا شربنا كأساً من الحليب. الحليب الكامل الدسَم. حليب لم أذُق مثيلاً له منذ أن كنتُ صبياً صغيراً. قال جورج " اشرَبْ منه ملء خمسة كؤوس أو ستة في اليوم " . واقتطع لأجلي شريحةً سميكة من الخبز المنزلي، ومدَّ عليها زبداً ريفيّاً، وفوقه قدرٌ من المربى المنزلية.

" ألمْ تُحضر معك بعض الملابس القديمة يا هنري؟ "

اعترفتُ بأني لم أفعل.

" لا عليك، سأعيرك من ملابسي. هنا يجب أن ترتدي ملابس قديمة. سوف ترى "

وجَّه نظرةً حادَّةً إلى " هربي ". " أه، هربي؟ "

كنتُ قد وصلتُ على متن قطارِ بعد الظهر. والآن بدأتْ الظُلمةُ تسود. " بدِّل ملابسكَ يا هنري، وبعدها سوف نتمشّى قليلاً. لن يجهز طعام العشاء قبل الساعة السابعة. ويجب أن نعدَّ شهيتنا له "

قال هربي " نعم، سوف نأكل دجاجاً هذه الليلة "

ثم سألني بعد ذلك مباشرةً إن كنتُ عداًء جيداً.

غمزني جورج غمزةً ماكرةً. " إنه مجنون بالألعاب، يا هنري "

حين قابلتهما عند أسفل الدرج أعطياني عصا طويلة، وقال هربي "الأفضل أن ترتدي قفازك "

ورمى إليّ بلفاعٍ صوفيّ كبير.

قال جورج " هل أصبح كل شيء جاهزاً؟ هيا بنا، لنسرع "، وانطَلَقَ بسرعةٍ كسرٍ الأرقام القياسيّة.

قلت " ولمَ العجلة؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ "

قال هربي " إلى المحطة "

" وماذا يوجد هناك؟ "

" سوف ترى، أليس كذلك يا جورج؟ "

كانت المحطة مكاناً مهجوراً، موحشاً. يقفُ فيه صفٌّ من سيارات الشحن، في انتظارِ قدور الحليب، دون شك "

قال جورج، وهو يخفِّفُ سرعته قليلاً ليتساوى مع خُطاي، " اسمع، الفكرة الأساسية هي أن تكونَ في المقدِّمة. أنت تعرف ما أعني! ". تكلَّم بسرعة، بكلماتٍ مُغمغِمة، وكأنَّ لِما نفعله طابعاً سرّياً. " حتى الآن لم يكن هناك غيري أنا وهربي: وكان علينا أن نمرح معاً. لا داعي للقلق، يا هن. سوف تفهم قريباً. فقط اتبعني "

ازدادتْ حيرتي أكثر فأكثر بهذه المعلومة الدونكيخوتيّة. وبينما نحن نهرول أصبحَ هربي مكهرباً تماماً، وكان يبربر كديك حبش عجوز.

فتحَ جورج باب المحطة بهدوء، وخِلسةً، وألقى نظرةً إمعان إلى الداخل. فرأى سكيراً عجوزاً يغفو على المقعد الطويل. قال جورج، وهو يختطف قبعتي ويحشر قلنسوة عتيقة في يدي. " خُذ، ارتدِ هذه! "،

ويُقحِم بدعةً غريبة الشكل على رأسه ويُثبِّت رقعةً على معطفه. وأمرني قائلاً " ابقَ أنت هنا، وسأفتح أنا المحل. فقط افعل كما يفعل هربي وسوف تكون في أحسن حال ".

بينما جورج يغوصُ داخل غرفة المكتب ويفتح شبَّاك بيع البطاقات. كان هربي يجرُّني من يدي، ويقول، لدى اقترابه من الشبَّاك الذي كان جورج يقفُ لتوّه فيه، متظاهراً بأنه ينظِّم جدول القطار. " بدأ الأمرُ، يا هن"

يقول هربي بصوتٍ رعديد، " سيدي، أريد أن أبتاعَ بطاقة "

يقول جورج، عابساً، " بطاقة إلى أين؟ لدينا هنا كافّة أنواع البطاقات. أتريد درجة أولى، أم ثانية، أم ثالثة؟ دعنا نرى، إن اكسبريس ويهوكن ينطلقُ من هنا بعد نحو ثماني دقائق، ويرتبط مع قطارات دنفر وريو غرانده في نقطةِ اتصال أوماها. أمعك أمتعة؟ "

" أرجوك يا سيدي، لا أعرفُ بعد إلى أين أريد أن أذهب "

" ماذا تعني أنك لا تعرف إلى أين تريد أن تذهب؟ أين تظن نفسك - في مركز اليانصيب؟ مَنْ ذاك الواقف وراءك؟ أقريبٌ لك؟ "

استدارَ هربي لينظر إليّ ويغمز بعينه.

" إنه قريبٌ لي، يا سيدي، يريد أن يذهب إلى وينيبغ، لكنه ليس متأكداً متى "

" قُل له أن يقترب مني. ما به - أهو أصمّ أم أنه فقط ثقيل السمع؟ "

دفعني هربي أمامه. تبادلنا النظر، جورج مارشال وأنا، وكأننا لم نتقابل مرة في حياتنا.

وأقولُ " لقد أتيتُ لتوِّي من وينيبغ. أما مِنْ مكانٍ آخر أذهبُ إليه؟ "

" أستطيعُ أن أبيعك بطاقةً إلى نيو برونسويك، لكنك لن تجد فيها أحداً. يجب أن نتوصَّل إلى حل وسط، في الواقع. إليك بطاقة جميلة إلى سبايتن دوفيل - ما رأيك؟ أم أنك تفضِّل مكاناً أكثر ترفاً؟ "

" أريدُ أن أمرَّ بالبحيرات العظمى، إذا أمكنكَ ترتيب ذلك "

" أُرتِّب ذلك؟ إنه عملي! كم شخصاً في الرحلة؟ أهناك قطط أو كلاب؟ أظنُّكَ تعلم أنَّ مياه البحيرات متجمِّدة الآن؟ ولكنك يمكن أن تحصل على قارب الانزلاق على الجليد على هذا الجانب من كاناناديغوا. لا أظنني بحاجةٍ إلى أن أرسم خريطةً لتستدلَّ بها؟ "

ملتُ إلى الأمام وكأنما لأُسِرَّ له بأمرٍ خاصٍ وسرِّي.

صرخَ، وهو يضربُ مسطرةً بقوة على النُضُد، " لا تهمس! هذا مخالف للأنظمة ... والآن، بماذا تريد أن تفضي إليّ؟ تكلَّم بوضوح وتوقَّف عند الفواصل والفواصل المنقوطة "

قلت " الأمرُ يتعلَّق بتابوت "

" تابوت؟ لماذا لم تقُل هذا فوراً؟ انتظر دقيقة، يجب أن أبعثَ برقيةً إلى مدير الشحن "، وذهب إلى المبرقة وأخذ ينقرُ المفاتيح. " يجب أن نرتِّبَ مساراً خاصاً. إنَّ شحن المواشي والجثث يتطلَّبُ مساراً مختلفاً. إنها تفسُدُ سريعاً ... أيوجدُ أي شيء آخر في التابوت غير الجثة؟ "

" نعم يا سيدي، زوجتي "

" أُغرب عن وجهي قبل أن أنادي الشرطة! "، وأغلقَ الشبَّاك بقوة. ثم سمعتُ جَلَبَةً هائلةً داخل الخُمّ، وكأنَّ مدير المحطة الجديد أُصيبَ بسُعرٍ قاتل.

ويقول هربي " أسرع، هيا نهرب من هنا. أعرفُ درباً مختصرة، هيا

بنا! "، ويقبضُ عليّ من يدي ويجرّني إلى الخارج من الباب الآخر، الكائن خلف صهريج المياه. ويقول " انخفضْ، بسرعة، وإلا رأونا "، وننطرح في بركةٍ من المياه القذرة تحت الصهريج. ويقول هربي، وهو يضع إصبعه على شفتي " ششش ! قد يسمعونك "

نستلقي هناك بضع دقائق، ثم ينهض هربي على أربع، بحذرٍ، ويتلفّتُ حوله. وكأننا قد وقعنا في الفخ فعلاً. " ابقَ أنت هنا دقيقة وسأرتقي أنا السلّم بسرعةٍ وأرى إن كان الصهريجُ فارغاً "

قلتُ في نفسي " إنهما مجنونان ". وفجأة تساءلتُ ما الذي يُجبرني على الارتماء في المياه الباردة القذرة. وهتفَ هربي بصوتٍ منخفض: " تعالَ اصعد، المكان خال. نستطيعُ أن نختبئ هنا قليلاً ". وبينما كنتُ أقبضُ على الرافدة الحديدية شعرتُ بالريح تهبُّ عليّ بدفقاتٍ شديدة البرودة. ويقول هربي " لا تقفز إلى الداخل، الصهريج نصف ملآن ". فارتقيتُ حتى أعلاه ثم تدلّيتُ إلى داخل الصهريج بيدين متجمِّدتين.

سألتُ بعد مرور بضع دقائق " كم من الوقت سنبقى هكذا ؟ ". ويقولُ هربي " ليس طويلاً. إنهم يبدِّلون الحرس الآن. أتسمعهم؟ سوف تكون لديه مدفأة لذيذة مشتعلة "

حين ارتقينا إلى خارج الصهريج كان الظلامُ قد حلَّ وهرعنا نقطع الفناء نبغي نهاية قطار الشحن الراسي على الخط الجانبي. كنت متجمِّداً تجمُّداً كاملاً. كان هربي على حقّ، فحالما فتحنا باب حافلة قطار الشحن الأخيرة وجدنا جورج جالساً أمام مدفأة تستعر نارها، يُدفئ يديه.

يقول " اخلع معطفكَ، يا هن، وجفِّفْ نفسك ". ثم مدَّ يده عالياً إلى

خزانةٍ صغيرةٍ وأنزلَ منها دورقاً من الويسكي. " هاك، خذ رشفةً كبيرةً – إنه ديناميت ". ففعلتُ كما قال، ثم أعدتُ الدورق إلى جورج الذي تناولَ بدوره جرعةً كبيرةً، وأعطاه للصغير هربي.

ويقولُ جورج لهربي " ألم تجلب أي مؤن؟ "

يقول هربي، وهو يُخرجُها من جيوبه، " سنونو مشقشق وحبّتيّ بطاطا "

" والمايونيز؟ "

يقول هربي " لم أجده، بشرفي "

هدَرَ جورج مارشال قائلاً " في المرة القادمة أريد مايونيزاً، مفهوم؟ كيف بحقّ الجحيم تتوقَّع مني أن آكل بطاطا مشوية دون مايونيز؟ ". ثم، ودون فترة انتقال، تابعَ قائلاً: " الفكرة الآن هي أن نزحفَ تحت العربات إلى أن نقترب من المحرِّك. وعندما أُصفِّرُ تزحفان أنتما الاثنان خارجَيْن من الأسفل وتركضان بأسرع ما في وسعكما. اطرقا الدربَ المختصَرَة المؤدِّية إلى النهر، وسوف نتقابل تحت الجسر. خُذ يا هن، يُستحسَن أن تتناول جرعةً أخرى من هذا ... المكان بارد هناك. في المرة القادمة سوف أقدِّمُ لك سيجاراً – ولكن لا تأخذه! كيف تشعر الآن؟ "

شعرتُ أني في أحسن حال حتى أني لم أرَ أي مبررٍ للإسراع في الرحيل. غير أنَّه كان واضحاً أنَّ خطَّتهما تقضي بتنفيذها في توقيتٍ صارم.

غامرتُ بالسؤال " وماذا عن السنونو والبطاطا؟ "

ويقول جورج " هذه للمرة القادمة. لا نستطيعُ أن نتحمَّل البقاء في هذا الفخ:، ثم التفتَ إلى هربي، " هل المسدس معك؟ "

انطلقنا من جديد، زاحفين تحت قطارات الشحن وكأننا من الخارجين عن القانون. وفرحتُ لأن هربي أعطاني اللفاع الصوفي. ومع إطلاق الإشارة المُتّفق عليها انبطحنا أنا وهربي تحت العربة في انتظار صفير جورج.

همست " ما هي الخطوة التالية؟ "

" ششش! قد يسمعونك "

بعد مرور بضع دقائق سمعنا صفيراً خفيضاً، فزحفنا خارجين من تحت، وأطلقنا سيقاننا للريح هابطين الوهد باتجاه الجسر ومن جديد قابلنا جورج، جالساً تحت الجسر، ينتظر. ويقول " أحسنتما التصرف. لقد أفلتنا منهم حقاً. والآن اسمعا، سوف نرتاحُ دقيقة أو اثنتين ومن ثم نتوجّه إلى ذاك التل هناك، أتريانه؟ "، والتفتَ نحو هربي. " هل المسدّس ملقّم؟ "

تفحّصَ هربي المسدّس العتيق الصَدِئ، وأومأ إيجاباً، ثم أقحمه ثانية في الجراب.

ويقولُ جورج " تذكّر، لا تُطلق النار إلا في حالةِ الضرورة القصوى. لا أريدك أن تقتل مزيداً من الأطفال بالمصادفة، أتفهم؟ "

هزَّ هربي رأسه ولمعَ ومضٌ في عينيه.

" الفكرة، يا هن، هي أن نصلَ إلى أسفل ذاك التلّ قبل أن يُطلقوا صفّارة الإنذار. وحالما نصلُ إلى هناك نَسْلَمْ. سوف نلتفّ عن طريق المستنقع قاصدين المنزل "

انطلقنا عدواً، ونحن منحنون. وسرعان ما بلغنا أعشاب الديس وأخذ الماءُ يرتفعُ فوق أحذيتنا. تمتمَ جورج " احذرا المتشردين ". ووصلنا

إلى أسفل التلّ دون أن يكتشف أحد أمرنا، واسترحنا هناك قليلاً، ثم انطلقنا بخطى نشطةً لنلتفَّ حول المستنقع. وأخيراً وصلنا إلى الطريق العامة حيثُ بدأنا نسير الهوينا.

يقول جورج " سنصل إلى المنزل في غضون بضع دقائق. وسوف ندخل من المدخل الخلفي ونبدِّل ملابسنا. والسبب هو أمي "

سألتُ " أأنتَ واثق من أننا تخلّصنا منهم؟ "

يقول جورج " كل الثقة "

ويقولُ هربي " في آخر مرة لحقوا بنا حتى الحظيرة "

" ماذا يحدث إذا ما قبضوا علينا؟ "

مرَّرَ هربي جانب يده عبر نحره.

غمغمت ببعض كلماتٍ تفيدُ بأني لستُ متأكِّداً من أني أريدُ أن أتورَّط في الأمر.

يقول هربي " لا خَيارَ لك. إنه عِداءٌ مُستحكم "

يقولُ جورج " سنزوِّدك بالتفاصيل غداً "

في الغرفة الرحبة في الطابق العُلوي كان هناك سريران، واحدٌ لأجلي، والآخر لهربي وجورج. وفي الحال أضرمنا النار في المدفأة الضخمة، وبدأنا نبدِّلُ ملابسنا.

يقولُ جورج " ما رأيك أن تدلِّكني "، وهو يخلع قميصه الداخلي، "إنني أتلقّى التدليك مرَّتين في اليوم. أولاً بالكحول ثم بدهن الإوز. لا شيء يضاهيه، يا هن "

تمدَّدَ على السرير الكبير وباشرتُ العملَ. ورحتُ أدلِّكه حتى آلمتني يداي.

يقول جورج " والآن استلقِ أنت، وسوف يقوم هربي بتدليكك وسيجعل منكَ رجلاً جديداً "

فعلتُ كما أشارَ. كان بالفعل شيئاً ممتعاً. فقد أخذ دمي يخزني، ولحمي يتّقد. وانفتحتْ شهيتي بشكلٍ لم أعهده منذ زمنٍ بعيد.

يقول جورج " هاأنتَ ترى لماذا ألجأ إلى هذا المكان. بعد تناول طعام العشاء سوف نلعب دوراً من البينوكل - فقط لإسعاد الرجل العجوز - ومن ثم نأوي إلى الفراش "

ثم أضافَ " بالمناسبة، يا هن. انتبه إلى كلامك. ممنوع الشتائم والسباب أمام العجوز. إنه رجلٌ تقليدي. ونحن نتلو صلاة المائدة قبل تناول الطعام. حاول ألاّ تضحك! "

يقول هربي " لكنك سوف تفعل ذلك على أي حال ذات مساء. قُل أي شيء يخطر على بالك. لا أحد يسمع ما يُقال، في كل الأحوال "

على مائدة الطعام تمَّ تقديمي إلى العجوز. كان يمثّلُ المزارع النموذجي - يدان خشنتان ضخمتان، ولحية غير حليقة، ويفوحُ برائحة البرسيم والسماد الطبيعي، قليل الكلام، يتناول الطعام التهاماً، يتجشّأ، يُخلِّل أسنانه بشوكةِ الأكل ويتذمّر مما يعاني من آلام الروماتيزم. وتناولنا جميعاً كمياتٍ هائلة من الطعام. وكان يصحبُ الدجاج المشوي ما لا يقلُّ عن ستة أنواع أو سبعة من الخضار، تبعَهُ بودنغ الخبز اللذيذة، والفاكهة والجوز بأنواعه كافة. والجميع ما عداي شربوا الحليب مع الطعام. ثم جاءت القهوة مع كريما أصليّة وفول سوداني مملّح. وكان لابد لي من أن أفتح حزامي بمقدار ثلمين.

فور انتهاء تناول الطعام ورفع المائدة أُحضِرَتْ أوراق اللعب المزيّتة.

واضطرَّ هربي إلى مساعدة أمه في غسل الأطباق بينما كنا أنا وجورج والعجوز نلعب لعبة البينوكل بثلاثة لاعبين. وكانت الفكرةُ، كما شرحها جورج للتو،تَرْكُ اللعب في يد العجوز، وإلاّ أصبح ضيِّقَ الخُلُق وفظاً. ولكن بدا أني ماهرٌ جداً في اللعب، وكان صعباً عليَّ أن أخسر. لكني بذلتُ أقصى جهدي، دون أن أجعل ذلك شديد الوضوح. وربح العجوز بصعوبة. وفرحَ كثيراً بنفسه. وعلّقَ قائلاً " بوجود يديك الماهرتين كان يمكن أن أخسر في غضون ثلاثة أدوار "

قبل أن نصعد إلى الطابق العُلوي لقضاء الليل أدارَ هربي بضع أسطوانات أديسون. إحداها كانت مقطوعة " نجوم وشرائط إلى الأبد "، بدت كأنها شيء من تجسُّدٍ آخر.

يقول جورج " أين مُسجِّل الضحك ذاك يا هربي؟ "

غاصَ هربي داخل صندوقٍ قديمٍ للقبعات وبإصبعَين أخرجَ ببراعةٍ أسطوانة قديمة[١٤٣] من الشمع. كان مُسجِّلاً لم أسمع قط بمثله. لا يسجِّلُ إلا الضحك - ضحك إنسانٍ أخرق، أو معتوه، أو ضبع. وغاليتُ في الضحك حتى آلمني بطني.

يقول جورج " هذا لا شيء. انتظر حتى تسمع ضحك هربي! "

توسَّلتُ إليه " ليس الآن! وفرِّهُ إلى الغد "

حالما وضعتُ رأسي على الوسادة رحتُ في نومٍ عميق. وأي سرير! كله ريش زغبي. وثير - وكأنَّ هناك أطناناً منه. شعرتُ كأني أنزلقُ عائداً إلى الرحم، أتأرجحُ في عالمِ النسيان. كان نعيماً. نعيمٌ صِرف.

آخر كلمات جورج لي كانت " هناك إناءٌ للتبوُّل تحت السرير، في

---

١٤٣ - المقصود هنا شكل أسطواني كان يُستَخدَم في أوائل القرن العشرين لتسجيل الأصوات عليه . - المترجم

حال احتجته "، لكني لم أتصوَّر نفسي أغادر ذلك السرير، ولا حتى لكي أتغوَّط.

في منامي تراءى لي أني أسمعُ ضحكةَ الأخرقِ المهووسة. كان صداها تُرَدِّدُه مقابضُ الأبواب، والخضروات الطازجة، والإوزّ البري والنجوم المائلة، والملابس المبللة المرفرفة على حبل الغسيل. رأيتُ فيه حتى والد هربي، ذلك الجانب منه الذي يُفسِحُ المجالَ أحياناً للمرحِ الكئيب. كان يأتي من مكان بعيد، نشازاً ومنافياً للمنطق وللعقل. كان ضحكَ عضلاتٍ تتوجَّعُ، ومرور الطعام خلال الحجاب الحاجز، وزمنٍ يُبَدَّدُ بحماقة، وملايين الأشياء التافهة المتوائمة معاً بتناغمٍ في أُحجيةِ صورٍ مقطوعةٍ ضخمةٍ وتثيرُ إحساساً خارقاً، وجمالاً خارقاً، وسعادة خارقة. ما أسعد حظ جورج مارشال لأنه أُصيبَ بالمرض وكاد يموت! وفي منامي حمدتُ خالق الكون العظيم لأنه أعدَّ كل شيء بسموٍ فائقٍ. ورحتُ أنزلقُ من حُلمٍ إلى حلمٍ آخر، ومن الحلم إلى السُبات العميق الأنجع من الموت نفسه.

استيقظتُ من النوم قبل الآخرين، راضياً، متجدِّداً، ساكن الأطراف فيما عدا اهتزاز الأصابع دلالة السرور. وكان تنافُرُ الأصواتِ الصادر عن فناء المزرعة موسيقى بالنسبةِ إلى أذني. الحفيفُ والحكُّ، وارتِطامُ الدلاء، وصياحُ الديَكَة، والطقطقة، وشقشقة العصافير، وقوقأة الدجاج وقباعُ الخنازير، والصراخ الحادّ، والصهيل، وصوت قطارٍ بعيدٍ يشقُّ طريقه، وانسحاق ثلجٍ قاسٍ، وصفعُ الريح وعصفُها، وصوتُ محورٍ صدِئ يتحرَّكُ. وزند خشب يئزُّ تحت ضغط المنشار، وصوت وطء جزمة ثقيل تسير بخطى مُجهَدّة، شاقَّة - اجتمعت كلها لتكوِّن سيمفونيّة مألوفةٍ

لأذني. هذه الأصوات القديمة الأليفة، هذه الصرخات، والقوقأة، والأصداء وترجيعات فناء الحظيرة ملأتني بفرحٍ أرضيّ. حتى وأنا مُعدَمٌ ومتقلّب الحال، سمعتُ أيضاً غناء الإنسان الأول العريق، الأغنية القديمة، السحيقة في القِدَم - عن الرخاء والوفرة، عن الحياة أينما تجدها، عن السماء الزرقاء، والمياه الجارية، والسلام والسرور، عن الخصوبة والانبعاث، والحياة السرمدية، الحياة الأغنى، الحياة الخارقة في غناها. أغنيةٌ تبدأ في عُمق الأحشاء، تتغلغل في الشرايين، تُرخي توتُّرَ أطراف الجسم وأعضائه كلها. أه، ولكن، الحق يُقالُ ممتعٌ أن يكونَ المرءُ حياً - ومستلقياً. وبدأتُ من جديد، وأنا في كامل يقظتي، أقدِّمُ شُكري لأبينا الذي في السماء لأنه ابتلى توأمي، جورج مارشال. وبينما أنا أعبِّرُ عن شكري الورع، وأحمدُ الله على معجزاته القُدسيّة، وأُمجِّدُ إبداعه، تركتُ أفكاري تنساق نحو طعام الإفطار الذي كان دون شك في طور الإعداد، ونحو الساعات، والدقائق، والثواني، الطويلة، التي تمتدُّ بتكاسُلٍ قبلَ أن يصلَ النهارُ إلى نهايته. لم يكن يهمُّ كيف نملأ النهارَ، ولا إنْ تركناهُ فارغاً كيقطيمة؛ همُّنا الوحيد كان أنَّ الوقتَ مُلكَنا وأنَّ في وسعنا أن نستغلَّه كيفما نشاء.

عندئذٍ كانت شقشقة العصافير قد أضحت أكثر حيويّة. كنتُ أسمعها ترفرفُ بأجنحتها متنقِّلةً من ذروة شجرة إلى أخرى. تضربُ برفرفتها زجاجَ النوافذ، مندفعةً بسرعةٍ من تحت طنف السقف.

" صباح الخير، هن! صباح الخير، هن! "

" صباح الخير، جورج! صباح الخير، هربي! "

" لا تنهض بعد، يا هن ... هربي سيُضرمُ النار أولاً "

" أوكيه. هذا رائع "

" كيف كان نومك؟ "

" فوق السحاب "

" هاأنتَ ترى لماذا لا أرغبُ في الشفاء سريعاً "

" يا لك من رجلٍ محظوظ. ألستَ سعيداً لأنك لم تُمت؟ "

" اعلمْ يا هن أني لن أموتَ أبداً. لقد وعدتُ نفسي بذلك وأنا أحتضر. إن البقاءَ على قيد الحياة أمرٌ رائع "

" معك كلُّ الحق. ما قولك يا جورج في أن نضحك عليهم جميعهاً ونعيشُ إلى أبد الآبدين. ما رأيك؟ "

نهضَ هربي من فراشه ليُشعِلَ النار، ثم زحفَ عائداً إلى الفراش وأخذ يضحك بصوتٍ خافت ويهدل.

سألته " والآن ماذا سنفعل؟ نستلقي هنا حتى يرنَّ جرس الطعام؟ "

قال هربي " بالضبط "

" رأيي يا هن أن تنتظر حتى تتذوَّقَ فطائرَ الذرة التي تصنعها أمه. إنها تذوب في فمك ذوباناً "

سأل هربي " كيف تحبُّ البيضَ؟ أمسلوقاً، أم مقليّاً، أم مخفوقاً ومقلياً؟ "

" لا يهُم، يا هربي. أي طريقةٍ قديمة. البيض بيض. أستطيع أيضاً أن أمصَّه نيئاً "

" مع لحم الخنزير، يا هن، هو الأفضل. سميك مثل إبهام يدك "

هكذا بدأتْ الثواني الأولى من النهار، وتبِعتها ثوانٍ كثيرة أُخَر، وكلها بالنبرة نفسها. وكما قلتُ سابقاً، حينئذٍ كنا في عُمر الثانية

والعشرين أو الثالثة والعشرين، وما نزالُ نعيشُ عهد مراهقتنا. لم نكن نفكِّرُ إلا في اللعب. وفي كل يوم لعبة جديدة، مفعمةٌ بالأعمال الجسور المثيرة. وكما قال جورج فإنَّ " القيام بالمبادرة " كان سهلاً كالتنفُّس. وبين وقتٍ وآخر كنا نلعبُ نطَّ الحبل، ورمي الحلقات، ونقر الكلّة، والضفدعة النطاطة. بل لقد لعبنا المطاردة واللمس (الطمِّيمة). وفي المرحاض، الذي كان يقعُ خارج المنزل، احتفظنا برقعة شطرنج حيث كانت دائماً تنتظرنا مسألةٌ تتطلَّبُ الحلَّ. وكثيراً ما كنا نتبرَّزُ معاً. وما أغرب الأحاديث التي كانت تدورُ في ذاك المرحاض! كانت هناك دائماً معلومةٌ صغيرةٌ نذكرها عن والدة جورج، ماذا فعلتْ لأجله، وكيف أنها كانت ملاكاً، وما إلى ذلك. وذات مرة باشرَ الحديث عن الله، وكيفَ أنه "يجب" أن يكون موجوداً، بما أنَّ الله وحده قادرٌ على إنقاذه من محنته. وأنصتَ هربي إليه في خشوعٍ - كان يعبد جورج.

ذات يوم تنحَّى جورج بي جانباً ليُخبرني أمراً سريّاً. اتفقنا على أنْ نُفلتَ من هربي مدة ساعة أو نحوها، لأنه كانت هناك فتاةٌ قروية وأرادني أن أقابلها. كان يمكن أن نقابلها بالقرب من الجسر، بعد حلول الظلام، بإشارةٍ مُتَّفقٍ عليها.

قال جورج، ونحن نحثُّ خطانا إلى المكان المُحَدَّد، " تبدو في العشرين مع أنها ما زالت طفلة. وهي عذراء طبعاً، لكنها شيطانة قذرة. لن تستطيعَ يا هن أن تحصل منها إلا على بعض اللمس اللذيذ. لقد جرَّبتُ معها كلَّ الطُرُق، ولكن لا فائدة ".

اسمها كيتي. يناسبها. كانت فتاةً بسيطةَ المظهر، لكنها تضجُّ بالحيوية والفضول. تتفوَّقُ على القرود.

يقول جورج، ونحن نقتربُ منها، " مرحبا، كيف الحال؟ أُقدِّمُ لكِ صديقي، قادمٌ من المدينة "

كانت يدها تنبضُ بالدفء والشهوة. حسبتُ أنها تحمرُّ خجلاً. ولكن لعلّه فقط بسبب تفجُّر الصحة على وجنتيها.

" أعطِه ضَمَّة وعَضَّة "

طوَّقَتني كيتي بذراعيها وضغطت جسدها الدافئ بقوةٍ على جسدي. وسرعان ما زَلَقَتْ لسانها إلى حنجرتي. وعضَّتْ شفتيَّ، وشحمتيّ أذنيّ، وعنُقي. أدخلتُ يدي تحت تنورتها ثم إلى داخل شقّ درج فانلتها. لا اعتراض. وبدأت تئنُّ وتغمغم. وأخيراً وَصَلَتْ إلى الرعشة.

" ما رأيكَ، يا هن؟ ماذا قلتُ لك؟ "

تحدَّثنا قليلاً ريثما تستردَّ كيتي أنفاسها، ثم شبَّ جورج عليها. كان الجو بارداً ورطباً تحت الجسر، لكننا نحن الثلاثة كنا نشتعلُ كالنار. ومرة أخرى حاول جورج أن يلجها، لكن كيتي نجحتْ في التملُّص.

أقصى ما استطاع أن يفعله أن يضعه بين ساقيها، وهناك تمسَّكتْ به بشدَّةٍ كتمسُّكها بالرذيلة.

في طريق عودتنا سألتْ كيتي إن كان في استطاعتها أن تزورنا أحياناً - بعد رجوعنا إلى المدينة. إنها لم تذهب قط إلى نيويورك.

قال جورج " طبعاً. اطلبي من هربي أن يُحضرَكِ. إنه يعرفُ الطريق"

قالت كيتي " ولكن لن يكون معي أي نقود "

قال جورج صاحب القلب الكبير " لا عليك من ذلك، نحن سنعتني بك "

سألتها " أتظنين أن أُمكِ ستتشوقُ بك؟ "

أجابت كيتي بأن أمها لن تأبه بما تفعل. " المشكلة هي في والدي؛ إنه يعملُ على استغلالي حتى آخر رمق "

قال جورج " لا عليكِ، دعي الأمر لي "

عند الافتراق رفعتْ ثوبها بملء إرادتها، ودعتنا إلى أن نتحسَّسه لها ونُمتِّعها للمرة الأخيرة.

قالت " ربما لن أكونَ حييّة كثيراً حين أصلُ إلى المدينة "، ثم مدَّتْ يدها بتهوُّرٍ إلى فتحتيّ بنطالينا، وأخرجت أيرينا، وقبَّلتهما - بشبهِ ورعٍ. وهمست " سأحلمُ بكما هذه الليلة "، وكادت الدموع تطفرُ من عينيها.

قال جورج، ونحنُ نلوِّحُ لها مودِّعين، " إلى الغدّ "

" أترى ما أعني، يا هن؟ يا إلهي، إذا استطعتَ أن تحصلَ عليها فسيكون لديك ما تتذكَّره "

" خصيتيَّ تؤلماني "

" أكثِرْ من شرب الحليب والكريما. سيفيدك "

" أعتقد أني أُفضِّلُ أن أحلبه "

" هذا ما تظنُّه الآن. أما في الغد فسوف تتحرَّق لتقابلها. اسألني أنا. إنها تجري في دمي، تلك العاهرة الحقيرة ... إياكَ أن تُخبر هربي بهذا، يا هن. سوف يُصَاب بالرعب. إنه مجرَّد ولد صغير بالمقارنة معها. أعتقد أنه يحبّها "

" ماذا سنقولُ له لدى عودتنا ؟ "

" دع الأمر لي "

" وأبوها - ألم تفكِّر في هذا ؟ "

" أنتَ قُلتها، يا هن. إذا ما قبضَ علينا فسوفَ يقطع خصيتينا "

" شيء مُفرح "

قال جورج " يجب أن تستغلَّ الفرصةَ. هنا في الريف كلّ الفتيات شبقات إلى الجنس. إنهنَّ أفضل بكثير من قذارة المدينة، كما تعلم. رائحتهنَّ نظيفة. خُذ، شُمَّ أصابعي - أليست لذيذة؟ "

تسالي صبيانيّة ...ومن إحدى أبهج الأمور الركوب بالدور على دراجة عتيقة كانت تخصُّ أخت هربي المتوفاة. وكان منظر جورج مارشال، الرجل الكامل النموّ، وهو يدفعُ دوّاستيّ تلك الدراجة السخيفة مشهداً يُشفي العيون الرمداء. وكانت مؤخّرته من الضخمة بحيث أنه كان يضطرُّ إلى حشرها داخل المقعد مستعيناً بكل طاقةٍ ووسيلة. وكان يعملُ بكل نشاط على القيادة بيد، ورنّ جرس الأبقار بالأخرى. وبين حين وآخر كانت سيارةٌ تتوقَّفُ لأجله، ظناً من أصحابها أنه مُعاقٌ يعاني من مشكلة: ويدعهم جورج يترجّلون منها ليرافقونه إلى الجانب الآخر من الشارع، مدَّعياً أنه بحقّ مشلول. أحياناً كان يستجدي سيجارةً أو يطلب بضعةَ بنسات. ودائماً بلهجةٍ أيرلندية قوية، وكأنه قادمٌ للتو من البلد العتيق.

ذات يوم لمحتُ عربةَ جرّ أطفال قديمة في الحظيرة. وخطرَ لي أنه سيكون مما يبعثُ على مزيدٍ من المرح إذا ما أخذنا جورج مارشال في نزهةٍ فيها. ولم يعترض جورج. أحضرنا قلنسوة أطفال ذات شرائط ودِثار أحصنة لتغطيته. لكنَّ المحاولات باءت بالفشل لإدخاله إلى العربة. لذا تمَّ انتخابُ هربي ليحلَّ محلّه. وألبسناه حتى أصبحَ أشبه بدُميةٍ صغيرةٍ ممتلئة، وأقحمنا غليوناً من الغُضار في فمه، وانطلقنا على الطريق. وفي

المحطة التقينا بعانس عجوز تنتظرُ قدوم القطار. وكالمعتاد، أخذَ جورج المبادرة.

قال وهو يلمس قبعته " هل لكِ يا سيدتي أن تخبرينا أين يمكن أن نتناولَ رشفة؟ الولد يكادُ يتجمَّدُ من البرد "

قالت العانس بنبرةٍ آليّة " يا إلهي ". وفجأة قالت بصوتٍ حادّ، بعد أن فهمتُ معنى كلماته: " ماذا قلت، أيها الشاب؟ "

لمسَ جورج طرفَ قبعته مرةً أخرى بكل احترام، وزمَّ شفتيه ونظر إليها شذراً ككلبٍ صغير وقال " فقط رشفة صغيرة، لا أكثر. إنه يكاد يبلغ الحادية عشرة ويكاد يقتله العطش "

هنا اعتدلَ هربي في جلسته، وهو ينفث بنشاطٍ دخانَ الغليون الغُضاري القصير. بدا أشبه بقزَم.

هنا شعرتُ أني أنا مَنْ يقومُ بالمبادرة. فقد بدا على العانس مظهرُ المذعورة ولم يعجبني.

قلتُ، وأنا ألمسُ طرفَ قبعتي " عذراً سيدتي، إنَّ هذين الاثنين مخبولان. في الواقع ... "، وقرعتُ على جمجمتي.

قالت بصوتٍ كالأزيز، " يا إلهي، يا إلهي، كم هذا مرعب "

" إنني أبذل قُصارى جهدي لأرفع من معنوياتهما. إنهما محنة حقيقية. حقيقية. خاصة الصغير بينهما. أتريدين أن تسمعيه وهو يضحك؟ "

دون أن أتيح لها فرصةَ الإدلاء بجواب، أشرتُ إلى هربي لكي يباشر. وكانت ضحكة هربي جنونية فعلاً. فَعَلَها وكأنه دُمية المتكلِّم من بطنه، فبدأ بابتسامةٍ صغيرة بريئة اتّسعت ببطء حتى أضحت تكشيراً،

ثم قهقهةً فهديلاً تَبعَتْهُ قرقرةٌ خفيضةٌ وأخيراً ضحكةٌ من الأعماق لا رادَّ لها. كان في إمكانه أن يحافظ عليها إلى ما لا نهاية. كان بالغليون الذي حمله بيد وخشخيشة يلوِّح بها بحركةٍ هستيرية باليد الأخرى، أشبه بصورةٍ مأخوذة من كتاب سويسري للنكات. وكان بين حينٍ وآخر يسكت ليحوزق بعنف، ثم يميلُ عبر جانب العربة ويبصق. ولكي يجعل الموقف أكثر إضحاكاً كان جورج مارشال يلجأ إلى العطاس. ويسحب منديلاً أحمر كبيراً فيه ثقوب كبيرة، ويتمخَّط بقوة، ثم يسعل، ثم يعطس من جديد.

قلتُ ملتفتاً إلى العانس " إنها النوبات. لكنها غير مؤذية. رائعان، هذان الاثنان - لولا أنهما غريبا الأطوار ". ثم أُضيفُ، بصورة مفاجئة: " الحقيقة يا سيدتي "، وأنا ألمس قبعتي باحترام، " نحن جميعاً مرهقون جداً. ألا تعرفين مكاناً يمكن أن نقضي ليلتنا فيه؟ ليتنا نجد عندكِ قطرةً من البراندي - فقط ملء كشتبان. ليس لأجلي، أنت تفهمين، وإنما من أجل الصغيرين "

انفجرَ هربي في نوبةٍ من البكاء. وكان في حالةِ مرح هستيرية، حتى أنه لم يكن يدري ما يفعل. وأخذ يهزّ الخشخيشة بشدَّة حتى أنه فجأةً ترنَّحَ كثيراً وانقلبت العربة.

ولْوَلَتْ العانس " رُحماكَ يا رب، رُحماكَ يا رب! "

أسرعَ جورج بتحرير هربي. عندئذ نهضَ هذا الأخير واقفاً، وهو بسترته وبنطاله الداخلي الطويل أشبه بمهووس. وكلمة أبله لا تكفي لوصفه.

يقولُ جورج، وهو يلمس قبعته، " لم يتأذَّ، يا سيدي. لديه جمجمة

صلبة "، ويمسك بهربي من ذراعه ويقرِّبه إليه. " قُلْ شيئاً للسيدة! قُل كلمة طيبة! "، ويُسدِّد لكمةً رهيبةً إلى أذنيه.

يزعقُ هربي " يا ابن الحرام! "

يقول جورج، وهو يوجِّه إليه صفعة أخرى، " يا رذيل، يا رذيل! ماذا تقول للسيدات؟ ارفع صوتك الآن، وإلا أنزلتُ سروالكَ الداخلي "

هنا تلبَّسَ هربي تعبيراً ملائكياً، ورفعَ عينيه صوب السماء، بتأنٍّ شديد، وقال ما يلي:

" يا أمَةَ الله الرقيقة، فلتنجِّيكِ الملائكة! إن عددنا الإجمالي تسعة، بالإضافة إلى المعزاة. اسمي أوكنل، يا سيدتي. تيرنس أوكنل، كنا في طريقنا إلى شلالات نياغارا، غير أنَّ حالةَ الطقس ... "

رفضَتْ القرقة العجوز أن تُنصِت إلى المزيد، وصرخت " أنتم الثلاثة عارٌ على المجتمع. والآن ابقوا هنا، جميعكم، ريثما أبحث عن الشرطي "

يقول جورج، وهو يلمس قبعته " نعم يا سيدتي، سوف نلزم مكاننا هنا، أليس كذلك يا تيرنس؟ "، ويُسدِّد صفعةً مدوّية إلى وجه هربي.

ويزعق هربي " آ آ ي! "

وتصرخُ العانسُ " كُفَّ عن هذا، أيها الأحمق! "، ثم تتوجَّه إليّ " وأنت! لِمَ لا تفعل شيئاً؟ أم أنك معتوه مثلهما؟ "

أقولُ " أنا كذلك "، ثم أضعُ أصابعي على أنفي وأبدأ بالثغاء كمعزاة.

" ابقوا حيث أنتم! سأعود حالاً! ". وهرعت تبغي مكتب مدير المحطة.

يقول جورج " أسرعوا! فلنهرب وننفد بجلدنا! ". أمسك اثنان منا

مقبض عربة الأطفال وانطلقا يركضان. ولزم هربي مكانه برهةً، وهو يحلُّ رباط قلنسوة الأطفال؛ وبعدها انطلقَ يلحقُ بنا.

قال جورج، حين أصبحنا في أمانٍ بعيداً عن الأنظار، " أحسنتَ عملاً، هربي. دعونا نتدرَّب على هذا المشهد هذا المساء. سوف يعطيكَ هن حواراً جديداً، أليس كذلك، هن؟ "

قال هربي " لا أريد أن أكون الطفل بعد الآن "

قال جورج بتحبُّب " حسن، سوف نجعل هن يركَبْ العربة "

" تقصد، إذا تمكَّنتُ من حَشْر نفسي فيها "

" سوف نحشرك، حتى ولو اضطررنا إلى استخدام مطرقة "

ولكن بعد تناول طعام العشاء في ذلك المساء خطرت لنا أفكارٌ جديدة، أفضل من تلك، في اعتقادنا. وبقينا يقظين حتى منتصف الليل ونحن نناقش الخِطَطَ والمشاريع.

بالكاد كنا بدأنا نغفو حين اعتدلَ جورج مارشال فجأة في جلسته، وقال " أأنت يقظ، هن؟ "

تأوَّهت.

" نسيتُ أن أسالك "

غمغمتُ، مخافةَ أن أوقظ نفسي، " ما هو؟ "

" أونا ... أونا غيفورد! لم تأتِ على ذكرها بكلمة واحدة طوال هذا الوقت. ما الأمر، ألم تعد تحبها؟ "

تأوَّهتُ. " يا يسوع! ياله من سؤال سخيف تطرحه عليّ في منتصف الليل "

" أعلمُ ، يا هن، وأنا آسف. أريد فقط أن أعرف إنْ كنتَ ما زلتَ تحبها "

أجبتُ " أنت تعرف الجواب "

" عظيم، هذا ما حسبته. أوكيه، هن، تصبح على خير! "

قال هربي " تصبح على خير! "

قلتُ " تصبح على خير! "

حاولتُ أن أعود إلى النوم ولكن عبثاً. بقيتُ متمدِّداً أُحدِّقُ إلى السقف أفكِّرُ في أونا غيفورد. وبعد قليل قرَّرتُ أن أطرحَهَا من تفكيري.

هتفت بهدوء " أما زلتَ يقظاً، جورج؟ "

قال " تريد أن تعرف إن كنتُ قد رأيتها مؤخَّراً، أليس كذلك؟ "

واضحٌ أنه لم يكن قد أغمضَ عينيه.

" نعم، معك حق. أخبرني أي شيء. أي خبر صغير يكفيني "

" ليتني أستطيع، يا هن. أنا أعرف شعورك، ولكن لا يوجد ما أخبرك به "

" يا يسوع، لا تقُل هذا! لفِّق أي شيء! "

" حسن، هن، سأفعل ذلك إكراماً لك. انتظر لحظة. دعني أُفكِّر..."

قلت " فليكن شيئاً بسيطاً، لا أريد قصة لا تُصدَّق "

" اسمع يا هن، ما سأقوله ليس كذباً: أنا أعرف أنها تحبُّك. لا أستطيعُ أن أفسِّر كيف عرفت، لكني أعرف "

قلت " هذا جيد. احكِ لي أكثر "

" في آخر مرة قابلتها حاولتُ أن أوَجِّه انتباهها إليك. فتظاهرتْ بأنها غير مبالية البتَّة. ولكن يمكنني أن أخبرك أنها تتحرَّقُ لتسمع أخبارك ... "

قاطعته " ما أودُّ أن أعرفه هو ما يلي: هل هي على علاقة مع شخصٍ آخر؟ "

" هناك شخص فعلاً، يا هن. لا أُنكر. ولكنه ليس من النوع الذي يثير القلق. إنه فقط لملء الفراغ "

" ما اسمه؟ "

" كارناهان أو ما شابه. دعك منه! إنَّ ما يثيرُ قلقَ أونا هي الأرملة. وهذا يُسبِّبُ لها الألم، في الواقع "

" لا يمكنها أن تعرف الكثير عن ذلك! "

" إنها تعرف أكثر مما تعتقد. لا أدري من أين حصلتْ على المعلومات. على أي حال، لقد جُرِحَتْ كبرياؤها "

" لكني لم أعد أُصاحبُ الأرملة، أنت تعرف ذلك "

يقول جورج " المهمّ أن تقول هذا لها هي! "

" ليتني أستطيع "

" هن، لمَ لا تواجهها بصراحة؟ إنها راشدة وتستطيع أن تتحمَّل المواجهة "

" لا أستطيع، يا جورج. لقد فكَّرتُ في الأمر مطوَّلاً، لكني عجزتُ عن استجماع شجاعتي "

قال جورج " قد أستطيع مساعدتك "

جلستُ مع خبطة. " أتظنُّ؟ حقاً؟ اسمع يا جورج، إنني مستعد أن أهبك حياتي إذا استطعت أن تسوّي الأمرَ لي. أنا أعرفُ أنها ستنصت إليك أنت ... متى ستعود؟ "

" لستُ مستعجلاً، هن. تذكَّر، إنه جرحٌ قديم. وأنا لستُ بساحر "

" لكنك ستحاول، أنت وعدتني بذلك؟ "

" طبعاً، طبعاً. " !Fratres Semper

استغرقتُ بضع دقائق في تفكيرٍ عميق، ثم قلت: " غداً سأكتبُ لها رسالة، أقولُ فيها إني موجود معك وإننا ستعود قريباً. قد يساهمُ هذا في تمهيد الطريق "

قال جورج بسرعة " الأفضل ألاّ تفعل. الأفضل أن تفاجئها. أنا أعرفُ أونا "

لعله كان على حق. لم أدرِ بماذا أفكِّر. شعرت بأني مبتهج ومهموم في وقت واحد. ثم إنه لم يكن هناك سبيل لحثِّه على التصرُّف بسرعة.

قال جورج " الأفضل أن نخلد إلى النوم. لدينا متَّسعٌ رحب من الوقت للخروج بحلّ ما "

" لو أستطيع أن أجعلك تصحبني، لذهبت في الغد "

" أنت مجنون، يا هن. إنني ما زلتُ في طور النقاهة. وهي ليست مستعجلة في أمر الزواج، إن كان هذا ما يُقلقُكَ "

إنَّ مجرَّد التفكير في زواجها من رجلٍ آخر شلَّني. فبشكلٍ ما لم أكن قط قد تصوَّرتُ حدوث ذلك. وغصتُ على الوسادة كرجلٍ يحتضر. في الحقيقة لقد تأوَّهتُ من فرط الأسى.

" هن ... "

" نعم؟ "

" قبل أن أنام أريد أن أقول لك شيئاً ... يجب أن تكفَّ عن أخذ هذا الأمر بكثير من الجدِّية. طبعاً، إذا تمكَّنا من تسوية المسألة، عظيم! لا شيء أحبُّ إلى نفسي من أن أراك قد عدتُ إليها. لكنك لن تعود إذا

ما تركتَ الأمرَ يتحولُّ إلى هاجس. سوف تحوِّل حياتك جحيماً قدر ما تستطيع. هذه هي طريقتها في العودة إليك. سوف تقول لا حين تتوقَّع منها أن تقول لا. لقد فقدتَ توازنكَ. هُزِمتَ حتى قبل أن تبدأ ... إذا أردتَ نصيحتي أقول تخلَّ عنها بعض الوقت. لا تبالِ بها. إنها مخاطرة، بلا شك، ولكن يجب أن تركبها. فما دامت يدها هي الطولى ستظلُّ أنت الدمية التي ترقص. وما من امرأة تقاوم فعل ذلك. إنها ليست ملاكاً، حتى ولو رَغِبَتْ في أن تعتقد ذلك. إنها رائعة الجمال وذات قلب كبير. إنني أنا نفسي أودُّ لو تزوجتها، لو أنَّ لدي أملاً في ذلك ... اسمع، هن، إن النساء أكثر من الهمْ على القلب. ولعلمك، قد تعثُر حتى على مَنْ هي أفضل من أونا. هل خطرَ هذا في بالك مرة؟ "

أجبتُ " كلامك فارغ. لا يهمني حتى لو كانت أسوأ عاهرة خلقها الله ... أريدها هي - ولا أحد غيرها "

" أوكيه، هن، إنها جنازتك. أنا سأخلد إلى النوم ... "

بقيتُ يقظاً فترةً طويلة، أقلِّب في ذهني كافة أنواع الذكريات. كانت أفكاراً لذيذةً، ملآى بحضور أونا. كنت متأكداً من أنَّ جورج سيجدُ لي حلاً. إنه يحبُّ التملُّقَ، هذا كل ما في الأمر. استطعتُ أن أرى، من خلال شقّ في ظلّة النافذة نجمة زرقاء متلألئة. تفاءلتُ بها. وتساءلتُ، أنا الغرّ، إنْ كانت هي أيضاً تتمدَّدُ يقظةً تحلمُ بي. ورحتُ أحشدُ قِواي كلها، أملاً في أن أوقظها من نومها. وهمستُ باسمها بخفوت. كان اسماً موسيقياً جميلاً. كان يلائمها تماماً.

أخيراً بدأت أغفو. وتردَّدت كلمات أغنية قديمة على شفتي...

أتجوَّلُ تحت قُبَّة السماء

أتساءلُ كيف جاء مُخلِّصنا يسوعُ ليموت
نيابةً عن أناس عاديين مساكين مثلك ومثلي
أتساءلُ وأنا أتجول تحت قُبَّة السماء.

أيقول أنساها؟ ما أسهل هذا القول! لا يمكن أبداً، أبداً، أن أنسى أونا، حتى ولو عشتُ طويلاً وحصلتُ على تسع زوجات وأنجبت ستة وأربعين طفلاً. إن جورج ساذج حقاً. ولن يعرف أبداً معنى الحب - كان صافي الذهن أكثر مما ينبغي. وصمَّمتُ على أن أعرف كل شيء عن ذاك المدعو كارناهان حالما أعود. دون ركوب مخاطر. بقيتُ أتسائل قليلاً وأنا أتجوَّلُ تحت قُبَّة السماء، ثم غصتُ في النوم - كسقوطِ دثارٍ من الرصاص.

في اليوم التالي أمْطَرَتْ. حُبِسْنا في مخزنِ الحبوبِ طوال النهار، ورحنا ننتقل من لعبةٍ إلى أخرى - البوكر، الويست، النرد، الداما، الدومينو، اللوتو، البرجيس ... ولعبنا حتى الجاكس[١٤٤]. وقرابة المساء اقترحَ جورج علينا أن نجرِّب العزفَ على آلة الأرغن الموجودة في الصالون. كانت بدعةً عتيقةً، تئزُّ، صُنِعَتْ خصيصاً لأداء التراتيل الكئيبة. وتناوبتُ مع جورج في العزف عليها. غنَّينا من أعماق رئاتنا، وبكل ما أوتينا من قوة وحيوية، مثل شهداء المسيحية. وكانت أغنيتنا المفضَّلة، التي أضفينا عليها أخيراً الحيوية والنشاط، - " هل ستُرصِّع النجومُ تاجي؟ ". وكان هِربي يؤديها بشكلٍ رائع، والدموع تطفر من عينيه. وأمه، التي لم يخطر في بالها لحظةً واحدة أننا كنا نهرِّج في أدائنا لها، دَخَلَتْ علينا، واتَّخذَتْ لها مجلساً في الركن، وأخذت تتمتمُ بين الفينة والأخرى: " ما أجملَ هذا! ".

١٤٤ - لعبة الجاكس : قِوامها رمي مجموعة من الحصى أو القِطع الحديدية في الهواء، ثم يتلقَّاها اللاعب . - المترجم

أخيراً ظهرَ الأب، واشتركَ بدوره في الغناء. قال إنَّ الغناءَ يريحه. وأعلنَ عن أملِهِ في أن نُتَابع نحن الفتية الحياة والعمل كمسيحيين صالحين. وعلى مائدة العشاء شكرَ الله لأنه ألهمنا أن نُسبِّح بحمده بتلك الصورة الفائقة الجمال. شَكَرَه من كل قلبه على كلّ النِعَم التي أغدقها عليهم على مرّ السنين.

هذه المرة أكلنا قطعـةً من لحم الخنزير المدخَّن، مع الشوكروت والبطاطا المسحوقة، والملفوف الأحمر، والبصل المسلوق، وصلصة التفاح والأجاص المطبوخ. وكحلوى تناولنا كعكة الجبن التي كانت ما تزال دافئة. وأيضاً، طبعاً، كأس الحليب المعتاد الغنيّ بالدَسَم.

الغريب في الأمر أنَّ العجوز أصبحَ كثير الكلام على غير عادته. كان يقرأ كتاباً، الكتاب نفسه، منذ أكثر من عام. عنوانه " التناغم مع المطلق ". وتساءلَ إن كان جورج أو أنا قد قرأه. وتجنَّبَ جورج الدخولَ في النقاش، لكنه نظرَ إليّ نظرةً جانبيّة تعني- " استَلِمْ أنت! ".

بما أنه كان لا مفرٌ من التحدُّث، شعرتُ أنه يمكننا أيضاً أن نحولِّ ذلك إلى سهرةٍ تدور حول موضوع عزيزٍ على قلب الرجل العجوز. فبدأتُ بالادِّعاء بأني لستُ واثقاً من أني أحطتُ بكل ما حاولَ المؤلِّف أن يُعبِّر عنه. سُرَّ العجوز بهذا العرض للتواضع. ولعله هو أيضاً لم يفهم شيئاً، لو أن الحقيقةَ تُعرَف.

باشرتُ بالقول " في يوم من ذات الأيام كان لي صديق في إمكانه أن يشرح كل أمر مُستغلق. وكان يحملُ معه هذا الكتاب بالذات أينما ذهب، ليلاً ونهاراً. وجورج يعرف مَنْ أقصد، أليس كذلك يا جورج؟ "

يقول جورج " طبعاً، أنتَ تقصد أُبِّركرومبي "

(طبعاً، لا وجود لحامل مثل هذا الاسم)

" نعم، هو بعينه "

أشارَ إليّ كي أتابع سرد قصتي. لم يكن يهمه اسم الرجل أو إن كان يعرجُ أو يفأفئ.

" قابلته في كاليفورنيا، قبل نحو ثلاث سنوات. كان حينئذٍ يدرسُ لكي يتخرَّج خادماً للإنجيل. أقول حينئذٍ، لأنه بعد لقائنا بفترةٍ قصيرةٍ وقع على منجم ذهب وسرعان ما نسي كل شيء عن الله ".

يقول جورج " ألم تقع له حادثة؟ "

" كلا، الحادثة وقعت لأخيه - أو بالأحرى، لأخيه غير الشقيق "

لم تُعجِب العجوز مقاطعات جورج، وكان ذلك جليّاً. فقررت أن أُسرعَ في السرد.

تابعتُ " تقابلنا عند أطراف صحراءِ موهيف، وكنتُ أبحثُ عن عملٍ مع شعب البورق. وإذا بأبركرومبي يقول لي: " أنت لا تريد عملاً، يا هنري؛ أنت بحاجة إلى أن تجد الله. وقد جئتُ لكي أمُدَّ لك يدَ العونِ ". انتبه، لقد خاطبني بـ هنري، على الرغم من أني لم أكن قد أخبرته باسمي. ويقول " لقد رأيتُ حلماً ذات ليلة عنك حين كنتُ في بارستو. وأدركتُ أنك في ضيق، فأسرعتُ بالحضور على جناح السرعة". وقد سبَّبَ كلامه لي بعض الانزعاج. فلم أكن قد قابلتُ من قبل شخصاً يتمتَّعُ بقدرةٍ على الاستبصار والتخاطُر. في أول الأمر حسبتُ أنه يسخرُ مني. غير أني سرعان ما اكتشفت أنه جادّ تماماً ".

سألني العجوز، وقد بدا متبلبلاً قليلاً، " هل قلت إنه كان يحملُ هذا الكتاب معه؟ "

قال العجوز " صحيح. والآن تابعْ، لقد أثرتَ اهتمامي "

تلعثمتُ قائلاً " لا أكادُ أدري من أين أبدأ. يبدو لي أنَّ أموراً كثيرةً جداً حدثتْ دفعةً واحدة "

قال العجوز " لا داعي للعجلة، إنَّ هذا مثيرٌ للاهتمام حقاً. ماما، هل لك بإعداد مزيدٍ من القهوة - وقطعة أخرى من كعكة الجبن "

سَرَّني أن أحظى بفترةِ استراحةٍ لأنني في الواقع لم أكن أعرفُ ماذا سأقول بعد ذلك. كنتُ قد باشرتُ قصةً دون أن أعرف كيف ستنتهي. وتوقَّعتُ أن يسدَّ جورج مارشال هذا الفراغ ويساعدني على تخطِّي الصعوبات.

" كما كنتُ أقول، كنا وحدنا هناك في الصحراء. وقد جاءني في منتصف الليل، ووقفَ يحدثني وكأنه يعرفني طوال حياته. في الواقع، يمكنني أن أقول إنه بدا أنه يعرفني بشكلٍ أفضل من معرفةِ أقرب أصدقائي لي. وكان يُكرِّر القول " أنت في ضيق، دعني أساعدك". والغريب في الأمر أني لم أكن أدري أني في ضيقٍ، ليس في أي حالة ضيق خاصة، على أي حال. كل ما أردته هو أن أجد عملاً، ولم يكن ذلك بالأمر الصعب. لكني في اليوم التالي أدركتُ أنه كان يعي ما قاله، ذلك أني في بعد ظهر ذلك النهار استلمتُ برقيةً من صديق لي يقول فيها إنَّ أمي مريضةٌ جداً وإن عليّ أن أعودَ فوراً. لم يكن في جيبي أكثر من دولارين. وطبعاً كان أبركرومبي يعرفُ ما تحتويه البرقية - لم أضطرّ إلى قراءتها على مسامعه. قلت " ماذا سأفعل؟ " فأجاب: " اركع وصلِّ! ". فركعتُ، وهو أيضاً ركعَ، إلى جانبي مباشرةً، وصلَّينا وأطلنا الصلاة. ويجب أن أعترف بأنَّ السكينة قد حلَّت عليَّ على الفور.

وكأنَّ عبئاً انزاحَ عن كاهلي. وفي تلك الليلة بالذات قَرَعَ شخصٌ غريبٌ بابنا. كان مُربِّي مواشٍ من ويومنغ. أرادَ أن يعرف إن كان في الإمكان أن نأويه عندنا آناء الليل. وجلسنا نتحدَّث وسرعان ما أحاطَ بكل شيء عن ظروفي. وأوينا إلى الفراش وفي صباح اليوم التالي تنحَّى هذا الغريب بي جانباً، وسألني دون مواربة " كم تكلِّفُ رحلة عودتك إلى أرض الوطن؟ ". ذُهلتُ. لم أدرِ ماذا أقولُ. قال " هاك، خذ هذا "، وأقحمَ ورقتين نقديَّتين في يدي. كانتا من فئة الخمسين دولاراً. قال، وهو ينفحني ابتسامةً وديِّة، حميمة " أعتقد أنه سيوصلك إلى غايتكَ ". قلتُ معبِّراً عن امتناني " سأردّه إليك حالما أستطيع "، قال " لا عليك من هذا، يا بني. لديَّ أكثرَ مما أحتاج. خذه واعطه إلى شخصٍ آخر يحتاجه عندما يحين الوقت المناسب "

" بعد أن غادرَ، قال لي أبركرومبي " لقد استُجيبَتْ صلاتك. إياك والشكّ مرة أخرى. أنا عائد إلى بارستو. إذا ما احتجتَ إليّ ثانيةً، أرسل في طلبي "

سألته " ولكن أين وكيف؟ "

" فقط أرسِل نداءً، وسيصلني أينما كنتَ. وتمسَّكْ بإيمانك "

" بعد ذلك بستة أشهر وقعَتُ في مأزقٍ آخر. هذه المرة بسبب امرأة. كنت في حالةٍ ميؤوس منها. وفجأة تذكَّرتُ كلمات أبركرومبي، وأرسلتُ إليه نداءً. بعد ثلاثة أيام ظهر على عتبة باب بيتي - قادماً مباشرة من كولورادو "

كان العجوز يميلُ نحو الأمام، ومرفقيه مُسندين إلى الطاولة، ورأسه مدفون بين يديه. قال " هذا رائع فعلاً يا هنري. وهل ساعدك في المرة الثانية؟ "

أجبتُه " قد فعلَ دون شك. وكل ما كان عليّ أن أفعله أن أصلّي. وهذه المرة، عند مغادرته، قال لي أبركرومبي " لا داعي لأن تستدعني مرة أخرى يا هنري. لابد أنك الآن بتَّ تُدركُ أنه ليس أنا مَنْ يمتلك القوة وإنما الله. ضعْ ثقتك فيه وسوفَ تُستجابُ صلواتك. ربما لن تراني أبداً بعد اليوم - لكنني سأظلُّ دائماً قريباً منك، بروحي ". ولم أره بعد ذلك. ولكن، وكما قال، أعلمُ أنه قريبٌ مني، وسوفَ أعلمُ بموته، مثلاً، حين يتوفى ".

قال العجوز " والآن يا جورج، ماذا لديك أنت لتقوله؟ هل مررتَ قط بتجربةٍ مثل هذه؟ "

قال جورج " كلا، لكنني أودُّ أن أطرحَ على هن سؤالاً "، والتفتَ نحوي ونظرَ إليّ نظرةً مباشرة. قال " أليس صحيحاً، يا هن، أن هذا الأبركرومبي كان ذات يوم سجيناً مُزمناً؟ "

(هذا، طبعاً، محضُ تلفيقٍ، ولكن كان لابد أن أتقبَّله)

أجبتُ " نعم، دخلَ السجن مدة عشر سنوات بتهمة القتل غير المُتَعمَّد. ولم أعرف أبداً إنْ كان مذنباً أم لا "

" ولكن كيف ارتكبَ جريمة القتل؟ "

كان لابد لي أن أُسرِعَ في التفكير.

" لقد أُدينَ بقتلِ رجلٍ دفاعاً عن النفس. لم يكن هناك شهود "

" ولكن ألم تكن لأبركرومبي سمعة مُريبة - قبل ارتكابه جريمة القتل؟ "

اعترفتُ قائلاً " نـ ـ نـ عم "، ولم أكن أعلم ما هي خطوة جورج التالية.

" ألم يخطر ببالك، يا هن، أنَّ ذاك المدعو أبركرومبي شخصٌ غريبُ الأطوار؟ لا أقصد أنه كان مجنوناً، ولكن لابد أنَّه كان له تصرُّف غريب. ألم تقُل لي مرة أنه يعتقد أنَّ في إمكانه أن يطير؟ "

" نعم، قال ذلك - مرة. لكن لم يكرِّره. ولم يكن حتى يتباهى عندما قاله. كان يحكي لي أحياناً عن القُدُرات الخارقة التي يمنحها الله لنا نحنُ الفانين حين نحتاجُ إلى حمايته. وأظنُّ أنَّ هذا الكلام ليس غريباً جداً. ما رأيك؟ "

" ربما لا، هن ... ولكن كانت هناك أشياء أخرى "

" مثل ماذا؟ "

" أنت قلتَ أنَّ في إمكانه أن يرى في الظلام، كالقطط، وأنه يسمعُ أشياءَ لا تستطيعُ بقية الناس أن تسمعها، وأنه صاحب ذاكرة استثنائيّة. وأعتقدُ أنك قلتَ ذات مرة أنه يدَّعي أنَّ لديه والدين. ماذا كان يعني بذلك؟ "

هذه المعلومة الأخيرة صدمتني. واضطررتُ إلى الاعتراف بعجزي عن الإجابة عن السؤال.

" اسمع، هن، لقد كانت تحيطُ بأبركرمبي أمورٌ كثيرةٌ غامضة. وفي ذلك الوقت لم أعلِّق بأي شيء، لأنك كنتَ مؤمناً به إيماناً مطلقاً. وقد قلتَ من قبل أنه اكتشف منجم ذهب. أأنت واثق من ذلك؟ "

قلت " كلا، لقد سمعته من أخيه غير الشقيق "

قال جورج بسرعة " الذي كان كاذباً سيئ السُمعة "

أشارَ العجوز إلى انزعاجه من استجواب جورج القاسي.

أصرَّ جورج " لكنَّ هن سهلُ الانخداع. إنه يصدِّق أي شيء وكل شيء"

قال العجوز باقتضاب جاف " الإيمانُ مسألةٌ تخصُّ الله "

قال جورج " ولكن يجب أن يكونَ ضمنَ حدودِ المعقول. لا يمكن للمرء أن يصدِّق أي شيء وكل شيء! "

قال العجوز " جورج، أنت أشبه بأبيك. أنت إنسانٌ كثير الشكوك "

قالت خالة جورج " اهدأ، اهدأ، لا تتفوَّه بمثل هذه الأشياء! "

قال العجوز، وهو يضربُ الطاولة بقبضة يده مُحدِثاً صوتاً مكتوماً، " بل سأقول وأضيف! إنَّ والد جورج رجلٌ صالح، لكنه غير مؤمن ولم يكن مؤمناً أبداً - ولا بمقدار أونصة. وسوف يموت آثماً، كما وُلِدَ "

كان حنق العجوز يتصاعد.

قال جورج بعناد " لقد كان طيّباً معي "، ليس لأنه يأبه لوالده، وإنما فقط لينفخ في أوار غضب العجوز.

قال العجوز " لا يهمُّ، من واجبه أن يُحسن معاملتك، ولا فضل له في ذلك. ما أريد أن أعرفه هو ما يلي: ماذا يفعلُ من أجل الله؟ "

لم يتمكَّن جورج من الإجابة عن هذا السؤال. وواصلَ العجوزُ تعنيفه وشجبه. حاولتْ زوجته أن تُهدِّئ من رَوْعِهِ ولكن كل ما نَجَحَتْ في فعلِهِ أنها زادت الطين بلّه. وكان جلياً أن نوبات الغضب تلك حلَّتْ محل حالة سُكر جيدة.

لا أدري ماذا كان سيحدث لو لَمْ يُلهِم الله الصغير هربي. فقد شرعَ فجأة يرتِّلُ - إحدى تلك التراتيل المسيحية، اللزجة والعذبة التي تستدرّ الدموع من العيون. أخذَ يرتِّل كملاك، مغمض العينين، بصوتٍ عالي الطبقة. وذُهلنا جميعاً ولم يجرؤ أي منا على التفوُّه بكلمة واحدة. وعندما انتهى، انحنى إلى الأمام، مُطأطأ الرأس، وراح يتمتم مُصلياً.

ناشد الله أن يُعيدَ السكينة والتناغم إلى حضن العائلة، وأن يغفر لوالده لأنه فقدَ أعصابه، وأن يخفِّفَ العبء المُلقى على كاهل أمه، وأخيراً بتقوى مفرطة النفاق، أن يسهرَ على ابن خالته جورج الذي ابتُليَ بمُصابٍ فادح. وعندما رفعَ وجهه كانت الدموع تنهمرُ مدراراً على وجنتيه.

كان تأثُّر الرجلُ العجوزُ جليّاً. كان واضحاً أنَّ هِربي لم يكن قد قام بمثل ذلك الفصل التمثيلي من قبل.

قال، بصوتٍ متهدِّج " الأفضل أن تأوي إلى سريرك الآن، يا بُني. وغداً سأحضر لك تلك الدراجة التي طلبتها "

قال هربي " بوركت، يا أبي. وأنت أيضاً يا أمي. فليحفظنا الله جميعاً ويَقينا من الأذى! "

لاحظتُ أنَّ التوجُّسَ استبدَّ بالأم.

سألتْ جزعة " أأنت مريض، يا هربي؟ "

" كلا، ماما، أنا على أفضل ما يرام "

قالت " حسنٌ، نوماً هانئاً، ولا تُكثرِ من القلق "

سأل العجوز، وهو يُحيطُ كتف جورج بذراعه، " سامحني يا جورج على كلامي الأرعن. إنَّ والدَكَ إنسانٌ طيب. وذات يوم سوف يجدُ طريقَهُ إلى الله "

قال هربي " إننا جميعاً خُطاة أمام الرب "

كنتُ قد بدأتُ أجدُ صعوبةً في الحِفاظ على تعبير وجهي الجادّ.

اقترحت قائلاً " فلنتمشَّ قليلاً قبل أن ننام "

قال العجوز لهربي " أما أنت فإلى السرير مباشرةً. لقد تأخَّرَ الوقتُ"

في الخارج انطلقنا جورج وأنا نسير مُسرعين متَّجهين نحو النهر. وعندما أصبحنا على مسافةٍ مناسبةٍ من المنزل انفجرنا في نوبةٍ من الضحك.

قلت " إنَّ ذلك الصغير هِربي ممثلٌ هزليٌّ بارعٌ. لا أدري كيف نجحتُ في الحفاظ على تعبير وجهي الجادّ "

قال جورج " إنه حتماً يعرفُ كيف يأخذ زمام المبادرة " ، ثم أردفَ بتهورٍّ " أتُرى كيتي ما تزال يقظة؟ "

قلتُ له مُحذِّراً " يا يسوع، إياك أن تفكِّر في محاولة أخرى! لقد تأخَّرَ الوقتُ كثيراً "

قال جورج " مَنْ يدري، أودُّ لو أُدخِل إصبعي وأُدعبس في شجيرة الورد تلك قبل أن آوي إلى النوم، ما رأيك؟ "

قلت " أما أنا فأودُّ لو أحظى بمشروب طيِّب "

" فكرة جيدة. هيا بنا إلى حافلة القطار الأخيرة لنرى ماذا يوجد هناك "

طرقنا الدرب الطويلة المُداورة، حول منزل كيتي. كانت الأنوار مُطفأة، لكن جورج أصرَّ على إعطاء الإشارة - صفرتين طويلتين - تحسُّباً. قال " إذا لم تكن ميتة فستتسلَّلُ خارجة وتتبعنا ".. وأخذنا نتمشَّى الهوينا حتى حافلة القطار.

وضعنا المصباح على المدفأة، وفتحنا الدورق الذي كان ما يزال يحتوي قليلاً من الخمر، وجلسنا هناك ونصبنا آذاننا.

" إنك تنتهز فرصة لعينة، يا جورج. قد تُسجَن عشرين عاماً جراء ذلك "

أجبتُ " ليتني فقط أستطيع أن ألجه. إن الأمر يستحق العناء "

قلت " إنها لك. أنا ذاهب "

" لا نفعل هذا، هن. انتظر بضع دقائق وسأرحل معك "

انتظرت بضع دقائق، ثم نهضت واقفاً.

قال جورج " لعلها ذهبت إلى الجسر، تنتظرنا "

تمشّينا حتى الجسر. معه حق، كانت هناك.

هتفت الفتاة " أوه، جورج. حسبتُ أنك لن تأتي "، وغمرته بذراعيها بشوقٍ. مشيتُ مبتعداً، وأنا أقول أني سأقوم بالمراقبة. وقفت عن تقاطع الطُرُق مدة نحو نصف ساعة. وطبعاً، كنت قد أطفأت المصباح. قلت في نفسي " يا له من أحمق! لن يفرح إلا بعد أن يُحَبِّلها "

أخيراً سمعتهما قادمين. سألته، بعد أن ودَّعنا كيتي، " حسن، هل من حظ هذه المرة؟ "

تأوَّه جورج " دعنا ننزل إلى النهر. أعتقد أنَّ الدماء تغطِّيني "

صفَّرتُ " أوي يوي! إذن تمَّ الأمر! الآن أصبحتَ متورِّطاً حتى أذنيك"

قال جورج " احزر مَنْ سيعود إلى المدينة قريباً "

" ماذا؟ أتنوي أن تترك الفتاة في الوحل؟ "

" لن تُفشي أمري. أخذتُ منها وعداً "

" أنا لا أتحدَّث عنك، يا ابن الحرام، أنا أتحدَّث عنها هي "

قال جورج " أوه، يمكننا أن نحلّ الأمر عندما تأتي إلى المدينة. أنا أعرفُ طالبَ طب وسوف يقوم باللازم.

" وماذا لو أُصيبت الفتاة بنزيف؟ "

قال جورج " لن تُصاب. إنها تتفجَّر بالصحة "

ران علينا الصمت فترة.

فجأةً قال جورج " بالنسبة إلى أونا. لقد فكَّرتُ في أمرها يا هن، وأعتقد أن أفضل حلّ بالنسبة إليك هو أن تواجهها بنفسك. قد أزيدُ أنا الطين بلَّه "

" يا ابن الحرام! "

ثم فترة صمتٍ أخرى.

قلتُ، لدى اقترابنا من المنزل، " أعتقد أني سأغادر في غضون يوم أو يومين "

قال جورج " لعلها فكرةٌ صائبة. أنت لا تريد أن تكون ضيفاً ثقيلاً"

قلت " أريد أن أقدِّم شيئاً مقابل طعامي "

" لا يمكن أن تفعل ذلك يا هن، سوف يشعرون بالإهانة "

" حسنٌ، إذن سأبتاع لهم شيئاً "

قال جورج " أوكيه "

بعد برهة سكوت، أضاف:

" لا تظنّ أني لستُ ممتناً لكل ما فعلته "

قلت " لم أفعل ما يستحقُّ الذكر. ذات يوم تستطيع أن تعتني بي "

" أنا آسف بخصوص أونا ... إنني حقاً لا ... "

قاطعته " دعك من هذا! "

" حرامٌ أن تخسرها، يا هن "

" لا تقلق. لن أتخلَّى عنها "

" وهذا المدعو كارناهان ... اعلَمْ أنها مخطوبة له "

" ماذا ؟ لمَ لمْ تخبرني بهذا من قبل؟ "

قال جورج " لم أرِدْ أن أؤلمك "

" هكذا إذن؟ اسمع، سأغادر غداً على متن أول قطار "

" لا تدع الذعر ينال منك، يا هن! إنهما خطيبان منذ ثلاثة أشهر "

" ماذا ؟ يا يسوع، يصعقني أنك استطعت أن تُخفي من هذه الأشياء "

" حسبتُ أنها ستتفاقم. أنا متأكِّد من أنها غير مغرمة به "

أجبتُ " ولكنها قد تتزوَّج منه فقط نكايةً بي "

" هذا صحيح ... لكنها ستندم على ذلك طوال البقية الباقية من حياتها، هذا إذا نَدِمَتْ "

" وبماذا سيفيدني ذلك؟ اسمع، أنت مغفَّل، أتدري؟ "

" لا تغضب، يا هن. ما حيلتي؟ لو أني أخبرتك، لأصبحتْ حياتُكَ جحيماً. ثم إننا لم نكن قد تقابلنا منذ زمن بعيد "

" لمَ لا تصارحني؟ أنت ببساطة لا تأبه لأي شيء، أليس كذلك؟ "

" كفاك الآن، لا تكن أحمق! "

قلتُ " جورج، إنَّ إعجابي بك لم يتغيَّر. ولا يسعني إلاّ أن أُعجب بك، لقد بقيتْ علاقتنا وثيقةً طوال تلك السنين كلها. لكني لن أثق بك بعد الآن. إنَّ من حقي عليك أن تُعلِمَني "

" حسن، يا هن، كما تشاء "

ولم نُزِد على ذلك. وأوينا إلى الفراش بصمتٍ - بعد أن اغتَسَلَ جورج بشكلٍ كامل. وكدتُ أتمنَّى أن يُصابَ بالسيلان.

في صباح اليوم التالي ودَّعتُ الجميع. ولدى وصولي إلى نيويورك

توقَّفتُ في أحد المحلات التجارية وأرسلتُ إلى القوم علبةً كبيرةً من الشوكولاة، دون أن أعلم شيئاً عن رغباتهم.

منذ ذلك الوقت فصاعداً، لم يعد جورج مارشال أخي التوأم ...

* * *

قال ماكغريغور " إذن هكذا فَقَدْتَ أونا؟ "

" نعم! بعد عودتي اكتشفت أنها قد تزوجَّت، قبل وصولي بثلاثة أيام "

" أعتقد، يا هن، أنَّ هذا من حسن حظك "

" وكأنَّ جورج هو الذي يتكلَّم "

" كلا، أنا جادّ، لماذا تُعاند القدر؟ لنفرض أنك تزوجتها. كنتما ستنفصلان بعد مرور سنة أو اثنتين - إن كنتُ حقاً أعرفك "

" الانفصال أفضل من ألاّ أتزوجها "

" أنت مُغفَّل، يا هن! مَنْ يسمعك يقولُ إنك ما زلتَ مُغرماً بها "

" لعلّي كذلك "

" أنت مجنون. لو أنك تلاقيها مصادفةً في الشارع غداً، فلعلَّكَ ستهرب منها "

" ربما أفعل. ولكن لا علاقة لهذا بالأمر "

" أنت رجلٌ يائس، يا هن ". ثم التفتَ إلى تريكس، " هل سمعت مرة مثل هذا الكلام؟ ويُسمّي نفسه كاتباً! يريد أن يكتب عن الحياة لكنه لا يعرفُ شيئاً عن الطبيعة الإنسانية "، والتفتَ بمقدار زاوية قائمة " عندما تصبح مستعداً لكتابة الرواية الأميركية العظيمة، يا هن، عندئذ تعال وقابلني! سوف أنفحُكَ عدداً من حقائق الحياة تضعكَ على الطريق الصحيحة"

ضحكتُ بلا تحفُّظ.

" حسنٌ، أيها الحكيم، هيا اضحك. بعد أن تتلاشى أحلامك الوهمية، تعال إليَّ وسوف أُخرجك من عمائك. إنني أمنحك سنتين تقضيهما مع هذه ... هذه ما اسمها ... أيوَه،مونا. مونا، أونا ... متشابهتان، أليس كذلك؟ لمَ لمْ تنتقِ فتاةً ذات اسمٍ عادي، مثل ميري، أو جين أو سال؟ "

بعد أن تحرَّرَ ماكغريغور من هذا، شعرَ بارتياحٍ أكبر. ثم باشرَ بالقول: " هن، نحن جميعاً مغفَّلون. أنت لستَ أسوأ رجل في العالم، ليس على المدى البعيد. المشكلة هي أننا جميعاً نحمل مُثُلاً عُليا ضخمة. ولكن حالما تفتح عينيك تدرك أنَّكَ أبداً لن تستطيعَ أن تغيِّر الوضع القائم. طبعاً، يمكنكَ أن تُجري تغييرات ثانوية - ثورات وما إلى ذلك - لكنها لا تعني أي شيء. إن الناس يظلُّون كما هم، سواء أكانوا مَلَكيين، شيوعيين، أم مجرد ديموقراطيين عاديين. كل إنسان يبقى كما هو، هذا هو سرّ اللعبة. حين تكون شاباً يافعاً يُثبط ذلك همَّتك. لا تصدِّقه. وكلما قويَ إيمانك، ازدادت خيبة أملك. سوف تمرُّ خمسون ألف عام أخرى - أو أكثر! - قبل أن يحدث تغيُّر جوهري في الإنسانية. وحتى ذلك الحين علينا أن نستغلّ الوقت أحسنَ استغلال، ما رأيك؟ "

" إنك تتكلَّم بالضبط كأبيك "

" هذا صحيح تماماً، يا هنري "

قال الجملة برصانة " وهذا يُبيِّنُ لك أننا لسنا أصيلين كما كنا نظنُّ أنفسنا. إننا نتقدَّم في العمر، أتدرك ذلك؟ "

قلتُ بفظاظة " أنت ربما - أما أنا فلا! "

حتى تريكس اضطرَّت إلى الضحك على هذا. قالت " أنتما الاثنان مجرَّد طفلين، لا أكثر "

قال ماكغريغور، مقترباً منها ويلاطفها، " لا تخدعي نفسك يا أختاه، لأنَّ مجرَّد امتلاكي خصيتين لا يجعل مني رجلاً شاباً. إنني عجوز مُحبَط، صدِّقي أو لا تصدِّقي "

" لماذا إذن تريد أن تتزوَّجني؟ "

قال ماكغريغور ضجراً " أوه، لا أدري. ربما فقط من باب التغيير "

قلت تريكس، وقد أُهينَتْ قليلاً " هذا الكلام يعجبني "

قال ماكغريغور " أنت تعرفين ما أعني. يا يسوع، أيجب أن نصبح رومانسيين - لمجرد أن نُرضي هذا الرجل؟ أنا أريد بيتاً، بيتاً حقيقياً، هذا هو السبب! سئمتُ الركض هنا وهناك "

نظرتْ تريكس إليّ ولم تتكلَّم. وهزَّت رأسها.

قلتُ مواسياً " لا تأخذي كلامه على محمل الجد. إنه دائماً يظهر الأشياء في أسوأ حالاتها "

قال ماكغريغور مغرِّداً " هذا ما أريد قوله. والآن أسمعني كلاماً جميلاً عني. قُل لها ألاّ تقلق، سأستقرّ في وقتٍ قريب جداً. برهن لها على أني سأكون زوجاً صالحاً ... كلا، انتظر! الأفضل ألاّ تقول أي شيء. إن لديك ألعن طريقة لربط الأمور ببعضها "

قالت تريكس " دعه يتكلَّم! أحبُّ أن أعرف حقيقة رأي صديقك هنري فيك "

" لا أظنك تعتقدين أنكِ ستسمعين الحقيقة؟ إن هذا الرجل زلاّق كالإنكليس. إنه يتحدَّث عن جورج مارشال ولكن ... في الواقع، لو لمْ أكن أعرفه منذ أمدٍ بعيد وجيداً لتخلَّيتُ عنه قبل فترة طويلة "

قالت تريكس " هنري، أحقاً تعتقد أني يجب أن أتزوجه؟ "

حاولتُ أن أجيب بطريقةٍ مضحكة " لا تطلبي مني أن أُجيب عن هذا السؤال، أرجوك "

قال ماكغريغور " كما ترين، إنه لا يستطيع أن يجيب بنعم أو بلا، هكذا ببساطة. والآن ماذا تعني بالضبط، يا هنري؟ هل جوابك نعم أم لا ؟ "

لم أُجِبْ.

قال ماكغريغور " هذا يعني لا "

قالت تريكس " لا تكن متسرِّعاً! "

قال ماكغريغور " حسن، هنري، لا شيء يُضاهي الصدق. أعتقد أنك تعرفني جيداً "

قلت " أنا لم أقُل أي شيء. لماذا تستبق النتيجة؟ بالمناسبة، كم الساعة الآن؟ "

" ها قد بدأت! الآن تريد أن تعرف الوقت. هذا بالضبط هو هنري "

قالت تريكس " الساعة لم تتعدَّ الثانية والنصف. سأعدُّ لك بعض القهوة قبل أن ترحل "

قلت " عظيم، وهل تبقَّى عندك قطعةٌ من الكعكة؟ "

" أترين،إنه منتبه الآن. دائماً يصبحُ في أعلى حالات اليقظة عندما تذكرين الطعام. يا يسوع، هن، أنت لا تتغير أبداً. أعتقد أنَّ هذا ما يعجبني فيك - أنت لا رجاءَ في إصلاحِك ". جلسَ إلى جانبي ملتصقاً بي، ونقرَ الرمادَ عن سيجاره، وتابع إزاحة العبء عن كاهله. " اعلمْ أن لتس علاقات عامة من كل نوع. وتودُّ أن تراني جالساً في منصب

قاضي. والحقيقة هي أني لا أستطيع أن أسعى إلى منصب قاض وأباشر إجراءات الطلاق - أترى ما أقصد؟ ثم إني لستُ واثقاً تماماً من أني أريدُ أن أصبح قاضياً. فحتى حين تكون في منصب قاضي لا تستطيع أن تحافظ على نقاء ذيلك، كما تعلم. ومع ذلك، وبصراحة، أنا لستُ محامياً بارعاً جداً. إنني عاجز عن استنهاض أي قدر من حماستي ... "

" لِمَ لا ترحل وتجرِّب شيئاً آخر "

" مثل ماذا - أبيع إطارات سيارات؟ ماذا تستطيع أنت أن تفعله، يا هنري؟ إنَّ الأعمالَ كلها أسوأ من بعضها "

" ولكن ألا يوجد أي شيء تتحمَّسُ له؟ "

" بصراحة، يا هن، لا! إنني في أعماقي مجرد تافهٍ كسول. أريد أن أطفو ولا أبذل إلا أقلّ مجهود "

قلت " إذن اطفُ! "

" هذا ليس جواباً. ولكن، لو أنَّ لديَّ توقاً إلى الكتابة، لاختلفَ الأمرُ. ولكن ليس لدي. أنا لستُ فناناً. ولست رجلَ سياسةٍ. ولستُ أيضاً شُعلة حماس "

قلتُ " إذن فأنت مهزوم "

" لا أدري ـ يا هن، لا أستطيع أن أجزم بهذا. لابد أنَّ هناك أموراً كثيراً يمكن للمرء أن ينجزها دون كبير حماسة "

قلت " مشكلتك هي أنك دائماً تريد مَنْ يتَّخذ القرار نيابة عنك "

قال ماكغريغور، وقد أضحى فجأة أكثر ابتهاجاً، على الرغم من أني لم أفهم السبب،" ها قد بدأت تتكلم كلاماً معقولاً. لهذا أريد أن أتزوج تريكس. أريد مَنْ يُثبِّت قدَمي. وتس أشبه بإسفنج. بدل أن تدعمني تتركني أتداعى "

قلت " متى ستبلغ سن الرشد؟ "

" كفاك، هنري، لا تبدأ معي بهذا الاتجاه. أنت نفسك لستَ أكثر من صبي كبير. لا أكاد أتصوّر أنك افتتحتَ حانةً! وكنتَ تنوي أن تضرم النار في العالم. هو هو! هو هو! "

" امنحني وقتاً. فقد أنجحُ في خداعك. على الأقلّ أنا أعرفُ ماذا أحبُّ أن أفعل. وهذا شيء لا يُستهانُ به "

" ولكن هل تستطيع أن تنفِّذ؟ هذا هو السؤال "

" هذا ما سيتَّضح لاحقاً "

" هنري، إنك تحاولُ أن تكتب منذ أن تعرَّفتُ إليك. إن بقية الكُتَّاب الذين في مثل سنّك أصبح لديهم على الأقلّ نصف دزينة كتب منشورة حتى الآن. إنك حتى لم تُكمِل كتابك الأول - أم أنك فعلت؟ هيا، هيا، كن متعقِّلاً! "

قلتُ مازحاً " لعلّي لن أبدأ قبل سن الخامسة والأربعين "

" بل قُلّ سن الستين، هنري. بالمناسبة، مَنْ هو الكاتب الإنكليزي الذي بدأ في سن السبعين؟ "

أنا أيضاً لم أتذكَّر اسمه عندئذ.

ظهرت تريكس مع القهوة والكعكة. وانتقلنا عائدين إلى المائدة.

باشرَ يقول من جديد، وهو يمدُّ يده ليتناول قطعةً ضخمة من الكعكة " حسن، يا هن، إنَّ كل ما عليَّ أن أقوله هو - لا تضعف! لعلَّ الفرصةَ ما زالت مُتاحةً لتصبحَ كاتباً. لا أستطيعُ أن أُخمِّن إن كنتَ ستغدو كاتباً عظيماً. أمامكَ أشياء كثيرة جداً لتتعلَّمها "

قالت تريكس " لا تأبه له "

قال ماكغريغور " لا شيء يزعجه. إنه أشدُّ عناداً حتى مني، وهذا يعني الكثير. والحقيقة هي أني أتألَّمُ حين أراه يهدرُ وقتَه "

ردَّدتْ تريكس " يهدُرُ وقتَه؟ وأنت ماذا تفعل؟ "

رسمَ لها تكشيراً عريضاً وقال " أنا؟ أنا كسول. والأمر مختلف "

أجابت تريكس " إذا كنتَ تفكِّرُ في الزواج مني سيكون عليك أن تقفَ على قدميك. لا أظنك تعتقد أني سأعيلك، ماذا؟ "

عوى ماكغريغور، وهو يقهقه ضاحكاً وكأنه سمع نكتةً عظيمة، "أسمعْتَ هذا، هنري. والآن مَنْ قال أي شيء عن رغبتي في أن يعيلني أحد؟ "

" حسنٌ، كيف سنعيشُ؟ ليس على ما تكسبه، طبعاً "

قال ماكغريغور " كفى، كفى يا حبيبتي، إنني لم أبدأ العمل بعد. انتظري فقط ريثما أُمنَح الطلاق. وبعد ذلك سوف أنزل إلى أرض الواقع"

قالت تريكس " لستُ متأكدة من أني أريد الزواج منك ". قالت هذا بجدّية صارمة.

قال ماكغريغور " والآن، أسمعتَ هذا؟ ما رأيكَ فيه؟ حسن، يا حبيبتي، أنتِ الخاسرة. في غضون عشر سنوات قد أحتلُّ منصب قاضي المحكمة العليا "

" وحتى ذلك الحين؟ "

" لا تعبُر أي جسر قبل أن تصل إليه، هذا هو شعاري "

قلتُ " إنه دائماً يستطيعُ أن يكسبَ قوته ككاتب اختزال "

قال ماكغريغور " وهذا يكسب لقمة عيش جيدة "

" لا أريد أن أتزوَّج من كاتب اختزال "

قال ماكغريغور " سوف تتزوجينني. مَنْ يدري ماذا سأكون؟ "

قالت تريكس " في الوقت الحالي أنت مجرد إنسان غير متوائم "

قال ماكغريغور بخفّة " معك حق يا حبيبتي، ولكن هكذا أيضاً حال الكثير من الرجال قبل أن يرتقوا سُلَّم المجد "

" لكنك لا ترتقي أي شيء! "

قال ماكغريغور " معك حق مرة أخرى. كنت فقط استخدمُ تعبيراً مجازياً. اسمعا، أنتما الاثنان، لا أظنكما تعتقدان حقاً أني إنسان فاشل؟ كل ما في الأمر أني أعمل الآن بطاقةٍ ضئيلة. إنني بحاجة إلى إلهام. أحتاجُ إلى زوجةٍ صالحة، وبيت وصديق أو اثنين صدوقين. كهذا الرجل، مثلاً. ما رأيك، هنري، هل كلامي معقول؟ "

ثم أردفَ، دون أن ينتظر جواباً، " أتعلمين يا تريكس. إن أمثالَ هنري وأنا يقفون خارج التيار العام. إننا نتَّصفُ بـ " الرُقيّ ". وإذا ما قَبَلْتِني زوجاً، فستحصلين على دُرَّة. إنني أكثر الرجال تسامُحاً في العالم كله. وهنري يشهد على صحة هذا يمكنني أن أعمل بكدٍ واجتهادٍ كأي إنسانٍ آخر ... إذا ما اضطررتُ إلى ذلك! كل ما في الأمر أني لا أرى معنى لإرهاق نفسي. إنها حماقة. الآن، لم أخبرك من قبل أني أخبِّئ الكثير من المشاريع الذكيّة. بل إنني في الواقع أباشرُ في تنفيذها. لم أرد أن أُخبركَ بشأنها إلى أن يُحالفها النجاح. ليتَ واحداً منها ينجح، عندئذ سنعيشُ في بحبوحةٍ ورخاءٍ طوال العشر سنوات القادمة. ما رأيك في هذا؟ "

قالت تريكس، وقد ذابت فجأة، " أنت عزيزي "

أعتقدُ أنها لم تُصدِّق كلمة واحدة مما قاله عن مشاريعه، لكنها كانت توّاقةً إلى التشبُّث بأي قشّة.

قال ماكغريغور، مشرقاً " وهكذا! أترين كم الأمرُ بسيط؟ "

* * *

في طريقِ عودتي إلى المنزل، بعد ذلك بنحو ساعة، رحتُ أفكِّر في كل المشاريع المتهوِّرة التي دبَّرها، منذ أن عرفته أول مرة – حين كان ما يزال يتردَّدُ على المدرسة الإعدادية. كيف كان دائماً يُعقِّد حياته بمحاولتهِ تسهيل الأمور على نفسه. فكَّرتُ في الساعات الطويلة التي أمضاها في أداء عملٍ شاقّ، لكي يكون " لاحقاً " حراً في أن يفعل ما يشاء، على الرغم من أنه لم يعرف دهره ما الذي يريد بالضبط أن يفعله عندما سيُتاح له أن يقوم بما يسرّه أن يقوم به. أما الجلوس هكذا دون عمل، وهو أمرٌ كان دائماً يدَّعي أنه الـ summum bonum (الخير الأسمى)، فكان أمراً غير وارد بأي حال. فإذا ذهبنا إلى شاطئ البحر لقضاء فترة عطلة كان حتماً يأخذ معه دفتره، وكتاباً أو اثنين من كُتُب القانون، أو حتى بضع صفحات، وأحياناً صفحة واحدة، من القاموس الموسَّع الذي يكون يقرأ فيه منذ سنوات. وإذا قفزنا إلى المياه فيجب أن يسابق أحدهم للوصول إلى الطَوْف أو يقترح أن نسبحَ حول الرأس أو أن نلعب بولو الماء. أي شيء غير أن نطفو بهدوء على ظهورنا. وإذا ما تمدَّدنا على الرمال يقترح أم نسدِّد الضربات على السرطانات أو أن نلعب الورق. وإذا ما انخرطنا في حديثٍ ممتع يحوِّله إلى شجار. لم يكن قط قادراً على أداء أي عمل بسلام ورضى؛ كان ذهنه دائماً يثبُ إلى العمل التالي، إلى الحركة التالية.

ثمة أمر آخر بشأنه أتذكَّره وهو أنه كان دائماً مُصاباً ببرد شديد - "بردٌ في الصدر "، كما كان يصفه. يُصاب به شتاءً وصيفاً، على قدم المساواة. وكان بردُ الصيفِ أسوأ، كما كان دائماً يقول. ومع الإصابة بالبرد كان يُصاب بحمَّى القش. باختصار، كان في المعتاد في حالةٍ بائسةٍ، دائماً يتوجَّع، ويتذمَّر، ويعطس، ودائماً يضعُ اللومَ على السجائر التي كان يُقسِم على أنه سيُقلع عن تدخينها في الأسبوع التالي أو الشهر التالي، وكان أحياناً يبرُّ بوعدِه، وأنا مذهول، لكنه سرعان ما يعود إليها، ويدخِّن منها أكثر من ذي قَبل. وأحياناً كان يشعر أن الخمرَ هي التي تضعه في فئة " المتسكِّعين ". فيُقلِع عنها فترة من الوقت، ربما ستة أشهر أو ثمانية، لكنه يعود إليها ليعبَّ منها أكثر. كان يفعلُ كل شيء بهذه الطريقة المتذبذبة. وعندما يدرس كان يدرس مدة ثماني عشرة ساعة في اليوم، إلى أن يُصابَ ذهنه بالاحتقان. وقد يكسر روتين الدرس بلعب الورق مع الأصدقاء، مُعتَبراً ذلك فترة استرخاء. غير أنه كان يلعب الورق بالطريقة نفسها التي يدرس فيها، ويدخِّن، ويشرب الخمر - دائماً بإفراط. وزيادة على ذلك، كان خاسراً من أسوأ نوع. أما فيما يخصُّ النساء - إذا كان يلاحق فتاة فإنه يظلُّ في إثرها، مهما رفضته، إلى أن يوصلها إلى حافة الجنون. وما أن تلين، ما أن تستسلم، حتى يفقد اهتمامه بها. ثم يُهمل أمر النساء فترة من الوقت. يصبحن محرَّمات. بشكلٍ مُطلَق. الأفضل العيش بدون نساء: هكذا أدْعَى إلى سلامةِ العقلِ والصحة: يأكلُ بشكلٍ أفضل، ينامُ بشكلٍ أفضل، ويشعر بشكلٍ أفضل: يفضِّل الخراء الجيد على النكاح الجيد. وهكذا دواليك - حتى الرقم العشري السادس والتسعين. إلى أن يُصادف فتاة أخرى،

واحدة لا تقاوَم إلى درجةٍ تَعْصى على الوصف. ثم تبدأ مطاردةٌ أخرى بلهاءُ طويلةٌ، ليلاً ونهاراً، وأسبوعاً إثر أسبوع، إلى أن يُدخِلَ طَرَفَه فيها، ثم تصبح مثل كل الأخريات، لا أفضل بمقدار ذرَّة، ولا أسوأ بمقدار ذرَّة. " إنها مجرد عاهرة، هن ... مجرد عاهرة! "

كنتُ دائماً تجد على طاولة مكتبه عشرين أو أكثر من المجلدات الضخمة: سوف يقرأها حالما تُتاح الفرصة. وغالباً ما تمرُّ سنون عديدة قبل أن يفتح أحدها، وعندئذ يكون الكتاب طبعاً قد فقدَ نكهته كلها. ويحاولُ أن يبيعني إياها بنصف سعرها؛ فإذا رفضتُ عرْضَه يقدِّمها إليّ على مضض كهديّة. ويقول " ولكن يجب أن تَعِدَني بأنك ستقرأها! ". وكان يحتفظ بنسخٍ من مجلاتٍ عمرها عشر أو خمس عشرة سنة، وأيضاً صُحُفٍ يُعاملها بالطريقة نفسها. أحياناً كان يأخذُ كميةً منها معه، ويفتحها وينشرها في الحافلة أو القطار ويأخذ يتصفَّحها على عَجَل، ثم يرميها من النافذة. ويقول، مبتسماً بكآبة " انتهى أمرها! ". وهكذا يكون قد أرضى ضميره.

بين حين وآخر كان يقابلني مصادفة، فيقول لي " لماذا لا نذهب إلى المسرح؟ سمعتُ أنَّ هناك مسرحيةً جيدةً تُعرض في الأورفيوم ". ونذهبُ إلى المسرح متأخرين نصف ساعة، ونمكث بضع دقائق، ثم نغادر مندفعين وكأن جوَّ المكان نفسه مسموم. ويقول " ها قد ذهبت خمسة دولارات إلى الجحيم. كم معك، هن؟ أوه، خراء، لا داعي للنظر. أنا أعرف الجواب. متى سيكون في جيبك أي مبلغ من النقود؟ ". ثم يقودني إلى بارٍ يقعُ في أحد الشوارع الجانبية الموحشة، بار يعرف صاحبه أو نادلاً يعمل فيه أو شخصاً ما عناك، ويحاولُ أن يقترض بضعة دولارات؛ فإذا فشلَ في

الحصول على النقود يدفعهُم إلى دعوتنا إلى بضعِ جولاتٍ من الشراب. ويسألني بوقاحة " أليس معك نكلة على الأقلّ؟ أريد أن أتّصل بابن الحرام الحقير ذاك وودرَف - إنه يدين لي ببضعة دولارات. لا يهمني إن كان نائماً أم لا. سوف نستقلّ سيارة أجرة ونرغمه على دفع أجرته، ما رأيك؟ "، ويجري اتّصالاً هاتفياً بعد آخر. وأخيراً يتذكّر فتاةً كان قد نسيها مع مرور السنين، خرقاء طيبة القلب، كما قال، سوف يسعدها أيّما سعادة أن تراه من جديد. " سوف نشرب بضعة كؤوس ومن ثم نرحل. قد أداعبها. ولكن إياكَ والعبث - إنها دائماً مصابة بالسيلان ". هكذا كنا نمضي الليل، نهرع متنقّلين من مكانٍ إلى آخر، لا نتوصّل إلى أي شيء، وينالنا التعب، وتنتابنا أفكارٌ غريبةٌ، ويصيبُنا الاشمئزاز. وأخيراً ننعطف إلى غرينبوينت حيث منزل والديه، وهناك من المؤكّد أننا سنجد بعض البيرة مع الثلج. ويجب أن نعمل على سرقتها، خِلسةً، دون إصدارِ أي ضجيج، لأنه كان دائماً يتشاجر مع أبيه، أو مع أمه، وأحياناً مع العائلة كلها. " إنهم لا يكنُّون لك الحب يا هنري، ولستُ خجلاً من التصريح لك بهذا. لا أدري لماذا، ولكن هذا ما يشعرون به حيالك. أعتقد أنهما لم يستطيعا أن يتقبَّلا علاقتك بتلك الأرملة. ناهيك عن السيلان الذي كنتَ تُصابُ به "

على الرغم من أنه كان قد تركَ المنزل منذ سنين عديدة، إلا أنَّ غرفتَهُ كانت دائماً جاهزة لاستقباله. كانت بالضبط كما تركها، أي، في حالة فوضى عارمةٍ وتفوحُ برائحةٍ كرائحةِ جثةٍ تتعفّن داخلها. قال، وهو يُشرِّع النافذة، " أظنكَ تعتقد أنهما من الكياسة بحيثُ يعملان على تنظيفها بين حين وآخر؟ أعتقد أنهما ما زالا يحاولان أن يلقّناني درساً،

هذان الأبلهـان. أتدري، هنري، أعـتـقـد أنه لا أحد غـيـرنا أنا وأنت لديه أبوان في مـثل غـبـاء آبائنا. لا عَـجَبَ أننا لا نُنجـز أي شيء. لقـد بدأنا بداية سيئة ". وبعد أن قامَ بتـفتيشِ المكانِ بدقَّة أضافَ:" أعتقدُ أنه كان في وسعي أن أقومَ بتنظيفه بنفسي، لكني أبداً لم أفعل ذلك. أظنُّ أني فعـلاً ابن حـرام كسـول. على أي حـال ... "، ويصبُّ سيـلاً من الشـتـائم والسباب.

أثناء شرب زجاجة من البيـرة، يقول ... " أتذكُر، هن، حين قـمنا بحملةِ دعـاية ناجحة لأجل والدك؟ في هذه الغرفة بالذات، أليس كذلك؟ تصورّ، حرَّرنا ألفَ رسالة بخط اليد! لكننا أمضينا وقتاً ممتعاً. ألا تظن؟ ما زلت أرى كل تلك الزجاجات المنتصبة حولنا على الأرض. لابد أننا استـهلكنا ملءَ شاحنة من البـيرة. ولم يدفعوا لنا أجراً على عـملنا - هذا مـا لا أسـتطيع أن أنسـاه. يا يسـوع، كم تُشـبـه أباك! أبداً لا أجد مـعك سنتنـا ً واحداً. بالمناسبـة، كيـف حـال الـعـجوز هذه الأيام؟ أمـا زالت لديه دزينة الزبائـن ذاتهـا - أم أنهم مـاتوا جميـعـاً؟ كم كـان عـمـلاً أحمق! أنا سعـيـد لأنَّ والدي لم يكن أكثـرَ من صانـعِ قـوالب حـديد. أتسـاءل كـيـف سينـتـهي الأمـرُ بنا نحن يا تُرى؟ لعلّكَ ستـمـشي في الشـوارع وأنت في أرذل العمر وتستجدي. إن والدك يتّصفُ بقدرٍ من الكبرياء، أما أنت، يا يسوع، فليـس لـديك مثقال ذرَّة مـن الكبرياء، أو الإيمان، أو الولاء أو أي شيء، حسب ما أرى. فـقط تعيش يوماً بعـد يوم، وهذا كل شيء، أليـس كذلك، هن؟ ما أتعسها من حياة! "

كان في استطاعتـه أن يُتابعَ على هذا المنوال إلى ما لا نهاية. حتى بعـد أن دخلنا، والأنوار مُطفأة، والقبعتـان مـا تزالان على رأسـينا، ظلَّ

يسترسل في الكلام. وكان غالباً ما يستلقي على السرير والسيجار في فمه وزجاجة من البيرة في يده، ويتكلّم، ويتكلّم، ويقفز من ذكرى إلى ذكرى، كشبح فراشة.

وأسأله " ألا تنظّف أسنانك بالفرشاة أبداً؟ ". كان يحبُّ مثل تلك المقاطعات.

" يا للجحيم كلا! كنتُ أفعلُ سابقاً، يا هن، لكنه أمرٌ مزعج جداً. على أي حال سوف يحدث ذات يوم "

" ولكن ألا تشعر بمذاقٍ سيئ في فمك؟ "

" طبعاً أشعرُ. فظيع! لكني تعوّدتُ عليه " (ويقهقه بصوتٍ خافت لتفسه) " أحياناً يكون من السوء بحيث لا أكاد أطيقه أنا نفسي. أحياناً تُذكّرني إحدى فتياتي بذلك. وطبعاً هذا يجعلني أشعر بشيء من الخجل. لكني أتغلّبُ عليه. فعلى الرجل أن يجعلَ أذهانهنَّ تتركّز على الشيء الآخر. وحالما تلجه لا يهمّ بعد ذلك ما هي رائحة فمك. صح؟ "

ثم يُشعِلُ سيجاره البائت ويجلسُ باستقامة ... " ولكن ما يزعجني، بصراحة، هو أنْ أحصلَ على منفرجِ ساقين قذر. لا أدري ماذا أقولُ، يا هن، لكني متعوِّد على أن أظلَّ أرتدي بنطالي القصير إلى أن يتقلّص. أنت تعلم كيف أستحمُّ غالباً! أُغني " ذات مرة تحت ضوء القمر الأزرق "، وأخذ يقهقه. " أعتقد أني لا أعرفُ كيف أمسح طيزي. هناك دائماً شيءٌ يتشبّث بالشعر القصير. أعتقد أنها حُبيبات. أحياناً أقصُّها بالمقصّ "

ولا يتوقّف ... " كان يجب أن نعود باكراً إلى المنزل لكي نتبادل حديثاً ممتعاً، بدل هذه العُجالة. ماذا ألمَّ بي في اعتقادك؟ إنني أهرعُ

راكضاً هكذا منذ أن كنتُ ولداً صغيراً. أحياناً أُصبحُ محموماً حتى أظنُّ أني مُصاب بالاضطراب الرعّاش، وتتوتَّر أعصابي. وأؤكِّد لك، يمكنني أن أرتعش كالمدمن على الخمر. بل إنني أحياناً أُفأفئ. وهذا يُرعبني كثيراً ... ما رأيك بشرب مزيدٍ من البيرة؟ "

" هيا ننام، إكراماً لله! "

" لماذا، هن؟ سوف تنام طويلاً بعد أن أموت "

" وفِّر شيئاً للغد "

" الغد! هل فكَّرتَ مرة، يا هن، أنه ربما لن يكون هناك غد؟ قد تموت أثناء نومك - ألم يخطر هذا في بالك قط؟ "

" وماذا في ذلك؟ "

" فكِّر في كل ما ستفتقده "

قلت بانفعال " لن تفتقد أي شيء لعين. إنَّ كلَّ ما أطلبُ هو بضع ساعات من النوم الهانئ - ووجبة إفطار غنيّة بعد أن أستيقظ! هل فكَّرت مرة في أن تتناول طعامَ الإفطار في الجنة؟ "

" ها أنت تبدأ من جديد - ها أنت تفكِّر في الإفطار منذ الآن. ومَنْ سيشتريه، قُل لي؟ "

" سوف نقلق حول هذا غداً "

سادَ الصمتُ قليلاً.

" قُل لي، هن، كم معك من النقود؟ قُل لي، أنا فضولي "

" لا أدري ... ربما خمسة عشر أو عشرين سنتاً؟ "

" ربما. لماذا؟ أتريد أن تقترض مبلغاً؟ "

" أنا أقترض منك أنت؟ يا إلهي لا! أنت شحاذ. كلا، يا هن، كان

مجرد فضول، كما قلتُ لك. إنك تخرج مع خمسة عشر أو عشرين سنتناً في جيبك - دون أن يرفّ لك جفن. ثم تلتقي مصادفة بأحدهم - أنا، مثلاً - فترتادان المسرح، وتشربان، وتستقلان سيارة أجرة وتجُريان مكالمات هاتفية ... "

" وماذا في ذلك؟ "

" كل هذا ولا يرفّ لك جفن ... إنني لا أتحدَّث عن نفسي، يا هن، ولكن افرِضْ أنك قابلتَ شخصاً آخر؟ "

" يا له من شيء تافه ولا يستحق القلق! "

" أعتقدُ أنَّ الأمرَ كلّه مسألة مزاج. لو أني في مكانك لكنتُ في أسوأ حال "

" أنت تحب أن تكون في أسوأ حال "

" أعتقد أنك على حق في هذه النقطة. لابد أني ولدتُ وأنا هكذا "

" وستموت وأنت هكذا "

سَعَلَ بعنف، ومدَّ يده إلى صندوق السيجار. " ما رأيك بتدخين سيجار، يا هن؟ إنه جاف قليلاً لكنه من هافانا "

" أنت مجنون. أنا ذاهب لأنام. تصبح على خير! "

" أوكيه. لا أظنك تعترض إذا مكثتُ قليلاً لأقرأ؟ "، ورفع بضع صفحات كبيرة ممزَّقة من القاموس. كانت عيناي مغمضتين، وأوشكتُ أن أنام، ولكن كنت أسمعه يقرأ بنبرة رتيبة.

كان يقول " وصلت الآن إلى الصفحة رقم ١٥٠٤ . غير المُختَصَر. Mandelic. . كلمة رائعة! لو أني أعيش مثلما عاش ميتوشالح فسوف أستخدم كلمة كهذه في وقتٍ ما. أأنت نائم؟ ومع ذلك، غريب ما

يحتفظ به المرء من هذا الخراء والحشو كله. أحياناً تكون أبسط الكلمات هي الأغرب. كلمة " جثة "، مثلاً. إن كلمة " جيفة " طبيعية وسهلة، أما" جثة "! أو خذ عندك كلمة " فصح " - أراهن على أنك لا تعرف من أين اشتُقَّت. إن الإنكليزية لغة مجنونة، أتعلم هذا؟ تصوَّر كلمات مثل Michaelmas[١٤٥] و Whitsuntide[١٤٦] - أو wassail[١٤٧] أو syndrome[١٤٨] أو nautch[١٤٩] أو .whangdoodle انتظر لحظة، ها هنا أغرب كلمة - prepollent، أو - parlous أليست هذه كلمة غريبة؟ أو خذ كلمة acne[١٥٠] أو cirrhosis[١٥١] - من الصعب أن نتخيَّل أي شخص" يخترع " كلمات كهذه، ما رأيك؟ إن اللغة لغزٌ صرف. إنني كلما اعتنيتُ أكثر بأصول الكلمات قلَّتْ معرفتي بها. هل أنت يقظ؟ اسمع، هن، لطالما كنتَ شديد الاهتمام بالكلمات، ويدهشني أنك لم تقرأ القاموس كله بعد. أم أنك فعلت؟ أنا أعرفُ أنك حاولت أن تقرأ الكتاب المقدَّس كله. أعتقد أن القاموس أكثر إمتاعاً. بل إنه أشدّ جنوناً من الكتاب المقدَّس... في الواقع، إنَّ مجردَ النظرِ إلى بعضِ الكلماتِ، مجرَّد إدارتها في فمك يُشيعُ الارتياح في نفسك. هاكَ بعض الكلمات القديمة المفضَّلة والمُرتَجَلة: sesquipedalian[١٥٢] apotheosis, anacoluthon,[١٥٣]،

١٤٥ - Michaelmas: عيد القديس مايكل .

١٤٦ - Whitsuntide: أسبوع العنصرة .

١٤٧ - Wassail : شراب مُسكِر .

١٤٨ - Syndrome : التزامن .

١٤٩ - nautch : حفلة راقصة في الهند .

١٥٠ - acne : حب الشباب .

١٥١ - cirrhosis : تليُّف الكبد .

١٥٢ - Sesquipedalian : كثير المقاطع اللفظيّة .

١٥٣ - Apotheosis : تأليه ، تمجيد .

وهذه، بالمناسبة، دائماً تُخطئ في لفظها. إنها تلفظ بتشديد حرف (e).
وبعض الكلمات يتجلّى معناها بالضبط في شكلها أو في جَرسِها، مثل:
gimcrack, thingamajig, socdolger, gazabo, yammer.
وأعتقد أن قبائل الإنغل والجوت كانت مسؤولة عن أسوأ هذه الكلمات.
هل نظرتَ مرةً في كتابٍ مكتوبٍ باللغة السويدية؟ إنها لغةٌ مجنونة! لا أكاد أصدِّق أننا كنا في وقتٍ ما نتكلَّمُها ... اسمع، لا أريد أن أبقيك يقظاً طوال الليل. لا تلحّ! يجب أن أقوم بهذا في كل ليلة لأني وعدتُ نفسي بفعله. أنا أعلم جيداً أنَّ هذا لن يفيدني في شيء. ولكن ثمة أمراً واحداً بخصوص هذا العمل، يا هن - وهو أني عندما أسأمه أتركه فوراً. وبلا عودة! عندما أنتهي من صفحة أمسح طيزي بها. ما رأيك في هذا؟ إنه أشبه بوضع كلمة النهاية في آخر الكتاب ... "

١٢

إنَّ الحانَة سرعان ما تتحوَّل إلى نادٍ خاص ومركز استجمام. على جدار المطبخ تجد لائحةً طويلةً بالأسامي. وإلى جانب الأسامي كتبتُ بالطباشير المبالغ التي ندينُ بها لأصدقائنا، زبائننا الدائمين الوحيدين.

أحياناً كان روبرتو وجورج إنّس يأتيان ليحتميا في فترة بعد الظهر. فإذا لم يأتيا نلعب، أومارا وند وأنا، الشطرنج في الغرفة الخلفيّة بالقرب من النافذة. حتى إذا جاءَ زبونٌ مهمّ، مثل ماتياس، نقفز من النافذة إلى الفناء الخلفي، ونقفز من فوق السياج ونخرج إلى الشارع المجاور خلال زقاق ضيِّق. وكان روثرمل يأتي أحياناً بعد الظهر ليمكث مدة ساعتين، ويتحدَّث إلى مونا حديثاً خاصاً. ويدفع لها عشرة دولارات أو عشرين لمنْحِه هذا الامتياز.

إذا كانت لَيلة عطلة، نصرف الزبائن الدائمين في وقتٍ مُبكِّر، ونضمُّ الطاولات معاً، ونستعدُّ لنلعب البنغ-بونغ. وكنا نجري مباريات دوريّة منتظمة. وطبعاً نتناول بينها وجبات سريعة باردة. وكنا دائماً نشرب بعدها البيرة، أو الجن أو النبيذ. وإذا نفد المشروب من عندنا نتوجه إلى شارع ألن لنجلب نبيذاً مقدَّساً. وفي العادة تجري " مباريات البطولة " بين آرثر ريموند وبيني. ونسجِّل نقاطاً هائلة. وفي النهاية أدَعُهُ يفوزُ لأنه خاسرٌ عاثرُ

الحظ... ودائماً كنا لا نأوي إلى فراشنا قبل انبلاج فجر النهار.

ذات مساء يأتي روثرمل مع عدد من أصدقائه الحميمين من أحياء جرزي القذرة. وكلهم من القضاء والسياسيين. ويَطلُبون طبعاً الأفضل من كل شيء.

جرى كل شيء على أحسن ما يرام إلى أن ظهرَ توني مورر مع موديل جميلة. ولسبب ما أبدى روثرمل كراهية فوريّة وعنيفة له. من ناحية لأنَّ شَعْرَه كان مقصوصاً قصيراً جداً، ومن ناحية أخرى لأنه، في رأي روثرمل، كان يغالي في رفع الكلِفة. وتصادف أنْ كنتُ ألبِّي طلبات توني مورر عندما غادر روثرمل طاولته في الغرفة الخلفية، مصمِّماً على أن يثيرَ شجاراً. وكان في الأصل رجلاً عجوزاً منهاراً، وقذراً حتى وهو غير سكران. تنحَّيت جانباً قليلاً، أراقب بعين الإعجاب الهدوءَ الذي كان توني مورر يتفادى به تهجُّمات روثرمل. ولكن حين زادت إهانات هذا الأخير الفاضحة قررتُ أن أتدخَّل.

قلت بهدوء وحزم " يُستحسَن أن تعود إلى مائدتك "

زمجرَ قائلاً " ومَنْ تكون أنت؟ "

قلت، وأنا أغلي من الداخل وهادئ هدوء خيارة من الخارج، " أنا؟ أنا الريِّس هنا "

تنشَّق روثرمل ونخَرَ. فأمسكْتُ به من ذراعِهِ وجعلتُهُ يستديرُ باتجاه الغرفة الأخرى، وزعقتُ " إياكَ أن تُسيء التعامل معه! "

لحسن الحظ أنَّ أصدقاءَه جاءوا لنجدتي في تلك اللحظة، جرّوه عائدين إلى الغرفة الأخرى، وكأنَّه كيسٌ من الحطب. ومن ثم عادوا ليقدِّموا اعتذاراتهم لمورر ولمونا.

همستُ لتوني مورر " سوف نطرُدُهُم جميعاً من هنا حالاً "

ناشدني " أرجوك لا تفعل! أستطيعُ أن أعالجَ الوضع. في الواقع، أنا متعوِّدٌ على ذلك. إنه يعتقد أني ألماني، وهذا ما يزعجه. اجلس قليلاً، أرجوك. اشرب كأساً. يجب ألاّ تدع مثل هذه الأمور تزعجك " هنا أخذ ينغمسُ في سردِ حكايةٍ طويلةٍ عن تجربتِه خلال الحرب - أولاً كضابط استخبارات، ثم كجاسوس. وأثناء إصغائي إليه كنتُ أسمع صوت روثرمل يزداد ارتفاعاً وحِدَّة. وكأنما كانت تنتابه نوبات غضب. أشرتُ إلى ند وأومارا كي يسكتوه.

فجأة سمعْتُهُ يصرخ " مونا! مونا! أين تلك العاهرة؟ وحقّ المسيح لأنكحها! "

اندفعت إلى طاولته ورحتُ أهزّه، وبعنف. ونظرت بهدوءٍ إلى أصدقائه لأرى إن كانوا ينوون أن يثيروا متاعب، فبدوا مرتبكين ومُضطربين.

شرحتُ قائلاً " يجب أن نُخرجه من هنا "

قال أحدهم " فوراً. لمَ لا تستدعي سيارة أجرة وترسله إلى منزله؟ إنه إنسان شائن "

لَمَمْناه، أنا وأومارا وند، داخل معطفه ورميناه إلى الشارع. كان مطرٌ خفيفٌ شبه متجمِّد قد هطل، وكانت الأرض عندئذ مغطَّاة بطبقةٍ رقيقة من الثلج. وعجز روثرمل عن الوقوف بدون دعم. وبينما ذهب ند يبحث عن سيارة أجرة، وضعناه، أنا وأومارا بالجرّ والدفع، في الزاوية. كان يرغي ويزبد؛ وكان يصبُّ حقده وضغينته، خاصة عليَّ، طبعاً. وفي غمرة الهرج والمرج أضاعَ قبعته. قال أومارا " لستَ بحاجةٍ إلى قبعة.

سوف نستخدمُها للتبوُّل فيها ". هنا أُصيبَ روثرمل بحنقٍ أعمى. حاولَ أن يفكَّ ذراعه لكي يُسدِّد ضربة إلينا، لكننا أحكمنا إمساكه. وفجأة وغريزياً حرَّرناه على الفور. نهضَ روثرمل واقفاً وهو يترنح قليلاً، لا يجرؤ على الإتيان بأي حركة خشية أن تنهار ساقاه. تراجعنا بضع خطوات ثم، بدافع من حافز مشترك، بدأنا نرقص حوله كالماعز، ونرسم على وجوهنا تعابير ساخرة منه، ونوبّخه، ونضع إبهامنا على أنوفنا منهمكين، ونحكّ مؤخرتينا كالقردة، ونثب ونطفر مرحاً كالمهرِّجين. وفقد الأبله المسكين صوابه. عندئذ كان قد أخذ يعوي بكل معنى الكلمة. ولحسن الحظ كان الشارع مقفراً. وأخيراً لم يعد يحتمل. اندفع نحونا، ثم تعثَّرَ وانزلقَ إلى المجرور. التقطناه، وأوقفناه بأمانٍ على الرصيف، ورحنا نكرر لأفعالنا الغريبة، وهذه المرة على وقْع لحن قصير وبسيط استخدمنا فيه اسمه بشكلٍ مُخزٍ.

جاءت السيارة وحشرنا فيها. أخبرنا السائق أنه مُصاب بهذيان الإفراط في السُكر، وأعطيناه عنواناً زائفاً في هوبوكن، ولوَّحنا له مودِّعين. وعندما عدنا شكرنا أصدقاءه واعتذروا من جديد. قال أحدهم "يجب أن يوضع في مصحّ". ثم طلبَ مشروباً للجميع وأصرَّ على أن يعزمنا على شطائر شرائح اللحم. وقال السياسي الأصلع " إذا ما حدث مرة ووقعتَ في مشكلةٍ مع ذوي الأقدام المسحاء[١٥٤]، فقط اتصل بي ". وقدَّمَ لي بطاقته ثم اقترحَ اسم بائع بضائع مهرَّبة نستطيع أن نحصل منه على تسليف إذا ما احتجنا إلى ذلك. ووزعت الخمر علينا مرتين وثلاث مرات، ودائماً من أفضل ويسكي اسكتلندا، ولو كان بول أحصنة لما همَّني.

---

١٥٤ – ذوي الأقدام المسحاء : يقصد رجال الشرطة . – المترجم .

بعد ذلك بقليل غادروا، واشتبكَ آرثر ريموند في عراكٍ مع شابٍ لم أكُنْ قد رأيتُهُ من قبل، مُصِراً على أنَّ هذا الأخير قد أهانَ مونا. كان اسمه دَفي. بدا شاباً طيباً، وإنْ بدا قليلاً متوعكَ الصحة. وكان آرثر ريموند يُصرُّ على القول " يجب أن يعتذر علناً ". واعتبر دَفي هذا نكتة كبيرة. وأخيراً بلغ سيل آرثر ريموند الزبى. نهضَ واقفاً ولوى ذراع دَفي، ورماه إلى الأرض. ثم جلسَ على صدر دَفي وراح يردِّد، وهو يضرب رأس الفتى المسكين بلا رحمة. " ستعتذر أم لا؟ ". أخيراً غمغمَ دَفي باعتذارٍ غير واضح، فرفعه آرثر ريموند ليقف على قدميه. وساد صمتٌ مُطبق، لم يحتمله آرثر ريموند. مدَّ دَفي يده وتناولَ معطفه وتبعته، ودفع حسابه، ثم غادر - دون أن يزيد كلمة واحدة. جلس آرثر ريموند وحده على طاولته، مطأطأ الرأس، يبدو عليه الاكتئاب والإحساس بالخجل. بعد بضع لحظات نهضَ واقفاً وخرجَ بخطى متشامخة.

لم يظهر من جديد إلا بعد ذلك ببضع ليالٍ مع عينين سوداوين، وعلِمنا أنَّ دفي كان ينتظره في الخارج وأنه ضَرَبَه ضَرْباً مبرحاً. والغريب في الأمر أنَّ آرثر ريموند بدا سعيداً جراء ما تلقاه من عقاب قاسٍ. وقد اتَّضح أنه بعد الشجار أصبح ودَفي صديقين حميمين. وأضافَ بتواضعه الزائف المعتاد أنه كان نوعاً ما في وضع غير مواتٍ، وأنه دائماً يكون كذلك حين يتعلَّق الأمر بالتلاكُم، لأنه لا يتحمَّل أن يُفْسدَ يديه. على أي حال، كانت تلك المرة الأولى في حياته كلها التي يتلقَّى فيها الضرب. كان ذلك مثيراً. وختمَ قائلاً مع لمسة خبث: " كلانا يبدو سعيداً بما حدث. لعل الأمر يستحق "

قالت مونا " لعلك تعلَّمت أن تهتم بشأنك "

لم يُجِبْ آرثر ريموند.

فأضافت " ومتى ستدفع حسابك؟ "

أمام دهشة الجميع، أجاب آرثر ريموند: " وما مقداره؟ "، وأدخلَ يده في جيبه وأخرجَ لفافة من الأوراق النقدية أخذ منها المبلغ المطلوب.

قال، وهو يتلفَّت فيما حوله كديكٍ البنطم. نهض واقفاً، وذهب إلى المطبخ، وشطبَ اسمه من القائمة.

قال " والآن لدي مفاجأة لكم "، وطلبَ أن يُقدَّم المشروب للموجودين كلهم. " فبعد شهر من الآن سوف أقدِّم حفلاً موسيقياً. باخ، بيتهوفن، موتسارت، رافيل، بروكوفييف وسترافنسكي. أنتم جميعاً مدعوون - وعلى حسابي. وسيكون آخر ظهور لي. بعد ذلك سأذهب لكي أعمل لصالح الحزب الشيوعي. ولا يهمني ماذا يحدث ليَديَّ. لقد سئمتُ هذا النمط من الحياة. سوف أؤدي عملاً بنَّاءً. نعم يا سيدي! "، وضربَ بقوة بقبضة يده على الطاولة " من الآن فصاعداً أنا أتبرَّأ منكم جميعاً! "

وبينما يبحرُ خارجاً من المكان استدار ليقول ما يلي: " لا تنسوا الحفل الموسيقي! سأخصِّص لكم مقاعد في الصف الأمامي "

ومنذ أن أعلن آرثر ريموند هذا اتَّخذتْ الأمورُ منحى لا شك في أنه كان أسوأ. فقد اخذ الدائنون يتوافدون علينا دفعةً واحدةً، وليس فقط الدائنون وإنما رجال الشرطة والمحامي الذي كانت مود قد عيَّنته لكي يجمع لها النفقة المتأخِّرة. كان الأمرُ يبدأ في الصباح الباكر مع بائع الثلج يدقُّ بقوة وحنقٍ على الباب وندَّعي نحن أننا في نومٍ عميقٍ أو في خارج المنزل. وبعد الظهر يأتي دور البقَّال، أو بائع المعلبات، أو أحد بائعي البضائع المهرَّبة، ليربُتَ على النافذةِ الأمامية. وفي المساء يأتي

مُحضَر محكمة، منتحلاً صفة زبون، أو رجل بملابس بسيطة. وأخيراً يبدأ صاحب المُلك بمضايقتنا بشأن الإيجار، مُهدِّداً بسَوْقنا إلى المحكمة إذا لم ندفع. وكان ذلك كافياً لتوتير أعصابنا. وأحياناً نكون من فرط الإرهاق بحيث نُغلق المربّع ونذهب إلى السينما.

ذات ليلة وصلَ الثلاثي القديم - أوزيكي، وأوشينسي وأندروز - مع ثلاث فتيات من ملهى الفولي. حدَثَ ذلك قُرابة منتصفِ الليلِ وكانوا مشرقين كسفنٍ مُحيطيّة. كانت واحدة من تلك الليالي التي لا نتَّصلُ فيها إلا بأصدقائنا الحميمين. وأصرَّتْ فتيات الفولي، الجميلات، اللذيذات، السوقيات بشكل خارق، على ضمّ الطاولات معاً لكي يرقصن فوقها، ويقمن بحركة مُباعدَة الساقين بزاوية قائمة، وما إلى ذلك. وتخيَّل أوزيكي نفسه قوقازياً، وأخذ يدور بسرعة بلبل، ونحن مذهولون. لم يتصورَّ بمقدار شعرة خلال فترة غيابه، طبعاً. لكنه أصبح أكثر مَرَحاً من المعتاد، ولسبب ما غريب تخيَّل نفسَه بهلواناً. وبعد أن انكسرَ عددٌ من الكراسي وتهشَّمَ بعضُ الأواني الفخارية، تقرَّرَ فجأة أن نذهب جميعاً إلى حي هارلم. وَلجَنَا أنا ومونا وأوزيكي سيارة أجرة مع سْبَدْ جيسون وصديقته ألاميدا التي كانت تضعُ في حجرها جرواً رثّاً يُدعى فيفي. ومع وصولنا إلى هارلم كان قد تبوّلَ على الجميع. وأخيراً تبوّلتْ ألاميدا في سروالها من فرط الإثارة.

في مربّع سمول، وكان حينئذٍ هو الرائج، شربنا الشمبانيا، ورقصنا مع أشخاصٍ ملوَّنين وأكلنا شرائح لحم ضخمة محشوَّة بالبصل. وكان الدكتور كرونسكي موجوداً بين الجمع وبدا مستمتعاً أيَّما استمتاع، ولا أدري مَنْ كان يسدِّد فاتورة ذلك كله. لعله كان أوزيكي. على أي حال،

عدنا إلى المنزل قُرابة الفجر وانطرحنا على السرير من شِدَّة الإرهاق. وقُبيل أن نستغرق في النوم ربتَ ألن كروموِيل على زجاج النافذة، وناشدنا أن نسمح له بالدخول. فلن نولِهِ انتباهاً. وظلَّ يهتف " إنه أنا، ألن، أدخلوني! "، وأخذ يرفع صوته حتى بدا وكأنه يزعق. واضحٌ أنه كان مفلساً حتى حنكه وفي أسوأ حال. وأخيراً جاء أحد رجال الشرطة وجرَّه بعيداً بتوجيه بضع ضربات تحبُّب من عصاه الليلية. ورأى كرونسكي وأومارا، اللذان كان نائمين على الطاولة، أنَّ تلك نكتة جيدة. وانتاب مونا القلق. لكننا عدنا جميعاً لنستغرق في نوم الموتى.

في مساء اليوم التالي خطرتْ لندّ وأومارا ولي فكرةٌ. وكنا كعادتنا جالسين في المطبخ مع قيثارة هاواي، نهمهم ونتكلَّم بصوتٍ خافت بينما مونا ترعى شؤون الزبائن. وكانت تلك الفترة فترة ازدهار فلوريدا. وخطرت لأومارا، القلق دائماً، المُتلهِّف دائماً إلى تحقيق الثراء الواسع، فكرةٌ تقول إنَّ علينا نحن الثلاثة أن ننطلق فوراً إلى ميامي، اعتقاداً منه أن في وسعنا أن نكسب ما يكفي من المال خلال بضعة أسابيع ونرسله إلى مونا ونعيش حياةً جديدةً. وبما أنَّ لا أحدَ منا كان لديه مال يوظِّفه في مجال العقارات كان علينا أن نحصل عليه من أولئك الذين يصنعونه. وسوف نقدِّم خدماتنا كنُدُل أو خَدَم في نواد. بل كنا راغبين في أن نمسح الأحذية، أو أي شيء آخر لننطلق. كان الجو ما يزال جيداً، وكان سيتحسَّن مع تقدُّمنا نحو الجنوب.

كان أومارا يعرفُ دائماً كيف يجعلُ الطعم شهياً.

وطبعاً لم تتحمَّسُ مونا كثيراً لمشروعنا. طلبت أن أعِدها بأن أتَّصلَ بها هاتفياً في كل ليلة، أينما كنا. كل ما أحتاج إليه قطعة نقدية

صغيرة أضعها في الشق؛ ويمكن أن أحيل دفع الرسم إليها. وحتى يحين وقت وصول فاتورة الهاتف تكون الحانة قد أغلقت أبوابها وتكون هي قد انضمَّت إلينا.

تمَّ إعداد كل شيء لشدّ الرِحال في غضون بضعة أيام. ولسوء الحظ، قبل موعد الانطلاق بيومين حملَ صاحب المُلك إلينا أمراً بالمثول أمام القضاء. وفي حركةٍ يائسةٍ حاولتُ أن أجمع على الأقلّ جزءاً من المبلغ الذي أُدين به له. وبقرارٍ مفاجئ قمتُ بزيارة ابن أحد أصدقاء والدي الحميمين. كان شاباً صغيراً لكنه كان يحقق نجاحاً في مجال السفن البخارية. ولا أدري ما الذي تملَّكني حتى صارحته - كان الأمرُ أشبه بالتعلُّق بقشَّة. وحالما أتيتُ على ذِكرِ المال رفضَ طلبي بكل برود. بل لقد كان من الوقاحة بحيث سألني لماذا وقع اختياري عليه هو بالذات. إنه لم يطلب مني قط أي معروف، أليس كذلك؟ (كان قد أضحى لتوّه رجلَ أعمالٍ متحجِّر الفؤاد. وفي غضون بضع سنوات سوف يحقق " نجاحاً باهراً "). ابتلعتُ كبريائي وانطويتُ على نفسي. وأخيراً وبعد أن سربلني الذُّل، نجحتُ في استخلاص مبلغ عشرة دولارات منه. وعرضتُ عليه أن أكتب له تعهُّداً لكنه رفض ذلك ساخراً. ولدى عودتي إلى المربع شعرتُ بتعاسةٍ شديدةٍ، وانهزامٍ قاهر، حتى كدتُ أضرم النار في المكان. ولكن ...

بعد ظهر يوم سبت انطلقنا أنا وأومارا قاصدَين ميامي. حدث ذلك في الوقت المناسب. كان الجو مثقلاً بالرطوبة، وبرقاقات الثلج - وكانت باكورة ثلوج الموسم. وكانت خطتنا تقضي بأن نصل إلى الطريق العامة خارج مدينة اليزابث، ونستقلّ من هناك سيارة توصلنا إلى واشنطن حيث

كنا سنقابلُ نِدْ. وكان ند، لسببٍ ما خاص به، ذاهباً إلى واشنطن بواسطة القطار. وكان قد أخذ معه قيثارة هاواي - لرفع المعنويات.

عندما تكوَّمنا داخل إحدى السيارات خارج بلدة اليزابث كان الظلام قد حلّ. وكان في السيارة خمسةٌ من السود وكانوا جميعاً سكارى. واستغربنا من قيادتهم السيارة بسرعةٍ فائقة. وسرعان ما اكتشفنا السرّ - لقد كانت السيارة ملآى بمدمني المخدرات وكان رجال الحكومة في إثرهم. ولم نفهم لماذا تخلّوا عن فكرة اعتقالنا. وشعرنا بارتياحٍ عظيم حين أبطأوا سرعتهم لدى اقترابهم من فيلادلفيا وتخلّصوا منا.

أصبحَ الثلج يسقطُ بغزارة وهبَّتْ ريحُ قويةٌ، مُصقِعة. وزيادة على ذلك، كان الظلام حالكاً. مشينا مسافةَ ميلين، وأسناننا تصطك، إلى أن صادفنا محطة وقود. ومرَّت ساعات طوال قبل أن نتمكّن من الحصول على توصيلة أخرى، وفقط حتى مدينة ويلمنغتن. وقررنا أن نمضي الليلَ في ذلك الجُحر المهجور.

كنتُ متيقِّظاً للوعد الذي قطعته لمونا واتَّصلتُ بها هاتفياً. أبقتني على الهاتف مدةً تُقاربُ الخمس عشرة دقيقة، وكان عامل الهاتف يتدخَّل مراراً ليُذكِّرنا بأن رسم المكالمة يزداد باطِّراد. كانت الأوضاع قاتمة عندها: اضطرَّت إلى المثول أمام المحكمة في اليوم التالي.

حين علَّقتُ السماعة انتابتني نوبة ندم عارمة حتى أني فكَّرتُ في أن أقفل عائداً في صباح اليوم التالي.

قال أومارا " هوِّن عليك، لا تدع الأمر يُثبِطِ همَّتك. أنت تعرف مونا، سوف تجد مخرجاً "

أنا أيضاً كنت أعلم هذا لكن ذلك لم يخفف من غلوائي.

قلت " فلننطلق غداً في الصباح الباكر. يمكن أن تصلَ إلى ميامي في غضون ثلاثة أيام، إذا اجتهدنا "

في اليوم التالي، قرابة الظهيرة، دخلنا على نِد الذي كان قد أقامَ في فندقٍ رثٍ مقابل دولار في الليلة. وكانت غرفته أشبه بخلفية مشهد في قصة غوركي " البيات الليلي ". كان نصف زجاج النوافذ مكسور؛ وبعضها كان مسدوداً بالخرق، والبعض الآخر بأوراق الصحف.

كانت الحنفيات معطَّلة، والأسرَّة مزوَّدة بحشيَّات من قش، والرفَّاص رخو تماماً. وكانت خيوط العنكبوت تتدلَّى من كل مكان، ورائحة الغبار كثيفة حتى كدنا نختنق. وكان ذاك فندقاً مخصصاً " للبيض ". وفي عاصمتنا المجيدة ولا أقلّ.

اشترينا بعض الجبن، والنبيذ وسجق السلامي، ورغيفاً كبيراً من الخبز وبعض الزيتون، وعبرنا الجسر إلى داخل فرجينيا. حالما اجتزنا الحدود جلسنا على العشب تحت شجرة ظليلة وملأنا بطوننا. ثم تمدَّدنا في الشمس المشرقة الدافئة، ودخَّنا سيجارة أو اثنتين، وأخيراً غنَّينا لحناً صغيراً. هذا اللحن أصبح أغنيتنا الرسمية - وتحكي عن البحث عن وجهٍ ودود.

كانت معنوياتنا عالية ونهضنا واقفين. بدا الجنوب جميلاً - دافئاً، ساحراً، فاتناً، ورحباً. كنا قد أصبحنا في عالمٍ آخر.

إنَّ ولوج الجنوب دائماً مُلهِم. وعندما وصلنا ميريلند وسلكنا الطرق الأفعوانية أصبح كل شيء رخيّاً، وسلساً. وحين تصل إلى " المستعمرة البريطانية القديمة " تصبح دون أدنى شك في عالمٍ جديد. فالناس يتَّصفون برُقيّ السلوك، والكياسة، والوقار. إن الولاية التي أعطتنا

أغلب رؤساء الجمهورية، أو على الأقلّ أفضلهم، كانت ولاية عظيمة في أيام عزّها. وما زالت كذلك، من نواحٍ عدة.

كنتُ قد غادرتُ نيويورك مرات كثيرة، ولم أهتمّ إلى أين أتوجّه، ما دمتُ أبتعد عن المدينة التي أمقتها. وغالباً ما كنتُ أنتهي إلى كارولاينا الشمالية أو تينيسي. وكان المرور من فيرجينيا بمثابة التدرُّب على اللحن الأساسي لسيمفونيّة أو رباعيّة مألوفة. أحياناً كنت أتوقف في مدينة صغيرة وأسأل عن عملٍ لمجرَّد أني وجدتُ المكان جميلاً. طبعاً لم أكن أقبل العمل. كنت أتلكّأ بعض الوقت في محاولةٍ لتصوُّر وضعي إذا ما أمضيت البقية الباقية من حياتي هناك. وكان الجوعُ دائماً ينتزعني من أحلام يقظتي ...

من واشنطن انتقلنا إلى رونوك بعد مشقّة، لأننا كنا ثلاثة أشخاص؛ إذ لم يكن السائقون يرغبون في نقل ثلاثة مشرَّدين، خاصةً من الشمال. لذا قررنا في تلك الليلة أنه يُستحسن أن نفترق. نظرنا في الخريطة وقررنا أن نلتقي في الليلة التالية في مكتب البريد في تشارلوت، في كارولاينا الشمالية. ونجحت الخطة نجاحاً ساحقاً. ووصلنا واحداً إثر آخر إلى غايتنا، ووصل آخر واحد متأخِّراً عن الأول فقط مدة نصف ساعة. هنا مرة أخرى غيَّرنا خطتنا، ذلك أن ندّ اكتشف أنه كان يمكن له أن يتوجه مباشرة إلى ميامي مع الرجل الذي أقلّه. وقررنا أن يكون لقاؤنا التالي في جاكسونفيل. وتلازمنا أنا وأومارا؛ وسافر ند وحده. وفي صباح اليوم التالي واجهنا رذاذ المطر، بُعيد الفجر، ونحن واقفان على الطريق العامة خارج تشارلوت، وطوال ساعة أو أكثر لم يلتفت أحد إلينا. ولما طفحَ كيلنا قرَّرنا أن نقف في منتصف الطريق. ونجحت الخطة. توقفت السيارة التالية مع صرخة ذعر.

صرخ السائق " ماذا أصابكما بحقّ المسيح؟ "

صرخنا " إلى أين أنت ذاهب؟ "

" إلى جاكسونفيل! "

فتحَ الباب وقفزنا إلى الداخل. ومن جديد انطلقنا بسرعةٍ تُحطِّمُ الأرقام القياسية. ولم ينطق السائق بكلمة واحدة طوال بضع دقائق. وعندما فتح بوزه قال - " من حسن حظكما أني لم أدهسكما ". ولم ننطق؟ أردف قائلاً " لم أدرِ ما أفعل: أأطلق النار عليكما أم أدهسكما". تبادلتُ وأومارا النظرات. سألنا " من أين أنتما؟ وما عملكما؟ ". أخبرناه. رمانا بنظرةٍ مُدقِّقة، وأعتقدُ أنه قرَّرَ أننا نقول الحقيقة، ثم حكى لنا، ببطء، وبتوجُّع، أنه قتل بالمصادفة صديقاً له في حانة خلال شجار سكارى. ضربه على رأسه بزجاجة، دفاعاً عن النفس. وأُصيبَ بالهلع والذعر، فاندفع هارباً من المكان، وتكوَّمَ داخل سيارته وانطلق مسرعاً. كان يحملُ مسدَّسين في جيبيه وكان على استعداد لاستخدامهما لو أن أحداً حاولَ أن يقف في طريقه، وقال " إنكما بالكاد نجوتما "

بعد قليل أفضى إلينا بأنه يتوجَّه إلى تامبا. حيث يمكنه أن يختبئ بعض الوقت. على الأقلّ هذا ما اعتقده. وقال " قد أعود وآخذ متعلقاتي. ولكن يجب أولاً أن أتمالك نفسي "، وأخذ يردِّد مراراً وتكراراً: " لم تكن غلطتي، لم أقصد قط أن أقتله ". بل إنه انهارَ مرةً وبكى كطفل.

حين توقَّفنا لنتناولَ طعام الغداء أصرَّ على أن يدفعَ الحساب. ودفع حساب وجبة العشاء أيضاً. وفي ماكون (ولاية جورجيا) نزلنا في غرفةٍ

بسريرين، وهذه أيضاً دفعَ حسابها. وفي الجهةِ البعيدةِ من القاعةِ الرحبةِ جلستْ عاهرةٌ على كرسي هزّاز تحت ضوء أحمر. وبينما نحن نخلع ملابسنا وضعَ صديقنا مسدسيه على طاولة الزينة، بالإضافة إلى محفظة نقوده، مشيراً إلى أنَّ أوَّل مَنْ سيحصل عليها سيكون رجلاً محظوظاً.

في صباح اليوم التالي الباكر تابعنا طريقنا. كان على صديقنا أن يتوجَّه مباشرة إلى تامبا ولكن كلا، لقد أصرَّ على أن نقبل منه ورقة نقدية بقيمة عشرة دولارات - " استجلاباً للحظ الحسن "

حذَّرنا قائلاً " الأفضل لكما أن تحدِّدا هدَفَكُما قبل أن تتقدَّما أي خطوة. لديّ حدس بأنَّ فترةَ الازدهار قد انقضت ". وتمنينا له التوفيق وراقبناه وهو ينطلق من جديد، ونحن نتساءل كم سيمرُّ من الوقت قبل أن يضع القانون يده عليه. كان شاباً صادقاً، بسيطاً، طيِّب القلب ويعمل ميكانيكياً. كان أحد أولئك الذين يُقال عنهم - " إنهم لا يؤذون ذبابة "

الحقّ يُقال لقد كنا محظوظين إذ قابلناه. فخلافاً للدولارات العشر التي نفحنا لم يكن معنا أكثر من أربعة دولارات. وكان معظم المال بحوزة ندّ وقد نسي أن يوزِّعه بيننا. وهكذا، ذهبنا إلى مكتب البريد، حسب الاتِّفاق. وكان ند هناك، بكل تأكيد. كان قد وصل إلى هناك منذ ساعتين أو أكثر. والرجل الذي أقَلَّه من شارلوت أوصله مباشرة، والأغرب من ذلك، أنه دفع عنه حساب وجباته وأنزله معه في الغرفة نفسها.

وبشكل عام تدبَّرنا أمرنا بشكل لا بأس به. الأمر التالي كان أن نحيط بجوّ المكان.

لم يستغرق منا وقتاً طويلاً معرفة طبيعة الوضع، كانت مدينة جاكسونفيل ملآى ومترعة بمغفّلين مساكين مثلنا، وكلهم عائد من البلد الجنوبي المزدهر. ولو كنا نتمتّع بأقلّ حسّ لعُدْنا أدراجَنا على الفور متّجهين شَطْرَ الوطن، لكنَّ الكبرياء جَعَلَنا نصمِّمُ على رَفْضِ التراجع بعض الوقت. وأخذ كل منا يردِّد على مسامع الآخر " لابد أنَّ هناك ما يمكننا أن نفعله ". ولكن ليس فقط كنا عاجزين عن فعل أي شيء، بل لم يتوفّر لنا مكانٌ نبيتُ فيه. وخلال النهار كنا نتسكَّع في جمعية الشبان المسيحيين التي تشبه مأوى تابع لجيش الخلاص. وبدا أنَّ لا أحد كان يبذل أي مجهود للعثور على عمل. الكلّ كان ينتظر وصول رسالة أو برقية من أهله في أرض الوطن. ينتظرون وصول بطاقة سفر بالقطار، أو حوالة بريدية، أو مجرد ورقة نقدية بقيمة دولار واحد. استمرَّ الأمرُ هكذا على مدى أيام. كنا ننام في الحديقة العامة (إلى أن قَبَضَ رجالُ الشرطة علينا)، أو على أرض الزنزانة، مع مائة أو أكثر من الأجساد القذرة المتلفعة بورق الصحف، بعضهم يتقيَّأ، والبعض يتبرَّز في سرواله. وكنا، بين حين وآخر وفي محاولةٍ لشغلِ أنفسنا، نمشي حتى قريةٍ قريبةٍ ونحاولُ أن نوجِدَ عملاً يوفِّر لنا على الأقلّ الطعام. وفي إحدى تلك الغزوات، ولم نكن قد تناولنا أي طعام منذ ستٍ وثلاثين ساعة وقد مشينا ثمانية أميال للوصول إلى مقرّ العمل الأسطوري، توجَّبَ علينا أن نعود أدراجنا سيراً على الأقدام وببطونٍ خاوية، وسيقاننا تصرّ، وأحشاؤنا تقرقر، ومنهكون من فرط التعب، وفي أقصى حالات الإرهاق والاكتئاب بحيث أننا، وكالهنود، كنا نمشي رتلاً واحداً، رجلاً وراء آخر، مطأطئي الرؤوس، بألسنة مدلاَّة. في تلك الليلة حاولنا أن نجتاح جيش

الخلاص. ولكن عبثاً. كان لابد أن يكون معنا ربع دولار ليسمحوا لنا بالنوم على الأرض. وفي المرحاض الموجود هناك بدأتْ أحشائي تنهار. وكان الألم ممضّاً إلى درجة أني انقلبتُ على نفسي. واضطرَّ ند وأومارا إلى حملي وإخراجي من المكان. وشققنا طريقنا ببطء شديد إلى منطقة سكك الحديد حيث تحمَّل قطارات الشحن بالفاكهة الفاسدة وتتجه إلى الشمال. وهناك التقينا بعمدة البلدة الذي أُبعدنا بتوجيهِ بندقيةٍ إلى ظهورنا. بل إنه لم يسمح لنا حتى بجمعِ بضعِ برتقالات عَفِنة كانت مرميّة على الأرض، وكان لا يني يصرخ في وجوهنا " عودوا من حيث أتيتم! "

وبنعمة حظٍ عظيم التقى ند في اليوم التالي بصاحبٍ له عجوز غريب الأطوار اسمه فلتشر تعرَّف إليه حين كان يعمل في مجال الدعاية في نيويورك. وكان الرجل فناناً على المستوى التجاري، ولديه محترَف، كما سمَّاه، وقد وعَدَنا، على الرغم في حالةِ إفلاسه التام، لأن يقدِّم لنا وجبة عشاء. بدا وكأنه كان يحتفل بيوبيله الفضّي. ومن أجل تلك المناسبة نجح في إخراج زوجته من مصحِّ الأمراض العقلية.

قال لند " لن تكون المناسبة مرحة جداً، لكننا سنبذل جهدنا لنجعلها بهيجة. إنها مخلوقة لطيفة، وغير مؤذية أبداً. وهي على هذه الحال منذ خمس عشرة سنة "

كان يوماً من أطول أيام عمري، وأنا أنتظر موعدَ تقديمِ تلك الوجبةِ الموعودة. رحتُ أتجوَّلُ في أرجاء مقرّ جمعية الشبان المسيحيين بتكاسُل طوال النهار، في محاولةٍ للحفاظ على قواي. وأمضى أغلب الرفاق الوقت في لعب الورق أو الداما - أما النرد فكان مُحرَّماً. وقرأت

الصُحُفَ، ومجلات العِلْم المسيحي، وكافة أصناف الهراء الموزّع في أرجاء المكان. ولو أنَّ ثورةً اندلعتْ في نيويورك لَما حركّتْ فيَّ شعرةً واحدة. إذ لم أكن أفكرٍّ إلا في - الطعام!

حالما وَقَعَ بَصَري على فلتشر المسكين شعرتُ بتعاطفٍ جمّ معه. كان رجلاً يقترب من سن السبعين، ذا عينين زرقاوين رقيقتين وشارب كبير. وإذا كان يشبه أحداً في العالم كله فهو أشبه ببافلو بيل. كان يدوّن على جدرانه أمثلةً من إنجازه العملي - أيام زمان - حين كان يتلقّى مبالغ ماليّة كبيرة مقابل رسم أفراس ورعاة بقر على أغلفة المجلات. وكان معاشٌ تقاعديّ صغير يُعينه على التحايُل على عيشِ حياةٍ مُتقشِّفة. كان يعيشُ على أملِ الحصولِ على عمولةٍ ضخمةٍ ذات يوم. وبين حين وآخر يرسمُ شاراتٍ صغيرةٍ للتجّار، أو أي شيء يجلب له حفنة من البنسات. وكان ممتنّاً لأنه يعيشُ في الجنوب حيث يقضي على الأقل أياماً دافئة.

دُهشنا حين أحْضَرَ زجاجتين، واحدةٌ مملوءة حتى منتصفها بالجن، والأخرى تحتوي مقدار سُمكْ إصبع من الجودار. وبعونٍ من ليمونةٍ، وبعض قشور البرتقال وكمّيةٍ وافرةٍ من الماء، نجحنا في جعل مخزونه يكفي لتوزيع عدة جرعات على كلٍ منا. في تلك الأثناء كانت زوجته تأخذ قسطاً من الراحة في الغرفة المجاورة. قال فلتشر إنه سوف يُحضرها عندما يحين وقت تناول الطعام. وقال " إنَّ الأمرَ لا يشكّل أي فرق بالنسبة إليها. إنها تعيشُ في عالمها الخاص وإيقاعها الخاص. وهي لم تعد تتذكّرني، فلا تدهشوا لما ستقول. في المعتاد هي هادئة جداً - ويمكنكم أن تقولوا إنها مرحة ومبتهجة "

ثم راح يُعدُّ المائدة. كانت الأطباق مكسورة ومُشظّاة، ولا شيء

يُضاهيها طبعاً، وكانت السكاكين من القصدير. مدَّ الـ " couvert " (المفرش) على الطاولة الجرداء، وفي الوسط وضع طاسَ الأزهار الضخم. وقال معتذراً " سوف تكون مجرَّد وجبة خفيفة باردة، لكنها قد تساعد على إسكات الذئب ". ثم مدَّ يده بطاس سلطة البطاطا، وبعض جبن الجرذان [١٥٥]، وبعض سجق بولونيا وسجق الكبد، مع رغيف من الخبز الأبيض وبعض السمن. وللتحلية كان هناك بعض التفاح والجوز. ولا أثر للبرتقال. وبعد أن وَضَعَ كوباً من الماء في مكانه المُخصَّص وضع إبريقَ القهوة على النار ليغلي.

قال، وهو ينظر باتجاه الغرفة الأخرى " أعتقد أننا صرنا جاهزين الآن. انتظروا دقيقة لأُحضر لورا "

وقفنا نحن الثلاثة يلفُّنا الصمت أثناء انتظارنا ظهور الاثنين من الغرفة المجاورة. كان في استطاعتنا أن نسمعه وهو يوقظها من نومها؛ كان يتكلَّم معها بصوتٍ خافتٍ، رقيقٍ، وهو يساعدها لتقف على قدميها.

قال، وهو يقودها إلى المائدة، ويبتسم ابتسامة يائسة من خلال دموعه، " حسن، ها هي أخيراً. لورا، أقدِّم لك أصدقائي - وأصدقاءك أيضاً. سوف يتناولون الطعام معنا - أليس هذا شيئاً جميلاً؟ "

رحنا نتقدَّم كلٌ بدوره، ونصافحها هي أولاً، ثم هو. وحين رفعنا كؤوس الماء وشربنا نخبَ ذكرى زواجهما الخامس والعشرين، طَفَرَتْ الدموع من عيوننا جميعاً.

قال فلتشر، وهو ينظر أولاً إلى زوجته المسكينة المجنونة، ثم إلينا،

---

١٥٥ - جبن الجرذان : هو اللقب الفكاهي لما يُعرَف بجبن الشدَر . - المترجم

" في الواقع، إن هذا الجو يذكّر بالأيام الخوالي. أتذكرين يا لورا ذاك المُحتَرَف القديم الغريب الأطوار الذي كنت أحتفظ به في منطقة " فيليج" قبل سنين عديدة؟ حتى حينئذٍ لم نكن أثرياء كثيراً، أليس كذلك؟ ". ثم التفت إلينا. " لن أتلو صلاة المائدة على الرغم من أني في هذه الليلة أشعر برغبة في ذلك. لقد تخلّيتُ عن هذه العادة. ولكن أريد أن أخبركم كم أنا ممتنّ لأنكم تشاركوننا هذا الاحتفال الصغير. كان يمكن أن يكون حزيناً جداً وجودنا نحن الاثنان وحدنا ". والتفتَ إلى زوجته.

" لورا، أتدرين أنك ما زلت جميلة؟ "، وربتَ بلطفٍ على أسفل ذقنها. رفعت لورا بصرها بكآبة وومَضَ على شفتيها بصيصُ ابتسامة. هتف " أترين؟ أه نعم، لقد كانت لورا ذات مرة حسناء نيويورك. أليس كذلك يا لورا؟ "

لم يستغرق التهامنا الطعام طويلاً، بما في ذلك التفاح والجوز وعدد من الكعك المُحلّى البائت اكتشفَ فلتشر وجودها مصادفة أثناء بحثه عن الحليب المُجفَّف. وأثناء شرب كوبٍ ثانٍ من القهوة أخرجَ ند قيثارةَ هاواي وانغمسنا في الغناء، ولورا أيضاً. غنّينا أغانٍ قصيرة بسيطة، مثل " أوه سوزانا " و " ضفدع كبير جلسَ على سكة القطار " و " آني لوري " و" جو العجوز الأسود " ... وفجأة نهضَ فلتشر واقفاً وقال إنه يريد أن يغني " ديكسي "، فغنّى بحيوية بالغة، واختتمَ بصرخة قوية مروِّعة. واستمتعت لورا كثيراً بأدائه، حتى أنها طلبت منه أن يغني لحناً آخر. ومرة أخرى نهضَ واقفاً وغنّى " رحّالة آركنساس " وتوّجها برقصةٍ سريعةٍ حيوية. يا إلهي، لقد كنا مرحين، وكان جواً محزناً.

بعد بعض الوقت أحسستُ من جديد بالجوع. وسألت إن كان قد

تبقَّى أي قطعة خبزٍ بائت. وقلت " يمكننا أن نصنع فطائر فرنسية مُحلاَّة"

بحثنا في طول المكان وعرضه لكننا لم نعثر حتى على كسرة خبز. لكننا وجدنا بعض البقسماط العفن فغمسناه في القهوة وحصلنا على نفحة جديدةٍ من الطاقة.

لولا النظرة الخاوية المرتسمة على وجهها ما كان الناظرُ إلى لورا ليظنّ أنها مجنونة. لقد غنَّت بحرارة، واستجابت لمزاحنا ونكاتنا، وتناولت طعامها بتلذُّذ. إلا أنها بعد ذلك بقليل، أغفت، كطفلة. فحملناها إلى غرفة نومها وأعدناها إلى سريرها. مال فلتشر عليها وقبَّلها على جبينها.

قال " لو تنتظرون قليلاً يا شباب فأعتقد أني قد أستطيع أن أعثر على مقدار ضئيلٍ آخر من الجن. أنا ذاهب لأسأل جارنا "

بعد بضع دقائق عاد مع نصف زجاجة من البوربون. وجلب أيضاً كيساً صغيراً من الكعك. أعدَّ إبريقاً آخر من القهوة، وصبَّ البوربون، وبدأ يتحدَّث. وكنا بين حين وآخر نرمي زنداً قصيراً من الحطب في المدفأة القديمة ذات البطن. كانت تلك أول أمسية مرحة، رخيّة نقضيها في جاكسونفيل.

قال فلتشر " حين أتيتُ إلى هنا كنتُ في مثل وضعكم. وقد استغرقَ مني التأقلُم بعض الوقت ... ند، لمَ لا تذهب إلى مكتب الصحيفة. لديّ صديق هناك، وهو أحد المحرِّرين. ربما يستطيع أن يدبِّر لك عملاً "

قال ند " لكني لستُ كاتباً "

قال أومارا " لا يهمّ، هنري سيقوم بالكتابة نيابةً عنك "

قال فلتشر " لِمَ لا تذهبان أنتما الاثنان؟ "

كنا من شدة الابتهاج بالعمل المُنتظَر حتى أننا جميعاً أخذنا نرقص في وسط الغرفة.

ناشدنا فلتشر " دعونا نغني تلك الأغنية التي تدور حول البحث عن وجه ودود ". وانهمكنا من جديد في الهمهمة والغناء، ليس بصوتٍ عالٍ مراعاةً للورا.

قال فلتشر " لا تقلقوا بشأنها، إنها تنام كملاك. في الحقيقة، هي ملاك بالفعل. إنني بكل صدق أعتقد أنَّ هذا هو السبب في أنها - كما تعلمون. إنها لا تتلاءم مع عالمنا. أحياناً أؤمن بأنَّ كونها ما هي عليه هو من قبيل البَركة "

عرضَ علينا نماذجَ من عمله الذي كان يُخزِّنه بعيداً عن العيون داخل صناديق ضخمة. لم يكن سيئاً جداً. على الأقل كان رساماً جيداً. في شبابه جال في أرجاء أوروبا كلها - باريس، ميونيخ، روما، براغ، بودابست، برلين. بل إنه فاز بجوائز عدَّة.

قال " لو يُتاح لي أن أعود لأعيش حياتي من بدايتها، لما فعلتُ أي شيء. لأخذتُ أدور العالم كله سيراً على قدميّ. لِمَ يا شباب لا تتَّجهون غرباً؟ ما زال ذلك الجزء من العالم شاسعاً فسيحاً "

في تلك الليلة نمنا على أرضِ مُحترَف فلتشر. وفي صباح اليوم التالي ذهبنا أنا وندّ لمقابلة الصحفي. وبعد أن تبادلنا بضع كلمات تمَّ انتخابي. ولكن أعطيتُ فرصةً لند ليكتب سلسلةً من المقالات. وطبعاً، أنا الذي سيقوم بالعمل القذر.

كل ما كان علينا أن نفعله عندئذ هو أن نشدَّ أحزمتنا إلى أن يحين يوم دفع الرواتب. وكان يوم الدفع يبعد " فقط " مدة أسبوعين.

في ذلك اليوم بالذات قادني أومارا إلى منزلِ رجلِ دينٍ أيرلنديّ حصلَ على عنوانه من أحدهم. وللتو قابلتنا الأخت التي فتحت لنا الباب ببرود. وأثناء هبوطنا الرواق لاحظنا الأبُ الطيبُ يُخرِجُ سيارته الباكارد بهدوء من المرآب. حاول أومارا أن يناشده. ومن باب التشجيع حصل على نفحةٍ من الدخان الكثيف من سيجار الأب الفاخر. " اغرب عن وجهي ولا تفسد مزاجي الرائق ". هذا كل ما تلطَّفَ بقوله الأب هوليهان.

في تلك الأمسية رحتُ أهيمُ على وجهي وحدي مع وحشتي. ولدى مروري بكنيسٍ ضخمٍ سمعتُ جوقةَ ترتِّل. كانت صلاةً يهوديّة فاتنة. ولجتُ المكان واتَّخذتُ لي مجلساً في أبعد مكانٍ في الخلف. وحالما انتهى القداس تقدَّمت من المقدِّمة وبادرتُ الحاخام بلا استئذان. أردت أن أقول "يا حاخام، إنني في أسوأ حال ... "، لكنه كان مخلوقاً رصين المظهر، مجرَّداً تماماً من أي وداعة. حكيتُ له حكايتي باختصار، مضمِّناً كلامي مداورةً طلباً للطعام، أو بطاقات وجبات مجَّانية، ومكاناً للإيواء، " إذا أمكن ". لم أجرؤ على ذكر أننا ثلاثة أشخاص.

قال الحاخام " لكنك لستَ يهودياً، أليس كذلك؟ "، وأخذ يحدِّقُ إليَّ بعينين نصف مغمضتين وكأنه لا يراني بوضوح.

" كلا، لكني جائع. ماذا يهمُّ من أي دينٍ أنا؟ "

" ولمَ لا تحاول مع الكنائس المسيحية؟ "

أجبتُ " حاولتُ. ثم إني لستُ مسيحياً. أنا مجرَّد رجل مُلحد "

دوَّنَ بضع كلمات على مضض على قُصاصةٍ من الورق، وهو يقول أنَّ عليّ أن أقدِّم الرسالة إلى الرجل المسؤول في جيش الخلاص. فذهبتُ إلى هناك في الحال، لكنهم أخبروني أنه لا مكانَ شاغرٌ.

توسَّلتُ إليهم " ألا يمكن أن تعطوني شيئاً يؤكل؟ "

أبلغوني أنَّ غرفةَ الطعامِ قد أُغلقَتْ أبوابها منذ ساعات.

قلت، وأنا أتشبَّثُ بالرجل الجالس وراء المقعد، " سآكُل أي شيء. ألم يتبقَّ لديكم برتقالة عفنة أو موزة عفنة؟ "

نظرَ إليّ مُستغرباً. ولم يتأثَّر.

ناشدته " ألا تعطيني قرشاً - قرشاً واحداً؟ "

وباشمئزاز مدَّ يده إلى جيبه ورمى قرشاً إليّ.

قال " والآن اغرب من هنا! أنتم المتسكِّعون تنتمون إلى الشمال، من حيث أتيتم "

استدرتُ على عقبيَّ ومشيتُ مبتعداً دون أن أنطقَ كلمة واحدة. وفي الشارع الرئيسي رأيت رجلاً مُريحَ المظهر يبيعُ الصحف. وشجَّعني شيءٌ في مظهره على مخاطبته.

قلت " مرحباً، كيف الحال؟ "

" لا بأس. من أين أنت - من نيويورك؟ "

" نعم، وأنت؟ "

" من مدينة جيرزي "

" فلنتصافح! "

بعد ذلك بقليل كنتُ أنادي على الصحف القليلة التي أعطانيها. واستغرقَ مني التخلُّص منها نحو ساعة من الزمن. لكني كسبتُ بضعة بنسات. وهرولتُ عائداً إلى جمعية الشبيبة المسيحية فوجدت أومارا يغفو وراء صحيفةٍ على مقعدٍ كبير.

قلتُ، وأنا أهزّه بشدة " هيا بنا نأكل "

أجاب ساخراً " نعم، هيا نذهب إلى مطعم ديلمونيكو "

قلتُ " كلا، أنا جادّ. لقد كسبتُ لتوي بضع سنتات، تكفي ثمن قهوة وكعكة محلاَّة ومقلية. هيا بنا "

وللتو بات واقفاً على قدميه. وبينما نحنُ نحثُّ خطانا مُسرعين أخبرتُه بإيجازٍ بما حدث.

قال " هيا نبحث عن ذلك الشاب، يبدو أشبه بصديق. أقلتَ أنه من مدينة جيرزي؟ عظيم! "

كان اسمُ الوافد الجديد موني. تركَ عمله ليتناول لقمة معنا.

قال موني " يمكنكما أن تناما في غرفتي. لدي مضجع إضافي. إنه أفضل من النوم في الزنزانة. "

في اليوم التالي، وقرابة الظهيرة، أخذنا بنصيحته وتوجَّهنا إلى خلفية مكتب الصحيفة لنحصل على حزمةٍ من الصحف. وطبعاً أقرضنا صديقنا المال لنشتري به الصحف. كان هناك نحو خمسين صبياً يحومون في المكان، وكلٌ يحاولُ أن يحصلَ على حزمته أولاً. واضطررت إلى الميل عبر عتبة النافذة وسحبها وإخراجها من بين قضبان الحديد. وفجأة شعرتُ بأحدهم يزحفُ فوق ظهري. كان صبياً أسود يحاول أن يمدَّ نفسه من فوق رأسي ليأخذ حزمته. أنزلته عن ظهري فزحفَ من بين ساقيّ. وكان الأولاد كلهم يضحكون ويسخرون. فضحكتُ بدوري. مهما يكن، سرعان ما أصبحنا مُحمَّلين ونسير على طول الشارع الرئيسي. وكان أصعب شيء في العالم بالنسبة إليّ أن أفتح فمي وأرفع عقيرتي بالصراخ. حاولتُ أن أُقحِمَ الصحفَ أمام المارَّة، لكن هذه الطريقة لم تنفع أبداً.

كنتُ أقفُ هناك، أعتقدُ أني كنتُ أبدو أبله، حين جاء إليّ موني. قال " ليس هكذا تُباعُ الصحف. أنظر، راقبني! " . قال هذا وأخذَ يدورُ ويلوِّح بالصحيفة ويزعق " عددٌ ممتاز! عددٌ ممتاز! كل شيء عن البرووو... زي ي ي ز العظيم ". ولم أفهم ما هو الخبر العظيم، بما أني لم أُميِّز الكلمة الهامة في منتصف العبارة. نظرتُ إلى الصفحة الأولى لأرى ما هو العنوان الرئيسي. لا عنوانَ رئيسيٌ. في الواقع، لم يبدُ أن هناك أي خبر مميَّز.

قال موني " اهتف بأي شيء. ولكن اهتف بأعلى صوتك! ولا تقف في بقعةٍ واحدة. ولا تكفّ عن الحركة! عليكَ أن تبذل نشاطاً ملحوظاً إذا أردتَ أن تتخلَّصَ منها قبل أن تصدر الطبعة التالية "

بذلتُ أقصى جهدي. رحتُ أتحرَّكُ بنشاطٍ في طول الشارع الرئيسي وعرضه، ثم انحدرتُ إلى الشوارع الجانبية. وسرعان ما وجدتني في الحديقة العامة. وكنتُ قد بعتُ ثلاث صحفٍ أو أربع. وَضَعْتُ الحزْمَةَ على الأرض وجلستُ على مقعدٍ أراقبُ البطَّ يسبحُ في البركة. كان المرضى كلهم، والمتعافون والمتوهِّمون بالمرض، قد خرجوا يتشمَّسون. وبدَتْ الحديقةُ العامةُ أشبهُ بإعادةِ خلقٍ لموقعِ مأوى الجنود العجزة. طلبَ عجوزٌ غريب الأطوار جالسٌ إلى جانبي استعارة صحيفة ليعرف حالة الجو. انتظرتُ ناعساً ومسترخياً ريثما يقرأ الصحيفة من أولها إلى آخرها. وحين أعادها إليّ حاولتُ أن أُعيدَ طَيَّها كما ينبغي حتى لا تبدو باهتة ومتَّسخة.

لدي خروجي من الحديقة استوقفني رجلُ شرطة ليشتري صحيفة فكادت تنهار أعصابي.

عندما حان موعد صدور الطبعة التالية كنت قد بعتُ بالضبط سبع صحف. وفتَّشتُ عن أومارا، فوجدتُ أن حاله ليس أفضل من حالي، وليس لديه ما يتفاخرُ به.

قال " سوف يَخيبُ أملُ موني "

" أعرف. أعتقد أننا لم نُخلَق لنبيع الصحف في الشوارع. إنها مهنةُ الأولاد - أو أشخاص حيويين مثل موني "

" معك حق، هنري "

مرة أخرى تناولنا القهوة والكعك المُحلّى. أفضل من لا شيء. إنه طعام والطعام هو ما نحتاجه. إن ذاك التمشّي كله جيئة وذهاباً، مع حزمة الصُحُف، يُصيبُ الشهيّة بالجنون. وتساءلتُ إلى متى سأتحمَّلُ الصبرَ على هذا الوضع.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم هرعنا مرة ثانية إلى موني، واعتذرنا لعجزنا عن التقدُّم في العمل.

قال " لا عليكما. أنا أفهم. اسمعا، دعوني أقرضكما خمسة دولارات. فتّشا عن عملٍ أفضل. أنتما لم تُخلقا لمثل هذا العمل. سأراكما هذه الليلة على طاولة الغداء، اتفقنا؟ "، وانطلقَ بنشاطٍ ملوِّحاً بيده مُحيِّياً.

قال أومارا " هذا هو الصاحب الرائع. يا إلهي، يجب أن نستقرَّ على شيءٍ ما، هيا بنا. لننطلق! "

انطلقنا مباشرةً، دون أن يكونَ لدى أي منا أدنى فكرةٍ عمَّا نبحثُ عنه أو كيفَ نفعل ذلك. وعلى مبعدةِ عدة أبنية قابلنا شاباً يبدو مرحاً حاولَ أن يستخلص منا قرشاً.

كان عامل منجم من بنسلفانيا. كان مضطراً، مثلنا. وأثناء شرب كوب من القهوة وتناول كعكة محلاة تبادلنا الأفكار.

قال " اسمعا، فلنذهب هذا المساء إلى المنطقة الحمراء[156]. إنهم دائماً يرحِّبون بمن يستطيعُ أن يدفع ثمن المشروب. ولستُ مضطراً إلى الصعود إلى الطابق العُلوي مع الفتيات. على أي حال، إنه مكانٌ أليفٌ ومريحٌ - ويمكنك أن تستمع إلى الموسيقى. إنَّ المنظرَ اللَّعينَ أفضَلُ من الجلوس في المشرحة " (كان يقصد بذلك جمعية الشبان المسيحيين).

في أمسية ذلك اليوم سألنا، ونحن نشرب بضع كؤوس إن كنا قد اهتدينا.

اهتدينا؟ ماذا يقصد؟

شرحَ لنا. يبدو أنه كان هناك دائماً بعض الشبان يتسكَّعون حول "المشرحة " يتوقون إلى كسب مهتدين إلى الكنيسة. حتى أتباع طائفة المورمون[157] أرسلوا كشَّافيهم. ثم أردف شارحاً، المهم في الأمر أن تُنصت ببراءة وأن تُبدي الاهتمام. " إذا اعتقدَ الأبله أنه أوقعَكَ في شباكه، تستطيع أن تبتزّ منه وجبةً بسهولة بالغة. جرِّب ذلك ذات مرة. إنهم يلحُّون عليّ - لم أعُدْ أستطيع أن ألعب هذه اللعبة "

مكثنا في الماخور قَدْرَ ما استطعنا. وكانت فتيات جديدات يظهرنَ تباعاً، ويقمن ببضع حركات إغراء، ثم ييأسنَ منا.

قال صديقنا " إنها ليسَتْ بالضبط الجنة بالنسبة إليهنَّ. المضاجعة بدولار، والماخور يأخذ القسم الأكبر منه. ومع ذلك، أعتقد أن بعضهنَّ لا بأسَ به، ما رأيكما؟ "

---

١٥٦ - المنطقة الحمراء : حي المواخير . - المترجم

١٥٧ - المورمون : عضو في طائفة دينية أميركية أنشأها جوزيف سميث (١٨٠٥ - ١٨٤٤) عام ١٨٣٠ ، وقد أباحت تعدُّد الزوجات فترة ثم حظرته . - المترجم

تفحَّصناهُنَّ مُخمِّنين. ثُلة مثيرة للشفقة، بل وأشدّ إثارة للشفقة من فتيات جيش الخلاص الصغيرات. كلهن يمضغنَ العلكة، ويهمْهمنَ، يصفِّرن، يحاولن أن يبدين مُغريات. لاحظتُ أنَّ واحدةً منهنَّ أو اثنتين كنَّ يتثاءبن، يَعْرِكْنَ عيونهن المُتعبة من فَرْطِ الإجهاد.

قال أومارا " على الأقلّ إنهنَّ يأكلن بانتظام "

قال صديقنا " نعم، هذه ناحية هامة. من ناحيتي، أنا أفضِّل الجوع"

قلت " لا أدري، لو كان لي الخَيَار ... لو أني امرأة ... لست متأكداً إلا من محاولتي أن أُحقق النجاح. على الأقل إلى أن أسمن قليلاً "

قال صديقنا " هذا ما تظنّه، لكنك مخطئ. إنك لا تسمن من وراء هذا العمل، واسمح لي "

قال أومارا، مشيراً إلى كتلةٍ ضخمةٍ من الشحم، " ما رأيك في هذه؟ "

" لقد ولدتْ بدينة، هذا واضح. ثم إنها فنانة في السُكر "

في تلك الليلة، وفي طريق العودة إلى الضَيَاع، وأخذت أفكر في مونا. لم تصلني منها منذ وصولنا إلا رسالة صغيرة. صحيح، إنها لم تكن مرة كاتبة رسائل جيدة. ولا كانت قط واضحة كثيراً حول أي شيء. كل ما استطعتُ أن أستشفَّه من رسالتها هو أنها سوف تجرِّد من ممتلكاتها في أي وقت. وماذا بعد ذلك؟ الله أعلم.

في اليوم التالي تسكَّعتُ في جمعية الشبان المسيحيين طوال أغلب سحابة النهار، يحدوني الأمل، أو بالأحرى أُصلِّي، كي يحاولَ أحدهم معي. كنت على استعداد وراغباً في أن أهتدي إلى أي دين، حتى إلى

مذهب المورمون. لكنَّ أحداً لم يزعجني. وعند اقترابِ المساء خَطَرَتْ لي فكرةٌ لامعة. كانت فكرةً بارعةً ومن شدةِ البساطةِ بحيث أني استغربتُ كيف أنها لم تخطر على بالي قبل ذلك. على أي حال، إنَّ على الإنسان أن يغرق في اليأس قبل أن تخطر مثل تلك الحلول الشديدة البساطة على باله.

ماذا كانت الفكرة اللامعة؟ أن أنتقلَ من محلٍ تجاري إلى آخر أطلبُ منهم فقط المأكولات التي يريدون رميها: خبزٌ بائت، فاكهة فاسدة، حليب حامض ... ولم أدرك قط عندئذ مدى تشابُه خطتي مع أسلوب القديس فرانسيس في الاستجداء. هو أيضاً كان يطلب فقط ما لا يصلح للأكل من الطعام. والفرق، طبعاً، هو أنه كان لديه رسالة يؤديها. أما أنا فكنتُ فقط أحاولُ أن أبقى على قيد الحياة. فرقٌ شاسع!

ومع ذلك، نَجَحَتْ كالسحر. استَلَمَ أومارا جانباً من الشارع، واستلمتُ أنا الآخر. ومع التقائنا عند نهاية البناء كانت أذرعنا مترعة. وهرعنا إلى منزل فلتشر، وأحضرنا ند، وعملنا على إعداد وليمة.

الحقّ أقول، البقايا والفضلات التي جمعناها لم تكن بغيضة على الإطلاق. كنا جميعاً قد أكلنا قبل ذلك لحماً ملوَّثاً، وإن كان ذلك بدون قصد؛ الخضروات كانت فقط بحاجة إلى تشذيب؛ والخبز البائت كان ممتازاً للتحميص؛ والحليب الحامض أضفى على الفاكهة الشديدة النضج طعماً لذيذاً رائعاً. كان يمكن لحمَّالٍ صينيّ أن يعتَبِرَ وجبتنا وجبةً مرفَّهة. وكل ما كان ينقص قليلٌ من النبيذ نبتلع به جبنة الجرذان التفهة. إلا أنه توفَّرَ لدينا قهوة وقدرٌ من الحليب المكثَّف. لقد كنا في قمة البهجة. وأكلنا كالذئاب.

قال أومارا " من المؤسف أننا لم نفكّر في دعوة موني "

سأل ند " مَنْ موني هذا ؟ "

شرحنا له. أنصتَ بفمٍ فاغر.

قال " يا يسوع، يا هنري، لا أكاد أُصدِّق. كنتُ أنا جالساً في الطابق العُلوي في غرفة المكتب الأمامية طوال الوقت، أبيعُ بضاعتك "أنت " باسمي " أنا " - وأنتما تبيعان الصحف في الشوارع! يجب أن أُخبر ألريك بهذا ... بالمناسبة، هل رأيتَ المادةَ التي كتبْتَهَا أنت؟ هل قلتُ لك أنهم وجدوا أنها جيدة جداً ؟ "

كنتُ قد نسيتُ تماماً أمرَ المقالات. لعلّني قرأتُها ، خلال فترات الغيبوبة تلك في جمعية الشبان المسيحيين، ولم أدرك قط أني أنا الذي كتبها.

قال فلتشر " هنري، يجب أن تعود إلى نيويورك. لا يهمّ إن بدَّدَ هذان الشابان وقتهما ، أما أنت فأمرُكَ مختلف. لديَّ حدسٌ بأنك قد خُلِقتَ لأمرٍ جلل "

تضرَّجَ وجهي خجلاً وحاولتُ أن أتغاضى عن الملاحظة.

قال فلتشر " هيا ، لا تكن شديدَ التواضع. أنت موهوب، أي إنسان يستطيع أن يرى هذا. لا أدري ماذا ستصبح - أقديساً، أم شاعراً ، أم فيلسوفاً. لكنك فنان، هذا ما لا شك فيه. وزيادةً على ذلك، أنت نقي. لك أسلوبٌ في نسيان نفسك يكشف لي الكثير حولك "

استحسنَ ند، الذي كان ما يزال يشعر بالذنب، ما قاله فلتشر بحرارة. قال " حالما تصلني النقود يا هنري، سأنفحُكَ أجرةَ القطارِ لتعودَ إلى وطنك. هذا أقلّ ما يمكنني أن أفعله. وسنبقى أنا وأومارا لنتحمَّل

المشـاقّ، مـا رأيك يـا تد؟ أنت رجلٌ مـحنَّك: تتـشـرَّد منذ أن كنتَ في العاشرة من عمرك "

ابتـسمَ أومـارا. الآن بعـد أن وَجَدَ وسـيلةً للحـصـولِ عـلى الطعـام ارتفعت معنوياته.

ثم كـان هناك مـوني، الذي افـتُـتِنَ به. كـان واثقـاً من أنهـمـا مـعـاً يستطيعان أن يخرجا بفكرةٍ جيدة.

" ولكن مَنْ الذي سيكتبُ المقالات للصحيفة؟ "

قـال ند " لقـد دبَّرتُ لتوي هذا الأمر. في الأسبوع القـادم سيـجعلون مني مُنَسِّقاً للمواد المطبوعـة. وهذا يناسبني تماماً. وقـريبـاً سأتلقَّى نقـوداً حقيقية "

قال فلتشر " ربما ينالني شيءٌ منك "

قـال ند " لقـد فكَّرت في هذا أيضـاً. إذا مـا تكفَّلَ صـاحبنا تد هنا بحلّ مشكلة الطعـام فـسـوف أُلبِّي كل مـا عـداها. لم يبق إلا بضـعـة أيام حتى يوم دفع الرواتب "

مرة أخـرى نمنا في منزل فلتـشـر. وأمضـيتُ ليلةً أرِقـة، ليس بسـبب الأرضيّـة الصلبـة وإنما بسـبب مـونا. والآن وقـد سنحت الفـرصـة للعـودة لا أراني مـتـحمسـاً لفعـل ذلك. بقـيتُ طوال الليل أعـصرُ ذهني علَّني أعـثر على مـخـرجٍ سريعٍ. وقـرابة الفـجـر خطر لي أنه ربما يُرسل والـدي لي على الأقل جزءاً من أجري، فـيـوصلني على الأقل حتى ريتشموند، فـأختـصـرُ المسافة.

في وقتٍ مـبكّرٍ جداً من النهـار توجَّـهتُ إلى مكتب البـريد وبعـثتُ ببرقـية إلى والدي. ومع حلول الليل كـانت النقـود قد وصلت - أجر الرحلة

بأكملها .اقترضت خمسة دولارات أخرى من موني، ثمن الأكل، وفي تلك الليلة بالذات انطلقتُ.

حالما صعدتُ متنَ القطارِ شعرتُ وكأني رجلٌ جديد. وقبل مرور نصف ساعة كنتُ قد نسيتُ تماماً جاكسونفيل. ما ألذّ الإغفاء في كرسي منجَّد! والغريب في الأمر أني وجدتني أعود إلى ممارسة الكتابة - داخل رأسي. نعم، كنت متحرِّقاً حتماً إلى الجلوس أمام الآلة الكاتبة. خُيِّلَ إليّ أنه قد مرَّ قرنٌ من الزمان منذ أن كتبت آخر سطرٍ ... ورحتُ أتساءل بشكلٍ مبهمٍ، حالمٍ، أين سأجد مونا، وماذا سنفعل بعد ذلك، أين سنقطن، وما إلى ذلك. لا شيء كان على جانب عظيم من الأهمية. كان الجلوس في ذاك المقعد الوثير شيئاً لذيذاً، رخيّاً - وفي الجيب ورقةٌ نقدية بقيمة خمسة دولارات ... لعلَّ ملاكي الحارس كان يشملني برعايته! وتذكَّرتُ كلمات فلتشر الوداعيّة. أأنا حقاً فنان؟ طبعاً أنا كذلك. ولكن كان ما يزال أمامي أن أبرهن على ذلك ... أخيراً هنَّأتُ نفسي على مروري بتلك التجربة المريرة. ورحتُ أكرر لنفسي " التجربة من ذهب ". بدا قولاً سخيفاً، لكنه هدهدني حتى استغرقتُ في نومٍ هانئ.

١٣

وهكذا عدتُ إلى أرض الأهل والأجداد القديمة، أو بعبارة أخرى - إلى شارع الأحزان المبكّرة. مونا تعيشُ مع أهلها، وأنا أعيشُ مع أهلي. إنها الطريقة الوحيدة - (مؤقتاً) - لحلّ المشكلة الاقتصادية. وحالما أبيع عدداً من قصصي سوف نجدُ من جديد مكاناً خاصاً بنا.

ومنذ أن يغادر الوالد المنزل إلى محل الخياطة وحتى عودته على العشاء وأنا أبذل جهوداً حثيثة - في كل يوم. في كل يوم نتحدَّث، أنا ومونا، عبر الهاتف؛ أحياناً نتقابل عند الظهيرة لنتناول الطعام معاً في مطعمٍ رخيص. لكنَّ ذلك لم يكن يسرّ كثيراً مونا. كانت تكاد تجنّ من فرط الخوف، والشكوك، والغيرة. وببساطة لم تكن تصدق أني أقوم بالكتابة في كل يوم ومن الصباح وحتى الغسق.

طبعاً، كنت بين حين وآخر أتوقفُ عن الكتابةِ لأقومَ " ببعض الأبحاث ". كان لدي مائةُ فكرةٍ مختلفةٍ لأستغلها، وكلها تقتضي البحث والتوثيق. عندئذ كنت أنطلق بأقصى طاقتي: عندما أجلس أمام الآلة الكاتبة يتدفَّق الكلام بيسرٍ عبر أصابعي.

في هذه اللحظة أضع اللمسات الأخيرة على صورةٍ ذاتيةٍ أُسمِّيها "

الفاشل ". (ليس لدي أدنى شك في أن رجلاً يُدعى بابيني[158]، يعيشُ في إيطاليا، سوف ينشر كتاباً يحمل هذا العنوان بالذات)

لن أدَّعي أنه المكان المثالي للكتابة -- أقصد منزل والديّ. إنني أجلس عند النافذة الأمامية المستترة بستائر مُخرَّمة، وعينٌ واحدة ترقب وصول زائرين. والقاعدةُ السائدةُ في المنزل هي – إذا رأيتَ زائراً قادماً، غُصْ! وهذا بالضبط ما أفعله في كل مرة – أغوصُ داخل خزانة الملابس، مع الآلة الكاتبة، والكتب، والأوراق وكل شيء. شيء لا يُصدَّق! إنني أدعو نفسي " فضيحة العائلة ". أحياناً تخطر لي أفكارٌ لامعةٌ وأنا مُختبئ بين التضاعيف المُظلمة لخزانة الملابس – أثارتها دون أدنى شك الرائحة الحريفة لكُرات الكافور. وكانت أفكاري تتوارد بسرعة وسط الظلام الدامس أخطُّ ملاحظات مبهمة على قصاصات صغيرة من الورق. (مجرَّد كلمات وعبارات أساسيّة). أما عن التنفُّس، فلا مشكلة. أستطيع أن أحبس أنفاسي مدة ثلاث ساعات، عند اللزوم.

حين أخرجُ من الجحر فإن أمي ستهتفُ حتماً " ما كان ينبغي أن تُفرِط في التدخين! ". طبعاً كان يجب تبرير وجود الدخان. وعبارتها الشهيرة هي: " هنري غادَرَ للتو ". وحين أسمعها تعطي هذا التفسير السقيم لأحد الزوار أسُدُّ فمي أحياناً بكُمّ المعطف خشية أن أنفجر بالضحك.

أحياناً ترميني بما يلي: " ألا تستطيع أن تجعل قصصك أقصر؟ "، معتقدةَ – المسكينة! – أنه حالما أنتهي من كتابتها يدفعون لي ثمنها. وهي لا تريد أن تسمع عن إشعارات الرفض. وتتصرَّف وكأنها لا تؤمن بها.

---

١٥٨ – جيوفاني بابيني (١٨٨١ – ١٩٥٦) : كاتب إيطالي . – المترجم

وتسألني ذات صباح " عمَّ تكتب الآن؟ "
فأخبرها " عن علم النُمِّيات[١٥٩] "
" ماذا؟ "
وأشرحُ ببضع كلمات.
" أتظن أنَّ الناسَ يريدون حقاً أن يقرؤوا عن مثل هذه الأشياء؟ "
وأتساءل عما يمكن أن تقوله إذا ما أخبرتها بالحقيقة، إذا أخبرتها عن " الفاشل ".

أما أبي فهو أكثر ليونة. أشعر أنه لا يتوقَّع أن ينجُمَ أيُّ شيء عن ذاك الهراء كله، غير أنه فضوليٌّ ويتظاهر على الأقلّ بالاهتمام بما أفعل. وهو لا يعرف بالضبط كيف يتعاملُ مع حقيقةِ أنَّ ابنه قد تزوَّج مرتين، وأبٌ لطفلةٍ، ويُمضي أيامه كلها جالساً في غرفة الطعام يضرب على الآلة الكاتبة. في أعماقه هو يثقُ بي؛ يعرفُ أني سأحقق شيئاً ذات يوم بطريقة ما. إنه ليس قلقاً في دخيلة.

في الجوار، حيث أتمشّى في صباح كل يوم لأُحضِرَ الصحيفة وعلبة سجائر، يوجدُ محلٌ صغيرٌ يُديره شخصٌ جديد على الحي - اسمه السيد كوهن. إنه إنسان وحيد، ذاك المستر كوهن، ويبدو أنه لا يهتمُّ مُطلقاً بما أفعل. يظنُّ أنَّ من الرائع أن يكونَ أحدُ زبائنه كاتباً، حتى وإن كان ما يزال في بدايته. أما باقي التجَّار فيمكن القول إنهم يعرفونني منذ عهدٍ بعيد؛ ولا أحدَ منهم يشكُّ في أني أضحيتُ روحاً جديدة. إنني بالنسبة إليهم ما زلت الصبيَّ الصغيرَ ذا الشعرِ الذهبي والابتسامة البريئة.

إلا أنَّ المستر كوهن هو من عالمٍ آخر، من عصرٍ آخر. فهو " لا

١٥٩ - النُمِّيات : هو علم جمع القطع النقدية والميداليات . . الخ ودراستها . - المترجم

ينتمي " مثلي تماماً. في الحقيقة، بما أنَّه من اليديش، فهو ما زال مثيراً للريبة. بالنسبة إلى أصحاب الفكر المحافظ. وذات صباح مشرق وجميل يعترف المستر كوهن لي بأنه هو أيضاً كانت لديه طموحات إلى أن يغدو كاتباً. ويخبرني بإحساسٍ صادق مدى تأثير حديثنا القصير هذا عليه. ويقول، إنَّ من قَبيل الامتياز أن يتعرَّفَ إلى شخصٍ " منحرف عن الخط". (أعتقد أنه يقصد أني من الطراز نفسه). ثم يخفضُ من صوتهِ ويفضي إليّ بامتعاضٍ شديد بمدى احتقارهِ لجيرانه من أصحاب المحلاتَ
- أه، يا عزيزي مستر كوهن، يا حبيبي مستر كوهن، تعال إليّ، تعال، أينما تكون، ودعني أُقبِّل جبينك الشاحب! والآن، ما الذي كان يجمع بيننا ؟إنها حفنةٌ من المؤلِّفين الموتى، والخوفُ من رجالِ الشرطةَ وكراهيتهم، واحتقار الجنتلمانات، والولَه بعبق السيجار الجيد. أنت لم تكن عازفاً مبدعاً، ولا أنا كنتُ. لكنَّ كلماتك كانت تتناهى إلى سمعي وكأنها عزفٌ على آلة موسيقية. تقدَّم، أيها الشبح الشاحب، تقدَّم من الـ telesma المقدَّسة ودعني أعانقك مرة أخرى!

أمي، طبعاً، ليست فقط تندهش بل وتُصْعَق لدى اكتشافها أني أصاحبُ " ذاك اليهودي الحقير ". عمَّ نتحدَّث بحق الله؟ أعَنْ الكتب؟ أيقرأ؟ نعم، يا أمي العزيزة، إنه يقرأ بخمس لغات. ويتذبذب رأسُها إلى الخلف والأمام غير مصدِّقة، وأيضاً إلى الخلف والأمام مُستنكرة. على أي حال، إنَّ اللغتين العبرية واليديّة، هما لغةٌ واحدة، ولا تُحْسَبان: وحدهم اليهود يفهمون تلك البربرة (إخ! إخ!). وتقول، لا شيء هام يمكن أن يُكتَب بمثل تلك اللغات الغريبة. وماذا عن الكتاب المقدَّس، يا أمي العزيزة؟ فتهزُّ كتفيها استخفافاً. إنها تقصد الكتب عامةً، وليس الكتاب المقدس (كذا).

يا له من عالم! لم يبق صاحبٌ قديمٌ واحدٌ منه. كنت أتساءلُ إن كان من الممكن أن أقابلَ توني ماريلا ذات يوم. إنَّ والده ما زال يجلس عند النافذة يرقِّع الأحذية. وكلما مررتُ بالمحل أُحيِّيه. لكن الشجاعة لم تواتني مرة لأسأل عن توني. لكني في أحد الأيام، بينما كنتُ أقرأ في الصحيفة المحلِّية - المُسامرة - اكتشفتُ أنَّ صديقي القديم يخوض انتخابات عضويّة مجلس المدينة في مقاطعة أخرى، حيث يعيشُ الآن. قد يصبح رئيسَ الولايات المتحدة ذات يوم! سيكون ذلك رائعاً، ماذا! - رئيس الجمهورية من قلب حيّنا الصغير المغمور. نستطيعُ أن نفخر منذ الآن بوجود كولونيل بيننا أو عميد في البحرية. وهناك الأخوان غروغن، ولا أقلّ. كانا يقطنان على مبعدة عدة أبواب من بيتنا. "الولدان العظيمان " كما كان الجيران كلهم يُسمُّونهما. (بعد ذلك بفترةٍ قصيرة إذا بأحدهم، وحقُّ الله! يُصبحُ فعلاً جنرالاً؛ أما الآخر فعميداً في البحرية، ولعنني الله إنْ لم يُرسَل إلى موسكو في مَهمَّةٍ خاصة - والذي أرسله ليس أقلّ من رئيس إمبراطوريتنا الكاسحة المقدَّسة. لا بأس بهذا بالنسبة إلى شارعنا الصغير التافه المُسمَّى فان فورهيس!)

والآن، قلتُ لنفسي[١٦٠] (de la part des visions)، لدينا الصغير هنري. مَنْ يدري؟ قد يصبح أو. هنري[١٦١] آخر. إذا ما انتُخِبَ توني ماريلا ذات يوم لشغل منصب رئيس الجمهورية، فإن هنري حتماً، صغيرنا هنري، سوف يغدو كاتباً مشهوراً، Dixit (كما قالوا).

ومع ذلك - فلأُغيِّر نبرةَ الكلام قليلاً - من المؤسف جداً أننا لم

---

١٦٠ - العبارة الفرنسية تعني "بالنيابة عن الجيران" .

١٦١ - أو . هنري" وليم سيدني بورتر " (١٨٦٢ - ١٩١٠) : كاتب قصة قصيرة أميركي . - المترجم

نُنجِبْ على الأقلّ مُلاكماً مُحترفاً جيداً واحداً. لقد خبا نجمُ الأخوةِ لاسكي. كانوا يفتقرون إلى العنصر الذي يجعل منهم أبطالاً. كلا، لم يكن الحي المناسب لإنجاب جون. ل سليفان [١٦٢] أو جيمس. ج كوربت[١٦٣]. ولاشك في أنَّ الحيَّ الرابعَ عشر القديم قد أخرَجَ عدداً من الملاكمين المحترفين الجيدين، ناهيك عن السياسيين وأصحاب المصارف، والمحتالين القدامى الجيدين. كان لديّ إحساسٌ بأني لو أعود إلى الحي القديم، فسوف أكتبُ بحيوية أكبر. ليتني أستطيع أن أقول مرحباً لأصحاب من أمثال لستر ريردن وإدي كارني، وجوني بول، لكنت شعرتُ أني ولدتُ من جديد.

قلت لنفسي، وأنا أحُكُّ براجمي العارية على حديد السياج المدبَّب، " خراء! أنا لم أنته بعد. ليس على المدى الطويل ... "

وهكذا استيقظتُ ذات صباح وأنا أتفجَّرُ حيوية ونشاطاً، وقرَّرتُ أن أنطلقَ إلى العالم وأثبت وجودي. لم يكن في رأسي أي خطة أو مشروع. واندفعتُ إلى الشارع، متأبِّطاً مخطوطاتي.

شققتُ طريقي، متظاهراً بأني ذو حدبة، إلى الحَرَم الداخلي لمكتب التحرير حيث وجدتُني وجهاً لوجه مع أحد محرِّري مجلةٍ رخيصة. أفكِّرُ في أن أطلبَ منصباً في قسم التحرير.

الغريب في الأمر أنَّ الرجلَ هو أحدُ أفرادِ قبيلةِ ميللر. اسمه جيرالد ميللر، ولا أقلّ. فألٌ طيب!

لستُ مضطراً إلى ممارسة سحري لأنه يميلُ إليَّ للتو. ويقول " ليس

---

١٦٢ – جول . ل سليفان (١٨٥٨ – ١٩١٨) : ملاكم أميركي . كان آخر بطل في الملاكمة يمارس اللعبة بدون قفاز . – المترجم

١٦٣ – جيمس . ج كوربت (١٨٦٦ – ١٩٣٣) : ملاكم أميركي . كان بطل الملاكمة في الوزن الثقيل من عام ١٨٩٢ إلى ١٨٩٧ . – المترجم

هناك أدنى شك: أنتَ كاتب بالفطرة ". ثمة عددٌ وافرٌ من المخطوطات موضوع أمامه؛ أخذ يتلفَّتُ حوله، بحيث يُقنِع نفسه بأني كوَّنتُ فكرةً عامة.

" إذن تريدُ أن تعملَ في المجلة؟ حسن، يمكنني أن أجدَ لك مكاناً فيها. إن أحد المُحرِّرين سوف يترك العمل في غضون أسبوع أو نحوه؛ سوف أُكلِّم المديرَ وأرى ما يمكنني أن أفعل. أنا واثق من قدرتك على ملء الفراغ، حتى وإن لم يكن لديكَ التدريبُ اللازم ". وأتْبَعَ ذلك ببعض التقريظ البصير.

ثم، ودون مقدّمات، إذا به فجأة يقول " لمَ لا تكتب شيئاً لنا في هذه الأثناء؟ اعلمْ أننا ندفعُ بسخاء. أعتقد أنك تقبل شيكاً بقيمة ٢٥٠ دولاراً؟

ودون أن ينتظر جواباً، تابعَ: " لمَ لا تكتب عن الكلمات؟ إنني لست مضطراً إلى أن أقرأ كثيراً لأدركَ أنك عاشقٌ للكلمات ... "

لم أكن متأكداً من أني فهمتُ ما يريد مني بالضبط أن أقول حول هذا الموضوع، خاصة في مخاطبة جمهور قرّاء مجلة رخيصة.

قال " أنا نفسي لا أعرفُ بالضبط. الجأ إلى مُخيّلتك. وأيضاً لا تُطِلْ الكلام. فلتكن خمسةَ آلاف كلمة. وتذكَّر، إن قُرَّاءنا ليسوا كلهم بروفيسورات جامعيين! "

جلسنا هناك بعض الوقت، نهذر، ثم رافقني حتى المصعد. قال " قابلني بعد نحو أسبوع "، ثم مدَّ يده إلى جيبه وأخرجَ ورقة نقديةً وحشرها في راحة كفّي. " قد تحتاج إلى هذا ليدعمك "، وابتسم. كانت ورقةً بقيمة عشرين دولاراً، كما اكتشفتُ حين وصلتُ إلى الشارع. تمنَّيتُ

لو أهرع عائداً وأشكره من جديد، لكني عدت فتراجعتُ، لعلّهم متعوّدون على معاملة الكُتّاب هكذا.

* * *

" الثلجُ ينهمر بهدوء فوق أرجاء أيرلندا كافة[١٦٤] ... ". كانت الكلمات تجري كاللازمة في رأسي وأنا أثبُ بخفّةٍ على بلاط الرصيف قاصداً منزلي. ثم تذكّرتُ سطراً آخر - في الواقع، لم تكن لديّ أي فكرة: " في منزل أبي شُقَقٌ كثيرة ... ". وتواءمتْ الفكرتان، الثلجُ يهطلُ برفقٍ، بهدوءٍ، بانتظامٍ (في أرجاء أيرلندا كافة)، وشُققُ النعيم المُرصّعة بالأحجار الكريمة، التي يحتفظ الوالد بعدد لا متناهٍ منها. بالنسبة إليّ كان اليوم عيد القديس باتريك[١٦٥]، ولا أفاعٍ في الأفق. ولسببٍ ما غريب شعرتُ أني أيرلندي حتى أعماقي. قليلٌ من جويس، قليلٌ من بلارني ستون، وعددٌ من الخِدع - وأيضاً Erin Go Bragh (أيرلندا إلى الأبد!) (كلما أدارَ الأستاذُ ظهرَهُ لنا يتسلّلُ أحدنا إلى السبورة ويخربش بالطباشير عبارة: "Erin Go Bragh!"). إنني أسيرُ خلال منطقة بروكلن والثلج يهطل ببطء. يجب أن أطلبَ من ألريك أن يُلقي على مسمعي من جديد قراءةَ الفقرة. إن صوتَهُ مثاليّ لهذه الغاية. صوتٌ شجيٌّ جميل. وألريك يملك بحقّ هذا الصوت!

" كان الثلجُ يهطلُ بهدوء على أيرلندا ... "

انطلقتُ أطرقُ حجارة الطريق الفوّارة اللذيذة، رشيقاً كمعزاة، رقيقاً كالأثير، وتوّاقاً كئيباً كإله المراعي.

---

١٦٤ - هذه الجملة مأخوذة من الأسطر الأخيرة من قصة جيمس جويس القصيرة-الطويلة " الموتى " ، من مجموعة " أهالي دبلن " . - المترجم .

١٦٥ - القديس باتريك : القديس الراعي لأيرلندا . ويومه هو ١٧ من شهر آذار (مارس) . - المترجم

ليتني أعرفُ ماذا أكتب! إنَّ مبلغ مائتين وخمسين دولاراً لا يُستَهانُ به. وهناك أيضاً منصب في قسم التحرير! يا للروعة! لقد ارتفعت فجأة! يجب أن يعرف مستر كوهين بهذا النبأ ("Shalom Aleichem السلام عليكم "). خمسة آلاف كلمة، أمرٌ سهل. حالما أعرفُ ما أقول سأدونّه في جلسةٍ واحدة. كلماتٌ، كلماتُ ...

صدِّق أو لا تُصدِّق، إنني لا أكتب كلمة واحدة على الورق. أمامي موضوعي المفضَّل، وهاأنا مربوطُ اللسان. أمرٌ غريب. والأسوأ من ذلك - مُحزن.

ربما عليَّ أن أقومَ أولاً بقدرٍ من البحث. فقبل أي شيء، ماذا أعرفُ عن اللغة الإنكليزية؟ تقريباً لا شيء. إنَّ استخدامَها أمرٌ، والكتابةَ عنها ببراعة أمرٌ آخر تماماً.

وجدتها! لماذا لا أتوجَّه مباشرةً إلى المنبع؟ لمَ لا أقومُ بزيارة رئيس تحرير القاموس الموسَّع الشهير؟ أيُّها؟ قاموس فنك وواغنال. (الوحيد الذي أستخدمه)

في صباح اليوم التالي استيقظت في وقتٍ مُبكِّر وجلستُ في حُجرة الانتظار، أنتظرُ ظهورَ الدكتور فيزيتيلي شخصياً. (قلتُ في نفسي، الأمرُ أشبه بطلبِ العونِ من يسوع المسيح) على أي حال، البطاقات موجودة على الطاولة. وكلُّ ما أرجوه من الله ألاّ أُعرِّضَ نفسي للسخرية، كما فعلتُ قبل سنين حين عرَّجتُ على كاتبٍ شهير وسألته هكذا بلا مقدِّمات: " كيف يجب أن يبدأ المرءُ بالكتابة؟ " (والجواب: " بالكتابة ". هذا بالضبط ما قاله، وكانت تلك نهاية المقابلة)

الدكتور فيزيتيلي واقفٌ أمامي. رجلٌ أنيس، يضجُّ بالحياة، يشعُّ

بريقاً وحيويّة. يبثُّ فيَّ الطُمأنينة للتو. يحثُّني على الإفضاء بمكنوناتي. يقرِّبُ كرسياً مريحاً ليجلس عليه، وينصت بانتباه، ثم يبدأ ...

طوال ساعة من الزمن أو أكثر، وهذا الروح الكريم، الرقيق، الذي سأظلُّ دائماً مَديناً له، يُحوِّلُ إليّ كلّ ما يرى أنه قد يفيدني، يتكلّم بسرعةٍ كبيرةٍ وبرياءٍ بغيض حتى أنه لم يُتح لي أن أدوِّنَ ملاحظة واحدة. رأسي يدور. كيف لي أن أتذكّر حتى كِسرة من تلك المعلومات المثيرة كلها؟ كأني أضعُ رأسي تحتَ مياهِ نبع.

حين يشعرُ الدكتور بحيرَتي، يهبُّ إلى نجدتي. يُصدِرُ أوامره إلى خادمه الخاصّ ليجلبَ لي حافظات الأوراق والكرّاسات، ويحثني على مراجعتها في وقت فراغي. ويقول " أنا واثقٌ من أنك ستكتب مقالةً ممتازة "، ويشعُّ وجهُهُ إشراقاً وكأنه عرّابي. ثم يسألني أن أتلطّفَ وأعرضَ عليه ما كتبته قبل تسليمه إلى المجلّة.

ثم، ودون إنذار، يطرح عليَّ بضعة أسئلة مباشرة من نفسي: منذ متى وأنا أكتب؟ أي عمل آخر مارست؟ أي نوع من الكُتُبْ أقرأ؟ ما اللغات التي أُتقن؟ واحداً إثر آخر - تيك، تاك، توك. وأشعرُ أني أقلُّ من نَكِرَة، أو كما يقولون بالعبرية - إفيزيفازيم. ما الذي فعلته حقاً؟ ما الذي أعرفه حقاً؟ تلاشى كلُّه أخيراً، ما عساي أفعلُ غير أن أعترفَ بكل تواضع بخطاياي وزلاّتي. كنتُ فعلتُ ذلك، تماماً كما أفعلُ أمام كاهنٍ، لو أني كاثوليكي وليس مجرَّد نتاجٍ بائسٍ لكالفن[١٦٦] ولوثر.

يا له من فحل، فاتن، هذا الرجل! مَنْ كان سيحلم، إذا ما قابله في الشارع، أنه مجرَّد قاموس؟ إنه أولُ إنسانٍ واسعِ الاطلاعِ يُلهمني بالثقةِ

١٦٦ - جون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) : لاهوتي فرنسي . قائد حركة الإصلاح في جنيف . - المترجم

وبالإعجاب. هذا رجل. قُلتُها لنفسي مرات ٍعديدة. رجلٌ يحملُ خصيتين وصهريجَ فِكْر. ليس مجرَّد ينبوع حكمة وإنما شلاَّل هادر، غزيرٌ وحيّ. إنه ليس فقط يعرفُ كلَّ كلمةٍ في اللغة الإنكليزية (بما فيها تلك الموجودة في " المخزن البارد "، حسب تعبيره) وإنما يعرفُ أنواع الخمور، والجياد، والنساء، والطعام، والطيور، والأشجار؛ يعرفُ كيف يرتدي الملابس، وكيف يتنفَّسُ، وكيف يسترخي. ويعرفُ أيضاً ما يكفي بحيث يتناولُ مشروباً مرةً كلَّ حين. وبما أنه يعرف كل شيء، فهو يحبُّ كل شيء. الآن بدأنا نتعرَّفُ إليه! . إنه رجلٌ يندفعُ إلى الأمام - على أربع، أكادُ أقولُ - ليُرحِّب بالحياة. رجلٌ تتردَّدُ أغنيةٌ على شفتيه. شكراً لك يا دكتور فيزيتيلي! شكراً لأنك على قيد الحياة!

عند الفراق قال لي - وكيف يمكن أن أنسى كلماته؟ - " يا بُنيّ، إنك تتمتَّعُ بكل مقوِّمات الكاتب، أنا واثق. والآن امضِ في طريقك وابذل أقصى طاقتك. عرِّجْ عليّ إذا احتجتني ". وحَطَّ إحدى يديه بحبٍ على كتفي وبالأخرى صافحني بحرارة. إنها بركَةٌ ممنوحة. آمين!

الثلجُ الأبيضُ الناعمُ لم يعد يهطل. إنها تُمطر، تمطر في أعماقي. الدموعُ تنهمرُ على وجهي - دموع الفرح والامتنان. لقد رأيتُ أخيراً وجه والدي الحقيقي. الآن بتُّ أعرفُ ما يعني - إنه المُعزِّي. الوداع، أيها الأب فيزيتيلي، لأني لن أراك بعد الآن. فليتقدَّس اسمك إلى أبد الآبدين!

هطلُ المطرِ يتوقَّف. لم يبقَ غير رذاذٍ خفيف - عميقاً هناك تحت القلب - وكأنَّ مجروراً يرشحُ من خلال شاشٍ رقيق. منطقةُ الصدرِ كلها مُشبَّعة بذرَّاتٍ من هذه المادَّة المُسمَّاة H_2O، والتي حين تسقط على

لساني يكون مذاقها مالحاً. دموعُ مجهريّة، أنفَسُ من اللآلئ الضخمة. ترشحُ ببطءٍ إلى داخل التجويف الهائل الذي تتحكّمُ به قنوات الدموع. عينان جافّتان، راحتا يدين جافتان. الوجه مسترخٍ تماماً، مفتوحٌ كالسهول المترامية الأطراف، ينضجُ بالفرح.

(" أعادت تُثلجُ، يا سيد كونروي[١٦٧] ؟ ")

رائعُ أن يتكلّم المرءُ بلغته الخاصّة، أن يتردَّدَ صداها على الوجه، وتصبح من جديد لغةً عالميةً. لقد أكَّدَ لي الدكتور فيزيتيلي أنه من بين الكلمات الـ ٤٥٠٠٠٠ المودَعَة بين دفتيّ القاموس الموسَّع عليَّ أن أعرفَ على الأقلّ ٥٠٠٠٠ كلمة. حتى مضخَّة الخراء تحتوي من المفردات على ما لا يقلُّ عن ٥٠٠٠ كلمة. ولإثبات هذا كل ما على المرء أن يفعله هو أن يذهبَ إلى بيته، ويجلس، وينظرَ فيما حوله. الباب، مقبض الباب، والكرسي، والمسكة، والخشب، والحديد، والستارة، والنافذة، وعتبة النافذة، والزر، والساقان، والطاس ... في كل غرفةٍ هناك مئات الأشياء تحملُ أسماءً، ناهيك عن الصفات والظروف، وأحرف الجرّ والأفعال وأسماء الفاعل والمفعول المُلحَقَة بها. ومفردات شيكسبير بالكاد تزيد عن مفردات أي أبله من بلهاء هذه الأيام!

إذن ماذا تضيف. ماذا نفعل بمزيدٍ من الكلمات؟

(" أليست لديك لغتك الخاصة لتتعاملَ معها؟ ")[١٦٨]

نعم، اللغة الخاصّة!Langue d'oc[١٦٩] أو - ويك-ويك-ويك. في العبريّة يقولون" كيف الحال؟ " على الأقلّ بعشر طرق مختلفة، وفقاً

---

١٦٧ - السيد كونروي : هو بطل القصة القصيرة المُشار إليها آنفاً : " الموتى " .- المترجم .

١٦٨ - المصدر السابق .

١٦٩ - لغة الدوك : لهجات محلّية في اللغة الفرنسية منحدرة من القرون الوسطى ويتكلّمها أهلُ جنوب فرنسا . - المترجم

لمخاطبة المرء لرجلٍ، أو امرأةٍ، أو مجموعةٍ من الرجال، أو النساء، أو من الرجال والنساء، وما إلى ذلك. ولا أحد يمتلك كامل قواه العقليّة يقول لبقرة أو لمعزاة: " كيف الحال؟ "

أحثُّ خُطايَ إلى الوطن، إلى شارع الأحزان المُبكِّرة، في بروكلن، مدينة الموتى. عودة المواطن ...

(" ثم أليسَ لديك أرض وطن تزورها[170] ؟ ")

نعم، لدي بروكلن المُغمَّة، والمنطقة المجاورة - السبخات، ومقالب النفايات، والأقنية النتنة، وبقع الأراضي الخالية دائماً وأبداً، والمقابر ... أرض الوطن البور.

وأنا لست بسمكةٍ ولا بطائر ...

الرذاذ يتوقَّفُ. الأحشاء مُغطَّاة بشحمٍ رطب. والبرد يندفع من الشمال. آه، ها قد عادت تُثلجُ من جديد!

الآن تذكَّرتها، طازجةً من القبر، تذكَّرتُ العبارة التي كان في استطاعة أُلريك أن يتلوها وكأنه من أهالي دبلن ... " ها قد بدأت تثلجُ من جديد. راقبَ وهو ناعسٌ نتفَ الثلجِ، الفضّية والقاتمة، تسقطُ بانحرافٍ على ضوءِ المصباح. حانَ الوقتُ لكي ينطلقَ في رحلتهِ نحو الغرب. نعم، كانت الصُحُفُ على حق: سقوطُ الثلجِ كان عامَّاً على أصقاع أيرلندا كافة. كان يهطل على كل جزء من السهل الأوسط المظلم، وعلى الهضاب الجرداء، يهطلُ فوق مستنقع ألن، وأبعد نحو الغرب، يهطلُ بهدوءٍ على أمواج نهر شانون المتمرِّدة المظلمة. كان يهطل، أيضاً، على كل ركنٍ من أركان فناء الكنيسة الموحش القائم فوق التل الذي دُفِنَ

---

١٧٠ - عبارة من المصدر السابق. - المترجم

فيه مايكل فيوري. كان يتراكم بكثافة على الصلبان المعقوفة وشواهد القبور، على حِرابِ البوابةِ الصغيرةِ، وعلى نبات الشوك الأجرد. تخدَّرت روحه وهو يُصغي إلى هطل الثلوج الواهن على الكون كله وإلى هطله الواهن على الأحياء والأموات، كحلول نهايتهم الأخيرة "[١٧١]

في هذا العالم المُثلج، بلغةٍ تُرتِّل ابتهالها الخاص العذب، أسرعتُ خطاي باتجاه أرض الوطن، ودائماً باتجاهها. وبين دفَّتيّ القاموس الضخم، وسط الصيغ القواعدية المختلفة، التفَفتُ حول نفسي ورحتُ في نومٍ عميق. استلقيتُ بين آدم وحواء، يحيطُ بي ألف أيل رنّة. أنفاسي الدافئة بردَتْ بفعلِ المياهِ المصطَخِبَة التي تغلّفني بضبابٍ برّاق. وخرجتُ إلى العالم الواسع بـ la belle langue d'oc (لغة دوك الجميلة). كان برقع الجنين[١٧٢] يُحيطُ بعنقي، يخنقني، ولكن بحنان فائق. واسم برقع الجنين هو نيميش ... Nemesh

* * *

استغرقتْ مني كتابةُ مقالةٍ لسميٍّ، جيرالد ميللر، شهراً كاملاً. وعندما انتهيتُ من ذلك وجدت أني كتبتُ خمسة عشر ألف كلمة بدل خمسة آلاف. فاختزلتُها إلى النصف وأحضرتها إلى مكاتب التحرير. بعد ذلك بأسبوع حصلتُ على الشيك. وبالمناسبة، المقالة لم تُنشَر أبداً. الحكم عليها كان " إنها أجود من أن تُنشَرَ ". ولا تجسَّدت أيضاً وظيفةُ مكتب التحرير أبداً. ولم أعرف أبداً السبب. ربما لأني " أجود مما ينبغي".

على أي حال، مع توفُّر ٢٥٠ دولاراً أصبح في إمكاننا أن نواصل مرة أخرى حياتنا معاً. تجمَّعنا وجهَّزنا غرفةً في شارع هانكوك، في

١٧١ - الأسطر الختامية لأقصوصة "الموتى" ، من مجموعة "أهالي دبلن" . - المترجم

١٧٢ - برقع الجنين : غشاء يغطّي رأس المولود ، أحياناً . - المترجم

بروكلن، مدينة الأموات، وشبه الأموات، والأشدّ موتاً من الأموات. شارع هادئ، محترم؛ صفوفٌ متوالية من المنازل الخشبيّة المتشابهة العسيرة على الوصف، كلها مزيَّنة بمداخل عالية، وظُّلات، ويقع معشوشبة ودرابزين حديدي. كان الإيجار معتدلاً؛ وكان يُسمحُ لنا بالطبخ على موقد على الغاز دسسناه في فجوة في الجدار بجوار مغسلة عتيقة الطراز. وكانت السيدة هنيكر، صاحبة المنزل، تشغل الطابق الأرضي؛ أما باقي المنزل فكان مؤجَّراً غرفاً.

كانت السيدة هنيكر أرملة وكان زوجها قد أصاب ثراءً في إدارة إحدى الحانات. دماؤها مزيجٌ من أصولٍ هولندية، وسويسريّة، وألمانيّة، ونرويجيّة ودانماركية؛ وتضجُّ بالحيوية، وتتَّصف بفضولٍ كسول، وريبة، وجشعٍ وخبث. كانت جديرةً بأن تنتقل إلى إدارة محل للدعارة. كانت تحكي قصصاً مكشوفةً تقهقه عليها مثل تلميذة مدارس. وكانت شديدة الصرامة مع مستأجريها. ممنوعُ العبث! ممنوعُ الضجيج! ممنوعُ حفلات البيرة! ممنوعُ استقبال الزوّار! ادفع فوراً أو ارحل!

وقد استغرقَ من تلك العجوز الغريبة الأطوار بعض الوقت للتعوُّد على فكرة أني كاتب. وما صَعَقَها كان الطريقة التي تُقرقع بها مفاتيح أحرف الآلة الكاتبة. لا يمكنها أن تصدّق أنَّ أي إنسان يمكن أن يكتب بمثل تلك السرعة. لكنها قبل ذلك كله كانت قلقة، قلقة خشية أن أنسى، بما أني كاتب، أن أدفعَ الإيجار بعد مرور بضعة أسابيع. وقد قررنا، لكي نُهدِّئ من مخاوفها، أن نعطيها إيجارَ بضعةِ أسابيعٍ مُقدَّماً. يكادُ لا يُصدَّق كيف يمكن لحركةٍ كهذه أن تدعم مركز المرء!

كانت على فترات تطرقُ على الباب، وتقدِّم عذراً واهياً لمقاطعتي،

ثم تقفُ على العتبة مدة ساعة أو أكثر تنهال عليَّ بالأسئلة. طبعاً كان يدهشها مجرد التفكير في أنَّ هناك مَنْ يستطيع أن يُمضي النهار كله جالساً أمام الآلة الكاتبة، يكتب، ويكتب، ويكتب. ماذا يمكن أن أكون أكتب؟ أقصصاً؟ أي نوعٍ من القصص؟ هل أسمحُ لها أن تقرأ إحداها ذات يوم؟ هل أسمحُ لها بهذا وهل أسمح لها بذاك؟ لا يمكن تصديق كميّة الأسئلة التي يمكن لامرأةٍ أن تطرحها.

بعد مرور فترةٍ من الزمن بدأتْ تأتيني بدون سابق إنذار لكي، كما قلت، تنفحني أفكاراً من أجل تأليف قصصي: مقاطع من حياتها في هامبورغ، ودرسدن، وبريمن، ودارمشتات. كانت حوادث صغيرة بريئة اعتبرَتْها جريئة، وصاعقة، إلى درجة أن صوتها أحياناً كان ينخفض إلى درجة الهمس. وإذا استخدمتُ تلك الحوادث فلابد لي حتماً من أن أغيِّر مكان وقوعها. وطبعاً يجب أن أخلع عليها اسماً مختلفاً. وجاريتُها قليلاً، سعيداً بتلقِّي عطاءاتها الصغيرة - كعك بالجبن، ولحم السجق، ويخني بائتة، وكيس من البندق. وتملَّقتُها حتى أقنعتها بأن تصنع لنا كعكة القرفة، وكعكة هشّة وكعكة التفاح - وكلها على الطريقة الألمانية الجيدة. كانت مستعدَّة أن تفعل تقريباً أي شيء مقابل حصولها على متعةِ قراءةِ شيءٍ عن نفسها ذات يوم في المجلة.

ذات يوم سألتني بلا مقدِّمات إنْ كانت قصصي تُباع حقاً. كان واضحاً أنها كانت تقرأ كل ما تستطيع يدها أن تطال من مجلات في السوق ولم تعثر على اسمي في أيٍ منها. فشرحتُ لها بصبرٍ أنه على المرء أحياناً أن ينتظر مرور أشهرٍ عدَّة قبل أن تُقبَل منه قصة، وأن ينتظر بعد ذلك بضعة أشهرٍ أخرى قبل أن يدفعوا ثمنها. ثم أضفت على الفور

أننا الآن نعيش على إيراد قصصٍ عدَّة كنت قد بعتُها في العام السابق - بسعرٍ جيد. وعلى الأثر، وكأنما لم يكن لكلماتي أي تأثيرٍ عليها، قالت بكل برود: " إذا شعرتَ بالجوع يمكنك دائماً أن تتناول الطعام معي. أحياناً أشعر بالضجر ". ثم تُطلِقُ تنهيداً من أعماقها، وتقول " أعتقد أنَّ عملَ الكاتبِ ليس ممتعاً، أليس كذلك؟ "

لا شك في هذا مطلقاً. ولا أدري إن كانت تلاحظ أننا كنا دائماً جياعاً كالذئاب. ومهما حصَّلنا من نقود كانت دائماً تذوب كالثلج. كنا دائماً في حالة حركة، نبحث عن أصدقاء قُدامى يمكننا أن نشاركَهم طعامهم، أو نقتَرضَ منهم أجرة المواصلات، أو نقنعَهم باصطحابنا إلى عرض مُسلٍ. وليلاً كنا نمدُّ حبل غسيل فوق السرير.

كانت السيدة هنيكر، المُتخمة دائماً، تشعر أننا في حالة جوع مستمر. وكانت كثيراً ما تكرِّر دعوتها لنا لمشاركتها طعامها - لم تكن أبداً تقول " إذا كنتم تشعرون بالجوع فتعالوا وتناولوا العشاء معي هذا المساء، لقد طبختُ يخني الأرانب لذيذاً أعددته خصيصاً لكما ". كلا، كانت تستمتع استمتاعاً منحرفاً بمحاولة إجبارنا على الاعتراف بأننا نشعر بجوعٍ ضارٍ. وطبعاً لم نكن نعترف بذلك قط. فأولاً، استسلامي كان يعني أنه ينبغي أن أكتب قصصاً من النوعية التي تريدها السيدة هنيكر. ثم أنه حتى الكاتب المأجور عليه أن يحافظ على المظاهر.

كنا دائماً ننجح، بصورةٍ ما، في اقتراض مبلغ الإيجار في الوقت المناسب. كان الدكتور كرونسكي يهبُّ أحياناً لنجدتها، وكذا كان يفعلُ كرلي. ولكن بعد مشادَّة. وحين نكون في حالةِ يأسٍ شديد نمشي حتى منزل والديَّ - ويستغرق ذلك منا ساعة كاملة من المشي على الأقدام -

ونمكث هناك حتى نملأ بطوننا. وكثيراً ما كانت مونا تغرق في النوم على الأريكة بعد تناول وجبة العشاء مباشرةً. وأبذلُ أقصى جُهدي لأُبقي الحديثَ جارياً، وأنا أدعو الله لكي لا تستغرق مونا في النوم حتى اللحظة الأخيرة.

تلك الأحاديث البعد–وليميّة كانت محض كرب. كنت أحاولُ يائساً أن أتحدَّثَ عن كل شيء ما عدا عن عملي. ولكن كان لابد أن تأتي لحظة يسأل فيها أبي أو أمي – " كيف أحوال الكتابة؟ هل بعثتَ أي شيء آخر منذ آخر مرة رأيناك فيها؟ "، فأقول خجلاً: " نعم، بعثتُ قصّتين أُخريَين حديثاً. الأمور جيدة، حقاً ". ثم ترتسم على وجهيهما نظرة البهجة والدهشة ويسألان معاً في وقت واحد " لأي مجلة بعثتهما؟ "، فأعطيهما أسماءً لا على التعيين. " سوف نترقَّب صدورهما بفارغ الصبر، هنري. متى في اعتقادك ستصدران؟ " (بعد ذلك بتسعة أشهر يذكّرانني بأنهما ما زالا في انتظار تينك القصتين اللتين قلتُ أني بعثتهما لهذه المجلة أو تلك)

مع اقتراب نهاية الأمسية تسألني أمي، ولسان حالها يريد أن يقول " فلنكن واقعيين! "، بكل رصانة إن لم يكن من الحكمة أكثر أن أكفَّ عن الكتابة وأبحث عن عمل ثابت. " لقد كان لديك مركز جيد حين عملتَ مع ... كيف أمكنكَ أن تتخلّى عنه؟ إن بلوغ مرتبة كاتب جيد يستغرق سنين طويلة – وقد لا تُحقق أي نجاح في هذا المجال ". وهكذا دواليك. كنت أبكي على حالها. أما أبي، من ناحية أخرى، فكان دائماً يتظاهر بأنه يصدِّق أني سأحقق النجاح والمجد المُبين. كان يأمل هذا من كل قلبه. وكنت واثقاً من ذلك. ويقول " امنحيه وقتاً، امنحيه وقتاً! ".

فتجيب أمي - " ولكن كيف سيعيشان حتى ذلك الحين؟ ". عندئذ يأتي دوري " لا عليك، يا أمي، أنا أعرفُ كيف أتدبَّر أمري. أنت تعلمين أني أُحسِنُ التفكير. لا أظنك تعتقدين أننا سنموت جوعاً؟ ". ومع ذلك، ظلَّت تُعبِّر عن اعتقادها، وتُكرِّرُ وتعيد، وكأنما لنفسها، أنه من الحكمة أكثر أن أقبلَ وظيفةً وأمارسَ الكتابةَ كنشاطٍ جانبيّ. " في الواقع، لا يبدو أنهما يعانيان الجوع ". كان هذا أسلوب والدي في إبلاغي، إذا كنا حقاً نعاني الجوع، أنَّ كل ما عليَّ أن أفعله أن أُعرِّج عليه في محل الخياطة وأنَّه سيُقرضني قدر ما يستطيع. وفهمتُ وفهمَ. وأشكره بصمتٍ ويتقبَّل شكري بصمت. وطبعاً لم أُعرِّج عليه أبداً. ليس لأطلب نقوداً. كنتُ بين حينٍ وآخر أقومُ بزيارته بدون سابق إنذار، فقط لأُدخل البهجة إلى قلبه. حتى حين يدرك أني أكذب عليه - حين أُلقي على مسمعه قصصاً مُلفَّقة - لم يكن يُفشي ذلك. كان يقول " أسعدني سماعك، يا بُني. هذا عظيم! سوف تحقق نجاحاً ساحقاً، أنا واثق ". أحياناً، وأنا أودِّعه، تطفر الدموع من عينيّ. كنت أريد من كل قلبي أن أساعده. كنتُ أراه جالساً هناك في آخر الدكَّان، أشبه بالحُطام، وعمله في أسوأ حال، ولا يُرجى منه أي أمل، وما زال يتصرَّف بحبور، وما زال يتكلَّم بتفاؤل. لعله لم يرَ زبوناً واحداً منذ عدة أشهر، لكنه ما زال " خياطاً ممتازاً ". يا لسخرية القَدَر المخيفة! وأقولُ لنفسي، وأنا أسيرُ في الشارع، " نعم، فور بيعي لأول قصة سأنفحه بضعاً من الأوراق الخضراء". وعلى الأثر أصيرُ بدوري متفائلاً، ويقنعني منطقٌ ما مجنون بأنَّ ناشراً سوف يُعجَب بي ويُحرِّر شيكاً لصالحي، مقدَّماً، بقيمة خمسمائة أو ألف دولار. لكني حالما أصلُ إلى البيت تنتابني رغبة في

أن أستقرّ مقابل مبلغ زهيد. أرغب في الاستقرار، في الواقع، مقابل أي مبلغ يوفِّر لي وجبة أخرى، أو مزيداً من الطوابع البريدية، أو فقط رباطاً لحذائي.

" أما مِنْ بريدٍ اليوم؟ ". ذاكَ كان دائماً هتافي فور ولوجي المنزل. فإذا كانت ثمة مغلّفات سميكة في انتظاري أعلمُ أن مخطوطاتي قد عادت إلى مصدرها لتبيت. وإذا كانت مغلّفات رقيقة فذلك يعني أنها ملاحظات رفض، مع طلبٍ بدفعِ أجرةِ إعادةِ المخطوطاتِ مقدَّماً. أو تكون فواتير. أو رسالة من المحامي، موجَّهة إلى عنوان قديم ثم أُرسِلَتْ إليّ بطريقة عجائبيّة.

النَفَقَة المتأخِّرة تتراكم. لن أتمكَّن أبداً من دفعها، أبداً. ويبدو مؤكَّداً أكثر من أي وقتٍ سابق أني سوف أُمضي بقية أيامي في زنزانة شارع ريموند.

" سيأتي الحل، سوف ترى "

وكلما برز حلٌ يكون دائماً من تدبيرها. إن مونا هي التي هرعت إلى ناشر سلسلة" قصص بذيئة " وحصلتْ منه على تكليفٍ لي بكتابة مجموعة من القصص لهم. هكذا ببساطة. فكتبت قصتين، تحملان اسمها، بعد بذل جهدٍ مضنٍ، بل جهد بطوليّ في الواقع؛ ثم خطرت لي فكرة ذكيّة هي أن أُراجع أضابيرهم العتيقة، وآخذ منها قصصهم المنشورة، وأبدِّل أسماء الشخصيات، والبدايات والنهايات، وأقدِّمها إليهم في قالبٍ جديد. والفكرة ليس فقط نجحتُ - بل إنهم تحمَّسوا لما طرأ عليها من تزوير. وهذا طبيعي، ذلك لأنهم كانوا دائماً يستمتعون بمذاق الطبخة. لكنني سرعان ما سئمتُ صنع تلك الخلطات. رأيتُ أنها

مجرَّد تبديد للوقت الثمين. وذات يوم قلت " قولي لهم أن يذهبوا إلى الجحيم ". ففعلتْ. لكن ردَّة الفعل لم تكن متوقَّعة البتّة. فقد تحوَّلَ سعادتُهُ من كونه " ناشرنا "، إلى عاشقٍ مُدلَّه. وحصلنا على خمسة أضعاف المبلغ الذي كنا نتقاضاه مقابل تلك القصص اللعينة. ولا أدري ماذا كان يناله " هو". وإذا صدَّقنا مونا، فإن كل ما كان يطلبه هو قضاء ونصف ساعة من وقتها في مكانٍ عام، عادةً تكون غرفة شرب الشاي. أمرٌ غريب بأنه ما زال بتولاً. (وهو في سن التاسعة والأربعين!) وما لم يقُله هو أنه أيضاً مُنحرف جنسياً. وقد علمنا أن المشتركين في المجلة اللعينة كانوا يضمُّون عدداً محترماً من الأرواح المنحرفة - قساوسة، وحاخامات، وأطباء، ومحامون، ومعلّمون، ومُصلحون، وأعضاء في الكونغرس، وكافة أنواع الناس الذين لا يشكُّ المرءُ برهةً واحدة في أنهم يهتمُّون بمثل تلك الحثالة. وكان فرسان الرذيلة هم بلا أدنى شك الأشدّ شرهاً بين قرائهم.

كردَّة فعلٍ على تلك القذارة المُزيَّفة كتبتُ قصة عن قاتل. كتبتُها وكأني أعرفُ الرجلَ معرفةً حميمة، غير أنَّ الحقيقة هي أني لملمتُ الوقائع كلها من الصغير كرلي الذي كان قد أمضى ليلة في سنترال بارك مع ذلك " السفَّاح " أو كائناً ما كان لقبه. وليلة حكى لي كرلي الحكاية كنتُ قد رأيتُ أحد تلك الكوابيس التي تجد خلالها نفسَكَ مُلاحَقاً طوال الوقت وبلا رحمة، ولا ينقذك من الموت إلا الاستيقاظ.

ما أثارَ اهتمامي بذلك " السفاح " هو الانضباط الذي فرضه على نفسه أثناء التخطيط لسرقاته. إن التخطيط لعملٍ ما بدقَّةٍ يتطلَّبُ تضافُر قِوى عالمٍ رياضيّ ويوغاني[١٧٣].

١٧٣ - اليوغاني : الذي يمارسُ رياضة اليوغا . - المترجم

لقد كان هناك، في قلب سنترال بارك، والدولة كلها تبحث عنه في طول البلاد وعرضها، يُخبر قصَّته، بكل بلاهة، لفتى صغير مثل كرلي. بل كان يُفشي بعض الجوانب المثيرة لعمله الذي كان يُخطِّط له.

لعلَّه أيضاً وقفَ عند منعطف ساحة تايمز أثناء جوسه في وقتٍ متأخِّر من الليل حول محيط منطقة سنترال بارك.

كانت قد حُدِّدَت جائزةٌ مقدارها خمسون ألف دولار لكلّ مَنْ يقبض عليه، حياً أو ميتاً.

وفقاً لرواية كرلي، أغلقَ الرجلُ باب غرفته على نفسه على مدى أسابيع عديدة؛ وكان يُمضي ساعات متواصلة مُستلقياً على السرير عاصباً عينيه، ويتدرَّب بالتفصيل على حفظ كل خطوة يجب اتِّخاذها وكلّ حركةٍ يجب القيام بها. وتمَّ تدبُّر أمر كل شيء بشكلٍ كامل، وحتى أتفه التفاصيل. غير أنه، وكأي كاتب أو مؤلِّف موسيقي، ما كان ليتولَّى تنفيذ خططه إلا بعد اكتمالها. لم يكن يكتفي بأن يضع في حسبانه احتمالات الخطأ والمصادفة كافَّة، وإنما كان يتركُ هامشاً، كما يفعلُ المهندسُ، للسلامة لمواجهة الضغط والتوتُّر المفاجئين. وكان يمكن له هو نفسه أن يموت حتماً، كان يمكن أن يختبر قُدرة حُلفائه وولاءهم، لكنه في النهاية لم يستطع أن يعتمد إلا على نفسه، على تخطيطه، على بصيرته هو. كان وحده ضد الآلاف. وليس فقط كل شرطي في المقاطعة كان في حالة استنفار، ولكن كذا كان أيضاً المدنيون في كل أرجاء البلاد. كانت تكفي حركة إهمالٍ صغيرة واحدة وتنهار اللعبة. وطبعاً لم يكن ينوي قط أن يسمح بإلقاء القبض عليه. سوف يستمرُّ حتى النهاية. ولكن هناك أصحابه - لا يمكن أن يخذلهم.

لعلَّه، حين خرجَ في مساء ذلك اليوم ليتمشَّى ويستنشق الهواء، كان طافحاً بالأفكار، وواثقاً تماماً من أنَّ كل شيء يسيرُ على ما يرام، وأنه ببساطة لم يعد يستطيع أن يتمالك نفسه. سوف يقبض على أول قادم ويُفشي له الأمرَ كله، مُعتمداً على أن ضحيته سوف تُصاب برعبٍ شديدٍ يشُلُّها. لعلَّه يستمع بفكرة أن يحتكَّ بالمرافق مع حرَّاس القانون، وقد يطلبُ منهم شُعلةً، أو يستدلُّ منهم على الطريق، وهو يواجههم بجرأة، ويلمسهم، و " يشكرهم "، ويظلّوا على جهلهم. لعلَّه كان بحاجةٍ إلى مثل تلك الإثارة ليُثَبِّتَ قلبَهُ، ليتواصلَ مع الجانب الكريه للأشياء - ذلك أن تفكيرك في الأمر بتركيز وحدك وأنتَ تُغلقُ على نفسك باب غرفتك هو أمر، وأن تتحرَّك خارج المنزل معرَّضاً لتفحُّص العيون كلها، وترتفع في وجهكَ يدُ كلّ إنسان مهدِّدَةً هو أمرٌ آخر تماماً. إن على الرياضيين أن يُحمُّوا أولاً. والمجرمون أيضاً يفعلون ربما شيئاً مشابهاً ... والسفَّاح كان من النوع الذي يستمتع بمغازلة الخطر. كان مجرماً من الطراز الأول؛ رجلاً يمكن أن يغدو قائداً عظيماً، أو محامياً نقابياً ماكراً. وكالعديد من أمثاله، أكَّدَ لكرلي مراراً أنه كان دائماً يُعطي ضحيته فرصةً عادلةً. فهو ليس جباناً ولا لصاً متسللاً، وحتماً ليس خائناً. هو معادٍ للمجتمع، هذا كل ما في الأمر. وبما أنه يعمل وحده، فلديه سبب وجيه للفخر بنجاحه. وكنجوم السينما، كان مزهواً بين أنصاره. والمعجبون؟ لديه منهم الملايين. وكان بين وقتٍ وآخر يقوم بعملٍ ليس للنشر، فقط ليعرفوا منزلته. والتباهي العلني. طبعاً. ولمَ لا؟ على المرء أن يستمدَّ بعض التسلية من ذلك. لم يكن يستمتع كثيراً بالقتل، وإن لم يكن يُعذِّبه ضميره جرَّاء ارتكابه. وأشدّ ما كان يعجبه أن يخدع أصحاب الخطوة الرشيقة.

كانوا دائماً يظنّون أنفسهم فائقي الذكاء!

كان كرلي ما يزال يرتعش من فرط الإثارة، والخوف، والكرب، والإعجاب ويعلم الله ماذا أيضاً. وعَجِزَ عن التكلُّم عن أي شيء آخر. وألحَّ علينا للاطلاع على الصحف. سوف تكون قضية مثيرة. ورفضَ أن يكشفَ حتى لنا طبيعة الأمر. كان ما يزال خائفاً، ما يزال منوَّماً مغناطيسياً. وراح يردِّد ويكرِّر " عيناه! لقد شعرتُ وكأني تحوَّلت إلى حجر "

" لكنكما تقابلتما في الظلام "

" لا يهمّ. كانتا تتوهَّجان كجمرتين. كانتا تُطلقان شرراً! "

" ألا تعتقد أنك ربما تخيَّلتَ الأمر، لعلمك أنه قاتل؟ "

" ليس أنا مَنْ يفعل ذلك! لن أنسى عينيه ما حييت. سأبقى ممسوساً بهما حتى يوم مماتي "، وارتعشَ رعباً.

سألتْ مونا " أتظن حقاً يا كرلي أنَّ عينيّ قاتل تختلفان عن عيون بقية الناس؟ "

قال كرلي " ولِمَ لا؟ إن كل شيء آخر فيه مختلف. فلم لا تكون عيناه كذلك؟ ألا تعتقدين أنَّ العيونَ تتغيَّر مع تغيُّر الشخصية؟ إنها جميعاً تنطوي على شخصيات " أخرى ". أقصد أنها ليست نفسها. إن فيها شيئاً زائداً - أو ناقصاً، لا أدري أيُّهما. إنها من سلالة أخرى. هذا كل ما أستطيع أن أقوله. حتى قبل أن يخبرني مَنْ يكون عرفته. كأني كنتُ أتلقَّى ذبذبات من عالمٍ آخر. كان صوتُهُ لا يشبه أي صوت إنساني أعرفه. وحين صافحني حسبتُ أني أقبضُ على تيار كهربائي. صُعِقتُ، أؤكِّد لك - أقصد صعقةً جسدية. أردتُ أن أهرب مبتعداً عنه. في التو

واللحظة، غير أنَّ تينكَ العينين سمَّرتاني في مكاني. عجزتُ عن التزحزح، عجزتُ عن رفعِ إصبع ... الآن بدأتُ أفهمُ ماذا يقْصِد الناس حين يتحدَّثون عن الشيطان. كانت تفوح منه رائحةٌ غريبة - هل سبق أن ذكَرْتُ هذا ؟ ليسَتْ رائحةُ كبريت. هي أشبه برائحة حمض مُركَّز. لعلَّه كان يعالجُ بعضَ المواد الكيميائية. ولكن أعتقد أنَّ هذا غير صحيح. كان شيئاً يجري في دمه ... "

" أتعتقد أنَّ في استطاعتك أن تتعرَّف عليه إذا رأيته مرةً أخرى؟ "

هنا سكَتَ كرلي، ودُهشتُ. بدا مرتبكاً.

أجاب بعد تردُّد كثير " بصراحة، لا أظنني سأعرفه. فعلى الرغم من قوة شخصيته، إلا أنها كانت تتَّصفُ بالقدرة على أن تمَّحي من الوعي. هل يبدو كلامي مريباً؟ دعني أُعبِّر بطريقةٍ أخرى " (هنا ذُهلتُ ذهولاً حقيقياً. لقد أحرزَ كرلي حقاً خطوات واسعة) " لنفرض أنَّ القديس فرانسس ظهرَ أمامك هذه الليلة وفي هذه الغرفة بالذات. لنفرض أنه تحدَّثَ إليك. فهل ستتذكَّر غداً أو بعد غد شكله؟ ألن يكونَ تجلّيه غامراً إلى درجة أنه سيمَّحي كلّ تذكُّر لملامحه؟ لعلك لم تفكِّر قطِ في مثل هذت الاحتمال. أنا فكَّرتُ لأني كنتُ أعرفُ امرأةً ذات مرة كانت ترى رؤى. حينئذٍ كنتُ مجردَ طفلٍ لكني أستطيع أن أتذكَّر النظرة التي ارتسمتْ على وجهها حين حكَتْ لي عن تجاربها. أنا متأكِّد من أنها رأتْ أكثر من مجرَّد كيانٍ مادي. إذ حين يترا ءى لك كيانٌ من الأعالي فإنه يجلب معه قَبَساً من السماء - ويُعمي بصرك. على أي حال، هكذا يبدو الأمر لي ... لقد تركَ السفَّاح عندي مثل ذلك الشعور، كل ما في الأمر أنه لم يأتِ من الأعالي. وكائناً ما كان المكان الذي أتى منه، فإنه

كان يـكتنفه. تكاد تحسّه. وكان إحساساً مرعباً ". سكت من جديد وقد أشرقَ وجهه. " اسمع أنت مَنْ حثَّني على قراءة دوستويفسكي، إذن فأنت تعرف معنى أن تنجرفَ إلى عالمٍ من الشرِ الشامل. وبعض شخصياته تتكلّم وتتصرّف وكأنها تسكن عالماً مجهولاً تماماً لنا. أنا لا أُسمِّيه الجحيم. إنه أسوأ، وأشدُّ تعقيداً، ورهافةً من الجحيم. لا شيء مادياً قادراً على وصفه. إنك تحسُّه من ردّات فعلها. إن لديها مدخلاً، لا يمكن التكهُّن به، إلى كل شيء. وقبل أن يكتب عنها، لم نكن قد عرفنا أناساً يفكّرون كما تفعل شخصياته. وهذا يذكّرني - ألا ترى أنَّ المجرمَ، والأبلهَ، والقديسَ عنده لا يختلف الواحد منهم عن الآخر كثيراً؟ كيف تُفسِّر ذلك؟ هل كان دوستويفسكي يعني أننا جميعاً مخلوقون من طينة واحدة؟ ما الشرير، وما القدسيُّ؟ لعلك تعرفُ ... أما أنا فلا "

قلتُ " كرلي، أنت حقاً تُدهشني. أنا جادّ "

" أتظنّ أني أصبحت الآن مختلفاً كثيراً؟ "

" مختلف؟ لا، ليس كثيراً، لكنك حتماً أشدّ نضجاً "

" لا يهمّ، إنَّ المرءَ لا يبقى طفلاً طوال حياته "

" صحيح ... قُلْ لي بصدق، كرلي، هل يغويك أن تعيش حياة مجرم قاتل إذا عرفتَ أنك ستنجو بفعلتك؟ "

أجاب، مطأطئاً رأسه قليلاً، " ربما "

" أراك تحبُّ الخطر؟ "

أومأ إيجاباً.

" ألا تنتابك شكوكٌ في أن يعترض الشخصُ الآخرُ طريقَكَ؟ "

ابتسم قائلاً " أعتقدُ أنْ لا "، وكانت ابتسامة ملتوية.

" أما زلت تحقد على زوج أمك؟ "

ثم أردفتُ، دون أن انتظـر رداً: " إلى حد أن تقتله، إذا عَلِمْتَ أنك ستُفلت من العقاب؟ "

قال كرلي " صحيح! كنت قتلتُهُ كما أقتلُ كلباً "

" لماذا؟ أتعرف السبب؟ فكِّرْ، لا تُجبني فوراً "

عوى " لستُ مضطراً إلى التفكير. أنا أعرف. كنت قتلته لأنه سرقَ حبَّ أمي. الأمر بهذه البساطة "

" ألا ترى أنَّ هذا سببٌ سخيفٌ قليلاً؟ "

" لا يهمنّي إن كان كذلك. إنها الحقيقة. لا أستطيع أن أنسى هذا، وزيادة على ذلك، لن أسامحه. هاأنا أقدِّم لك قاتلاً، إذا شئت "

" لعلَّك على حق، يا كرلي، لكنَّ القانونَ لا يراه كذلك "

" مَنْ يأبه للقانون؟ على أي حال، ثمة قوانين أخرى - وأكثر أهمّية أيضاً. إننا لا نعيش بالدساتير القانونية "

" أنت على حق! "

وواصلَ كلامه بحرارة " سأكون قد قدَّمتُ خدمةً إلى العالم. إنَّ موتَه سوف يُنقِّي الجو. إنه لا يفيد أحداً. ولا كان ذا فائدة. يجب أن أُشَّف لتخلُّصي منه ومن أمثاله. لو كان لدينا مجتمع عاقل، لتمّ تشريفي. في الأدب يُعتَبَرُ الذين يرتكبون مثل هذه الجرائم أبطالاً. إن الكتبَ هي جزءٌ من الحياة كأي شيء آخر. وإذا كان المؤلِّفون يستطيعون أن يخرجوا بمثل هذه الأفكار، فلماذا لا أستطيع أنا أو أي شخص آخر؟ إن مظالمي حقيقية وليست مُتخيَّلة ... "

هذه المرة مونا هي التي تكلَّمت. " هل أنت واثقٌ من هذا، يا كرلي؟"

قال " كل الثقة "

قالت " ولكن إذا كنتَ أنتَ الشخصية المركزية في كتاب، فالأمر المهمّ هو ما حدث لك، وليس لزوج أمك. إنَّ مَنْ يقتلُ أباه - في كتاب - لا يصبحُ بطلاً فقط على هذا الأساس. وإنما طريقةُ سلوكه هي الشيء المهمّ، الطريقةُ التي يواجِهُ بها المشكلة - ويعمل على حلِّها. إنَّ أي إنسان يمكنه أن يرتكب جريمة، لكن بعض الجرائم على جانبٍ مذهل من الأهمية بحيث أن مرتكبها يصبح أكثر من مجرَّد مجرم. أتدرك ما أرمي إليه؟ "

قال كرلي " أنا أفهمك تماماً، لكن هذه التفاصيل الدقيقة والمعقَّدة كلها لا تهمّني في شيء. هذا أدب! إنني أخبرك بصدق أني ما زلت أكره أحشاءه، وكنت سأقتله دون أي وخزٍ من ضمير، لو أني أُفلتُ من العقاب"

بادَرَتْ مونا قائلة " إني أرى منذ الآن فَرْقاً شاسعاً ... "

قال بنزق " ماذا تعنين؟ "

" بينك وبين بطل كتابٍ ما "

" لا أريد أن أكونَ بطلاً! "

قالت مونا برفقٍ " أعرف هذا ـ لكنكَ تريدُ أن تبقى كائناً بشرياً، أليس كذلك؟ إذا بقيتَ تفكّر في هذا الأسلوب، فمن يدري، قد تتحقَّقُ رغبتك ذات يوم. ثم ماذا؟ "

" سأكونُ سعيداً. لا، ليس بالضبط سعيداً، وإنما مرتاحاً "

" لأنه ابتعدَ عن طريقك، تقصد؟ "

" لا! وإنما لأني تخلَّصتُ منه. ثمة فرقٌ هنا "

هنا شعرتُ أني مضطرّ إلى التدخُّل. " انظر، يا كرلي، لقد خرجتْ مونا عن الخط الصحيح. أعتقد أني أُدركُ ما كانت تقصد بقولها. إنه ما يلي - إن الفرق بين المجرم الذي يرتكب جريمة وبطل كتابٍ ما يرتكبُ الجريمة ذاتها هو أنَّ هذا الأخير لا يهتمّ إنْ كان سيُفلت من العقاب أم لا. إنه غير معنيّ بما سيحدث له لاحقاً. إن واجبَهُ أن يَبْلُغ غايته، لا أكثر... "

قال كرلي " وهذا يبرهن على أني لن أكون بطلاً أبداً "

" لا أحد يطلب منك أن تغدو بطلاً. ولكن إذا ميَّزتَ بين الاثنين فستدركُ أنك لستَ أفضَلَ من الرجل الذي تكنُّ له كل تلك الكراهية والاحتقار "

" حتى وإن كان هذا صحيحاً لا يهمُّني! "

" إذن فلننسَ الأمر. الاحتمالات تقول إنه سيموت ميتةً هادئة وإنَّ الأمرَ سينتهي بك إلى الاستقرار في مزرعة في كاليفورنيا المُشمسة "

" ربما تكون حياةً شاقةً ومرهقةً - ما أدراك؟ "

" ربما. وربما لا "

قبل أن يغادرنا كرلي في تلك الليلة أفضى إلينا بمعلومةٍ صَدَمتنا بشدَّة. قال لنا إنَّ توني مورر قد انتحر. كان قد شنَقَ نفسه في الحمَّام خلال حفلةٍ أقامها لأصدقائه. وقد عثروا عليه وقد ارتسمت ابتسامةٌ ساخرةٌ على شفتيه وتدلَّى غليونٌ من فمه. واضحٌ أنه لا أحد عرِفَ سبب انتحاره. فهو لم يكن يفتقر أبداً إلى المال وكان على علاقة حبٍ مشبوبٍ مع امرأةٍ كان يعاشرها، فتاة جاويّة جميلة. قال البعض إنه فعل ذلك بدافعٍ من شعورٍ بالضجر لا أكثر. فإذا كان الأمر كذلك، فهو يتناسق مع شخصيته.

حرَّكَ الخبرُ مشاعري بشكلٍ غريب. ورحتُ أتأسَّفُ في نفسي لأني لم أعرف توني مورر معرفةً أكثر حميميّة. لقد كان من النوع الذي يفخر المرْ باتّخاذه صديقاً له. لكني كنتُ شديدَ الحياءِ بحيث لم أبادرْ إلى اتخاذ أيّ خطوةٍ، وكان هو مفرط التخمة فلم يُدرك حاجتي. ولطالما شعرتُ بشيءٍ من الاضطراب في حضوره. تماماً كتلميذ مدرسة. وكل ما أردتُ أن أفعله كان هو قد أنجزَه للتو ... ولعلَّ هناك شيئاً آخر جذبني إليه بطريقةٍ لا واعية: إنه دمه الألماني. وكانت تلك المرة الوحيدة في حياتي التي استمتعتُ خلالها بمعرفتي ألماني لم يُذكِّرني بكلّ الألمان الذين عرفتهم. في الحقيقة هو لم يكن حقاً ألمانياً - كان مواطناً عالمياً. والمثال الأمثل عليه هو " إنسانُ المدينةِ في مرحلتها الأخيرة " الذي أجادَ شبنغلر[١٧٤] وصفَهُ. جذوره لم تكن في التربة الألمانيّة، والدم الألماني، والتراث الألماني، وإنما كانت ضاربةً في العصور الختاميّة التي ميَّزت إنسان المدينة في مرحلتها المتأخِّرة لمصر، واليونان، وروما، والصين، والهند. كان معدومَ الثقافة والحضارة. وقد يكون قد قاتلَ أيضاً بين صفوف الإيطاليين، أو الفرنسيين أو الهنغاريين أو الرومانيين، كما قاتلَ بين صفوفنا. ويتمتَّعُ بحسّ الولاء دون أن يكون وطنياً. ولا عجب في أنه أمضى ستة أشهر (بالمصادفة) في معتقَل فرنسي - واستمتعَ بذلك. كان يحبُّ الفرنسيين حتى أكثر من حبّه للألمان - أو للأميركيين. كان يحبُّ الحديثَ الشيِّقَ، وفقط.

جوانب شخصية الرجل هذه كلها، بالإضافة إلى كونه ذا كياسة،

---

١٧٤ - أوزفولد شبنغلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦) : فيلسوف ألماني وضع كتاب " انحدار الغرب " في فلسفة التاريخ . سيرد ذكره موسَّعاً في آخر هذا الكتاب .

وصاحب مهارة، ومُحنَّكاً بكل معنى الكلمة، ومتسامحاً وغفوراً إلى أقصى حد، حبَّبَه أكثر إلى قلبي. ولم يكن أيٌ من أصدقائي يمتلك مثل تلك السجايا. كانوا يتَّصفون بسِماتٍ أفضل أو أسوأ، سِمات مألوفةٍ جداً لدي. لقد كان أصدقائي يشبهونني أكثر مما ينبغي au fond (في الجوهر). طوال حياتي وأنا أرغبُ، ولا زلتُ أتوقُ، في الواقع، إلى تكوين أصدقاء أراهم مختلفين تماماً عني. وعندما نجحتُ في العثور على أحدهم اكتشفتُ أيضاً أنَّ عنصرَ الجذب ضروريٌ للحِفاظ على علاقةٍ حيويةٍ كانت مفقودة. ولم يصبح أيٌ من أولئك الأفراد أكثر من أصدقاء " مُحتَمَلين ".

* * *

على أي حال، في تلك الليلة راودني حلمٌ. حلمٌ مُطوَّل، كما قلت سابقاً، ومملوء بأعمالٍ طائشةٍ يقف لها شعر الرأس. في الحلم تبادل كلٌ من السفَّاح وتوني مورر شخصيتيهما. وكنت بصورةٍ غامضة متحالفاً معهما، أو مع أحدهما، ذلك لأن تحالفي الغامض والمُحيِّر هذا، كان ينقسم إلى شخصيتين متباينتين ولم يتَّضح أبداً إن كانت هي توني مورر أو السفَّاح، لكني كنتُ دائماً مُركَّباً من الاثنين، حتى وهو منقسم. هذا الدور المزدوج كان كافياً بحد ذاته ليُسبِّبَ لي أقصى كرب، ناهيك عن أني لم اكن متأكِّداً إن كان أو كانا في صفّي أو ضدّي.

كانت فكرة ذلك الحلم المشوَّش الرئيسية تتمركز حول عملٍ نؤدِّيه بنجاحٍ وصعوبةٍ في مدينةٍ غريبةٍ لم أزُرها من قبل، في مكانٍ ناءٍ مثل شلالات سيو، أو تونوباه أو لَدْلو. كنتُ أقومُ بدور أضحوكة ، دور مزعج جداً، لأني كنت طوال الوقت مُعرَّضاً للخطر، ودائماً أُترَكُ في موقفٍ

حرج. وكانت دائماً تُفرَضُ عليَّ تلك الحركة الزائفة، تلك الغلطة الصغيرة وأُصبحُ كلحم الجياد. وكانت التعليمات دائماً تشوَّه، دائماً تُعطى مُشفَّرة فيستغرق مني فكُّ طلسمها ساعات عدَّة. وطبعاً لم يكن العملُ يُنجَز. وبدل ذلك ترانا على الدوام وقد أصبحنا في الشارع، ننتقل من مكانٍ إلى آخر، نتعرَّضُ للمضايقات، كأننا في لُعبةٍ عنيفة. وحين نضطرُّ إلى الاختباء - في كهوفٍ أو أقبيةٍ، أو مستنقعات أو مداخل مناجم - نلعبُ الورقَ أو نرمي النرد. وكنا نراهنُ بمبالغ كبيرة، ويدفع كلٌ منا للآخر بورقة اعترافٍ بالدَيْن، أو بالمال الفيدرالي الذي استولينا عليه من المصرف. كان السفَّاح-مورر يضعُ نظارةَ مونوكل، حتى في العَلَن، على الرغم من توسلاتي كلها. كانت لغته مزيجاً من عاميِّة اللصوص وعاميّة أوكسفورد. حتى حين يشرحُ التعقيدات المراوغة لمشروعٍ محفوفٍ بالمخاطر كانت لديه عادةُ الخروجِ عن الموضوع، ورواية حكايات طويلة ومملّة وتافهة. وكانت مُتابعته عمليّةً مُعذبِةً. وأخيراً حُشِرنا نحن الثلاثة، أو بالأحرى، حوصرنا، داخل ممرٍ ضيِّق (في الغرب الأقصى، كما بدا) بعُصبةٍ من رجال الأمن الأهلي. وقُتِلنا جميعاً، رُمينا بالرصاص كخنازير بريّة. ولم أُدرك أني ما زلتُ على قيد الحياة إلا بعدما استيقظتُ ,وحتى حينئذٍ بالكاد صدَّقتُ ذلك. ثم بدأ يظهرُ لي جناحان.

كانت هذه زبدة الحُلم. حاولتُ أن أُكثِّفَ هذه المادة الخام على شكل حكاية مطاردةٍ ذات حبكةٍ دقيقة وموقع مُحدَّد. وأعتقد أني نجحتُ في أسر الانتباه في الجزء الخاص بالصيد البشري، إلا أني فشلتُ في تحويل مادة الحلم المتلاطمة، الغريبة، المتلاحقة الأحداث التي تدور حول الهروب والمصادفة، إلى حكاية واضحة المعالم. لقد تهتُ بين الخيارات. ومع

ذلك، كانت محاولة ممتازة، وقد منحتني الشجاعة لتناول المزيد من القصص الخيالية. وربما كنت نجحتُ، في هذا المنحى الأخير، لو لم نتلقَّ برقية من أومارا يحثُّنا فيها على الانضمام إليه في كارولاينا الشمالية، مركز ازدهار كبير آخر في مجال العقارات وكالمعتاد ألمحَ إلى أنه يشغل منصباً هاماً: لقد احتاجوا " هُم " إليّ في مجال الدعاية.

أبرقتُ بردّي للتو أطلبُ منه أن يُرسل لنا أُجرة السفر بالقطار وإعلامنا بقيمة الراتب. والجواب الذي تلقّيته يقول ما يلي: " لا تقلق. كل شيء جيد. اقترضْ قيمة الأجرة "

على الفور توقّعتْ مونا أسوأ الأمور. ورأت أن هذا الغموض، والالتباس، وعدم الجدارة بالثقة، هي من شيمه، وأن الشعور بالوحشة وحده هو ما دفعه إلى الإبراق إلينا.

رحتُ أدافعُ عنه غريزياً، وعَلَتْ نبرة حماستي إلى درجة أنه، على الرغم من شعورٍ بعدم الارتياح للأمر برمّته، لم يعد في إمكاني أن أحنث بوعدي.

قالت " حسن، من أين سنحصل على الأجرة؟ "

أصابني الارتباك. ولكن برهة فقط. وفجأة برقَتْ في ذهني فكرة لامعة. " النقود؟ طبعاً، من السحاقيّة الصغيرة التي قابلتها في ذلك النهار في المخزن التنويعي، أتذكرين؟ فتاة عطر تانسي. هناك قابلتها "

كانت ردّة فعلها الأوّليّة " مُحال! "

قلتُ " هيا، هيا، لعلها تباركك إذا طلبت منها ذلك "

ظلّت تُصرُّ على أن هذا أمرٌ غير وارد، ولكن كان جلياً أنها تُقَلِّب الاقتراح في ذهنها. كنت متأكّداً من أنها بحلول الغدّ ستكون قد خرجت بموقف مختلف.

قلت، وكأنما لأصرفَ النظر عن الموضوع، " سأقول لك شيئا، ما رأيك في أن نذهب لمشاهدة العرض هذا المساء؟ دعينا نتسلّى "

وجدتُ ذلك فكرة ممتازة. أكلنا، وانتقينا عَرْضاً جيداً - في البالاس - وعدنا إلى البيت ورأسانا يكادان ينفجران من فرط الضحك. في الحقيقة لقد ضحكنا كثيراً حتى تعذَّرَ علينا النوم قبل مرور ساعات.

في صباح اليوم التالي، وكما توقَّعتُ، كانت قد خرجَتْ لكي تقابل صديقتها السحاقيّة. لا بأس أبداً في أن تقترض خمسين دولاراً. والصعوبة التي تواجهها كانت أن تتخلّص من الفتاة.

اقترحتُ عليها أن نقطع الطريق سيراً على الأقدام بدل الانتقال بالقطار، فذلك سيوفِّر لنا بعض النقود لدى وصولنا. " لا أحد يستطيع أن يُخمِّن تصرفات أومارا. قد يكون الأمر كله مجرَّد حلم من دخان "

قالت مونا " بالأمس كان كلامه مختلفاً "

" أعلم، ولكن الآن نحن اليوم. أنا أفضِّل أن نكونَ على حَذَر "

أذعنتْ على الفور. وافقت على أنه سيُتاح لنا ربما بالمشي أن نشاهد الريف عن قُرب. ثم أنه مع وجود امرأة مع الرجل يكونُ من الأسهل أن يحصلا على توصيلة.

انزعجتْ صاحبة المنزل قليلاً من فُجاءة قرارنا ولكن حين شرحتُ لها بالقول إني قد كُلِّفتُ بتأليف كتابٍ قبِلَتْ التبرير بطيبة قلب ظاهرة وتمنَّت لنا التوفيق.

سألتني، وهي تقبض على يدي مودِّعةً، " عمَّ يدورُ الكتاب؟ "

قلت " عن هنود الشيروكي "، وأسرعتُ بإغلاق الباب وراءنا.

حصلنا بسهولة على توصيلة ولكني ذهلت أمام ما اعترى مونا من

خيبة أمل. ومع وصولنا إلى بلدة هاربرز فيري كان قد ظهرَ عليها بوضوح الشعور بالاشمئزاز - من المشهد العام، والبلدان، والناس الذين قابلناهم، والوجبات وكل شيء.

حين وصلنا هاربرز فيري كان النهار قد انصرم. جلسنا في مكانٍ عالٍ على صخرةٍ تُشرفُ على ثلاث ولايات. فأسفلنا كان مُلتقى نهريَ شيناندواه وبوتوماك. بقعة مقدّسة، حتى ولو لمجرّد أن هنا لقي جون براون[175]، المُحرِّر العظيم، حتفه. إلا أنَّ مونا لم تكن مهتمَّة البتَّة بالأوجه التاريخية للمكان. أما روعة المشهد الطبيعي فلم تقوَ على نكرانها. لكنه ملأها بشعور الأسى. والحق أقول، لقد انتابني الشعور نفسه، ولكن لأسبابٍ مختلفة. كان مستحيلاً عليَّ أن أنسحب. لقد وقع الكثير من الأحداث هنا بحيث لا يسمح ببروز هموم المرء الخاصة. وأخذت أقرأ بعينين تترقرقان بالدموع ما كان توماس جيفرسن قد قاله عن هذه البقعة بالذات: كانت الكلمات محفورة على لوحٍ مُثبَّتٍ إلى صخرة. كان في كلمات جيفرسن سموّ. ولكن كان هناك سموّ أرقى في فعل جون براون وأتباعه المُخلِّصين. قال ثورو[176] " لا رجلَ في أميركا وقفَ مثل تلك الوقفة الصامدة دعماً لكرامة الطبيعة الإنسانيّة، مُدركاً أنه رجلٌ وندٌّ لأي حكومة كانت ". أكان متعصِّباً؟ ربما. مَنْ غير رجلٍ عادلٍ قادرٌ على التخطيط لقلب الحكومة المحافظة، المستقرَّة لهذه الولايات المتحدة، مع مجرد حفنة من الرجال؟ المجد لجون براون! المجد في الأعالي! " إنني

---

١٧٥ - جون براون (١٨٠٠ - ١٨٥٩) : أميركي دعا إلى تحرير العبيد بقوة السلاح . قبضت عليه الحكومة وشنقته . - المترجم .

١٧٦ - هنري ديفيد ثورو (١٨١٧ - ١٨٦٢) : كاتب أميركي . - المترجم .

أؤمن بالقاعدة الذهبية، يا سيدي، وبإعلان الاستقلال. أعتقد أن لكليهما معنى واحداً. وأفضّل أن يُبادَ جيلٌ كامل عن وجه الأرض – رجالاً، نساءً وأطفالاً – بانقضاضٍ من الموت، على أن يسقط مثقال ذرّة من أي منهما في هذا البلد " (هذه كلمات جون براون في عام ١٨٥٧). فلنتذكّر أن عددَ المُحرِّرين الذين احتلّوا بلدة هاربرز فيري بلغَ فقط اثنين وعشرين، كان من بينهم سبعة عشر رجلاً أبيض. قال جون براون " إن حفنةً من الرجال على حق، ويعرفون أنهم كذلك، يستطيعون أن يخلعوا مَلِكاً عن عرش ". كان، بمعيّة حفنة من الرجال فوق جبال الأليغاني، متأكداً من قدرته على سحق الرقّ في غضون سنتين. " مَنْ أراد أن يكون حراً، عليه أن يُسدِّد الضربة بنفسه ". هذا، بإيجاز، هو جون براون. أكان متعصِّباً؟ هذا في الغالب. إنه من النوع الذي يقول: " الإنسان يموت عندما تحين ساعته، ومَنْ يخافُ يولد خارج الزمن ". فإذا كان حقاً متعصِّباً، فقد كان فريداً من نوعه. هل هذه لغة رجل متعصِّب؟ – " لا تسمح لأي إنسان أن يقول لقد تصرَّفت بدافع الانتقام. إنني أدَّعي أنه لا يحقُّ لأي إنسان أن ينتقم لنفسه. هذا الشعور لا يقبله قلبي. إن ما أفعله، أفعله من أجل قضية الحريّة الإنسانية، ولأني أعتبرها ضرورية "

لم يكن من شيمته اللجوء إلى الحل الوسط. ولا إلى المُسكِّن. لقد كان رجل رؤيا. وما ألهمه سلوكه " المجنون " كان رؤيا عظيمة، عظيمة. ولو أن جون براون أمسك بزمام الأمور لكان الرقيق قد تحرَّروا حقاً الآن – ليس فقط الرقيق السود وإنما الرقيق البيض ورقيق، بمعنى، رقيق الآلة.

مما يثيرُ السخرية أن المُحرِّر العظيم لقي نهاية كارثيّة بسبب حسِّه

الغامر بأهمية العدو. (وهنا كان يكمن جنونه الحقيقي!) وبعد قضاء أربعين يوماً في السجن، وبعد محاكمة كاذبة كان أثناءها يستلقي على أرضية قاعة المحكمة بملابسه المنقوعة بالدماء، الممزَّقة بالخناجر، ذهبَ إلى المشنقة، شامخ الرأس، واقفاً فوق الحفرة معصوب العينين، ينتظر، وينتظر (مع أن طلبه الواحد والوحيد كان أن يُعجِّلوا في التنفيذ)، بينما كان عساكر ولاية فيرجينيا الشجعان يقودون بتدريباتهم الحميريّة، الطويلة حتى الملل، على عرضهم العسكري.

كان جون براون قد أجاب أولئك الذين كتبوا له قُبيل حلول النهاية، يسألون عن الوسيلة الممكنة لمساعدته: " أرجو أن ترسلوا خمسين سنتاً كل عام إلى زوجتي في شمال إلبا، في نيويورك ". وبينما كان يسير باتجاه المشنقة صافحَ رفاقه كلاً بدوره، وأعطى كلاً منهم ربع دولار مع بركاته. هكذا ذهب المُحرِّر العظيم ليقابل وجه خالقه ...

إن هاربرز فيري هي بوابة الجنوب. وتدخل إلى الجنوب عن طريق الولاية القديمة[١٧٧]. وكان جون براون قد دخل الولاية القديمة ليعبُر منها إلى الحياة الأبدية. قال " إنني لا أعترفُ بوجود أي سيد في شكلٍ إنسانيّ ". المجد لك! المجد لك!

قال أحد معاصري جون براون، وهو لا يقلُّ عن هذا الأخير شهرة على طريقته الخاصة، عنه: " ما كان يمكن لنظرائه أن يختبروه، إذ لم يكن له نظير ". آمين! هللويا! فلتواصل روحه مسيرتها!

١٧٧ - الولاية القديمة : لقب ولاية فرجينيا الأميركية . - المترجم .

١٤

الآن سأرتِّل " المسرَّات السبع العظمى ". وهذه هي اللازمة:
تعالوا جميعاً من البريّة
وليتمجَّد،
الآب، والابن والروح القُدُس
إلى أبد الآبدين.
سوف نُرتّلها كثيراً ونحن نتلوّى كالأفاعي في حضن الجنوب المُتَّقد...

آشفيل. لعلَّ توماس وولف[١٧٨]، الذي وُلِدَ هنا، كان يؤلِّف " انظر جهة المنزل، يا ملاكي! " ونحن ندخلها. عندئذ لم أكن حتى سمعت بتوماس وولف. أمر مؤسف، لأني ربما كنتُ نظرتُ إلى آشفيل بعينين مختلفتين. ومهما قيل عن آشفيل، فإنَّ الغروب فيها رائع. في قلب جبال غريت سموكيز. أرض الشيروكي العريقة. لابد أنها كانت بالنسبة إلى هنود الشيروكي جنة. إنها ما زالت جنة، إذا شاهدتَها بضميرٍ نقي.

كان أومارا في الانتظار ليرافقنا إلى الجنة. ولكن مرة أخرى كنا قد تأخَّرنا. فقد اتّخذت الأمورُ منحى سيئاً. إن فترة ازدهار عمل العقارات

١٧٨ – توماس وولف (١٩٠٠ – ١٩٣٨) : روائي أميركي . عُرِفَ بكتاباته الذاتيّة . – المترجم

قد انتهت. فلا عمل في مجال الدعاية كان في انتظاري. لا عملَ من أي نوع كان. الحق أقول، شعرتُ بالارتياح. ولما علمتُ أنَّ أومارا أدَّخر بعض المال، يكفي لإعالتنا بضعة أسابيع، قررتُ أنه مكان طيِّب كأي مكانٍ آخر يصلح لأقيم فيه فترة من الزمن وأكتب. العائق الوحيد كان مونا. لم يعجبها الجنوب. ومع ذلك كانت تحدوني آمال في أن تتأقلم. فهي، قبل كل شيء، لم تكن قد وطأت خارج أرض مدينة نيويورك.

وفقاً لقول أومارا، كان هناك كوخ خاص بالجوالين نستطيعُ أن نستفيد منه بلا حدود، بلا أجر، إذا أعجبنا. رأى أنها بقعة مثاليّة بالنسبة إليّ كي أكتب. ويقع خارج البلدة بمسافةٍ قصيرةٍ، فوق التلال. كان توّاقاً ليرانا ننتقل إليه فوراً.

حين وصلنا إلى سفح التل كان الليلُ قد حلّ، ومن هناك كان علينا أن نحصل على مفتاح الكوخ. وبعونٍ من شخص أبله مفرط النمو صعدنا على ظهر حمار، وسط الظلام الدامس. أقصد، فقط أنا ومونا. وبينما نحنُ نرتقي ببطء ومشقَّة رحنا نُنصِتْ إلى هدير فيض ماءٍ جبليّ يندفعُ بجانبنا. كان ظلاماً من النوع الذي لا ترى فيه يدك أمام عينيك. واستغرق منا الوصول إلى موقع الكوخ مدة ساعة من الزمن. وبالكاد كنا ترجلنا حين انقضَّت علينا حشود الذباب والبعوض. والفتى الطويل، والنحيل، والأخرق، الذي لم يكن قد فتحَ فمه، دفعَ الباب إلى الداخل وعلّقَ المصباح من حبلٍ يتدلّى من رافدة السقف. كان جليّاً أنه لم يكن قد سُكِنَ منذ سنين. لم يكن فقط قذراً، بل ويعجُّ بالجرذان، والعناكب وكل أنواع الهوام.

تمدَّدنا على السريرين النقّالَين جنباً إلى جنب، والولد الأبله استلقى

تحت أقدامنا. وكنتُ واعياً للضجيج المزعج الذي تُصدره الخفافيش لدى مرورها مندفعةً من فوق رؤوسنا. والذباب والبعوض، الذي أزعجه تدخُّلنا، أخذ يهاجمنا بلا رحمة.

ولكن، وعلى الرغم من كل شيء، نجحنا في الاستغراق في النوم. خُيِّلَ إليّ أني بالكاد كنتُ أغمضتُ عينيّ حين شعرتُ بمونا تقبض على ذراعي.

تمتمتُ " ما الأمر؟ "

مالت فوقي وهمست في أذني.

قلتُ " كلام فارغ، لعلَّكِ كنت تحلمين "

حاولتُ أن أعودَ إلى النوم. وبعد لحظة شعرتُ بقبضتها من جديد.

همستْ " إنه هو، أنا واثقة من ذلك. إنه يتحسَّسُ ساقي "

نهضتُ واقفاً، وقدحتُ عودَ ثقاب، وتمعَّنتُ النظر في الأبله. كان مستلقياً على جنبه، وعيناه مغمضتين، وساكناً كعصا.

قلت " أنت تتخيَّلين أشياء، إنه مستغرقٌ في النوم "

ومع ذلك رأيتُ أنَّ من المُستحسن أن أبقى متيقِّظاً. فأخرق، أبله كهذا يتمتَّعُ بقوة حيوان. قدحتُ عودَ ثقابٍ آخر وألقيتُ نظرةً سريعةً على ما حولي لأرى ماذا يسعني أن أستخدم كسلاح إذا ما أفلت الأمرُ من يدي.

عند انبلاج الفجر كنا جميعاً يقظين تماماً ونهرشُ أنفسنا كالمجانين. كان الحرّ قد أضحى للتو حارقاً. أرسلنا الفتى ليُحضِرَ دلواً من الماء، وأسرعنا بارتداء ملابسنا، وقرَّرنا بلا أي تأخير أن نرحل. وبينما كنا ننتظر الأبله ليحزم المتاع تفحَّصنا المكان عن قُرب. كان الكوخ بلا

مبالغة مختنقاً بالأشجار والشجيرات. لا وجود لأي منظر عام. لا يوجد غير هدير المياه الجارية وشقشقة العصافير المجنونة. وتذكّرت كلمات أومارا لدى فراقنا وحالما انطلقنا على درب الماعز - " إنه المكان الأنسب لأجلك ... منتجع مثالي! "

لاحظنا، ونحن نهبط، مرة أخرى على ظهر البغل، وقد سرَتْ فينا رعشة، مدى ضيق فرصة النجاة المُتاحة لنا. كان يكفي انزلاقٌ واحدٌ صغيرٌ ونلقى حتفنا. وقبل أن نسيرَ مسافةً طويلة ترجَّلنا وأخذنا نسيرُ على أقدامنا. وحتى في هذه الحالة كان تجنُّب الانزلاق عملاً بطولياً دقيقاً.

في الأسفل تعرَّفنا إلى كافة أفراد العائلة. كان هناك ما يزيد على دزينةٍ من الأولاد يتراكضون حولنا، أغلبهم شبه عار. وسألنا إن كان في إمكاننا أن نتناولَ طعام الإفطار معهم. وطُلِبَ منا أن ننتظر، وسيطلبوننا حالما يستعدون. جلسنا على درج الرواق ورحنا ننتظر مكتئبين. عندئذ - ولم تكن الساعة قد بلغت السابعة - كان الحرُّ لا يكاد يُحتَمَل.

حين نادوا علينا وجدنا العائلة كلها مجتمعة حول المائدة. للوهلة الأولى كدتُ لا أصدِّق عينيّ وأنا أرى كل تلك النقط السوداء التي تُتَبِّل الطعام، أكانت حقاً ذباباً؟ وعند كلّ طرف من المائدة كان يقفُ ولدان منهمكان في إبعاد الذباب بمناشف قذرة. جلسنا، كلنا معاً، واستقرَّ الذباب في آذاننا، وعيوننا، وأنوفنا، والشعر والأسنان. جلسنا صامتين برهة بينما كان الشيخ الجليل يتلو صلاة المائدة:

((أول بركة نزلت على مريم
كانت البركة الأولى عندما

رأتْ أن صغيرها يسوع

هو ابن الرب الوحيد

هو ابن الرب الوحيد)).

كانت الوجبة سخيّة - برغل، لحم خنزير مقدَّد وبيض، خبز الذرة، قهوة، لحم خنزير، كعكة مخيض اللبن والبيض، الأجاص المطبوخ. وكل ذلك مقابل خمسة وعشرين سنتاً للرأس. لا زيادة مقابل الذباب.

انزعجَ أومارا قليلاً لأننا عدنا بسرعة. قال باكتئاب " أناس لا يتحلُّون بالشجاعة "

كل ما استطعت أن أقوله " أنت تعرف أني أكره الذباب "

شاء الحظ أن نذهب إلى أحد المطاعم في تلك الأمسية التي افتتحت أبوابها حديثاً، في غرب آشفيل. كان صاحبه، السيد رولينز، أستاذ مدرسة. ولسبب ما انشرحَ قلبه لنا على الفور. وعند مغادرتنا أعطانا رسالة توصية إلى رجل وزوجته كان لديهما غرفة مريحة للإيجار ومقابل مبلغ زهيد جداً. دفعنا مسبقاً إيجار أسبوع وفي اليوم التالي نقَدْنا السيد رولينز مبلغاً يكفي ثمن وجبات أسبوع كامل.

منذ ذلك الحين لم نعد نرى أومارا. دون شجار. لقد ذهبَ كلٌ في طريقه، هذا كل شيء.

اقترضت آلة كاتبة من السيد رولينز، الذي أبدى حماساً مؤثِّراً ليكون في خدمة" أديب ". وطبعاً ذكرْتُ له أسماءَ عددٍ كبيرٍ من الكُتُب التي ألَّفتها، بالإضافة إلى المؤلَّف الكبير الذي أعدُّه. وفي مطعمه الصغير الأليف شبعنا الأكل. كانت هناك أطباق جانبية من كافة الأصناف كان يدفعها إلينا مجاناً، كلَفْتَةِ تقديرٍ زائدةٍ، بلا شك،

للـ"أديب". وكان بين حين وآخر يضع سيجاراً جيداً في الجيب الصدري أو يُصرّ على أن نقبل منه مقداراً من البوظة لنأكلها لدى عودتنا إلى المنزل.

اتَّضحَ أن رولينز كان أستاذاً للُغة الإنكليزية في المدرسة الثانوية المحليّة. مما فسَّرَ الجلسات الرائعة التي كنا نناقشُ خلالها كتاب العصر الإليزابيثي. أما ما حبَّبني إلى قلبه أكثر من أي شيء، في اعتقادي، فكان حبي للكُتَّاب الأيرلنديين. وقد دَفَعَهُ كوني قرأتُ مؤلفات ييتس، وسينغ، واللورد دنساني، والليدي غريغوري، وأوكيسي، وجويس، إلى أن يقبِّلني كرفيق مرح. كان يتحرَّق شوقاً ليقرأ أعمالي، لكني كنتُ من التعقُّل بحيث أُبعدُها عنه. ثم إنه لم يكن لدي حقاً ما يستحق العرض.

في منزل الغُرف المؤجَّرة عقدنا معرفةً مع تاجر أخشاب من غرب فيرجينيا، اسمه ماثيو. كان اسكتلندياً قلباً وقالباً، لكنه شهم. وقد أسعده كثيراً، سعادة صادقة، أن يأخذنا في جولة في أرجاء البلد بسيارته الجميلة في أيام إجازته. كان يحب الطعام الطيب والخمور الجيدة، وكان على دراية بأماكن تواجدها. وذات يوم في تشيمني روك دعانا بسخاءٍ إلى وجبةٍ أستطيعُ بكل صدق أن أقول أني لم أستمتع بتناول مثلها إلا مرَّتين في حياتي. ولابد أن أقولَ ما يلي عن ماثيو، إنه منذ البداية وضعنا في موقعنا الصحيح؛ منذ بداية علاقتنا وضَّحَ لنا أننا كلما كنا بصحبته يجب ألاّ نضع أيدينا في جيوبنا أبداً.

إذا اكتفيت بقول هذا عنه فإني أُعطي انطباعاً زائفاً عن الرجل. فهو لم يكن رجلاً ثرياً، ولا كان ما يُسمَّى بـ " مغفَّل ". كان إنساناً حسّاساً، على درجةٍ عاليةٍ من الذكاء، ولا يعرفُ أي شيء عن الكتب، أو الموسيقى، أو الرسم. لكنه يعرف الحياة - وكان شديد الكَلَف

بالطبيعة. وخاصة بالحيوانات. لقد قُلْتُ إنه لم يكن ثرياً. ولو شاء لأصبح مليونيراً فوراً. ولكنه لا يريد أن يغدو ثرياً. كان أحد أولئك الأميركيين النادرين القانعين بنصيبهم. وحين تكون بصحبته تشعر وكأنك مع أخٍ لك. وغالباً، في المساء، كنا نجلس في الرواق الأمامي ونتحدَّثُ مدة خمس ساعات أو ست بدون توقُّف. حديثاً رخيّاً. حديثاً مسترخياً ...

ولكن ماذا عن الكتابة ... لم تأتِ لسبب ما. كان إنهاءُ قصّة بسيطة، ورديئة، يستغرقُ مني عدة أسابيع. وكان للحرارةِ دخلٌ في هذا الأمر. (في الجنوب يعود سببُ كل شيء تقريباً إلى الحرارة، اللهم ما عدا الإعدام من دون محاكمة) فقبل أن أكملَ كتابةَ سطرين نُنقَع ملابسي بالعرق. أجلسُ عند النافذة وأُحدِّقُ إلى العُصبة المُسَلْسَلَة - كلهم من الزنوج - يعملون بكدٍّ بالمعول والمجرفة، ويغنُّون وهم يعملون، والعَرَق يجري أسفل ظهورهم جداول. وكلما كدُّوا في عملهم ازداد عجزي عن بذل أي مجهود. لقد تغلغلَ الغناء في دمي. ولكن ما أزعجني أكثر هي النظرات المرتسمة على وجوه الحرَّاس؛ إن مجرَّد إلقاء لمحةٍ على وجوه تلك الكلاب البشرية المتعطشة لسفك الدماء يُشيعُ القشعريرة في العمود الفقري.

على سبيل كَسْر الملل كنت ومونا نقوم أحياناً بنزهة وحدنا، فننتقي نقطة نائية، أي بقعة قديمة، يمكننا بلوغها سيراً على الأقدام. كنا نقوم بتلك النزهات فقط قتلاً للوقت. (في الجنوب يمرّ الوقت ثقيلاً كالرصاص). أحياناً كنا نستقلّ أول سيارة تقترب منا، غير آبهين بالجهة التي تبغيها. وهكذا لاحظنا ذات يوم أننا نتَّجه إلى كارولاينا الجنوبية،

وفجأة تذكَّرتُ اسم زميلٍ قديم من أيام المدرسة، وآخر ما وصلني عنه أنه كان يعلِّم الموسيقى في كلية صغيرة في كارولاينا الجنوبية. فقررتُ أن نقوم بزيارته. كانت الطريق طويلة، وكالمعتاد لم يكن في جيوبنا سنتٌ واحد. غير أني كنتُ واثقاً من أننا نستطيع أن نعتمد على تناول وجبة غنيّة مع صديقي القديم.

كانت قد مرَّت عشرون سنة كاملة منذ أن قابلتُ آخرَ مرة ذلك الصديق القديم الحميم. كان قد ترك المدرسة قبلنا لكي يدرس الموسيقى في ألمانيا، وأصبح عازف بيانو في الفرق الموسيقية. جال في كل أرجاء أوروبا، ثم عاد إلى أميركا ليَقْبَلَ مَنصِباً تافهاً في هذه البلدة الجنوبية الصغيرة. وكنا قد تبادلنا بضع بطاقات بريدية - ثم كان الصمت. بينما كنت أفكِّر هكذا أخذتُ أتساءل إن كان قد نسيني. إن عشرين عاماً فترة طويلة.

كنت في كل يوم، ونحن عائدون من المدرسة إلى البيت، أتوقَّفُ في منزله لأستمع إلى عزفه. كان يعزف كل المؤلفات التي سمعتها لاحقاً تُعزَف في الحفلات الموسيقية، وكان هو يعزفها (كما تبدَّى لفهمي الغضّ) جنباً إلى جنب مع قوّاد الفرق الموسيقية. كان يتمتَّع بالمقوِّمات اللازمة لجذب الانتباه. وكان على جبينه بروز ناتئ يبدو، عندما ينزل عليه الإلهام، أشبه بقرن صغير. كان أطول مني قامة بمقدار قدم، وله مظهر أجنبي ويتكلَّم كأوروبي من الطبقة الراقية تعلَّم اللغة الإنكليزية بلسان أمه. وزيادة على ذلك كان يرتدي بنطالاً مُخططاً ومعطفاً ناعماً أسود اللون. وقد عقدنا صداقتنا أثناء درس اللغة الألمانية. وكان قد اختار اللغة الألمانية، التي يتقنها، لكي لا يضطرّ إلى الدرس كثيراً.

وكانت المُدرِّسة، المرأة الشابة البهيجة واللعوب ذات الحسّ الفكاهي اللاذع، مفتونة به. إلا أنها كانت تتظاهر بأنها منزعجة منه. وكانت بين الحين والآخر تسدِّد له وكزةً خبيثة. وذات يوم، وقد أثار سخطها بالترجمة الممتازة التي قرأها جهاراً، سألته لماذا لم يَخْتَرْ تعلُّم لغة غيرها. ألا يرغب بتعلُّم شيء جديد؟ وما إلى ذلك. فأجابها، بعد أن رسمَ ابتسامةً خبيثة، بأنَّ لديه أعمالاً أهمّ يستغل بها وقته.

" أوه، هكذا إذن؟ مثل ماذا، هل لي أن أعرف؟ "

" لدي موسيقاي "

" هكذا! أنت موسيقي؟ أتعزف على البيانو - أم لعلَّك تؤلِّف الموسيقى؟ "

قال " كلاهما "

" وماذا ألَّفت حتى الآن؟ "

" سوناتات، وكونشرتوات، وسيمفونيات وأوبرات ... بالإضافة إلى عدد من الرباعيات "

وانفجر الصف في ضحكٍ هادر.

قالت، بعد أن خَبَت القهقهات، " إنك حتى أقرب إلى أن تكون عبقرياً مما كنت أظن "

قبل انتهاء الدرس سلَّمني ملاحظة مكتوبة خربشها بسرعة وطواها. وما كدتُ أنتهي من قراءتها حتى أُمِرتُ أن أتقدَّم. وسلَّمتُها إليها بكل براءة. قرأتْ الرسالة، فاحتَقَنَ احمرارُ وجهها، ورمتها إلى سلَّة المهملات. وكل ما كان تحتويه: Sie ist wie eine Blume (إنها أشبه بزهرة).

تذكَّرتُ أشياء أخرى لها علاقة بذلك "العبقري". كيف كان، مثلاً،

يحتقر كل شيء أميركي، وكيف أبْغَضَ أدبنا، وكيف كان يحاكي بروفيسوراً ساخراً، وكيف كان يَعَافُ كلَّ شكلٍ من أشكالِ التدريبِ الجسديّ. وفوق ذلك كله، أذكر الحريّة التي كان يتمتَّع بها في منزله والاحترام الذي كان والداه وأخوته يكنُّونه له. ولم يكن في المدرسة كلها مَن يُشبهه. كم ابتهجتُ حين استلمتُ رسالتي الأولى منه، المُرسَلَة من هايدلبرغ. كتب يقول، إنه يشعر وكأنه في بيته، بل وكأنه ألمانيٌّ أكثر من الألمان. ما الذي يُبقيني في أميركا؟ لمَ لا أنضمّ إليه وأُصبح شاعراً ألمانياً جيداً؟

كنتُ للتو أُفكِّرُ كم سيكون أمراً غريباً لو أنه يقول لي - " إنني لا أتذكَّرك " - حين أدركتُ أننا قد وَلجَنا البلدة، وسرعان ما علمنا أن صديقنا القديم قد رحل قبل وصولنا بيوم ليقوم بجولة في الشرق. يا له من حظ! لقد كنا جائعين، وقد اقترب المساء. تمسَّكتُ وأنا في حالةٍ من اليأس بعميدة الكلِّية، السيدة العجوز، الهشّة، النكدة، في محاولةٍ للتأثير عليها بالقول إننا قد قمنا بالتفافٍ هائل، في طريقنا إلى مكسيكو - وتعطَّلت سيارتنا على بُعد بعض الأميال - خصيصاً لكي أحيّي صديق طفولتي العزيز. وبفضل تمسُّكي، وإلحاحي، نجحتُ في إفهامها (تخاطريّاً) أننا بحاجة إلى شراب مُرطِّب. وأخيراً أمرتْ لنا، على مضض منها، بشاي وكعك مستدير.

مشينا إلى أطراف البلدة، لنمدِّد أرجلنا. هنا حصلنا على توصيلة إلى البيت بسيارة فورد متهدِّمة. قال السائق، المُحنَّك والمعتوه قليلاً والمُحطَّم أيضاً - في الجنوب الكلُّ يشربون الخمر كالأسماك - قال إنه سيمرُّ من خلال آشفيل. بدا أنه بلا أدنى شك لا يعرف إلى أين هو

ذاهب، باستثناء أنه متَّجه شمالاً. وكان الحديث الذي تبادلناه خلال طريق العودة الطويلة إلى آشفيل جنوناً مُطبقاً. فالمسكين لم يكن فقط قد اعتُقِلَ في الحرب. وفَقَدَ بوفاة زوجته أفضلَ صديقٍ له، وإنما وقعَتْ له منذ ذلك الحين حوادثُ عدَّة مؤسفة. وما زاد الطين بلَّه أنه كان متعصِّباً ومغفلاً، أحد أولئك المشاكسين الذين يصبحون حتى أشد مشاكسة حين يتصادف أن يكونوا من الجنوب. وأخذنا نقفزُ من موضوعٍ إلى آخر كالجنادب، وبدا جلياً أنَّ لا شيء يثيرُ اهتمامَهُ غير مصائبِهِ ومآسيه. وعند اقترابنا من آشفيل أصبح أكثر مشاكسة من ذي قبل. ووضَّحَ قائلاً إنه يكره كلياً ومن قلبه كل شيء فينا، بما في ذلك طريقة كلامنا. وحين أودَعَنَا أخيراً جانب الطريق في آشفيل كان يتلظَّى غضباً.

مددنا أيدينا لنشكُرَه للتوصيلةِ، ودون أن نهدَر الكثيرَ من الكلام، قلنا - " وداعاً! "

فصرخَ " وداعاً؟ ألن تدفعا لي الأجرة؟ "

ندفع؟ تجمَّدتُ من فرط الذهول. مَنْ منكم سمع بأحدٍ يدفع مقابل توصيلة؟

صرخَ " لا أظنكما توقَّعتما أن أقلّكما مجاناً؟ وماذا عن الوقود الذي اشتريت؟ "، وتدلّى من نافذة السيارة بحركةٍ مُهدِّدة.

كان لابد لي من أن أقدِّمَ توضيحاً مطوَّلاً وسريعاً للأمر. نظرَ إليَّ غير مُصدِّق، ثم هزَّ رأسه وغمغمَ: " هذا ما حسبته حين وقع نظري عليكما "، وكأنها فكرةٌ خطرت له متأخِّرة، ثم أردفَ " كم أودُّ لو أرمي بكما في السجن ". ثم حدثَ ما لم أتوقعه قط: لقد انفجرَ في نوبةٍ من البكاء. ملتُ عليه لأواسيه بكلمة، وقد ذاب قلبي ذوباناً. زعقَ " ابتعد عني! ابتعد! ". فتركناه جالساً متكوِّماً على المقعد.

قلت، وقد تزعزعت قليلاً " ما الذي تفهمينه من ذلك كله بحق المسيح؟ "

قالت مونا " كنتَ محظوظاً لأنه لم يُشهر سكيناً في وجهك ". لقد أكَّدتْ التجربةُ الاعتقاد الذي طالما حملته عن الجنوبيين - أنه لا يمكن التكهُّن بتصرفاتهم. ورأتْ أنه قد آن الأوان كي نفكِّر في العودة إلى الوطن.

غير أننا في اليوم التالي، ويا لدهشتنا، تلقَّينا برقيةً من كرونسكي يُبلغنا فيها أنه وزوجته قادمان إلينا، وسوف يقابلنا في مساء ذلك اليوم. ويا للحظ!

وهكذا كان، فقُبَيل العشاء إذا بهما يهبَّان علينا.

((تعالوا جميعاً من البريّة

وليمجَّد،

اسم الآب، والابن والروح القُدُس

إلى أبد الآبدين)).

أول سؤال طرحناه، وإن بدا مُخزياً قليلاً، كان عمَّا إذا كان معهما أيّ نقود زائدة.

" أهذا كل ما يقلقكما؟ ". كان مشرقاً مستبشراً. " هذا أمرٌ هيِّن. كم يلزمكما؟ أيكفيكما خمسون؟ "

وتعانقنا من شدة الفرح. قال " هي النقود إذن. لمَ لمْ تُبرق لي؟ ". وبعد ذلك مباشرةً قال " - " أحقاً تحب هذا المكان؟ إنه يخيفني قليلاً، فلأكُن صادقاً. إن هذا البلد ليس للزنوج - ولا لليهود. إنه يُشيعُ فيَّ القشعريرة ... ".

أثناء تناول الطعام أراد أن يعرف ما كتبتُ، وما إذا كنتُ قد بعثتُ أي شيء، وما إلى ذلك. قال إنه خمَّنَ أن الأمورَ لا تسيرُ سيراً حسناً معنا. " لهذا ترانا ظَهَرْنا لكما بشكلٍ مفاجئ نوعاً ما. لدي ستٌ وثلاثون ساعة أقضيها معكما ". قال هذا مع ابتسامةٍ مَفَادُها - لن تكون مضطراً إلى أن تتحمَّلني دقيقة واحدة بعد ذلك.

كانت مونا تؤيِّد كلياً العودة معهما، لكني لسببٍ خاطئ أصررتُ على أن نصمد قليلاً. وتجادلنا حول هذا بحِدَّة لكننا لم نصل إلى أي نتيجة.

قال كرونسكي " اللعنة على هذه القضية. وما دمنا هنا، ماذا لديكما لتُريانا قبل أن نغادر؟ "

أجبتُ بسرعة " بحيرة جوناليسكا ". لم أدرِ لماذا قلتُ هذا، لقد قفزت عفو الخاطر من فمي. لكني فجأةً أدركتُ السبب. لأني أردتُ أن أشاهد وينسفيل مرة أخرى.

" إنني كلما اقتربتُ من هذا المكان - وينسفيل - أشعرُ أني أرغبُ في الاستقرار فيه. لا أدري بماذا يتميَّز هذا المكان، لكنه يفتنني "

قال كرونسكي " أنت لن تستقرّ في الجنوب أبداً. أنت ابن نيويورك. اسمع، لمَ لا تكفّ عن التجوال في المناطق النائية وتسافر إلى الخارج؟ ألا تدري أن فرنسا هي المكان الأنسب بالنسبة إليك؟ "

كانت حماسة مونا للفكرة هي الأشدّ.

قالت " أنت الوحيد الذي يقول له كلاماً معقولاً "

قال كرونسكي " لو كنتُ في مكانك لاخترتُ روسيا. ولكن لا أتَّصفُ بشهوة الترحال. إنني أجدُ أنَّ لا بأس في نيويورك. أتصدِّق

هذا ؟". ثم أضاف، بأسلوبٍ مميَّز، " ذات مرة باشرتُ فعلاً العمل على تمويلكما للذهاب في رحلةٍ إلى أوروبا. أنا جادّ فيما أقول. فكَّرتُ في هذا مراتٍ عدة. إنكما تتعفَّنان هنا. أنتما لا تنتميان إلى هذا البلد، كلاكما. إنه شديد الصِغَر، شديد الحقارة ... إنه لعينٌ شديد الابتذال، هذا هو. أما أنت، يا مستر ميللر، فكفٌّ عن كتابة تلك الأشياء اللعينة للمجلات، أتسمعني؟ أنت لم تُخلَق لتكتب مثل ذلك النوع. أنت خُلِقتَ لتؤلِّف كتباً. أكتب كتاباً. لمَ لا تفعل؟ أنت قادر على ذلك ... "

في اليوم التالي ذهبنا إلى ونيسفيل وإلى بحيرة جوناليسكا. لم يترك أيٌ من الموقِّعين أدناه أدنى أثر عليهما.

قلتُ، في طريق عودتنا، " شيء غريب، أراك لا تتخيَّل رجلاً مثلي يُمضي البقية الباقية من حياته في مكانٍ كذاك - أقصد وينسفيل. لماذا؟ ما الغريب في ذلك؟ "

" أنت لا تنتمي إليه، هذا كل ما في الأمر "

" تقول لا أنتمي، هه؟ ". قلت لنفسي، ولكن ينتمي إلى أين، أإلى فرنسا؟ ربما. وربما لا. صعبُ ابتلاعُ أربعين مليون فرنسي دفعةً واحدةً. إن كان ولابد، فأنا أفضِّل أسبانيا. إنني مولعٌ فطرياً بالأسبان، وأيضاً بالروس.

وبشكلٍ ما أوصلني الحديث إلى التفكير مرة أخرى في القضية الاقتصادية. لطالما كانت بمثابةِ الكابوس. ووجدتُني في لحظةِ ضعفٍ أتساءلُ أما كان من الأفضل لنا لو عُدنا إلى نيويورك.

ولكن في اليوم التالي غيَّرتُ تفكيري. صحبنا كرونسكي وزوجته إلى أطراف البلدة وهناك وجدا بسرعة مَنْ يقلُّهما. ووقفنا هناك برهةً

نلوِّحُ لهما مودِّعين، ثم التفتُّ إلى مونا وغمغمتُ بسرعة: " إنسانٌ طيب، كرونسكي هذا "

وبسرعة البرق قالت " إنه أفضل صديق لديك "

بالخمسين التي أخذناها من كرونسكي سدَّدنا جزءاً من ديوننا، وقمنا بمحاولةٍ أخرى، متَّكلين في ذلك على أن كرونسكي سيرسلُ إلينا مبلغاً آخرَ صغيراً لدى عودته إلى نيويورك. ونجحتُ بقوةِ الإرادة وحدها في إنهاء قصةٍ أخرى. وحاولتُ أن أباشرَ تأليف أخرى، ولكن لا أَمل: لم تكن في رأسي فكرة واحدة. بَدَلَ ذلك كتبتُ رسائلَ إلى كل مَنْ أعرفهم، بمن فيهم ذلك الناشر الطيب الذي عَرَضَ عليَّ ذات مرة أن أعملَ مُساعداً له. وقمتُ أيضاً بزيارة أومارا، لكني ألفيته في مزاجٍ شديد القنوط حتى أنَّ قلبي لم يطاوعني على أن آتي حتى على ذِكْر النقود.

لم يعد هناك أي مجال للشك؛ إن الجنوبَ يصيبنا بالإحباط. وبذلَ صاحبُ الدارِ وزوجته كل ما في وسعهما لتوفير الراحة لنا، والسيد رولينز بدوره بذلَ أقصى جهده لبثّ الشجاعة فينا. ولم يأتِ أي منهم على ذكر كلمةٍ واحدةٍ عن النقود التي كنا ما نزال ندينُ بها لهما. أما ماثيوز، فكانت أسفاره إلى غرب فرجينيا في ازديادٍ وأصبحتْ أطول أمداً. ثم إننا ببساطة لم نتمكن من دفع نفسينا إلى الاقتراض منه.

كما قلت قبل قليل، كان لشدَّة الحرارة دخلٌ كبيرٌ في تدنّي معنوياتنا. هناك حرارة تُدفئ وتُحيي، وحرارة تُوهِنُ، وتستنزفُ القوى، والشجاعةَ، والرغبةَ في الحياة. أعتقد أن دماءنا كانت أكثف من المعتاد. ولم يعمل فتورُ السكَّان العام إلا على تفاقُم فتورنا. كان الأمر أشبه بالإغفاء داخل وسطٍ مُفرَّغ. لا أحد منهم سمع بكلمة فن: كانت

غائبةً عن مفردات أولئك الناس. وانتابني شعورٌ بأنَّ هنودَ الشيروكي قد أنتجوا من الفن أكثر مما يمكن لأولئك المساكين أن ينتجوه. كان هناك افتقادٌ لحضور الهندي صاحب الأرض. وكان حضور الزنجي طاغياً، حضوراً ثقيلاً، مُقلقاً. و " عقب القطران "، كما كان المواطن الأصلي يُسمَّى، لا يحبُ حتماً الزنوج. في الواقع، كان نكرة. وكما كنت أقول، كان المكان وسطاً مفرغاً، فراغاً حاراً، خانقاً، إذا استطعتَ أن تتصورَّ وجود مثل ذلك الوسط.

أحياناً كنتُ أشعر برغبةٍ مُلحَّة في أن أطرقَ الشوارعَ المُقفرة جيئة وذهاباً. وإن كان المشي في الطريق ليس بالأمر المُسلِّي. كنتُ أرى على كلا الجانبين مشاهدَ رائعة، لكني من الداخل لم أكن أشعر إلا باليأس والتوحُّد. وكل ما فعله الجَمالُ المحيطُ بي أنه خرَّبني. لا شك في أنَّ اللهَ قد كتبَ على الإنسان هنا أن يعيشَ حياةً مختلفةً. كان الهندي أشدّ قُرباً من الله ' أما الزنجي فكان يمكن أن يزدهرَ هنا لو أنَّ الأبيضَ أتاحَ له الفرصة. وكنتُ أتساءلَ، وما زلتُ، إنْ كان الهندي والزنجي سيتَّحدان في نهاية المطاف ويَطْرُدان الأبيض، ويعيدان بناء الجنة على أرض الحليب والعسل هذه. آه، ما علينا ...

((البَركة التالية التي أصابت مريم
كانت البَركَةُ الثانية
حين رأتْ أنَّ صغيرَها يسوع
يستطيعُ أن يقرأ الكتاب المقدَّس كله
يقرأ الكتاب المقدَّس كله)).

ثم وصلتنا بضعُ مساهمات - مصروف جيب، لا أكثر! كانت

نتيجة رسائل بعثتُ بها إلى " كلّ مَنْ هبّ ودبّ ". أما من كرونسكي، فلا شيء.

صَمَدْنا بضعة أسابيع أخرى، ثم أُحبِطنا كلياً، وقررنا ذات ليلة أن ننهضَ عندَ بزوغِ الفجرِ ونرحلَ خِلسَةً. ولم يكن في حوزتنا أكثر من حقيبتين صغيرتين نجرُّهما. وبعد ليلةٍ من الأرق نهضنا مع أول خيطٍ من الضوء، وحملنا حذاءً بيد وحقيبةً بالأُخرى، وتسلّلنا بهدوءٍ كفأرين. مشينا عدة أميال قبل أن تقترب منا سيارة. وعند الظهيرة وصلنا إلى وينستون - سالم. وهناك قرَّرتُ أن أبعثَ إلى والدي رسالةً يدفعُ مستلمها أُجرتها أطلبُ منه فيها بضعة دولارات. واقترحت عليه أن يبرقَ بالنقود إلى درهام، حيث قررنا أن نقضي الليلة.

قرابة المساء دخلنا درهام، فوجدت برقيةً في انتظاري. تقول: "آسف يا بني ولكني لا أحتكم على سنتٍ واحد في المصرف ". شعرت برغبةٍ في البكاء، ليس على بلوانا وإنما بسبب الذُلّ الذي يمكن أن أكون قد سبَّبته لأبي بإرسالي مثل تلك الرسالة إليه.

بفضل شخصٍ غريب حصلنا على شطيرةٍ وقهوة مع حلول الظهيرة. والآن بتنا جياعاً، أشد جوعاً من المعتاد، طبعاً، وذلك بسبب المسافة المستحيلة التي كان ما يزال علينا أن نقطعها ونحن على الطوى. ولم يكن أمامنا إلا أن ننزل إلى الشارع من جديد، وقد فعلنا - كالأناس الآليين.

بينما نحن واقفان في الشارع الرئيسي، ومن فرط التعب والإحباط بحيث لا نقوى على جرّ أرجلنا خطوة أخرى، بينما نحن نراقب بنظراتٍ فارغةٍ الشمسَ وهي تغرق كقرص بندورةٍ يتفجَّر، إذ فجأة بسيارة رائعة

تتوقَّفُ وصوتٌ مرحٌ ينادي – " أتريدان توصيلة؟ ". كانا زوجاً متوجهَين إلى بلدة صغيرةٍ على مبعدة ساعتين. الرجل كان من ألاباما، ويتكلَّم بلكنة رجلٍ من عمق الجنوب، والمرأة من آركنساس. كانا زوجاً مرحاً، يضجَّان بالحيوية وكأنهما لا يحملان أي همٍ من هموم العالم.

في الطريق تعطَّلت السيارة، وتوالت أحداثٌ صغيرةٌ. وبدل أن نقطع المسافة بساعتين استغرقت منا ما يقارب الخمس. وفي الوقت الذي بلغنا فيه غايتنا، وبفضل فترات التأخير، كنا قد أصبحنا أصدقاء حميمين. أخبرناهما عن حقيقتنا، الحقيقة كلها ولا شيء غير الحقيقة، ودخلنا مباشرةً إلى قلبيهما. ولن أنسى أبداً، أبداً، كيف اندفعتْ تلك المرأة الطيبة، فور ولوجنا المنزل، إلى الحمَّام، وملأت حوض الاستحمام بالمياه الساخنة، وأخرجت الصابون والمناشف، وناشدتنا أن نسترخي بينما هي تُعدُّ من حواضر المطبخ وجبةً سريعةً من اللحم المفروم والبيض المقلي مع فطائر المفن الساخنة، والقهوة، والمأكولات المحفوظة، والفاكهة والحلوى. وعندما أوينا إلى الفراش كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً. ونمنا نزولاً عند رغبتهما في سريرهما، ولم ندرك إلا بعد أن استيقظنا أن مضيفَينا الطيّبَين قد ارتجلا سريراً لنفسيهما بإخراج مقاعد السيارة.

بعد أن استيقظنا، عند الظهيرة تقريبا، تناولنا إفطاراً مُشبِعاً، وجال بي الرجلُ في أرجاء فناء منزله الخلفي الشاسع حيث كانت بقايا سيارات مُلقاة هنا وهناك. كان الحطام هو مصدر رزقه. ولا ريب في أنه من النوع السعيد الخالي من الهمّ، وزوجته تتفوَّق عليه في ذلك. وبدا أنَّ زيارتنا غير المتوقَّعة أمدَّتهما بسعادةٍ منتشية. لمَ لمْ نمكث معهما بضعة أيام، كما ناشدانا، لا أدري.

حين هَمَمْنا بالرحيل، انتحَتْ المرأةُ بمونا جانباً ودسَّتْ خلسةً بضعة أوراق مالية في يدها، في حين أقحمَ الزوجُ صندوقاً كرتونياً من السجائر تحت إبطي. وأصراً على نقلنا بسيارتهما خارج البلدة بمسافةٍ قصيرة حتى نستطيع أن نحصل على توصيلةٍ بسهولة أكبر. وحين افترقنا أخيراً كانت الدموع تنهمرُ من عيونهما.

كان الوضعُ يتحسَّنُ وعقدنا العزمَ على بلوغ واشنطن في ذلك اليوم. وكدنا ننجحُ، لولا أننا لم نكن نحصل إلا على توصيلات لمسافات قصيرة. وفي الوقت الذي وصلنا إلى ريتشموند كان الليلُ قد هبطَ. ومرة أخرى أصبحنا مفلسين. فالدولارات القليلة التي حصلنا عليها من المرأة تبخَّرتْ - وتبخَّرَ معها كيسُ النقود. فهل سرقَ أحدهم دولاراتنا القليلة البائسة؟ إذا كان الأمرُ كذلك، فهي نكتة لا تثير الضحك. مهما يكن، كانت معنوياتنا عالية، واقتربنا كثيراً من هدفنا، بحيث ما كان يمكن لخسارة ثروتنا الضئيلة أن تحزُننا.

مرةً أخرى حان وقت تناول الطعام ...

رحنا نُمعِنُ النظرَ بعيونٍ مُتفحِّصة المطاعمَ المختلفةَ وقَرَّ قرارنا أخيراً على اختيار مطعمٍ يوناني. سوف نأكل أولاً، ثم نشرحُ ورطتنا. تناولنا وجبةً دسمةً، مع كميات إضافيّة من الطعام والحلوى المُلحَقَة، ومن ثم أطلقنا برفقٍ الخبرَ لصاحبِ المطعم. لم تترك حكايتنا أي أثر عليه، أو بالأحرى، تركت الانطباعَ الخاطئ. كل ما استطاعَ أن يخرجَ به - لم يكن حلاً بأي حال! - هو أن يستدعي الشرطة. وخلال بضع دقائق ظهرَ رجل شرطة على متن دراجة نارية. وبعد الاستجواب المعذِّب المعتاد سألنا دون مقدمات عمَّا ننوي أن نفعله حول الموضوع. قلتُ إذا تكرَّمَ ودفعَ أجرة

البرقيّة فسوفَ نبعثُ برسالةٍ إلى نيويورك، وأنَّ النقودَ المتوقَّعةَ ستصلُ حتماً في الصباح الباكر. فوجدَ تلك الفكرة معقولة وتبرَّعَ بإنزالنا في فندق مجاور. ثم استدارَ نحو اليوناني وأبلغه أنه سيتولّى مسؤوليتنا. وهذا كله وجدته ينمُّ عن كياسةٍ مذهلة.

بعثتُ برسالةٍ إلى ألريك، لا تخلو من الهواجس. رافقنا رجل الشرطة إلى غرفتنا وقال إنه سيأتي ليرانا في صباح اليوم التالي. وعلى الرغم من أننا من نيويورك، إلا أنه أبدى اتجاهنا مراعاةً استثنائيّة. ولم يسعني إلا أن أتصوَّر أنه لو كان شرطياً من نيويورك لكانت ردَّة فعله مختلفة تماماً.

خلال الليل نهضتُ لأتأكَّد من أنَّ صاحبَ الفندق لم يُوصِد البابَ علينا. وكان مستحيلاً عليّ أن أُغمضَ عينيَّ. ومع انصرام الليل أخذَ يقيني يَقْوى بأننا لن نتلقّى جواباً على برقيّتنا.

كان من المستحيل علينا أن نتسلّل إلى الخارج ونُفْلتَ من مراقبةِ الموظَّف الليلي. نهضتُ، وذهبتُ إلى النافذة، ونظرتُ منها. كانت المسافة إلى الأرض تبلغ نحو ستة أقدام. واتخذت قراري: سوف تغادرُ من خلال النافذة مع انبلاج الفجر.

حالما طَلَعَتْ الشمسُ عُدنا من جديدٍ نقفُ على قارعةِ الطريقِ العامةِ على مبعدةِ ميلٍ أو اثنين من البلدة. كنا ما نزال نحتفظ بحقيبتينا. وبدل أن نتوجَّه مباشرةً إلى واشنطن اتجهنا إلى تاباهانوك - تجنُّباً لملاحقة رجل الشرطة. ويشاءُ حسن الحظ أن نحظى بتوصيلةٍ في الوقتِ المناسب. لا وجبة إفطار، طبعاً، ولا غداء. وفي الطريق أكلنا بضع تفاحات خضراء، سبَّبَت لنا مغصاً.

خارج تاباهانوك بمسافةٍ قصيرةٍ أقلّنا محامٍ متوجِّه إلى واشنطن. شابٌ فاتن، واسع الاطلاع، ممتع الحديث. وقد أوليناه آذاناً صاغية خلال الوقت الذي خُصِّصَ لنا. ولابد أنَّ هذا أعطى ثِمـارَه حين ودَّعناه في واشنطن، فقد أصرَّ على أن ينفحنا عشرين دولاراً. قال إنه " يُقرضنا " المبلغ. أما ما عناه ببساطة تامة كان أن ننفقُها وننسى أمرها. وبينما هو يعبثُ بالمكابح غمغمَ عبر كتفيه:

" أنا نفسي جرَّبتُ مرةً أن أكونَ كاتباً "

كنا من شِدَّة الابتهاج حتى أننا لم نتمكّن من الوصولِ إلى المنزلِ بسرعةٍ كافية. وعند نحو منتصَف الليل وصلنا المدينة الكبيرة. وأول ما قمنا به أننا اتصلنا هاتفياً بكرونسكي. هل في الإمكان أن يأوينا عنده سحابة الليل؟ طبعاً. انطلقنا إلى القطار النفقي وتوجهنا إلى حي برونكس حيث عاد يقطن.

بدا مشهد القطار النفقي لعيوننا كئيباً. كنا قد نسينا كم يبدو الناس شاحبين ومُرهَقين، ونسينا الرائحةَ العفنةَ التي تنفُثُها المدينة. والروتين القاتل. عُدنا إلى الفخ من جديد.

حسنٌ، على الأقلّ نحنُ نقفُ على أرضٍ مألوفة. قد يسعَدُ أحدهم برؤيانا بعد مرور بضعة أشهر. قد أسعى جاداً إلى البحث عن عمل.

المسرَّةُ السادسةُ تسير كما يلي - كم هي مناسبةٌ!

المسرَّةُ التاليةُ التي حظيَتْ بها مريم
كانت المسرَّة السادسة
في أن ترى صغيرها يسوع
على الصليب.

وهاهو كرونسكي قد وصل ...

" أخيراً، أخيراً! عُدتُما من جديد! لقد قلتُ لكما هذا. ولكن لا تظنا أنكما تستطيعان أن ترابطا على حسابنا. كلا يا سيدي! يمكنكما أن تمضيا الليل، لا أكثر. هل أكلتما؟ يجب أن أنهضَ باكراً. لا توجد مناشف نظيفة، لا تطلبا غيرها. ستضطران إلى النوم عاريين. ولا تتوقعا أن تتناولا طعامَ الإفطار في السرير. تصبحان على خير! ". قال هذا كله بنَفَسٍ واحد.

نظّفنا السريرين الخفيفين من الكتب الطبّية وبقايا الطعام ثم أعدنا الملاءات الرمادية، ولاحظنا وجودَ بُقَعٍ من الدماءِ عليها ولم نَقُلْ شيئاً، واندسسنا.

«تعالوا جميعاً من البريّة وتمجّدوا!»

١٥

مؤخَّراً قرأتُ في مجلّةٍ بوذيّةٍ شيئاً كما يلي: " لو أننا نحصل على ما نريد حين نعتقد أننا في حاجةٍ إليه لَمَا كان في الحياةِ أيٌّ مشكلة، أو غموض، أو معنى ". في صباح اليوم الذي قرأت هذا شعرت بشيء من التوعُّك، فقررتُ أن أمضي النهار في السرير. غير أني بعد أن قرأت هذه الكلمات انفجرت في نوبة من الضحك. وعلى الفور نهضت خارجاً من السرير، ورحت أشقشق مرحاً كعادتي.

لو أني صادفت هذه الحكمة خلال الفترة التي أكتب عنها فإني أشكُّ في أنها كانت ستترك فيَّ أي أثر. كان من المستحيل تماماً عليَّ أن أتَّخذ وجهة نظر مستقلّة. كان يومي مترعاً بالمشاكل، زاخراً بالتعقيدات، والغموض يلفُّ كل شيء، غموض يثير الغضب. الغموض الذي يحيطُ بالكون - كان مجرَّدَ ترفٍ عقلي. كان كامل مغزى الحياة مغلّفاً بإيجاد سبيل للبقاء عائماً. يبدو الأمرُ بسيطاً، لكننا كنا نعرف كيف نُعَقِّد حتى مثل هذه المشكلة البسيطة.

حين شعرتُ بالاشمئزاز من أسلوب حياتنا الاعتباطي صمَّمتُ على أن أقبل عملاً. كفاني بحثاً عن الذهب. كفاني تصيُّداً أقواس القزح. وعقدت العزم على أن أكسبَ ما يكفي الضرورات اليومية، وليكن ما

يكون. كنتُ أعلمُ أنَّ هذا سيكون صدمةً لمونا. إنَّ مجرَّدَ فكرةِ قبولِ عملٍ كان بالنسبة إليها تصرُّفاً لعيناً بغيضاً. والأدهى من ذلك أنه كان خيانة شائنة صِرفاً.

حين كشفتُ النقابَ عن عزمي، كان ردُّها مميزاً. " إنك تنسف كل ما فعلته! "

أجبتُ " لا يهمني. لابد أن أفعل ذلك "

قالت " إذن فسأعمل أنا أيضاً ". وفي ذلك اليوم بالذات عملتْ كنادلة في حانة " المرجل الحديدي ".

أبلغتني. قالت " سوف تندم ". وكانت بهذا تقصد أنَّ من الُمميت أن نتخلّى عن تضامننا.

كان لابد لي أن أعدَّها بأن أتناول وجبتين في اليوم في " المرجل الحديدي " طوال فترة بحثي عن عمل. ذهبت إلى هناك مرة واحد. لتناول وجبة غداء، لكنَّ مرآها وهي تخدُمُ الموائد أصابني بالإحباط ولم أقوَ على العودة إلى هناك.

كان من الُمستعبَد قبول وظيفة منتظمة في مكتب. فأولاً لم أكن أتقن أي عمل، وثانياً كنتُ أعلمُ أنّه لا طاقةَ لي أبداً على تحمُّل الروتين. كان لابد أن أعثرَ على شيءٍ شبيهٍ بالحريةِ والاستقلال. لم يكن هناك غير عمل واحد يمكنه أن يفي بالغرض – وهو مجال الكتب. وعلى الرغم من أنه لن يوفِّر لي راتباً منتظماً إلا أنَّ وقتي سيكون مِلكي، وهذه الناحية تعني الكثير لي. أما الاستيقاظ في صباح كل يوم في وقتٍ مُحدَّد وضغط زرّ المنبِّه فكانَ أمراً غير وارد بأي حال.

لم يكن في استطاعتي أن أعود إلى توزيع الموسوعة البريطانيّة –

لأنَّ سجلِّي في هذا المجال تكتنفه شُبُهات كثيرة. كان لابد لي أن أجدَ موسوعةً أخرى أتعامل معها. وسرعان ما اكتشفت الموسوعة ذات الورق المحلول. لم يجد مدير المبيعات، الذي تقدَّمت إليه بطلبي العمل، كبير مشقَّة في إقناعي بأنَّها أفضلُ موسوعةٍ في السوق. وبدا أنه يعتقد أني أتحلَّى بإمكانات ممتازة. وكتعبيرٍ عن حظوتي عنده أعطاني بعضاً من الدلائل الشخصية لأبدأ بها. وأكَّدَ لي أَنها " مهمة سهلة ". غادرتُ المكتبَ حاملاً حقيبة صغيرة ملآى بالصفحات المنسوخة، وبأنواع متنوعة من التغليف، والمتعلَّقات الشخصية المعتادة التي يحملها بائع الكتب الجوَّال معه. كان مطلوباً مني أن أتوجَّه إلى المنزل وأدرس هذا الخراء كله ومن ثم أنطلقُ إلى الخارج. وكان ينتظر مني ألاّ أُجيب بـ " لا ". Soit (فليكن).

في اليوم الأول بعتُ مجموعتين، غلَّتا عليَّ عمولةً كبيرةً بما أني نجحتُ في بيع زبائني من المجموعة المغلَّفَة التغليف الأغلى ثمناً. وكان أحد ضحاياي يهودي، إنسانٌ ساحر، يراعي المشاعر، لم يكتفِ بالإصرار على أن أبقى حتى أتناول طعام العشاء مع عائلته وإنما أعطاني أسماء العديد من أصدقائه الأوفياء الذين كان واثقاً من أني أستطيع أن أبيعهم بضاعتي. وفي اليوم التالي بعتُ ثلاث مجموعات، والفضل في ذلك إلى هذا اليهودي الطيب. وشعرَ مديرُ المبيعات سِراً بالنشوةِ إلا أنه تظاهرَ بأني أتمتَّعُ بحظِ المبتدئين المعتاد. وحذَّرني من أَن أَدَعَ هذا النجاح السريع يلعب برأسي.

" لا تقنع ببيع اثنتين أو ثلاثاً في اليوم. حاول أن تبيع خمساً أو ستاً. لدينا رجالٌ يبيعون حتى اثنتا عشرة مجموعة في اليوم ".

قلتُ في نفسي " أنت مملوء بالخراء. إن مَنْ يبيع اثنتا عشرة مجموعة من الموسوعات في اليوم لا يبيعُ موسوعات، بل يبيعُ جسر بروكلن "

ومع ذلك تابعتُ عملي بضميرٍ حيّ. مشيتُ على كل دربٍ بورع، على الرغم من أنه كان يعني السفر إلى بلدانٍ غير مألوفة مثل باسيك، هوبوكن، كارناسي وماسبث. وقد بعت ثلاثاً من تلك الدلائل "الشخصية" التي أعطانيها مدير المبيعات. لقد رأى، ذاك الأبله، أنه كان ينبغي عليَّ أن أبيع السبعة جميعاً. وكان في كل مرة نتقابل يزداد وداً، واسترضاءً. وذات يوم أبلغني أنَّ الناشرين ينوون أن يُقيموا مَعْرضاً كبيراً في " الغاردن ". ولو أني واصلتُ العملَ بنشاطٍ لأعدّ العدَّة لجعلي أعمل معه في الكشك الذي تؤجِّره المؤسسة. وقد ألمحَ إلى أنَّه هناك، في الغاردن، تتساقطُ عليك المبيعات مثل ثِمار الخوخ الناضجة. سوف نجني ربحاً عظيماً. وأضاف أنه كان يراقبني، وأنه يحبّ طريقة كلامي. وأردف " ابقَ معي، وقد نعطيك جزءاً كبيراً من منطقتنا لتتصرَّف بها - المنطقة الغربية، ربما. سوف نخصِّص لك سيارة وفريقاً من العمال تحت إمرتك. ما رأيك في هذا ؟ "

قلت " رائع! "، على الرغم منى أنَّ مجرَّد التفكير في ذلك أرعبني. فلم أكُن أريدُ أن أصِلَ إلى ذاك المستوى من النجاح. كنت قانعاً تماماً ببيع واحدةٍ في اليوم - إن استطعت.

إنَّ كل مَنْ يحاولُ أن يمارس مهنةَ بيعِ الكُتُب سُرعان ما يتعلَّم أن ثمة نوعاً من البشر يتغلَّب عليه ويُحبطه. فهو يُبدي من المطواعيَّة والاستسلام ما يجعلك تشعر بالرثاء لأجله حين ترمي له الصنَّارة للمرة الأولى، تشعر بأنك واثقٌ من أنه سوف يشتري ليس فقط مجموعة لنفسه

وإنما سيجلب لك طلبات موقعة من أصدقائه في غضون يوم أو يومين. ويوافقك في كل ما تقول، ويتفوّق عليك. ويتعجَّب كيف أنَّ كلَّ شخصٍ ذكي في البلد لم يمتلك المجموعة بعد. ويطرح عليك عدداً لا يحصى من الأسئلة. والأجوبة دائماً تزيد من لظى حماسته. وحين يصلُ الأمر إلى مرحلة اللمسة الأخيرة – التغليف – فإنه يتلمَّسها بأصابعه بحبٍ، ويتوقَّف بتروٍ يثيرُ الغضبَ عند المزايا النسبية لكلّ منها. بل إنه يريك المشكاة في الجدار التي يعتقد أنَّ المجموعةَ سوف تظهرُ فيها بأفضلِ مزاياها. وتكاد مراراً أن تعطيه القلمَ لكي يوقِّع على الخط المنقَّط. أحياناً تُحرِّض تلك العصافير إلى درجةٍ لا يعودُ معها مَنَاص من أن تتَّصل بأحد الجيران وتجعله يطَّلع على الكتب أيضاً. وإذا أتاك صديق، كما يحدث عادة، تكرَّر البرنامج كله. وينصرمُ النهارُ وتجد أنك ما زلت تمشي، ما زلت تشرح، ما زلت تثيرُ الدهشةَ من روائعِ هذه المجموعةِ الجميلةِ والسهلةِ الاستخدام. وأخيراً تحاولُ يائساً أن تتوقف. ثم تحصل على ما يلي: " أوه، ولكني لا أستطيع أن أشتري المجموعة الآن – حالياً أنا عاطل عن العمل. إنني حتماً أحبُّ أن أمتلك مجموعة، مع ذلك ... ". حتى عندئذ تشعر أنك متأكدٌ تماماً من أنَّ الرجلَ صادقٌ حتى أنك تَعرِضُ عليه مالاً ليدفعَ القسط الأول. " يمكنك أن تدفع لي لاحقاً، حين تحصل على عمل. فقط وقِّع هنا! ". ولكن حتى حينئذ سوف ينجحُ النمطُ الذي أتحدَّثُ عنه في التملُّص. ويفيده في ذلك أيُ عذرٍ سَافِرْ. ولا تدرك إلا عند هذه النقطة أنه ليسَ لديه أدنى نيَّة في أن يشتري المجموعة، وأنه كان يُزجي الوقت. بل إنه قد يقولُ لك برقَّةٍ، وأنت تهمُّ بالرحيل، أنه لم يستمتع دَهْره كما استمتعَ بسماعِ أسلوبكِ في الحديث...

يُردِّدُ الفرنسيون تعبيراً يُلخِّصُ الأمرَ بدقَّة: " il n'est pas serieus" (ليس الأمرَ جدِّياً)

إنَّ تجارةَ الكتبِ عملٌ عظيم. إذا لم يَفِدْكَ في شيء، فإنه يعلِّمك شيئاً حول الطبيعة الإنسانية. يكاد يستحق الوقت المهدور لأجله، وتورُّم الأقدام، ونوبات الصداع. إلا أنَّ أحدَ المقوِّمات المُدهشَة للُّعبة - أنك ما أنْ تنخرط فيها حتى تستولي على تفكيرك. تتكلَّم عن الموسوعات - إن كان هذا مجالك - من الصباح الباكر وحتى منتصف الليل؛ تتكلَّم عنها كلما أُتيحَتْ لك الفرصة، وحين لا تجد مَنْ تتحدث معه فإنك تكلِّم نفسك. كم من مرَّة بعتُ نفسي مجموعةً في لحظةٍ من اللاوعي. يبدو هذا منافياً للعقل، إذا لم تكن تعمل في هذا المجال، لكنك في الواقع تتوصَّل إلى أن تؤمن بأنَّ كلّ مَنْ على أرضِ الله يجب أن يمتلكَ الكتابَ النفيسَ الذي كُلِّفْتُ بتوزيعه. وتقول لنفسك، الكلُّ في حاجةٍ إلى المزيدِ من المعرفة. تنظر إلى الناس وفي رأسك فكرةٌ واحدة ووحيدة - هل هو زبون مُحتَمَل أم لا؟ ولا يهمُّك إن كان الشخصُ سيستفيدُ من المجموعة اللعينة: إنك تفكِّرُ فقط في السبيل لإقناعه بأن ما تعرضه عليه sine qua non (شيء لابد منه). أما بالنسبة إلى بقية السلع - أحذية، جوارب، قمصان، الخ - فأيُّ متعةٍ في بيعِ إنسانٍ شيئاً عليه أن يقتنيه؟ كلا يا سيدي، أنتَ تريدُ من ضحيتك أن تحظى بفرصةٍ مؤكَّدة. سوف تفضِّل أن يُديرَ لكَ ظهره - عندئذ سوف تتمكَّن حقاً من أن تعزف أغنيتك وترقص بحيوية ونشاط. إنَّ البائعَ المتجول الجيد لا يستمتع بأخذ نقوده مقابل " مهمة سهلة ". أنت تريد أن تكسب نقوده. وهو يريد أن يُضلِّل نفسه بأنه، إذا ما اضطرَّ حقاً، يستطيع أن يبيع كُتُباً لإنسانٍ أُمّيّ - أو ضرير!

زيادةً على ذلك، إنه لعبةٌ تضعُ في طريقكَ شخصيات مثيرة للاهتمام، بعضها يتمتَّعُ بذوقٍ شبيه بذوقك، والبعض الآخر أجنبي أكثر من الصيني الوثني، والبعضُ يعترفُ بأنه لم يَقْتَنِ في حياته أي كتاب، وما إلى ذلك. فلا يغمضُ لي جفن. وغالباً ما نظلُّ يقظين طوال الليل نتحدَّثُ عن تلك الشخصيات " المضحكة " حقاً التي قابلتها.

لقد لاحظتُ أن البائعَ الجوّال العادي لديه من الحسّ السليم ما يجعله يبتعد بسرعة حالما يدرك أنَّ ثمةَ احتمالاً ضئيلاً في أن يقومَ بالبيع. أنا لا أفعل ذلك. أنا كان لدي مائة سبب وسبب مختلف للتشبُّث بأي إنسان. كان أي مخبول يستطيع أن يشدَّني إليه حتى ساعةٍ متأخِّرةٍ من فترة الصباح، وهو يروي لي تاريخ حياته، ويغزل أمامي أحلامه المجنونة، ويشرح مشاريعَه واختراعاته المخبولة. والعديد من أولئك المجانين كانوا يذكِّرونني بقوة بالفتية السُعاة المتعضِّين الكونيين؛ الذين، كما اكتشفتُ، كانوا في الحقيقة يمارسون هذا العمل. كنا على تفاهمٍ تام. وكثيراً، لدى افتراقنا، كانوا يقدِّمون لي هدايا صغيرة، توافه سخيفة كنت عادة أرميها قبل أن أصل إلى البيت.

طبعاً كانت الطلبات التي أحضِرُها معي تقلُّ باطِّراد. وأُصيبَ مدير المبيعات بالحيرة وعجزَ عن الفهم؛ فبالنسبة إليه كنتُ أتمتَّعُ بكافة المؤهّلات التي تجعل مني بائعاً جوالاً من الطراز الأول. بل لقد عَرَضَ عليَّ أن يأخذَ يومَ إجازةٍ لكي يصحبني في جولاتي، ويُثبت مدى بساطة الحصول على طلبات شراء. لكني كنتُ دائماً أنجحُ في تفادي الأمر. وكنتُ بين حين وآخر أتصيَّد بروفيسوراً، أو كاهناً أو محامياً بارزاً. وكانت تلك الخبطات تُفرِحُهُ حتى يتورَّدُ لونه. ويقولُ " هؤلاء هم الزبائن الذين نفتِّشُ عنهم. هات منهم المزيد! "

اشتكيتُ من أنَّه نادراً ما يمدَّني بدليلٍ محترم. كان في أغلب الأحيان يدلّني إلى أطفال أو بلهاء لأُعرِّجَ عليهم. فيتظاهرُ بأنه لا يهمّ مستوى ذكاء الزبون المُحتمَل أو مركزه - المهمّ، الأمر الوحيد المهمّ، أن تلجَ المنزل وتلتصق . فإذا كان طفلاً مَنْ وَقَعَ في مصيدةِ الإعلان، فعليَّ أن أتحدَّث مع والديه، وأقنعهما بأنه لمصلحةِ الطفل. وإذا كان معتوهاً مَنْ كتب، يطلب المعلومات، فهذا أفضل - إنَ البلهاء لا يُبدون مقاومة، وما إلى ذلك. كان عند ذلك الرجل جوابٌ على كل شيء. وكانت فكرته عن البائع المتجوِّل الجيد أنه مَنْ يستطيع أن يبيع الكتب حتى للجماد. وبدأت أمقته من أعماق قلبي.

على أي حال، كان العملُ اللعينُ برُمَّته ليس أكثر من عذرٍ للمحافظة على حيويتي. كان وسيلةً لدعم ادِّعائي أني أكافحُ من أجل كسب لُقمة عيشي. ولا أدري لماذا أزعجتُ نفسي بذاك الادِّعاء، اللهم إلا إذا كان ما حثَّني على ذلك شعورٌ بالذنب. وكانت مونا تكسب ما يكفينا نحن الاثنين ويفيضُ. إلى جانب ذلك كانت دائماً تجلبُ معها عطايا، إما على شكل نقود أو أغراضٍ يمكن تحويلها إلى نقود. وعدنا إلى اللعبة القديمة نفسها. لم يكن الناس يقاومون رغبتهم في دفع الأشياء إليها. كانوا جميعاً، طبعاً، " معجبين ". وكانت تفضِّل أن تُسمِّيهم " معجبين " على أن تُسمِّيهم " عشاقاً ". وكثيراً ما تساءلتُ ما الذي يعجبهم فيها، خاصةً وأنها لم تكن تواجههم إلا بالصدّ. وحين تُنصتُ إليها وهي تسترسل في الحديث عن أولئك " المغفَّلين " و"الحمقى" تظن أنها لم تبتسم مرةً في وجوههم.

وكم من ليلة حرمتني من النوم لتحكي لي عن هذا الحشد الجديد

من المتسكِّعين. وهم مجموعةٌ غريبةُ الأطوار، بالمناسبة. دائماً تجد بينهم مليونيراً أو اثنين، دائماً هناك ملاكم محترف أو مصارع، أو معتوه، يكون عادةً مريباً من الناحية الجنسية. ولم أتوصَّل قط إلى فهم ما كان أولئك الشاذين يرونه فيها، أو يأملون في الحصول عليه منها. وكان متوقَّعاً أن تزدادَ أعدادُهُم مع مرورِ الوقت. حالياً هناك كلود. (على الرغم من أنها، والحق يُقال، لم تأتِ قط على ذِكرِ كلود كمُعجَب) على أي حال، هو كلود. كلود ماذا؟ فقط كلود. وعندما استفسرت عمَّا يفعله كلود ليكسب لقمة عيشه أُصيبَت بما يُشبه الهستريا. إنه مجرد صبي! لا يتجاوز عمر السادسة عشرة ولا بيوم واحد. وطبعاً هو يبدو أكبر سناً من ذلك بكثير. يجب أن أقابله ذات يوم. كانت واثقةً من أني سأُعبده.

حاولتُ أن أُبدي لا مبالاةً، لكنها لم تولني انتباهاً، وأصرَّتْ، كلود فريد من نوعه. لقد تجوَّلَ في العالم كله - خالي الوفاض. وتابعتْ بربرتها " يجب أن تستمع إليه وهو يتحدَّث. سوف تتنورً. إنه أكثر حِكمَة من أغلب مَنْ بلغوا الأربعين. يكاد يبلغ مرتبة المسيح ... "

ولم أستطع كبح نفسي، وانفجرتُ بالضحك. اضطررتُ إلى أن أضحك في وجهها.

" لا بأس، اضحك! ولكن انتظر حتى تقابله، سوف تُغنِّي نغمةً مختلفة "

وقد علمتُ أنها تلقَّت من كلود أقراطَ نافايو الجميلة، وسواراً وحلياً أخرى. وكان كلود قد أمضى فصلَ صيفٍ كاملاً مع هنود النافايو. بل لقد تعلَّمَ لغتهم. وقالت إنه كان يتمنَّى لو يعيشُ حياته الباقية مع هنود النافايو.

أردتُ أن أعرفَ منشأ هذا الكلود الأصلي. هي نفسها لم تكن متأكدة من معرفتها لذلك. لعلَّه من البرونكس. (وقد جعله ذلك يبدو أشدّ فرادة).

قلتُ " إذن فهو يهودي؟ "

مرة أخرى لم تكن متأكدة. إنَّ مظهَرَه لا يكشف عن أي شيء عن شخصيته. مظهره لا ينمُّ عن أي شيء. (رأيتُ أنَّ تلكَ طريقةٌ غريبةٌ لوصفه) قد يكون هندياً - أو من عرقٍ آريّ صِرف. كان أشبه بالحرباء - الأمر يتوقَّفُ على متى وأين تقابله، والمزاج الذي يكون فيه، والأشخاص المُحيطين به، وما إلى ذلك.

قلت، وأنا أتأرجحُ، " لعلَّه ولدَ في روسيا "

ودُهشتُ حين قالت " إنه يتكلَّم الروسيّة بطلاقة، إنْ كان لهذا أي معنى. إلا أنَّه يتكلم أيضاً لغات أخرى - كالعربية، والتركية، والأرمنية، والألمانيّة، والبرتغالية، والهنغارية ... "

صرختُ " كله إلا الهنغارية! الروسيّة، أوكيه. الأرمنية، أوكيه. والتركية، أيضاً، وإنْ كان من الصَعْب قليلاً ابتلاعُ هذا. ولكن حين تقولين الهنغارية، إلى هنا وكفى. لا والله، يجب أن أسمعه يتكلَّم الهنغارية قبل أن أُصدِّق هذه "

قالت " حسنٌ، تعالَ ذات ليلة وسوفَ ترى بنفسك. على أي حال، كيف يمكنك أن تعرف - وأنتَ لا تُحسن الهنغارية "

" صح! لكني أعرفُ ما يلي - إنَّ كلّ مَنْ يُحسِن الهنغارية هو ساحر. إنها اللغةُ الأصعبُ في العالم - إلا بالنسبة إلى الهنغاريين طبعاً، ربما كان صاحبك كلود فتى ذكياً، ولكن لا تقولي لي إنه يتكلَّم الهنغارية! كلا، لن أبتلع هذه "

كلماتي لم تترك أيَّ أثرٍ عليها، طبعاً لأنَّ ما قالَتْه بعد ذلك مباشرةً كان - " نسيتُ أن أخبركَ أنه يُحسِن أيضاً السنسكريتية والعبرية، وال... "

هتفتُ " اسمعي، إنه ليس فقط يشبه المسيح، إنه المسيح ذاته. لا أحد غير المسيح الرب يستطيع أن يبرَع في هذه اللغات كلها وهو في مثل سنه. أرى أنَّ من قبيل الأعجوبة أنه لم يخترع لغةً عالمية. سوف أذهب إلى هناك في القريب العاجل، فلا تغضبي. أريدُ أن أرى هذه الظاهرة الاستثنائية بأمّ عيني. أريدُ منه أن يتكلّم ست لغات على الفور. لن يُرضيني إلا هذا "

نظرتْ إليَّ وكأنها تقول - " أيها الشاكّ المسكين! ".

أخيراً لَسَعَني وأغاظَني ثباتُ ابتسامتها. قلت " لماذا تبتسمين هكذا؟ "

تردَّدتُ مدةَ دقيقةٍ كاملة. " لأنني، يا فال ... لأنني كنتُ أتساءلُ عمَّا يمكن أن تقوله إذا ما أخبرتُكَ أنه يتمتَّع أيضاً بالقدرة على الشفاء "

لسببٍ ما غريب بدا لي هذا مقبولاً ومنسجماً مع شخصيته أكثر من أي شيء أخبرتني به عنه. ولكن كان لابد لي من أن أُحافظَ على موقفي الشاكّ والساخر.

قلت " وما أدراك؟ أرأيته يُشفي أحداً؟ "

رفضتْ أن تجيب عن السؤال مباشرة. لكنها أصرَّت على أنها تستطيع أن تضمن صحَّة تقريرها.

قلت لها ساخراً " ماذا شفى - أحد المصابين بالصداع؟ "

مرة أخرى أخذت وقتها في الإجابة. ثم، وبرصانة، بل برصانة

شديدة، أجابت: " لقد شفى من مرض السرطان، إن كان هذا يعني أي شيء "

أثار هذا حنقي، فزعقتُ " إكراماً للمسيح، كفّي عن هذا الكلام! أأنتِ بلهاء سهلة الانخداع؟ لم يبقَ غيرَ أن تقولي إنه أنهَضَ ميتاً من قبره "

مرَّ قبسٌ من ابتسامة عبر قسماتها. وبصوتٍ خالٍ من أي رصانة، لكنه جادّ، قالت: " حسنٌ، يا فال، صدِّق أو لا تصدِّق. لقد فعلَ هذا أيضاً. بين هنود النافايو. لهذا هم يحبونه كثيراً ... "

" أوكيه، يا فتاتي، يكفي هذا المساء. دعينا نغيِّر الموضوع. إذا أخبرتني المزيد فسأعتقد أنَّ فيكِ برغياً محلولاً "

كلماتها التالية أصابتني بدهشة غامرة. كدتُ أقفز من جلدي.

" يقول كلود إنَّ لديه موعداً معك. إنه يعرف كل شيء عنك ... يعرفك قلباً وقالباً، في الواقع. إياكَ أن تعتقد أني أنا التي أخبرتُهُ، لأني لم أفعل! أتريد أن تسمع المزيد؟ "، وتابعتْ مباشرةً، " ينتظركَ مستقبلٌ باهر: ذات يوم ستغدو شخصيةً مشهورة. ووفقاً لكلود، أنت الآن تلعب لعبة الغمِّيضة. أنت أعمى روحيّاً، وأيضاً أخرس وأصمّ ... "

" كلود قال هذا؟ ". هنا أصبحتُ رصيناً تماماً. " حسن، قولي له سوف أوافيه في الموعد. إذا مساءً، ما رأيكِ؟ ولكن ليس في مربَعكِ اللعين ذاك! "

غمرها الفرحُ بسبب استسلامي التامّ. قالت " دعْ الأمرَ لي؛ سأختارُ بقعةً هادئةً تكونان أنتما الاثنان وحدكما فيها "

طبعاً لم أستطع أن أقاوم الاستفسار عن مقدار ما حكى لها عني.

وأخذت تردِّد " ستعرفُ هذا كله غداً. لا أريد أن أُفسِد الأمر عليك "

استغرقت في النوم بصعوبة. وظلّت صورةُ كلود تظهرُ لي مراراً، كالرؤيا. وفي كل مرة من زاوية مختلفة. على الرغم من أن شكله ظلّ دائماً فتيّاً، وبدا صوته أشبه بصوتٍ سحيقٍ في القِدَم. وكنتُ أفهمُ كل لغةٍ يتكلّمها. والغريب في الأمر أني لم أُدهَش البتّة عندما وجدتُني أتكلّم الهنغاريّة. ولا أنا دُهِشتُ حين وجدتُني أمتطي جواداً، دون سرج وأنا حافي القدمين. وكثيراً ما كنا نجري مناقشاتنا في بلادٍ أجنبيّة، في أماكنَ نائيةٍ مثل اليهوديّة، والصحراء النوبيّة، وتركستان، وسومطرة، وباتاغونيا. لم نلجأ إلى وسائل النقل؛ كنا دائماً نصلُ إلى حيث تطير أفكارنا، دون بذل جهد، دون استخدام الإرادة. وإذا استثنيتُ أحلاماً جنسية معيَّنة أعتقد أني لم أحصل على حُلمٍ ممتع مثله. كان أكثر من ممتع - كان مُثقَّفاً بأرقى معنى. كان ذاك الكلود أشبه بـ alter ego (أنا أخرى)، وإنْ بدا أحياناً شبيهاً بشكلٍ مذهل بالمسيح. لقد جلبَ لي سَكينةً غامرة، وأثارَ لي طريقي، وفوق ذلك - مَنَحني مبرِّراً لوجودي. أخيراً أصبحتُ هاماً في نظر نفسي ولا حاجةَ بي إلى أن أُثبتَ ذلك لأي إنسان. كنت آمناً في العالم ولكن ليس ضحية. كنت أُساهمُ بأسلوبٍ جديدٍ بشكلٍ كامل، كما لا يستطيع أن يفعل إلا رجل متحرِّرٌ من الصراع. والغريب، أنَّ العالمَ أضحى أصغرَ حجماً مما ظننتُ أنه يمكن أن يُصبح. أصبح أكثر حميمية، ومفهوماً أكثر. لم يعد شيئاً أنا منقورٌ عليه؛ كان أشبه بثمرةٍ ناضجةٍ وأنا في داخلها، تغذيني، ولا ينضَبُ معينُها. كنتُ متَّحِداً معه، متَّحِداً مع كل شيء - هذا هو الوصف الوحيد للأمر.

يشاءُ الحظُّ أن أُخفقَ في مقابلةِ كلود في الليلة التالية. فقد تصادفَ أن كنتُ في نيوارك أو ما يشبهه عندما حلَّ عليَّ المساء، وأنا أتحدَّث مع زبونٍ مُحتَمَل وجدتُهُ فاتناً. كان رجلاً أسودَ يشقُّ طريقه في مدرسةٍ للحقوق ليتخرَّج اختصاصاً في تحميلِ السُفُن وتفريغها. كان عاطلاً عن العمل منذ بضعة أسابيع وكان في مزاجٍ مُتفتِّح للإنصات إليَّ أسردُ مطولاً عن مزايا الموسوعة ذات الورق المحلول. وحين أصبح على شفا أن يوقِّع بأحرفِ اسمهِ شبه المُرتعشة طلباً لمجموعة، مدَّت أمه العجوز رأسها من ممرِّ البابِ ونَاشدتني أن أبقى وأشاركَهُم وجبةَ العشاء. واعتذرتْ لتطفُّلها علينا. مُبرِّرةً ذلك بأنهم ذاهبون لحضور اجتماع بعد تناول طعام العشاء وأنه كان لابد أن تُذكِّر ابنها بأن يُبدِّل ملابسه. فحطَّ هذا الأخير القلمَ الذي كان يحمله وهرعَ إلى الحمَّام.

أثناء انتظارِ عودتهِ وَقَعَ بصري على إعلانٍ مفادُهُ أنَّ القائدَ الزنجي العظيم، و. إ برغارت دوبوا، سيُلقي كلمة في دار البلدية في تلك الأمسية بالذات. ولم أُطِقْ صَبْراً على عودة الفتى. ورحتُ أزرعُ الغرفة جيئة وذهاباً وكأنَّ بي حُمَّى. في الواقع كنتُ أعرفُ دوبوا. فقبل سنين، حين كنتُ متحمِّساً لحضور المحاضرات، سمعتُ دوبوا يُلقي خطاباً حوله الإرث العظيم للعِرق الأسود. كان ذلك في قاعةٍ صغيرةٍ في الحيِّ الشرقي الأدنى؛ والغريب في الأمر أنَّ الجمهورَ كان في غالبيته من اليهود. ولم أنسَ الرجلَ قط. كان وسيماً، قَسَمَاته آريّة صِرفاً، وذا قامة مهيبة، وعندئذ كانت له لحية صغيرة مُشذَّبة، إذا كانت الذاكرة ما تزال تسعفني. وقد علمتُ لاحقاً أنه ولِدَ في نيو أتغلند؛ أجداده من سلالة مختلطة، فرنسية، وهولندية وأعراق أخرى. وأشدّ ما أتذكَّره عنه بيانه

الخالي من العيوب ومعرفته الواسعة. كان له أسلوب صريح، متحدٍّ، في الكلام جذبني إليه على الفور. وفاجأني للتو بكونه مخلوقاً متفوقاً. قلت في نفسي، لولاه مَنْ كان سيقبل أن ينشرَ أول مقالةٍ مطبوعةٍ تظهر لي؟

على مائدة العشاء قابلتُ باقي أفراد العائلة. الأخت، شابة في نحو الخامسة والعشرين، ذات جمال أخَّاذ. كانت قد قررت بدورها أن تحضر المحاضرة. وهكذا قرَّ قراري - يمكن لكلود أن ينتظر. وحين أعْلَمْتُهُم أني سَبَقَ وسمعتُ دوبوا من قبل وأني أكنُّ له إعجاباً لا يعرفُ حدوداً، أصرّوا على أن أصْحَبْهم وأكون ضيفهم. وفجأةً تذكَّر الشابُ أنه لم يوقِّع باسمه على الخط المُنقَّط؛ فناشدني أنْ أدعَه يفعل ذلك قبل أن ينسى مرة ثانية. شعرتُ بالحرج، وكأني خدعته.

قلتُ " فكِّر في الأمر أولاً. إذا أردتَ حقاً الكتب تستطيع أن تُرسل لي الورقة بالبريد لاحقاً "

هتفَتْ المرأةُ والأختُ في وقت واحد " لا، لا! سوف يوقِّع فوراً، لأنه إنْ لَمْ يفعل الآن فلن يفعل أبداً. أنتَ تعرف كيف يتصرَّف معشرُنا "

هنا أخذت الأخت تُبدي اهتماماً بالموضوع. وكان لابد أن أشرحَ المسألةَ كلَّها لها على عَجَل.

قالت " يبدو الأمرُ رائعاً. اترك لي بعض الأوراق الفارغة، أعتقد أن في إمكاني أن أُدبِّر لكَ بعض الطلبات "

أسرعنا في تناول الوجبة، ثم تكوَّمنا داخل سيارتهم. سيارة جميلة، كما بدت لي. وفي الطريق إلى القاعة أخبروني عن نشاطات دوبوا منذ أن رأيته آخر مرة. لقد تولَّى منصباً ثقافياً في الجنوب، وهو عالِمٌ غير

ملائم لرجلٍ في مثلِ مزاجِهِ ونشأته. وفي رأيهم أنّه أصبحتْ خطاباته تزداد مرارةً وسُخريةً لاذعة. فقلت لهم بتهوُّر أنه ذكّرني، بطريقة غريبة، مبهمة، برابندرانات طاغور الذي كنتُ قد سمعته أيضاً يتحدَّث فبلها بسنين. ولعلَّ ما كنتُ أرمي إليه هو أنَّ كِلا الرجلين لا يتصنَّعان لفظ الكلمات حين يقولان الحقيقة.

لدى وصولنا إلى قاعة المحاضرات كنتُ منهمكاً في حديثٍ حماسيّ عاطفيّ مُطوَّل عن زنجي آخر، معبودي السابق، هيوبرت هاريسون. كنتُ أخبرهم عن كل ما تعلّمته وأنا واقف عند أسفل منبره في ساحة ماديسن. أيامَ كان في إمكانِ المرءِ أن يناقشَ كل شيء، بحريّة وعلى الملأ. وقلت لهم قادراً، ببضع كلمات موجَّهة بشكلٍ حسن، أن يقضي على أي خصم. وكان يفعلُ ذلك بأناقةٍ وسلاسةٍ أيضاً، أي " بقفَّاز جَدْيي[١٧٩]"، إن صحَّ التعبير. وَصَفَتُ طريقتَه الرائعة في رسم ابتسامته، وثقَتَه الرخيّة في نفسه، والرأسَ المنحوتَ الضخمَ الذي يحمله بين كتفيه كأسامة. وتساءلت بصوتٍ جهير إن لم يكن يحمل دماءً مَلَكيّة، إن لم يكن سليل ملك أفريقي عظيم. نعم، كان رجلاً يكهربُ الجمهورَ بمجرَّد حضوره. إلى جانبه يبدو باقي المتكلّمين، من البيض، أقزاماً، ليس فقط جسدياً وإنما ثقافياً، وروحياً. بعضهم، المرتشون الذين يقبضون ليثيروا الشَغَب، كانوا يتكلّمون كالمصروعين، ودائماً تراهم متلفِّعين بالعلم الأميركي، حتماً. أما هيوبرت هاريسون، فمهما كان نوع الاستفزاز، تراه دائماً يتمالك نفسه، ومهابته. كان لديه أسلوبه الخاص في وضع ظاهر يده على وركه، والميل بجذعه إلى الأمام، ونصب أذنيه ليلتقط كل كلمة

١٧٩ – قفاز جديي : أي مصنوع من جلد الجَدْي ، والمعنى : بأناقة ، ورقَّة ، ولباقة . – المترجم

ينطقها السائل، أو الحفي"[١٨٠]. كان يعرف جيداً كيف ينتظرُ الفرصةَ الملائمة فبعد أن يخمدَ الشَغَبُ تشرقُ ابتسامته العريضة، التكشير العريض، الوديّ، ويجيب سائله - ودائماً بالكلام المفيد، دائماً بكلامٍ مباشر وصريح، ودائماً بكامل طاقتِه، كمدفعٍ منصوب. وسرعان ما يشرعُ الجميعُ بالضحك، الكلّ ماعدا الأحمق المسكين الذي تجَرَّأ على طرح السؤال ...

كنتُ أقعقعُ على هذا المنوال لدى ولوجنا القاعة. كان المكانُ مزدحماً؛ هذه المرة كان الجمهورُ في غالبيتِه من السود. وبما أنَّ كل رجل أبيض لا تحامُلَ ضده يستطيع أن يُدلي بشهادته، فيشرّفني أن أكون بين حشد من السود. الجو دائماً مشحون. وأحياناً تُسْمَعُ قهقهات من القلب، وانبجاسات صوتيّة غريبة الأطوار، ودويٌّ حقيقي من الضحك كالذي لا يمكن أن تسمعه يصدر عن حناجر البيض من الناس. إنَّ البيضَ يفتقرون إلى العفوية. عندما يضحكون نادراً ما يصدر ضحكهم من الأعماق. عادة يكون ضحكاً متهكّماً. أما ضحكُ الرجل الأسود فيخرج بسهولةِ التنفُّس.

مرَّ وقتٌ طويل قبل أن يظهرَ دوبوا على المنصّة. وحين فَعَلَ كان أشبه بملكٍ يعتلي عَرْشَه. وفخامته بحدّ ذاتها أخرستْ أي مظاهرة مُدَّعية. لم تكن تلك القامةُ الليثيّة[١٨١] تنمُّ عن أي سِمة من سمات المُهيِّج الشعبي - ذلك التكتيك كان أدنى منه منزلة. إلا أنَّ كلماتَهُ كانت أشبه بالديناميت البارد. ولو شاءَ لأشعلَ متفجِّراً كفيلاً بنسف العالم برمّته. ولكن كان جلياً أنَّ لا نيَّةَ لديه في نسفِ العالم - على أي حال، ليس

---

١٨٠ - الحفيّ : الذي يُزعج الآخرين بالإكثار من طرح الأسئلة والتحديات . - المترجم

١٨١ - الليثيّة : نسبة إلى الليث ، أو الأسد . - المترجم

فوراً. وبينما أنا أُنصتُ إلى خطابه تخيَّلتُه يخاطبُ جمعاً من العلماء بالأسلوب نفسه. تصورَّته يُصرِّح بأشدّ الحقائق تدميراً. ولكن بأسلوبٍ يُذهلُ السامعَ ولا يدفعه إلى الفعل.

قلتُ في نفسي، من المؤسف أن يضطرَّ رجلٌ يتمتَّع بمثل قدراته، وطاقاته، إلى تضييق مجاله. وبسبب عِرْقه حُكِمَ عليه بعزل نفسه لحصر أفقه، ونشاطاته. كان في وسعه أن يبقى في أوروبا حيث قُبِلَ واحتُفيَ به بلا حدود؛ وكان في إمكانه أن يحقق هناك مكانةً أهمّ. لكنه اختار أن يمكث مع أقربائه، ليستنهِضَهم، وأيضاً، إذا أمكن ذلك، أن يصنعَ منهم عالماً أصلح للعيش فيه. ولابد أنه عَرِفَ منذ البداية أنها مهمَّة عبثيَّة، أنه لا يمكن إنجاز شيء على أي قدر من الأهميّة لإخوانه خلال فُسْحَةِ حياةٍ واحدة قصيرة. لقد كان أذكى من أن يحمل أوهاماً حول الموضوع. لم أعرف هل أُعجَبُ بإصرارِهِ العنيدِ، والشجاعِ والعقيمِ، أم أرثي له. كنتُ أُجري لا إرادياً في ذهني مقارنات بينه وبين جون براون، واحد يتمتَّع بالذكاء، والآخر بالإيمان الأعمى. جون براون، بكراهيته الشديدة للظلم وللتعصُّب، لم يتردَّد في التصدِّي للحكومة المقدَّسة لهذه الولايات المتحدة. ولو أنَّ هناك فقط بضعَ مئات من الأشخاص مثله في هذه البلاد الشاسعة والمترامية، فأنا متأكِّد من أنه كان نجحَ في قلبِ الحكومةِ الحاليّةِ للولايات المتحدة. وعندما نُفِّذَ حكم الإعدام في جون براون اجتاح هذا البلد هياجٌ وثورةٌ لم تخمدْ أبداً بصورةٍ كاملة. ربما كان صحيحاً أن جون براون قد تسبَّبَ في تراجع قضية الزنوج في أميركا. لعلَّ الإخفاق التام الذي حصل في بلدة هاربرز فيري قد سدَّ الطريق تماماً على الزنوج لكي يحصلوا على حقوقهم العادلة عن طريقِ الفعلِ المباشر. ولعلَّ

الإنجازات المُذهلة للمحررِّ العظيم قد جَعَلَتْ من غير الوارد حصول أي شكلٍ من أشكالِ العِصيان المسلَّح - في أذهان الأجيال اللاحقة. (كما أن ذكرى الثورة الفرنسية تجعل الفرنسي يرتعد). ويبدو أنه منذ إعدام جون براون هناك إجماعٌ أخرس على أنَّ الوسيلةَ الوحيدةَ للسماحِ للزنجي بأخذ مكانه المناسب في عالمنا هي من خلال عمليةِ تثقيفٍ كئيبةٍ وطويلة. ولا أحد يرغبُ في أن يواجه حقيقةَ أنَّ هذه هي الذريعةُ الوحيدةُ لتأخيرِ الحَدَثِ الحقيقي. تصوَّرْ يسوع المسيح يؤيِّد هذه السياسة!

يا لنعمة الحرية! هل علينا أن ننتظر إلى ما شاء الله حتى نصبح أهلاً لها وننالها؟ أم يجب انتزاع الحرية من الذين يحتجزونها تعسُّفاً؟ أمَا مِنْ عظيمٍ، مِنْ حكيمٍ، يقول لنا إلى متى سيبقى الإنسانُ عبداً؟

إنَّ دوبوا لم يكن مُهيِّجاً شعبياً. كلا، ولكن بالنسبة إلى رجلٍ مثلي كان من الواضح وضوح الشمس أنَّ ما كانت كلماته تريد أن تقوله هو - " تلبَّسوا روحَ الحريّة وستتحرَّرون! ". والثقافة؟ حسب ما رأيتُ وشعرتُ، كان يقول بما يشبه الفظاظة " أنا أقول إنها خوفُكُم وجهلُكُم الذي يُبقيكم في العبودية. ليس هناك إلا نوعٌ واحدٌ من الثقافة، إنها تلك التي تدفعكم إلى أن تؤكِّدوا على حريتكم وتحافظوا عليها ". أيُّ هدفٍ آخر كان يمكن أن يضع نُصبَ عينيه، من خلال إيراد كل الأمثلة الرائعة المأخوذة من الحضارة الأفريقية، قبل تدخُّل الرجل الأبيض، غير أن يُظهِر اكتفاءَ الزنوجِ الذاتي؟ ما حاجة الزنجي إلى الرجل الأبيض؟ لا حاجة. أيُ فرقٍ هناك بين العرقَين، أي فرقٍ حقيقي، جوهري وحيويّ؟ لا فرق. إنَّ الحقيقةَ العليا، الحقيقة الوحيدة التي تستحقُّ أن تؤخذ بعين الاعتبار، هي أنه على الرغم من كل كلام الرجل الأبيض الطنَّان، وكل

مبادئه الملتوية، ظل مُبقياً على خضوعِ الزنجيّ له ... أنا لا أقتطفُ كلماتهِ. إنني أُسجِّل ردودَ فِعْلي، تأويلي لخطابه. " أولاً حلُّوا عن ظهورنا! ". هذا ما أُسمعه يصرخُ به - على الرغم من أنه نادراً ما كان يرفع صوته، ولم يكن يقوم بإيماءات مسرحيّة، ولم يقُل أي شيء من هذا القبيل. " هذا المساء سأحكي لكم عن أمجادِ الماضي، ماضيكم أنتم، ماضينا المشترك، كزنوج. وماذا عن المستقبل؟ هل ستنتظرون حتى يَستنزِفَ الرجلُ الأبيضُ دماءكم كلها ؟ هل ستنتظرون بخنوعٍ إلى أن يملأ شرايينكم بدمهِ السامّ؟ لقد أضحيتم للتوّ نُسَخاً تحُاكي بشكلٍ فجٍّ الرجلَ الأبيض. إنكم تسخرون منه وتحاكونه، في وقت واحد. ومع كل يوم يمرٌّ تخسرون إرثكم النفيس. إنكم تزيّفونه لصالحِ سجّانيكم الذين ليس لديهم أدنى نيّة في مَنْحِكم العدالة. ثقِّفوا أنفسكم، إن شئتم. طوِّروا أنفسكم، إن استطعتم. ولكن تذكّروا - لا فائدة من أي شيءٍ حتى تقفوا جنباً إلى جنب مع جيرانكم البيض أحراراً ومتعادلين. لا تخدعوا أنفسكم بالقول إنَّ الرجلَ الأبيضَ متفوِّقٌ عليكم في كل الأحوال. إنه ليس كذلك. قد يكونُ أبيضَ البشرة، لكنه أسودَ القلبِ: إنه مُدانٌ أمام الله وأمام أقرانه من البشر. وفي غَمْرةِ تكبُّره وغطرسته يُنزِلُ العالَمَ إلى مستواه. وسوف يأتي يومٌ تزولُ فيه هيمنته. لقد بَذَرَ حِقْدَهُ في الدنيا كلها، وحَرَّضَ الأخَ ضدَّ أخيه، وأنكرَ ربَّه. كلا، إن هذه العيِّنة البائسة للإنسانيّة ليسَتْ متفوِّقةً على الرجلِ الأسود. هذه السُلالة البشرية محكومٌ عليها بالفناء. استيقظوا يا أخوتي! استيقظوا وانشدوا! نادوا بسقوطِ الرجلِ الأبيض! أبعدوه عن أنظاركم! أطبقوا شفتيه، قيِّدوا أطرافه، وادفنوه حيث ثقفتموه - فوق تلّ الروث! "

أكـررُ، لا شيءَ من هذا كُلّه جاءَ على لسان دوبوا. لا شك في أنه كان جديراً بأن يحتقرني لو أني جَهَرْتُ بهذا التأويل لخطابه. لكنَّ الكلمات بحدّ ذاتها لا تعني شيئاً. أمَّا ما يكمنُ خلفها - فهذا هو المهمّ. أكادُ أشعرُ بالخجل من دوبوا لأنه يستخدمُ كلمات أُخَرٍ غير التي أسمعُها تترددُ في ذهني. ولو أنَّ كلماتَهُ أثارَتْ عصياناً مُسلَّحاً دموياً لأضحى أشدَّ الرجالِ ارتباكاً في مجتمعِ الرجلِ الأسودِ برمَّته. ومع ذلك أنا أُصِرُّ على اعتقادي بأنَّ الرسالةَ التي أدليتُ بها لتوِّي مُدونَّة، بالدم وبالدموع، على جدار قلبه. ولو أنَّه كان بحقّ رجلاً ذكيّاً أقلّ اتِّقاداً في حماسته لما غدا، ولا استطاع أن يكون، الشخصيةَ المهيبةَ التي كانها. إني أحمرُّ خجلاً حي أُفكِّرُ في أنَّ رجلاً في مثل موهبته، وقدراته، ونفاذ بصيرته، مضطرٌ إلى كتمِ صوته، وخنقِ مشاعره الحميمة الحقيقية. لقد أثارَ إعجابي به كلُ ما قامَ به من أعمال، وكلُ ما كان يكوِّن شخصه، وقد كان ذلك كثيراً كثيراً - ولكن ليته فقط حَظِيَ بقبسٍ من تلكَ الروحِ المشبوبةِ التي امتَلَكَها جون براون! ليته تمتَّعَ بلمسةٍ من غَرَابة! وحده الحكيمُ قادرٌ على أن يتحدَّثَ عن الجورِ ويبقى صافياً. (لكن يجب التسليمُ بأنه حيثُ يرى الإنسانُ العادي جوراً قد يكتشفُ الحكيمُ نوعاً آخرَ من الجور) إنَّ الإنسانَ العادلَ قاسٍ، لا يعرفُ الرحمةَ، ولا إنسانيّ. العادلُ يفضِّلُ أن يضرمَ النارَ في العالم، يدمِّره بيديه المُجرَّدين، إنْ استطاعَ، على أن يرى الجورَ يؤيِّد. جون براون كان من هذا النوع. لقد نسيه التاريخ. وظهرَ بعدَهُ رجالٌ أقلُ شأناً منه، قَلَبوا العالمَ رأساً على عقب، وبثُّوا الرعبَ فيه.- ولم يحقِّقوا حتى اقتراباً مما نُسمِّيه العدالة ... امنَحْ الرجلَ الأبيضَ فُسحةً قصيرةً أخرى من الوقت وسوف يدمِّر

نفسَهُ والعالمَ الخبيثَ الذي أوجده. إنه لا يملكُ الحلولَ للآفات التي ابتلى العالمُ بها. ولا أي حلّ. إنه خاوٍ، مُحبَطُ، ولا ينطوي على ذرّةٍ واحدةٍ من الأمل. إنه يتحرّقُ شوقاً إلى حلولِ نهايتِه البائسة.

هل سيجرُّ الرجلُ الأبيض الزنجيَ معه؟ أشكُّ في ذلك. أعتقدُ أنَّ كلَّ الذين اضطَهَدَهُم واستعبَدَهُم، وحَطَّهم وأخصَاهم، كلُّ الذين مَصَّ دماءهم، سوف يواجهونه في يوم الدينونة المحتوم. هناك لن يجد مَنْ يسعفه، لن ترتفع يدٌ غريبةٌ ودودٌ لتَحُولَ بينه وبين قدَرَه. ولن يجدَ حتى مَنْ يندبه. وبدلَ ذلك سوف يتناهى إليه من أركانِ الأرضِ جميعاً، كتجمُّعٍ من الزوابع، هتافُ الفرحِ الغامر. " أيها الأبيض، انتهَتْ أيامُكَ! مُتّ ميتة الدودة! ولتُطمَسَ ذكرى وجودك عن الأرض! "

الأمرُ الغريبُ هو أني لم أكتشف إلا منذ وقتٍ قريب جداً أن دوبوا قد ألَّفَ كتاباً حول جون براون تنبَّأ فيه بالكثيرِ مما قد ألمَّ للتوّ بالعرق الأبيض وبالكثير مما سيحلُّ به لاحقاً. وغريبُ أني، على جهلي بشَغَفه وإعجابه بالُمحررِّ العظيم، ربطتُ بين اسميهما ...

* * *

في صباحِ اليوم التالي، بينما كنتُ أتناول طعامَ الإفطار في مقهى يقع في شارع " الأناناس "، أحسستُ بيدٍ تحطُّ على كتفي، وسمعتُ صوتاً من خلفي يسألني بهدوء إن لم أكن هنري ميللر. رفعتُ بصري لأجدَ كلود يقفُ عند مرفقي. ولم يكن ثمة أدنى شكٍ في أنه هو ولا أحدَ غيره.

قال " قيلَ لي أنك عادةً تتناول طعامَ إفطارك هنا. من المؤسف أنك لم تحضر ليلة أمس؛ كان بصحبتي صديقٌ كنتَ ستستمتع بلقائه. قَدِمَ من طهران "

قدَّمتُ اعتذاري وحَثَثْتُهُ على تناولِ إفطارٍ ثانٍ معي. لم يكن من عادة كلود أن يتناولَ إفطارَين أو ثلاثة متتالية.

إنه مثل الجَمَل - يُخزِّنُ كلما أُتيحَ له.

سألني " أنت حتماً من برج الجدي، أليس كذلك؟ السادس والعشرون من كانون أول، صح؟ عند نحو الظهيرة؟ "

هززتُ رأسي إيجاباً.

تابعَ " لا أعرفُ الكثير عن علم التنجيم. بالنسبة إليّ الأمرُ ببساطة يتعلّقُ بالرحيل. إنني مثل يوسف في الكتاب المقدَّس - أرى أحلاماً. وأحياناً تكون أحلاماً تنبُّؤيّة "

ابتسمتُ بتسامح.

" سوف ترتحلُ قريباً - ربما في غضونِ عامٍ أو اثنين. رحلةٌ على جانبٍ من الأهمية. سوف يطرأ تبدُّلٌ جذريٌّ على حياتك ". ثم سكتَ برهةً ليحدِّق عبر النافذة، كأنما يحاولُ أن يركِّز. " لكن هذا غير مهم الآن. لقد أردتُ أن أراك لسببٍ آخر ". وسكتَ مرة أخرى. " خلال ذلك العام أو نحوه سوف تمرّ بفترةٍ عصيبة. أقصد، قبل أن تباشر رحلتك. وسوف يتطلَّبُ منك أن تستجمعَ شجاعتَكَ كلها لتبقى على قيد الحياة. ولو لم أكن أعرِفُكَ حقّ المعرفة لقلت إنَّ ثمة خطراً من أن تقع فريسة الجنون ... "

قاطعته " عفواً، ولكن كيف تسنَّى لك أن تعرفني حقّ المعرفة؟ "

هذه المرة كان دورُ كلود في الابتسام. ثم، ودون أدنى تردُّد، أجاب:

" إني أعرِفُكَ منذ فترة طويلة - في أحلامي. أنت تظهرُ لي باستمرار. طبعاً أنا لم أكن أدري أنه أنت إلى أن قابلتُ مونا. عندئذ أدركتُ أنه لا يمكن أن يكون شخصاً آخرَ غيرك "

غمغمت " أمرٌ غريب "

قال كلود " ليس كثيراً. عددٌ كبيرٌ من الناس مرّوا بتجربةٍ مماثلةٍ. ذات مرة، وأنا في قرية صغيرة في الصين، قابلتُ رجلاً في الطريق، فأمسك بي من ذراعي، وقال: " كنتُ في انتظارِ قدومك. وها قد وصلتَ في الوقت المُحدَّد ". كان ساحراً؛ يمارسُ السحر الأسود "

سألته مازحاً " وأنت أيضاً ساحر؟ "

قال كلود " بالكاد أكون "، ثم أضاف بالنبرة ذاتها: " أنا أمارسُ العَرَافة. إنها موهبةٌ وُلِدَتْ معي "

" ولكن أعتقد أنها لا تساعدك كثيراً، ما قولك؟ "

أجاب " صحيح، لكنها تسمحُ لي أن أساعدَ الآخرين. بمعنى، إذا رغبوا في المساعدة "

" وأنتَ تريدُ أن تساعدني أنا؟ "

" إن استطعتُ "

قلت " قبل أن تسترسل، ما رأيك في أن تحكي لي قليلاً عن نفسك. لقد أخبرَتْني مونا طَرَفاً من قصةِ حياتِكْ، لكن كل شيء يبدو مربكاً. قُل لي، إذا لم يكن لديك مانع - أتعرَف أينَ ولدتَ ومَنْ هما أبوك وأمك؟ "

نظرَ كلود في عينيَّ مباشرةً. قال " هذا ما أحاولُ أن أكتشفه. قد تكون ذا عونٍ لي. ما كان ظهورك ليتكرَّر في أحلامي لو لم تكن تحتلّ مكانةً هامَّةً في حياتي "

" أحلامك؟ قُل لي، كيفَ أظهرُ لكَ في الحلم؟ "

قال كلود بسرعة " في أدوارٍ متنوعة. أحياناً كأب، وأحياناً

كشيطان، وأحياناً كملاك معيَّن. وكلما ظهرتَ يكون ذلك مصحوباً بعزفٍ موسيقي. موسيقى عُلويّة، في الواقع "

لم أدرِ ماذا أقول كجوابٍ على ذلك.

تابعَ كلود " أنت تعي، طبعاً، أنَّ لكَ سُلطةً على الآخرين. سلطةً هائلة. إلا أنكَ نادراً ما تستخدمها. وحين تفعلُ فإنك عادةً تُسيء استعمالها. وأنت خَجِلٌ من ذاتك الأفضل، إذا صح تعبيري. أنت تفضِّل أن يُنظَرَ إليكَ كخبيثٍ وليس كطيِّب وأنت خبيث فعلاً، أحياناً - خبيثٌ وقاس - خاصة مع المُحبِّين لك. هذا ما عليك أن تجد له حلاً ... لكنك قريباً ستخضع للاختبار! "

" ثمة شيءٌ غريبٌ يكتنفُكَ يا كلود. لقد بدأ يُخامرني شعورٌ بأنك فعلاً تمتلكُ قوةَ استبصار، أو سَمِّها ما شئت "

على هذا أجاب كلود: " أنت في الأساسِ رجلٌ مؤمن؛ رجلٌ ينطوي على إيمانٍ عظيم. الجانب الشكوكي منك هو ظاهرة عابرة، إرثٌ من الماضي، من حياةٍ أخرى. عليك أن تنفض عنك شكوكك - انعدام ثقتك في نفسك، قبل أي شيء - إنها تخنقك. ليس أمام كائنٍ مثلك إلا أن يرتمي على العالم وسوفَ يطفو مثلَ قطعةٍ من الفلين. لا شرَّ حقيقياً يمكنه أن يلمسك أو يؤثِّرَ فيك. لقد خُلقتَ لتخترقَ النيران. ولكن إذا ما نأيتَ بنفسكَ عن دوركَ الحقيقي، وأنتَ وحدكَ تعرفُ ما هو، فسوفَ تحترقُ حتى تغدو رماداً. هذه أوضح صورة أحملها عنك ". اعترفتُ بصراحةٍ تامة بأنَّ ما قاله لتوه لم يكن مبهماً لي ولا غريباً. " لقد تبدَّت لي لُمَحٌ غامضةٌ عن مثل تلك الأمور عدداً من المرات. ولكن حالياً لا شيءَ واضحاً لي وضوحاً تاماً. تابعْ، إن شئتَ، كُلِّي آذانٌ صاغية "

قال كلود " إنَّ ما جمَعَنا هو بحثنا معاً عن أبوينا الحقيقيين - لقد سألتني أين ولدتُ. إنني لقيط؛ وأبواي تركاني عند مدخل مبنى في مكانٍ ما من حي برونكس. أشكُّ في أنَّ أبويَّ، كائناً مَنْ كانا، جاءا من آسيا. من منغوليا، ربما. وعندما أنظرُ في عينيك أقتنعُ بهذا. أنتَ فيك دماءٌ مغوليّة، دون أدنى شك. ألم يسبق لأحدٍ أن لاحظَ ذلك؟ "

هنا ألقيتُ نظرةً متمعِّنةً إلى الشاب الذي كان يحكي لي هذا كله. وجرعتُهُ كما يجرعُ المرءُ كوباً كبيراً من الماء وهو شديدُ الظمأ. دماءٌ مغوليّة!. طبعاً، لقد سمعتُ هذا من قبل! ودائماً من أُناسٍ من النوعية ذاتها. وكلما بَرَزَتْ كلمةُ مغوليّ تُدوِّن عليَّ مثل كلمة سر. ومفادها " ها قد جئنا إليك! ". وشئتَ أم أبيت، كنت واحداً " منهم ".

وقصة المغولي كانت، طبعاً، رمزية أكثر منها نَسَبيّة. والمغول كانوا حاملي الأنباء السرّية. وفي إحدى الحُقَب السحيقة في القِدَم، حين كان العالمُ متَّحداً وكان حُكَّامه الحقيقيون يحافظون على سرِّية هويتهم، كانت عبارة " نحن المغول " سائدة. (أتراها لغةً غريبة؟ المغول لا يتكلمون إلا هكذا) كان هناك، على الأقلّ، شيءٌ ماديّ، أو فيزيولوجيّ، أو فراسيّ، يميِّزُ كلَّ منتمٍ إلى تلك الجماعة الغريبة ,وما ميَّزهم عن " باقي البشر " كان التعبيرُ المحيط بعيونهم. ليس اللون، أو الشكل أو النظرة المُطلّة، وإنما طريقة ظهور العينين، أو غيابهما، طريقة تحرُّكهما داخل محجريهما الغامضين. وفي الحالة العادية تكونان مُقنَّعتين، وأثناء الكلام تسقط الأقنعة، واحداً إثر آخر، حتى ليُخيَّل للناظر أنه يحدِّق إلى حفرتين سوداوين عميقتين.

أثناء تفحُّصي لكلود، استقرَّ تحديقي على الحفرتين السوداوين في

مركز عينيه. كانتا بلا قرار. وطوال دقيقة كاملة أو دقيقتين لم نتبادل كلمة واحدة. لم يشعر أيٌ منا بالحرج أو الانزعاج. أخذنا ببساطة نتفرَّس كلٌ في الآخر مثل عظاءتين، نظرةَ تعارفٍ مغولية متبادلة.

كنتُ أنا مَنْ كسَرَ سحرَ الصمت. قلتُ له إنه يُذكِّرني قليلاً بذابح الغزلان - بذابح الغزلان ودانييل بون[١٨٢] معاً. مع لمسةٍ خفيفة من نبوخزنصرَّ!

ضحك. قال " لقد حسبتُني أشياء كثيرة. هنود نافايو رأوا أنَّ في عروقي دماءً هندية. لعلّ هذا أيضاً صحيحٌ ... "

قلت " أنا متأكِّد من أنَّ فيكَ قطرةً من الدماءِ اليهوديّة "، ثم أضفتُ " ليس بسبب نشأتك في حي برونكس "

قال كلود " لقد نشأت بين يهود، وحتى سن الثامنة لم أسمع إلا الروسية واليديّة. وفي سن العاشرة هربتُ من موطني "

" أينَ كان ذاك - ما تسمّيه موطناً؟ "

" هي قريةٌ صغيرةٌ في القرم، ليس بعيداً كثيراً عن سيڤاستبول. نُقلتُ إليها وأنا ابن ستة أشهر ". سكتَ برهة. ثم قال شيئاً عن الذاكرة، ثم تخلَّى عن الموضوع. وعاد يقول " حين سمعتُ الإنكليزية للمرة الأولى وجدتها لغةً مألوفةً لدي، على الرغم من أني لم أسمعها إلا خلال الأشهر الست الأولى من حياتي. وتعلَّمتُ اللغة الإنكليزية غريزياً تقريباً، ولم يستغرق ذلك مني وقتاً يُذكَر. كما تلاحظ، أنا أتكلَّمها دون أي لهجة. الصينية أيضاً تعلَّمتها بسهولة، وإن كنتُ في الحقيقة لم أبرع فيها ..."

---

١٨٢ - دانييل بون (١٧٣٤ - ١٨٢٠) : رائد، ومكتشف ودليل أميركي. خاصة في ولاية كنتكي. - المترجم

قاطعته " عفواً، ولكن كم لغةً تتقنُ، أخبرني إن لم يكن لديك مانع؟ "

تردَّدَ برهةً، وكأنه يجري عملية حسابيّة سريعة. ثم أجابَ " بصراحة، لا أذكر. أنا أُتقنُ على الأقلّ دزينة منها، دون أدنى شك. لا شيء يستحقُّ الفخر به؛ إنَّ لديّ ميلاً فطرياً إلى تعلُّم اللغات. ثم إنك حين تتنقَّل في أصقاع العالم لا يسعك إلا أن تلتقط اللغات "

هتفت " إلا الهنغارية!لا تقل إنك تعلَّمتَها بسهولة! "

نفحني ابتسامةً متسامحةً. " لا أدري لماذا يظن الناس أن الهنغاريةَ على هذه الدرجةِ من الصعوبة. يوجد، هنا في أميركا الشمالية، لغاتٌ هندية أصعب منها بكثير - أقصد من ناحية علم اللغة الصِرْف. ولكن لا لغةَ صعبةً إذا كنتَ تعايشُها. ولكي تُتْقِنَ اللغة التركية، أو الهنغارية، أو العربية أو لغة نافايو، عليكَ أن تصبحَ وكأنَّكَ واحدٌ منهم، هذا كل ما في الأمر "

" لكنك شابٌ غضّ! كيف تسنَّى لك الوقت لـ ...؟ "

قاطعني " السنُ لا يعني أي شيء، ليس السنُ ما يجعل منا حُكَمَاء. ولا حتى التجربة، كما يدَّعى الناس. وإنما هي سرعةُ الروح. السريعون والموتى ... أنت، مِنْ بين الناس جميعاً يجب أن تعرف ما أعني. هناك في هذا العالم - وفي كل عالم - فئتان: السريعون والموتى ... بالنسبة إلى الذين يُهذِّبون الروح لا شيء مستحيلاً. وبالنسبة إلى الآخرين، كل شيء مستحيل، أو لا يُصدَّق، أو عقيم. حين تعيشُ يوماً بعد يوم مع المستحيل تبدأ بالتساؤل عن معنى الكلمة. أو بالأحرى، كيف حدث وصارت تعني ما تعنيه. ثمة عالم من نور، فيه كل

شيء جليّ وبيِّن، وهناك عالمٌ من الفوضى، حيث كل شيء مُضبِبٌ ومُبهَم. في الواقع إن العالَمَين هما واحد. الموجودون في عالم الظلام يلمَحون بين حين وآخر قبَساً من عالم النور، ولكن ساكني عالمَ النور لا يعرفون الظلام. إنَّ أُناس النور لا يرمون ظلالاً، ولا يعرفون الشر، ولا يضمرون الامتعاض. وهم يتنقَّلون بلا سلاسل ولا أغلال. إنني قبل أن أعودَ إلى هذا البلد لم أكن أتَّصل إلا بأمثال هؤلاء. إن حياتي من بعض نواحيها أغرب مما تظن. لماذا تراني مكثتُ بين هنود النافايو؟ لكي أجدَ السكينةَ والفَهْمَ. ولو أني ولدتُ في زمنٍ آخر لأضحَيتُ مسيحاً أو بوذا. هنا يُنظَر إليَّ وكأني فلتة. حتى أنت تجد صعوبةً في ألاّ تعتبرني هكذا "

هنا ابتسمَ لي ابتسامةً غامضة. وعلى مدى برهةٍ كاملةٍ شعرتُ وكأنَّ قلبي قد كفَّ عن الوجيب.

قال كلود، وقد أضحَتْ ابتسامتُهُ أكثرَ إنسانية: " هل شعرتَ إذن بوجود شيءٍ غريب؟ "

قلت " دون أدنى شك "، وأنا أضعُ بحركةٍ لا إراديّة يداً على قلبي.

قال كلود " لقد توقَّفَ قلبُكَ عن الوجيب برهةً، هذا كل شيء. تصوَّر، إنْ استطعتَ، كيف يمكن أن تشعر إذا ما أخذَ قلبُكَ يخفقُ على إيقاعٍ كونيّ ... سيأتي وقتٌ لا يعود فيه الإنسان يفرِّقُ بين الإنسان والله. وحين سيرتفعُ الكائنُ البشري إلى مستوى قدراته الكاملة سيغدو مقدَّساً - وسيكون وعيُهُ الإنساني قد ضَمُرَ، والموت قد اختفى. سوفَ يتغيَّر كل شيء، يتغيَّر إلى الأبد. لن يعودَ ثمة حاجة إلى مزيدٍ من التغيير. سوف يصبح الإنسان حراً، هذا ما أقصده. وحالما يبلغ مرتبة

الإله الذي هو حقيقته، سيكون قد أدركَ قَدَرَه - الحرية. والحرية تتضمَّن كل شيء. الحريةُ تُحوِّل كل شيء إلى طبيعتهِ الأساسية، التي هي الكمال. لا تظنّ أني أتكلّم في الدين، أو في الفلسفة. إنني أتنصَّلُ، تماماً، من كليهما. إنهما حتى لا يسيران على الأرض، كما يحبُّ الناسُ أن يقولوا. ينبغي تجاوزهما، بوثبةٍ واحدة. إذا وضعت شيئاً خارجك، أو فوقك، يُضحَّى بك. ليس هنا إلا شيءُ واحدُ. الروح. إنها كل شيء، وحين تدركُ ذلك، تصبحُ أنتَ هي. أنت كل ما هو موجود، ولا يوجد ما هو أكثر ... أتفهم ما أقول؟ "

هززتُ رأسي إيجاباً. كنت مذهولاً قليلاً.

قال كلود " أنت تفهم، لكنَّ حقيقةَ الأمرِ تفلُتُ منك. إن الفهمَ لا يعني شيئاً. على العينين أن تبقيا مفتوحتين، دائماً. ولكي تفتح عينيك يجب أن تسترخي، لا أن تتوتَّر. لا تخشَ الوقوع إلى الخلف في حفرةٍ لا قرارَ لها. ليس هناك حُفرة تقع فيها. أنتَ فيها وجزءُ منها، وذات يوم، إذا ثابرتَ، فستصبحَ أنتَ هي. أنا لا أقول ستتملّكها، أرجوك انتبه، لأنه لا يوجد ما هو قابل للامتلاك. ولا أنت قابل للامتلاك، تذكَّر هذا! عليك أن تتحرَّر. ليس هناك تمارين، جسدية أو روحيّة، لتمارس. إن تأثير هذه الأشياء كلها أشبه بتأثير البخور - إنها توقظ شعوراً بالوحشة. يجب أن نكون مقدّسين بلا قداسة. يجب أن نكونَ كُلاً ... كاملاً. هذا معنى أن نكون مقدَّسين. وأي نوعٍ آخر من القداسة زيف، وفخ وضلال ... "

قال كلود، وهو يبتلعُ على عَجَلٍ جُرعةً أخرى من القهوة، "اعذروني لأني أكلِّمك بهذه الطريقة، لكني أشعر أنَّ الوقتَ قصير. حين سنتقابل

في المرة التالية فغالباً سيحدث ذلك في بقعةٍ نائيةٍ من العالم. إنَّ القلقَ يقودُ الإنسانَ إلى الأماكنِ الأبعدِ عن التوقُّع. أما تحرُكاتي أنا فأكثر تحديداً؛ أنا أعرفُ المخطَّط الموضوع لي ". سكتَ ليتناول جرعة أخرى. " بما أني قد وصلتُ إلى هذا الحدّ دعني أضيفُ بضعَ كلماتٍ أُخَر "، ثم مال إلى الأمام، وتلبَّسَ وجهه أشدَّ التعابيرَ جدِّية. " في هذا الوقت، يا هنري ميللر، لا أحد في هذا البلد يعرفُ عنك أي شيء. لا أحد - وأنا أعني ما أقول حرفيّاً - يعرفُ هويتَكَ الحقيقية. في هذه اللحظة أنا أعرفُ عنك أكثر ربما مما قد يُتاح لي أن أعرفه مرة أخرى. ولكن ما أعرفه لا يهمّ غيري أنا. ما أريد أن أقوله لك هو ما يلي - عليكَ أن تفكِّر فيَّ حين تكون في حزن. وهذا لا يعني أني أستطيع أن أقدم لك العون، إياك أن تعتقدَ ذلك! لا أحد يستطيع. وربما لا أحد سيفعل. سيتوجَّب - (وهنا باعَدَ ما بين كلماته) - سيتوجَّبُ عليكَ أن تحلَّ مشاكلكَ بنفسك. لكنك على الأقلّ ستعرف، حين تفكِّر فيَّ، أنَّ ثمةَ شخصاً واحداً في هذا العالم يعرفك ويؤمن بك. وهذا دائماً يفيد. إلا أنَّ السرّ يكمن في ألاّ تأبه إن كان أي إنسان، أو حتى الله ذاته، يثقُ فيك. يجب أن تدركَ، وسوف تفعلُ دون أدنى شك، أنكَ لستَ في حاجةٍ إلى حماية. ويجب ألاّ تلهث سعياً وراء الخلاص، فما الخلاص إلا خرافة. ماذا يوجد هناك لتخلِّصه؟ اطرحْ على نفسك هذا السؤال! وإذا خلُصَ، فممَّ؟ هل فكَّرتَ في هذه الأمور؟ فكِّر إذن! الإجابةُ هناك إلى الخلاص، لأنَّ ما يُسمِّيه الإنسان بالإثم والشعور بالذنب لا معنى مطلقاً لهما. السريعون والموتى! - فقط تذكَّر هذا! حين تصل إلى جوهر الأشياء فلن تجد تسارُعاً ولا تباطؤاً، لا مولداً ولا موتاً. كل شيء كما هو و أنت كما أنت - هذا هو الوضع

باختصار. لا تُجهد نفسَكَ في التفكير في الأمر، لأنه لا معنى له بالنسبة إلى العقل. اقبَلْه وانْسَهُ - وإلاّ جرَفَكَ إلى لُجَّة الجنون ... "

* * *

مشيتُ مبتعداً كَمَنْ يطفو فوقَ السحاب، حاملاً، كالمعتاد، حقيبتي معي، ولكن كنتُ قد تخلَّيتُ عن كل تفكير في زيارة زبائن محتملين. ولجتُ القطارَ النفقي بحركةٍ آليّة ثم خرجتُ منه ثانية بحركة آليّة. فحين لا تكون لي وِجهةٌ محدَّدة أترجَّل آليّاً عند ساحة تايمز. وهناك دائماً أجدُ الرامبلا، وحديقة نفسكي بروسبكت، وأسواق وبازارات الملعونين.

الأفكار والمشاعر التي انتابتني كانت مألوفة حتى إشاعة الرعب. هي نفسُها التي راودتني حين سمعتُ للمرة الأولى صديقي القديم روي هاملتُن يتكلم، وحين أصغيتُ للمرة الأولى إلى بنجامن فاي ميلز، المُبشِّر، وحين ألقيتُ للمرة الأولى نظرةً على ذاك الكتاب الغريب البوذيّة السرّية، وحين قرأتُ دفعةً واحدةً طاو ته تشينغ أو - كلما انتقيتُ الممسوسَ أو الأبلهَ أو الأخوةَ كارامازوف. وبدأت أجراس الأبقار التي أحملها تحت أضلعي تقرع بجنون؛ وفي البرج الذي يعلوها كأنَّ نجوم السماوات جميعاً قد اجتمعت معاً لتكون مشعَلَةً عُلويّة. كان جسمي بلا ثقل، بلا أي ثقل. وكنت موجوداً في النهايات الستّ دفعة واحدة.

كانت هناك لغةٌ لم تُخفِق مرةً في تفجيري - وكانت دائماً اللغة نفسها. وكاملُ مداها وفحواها، بعد غَلْيه حتى يغدو بحجم حبَّة عدس، يمكن التعبير عنه بكلمتين اثنتين: اعرف نفسك!. ورحتُ، منفرداً بنفسي، وليس فقط منفرداً بل ومنفصلاً، وغير مُعايَر، أجري على فتحات الهرمونيكا جيئة وذهاباً، أتكلَّم باللغة الواحدة والوحيدة،

استنشق فقط الروح المقدَّسة والنقيّة، انظر إلى كل شيء بعينين جديدتين وبأسلوبٍ جديد جِدَّةً مطلقة. لا مولد، لا موت؟ طبعاً، لا! أيُ مزيدٍ، أي شيء آخر، يمكن أن يُوجد في هذه اللحظة؟ مَنْ قال إنَّ كل شيء قد نُسفَ؟ أين؟ متى؟ وفي اليوم السابع ارتاحَ اللهُ من أعماله. ورأى أنَّ كلَّ شيءٍ حَسَن. D'accord (حسنٌ). كيف كان يمكن أن يكون خلافَ ذلك؟ لماذا يجب أن يكون خلافَ ذلك؟ إذا حكَّمنا العقل، تلك البزَّاقة السمينة غير المُجنَّحة، فإنَّ الإنسانية ترتقي ببطء، ببطء، من المادة البدائية الرخوة. وبعد مرور مليون سنة سوف نبدأ بشكلٍ طفيفٍ بمشابهةِ الملائكة. يا للعفونة! هل العقلُ، إذن، محشورٌ في طيز الخليقة؟ حين كان روي هاملتن يتكلّم، على الرغم من أنه لم يتلقَّ حتى مُزقة من التعليم، كان يتكلَّم بسلطة الملائكة العذبة. كان الفوريّة متجسِّدة، وينطلق الدولاب وإذا بك للتو تصبح في محورِه، في مركزِ تلكَ المساحةِ الفارغة التي بدونها تعجَزُ حتى كوكبات النجوم عن الدوران والومضِ مُرسلةً شفراتها السرّية. الأمرُ نفسُهُ ينطبقُ على بنجامن فاي ميلز، الذي لم يكن مبشِّراً بل بطلاً تخلَّى عن المسيحية ليغدو مسيحياً. والنرفانا؟ ليس الغدُ بل الآن، الآن الأبدي ...

هذه اللغة كانت دائماً بالنسبة إليّ وضَّاءةً وصافية. إنها لغةُ العقل، التي ليست حتى لغةَ الحسّ السليم، البربرةَ المتهجَّاة. وحين يفلُتُ اللهُ الذراعَ التي تحملُ القلمَ لا يعودُ المؤلِّفُ يعرف ما يكتب. إن ياكوب بوهمه[١٨٣] استخدمَ لغة خاصّةً به هو، لغةً قادمةً مباشرةً من الخالق. العلماء يقرؤونها بطريقة، والورعون بأخرى. الشاعرُ يخاطبُ فقط الشاعر. والروح تجيب روحاً. والباقون محضُ قذارة.

---

١٨٣ – ياكوب بوهمه (١٥٧٥ – ١٦٢٤) : فيلسوف ألماني صوفي . – المترجم

مـائة صـوت يـتكلمـون مـعـاً. وأنـا مـا أزال في حـديقـةِ نفـسكي بروسبكت، ما أزال أحملُ الحقيبة. يمكن القول أيضاً إني كنت في أرض النسيان. إنني موجود " هناك " حتماً، أينما كان ذلك المكان، ولا شيء قادرُ على إخراجي عن مساري . ممسوس، نعم. لكنني ممسوس بمانتو[١٨٤] العظيم هذه المرة.

الآن أصبحتُ أسفل الـ "رامبلا". إنني أقترب من الهيماركت القديم. وفجأة يقفزُ اسمٌ من لوحة الإعلانات، يقطع مقلتي بمضاءِ شفرة موسى. لقد عبرْتُ لتوي دارَ مسرحٍ كنت أظن أنها قد هُدمَتْ منذ زمن بعيد. لم يبقَ في شبكةِ العينِ غير اسم، اسمها، اسمٌ جديد كليّاً: ميمي أغوغليا. هذا هو المهم، اسمها. هذا لا يعني أنها إيطاليّة، ولا يعني أن المسرحية هي مأساة خالدة. فقط اسمها: ميمي أغوغليا. على الرغم من أني أحثُّ خطاي دون توقُّف، ومن ثم أنعطفُ وأستديرُ، على الرغم من أني أحافظُ على اندفاعي بين السُحُب كثلاثةِ أرباعِ قمر، سيُعيدني اسمُها إليها عند تمام الساعة الثانية والربع بعد الظهر.

من العالم العُلوي أنزلُ إلى مقعدٍ وثيرٍ في الصف الثالث من المقاعد الأمامية. إنني مُقدِمٌ على مشاهدةِ أعظمِ عَرْضٍ قد أُشاهده في حياتي. وبلغةٍ لا أعرف منها كلمة واحدة.

المسرح مزدحم حتى آخره - بالإيطاليين حصراً. صَمْتٌ يُشيعُ الرهبةَ في النفسِ يسبقُ رفع الستارة. خشبة المسرح شبه مظلمة. على امتداد دقيقة كلمة لم تُسمَع كلمة واحدة. ثم سُمِعَ صوتٌ: صوت ميمي أغوغليا.

فقط قبل بضع لحظات كان ذهني يغلي بالأفكار؛ الآن كل شيء

---

١٨٤ - مانتو : إله أو روح مسيطر على قِوى الطبيعة عند الهنود الحُمر . - المترجم

هادئ، أقصدُ الحشدَ الغفيرَ المزدحمَ في قرصِ عسلٍ عند قاعدة الجمجمة. ولا طنَّة واحدة صدرَتْ عن الخليّة. أضَحَتْ حواسّي حادَّة كرأسٍ من الماس، وتركَّزتْ على المخلوقة الغريبة ذات الصوتِ المُبهَم. وحتى لو أنها تتكلَّم بلغةٍ أعرفُها أشكُّ في أني سأتَمكَّن من فهمها. إنَّ الأصواتَ التي تُصدرها، السلسلةَ الهائلةَ من الأصوات، هي ما يفتنني؛ حنجرتها أشبه بقيثارة عريقة. عتيقة، جداً، جداً. لها رنين صوت الإنسان قبل أن يأكل من شجرة المعرفة. إيماءاتُها وحركاتُها مجرَّدُ عناصر مُصاحبة للصوت. والقسمات، في استرخائها المتناغم، تعبِّر عن أدقّ التنقُّلات مع التبدُّل المتواصل في مزاجها، وحين تشدُّ رأسَها إلى الخلف، وتعبثُ الموسيقى المهيبة المنبعثة من حنجرتها بقسماتها كما يعبث ومضُ البرق بسريرٍ من الميكا[١٨٥]. تبدو أنها تعبِّر بانفعالات طبيعية لا يمكننا أن نثيرها إلا في الحلم. كل شيء بدائي، ساطع، ماحق. قبلَ لحظة كانت جالسةً على كرسي. لم يعد كرسياً؛ أصبح شيئاً، شيئاً حياً. وكيفما تتحرَّك، وكلُّ ما تلمس، تتغيَّر الأشياء. الآن هي واقفة أمام مرآة طويلة، ظاهرياً لكي تنظر إلى انعكاس صورتها. إنه الوهم! إنها واقفةٌ أمام فجوةٍ في الكون، تردُّ على تثاؤب الجبّار تيتان[١٨٦] بزعقةٍ إنسانيّة. وقلبها، المتوقِّف عن الوجيب داخل صدعٍ من الثلج، يتوهَّجُ فجأةً - إلى أن يقذف كيانُها كله لهباً من الياقوت والصفير[١٨٧]. وبعد هنيهة أخرى يتحوَّل الرأسُ المتناسق التكوين إلى يشَب[١٨٨]. الأفعى التي تواجه رخام العماء تعود يتملَّكها الرعبُ إلى الفراغ. العدم ...

---

١٨٥ - الميكا : مادة شبه زجاجية . - المترجم

١٨٦ - التيتان : في الأساطير اليونانية ، هو أحد أفراد أسرة من الجبابرة حكمت العالم قبل آلهة الأولمب . - المترجم

١٨٧ - الصفير : ياقوت أزرق . - المترجم

١٨٨ - اليشب : حجر كريم أخضر اللون . - المترجم

إنها تتنقَّل جيئة وذهاباً، جيئة وذهاباً، يتبعها وهجٌ فوسفوري. الجو نفسه يتكثَّفُ، يتشبَّعُ برعبٍ وشيك. إنها الآن ترفعُ نقابها، ولكن كأنها داخل زيتٍ دافئ، كأنما ما تزال مُخَدَّرَة بأبخرةِ المذبحِ القُرباني. تُقرقرُ عبارةٌ خارجةٌ من بين شفتيها الملتويتين، عبارةٌ مخنوقةٌ تدفعُ الرجلَ الجالسَ إلى جانبي إلى الأنين. الدمُ ينزُّ من عِرْقٍ مغروزٍ في صدغها. أتجمَّدُ، أعجزُ عن إصدارِ أي صوتٍ، على الرغم من أني أصرخُ بكل ما أوتيتُ رئتاي من قوة. لم يعد المكان مسرحاً، إنه كابوس. الجدران تنغلق على بعضها، تتلوى وتلتفّ مثل متاهةٍ مخيفة. المينوتور[189] ينفثُ علينا أنفاساً حارةً وكريهة. في هذه اللحظة بالضبط، وكأنَّ ألفَ شمعدانٍ يتهشَّمُ فوراً، يمزِّقُ ضحكها المجنون، الشيطاني، طبلة الأذن. لم تعد واضحة المعالم. إن الناظرَ لا يرى إلا حُطاماً إنسانياً، كتلةً متشابكةً من الأذرع والأطراف، من الشَعْر المفتول، وفماً ملطَّخاً بالدماء، وهذا، هذا الشيء، يتلمَّسُ طريقَه، يترنَّحُ، يتشبَّثُ، كالأعمى فجأة، نحو الأجنحة[190]...

الهستريا تجتاحُ الجمهور. الرجالُ متهالكون على مقاعدهم وفكوكهم مُطْبَقة. النساءُ يصرخن بوهنٍ، أو ينتفن شعورهنَّ بحركاتٍ متشنِّجة. قاعة المسرح بأكملها أضحتْ أشبه بقاع البحر - وثمة هرجٌ يكافحُ كغوريلا مخبولة ليزيلَ حجرَ الذعر المائع والثقيل. مُرشدو النظارة يومئون كالدُمى المتحركة، صرخاتهم مخنوقة بالهدير المذعور، المتعاظم بالتدريج مثل إعصار. وهذا كله يحدثُ في ظلامٍ دامسٍ، لأنَّ ثمة عطلاً

١٨٩ - المينوتور : حيوان خرافي نصفه على صورة رجل ونصفه الآخر على صورة ثور . - المترجم
١٩٠ - الأجنحة : المقصود هنا أجنحة خشبة المسرح على الجانبين . - المترجم

في الأضواء. وأخيراً يتعالى، من الحفرة، صَخَبُ الموسيقى، دويّ بوق ثم انفجارٌ عنيف، قابَلَه هديرُ الاحتجاجِ الغاضب. وتتلاشى الموسيقى، كأنما أخرسَتْها ضربةُ مطرقة. وترتفع الستارة ببطء كاشفةً عن خشبةِ مسرحٍ ما زالت غارقةً في الظلام. وفجأة تبرزُ من أجنحةِ المسرح، تحملُ بيدها شمعةً مُضاءة، وتنحني، تنحني، تنحني. إنها صامتة، صمتاً مُطبقاً. وينهمرُ وابلٌ من الأزهار من المقصورات، من الشرفات، ومن حفرة الموسيقيين نفسها، على خشبة المسرح. إنها واقفةٌ وسطَ بحرٍ من الزهور، والشمعةُ تشتعلُ بتوهُّجٍ. وفجأة تغمرُ الأضواءُ المسرح. يصرخ الجمهور باسمها – ميمي ... ميمي ... ميمي أغوغليا. ووسط الهياج تنفخُ بهدوء ضوء الشمعة وتمشي مسرعةً عائدةً إلى داخل الأجنحة ...

أنطلُق، وما أزالُ أتأبَّطُ الحقيبةَ، أحرثُ الـ "رامبلا" من جديد. أشعرُ كأني هبطتُ من قمة جبل سيناء بالمظلّة. من حولي أخوتي، في الإنسانيّة، كما يقولون، ما زالوا يدبُّون على أربع. لدي رغبةٌ عارمةٌ في أن أُبعدهم عني من كل الاتجاهات، وأحثُّ أولئك المساكين على ولوج الجنة. وفي هذه " اللحظة الموقوتة الدقيقة " وأنا أأزُّ كالشمبانيا، يشدُّني أحدهم من كُمِّي ويُقحمُ بطاقةً بريدية قذرة تحت أنفي. أتابعُ سيري دون أن ألتفت وهو متشبِّثٌ بي، ونتحرَّكُ معاً، كمُنتشين، ويظلُّ يبدِّلُ البطاقات ويتمتمُ وهو يلهث: " لذيذة، ما رأيك! رخيصة جداً. خذ الكمية كلها – ببنسين ". وفجأة تسمَّرتُ في مكاني؛ وبدأتُ أضحكُ، ضحكاً مخيفاً أخذَ يعلو ويعلو باطِّراد. تركتُ البطاقات تنزلقُ من بين أصابعي، كرقاقاتٍ من الثلج. بدأ حشدٌ من الناس بالتجمُّع، ولاذَ البائعُ المتجوِّل بالفرار. أخذ الناسُ يلتقطون البطاقات؛ ويزداد احتشادهم

حولي، ويُطبقون عليَّ أكثر فأكثر، يحدوهم الفضول لمعرفةِ ما يدفعني إلى الضحك هكذا. وعلى البُعد ألمحُ رجلَ شرطةٍ يقترب. أزعقُ، وأنا أدورُ حول نفسي: " ذهبَ إلى هناك، الحقوه! "، وأشيرُ إلى دكانٍ عند الناصية، وأندفعُ إلى الأمام بلهفةٍ مع الحشد؛ وبينما هم يغذّون السير ويسبقونني أستديرُ بسرعة وأسيرُ بأقصى ما تسعفني ساقاي في الاتجاه المعاكس، إلى أن أصلَ إلى حانة.

عند نضد البار ثمة رجلان منهمكان في شجارٍ عنيفٍ. أطلبُ كأساً من البيرة وأنأى بنفسي قدر إمكاني.

" أقول لك إنه مجنون! "

" ستُجنُّ أنت أيضاً إذا ما بُترَتْ خصيتاك "

" سوف يجعلك تبدو كطيز حصان "

" كطيز البابا وأنت الصادق! "

" اسمع، مَنْ خَلَقَ العالم؟ مَنْ خَلَقَ النجوم، والشمس، وقطرات المطر؟ أجبني! "

" أجِبْ أنتَ، لأنك عالي التعليم لعين. أنتَ قُل لي مَنْ خلقَ العالمَ، وأقواسَ قزح، والمبولات وكلَّ الأدوات المُهلكة الأخرى "

" أتريد أن تعرف، يا ولدي؟ إذن، اسمع ما سأقول - إنها لم تُصنَع في مصنعٍ للجبن. ولا هي نتاج النشوء "

" أحقاً؟ كيف نشأت إذن؟ "

" على يد رب العالمين يهوه ذاته، سيد الخلق، خالق مريم المباركة، ومُخلِّص الأرواح التائهة. هاكَ جواباً وافياً لك. والآن ماذا لديك تقوله؟"

" ما أزال أقول إنه مجنون "

" أنت كافر قذر، هذا أنت. أنت مُلحد "

" أنا لا هذا ولا ذاك. إنني أيرلندي قلباً وقالباً. وزيادة على ذلك، أنا ماسوني ... نعم، ماسوني لعين. مثل جورج إبراهام واشنطن والمركيز كوينزبري[١٩١] ... "

" وأوليفر كروموِيل وبونيسبارت[١٩٢] اللعين. طبعاً، أنا أعرفُ سلالتك. لقد حَمَلَتْ بكَ أفعى سوداء ومنذ ذلك الحين وأنتَ تنفثُ سُمَّها الأسود "

" لن نقبل بتلقِّي الأوامر من البابا. ضَعْ هذا في غليونك واشعله! "

" و "هذا" لأجلك! لقد جعلتَ من عِظات داروين كتاباً مقدَّساً. إنك تجعل من نفسك أضحوكة وتسمّي ذلك ارتقاءً "

" ما زلتُ أُصرُّ على أنه مجنون "

" هل أستطيع أن أسألك سؤالاً بسيطاً؟ هل أستطيع الآن ؟ "

" تستطيع. أطلق نارك! سوف أجيبُ عن أي سؤال له معنى "

" عظيم! ... الآن ما الذي يجعل الدود يزحف والطيور تطير؟ ما الذي يجعل العنكبوتَ ينسجُ نسيجَهُ الجنونيّ؟ ما الذي يجعل القنغر...؟ "

" على مهلك، يا رجل! كل سؤال على حِدَة. الآن أيُّها تريدُ - عن الطائر، أم الدودة، أم العنكبوت أم القنغر؟ "

" لماذا حاصل جَمْعُ اثنين واثنين يساوي أربعة؟ ربما تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال! أنا لا أطلبُ منكَ أن تكون آكلاً للحم البسر[١٩٣]،

---

١٩١ - المركيز كوينزبري (١٨٤٤ - ١٩٠٠) : واضع أصول رياضة الملاكمة الحالية ، وأول مَنْ أوصى بلبس القفاز فيها . - المترجم .

١٩٢ - بونيسبارت : يقصد نابليون بونابرت .- المترجم .

١٩٣ - البسر : يقصد ، البشر : ملفوظة بشكلٍ مشوّه . - المترجم

أو كيفما كان لفظها. إنها عمليةٌ حسابيّةٌ بسيطة ... اثنان زائد اثنان يساوي أربعة. لماذا؟ أجب عن هذا وسأقول إنك رومانيٌّ حقيقيّ. هيا، كمّ، أعطني الجواب! "

" اللعنة على الرومان! أُفضِّل أن أكون مع داروين، وحقّ المسيح! عمليةٌ حسابيّة! باه! لماذا لا تسألني إن كان المريخ ذو العين الحمراء قد تذبذبَ وهو في مداره الحبْلي funicular؟ "

" لقد أجابَ الكتابُ المقدَّسُ عن هذا قبل زمن سحيق. وكذا فعلَ بارنل[194]! "

" فعلَ ذلك في طيز الخنزير! "

" ليس هناك من سؤال إلا ووجدَ جواباً مُفحِماً عليه - على يد أحدهم "

" تقصد البابا! "

" يا رجل، قلت لك مائة مرة - ما البابا إلا محاوِرٌ بابويّ. إن قداسته لم يجزم بأنه المسيح المبعوث "

" لحسن حظه، لأني كنتُ سأنكر ذلك في وجهِه الخائن. لقد نلنا ما كفانا من محاكم التفتيش. إن ما يحتاج إليه العالَمُ الحزينُ المُرهَق هو قدرٌ من الحسّ السليم. تستطيعُ أن تهذي قدرَ ما تشاءُ حولَ العنكبوت والقنغر، ولكن مَنْ سيدفع قيمة الإيجار؟ اطرحْ هذا السؤال على صديقك! "

" قلتُ لك إنه انضمَّ إلى الرهبان الدومينيكان "

" وأنا قلتُ إنه مجنون "

---

١٩٤ - تشارلز ستيوارت بارنل (١٨٤٦ - ١٨٩١) : مناضل أيرلندي . - المترجم

عند هذه النقطة همَّ الساقي، لكي يُهدِّئهما، بتقديم المشروب للزبائن كافة على حساب المحل، وإذا برجلٍ ضرير يدخل الحانة وهو يعزف القيثارة. كان يضعُ نظارة زرقاء غامقة وتدلَّت من ذراعه الأيسر عصا مشي بيضاء اللون.

هتفَ أحد المتخاصمَين " هيا غنِّ لنا أغنية فاسقة "

وهَتَفَ آخر " وليس أغنية من أغانيك الرديئة! ... "

خَلَعَ الأعمى نظارته، ورمى القيثارة والعصا على مشجب مثبَّت على الجدار، وسار إلى البار بخطى رشيقة مذهلة.

انتحبَ. قال " قطرة صغيرة لأرطِّب حنكي "

قال أحدهم " أعْطه قليلاً من الويسكي الأيرلندي "

قال الآخر " وقليلاً من البراندي "

قال الأعمى، وهو يرفعُ الكأسين دفعةً واحدة " في صحة رجال دبلن ومقاطعة كيري. وليسقط كل الأورانجيين[١٩٥]! ". ونظر فيما حوله، مُشرقاً كطائرٍ غرِّيد وراح يجرَعُ جُرعةً من كل كأس.

قال أحدهم " متى ستخجل من نفسك؟ "

قال آخر " إنه يتمرَّغ في الذهب "

قال الأعمى، وهو يمسح شفتيه بكُمِّه، " لقد جرى الأمرُ كما يلي: حين توفيتْ أمي كنتُ قد وُعَدتُها بألاّ أقومَ بأي عمل. وحافظتُ على وعدي، وكذا هي، وكلما نقرتُ الأوتار تهتفُ لي بخفوت؛ " باتريك، أأنتَ هنا؟ المكان مَهيبٌ، يا ولدي، مَهيب "، وقبل أن يُتاح لي أن أطرح عليها سؤالاً تختفي من جديد. أنا أسمِّيه أرض السوق. إنها موجودة هناك منذ ثلاثين عاماً - وهي ملتزمة باتفاقيتها "

١٩٥ - الأورانجيون :أعضاءٌ في جمعية سرِّية بروتستانتية أيرلندية . - المترجم

" هذا سخف، يا رجل. أي اتفاقية؟ "

" إنها قصة طويلة وحلقي جافّ ... "

" كأسين آخرين من البراندي والويسكي لهذا النذل! "

" هذا لطفٌ منكما. أنتما جنتلمانان بحقّ ". ومرة أخرى رفع الكأسين معاً. " في صحة مريم المباركة وابنها المُعجِز! "

" أسمعت هذا الآن؟ هذا كُفر أو سآكُل قبعتي "

" إنه لا هذا ولا ذاك. بس، بس! "

" ليس لمريم المباركة غير ابن واحد - وقَسَماً بباتريك التقيّ هو ليس بالطفل المُعجِز! . لقد كان أميرَ الفقراء، هذا ما كان. وأُقسم على ذلك "

" نحنُ لسنا في قاعة محكمة. وفِّر قَسَمَك! هيا، يا رجل، أخبرنا عن اتفاقيتك! "

شدَّ الضريرُ أنفه وهو يتأمَّلُ. مرة أخرى تلفَّتَ حوله - مُشرقاً ومرحاً، وفي أقصى حالات الابتهاج. مثل سردينٍ مُشبَّعٍ بالزيت.

باشرَ قائلاً " القصة كما يلي ... "

" لا تقُل هذا يا رجل! باشر! باشر! "

" إنها قصة طويلة، طويلة، وحلقي ما زال جافاً، واعذروني لقولي هذا"

" باشر يا رجل، وإلا نفد صبرنا! "

تنحنحَ الضريرُ، ثم عركَ عينيه.

" كما كنتُ أقول ... كانت أمي العجوز تتمتَّع بموهبة نفاذِ البصيرة. كانت تستطيع أن تخترقَ البابَ ببصرِها، إلى هذا الحدّ كان نظرها ثاقباً. وذات مرة، حين تأخَّرَ أبي على مائدة العشاء ... "

" اللعنة على أبيك! أنت مُزيِّف عجوز مملّ! "

صرخَ الضرير " هذا أنا أيضاً. إنَّ فيَّ كل العيوب "

" وحلقٌ جافٌ على الدوام "

" وجيبٌ مملوء بالذهب، هه، أيها النذل! "

فجأةً أصابَ الذُعرُ الضريرَ، وشحبَ لونه.

صرخَ " لا، لا! إلا جيوبي. لا تفعلوا هذا. لا تفعلوا هذا ... "

أخذَ الصديقان يضحكان ضحكاً عنيفاً. ثم ثبَّتا يديه إلى جنبيه، وراحا يفتشان جيوبه - في بنطاله ومعطفه وسترته. ثم وَضَعَا النقودَ على نضد البار، وكوَّماها بشكلٍ أنيقٍ أوراقاً ماليةً وقِطَعاً نقدية من الفئات كلها، وَجَمَعَا النقودَ المزيَّفةَ على حِدة. كان عملاً بارعاً من الواضح أنهما كانا قد تدرَّبا على أدائه مراراً.

هتَفَ أحدهما " كأس براندي آخر! "

هتفَ الآخر " كأس ويسكي أيرلندي آخر - من أفضل الأنواع! "

أخذا كمية سخيّة من القطع النقدية المكوَّمة، ثم استزادا، لجمع إكراميّة للساقي.

سألاه بقلق " أما زال حلقُكَ جافاً؟ "

قال أحدهما " وماذا تريد أنتَ أن تتناول؟ "

وقال الآخر " وأنت؟ "

" إنَّ حلقي يزداد جفافاً على جفاف "

" إيه، وحلقي أيضاً "

" هل سمعتَ مرةً عن الاتفاقيّة التي عقدها باتريك مع أمه العجوز؟"

قال الآخر " إنها قصة طويلة، لكني مستعدُ لسماعها حتى نهايتها. هل تحكيها الآن، بينما أشرب نخب صحتك ونشاطك؟ "

قال الآخر، رافعاً كأسه " أستطيعُ أن أحكيها من الآن وحتى يوم القيامة، إلى هذا الحدّ هي جيدة. حكايةٌ جمالُها يفوقُ الوصف. ولكن دعوني أرطِّبُ حلقي أولاً "

قال الساقي لي وهو يملأ كأسي " إنهم عِصْبةٌ من اللصوص، هؤلاء الثلاثة. أتصدِّق، إنَّ أحدَهُم كان كاهناً ذات مرة. إنه أكبر مُزيِّف بينهم. لا أستطيع أن أطردهم - إنهم يملكون البناء. أتفهم ما أعني؟ "

انهمكَ في الكؤوس الفارغة، نظَّفها، جفَّفها، لمَّعها، وأشعلَ لنفسه سيجارة. ومن ثم عادَ إليّ بخطى متمهِّلة.

تمتمَ كمَن يُفضي بسرٍ " كلُّهم سكيِّر. ولو أرادوا لتكلَّموا كلاماً عاقلاً. إنهم أذكياء كفخاخٍ من الفولاذ. يحبّون أن يمثِّلوا، هذا كل ما في الأمر. يعلمُ الله لماذا يختارون هذا المكان ليقوموا بذلك ". مالَ إلى الخلف ليبصق بصقةً كبيرة في المبصقة الموجودة عند قدمه." أيرلندا! إنَّ أياً منهم لم يرَ أيرلندا. لقد ولدوا ونشأوا على مبعدةِ شارعٍ من هنا. واخترعوا الأمرَ كله ... ربما لن تصدِّق حين أقولُ لك إنَّ الضريرَ كان ذات يوم ملاكماً عظيماً. إلى أن هزمه تيري ماكغفرن شرَّ هزيمة. ذلك الرجل كانت له عينا صقر. إنه يأتي إلى هنا في كل يوم ليعدَّ نقوده. وعندما يحصل على نقودٍ خشبية يستشيط غضباً. أتدري ماذا يفعل بالنقود المُزيَّفة؟ يمرِّرها إلى عميانٍ حقيقيين. أليس هذا عملاً ظريفاً؟ "

تركني برهةً ليناشدهم أن يخفضوا أصواتهم. كانت الشمبانيا قد بدأت تفعل فعلها.

" أتعلم ما الخبر الكبير الآن؟ إنهم يُخطِّطون لاستئجار عربة خيل ليقوموا بجولةٍ في السنترال بارك. يقولون، حان وقت إطعام الحَمَام. ما رأيكَ في هذا ؟ ". ومرة أخرى مالَ إلى الخلف واستخدمَ المبصقة. " وهذا فصلٌ آخرَ من فصولهم - إطعامُ الحَمَام. إنهم ينثرون بعض فُتات الخبز والفول السوداني، وبعد أن يستجمعوا حولهم حشداً من الناس يبدءون بتوزيع النقود الخشبيّة. ويخدعونهم خِدعةً كبرى. وبعد ذلك يقوم " بن " الضرير بنمرةٍ صغيرة ويمرِّرون القبَّعة على الموجودين. وكأنهم لا يحتكمون على سنتٍ واحد! أودُّ أن أكونَ حاضراً هناك مرةً لكي أضعَ كتلةً كبيرةً من الخراء في صندوق التبرعات ... "

أخذَ يتلفَّتُ حوله ليرميهم بنظرة ازدراء. ثم عاد يستديرُ نحوي وبدأ يَنْبُتْ.

" لعلَّكَ تظن أنهم كانوا يتشاجرون حقاً حول شيءٍ ما ؟ كَمْ مِنْ مرةٍ أنصَتُّ لأعرفَ كيف يبدأ الأمرُ - لكني لم أتوصَّل قط إلى ذلك. إذ لا تراهم إلا وقد انخرطوا فيه. إنهم يأتون على ذِكْرِ أي شيءٍ قديمِ العهد - ليشتبكوا معاً. إنَّ ما يعجبهم في الأمر هو الثرثرة. أما الناحية الجداليّة فمجرَّد قذى في العين. البابا، داروين، والقنغر - لقد سمعتُ هذا كله. إنه بلا أي معنى، مهما كان ما يتكلَّمون فيه. بالأمس كان الموضوع الهندسة الهيدروليّة وكيف يتمُّ الشفاء من الإمساك. وقبل يومين كان "تمرُّد عيد الفصح". وكله مخلوط بالكثير من القذارة - الطاعون الدَّبلي، تمرُّد السباهي[١٩٦]، القنوات الرومانية وريش الخيل. كلام، كلام ... أحياناً أكادُ أُجنُّ. وفي كل ليلة تراني أتجادلُ أثناء نومي. والمصيبة هي

---

١٩٦ - السباهي : هندي مجنَّد في الجيش الإنكليزي . - المترجم

أني لا أدري عمَّا أتجادل. مثلهم تماماً. إنهم يُفسدون عليّ حتى يوم عطلتي. فأظلُّ أتساءلُ إنْ كانوا سيظهَرون لي في مكانٍ ما ... البعضُ يرونهم مُسلِّين. أعرفُ أشخاصاً تطقطقُ جوانبهم من فرط الضحك عليهم. أنا لا أجدهم مُسلِّين، لا يا سيدي! وحين أنتهي من العمل هنا أشعرُ كالواقف على رأسه ... اسمعْ - في إحدى المرات كنتُ أقضي محكوميّةً في السجن - مدة ستة أشهر - وكان هناك رجلٌ ملوَّن في الزنزانة المجاورة لزنزانتي ... وطوال النهار والليل أيضاً كنت أسمعه يغنِّي ... "هل أُنعشهُ لكِ"؟ فاستَعَرَ جنوني إلى درجةِ أني رَغِبْتُ في خنقه. أمرٌ مضحك هه؟ يُبيِّنُ لك إلى أي مدى يمكن أن تصلَ حساسيتي... يا إلهي، لو أني أستطيع التخلُّص من هذا العمل فسأتوجَّه إلى سييرا نيفادا. إنَّ ما أنا بحاجة إليه هو السكينة والهدوء. لا أريدُ حتى أن أنظرَ إلى بقرة. فقد تُصدِر موو-وو-وو- أتفهم ما أعني؟ المشكلةُ هي أني حين خرجتُ كانت زوجتي قد رحلَتْ. نعم! هربت مني - مع أعزّ أصدقائي، طبعاً. ومع ذلك كله، لا أنسى ما حييتُ ذاك الشهر من السكينة والهدوء. لقد كان يستحق كل ما حدث بعد ذلك ... إن العمل طوال النهار كالعبد يجعلك حسَّاساً. لقد خُلِقتُ لأمرٍ آخر. لم أعرف أبداً ما هو. منذ زمنٍ طويل وأنا غريب الأطوار ... "هل أُنعشُهُ لكِ"؟ إنه على حساب المحلّ، لا يهمّ! أترى ... ها أنا أتكلَّم بسرعة البرق. هذا ما يحدثُ لي. ترى وجهاً متعاطفاً فتنفكُّ عقدة لسانك ... أنا لم أخبرك كل شيء بعد". ويمدُّ يده إلى أعلى ويُنزِل زجاجة من الجن. يصبُّ لنفسه ملء كشتبان، كشتبان كبير. "في صحتك! ولنأمل في أن يغربوا عن هذا المكان سريعاً. أين كنت؟ أيوه، الخبر السيئ ... ماذا في

اعتقادك أرادني أبواي أن أكون؟ وكيلُ شركةِ تأمين. تصورًّ. لقد رأيا أنَّه عملٌ راق. في الواقع لقد كان والدي يعمل مساعداً لبنَّاء. من البلد العتيق، حتماً. حذاءٌ أيرلندي سميك كحساء الدجاج بالبهار الهندي. نعم، في مجال التأمين. أتتصورَّني أنخرطُ في روتينٍ كذاك؟ وهكذا انضممتُ إلى سلاح البحرية. ومن ثم عملتُ في تجارة الخيول. وخسرتُ كل شيء. ثم في التمديدات الصحّية. لم أنفع. كنت أخرق. ثم إني أكره القذارة، صدِّق أو لا تصدِّق. فماذا أفعلُ؟ حسنٌ، تشرَّدتُ قليلاً، ثم عدتُ إلى رشدي واقترضتُ مبلغاً صغيراً من والدي لأفتحَ مجلاً لبيع اللحم المفروم. ثم ارتكبت خطأً وتزوجت. ومنذ أن تزوجنا والشجار قائمٌ بيننا. ماعدا خلال فترة العطلة التي حكيتُ لك عنها. وكأنَّ تجربةً واحدةً لم تكن كافية. وسرعان ما علقْتُ بواحدة أخرى - عاهرة حقيرة أخرى. ثم إذا بالمعاناة الحقيقية تبدأ. لقد كانت هذه الأخيرة غريبة الأطوار. ونغَّصَت عليَّ حياتي فلم أعد أعرفُ رأسي من قدميّ. وهكذا وصلَ بي الأمر إلى السجن. وعندما خرجتُ كنتُ من شدَّة الإحباط بحيث ألجأ إلى الدين. نعم، يا سيدي، إن تلك الشهور الستة التي أمضيتها في السجن أنزلتْ في قلبي خشية المسيح. كنتُ على أتمّ الاستعداد للالتزام ... ".

صبَّ لنفسهِ ملءَ كشتبانٍ آخر من الجِن، وبصقَ مرة أخرى، ثم واصلَ من حيث انقطع. " اسمع، لقد كنتُ من فرطِ الحذرِ بحيثُ كان في إمكانك أن تقدِّم إليَّ قالباً من الذهب فلا ألمسه. بهذه الطريقة باشرتُ هذا العمل. طلبتُ شيئاً يشغلني. فدبَّرَ لي والدي العمل ". ثم مال عليَّ ليهمسَ لي بما يلي: " لقد عَطَسَ لي خمسمائة بكل هدوء لأحصل على هذه الثغرة! هذا لطفٌ، لا تقُل لي! "

هنا استأذنتُ منه لكي أتبوّل.

حين عدتُ كان البار قد امتلأ.

لاحظتُ أنَّ الثلاثيَّ قد اختفى. هززتُ نفسي ككلب وعدتُ مباشرةً إلى الدربِ الأبيضِ المرح. كان كل شيء قد عادَ إلى حالته الطبيعية. إنه برودواي من جديد، لم يعد الـ "رامبلا"، ولا حديقة نفسكي بروسبكت. زحمة نيويورك النموذجيّة لا تختلف عمًّا كانت عليه في عامها الأول. اشتريت صحيفةً في ساحة تايمز وغصتُ في القطار النفقي. كان العمال يشقُّون طريقهم المملّة عائدين إلى منازلهم. ليس في القطارِ كلّه قبسٌ من حياة. وحدها لوحة المفاتيح في مقصورة السائق كانت حيَّة، تطقطقُ بالكهرباء. كان في إمكانك أن تجمعَ كلَّ الأفكارِ التي تخطُرُ في أذهان البشر، وتضع أمامها كسراً عِشرياً، وتضيفُ ستة وعشرين رقماً صحيحاً ويظل ذلك كله أقلّ من صِفر.

في اليوم السابع ارتاحَ اللهُ من عملهِ الذي عَمِلَ ورأى أنَّ كلَّ شيءٍ حسَن. ضع ذلك في غليونك ودخِّنه!.

تساءلتُ بإبهامٍ حول الحَمَام. وانتقلتُ من ذلك إلى التمرُّد السباهي. ثم غفوتُ. غبتُ في سباتٍ لم أستيقظ منه إلى أن وصلنا إلى كوني آيلند. كانت الحقيبة قد اختفت ,ومحفظة نقودي أيضاً. حتى الصحيفة سُرِقَتْ ... لم يبقَ أمامي إلا أن ألزمَ القطار وأعود من حيث أتيت.

شعرتُ بالجوع. جوعٌ ضار. وكنتُ في حالةٍ نفسيةٍ ممتازة. قرَّرتُ أنه يمكنني أيضاً أن أتناولَ طعامي في مربَع " المرجل الحديدي ". شعرتُ كأني لم أكن قد رأيتُ زوجتي منذ عهدٍ بعيد.

رائع! غيدياب، يلاً إلى الفيليج!

١٦

كان " المرجل الحديدي " أحدُ معالمِ منطقةِ " فيليج "؛ يأتيه الزبائن من كل حدبٍ وصوب. ومن بين الشخصيات العديدة المثيرة للاهتمام التي تتردَّد على المربع الفلتات والغريبو الأطوار الذين لا غِنى عنهم وطبعوا منطقة " الفيليج " بطابعها الشائن.

وإذا صدَّقنا مونا، سيبدو أنَّ كلَّ المجانين يجتمعون على موائدها. وفي كل يوم كنتُ أسمع عن شخصية جديدة، وكل واحدة، طبعاً، أشدُّ تطرُّفاً من الأخيرة.

آخر واحدة كانت آنَّاستاسيا. هبَّتْ على المكان من الساحل، وكانت تحاولُ جاهدةً أن تواصلَ حياتَها. ولدى وصولها إلى نيويورك كان بحوزتها بضع مئات من الدولارات لكنَّها سرعان ما تلاشت كالدخان، وما لمْ تهبه سُرِقَ منها. ووفقاً لمونا، كانت مخلوقة خارقة الجمال، شعرها أسود طويلاً تُصفِّفه كالعُرف، وعيناها بلونٍ أزرق بنفسجياً، ويداها قويتين جميلتين وقدماها ثابتتين كبيرتين. أطلقَتْ على نفسِها ببساطةٍ اسم أناستاسيا. اسمها الثاني، آنابوليس، كان من اختراعها، ومن الواضح أنها دخلت " المرجل الحديدي " وتجولَّت فيه بحثاً عن عمل. وقد سمعتها مونا تتحدَّث إلى صاحب المحل فهبَّت إلى مساعدتها. لم ترضَ

لها أن تغْسِلَ الأطباقَ أو حتى أن تخدمَ الموائد. وللتو قدَّرَت أنَّ تلك المرأة شخصية استثنائية، ودَعَتْها إلى الجلوسِ وتناولِ الطعام. وبعد أن أجرَتْ حديثاً طويلاً معها أقرضَتْها بعض المال.

" تصورَّ، كانت تتنقَّل وهي ترتدي رداءً سروالياً، ولم تكن تلبس جورباً وكان حذاؤها مهترئاً، والناس يسخرون منها "

" هلاّ وصفْتِها لي من جديد؟ "

قالت مونا " لا أستطيع حقاً "، وعلى الأثر انطلقَتْ في وصفٍ مُسهَب لصديقتها. والطريقة التي قالت بها " صديقتي " أحدثَتْ لديَّ شعوراً غريباً. لم أكن قد سمعتُها قط تشيرُ إلى أيٍ من معارفها الآخرين بهذه الطريقةِ بالضبط. كانت كلماتها تتَّصفُ بالتوهُّج شفٌّ عن تبجيلٍ، وهيامٍ وأشياء أخرى يصعُبُ تحديدها. وقد جعلت من ذلك اللقاء مع صديقتها الجديدة حَدَثاً من الطراز الأول.

غامرت فسألتُها " كم عمرها؟ "

" كَمْ عمرها؟ لا أدري. ربما اثنان وعشرون أو ثلاثة وعشرون. لا سنَّ محدَّداً لها. إنك لا تفكِّر في مثل هذه الأشياء، حين تنظر إليها. إنها المخلوقة الأشدّ روعة التي قابلتها في حياتي كلها - مختلفة عنك، يا فال "

" أتكون فنانة؟ "

" إنها كل شيء. تستطيع أن تفعل كل شيء "

" أترسم؟ "

" طبعاً! ترسم، وتنحَت، وتصنع الدُمى المتحركة، وتكتب شعراً، وترقص - وفوق ذلك كله هي مُهَرِّجة. لكنها مُهرِّجة حزينة، مثلك "

" لا أظنَّكِ ترين أنها مجنونة؟ "

" لا أقولَ هذا أبداً! إنها تقوم بأفعالٍ غريبة، ولكن فقط لأنها مختلفة. إنها أكثر مَنْ قابلتُ في حياتي حريّةً، ومأساويّةً حتى أخمص قدميها. إنها فعلاً عويصة "

" مثل كلود، أعتقد "

ابتسمتْ. قالت " بصورةٍ ما. غريبٌ أن تأتي على ذكره. يجب أن تراهما وهما معاً. يبدوان وكأنهما سَقَطَا من كوكبٍ آخر "

" إذن يعرفان بعضهما؟ "

" أنا قمتُ بتقديمِ كلٍ منهما إلى الآخر. وسارت علاقتهما على أحسن ما يرام. إنهما يتكلّمان لغةً واحدة. ثم أتدري، إنهما حتى متشابهان جسدياً "

" أعتقد أنها تتَّصف ببعض الصِفات الرجولية، هذه الـ آنّابوبوليس أو كائناً ما كان اسمها "

قالت مونا، وعيناها تلمعان " لا أعتقد. إنها تفضّل أن ترتدي ملابس رجل لأنها ترتاحُ أكثر فيها. في الواقع إنها أكثرُ من مجرَّد أنثى. ولو كانت رجلاً، لقلتُ الكلامَ نفسه. إنها تتميَّز بسمةٍ إضافيّة تتجاوز الفارق الجنسي . أحياناً تذكُّرني بملاك، فيما عدا أَنه لا يجلّلها جوٌّ أثيري أو ناء. كلا، إنها أرضيّةٌ جداً، بل وأحياناً خشنة ... الطريقة الوحيدة، يا فال، لشرح الأمر هي بالقول إنها مخلوقةٌ متفوِّقة. أتذكر شعورَك اتجاه كلود؟ حسنٌ ... آناستاسيا مهرِّج مأساوي. إنها لا تنتمي أبداً إلى هذا العالم. لا أدري إلى أين تنتمي، ولكن حتماً ليس إلى هنا. نبرة صوتها نفسها تنمُّ عن ذلك. إنه صوتٌ خارقٌ، أشبه بتغريد عصفور منه إلى الصوت الإنساني. ولكن حين تغضب تغدو مخيفة "

" لماذا، هل تنتابها نوبات غضب عنيفة كثيراً؟ "

" فقط حين تتعرَّض للإهانة أو للسخرية "

" ولماذا تتعرَّض لذلك؟ "

" لقد قلتُ لكَ - لأنها مختلفة. حتى مشيتها فريدة من نوعها. ليس الأمر بيدها، هكذا طبيعتها. ولكن يُغضبني كثيراً أنْ أرى كيف يُعاملُها الآخرون. لا أعرفُ شخصاً آخرَ يبزُّها كَرَماً، وتهوُّراً. طبعاً هي لا تتَّصِفُ بأي حسّ واقعي. وهذا ما أحبه فيها "

" ماذا تقصدين بالضبط بهذا؟ "

" أقصدُ ما قلتُ بالتحديد. فلو جاءها شخصٌ بحاجةٍ إلى قميص لخلعتْ قميصها - في منتصف الشارع - وأعطته له. ولا تفكِّر في أنها أصبحت شبه عارية بشكلٍ غير لائق. ويمكن أن تخلع حتى سروالها، إذا لزم الأمر "

" ألا تسمِّين هذا جنوناً؟ "

" كلا، يا فال، لا أفعل. بالنسبة إليها، هي تقوم بالأمر الطبيعي، والعاقل. إنها أبداً لا تتوقف لتفكِّر في العواقب؛ لا تأبه لما يظنّه الناس بها. إنها أصيلةٌ بكل معنى الكلمة. وهي حسَّاسة ورقيقة كزهرة "

" لابد أنها تلقَّت تنشئةً غريبة. ألم تخبرك أي شيء عن والديها، أي شيء عن طفولتها؟ "

" قليلاً "

أدركتُ أنها تعرفُ أكثر مما تريد أن تكشف عنه.

" أعتقدُ أنها كانت يتيمة. وقالت إن الذين تبنّوها كانوا غايةً في الطيبة معها. وكانت تحصلُ على كل ما تريد "

" حسن، هيا نأوي إلى السرير، ما رأيك؟ "

دخَلَتْ الحـمَّام لكي تقوم بـالأمـور الروتينيـة المعـتادة. اندسـستُ في السرير ورحتُ أنتظرُ بصبر. كان باب الحمَّام مفتوحاً.

قلتُ، عـازمـاً على تحويل تفكيرها ، " بالمناسبة، كـيف حال كلود هذه الأيام؟ أمَا مِن جديد؟ "

" سيغادر المدينة في غضون يوم أو يومين "

" إلى أين؟ "

" لم يذْكُرْ . سمعتُ أنه متوجِّه إلى أفريقيا "

" أفريقيا؟ ولماذا يذهب إلى هناك؟ "

" لا تسألني! وإنْ كنتُ لن أُفاجأ حتى إذا قال إنه ذاهب إلى القمر. أنت تعرف كلود ... "

" قلتِ هذا حتى الآن مرات عِدَّة، ودائماً بالأسلوب نفسه. لا ، أنا لا أعرفُ كلودَ ، ليس كما تعنين. أعرفُ فقط ما يختارُ أن يقوله، لا أكثر. بالنسبة إليَّ هو محضُ أُحجية "

سمعتُها تقهقه مع نفسها.

سألتُها " ما المضحك فيما قلت؟ "

" حسبتُ أنكما توصَّلتما إلى تفاهمٍ تام "

قلتُ " لا أحد سيتوصَّلُ إلى فهمِ كلود. إنه لغز، وسوف يظلُّ دائماً لغزاً "

" وهذا بالضبط ما أشعرُ به اتجاه صديقتي "

قلتُ بشيٍ من النَزَق " صديقـتك! إنك بالكاد تعرفـينهـا وها أنتِ تتحدَّثين عنها وكأنها صديقة عمرك "

" كفاكَ سخفاً. هي صديقتي فعلاً - وصديقتي الوحيدة "

" تبدين وكأنك مفتونة ... "

" فعلاً! لقد ظَهَرَتْ في الوقت المناسب "

" والآن ماذا يعني هذا ؟ "

" يعني أني كنتُ يائسةً، وحيدةً، بائسةً؛ كنتُ بحاجةٍ إلى شخصٍ أدعوه صديقاً "

" ما الذي ألمَّ بكِ؟ منذ متى تحتاجين إلى صديق؟ أنا صديقك. ألا أكفيك؟ ". قلتُ هذا متهكِّماً، لكني كنتُ شبه جاد.

دُهشتُ حين أجابتْ " كلا، قال، أنت لم تعد صديقاً لي. أنت زوجي، وأنا أحبك ... ما كنتُ لأطيقُ العيشَ من دونك، ولكن ... "

" ولكن ماذا ؟ "

" كان لابد أن أحظى بصديقٍ، امرأةٍ. شخصٍ أأتمنه على أسراري، ويفهمني "

" اللعنة عليَّ ! هكذا إذن؟ تقصدين أنك لا تأتمنينني؟ "

" ليس كما أأتمن امرأة. هناك أشياء لا يمكن الإفضاء بها إلى رجل، حتى وإن كنتُ أحبه. أوه، ليست أشياء خطيرة، لا تقلق. أحياناً الأشياء الصغيرة أشدّ أهمية من الأشياء الخطيرة، أنت تعلم هذا. ثم، أنت ... أنت لديك عددٌ هائلٌ من الأصدقاء. وحين تكون مع أصدقائك تصبح إنساناً مختلفاً كُليًّاً. أحياناً كنتُ أحسدكَ. لعلّي كنتُ أغارُ من أصدقائك. وذات مرة اعتقدتُ أنه يمكن أن أكونَ كل شيء بالنسبة إليك. لكني أرى أنَّ هذا خطأ. على أي حال، لقد باتَ لديَّ صديقة الآن - وأنوي أن أحتفظ بها "

قلتُ، ما بين المضايقة والجدّ، " والآن تريدين أن تُثيري غيرَتي، أليس كذلك؟ "

خرجَتْ من الحمّام، وركَعَتْ بجانب السرير ووضعتْ رأسها بين ذراعيَّ. تمتمت " فال، أنت تعرف أنَّ هذا غيرُ صحيح. لكن هذه الصداقة عزيزة عليَّ كثيراً وثمينة. لا أريد أن أتقاسَمَها مع أي شخصٍ آخر، ولا حتى معك. على الأقل لفترة من الوقت "

قلتُ " حسنٌ، فهمت ". لاحظتُ أنَّ صوتي بدا أجشَّ قليلاً.

بقبقَتْ ممتنَّة " كنت أعرف أنك ستتفهَّم "

سألتُ " ولكن ما الذي يستدعي الفهم؟ ". قلتُ ذلك برقَّة ونعومة.

أجابت " بالضبط، لا شيء، لا شيء. إنه أمرٌ طبيعي ". مالت إلى الأمام وقبَّلتني بشغف على شفتيّ.

حين نهضت واقفة لتطفئ الأنوار قلتُ بتهوُّر: " يا مسكينة! كنتِ بحاجة إلى صديق طوال تلك الفترة وأنا لا أعلمُ. ولم أشتبه في الأمر. لابد أني مغفَّل، عديم الإحساس "

أطفأتْ الأنوار وزحفَت إلى السرير. كان هناك سريران لكننا استخدمنا واحداً فقط.

همستْ " ضُمَّني بقوة، فال، إنني أحبك أكثر من أي وقت سابق. أتسمعني؟ "

لم أقُل شيئاً، واكتفيتُ بضمِّها بقوة.

" مؤخَّراً قال لي كلود - أتسمعني؟ - إنك أحدُ القلائل "

قلتُ مازحاً " تقصدين، أحد الأخْيَار؟ "

" لا رجلَ آخرَ لي في العالم كله غيرك "

" ولكن ليس صديقاً ... "
وضَعَتْ يدها على فمي.

* * *

في كل ليلة كانت تُغنّي الأغنية نفسها - " صديقتي، ستازيا ". تنطقها بطريقة مختلفة، طبعاً، كنوعٍ من البهارات وتحكي حكايات مطوّلة عن الاهتمام المزعج الذي كان يغدقه عليها رباعيٌّ متنافر. أحدهم - لم تكن تعرف حتى اسمه - يملك سلسلة من المكتبات، وآخر مصارع، جيم ديسكول، وثالث مليونير، منحرف سيئ السمعة، اسمه - يبدو شديد الغرابة - تنكلفلز، والرابع مجنون فيه شيءٌ من قديس. هذا الأخير، ريكاردو، وقعَ من نفسي موقعاً دافئاً، مُفترضاً أنَّ وصفَها له ينطبقُ على الواقع. فهو شخصٌ هادئ، رصين، يتكلّم بلكنةٍ أسبانيّة قويّة، لديه زوجة وثلاثة أطفال يحبّهم حباً جماً، وهو في حالةِ فقرٍ قصوى، لكنه يمنحُ هِبات سخيّة، وكان طيّباً ورقيقاً - " رقيقاً كالحَمَل " - يكتُبُ أبحاثاً في الميتافيزيقيا غير منشورة، ويُلقي محاضرات على جمهورٍ من عشرةِ أشخاصٍ أو اثني عشرة، et patati et patata وما أعجبني فيه مَا يلي - كان كلما رافقها إلى القطار النفقي، وكلما قال تصبحين على خير يشدُّ على يديها ويتمتم بكل رصانة: " إذا لم أستطع أن أحصل عليك، فلا أحد يستطيع. سوف أقتلك "

كانت تعود إلى ذِكر ريكاردو باستمرار، قائلة كم كان يولي آناستاسيا اهتمامه، وما" أجمل " معاملته لها، وما إلى ذلك. وكلما أتت على ذِكر اسمه، تعيدُ تهديده لها، وتضحك منه وكأنه نكتة عظيمة. وبدأ موقفها يزعجني.

ذات ليلة، قلتُ " ما أدراكِ أنه لن يَفي بوعدِهِ ذات يوم؟ "
على هذا ضحكتْ أكثر من ذي قبل.
" أراكِ تعتقدين أنه أمرٌ مستحيل؟ "
قالت " أنت لا تعرفه. إنه أحد أرقّ المخلوقات على الأرض "
" لهذا السبب بالذات أعتقدُ أنه قادرٌ على فِعْلِ ذلك. إنه جادّ. من الأفضل أن تنتبهي إلى نفسك وأنت معه "
" أوه، كلام فارغ! إنه لا يؤذي ذبابة "
" ربما لا يفعل. لكنه يبدو متيّماً إلى درجةِ أن يقتُلَ المرأةَ التي يُحب "
" كيف يمكن أن يكون متيّماً بي؟ هذا سخفٌ. إنني لا أُظهِر له أي عاطفة. في الواقع، إنني بالكاد أُنصِتُ إلى ما يقول. إنه يتحدّث مع آناستاسيا أكثر مما يفعل معي "
" لستِ مضطرّة إلى أن تفعلي أي شيء، أنت بحاجة فقط إلى أن توجدي. إنه مصاب بالولع المَرَضي. إنه مجنون. إلا إذا كان من الجنون الوقوع في حب صورة. أنتِ الصورةَ المجسَّدة لَمثَله الأعلى، هذا واضح. إنه ليس في حاجةٍ إلى أن يتفحَّصَكِ، أو حتى أَن يحصل على جواب منك. إنه يريد أن يُحَملقُ فيك على الدوام - لأنك جسَّدتِ امرأةَ أحلامه"
قالت مونا، وقد بوغتت قليلاً بكلامي، " هذه بالضبط طريقتُهُ في الكلام. أنتما الاثنان تتوافقان بشكل رائع؛ تتكلّمان اللغة نفسها. أنا أعرفُ أنه مخلوقٌ حسَّاس، أيضاً على قدرٍ كبيرٍ من الذكاء، ومُعجَبَةٌ به أيَّما إعجاب، لكنه يُثقِلُ عليَّ بالتصاقه بي. إنه مجردٌ من أي حسّ فكاهي، مجرَّد تماماً. وحين يبتسمُ يبدو حتى أشدّ حزناً من المعتاد. إنه روحٌ وحيدة "

قلت " مِنَ المؤسفِ أني لا أعرفه. إنني مُعجَبٌ به أشدَّ من إعجابي بأيٍ ممَّن تكلَّمتِ عنهم. يبدو مخلوقاً بشرياً حقيقياً. ثم إني أحبُّ الأسبان. إنهم رجالٌ حقيقيون ... "

" إنه ليس أسبانياً - هو كوبيٌّ "

" لا فرق "

" كلا، بل هناك فرق، فال. ريكاردو نفسه قال لي هذا. إنه يمقت الكوبيين "

" حسن، لا يهم. سيُعجبني حتى ولو كان تركياً "

فجأةً قالت مونا " قد أُقدِّمك إليه. ولمَ لا ؟ "

تفكَّرت قليلاً قبل أن أُجيب.

قلتُ " أظن من الأفضل ألاّ تفعلي. لا يمكنك أن تخدعي رجلاً كهذا. إنه ليس كروموِيل. ثم، حتى كروموِيل ليس أحمقَ كما تظنين "

" أنا أبداً لم أقُل إنه أحمق! "

" لكنكِ حاولتِ أن تدفعيني إلى هذا الاعتقاد، لا تُنكري "

" حسن، أنت تعرف السبب "، ونفحتني ابتسامةَ إلهِ المروجِ التي تختصُّ بها.

" اسمعي، يا أختاه، أنا أعرفُ عنكِ وعن خِدَعِكِ أكثر مما تظنين، حتى أنه يؤلمني أن تفتحي الموضوع "

" إن خيالَكَ مُبدع، فال. ولهذا تراني أحياناً لا أخبرك بالكثير. أنا أعرفُ كيف تبني الأشياء "

" ولكن يجب أن تعترفي بأني أبنيها على أساسٍ متين "

مرة أخرى رسمتْ ابتسامةَ إله المروج.

ثم شَغَلَتْ نفسها بأمرٍ ما، لكي تُخفي وجهها.

سادَ بيننا صمتٌ مريح بشكلٍ ما. ثم، وبلا مقدِّمات، قلتُ فجأة - " أعتقدُ أنَّ النساءَ مضطرات إلى الكذب ... إنه في دمهن. والرجال أيضاً يكذبون، طبعاً، ولكن بصورةٍ مختلفةٍ كثيراً. يبدو أنَّ لدى النساء خوفاً رهيباً من الحقيقة. ولو أنكِ تكُفِّين عن الكذب، لو تكُفِّين عن ممارسةِ هذه اللعبة الحمقاء، التي لا لزومَ لها، معي، فأعتقد ... "

لاحظتُ أنها توقَّفَت عن القيام بما كانت تتظاهرُ بالقيام به. قلتُ في نفسي، لعلَّها ستُنصِت حقاً إلى ما أقول. لم يكن في إمكاني رؤية غير جانب وجهها. وكان التعبيرُ المرتسمُ عليه هو الانتباهُ الشديد. وأيضاً الاحتراسُ. كحيوان.

" أعتقد أني سأكونُ على استعدادٍ لتنفيذِ كلِ تطلبين مني. أعتقد أني حتى سأتخلّى عنك لرجلٍ آخرَ، إذا كانت تلك رغبتك "

هذه الكلمات غير المتوقَّعة مني أراحتها كثيراً، أو هذا ما بدا. أما ما تخيَّلتُ أني سأقوله فهذا ما لا أعلمه. لقد انزاحَ عبء عن كتفيها. تقدَّمتْ مني - كنتُ جالساً على حافةِ السرير - وجلستْ إلى جانبي. ووضعتْ يدها على يدي. كانت النظرة التي تسلَّلت إلى عينيها تنمُّ عن صدقٍ وإخلاصٍ خالصَين.

بادرتني. قالت " فال، أنت تعلم أني لن أطلب أبداً مثل هذا الطلب منك. كيف استطعتَ أن تقول هذا؟ قد أكونُ فعلاً قد ألقيتُ بين حينٍ وآخر أكاذيبَ بيضاءَ على مسمعك، لكني لم أكذب عليك حقاً. إني لا أقوى على أن أمنَعَ عنك أي أمر حيوي - إنَّ ذلك يُسبِّبُ لي ألماً مريراً. هذه الأشياء الصغيرة ... الأكاذيب البيضاء ... أُلفِّقُها لأني لا أريدُ أن

أسبِّبَ لك الألم. وأحياناً تكون هناك مواقفُ هي من القذارةِ بحيث أشعرُ أنَّ مجرَّدَ ربطها بك يلوِّثُكَ. لا يهمّ ما يحدث لي أنا. لقد خُلقتُ من نسيجٍ خشن. وأعرفُ كيف هو العالم. أنت لا تعرفه. أنت حالم. ومثالي. لا تعرف، ولن يخطر أبداً في بالك، ناهيك عن أن تؤمن، كم الناسُ خبثاء. أنت لا ترى إلا الجانب الطيِّب من كل إنسان. أنت نقي، هذا هو أنت. وهذا ما عناه كلود حين قال إنك واحدٌ من الأخيار. وريكاردو روحٌ نقيّةٌ أخرى. وأمثالُكَ وأمثال ريكاردو لا يتورَّطون في الأعمال القبيحة. أنا أحياناً أتورَّطُ - لأني لا أخشى العدوى. أنا من العالم. مَعَكَ أتصرَّفُ وكأنّي مخلوقةٌ أخرى. أودُّ لو أصبحَ كما تريدني أن أكون. لكني أبداً لن أكون مثلك، أبداً "

قلت " إنني الآن أتساءلُ ماذا يمكن أن يقولُهُ الناسُ - أناسٌ مثل كرونسكي، وأومارا، وألريك، مثلاً - إذا سمعوك تتكلّمين هكذا "

" لا يهمّ، قال، ما يظنّه الآخرون. أنا أعرفُكَ. أعرفُكَ أفضل من معرفة أيٍ من أصدقائك لك، مهما طالت مدة معرفتهم لك. أعرفُ كم أنت حسّاس. أنت أرقّ مخلوق في هذه الحياة "

" بدأتُ أشعرُ أني هشٌّ وضعيفٌ، بعد هذا كله "

قالت بحنوّ " أنت لستَ ضعيفاً. أنت قوي - ككل الفنانين. ولكن حين يتعلّقُ الأمر بالعالم، أقصد بالتعامل مع العالم، فأنتَ مجرد طفل. إنَّ العالمَ شريرٌ حتى أعماقه. أنتَ موجودٌ فيه، لا أقولُ شيئاً، لكنَّكَ لستَ منه. أنت تعيشُ حياةً مفتونة. إذا ما مررتَ بتجربةٍ بشعةٍ تُحوِّلُها إلى شيءٍ جميل "

" تتكلّمين وكأنك تحفظينني ككتاب "

" ألستُ أقول الحقيقة؟ أتُنكر؟ "

أحاطتني بذراعيها بحبٍ وحفَّت وجنَتَها على وجنتي.

" أوه فال، لعلّي لستُ المرأةَ التي تستحقها، لكني إعرفك. وكلما عرفتك أكثر أحببتك أكثر. لقد اشتقتُ إليك كثيراً مؤخَّراً، لهذا ترى أنَّ حصولي على صديقةٍ يعني لي الكثير. إنَّ حالتي تزدادُ سوءاً بحقّ - من دونك! "

" أوكيه. ولكن ألا تلاحظين أننا بدأنا نتصرَّف كطفلين مدلَّلَين؟ لقد توقعنا أن يصلنا كل شيء على طبق "

هتفَت " أنا لم أفعل! لكني أردتُ لكَ أن تحصلَ على كل ما تشتهي. أردتُ لكَ أن تحظى بحياةٍ رغيدةٍ - بحيث تتمكَّن من أن تُحقِّق كل ما حلمت به. أنت غير قابل للفساد بالتدليل! أنت تأخذ فقط ما تحتاج، لا أكثر "

قلت، وقد تأثَّرتُ بهذه الملاحظات غير المتوقَّعة، " هذا صحيح. قليلون يدركون ذلك. وأذكرُ كَمْ غضبَ أهلي حين عُدْتُ ذاتَ صباحِ يومِ أحدٍ من الكنيسة وأخبرتُهم بحماس أني اشتراكيٌّ مسيحيّ. وكنت قد سمعتُ عاملَ منجمٍ يخطبُ من المنبر في صباح ذلك النهار، ووقعتْ كلماته في نفسي موقعاً حسناً. وأطلق على نفسه صفَةَ الاشتراكيّ المسيحي. وعلى الفور أصبحتُ أنا أيضاً مثله. مهما يكن، انتهى الأمرُ بالهراء المعتاد ... بقول أهلي إنَّ الاشتراكيين لا يهتمّون إلا بتبديد أموال الآخرين. فسألتُ " وما الخطأ في ذلك؟ ". وكان الجواب " انتظر حتى تكسب مالك بنفسك، وعندئذٍ تكلَّم! ". ورأيتُ أنَّ هذا الكلام ليس إلا جدالاً سخيفاً. وتساءلتُ، ماذا يهمُّ إن كسبتُ نقوداً أم لم أكسب؟

المهمّ أن خيرات الحياة لا توزَّع بعدل. وصمَّمتُ بقوة على أن أُقلِّل من أكلي، ومن كل شيء أحصلُ عليه، إذا كان هذا سيُحسِّن من أوضاع الذين لا يحصلون إلا على القليل. وتبدَّى لي على الفور قِلَّة ما يحتاجه الإنسان فعلاً. فإذا كنتِ قانعةً لا تحتاجين إلى الثروات المادية ... في الواقع، لا أدري ما الذي جعلني أباشرُ الحديثَ عن هذا! آه نعم! إنه فكرة أني آخذ فقط ما أحتاجُ إليه ... أنا أعترفُ بأنَّ رغباتي كثيرةٌ جداً. لكنني أيضاً أستطيعُ أن أستغني عنها. وعلى الرغم من أني أتحدَّثُ كثيراً عن الطعام، كما تعلمين، فإني في الحقيقة لا أحتاجُ إلى الكثير منه. أنا أريد فقط ما يكفيني لأنسى أمرَ الطعام، هذا ما أقصده. وهذا أمرٌ طبيعي، ألا تظنين؟ "

" طبعاً، طبعاً "

" ولهذا أنا لا أريد كل الأشياء التي يبدو أنكِ تعتقدين أنها كفيلةً بإسعادي، أو بجعلي أُحسِنُ الكتابة. نحن لسنا بحاجةٍ إلى أن نعيشَ كما كنا. لقد استقلتُ من عَمَلي إرضاءً لك. ولا شك في أنَّ ذلكَ كان رائعاً ما دامَ دائماً. وكذا الحالُ مع عيد الميلاد. وأشدُّ ما أبغضه هو هذا الاقتراض والاستجداء الدائمَين، هذا الاستغلال للناس باعتبارهم مُغفَّلين. أنتِ نفسك لا يعجبكِ هذا، أنا متأكِّد. فلماذا إذن يخدعُ كلٌّ منا الآخر حولَ هذا؟ لِمَ لا نضعُ حَدّاً له؟ "

" لكني فعلتُ! "

" لقد كففتِ عن ممارستهِ إكراماً لي، أما الآن فتمارسينه إكراماً لصديقتك آناستاسيا. لا تكذبي عليَّ. أنا أعرفُ ما أقول "

" الأمرُ مختلفٌ في حالتها، قال. إنها لا تعرفُ كيف تكسب النقود. بل هي طفلة أكثر منك "

" ولكن كل ما تفعلينَه أنك تُبقينها طفلةً - بمساعدتها على طريقتك. أنا لا أقول إنها طُفيليّة. أنا أقول - أنت تسرقين منها شيئاً. لماذا لا تبيعُ دُماها المتحرِّكة، أو رسوماتها، أو تماثيلها؟ "

ضَحكَتْ على هذا الكلام بدون تحفُّظ " أتسألُ لماذا؟ للسببِ نفسه الذي يمنعُكَ من بيع قصصكَ. لأنها فنانة أصيلة أكثر مما ينبغي، هذا هو السبب "

" ولكنها ليسَتْ مضطرَّة إلى بيعِ أعمالها إلى تاجرِ أعمالٍ فنيّة - فلتبِعْها مباشرةً للأفراد. فلتبعْهَا مقابلَ أغنية! مقابلَ أي شيء يوفِّر لها اعتمادَها على ذاتها. سوف يفيدها ذلك. سوف ترتاح حقاً بذلك "

" ها أنت تبدأ من جديد! تُبيّن قلّة ما تعرفه عن العالم. إنها يا فال لن تستطيع حتى أن تهبَ أعمالها، هكذا هو الحال الآن. وإذا ما توصَّلت في يومٍ ما من طبع كتابٍ لك سوف تضطرّ إلى التوسُّل إلى الناس كي يَقْبَلوا نسخاً منك مجاناً. الناس لا يريدون الأشياء الجيدة، صدِّقني. إن أمثالك وأمثال آناستاسيا - أو ريكاردو - يجب حمايتهم "

" فلتذهب الكتابةُ إلى الجحيم، إذا كان هذا هو الحال ... لكني لا أُصدِّق هذا! أنا لم أُصبِحْ كاتباً بعد، إنني لستُ أكثر من مبتدئ. لعلّي أفضل مما يظنه الناشرون بي، ولكن ما زال أمامي طريقٌ طويلة أمشيها. وحين أعرفُ حقاً كيف أُعبِّر عن نفسي سوف يقرأني الناس. لا يهمّني مهما كان العالمُ شريراً. لكني أؤكِّد لك أنهم سيقرأونني. لن يتمكَّنوا من تجاهلي "

" وحتى ذلك الحين؟ "

" حتى ذلك الحين سوف أفتِّشُ عن وسيلةٍ أخرى لكسب لقمة عيشي"

" عن طريق بيع الموسوعات؟ أهذه وسيلةٌ جيدة؟ "

" أعترفُ بأنها ليست طريقةً جيدةً، لكنها أفضل من الاستجداءِ والاقتراض. أفضل من دفعِ الزوجة إلى المتاجرةِ بنفسها "

قالت مونا بحدَّة " إنني أكسبُ كل بنسٍ بعَرَقِ جبيني، وخِدمةُ الموائد ليست عملاً سهلاً "

" وهذا يحفِّزني أكثر على أن أُساهِمَ بنصيبي. أنتِ لا يُعجبك أن تريني أبيعُ الكتبَ، وأنا لا يعجبني أن أراكِ تخدمين المَوائد. ولو أَننا نتمتَّعُ بقدرٍ أكبر من الحسّ لقُمنا بأعمالٍ أخرى. لابد أنَّ هناك نوعاً آخرَ من الأعمال ليس مُهيناً "

" ولكن ليس لنا! نحنُ لم نُخلَق لنؤدي أعمالاً دنيوية "

" إذن علينا أن نتعلَّم ". كنتُ أتمادى في موقفي القويم.

" قال، إن هذا مجرد كلام. أنتَ تعرف جيداً أنك لن تستطيع أن تحتفظ بعملٍ حقيقي. أبداً. ولا أريدك أن تفعل. أُفضِّل لك أن تموت "

" لا بأس، غلبتني. ولكن يا إلهي، ألا يوجد عملٌ يمكن لرجلٍ مثلي أن يقومَ به دون أن يشعر أنه أحمق أو أبله؟ ". هنا دَفَعَتْني فكرةٌ كانت تتشكَّلُ على شفتيّ إلى الضحك. ضحكتُ طويلاً ومن كل قلبي قبل أن أنطقَ بها. ونجحتُ في قول " اسمعي، أتعرفين بماذا كنتُ أُفكِّر؟ كنت أفكر في أني ربما أنفعُ أن أكونَ دبلوماسياً رائعاً. كان يجب أن أعملَ سفيراً لبلدٍ أجنبي - ما رأيك في هذا؟ لا، جدّياً. ولمَ لا؟ أنا ذكي، وأعرفُ كيف أتعاملُ مع الناس. وما لا أعرفه سوف أُفبركه بالاستعانة بخيالي. هل تتصورينني سفيراً في الصين؟ "

الأمرُ الغريبُ هو أنها رأت أن الفكرةَ ليست سيئة. ليس نظرياً، على أي حال.

" سوف تكون سفيراً جيداً دون أدنى شك، فال. وكما قلتَ، لمِ لا؟ لكن الفرصة لن تتاح لك أبداً. ثمة أبوابٌ معيَّنة لن تُفتح في وجهك أبداً. لو أنَّ أمثالَكَ يديرون شؤونَ العالم لما قلقنا على وجبتنا التالية - أو على السبيل إلى نشر قصصنا. لهذا أقول إنك لا تعرف العالم! "

" اللعنة، أنا أعرف العالم. أعرفه جيداً جداً. لكني أرفض أن أتفاهم معه "

" الأمر نفسه "

" لا ليس نفسه! هناك فرقٌ بين الجهل - أو العَمَى - والنأي بالنفس. شيءٌ من هذا القبيل. إذا لم أكن أعرف العالم فكيف يمكن أن أُصبح كاتباً؟ "

" للكاتب عالمه الخاص "

" لعنني الله! لم أتوقع أن تقولي هذا! الآن أربكتني ... "، ورانَ عليَّ الصمت برهة.

ثم تابعتُ " إن ما تقولينه صحيح تماماً، لكنه لا يُلغي ما قلتُهُ أنا. لعلّي لا أستطيع أن أشرحه كما تفعلين، لكني أعرفُ أني على حق. فأن يكونَ لكِ عالَمُكِ الخاص، وأن تعيشي فيه، لا يعني أنك بالضرورة عمياء عمَّا يُسمَّى بالعالم الحقيقي. ولو لم يكن الكاتبُ غير متآلفٍ مع العالمِ اليومي، لو لَمْ يكن شديدَ الانغماسِ فيه بحيث يتمرَّد عليه، لما حصلَ على ما تسمّيه عالمه الخاص. إن الفنانَ يحملُ العوالمَ كلها في داخله. وهو يشكِّل جزءاً حيوياً من هذا العالم كأي إنسان آخر. بل إنَّ انتماءه إليه في الحقيقة أكملُ من انتماء الآخرين لسببٍ بسيطٍ هو أنه خلاّق. العالمُ هو وسطُهُ. والآخرون قانعون بزاويتهم الصغيرة من العالم -

بعملهم الصغير، وقبيلتهم الصغيرة، وفلسفتهم الصغيرة، الخ. اللعنة، إنَّ سبَبَ عدم كوني كاتباً عظيماً، إذا كنتِ لا تعلمين، يعودُ إلى أني لم أحتوِ العالمَ الواسعَ برمَّته داخلي بعد. وهذا لا يعني أني لا أعرفُ الشر. لا يعني أني أعمى عن فسادِ الناس، كما يبدو أنك تعتقدين. إنه شيء آخر. أنا نفسي لا أعرفُ ما هو. لكنني سأعرفه، في نهاية المطاف. وعندئذ سأصبح مشعلاً. وسأنيرُ العالمَ كُلّه. سأكشِفُهُ حتى نقي عظامه... لكنني لن أدينَه! لن أفعلَ لأني أعلمُ عِلمَ اليقين أني جزءٌ لا يتجزَّأ منه؛ سِنٌّ هامٌ في آلته ". ثم سكتُّ. " في الواقع نحن لم نصل إلى الدَرْك الأسفل بعد. وما عانيناه لا يُعادِلُ شيئاً يُذكر. قَرْصَةُ برغوث، لا أكثر. هناك أشياء أسوأ يمكن معاناتها غير الافتقار إلى الطعام وما شابه. لقد عانيتُ أكثر بكثير وأنا في السادسة عشرة من عمري، حين كنتُ أكتفي بالقراءة عن الحياة. وإلا فأنا أخدَعُ نفسي "

" لا، أنا أعرف ماذا تعني "، ونكّست رأسها متفكِّرة.

" أحقاً؟ عظيم. إذن أنت تدركين أنه يمكن، دون المشاركة في الحياة، معاناة أوجاع الشهداء ... المعاناة نيابةً عن الآخرين - هذا نوعٌ رائعٌ من المعاناة. فحين تعانين بسبب ذاتك الأنانية، بسبب نقصِ شيءٍ ما أو آثامٍ معيّنة، فإنك تعانين نوعاً من الإذلال. إنني أشمئزُّ من ذلك النوع من المعاناة. أما المعاناة مع الآخرين، أو لأجل الآخرين، أن نكون جميعاً في قاربٍ واحدٍ فهذا أمرٌ مختلف. عندئذ يشعرُ المرءُ أنه أغنى. وما أكرهُ في أسلوبنا في الحياة هو أنها محدودة جداً. يجب أن تنهض وننشط، ونتلقّى الرضوض والضرب لأسبابٍ وجيهةٍ "

استمررت على هذا المنوال فترة طويلة، أنزلق من موضوع إلى آخر،

وغـالبـاً مـا أنـاقضُ نفـسي، وأتلفَّظُ بـأشدِّ الأقـاويل تطرُّفـاً، ثـم أنحِّيـهـا جانباً، وأكافح لأعود إلى الأرض الصلبة.

هذه الحوارات الفرديّة، هذه الخُطَبُ الرنانة، كانت عندئذ قد أخذت تزداد باطِّراد. لعلَّ السبب كان أني لم أعد أكتب. ربما لأني كنت أمكث وحدي أغلب ساعات النهار. وربما، أيضاً، لأنه انتابني شعور بأنها تتسرَّب من بين يديّ. كان يلفُّ تلك التفجُّرات قدرٌ من اليأس. كنت أهفو إلى شيء ما، شيء أعجز عن تثبيته بالكلمات. وعلى الرغم من أنه بدا كأني أعنِّفها إلا أني في الواقع كنتُ أرفعُ من معنوياتي. وأسوأ ما في الأمر أني لم أكن قادراً أبداً على أن أتوصَّل إلى قرارٍ مُحدَّد. كنت أرى بوضوحٍ ما علينا ألاّ نفعله، لكني لم أستطع أن أرى ما علينا أن نفعله. كنتُ في سرِّي أستمتعُ بفكرةِ أني " مَحْميّ ". في سرِّي كان عليَّ أن أعترف بأنها على حق - أبداً لن أتأقلم، أبداً لن أتقدَّم. ولهذا نفَّستُ عمَّا في نفسي بالكلام. ورحتُ أتخبَّطُ جيئةً وذهاباً، أُكرِّر سردَ أحداثِ أيامِ الطفولةِ المجيدةِ، وأيامِ المراهقةِ البائسةِ، ومغامراتِ الشبابِ الخرقاء. كان كل شيء فاتناً، كل ذرَّة منها. ليتَ ذلك الرجل ماكفارلن كانَ حاضراً، مع كاتب اختزاله! على أيِّ قصة كان سيحْصَل من أجل مجلته! (تبدَّى لي لاحقاً كم هو غريب أني قادر على أن أسكُبَ حياتي بالتحدُّث عنها وغير قادر أبداً على أن أدوِّنها على الورق. فحالما أجلسُ أمامَ الآلة الكاتبة يستولي عليَّ الخجل. ولم يخطر في بالي حينئذ أن أستخدمَ الضمير أنا. أتساءلُ لماذا؟ ما الذي كان يمنعني؟ لعلّني لم أكن قد أصبحتُ ذاتي الخاصة)

ليس فقط أثملتُها هي بتلك الأحاديث، بل وأثملتُ نفسي. كان

يكادُ يطلَعُ علينا الفجرُ قبل أن ننام. وبينما أنا أنعسُ أشعرُ أني أنجزت شيئاً أزحتُهُ عن صدري. شيء مجهول! ماذا كان؟ أنا نفسي لم أدرِ. كل ما عرفته كان ما يلي، ومنه يبدو أني استمدت راحة آثمة: لقد قمتُ بدوري الحقيقي.

لعلَّ تلك المشاهد، أيضاً، كان الغرضُ منها فقط البرهان على قدرتي على أن أكونَ مثيراً و " مختلفاً " كتلك الآناستاسيا التي كان سَأمي من سماع أخبارها يتفاقم. ربما. وربما كنتُ قد بدأتُ أغار منها قليلاً. وعلى الرغم من أنها لم تكن قد تعرَّفت إلى آناستاسيا إلا منذ بضعة أيام، إلا أن غرفتها كانت مملوءةً بأغراضها. ولم يعد ينقصُ إلا أن تنتقلَ هذه الأخيرةُ إليها. كانت فوقَ السريرين لوحتان يابانيتان مذهلتان، لوحة لأوتامارو[١٩٧] وأخرى لهيروشينغه[١٩٨]. على صندوق الملابس كانت هناك دمية متحرِّكة صنعتها آناستاسيا خصيصاً لمونا. وعلى الشيفونيه وُضِعَتْ أيقونة روسيّة، هي بدورها هدية من آناستاسيا. كل هذا بالإضافة إلى الأساور البربرية، والتمائم، وأحذية الموكاسان وما إلى ذلك. حتى العطر الذي كانت تستعمله - من أشدّها نفاذاً! - هو عطيَّةٍ من آناستاسيا. (لعلها اشترته من مال مونا) ومع آناستاسيا لم يكن في الإمكان التأكُّد من أي شيء. وبينما مونا تحمل همَّ ما تحتاجه صديقتها من ملابس، وسجائر، وخامات فنية، الخ، كانت آناستاسيا تحصلُ على المالِ من أرضِ الوطن وتتصدَّق به على المتطفِّلين عليها. ولم ترَ مونا في ذلك أي تناقض. فكل ما تفعله صديقتها صحيح وطبيعي،

---

١٩٧ - كيتاغاوا أوتامارو (١٧٥٣ - ١٨٠٦) : أحد أساطين الرسم على الخشب في اليابان . - المترجم

١٩٨ - أندو هيروشينغه (١٧٩٧ - ١٨٥٨) : رسام ياباني على الخشب . - المترجم

حتى ولو سَرَقَتْ منها محفظة نقودها. وقد فَعَلَتْ ذلك أحياناً. ولمَ لا؟ إنها لا تسرقُ لنفسها وإنما لتساعِدَ البائسين. لم يكن ينتابها أدنى شك أو ندم حول مثل تلك المسائل. إنها ليست بورجوازيّة، أوه معاذ الله! وهذه الكلمة " بورجوازيّ " بدأ يتكرَّرُ تردادها كثيراً بعد ظهور آناستاسيا على الساحة. فكل ما ليس جيداً هو " بورجوازي ". حتى التبرُّز يمكن أن يكون " بورجوازياً "، من وجهة نظرِ آناستاسيا إلى الأمور. وحين تتعرَّف إليها تكتشف أنها صاحبة فكاهة رائعة. وطبعاً بعضُ الناسِ لا يلاحظون تلك السِمة فيها. بعض الناس مجرَّدون من حسّ الفكاهة. فأن تنتعلَ فردتيّ حذاء مختلفتين، وهذا ما يحدث مع آناستاسيا أحياناً وهي شاردة - أتراها كانت حقاً تفعل ذلك بشرود؟ - فهذا شيء مضحك بشكل صارخ. وكذلك الأمر عندما تحمل معها وهي تسير في الشارع منضحة[199]. فما الداعي للفّ مثل تلك الأشياء؟ ثم إن آناستاسيا نفسها لم تكن تستخدم واحدة - كانت دائماً تحمل واحدة لصديقةٍ متورِّطةٍ في مشكلة.

والكُتُب المبعثرةُ في كل مكان ... كلها استعارتها آناستاسيا لأجلها. أحدها كان بعنوان "هناك في الداخل" - من تأليف كاتب فرنسي " منحطّ ". وهو من الكتب المفضَّلة لدى آناستاسيا، ليس لأنه " منحطّ" بل لأنه يحكي عن تلك الشخصية الاستثنائية في التاريخ الفرنسي - جيل دو راي. كان أحد أتباع جان دارك. وكان قد ذَبَحَ الكثير من الأطفال حتى أنه أفرغَ قرى بأكملها من سكانها. كان أحد أشدّ شخصيات التاريخ الفرنسي غموضاً. وناشدَتْني أن ألقي نظرة إليه

---

١٩٩ - منضحة : أداة معينة لغسل الأعضاء التناسلية الأنثوية . - المترجم

عندما تُتاحُ الفُرصةُ لي. وكانت آناستاسيا قد قرأته بلُغَته الأصلية. فهي تُحسن القراءة ليس فقط بالفرنسية والإيطالية وإنما بالألمانية، والبرتغالية والروسية. نعم، في المدرسة الرهبانية كانت قد تعلمت أن تعزف البيانو بأسلوبٍ رائع جداً. وعلى آلة الهارْب أيضاً.

سألتُها ساخراً " ألا تُحسن نفخ البوق؟ "

ضحكت لي ضحكتها الشبيهة بالصهيل. ثم أتبعَت ذلك بالبوح التالي:

" إنها تُحسِن أيضاً قرع الطبول. ولكن يجب أولاً أن تكونَ في حالة نشوة "

" تقصدين أن تكون سكرانة "

" كلا، بل مُخدَّرة. بالماريغوانا. إنه لا يضرّ. ولا يؤدِّي إلى الإدمان"

كلما فُتِحَ هذا الموضوع - المخدرات _أكون متأكِّداً من أني سأجد آذاناً صاغية. ففي رأي مونا (لعلّه رأي آناستاسيا) على كُلّ إنسان أن يتعرَّف إلى آثار أنواع المخدرات المختلفة. فالمخدرات ليست خطرة مثل الكحول. وآثارها أشدّ إثارة للاهتمام. نعم، سوف تجرِّبها ذات يوم. هناك الكثير من الأشخاصِ في الفيليج - المحترمين أيضاً - يتعاطون المخدرات. إنها لا تفهم سببَ خوفِ الناسِ من المخدرات. كان هناك ذاك المخدِّر المكسيكي الذي يثير الإحساس بالألوان، مثلاً. وهو غير ضارّ بالمرَّة. يجب أن نُجرِّبه في وقتٍ ما. سوف ترى إنْ كان في استطاعتها أن تحصل على بعضهِ من ذلك الشاعر الزائف ما اسمه. إنها تمقته، إنه قذر، وما إلى ذلك، لكَن آناستاسيا تؤكِّدُ أنه شاعرٌ جيد. وآناستاسيا يجب أن تعرف ...

" سوف أستعيرُ إحدى قصائدها ذات يوم وأقرأها عليك بصوتٍ عالٍ. لن تسمع ما يضاهيها يا فال "

قلت " أوكيه، ولكن إذا كانتْ رديئةً سأجهَرُ بذلكَ لك "

" لا عليك! إنها غير قادرة على كتابة قصيدة رديئة، حتى ولو حاولَتْ "

" أعلم - إنها عبقرية "

" هي كذلك حقاً، وأنا لا أمزح. إنها عبقرية حقيقية "

لم أستطع منعَ نفسي من التعليق بالقول إنَّ العباقرةَ الرديئين لابد أن يكونوا دائماً فلتات.

" ها أنت تبدأ من جديد! أنت الآن تتكلَّم مثل الجميع. لقد شرحتُ لك مراراً وتكراراً أنها لا تشبه الفلتات الآخرين في منطقة الفيليج "

" لا، إنها فلتة أصيلة! "

" لعلها مجنونة، ولكن من طراز ستريندبرغ، ودوستويفسكي وبليك... "

" وهذا يرفعُ من مكانتها، أليس كذلك؟ "

" أنا لم أقُل إنها تملك موهبتهم. كل ما أعنيه هو إنْ كانَتْ غريبةَ الأطوارِ فإنها كذلك على طريقتهم؛ ليست مجنونة - وليست دجَّالة. وكائناً ما كانت، فهي حقيقية. وسأراهِنُ بحياتي على ذلك "

انفجرتُ قائلاً " الشيءُ الوحيدُ الذي آخذه عليها هو أنها بحاجة إلى رعايةٍ مُغالٍ فيها "

" هذه قسوة! "

" أحقاً؟ اسمعي ... لقد كانت أحوالها تسير على ما يرام حين قَدِمَتْ، أليس كذلك؟ "

" سبقَ أن حكيتُ لك عن حالتها حين قابلتُها "

" أعلمُ هذا، لكن هذا لا يهمُّني. ربما لو أنكِ لم تقومي برعايتها طوال الوقت لتماسَكَتْ ووقَفَتْ بثباتٍ على قدميها "

" ها قد عُدنا إلى حيث بدأنا. كم مرة يجب أن أشرحَ لكَ أنها ببساطة لا تعرف كيف تُعنى بنفسِها؟ "

" إذن دعيها تتعلَّم! "

" وأنتَ؟ هل تعلَّمتَ؟ "

" كنتُ أُحرِزُ تقدُّماً قبل أن تأتي أنتِ. إنني لستُ فقط أعتني بنفسي، وإنما بزوجتي وطفلتي "

" هذا قولٌ غير مُنصِف. لعلَّكَ اعتنيتَ بهما، ولكن كم كان الثمنُ باهظاً! لا أظنك كنت تريد أن تعيشَ على ذاك النمط إلى الأبد، أليس كذلك؟ "

" طبعاً لا! لكنني كنتُ سأجدُ مخرجاً - في نهاية المطاف "

" في نهاية المطاف! ليس لديكَ الكثيرُ من الوقت يا فال. أنت الآن في منتصف ثلاثينات عمرك - ولم تصنع لنفسك بعد اسماً معروفاً. في حين أن آناستاسيا مجرد فتاة، ولكن انظر إلى ما أنجزَتْ لتوِّها "

" أعلمُ. ولكن لا تنسي أنها عبقرية ... "

" أوه، كفى! لن نتوصَّل إلى أي شيء إذا بقينا نتحدَّث على هذا المنوال. لماذا لا تكفّ عن التفكير فيها؟ هي لا تتدخَّل في حياتك أنت. فلماذا تتدخَّل في حياتها؟ ألا يحقّ لي أن أتَّخِذَ لنفسي صديقةً واحدة؟ ما الداعي لأن تغار منها؟ لمَ لا تكون مُنصِفاً؟ "

" حسن، فلنغلق الموضوع. ولكن كُفِّي عن التحدُّث عنها، ممكن؟ وبعد ذلك لن أقول أي شيء يؤذيك "

* * *

على الرغم من أنها لم تطلب مني صراحةً ألاّ أقوم بزيارة " المرجل الحديدي " إلا أني ابتعدتُ مراعاةً لرغباتها. وقد شككتُ في أن آناستاسيا تقضي معظم وقتها كل يوم هناك، بحيث أنه خلال فترات الذروة في الحانة كانت الاثنتان دائماً معاً في مكانٍ ما. وكانت تصلني أخبارٌ بطرقٍ ملتويةٍ عن زيارتهما للمتاحف والمعارض الفنية، ومُحترَفَات فناني منطقة الفيليج، ورحلاتهما إلى الشاطئ، حيث كانت آناستاسيا تُنفِّذ رسومها التخطيطية للقوارب والأفق، والساعات التي كانتا تقضيانها في المكتبة العامة وتقومان بأبحاثهما. وكان التغيير بصورةٍ ما مفيداً لمونا؛ أمدَّها بمادةٍ جديدةٍ للتفكير. لم تكن لديها معرفةٌ تُذكَر بالرسم، وقد فَرِحَتْ آناستاسيا بجلاء لقيامها بدورِ المُعلِّم الخاص لها. وكانت هناك تلميحاتٌ خفيَّة أحياناً إلى الصورةِ الشخصيةِ التي كانت آناستاسيا تنوي أن ترسمها لمونا.

لم تكن قد نفَّذت قط أي صورةٍ شخصيةٍ بالأسلوبِ الواقعي لأي شخص، كما بدا، وكانت تكره بشكل خاص أن تُنفِّذ صورةً شبيهةً لمونا.

كانت هناك أوقات تعجز خلالها آناستاسيا عن تنفيذ أي عمل، وذلك حين ينالها الإرهاق ويتوجَّب رعاية شؤونها وكأنها طفلٌ وليد. وكان جديراً بأتفه حادثةٍ أن تُسبِّب تلك النوبات المَرَضيّة. وأحياناً كانت تنتابها لأن مونا تكلَّمت بحماقة أو بلا احترام عن أحد أوثان آناستاسيا

الحبيبة إلى قلبها. فموديلياني[٢٠٠]، مثلاً، أو إل غريكو[٢٠١]، رسّامان لا يمكن أن تسمح لكائنٍ مَنْ كان، ولا حتى لمونا، أن يتكلّمَ عنهما بسوء. وكانت أيضاً مُدلَّهةً بحب أوتريللو[٢٠٢]، لكنها لم تكن توقِّره. كان " روحاً تائهةً "، مثلها: ما زال مستقراً على المستوى " الإنساني ". في حين أن جيوتو[٢٠٣]، وغرونيفالده[٢٠٤]، وأساطين الرسم الصينيين واليابانيين، كانوا على مستوى مختلف، ويمثّلون طبقةً أرقى. (لا بأس بذوقها!) وأعتقدُ أنها لم تكن تضمُرُ أيَّ احترامٍ للفنانين الأميركيين. اللهم ماعدا جون مارين[٢٠٥]، الذي وَصَفَتْهُ بأنه محدودَ الأفقِ ولكنه عميق. وما كادَ يُقرِّبها إلى قلبي اكتشافي أنها دائماً تحمل معها كتاب " أليس في بلاد العجائب "، وكتاب " طاو تيه تشينغ ". وفيما بعد ضمَّت إليهما ديوان شعر لرامبو. ولكن سأتحدَّث عن هذا لاحقاً ...

كنتُ ما أزال أقومُ بجولاتي، أو بالأحرى أواصلُ حركتي. كنت بين حين وآخر أبيعُ مجموعةً من الكتب بدون القيام بأي محاولة لفعل ذلك. كنت أعملُ فقط مدةَ أربعِ ساعاتٍ أو خمس في اليوم، وكنت دائماً على استعداد للتوقُّف عن العمل عندما تحين ساعة وجبة العشاء. وعادة كنتُ ألقي نظرةً على البطاقات وأنتقي زبوناً محتملاً يقطن في مكانٍ ناءٍ، في ضاحيةٍ متهدِّمة،في بؤرة جرداء وكئيبة في نيو جرزي أو في لونغ آيلند.

---

٢٠٠ – أماديو موديلياني (١٨٨٤ – ١٩٢٠) : رسام من أصل إيطالي ، عاش في فرنسا حياةَ بؤس وفاقة . – المترجم

٢٠١ – إل غريكو (١٥٤١ – ١٦١٤) : رسام إيطالي من أصل كريتي . – المترجم

٢٠٢ – موريس أوتريللو (١٨٨٣ – ١٩٥٥) : رسام فرنسي . – المترجم

٢٠٣ – جيوتو البوندوني (١٢٦٧ – ١٣٣٧) : رسام إيطالي . – المترجم

٢٠٤ – ماتيباس غرونيفالده (١٤٨٠ – ١٥٢٨) : رسام ألماني . – المترجم

٢٠٥ – جون مارين (١٨٧٠ – ١٩٥٣) : رسام أميركي ، عُرِفَ برسومه بالألوان المائية شبه التجريدية ، خاصة للبحر . – المترجم

كنت أفعلُ ذلك من ناحية لأقتلَ الوقتَ ومن ناحية أخرى لكي أبتعدَ بشكلٍ كاملٍ عن موقعي. وكنت دائماً حين أيِّمُ وجهي شطرَ بقعةٍ حقيرةٍ (من النوع الذي لا يمكن إلا لبائعِ كُتُبٍ متجولٍ مخبول أن يفكِّر في زيارته!)، أكتشفُ أنَّ مجموعةً من أغربِ الذكريات عن أماكن عزيزة، وحبيبة إلى قلبي عرفتها وأنا صبي، تُغيرُ عليّ. كان الأمرُ أشبَهَ بقانونِ تداعي الأفكار يعمل بحركة عكسيّة. وكلما كان المحيطُ كئيباً ومبتذلاً، كانت تلك التداعيات التلقائية غريبة الشكل ورائعة. حتى أنه كان في استطاعتي أن أراهن على أني إذا ما انطلقتُ ذات صباح قاصداً هاكنساك أو كانارسي، أو جحر أرنب على جزيرة ستاتن، فسأجدني بحلول المساء في مرفأ شيبسهيد، أو بلو بوينت، أو بحيرة بوكوتوبوغ. وإذا لم يكن معي أجرة مواصلات لقطع مسافة طويلة أستوقف سيارةً على الطريق، أملاً في أن يواتيني الحظ وأصادفَ شخصاً - " ذا وجهٍ ودود " - ينفحني ثمنَ وجبةِ طعامٍ، وأجرةَ طريقِ العودة. وركبتُ المدّ. لم يكن يهمّ أين سينتهي بي المسير ولا متى سأعود إلى المنزل، ذلك لأن من المؤكّد أن مونا كانت ستصل بعدي. وعدتُ أُدوِّن أشياء في ذهني. ليس بحماسٍ محمومٍ كما في السابق وإنما بهدوء، واتزان، كمذيعٍ أو مراسل صحفي لديه كل الوقت وحساب مالي وافر يغطي تكاليفه. كان رائعاً تَرْكُ الأمورِ تجري على هواها. أحياناً، وأنا أنسابُ بسلاسةٍ، أدخلُ بلدةً بعيدةً عن العمران، وأختارُ لا على التعيين أحدَ الدكاكين - لسمكري أو حانوتي، لا فرق - وأباشرُ في عرض بضاعتي. ولا يكون في نيتي أبداً أن أبيع أي شيء، أو حتى " أن أُجرِّبَ مهارتي " كما يُقال. كلا، كنت فقط أرغبُ في رؤيةِ الأثرِ الذي تتركه كلماتي على

شخصٍ نكرة تماماً. كان ينتابني شعورٌ بأني رجلٌ هبطَ من كوكبٍ آخر. فإذا أبدتْ الضحيةُ المسكينةُ عدم الرغبة في مناقشة محاسن موسوعتنا ذات الأوراق السائبة أعمدُ إلى التحدُّث بلغتها هي، كيفما كانت، حتى ولو كانت جثثاً باردةً. وغالباً ما كنتُ أجدني بهذه الطريقة أتناولُ الطعامَ مع إنسانٍ مناسب ولا يجمعني به أي قاسم مشترك. وكنتُ كلما ابتعدتُ عن نفسي تيقَّنتُ أكثر من بلوغي الإلهام. وفجأةً، ربما وسط جملةٍ ما، أُقرِّرُ أنْ أنطلق. أنطلقُ بحثاً عن تلك البقعة التي عرفتها في الماضي، الماضي الشديد وضوح المعالم، والرائع جداً. وكان عملي يتلخَّصُ في أنْ أعودَ إلى تلك البقعة العزيزة وأرى إنْ كان في استطاعتي أن أُعيدَ بناءَ الكيانِ الذي كُنتُه ذات يوم. لعبةٌ غريبةٌ - ومفعمةٌ بالمفاجآت. أحياناً كنتُ أعودُ إلى غرفتنا كصبيٍّ صغيرٍ يرتدي ملابسَ الرجال. نعم، أحياناً أكونُ هنري الصغير قلباً وقالباً، أفكِّرُ مثله، وأشعرُ مثله، وأتصرَّفُ مثله.

غالباً، بينما أنا أتحدَّثُ إلى أشخاصٍ غرباءَ كلّياً عني هناك عند حافة العالم، تقفز فجأة إلى ذهني صورةُ الاثنتين، مونا وستاسيا، تتمشيان في الفيليج أو تتهاديان خلال باب دوَّار لمتحفٍ وهما تحملان تلك الدُمى المتحركة الجنونية بين أذرعهما. ثم أقول لنفسي عبارةً غريبةً - sotto voce (همساً)، طبعاً - أقولُ، وأنا أبتسم: " وأينَ دوري أنا؟"، متنقِّلاً حول الحافة الكئيبة، بين الأموات-الأحياء والمخلوقات المنقرضة. ويخطر لي أني منقطعٌ عن العالم. وكنتُ دائماً، وأنا أُغلقُ باباً، ينتابني انطباعٌ بأنَّ البابَ قد أوصِدَ خلفي، وأنه بات عليَّ أن أجد باباً آخر للعودة. العودة إلى أين؟

كان في تلك الصورة المزدوجة شيء سخيف وعجيب يبرز في أشدّ

اللحظات غرابة. كانت تتراءى لي الاثنتان ترتديان ملابس غريبة - ستاسيا بردائها السروالي وجزمة ذات نعل بمسامير " وليدي الدفق النفيس " برداء الكتفين المرفرف، وشعرها ينسابُ حراً كعُرف. وكانتا دائماً تتكلمان في وقت واحد، وعن موضوعين مختلفين كل الاختلاف؛ وتقومان بتكشيرات غريبة وإيماءات عنيفة أثناء الكلام؛ وتسيران بإيقاع خطى مختلفين تماماً، واحدة مثل طائر الأوك[٢٠٦]، والأخرى بخطوة النمر.

كلما غصتُ عميقاً في عالم طفولتي لا أعود موجوداً في الخارج، على الحافة، وإنما مُكنكناً في الداخل، مثل بزرة في قلب لب ثمرة فاكهة ناضجة. وقد أجدني واقفاً أمام دكان آني مينكن لبيع الحلويات، في الدائرة الرابعة عشرة القديمة، وأنفي مضغوط على زجاج الواجهة، وعيناي تلمعان لمرأى بعض الجنود المسربلين بالشوكولاة. ذاك الاسم المجرَّد،" العالم "، لم يكن بعدُ قد نفذَ إلى وعيي. كل شيء كان حقيقياً، ملموساً، ومتفرِّداً، ولكن ليس مُحدَّداً بشكلٍ كاملٍ ولا مرسوماً بدقَّة. كنت موجوداً والأشياءُ موجودة. وكان المدى بلا حدود، والزمنُ لم يبدأ بعد. وكانت آني مينكن مخلوقاً دائماً يميلُ كثيراً عبر النضد ليضع أشياء في يدي، ويربت على رأسي، ويبتسم لي، هو الذي قال إني فتى طيب جداً، وأحياناً كان يهرع إلى الشارع ليقبّلني مودِّعاً، مع أن بيتنا كان لا يبعد إلا بمسافةٍ قصيرة.

أعتقدُ بكل صدق أني أحياناً، هناك عند الحافة، بينما السكون والسكينة يغمراني، أكاد أتوقع أن يأتي أحدهم ويتصرَّفَ معي تماماً كما اعتادَتْ آني مينكن أن تعاملني. لعلني كنتُ أفرُّ إلى تلك الأصقاعِ

٢٠٦ - طائر الأوك : طائر قصير العنق والجناحين من طيور البحار الشمالية . - المترجم

النائيةِ من فترةِ طفولتي فقط لكي أتلقَّى من جديدٍ قطعةَ الحلوى تلك، وتلك الابتسامة، وقبلة الوداع المُربكة. لقد كنت بحقٍّ مثالياً. مثالياً لا شفاء له. (المثالي هو الذي يريد أن يعكس حركة الدواليب. إنه يتذكَّر جيداً ما أُعطيَ له، ولا يفكِّر فيما يمكن أن يعطيه. إن العالمَ يَفْسُدُ بتدرُّجٍ بطئ، لكنَّ الفسادَ يبدأ فعلياً منذ اللحظة التي يبدأ المرءُ عندها بالتفكير بلغة " العالم ")

أفكارٌ غريبةٌ، وتمعُّجاتٌ غريبةٌ - بالنسبة إلى بائعِ كتبٍ متجوِّل. داخلَ حقيبتي مفتاحُ المعرفةِ الإنسانيةِ برمَّتها. ربما. والحِكْمَةُ لا تبعد، مثل بلدة وينشستر، أكثر من أربعين ميلاً. لا شيءَ في العالمِ كُلِّه أكثر موتاً من خُلاصةِ المعرفةِ الوافيةِ هذه. وحين أتخيَّلني وأنا أتفاصحُ حول المنخريات والأشعة تحت الحمراء، والبكتريا المطمورة في كل خلية، أرى كم كنتُ سعداناً أبله! وطبعاً كان يمكن لأي أخرق أن يبلي بلاءً أفضل مني بكثير! وكذا أيضاً جحشٌ ميتٌ يحملُ في أحشائِهِ فونوغرافاً. إنَّ القراءةَ في القطار النفقي، أو على متن أي ترولّلي مفتوح، عن بروست Prust مؤسِّس بروسيا - لمضيعةٌ لوقتِ الفراغ! وأفضلُ منها بكثير، إن كان لابد من القراءة، الإنصات إلى ذاك المجنون الذي قال: " ما أحلى أن يكره المرءُ أرضَ وطنه وينتظرَ بفارغِ الصبر فناءَها ".

نعم، بالإضافة إلى النماذج الطباعية، وأنواعٍ من جِلدَةِ الكتاب، وكل الأدوات الأخيرة التي تزدحم بها حقيبتي، كنت عادةً أحملُ معي كتاباً؛ كتابٌ بعيدٌ كلَّ البُعد عن منحى حياتي اليومية حتى أنه يكون أشبهَ بكتابةٍ موشومةٍ على أخمصِ قدمِ أحدِ المحكومين اليُسرى " نحنُ لم نتَّخذ بعُد قراراً بشأن وجود الله وأنت تريد أن تأكل! ". إن جملةً كهذه

تقفز من كتابٍ في الأرض اليباب الموحشة جديرةٌ بأن تقرِّر مُجمل مسار يومي. أكادُ أراني من جديد أُغلِقُ الكتابَ بقوةٍ، وأقفزُ مثل وعلٍ مُجفِلٍ، وأهتف عالياً: " أين نحن بحقّ الجحيم؟ "، ومن ثم أفرُّ هارباً. وقد يرسلونني إلى حافة مستنقع، أو إلى أحد تلك الصفوف التي لا تنتهي من منازل الضواحي المتشابهة أو إلى أحد المصحَّات العقليّة. لا يهمّ - إلى الأمام، إلى الأمام، الرأس منكَّس،والحنكان يعملان بنشاطٍ محموم، قِباعٌ، صرخات المتعة الحادّة، اجترارات، اكتشافات، إضاءات. كل ذلك بسبب تلك الجملة الخاطفة. خاصةً جزء الـ " وأنت تريد أن تأكل!" منها. ولم أكتشف مَنْ أطلقَ هذا الهتاف الرائع إلا بعد مرورِ وقتٍ طويل. وكل ما عرفته حينئذٍ، والمهم في الأمر، هو أني وجدتني وقد عدتُ إلى روسيا، وأني كنتُ مع أرواحٍ لطيفةٍ، وأني كنتُ مسكوناً بشكلٍ كاملٍ بتلكَ المقولةِ الافتراضيَّةِ السريّة حول الوجود المُثيرِ للجدل للّه.

أقلتُ، بعد مُضيّ سنين؟ أه نعم - أقصد، بالأمس القريب، اكتشفتُ مَنْ كان المؤلّف. وفي الوقت نفسه علمت أن رجلاً آخر، معاصراً، قد كتب هذا عن أمّته، الأمة الروسية العظمى: " إننا ننتمي إلى عددٍ من تلك الأمم التي لا تدخل، إن صح التعبير، في بنية البشرية وإنما توجد فقط لكي تُلقِّن العالمَ درساً ما هاماً "

لكني لن أتحدَّث عن الأمس أو عن أمس الأول. سوف أتحدَّثُ عن زمنٍ لا بداية له ولا نهاية، وزيادة على ذلك عن زمنٍ كان إلى جانبِ كل أنواع الأزمان الأخرى التي ملأت المساحات الخالية في أيامي ...

إن مسارَ السفن، والناس بشكلٍ عام، هو دربٌ متعرِّج. والسكران

يمشي بمسارٍ منحنٍ، كالكواكب. لكنَّ مَنْ لا هدفَ له يتحرَّكُ ضمنَ زمنٍ ومدى متواصلَين ينفرد وحده بهما ويكون اللهُ حاضراً فيهما أبداً. " في الوقت الحاضر " - يا لها من عبارةٍ مُبهمة! هو موجود دائماً. أي أنه موجود مع الفوهة الكونية العظمى. واضح؟ عظيم، فلنقُل إنَّ الدنيا نهار." وأنت تريد أن تأكل؟ ". وعلى الفور تبدأ النجوم بالقرع، والرنة يضربُ ببرائنه المرجَ؛ والدلاّت الجليدية الزرقاء اللون تتلألأ تحت أشعة شمس الظهيرة. أندفعُ مُحدِثاً انفجاراً خلال حديقة نفسكي بروسبكت. شققتُ طريقي إلى الدائرة الداخلية، والحقيبة تحت إبطي. أحملُ بيدي كيساً من الحلوى، هديةً من آني مينكن. ثم برز عَرْضُ المسألة التالية:

" نحن لم نتَّخذ بعدُ قراراً بشأن مسألة وجود الله ... "

إنني دائماً أدخلُ على الخط عند هذه النقطة. أنا الآن حرُ وقتي. أو بعبارةٍ أخرى، وقت الله. وهو دائماً " في الوقت الحاضر ". وحين تسمعني تعتقد أني كنتُ عضواً في المجمع المقدَّس - المجمع الفلهارموني المقدَّس. لستُ مضطراً إلى دوزنة موجتي: إنني مدوزن منذ فجر الزمان. وما يميِّزُ أدائي الصفاءُ التام. إنني من الفئة التي هدفُها ليس أن تُلقِّن العالمَ درساً بل أن تُبيِّن أنَّ المدرسةَ قد أغلقَتْ أبوابها.

الرفاقُ مسترخون ومرتاحون. لن تنفجرَ أي قنبلةٍ حتى أُعطي أمري. إلى يميني دوستويفسكي، وإلى يساري الإمبراطور بغيض. وكل عضو من المجموعة تعرَّفَ إلى نفسهِ بطريقةٍ مذهلة. أنا الوحيد الذي " لا يحمل حافظة أوراق ". أنا الـ uitlander (الأجنبي)؛ أنهمرُ كالبَرَد من "الحافة "، أو بكلمة أخرى، من المرجل الذي يعجُّ بالمشاكل.

" أيها الرفاق، يُقالُ إنَّ ثَمَةَ مشكلةً تواجهنا ... " (أنا دائماً

أستـهلُّ كـلامي بهـذه العـبـارة المبتـذلة) أتلفَّتُ حـولي، هادئاً، مـتـمـالكاً نفـسي، قـبل أن أنطلق في إلقـاء plaidoyer (كلمـة الدفـاع). " أيـهـا الرفـاق، دعـونا نُـثَـبِّتُ أقـصى انتـبـاهَنَا المُركَّـز برهةً على ذاك السـؤال المسكوني بشكل كامل - - "

يعوي الإمبراطور بغيض " وهو؟ "

" وهو ليس أقلّ من: لو كان الله غير موجود، هل كنا خُلقنا ؟ "

من بين صرخات "فـسـاد"! و "هراء"! أتبيَّنُ بسـهـولة صـوتي الخاص يرنِّمُ النصـوصَ المقدَّسـة المكنوزة في قلبي. إنـني مرتـاح البـال لأنـه ليس لدي ما أبرهنُ عليه. ليس عليَّ إلا أن أُرتِّل ما حَفَظْتُهُ صمّاً في أوقات فراغي. وكوننا مـجتمعين ونحظى بامتيـازِ مناقشة قضية وجود الله، هذا بحدّ ذاته دليلٌ حاسمٌ بالنسبة إليّ على أننا نسـتدفئ في شمسِ حضـورِهِ تعـالى. إنني لا أتحـدَّثُ " وكـأنه " تعـالى حـاضـرٌ، إنني أتحـدثُ " لأنه " تعـالى حاضـر. ها قـد عـدتُ إلى ذاك الحَرَمِ الأبدي حيث كـلمـة " طعـام " دائماً تبرز. عدت لهذا السبب.

" وأنت تريد أن تأكل؟ "

الآن أُخـاطِبُ الرفـاقَ بحـمـاسٍ عـاطفي. بـاشرتُ قـائلاً " ولم لا ؟ هل نُسيءُ إلى خـالقنا إذا أكلنا مـا زوَّدنا به؟ أتظنون أنـه سبـحـانه سـوف يتـلاشى لأننا مـلأنا بطوننا ؟ كلوا، أتوسَّلُ إليكم، كلوا بكل شـهـيّـة! إن الله ربنا حرٌ في أن يكشِفَ عن نفسه في أي وقتٍ يشاء. إنكم تتظاهرون بأنكم ترغبـون في أن تقرروا قـضـيـة وجوده سبحانه. عبث، أيها الرفـاق الأعزاء، فقد تمّ الوصولُ إلى قرارٍ حولها منذ زمن بعيد، حتى قبل تكوُّنِ العـالم. العـقل وحـده يبلِّغنا بأنه إذا كـانت هناك مـشكلة فـلابد أن مـا

أفرزها هو شيءٌ حقيقي، ولا يحقّ لنا أن نقرِّر إن كان الله موجوداً أم لا، الله وحده يُقرر ما إذا كنا نحنُ موجودين " (" اللعنة! أليس لديك ما تقوله؟ " أُصرِخُ بهذا في أُذُن الإمبراطور بغيض) " إني أسألكم، هل قضية الأكل قبل اتخاذ قرارٍ في المسألةِ هي قضيةٌ ميتافيزيقية؟ هل يجادِلُ إنسانٌ جائعٌ ما إذا كان سيأكل أم لا؟ إننا جميعاً جائعون: جائعون وظمأى لِما يمنحنا الحياة، ولولا ذلك لما اجتمعنا هنا. ومن قبيل الجنون المُطبق أن نتخيَّلَ أننا بالإجابة بنعمٍ أو بلا فإن المعضلة الكبرى سوف تُحلّ إلى الأبد. نحن لم ... " (سكتُّ والتفتُّ إلى الجالس إلى يميني، ثم قلتُ " وأنت، يا فيدور ميخائيلوفيتش، أليس لديك ما تقول؟) " نحن لم نجتمع لنحلّ مسألة تافهة. نحن هنا، يا رفاق، لأنه خارج هذه الغرفة، في العالم، كما يقولون، لا مكانَ نذكُرُ فيه اسمَ الجلالة. نحن المختارون، ونحن متَّحدون مسكونياً. " هل يريد الله أن يرى الأطفالَ يعانون؟ " إن مثل هذا السؤال يمكن أن يُطرَح هنا. وأيضاً يمكن أن يُسأل " هل الشرّ ضروري؟ "، ويمكن أن يُسأل أيضاً إن كان يحقُّ لنا أن نتوقَّع الجنة هنا والآن، أو هل الأبدية مفضَّلة على الخلود. ويمكننا أيضاً أن نناقشَ إنْ كان ربنا يسوع المسيح ذا طبيعة واحدة أم طبيعتين متآلفتين ومتشابهتين، إنسانية وإلهية. نحن جميعاً عانينا معاناةً تفوق تحمُّل البشر الفانين. وجميعنا أنجزنا قَدْراً محموداً من التحرير، وبعضُ منكم أماطَ اللثامَ عن أعماقِ الروحِ الإنسانية بطريقةٍ ودرجةٍ لا سابقَ لهما. إننا جميعاً نعيشُ خارج زماننا، روّاد حقبةٍ جديدةٍ، طَبَقَة جديدة من البشر. ونعرف أنه لا أملَ يُرجى على مستوى العالم الحالي. إنَّ واجبَ وضع حدّ للإنسان التاريخي يقع على كاهلنا. والتعامل مع المستقبل

سيكون بلغة الأبدية، والحرية، والحب. وسيتمّ بعثُ الإنسان بمعونتنا؛ وسينهضُ الموتى من قبورِهم يغطِّيهم لحمٌ وأعصابٌ متوهِّجة، وسوف نرتبطُ بصِلَةٍ حميمةٍ، صِلَةٍ حقيقيّةٍ تدوم، مع الذين كانوا أحياءً، مع الذين صنعوا التاريخ والذين لا تاريخ لهم. وبدل الأسطورةِ والخرافة سنحصل على الواقع السرمدي. وكل ما يُعتَبَر الآن من قبيل العلم سيزول؛ لن تكون هناك حاجةٌ للبحث عن حلٍّ للّغز الواقع لأنَّ كل شيء سيكون حقيقياً ودائماً، مكشوفاً للعين والروح، شفافاً مثل مياه نهر شيلوه. كلوا، أتوسَّلُ إليكم، واشربوا حتى ترتووا. المُحرَّمات ليست من صنع الله. ولا القتل والشبق. ولا الغيرة والحسد. وعلى الرغم من أننا اجتمعنا هنا كرجال، إلا أننا مُتَّجهون نحو الروح القُدس. وحين سنفترق سوف نعود إلى عالم العَمَاء، إلى عالمِ المدى الذي لا يمكن لأي قدْر من النشاط أن يستنزفه. نحن لسنا من هذا العالم، ولم نصبح بعد من العالم الآتي، إلا بالفكرةِ وبالروح. مكاننا هو على عتبةِ الأبدية؛ وعملُنا هو عملُ المُحرِّك الأساسي. وامتيازُنا هو أن نُصلَب باسم الحرية . سوف نروي قبورنا بدمائنا. لا مَهَمَّةَ سوف يَعصى علينا أداؤها. نحن الثوريون الحقيقيون بما أننا لا نعمِّد بدماء الآخرين وإنما بدمنا نحن، المسفوح بسخاء. لن نوجِد مواثيق جديدة، ولن نفرض أي قوانين جديدة، ولن ننشئ مؤسسات جديدة. سوف نسمح للموتى أن يدفنوا الموتى. وسرعان ما سينفصل السريعون عن الموتى. إن الحياة الأبدية تندفع عائدة لتملأ كأس الحزن الفارغة. وسينهض الإنسان من سرير جهلة ومعاناته وهو يترنَّم بأغنية. سوف يقف شامخاً وسط إشعاعِ ألوهيّته. وسوف يختفي القتلُ بكل أشكاله وإلى الأبد. "في الوقت الحاضر" ...

حالما خرجتْ هذه العبارة المبهمة من بين شفتيّ سكتت الموسيقى الداخلية، والتناغم. وعدتُ بإيقاع مضاعف، واعياً لِما أفعل، مُحلِّلاً أفكاري، ودوافعي، وإنجازاتي، كدتُ أسمعُ دوستويفسكي يتكلّم، لكنني لم أعد موجوداً معه. كنتُ أحصل فقط على المعاني الإضافية. وزيادة على ذلك، كان في إمكاني أن أُسْكِتَهُ وقتما أشاء. لم أَعُدْ أركضُ في ذاك الزمن السرمدي الموازي. عندئذٍ أصبحَ العالَمُ فعلاً خالياً، ورثّاً، وكئيباً. وتلازَمَ العماءُ مع القسوة. أصبحتُ غريبَ الأطوارِ وسخيفاً كالأختين التائهتين اللتين لعلهما كانتا تهرعان خلال أرجاء منطقة فيليج حاملتين على أذرعهما دُمى متحرِّكة.

في تلك الأثناء حلَّ الليل، وأبدأ مشوارَ عودتي، يعتصرني شعورٌ غامر بالوحشة. ولم أُدهَش البتّة، لدى رجوعي إلى غرفتي، حين وجدت في انتظاري رسالةٌ هاتفية من مونا تقول فيها إن " صديقتها " العزيزة مريضة وإنها مضطرة إلى أن تبيتَ معها في تلك الليلة. وفي الغد ستكون هناك قصة جديدة، وكذا في اليوم الذي بعده.

كل شيء يحدث لستاسيا فوراً. ففي يوم تؤمَر بأن تغادر المكان لأنها تتكلَّم بصوتٍ عالٍ أثناء نومها؛ وفي يوم آخر، في غرفة أخرى، زارها شبحٌ وأجبرها على الهرب في قلب الليل. وفي مناسبةٍ أخرى حاول سكِّير أن يغتصبها. أو أنَّ رجلاً يرتدي ملابس بسيطة أخذ يستجوبها عند الساعة الثالثة صباحاً. وكان لا مناص من أن تعتبر نفسها امرأةً مشبوهة. وهي متعوِّدة على النوم أثناء النهار وعلى جوسِ الشوارعِ ليلاً؛ وتُمضي ساعات طوالَ في الكافيتريا التي لا تُغلق أبوابها أبداً، وتكتب قصائدها على الموائد ذات السطح الرخامي، وهي تحمل شطيرةً

بيد وصحناً من الطعامِ لمْ تتذوَّقه موضوعاً إلى جانبها. وفي بعض الأيام تكون سلافيةً تتكلَّم بلكنةٍ سلافية أصيلة، وفي أيام أُخَر هي الفتى- الفتاة من قمم جبال مونتانا المتوجّة بالثلوج، والحورية التي يجب أن تمتطي جواداً، حتى ولو كان ذلك فقط في سنترال بارك. وأخذ كلامها يزداد تفكُّكاً، وكانت تعلم ذلك، ولكن بالروسية، كما تقول دائماً، " لا شيء يهمّ ". أحياناً ترفضُ أن تستخدمَ المرحاضَ - وتصرُّ على أن تقضي حاجاتها الصغيرة في النونيّة، التي طبعاً تنسى أن تُفرغها. أما الصورة الشخصية لمونا التي كانت قد بدأت برسمها لها، أضحَتْ الآن أشبَهَ بعملٍ ينفِّذه مهووس. (مونا نفسها اعترفَت بذلك) وجُنَّ جنونها، أقصد مونا. إنَّ حالةَ صديقتها تتدهورُ تحت بصرها. لكنها أزمة وتمرُّ. سيعود كل شيء على أحسن ما يرام، إذا ما دَعَمَتْها بإخلاص، ورعَتَها، وهدهدت روحها المعذَّبة، ومسحت لها طيزها، إذا لزم الأمر. ولكن ينبغي ألاّ تسمح لها أبداً أن تشعرَ بأنها منبوذة. وتسأل، ماذا يهمّ إذا مكثت ثلاث ليال أم أربع في الأسبوع مع صديقتها؟ أليست آناستاسيا هي الكُلّ في الكُلّ؟

" قُل لي، فال، ألا تثق فيَّ؟ "

أومأت تعبيراً عن موافقة صامتة. (إنه ليس سؤالاً " مسكونياً ")

حين يبدأ التنغيم، حين أعلمُ منها شخصياً أنها لا تقضي الليل مع آناستاسيا بل مع أمها هي - الأم أيضاً تمرض - أعرفُ ما كان يمكن لأي أبله أن يعرفه منذ وقت طويل، أي، أنَّ ثمة أمراً ليس على ما يرام في الدانمارك.

وأتساءل، ما الخطأ في أن تتحدَّث مع أمها - عبر الهاتف؟ لا خطأ على الإطلاق. إنَّ الحقيقةَ دائماً تنير.

وهكذا، التقطتُ سماعةَ الهاتف، متلبِّساً شخصيةَ ملكِ تجارةِ الأخشابِ، وكم كان ذهولاً كبيراً حين اتضح لي أن المتكلمة هي فعلاً الأم، وسألتُها بنبرةِ صوتٍ عاديةٍ جداً إن كانت مونا موجودة، وأني أريد أن أكلِّمها.

إنها ليست هناك. حتماً ليست هناك.

" هل رأيتِها مؤخراً؟ " (ما زال السيد الغامض هو الذي يستفهم من السيدة الحسناء)

لم ترَ أثراً لها منذ أشهر. يبدو الأسى في صوت المرأة المسكينة. وتنسى نفسها إلى درجة أن تسألني، وأنا الغريب تماماً عنها، إن كانت ابنتها ربما ماتت. وفي الواقع إنها تتوسَّل إليّ كي أُبلغها إذا ما تصادف ولمحتُ ابنتها في مكانٍ ما.

" ولكن لمَ لا تكتبين إلى زوجها؟ "

" زوجها؟ "

يتبع ذلك صمت مطوَّل لا أُسجِّل خلاله غير تنهُّد بعمق المحيط. ثم يأتيني بصوت واهن، خالي النبرة، وكأنها تخاطب فضاءً خالياً، ما يلي: " إذن تزوجت فعلاً؟ "

" حتماً تزوَّجت. وأنا أعرف زوجها معرفةً تامة ... "

جاءني الصوت النائي " عن إذنك "، وتبعته قرقعة سماعة الهاتف حين علَّقَتها.

تركتُ بضع ليالٍ تمرُّ قبل أن أفتح الموضوع مع المُذنبة. انتظرتُ حتى أوينا إلى السرير، وأطفأنا النور، ثم لكزتُها برفق.

" ماذا؟ لماذا تلكزني؟ "

" بالأمس تكلّمتُ مع أمك "

لا جواب.

" نعم، ودارَ بيننا حديثٌ طويل ... "

أيضاً لا جواب.

" الغريب في الأمر أنها تقول إنها لم تركِ منذ زمن بعيد. تعتقد أنك ربما مُتِّي "

إلى متى تستطيع أن تصمد؟ أتساءل. وحالما أوشكتُ أن أُخرِجَ دفعةً أخرى من الكلام شعرتُ بها تقفز إلى وضعِ الجلوس. ثم أطلقَتْ إحدى تلك النوبات الطويلة التي لا يمكن كبحها، من الضحك، من النوع الذي كان يسبِّب لي رعباً داخلياً. وبين كل نوبة وأخرى تزعقُ " أمي! هو هو! كنت تتكلّم مع أمي! هاه، هاه، هاه! هذا رائع، أروع من أن تصوغه الكلمات. هي، هي، هي! قال، أيها المغفَّل المسكين، إن أمي ميتة. ولا أمٌّ لي. هو هو هو! "

أتوسَّلُ إليها " اهدئي! "

لكنها لا تقوى على الكفّ. إنه أشدّ ما سمعتْ في حياتها إثارة للضحك والجنون.

" اسمعي، ألم تقولي لي في ذلك اليوم أنك ستبيتين عندها، وأنَّ المرضَ اشتدَّ عليها؟ أكانت أمك أم ماذا؟ "

وجلجلات من الضحك.

" لعلها زوجة أبيك، إذن؟ "

" تقصد خالتي "

" خالتك إذن، إن كانت هي مَنْ قلتِ إنها أمِّك "

مزيدٌ من الضحك.

" لا يمكن أن تكون خالتي لأنها تعرف أني متزوجة منك. لعلها جارة. أو ربما أختي. جدير بها أن تتكلّم بتلك الطريقة "

" ولكن لماذا تخدعني؟ "

" لأنك شخص غريب. لو أنكَ قلتَ إنكَ زوجي، بدل أن تتلبّس شخصية رجل آخر، لقالوا لك الحقيقة "

" لم يبدُ لي أنها عمّتك - أو أختك، كما تقولين - التي كانت تمثّل عليّ. بدا الأمر حقيقياً تماماً "

" أنت لا تعرفهم "

" اللعنة على كل شيء، إذن لعلّ الوقتَ قد حان لأتعرّف عليهم "

فجأةً اتّخذت هيئةً جادّة، غايةً في الجدِّية.

تابعتُ " نعم، أنوي بحقّ أن أهرع إلى هناك ذات مساء وأُعرِّف عن نفسي "

هنا تولاّها الغضب. " إن فعلتَ مثل هذا العمل، فال، فلن أكلِّمك أبداً. سوف أهرب، هذا ما سأفعله "

" تقصدين أنك لا تريدين مني مطلقاً أن أُقابل ذويك؟ "

" بالضبط. مطلقاً! "

" لكن هذا موقف صبياني وغير عقلاني. وحتى لو كنتُ قد ألقيتُ بضع أكاذيب عن عائلتك ... "

انفجرت قائلة " أنا لم أقُل أي شيء من هذا القبيل "

" هيا، هيا، لا تقولي هذا. أنت تعرفين حقّ المعرفة أن ذاك هو السبب الوحيد لعدم رغبتك في أن أقابلهم ". وسمحتُ لفترةٍ من الصمت

ذي المغـزى أن يســود، ثـم قلتُ " أو ربما تَخْـشـين أن أكـتـشف أمك الحقيقية... "

استَعَرَ غضبها أكثر من ذي قبل لكنَّ كلمةَ أمّ أثارت ضحكها من جديد.

" أنت لا تصدقني إذن؟ حسن جداً، ذات يوم سآخذك بنفسي إلى هناك. هذا وعدٌ مني "

" هذا كلامٌ لا ينفع. أنا أعرفك حقّ المعرفة. سوف تقومين بإعداد خشبة المسرح لأجلي. كلا يا سيدتي، إن كنتُ سأذهبُ فسأذهبُ وحدي "

" فال، أنا أُحذِّرك ... إذا جرؤتَ على فعل ذلك ... "

قاطعتُها " إذا ما فعلتُهُ فلن تعلمي بأمره "

أجابتْ " هذا أسوأ. لن تتمكَّن من القيام بذلك دون أن أسمع به إنْ آجلاً أو عاجلاً "

هنا أخذت تزرع المكان جيئة وذهاباً، وتنفثُ بعصبيّةٍ دخانَ السيجارة التي تتدلّى من بين شفتيها. كان هياجها يضطرم، كما بدا لي.

أخيراً قلتُ " اسمعي، انسي الأمر. سوف ... "

" فال، عِدْنِي بأنكَ لن تفعلَ ذلك. عِدني! "

لزمتُ الصمتَ قليلاً.

ركعتْ على ركبتيها إلى جانبي، ورفعت إليَّ نظرةَ متوسِّلة.

قلتُ، وكأنَّما على مضضٍ، " حسنٌ، أعدُك "

طبعاً، لم يكن لديّ أدنى نيّة في أنْ أُحافظَ على وعدي. في الواقع، كنتُ قد صمَّمتُ أكثر من ذي قبل على أن أتوغَّل إلى أعماق

السرّ. ولكن لم يكن ثمة من داعٍ للاستعجال. لقد انتابني شعورٌ بأنه عندما ستحين اللحظة المناسبة سأجدني وجهاً إلى وجه مع أُمها - وسوف تكون أُمها الحقيقية.

١٧

" وأخيراً أشعرُ مرة أُخرى بلزومِ ذكرِ أسماءِ أولئكَ الذين أدينُ لهم عملياً بكل شيء: غوثه ونيتشه. فقد أمدَّني غوثه بالمنهج، ومنحني نيتشه مَلَكَة الاستفهام، ولو طُلِبَ مني أن أجد صيغة لعلاقتي بهذا الأخير لقلتُ إني حوّلتُ " وجهة نظره " (Ausblik) إلى " نظرة استشراف " .(Uberblick) غير أنَّ غوثه كان، دون علمٍ منه، تلميذ ليبنتز في كاملِ نمطِ تفكيره. ولذلك كم كانت دهشتي حين وجدتُ أني أستطيع أن أعتبرَ الشكلَ الأخيرَ الذي خرجَ من بين يديّ، على الرغم مما تثيره هذه السنوات من بؤسٍ وشعورٍ بالاشمئزاز، فلسفةً ألمانيّةً وأفخرُ بها" (بلانكنبرغ أم هاتز، كانون أول " ديسمبر " ١٩٢٢)

هذه الأسطر المأخوذة من مقدمة كتاب " انحدار الغرب "[٢٠٧] ظلّت على امتداد سنوات عديدة تأسرني. ويتصادف أني انهمكتُ في قراءة الكتاب خلال السهرات الموحشة التي بدأتْ للتو. وفي كل مساء بعد العشاء أعود إلى الغرفة، وأجد لنفسي مكاناً مريحاً ومكنكناً، وأستقرُّ

---

٢٠٧ - " انحدار الغرب " : كتابٌ في فلسفة التاريخ من تأليف الفيلسوف الألماني أوزفولد شبنغلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦) . وقد صدرت ترجمته العربية في عام ١٩٦٤ تحت عنوان " تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة أحمد الشيباني في ثلاثة مجلدات ضخمة . إصدار دار مكتبة الحياة - بيروت . - المترجم .

لألتهمَ هذا المجلّد الضخمَ الذي يبسُطُ كاملَ مشهدِ المصيرِ الإنساني. إنني أعي تماماً أنَّ دراسةَ هذا العمل العظيم تمثِّل حدَثاً على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية في حياتي. بالنسبة إليَّ هو ليس في فلسفة التاريخ ولا إبداعاً " مورفولوجياً "، وإنما قصيدة عالمية. أمضُغُهُ ببطء بانتباه، وأتلذَّذُ بمذاق كل لقمة. أحفرُ أعمق فأعمق، أغرقُ نفسي فيه. وغالباً ما أكسرُ الحصارَ بالسيرِ جيئةً وذهاباً. أحياناً أجدُني جالساً على السرير، أُحدِّقُ إلى الجدار. أخترقُ الجدار ببصري: أنفذُ عميقاً في ماضٍ حيٍّ ولا قرارَ له. وأحياناً يكون لسطرٍ أو عبارةٍ من الأثر القويّ ما يدفعني إلى مغادرة عشّي، والانطلاق مباشرةً إلى الشارع، وهناك أُهيمُ على وجهي كالسائرِ في نومه. وبين حينٍ وآخر أجدني في مطعم جو في بورو هول، أطلبُ وجبةً دسمةً؛ ومع كلّ لقمة أزدردها أشعرُ وكأني أبتلعُ عصراً عظيماً آخر من الماضي. ودون وعي مني أُزكّي نار الفرن استعداداً لخوض مباراةٍ أخرى في المصارعة مع المخلوق القارت[٢٠٨]. وكان من المستحيل أن أكون من ناحية بروكلن، وأحد سكّانها. كيف يمكن لمجرَّد صبي من بروكلن أن يستوعبَ هذا كله؟ أين جوازُ مرورِهِ إلى عوالمِ العلم، والفلسفة، والتاريخ، الخ، النائية؟ إنَّ كل ما جمعَه هذا الصبي من معرفةٍ اكتسبه من خلال التناضح. أنا الفتى الذي كرِه الدراسة. أنا الفاتن الذي طالما نبذَ أنظمةَ الفكر كافّة. أمشي في إثر هذا الوحش المورفولوجي مثل فلّينة يتقاذفها بحرٌ غاضب. ويُربِكُني أني لن أستطيع أن أتبعه إلا من مسافةٍ بعيدة. هل أنا أتبعُ أم أنَّ دوّامةً تجرُّني إلى

٢٠٨ – القارت : حيوان يلتهم كل شيء من حيوان ونبات . – المترجم

جوفها؟ ما الذي يجعلني قادراً على القراءةِ بفهمٍ وابتهاج؟ من أين لي التدريب، والانضباط، والإدراك الحسِّي الذي يطلبه هذا الوحش؟ إن فكرَهُ موسيقى في أُذُني؛ إنني أميِّزُ كلَّ الأنغامِ الخفيّة. ومع أني أقرأه بالإنكليزية، إلا أني أشعرُ كأني أقرأه باللغةِ التي كتبه بها. إن وسيلته هي اللغة الألمانية، التي أظنني نسيتُها. لكني أرى أني لم أنسَ منها أي شيء، ولا حتى المناهج الدراسية التي خطَّطتُ لمتابعتها ولم أفعل.

"مِنْ نيتشه أخذتُ مَلَكَة الاستفهام"! هذه العبارة الصغيرة تدفعني إلى الرقص ...

لا شيءَ أشدَّ إلهاماً لمن يحاولُ أن يكتبَ من أن يُصادفَ مفكِّراً، مفكِّرٌ هو أيضاً شاعر، مفكِّرٌ يفتِّش عن الروح التي تبثُّ الحياةَ في الأشياء. مرة أخرى أراني مجرَّدَ شابٍ صغير، أسألُ القيِّمَ على المكتبة، أو أحياناً الكاهن، أن يعيرني كُتُباً عويصةً مُعيَّنة - حينئذٍ كنتُ أسمّيها " عميقةً "، فأرى الدهشةَ تتبدَّى على وجوههم حين أذكرُ عناوين تلك الكتب الضخمة. ثم يكون السؤال المحتوم - " ولكن لماذا تريد هذه الكتب بالذات؟ ". وعلى هذا أُجيبُ " ولماذا يجب ألاّ أريد هذه الكتب؟". وكوني ما زلتُ صغيراً جداً، وأني لم أقرأ بعد ما يكفي يتكافأ مع مثل تلك الكتب، لم يعنِ لي أي شيء. لقد كان مثارَ فخري أن أقرأ ما أريدُ وعندما أريد. ألستُ مواطناً أميركياً، حراً؟ ماذا يهمُّ العمر؟ غير أني فيما بعد كان لابد لي أن أعترفَ بأني لم أفهم ما كانت تحتويه تلك الكتب " العميقة ". أو بالأحرى، فهمتُ أني لم أرد "الخراَجات " التي صاحبَتْ المعرفةَ التي تنطوي عليها. كم تقتُ إلى

التشبُّث بالغوامض! أردتُ كل ما ينطوي على روحٍ ومعنى. لكنني أيضاً طلبتُ أن يجاري أسلوبَ المؤلِّف السرُّ الذي يُلقي عليه الضوء. كم كتاباً يملك هذه الخاصّية؟ لقد قابلتُ هزيمتي النكراء وأنا على أعتاب الحياة، واحتفظتُ بجهلي، متوهّماً أنه النعيم.

مَلَكَة الاستفهام! لم أتخلَّ عن هذا أبداً. وكما هو معروف، إنَّ عادةَ الاستفهام حول كل شيء تقود المرءَ إما إلى أن يُصبحَ حكيماً أو شاكّاً. وهي أيضاً تقود إلى الجنون. إلا أن فضيلَتَها الوحيدة أنها تدفعُ الإنسانَ إلى التفكيرِ لنفسه، تجعله يعودُ إلى المنبع.

هل كان من المُستَغْرَب كثيراً أني بقراءتي شبنغلر بدأتُ أُقدِّرُ من جديد كم كنا مفكِّرين رائعين حقاً ونحن صغاراً؟ وبالنظر إلى أعمارنا وتجربتنا المحدودة في الحياة، نجحنا مع ذلك في أن يطرحَ كلٌّ منا على الآخر أسئلةً من أشدِّها عمقاً وحيويةً. وناقشناها بشجاعة أيضاً وبكل اندفاع. إن سنوات من الدراسة المدرسية تُدمِّر البراعة. كنا كقرود الشمبانزي، تعلَّمنا أن نطرح فقط الأسئلةَ المناسبة - الأسئلة التي يستطيع الأساتذة أن يجيبوا عنها. على أساسِ مثلِ هذه المغالطةِ قامَ كاملُ البناء الاجتماعي. " جامعة الحياة! ". وحدهم اليائسون يختارون هذا المنهاج. حتى الفنان معرَّض لأن يضلَّ، لأنه بدوره مضطرّ، عاجلاً أو آجلاً، إلى أن يعرف أين تكمن مصلحته.

انحدار الغرب! لن أنسى ما حييتُ الإثارة التي تغلغلَتْ في كياني حين سمعتُ للمرةِ الأولى هذا العنوان. وكما قال إيفان كارامازوف - "أريد أن أذهب إلى أوروبا، لعلّي أعرفُ أني ذاهبٌ إلى مجرَّد مقبرة، لكنها أعزّ المقابر قاطبة "

منذ سنوات طويلة وأنا أعي أني كنتُ أساهم في حدوث انحدارٍ عام. كلنا كنا نعرفُ ذلك، وكلنا شَعَرنا به، ولم ينجح إلا البعضُ في نسيان الأمر بسرعة أكبر مما يحدث مع الآخرين. أما ما لم يفهمه أغلبُنا فهماً شديداً فهو أننا نشكِّلُ جزءاً من هذا " الغرب " بالذات، وأن الغربَ يتضمَّن ليس فقط أوروبا وإنما أيضاً أميركا الشمالية. لطالما كانت أميركا بالنسبة إلينا مكاناً خاضعاً للحظ - يومٌ حارّ ويومٌ بارد، يومٌ قاحل ويومٌ خصيب. باختصار، أنتَ وحظّك، فإما أن يكون كل شيء مُرٌ وبخور، أو مجرَّد روث حصان مُرقَّق. لم يكن أسلوبنا أن نفكِّر بلغة المصير التاريخي. إنَّ تاريخنا لم يبدأ إلا قبل بضع سنوات - وما سُجِّل منه حتى الآن كان بليداً ومُضجراً. وحين أقول " نحن " أقصد نحن الفتية، نحن الشبيبة، نحن الرجال الصغار الذين كنا نحاولُ أن نُنمِّي بناطيل طويلة من تحت التنانير. كنا جميعنا مُدلّلي أمهاتنا، وإذا كان لنا من مصيرٍ فهو أن نغدو بائعين جوّالين بارعين، وموظَّفين في محل بيع السيجار أو مدراء لسلسلةٍ من المتاجر. العنيفون منا ينضمّون إلى سلاح الجيش النظامي أو البحرية. الفاسدون منا يجدون لهم ملاذاً آمناً في سجن دانيمورا أو سينغ سينغ. لا أحد يتصوَّر نفسه مهندساً كادحاً، أو سبّاكاً، أو بنّاءً، أو نجّاراً، أو مزارعاً، أو حطّاباً. كان في استطاعة أي منا أن يكون قائد عربة تروللي في أحد الأيام ومندوباً لشركة ضمان في اليوم التالي. وغداً أو بعد غد قد يستيقظ ويجد نفسه عضوَ مجلسٍ تشريعي. أما النظام، والانضباط، والغاية، والهدف، والمصير؟ فعبارات غير معروفة لدينا. كانت أميركا بلداً حراً، وما من سبيل إلى تدميره -

أبداً. تلك كانت وجهة عالمنا. أما الـ " Uberblick"، التي تقود إلى مستشفى المجانين. " ماذا تقرأ، هنري؟ ". ولو أني أريتُ الكتابَ لسائلي لقالَ حتماً: " سوف تصبح مجنوناً إذا ما ثابرت على قراءة مثل هذه الحثالة ". وبالمناسبة، تلك " الحثالة " تكون عادةً خيرة الأدب العالمي. ما علينا. بالنسبة " إليهم " أو " إلينا " مثل تلك الكتب كانت نِتاجاً سحيقاً في القِدَم. كلا، لا أحد كان يفكِّر عن وعي وتدبُّر في قضية انحدار العالم. لكنَّ الانحدارَ مع ذلك كان حقيقةً واقعةً، وكانت الهاوية تزدادُ اتّساعاً أمام عيوننا. إنها تتكشَّف بطرقٍ لا ريبَ فيها. فمثلاً، لم يكن ثمة ما يستحقُّ الحماسة لأجله. لا شيء. أو، الأعمال كلها كانت متشابهة، والناس يشبه أحدهم الآخر، وما إلى ذلك. وطبعاً، كل شيء كان هراءً.

لم يبدُ نيتشه، حبي الكبير الأول، شديد الألمانيّة بالنسبة إليّ. بل إنه لم يبدُ حتى بولونياً. كان أشبه بقطعةٍ نقدية ضُرِبَت حديثاً. لكن شبنغلر فاجأني للتوّ بكونه ألمانياً حتى اللب. وكلما كانت لغته عويصةً ومبهمةً، سَهُلَتْ عليَّ متابعته. إن لغته هي لغةٌ قبل-ولاديّة، تهويدة. وما يُطلَق عليه خطأً بـ " تشاؤمه " فاجأني بأنه ليس أكثر من واقعية تيوتونيّة[٢٠٩] باردة. إن التيوتونيين يترنَّمون بأغنية البجع منذ أن انضمُّوا إلى مراتب التاريخ. وكانوا دائماً يخلطون بين الحقيقة والموت. لنكُن صادقين. فهل كان في كامل الميتافيزيقيا الأوروبية أي حقيقة غير هذه الحقيقة الألمانيّة الحزينة والتي هي، في الواقع، كذبة؟ فجأة، والشُكر في ذلك موجَّه إلى

---

٢٠٩ – تيوتونيّة : ألمانيّة . – المترجم

هذا المايسترو التاريخي، ندرك أن حقيقةَ الموتِ ليست بحاجةٍ إلى أن تكون حزينة، خاصّةً حين يكون، وكما يحدثُ عادةً، كاملُ العالم " المتحضِّر " قد بات لتوِّه جزءاً منها. وفجأة طلبَ منا أن ننظر إلى أعماق الحَدَث بالحماسة والفرح نفسيهما اللذين نُحيّي بهما الحياة تحيتنا الأولى.

("Alles Vergangliche ist nur ein Gleichmis" كل ما هو عابرٌ ليس إلا رمزاً)

كنتُ كلما انتهيتُ من قراءةِ فصلٍ لا أستطيع، مهما حاولتُ، إلاَّ أن أستسلمَ لإغراءِ إلقاءِ نظرةٍ على الفصولِ التالية. كانت عناوين تلك الفصول تسكنني؛ فاتنة؛ تنتمي إلى grimoire وليس إلى فلسفة تاريخ. " العالم المجوسي "، " الوقفة أمام الرسام والصورة الشخصية "، " في شكل الروح "، " الفراسيّ"[٢١٠] والمنظوم "، " التشكيلات التاريخية الكاذبة " ... وآخر الفصول جميعاً، ماذا يمكن أن يكون إلاّ المال؟ هل سبق لأحد أن كتَبَ عن المال بهذه اللغة الفاتنة؟ اللغز المعاصر: المال.

من " معنى الأرقام " إلى " المال " - ألفُ صفحةٍ كبيرةٍ، سميكةٍ، كُتِبَتْ كلها في غضونِ ثلاثِ سنوات. قنبلةٌ موقوتةٌ أُخْفَقَتْ في الانفجار، ذلك لأن قنبلةً أخرى (الحرب العالمية الأولى) قد فجَّرت الفتيل.

وأي حواشٍ! وأؤكد لك أن الألمان يحبُّون الحواشي. أليس في ذلك الوقت تقريباً كان أوتو رانك، وهو أحد مريدي فرويد الاثنا عشر، منشغلاً في إضافة حواشيه الرائعة إلى دراساته عن دافع سفاح القربى، ودون جوان، والفن والفنان؟

---

٢١٠ - الفراسيّ : ذو علاقة بعلم الفراسة أو بأسارير الوجه . - المترجم

على أي حال، إن الانتقال من الحواشي إلى الفهرس المُثبَتْ في آخر الكتاب - أشبه بالرحلة من مكّة إلى لهاسا، سيراً على الأقدام. أو من دلفي إلى تمبكتو، ذهاباً وإياباً. وأيضاً، مَنْ غير شبنغلر يمكن أن يُصنِّف شخصيات شامخة مثل فيثاغورس، ومحمد وكرومويل؟ مَنْ غير هذا الرجل يمكن أن يفتِّش عن التناظر بين البوذية، والرواقيّة، والاشتراكية؟ مَنْ جرؤ مثله على أن يصفَ عصر النهضة المجيد بأنه " contretemps ("حادث مؤسف) ؟

بينما أنا أمخرُ الشوارعَ، ورأسي يدور مِنْ كمّ الإسنادات المذهلة، أتذكّرُ فتراتٍ مماثلةٍ، فتراتٍ تبدو الآن من الماضي السحيق، انغمستُ خلالها كليّاً في الكتب. وهناك فترةٌ بعينها أتذكّرها بحيوية. إنها الفترة التي تعرَّفتُ أثناءها وللمرة الأولى على ماكسي شناديغ. ها هو ذا، يُهيِّئ واجهةَ عَرْضِ محلّ الخُردة القريب من شارع كوسيوسكي، حيث يقطن. مرحباً دوستويفسكي! هووووراى! رائحاً غادياً يشقُّ طريقه خلال ثلوج الشتاء - مع دوستويفسكي، وبوشكين، وتولستوي، وأندرييف، وتشيخوف، وآرتزيباشف ... وآبلوموف! ثمة تقويمٌ جديدٌ لي. أصدقاء جُدُد، وجهات نظر جديدة، أحزانٌ جديدة. أحد أولئك الأصدقاء الجدد اتَّضح أنه ليس إلا قريباً لماكسي. إنه أكبرُ سناً منا بكثير، صيدليٌّ من نوفغورود. أي أنه يهودي روسي، لكنه روسي في كل الأحوال. ولأنه سَئِمَ الحياةَ العائليةَ اقترحَ علينا أن نشكِّل حَلَقةَ بحثٍ صغيرةٍ، نحن الثلاثة، تزجيةً للأمسيات. وماذا نختار مادةً للبحث؟ علم الاجتماع عند لستر. ف. وارد. لكن لستر. ف. وارد ليس أكثر من قاعدةِ انطلاق

نحو تحوُّله إلى طبيبٍ بارع. إنه حرفياً يقفزُ إلى تلكَ المواضيع التي تمثِّلُ الحلقات المفقودة في نظامٍ مَعْرِفيّ بائسٍ - السحر، الرموز، علم الأعشاب، الأشكال المتبلورة، وأنبياء العهد القديم، كارل ماركس، وتقنية الثورة، إلى آخره. والسماور دائماً يغلي، والشطائر اللذيذة، والسمك المدخَّن، والكافيار، وأنواع الشاي الممتازة. وثمة هيكلٌ عظمي يتدلى من السقف. إنه سعيد لأنه تعرَّف إلى الكُتَّاب المسرحيين والروائيين الروس، وابتهج لأنه عَلِمَ أننا قرأنا كروبوتكن وباكونين، ولكن - هل تعرف الفلاسفة والمفكرين السلاف الحقيقيين؟ ويكرُّ سلسلةً من الأسماءِ المجهولةِ تماماً منا. فنحن متعوِّدون على أن نفهم أنه في أوروبا كلها ليس هناك مفكِّرون جريئون روس. وحسب قوله كلّهم رؤيويّ وطوباوي. رجالٌ يستنطقون كل شيء. وثوريون كلهم، حتى الرجعيين منهم. بعضهم كانوا آباءً كنسيين، والبعض الآخر فلاحين، أو مجرمين، أو قديسين حقيقيين. لكنهم جميعاً حاولوا أن يصيغوا عالماً جديداً، ويُدخِلوا أسلوباً جديداً في الحياة. وأتذكَّره يقول " وإذا ما استشَرْتَ الموسوعةَ البريطانيةَ فلن تعثُرَ على أي معلومةٍ عنهم. إنهم حتى ليسوا مذكورين أصلاً ". وشدَّدَ قائلاً، إنَّ ما كان أولئك الروس يكافحون من أجله لم يكن خلقَ حياةٍ ثقافيةٍ غنيّة وإنما " الحياة المثالية "، كان يتحدَّث ويُطيلُ الحديثَ عن ثراءِ اللغةِ الروسيةِ الهائل، ومدى تفوقها حتى على لغة الإليزابيثيين. ويقرأ علينا بصوتٍ عالٍ بوشكين بلغته الخاصة، ثم يرمي الكتاب ويُطلق تنهداً ويهتف: " ما الفائدة؟ نحن في أميركا الآن، في روضة الأطفال ". كان ضَجِراً، ضَجِراً إلى أقصى حدّ من المشهد

الأميركي. وكان مرضاه كلهم تقريباً من اليهود، لكنهم يهودٌ أميركيون، ولم يكن يربطُهُ بهم أي رابط. بالنسبة إليه كانت أميركا تعني اللامبالاة. لقد اشتاق إلى الحديث عن الثورة. وللحق أقول، أعتقدُ أنه أيضاً اشتاقَ إلى فظائع المذبحة. كان يشعرُ أنه يتعفَّنُ في جوفِ جَدَثِ الديموقراطية. وعلّقَ مرة، قال " ذات يوم يجب أن تسألني عن فيدوروف". لكننا لم نصل قط إلى تلك المرحلة. وعجزنا عن تجاوز علم اجتماع لستر. ف. وارد. كان الموضوعُ أصعبَ من أن يخوضَ ماكسي شناديغ فيه. المسكين ماكسي كان قد تسمَّمَ لتوه بالفيروس الأميركي. أرادَ أن يذهب لممارسةِ التزلُّجِ على الجليد، وأراد أن يلعبَ كرةَ اليد، والتنس، والغولف. وهكذا، بعد مرورِ بضعةِ أشهرٍ انحلّتْ حَلَقَةُ البحث. ومنذ ذلك الحين لم أسمع أبداً أي شيء عن لستر. ف. وارد، ولا رأيت أبداً نسخةً واحدةً من عَمَلِه الكبير. وربما كنوعٍ من التعويض انهمكتُ في قراءة هربرت سبنسر. ومزيداً من علم الاجتماع! وذات يوم وقعَ في يدي كتابه "سيرة ذاتية"، فالتهمتُهُ. إن وراءه حقاً عقلاً. عقلٌ أعرج، لكنه يفي بالغرض. عقلٌ يُقيمُ وحده فوق نجدٍ مُجدب. لا ذكرَ لروسيا، والثورة، والمركيز دو ساد، والحب. لا ذكر لأي شيءٍ غير المعضلات. "العقل يحكم، لأنَّ الروحَ استقالت ".

يقول شبنغلر " حالما يُصيبُ الحياةَ الوهنُ، حالما يستقرُّ الإنسانُ على التربةِ المصطنعةِ للمدن العظمى - التي هي بحدّ ذاتها عوالمُ فكرية - ويحتاج إلى نظريةٍ تُقَدِّم الحياةَ له بصورةٍ مناسبةٍ، تتحوَّلُ المعنويات إلى مشكلة "

هناك عبارات، وجُمَل، وأحياناً فِقْراتُ كاملةٌ من "انحدار الغرب" تبدو وكأنها تُحفَرْ على جدارِ عقلي. تعمَّقتُ فيه منذ القراءة الأولى. ومنذ ذلك الحين قرأتُهُ وأعدْتُ قراءته مراراً، نسختُ منه وأعدتُ نسخ مقاطع سكنتني، وإليكَ بعضاً منها لا على التعيين[٢١١]، ولا يمكن شطبها كالأحرف الأبجدية ...

" إن تقديمَ دورةٍ ألفيّة، مختارةٍ من شبكةِ أحداثِ العالم، من تاريخ ثقافةٍ عضويّ بوصفِهِ هويةً وشخصاً، والإحاطة بظروفٍ روحانيتها الأعمق - هو الهدف "

" وحدها البصيرة التي تستطيع أن تنفذ إلى الميتافيزيقي قادرةٌ على أن تَخْتَبِرَ بالتواريخ رموزَ ما حدث، وبالتالي ترتقي بحادثةٍ ما إلى مرتبة القَدَرْ. ومَنْ يعتبر نفسه قَدَراً (مثل نابوليون) ليس بحاجة إلى هذه البصيرة، بما أنَّ هناك بينَه بوصفه حقيقة وبين بقية الحقائق تناغماً ميتافيزيقيٍّ الإيقاع يُضفي على قراراتِهِ يقينها الغامض "

" أن ننظر إلى العالم، ليس من الأعالي كما فعل أسخيليس، وأفلاطون، ودانتي وغوته، وإنما من منظورِ الوقائعِ الثقيلةِ الوطأة يعني استبدال منظور الطائر بمنظور الضفدعة "

" إن الروحَ الكلاسيكيةَ، بوسطاء وحيها وتكهناتها، تريد فقط أن تعرفَ المستقبل، أما الإنسانُ الغربي فيريد أن يُشكِّله. إن المملكةَ الثالثةَ هي المَثَل الأعلى الجرماني. من يواكيم الفلوريسي إلى نيتشه وإبسن ...

---

٢١١ - المقتطفات التالية من كتاب " انحدار الغرب " هي من ترجمة مترجم هذا الكتاب ، ولم يعتمد على ترجمة أحمد الشيباني .

كلُ رجلٍ عظيمٍ ربَطَ حياتَهُ "بصباحٍ" أبديّ. حياة الاسكندر كانت نوبةٌ رائعة، حُلماً يستحضِرُ العصورَ الهوميريّة من قبورها. وحياة نابوليون كانت كدحاً هائلاً، ليس لأجل نفسه ولا لأجل فرنسا، وإنما من أجل المستقبل "

" من المنظور العالي والنائي لا يهمّ أبداً تصوُّرات الحقيقة التي صاغها المفكّرون بالكلمات داخل مدارسهم الخاصة، ذلك أنَّ، هنا كما في كلِّ فنٍ عظيم، المدارسَ وذخيرةَ الأشكال التقليدية، هي العناصر الأساسية. والأسئلة أهمّ بما لا يُقارن من الأجوبة - واختيارها، وشكلها الداخلي ... "

" مع الاسم تأتي وِجهةُ نظرٍ عالميةٌ جديدةٌ ... الاسمُ يمسُّ مسَّاً عابراً معنى الوعي و منبع الخوف معاً. إنَّ العالمَ ليس فقط وجوداً، ثمة سرٌ فيه ... الإنسان يُسمِّي ما هو مبهم. الاسم حيوان لا يَعرِفُ الألغاز ... التسميةُ خطوةٌ تُتَّخَذ من الحالةِ الجسديةِ اليوميّةِ للحيوان إلى الإنسانِ الميتافيزيقي. لقد كان أعظمَ نقطةِ تحوُّلٍ في تاريخِ النفسِ الإنسانية "

" إنَّ منظومةً حقيقيةً في الأفكارِ لا يمكنُ حتماً أن توجد، إذ ليس هناك من إشارة تستطيع أن تحلّ محل الواقع. والمفكرون المتعمِّقون والأصيلون دائماً ينتهون إلى أنَّ كلّ مُدركٍ مشروطٌ بداهةً a priori بشكلِهِ ولا يمكن أن يبلغ ذاك الذي تعنيه الكلمات ... وهذا المجهول ignorabiumus متطابقٌ أيضاً مع حدسِ كلِ إنسانٍ حكيم، هذه المبادئ المجرَّدة للحياةِ مقبولةٌ فقط بوصفها تشبيهات، حِكَماً مبتذلة للاستخدام اليومي تتدفَّق الحياة من تحتها، كما فعلت دائماً، قُدُماً. وفي النهاية،

العِرْقُ أقوى من اللغات، ولهذا من بين الأسماء العظيمة كلها، المفكِّرون - وهم ذواتٌ متميِّزة - وليس أنظمةً، وهي تتغيَّر، هم الذين أثَّروا في الحياة "

" تصبحُ الحياةُ الإنسانيةُ نفيسةً إكراماً للآلة. ويصبحُ العملُ أعظمَ كلمة في الفكر الأخلاقي: في القرن الثامن عشر تفقد معناها الضمني المنتَقَص في اللغات كافة. إن الآلة تصوغ الإنسان وتُجبره على التعاون. وتصل الحضارة بأكملها إلى درجةٍ من النشاطِ بحيث تأخذُ الأرضُ تهتزّ من تحتها ... وهذه الآلات تصبح في أشكالها أقلّ إنسانية باطِّراد، وأكثر زهداً، وصوفيّة، وفئوية ... لقد شعرَ الإنسانُ أنَّ الآلة شيطانيّة، وهو على حقّ في ذلك. مما يعني في نظر المؤمن عَزْلَ الله عن عرشه. وهي تنقُل إلى الإنسان السببيّة المقدَّسة وبيديه، بنوعٍ من التنبُّؤ بكل شيء، تعمل، صامتةٌ ولا تقاوَم ... "

" لا تُغْلَب القوة إلا بقوَّةٍ أخرى "، وليس بالمبدأ، ولا قوةَ أخرى يمكن أن تواجه سلطةَ المالِ غير هذه القوة. ولا يَغلِبُ المالَ ويفنيه إلا الدم. الحياة هي البداية والنهاية، هي الدَفقُ الكونيّ في شكلِ كونٍ أصغر. إنها حقيقة الحقائق ضمن العالم كتاريخ ... وفي التاريخ دائماً تكون الحياة ووحدها الحياة - العِرق، وانتصارُ إرادة القوة - وليس انتصار الحقائق (truths)، والاكتشافات، أو المال، هي الهامّة. إنَّ العالمَ كتاريخ هو مَحْكَمَةُ العالم، تُصدِر قرارها لصالح حياةٍ أقوى، وأكثر امتلاءً وثقةً في النفس - حَكَمَتْ لصالحها، أي، الحقّ في الوجود، بغضّ النظر عمَّا إذا كانت حقوقها سوف تصمد في وجهِ محكمةِ إيقاظِ الضمير. ولطالما

ضحَّتْ هذه المحكمة بالحقيقة والعدالة لصالح القوة والعِرق، وأنزلَت الموت برجالٍ وشعوبٍ كانت الحقيقةُ فيهم أعلى مقاماً من الأعمال، والعدالةُ أرفعُ من القوة. وهكذا تصلُ دراما حضارةٍ راقيةٍ - ذاك العالم العجائبي من الآلهة، والفنون، والأفكار، والمعارك، والمدن - إلى نهايتها مع عودةِ الحقائق الأصيلة للدم السرمدي الذي هو نفسه الدفقُ الكونيّ الأبدي ..."

" أما بالنسبة إلينا، نحن الذين وَضَعَنا القدرُ في هذه الحضارةِ وفي هذه اللحظةِ من تطوُّرها - اللحظةُ التي يحتفلُ فيها المالُ بآخرِ انتصاراته، وتقتربُ القيصريّةُ التي ستخلفه بخُطى هادئة وثابتة - فقد حُدِّدَ لنا اتجاهنا، وهو إراديٌّ وإلزاميٌّ في وقتٍ واحدٍ، ضمنَ حدودٍ ضيّقةٍ، وأصبحتْ الحياةُ غيرَ قابلةٍ للعيشِ بأي شروطٍ أخرى. إننا لسنا أحراراً في أن نبلُغَ هذا الأمر أو ذاك، لكننا أحرارٌ في أن نفعل ما هو ضروري أو لا نفعلَ أي شيء ... "

" ليس المهمّ أن يكونَ فردٌ أو شعبٌ " في أحسن حال "، وحَسَنَ التغذيةِ ومنتجاً، وإنما المهمّ هو الهدفُ من كونِه كذلك ... وفقط مع مجيء الحضارة، حين يبدأ كاملُ عالمِ الشكلِ بالانحطاط، ويبدأ مجرَّد الحِفاظ على الحياة بالظهور، بوضوحٍ وبإصرار - يكفُّ التشديدُ المبتذلُ على أنَّ " الجوعَ والحبَ " هما دافعا الحياة الوحيدان عن الخجلِ من نفسِه؛ وحين يصبحُ معنى الحياةِ، ليس تعاظُمُ القوةِ لأداءِ الواجب، وإنما تصبح قضية توفير " السعادة لأكبر عدد من الناس "، والراحة والاسترخاء، و " panem et circenses" (أكلٌ ولهو)؛ وبدل السياسة العُظمى تصبح السياسة الاقتصادية هدفاً بحدّ ذاته ... "

أستطيعُ أن أتابعَ إلى ما لا نهاية، وأن أفعلَ كما فعلتُ مراراً كثيرة - أن أقتطفَ وأقتطفَ إلى أن يتكوَّنَ لديّ دفترُ ضخمٌ. لقد مرَّ تقريباً خمس وعشرون سنة منذ أن قرأتُهُ للمرة الأولى! وما زال يسحرني. وبالنسبة إلى الذين يفخرون بأنهم دائماً في الطليعة، فإنَّ ما اقتطفتُهُ كله، بالإضافة إلى ما يكمن بين المقتطفات، قد أصبح الآن " مادة قديمة". وماذا يهمّ؟ بالنسبة إليّ ما زال أوزفولد شبنغلر حياً يُرزَق. لقد أثراني وأنعشني. كما فعلَ نيتشه، ودوستويفسكي، وإيلي فور.

لعلّني أُشبِهُ قليلاً المشعوذ، بما أني قادرٌ على أن أوازِنَ بين عَمَلَين متنافرَين وهامّين مثل "انحدار الغرب" و"طاو تيه تشينغ". أحدهما مصنوعٌ من حجارة الغرانيت أو الرخام ويزنُ طنّاً؛ والآخر خفيفٌ كريشةٍ ويتسرَّبُ من بين أصابعي كالماء. وفي الأبديّة، حيث يتقابلان ويحقِّقان وجودهما، يُلغي أحدُهُما الآخر. وإنسانٌ منفيٌّ كهرمن هسّه يفهمُ هذا النوع من الشعوذة تمام الفهم. ففي كتاب يُدعى "سيدهارتا" يقدِّمُ لنا نسختين من بوذا، المعروف والمجهول. وكلّ منهما كاملٌ على طريقته الخاصة. إنهما نقيضان - بالمفهوم المنهجي والسيميائي. وهما لا يدمِّرُ أحدُهُما الآخر. إنهما يتقابلان ويفترقان. وبوذا هو أحد تلك الأسماء التي " تمسُّ مسَّاً رفيقاً معنى الوعي ". ونسختا بوذا الحقيقيتين لا تحملان أسماء. باختصار، إنَّ المعروفَ والمجهولَ يُحقِّقان توازناً كاملاً. والمشعوذون يفهمون ...

ما أروعَ أن أتذكَّر الآن كيف كانت موسيقى الـ "Untergang" (انحدار) هذا تتطابق بشكلٍ رائع مع حياتي " السرّيّة "! غريبٌ، أيضاً،

أنَّ الشخصَ الوحيدَ الذي كان في استطاعتي حقاً أن أتحدث معه عن شبنغلر هو أوزيكي. أعتقد أننا اجتمعنا ثانية في مطعم جو، خلال إحدى promenades nocturnes (نزهاتي الليلية). كان ما يزال يرسم تكشير الأقزام الغريبة تلك - كانت أسنانه كلها رخوةً وتقرقعُ بصوتٍ أعلى من السابق. ووفقاً لمجرى " الوقائع " كان ما يزال يسيرُ في الاتجاه الخطأ. ولكن كان في إمكانِهِ أن يستوعِبَ الموسيقى الشبنغلرية باليُسر والفِهم نفسيهما اللذين تلقّى بهما موسيقى دوخناني[٢١٢] الذي كان يضمرُ له وَلَهاً. وكان يُبدِّد الليالِيَ الطويلةَ المُملّة بالقراءة في السرير. وقد التهَمَ كل ما له علاقة بالرقم الأساسي، والهندسة، وفن العمارة (عند شبنغلر) كطعامٍ مهضومٍ مُسبقاً. ويجب أن أُضيفَ أيضاً المال. وكان على درايةٍ خارقةٍ بهذا الموضوع. غريبةٌ الغاياتُ التي يُطوِّرُ نحوها" الناشزون " قُدُراتهم! كنتُ حينَ أُنصِتُ إلى أوزيكي يخطر لي أنه سيكونُ ممتعاً أن أُحبَسَ في مستشفى المجانين معه - ومعنا أوزفولد شبنغلر. وما أروعَ النقاشات التي يمكن أن نديرها! ففي العالم الخارجي البارد هذه الموسيقى العظيمة كلها كانت تذهب هباءً. فإذا اهتمَّ النقّادُ والمثقّفون بوجهةِ النظرِ الشبنغلرية حول الأشياء فإنهم لا يفعلون ذلك أبداً على طريقتنا. بالنسبة إليهم كانت مجرَّد عظْمةٍ أخرى ينهشونها. لعلّها عظْمةٌ ألذُّ من المعتاد، لكنها عظْمةٌ على أي حال. أما بالنسبة إلينا فكانت حياةً، بل إكسيرَ الحياة. كنا نثمل بها كلما اجتمعنا. وطبعاً كنا نطوِّرُ لغةَ الإشارات " المورفولوجيّة " المشتركة بيننا. وكنا معاً نستطيعُ أن نُغطّي

---

٢١٢ - إرنو (إرنست) دوخناني (١٨٧٧ - ١٩٦٠) : موسيقي هنغاري. - المترجم

مـساحـاتٍ شاسـعـةً مـن الفكر في أقـصـر مـدةٍ زمنيّـةٍ، بسـبب تلك اللغـة المُشفَّرة. وحالما ينضمّ رجلٌ غريبٌ إلى المناقشة نعجزُ عن التقدُّم. فبالنسبة إليـه كان حديثنا مجرَّدَ كلامٍ غير مفهوم، محضَ هراء.

مع مونـا طوَّرتُ نوعاً آخرَ مـن اللغات. وعبر الإنصات إلى مناجاتي الفردية سرعـان مـا أخذتْ تلتـقطُ الأجزاء النهائيـة البرَّاقـة، المصطلحات الفنيّـة " الضخمة " (بالنسبـة إليهـا) - تعـريفات، معـانٍ، ومـا يُسمَّى بـ "إفـرازات مورفـولـوجيّـة ". كـانت كثيـراً مـا تقرأ صفحـةً أو اثنتين وهي جالسة على كرسي المرحاض. وكانتا تكفيان للخروج بحفنةٍ من العبارات والإسنادات غـيـر المألوفة. باخـتـصـار، تعلَّمتْ أن تُعيدَ رمي الكُرةَ إليّ، وكان ذلك أمراً مُفرحاً ومُحفِّزاً لي. وكل ما كنتُ أطلبُهُ من أي مستمع، حين أندمجُ في الكلام، قَدْراً أدنى من الفَـهْم. وقـد نمَّى طولُ المـمـارسـة عندي فنَّ توجيه المستمع إليّ في المسائل الأساسية، وإعطائه ما يكفيه من الموقف العقلي مـا يسـمحُ لي أن أفـيضَ عليـه كـالنافورة. وهكذا وفي وقتٍ واحدٍ أوجّهه أو أبثُّ فـيـه الحـيـوية - وأُحيُّره. وحين أشعرُ أنه يُحسُّ أنه واقفٌ على أرضـيَّـةٍ ثابتـةٍ أعـمـدُ إلى سحبِ الأرضِ من تحت قـدمـيـه. (ألا يحاولُ مُعلِّمُ عـقـيدةِ الزنّ أن يسلبَ تـلميذَهْ من كلّ مـوطئِ قدمٍ حقَّقه - وذلك لكي يزوِّده بآخرَ ليس موطئاً ثابتاً حقاً؟)

مع مـونا كـان هذا يُثيرُ الحنقَ. وهذا طبـيـعي. ثم تسنحُ لي فـرصـةٌ ممتعةٌ للتـوفيق بين أقـوالي المتناقـضة؛ وكـان هذا يعني التوسُّع، والإتقـان، والتـقطيـر، والتـكثـيف. وبهـذه الطريـقـة صـادفتُ بعض الاسـتنتـاجـات الرائعـة، ليس فـقط حـولَ أقـوال شبنغلر وإنما حـول الفِـكْرِ عـمـومـاً، وحـولَ

عمليةِ التفكيرِ نفسِها. وبدا لي أنَّ الصينيين وحدهم فهموا " لعبة التفكير " وقدَّروها حقَّ قدرها. ولما كنتُ مولعاً بشبنغلر، فإنَّ حقيقةَ تصريحاته لم تبدُ لي قط بأهميّة عَبَثِ فكرِهِ الرائع ... واليوم أقول إنَّ من المؤسف أنه ليسَ هناك نسخة عن خريطةَ بروجٍ للمؤلِّف، توضَع في الصفحة المواجهة لهذه الظاهرة. إنَّ مفتاحاً كهذا ضروريٌ إلى أقصى حدٍّ لفهمِ شخصيةِ هذا العملاقِ المفكِّرِ وطبيعته. حين يفكِّرُ المرءُ في المغزى الذي كان شبنغلر يُحمِّلُ به العبارة - الإنسانُ بوصفه بدوياً مُفكِّراً - يدركُ أنه، من خلال أدائه لمهمَّته الراقية، كادَ يُصبحُ موسى العصر الحديث. كم هي مخيفةٌ أكثرُ بكثير هذه البريّة التي أُجبِرَ " بدوينا المُفكِّر" على الإقامة فيها! لا أرضاً موعودةً تلوحُ في الأفق. لا شيءَ غيرَ الرموزِ الفارغة.

هذه الفجوةُ بين إنسانِ الفَجرِ، الذي ساهمَ بشكلٍ مُبهمٍ، والإنسانِ المعاصرِ، العاجزِ عن التواصُلِ فيما عدا من خلالِ العقلِ العقيمِ، لا يمكن عبورها إلا بإنسانٍ جديد، إنسانٍ ذي وعيٍ كونيّ. والحكيمُ، والنبيُّ، والرؤيويُّ، كلهم يتكلّمون بتعابير رؤيويّة. ومنذ الأزمان المبكر و "النخبة" تحاولُ أن تُحقِّقَ اقتحاماً. وقد فَعَلَ البعضُ ذلك بدون أدنى شك - وسوفَ يبقون إلى الأبدِ خارجَ مصيدةِ الفئران.

إنَّ مورفولوجيا التاريخ، على الرغم من كونها فعّالةً، ومثيرةً، ومُلهِمةً، ما زالت تُمثِّلُ عِلْمَ الموت. إن شبنغلرَ لم يكن يهتمُّ بما يكمُنُ بعد التاريخ. أنا موجود. الآخرون موجودون. وحتى لو كانت النرفانا مجرَّدَ كلمة، فإنها كلمةٌ حُبلى، حُبلى بوعد. وذلك" السرّ " الذي يكمنُ

في قلبِ العالمِ قد يُجَرُّ إلى العَلَن. وإن كان قبل عصورٍ بعيدة قد أُعلِنَ أنه سرٌ " مُعلَن ".

إذا كان حلُّ لغزِ الحياةِ هو بعيشِها ، فلنعِشْها إذن، لنعِشْها بغزارةٍ أكبر! إنَّ سادةَ الحياةِ لا يوجَدون في الكتب. إنهم ليسوا شخصيات تاريخية . إنهم يسكنون في الأبدية ويتوسَّلون إلينا كي ننضمَّ إليهم، في الأبدية.

بالقربِ مني، وأنا أكتبُ هذه الأسطر، صورةٌ فوتوغرافيةٌ ممزَّقةٌ من كتابٍ، صورةٌ لحكيمٍ صينيّ مجهول يعيشُ اليوم. فإمّا أنَّ المصوِّرَ لم يعرف صاحبها أو أنه حَجَبَ اسمه. ونحن نعرفُ فقط أنه من بيكين: هذه هي كل المعلومات المُعطاة. وحين أُديرُ رأسي لأنظرَ إليه، أشعرُ وكأنه موجودٌ فعلاً في الغرفة. إنه أكثرُ حياة - حتى وهو في صورة - من أيٍ ممَّن أعرفهم. إنه ليس ببساطة " إنسانٌ روحانيٌ " - إنه روحٌ كلّه. بل أكادُ أقولُ، إنه الروح ذاتها. كل هذا متمركزٌ في تعبيرِ وجهه. النظرةُ التي يرسلها تطفحُ بالبهجة والضياء. إنها تقولُ دون مواربة: " الحياة نعيم! "

أتظنُّ أن مورفولوجيا التاريخ تعني له أي شيء، وهو في عليائه - جليلٌ، خفيفٌ كطائر، متلفِّعٌ بالحكمة؟ هنا لا مجالَ لمبادلةِ وجهةِ نظرِ الضفدعِ بتلك التي للطائر. هنا لدينا وجهةُ نظرِ إله. إنه " موجود " وموقعُهُ غير قابلٍ للتبدُّل. وبدلَ أن يحملَ وجهةَ نظرٍ ينطوي على حب. إنه لا يعظُ حكمةً - إنه يشعُّ نوراً.

أتظنُّ أنه فريد من نوعه؟ أنا لا أظنُّ ذلك. أعتقد أنه في كل أرجاء العالم، وفي أشدّ البقاع غرابة (طبعاً) ، هناك أناسٌ - أو آلهة - مثل

هذا المخلوق المُشعّ. ليسوا مُبهَمين، بل شفّافين. لا يلفُّهم أي غموض، إنهم في العراء، " مرئيون " دائماً. فإذا كنا بعيدين عنهم فذلك فقط لأننا لا نستطيعُ أن نَقْبَلَ بساطَتَهم القدسية. نقولُ إنهم " كيانات وضّاءة"، ومع ذلك لا نتساءلُ أبداً بماذا هم مضاؤون. إنه التوهُّج بالروح (أي الحياة)، والإشراقُ بفرحٍ لا ينتهي، والتعالي بالصَفاءِ فوق عَمَاءِ العالمِ والبقاءِ مع ذلك جزءاً من العالم؛ إنسانيين، إنسانيين حتى القداسة، أكثرَ من أي كاهن - فكيف لا نتوقُ إلى أن نكونَ هكذا ؟ أهناكَ دورٌ أفضلُ من هذا، وأعمقُ، وأغنى وأشدُّ تأثيراً ؟ إذن اصرخوا من فوق الأسطح! نريد أن نعرفَ، ونريدُ أن نعرفَ فوراً.

لستُ بحاجةٍ إلى أن أنتظر جوابك؛ إنني أرى الجوابَ متمثّلاً في كل شيء من حولي. هو ليسَ بالضبط جوابٌ - هو تملُّصٌ. وصاحبُ الصورةِ الشهيرِ الواقفِ بقربي ينظرُ إليّ مباشرةً: إنه لا يخشى التحديقَ إلى وجهِ العالم. لم يرفضْ العالمَ ولا أنكره: إنه جزءٌ منه، تماماً كما أنَّ الحجرَ والشجرةَ، والحيوانَ، والزهرةَ والنجمَ أجزاءٌ منه. إنه، في كينونته، هو العالم، كل ما يمكن أن يوجدَ منه ... حين أنظرُ إلى المحيطين بي لا أرى إلا صوراً جانبيةً لوجوهٍ تشيحُ بأبصارها، تحاولُ أن تتفادى النظرَ إلى الحياة - فهي فظيعةٌ جداً أو مرعبة جداً، هذا جداً أو ذاك جداً. إنها لا ترى إلا تنّينَ الحياةِ المُفزع، وهي عاجزةٌ في مواجهة الوحش. ليتها تتحلّى بالشجاعة لتنظرَ مباشرةً إلى فَكّي التنين!

إنَّ ما يُسمَّى بالتاريخ يبدو لي من نواحٍ عدَّة ليس أكثرَ من إظهارٍ لهذا الموقفِ الخائفِ من الحياة. من الممكن أنَّ ما ندعوه بـ " التاريخي "

سيختفي، سيمَّحي من الوعي، حالما نخطو تلك الخطوة البطوليّة البسيطة المتمثِّلة في " أنظر أمامك! ". إنَّ ما هو أسوأ من النظرِ خلفاً إلى العالمِ هو النظرُ بانحرافٍ.

حين نتحدَّثُ عن رجالٍ " يصنعون التاريخ " إنما نقصدُ أن نقولَ إنهم غيَّروا إلى حدٍ ما مسارَ الحياة. لكن الرجلَ الذي إلى جواري تجاوزَ مثل تلك الأحلام البلهاء. إنه يعرفُ أنَّ الإنسانَ لا يُغيِّرُ أي شيء - ولا حتى حياته الخاصة. إنه يعرفُ أنَّ الإنسانَ يستطيعُ أن يفعلَ شيئاً واحداً ووحيداً، وأنَّ هذا هو هدفه الوحيد في الحياة - افتحْ عينيّ روحك! نعم، الإنسانُ مُخيَّرٌ - إما أن يسمحَ للنورِ بالدخولِ أو يتركَ المصاريعَ موصدة. وعندما يختارُ الإنسانُ فإنه يقومُ بفعلٍ. وهذا هو دوره في مواجهة الخلق.

افتح عينيكَ واسعاً فيخمدُ الضجيجُ. وحين يخمدُ الضجيجُ تبدأ الموسيقى الحقيقية.

إنَّ التنّين الذي يزأرُ قاذفاً النارَ والدخان من منخريه يعملُ فقط على طردِ خوفه. والتنين لا يقفُ حارساً عند قلب العالم - إنه يقفُ عند مدخل كهف الحِكْمَة. ولا وجودَ واقعياً للتنين إلا في عالمِ التطيُّر الوهمي.

ثم هناك إنسانُ المدنُ الكبرى، المتشرِّد، الذي يقتُلُه الحنينُ إلى الوطن. وكم من صفحةٍ تقطع نياط القلب يخصِّصها شبنغلر للكلام عن مأزق " البدوي المفكِّر "! إنه بلا جذور، وعقيم، وشاكّ وبلا روح - متشرِّد ويقتله الحنين حتى أخمصيه. " إنَّ البدائيين يستطيعون أن يتحرَّروا من الأرض ويتجولّوا، أما البدوي المفكِّر فلا يستطيع أبداً. إن

الحنينَ إلى المدينة العظمى أقوى من أي نوعٍ آخرَ من الحنين. والوطن بالنسبة إليه هو أيُ من تلك المدن العظمى، ولكن حتى أقرب القُرى تُعتَبَر منطقة غريبة. إنه يفضِّلُ أن يموت سريعاً على الرصيف على أن "يعود " إلى أرضه الأصلية "

دعني أقولها لك بصراحة - بعد أن " قرأتُه " لم يعُد لأيٍ من وقائعِ العالمِ أي معنى أو أهمية بالنسبة إليّ. الأخبارُ اليوميةُ أضحَتْ بعيدةً نائيةً كنأي نجمِ الكلب. لقد كنتُ في مركز عملية التحوُّل. كل شيء كان " موتاً وتحوُّلاً ".

لم يكن هناك غير عنوانٍ صحفيٍ واحدٌ ظلّ له تأثيره القويّ عليّ، وهو - نهايةُ العالمِ تلوحُ في الأفق! في تلك العبارة المُتخيَّلة لم أشعر بأي تهديدٍ لعالمي الخاص، فقط للعالم " المعروف ". كنتُ أقربَ إلى أوغسطين[٢١٣] مني إلى جيروم[٢١٤]. لكني لم أكن بعدُ قد عثرتُ على قارتي المجهولة. وموقع الإصلاح بالنسبة إليّ كان غرفةٌ صغيرةٌ مفروشةٌ سيئة التهوية. عرفتُ فيها وأنا وحدي ضرباً غريباً من السكينة. ليس "سكينةً تتجاوزُ الفهمَ ". أوه، كلا! بل نوع متقطِّع، بشيرٌ بسكينةٍ أعظم، وتدوم أطول. كانت " سكينةَ إنسانٍ قادرٍ على التصالُح مع العالم في الفكر.

على أي حال، كانت خطوة. والفرد المثقَّف نادراً ما يتجاوزُ هذه المرحلة.

---

٢١٣ - القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) : لاهوتي دعا إلى تدمير روما وبناء مدينة الله . - المترجم

٢١٤ - القديس هيرونيموس جيروم (٣٤٢ - ٤٢٠ ؟) : تثقَّفَ في روما ، ثم اعتزل في الصحراء، وأخيراً استقرَّ في بيت لحم . - المترجم

الحياةُ الأبديةُ ليست الحياةَ ما بعد الموت، ولكنها الحياةُ الروحيةُ الحقّ، يقولُ الفيلسوف. ما أطول الوقت الذي استغرقتُهُ لأدركَ الأهميّة الكاملة لذاك القول! ... لقد شَغَلَ موضوع " النهاية "، وموضوع إقامة مملكة الله على الأرض هذا قرناً كاملاً من الفكر الروسي (القرن التاسع عشر). ولكن في أميركا الشمالية بدا وكأنَّ أولئك المفكّرين والباحثين عن حقيقةِ الحياةِ الفعليةِ، لا وجودَ لهم. صحيحٌ أنَّ قذيفةً تنفجرُ بيننا أحياناً، وأحياناً أخرى نتلقّى رسالةً من شاطئٍ ناءٍ، لكن مثل هذه الأحداث كانت تُعتَبَر ليس فقط غامضة، وغريبة الأطوار وأجنبية، وإنما كضربٍ من السحر. وهذا النعتُ الأخيرُ كان يعني أنها لم تعد صالحةً للاستخدام أو للتطبيق في الحياة اليومية.

إن قراءتي لشبنغلر لم تكن بالضبط ترياقاً شافياً؛ كانت أقربَ إلى التدريبِ الروحي. وقد كان لنقدِ الفكْر الغربي الذي يشكّلُ أساسَ نمطه الالتفافيّ عليَّ الأثرَ نفسه الذي كان للكوان[٢١٥] على مُريد الزن. وكنتُ أصلُ مراراً وتكراراً إلى حالة الساتوري[٢١٦] على طريقتي الغربية الخاصة. وعرفتُ مراراً ومَضات التنوير التي تُعلن عن الاختراق. ومررتُ بلحظاتٍ مكثّفةٍ رأيتُ خلالها الكونَ كأنه آلة أكورديون، أستطيعُ أن أراه كذرّةٍ متناهيةٍ في الصغَر أو أن أُمدَّه إلى ما لا نهاية، بحيث لا تشمله إلا عينُ الله. وحين أدقّقُ النظرَ إلى نجمٍ خارج نافذتي أستطيع أن أضخّمه عشرة آلاف مرة، وأستطيع أن أحلّقُ متنقّلاً من نجمٍ إلى نجم

---

٢١٥ – الكوان : في البوذيّة ، اللغز الذي ليس له حل منطقي . – المترجم .

٢١٦ – الساتوري : لحظة التنوير الحدسي المفاجئة ، في البوذية .– المترجم

كملاك، وطوال الوقت أحاولُ أن أقبضَ على الكونِ وهو في تلكَ الأبعادِ السوبر-تلسكوبية. بعد ذلك أعودُ إلى كرسيّ، وأنظرُ إلى ظِفر إصبعي، أو بالأحرى إلى بقعةٍ لا تكادُ تُرى على ظفري، فأرى فيها الكون الذي يحاولُ الفيزيائيُّ أن يخلقه من شبكةٍ ذرِّيةٍ من العدم. ولطالما أذهلني أن يتمكَّن الإنسان من فهم " العدم ".

منذ زمن بعيد والعالم " المفاهيمي " كان هو العالمُ كلُّه بالنسبة إلى الإنسان. يُسمّيه، يحدّده، يشرحُهُ ... والنتيجة: عذابٌ مقيم. ويمدٍّ الكون أو يُقلِّصه ad infinitum (إلى ما لا نهاية) - مجرَّد لعبة بيتيّة. ويمثِّلُ دور إلهٍ بدلَ أن يحاولَ أن يكونَ الله. ويؤلِّه، ويؤلِّه - وفي الوقت نفسه لا يؤمن بأي شيء. ويتباهى بمعجزاتِ العلم، ومع ذلك يُلقي إلى العالمِ من حوله نظرةَ ازدراءٍ وكأنه خراء. يا للتناقُض المخيف! ينتخِبُ لاختيارِ الأنظمةِ، وأبداً لاختيارِ الرجل. وينكرُ المعجزةَ التي أوجدَها الرجالُ مع تعاقُبِ الأنظمةِ وسمّوها بأسمائهم.

في الليالي الموحشة، وأنا أتفكَّرُ في المشكلة - الوحيدة! كنت أرى بجلاءٍ تامّ العالمَ كما هو، أرى ما هو عليه ولماذا هو كذلك. كنتُ أُصالحُ الفضيلةَ مع الشر، وأتبيَّنُ النظامَ مع القُبحِ المفرطِ، والخلقَ الخالدَ مع العُقمِ التام. كان في إمكاني أن أصبحَ مرهفَ التناغمِ بحيث تكفي نسمةٌ واهنةٌ لتذروني كالغبار. كان عليَّ أن أختارَ - إما الفناءَ الفوريّ أو الحياة الأبدية. كنت متوازناً، وكانت الكفّتان متعادلتين بحيث يكفي مثقالُ ذرةٍ من الهواءِ حتى يختلَّ التوازن.

وفجأةً تُهشِّمُ فكرةٌ مرحةٌ جداً الوضعَ كله. فكرة كالتالية: " مهما

تعمَّقتْ معرفةُ المرءِ بفلسفةٍ عويصةٍ، فإنَّ ذلكَ أشبه بجزءٍ من شعرةٍ تطيرُ في المدى اللامحدود ". هذه فكرةٌ يابانيّة. ومعها يعودُ نوعٌ عاديٌّ أكثر من التوازن. وأعودُ الآن إلى موطئ القدمِ الأشدِّ هشاشة - الأرض الثابتة. تلك الأرض الثابتة التي نقبلها الآن بوصفها خاوية كالفضاء.

قال دوستويفسكي في موقعٍ ما: " في أوروبا كنتُ أنا، أنا وحدي مع اشتياقي إلى روسيا، الحُرّ ". لقد ذاعَ البشارةَ، كإنجيليّ حقيقي، بدءاً بأوروبا. وبعد مائة سنة، أو مائتين، قد يتمُّ إدراكُ كامل فحوى هذا التصريح. وماذا نفعل حتى ذلك الحين؟ سؤالٌ طرحته على نفسي مراراً وتكراراً.

في الصفحات الأولى من الفصل المُعنوَن " مشاكل الحضارة العربية"، يتوقَّف شبنغلر مطوّلاً نوعاً ما عند جانب الإيمان بالآخرة من أقوال يسوع. القسم كله عنوانه " تشكُّل كاذب في التاريخ " هو أنشودة تسبيحٍ بسِفر الرؤيا. فهو يبدأ بصورةٍ شخصيةٍ رقيقةٍ، متعاطفةٍ، ليسوع الناصري في مقابلِ عالمِ عصره. " إنَّ الشيءَ الفريدَ الذي رفعَ المسيحيةَ الوليدةَ فوق كافة الأديان في ربيع الحضارة الغنيّ هو شخصية المسيح ". هكذا يبدأ هذا القسم. ثم يشيرُ إلى أنه في أقوال المسيح لم تكن هناك ملاحظات، ومشاكل ومناظرات في علم الاجتماع. " لم يكن قد وُجِدَ بعدُ أي إيمانٍ غيَّرَ العالمَ ولا واقعةٍ تستطيعُ أن تُفنِّد إيماناً. ليسَ هناك جسرٌ يصلُ ما بين مسار التاريخ و وجود نظام عالمي مقدَّس ... "

بعد ذلك يأتي ما يلي: إنَّ الدِين هو ميتافيزيقيا ولا أكثر - " credo quia absurdum" - وهذه الميتافيزيقيا ليست ميتافيزيقيا المعرفة،

والجدال، والبرهان (التي هي مجرد فلسفة أو تعلُّم)، وإنما هي ميتافيزيقيا تُعاشُ وتُختَبَر - بمعنى، أنها غير قابلة للتفكير بوصفها يقيناً، وما فوق طبيعية بوصفها واقعة، وهي الحياةُ توجد في عالمٍ غير واقعي، لكنه حقيقي. إنَّ يسوعَ لم يعُش لحظةً واحدةً في أي عالمٍ آخر غير هذا. وهو لم يكن داعية أخلاقي، واعتبارُ الدعوةِ إلى الأخلاقِ الهدف النهائي للدين هو جهلٌ بماهيّة الدين ... وتعاليمه كانت إعلاناً، ليست أكثر من إعلانٍ عن تلك الأشياء الأخيرة التي كان دائماً مترعاً بصورها: كفجرِ عهدٍ جديد، وقدومِ المبعوثين السماويين، ويوم الدينونة الأخيرة، والسماء الجديدة والأرض الجديدة. ولم يكن لدى يسوع أبداً أي تصوُّرٌ آخر للدين، ولا وُجِدَ في أي فترة يسودها شعورٌ عميقٌ من التاريخ... " إنَّ مملكتي ليست من هذا العالم "، ووحده الذي يستطيع أن يحدِّق إلى الأعماق التي يُضيئها الوميض في إمكانه أن يفهم الأصوات التي تتصاعدُ منها "

عند هذه النقطة يبوحُ شبنغلر بازدرائه لتولستوي الذي " ارتفعَ بالمسيحية البدائية إلى مرتبة الثورة الاجتماعية ". وهنا يلمِّحُ تلميحاً ثاقباً إلى دوستويفسكي الذي " لم يفكِّر أبداً في الإصلاحات الاجتماعية " ("فما الفائدة التي ترجوها روح الإنسان من إلغاء المِلْكيّة؟ ")

إنه دوستويفسكي ومفهومه عن " الحرية " ...

أليس في فترة وجود تولستوي ودوستويفسكي سألَ روسيٌّ آخر - "لماذا من الحماقة أن نؤمن بمملكة السماء ومن الذكاء أن نؤمن بالمدينة الفاضلة الأرضية؟ "

لعلَّ الجوابَ على هذا اللغز المُحيِّر قد وردَ عن غير قصدٍ على لسان بلينسكي حين قال: " إنَّ مصيرَ الموضوعِ، أو الفردِ، أو الشخصِ هو أهمُّ من مصيرِ العالمِ بأسرهِ ورخاءِ الإمبراطور الصيني "

على أي حال، إنَّ فيدوروف دون أدنى شك هو الذي قال بهدوء: "إنَّ كلَّ شخصٍ مسؤولٍ عن العالمِ بأسرِهِ وعن الناسِ أجمعين "

ما أغربها من فترةٍ وأشدَّ إثارتها في " أرض المعجزات المقدَّسة " بعد مولد يسوع المسيح وموته بتسعة عشر قرناً! رجلٌ يؤلّف كتاب اعتذار رجل مجنون؛ ويؤلِّفُ آخر تعاليم ثوريّة، وآخر ميتافيزيقيا الجنس. وكل واحد منهم ثوريّ بحد ذاته. وقد علمتُ عن إحدى الشخصيات أنها " محافظة، وصوفية، وفوضوية، وأرثوذكسية، وتؤمن بالسحر، ووطنية، وشيوعية - وأنهت حياتها في روما ككاثوليكية وفاشستية ". فهل هذه فترةٌ " من التشكُّل التاريخي الكاذب "؟ لا شك في أنها فترةٌ رؤيويّة.

إنَّ سوءَ حظي، من الناحيةِ الميتافيزيقيةِ، يتمثَّل في أني لم أُولد في زمن يسوع ولا في روسيا المقدسة في القرن التاسع عشر. لقد ولدتُ في مدينةٍ عظمى عند الطرَف النهائي لتجمُّع شاسع. ولكن حتى في ضواحي حي بروكلن، وفي الوقت الذي بلغتُ سنَّ الرشد كان يمكن أن يشير المرء ترجيع صدى الهياج السلافي. لقد نشَبَت حربٌ عالمية وتمَّ إحراز النصر فيها (كذا!) والحرب التالية كان يتمُّ الإعدادُ لها. في تلك الروسيا بالذات التي أتحدَّثُ عنها كان يوجد سَلَفٌ لشبنغلر لن تجدَ له أي ذكر حتى في يومنا هذا. حتى نيتشه كان له سَلَفٌ في روسيا!

أليس شبنغلر مَنْ قال إن روسيا دوستويفسكي سوف تنتصر في النهاية؟ ألم يتنبَّأ أنه من تلك التربة اليانعة سوف ينبت دينٌ جديد؟ مَنْ يُصدِّق هذا اليوم؟

الحرب العالمية الثانية أيضاً " نشبت وتمَّ الانتصار فيها " (!!!) وما زال يوم الدينونة بعيداً نائياً. وثمة سِيَرٌ ذاتية عظيمة، تتنكَّر بشكلٍ أو بآخر، تكشف عن الحياة في حقبةٍ معيَّنةٍ، عن شعبٍ معيَّن بأكمله، نعم، وعن حضارةٍ معيَّنة. وكأنَّ شخصياتنا البطولية أقامت أجداثها بنفسها، ووصفتها بحميمية، ثم دفنت نفسها في مدافنها التي صنعتها بأيديها. لقد تلاشى المشهد الجليل. الجوّ يخصُّ الطيور المدمِّرة العملاقة. وسرعان ما ستخوض وحوش لوياثان يبثُّ مرآها رعباً أشدّ مما تثيره تلك الموصوفة في الكتب الجيدة، ستخوض في المياه. ويزداد التوتُّر، ويزداد، ويزداد. حتى في القُرى يزداد السكان شبهاً أكثر فأكثر، في الشعور والروح، بالقنابل المُجبَرين على صنعها.

لكنَّ التاريخَ لن ينتهي حتى بعدما يحدثُ الانفجارُ الهائل. ما زال أمام الحياة التاريخية للإنسان مشوار طويل. والوصول إلى تلك النتيجة لا يتطلَّب عالماً في الماورائيات. وحين كنتُ أجلس في تلك الحُفرة في الجدار وأنا هناك في بروكلن قبل خمس وعشرين سنة كنتُ أشعر بنبض التاريخ يخفق في وقتٍ يعود حتى السلالة الثانية والثلاثين لربنا.

ومع ذلك، إنني ممتن أيما امتنان لأوزفولد شبنغلر لأنه أنجزَ هذا الإبداع الغريب - واصفاً بدقَّة جوّ الشلل الفظيع الذي هو شللنا، وفي

الوقت نفسه يُهشِّم كامل عالم الفكر المتصلِّب الذي يُغلِّفنا، وبهذا يُحرِّرنا - على الأقلّ في الفكر. وفي كل صفحة، بلا مبالغة، تجد هجوماً على العقائد والأعراف، والخزعبلات ونمط التفكير التي ميَّزت المائة سنة الأخيرة من " العصر الحديث "، وإطاحةً بالنظريات والأنظمة مثل لعبة القناني الخشبية، وتدميراً شاملاً لكامل مفاهيم الإنسان الحديث. وما يظهر بعد ذلك ليس أطلالُ ثقافة الماضي وإنما عالمٌ مخلوقٌ من جديد يمكن للإنسان أن " يُساهم " في بنائه مع أسلافه، ويعيشُ من جديد ربيع، وخريف، وصيف، وحتى شتاء، تاريخ الإنسان. وبدل أن يمشي متعثِّراً خلال تراكمات جليدية يحمله تيارٌ من النسغ والدم. حتى قبَّة السماء يُعادُ تنظيمها. هذا هو انتصار شبنغلر - أنه جعلَ الماضي والمستقبل يعيشان في الحاضر. ويجد المرءُ نفسه من جديد في مركز الكون، تُدفئه نارٌ شمسية، وليس على السطح الخارجي يكافحُ ليتجنَّب الدوار، يكافحُ لإبعاد الخوف من الهوة السحيقة التي لا يُعرَفُ لها قرار.

هل يهمّ كثيراً إن كنا أُناسَ النهايةِ الأخيرةِ وليسَ البداية؟ لا يهمّ إذا أدركنا أننا جزء من شيءٍ يمرُّ بعمليةٍ أبديةٍ، بغليانٍ أبدي. لا شك في أن هناك شيئاً مريحاً لنا أكثر بكثير ينبغي أن نعيه، إذا ما ثابرنا على البحث. ولكن حتى هنا، عند العتبة، يكتسبُ المشهدُ المتغيِّر جمالاً خصباً. نلمحُ نموذجاً هو ليس قالباً. ونعلمُ مرة أخرى أن عمليةَ الموتِ لها صِلة بالأحياء وليس بجثثٍ تمرُّ بمراحلَ متبدِّلة من التحلُّل. الموت هو "رمزٌ مضاد ". الحياة هي كل شيء، حتى في المرحلة النهائية. ولا شيء في أي مكانٍ يدلُّ على أنَّ الحياةَ سوف تتوقَّف.

نعم، لقد كنتُ رجلاً محظوظاً لأني عثرتُ على أوزفولد شبنغلر في تلك اللحظة بالذات من سياق الزمن. ويبدو أني في كل فترة حرجة من حياتي صادفتُ المؤلِّفَ المطلوبَ لدعمي. نيتشه، دوستويفسكي، إيلي فور، شبنغلر: ما أروعه من رباعي! كان هناك آخرون، طبعاً، كانت لهم أهميتهم في لحظاتٍ معيَّنةٍ، ولكنهم لم يكونوا يتَّصفون بسِعة أفق، وعَظَمة أولئك الأربعة. إنهم فرسان رؤياي الخاصة الأربعة! كل واحد منهم يُعبِّر حتى الزبى عن خاصيته الفريدة: نيتشه مُحطِّم الأصنام، ودوستويفسكي قاضي التحقيق العظيم، وفور الساحر؛ وشبنغلر صانع الأساليب. أي صرح!

في الأيام المقبلة، حين سيبدو كأني قد دُفنتُ، حين تُهدِّد قبة السماء نفسها بأن تنهار فوق رأسي، سوف أُضطرُّ إلى أن أتخلَّى عن كل شيء ماعدا ما زرعه ذوو الأرواح السامية أولئك فيَّ. سوف أتحطَّم، وأُهانُ، وأُذلُّ. سوف أُحبَط في كل نسيجٍ من كياني. بل إني سوف أتعوَّد على النباح ككلب. لكني لن أضيع ضياعاً كاملاً! في نهاية المطاف سوف يطلع فجرُ يوم أستطيعُ فيه، وأنا أستعرضُ حياتي الخاصة وكأنها قصةٌ أو تاريخ، أن أتبيَّن شكلاً، نموذجاً، معنى. بعد ذلك سوف تصبح هزيمة العالم بلا معنى. وسوف يكون من المستحيل أن تحدث انتكاسة.

ذلك أني في ذلك اليوم سأتَّحدُ مع خلقي وإلى الأبد.

في يومٍ آخر، في أرضٍ أجنبية، سوف يظهرُ لي شابٌ ويُلقِّبني بـ"الصخرة السعيدة"، بعد أن يعي التغيُّر الذي طرأ عليَّ. وهذا هو

اللقب الذي سأقدِّمه حين سيسألني خالقُ الكون العظيم - " مَنْ أنت؟ "

نعم، سأجيبُ دون أدنى شك: " أنا الصخرة السعيدة! "

وإذا ما سُئلتُ - " كيف وجدتَ الحياةَ على الأرض؟ " - سأُجيب: "كانت حياتي صَلْباً وردِيّاً مطوّلاً "

أمَّا عن معنى هذا، وإن لم يكن واضحاً أصلاً، فسيوضَّح. فإذا فشلتُ فلستُ أكثر من كلبٍ في المذود.

في وقتٍ من الأوقات حسبتُ أني تأذَّيتُ كما لم يتأذَّ أحد. ولأني شعرتُ هكذا أقسمتُ على أن أؤلِّف هذا الكتاب. ولكن قبل أن أباشرَ الكتابة بوقتٍ طويل التأمَ الجرحُ. ولما كنتُ قد أقسمتُ على أن أُنجِزَ مهمَّتي أعدتُ فتحَ الجرح الفظيع.

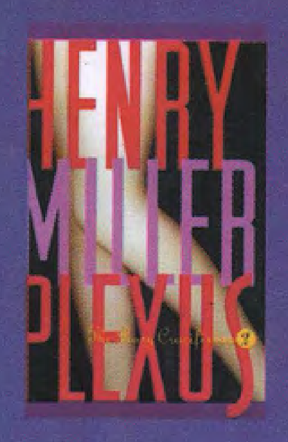
دعني أُعبِّر بأسلوبٍ آخر ... لعلِّي بفتحي الجرح، جرحي أنا، أغلقتُ جروحاً أخرى، جروحَ أناسٍ آخرين. شيءٌ يموتُ، وشيءٌ يُزهِر. إنَّ المعاناة مع جهلٍ أمرٌ رهيب. أمَّا المعاناة عن عمد، من أجل فهمِ طبيعةِ المعاناةِ وإلغائها إلى الأبد، فمسألةٌ مختلفةٌ تماماً. لقد ظلَّ بوذا يُركِّز طوال حياته على فكرةٍ واحدةٍ، كما نعلم، وهي القضاءُ على المعاناة الإنسانية.

إن المعاناة ضرورية. ولكن لابد للمرء من أن يعاني قبل أن يتمكَّن من إدراك أنَّ الأمرَ هو كذلك. وزيادة على ذلك فحينئذٍ فقط يتجلَّى المغزى الحقيقي للمعاناة الإنسانية. في لحظةِ اليأس الأخيرة - حين لا يعود في إمكان المرء أن يصبر على المعاناة! - يحدثُ أمرٌ هو من قبيل المعجزة،

فالجرحُ الكبير المفتوح الذي كان ينزفُ عُصارةَ الحياة يندملُ، ويُزهرُ الكائن الحيُّ كوردة. و " يتحرَّر " المرءُ أخيراً، ليسَ مع " توقٍ إلى روسيا "، وإنما مع توقٍ إلى مزيدٍ من الحرية، مزيدٍ من النعيم. إنَّ شجرة الحياة تبقى حيَّةً ليس بالدموعِ وإنما بمعرفةِ أنَّ الحريةَ حقيقيةٌ وتدوم إلى الأبـــــد.

— انتهى —

لوحة الغلاف: هنري ماتيس



" كتابٌ شاسعٌ ، متفجِّرٌ ، كشلال مضطرب . . . سوف تضحك وتبكي مع ميللر ؛ سوف تحتجُّ على شطحا ته المُحلِّقة ، وستشعر بالتقزُّز من فحشه العَرَضيِّ وستغمرك فقراتٌ تتَّصفُ بجمالٍ غنائيٍّ هائل . لا يمكنك أبداً أن تشعر بالملل إلاّ إذا كنتَ تملّ الحياة نفسها "

صحيفة " أكسفورد ميل "

" إنَّ الأدبَ الأميركيَّ يبدأ وينتهي بمغزى ما أنجزه ميللر "

الكاتب لورانس دريل .

" إنه كتابٌ غامرٌ بتأثيره ، وبحيويّته ، وغالباً بصراحته المخيفة والقابلة للقراءة إلى درجةٍ مُخدِّرة "

صحيفة " سنْفير "

" إنني أعتبر هنري ميللر أستاذاً "

الكاتب كولن ماكينس .

" بليكسوس " هي الرواية الثانية في ثلاثيّة ميللر الضخمة " الصلْب الورديّ " ، المبنيّة على أساس سيرته الذاتية .


ISBN:2-84305-631-X
9 782843 056314